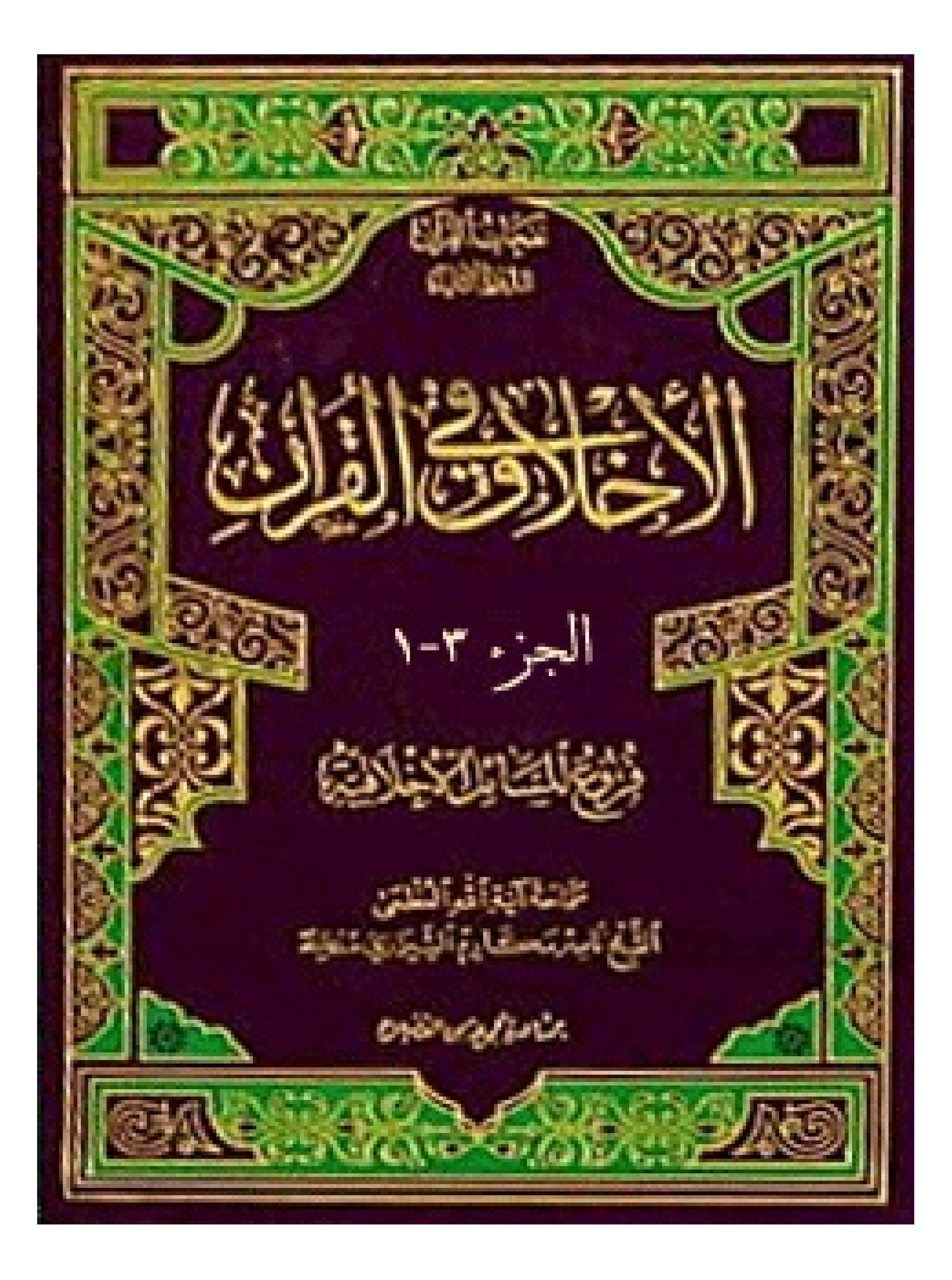


الأخلاق في القرآن
الجزء ١-٣


بسم الله الرحمن الرحیم

الاخلاق فی القرآن

کاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الاخلاق فی القرآن

اشارهٔ

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، ۱۳۰۵ – عنوان و نام پدیدآور : الاخلاق فی‌القرآن/ناصر مکارم‌شیرازی ؛ لمساعده مجموعه من‌الفضلاء ؛ تعریب‌الموسسه‌الاسلامیه‌للترجمه. مشخصات نشر : قم: مدرسه‌الامام علی‌بن‌ابی‌طالب (ع ۱۴۲۵ ق ۱۳۸۴. مشخصات ظاهری : ۳ج. فروست : نفحات‌القرآن؛ الدوره‌الثانیه. شابک : ۹۰۰۰۰ ریال: دوره ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۷-X ؛ ج.۱ ۹۶۴-۸۱۳۹-۰۵-۹ ؛ ج.۲ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۶-۱ ؛ ج.۳ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۵-۳ ؛ ۸۰۰۰۰ ریال (دوره، چاپ دوم) یادداشت : عربی. یادداشت : عنوان اصلی: پیام قرآن دوره دوم: اخلاق در قرآن. عربی. یادداشت : ج. ۳(چاپ سوم: ۱۴۲۸ق=۱۳۸۶). یادداشت : ج. ۱ – ۳ (چاپ دوم: ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۵). یادداشت : کتابنامه. مندرجات : ج.۱. اصول‌المسائل‌الاخلاقیه. –ج.۲-۳. فروع‌المسائل‌الاخلاقیه. موضوع : قرآن -- اخلاق موضوع : اخلاق اسلامی موضوع : احادیث اخلاقی -- قرن ۱۴ شناسه افزوده : موسسه اسلامی ترجمه شناسه افزوده : مدرسه‌الامام علی‌بن ابی‌طالب (ع). رده بندی کنگره : BP۱۰۳/۳/م۷پ۹۰۴۳ ۱۳۸۳ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹ شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۵۳۴۰۹

الجزء الأول

المقدّمة:

لا یخفی أنّ المسائل الأخلاقیّة، تحظی بأهمیّةٍ کبیرةٍ فی کلّ زمانٍ، ولکنّ فی عصرنا الحاضر، إکتسبت أهمیة خاصة، وذلک: ۱- إنّ قوی الإنحراف و عناصر الشرّ و الفساد، قد إزدادت فی هذا العصر، أکثر من جمیع العصور السّالفة، فإذا کان التّحرک فی الماضی فی خطّ الباطل و الإنحراف، یکلّف الإنسان مبلغاً من المال، أو شیئاً من الجهد، ففی هذا الزّمان و بسبب التّقدم العلمی والتّطور الحضاری، أصبحت أدوات الفساد فی متناول الجمیع، هذا من جهةٍ: ۲- ومن جهةٍ اخری، إنّنا نعیش فی هذا العصر ضخامة المقاییس، فبینما کانت المقاییس والموازین محدودةً فی الماضی، و بتبع ذلک نری محدودیّة المفاسد الإجتماعیة والأخلاقیّة، فإنّ القتل فی هذا الزّمان بسبب أسلحة الدّمار الشّامل، والفساد الأخلاقی بسبب انتشار أشرطة الفیدیو والسّینما الخلیعة، وکذلک ما یفرزه «الأنترنیت» من معلوماتٍ فاسدةٍ، و یضعها فی متناول الجمیع، کلّ ذلک یحکی عن إنفجار فی دائرة الفساد و الإنحراف، و کسر القوالب الضّیقة الّتی کانت تحدد قوی الباطل فی الماضی، لیسری إلی خارج الحدود، و یصل إلی أقصی بقعةٍ فی العالم. وإذا کان إنتاج المواد المخدّرة فی السّابق، ینحصر بقریةٍ أو منطقةٍ محدودةٍ، و لا یتجاوز ضرره سوی المناطق المجاورة، فالیوم نری أنّ الابتلاء بمرض الإدمان، و من خلال عملیّة التّهریب الواسعة لعصابات الموت، قد غطی أجواء العالم أجمع. ۳- ومن جهةٍ ثالثةٍ، أنّنا نشاهد توسّعاً هائلًا فی العلوم النّافعة لِلبشر، فی مختلف جوانب الحیاة فی علوم الطّب و الفضاء، و الإتصالات والمواصلات وأمثال ذلک، و کذلک الحال فی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶ العلوم الشّیطانیة ووسائل الفساد و الإنحراف، حیث تطورت بشکل مذهلٍ، الی حدٍ إنّ القوی الشیطانیّة التی تقف وراء إنتاج أدوات الإفساد الإجتماعی، یتوصلون إلی تحقیق أهدافهم بطرق ملتویةٍ کثیرةٍ و یسیرةٍ، و مثل هذه الظّروف و الأجواء تحتم علینا الإهتمام بالمسائل الأخلاقیة أکثر من أیّ وقت مضی، وإلّا فعلینا أن نتوقّع الکارثة، أو الکوارث التی تشلّ فی الناس إرادة المواجهة، و تحولهم إلی کیاناتٍ مهزوزةٍ أمام حالات الخطر. و یجب علی العلماء الواعین و المفکّرین المخلصین، أن یتحرکوا من موقع التّکاتف فیما بینهم، لتعمیق الأخلاق فی قلوب الناس، و تفعیل عناصر الخیر فی وجدانهم، والإنتباه إلی الخطر المحیط بالأخلاق، بحیث إنّ البعض أنکر فائدتها من الأساس، أو ذهب إلی أنّها غیر ضروریّةٍ، والبعض الآخر تعامل معها من موقع

المصلحة و البرُ اجماتية، للوصول إلى مطامعه السّياسية. ولحسن الحظ فإنّنا كمسلمين، نمتلك مصدراً عظيماً للمعارف الأخلاقيّة، و هو القرآن الكريم، الـذى لا ـ يُدانيه أىّ مصـدر دينى آخر فى العالم. ورغم أنّ العلماء والمفسّـِرين، قـد تناولوا البحوث القرآنيـة فى دائرة الأخلاـق، بـالبحث والدّراسـة، إلّاأنّ هـذه الأبحـاث و الـدراسات جـاءت متفرقـة و لا تفى بالغرض، ولهـذا إفتقرت السّاحـة الثقافيـة و التّفسـيرية، إلى كتابٍ أو كُتبٍ لدراسـة هـذا الموضوع، بالإستيحاء من الآيات القرآنيـة، فكان هـذا الكتاب الـذى بين أيديكم و بإسم: (الأخلاق فى القرآن)، إسـتجابة عمليّـةً لِهـذه الحاجة الماسّة فى حركة الواقع الثّقافى و الدّينى، لسدّ هذه الثّغرة فى صـرح البناء الثقافى والحضـارى للإسـلام. وجاء هـذا الكتـاب، بعـد بحوثٍ و دراسـات فى التّفسـير الموضوعى للقرآن الكريم شـملت المعـارف والعقائد الإسـلاميّة فى دورته الاولى، و لتكون الدّورة الثّانية، مختصّةً ببحوث الأخلاق الإسـلاميّة فى القرآن الكريم. وبحمد اللّه فقد إنتهينا من هـذه الأبحاث الأخلاقية فى ثلاث أجزاء، تناول الجزء الأوّل منها، دراسة المسائل الأخلاقيّة الكليّة فى دائرة الأخلاق، و هذا هو الكتاب الـذى بين أيديكم، الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۷ حيث يمكن الإسـتفادة منه بعنوان كتابٍ درسى للرّاغبين، ويتكفل الجزء الثانى و الثالث، ببيان تفاصـيل هذه المسائل الكليّة و جزئيّاتها ومصاديقها. نأمل أن تكون هذه الأبحاث الأخلاقية، المستوحاة من أجواء القرآن الكريم، خطوة اخرى على طريق حلّ المشاكل الأخلاقيّـة و الثقافيّـة للإنسان، فى حركة الحياة والواقع الإجتماعى، ونسأل اللّه تعالى أن ينظر إليهـا بنظرة القبول، و يجعلها ذخيرةً لنا يوم لا ينفع مالٌ و لا بنون، ونرجو من الاخوة أن يتفضـلوا علينا بإرشادنا إلى موضع النّقص إن وجد. والحمد للّهربّ العالمين ربيع الأول ۱۴۱۹ ه. ق

۱ أهميّة الأبحاث الأخلاقيّة

تنويه:

هـذا البحث يعـدّ من أهم الأبحـاث القرآنيّـة، ويعتبر من أهمّ أهـداف الأنبيـاء كـذلك، إذ لولا ـ الأخلاـق، لمـا فهم الناس الـدّين و لَما إسـتقامت دنيـاهم: و كما قال الشّاعر: وإنما الامم الأخلاق ما بَقيتْ فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذَهبوا فلا يُعتبر الإنسان إنساناً إلّاباخلاقه، و إلّاسوف يصبح حيواناً ضارياً كاسراً، يحطّم و يكتسح كلّ شىء، وخصوصاً و هو يتمتّع بالذّكاء الخارق، فيثير الحروب الطّاحنة، لغرض الوصول لأهـدافه الماديّـة غير المشـروعة، ولأجـل أن يبيع سـلاحه الفتّـاك، يزرع بـذور الفُرقـة و النّفاق ويقتل الأبرياء! نعم، يمكن أن يكون متمـدّناً فى الظّاهر، إلّاأنّه لا يقوم له شـىء، و لا يميّز الحلال من الحرام، ولا يفرّق بين الظّلم و العدل، و لا الظّالم و المظلوم! بعد هـذه الإشارة نعرّج على القرآن الكريم لنسـتوحى من آياته الكريمـة التالية، تلك الحقيقة: ۱- «هُوَ الَّذى بَعَثَ فى الا ـمّيينَ رَسُولًا مِنْهُم يَتلُوا عَلَيْهِمْ آيـاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۰ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَ لالٍ مُبينٍ» «۱». ۲- «لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنينَ اذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَـةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَ لالٍ مُبينٍ» «۲». ۳- «كَمـا أَرْسَـلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُم يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنـا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مـا لَمْ تَكُونُـوا تَعْلَمُونَ» «۳». ۴- «رَبَّنـا وَابْعَـثْ فِيهِـمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُـوا عَلَيْهِمْ آياتِـكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتـابَ وَالحِكْمَـةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الْحَكِيمُ» «۴». ۵- «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» «۵». ۶- «قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَـلّى» «۶». ۷- «وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْـكُرْ لِلّهِ» «۷». الآيات الأربع الأُول: تقرّر حقيقـةً واحـدةً، ألا و هى، أنّ إحـدى الأهداف المهمّة، لبعثة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، هو تزكية النّفوس و تربيّة الإنسان، و بلورة الأخلاق الحسنة، فى واقعه الوجدانى، بحيث يمكن أن يقال: إنّ تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة التى أشارت إليها الآية المباركة الاولى يعُد مقدمة لمسألة تزكية النّفوس وتربية الإنسان، والذى بدوره يشكّل الغاية الأساسيّة لعلم الأخلاق. ولأجل ذلك يمكن تعليل تقدم كلمة: «التزكية»، على: «التعليم»، فى الآيات الثلاث، من حيث إنّ «التّزكيـة» هى الهـدف والغايـة النهائيّة، وإن كان «التّعليم» من الناحية العمليّة مقدمٌ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۱ عليها. وإن نظرنا

«للآيـة الرابعـة»: من بحثنـا هـذا، و تقـديمها لكلمـة التّعليم على التّزكيـة، فهى نـاظرةٌ إلى المسألـة من حيث الترتب العملى الطبيعى لها، بإعتبار أنّ التّعليم مقدمـةٌ «للتربيـة و التّزكية». ولهذا نرى أنّ الآيات الأربع الاولى كلّ منها تنظر إلى المسألة من منظارها الخاص. وليس بعيـداً إحتمـال رأىٌ آخر، من التّفسير فى الآيـات المباركـة الأـربع، وهو أنّ الغرض، من التّقـديم و التّأخير الحاصل لهـذين الكلمتين: (التّربيةُ والتعليم)، بإعتبار أنّ إحداها تؤثّر فى الاخرى يعنى كما أنّ التعليم الصّحيح يكون سبباً فى الصّعود بالأخلاق، و تزكيةُ النّفوس، تكون تزكيـةُ النفوس هى الاخرى مؤثّرة فى رفع المستوى العلمى، لأنّ الإنسان بوصوله للحقيقـة العلميّة، يكون قد تطهر من «العناد» و «الكِبر» و «التّعصب الأـعمى ، حيث تكون الأـخيرة مانع من التّقـدم العلمى، ومعها سوف يُران على قلبه على حـد تعبير القرآن الكريم، ولن يرى الحقيقـة كمـا هى فى الواقع. ويمكن الإشـارة الى نكـات اخرى فى الآيـات الكريمـة الأـربعُ: الآيـة الاولى تشير إلى أنّ بعث رسول يُعلِّم الأخلاـق، هى من علامات حضور البارى تعالى فى واقع الإنسان لتفعيل عناصـر الخير فى وجـدانه، و أنَّ النقطـة المعاكسـة (للتربيةُ والتعليم) هى الضّـلال المبين، فهى تبين مدى إهتمام القرآن الكريم بالسـلوك الأخلاقى للإنسان فى حركةُ الحياة. الآيةُ الثّانية: نجـد فيها أن إرسال رسول يُزكيهم و يُعلّمهم الكتاب و الحكمة، هى من المنن و المواهب الإلهيّةُ العظيمة، التى منّ اللّه بها علينا، وهى دليل آخر على أهميّـةِ الأخلاق. الآيـة الثّالثـة: وهى الآيـة التى نزلت بعـد آيات تغيير القبلـة، من القدس الشّريف إلى الكعبة المشرّفة، حيث عُدَّ هذا التغيير من النّعم الإلهيّة الكبرى وأنّ هذه النعمة هى كإرسال الرسول للتعليم والتّزكية وتعليم الإنسان اموراً لم يكن يعلمها ولن يتمكن من الوصول إليهـا إلّاعن طريق الوحى الإلهى «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۲ الآيةُ الرّابعة: تتحدث عن أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام، و بعد إكماله لبناء الكعبة، طلب من البارى تعالى أن يخلق من ذريّته امّةً مسلمةً؛ و أن يبعث فيهم رسولًا من ذريّته، ليزكّيهم فى دائرة التربيـة الأخلاقيّـةِ، و يعلّمهم الكتاب والحكمـة. الآيـة الخامسـة: نجـد أن القرآن الكريم، وبعد ذكر أحدَ عشرَ قَسَـماً مهماً، وهى من أطول الأقسام فى القرآن،- قسـماً بالشّـمس و القمر و النّجوم و النفس الإنسانية-، و بعد ذلك قال: «قد أفلح من زكّاها وقـد خـاب من دسّاهـا». وهـذا التأكيـد المتكرّر و الشّديـد فى هـذه الآيـات، يـدلّ على أنّ القرآن الكريم، يـولّى أهميّـةً بالغـةً لمسـألة الأخلاـق، و أنّ التّزكيـة هى الهـدف الأـهم للإنسـان، و تكمن فيهـا كـلّ القيم الإنسانيّـةِ، بحيث تكون نجاة الإنسان بها. ونفس المعنى أعلاـه ورد فى: «الآيـة السّادسـة»، و اللّطيف فيها أنّ ذكر التّزكيـة جاء قبل الصـلاة، و ذكر اللّه تعالى، إذ لولا التّزكيـة و صـفاء الرّوح لا يكون للصّلاةِ معنى و لا لـذكر اللّه. وجاء فى «الآيـة الأخيرة»، ذكر لُقمان الحكيم، حيث عبّر عن علم الأخلاق بالحكمـة، فقال: «وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَـةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ». وبالنّظر للآيات الشّريفة، نرى أنّ خصوصيّة: «لقمان الحكيم»، هى تربيةُ النّفوس والأخلاق، ومنها يتّضـح أنّ المقصود من الحكمـة هنا، هو الحكمة العمليّة و تعاليمها المؤدّية إليها، و بعبارة اخرى يعنى: «التّعليم» لأجل «التّربية». ويجب الإنتباه و كمـا ذكرنـا مراراً، إلى أنّ أصـل معنى «الحكمـة» هو لجام الفرس، وبعـدها أطلقت على كلّ شـىء رادعٍ، و بإعتبار أنّ العلوم والفضائل الأخلاقيّة، تردع الإنسان عن الرّذائل فأطلقت عليها هذهِ الكلمة.

النّتيجة:

نسـتوحى من هـذهِ الآيـات، الإهتمـام الكبير للقرآن الكريم بالمسائل الأخلاقيّـةِ وتهـذيب الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳ النفوس، بإعتبارها مسألـةً أساسـيّةً، تنشأ منها وتبتنى عليها جميع الأحكام والقوانين الإسـلاميّة، فهى بمثابةُ القاعدةُ الرّصـينةُ و البناء التحتى، الذى يقـوم عليه صـرح الشّـريعةُ الإسـلاميّة. نعم إنّ التّكامـل الأخلاـقى للفرد و المجتمع، هو أهم الأهـداف الـتى تعتمـد عليه جميع الأديـان السّماوية، إذ هو أساس كلّ صـلاحٍ فى المجتمع، و وسـيلةٍ رادعـةٍ لمحاربـة كلّ أنواع الفساد و الإنحراف، فى واقع الإنسان و المجتمع البشرى فى حركةُ الحياة. والآن نعطف نظرنا إلى الروايات الإسلاميّة، لنرى أهميّةُ هذه المسألةُ فيها:

أهميّةُ الأخلاق فى الرّوايات الإسلاميّة:

لقد أولت الأحاديث الشّريفة لهذه المسألة أهمية بالغةً سواء كانت فی الروايات الواردة عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله، أم عن طريق الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ونورد بعضاً منها: ١- الحديث المعروف عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إنّما بُعثتُ لأُتمَم مكارمَ الأخلاقِ» «١». وجاء فی حديثٍ آخر: «إنّما بُعثتُ لأُتمَم حُسنَ الأخلاقِ» «٢». وجاء فی آخر: «بُعثتُ بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسِنها» «٣». ونرى أن كلمة «إنّما» تفيد الحصر، يعنى أنّ كلّ أهداف بعثة الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، تتلخص فی التّكامل الأخلاقی. ٢- وجاء فی حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال: «لَو كُنّا لا نَرجو جنّةً ولا ناراً ولا ثواباً ولا عِقاباً، لكان يَنبغی لَنا أن نُطالِبَ بِمكارمِ الأخلاقِ فإنّها ممّا تَدُلُّ على سبيلِ النجاحِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج١، ص: ١۴ يبيّن لنا هذا الحديث أهمية الأخلاق وفضائلها، إذ هی ليست سبباً فی النجاة فی الاخرى فقط، بل هی سبب لصلاح الدّنيا أيضاً، (وسنتناول هذا البحث مفصّلًا فی القريب العاجل إن شاء اللَّه تعالى . ٣- الحديث الآخر الذی ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، حيث قال: «جَعَلَ اللَّهُ سُبحانَهُ مكارمَ الأخلاقِ صِلةً بينه وبين عبادِهِ فحسب أَحدِكُم أن يتمسّكَ بخُلقٍ مُتَّصلٍ باللَّهِ» «١». و بعبارةٍ اخرى: أنّ البارى تعالى هو المعلم الأكبر للأخلاق، و هو مربّی النّفوس، ومصدر لكلّ الفضائل، والقرب منه تعالى لا يتمّ إلّابالتّحلی بالأخلاق الإلهيّة. وعلى هذا نرى أنّ كلّ فضيلةٍ يتحلى بها الإنسان، تؤدی إلى تعميق العلاقة بينهوبين ربّه، و تقربه من الذّات المقدّسة أكثر فأكثر. وحياة المعصومين عليهم السلام كلّها تبيّن هذهِ المسألة، فإنّهم كانوا دائماً يدعون إلى الأخلاق، و التّحلی بالفضائل، و هم القُدوة الحسنة فی سلوك هذا الطريق، وسنتطرق فی المستقبل إلى نماذج من أخلاقيّاتهم عليهم السلام، ويكفی شرفاً للرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّ اللَّه تعالى نعته فی سورة القَلم: «وإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ». «٢»

إشارات مهمة:

١- تعريف علم الأخلاق

أخلاق جمع خُلق (على وزن قُفل)، و خُلُق على وزن افُق، وعلى حد تعبير الرّاغب فی كتابه المفردات، أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلى أصلٍ واحدٍ، و هو «خلق» بمعنى الهيئة والشّكل الذی يراه الإنسان بعينه، والخُلق بمعنى القوى و السّجايا الذاتية للإنسان. ولذا يمكن القول بأنّ: «الأخلاق هی مجموعة الكمالات المعنويّة و السّجايا الباطنيّة الاخلاق فی القرآن، ج١، ص: ١۵ للإنسان»، و قال بعض العلماء: إنّ الأخلاق أحياناً تُطلق على العمل و السّلوك، الذی ينشأ من الملكات النفسانية للإنسان أيضاً، (فالأولى الأخلاق الصفاتية والثانية السلوكيّة). ويمكن تعريف الأخلاق من آثارها الخارجيّة أيضاً، حيث يصدر أحياناً من الإنسان فعل إعتباطی ولكن عندما يتكرّر ذلك العمل منه: (مثل البخل وعدم مساعدة الآخرين)، يكون دليلًا على أنّ ذلك الفعل يمدّ جذوره فی أعماق روح ذلك الإنسان، تلك الجذور تسمى بالخُلق والأخلاق. وفی ذلك قال «ابن مِسكَوَيه»، فی كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»: إنّ الخُلق هو تلك الحالة النفسانيّة التی تدعو الإنسان، لأفعالٍ لا تحتاج إلى تفكّر و تدبّر» «١». وهو نفس ما إشار إليه المرحوم الفيض الكاشانی فی كتاب «الحقائق»، حيث يقول: «إعلم أنّ الخُلق هو عبارة عن هيئة قائمة فی النفس، تصدر منها الأفعال بسهولة من دون الحاجة إلى تدبّر وتفكّر» «٢». وعليه قسّموا الأخلاق إلى قسمين: الملكات التی تنبع منها الأعمال و السّلوكيات الحسنة وتسمى «الفضائل»، واخرى تكون مصدراً للأعمال والسلوكيات السّيئة و تسمى الرذائل. ومن هنا يمكن أن نعرّف علم الأخلاق بأنّه: «علمٌ يُبحَث فيه عن المَلكات و الصّفات الحسنة والسيئة وآثارها وجذورها». وبعبارة اخرى «علمٌ يُبحَث فيه عن اسس إكتساب هذهِ الصفات الحسنة، و طُرق محاربة الصّفات السّيئة، و آثارها على الفرد والمجتمع». طبعاً وكما ذكرنا سابقاً، يُطلق على الأعمال و الأفعال النّابعة من هذهِ الصفات أحياناً «الأخلاق»، فمثلًا الشّخص الذی يعيش فی حالةٍ من الغضب والحدّة دائماً، يقال عنه بأنّه ذو أخلاقٍ رديئةٍ، وبالعكس عندما يكون الشّخص كريماً، فيقولون أنّ الشّخص الفلانی يتحلى بأخلاقٍ طيّبةٍ، وفی الحقيقة أن هذين الإثنين هما علّة ومعلول للآخر، بحيث، يطلق

إسم أحـداهما على الآخر. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۶ وعرّف بعض الغربيين الأخلاق بما يُوافق تعاريفنا لها، فمثلًا فى كتاب: «فلسـفة الأخلاق»، لشخصٍ يدعى (جكسون)، و هو أحد فلاسفة الغرب، عرّف الأخلاق فيه بقوله: (علمُ الأخلاق عبارةٌ عن التّحقيق فى سلوك الإنسـان على الصورة التى ينبغى أن يكون عليها) «۱». وللبعض مثل «فولكيه»، رأى آخر فى المسألـة، حيث عرّفوا علم الأخلاق بأنّه: (مجموعة قوانين السّلوك التى يستطيع الإنسان بواسطتها أن يصل إلى هدفه) «۲». هـذا هو كلام اناس لا يعيرون للقيم الإنسانيّة أهميّة، والمهم عندهم الوصول إلى الهدف كيفما كان وكيفما إتّفق، إذ الأخلاق عندهم ليست إلّاوسيلةً تُمكّن الإنسان من الوصول إلى الهدف!.

۲- علاقة الأخلاق بالفلسفة

الفلسفة فى معناها ومفهومها الكلى، تعنى: معرفة العالم بما لـدى الإنسان من قدرة، وبهذا المعنى يمكن أن تدخل جميع العلوم تحت هـذا المفهوم الكلّى، بحيث نرى فى الأعصار السّابقة والقديمة، عندما كانت العلوم محصورةً و معدودةً كانت الفلسفة تلقى الضوء عليها جميعاً، والفيلسوف كان له الباع الطويل فى جميع العلوم، وفى ذلك الوقت قسّمت الفلسفة إلى قسمين: أ- الامور التى لا دخل للإنسان فيها، و التى تستوعب جميع العالم، عدا أفعال الإنسان. ب- الامور التى تنضوى تحت إختيار الإنسان وله دخل فيها، يعنى أفعال الإنسان. فالقسم الأول يسمّى بالحكمة النظريّة، وتقسم إلى ثلاثة أقسام: الفلسفة الاولى أو الحكمة الالهيّة: وهى التى تتناول الأحكام الكلية للوجود والمبدأ والمعاد. ۲- الطّبيعيات: وفيها أقسام مختلفة. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۷ ۳- الرّياضيات: وهى أيضاً لها فروع متعددة. وأما التى تتعلق بأفعال الإنسان، فتسمى بالحكمة العمليّة، وهى بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ۱- الأخلاق والأفعال: التى تكون سبباً فى سعادة أو ضلال الإنسان، و تكون جذورها ومصدرها النفس الإنسانيّة. ۲- تدبير المنزل: وكل ما يتعلق بالعائلة. ۳- سياسة وتدبير المدن: والتى تتناول طرق إدارة المجتمعات البشرية. و هكذا فقد أفردوا للأخلاق حقلها الخاص بها، فى مقابل (تدبير البيت) و (سياسة المدن). وعليه يمكن القول بأنّ علم الأخلاق هو فرع من: «الفلسفة العملية» أو «الحكمة العمليّة». ولكنّ تعدد العلوم فى عصرنا الحاضر دعى للفصل بينها، و غالباً ما تأتى الفلسفة والحكمة، و الفلسفة بمعنى الحكمة النظريّة من نوعها الأوّل، وهى الامور التى تتعلق بالعالم والكون وكذلك المبدأ والمعاد. ويوجد اختلاف بين الفلاسفة، فى أيّهما أفضل: الحكمة النظريّة أم الحكمة العمليّة، فقسم إدّعى الأفضلية للُاولى، وقسم آخر إدّعى الأفضلية لِلثانية، وعند التّدقيق فى مدّعاهم نرى أنّ الإثنين على حق و هذا ليس بحثنا الآن. وسنتعرض لعلاقة الأخلاق بالفلسفة، فى موارد اخرى فى المستقبل، إن شاء اللَّه تعالى.

۳- علاقة الأخلاق بالعِرفان

أمّا بالنسبة لعلاقة (الأخلاق) ب (العرفان) و (السير و السلوك إلى اللَّه)؛ فيمكن القول أنّ العرفان أكثر ما ينظر للمعارف الإلهيّة، ولكن ليس عن طريق العلم و الإستدلال، بل عن طريق الشّهود الباطنى، بمعنى أنّ قلب الإنسان يجب أن يكون كالمرآة الصافية، لدرجةٍ يستطيع فيها أن يرى الحقيقة لتزول عنه الحُجب، وليرى بقلبه الذّات الإلهيّة و أسمائه و صفاته، ومنها يصل إلى العشق الإلهى الحق. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۸ وبما أنّ علم الأخلاق، له اليد الطُولى فى المساعدة على دفع ورفع الرذائل، و التى هى بمثابة الحُجب على القلوب، فمن البديهى أن تكون الأخلاق من اسس ومقدمات العرفان الإلهى وأما «السّير والسّلوك إلى اللَّه»، والذى يكون هدفه النّهائى هو معرفة اللَّه والقرب منه، فهو فى الحقيقة مجموعة من «العرفان» و «الأخلاق»، فما كان من «السّير والسّلوك الباطنى»، فهو نوع من «العرفان»، الذى يوصل الإنسان يوماً بعد يوم للذات الإلهيّة، ويرفع عن قلبه الحجب والأدران، ويمهد الطّريق إليه؛ وما كان من «السّير و السّلوك الخارجى»: فهو نفس الأخلاق التى تهدف لتهذيب النفوس، و ليس فقط لأجل الحياة الماديّة

المرفّهة.

۴- علاقة العلم بالأخلاق

بالنّسبة للآيات السّابقة و كما ذكرنا أنّ القرآن الكريم، أتى ب: «تعليم الكتاب والحكمة» إلى جانب: «التزكية والتّهذيب الأخلاقى»، فتارةً يقدِّم «التّزكية» على «التّعليم»، و اخرىً يقدِّم «التعليم» على التزكية، و هو أمر يُبيّن مدى العلاقة الوثيقة التى تربط بين الإثنين. وهذا يعنى أنّ الإنسان، عندما ينفتح على المعرفة، و تكون لديه خبرةٌ بالأعمال الحسنة والسيئة، ويعرف عواقب «الفضيلة» و «الرذيلة»، فممّا لا شك فيه أنّها ستؤثر فى تربيته، بحيث يمكن القول أنّ كثيراً من الرذائل ناتجة من عدم الإطّلاع والفهم. ومن ذلك يمكن القول؛ أنّه إذا ما إستطعنا أن ننهض بالمستوى العلمى للأفراد، وبعبارةٍ اخرى: إذا أمكننا نشر الثقافة بين الناس، فستحل الفضائل مكان الرّذائل، وإن كان هذا الأمر ليس كليّاً. ومع الأسف الشديد، نرى أنّ البعض بالغوا فيها لدرجة الإفراط والتّفريط. فبعض إتّبعوا الحكيم سُقراط اليونانى، حيث كان يعتقد بأنّ العلم والحكمة هى منشأ الأخلاق الحميدة، والرّذائل الأخلاقيّة منشؤها الجهل، ولذلك فإنّه كان يعتقد أيضاً أنّه ولأجل محاربة الفساد و الرّذائل الأخلاقية وإحلال الفضائل الأخلاقية محلّها، يجب العمل على رفع المستوى العلمى للمجتمع، و بالتّالى تتساوى (الفضيلة) مع (المعرفة). الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۹ هؤلاء يدّعون أنّه لا يوجد إنسان يتجه نحو الرّذيلة وهو على علم بها، وإذا ما شخّصَ الإنسان الفضيلة فسوف لن يتركها، ولذلك يتوجّب علينا كسب العلم، ومعرفة الخير وتمييزه من الشر لنا و لغيرنا، كى تزرع فى نفوسنا بذور الفضائل الأخلاقية!. وفى المقابل يوجد من ينفى هذهِ العلاقة بين الإثنين بالكامل، لأنّ العلم والذكاء للإنسان المجرم سيكون عاملًا مساعداً له فى إرتكاب جرائم أخطر، وعلى حدّ تعبير المثل الذى يقول: (إذا كان مع اللص مصباحاً فانه سوف ينتقى البضائع الجيدة). ولكن الحق و الإنصاف أنّه ليس بإمكاننا نفى تأثير العلم بالكامل، و لا نفى معلولية أحداهما للاخر. والشّاهد على ذلك المُثل الحيّة التى نراها فى المجتمع، فكثيراً ما شاهدنا اناساً كانوا يفعلون الرذائل، و عندما أدركوا قبح فعالهم ونتائجها السيئة، أقلعوا عنها و إتجهوا نحو الفضائل، ووجدنا هذا الأمر حتى فى وقتنا الحاضر هذا. وفى المقابل نعرف أشخاصاً عندهم المعرفة التامة بالخير والشرّ، ولكنهم يُصرّون على الشرّ و هو متأصل فى نفوسهم. و كلّ ذلك لأنّ الإنسان لديه بُعدان: بعد العلم و الادراك و بُعد عملى، وهو الميول والغرائز والشّهوات، و لأجل ذلك فساعةً يميل الى هذا، و ساعةً يُرجحُ ذلك. والذى يقول بأحد القولين، فانه يفترض أنّ الإنسان فيه بُعدٌ واحد لا أكثر، ويغفل عن وجود البعد الآخر. ونشير هنا إلى الآيات القرآنية التى وردت فى هذا الباب، و التى أكدت على التّأثير المتبادل بين عُنصر الجهل وسوء العمل، قال تعالى: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَانَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛» «۱». ويوجد شبيه لهذا المعنى فى سورة النساء: الآية (۱۷)، وسورة النحل: الآية (۱۱۹). ومن البديهى أنّ الجهل المذكور ليس هو الجهل المطلق الذى لا يوائم التوبة، بل هو مرتبةٌ من مراتب الجهل، فإذا إرتفع فسوف يهتدى الإنسان بعدها للطّريق القويم. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰ وذكرنا فى الجزء الأول من دورة نفحات القرآن أنّ الجهل هو السبب لكثير من الضلالات، فهو- الجهل- سبب للكفر وإشاعة الفساد والتعصب والعناد والتقليد الأعمى والفُرقة وسوء الظّن والجسارة و قلّة الأدب، و فى واحدةٍ يمكن القول، أنّ الجهل عامل لإفساد كثير من القِيم «۱». ومن جهة اخرى تُصرِّح الآيات الشريفة بوجود حالة العناد فى الإنسان، مع علمه بأنّه يتحرك فى طريق الظّلم والطغيان، مثل آل فرعون، حيث يتحدث عنهم القرآن الكريم: «وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً» «۲». وكذلك ما ورد بالنسبة إلى بعض أهل الكتاب، كما قال البارى تعالى: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» «۳». وورد هذا المعنى فى ما بعدها من الآيات «۴». وقد يكون المراد من الآية هو موضوع الكَذب، ولكنّه أيضاً يؤيّد مدّعانا، لأنّ قبح الكذب حكم به العقل و الشّرع، وهو من الامور الواضحة التى لا تخفى على أحد. فالحقائق والتجارب أثبتت، أنّ المعرفة والعلم بنتائج الأخلاق الرذيلة على الفرد والمجتمع، يمكنه أن يكون فى كثير من الموارد، عاملًا مهماً فى ردع الإنسان عن غيّه و الرّجوع إلى ساحة الصّواب، ولكن ومن جهة اخرى أيضاً نجد أنّ هناك من يعرف الرّذيلة حقَّ معرفتها؛ ولكنه يُصرّ عليها ويعاند

على سلوك طريق الإنحراف، والطريقة الوسطى فى الحقيقة هى الجادّة وتنطبق على الواقع أكثر.

۵- هل أن الأخلاق قابلة للتغيير؟

اشارة

إنّ مصير علم الأخلاق وكلّ الأبحاث الأخلاقية، يتوقف على الإجابة عن هذا السؤال، إذ لولا قابليتها للتغيير لأصبحت كلّ برامج الأنبياء التربويّة و الكتب السماويّة، و وضع القوانين و العقوبات الرّادعة، لا فائدة و لا معنى لها. فنفس وجود تلك البرامج التربويّة وتعاليم الكتب السماويّة، و وضع القَوانين فى المجتمعات البشريّة، هو خير دليل على قابليّة التغيير فى الملكات والسلوكيات الأخلاقيّة لدى الإنسان، وهذه الحقيقة لا يعتمدها الأنبياء عليهم السلام فحسب، بل هى مقبولةٌ لدى جميع العقلاء فى العالم. والأَعجبْ من هذا، و الغريب فيه؛ أنَّ علماء الأخلاق والفلاسفة ألّفوا الكتب الكثيرة حول هذا السؤال: «هل أنّ الأخلاق قابلة للتغيير أم لا»؟! فالبعض يقول: إنّ الأخلاق غير قابلة للتغيير، فمن كانت ذاته ملوَّثة فى الأصل يكون مجبولًا على الشرّ، وعلى فرض قبوله لعمليّة التّغيير، فإنّه تغيير سطحى، وسرعان ما يعود إلى حالته السّابقة. ودليلهم على ذلك، بأنّ الأخلاق لها علاقةٌ وثيقةٌ مع الرّوح و الجسد، و أخلاق كلُّ شخصٍ تابعة لكيفية وجود روحه وجسمه، وبما أنّ روح وجسد الإنسان لا تتبدلان، فالأخلاق كذلك لا تتبدل ولا تتغير. وفى ذلك يقول الشاعر أيضاً: إذا كان الطّباع طِباعَ سوءٍ فلا أدبٌ يفيد ولا أديبُ واستدلوا على ذلك أيضاً، بمقولة تأثر الأخلاق بالعوامل الخارجية؛ و أنّ الأخلاق تخضع لمؤثّراتٍ خارجيَّةٍ من قبيل الوعظ و النّصيحة و التأديب، فبزوال هذهِ العوامل، تعود الأخلاق لحالتها الاولى، فهى بالضّبط كالماء البارد، الذى يتأثر بعوامل الحرارة، فعند زوال المؤثّر، يعود الماء لحالته السّابقة. و مما يؤسف له وجود هذا النّمط من التّفكير و الإستدلال، حيث أفضى لتردى المجتمعات البشريّة و سُقوطها! الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۲ أمّا المؤيدون لتغيير الأخلاق، فقد أجابوا على الدّليلين السّابقين وقالوا: ۱- لا يمكن إنكار علاقة الأخلاق وإرتباطها بالرّوح والجسم، ولكنه فى حدّ (المقتضى)؛ وليس (العلّةَ التّامةَ) لها، و بعبارةٍ اخرى يمكن أن تهيّىء الأرضيّة لذلك، لكن ذلك لا يعنى بالضّرورة أنّها ستؤثر تأثيراً قطعيّاً فيها، من قبيل مَن يولد من أبوين مريضين، فإنّ فيه قابليةٌ على الابتلاء بذلك المرض، ولكن وبالوقاية الصّحيحة، يمكن أن يُتلافى ذلك المرض من خلال التّصدى للعوامل الوراثية المتجذرة فى بدن الإنسان. فالأفراد الضّعاف البَنية يمكن أن يصبحوا أشداء، بالإلتزام بقواعد الصّحة و ممارسة الرّياضة البدنية، وبالعكس يمكن للأشداء، أن يصيبهم الضّعف و الهزال، إذا لم يلتزموا بالامور المذكورة أعلاه. و علاوةً على ذلك يمكن القول؛ أنّ روح وجسم الإنسان قابلانِ للتغيير، فكيف بالأخلاق التى تعتبر من معطياتهما؟ نحن نعلم، أنّ كلّ الحيوانات الأهليّة اليوم، كانت فى يومٍ ما بَرّيّةً و وحشيّةً، فأخذها الإنسان وروّضها و جعل منها أهليةً مطيعةً له، وكذلك كثير من النّباتات والأشجار المثمرة، فالذى يستطيع أن يُغيِّر صفات و خُصوصيّات النبّات والحيوان، ألا يستطيع أن يغيّر نفسه وأخلاقه؟ بل توجد حيوانات روّضِت، لِلقيام بأعمالٍ مخالفةٍ لطبيعتها، و هى تُؤدّيها بأحسن وجهٍ!. ۲- وممّا ذُكر أعلاه، يتبيّن جواب دليلهم الثّانى، لأنّ العوامل الخارجيّة قد يكون لها تأثيرها القوى جداً، ممّا يؤدّى إلى تغير خصوصيّاتها الذاتيّة بالكامل، و ستؤثر على الأجيال القادمة أيضاً، من خلال العوامل الوراثية، كما رأينا فى مثال: الحيوانات الأهلية. ويقصّ علينا التأريخَ قصصاً، لُاناسٍ كانوا لا يراعون إلّاً ولا ذِمّةً، ولكن بالتّربية و التّعليم تغيّروا تَغيُّراً جَذريّاً، فمنهم من كان سارقاً محترفاً؛ فأصبح عابداً متنسّكاً مشهوراً بين الناس. إنّ التعرّف على كيفية نشوء الملكات الأخلاقيةِ السّيئة يعطينا القُدرة والفرصة لإزالتها، والمسألة هى كالتّالى: إنّ كلّ فعلٍ سيّءٍ أو حسنٍ يخلّف تأثيره الإيجابى أو السّلبى فى الروح الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳ الإنسانية، بحيث يجذب الروح نحوه تدريجياً، و بالتّكرار سوف يتكرّس ذلك الفعل فى باطن الإنسان، ويتحول إلى كيفيّةٍ تسمى: (بالعادة)، وإذا إستمرت تلك العادة تحوّلت إلى

(مَلَكَةٍ). وعلى هـذا، وبما أنّ المَلَكات والعادات الأخلاقيّة السّيئة، تنشأ من تكرار العمل، فإنّه يمكن مُحاربتها بواسطة نفس الطّريقة، طبعاً لا ـ يمكننا أن ننكر تأثير التّعليم الصّحيح والمحيط السّالم، فى إيجاد المَلَكات الحَسنة، و الأخلاق الصّالحة، فى واقع الإنسان وروحه. و هناك «قولٌ ثالثٌ»: و هو أنّ بعض الصّفات الأخلاقيّة قابلةٌ لِلتغير، وبعضها غير قابل، فالصّفات الطّبيعيّة و الفطريّة غير قابلةٍ لِلتغير، ولكنّ الصّفات التى تتأثّر بالعوامل الخارجيّة يمكن تغييرها «۱». وهذا القول لا دليل عليه، لأنّ التّفصيل بين هذهِ الصّفات، مدعاةٌ لقبول مَقولة الأخلاق الفطريّة والطبيعيّة، والحال أنّه لم يثبت ذلك، وعلى فرض ثُبوته، فمن قال بأنّ الصّفات الفطريّة غير قابلةٍ لِلتغيّر والتّبدّل؟. ألم يتمكن الإنسان من تغيير طِباع الحيوانات البريّة؟. ألا يمكن لِلتربية و التّعليم، أن تَتجذّر فى أعماق الإنسان وتغيّره؟.

الآيات و الرّوايات التى يستدل بها، على إمكانيّة تغيّر الأخلاق:

ما ذكرناه آنفاً كان على مستوى الأدلة العقليّة و التّأريخيّة، و عند رجوعنا للأدلة النّقلية، يعنى ما وصل إلينا من مبدأ الوحى وأحاديث المعصومين عليهم السلام، سوف تتبيّن لنا المسألة من خلاله بصورةٍ أفضل لأنّه: ۱- إنّ الهدف من بعث الأنبياء و الرّسل و إنزال الكتب السّماوية، إنّما هو لأجل تربية وهداية الإنسان، وهذا أقوى دليل على إمكان التربية، و ترشيد الفضائل الأخلاقيّة لدى جميع أفراد البشر، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: «هُوَ الَّذى بَعَثَ فِي الْاُمِّيينَ رَسُولًا مِنْهُم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» «۱». وأمثالها من الآيات الكريمة التى تبيّن لنا أنّ الهدف من بعثة الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله: هو تعليم وتزكية كل اولئك الذى كانوا فى ضلالٍ مبين. ۲- كلّ الآيات التى توجّه الخطاب الإلهى إلى الإنسان، مثل: «يا بنى آدم» و «يا أيّها النّاس» و «يا أيّها الإنسان» و «يا عبادى»، تشمل أوامر ونواهى تتعلق بتهذيب النّفوس، و إكتساب الفضائل الأخلاقيّة، و هى بدورها خير دليل على إمكانيّة تغيير «الأخلاق الرّذيلة»، و إصلاح الصّفات القبيحة فى واقع الإنسان، وإلّا ففى غير هذه الصّورة تَنتفى عُموميّة هذه الخطابات الإلهيّة، فتصبح لغواً بدون فائدةٍ. وقد يقال: إنّ هذهِ الآيات، غالباً ما تشتمل على الأحكام الشرعيّة، و هذه الأحكام تتعلق بالجوانب العمليّة و السلوكيّة فى حياة الإنسان، بينما نجد أنّ الأخلاق ناظرةٌ للصفات الباطنيّة؟ ولكن يجب أن لا ـ ننسى أنّ العلاقة بين «الأخلاق» و «العمل»، هى: علاقة اللّازم و المَلزوم لِلآخر، و بمنزلة العلّة والمعلول، فالأخلاق الحسنة تُعتبر مصدراً للأعمال الحسنة، والأخلاق الرذيلة مصدراً للأعمال القبيحة، وكذلك الحال فى الأعمال، فإنّها من خلال التّكرار تتحول بالتّدريج، إلى ملكاتٍ و صفاتٍ أخلاقيّةٍ فى واقع الإنسان الداخلى. ۳- القول والإعتقاد بعدم إمكان التّغيير للأخلاق، مدعاة للقول و الإعتقاد بالجَبر؛ لأنّ مفهومها هو: أنّ صاحب الخُلق السّيء و الخُلق الحسن، ليسا بقادرين على تغيير أخلاقهم، وبما أنّ الأعمال و السّلوكيات تعتبر إنعكاساً للصفات والملكات الأخلاقيّة، ولِذا فمثل هؤلاء يتحرّكون فى سلوكياتهم من موقع الجَبر، لكننا نرى أنّهم مكلّفين بفعل الخيرات وترك الخبائث، وعليه يترتب على هذا القول جميع المفاسد التى تترتب على مقولة الجبر «۲». ۴- الآيات الصّريحة التى ترغّب الإنسان فى تهذيب أخلاقه، و تُحذّره من الرذائل، هى أيضاً دليلٌ محكمٌ على إمكانيّة تغير الصفات و الطّبائع الإنسانية، مثل قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۵ مَنْ زَكّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» «۱». فالتّعبير بكلمة دَسّاها، والتى هى فى الأصلِ بمعنى: خلطُ الشيّءِ بشىءٍ آخر غير مرغوب فيه من غير جنسه، مثل «دسّ الحنطة بالتراب»، يبيّن لنا أنّ الطّبيعة الإنسانيّة مجبولةٌ على الصفاء و النّقاوة و التقوى، و التلويث، و الرذائل تعرض عليها من الخارج وتنفذ فيها، والإثنان قابلان للتّغير والتّبدل. نقرأ فى الآية (۳۴) من سورة فُصّلت: «إِدْفَعْ بِالَّتى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». تُبيّن لنا هذهِ الآية أنّ العداوات المتأصّلة و المتجذّرة فى الإنسان: بالمحبّة والسّلوك السليم، يمكن أن تتغير وتتبدل إلى صداقةٍ حميمةٍ بالتّحرك فى طريق المحبّة و السّلوكيات السليمة، ولو كانت الأخلاق غير قابلةٍ للتغير، لما أمكن الأمر بذلك. ونجد فى هذا المجال أحاديث إسلامية، تؤكّد هذا المعنى أيضاً، من قبيل الأحاديث التالية: ۱- الحديث المعروف الذى يقول: «إنّما بُعثتُ لُاتمم مكارم

الاخلاق» «۲» هو دلیل ساطعٌ علی إمکانیۀ تغییر الصّفات الأخلاقیۀ. ۲- الأحادیث الکثیرۀ التی تحث الإنسان علی حسن الخُلق، کالحدیث النّبوی الشریف الآتی: «لَو یَعلَمُ العَبدُ ما فِی حُسنِ الخُلقِ لَعَلِمَ أَنّهُ یَحتاجُ أن یکونَ لَهُ خُلقٌ حسنٌ» «۳». ۳- و کذلک الحدیث النبوی الشریف الآخر حیث یقول: «الخُلقُ الحسنُ نِصفُ الدِّینِ» «۴». ۴- نقرأ فی حدیثٍ عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «الخُلقُ الَمحمُودُ مِن ثِمارِ العَقلِ وَالخُلقُ المَذمُومُ مِن ثِمارِ الجُهلِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶ وبما أنّ کلّا من «العلم» و «الجهلَ» قابلان للتغییر؛ فتتبعها الأخلاق فی ذلک أیضاً. ۵- وفی حدیثٍ آخر، جاء عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «إنّ العَبدَ لَیَبلُغُ بِحُسنِ خُلقِهِ عَظِیمَ دَرجاتِ الآخِرَةِ وَشَرفِ المَنازِلِ وَأَنّهُ لَضَعِیفُ العِبادةِ» «۱». حیث نجد فی هذا الحدیث، مقارنةً بین حُسن الأخلاق والعبادة، هذا أولًا. وثانیاً: إنّ الدرجات العُلی فی الآخرة تتعلق بالأعمال الإختیاریّۀ. وثالثاً: التّرغیب لکسب الأخلاق الحسنۀ، کلّ ذلک یدلّ علی أنّ الأخلاق أمرٌ إکتسابی، و غیر خارجۀ عن عنصر الإرادۀ فی الإنسان. مثل هذهِ الرّوایات والمعانی القَیّمۀ کثیرٌ، فی مضامین أحادیث أهل البیت علیهم السلام، وهی إن دلّت علی شیءٍ فإنّها تدلّ علی إمکانیَّۀ تغیّر الأخلاق، وإلّا فستکون لغواً وبلا فائدۀٍ «۲». ۶- وفی حدیث آخر ورد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، نقرأ فیه أنّه قال لأحد أصحابه و أُسمه جریر بن عبداللَّه: «إنّک امرؤٌ قَد أحسنَ اللَّهُ خَلقَکَ فَأَحسِنْ خُلْقَکَ» «۳». وخلاصۀ القول أنّ روایاتنا ملیئۀٌ بهذا المضمون، حیث تدلّ جمیعها علی أنّ الإنسان قادر علی تغییر أخلاقه «۴». ونختم هذا البحث بحدیثٍ عن الإمام علی علیه السلام، یحثّنا فیه علی حُسن الخلق، حیث قال علیه السلام: «الکَرَمُ حُسنُ السّجیۀِ وَ إجتنابِ الدَّنِیّۀِ» «۵».

أدلّۀ مُؤیّدی نظریۀ ثبات الأخلاق، و عَدم تغیّرها:

وفی مقابل ما ذکرناه آنفاً، إستدلّ البعض بروایاتٍ یظهر منها أنّ الأخلاق غیر قابلۀٍ للتغییر، ومنها: ۱- الحدیث المعروف الوارد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حیث قال: «النّاسُ مَعادِنٌ کَمَعادِنِ الذّهبِ وَالفِضَّۀِ، خِیارُهُم فِی الجَاهِلیّۀِ خِیارُهُم فِی الإسلام». ۲- الحدیث الآخر الوارد أیضاً عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «إذا سَمِعتُم أَنَّ جَبَلًا زالَ عَن مَکانِهِ فَصدِّقُوهُ، وَإذا سَمِعتُم بِرَجُلٍ زَالَ عَن خُلقِهِ فَلا تُصَدِّقُوهُ! فإنَّهُ سَیعُودُ إلی ما جُبِلَ عَلَیهِ» «۱».

الجواب:

إنّ تفسیر مثل هذهِ الروایات، و بالنّظر للأدلۀ السّابقۀ، و الروایات التی تصرّح بإمکانیۀ تغیر الأخلاق، لیس بالأمر العسیر، لأنّ النّقطۀ المهمّۀ والمقبولۀ فی المسألۀ، أنّ نفوس الناس بالطبع متفاوتۀ، فبعضها من ذَهبٍ و البعض الآخر من فضّۀٍ، ولکنّ هذا لا یدلّ علی عدم إمکانیۀ تغییر هذه النفوس والطبائع. وبعبارةٍ اخری إنّ مثل هذهِ الصّفات النّفسیۀ فی حدّ المقتضی: لیس علّۀً تامّۀً، ولذلک رأینا وبالتجربۀ أشخاصاً تغیّرت أخلاقهم بالکامل، ویعود الفضل فی ذلک للتربیۀ والتعلیم. و علاوۀً علی ذلک، إنّنا إذا أردنا أن نعمّم الحکم، فی الحدیث الشّریف، علی جمیع النّاس، فهذا یعنی أنّهم کلّهم ذَووا خُلقٍ حَسنٍ. فبعضهم حسنٌ و البعض الآخر أحسَن، (کما هو الحال فی الذّهب و الفضّۀ). و علیه فَلَن یبقی مکانٌ للأخلاق السّیئۀ فی طبع الإنسان. (فتأمّل). و بالنّسبۀ للحدیث الثانی، نری أنّ المسألۀ أیضاً هی من باب المُقتضی، و لیس علّۀً تامّۀً، أو بعبارۀ اخری إنّ الحدیث ناظرٌ لأغلبیۀ الناس، ولیس جمیعهم، وإلّا لخالف مضمون الحدیث، صریح التّأریخ، الذی حکی لنا قَصصاً حقیقیّۀً عن أفرادٍ إستطاعوا تغییر أنفسهم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۸ وبقوا علی ذلک حتّی الممات. ولخالف أیضاً التّجارب الیومیّۀ، التی رأینا فیها الکثیر من الأشخاص الفاسدین، غیّروا طریقۀ حیاتهم بسبب التّعلیم و التربیۀ، و إستمروا یسیرون فی خطّ الهدایۀ و الصّلاح حتی الممات. و خُلاصۀ القول: أنّه وفی نفس الوقت الذی

تختلف فيه سَجايا النّاس، لا يوجد أحد مجبور على الرّذائل و الأخلاق السّيئة، وكذلك الحال بالنسبة للأخلاق الحسنة، فذَوُوا السّجايا الطيّبة إذا ما إتّبعوا هواهم، سيسقطون إلى الحضيض، وذَووا السّجايا الخبيثة، قادرون على بناء أنفسهم و ذاتهم، من موقع التّهذيب و التزكية، و الوصول إلى أعلى درجات الكمال الرّوحى. ويجب التّنويه إلى أنّ بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين، ولأجل توجيه أعمالهم المخالفة للطريق السّليم، يتذرّعون بحججٍ واهيةٍ من هذا القبيل؛ و أنّ اللَّه تعالى قد جَبَلنا على ذلك الخُلق السّيء. وإن شاء أن يُغيّرنا لفعل؟! .... وعلى كلّ حال، فإن الإعتقاد بعدم إمكانيّة تغيير الأخلاق، ليس له نتيجةٌ إلّاالوقوع فى وادى الإعتقاد بالَجبر، ورفض ما دعا إليه الأنبياء، و القول بأنّ سعى علماء الأخلاق و أطّباء النفس فى إصلاح النفوس، هو سعيٌ غير مثمر، ويترتب على ذلك بالتّالى فساد المجتمعات البشرية.

۶- المَسار التّأريخى لِعلم الأخلاق

نختم البحث أعلاه، بشرح مقتضب للمسار التأريخى لعلم الأخلاق: فمما لا شك فيه أنّ الأبحاث الأخلاقية، ولدت مع أوّل قدم وضعها الإنسان على الأرض، لأن النّبى آدم عليه السلام لمُ يعلّم أبناءه الأخلاق فقط، بل إنّ البّارى تعالى، عندما خلقه وأسكنه الجنّة، أفهمه المسائل الأخلاقيّة و الأوامر و النّواهى، فى دائرة السّلوك الأخلاقى مع الآخرين. وآتخذ سائر الأنبياء عليهم السلام طريق تهذيب النّفوس والأخلاق، و التى تكمَن فيها سعادة الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۹ الإنسان، حتى وصل الأمر إلى السيّد المسيح عليه السلام، حيث كان القسم الأعظم من تعاليمه، هو أبحاثٌ أخلاقيّةٌ، فَنَعَته حواريّوه و أصحابه بالمعلِّم الأكبر للأخلاق. ولكن أعظم مُعلِّمى الأخلاق، هو: رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، لأنّه رفع شعار: «إنّما بُعثت لُاتمّم مكارَم الأخلاق». وقال عنه البارى تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم» «۱». ويوجد قديماً بعض الفَلاسفة، مَنْ لُقّب بمعلّم الأخلاق، مثل: إفلاطون، و أرسطو، و سُقراط، و جَمعٌ آخر من فَلاسفة اليونان. و على كلّ حال، فإنّه وبعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فإنّ الأئمّة عليهم السلام هم أكبر معلّمى الأخلاق، و ذلك بشهادة الأحاديث التى نُقلت عنهم، حيث ربّوا أشخاصاً بارزين يمكن أن يعتبر كلّ واحد منهم مُعلِّماً لعصرهِ. فحياة المعصومين عليهم السلام و أتباعهم، هى خيرُ دليلٍ على سُمّو نفوسهم، و رفعة أخلاقهم، فى حركة الواقع. ويبقى السّؤال فى أنّه متى تأسّس علم الأخلاق فى الإسلام، ومن هم مشاهيره؟. و هذا البحث مذكورٌ بالتّفصيل فى الكتاب القيّم: تأسيس الشّيعة لعلوم الإسلام، بقلم آية اللَّه الشّهيد الصّدر قدس سره. ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما جاء فيه، حيث قسّم السيد الصدر الموضوع إلى ثلاثة أقسام: أ- يقول إنّ أوّل من أسّس علم الأخلاق، هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، (وذلك من خلال الرّسالة التى كتبها لإبنه الإمام الحسن عليه السلام) بَعد رجوعه من صفّين، حيث بيّن الاسس الأخلاقيّة، و تطرق للمَلكات الفاضلة و الصّفات الرذيلة، و حلّلها بأحسن وجهٍ «۲». و نقل هذهِ الرّسالة، بالإضافة إلى السيّد الرّضى فى نهج البلاغة، الكثير من علماء الشّيعة أيضاً. ونقلها كذلك بعض علماء أهل السُنّة، مثل: أبو أحمد بن عبداللَّه العسكرى، فى كتابه الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰ الزّواجر والمواعظ، حيث أوردها كلّها وقال: (لو كانَ مِنَ الحِكمةِ ما يجب أن يُكتبَ بالذّهبِ لكانتْ هذِهِ). ب- أوّل من كتب كتاباً فى دائرة (علم الأخلاق)، هو: إسماعيل بن مهران أبو النصر السكونى، وهو من علماء القرن الثانى، و أسماه: المؤمن والفاجر، (و هو أوّل كتاب أخلاقى عُرف فى الإسلام). ج- بعدها يذكر بعض من أسماء أكابر العلماء فى هذا المجال، (وإن كانوا لم يألفّوا كُتباً فيها) مثل: «سلمان الفارسى»، حيث قال فى حقّه الإمام على عليه السلام: «سَلمانُ الفارسِى مِثلُ لُقمانِ الحَكيم، عَلِمَ عِلمَ الأوّلِ والآخرِ، بحرٌ لا يُنزفُ، وهو مِنّا أهلَ البيتِ» «۱». ۲- «أبوذَرْ الغَفارى»، و الذى بقىَ طويلًا يُروّج للأخلاق الإسلاميّة، و هو النّموذج الحىّ لها، والمشاحنات التى كانت بينه وبين الخليفة الثّالث «عَثمان»، و «معاوية»، فى المسائل الأخلاقيّة معروفةٌ لدى الجميع، حيث أودت بحياته، ومات فى سبيل ذلك الطّريق القويم. ۳- «عَمّار بن ياسِر»، و قد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام فى حقّه و حقّ إخوانه و أصحابه المخلصين، يبيّن منزلتهم الأخلاقية السّامية، فقال: «أينَ إخوانى الّذين رَكِبُوا الطَّريقَ وَمَضوا عَلَى الحَقِّ، أينَ عَمّارُ ... ثُمَّ ضَربَ يَدَهُ عَلَى لِحيَتِهِ الشَّريفَةِ الكَريمَةِ فأطالَ البُكاءَ، ثُمَّ قَالَ: اوَّهْ عَلى

إخوانی الَّذِینَ تَلَوا القُرآنَ فأحکَمُوهُ، وَتَـدّبَرُوا الفَرضَ فأقامُوهُ، أَحْیَوا السُّنّةَ وأماتُوا البِدعَةَ» «۲». ۴- «نوف البکّالی»، کان مثال الزّهـد و العبادهٔ و حُسن الأخلاق، و توفّی بعد السّنهٔ (۹۰) للهجرهٔ. ۵- «محمد بن أبی بکر»، کان من خُلّص أصحاب أمیر المؤمنین علیه السلام، ویحذو حَذو الإمام الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱ فی الزّهد والعبادهِ و الأخلاق. ۶- «الجارود بن المنذر»، کان من أصحاب الأئمّهٔ الرابع والخامس والسادس علیهم السـلام، و من کبار العلماء فی العِلم و العمل، وله مقامٌ رفیعٌ جـدّاً. ۷- «حذیفهٔ بن المنصور»، کان من أصـحاب الأئمّـهٔ: الباقر والصادق والکاظم علیهم السـلام، وقیل عنه: (أنّه أخذ عن اولئک العظام، وقد نبغ فی مکارم الأخلاق وتهذیب النفس). ۸- «عثمـان بن سـعید العمری»، هو أحـد الوکلاء الأربعـهٔ للإمام المهـدی علیه السـلام، ومن أحفاد عمّار بن یاسـر رحمه الله، وقالوا فیه: (لیس له ثانٍ فی المعارف والأخلاق والفقه والأحکام). و کثیرٌ من العظماء الّـذین یطول ذکرهم. ونودُّ الإشارهٔ إلی أنّ کثیراً من الکتب الأخلاقیّهٔ، و علی مدی التأریخ الإسلامی، قد کُتبت، ونذکر منها: ۱- من القَرن الثّالث، کتاب: «المانعاتُ من دخول الجنّهٔ»، بقلم جعفر بن أحمـد القُمی، و هو من کبـار العلماء فی عصـره. ۲- من القَرن الرّابع، کتـاب: «الآداب» وکتاب «مکارم الأخلاق»، بقلم علیّ بن أحمـد الکوفی. ۳- کتـاب: «طهـارهٔ النّفس» أو «تهـذیب الأخلاق و تطهیر الأعراق»، بقلم إبن مَسـکویه، و المُتوَفّی فی القَرن الخامس، فهو من الکتب المعروفـهٔ فی هـذا المجال، وله کتاب آخر فی علم الأخلاق، و إسـمه «آداب العرب والفُرس»، ولکن شـهرته لیست کشهرهٔ الکتاب المذکور آنفاً. ۴- کتاب: «تنبیه الخاطر و نزهـهُ الناظر»، والذی عُرف ب: «مجموعهٔ ورّام»، أحد الکتب المعروفهٔ أیضـاً فی هـذا المجال وکاتبه «ورّام بن أبی الفوارس»، من علماء القَرن السّادس الهجری. ۵- و نری فی القَرن السّـابع کتابی: «الأخلاق النّاصـریهٔ و أوصاف الأشراف وآداب المتعلمین»، للشیخ خَواجهٔ نصیر الطّوسی رحمه الله، فکلّ واحد منها مَعلَم من مَعالم التّصنیف فی هـذا المجـال، فی ذلـک القرن. ۶- وفی بـاقی القُرون نری کتبـاً مثـل: «إرشـاد الـدیلمی»، «مصابیـح القلوب للسبزواری»، الاخلاـق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲ «مکارم الأخلاق لحسن بن أمین الـدین»، و «الآداب الدینیـهٔ لأمین الـدین الطّبرسـی»، و «المحجهٔ البیضاء للفیض الکاشـانی»، و هو کتـاب قیّم جـداً فی هـذا العلم، و: «جـامع السّـعادات» و «معراج السّـعادهٔ»، و کتـاب: «أخلاق شبّر»، وکثیر من الکتب الاخری «۱». والمرحوم العلّامـهٔ الطّهرانی، أورد عشـرات التّصانیف فی کتابه المعروف ب: «الذریعهٔ» «۲». ویجب الإشـارهٔ إلی أنّ کثیراً من الکتب الأخلاقیّهٔ، طُبعت بعنوان کتب: السیر والسلوک إلی اللَّه، والبعض الآخر طُبع بعنوان: الکتب العرفانیّهٔ، و تطرّق البعض الآخر لمسائل الأخلاق فی فصل أو فصلین، ککتاب: «بحار الأنوار» و «اصول الکافی»، حیث یُعدّان من أفضل مصادر هذا العلم.

دور الأخلاق فی الحیاهٔ والحضارهٔ الإنسانیّهٔ

اشارهٔ

یعتقـد البعض من غیر المطّلعین، أنّ المسائـل الأخلاقیّـهٔ تمثـل أمراً خاصـاً فی حـدود الحیاهٔ الشّخصـیهٔ للإنسان، أو أنّها مسائل مقدّسـهٔ معنویّـهٔ، لاـ تفیـد إلّافی الحیاهٔ الاخرویّـهٔ، وهو أشـتباه محظ، لأن أکثر المسائل الاخلاقیّـهٔ لها أثرها فی واقع الحیاهٔ الإجتماعیّـهٔ للإنسان، سواء کـانت مادیّهٔ أم معنویّـهٔ، فـالمجتمع البشـری بلا أخلاق، سـینقلب إلی حدیقـهِ حیواناتٍ لا یُجـدی معها إلّا الأقفاص، لِردع أفعال الحیوانـات البشـریّهٔ عن أفعالهـا الضّـارهٔ، و سـتُهدر فیهـا الطّاقات، وتحطّم فیها الإسـتعدادات، وسـیکون الأمان والحریّـهٔ لعبـهٔ بیـد ذوی الأهواء، وسـتفقد الحیاهٔ الإنسانیهٔ مفهومها الواقعی. وعندما نتحری التأریخ، نری أنّ کثیراً من الأقوام البشریّهٔ قد حَلّ بهم البوار، وتمزقوا شرّ مُمَزّق نتیجـهً لإنحرافـاتهم الأخلاقیّـهٔ. وکم رأینـا فی التأریـخ حُکّامـاً، عرّضوا شـعوبهم لمصـائب ألیمـهٍ و ویلاـتٍ، نتیجـهً لضـعفهم الأخلاـقی!!. وکم یوجـد من امراء فاسـدین وقیـادات عسـکریّهٔ متعنّتـهٔ، عرّضوا حیاهٔ جنودهم للخطر الفادح، بسـبب اسـتبدادهم بالرّأی وعدم المشورهٔ. والحقیقهٔ أنّ الحیاهٔ الفردیّهٔ للإنسان، لا لَطافهَ ولا شـفافیّهٔ لها بدون الأخلاق. ولن تصل العوائل إلی برِّ الأمان من دونها، ولکنّ الأهـمَّ من ذلـک هو الحیـاهٔ الإجتماعیّـهٔ للبشـر، فمـا لم الاخلاـق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۴ یتمسـک أفراد المجتمع بالأخلاـق،

فستکون نهایـة المجتمع ألیمة وموحشة جدّاً. ولرب قائل یقول: إنّ السّعادة و التکامل فی واقع المجتمع البشـری، یمکن أن یتحقّقا فی ظِلّ العمـل بالقوانین و الأحکام الصّحیحة، من دون الإعتماد علی مبادیء الأخلاق فی الفرد. و نقول له: إنّ العمل بالقوانین، من دون وجود قاعدةٍ متماسـکةٍ من القِیم الأخلاقیّة لدی الفرد غیر ممکن، لأنّه إذا لم یتوفر الدّاعی الذّاتی للإنسان، فالسّعی الظّاهری لن یُجدی نفعاً. فالقوّة و الضّغط من أسوأ الأدوات لتنفیـذ القوانین و الضّوابط، و لا یصـحّ إستعمالها إلّافی الضّرورات، وبالعکس فإنّ الإیمان و الأخلاق، یُعتبران من أفضل الأسالیب لتنفیـذ أیّة قرارات. بعـد هـذه الإشارة، نعود للآیات القرآنیـة الناظّرة إلی هـذه المسألـة المهمّـة، لنسـتوحی منها بعض المعانی فی هـذا المجال: ۱- «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ آتَّقَوْا لَفَتَحْنـا عَلَیْهِمْ بَرَکـاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلکِنْ کَذَّبُوا فَاَخَذْناهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ» «۱». ۲- «وَلا تَسْتَوی الْحَسَنَةُ وَلا السَّیِّئَةُ إدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَاذَا الّذی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ وَ ما یُلَقّاها إلّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَ ما یُلَقّاها إلّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ» «۲». ۳- «فَبِما رَحْمـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ کُنْتَ فَظّاً غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ فَاْعْفُ عَنْهُمْ وَآسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِی الأَمْرِ فَاذا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ إنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُتَوَکِّلِینَ» «۳». ۴- «وَما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إلَّا قالَ مُتْرَفُوها إنّا بِما ارْسِلْتُمْ بِهِ کافِرُونَ» «۴». ۵- «وَابْتَغِ فِیما آتاکَ اللَّهُ الـدّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الـدُّنْیا وَ أَحْسِنْ کَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِی الأَرْضِ إنَّ اللَّهَ لایُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ قالَ إنَّما اوتِیتُهُ عَلَی عِلْمٍ عِنْـدی أَوَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَکْثَرُ جَمْعاً ... یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمجرِمُونَ» «۵». ۶- «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إنَّهُ کانَ غَفّاراً یُرْسِلِ السَّماءَ عَلَیْکُم مِدْراراً- وَیُمْدِدْکُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِینَ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ جَنّاتٍ وَیَجْعَلْ لَکُمْ أَنْهاراً» «۶». ۷- «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِیـلَ وَمـا انْزِلَ إلَیْهِمْ مِن رَبِّهِمْ لَاَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ امَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما یَعْمَلُونَ» «۷». ۸- «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ انْثی وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حیاةًطَیِّبَةً وَلَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ» «۸». ۹- «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْری فَانَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمی» «۹». ۱۰- «وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِیحُکُمْ» «۱۰».

تفسیر و إستنتاج:

«الآیة الاولی : تکلّمت عن الرّابطة بین برکات الأرض و السّماء و بین التّقوی حیث یُصرِّح فیها بأنّ التّقوی سبب البرکات التی تنزل من السّماء علی النـاس، وبالعکس فإنّ عـدم التّقوی و التّکـذیب بآیات اللّه، سبب لنزول العـذاب: «وَلَوْ أَنَّ اهْلَ الْقُری آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّماءِ وَآلْارْضِ وَلکِنْ کَذَّبُوا فَآخَذْناهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ». فبرکات الأرض و السّماء لها معنی وسیع جداً، بحیث یشـمل: نزول الأمطار، و إنبات النّباتات، و کثرة الخیرات، وکثرة القوی البشـریّة. «البرکـة»: أصـلها الثّبات و الإسـتقرار، و بعدها اطلقت علی کلّ نِعمةٍ و موهبـةٍ تبقی ثابتـةً لا تتغیر، و لذلک فإنّ الموجودات غیر المبارک فیها، تکون غیر ثابتةٍ و تفنی بسرعةٍ. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۶ إن الکثیر من الامم لـدیها إمکاناتٌ مادیّـةٌ کبیرةٌ، و معادن و مصادر للثروة تحت الأرض، و کـذلک لدیها أنواع الصّناعات، ولکن بسبب أعمالهم السیئة و التی لها علاقة مُباشـرة بإنحطاطهم الأخلاقی، فإنّ تلک المواهب والمنن الإلهیّة، ستتعرض للإهتزاز وتفقـد البرکـة فی مضـمونها الإجتماعی، حیث تُستعمل تلک النعم الإلهیّة فی الغالب، لتعجیل فنائهم وزوال نعیمهم من موقع النقمـة الإلهیّـة. وقد صـرّح القرآن الکریم بذلک، حیث قال فی سورة التوبة فی الآیة (۸۵): «وَلا تُعْجِبْکَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إنَّما یُرِیْدُ اللَّهُ أَنْ یُعَذِّبَهُمْ بِها فِی الدُّنْیا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ کافِرُونَ» نعم إنّ هذه النِّعم إذا إقترنت بفساد الأخلاق، فسـتکون سبباً لعذاب الدنیا و خُسـران السّعادة فی الآخرة!. و بعبارةٍ اخری إذا إقترنت هـذه المواهب الإلهیّـة، بالإیمان والأخلاق والقیم الإنسانیـة، فستجلب الرّفاه و السعادة و العمران للمجتمع البشـری، وهذا هو الشّیء الذی تُشیر إلیه الآیة الآنفة الذّکر. وبالعکس فیما لو سلک الإنسان معها، اسلوب البُخل و الظُّلم و الإستبداد، و سوء الخُلق و إتّباع الأهواء، فسـتکون من وسائل الإنحطاط و الفساد و الإنحراف!. «الآیـة الثانیة»: تتحرک فی إطار بیان طریقـةٍ مُهمّـةٍ و مُؤثرةٍ جداً لدفع العداوات والضّغائن، وتوضّح أیضاً دور الأخلاق فی إزالتها: «إدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَاذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمْیمٌ». ویضـیف قائلًا: إنّ هذا الأمر، أی سِعة الصّدر، أمرٌ لا یقدر علیه کلّ أحد، بل یختصّ بها من

اوتى حظّاً عظيماً من الإيمان و التّقوى، فيقول: «وَما يُلَقّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيْمٍ». إنّ إحدى المشاكل الكبيرة للمجتمعات البشريّة، هى تراكم الحقد و الكراهيّة فى النفوس، وفى حال وصولها الذّروة، فإنّ من شأنها أن تفضى إلى إشعال نيران الحروب، التى تحرق معها الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۷ كلّ شىء وتحوله إلى رماد. ومع تحرك الإنسان من موقع: «إدفع بالّتى هى أحسن»، فستذوب الأحقاد و الكراهيّة كالثّلج فى الصّيف، وستتخلص المجتمعات البشريّة من خطر الحروب، و تقلّ الجنايات، و تنفتح البشريّة على أجواء المحبّة و التعاون و التّكامل الإجتماعى. وكما يقول القرآن الكريم،: إنّ هذا المستوى الأخلاقى لا يصدر من كائن من يكن، حيث يتطلب قوّة الإيمان و التّقوى والتربية الأخلاقيّة. ومن الطبيعى أنّ الخُشونة إذا ما قابلتها الخُشونة، و السّيئة دُفعت بالسّيئة، فستطّرد هذه السّلبيات وتتوسع يوماً بعد يوم، و بالتّالى ستجر الويلات و المآسى على المجتمع البشرى. ومن البديهى أنّ: (مسألة إدفع بالّتى هى أحسن)، لها شروطٌ و حدودٌ و إستثناءاتٌ، سنشرحها بالتّفصيل فى المستقبل إن شاء اللّه. «الآية الثالثة»: تحدثت عن تأثير حُسن الخُلق فى جلب و جذب الناس، وبيّنت أنّ المدير المتخلق بالأخلاق الإلهيّة إلى أىّ حدّ يكون موفقاً فى عمله، وكيف يجمع القلوب المُتنافرة و يوحّدها التوحيد الذى يصعد بها إلى الرّقى و الكمال الإجتماعى: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِى الْامْرِ فَاذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». ففى هذه الآية، نرى التّأثير العميق لحسن الأخلاق فى تقدّم أمر الإدارة، و جلب و جذب القلوب و وحدة الصّفوف، و النّجاح على مُستوى التّفاعل الإجتماعى لأفراد المجتمع؛ فأثر حسن الأخلاق لا يتحدّد بحدود البُعد الإلهى والمعنوى فقط، بل له آثاره الوسيعة فى حياة الإنسان الماديّة. و الأوامر الثّلاثة التى جاءت فى ذيل الآية، يعنى مسألة: «العَفو عن الخَطأ» و «طلب المغفرة من البارى تعالى» و «المشورة فى الامور»، هى أيضاً تصبّ فى دائرة تفعيل عناصر الأخلاق فى النّفس، لأنّ تلك الأخلاق النّابعة من الرّحمة و التّواضع، تكون سبباً للعفو و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۸ الإستغفار وتصحيح الأخطاء السّابقة، و إحترام شخصيّة و وجود الإنسان أيضاً. «الآية الرابعة»: تبيّن الآثار السّلبية لبعض الأخلاق السيئة، حيث يقف فى مقابل الأنبياء الإلهيين، جماعة من المترفين، و هم المُنعّمين الذين ملأ الكبر والأنانيّة أنفسهم ووجودهم: «وَما أَرْسَلْنا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذْيرٍ إِلّا قالَ مُتْرَفُوها إِنّا بِما ارْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ». وبعدها يعقّب قائلًا: أنّ الغُرور وصل بهم إلى درجةٍ كبيرةٍ، فقالوا: «وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ». فمثل هذه الأخلاق القبيحة، تُعدّ سبباً فى التّصدى للإصلاح الإجتماعى، على مُستوى قتل رجال الحقّ، و خنق أصوات طلّاب الحقيقة، وبالتالى زرع بذور الفساد و الظّلم والطغيان فى المجتمعات، وهنا يتّضح نموذج آخر من آثار الأخلاق السّيئة فى المجتمعات البشريّة. والعجيب فى الأمر، أنّ روحيّة الإستكبار النّاشئة من الرّفاه المادى و سبوغ النّعمة، هى السّبب فى التّورط فى مُستنقع الخطيئة و إرتكاب أخطاء فاضحة جدّاً، فإعتقدوا بأنّ وفور النّعمة و كثرتها، هو دليل للقرب الإلهى، وقالوا: لولا قُربنا من اللّه تعالى لما آتانا تلك النّعم!؟. و بذلك أنكروا جميع القيم الأخلاقيّة و المعنويّة، ولكنّ القرآن الكريم فى الآية التاليّة يُفنّد منطقهم الواهى، و يجعل المعيار هو الإيمان والعمل الصّالح. فلم يكن موقف المترفين المشركين من قُريش بالوحيد فى عصرهم، فهذا هو موقف جميع المترفين فى الأقوام السّالفة مع الأنبياء والمصلحين. «الآية الخامسة»: تنظر لوجهٍ آخر من المسألة، و تبيّن قصّة «قارون» الغنى المغرور والأنانى و هو من بنى إسرائيل. فعندما نصحه أهل العلم والمعرفة من قومه، و قالوا له: «وَابْتَغِ فِيما أتيكَ اللَّهُ الدّارَ الْاخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۹ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» و قال و بكلّ تكبر و غُرور: «قالَ إِنَّما اوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى». يعنى أنّ اللّه لا دخل له فى وفور النّعمة علىّ، ولكنّ علمى ودرايتى بالامور هى السّبب فى ذلك؛ وهكذا أودى به الكِبر و الغُرور إلى السّقوط فى وادى إنكار الآيات الإلهيّة، و بالتّالى التّحرك من موقع التعاون مع أعداء الحقّ و العدالة، و فى لحظةٍ وحادثةٍ عجيبةٍ، خُسِفَت به وَ بِأمواله الأرض. وهنا نرى كيف أنّ الرّذائل الأخلاقيّة، بإمكانها تغيير وجوه الأشخاص و المجتمعات، و منعهم من الوصول إلى الخير والسّعادة. و الطّريف فى الأمر، أنّنا نقرأ فى الآيات التى قبلها، بأنّ قومه قالوا له: «إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّه لا يُحِبُّ الفَرِحينَ». ومن البديهى أنّ الإسلام لا يعارض الفرح و السّرور، ولكنّ المقصود هنا الفرح النّاشىء من

الغَفلة و الغرور و نِسیان اللّه تعالی، و المقترن بالظّلم و الفساد و مُمارسة الخطیئة والذی بدوره یجرّ الإنسان لِلعربدة و الجُموح والفساد، وکلّ ذلک منشؤه الصّفات القبیحة التی تضرب بجرانها فی القلب. «الآیة السادسة»: نقرأ فیها شکوی النّبی نوح علیه السلام إلی الباری تعالی، فنری فی طیّاتها معانٍ تُشیر إلی تأثیر أعمال الإنسان، و الأخلاق التی تدعم تلک الأعمال، فی الحیاة الفردیّة و الإجتماعیّة للإنسان، فیقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُم إِنَّهُ کانَ غَفّاراً* یُرْسِلِ السَّماءَ عَلَیکُم مِدْراراً* وَیُمْدِدکُم بِأَمْوالٍ وَبَنِینَ* وَیَجْعَلْ لَکُم جَنَّاتٍ وَ یَجعَلْ لَکُم أَنهاراً». وفی الإستمرار فی قراءة تلک الآیات، نری عصیانهم وتمرّدهم علی الأوامر الإلهیّة، وکذلک تبیّن الآیات صفاتهم القبیحة، و التی هی بمثابة المَنبع الآسن الذی یمدهم بالذّنوب. ویمکن القول أنّ ما ذُکر آنفاً، هو العلاقة المعنویّة و الإلهیّة بین الإستغفار وترک الذنوب، و بین زیادة النعم، ولا یوجد منع من سرایة هذه العلاقة لتشمل البُعد الظّاهری و البُعد المعنوی، لذلک نقرأ فی آیةٍ اخری من القرآن الکریم: «ظَهَرَ الفَسادُ فِی البَرِّ والبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیدِی النّاسِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۴۰ وقد ورد هذا المعنی فی سورة هود بشکل آخر علی لسان الرسول صلی الله علیه و آله، فی خطابه لُمشرکی مکّة: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَیهِ یُمَتِّعْکُم مَتاعاً حَسَناً إِلی أَجَلٍ مُسَمّیً» «۱». لا شک أنّ التّمتع «بالمتاع الحسن»، لأجلٍ مُسمّی، هو إشارةٌ إلی المواهب المادیّة الدنیویّة، فهی رهینة الإستغفار و التّوبة من الذّنب، و العودة إلی الباری تعالی، و التّخلق بالأخلاق الحسنة. ولا شکّ أنّ الصّفات القبیحة هی الأساس والأصل لأنواع الذّنوب، و الذّنوب بدورها سبب لنشر الفساد فی المجتمع وتفکیک لِعُری الوحدة، و أواصر الصّداقة و الاخوّة والإعتماد بین الناس، و بالتّالی التّأخر فی العُمران و النّمو الإقتصادی و الرّفاه المادی، و التّکامل المعنوی وسلامة النّفوس. وفی «الآیة السابعة»: إشارةٌ إلی حالة أهل الکتاب وعصیانهم وطغیانهم، فیقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْاِنْجِیلَ وَما انْزِلَ إِلَیْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَاکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ امَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَکَثِیرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما یَعْمَلُونَ». ونری هنا أیضاً تقریراً، للعلاقة الوطیدة بین العمل الصالح و التّقوی من جهةٍ، و نزول البرکة السّماویة والأرضیة من جهةٍ اخری، وهذه العلاقة یمکن أن تحمل الجانب المعنوی أو الطّبیعی، أو بالأحری الإثنین معاً. نعم فإنّ الفیوضات الإلهیّة لا حدّ لها، ویتوجب علینا تحصیل الأهلیّة و القابلیّة، لنتصل بالمصدر الأصلی للفیض، ولکن الإفراط و التّفریط و العُدول عن جادّة الإعتدال و التّوازن، سوّدت وجه الحیاة الإنسانیّة، و سلبت منها الراحة. فالحروب المدمّرة تعرّی النفوس الإنسانیّة من الفضیلة و الصّلاح، و تُزهق الثّروات المادیّة و المعنویّة، و تفضی بالإنسان إلی الزّوال. الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۴۱ و جُملة: «وَما انْزِلَ إِلَیْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ»، تعنی کلّ الکتب السّماویة، و من جُملتها القرآن الکریم، وذلک لأنّ اصولها فی الواقع واحدةٌ، رغم أنّه وبمرور الزّمان، و حرکة المجتمع الإسلامی فی خط التّکامل و التّطور، نزلت أوامر وأحکام أکثر تطوراً من السابق. «الآیة الثامنة»: نستوحی منها تعبیراً جدیداً عن علاقة الحیاة الطیبة بالأعمال الصالحة، (و الصّفات التی هی منشأ لتلک الأعمال)، فتقول الآیة: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ انْثی وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاةًطَیِّبَةً وَلَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ». الآیات السّابقة، کانت تؤکّد علی تأثیر الأخلاق علی آفاق وأبعاد حرکة الإنسان فی الحیاة الإجتماعیة، وفی الآیة هذه نجد أنّها تتناول الحیاة الفردیة، فیذکر فیها أنّ کلّ إنسانٍ من ذکر و انثی، إذا ما آمن وعمل صالحاً فسیحیی حیاةً طیّبةً. ولا نری فی هذه الآیة أیّةَ إشارةٍ إلی أنّ «الحیاة الطیّبة» محدودةٌ بیوم القیامة فقط، بل تشیر ظاهراً إلی (الحیاة الطیّبة) فی الدنیا، أو تستوعب المفهوم العام للحیاة فی الدنیا والآخرة. ولکن ما هی الحیاة الطیّبة؟ إختلف المفسّرون فی تفسیر معنی الحیاة الطیّبة، فبعض فسّرها باللقمة الحلال، وقال آخر أنها القناعة والرضا بما قسمه اللّه تعالی، وقال البعض أنّها العبادة مع لقمة الحلال، و قال آخرون أنّها التّوفیق لطاعة اللّه تعالی، و تبنّی آخرون تفسیرها بالنّظافة من جمیع الأوساخ والأدران، مثل الظّلم و الخیانة والعدوان و الذلّة و الطّهارة و النّظافة و الرّاحة، فکلّها تندرج تحت ذلک المفهوم، ولکن بالنّظر إلی جملة: «وَلَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ»، النّاظرة للأجر الاخروی، یتبیّن أنّ المقصود من کلمة «الحیاة الطیّبة»، هو الإشارة للحیاة السّلیمة فی هذه الدنیا. «الآیة التاسعة»: تقرر أنّ الإعراض عن ذکر اللّه تعالی و الغفلة عنه، هو السّبب فی ضَنَک العیش وصعوبة الحیاة، فیقول الله تعالی «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْری فَانَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۴۲ وَنَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمی» و نعلم أنّ ذکر اللّه و معرفة اسمائه و صفاته المقدسة، هو منبع لکلّ الکمالات، بل هو عَین

الكمال، فذِكره سبب لتربيه وترشيد الفضائل الأخلاقيّة فى واقع الإنسان، و الصّعود به إلى آفاقٍ معنويّةٍ ساميةٍ، فى عالم التّخَلّق بالأسماء و الصِّفات الإلهيّة، و هذا الخُلق هو مصدر الأعمال الصَّالحة، و هو السّبب فى الإنفتاح على الحياة السعيدة وتطهيرها، و بالعكس، فإنّ الإعراض عن ذكر اللَّه تعالى، يبعده عن مصدر النّور الإلهى، و يقترب به من الخُلق الشّيطانى و الجوّ الظّلمانى، ممّا يؤدى بالإنسان إلى أن يعيش ضنك العيش، و ينحدر فى مُنزلق النّهاية المأساويّة فى حركة الحياة، وهذه هى آيةٌ اخرى تبيّن بصراحةٍ، علاقة الإيمان والأخلاق مع الحياة الفردية و الإجتماعية للبشر. وقد فسّر بعض أرباب اللّغة، كلمة «معيشةً ضنكا»: بالحياة والمعيشة التى يتكسّب فيها من الحرام، لأنّ مثل هذه المعيشة، هى سبب القَلق و الإضطراب الرّوحى فى كثير من الامور. و على حدّ تعبير بعض المفسّرين: إنّ الأفراد غير المؤمنين، يغلب عليهم الحِرص الشّديد فى امور الدنيا، و عندهم عطشٌ مادى لا ينفذ، وخوف من زوال النّعمة، ولأجل ذلك يغلب عليهم البخل، و الصِّفات الذّميمة الاخرى التى تضعهم فى نارٍ محرقةٍ من الآلام الروحيّة و الضّغوط النفسية، (بالرغم من توفر الإمكانات الماديّة الكثيرة عندهم). و عندما يعيشون العمى فى الآخرة؛ فإنّما هو بسبب العمى فى هذه الدنيا عن السير فى طريق الحقّ و السّعادة، وغرقهم فى ظلمات الشّهوات الماديّة. وسنشرح فى نهاية هذا القسم هذه المسألة شرحاً وافياً. «الآية العاشرة»: تتطرق لأحد الآثار السّيئة للعداوة و النّزاع، الموجب لتدمير عُرى الوحدة و مُصادرة القوّة والقدرة، فتقول: «وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ». ومن البديهى أنّ المنازعات و الإختلافات فى حركة الواقع الإجتماعى، إنّما هى من إفرازات الأخلاق الرّذيلة المنحطّة الكامنة فى أعماق النّفس البشريّة مثل: الأنانيّة، التكبر، الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۴۳ الحرص، الحقد، الحسد، وأمثال ذلك من عناصر الشرّ والإنحراف، و يترتب على ذلك توكيد عناصر الفشل و الإنحطاط، وزوال عناصر العزّة والقوّة من واقع المجتمع البشرى. والجدير بالذّكر، أنّ القُرآن عبّر هنا ب: «تذهب ريحكم». «الريح» فى الأصل بمعنى «الهواء»، و هى كناية عن: «القدرة و القوّة والغلبة»، و يمكن إستيحاء هذا المعنى من أنّ الرّيح عندما تُحرّك رايات القبيلة؛ فانّه يُعدّ مظهراً للقوّة و الغَلبة، وعليه يكون مفهوم الجُملة؛ أنّ الإختلاف هو سبب زوال قوّتكم وعظمتكم وقدرتكم. أو أنّ المفهوم مقتبس من هبوب الرّياح الموافقة، و التى هى سبب فى سرعة حركة السّفن للوصول إلى المكان المقصود، و مع إنعدامها تتوقف الحركة. ويقول صاحب «التّحقيق»: يُوجد علاقة بين الرّوح و الرّيح، فالرّوح ما يحدث فى ما وراء الطّبيعة، و الرّيح بمعنى الحدوث فى الطّبيعة. وجاءت كلمة «ريح» فى بعض الموارد، بمعنى العَطر الجميل، مثل: «إِنّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَولا أنْ تُفَنِّدُون» «۱». وعلى هذا يمكن القول أنّ معنى الجملة هو: أنّ الإتحاد يفضى إلى إنتشار نفوذكم ورائحتكم فى العالم، وإذا ما إختلفتم، فستفقدون نُفوذكم فى العالم. وعلى أيّة حال فأيّاً كان السّبب فى الإختلاف، سواء كان: (الأنانيّة، الإنتفاعيّة، الحسد، البخل، والحقد و غيرها)، فسيكون له الأثر السّلبى فى الحياة الإجتماعيّة و تخلّفها، ومن هنا تتجلى علاقة المسائل الأخلاقية بالمسائل الإجتماعية فى حركة الواقع الإجتماعى للبشر.

النتيجة:

نستوحى من الآيات الآنفة الذّكر، أنّ الخُلق السّامى الإنسانى، لا يقتصر تأثيره على السّلوك المعنوى والاخروى للإنسان فحسب، بل له الأثر الكبير فى الحياة الماديّة و الدنيويّة الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۴۴ للبشر، وعليه لا ينبغى أن نتصور أنّ المسائل الأخلاقيّة، مُنحصرة بالفرد وَحده على حساب الحياة الإجتماعية، بل العكس صحيح؛ فالأخلاق على علاقة قويّة و وطيدة مع الحياة الإجتماعيّة، و أىّ تحوّل إجتماعى فى واقع الحياة البشرية، لا يمكن أن يحصل إلّاعلى أساس التّحول الأخلاقى. وبتعبير آخر: إنّ النّاس الذين يعيشون فى مجتمع كبير، و يرغبون فى حياةٍ سعيدةٍ مقرونةٍ بالسّلم والتعاون المشترك، يجب عليهم على الأقل أن يَصِلوا إلى رُشدٍ أخلاقى، يدركون معه الحقائق المتعلقة بإختلاف أفراد الإنسان فكراً وروحاً و عاطفةً، لأنّ الأفراد يختلفون عن بعضهم البعض، فلا نتوقع أبداً من الآخرين أن يتبعونا فى كلّ شىء، والمهم فى المسألة هو السّعى فى الحفاظ على الاصول المشتركة بين المجتمع، و إختلاف الأذواق والأفكار يجب التّجاوز عنه، إلى حيث اللّيونة و الحلم و سِعة الصّدر و النّظر إلى المستقبل، فلا يمكن لنفرين أن يُجسّدا بينهما تعاوناً

حقیقیّاً فی حرکـة الحیاة ولمـدّةٍ طویلـةٍ، إلّابعـد التحلّی بأحـد الاصول الأخلاقیّـة الآنفة الذّکر. ومن البدیهی أنّ التّهیؤ الأخلاقی لهضـم نقـاط الإختلاـف، و الوصول إلی الوحـدة والقـدرة و العظمـة، هو أمر لازم وضـروری، وهو أمر لا یتحقق بالکلام فقط، بل یحتاج إلی تهذیبٍ و تعلیمٍ و تربیةٍ لنفوس الأفراد، کی یصل المجتمع إلی النّمو و التّکامل فی المجالات الأخلاقیة.

علاقة الحیاة المادیّة بالمسائل الأخلاقیّة فی الرّوایات الإسلامیّة:

مـا إسـتفدناه من الآیات القرآنیـة فی الموضوع الآنف الـذّکر، له أصـداءٌ واسـعةٌ فی الرّوایات الإسـلامیّة أیضاً؛ حیث یحکی عن التّأثیر العمیق للصـفات الأخلاقیّة فی الحیاة الفردیّة و الاجتماعیّة، ونشیر إلی قسمٍ منها: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۵ ۱- نقرأ فی حدیثٍ عن أمیر المؤمنین علیه السـلام: «فِی سِـعةِ الأخلاـقِ کُنُوزُ الأرزاقِ» «۱». ۲- ورد فی حـدیثٍ آخر عن الإمام الصّادق علیه السـلام، قال: «حُسنُ الخُلقِ یَزیـدُ فی الرِّزقِ» «۲». ۳- ورد فی حـدیثٍ آخر عن أمیر المؤمنین علیه السـلام: کیف أنّ الأخلاق الحسـنة تُؤثّر فی جلب النّاس و تحکیم أواصر الصّداقة بینهم: «مَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ کَثُرَ مُحِبُّوهُ وَآنَسَتِ النُّفُوسُ بِهِ» «۳». ۴- ورد فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، یتطرّق فیه إلی هذا المعنی بصراحةٍ أکثر، فیقول: «إنَّ البِرَّ وَحُسنَ الخُلقِ یَعْمُرانِ الدِّیارَ وَیَزیدَانِ فِی الأَعمَارِ» «۴». ولا شکّ أنّ تصاعد العمران وتماسک المجتمعات، یکون من خلال الإتحاد و التعاون بین أفراد المجتمع وطوائفه المختلفة، و کلّ ما یؤدّی إلی تقویـة روح الاتحـاد و التّعـاون بین النـاس، یُعتَبر من العوامـل المهمّـة فی تحکیم المرتکزات الأساسیّة لبقـاء المجتمع، و تفعیل حرکة العمران فیه، وبالنسبة إلی طـول العمر، نجـد أنّه معلـول غالبـاً، إلی الحیـاة الهادئـة والبعیـدة عن حالاـت القلق و الإضـطراب، و فی ظلّ التّعاون المشترک بین الأفراد. و کلّ هـذه الامور تُعـدّ من معطیات الأخلاق الحسـنة فی حرکـة الإنسان والحیاة. ۵- وفی هذا المضمار ورد فی حـدیثٍ عن الرّسول الأـکرم صـلی الله علیه و آله، قال: «حُسنُ الخُلقِ یُثبِّتُ المَوَدَّة» «۵». وتوجـد أیضاً أحادیث مُتعدّدة، تحکی عن تأثیر سوء الخُلق فی إیجاد الکراهیّة فی النفوس، و توهین الرّوابط بین الأفراد، و أنّه یورث النّفور و التّشتّت وضنک المعیشة وسلب الرّاحة و الطّمأنینة. ۶- ورد فی حدیثٍ عن الإمام علی علیه السلام: «مَنْ ساءَ خُلْقُهُ ضاقَ رِزقُهُ» «۶». ۷- وجاء فی حدیثٍ آخر أیضاً عن علی علیه السـلام، أنّه قال: «مَنْ ساءَ خُلْقُهُ أَعْوَزَهُ الصَّدِیقُ والرَّفِیقُ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۶ ۸- وجاء أیضاً عن علی علیه السـلام: «سُوءُ الخُلقِ نَکدُ العَیشِ و عَذَابُ النَّفسِ» «۱». ۹- سأل الإمام علی علیه السـلام: مَنْ أدومُ النّاسِ غَمّاً، قال: «أَسوَؤهم خُلقاً» «۲». ۱۰- وأخیراً نورد نصیحة لقمان الحکیم لإبنه، و هی: «وإیّاکَ والضَّجَرِ وَسُوءُ الخُلقِ وَقِلَّةِ الصَّبرِ فَلا یَسْتَقِیمُ عَلَی هذِهِ الخِصالِ صاحِبُ» «۳»

المذاهب الأخلاقیّة

اشارة

یوجـد فی علم الأخلاق مذاهبٌ کثیرةٌ، إنحرف أکثرها، و آلَ بها الأمر إلی مُخالفة الأخلاق، فمعرفتها لیس بالأمر الصّـعب و خصوصـاً فی ظِلّ الهدی القُرآنی؛ فیقول القرآن الکریم: «وأنَّ هذا صِـراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بِکُم عَنْ سَبِیلِهِ ذلِکُمْ وَصَّاکُم بِهِ لَعَلَّکُم تَتَّقُونَ» «۱». فأتت هـذه الآیـة، بعـد ذکر قسمٌ مهمٌّ من العقائد والبرامج العملیّة و الأخلاقیّة فی الإسـلام، و قد تضـمنّت عشـرة أوامر إسـلامیّة، جاءت لِتوصـی المسلمین بأن یتحرکوا فی العقیـدة فی خط الإسـتقامة، بعیـداً عن السّـبل الاخری التی تورثهم الفُرقة و الإنحراف، عن خطّ الإیمان باللَّه تعالی. المـذاهب الأخلاقیّة مثلها مِثلُ سائر المناهج الفردیة الإجتماعیة، فهی تسـتمد اصولها من النّظرة الکلیّـة لمفهوم العـالم، وهـذان المفهومـان: «الأخلاق والنظرةالکونیـة»، منسـجمان و مرتبطان مع بعضـهما بصورة وثیقـة جـدّاً، فالّـذین یفصـلون: «معرفة العالم»، النظریّة عن الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۸ الأخلاق والأوامر والنواهی الأخلاقیـة للعقل العملی، وینکرون

أيـة علاقـة بينهمـا، إنطلاقـاً من أنّ معرفـة العـالم و الكائنات الطبيعيّـة تعتمـد على الـدلائل المنطقيّـة و التجريبيّـة، والحال أنّ «الأوامر» و «النّواهى» الأخلاقيـة، هى سلسـلة من القضايا تحكم السّـلوك، فهؤلاء أغفلوا نقطةً مهمةً، ألا وهى أنّ الأوامر الأخلاقيّة تصـبح حكيمةً، إذا ما كوّنت لها علاقةً بالعالم الخارجى، و إلّافستكون اموراً اعتباريةً فارغةً و غير مقبولةٍ، ويوجد هنا أمثلةٌ واضحةٌ تبيّن المطلب بصورةٍ جيّـدةٍ: عنـدما يُصـدر الإسـلام حكماً ب: «حرمـة شـرب الخمر»، أو فى القوانين الدوليّـة: حول «خطر المخدرات»، فهذه أوامر إلهيّة أو بشـريّة إسـتمدت اصولها من سلسـلة الكائنات الواقعيّة، لأنّ الحقيقة المحضة؛ أنّ الشّـراب و المخدّرات لها أثر تخريبى خطر على روح وجسم الإنسان، فلا يسـلم من تأثير هذه المواد الضّارة و المدمّرة أىّ إنسان، وهذه الحقيقة هى سبب لذلك (الأمر)، و (النّهى). وعندما نقول أنّ الأحكـام الإلهيّـة ناشـئة من المصالـح و المفاسـد؛ فإنّنا بالضّـبط نسـتوحى ذلك من خلال القاعـدة التى تقول: «كلّما حكم به العقل حكم به الشّرع»، وهى أيضاً تُقرر وجود علاقة وثيقة بين الواقع والأحكام: (الأوامر و النّواهى). فما يُشرّع من قوانين فى المجالس التّشـريعيّة البشـريّة، و دراسـة عواقبهـا الفرديّـة و الإجتماعيّـة و وضـع القـوانين على أساسـها، يصـب فى نفس ذلـك المصب بالضّـبط. وخلاصـة القول: أنّه من المُحال على الحكيم أن يصـدر حكماً بعيداً عن الواقعيات فى حياة البشـر، وإلّا فلن يكون قانوناً بل هو لَغو فى لَغو، ولأنّ الواقع هو واحـد لاـ أكثر، فمن الطّبيعى أن يكون الطريق الصّـحيح و المسـتقيم والقـانون الأمثـل واحـد لاـ غير، ممّا يـدعونا للسّـعى الحثيث لإصابـة الحق والواقع والأحكـام والقوانين التى نشـأت عنهـا. إن ما ذُكر آنفاً يبيّن علاقـة النّظريات الكليّـة، فى مجموعة الوجود وخلق الإنسان بالمسائل الأخلاقيّة، ومن هنا فإنّ نشوء المذاهب الأخلاقيّة و تنوعها، يكمن فى هذا السبب بالذات. و بالنّظر إلى ما ذُكر أعلاه، نستعرض الآن المذاهب الأخلاقية:

۱- الأخلاق فى مدرسة الموحّدين:

هؤلاـء يـذهبون إلى أنّ اللّه تعـالى خـالق الكائنـات كلّهـا، فنحن منه ونعود إليه. والهـدف من خلق الإنسـان، هو التّكامـل فى الجوانب المعنويّة و الروحيّة، و مادام التقدم المادى و التّطور الحضارى للبشرية، يتحرك فى خطّ التكامل المعنوى، فهو يُعتبر هدفاً معنويّاً أيضاً. ويمكن تعريف التّكامـل المعنوى بـأنّه: «القرب من اللّه تعـالى، والسّـير على الطّريق الـذى يقرّب الإنسـان لصـفات الكمـال الإلهيّـة». و إعتماداً على هـذا المعيار، فإنّ الأخلاق من وجهه نظر هـذا المـذهب، هى كلّ صـفات الأفعال التى تساعـد الإنسان فى سـيره على هذا الطريق، و التّقييم الأخلاقى فى هذا المذهب، يدور حول القِيَم و المُثل و الكَمالات الرّوحية و المعنويّة و القُرب من اللّه تعالى.

۲- الأخلاق المادية:

من المعلوم أنّ المادّيين لهم مذاهب متعددّة، و المعروف منها الشيوعيّة، حيث يرون كلّ شىء من خلال منظار المادّة، ولا يؤمنون باللّه والمسائـل الروحيّـة و المعنويّـة، ويقولون بأصالـة الإقتصـاد، و يعطون للتأريـخ ماهيّـةً ماديّـةً و إقتصاديـةً، فكـلّ شـىء يؤدى إلى تقوية الإقتصاد الشّـيوعى فى المجتمع، فانّه يعتبر من الأخلاق أو على حد تعبيرهم: «كلّ شىء يعجّل فى الثورة الشيوعيّة، فهو الأخلاق»، فمثلًا المعيار الأخلاقى للكَذب و الصّدق، يقاس بمدى تأثير ذلك السّلوك الأخلاقى على الثّورة، فإذا أدّى الكذب إلى التسّريع بالثورة فهو أمر أخلاقى، وإذا أضـرّ الصّدق بالثّورة، فهو أمر غير أخلاقى! و المذاهب الماديّة الاخرى كذلك، فكلّ مذهب يُفسّـر الأخلاق حسـب ما يرتئيه مسـلكه، فالّـذين يقولون بأصالـة اللّذة، و الإسـتفادة من اللذائذ الماديّة، لا يوجد شـىء عندهم بإسم الأخلاق، أو بالأحرى أنّ الأخلاق عنـدهم، هى الصّـفات و الأفعال الّتى تمهـد الطّريق للوصول إلى اللـذّة. وأمّا الّذين أعطوا الأصالة للفرد والمصالح الشخصـيّة، والمجتمع محترم عنـدهم مـادام الاخلاـق فى القرآن، ج۱، ص: ۵۰ منسـجماً مع منـافع الفرد الشّخصـية، (كما هو الحال فى المـذاهب الغربيّة الرأسـمالية)، فهم يفسّـرون الأخلاق بالامور التى توصـلهم إلى مصالحهم الماديّة و الشخصـيّة، و يضحّون بكلّ شىء لأجل هذه الغاية.

۳– الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة العقليّين:

أمّا الفلاسـفة الذين يقولون بأصالة العقل، ويذهبون إلى أنّ غاية الفلسفة هى: (صَيرورة الإنسان عالماً عقليّاً مضاهياً للعالم العينى)، ففى مجال الأخلاق، يفسّـِرون الأخلاق بالصّفات و الأعمال التى تساعد الإنسان على تحكيم العقل، و سيطرته على القوى و النّوازع البدنية، بعيداً عن الخضوع للشّهوات و الطّبائع الحيوانيّة، و الأهواء النّفسية فى حركة الحياة.

۴– الأخلاق فى مذهب محوريّة الغير:

جماعـة اخرى من الفلاسـفة أعطت الأصاله للمجتمع، وقالوا أنّ الأصالـة للجماعـة لا للفرد، فهم يفسّـِرون الأخلاق بالأفعال التى يكون الغير فيها هو الهدف، وكلّ فعل يعود بالنّفع للإنسان نفسه، فهو فعل غير أخلاقى، والأفعال التى يكون محورها نفع الغير تكون أخلاقيّة.

۵– الأخلاق فى المذهب الوجدانى:

اشارة

قسم من الفلاسـفة قالوا بأصالـة الوجدان لا العقل، ويمكن تسـميتهم ب: «الوجدانيّين»، أو بمؤيّدى: «الحسن والقبح العقلى»، و قصدهم من ذلک العقل العملى لا النّظرى، فالأخلاق عنـدهم عبارةٌ عن سلسـلة من الامور الوجدانيّـة غير البرهانيّة، أى أنّها تُدرك بدون حاجةٍ إلى منطقٍ و استدلالٍ، فمثلًا الإنسان يـدرک أنّ العـدل حسنٌ، و الظّلم قبيـحٌ، و يُشـخّص أنّ الإيثار و الشّـجاعة أمران جيّدان، الأنانيّة و الظّلم و البخل امورٌ قبيحةٌ، و لا يحتاج فى إدراک هذا المعنى، إلى إستدلال عقلى من خلال دراسة تأثير هذه الأفعال و السّلوكيات فى واقع الفرد والمجتمع. وعليه يجب أن نتحرک من موقع تقويـة الوجـدان الأخلاـقى فى الإنسـان، و نُزيـل من الطّريق كـلّ مـا يُضـعف الوجـدان، وبعـدها سـنرى أنّ الوجدان قاضٍ و حاكمٌ جيّدٌ لتشـخيص الأخلاق الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۵۱ الحسنة من القبيحة. المؤيـدون: «للحُسن و القُبـح العقليين»، رغم أنّهم يتكلّمون دائمـاً عن العقـل، ولكن ومن الواضـح أنّهم يقصَـدون العقل الوجـدانى، لا العقل الإسـتدلالى، فهم يقولون إنّ حُسن الإحسان، و قبح الظّلم فى الدائرة الأخلاقيّة لا يحتاج فيهما إلى دليل وبرهان، فالإنسان السّليم النّفس يعيش هـذه المفاهيم الأخلاقيـة، من موقع الوضوح فى الرؤيّـة والبداهـة، وعلى هـذا فإنّهم يقولون بالأصالـة للوجـدان فى دائرة الأخلاق. ولكن الكثير منهم لا ينكرون سـكوت الوجدان عن بعض الامور، و عدم إدراكه لها، وهنا يجب الإسـتعانة بالشّـريعة والوحى لفصل الامور الأخلاقية عن غيرها، وبالإضافة إلى ذلک، إذا ورد تأييد من الشّرع لما حكم به العقل، فإنّ ذلک سيكون عاملًا مهماً فى ترسيخ هذه المفاهيم فى عالم الوجدان، و ترجمتها على مستوى الممارسة والعمل.

النّتيجة:

بعد الإشارة إلى أهمّ المذاهب الأخلاقية فى هذا الفصل، تتبيّن خصوصيات المذهب الأخلاقى للإسـلام بصورةٍ كاملةٍ، حيث يرى أنّ: (أساس هـذا المـذهب الأخلاقى، هو الإيمان بربوبيّـة اللّه تعالى، الذى هو الكمال المطلق و مُطلق الكمال و أوامره ساريةٌ و جاريةٌ على جميع العـالم، وكمـال الإنسـان فى تطـبيق صـفاته الجلاليـة و الجماليّـة، و القرب من اللّه تعـالى أكثر فـأكثر). وهـذا لاـ يعنى أنّه لاـ أثر للصـفات الأخلاقية فى إنقاذ الإنسان والمجتمع البشرى، من عناصر الشّر وقوى الإنحراف، ولكن وفى نظرةٍ إسلاميّةٍ عالميّةٍ صحيحةٍ، أنّ العالم عبارةٌ عن وحدةٍ متماسكةٍ، وأنّ واجب الوجود هو قُطب هذه الدائرة، و ما عداه مُتّصل به و مُعتمد عليه، و فى الوقت نفسه هناک علاقـة و إنسـجام تام بين المخلوقات، فكلّ شـىء يساعـد على إصـلاح المجتمع البشـرى وتطهيره من البؤر وأشـكال الخلل الأخلاقى،

فسیکون عاملًا مؤثراً فی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۲ إصلاح الفرد فی دائرهٔ السّلوک الأخلاقی، وبالعکس. وبعبارهٔ اخری: إنّ القیم الأخلاقیّهٔ لها إزدواجیّهٔ فی التأثیر، فتصنع الفرد والمجتمع علی السّواء، و الذین یتصورون أنّ المسائل الأخلاقیّهٔ هدفها الغیر ولیس النّفس علی أشتباه کبیر، لأنّ مصلحهٔ الإثنین فی الواقع واحدهٌ، لا تتجزّأ إلّافی مراحل مقطعیّهٔ محدودهٔ وقصیرهٔ، و قد تقدّم الحدیث عن هذا المفهوم، و سیأتی فی المستقبل إن شاء اللّه تعالی.

ملاحظات:

۱- الأخلاق والنسبیّهٔ

اشارهٔ

هل أنّ الأخلاق الحسنهٔ و القبیحهٔ، و الرّذائل و الفضائل، جیدهٌ أو قبیحهٌ ذات أبعاد مطلقهٌ فی کلّ مکان وزمان، أم أنّ هذه الصفات نسبیّهٔ؛ فربّما تکون فی مکان وزمان آخر جیدهٔ أو سیئهٔ؟ الذین یقولون أنّ الأخلاق نسبیّهٔ ینقسمون إلی قسمین: الفئهٔ الاولی: هم الّذین یقولون بنسبیّهٔ عالم الوجود کلّه، فإذا کان الوجود والعدم نِسبّیان، فإنّ الأخلاق تدخل فی هذه الدائرهٔ أیضاً. الفئهٔ الثانیهٔ: هم الذین لا یرون أنّ هناک علاقهُ بین عالم الوجود وبین الأخلاق، فالمعیار عندهم لمعرفهٔ الأخلاق الجیّدهٔ من غیرها هو المجتمع، و قبوله وعدم قبوله لها، وهذا یعنی أنّ الشّجاعهٔ ربّما تکون فضیلهٔ عند مجتمعٍ، فی ما لو کانت مقبولهٌ، و قد تکون نفس تلک الفضیلهٔ رذیلهٔ فی مجتمعٍ آخر. وهذه الفئهٔ، لا- تعتقد بالحُسن و القُبح الذاتی للأفعال أیضاً، والمعیار هو قبول وعدم قبول المجتمع لها. وقد رأینا فی البحث السّابق، أنّ المسائل الأخلاقیّهٔ تعتمد علی معاییر للقیاس، تکون ولیدهٔ النّظرات الکونیّهٔ، فالمذهب الذی یعتبر المجتمع هو الأصل والأساس لقبول الامور، و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۳ بشکلها المادی، فان أفراده لا وسیلهٔ لهم إلّاالقبول بنسبیّهٔ الأخلاق، لأنّ المجتمع البشری یکون دائماً فی حالهٔ تغیّر وتحوّل، وعلی هذا فلیس من العجیب فی أمر هذه الجماعهٔ أنّهم جعلوا الرأی العام للمجتمع، هو المرجع لتشخیص الحَسن و القَبیح من الأخلاق. و نتیجهُ مثل هذه العقیدهٔ، معلومهٌ و واضحهٌ قبل أن تظهر للوجود؛ لأنّها تُسبب فی تبعیّهٔ القیم الأخلاقیهٔ للمجتمعات البشریّهٔ، و التّوافق مع الظّروف ومتغیرات وأحوال ذلک المجتمع، والحال أنّ المجتمع هو الذی یجب أن یتبع الاصول الأخلاقیّهٔ: لِتُصلح مفاسده. فمن وجههٔ نظر هذه الجماعهٔ، أنّ وأد البنات و هنّ أحیاء، فی زمن المجتمع الجاهلی العربی القدیم، هو أمر أخلاقی، وکذلک الغارات التی کانت تشنّها القبائل علی بعضها البعض، و تعتبر عندهم من المفاخر، و لأجلها کانوا یُحبّون الأولاد ویقدّرونهم، حتی یکبروا و یحملوا السّلاح لیحاربوا مع آبائهم، فهی أیضاً أمر أخلاقی، وکذلک الجنسیّهٔ المثلیّهٔ المتفشیّهٔ فی الغرب، تُعتبر من وجههٔ نظرهم أمراً أخلاقیّاً؟! فالعواقب الخطیرهٔ التی تحملها أفکار هذه المذاهب فی حرکهٔ الواقع الإجتماعی، لا تخفی علی عاقلٍ طبعاً. ولکن فی الإسلام، فإن المعیار الأخلاقی و الفضائل و الرّذائل، تُعیّن من قبل الباری تعالی وذاته ثابتهٌ لا تتغیر، فالمُثل و القِیم الأخلاقیّهٔ ستکون ثابتهً و لا تتغیر، ویجب أن تکونَ هی القاعدهُ الأصلُ للأفراد والمجتمع فی سلوکهم الأخلاقی، لا- أن تکون الأخلاق تابعهٌ لرغبات و مُیول المجتمع. الموحدون یعتقدون أنّ الفطرهٔ والوجدان الإنسانی إذا لم تتلوث؛ فستبقی ثابتهً أیضاً، بإعتبارها تمثل النّور المنعکس عن الذّات المقدسهٔ للباری تعالی وعلی هذا فإنّ الأخلاقیّات تعتمد علی الوجدان، و بعبارهٍ اخری فإنّ القُبحَ و الحُسنَ العَقلیان: (المقصود العقل العملی لا النّظری)، یثبتان أیضاً.

الإسلام ینفی نسبیّهٔ الأخلاق:

طرح القرآن الکریم فی آیاتٍ عدیدةٍ کلمة «الطیّب والخبیث» بصورةٍ مطلقةٍ، ولم یجعل الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۵۴ للمجتمعات البشریّة دور فی صیاغة القیم فی هذا المجال، فنقرأ فی الآیة (۱۰۰) من سورة المائدة: «قُل لا یَسْتَوی الخَبِیثُ وَالطَّیِّبُ وَلَو أَعْجَبَکَ کَثرَةُ الخَبِیثِ». وفی الآیـة (۱۵۷) من سـورة الأعراف فی وضـعها للرّسـول الأکرم صـلی الله علیه و آله: «وَیُحِلُّ لَهُم الطَّیِّبـاتِ وَیُحَرِمُ عَلِیهِم الخَبَائِثَ». و فی سورة البقرة الآیة (۲۴۳) یقول الله تعالی «إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضلٍ عَلَی النَّاسِ وَلَکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لایَشکُرُونَ». وفی الآیة (۱۰۳) من سورة یوسف علیه السـلام یقول الله تعالی «وَما أَکْثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصْتَ بِمُؤمِنِینَ». فی هذه الآیات یُعتبر الإیمان و الطّهارة و الشّکر، من القیم والمُثـل وإن کـان أکـثر النـاس یخـالفون ذلـک، والکفر و الخُبث و کفران النعمـة، تعتـبر فی مقابـل القِیم، رغم أنّ الأکثریّة تتحرک فی هـذا الخـط. وقـد ذکر أمیرالمـؤمنین علیه السـلام، هـذا المعنی کـثیراً فی خُطَبِه فی نهـج البلاغـة. و أنّ قبـول و عـدم قبول الأکثریّة لُخلقٍ أو عملٍ ما، لا یکون مِعیاراً للفضیلة و الرّذیلة و کذلک الحُسن و القُبح. فقال الإمام علیه السلام فی خطبةٍ: «یا أَیّها النّاسُ لا تَسـتَوحِشُوا فی طَرِیقِ الهُدی لِقِلَّةِ أَهلِهِ فإنَّ النّاسَ قَد إجتَمَعُوا عَلی مائِدةٍ شِبَعِها قَصِیرٌ وَجُوعِها طَوِیلٌ». «۱» وقال فی خطبة اخری «حَقٌّ وَ باطِـلٌ، وَلِکـلٍّ أهـل؛ فَلإِن أمِرَ الباطِلُ لَقَـدِیماً فَعَلَ وَ لإن قَلَّ الحَقُّ فَلَرُبَّما وَلَعَلّ» «۲». فکلّ هـذه النّصوص الإسـلامیّة تنفی النسبیّة فی الأخلاق، و لا تعتبر قبول الأکثریّـة فی المجتمع معیـاراً لها. ویوجـد فی القرآن الکریم والروایات الإسـلامیّة، شواهـد کثیرة علی هـذه المسألة، لو جمعت لبلغت کتاباً کبیراً.

سؤال:

وهنا سؤال یفرض نفسه وهو: إنّ النسبیّـة فی الأخلاق قد تکون مقبولةً فی بعض الموارد فی الشّـرائع السّـماویّة، (و خُصوصاً الإسـلام)؛ فمثلًـا یعتبر الکـذب ضـد القیم والمُثـل وعملًـا غیر أخلاقی، لکنّ الکـذب لغرض الإصـلاح بین الناس أو فی مقام المشورة، یعتبر عملًا أخلاقیّاً، وهذه المسألة لیست بقلیلة الموارد فی التعالیم الإسلامیة، فیعتبر هذا نوعاً من قبول النسبیّة للأخلاق.

الجواب:

إنّ نسبیّـة الأخلاق و الحُسن و القُبـح مطلبٌ، و الإسـتثناء مطلب آخر. و بعبارةٍ اخری لا یوجـد أصل ثابت فی النسبیّـة، فالکـذب لا هو حسن ولا هو قبیح، وکذلک العدل والإحسان أو الظّلم و الطّغیان، فحُسنها و قُبحها لا یتبیّن للإنسان إلّاإذا قبلتها الأکثریّة من موقع القیم أو رفضـتها کـذلک. ولکن فی الإسـلام والتعالیم السّـماویة، فالکذب و الظّلم والبخل و الحسد و الحقد، کلّها تعتبر ضد القیم و المُثل، سواء قبلتها أکثریّـة الناس أم لا، وبالعکس، فالإحسان والعدالـة والصّـدق و الأمانة، قیم و مُثل رفیعةٌ سواء قبلها المجتمع، أم لا. فهذا هو الأصل الکلّی للمسألة، و لا مانع من وجود الإستثناء له، فالأصل کما هو واضحٌ من إسمه أساس وجذر الشیء، و الإستثناء بمنزلة بعض الفروع والأوراق الزّائـدة، ووجود بعض الإسـتثناءات فی کلّ قاعـدةٍ لا یمکن أن یکون دلیلًا علی نسبیّتها، فإذا تجلّی لنا هـذا الفرق بین هـذین الإـثنین، أمکننـا تجنّب الوقوع فی کثیر من الأخطـاء. ویجب الإلتفـات أیضـاً الی أنّ الموضوعـات یمکن أن تتغیّر بمرور الزّمان أیضـاً، فالأحکـام التابعـة للموضوعات تتغیّر أیضاً، وهـذا الأمر لا یمکن أن یُعتبر دلیلًا علی النسبیّـة. بیان ذلک: إنّ لکلّ حکمٍ موضوعه الخاص؛ العـدوان علی الآخرین یعتبر جنایـةً قابلـةً للقصاص و التّعقیب، ولکن یمکن أن یتغیّر الموضوع، فی یـد الطّبیب والجرّاح الذی یمسـک الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۵۶ المِبضع لینقـذ حیاة المرضـی فیفتح بمشـرطه القلب ویخرج الغدد الخبیثة، فالموضوع یتغیّر هنـا، فلا یمثّل هـذا العمل جنایـة، بل یسـتحق عمله التّقـدیر و الجائزة. فلا یمکن لأحـد أن یعتبر تغیّر الأحکام والموضوعات دلیلًا علی النسبیّة، والنسبیّة تقوم علی أساس تبدّل الأحکام، بالرّغم من عدم تحوّل وتغیّر الموضوع الماهَوی، والموضوعی بالنسـبة للأشـخاص أو

الأزمان المختلفة. وأحكام الشّرع كذلك، فالخمر حرام ونجس، ولكن من الممكن وبعد مرور عدّة أيّام، أو بإضافة مادّةٍ ما يمكن تحويله إلى خلّ طاهر محلّل، فلا يمكن لأحدٍ أن يعتبر هذه من نسبيّة الأحكام، والنسبيّة هنا أن يكون الخمر حلال عند مُستحلّيه وحرامٌ عند مانعيه، من دون أن يتغيّر شيء فى ماهيّة الخمر. فى المسائل الأخلاقيّة أيضاً، يمكن أن نصادف موضوعات، تكون للوهلة الأولى من الفضائل، ولكن و بالتّحول فى دائرة الموضوع، يمكن أن تتغيّر إلى رذيلةٍ؛ فعدم الخوف مثلًا وإلى حد الإعتدال يُعتبر شجاعة وفضيلةٌ، ولكن إذا تعدّى الحدود، فيكون تهوّراً ويدخل فى حيّز الرّذائل. وكذلك فى الامور الاخرى التى تُشابهها، فالكذب يعتبر منشأ للمفاسد الكثيرة، وسبباً لزوال الثّقة بين النّاس، ولكن إذا كان لغرض الإصلاح بين الناس، فهو حلالٌ و فضيلةٌ. و يمكن أن يعتبر البعض، هذه الامور والتغيّرات فى المواضيع من النسبيّة، ولا نزاع فيما بيننا فى التّسمية، ومثل هذا النزاع يعتبر لفظيّاً، لأنّه مثل هذه الموارد تعتبر من قبيل التغيّر فى الموضوع و الماهيّة، وإذا كان قصد أصحاب النسبيّة هذا، فلا بأس، ولكنّ المشكلة فى أن يكون المعيار: للفضيلة و الرّذيلة و الحُسن و القُبح الأخلاقيين، هو قبول أكثريّة المجتمع. و من مجموع ما تقدم، نستنتج أنّ نسبيّة الأخلاق مردودة، من وجهة نظر الإسلام والقرآن والمنطق والعقل، وطرح مسألة النسبيّة تلك تُعتبر أو تُساوى عدم الأخلاق، لأنّه وطبقاً للنظريّة النسبيّة للأخلاق، فإنّ كلّ رذيلةٍ إنتشرت فى المجتمع فهى فضيلةٌ، و كلّ مرضٍ أخلاقى تفشّى بين الناس؛ فهو صحّةٌ و سلامةٌ، و بدلًا من أن تكون الأخلاق عاملًا لرقيّ المجتمع فى خطّ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۵۷ التّكامل الحضارى، فستتحول إلى عامل لنشر الفساد والإنحطاط.

۲- التّأثير المتقابل بين (الأخلاق و (السّلوك)

اشارة

علاقة الأخلاق والعمل، وتأثير الأخلاق فى السّلوك أمر لا يخفى على أحد، لأنّ الأعمال عادةً تنبع من الصّفات الداخليّة فى النّفس الإنسانية، فالشّخص الذى تسيطر حالة البخل والحسد و الكِبر على قلبه و فكره و روحه، فمن الطّبيعى أن تكون أعماله على نفس الشّاكلة، فالحسود يتحرك فى أعماله دائماً من موضع هذه الخصلة الذميمة، التى هى كالشّعلة المتّقدة فى روحه، تسلب الرّاحة منه، وكذلك الأفراد المتكبرين، مشيتهم وكلامهم و قيامهم و قعودهم، كلّها تعطى حالة الغرور فيهم، و تشير إلى روح التّكبر فى نفوسهم، و هذا الحكم يشمل الصفات، و الأخلاقيّة الصّالحة والطالحة على السّواء. و لأجل ذلك، يعتبر بعض المحقّقين مثل هذه الأعمال، أعمالًا أخلاقية، يعنى أعمال تنشأ من الأخلاق الصّالحة و الطّالحة بصورةٍ بحتةٍ، وفى مقابل الأعمال التى تصدر أحياناً من الإنسان، تحت تأثير الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر، و الإرشاد و النّصح مثلًا، من دون أن يكون لها جذر أخلاقى، وطبعاً مثل هذه الأعمال تعتبر أقلّ بالنسبة للأعمال الأخلاقيّة. و هنا يمكن أن نستنتج، أنّه ولأجل إصلاح المجتمع وإصلاح أعمال الناس، يتوجب علينا إصلاح جذور الأعمال الأخلاقيّة، لأنّ أغلب الأعمال تعتمد على الجذور الأخلاقيّة، وعلى هذا كان أكثر سعى الأنبياء عليهم السلام والمصلحين الإجتماعيين الإسلاميين، يصبّ فى هذا السبيل، لأنّه و بالتّربية الصّحيحة، تنمو وتتبلور الفضائل الأخلاقيّة فى كلّ فرد من أفراد المجتمع، و تصل الرذائل إلى أدنى الحدود، وبذلك يمكن إصلاح الأعمال التى تترشح من الصّفات الأخلاقيّة، و الإشارة فى بعض الآيات القرآنية إلى «التّزكية»، تصبّ فى هذا المصب أيضاً، هذا من جهةٍ: و من جهةٍ اخرى، أنّ التّكرار لفعل ما يمكن أن يكون له الأثر فى تكوين الأخلاق، لأنّ كلّ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۵۸ فعل يفعله الإنسان سيؤثر فى روحه و نفسه، و سيعمّق ذلك الأثر حتى يصبح عادةً، وإذا تكرّر بصورة أكبر فسيتعدّى مرحلة العادة، و يتبدّل إلى «مَلَكةٍ» و «حالةٍ»، تدخل فى الخصوصيّات الأخلاقيّة للإنسان. و على ذلك، فإنّ العمل والأخلاق لهما تأثيرٌ مُتقابل، ويمكن أن يكون أحدهما سبباً للآخر. ولهذه المسألة شواهدٌ

کثیرةٌ فی القرآن الکریم منها: ۱- فی الآیة (۱۴) من سورة «المطفّفین»، وبعد الإشارة إلی الصفات القبیحة لطائفةٍ من أهل النار، و المعذبین، قال الله تعالی «کَلّا بَل رانَ عَلی قُلُوبِهِم ما کَانُوا یَکْسِبُونَ». وهذه الآیة دلیلٌ علی أنّ الأعمال القبیحة تجثم علی القلب، کما یجثم الصّدأ علی الحدید، و تُزیل النّور و الصّفاء الفطری الدّاخلی للإنسان و تُطفئهُ، وتصوغه بقالبها. ۲- فی الآیة (۸۱) من سورة البقرة قال الله تعالی «بَلی مَن کَسَبَ سَیِّئَةً وَأحاطَتْ بِهِ خَطِیئَتُهُ فَاولِئکَ أصحابِ النّارِ هُم فِیها خالِدُونَ». والقصد من الإحاطة للخطیئة، هو تراکم إفرازات الخطیئة فی نفس الإنسان حتی تصل النّفس إلی مرحلة الختم، و الطّبع، و تتطبّع بالذنوب، فلا یُفید فیها النّصح و الموعظة و لا الإرشاد، و کأنّه قد تغیّرت ماهیّة ذلک الإنسان، و صفاته الإخلاقیة فی واقعه النفسی، بل و بالإصرار علی الذّنوب، فإن المعتقدات الدینیّة للفرد ستطالها ید التّغییر أیضاً. کما وأشارت الآیة (۷) من سورة البقرة الواردة فی بعض الکفار المعاندین، إلی هذا المعنی أیضاً، حیث تقول: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِهِم وَعَلَی سَمعِهِم وَعَلی أَبصارِهِم غِشاوةٌ وَلَهُم عَذابٌ عَظِیمٌ». ومن الواضح أنّ الباری تعالی شأنه: لا یتعامل مع أحد من الناس من موقع العداوة و الخُصومة، ولکنّ الواقع أنّ آثار أعمال الناس هی التی تضع الحُجب والحواجز علی الحواسّ، فلا تُدرک الحقیقة، (و نسبة هذه الامور للباری تعالی، إنّما هو لأجل أنّ اللَّه تعالی هو مُسبّب الأسباب و کلّ شیء إنّما یصدر عن ذاته المقدّسة). و فی الآیة (۱۰) من سورة «الرّوم» یتعدی ذلک و یقول الله تعالی إنّ الأفعال السیّئة تغیّر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۹ عقیدة الإنسان و تُؤدی به إلی الحضیض: «ثُمَّ کَانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ أساءوا السُّوأی أنْ کَذَّبُوا بآیاتِ اللَّهِ وَ کَانُوا بِهایَستهزءُونَ». و منها یتبیّن أنّ الأعمال و الصّفات القبیحة وإرتکاب الذنوب، إذا ما أصرّ و إستمرّ علیها الإنسان، ستمتد إلی أعماق نفس الإنسان، و لا تؤثّر علی أخلاقه فحسب، بل تقلب عقائده رأساً علی عقب أیضاً. و نقرأ فی آیةٍ اخری من القرآن الکریم: أنّ الإصرار علی الذنب وتکراره وسوء العمل، یُمیت عند الإنسان حسّ الّتمییز و التّشخیص، بحیث یری الحسن قبیحاً والقبیح حَسناً، فنقرأ فی الآیة (۱۰۳ و ۱۰۴) من سورة الکهف حیث تقول: «هَلْ نُنَبِّئُکُم بِالأخسَرِینَ أَعمالًا الّذینَ ضَلَّ سَعیُهُم فِی الحَیاةِ الدُّنیا وَهُم یَحْسِبُونَ أَنَّهُم یُحْسِنُونَ صُنعاً». ۳- و فی آیةٍ اخری یصرح القرآن الکریم بأن الإصرار علی الکذب و خُلف الوعد مع اللَّه سبحانه، سیورث الإنسان صفة النّفاق فی قلبه، فیقول الله تعالی: «فَأَعقَبَهُم نِفاقاً فِی قُلُوبِهِم إلی یَومِ یَلقَونَهُ بِما أَخلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما کَانُوا یَکذِبُونَ». ویعلم القاری الکریم أنّ «یکذّبون»: هو فعل مضارع ویدل علی الإستمرار، حیث یُبیّن تأثیر هذا العمل السّیء و هو الکذب فی ظهور روح النّفاق؛ لأننا نعلم أنّ الکذب و خاصّةً فی لباس الإنسان الصادق، لیس هو إلّاإختلاف الظّاهر و البّاطن، و النّفاق الباطنی هو تبدیل هذه الحالة إلی ملکةٍ.

التّأثیر المتقابل للأخلاق والعمل فی الأحادیث الإسلامیّة:

الحقیقة أنّ الأعمال الصالحة والطالحة تؤثر فی روح الإنسان وتبلورها، وتحکّم الخلق السیّ، و الحسن فیها، ولهذا الأمر صدیً واسعاً فی الأحادیث الإسلامیّة، ونذکر منها هذه الأحادیث الثلاثة الآتیة: ۱- نقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الصادق علیه السلام: کان أبی یقول: «ما مِن شیءٍ أفسدُ لِلقلَبِ مِن الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۰ خَطیئةٍ، إنّ القَلبَ لیُواقِع الخَطِیئةَ فَما تَزالُ بِهِ حتّی تَغلِبَ عَلَیهِ فَیَصیرَ أعلاهُ أسفَلَهُ» «۱». طبعاً هذا الحدیث، أکثر ما ینظر إلی تحول وتغیّر الأفکار و تأثّرها بالذنّوب، ولکن و بصورة کلیّة، فهو یبیّن تأثیر الذّنوب فی تغییر روح الإنسان. ۲- فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام: «إذا أذنَبَ الرّجلُ خَرَجَ فی قَلبِهِ نُکتَةٌ سَوداءٌ، فإنْ تَابَ إنمَحَتْ وَإنْ زَادَ زادَتْ، حتّی تَغلِبَ عَلی قَلبِهِ، فَلا یَفلِحُ بَعدَها أبداً» «۲». ولأجل ذلک نبّهت الأحادیث الإسلامیّة علی خطورة الإصرار علی الذّنب، و أنّ الإصرار علی الذّنوب الصّغیرة یتحول إلی الکبائر «۳». وجاء هذا المعنی فی الحدیث المعروف، عن الإمام علیّ بن موسی الرّضا علیه السلام، فی معرض جوابه للمأمون، و فیه تبیان کُلّی حول مسائل الحلال و الحرام، و الفرائض والسّنن، فمن المسائل التی أکّد علیها الإمام علیه السلام، هو أنّه جعل الأصرار علی الذّنب، من الذّنوب الکبیرة «۴». ۳- جاء فی کتاب (الخصال)،

عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «أربعُ خِصالٍ يُمِتْنَ القَلبَ: الذَّنبُ عَلَى الذَّنبِ ...». «۵» وجاء مُشابه لهذا المعنى فى تفسير «الدُّر المنثور» «۶». هذه التّعبيرات توضّح جيّداً أنّ تكرار عملٍ ما، له تأثير فى قلب و روح الإنسان بصورةٍ قطعيةٍ، و يصبح مصدراً لتكوين الصّفات: الرّذيلة والقبيحة، ولأجل ذلك جاءت الأوامر للمؤمن إذا ما أذنب وأخطأ، بالتّوبة السّريعة، ليمحى آثارها من القلب، ولئلّا تصبح عنده على شكل «حالةٍ» و «مَلكةٍ» و صفةٍ باطنيّةٍ، فجاء فى الأحاديث الشّريفة، أنّه يتوجب على الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۶۱ الإنسان أن يجلو الصّدأ من على قلبه، كما نقرأ فى الحديث عن الرّسول الكريم صلى الله عليه و آله: «إنّ القُلُوبَ لَتَرِينُ كَما يَرِينُ السّيفُ، وَ جَلاؤها الحَدِيثُ» «۱».

۳- الأخلاق الفرديّة و الإجتماعيّة

المسألة الاخرى الّتى يتوجب ذكرها هُنا هى: هل أنّ المسائل الأخلاقيّة تتشكل من خلال علاقة النّاس بالآخرين، بحيث أنّ الإنسان إذا ما عاش وحيداً فريداً لا يكون لديه مفهوم حول الأخلاق، أو أنّ بعض المفاهيم الأخلاقيّة لها موارد فى سلوك الإنسان حتى لو عاش لِوَحده، بالرّغم من أنّ أعظم المسائل الأخلاقيّة، تتجلى أكثر فى عمليّة علاقة الأشخاص مع بعضهم البعض، ولهذا يمكن تقسيم الأخلاق إلى قسمين: فرديّة و إجتماعيّة؟. للجواب عن هذا السّؤال، يجب أن نلفت أنظاركم، إلى البحث الذى جاء فى كتاب «زندگى در پرتو أخلاق»، «الحياة على ضوء الاخلاق» و سنورده بالكامل هنا: (يعتقد البعض أنّ كلّ الاسس الأخلاقية، تعود إلى العلاقات الإجتماعية مع الآخرين، فلو إنعدم المجتمع وعاش الإنسان وحيداً فريداً، أو أنّ كلّ إنسان عاش مستقلًّا عن الآخر، لا يعرف عنه شيء، فلن يكون هناك مفهوم للأخلاق أصلًا!، لأنّ الحسد و التّواضع والكِبَر، و حُسن الظّن، والعدالة والجَور والعفّة والكَرم، كلّها من المسائل الّتى لا يتجلى مفهومها إلّا بوجود المجتمع خاصّة، وتعامل النّاس مع بعضهم البعض، وبناءاً على هذا، فإنّ الإنسان بدون المجتمع، يساوى الإنسان من دون أخلاق). (ولكن بعقيدتنا، وعلى الرّغم من الإعتراف، بأنّ كثيراً من الفضائل والرّذائل الأخلاقيّة، لها علاقة مباشرة بالحياة الإجتماعية، ولكنّها ليست بصورةٍ مطلقةٍ، فكثيرٌ من الأخلاق لها جوانب فردية، و تصدق على الإنسان الوحيد بصورةٍ خاصةٍ، فمثلًا الصّبر والجزع، والشّجاعة والخوف، والمشاجرة والكسل، وأمثال ذلك من الحالات والصّفات النّفسية التى تفرضها حالات الصّراع مع الطّبيعة، وكذلك الغفلة والشّعور تّجاه الخالق الكريم، و الشّكر والكفران الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۶۲ لنعمه التى لا تُحصى وما شابه تلك الامور، الّتى بحثها علماء الأخلاق فى كتبهم، وعدّوها من الفضائل أو الرّذائل، فكلّ تلك الامور يمكن أن تدخل فى الإطار الفردى للسّلوك، وتصدق على الإنسان المعزول عن المجتمع ومن هنا يتبيّن أنّ الأخلاق على قسمين: «أخلاقٌ فرديّةٌ» و «أخلاقٌ إجتماعيّةٌ». و من المعلوم أنّ الأخلاق الإجتماعيّة، التى لها الثّقل الأكبر فى علم الأخلاق، وصياغة شخصيّة الإنسان: تدور حول هذا المحور، وإن كنّا لا ننسى أيضاً أنّ الأخلاق الفرديّة لها وزنها، و وضعها الخاص بها) «۱». ولا شكّ أنّ هذا التّقسيم، لا يقلّل من قيمة المسائل الأخلاقيّة، ولكنّه يُقسّم المباحث الأخلاقيّة إلى درجاتٍ من حيث الأهميّة، ولا داعى لإتلاف الوقت فى معرفة وتمييز الأخلاق، هل أنّها فردية أم إجتماعية، وما أشرنا إليه آنفاً، يكفى للإحاطة بمعرفةٍ إجماليّةٍ حول هذا الموضوع. ولا يمكن انكار أنّ الأخلاق الفردية، لها تأثيرها غير المباشر فى القضايا الإجتماعية أيضاً.

دعائم الأخلاق

اشارة

إذا شبّهنا الأخلاق بشجرة باسقةٍ مثمرةٍ، معرضةٍ للآفات والأخطارِ، فدعامتها الأخلاقيّة يمكن أن نُشبّهها بالفلّاح، أو الماء الذى يجرى من تحتها، ولولا الماء والفلّاح ليَبِست تلك الشّجرة، أو لأُصيبت بأنواع الآفات و الأمراض، حتى تموت أو يغدو ثمرها قليلًا. وقد

إختلف علمـاء الأخلاق والفلاسـفة، فى صـياغة الـدّعائم الأساسيّة للأخلاق بشـكلٍ كبيرٍ، فكلّ مجموعـةٍ تـذكر آرائها و نظراتها حول المسألة، تبعاً لرأيها ونظرتها فى مسألة معرفة العالم. و نشير هنا إلى عدّة نماذج مهمّة:

۱– دَعامة الإنتفاع

يوصـى البعض بالأخلاق، لأنّها تعود على الإنسـان بـالنّفع المادّى المباشـر، فمثلًا تُراعى إحـدى المؤسّسات الإقتصاديـة، أصل الأمانة والصّدق بشـكلٍ دقيقٍ جدّاً، وتعطى المعلومات الواقعيّة لزبائنها بدون أىِّ تلاعب، فمثل هذه المؤسّسة سـتكون بعد سـنوات، مورد ثقة النّاس و محل إعتمادهم، مما سيعود عليها بالنّفع الكبير الطّائل. وبناءً على ذلك، قـد يتحرك الأشـخاص فى سـلوكهم الأخلاقى، كلٌّ حسب موقعه. فمثلًا عنـدما يكون موظّفاً فى المصـرف أو البنك، فهو يُراعى منتهى الأمانة والدّقة، لكى يعود على الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۶۴ البنك بالنّفع الكبير، ولكن يمكن أن يتحول إلى خائن، بمجرد أن يضع قـدمه خارج المصـرف، لّانّ فائـدته سـتكون فى الخيانـة حينهـا. وقـد نرى تاجراً، يحرص أن يكون فى منتهى الأدب و اللّطف و اللّياقـة مع زبائنه، لأجل كسب المزيـد منهم، ولكنّه مع عائلته و أولاده، يكون فى منتهى الفضاضة، لا لشـىء إلّالأنّ الأخلاق الحسـنة مَحلُّها فى محلّ عمله، وستعود عليه بالنّفع المادى الأكثر. فمثل هذه الأخلاق لا دعامة لها، إلّاالنّفع و الإستغلال، وأهمّ عيبٍ فى المسألة، هو أنّه لا يعير للأخلاق أهميّةً ولا أصالةً، لأنّه يستمر فى إسـتغلاله، سواءً كان عن طريق الأخلاق، أم بعقيدته التى هى ضدّ الأخلاق. وذهب البعض الآخر إلى صـياغة حِكمةٍ معدّلةٍ لهذا النمّط من الأخلاق، و نادوا بالأخلاق لا من أجل المصالح الشّخصيّة، ولكن لتعود على مصلحة البشر جميعاً، لإعتقادهم بأنّ الأسس الأخلاقيّة إذا تزلزلت فى المجتمع، فستتحول الحياة إلى جهنّم تحرق كلّ شـىء، وستتحول أدوات الإلفة والتعاون فى المجتمع، إلى حطبٍ يُبقى النـار مشـتعلةً، فى حركـة الواقع الإجتمـاعى المضـطرب. هـذا النّوع من التّفكير يعتبر أرقى من سـابقه، ولكنّ الأخلاق هنا مجرد وسـيلةٍ لجلب النّفع و الرّاحـة و الرّفاه، ولا أساس للفضائل الأخلاقيـة فيها. فالماديّون لا يمكنهم أن يتجنبوا مثل هذا النوع من التّفكير، لأنّهم لا يعتقـدون بالوَحى ولا نُبوّة الأنبياء، وينزلون بالأخلاق من السّـماء إلى الأرض، و يجعلونها مُجرد وسـيلةٍ للإنتفاع والرّاحة والإسـتغلال لا أكثر. ولا ـ شكَّ ولا ريب، فى أنّ الأخلاق لها مثل هـذه المعطيات الماديّـة الإيجابيـة، فى وعى الناس كما أشـرنا سابقاً، و لكن السّؤال هو: هل أنّ أسس ودعائم الأخلاق، تنحصر فى هذه المرتكزات الماديّة، أو أنّ مثل هذه المرتكزات والمعطيات، يجب أن تُدرس على أسـاس أنّهـا من المسائل الجانبيّـة، و المتفرّعـة على علم الأخلاق؟. و على أيّـة حال، فإنّ الإيمان بالأخلاق الّتى يكون أساسـها النّفع و الإسـتغلال، يخدش الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۶۵ أصالـة الأخلاق، ويقلل من قيمتها وقدسـيّتها، ومن ناحيةٍ اخرى فإنّ الإنسان فى حالة تقاطع مصـلحته مع الأخلاق، فإنّه سيضـرب بالأخلاق عَرض الحائط، و يتّبع مصـلحته الشخصيّة، الّتى إعتبرها دعامته و أساسه، فى حركة السّلوك الإجتماعى والأخلاقى.

۲– الدّعامة العقليّة

الفلاسـفة الّذين يعتقـدون بحكومـة العقل ولزوم اتّباعِه فى كلّ شـىء، يعتبرون دعامة الأخلاق هى إدراك العقل: للقبيح والحسن من الأفعال والصّفات الأخلاقيّة، فمثلًا يقولون أنّ العقل يُدرك جيّداً أنّ الشّجاعة فضيلةٌ والجبنُ رذيلةٌ، و الأمانةُ و الصّدقُ فضيلةٌ وكمالٌ، و الخيانـةُ و الكـذبُ نقصـانٌ، ونفس إدراك العقـل لهـا، هو البـاعث والمحرّك لإتّبـاع الفضـائل وترك الرذائل. وقال البعض الآخر، إن إدراك الوجدان هو الأساس، فيقولون: أنّ الوجـدان وهو العقل العملى، أهمّ شـىء فى الإنسان، لأنّ العقل النّظرى يمكن أن يُخطىء، ولكن الوجـدان و الضّـمير ليس كـذلك، وبإمكـانه أن يقود البشـريّة إلى ساحل الأمن والسّـعادة. و عليه، و بما أنّ الوجـدان يقول: إنّ الأمانـة و الصّـدق و الإيثار، و السّـخاء، و الشّـجاعة هى امور حسـنةٌ وجيّـدةٌ، فهو بمفرده يكون دافعاً و مُحرّكاً، نحو نيل تلك الأهداف والفضائل. وكـذلك بالنّسـبة للبُخل، والأنانيّـة و أمثالها، فإنّ الوجـدان يقول أنّها قبيحـة، وذلك يكفى فى الإرتـداع عنها وتركها. وهنا

تتحد الدّعامـة العقلية و الوجدانيّة، فهما تعبيران مختلفان لحقيقةٍ واحدةٍ. و لا شكّ أنّ وجود هذا الأساس و الدّعامة للأخلاق، لا يخلو من حقيقـةٍ، و هو فى حدّ ذاته دافعٌ حسنٌ للسّعى إلى تربية النّفوس، و ترشيد الفضائل الأخلاقية، فى واقع الإنسان والمجتمع. ولكن و بـالنّظر إلى ما ذكرناه فى بحث الوجدان «۱»، فإنّ الوجدان يمكن أن يُخدع، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ اخرى أنّ الوجدان و بالتّكرار لفعل القبائح و الرّذائل، فإنّه سيأنس بها الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۶۶ ويتعوّد عليها، بل قد يفقد الحسّاسيّة بالكامل تجّاه هذه الامور، أو يتحرك فى إدراكه لها، من موقع التأييد للرذائل على حساب إهتزاز الفضائل. و من جهةٍ ثالثةٍ، إنّ الوجدان أو العقل العملى، رغم أهميّته و قداسته، فإنّه كالعقل النّظرى قابل للخطأ، ولا يمكن الإعتماد عليه وحده، بل يحتاج إلى أُسس و دعامات أقوى، يُطمأن إليها فى تشخيص الحُسن و القُبح، بحيث لا يمكن خُداعها و لا تخطئتها، ولا تتأثر بالتّكرار، و لا تتغيّر أو تتحول. وخلاصة الأمر: أنّ الوجدان الأخلاقى، أو العقل الفِطرى والعقل العملى، أو أىّ تعبيرٍ آخر يُعبّر عنه، هو أساسٌ و دعامةٌ جيّدة، و لا بأس بها لنيل الفضائل الأخلاقيّة، ولكن وكما أشرنا آنفاً، تعوزه بعض الأمور، و لا يُكتفى به وحده.

۳- دعامة الشخصيّة

يتحلّى البعض بالقيم الأخلاقيّة، لأنّها دليلٌ و علامةٌ للشخصيّةِ أو الرجولةِ والمروءة، وكلّ إنسانٍ عند ما يرى أنّ شخصيّته بين النّاس متوقفةٌ على الصّدق والأمانة، فسيتحرك على مستوى التّحلى بها و مُراعاتها، وكذلك عندما يرى أنّ الناس يحترمون الشّجاع و الوفى و الرّحيم، فسيكون طالب الشخصية و الإحترام، أوّل المطبّقين لها على نفسه، حتى يمدحهُ الناس. والعكس صحيح، فإنّه عندما يرى أنّ الناس لا يحترمون الجبان، و لا البخيل، و لا الخائن، و لا ضعيف الإرادة، ولا قيمة لهم فى نظر المجتمع، فسوف يسعى لهجر هذه الرذائل، و تطهير نفسه منها. وعليه يَتحصَّل لدينا: دعامةٌ و أساسٌ آخر للمسائل الأخلاقيّة. ولكن و بالتّدقيق و التحقيق، نرى أنّ هذا الأساس و الدّعامة، يعود إلى مسألة الوجدان، غاية الأمر، أنّ المطروح هنا هو وجدان المجتمع، لا الوجدان الفردى، يعنى أنّ ما يوافق الوجدان العام للمجتمع، فهو فضيلةٌ و علامةٌ للشخصيّة، و من الأخلاق الفاضلة و عكسه الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۶۷ يدخل فى الرذائل، و ما يُقرّه الرأى العام للمجتمع، يكون هو الدّافع للفضائل و الرّادع عن الرّذائل. ونحن لا ننكر أنّ الوجدان العمومى للمجتمع، يمكن أن يشخّص القِيَم من اللّاقيم، و يحثّ الأفراد للإهتمام بالمسائل الأخلاقيّة فى خطّ التّربية و التّكامل. ولكن ما ذكر من نواقص و إشكالات، حول الوجدان الفردى، هو نفسه يصدق على وجدان المجتمع. فيمكن للمجتمع أن يُخطأ، وإذا ما وقع هذا الأساس للأخلاق، تحت طائلة الدعاية والإعلام القوى من قبل الحكومات، فبالإمكان أن ينقلب رأساً على عقب، و تكون الفضائل رذائل فى منظومة القيم والمثل الأخلاقية، كما حدّثنا التّأريخ عن نماذج كثيرة من هذا القبيل، ففى عصر الجاهليّة مثلًا كان يُعتبر وَأْد البنات من المكرمات، عند شريحةٍ كبيرةٍ من المجتمع آنذاك، و يُعتبر فضيلةً أخلاقيةً، (وذلك للمفهوم السّائد فى ذلك الوقت وقت، من أنّه الطّريق للنّجاة من العار و الشّنار، و الحيلولة دون وقوع النّساء فى الأسر فى الحروب) «۱». ونرى فى عصرنا الحاضر، و فى المجتمعات البشريّة المتقدّمة و المتطوّرة، أنّ المتموّلين ولأجل الوصول لأهدافهم غير المشروعة، وبالدعاية يخدعون الوجدان العمومى للمجتمع، ويقلبون القيم الأخلاقيّة الإيجابية، إلى مُضادّاتها فى دائرة السّلوك الأخلاقى. بالإضافة إلى أنّ الوجدان والضّمير فى الإنسان، هو من بَوارِق الرّحمة الإلهيّة، و نموذج لمحكمة العدل الإلهى العظيمة، عند الإنسان فى هذا العالم، ولكن ومع ذلك، فالضّمير ليس بمعصوم عن الخطأ، ويمكن أن ينحرف، وإذا لم يتّخذ الإنسان تدابير لازمة لإصلاحه وتزكيته، فلعلّه يبقى على خطئه لسنين طويلة.

۴- الدّعامة الإلهيّة

اشارة

من المعلوم أنّ ما ذكر من الدّعامات والأسس، لا يخلو من واقعيّةٍ على مستوى دفع الإنسان نحو الفضائل الأخلاقيّة، ولكن وكما أشرنا إليه سابقاً أنّها لا تخلو ولا تسلم من الخطأ والإنحراف، مثل دعامة الإنتفاع والإستغلال التى تأخذ طريقها فى أىّ وقت وزمان، فتارةً تسير مع الأخلاق واخرى تُعارضها. والبعض الآخر من الدّعامات له قدرةٌ محدودةٌ فى تحريك الإنسان، و مشوبةٌ بالنّقص والقصور ولربّما أخطأت واشتبهت. و الدّافع الوحيد الخالى عن الخطأ و الإشتباه، والعارى من كلّ نقص فى دائرة المسائل الأخلاقيّة، هو الدّافع الإلهى الذى يكون مصدره اللّه تعالى و الوحى، فى إطار التّعاليم الدينيّة. وهنا لا تعتبر الفضائل الأخلاقيّة وسيلةً للإنتفاع و الإستغلال، و لا هى وسيلةٌ للرفاه الإجتماعى، (وإن كانت الأخلاق قطعاً، وسيلةً للرّفاه والعمران والهدوء، وتؤمّن المنافع الماديّة أيضاً). فالأصالة هنا للدوافع الروحيّة و المعنويّة، أو بعبارةٍ اخرى أنّ الذّات الإلهيّة المنزّهة، و الّتى هى الكمال المطلق، و مُطلق الكمال، وجميع صفاته الجماليّة و الجلاليّة، تكون هى المحور الأصلى للمسألة، و كلّ إنسان يسعى فى المُضى قُدماً، للوصول إلى الكمال المطلق، و يتحرّك فى حياته المعنوية، من موقع تفعيل نور أسماء الصّفات الإلهيّة فى نفسه، ليشبهه ويتقرب إليه أكثر و أكثر يوماً، بعد يوم (وإن كانت ذاته المقدّسة منزهّةً عن الشبيه الحقيقى)، ويصل إلى الكمال المطلق، فلا حدّ للكمال هناك، و بذلك يعيش بكلّ وجوده، حالة الإستغراق من الحبّ للّه تعالى، و الكمال المطلق، و تُنير وجوده و باطنه، أنوارُ و صفاتُ الذّات المقدّسة، بحيث يطلب الكمال والرّقى، فى الدّرجات العليا فى كلّ لحظةٍ، فلا يتقيّد بالمنافع الماديّة، ولا يطلب الأخلاق للشخصيّة والإحترام، ولا يكون هدفه الضّمير وحده، بل لديه هدفٌ أسمى وأعلى من كلّ تلك الامور. فلا يأخذ معلوماته من العقل والوجدان فقط، بل يستعين بالوَحى أيضاً، ليميّز فى ظلّه القيم الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۶۹ الحقيقيّة من الكاذبة، و ليمشى بخطى ثابتةٍ مع إيمانٍ و يقينٍ كاملين فى هذا الطريق، والقرآن الكريم، هو خير دليلٍ فى هذا المضمار، و يُصرّح القرآن الكريم، بأنّ الأعمال الأخلاقيّة هى وليدة الإيمان باللّه واليوم الآخر، ودائماً ما يردف: (العمل الصالح) بالإيمان، وعرّف العمل الصالح، بالّثمرة لشجرة الإيمان. و مثّل الإيمان، بالشّجرة الطيّبة، و جذورها ثابتة فى روح و أعماق الإنسان، و فروعها و أوراقها وارفة، تؤتى بثمارها كلّ حين، و أشار إشارة جميلةً فقال اللّه تعالى «أَلَم تَرَ كَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُها ثَابِتٌ وَفَرعُها فِى السَّماءِ تُؤتِى اكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإذنِ رَبِّها» «۱». ومن البديهى، أنّ الشجرة التى تمدّ جذورها فى أعماق القلوب، و تتفرع أغصانها من جميع أعضاء الإنسان، و ترتفع فى سماء حياته، هى شجرةٌ وارفةٌ لا يؤثّر فيها جفاف الخريف، و لا تقلعها العواصف أبداً. «۲» وجاء أيضاً فى سورة «والعصر»، نفس هذا المعنى ولكن بتعبير آخر، فالقاعدةولكن الكلّية هو الخسران و التّضييع للإنسان، والمستثنون من ذلك هم المؤمنون، فى أوّل الأمر، ثم الّذين يعملون الصّالحات ويتواصون بالحقّ و الصّبر: «وَالعَصرِ إنّ الإنسانَ لَفِى خُسرٍ إلّاالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَّبرِ». وجاء نفسُ هذا المعنى و بتعبيرٍ جميلٍ آخر، فى الآية (۲۱) من سورة النور، فيقول الله الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۷۰ تعالى «وَلَولا فَضلُ اللَّهِ عَلَيكُم وَرَحْمَتُهُ ما زَكّى مِنْكُم مِنْ أحَدٍ أبَداً وَلَكنّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ ...». و عليه، فإنّ سمُوّ الأخلاق و العمل و التّزكية الكاملة لا تتمّ، إلّابالإيمان باللّه ورحمته الواسعة. وجاء نفس هذا المعنى فى سورة (الأعلى فيقول الله تعالى «قَدْ أَفلَحَ مَن تَزَكّى وَذَكَرَ إسمَ رَبِّهِ فَصَلّى «۱». فطبقاً لهذه الآيات، فإنّ التّزكية الأخلاقيّة و العمليّة، لها علاقةٌ وثيقةٌ بإسم اللّه تعالى و الصّلاة والدّعاء، هذا إذا ما إستمدّت أسسها منه سُبحانه و تعالى وحينها ستكون عميقةً و دائمةً، وإذا ما إعتمدت على أسسٍ اخرى فستكون واهيةً و عديمة المحتوى فى الآية (۹۳) من سورة المائدة، جاء وصف جميل، للعلاقة الوثيقة بين التّقوى والأعمال الأخلاقيّة بالإيمان: فقال الله تعالى «لَيسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِى ما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتّقَوا وَأحسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الُمحسِنِينَ». فى هذه الآية الشّريفة، تقدّمت التّقوى مرّة على الإيمان والعمل الصّالح، و تأخرت اخرى و تقدمت مرّةً على الإحسان، لأنّ التّقوى الأخلاقيّة و العمليّة تتقدم على الإيمان فى مرحلةٍ ما، و هى التّحضير لقبول الحقّ والإحساس بالمسؤوليّة للبحث عنه. ثم إنّ الإنسان عندما يعرف الحقّ و يؤمن به، فستتكون فى نفسه مرحلةٌ أعلى و أقوى من التّقوى و تكون مصدراً لأنواع الخيرات. وبهذا التّرتيب، تتبيّن العلاقة الوثيقة بين الإيمان و التّقوى وخلاصة القول: إنّ أقوى وأفضل الدّعائم للأخلاق، هو الإيمان باللّه، والإحساس

بالمسؤولیّة تّجاهه، ومثل هـذا الإیمان هو أبعد مدیً وأرحب افقاً من المسائل المادّیة، و لا یبدّل ولا یعوّض بشـیء، فهو یرافق الإنسان فی کلّ مکان ولا ینفصل عنه أبـداً، ولا یوجـد شـیء أفضلُ منه. الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۷۱ ولـذلک فإنّنا نری أنّ أقوی مظاهر الأخلاق، کالإیثار و التّضـحیة تتجسّد فی حیاة أولیاء اللَّه تعالی. و نری أیضاً، فی المجتمعات المادیّة التی توزن کلّ شیء بمعیار النّفع، أنّ الأخلاق فیها ضعیفةٌ جدّاً، و فی الأغلب أنّ المعترف به رسمیّاً عند الجمیع، هو النّفع الشّخصی المادّی، فالصّدق والأمانة والوفاء وما شـابه ذلک، هی أخلاق حسـنةٌ و سـلوکیات جیـدةٌ، ما دامت تعود بالنّفع علی الفرد، و عنـد تعرّض النّفع المادی للخطر، فسـتفقد لونها وقیمتهـا!!. فالأـبوان العجوزان، و لعـدم نفعهمـا، فمصـیرهما أن یعیشا فی زاویـة النسـیان، و یتمّ نقلهما إلی مراکز و دور العجزة، لینتظرا أجلهما المحتوم. و بمجرّد أنّ یبلغ الأطفال مرحلة الرّشد والمراهقة، فإنّ مصـیرهم الانفصال عن اسرهم، لا لکی یسـتقلّوا إقتصادیّاً، بل لکی یُنسوا إلی الأبد. و کذلک الأزواج، فهم شرکاء فی الحیاة مادام فی الحیاة الزوجیة نفعٌ ولذّة، و إلّافلا حاجة إلی العلاقة الزّوجیّة و لا ضـرورة للإلتزام بتبعاتها، ولذلک فإننا نری أنّ الطّلاق هناک کأیسر ما یکون، و شایع إلی درجةٍ خطیرةٍ، ففی المذاهب المادیّة التی لا تقوم علی أساسٍ إلهی فی دائرة الأخلاق، یکون الإستشـهاد لدیهم لنیل المقاصد السّامیة، هو الإنتحار بعینه، والکرم الذی یؤدی إلی تبـذیر الأموال، لیس هو إلّانوعٌ من الجنون، و العّفـة و الإسـتقامة علی طریق الفضـیلة، لیست هی إلّاضَـعفٌ فی النّفس، و الزُّهـد بالعالم المادی، لیس هو إلّاسذاجـةً و جهلًا بالحیاة. وما نراه الیوم من التنافس المحموم علی المادیات، و مراکز القـدرة فی هذه المجتمعات، و رؤساء تلک الـدول، هو أفضل و خیر نموذج یعبّر عمّا لدیهم من معاییر للأخلاق المادیّة. و الشّاهد علی ذلک، ما یصدر من الإنتهازیّة و التّعامـل المزدوج للقـوی الإسـتعماریّة تجـاه (حقوق الإنسـان)، فعنـدما تکون حقوق الإنسـان، سـبباً لتعرّض منـافعهم للخطر، فسوف یتجاهلونها ویجعلونها وراء ظهورهم، ویـذبحون القیم الإنسانیّـة علی مذبـح المصالـح المادیّة. فأخطر المجرمین والمعتدین علی حقوق الإنسان، یصـبحون مسالمین ومصـلحین، وبالعکس الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۷۲ فإنّ الشـخص الـذی یرید أن یدافع عن حقّه فی مقابلهم، یکون هو الشّیطان بعینه، ویجب أن یُقمع بأیّ وسیلةٍ کانت. فنراهم یدافعون عن الدیمقراطیّة و حکومة الشّعب، دفاعاً مُستمیتاً، وفی نفس الوقت نراهم و فی زاویـة أخری من العالم، یـدافعون عن أسوَأ و أظلم المستبـدّین الدیکتاتوریّن لا لشـیءٍ، الّا لأن الأخلاق عندهم لیست هی: إلّاالنّفع فی بُعده المادی و الشّخصـی. و الإنسان المادی لا یمتلک صورةً واضـحةً عن الأخلاق فی دائرة التّعامل مع الآخرین، بل مفاهیم ضـبابیّةً و صورةً قاتمةً. و الملاحظة الاخری الّتی تجدر الإشارة إلیها، أنّ المادیّین لا یرون فی سـلوکهم الأخلاقی، غیر زمـانهم و مکـانهم الّذی هم فیه الآـن، ولاـ أهمیّـة عنـدهم لمـا فَعـل المـاضون، و لاـ مـا سـیفعله اللّـاحقون، إلّـاأن یکون له علاقةٌ بحاضـرهم، و منطقهم یتمثّل به قول الشّاعر، حیث یقول: إن أنا مِتُّ فلا طلعت شـمس الضّـحی علی أحـدِ ولکن الموحّدین المعتقدین بالحیاة الآخرة، و محکمة العدل الإلهی فی یوم القیامة، یعتقدون أنّ معطیات الأخلاق وبرکاتها المعنویة، جاریة حتی بعد الممات، ولو إمتدّت لِالاف السّـنین، وسیثاب الإنسان علیها فی الاخری ولذلک لا یتعاملون مع الواقع الدنیوی، من موقع الزّمان الحاضر فقط، بل من موقع التّفکیر فی الغـد البعیـد والحیـاة الخالـدة. وقـد جاء فی الحـدیث المعروف عن الرسول الکریم صـلی الله علیه و آله، أنّه قال: «إذا مات المؤمن إنقطع عمله إلّامن ثلاث، صدقـةٍ جاریةٍ- أی الوقف- أو علم یُنتفع به أو ولدٍ صالحٍ یدعو له» «۱». فالإیمان بالآخرة دافعٌ و حافزٌ آخر، للحثّ علی الأعمال، الأخلاقیـة المهمـة، مثل الصّدقـة الجاریة و الآثار العلمیّة المفیدة و تربیة الأولاد الصّالحین، و الحال أنّ لاـ مفهوم لهـذه الاـمور لـدی المـادیّین. و قـد قسّم المرحوم الشّـهید (مُطهّری)، فی کتاب «فلسـفة الأخلاق»، الأنانیّـة إلی ثلاثـة أقسام: (للنّفس، وللعائلـة، و للقومیّـة)، وعـدّها کلّها من الأنانیّة، التی تقف فی الطّرف المقابل الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۷۳ للأخلاق، و نقـل کلامـاً عن «کوسـتاف لوبون»، فی کتابه المعروف (حضارة الإسـلام و العرب)، ورأینا أن ننقله هنا إکمالًا للفائـدة. فقـد ذکر هـذا الکاتب الغربی، فی معرض حدیثه عن الشّـعوب الشرقیّة، و أنّهم لماذا وقفوا من الحضارة الغربیّة موقفاً سلبیّاً؟ فعللّ ذلک بالقول: (أولًا: لعدم القابلیّة لدیهم لإستقبال هذه الثّقافة، و ثانیاً: إنّ حیاتهم و معیشتهم تختلف عن حیاتنا و معیشتنا، فحیاتهم بسیطةُ و ساذجةٌ، بخلاف مـا نحن علیه من التّعقیـد الحضاری فی واقع الحیاة، ثم یردف قائلًا: و لا یخفی مـدی الظّلم الـذی إرتکبته الشّـعوب الغربّیـة فی حقهم.

(وهو عامل مهم آخر). و بعدها أشار إلى الظّلم الذى إرتكبه الغربيّون، فى أمريكا والهند و الصّين، و خصوصاً كان يؤكد على قصّة الحرب المعروفة، ب: (حرب التّرياك)، التى شنّها الإنجليز على شعب الصيّن، لأجل السّيطرة عليهم، فنشروا إستعمال التّرياك بين الشعب، لأجل التّسلط عليهم، وليميتوا فيهم روح المقاومة، و يكسروا شوكتهم، ولكنّ الصّينيين توجهّوا للخدعة، و تحرّكوا للتّصدى للإنجليز، الذين صوّبوا مدافعهم، وإنتصروا عليهم بقوّة السّلاح الفتّاك، و إنتشر بين الأهالى إستعمال التّرياك، بحيث جاءت الإحصائيات: (فى ذلك الزمان)، أنه فى كل سنةٍ يموت حوالى ال (۶۰۰) ألف نفر، جرّاء إستعمالهم للتّرياك. «۱» نعم فعندما لا تقوم الأخلاق على قاعدةٍ متماسكةٍ، من الإيمان و القيم المعنويّة فى واقع الإنسان، فسوف تأخذ بالذّبول و التّراجع، لصالح المنافع الشّخصيّة و النّوازع الدنيويّة العاجلة.

ملاحظة:

ما ذكرناه آنفاً حول دعامة الأخلاق، من وجهة نظر الإيمان بالمبدأ والمعاد، لا يعنى إنكار الدّور الفعّال، ل: «العقل الفطرى» فى تعميق المسائل الأخلاقيّة، فالضّمير و الوجدان فى الحقيقة، هو رسول اللَّه فى أعماق البشر، و من جهةٍ اخرى له الأثر الكبير فى تحكيم المبانى الأخلاقيّة، بشرط أن يصاحبها عنصر الإيمان، وتتخلص من حجب الأنانيّة و هوى النّفس. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۷۴ وأكّد القرآن الكريم، على هذه المسألة مرّات عديدة، ففى الآية (۱۰۰) من سورة «يونس»، يقول الله تعالى «وَيَجعَلُ الرِّجسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعقِلُونَ». و فى الآية (۲۲) من سورة «الأنفال»، نقرأ: «إنّ شرّ الدَّوابِ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعقِلُونَ». و يقول الله سبحانه، عن الّذين يستهزئون بالصّلاة: فى سورة (المائدة) الآية (۵۸): «اتّخذوها هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأنّهُم قَومٌ لا يَعقِلُونَ». وهكذا يتبيّن من خلال ما ذُكر آنفاً، خلاصة رؤية القرآن المجيد للمسائل الأخلاقية.

الأخلاق والحريّة

اشارة

هناك أبحاثٌ كثيرةٌ، فى مسألة الأخلاق و الحريّة، و هل أنّ الأخلاق تُحدّد و تُقيّد حريّة الإنسان؟ وهل أنّ هذا التّقييد هو فى صالح الإنسان أم لا؟ فبإعتقادنا أنّ هذه الأبحاث، ناشئةٌ من التّفسير الخاطىء لمعنى الحريّة، ومنها: ۱- يُقال: أنّ الأخلاق تقوم بتحديد حريّة الإنسان، وتعمل على كبت القابليّات فى المحتوى الدّاخلى للإنسان. ۲- و تارةً يقولون: إنّ الأخلاق تقمع الغرائز، و تمنع من تحقّق السّعادة الواقعيّة للفرد، ولو لم يكن فى الغرائز فائدةٌ، فلماذا خلقها اللَّه تعالى . ۳- و تارةً اخرى يقولون: إنّ البّرامج الأخلاقيّة، تخالف فلسفة أصالة اللّذة، ونحن نعلم أنّ الهدف من الخلق، هو «اللّذة» التى يريد أن يصل إليها الإنسان. ۴- واخرى يقولون، و فى النّقطة المعاكسة لها: أساساً إنّ البشر ليس حُرّاً فى سلوكه الأخلاقى، بل هو مجبور وواقع تحت تأثير عوامل كثيرة، ولذلك فلا تصل النوبّة للوصايا الأخلاقيّة. ۵- وأخيراً يقولون: إنّ الأخلاق مبنيّة على أساس إطاعة اللَّه تعالى وهى لا تخلو من الخوف أو الطّمع، وكلّ هذه الامور تتقاطع مع الأخلاق! الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۷۶ هذا التّناقض فى الأقوال، إن دلّ على شىء، فهو دليلٌ على عدم التّقييم الصّحيح لمفهوم الحرّية، هذا من جهةٍ، و من جهةٍ اخرى لم تُدرس الأخلاق الدينيّة، و خصوصاً الأخلاق الإسلاميّة، دراسةً كافيةً و وافيةً. ولذلك يجب أن ندرس فى بادى الأمر، مسألة الحريّة. و لماذا يطلب الإنسان الحريّة بكلّ وجوده؟، و لماذا يجب أن يكون الإنسان حرّاً؟، و ما هو دور الحريّة فى تربية الجسم و الرّوح؟، و بكلمةٍ واحدةٍ: ما هى «فلسفَةُ الحريّة»؟. إنّ الجواب على كلّ هذه الأسئلة يتلخّص فى ما يلى: يوجد فى داخل الإنسان قابلياتٌ و ملكاتٌ و قوى خفيّةٌ، لا تخرج من القوّة إلى الفعل إلّا بالحريّة، والإنسان يسعى للتّكامل، و يتحرك على مستوى ترشيد إستعداداته و قُدراته، فهو يطلب الحريّة لأجل ذلك. ولكن هل أن الحرّية التى تساعد

على تفعيل قدرات الإنسان، هى حرية بلا قيد ولا شرط، أم أنّها الحريّة المتحرّكةِ فى إطارٍ من التّنظيرِ العقلى و الدّينى؟. و يُمكن تبيان هـذا المطلب مع ذكر مثالين: إفترضوا أنّ هناك فلّاحاً، قررّ أن يزرع أنواع الورود والفواكه فى بستانه، و تحرّك لتحقيق هـذا الغرض، على مستوى حرث الأرض و غرس النّباتات وسقيها فى موعدها فى كلّ مرّةٍ، فَمن البديهى أن تكون الشّجرة مغروسةً فى الفضاء الحرّ، لتأخذ قِسطها من النّور و الهواء و المطر، و ستمدّ جـذورها فى الأرض بحرّيـةٍ، و إذا لم تتوفرلها تلك العوامل، فلن تثمرَ ولن يحصـلَ الفلّاح على ثمن أتعـابه، وبنـاءاً على ذلـك، فإنّ حريّـة الجـذور و الأوراق، ضـروريّة لكى تعطى الثمر، ولكن من الممكن أن ينحرف غُصن من الأغصان فى تلك الشّجرة، فيقطعه الفلّاح بلا رحمـةٍ و لا رأفةٍ، لأنّ هذا الغَصن يستهلك قوّة الشّجرة، فلا أحد له الحقّ فى الإعتراض على الفلّاح، بسبب هذا العمل. و يمكن أن يُقَوِّم الفلّاح الشّجرة المائلة، أو الفرع المعوّج، بشدّه إلى خشبةٍ مستقيمة، فكذلك لا حقّ لأحدٍ أن يعترض عليه فى ذلك، و يقول له: لماذا قيّدت الشّجرة بهذا القيد، ولم الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۷۷ تتركها حرّةً، لأنّه سيقول: إنّ الشّجرة يجب أن تكون حرّةً لكى تُثمر، لا أن معوّجة فتذهب بأتعابى سُدىً. وكذلك بالنسبة للإنسان، فلديه ملكاتٌ و قابليـاتٌ مُتنوّعـةٌ و مهمّـةٌ، و إذا ما نُظّرت تَنظيراً صـحيحاً، فستصـعد به إلى أعلى درجات الرّقى والكمال المادّى والمعنوى، فهو حرٌّ فى الإسـتفادة من قابلياته فى الطّريق السّـليم، لا أن يُهدِر هذه القابليّات فى الطرق المنحرفة. فالذّين فسـرّوا الحريّة، بمعناها العام الشّامل بلا قيـد ولا شـرط، ففى الحقيقة لم يفهموا معنى الحريّة، فالحريّة هى الإسـتفادة من الطّاقات فى الطّريق الصّـحيح، الذى يوصـله للأهداف العُليا: (ماديةٌ كانت أم معنويةٌ). و مثالٌ آخر، حرّية المرورِ و العبورِ فى الطّرق الواسـعة و الضّـيقة، فالغرض هو وصول الإنسان لمقصده، ولكن هـذا لا يعنى أبـداً، عدم الإلتزام بقوانين المرور، حيث يؤدى إلى الهرج و المرج، و الفَوضـى فى حركة المرور. فلا يوجد إنسانٌ عاقـلٌ يقول: إنّ التّقيـد بقوانين المرور ورعايتهـا، مثل التّوقف عنـد الضّوء الأحمر، أو عـدم المرور فى طريقٍ ما، أو السّـير على الجانب الأيمن، وما شابهها من الامور، التى توجب تحديـد حريّـة السّائق، فالكلّ سوف يسـتهزىء بمثل هـذا الكلام، حيث يقال له، إنّ الحرّية يجب أن تكون؛ ضـمن المقررات و القوانين التى تراعى من أجل سـلامة الإنسان و أموال و ممتلكات الآخرين و لا تسبب فى الهرج و المرج، وقتل الأبرياء دون مُبرِّر، أو تفضـى إلى عـدم الوصول بسـلامةٍ للمقصـد والغايـة. فكثيرٌ من هذه الحريّات هى كاذبةٌ، و نوعٌ من التّقييد الحقيقى. فالشّاب الذى يسـىء الإسـتفادة من حريته، و يستعمل المخدّر المميت، فهو فى الواقع يكون قد أمضـى حُكم أسرِهَ و تَسلّط الغير عليه، فالحريّة التى تُصاحب الإلتزام بالموازين الأخلاقية، هى التى تُعطى للإنسان الحريّة الحقيقيّة و تجعله متمكنّاً من نفسـه و مسـيطراً على أهوائه و نوازعِهِ النّفسـية، و كم هو جميـل كلام أميرالمؤمنين عليه السـلام، حيث يقول: الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۷۸ «إنّ تقوى اللَّه مفتاحُ سَـدادٍ، و ذخيرةُ مَعادٍ، وعتقٌ من كلّ مَلَكةٍ، ونجاةٌ من كلّ هلكةٍ» «۱». و ممّا ذُكر آنفاً، تتجلى الحريّة الحقيقيّة من الكاذبـة، ويتمّ منع إسـتغلال هـذا المفهوم المقـدّسُ فى طريق الإنحراف و الزّيغ، فلا يحقّ لأحدٍ أن يتذرّع، بكبتِ الأخلاق لطاقاتِ الإنسان، و يستشـكِل على القِيم الأخلاقيـة. وممّا تقـدّم أيضاً، تتّضح الإجابة على من يدّعى، قمع الأخلاق للغرائز، و أنّ اللَّه تعالى خلق الغرائز فى الإنسان، لتحقيق الغرض منها، وأشـباعها بأدوات الحريّـة و التّحرر من قيود الأخلاق. فالغرائز فى الإنسان، مثلها كمثل قطراتُ المطر، تنزل من السّـماء بِقـدرٍ لتُحيى الأرض، و لولا فائـدتها، لما أنزلها البارى تعالى ولكن هـذا لا يعنى فسـح المجال لتلك القطرات لِتتجَمَّع، و تكوّن السّـيول لإهلاك الحرث و النّسل، بل يجب أن تُقام السّدود فى طَريقها، و فتح منافذ صـغيرة منها لتمد الحياة البشـرية بالماء، و تكون الفائدة فيها أعمّ و أشمل، فيما لو سيطر عليها الإنسان، و أخضعها لضوابط معيّنة، وكذلك الحال بالنّسبة لغرائز الإنسان، فإذا اطلق لها العِنان، فستبيد كلّ شـيءٍ أمامها، و تـدّمر كلّ شـيءٍ فى حركـةِ الحياة الفرديّـة و الإجتماعيـة للإنسان. و يُستنتج مما ذُكر سابقاً، أنّ الأخلاق لا تقف سـدّاً فى طريق الإنسان، و لا تمنعه من ترشـيد قابلياته و ملكاته، و لا تقمع الغرائز فى واقعه، بل إنّ الأخلاق وسـيلةٌ للوصول للكمال المنشود، فى حركة الإنسان والحياة. ومن خلال التّفسـير الصّحيح للحرية، الذى ذكرناه آنفاً تتّضح الإجابة على أسئلة المخالفين للأخلاق.

الإعتقاد بالجَبر، و بالمسائل اللاأخلاقيّة:

لا شک أنّه یوجد إرتباطٌ و علاقةٌ و ثیقةٌ، بین الإعتقاد بحریّة الإرادة للإنسان، و «المسائل الأخلاقیّة»، و کما أشرنا سابقاً، أنّ نفی حریّة الإنسان، هو نفیٌ و تعطیلٌ لجمیع المفاهیم الأخلاقیّة. وبناءاً علی هذا نجد، أنّ الأدیان الإلهیّة المتعهّدة بتربیة وتهذیب النفوس والأخلاق، من أقوی المدافعین عن حرّیة الإنسان!. وبناءاً علی هذا أیضاً، نجد فی القرآن الکریم آیاتٌ عدیدةٌ و کثیرةٌ تبلغ المئات، تثبت الإختیار و حریّة الإرادة للإنسان، و تنفی الجَبر عنه، و قد ذُکرت فی مباحث الجَبر و الإختیار «۱». فالأمر و النّهی و التّکالیف الاخری و الدّعوة إلی الثّواب و العقاب، و الحساب و المحاکم و القوانین و العقوبات، کلها امور تؤکّد علی مسألة الإختیار، و حریّة الإرادة عند الإنسان. وإذا ما شاهدنا بعض الآیات تُوافق مذهب الجَبر، فهی ناشئةٌ من عدم الإنتباه و التّوجه الصحیح لتفسیر تلک الآیات، فتلک الآیات ناظرةٌ إلی نفی التّفویض، و لا تثبت الجبر، و الشّاهد علیها هو القرآن الکریم نفسه، و قد أشرنا إلیها سابقاً، ولیس هنا محلّ للبحث فیها. فالإعتقاد بالجَبر، و سلب حریّة الإنسان، یمکن أن یکون عاملًا مهمّاً، لکلّ تحلّل أخلاقی، فالُمجرم ولتبریر أفعاله المشینة یتذرّع بالجَبر، وأنّه لا یستطیع أن یُغیّر مصیره المحتوم علیه، و لذلک یتحرّک فی خطّ الإنحراف، و ینحدر فی مُنزلقات المعاصی أکثر، فالتّاریخ یُحدثنا، عن مجرمین خاضوا غمار الجریمة، استناداً إلی مُبّررات مذهب الجَبر، وکانوا یعذرون أنفسهم، فی إرتکابهم لتلک الأعمال و الذّنوب، و یقولون: (إذا کنّا صالحین أو طالحین، فلیس لنا من الأمر شیء، فالُمبدع الأزلی هو الذی زرع فینا ذلک، و جعل مصیرنا أن نکون من أهل الشّقاء!، فلا المحسنین لهم الحق بالإفتخار بإحسانهم، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۰ ولا علی المسیئین ملامة!). وبناءاً علی ذلک، فقد تحرّک الأنبیاء علیهم السلام، قبل کلّ شیء لتوکید الإرادة الإنسانیّة، و خصوصاً نبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله، و لأجل تحکیم الاسس الأخلاقیّة و تهذیب النّفوس. وعلی کلّ حال، فبحث الجَبر و الإختیار، و المسائل الاخری مثل القضاء والقدر، و الهدایة و الضّلالة، و السّعادة و الشّقاء، من وجهة نظر القرآن الکریم، هو بحثٌ مستقلٌ وسیعٌ، سنتطرق لتفسیره الموضوعی فی المستقبل إن شاء اللّه، و الهدف هنا هو الإشارة لهذه المسألة، و تأثیرها فی المسائل الأخلاقیة، و لیس الدخول فی تفاصیلها فعلًا. أمّا الذین یتحرکون من موقع اللّذة، و یعتبرونها من أهمّ القیم، فهؤلاء لا یعتبرون الأخلاق من المُثل النّبیلة و السّلوکیات الحسنة، لأنّها لا تُوافق اصولهم، وکما قال «آریس تیب»، الذی وُلد قبل المیلاد: الخیر هو اللّذة، ولا شرّ سوی الألم، والهدف النّهائی للإنسان فی الحیاة: هو الّتمتع بلذائذ الدنیا، و لا یجب التّفکیر بنتائجها الصّالحة أو السیئة) «۱». هذا وقد غاب عن اولئک، أنّنا و علی فرض حصرنا اللذائذ فی المادیّات فقط، و ترکنا اللّذائذ المعنویّة الّتی هی أعلی و أسمی لذّةٍ للرّوح، فلا یمکن الوصول للذائذ المادیّة إلّابرعایة الأخلاق، وذلک لأنّ الّتمتع والإلتذاذ بالشّیء، من دون قید أو شرطٍ، یعقبه ألم شدید علی مستوی النّفس و البدن، و لأجله یجب أن نصرف النّظرَ عن تلک اللذّة التی یعقبها ألم أقوی وأشد. وهذا الکلام وإن کان قد صدر، ممّن یُعتبرون فی عداد الفلاسفة، ولکنّه فی الحقیقة یشبه کلام المعتاد علی الأفیون، الّذی إذا نصحوه قالوا له: إنّ لذّتک هذه ستسبب لک المتاعب والآلام العظام، فیجیب: إنّ اللّذة الحاضرة هی الأصل، ولا یعلم ماذا سیکون فی الغد، ولکن الذی ینتظره فی الغد، لیس سوی المرض العصبی، و الإرهاق و القلق، و ما إلی ذلک الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۱ من إفرازات الإدمان علی تلک المواد المخدّرة، وسیعیش النّدم الشّدید فی تلک الحال، و یتأسف علی ما إقترفته یداه، ولکن أنیّ للتأسّف أن یحلّ المشکلة، و قد اغلق علیه سبیل العودة، إلی الحریّة والکرامة کما هو الغالب. فالوصایا الأخلاقیة، للحثّ علی العفّة والأمانة و الصّدق والرجولة، کلّها من هذا القبیل، والمجتمع الذی تتفشی فیه الخطیئة والخیانة، کیف یعیش أفراده حالة اللّذّة المعنویّة و السّعادة، فی حرکة الحیاة والواقع الإجتماعی؟ فالناس الّذین ملأ البخل وجودهم، و یطلبون کلّ شیءٍ لنفعهم و لذّتهم الشّخصیة، لا تکون لدیهم حصانةٌ أمام المشکلات، و سیکونون عرضةً للتّمزق و التشرذم، لأدنی أزمةٍ علی مستوی الحیاة الدنیویّة، لأنّ الفرد فی ذلک المجتمع یکون وحیداً فریداً، و الصّمود أمام المشکلات، لمن یعیش الوحدة و الإنفراد، أمرٌ فی غایة الصّعوبة، ولکن إذا تفشّت روح التّعاون و السّخاء والرجولة فی المجتمع، فسینطلق الناس من موقع مساعدة بعضهم البعض، وعندما یقع أحد الناس فی مأزقٍ، فسیعینه الآخرون، فلا یشعر

الفرد بالوحدة هناک، بل سیجد فی نفسه عنصر المقاومة و الصّمود أمام المشکلات والأزمات. وهذا ما أشرنا إلیه سابقاً بالتّفصیل، و بالإعتماد علی الآیات القرآنیّة الکریمة، بأنّ الاصول الأخلاقیّة عند تطبیقها، لها بُعدان و فائدتان: معنویّة و مادیّة، و مع غضّ النّظر عن البُعد المعنوی، فالبُعد المادی فیها له شمولیّةٌ واسعةٌ، و یستحق معها التمسّک بکلّ الاصول الأخلاقیّة، کی نعمّر دنیانا ونجعل منها جنّةً ملیئةً باللّذة، ونتجنّب النّار المحرقة، المتولدة من الوقوع فی وَحِلّ المفاسد الأخلاقیّة. و الآن نبحث فی المذهب القائل: بأنّ الأخلاق الدینیّة علی مستوی الممارسة و التّطبیق، و الّتی تنشأ فی الحقیقة من طاعة اللّه تعالی خوفاً أو طمعاً. و هذه الامور تُعتبر مضادّةً للأخلاق؟ «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۲ ویمکن أن یُنتقد هذا الکلام من جهتین: ۱- التّعبیر بالخوف و الطّمع، تعبیرٌ غیر صحیح، و الصّحیح أن یُقال، بأنّ بعض أتباع الأدیان، و لأجل نَیل السّعادة الاخرویّة، و النّجاة من العقوبات الناشئة من العدل الإلهی، یتخلّقون بالأخلاق الحسنة، لکنّه لیس أمراً یخالف الأخلاق، لأنّه یُبدّل لذّة الحیاة الفانیة بلذّة الآخرة الباقیة، ویُفدی المصادر الصغیرة بالمواهب الکبیرة. ۲- هل یرتکب الشخص أمراً مخالفاً للأخلاق، لأنّه لا یکذب ولا یخون، بدافع من خشیته من فضیحة الکذب والخیانة؟، أو ذاک الذی یمتنع من الشّراب، و یتجنب المادة المخدّرة، لیحافظ علی صحته و سلامته، هل یکون عمله هذا منافیاً للقیم الأخلاقیة؟ و کذلک الشّخص الذی یُداری النّاس ویتواضع لهمُ و یعاملهم بأدبٍ و إحترام، لئلّا یفقدهم ولا یبقی وحیداً فریداً فی هذه الدنیا، فهل یرتکب بذلک عملًا مُخالفاً للأخلاق؟. والخلاصة: إنّ کلّ عملٍ أخلاقی، له آثار و منافع مادیّة فی حرکة الإنسان و الحیاة، و لا یمکن تسمیّة تلک الآثار بالطّمع، وکذلک الحال فی الإمتناع، عن بعض السّلوکیات المشینة و الأفعال القبیحة، لا یمکن أن یعبّر عنه، بالخوف والجُبن فی دائرة الصّفات الأخلاقیّة.

اصول المسائل الأخلاقیّة فی القرآن الکریم

اشارة

قبل الخَوض فی هذا البحث، یتحتم علینا إلقاء نظرة علی اصول المسائل الأخلاقیّة فی المذاهب الاخری ۱- جَمعٌ من الفلاسفة القدماء، الذین یُعتبرون من المؤسّسین لعلم الأخلاق، جعلوا للأخلاق أربعة اسس، أو بالأحری لخّصوا الفضائل الأخلاقیّة فی أربعة اصول، هی: ۱- الحکمة. ۲- العفّة. ۳- الشجاعة. ۴- العدالة. و أحیاناً یضمّون إلیها العبودیّة للّه‌تعالی، و یجعلونها خمسة اصول. و یعتبر المؤسّس لهذا المذهب هو «سقراط»، فکان یعتقد أنّ: (الأخلاق تعتمد علی معرفة الحسن والقبیح من الأفعال، والفضیلة بصورةٍ مطلقةٍ لیست هی إلّاالعلم والحکمة؛ أمّا العلم فی مورد الخوف أو الإقدام، یعنی العلم والإطّلاع علی الشّیء الذی یتوجب علی الإنسان الخوف منه، أو عدم الخوف من شیءٍ ما یعتبر من «الشّجاعة»، وإذا کان فی صدد المُنی النفسیة، فیدّعی ب: «العفّة»، وإذا کان العلم بالقواعد الحاکمة علی ملاقات الناس وروابطهم مع بعضهم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۴ البعض، فالمقصود منه هو «العدالة»، وإذا کان العلم فی دائرة وظائف الإنسان مع خالقه هو «التدین والعبودیة»، فهذه الفضائل الخمسة، یعنی: الحکمة، والشجاعة، والعفّة، والعدالة، والعبودیة، هی الاصول الاولی للأخلاق السُّقراطیّة) «۱». وکثیر من علماء الإسلام الذین کتبوا وبحثوا فی علم الأخلاق، قبلوا هذه الاصول الأربعة أو الخمسة، و دقّقوا فیها أکثر، وبنوا لها اصولًا أقوی وأفضل من سابقتها، وجعلوها أساساً لرؤاهم الأخلاقیّة فی کلّ المجالات. یقولون فی نظرتهم الجدیدة لهذه الاصول: إنّ نفس وروح الإنسان فیها ثلاثة قوی هی: ۱- قوّة «الإدراک» وتشخیص الحقائق. ۲- قوّة جلب المنفعة أو بتعبیر آخر «الشّهوة»، (بمعناها الوسیع، لا الجنسیّة فقط وتشمل کلّ طلبٍ و إرادة). ۳- القوّة الدّافعة أو بتعبیر آخر «الغضب». وبعدها إعتبروا الإعتدال فی کلّ قوّةٍ، هو إحدی الفضائل الأخلاقیّة، و أطلقوا علی الفضائل المنبعثة من هذه القوی ب: «الحکمة» و «العفّة» و «الشّجاعة»، بالترتیب. وأضافوا أیضاً: کلّما أصبحت قوّة الشّهوة و الغضب خاضعة لسلطة القوّة المدرکة، و تمییز الحقّ من الباطل، فسوف ینتج عندنا الأصل الرّابع وهو «العدالة». و بعبارةٍ اخری: إنّ تحقیق الإعتدال فی کلّ من القوی الثّلاثة، یعتبر فضیلةً، و

هذا الإعتدال يسـمّى ب: «الحكمهٔ» أو «العفّهٔ» أو «الشّـجاعهٔ»، وتركيبها مع بعضـها البعض، يعنى تبعيّهٔ الشّـهوهٔ والغضب للقوّهٔ المدركهٔ، يعتبر فضـيلهً اخرى تسـمّى «العدالـهٔ»، وكثيراً ما نرى أنّ الإنسان لـديه الشّـجاعهٔ و فى حـدّ إعتدال قوّهٔ الغضب، لكنّه لا يوجّهها التّوجيه الصّـحيح، و لا يسـتعملها الإسـتعمال الصـحيح، «كما لو إسـتعملها فى الحروب غير الهادفهٔ»، فهنا قد تكون لديه شجاعهٔ ولكنّها لا تعنى العدالهٔ، أمّا لو إستعمل صفهٔ (الشّجاعهٔ) فى نطاق الأهداف السّاميهٔ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۸۵ العقلائيّهٔ، أى مزجها مع الحكمهٔ، فسيحقّق عندها حالهٔ «العدالهٔ». وعليه، فإنّ هذه الفئهٔ من علماء الإسلام، جعلوا كلّ الفضائل و الصّفات الإنسانيّهٔ البارزهٔ، تحت أحد هذه الاـصول، و بإعتقـادهم أنّه لاـ توجـد فضـيلهٔ، إلّاوتنـدرج تحت أحـد هـذه العناوين الأربعـهٔ، وبالعكس فإنّ الرذائل دائماً، تأخـذ طريق الإفراط و التّفريط لهـذه الفضائل الأربعـهٔ. ومن أراد التّفصـيل والإطّلاع على هـذا المـذهب الأخلاقى؛ فليراجع كتاب: «إحياء العلوم» و كتاب «المحجّهٔ البيضاء» «۱».

نقد وتحليل:

إنّ التّقسـيم الرّباعى المذكور، ليس وكما يبدو أنّه شـىء مُبتكر من قبل حكماء الإسلام، بل هو نتيجهٔ تحليلات علماء الإسلام لكلمات حكمـاء اليونـان، و إسترفـادهم من نظريـاتهم وآرائهم بعـد تنقيحها، رغم وجود إشارات لها فى مصادرنا الروائيّـهٔ، كما جاء فى الروايهٔ المرسلهٔ المنسوبهٔ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال: «الفَضائِلُ الأربَعَهُ أَجناسٍ: أَحَدُهُما: الحِكْمَهُ وَقِوامُها فِى الفِكرَهِ، و الثّانِى: العِفَّهُ وَقِوامُهـا فى الشَّهوَهِ، وَالثّالِثُ: القُوَّهُ وَقِوامُها فِى الغَضَبِ، وَالرّابِعُ: العَـدلُ وَقِوامُهُ فى إعتِـدالِ قُوى النَّفسِ» «۲». فكما ترون، أنّ هذا الحديث لا يوافق بصورهٍ كاملهٍ، تلك التّقسـيمات الأربعهٔ التى ذكرها علماء الأخلاق، بل هو قريبٌ منها، وكما أشرنا سابقاً أنّ الحديث مُرسلٌ و سـندُه لا يخلو من إشـكال. و على كلّ حال فإنّ هـذه الاطروحـهٔ، الّتى ذكرها علماء الأخلاق، أو حُكماء الإغريق الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۸۶ واليونان، ترد عليها هـذه المآخـذ: ۱- بعض الملكـات الأخلاقيـهٔ، «والّتى هى جزءٌ من الفضائل الأخلاقيّـهٔ قطعاً»، نلاقى صُـعوبهً فى إدخالهـا تحت أحـد هـذه الاـصول الأربعـهٔ، فمثلًا (حُسن الظّن)، يُعتبر من الفضائل، و يقابله (سُوء الظن)، فإذا أردنا إدخـاله تحت أحـد هـذه الاصول، فيجب أن ينضوى فى دائرهٔ الحكمـهٔ، والحال أنّنا لا يمكننا أن نجعله من فروع الحكمـهٔ، لأنّ حُسـن الظّن شـىءٌ آخر غير التّشـخيص الصّـحيح للواقعيات، و رُبّما ينفصل عنه بوضوح، بمعنى أنّ القرائن الظنيّـهٔ تشـير إلى صـدور الـذّنب و الخطـأ من شـخصٍ مـا، لكن و بحسن الظنّ يتجـاوز عنها. و كـذلك الصّبر على النوائب، و الشـكر على النّعمـهٔ، فهو بلا شك يعتبر من الفضائل، لكنّنا لا نسـتطيع أن نجعله فى دائرهٔ قوّهٔ التّشـخيص والإدراك، ولا فى مسألهٔ جلب المنافع ولا دفع المضار، خُصوصاً إذا كان الشّـخص الصّابر و الشّاكر، لا يرتجى منها نفعاً مسـتقبلياً، و تمسّـكه بها إنّما كان لقيمتها الذاتيّـهٔ، (أى: الصّبر و الشّـكر). وقد يوجد غير قليـل من أمثـال هـذه الفضائل، التى لا يمكن أن نجعلها ونـدرجها تحت أحـد هـذه العناويين. ۲- «الحكمـهٔ» تعتبر من اصول الفضـائل الأخلاقيّـهٔ، و الإفـراط و التّفريـط فيهـا تُعتبر من الرّذائـل الأخلاقيّـهٔ، والحال أنّ الحكمـهٔ ترجع إلى تشـخيص الحقائق و الوقائع، و تعود الأخلاـق للعواطف والغرائز والملكـات النفسيّهٔ، و لاـ تعود لإدراكـات العقـل، و عليه لاـ يُقـال إنّ الُمتفتـح الـذّهن هو حسن الأخلاق، فالأخلاق يمكن أن تكون وسـيلهً و أداهً للعقل، و لا تُعتبر قوّهٔ العقل والإدراك من الأخلاق، أو بعبارهٍ اخرى: أنّ العقل و قوّهٔ الإدراك هى الموجّههٔ لعواطف وغرائز الإنسان، فى حركهٔ الحياهٔ و السّـلوك، و تعطيها شكلها الأوفق، والأخلاق هى كيفيّهٌ تعرض على الغرائز و الميول الإنسانيّهٔ. ۳- الإصـرارُ على أنّ الفضائل الأخلاقيّـهٔ دائماً، هو الحدّ الأوسط بين الإفراط و التّفريط: لا يبدو سـليماً، و إن كان فى الأغلب هو كـذلك، لأنّنا نجد موارد لا يتحقّق فيها الإفراط، فمثلًا القُوّهٔ العقليّهٔ، كلّما كانت أقوى كانت أفضل، و لا يُتصوّر فيها إفراط، فليس من الصحيح جعل الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۸۷ «الدّهاء والمكر»، هو الإفراط فى القوّهٔ العقليهٔ، لأنّ «الدّهاء والمكر» لا ينشأ من الذّكاء والفهم، بل هو نوعٌ من الإنحراف و الإشـتباه فى المسائل، للعجلهٔ فى الحكم على الامور و ما يُشابهها. فالرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وصـل إلى درجهٍ فى العقل و الفكر، بحيث اطلق عليه العَقلُ الكلّ، فهل هـذا مخالفٌ للفضـيلهٔ؟! و صـحيحٌ أنّ العقل و

الذّكاء المُفرط، يسبّب آلاماً ومصاعب لا يلاقيها الغافلون، غير المطّلعين، ولكنّه مع ذلك يعتبر من الفضائل والكمالات. وكذلك «العدالة»، حسبوها من الفضائل الأخلاقيّة، و الإفراط و التّفريط فيها هو «الظّلم» و «الإنظِلام»، أى (قبول الظّلم)، و الحال أنّ قبول الظّلم والإنصياع له لا يمكن أن يُعتبر من التّفريط فى العدالة أبداً، بل هو مقولةٌ اخرى. وبناءاً على ذلك، فمسألة الإعتدال فى صِفات الفضيلة، فى مقابل الإفراط و التّفريط للصّفات الرّذيلة، يمكن أن يكون مقبولًا فى أغلب الموارد، ولكن لا يمكن أن يُعتبر حُكماً عامّاً، و أصلًا أساسياً فى البحوث الأخلاقيّة. النتيجة: أنّ الاصول الأربعة التى أعدّها القدماء للأخلاق، هى فى الواقع إكمالٌ لما جاء به فلاسفةُ اليونان القُدماء، لكنّها لا يمكن أن تكون نموذجاً ومقسماً جامعاً للصِّفات الأخلاقيّة، وإن كانت تصدق على كثيرٍ من المسائل الأخلاقيّة.

العودة للُاصول الأخلاقيّة فى القرآن الكريم:

نعود لتحليل الاصول الأخلاقيّة التى نستوحيها من القرآن الكريم، فنحن نعلم أنّ القرآن الكريم لم يُنظّم ككتابٍ تقليدى، فى أبوابٍ و فصولٍ، كما هو المتعارف اليوم، بل هو مجموعةٌ من القاءات الوحى السّماوى، نزل بالتّدريج على حسب الحاجة و الضّرورة، ولكن و بالإستفادة من طريقة التّفسير الموضوعى، يمكن وضعه فى مثل هذه القوالب. و من التّقسيمات الّتى يمكن إستيحاؤها و إستفادتها من مجموع الآيات القرآنية، هو تقسيم الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۸۸ اصول الأخلاق إلى أربعة أقسام: ۱- المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة بالخالق. ۲- المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة بالخَلق. ۳- المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة بالنّفس. ۴- المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة بالكون و الطّبيعة. فمسألة شكر المُنعم والخضوع أمام البارى تعالى، و الرّضا و التّسليم لأوامره، و ما شابهها، يُعتبر من المجموعة الاولى. و التواضع، و الإيثار، و المحبّة، و حُسن الخلق، و المُواساة، تدخل فى دائرة المجموعة الثّانية. تزكية النّفس وتطهير القلب من الأدران، و تفعيل عناصر الخير، لمقاومة الضّغط و التّحديات التى يُواجهها الإنسان فى حركة الواقع والحياة، تدخل فى نطاق المجموعة الثّالثة. و أمّا عدم الإسراف والتّبذير، و إتلاف المواهب الإلهيّة؛ فإنّه يُعتبر من القسم الرّابع. كلّ هذه الاصول الأربعة، لها جذور واصول فى القرآن الكريم، وسنشير إلى كلّ واحدٍ منها فى المباحث الموضوعيّة الآتية. و بالطبع فإنّ هذه الشّعب الأربعة، تختلف عمّا جاء فى كتاب «الأسفار» للفيلسوف المعروف: «ملّا صدرا الشّيرازى»، و أتباع مذهبه، فهؤلاء و طِبقاً لطريقة العُرفاء، شبّهوا الإنسان وحركته التكامليّة: ب: (المسافر)، و عبّروا عن مسائل بناءِ الذّات و صياغة الشّخصية بالسّير و السّلوك، و جعلوا للإنسان أربعةَ أسفارٍ، هى مَطمع السّالكين و العُرفاء، و أولياء اللّه: ۱- السّفر من الخلق إلى الحقّ. ۲- السّفر بالحقّ فى الحقّ. ۳- السّفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ. ۴- السفر بالحقّ فى الخلق. ومن المعلوم أنّ هذه الأسفار أو المراحل الأربعة لبناء الذات، و السّير و السّلوك إلى اللّه تعالى، تتحرك بإتجاهٍ آخر غير ما نحن بصددِه، و إن كانت تتشابه فى بعض أقسام الفروع الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۸۹ الأربعة، للأخلاق الآنفة الذّكر. و توجد فى القرآن الكريم آيات، نعتقد أنّها رَسمت الاصول الكليّة للأخلاق، ومن هذه الآيات، الآيات الوادرة فى (سورة لُقمان) و الّتى تبدأ من هذه الآية: «وَلَقَدْ آتَينا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أنْ اشْكُرْ للَّهِ» «۱». إنّ أوّل ما يشرع فيه الإنسان فى مضمارالعقائد و المعارف، هو شُكر المُنعم، و أوّل خطوةٍ فى طريق معرفة اللّه تعالى، هى مسألة شكر المُنعم، أو بعبارةٍ اخرى، كما صرّح علماء العقائد والكلام: إنّ الدّافع للحركةإلى اللّه تعالى هو شكر النّعمة، لأنّ الإنسان عندما يفتح عينه، يرى نفسه غارقاً فى بحر النّعم، فيدعوه الضّمير مُباشرةً إلى معرفة المُنعم، و هذا هو بداية الطّريق لمعرفة اللّه تعالى. و بعدها تتطرّق الآية لمسألة التّوحيد وتقول: «لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». وفى المرحلة الاخرى، يتناول القرآن الكريم مسألة المعاد، و هى الأساس الثّانى و المهم للمعارف الدّينية ويقول: «يا بُنَيَّ إنَّها إنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أو فِى السَّمَواتِ أو فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِها اللَّهُ» «۲». ثم يتطرق للُاصول الأساسيّة للأخلاق والحكمة العمليّة، ويشير للُامور التاليّة: ۱- مسألة إحترام الوالدين وشكرهم بعد شكر الخالق: «وَوَصَّينا الإنْسانَ بِوَالِدَيهِ ... أنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيكَ» «۳». ۲- إعطاء الأهميّة للصلاة، و علاقته باللّه والدعاء والخضوع له: «أَقِمْ الصَّلاةَ» «۴». ۳- الأمر

بـالمعروف و النّهی عـن المنکر: «وَامُرْ بِـالمَعرُوفِ وَإِنْهَ عَنِ المُنْکَرِ» «۵» ۴- الصّبر علی نوائب الـدّهر: «واصبِرْ عَلَی مـا أَصابَـکَ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۰ ۵- حُسن الخُلق مع النّاس: «وَلا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ» «۱». ۶- التواضع و ترک الکِبر مع النّاس و الخلق: «وَلا تَمْشِ فی الأَرْضِ مَرَحَاً إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» «۲». ۷- الإعتدال فی المشی وفی کلّ شیء: «وإقْصِدْ فِی مَشْیِکَ واغْضُضْ مِنْ صَوتِکَ» «۳». وعلی هـذا التّرتیب، نری أنّ القسم الأکبر من الفضائل الأخلاقیّـة، جاءت فی الآیات القرآنیّة تحت عنوان: «حکمـةُ لقمـان»، الـتی تشـمل الشّـکر والصـبر و حُسن الخلـق و التّواضع و الإعتـدال و الـدّعوة للإحسـان، و مقاومـة النّوازع و الأـهواء النّفسانیّة، کلّ ذلک فی ضِمن سبع آیاتٍ، من الآیة (۱۳ إلی ۱۹). وجاء فی الآیات الثلاث من سورة الأنعام، التی تبـدأ بالآیة (۱۵۱) و تنتهی بالآیة (۱۵۳)، عشرة أوامر مهمّة، تناولت مبادیء مهمّة من الاصول الأخلاقیّة، و من جملتها: ترک الظّلم للأولاد، و رعایة الأیتام، و مُراعاة العدالـة مع الجمیع، وترک العصبیّة للأقارب والأصدقاء والقبیلة، فی دائرة نقض اصول العدالة، وکذلک الإجتناب من القبائح و الرّذائل الظّاهریة و الباطنیّة، و إحترام حقوق الوالدین، و الإجتناب عن کلّ ما یُسبّب التّفرقة و إلأبتعاد عن کلّ شرک «۴».

اصول الأخلاق الإسلامیّة فی الرّوایات:

إسـتعرضت الأحادیث و الرّوایات الإسـلامیّة، الاصول الأخلاقیّة الحسنة والسیئة، بطریقتها الخاصّة، لا کما جاء فی کتب حُکماء الیونان ومن جملتها: ۱- فی الحدیث المعروف الذی جاء فی کتاب: (اصول الکافی)، عن الإمام الصادق علیه السلام: أنّ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۱ أحد أصـحاب الإمام علیه السلام و إسمه «سماعة بن مهران»، قال: کنت عند أبی عبداللَّه علیه السلام وجماعة من موالیه، فجری ذکر العقل والجهل، فقال أبوعبدللَّه علیه السـلام: «إعرفوا العقل وجنده، و الجهل وجنده تهتدوا»، فقلت: جُعلت فِداک لا نعرف إلّاما عرّفتنا، فقال أبو عبـدللَّه علیه السـلام: «إنّ اللَّه عزّوجلّ، خلق العقل، و هو أوّل خلقٍ من الرّوحانیین عن یمین العرش، من نوره فقال له: أدبِر فـأدبر؛ ثمّ قـال له: أقبِل فأقبل؛ فقال اللَّه تبارک وتعالی: خلقتک خَلقاً عظیماً وکرّمتک علی جمیع خلقی، قال: ثمّ خلق الجهل، من البحر الاجاج ظلمانیاً، فقال له: أدبر فأدبر؛ ثم قال له: أقبل فلم یُقبِل فقال له: إسـتکبرت، فلعنه. ثمّ جعل للعقل خمسة وسبعین جنداً، فلمّا رأی الجهل ما أکرم اللَّه به العقل، و ما أعطاه أضـمرَ له العـداوة، فقال الجهل: یا ربّ هذا خلق مثلی، خلقته و کرّمته و قوّیته، و أنا ضِدّه ولاـ قوّة لی به، فأعطنی من الجنـد مثل ما أعطیته، فقال اللَّه تعالی نعم، فإن عَصیت بعـد ذلک أخرجتک وجنـدک من رحمتی. قال: قد رضـیت. فأعطاه خمسة وسـبعین جنداً. فکان ممّا أعطی العقل من الخمسة و السّبعین الجند: الخیر هو وزیر العقل، و جعل ضدّه الشـرّ وهو وزیر الجهل؛ والإیمان وضـدّه الکفر؛ والتصـدیق وضـدّه الجُحود؛ و الرّجاء وضـدّه القُنوط؛ والعـدل وضـدّه الجور؛ و الرّضـا وضـدّه السـخط؛ والشّـکر وضـدّه الکُفران؛ والطّمع وضـدّه الیأس؛ والتوکّل وضـدّه الحِرص؛ والرّأفـة وضـدّه القسوة؛ والرّحمـة وضدّها الغضب؛ والعلم وضـدّه الجهل؛ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۲ والفهم و الحمق؛ والعفّـة و ضدّها التهتک؛ والزّهد و ضدّه الرّغبة؛ و الرّفق و ضـدّه الخرق؛ والرّهبة وضدّها الجرأة؛ والتّواضع وضدّه الکِبر؛ والتؤدة وضدّها التّسـرع؛ والحلم وضدّه السّـفه؛ والصّـمت وضدّه الهـذر؛ والإستسـلام وضـدّه الإسـتکبار؛ والتّسـلیم وضـدّه الشّک؛ والصّبر وضـدّه الجزَع؛ والصّـفح وضدّه الإنتقام؛ والغنی وضدّه الفقر؛ والتّـذکّر وضـدّه السّـهو؛ والحفظ وضـدّه النسـیان؛ والتعطّف وضدّه القطیعة؛ والقنوع وضدّه الحرص؛ والمؤاساة وضدّها المنع؛ والمودّة وضـدّها العـداوة؛ والوفـاء وضـدّه الغـدر؛ والطّاعـة وضـدّها المعصـیة؛ والخُضوع وضـدّه التّطـاول؛ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۳ والسّـلامة وضـدّها البلاء؛ والحبّ وضـدّه البغض؛ والصّـدق وضدّه الکذب؛ والحقّ وضدّه الباطل؛ والأمانة وضدّها الخیانة؛ والإخلاص وضدّه الشّوب؛ والشّـهامة وضدّها البلادة؛ والفهم وضدّه الغباوة؛ والمعرفة وضدّها الإنکار؛ والمداراة وضدّها المکاشفة؛ وسلامة الغیب و ضـدّه المماکرة؛ والکتمان وضـدّه الإفشاء؛ والصـلاة وضدّها الإضاعة؛ والصّوم وضدّه الإفطار؛ والجهاد وضدّه النُکول؛ والحجّ وضدّه نبـذ المیثاق؛ و صَون الحدیث وضدّه الّنمیمة؛ وبرّ الوالدین وضدّه العُقوق؛ والحقیقة وضدّها الرّیاء؛ والمعروف وضدّه المُنکر؛ والسّتر و ضـدّه التّبرج؛ والتقیّـة وضـدّها الإذاعـة؛ والإنصاف وضدّه الحمیّة؛ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۴ والتهیئـة وضدّها البغی؛ والنّظافة

وضدّها القذر؛ والحياء وضدّه الجلع؛ والقصد وضدّه العدوان؛ والرّاحة وضدّها التّعب؛ والسّهولة وضدّها الصّعوبة؛ والبركة وضدّها المحق؛ والعافية وضدّها البلاء؛ والقوام وضدّه المكاثرة؛ والحكمة وضدّها الهواء؛ والوقار وضدّه الخفّة؛ والسّعادة وضدّها الشّقاوة؛ و التّوبة وضدّها الإصرار؛ والإستغفار و ضدّه الإغترار؛ والمحافظة وضدّها التّهاون؛ و الدّعاء و ضدّه الإستنكاف؛ والنّشاط و ضدّه الكسل؛ والفرح وضدّه الحُزن؛ والالفة وضدّها الفُرقة؛ والسخاء و ضدّه البخل؛ فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل، إلّافى نبىّ أو وصىّ نبى، أو مؤمن قد إمتحن اللّه قلبه للإيمان، وأمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل، وينفى من جنود الجهل. فعند ذلك يكون فى الدرجة الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۹۵ العليا مع الأنبياء و الأوصياء؛ و إنّما يُدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده، وبمجانبة الجهل وجنوده. وفّقنا اللّه وإيّاكم لطاعته ومرضاته» «۱». فالحديث أعلاه، حديث جامع لُاصول و فروع الأخلاق الإسلامية، وبحثها بعض المؤلّفين والكتّاب فى كتبٍ مستقلةٍ. ۲- نقرأ فى الكلمات القصار للإمام على عليه السلام، فى نهج البلاغة، عندما سُئل الإمام عليه السلام عن الإيمان، (يتبيّن من ذيل الحديث، أنّ المقصود من الإيمان هو الإيمان العلمى والعملى، الذى يشمل الاصول الأخلاقيّة). أجاب الإمام عليه السلام: «الإيمانُ عَلَى أَربَعِ دَعائِمَ، عَلَى الصَّبْرِ واليَقِينِ وَالعَدلِ وَالجِهادِ». ثم أضاف قائلًا: «والصَّبرُ مِنْها عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ، عَلَى الشَّوقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهدِ وَالتَّرَقُّبِ». (الإشتياق للجنّة والمنح الإلهيّة، و الخوف من العقاب و النّار، دافعٌ للأعمال الصّالحة ورادع عن السيئات). و الزّهد بالدنيا وزبرجها يهوّن المصائب، و إنتظار الموت و نهاية الحياة، تحثّ الإنسان لِفعل الأعمال الصّالحة. وبعدها يضيف عليه السلام: «واليَقِينُ مِنها عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ، عَلى تَبصِرَةِ الفِطْنَةِ وَتَأَوُّلِ الحِكْمَةِ وَمَوعِظَةِ العِبرَةِ وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ». ثمّ أضاف عليه السلام: «وَالعَدْلُ مِنها عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ، عَلَى غَائِصِ الفَهمِ، وَغَورِ العِلمِ، وَزُهْرَةِ الحُكْمِ، وَرَساخَةِ الحِلْمِ». وقال عليه السلام خِتاماً: الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۹۶ «وَالجِهادُ مِنها عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ، عَلَى الأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهي عَنِ المُنكَرِ، والصِّدقِ فِي المَواطِنِ، وَشَنآنِ الفَاسِقِينَ». وبعدها يبيّن شعب الكفر، و يشرحها واحداً تلْو الآخر «۱». فكما تلاحظون أنّ الإمام على عليه السلام، رسم الاصول الإسلامية للإيمان والكفر، بدقّةٍ متناهيةٍ، و آثارها فى المحتوى الداخلى للإنسان و على سلوكه الخارجى، و التى تشمل الأخلاق العمليّة، فذكر لكلّ فرعٍ، فرعاً آخر، وتحليل هذه الجزئيات يتطلب كتابة مقالة اخرى. ۳- نقرأ فى حديثٍ آخر عن الإمام على عليه السلام: «أَربَعٌ مَنْ اعطِيهُنَّ فَقَدْ اوتِيَ خَيرَ الدُّنيا والآخِرَةِ، صِدقُ حَدِيثٍ وَأداءُ أَمانةٍ، وَعِفَّةُ بَطنٍ وَحسنُ خُلُقٍ» «۲». ۴-- وجاء فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، فى نفس هذا المعنى، بتلخيصٍ أكثر، حيث جاء إليه أحد الأشخاص، و طلب منه أن يُعلّمه أمراً يكون فيه خير الدنيا و الآخرة، و بشكلٍ موجز، فقال الإمام عليه السلام فى معرض جوابه: «لا تِكْذِب تَكِذْبَ» «۳». و الحقيقة هى كذلك، لأنّ جذور كلّ الفضائل تمتد إلى حديث الصّدق، فالإنسان لا يكذب على الناس ولا على نفسه ولا على اللّه تعالى، وعندما يقول فى صلاته: «إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَستَعِينُ»، ينبغى أن لا يكون فيها كاذباً أبداً، بل يبتعد عن كلّ ما هو شيطانى، و هوى النفس، وتكون حركته فى دائرة خضوعه وتسليمه للّهفقط، ولا يعتمد على المال والجاه والقدرة والمقام، ويترك ما سوى اللّه تعالى و يكون إعتماده الأوّل و الأخير على لطف اللّه تعالى ومعونته، فإذا أصبح الإنسان كذلك، فسوف يعيش الحياة المعنويّة فى جميع فروع واصول الأخلاق. ۵- ونقرأ فى الرّوايات الإسلاميّة تعابير مثل: «أفضل الأخلاق»، أو «أكرم الأخلاق»، أو «أحسن الأخلاق»، أو «أجمل الأخلاق»، وفى هذه إشارةٌ اخرى لأقسام مهمّةٍ من الاصول الأخلاقيّة، منها: سئل الباقر عليه السلام عن أفضل الأخلاق، فقال: «الصَّبرُ والسّماحَةُ» «۱». و فى حديثٍ آخر عن الإمام على عليه السلام، قال: «أَكْرَمُ الأَخلاقِ السَّخَاءُ وَأَعمُّها نَفعاً العَدْلُ» «۲». و فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أيضاً، قال: «أَشْرَفُ الخِلائِقِ التَّواضُعُ والحِلمُ وَلِينُ الجانِبِ» «۳». و فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث سئل: «أَيُّ الخِصالِ بِالمَرءِ أَجْمَلُ فَقالَ: وِقارٌ بِلا مَهانَةٍ، وَ سَماحٌ بِلا طَلَبِ مُكافَأةٍ، وَتَشاغُلٌ بِغَيرِ مَتاعِ الدُّنيا» «۴». ۶- أيضاً فى حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام، بيّن فيه اصول الأخلاق السّيئة، وعبّر عنها باصول الكفر، فقال: «اصُولُ الكُفرِ ثَلاثَةٌ: الحِرصُ، والإستِكبأرُ وَالحَسَدُ». وأردف قائلًا فى بيان وتوضيح الاصول الثلاثة: «فَأَمّا الحِرصُ فإِنَّ آدَمَ حَينَ نُهِيَ عَنِ الشَّجَرَةِ حَمَلَهُ الحِرصِ أنْ أَكَلَ مِنها، وَأَمَّا الإستِكبَارُ فَإِبلِيسُ حِينَ امِرَ بِسُّجُودِ لآدَمَ إِستَكبَرَ، وَأَمّا الحَسَدُ فَإبنا آدَمَ

حَيثُ قَتَلَ أَحَدَهُما صاحِبَهُ» «۵» الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۹۸ و على هذا الأساس فإنّ مصدر جميع المصائب الكبرى، التى حدثت فى عالم الإنسانية، منذ صدر الخليقة، هى هذه الصّفات الثّلاثة، فالحرص: طرد آدم من الجنّة، والإستكبار: طرد إبليس عن ساحة القدس إلى الأبد، والحسد: هو أساس كلّ قتلٍ و جنايةٍ حدثت فى العالم ۷- و نختم كلامنا هذا بحديثٍ عن الرّسول الكريم صلى الله عليه و آله قال، الإمام الصادق عليه السلام، أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «إنَّ أَوَّلَ مَنْ عُصِىَ اللَّهُ عزَّوجَلَّ بِهِ سِتٌّ: حُبُّ الدُّنيا، وَحُبُّ الرِّياسَةِ، وَ حُبُّ الطَّعامِ، وَحُبُّ النَّومِ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ، وَحُبُّ النِّساءِ»». لقد تبيّن من مجموع ما ذكر آنفاً، اصول الفضائل و الرّذائل الأخلاقيّة، ولكن وكما يُستفاد من مجموع الرّوايات، أنّه لا يوجد عدد خاص و معيّن، لهذه القيم والمبادىء الأخلاقية، لأنّ الأخلاق الحسنة والقبيحة، لها دوافع ومقاصد متعدّدة و متنوعة ومختلفة، أو بعبارة اخرى: كما أنّ الصّفات الجسميّة للإنسان، لا عدد ولا حصر لها، فكذلك الصّفات الروحانيّة، و الملكات الأخلاقيّة الصّالحة و الطّالحة، لا عدد ولا حصر لها.

إرتباط المسائل الأخلاقيّة مع بعضها

تنويه:

غالباً ما تكون الفضائل الأخلاقيّة، مترابطةٌ فى ما بينها برابطةٍ وثيقةٍ، كما هو الحال فى الرّذائل وعلاقتها الوثيقة مع بعضها، وعلى هذا يصعب التّفكيك والفصل بينها فى الغالب. و هذا التّرابط قد يكون بسبب الجُذور المشتركة بينها، وربّما يكون بسبب الّثمرات المترتبة عليها ونتائجها فى حركة الإنسان والحياة. و فى القسم الأول، وهو البحث فى الجذور المشتركة بين القيم فى المنظومة الأخلاقية، لدينا أمثلةٌ واضحةٌ، ففى كثير من الموارد، تكون الغيبة وليدة الحسد، ويسعى الحسود دائما لفضح وتعرية محسوده، و الإستهانة بشخصيته من موقع التّهمة والإفتراء و التّكبر، و التّحرك على مستوى تحقير و تهميش الآخرين، فكلّ هذه الرّذائل يمكن أن تكون من إفرازات الحسد أيضاً. و بالعكس، فمن كان يعيش علوّ الهمّة، و سمّو الطبع، فسوف لا يقف فى مقابل الشهوات الرخيصة والطمع فيها فحسب، بل تكون لديه حصانةٌ ضدّ: الحسد و الكِبر والغرور والتملّق، أيضاً. و بالنسبة للنتائج و الثمرات، نرى هذا الإرتباط بصورةٍ أوضح، فالكذب يمكن أن يكون مصدراً لأكاذيب اخرى، و ربّما ولتوجيه أخطائه و ذنوبه، يرتكب الشخص أخطاءً اخرى، و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۰ يتحرك لُممارسة جرائم عديدة فى عمليّة التّغطية على جُرمه الأول، وبالعكس، فإنّ العمل الأخلاقى مثل الأمانة، من شأنه أن يولّد المحبّة و الصّداقة والتعاون والإرتباط الوثيق بين أفراد المجتمع. ويوجد لدينا فى الرّوايات إشارات إلى هذا المعنى، فنقرأ فى حديثٍ عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «إذا كانَ فى الرَّجُلِ خَلَّةٌ رائِعةٌ فانتَظِر أَخَواتِها» «۱». و فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «إنَّ خِصالَ المَكارِمِ بَعضُها مُقَيَّدٌ بِبَعضِها». وأشار فى ذيل هذا الحديث: «صِدْقُ الحَدِيثِ وَصِدْقُ البَأسِ وإعطاءُ السَّائِلِ وَالمُكافَاتُ بِالصَّنائِع وأَداءُ الأَمانَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَالتَّوَدُّدَ إلى الجارِ والصَّاحِبِ وقِرى الضَّيفِ وَرَأسُهُنَّ الحَياءُ» «۲» وفى الواقع فإنّ الحياء، و هو روح النّفور من الذّنب و القّبائح، يمكن أن يكون مصدراً لجميع الأفعال الأخلاقية المذكورة أعلاه، كما أنّ الصّدق يُقرّب الإنسان للأمانة، و يعمّق فيه روح التّصدى للقبائح، ويثير فى أعماق وجدانه، عناصر الخير و المحبّة مع الأقارب والأصدقاء والجيران. ونقرأ فى حديثِ ثالثٍ عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «إنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ للشِّرِّ أَقفَالًا وَجَعَلَ مَفاتِيحَ تِلكَ الأَقفَالِ الشَّراب، وَالكِذْبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرابِ» «۳». وفيه إشارةٌ إلى أنّ الكذب، يمكن أن يكون مصدراً لأنواع كثيرةٍ من الآثام و الذّنوب. و جاء ما يشبه هذا المعنى، فى حديثٍ عن الإمام العسكرى عليه السلام، فقال: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۱ «جُعِلَتْ الخَبَائِثُ فى بَيتٍ وَجُعِلَ مِفتَاحُها الكِذْبُ» «۱». ونختم هذا الموضوع، بحديثٍ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث جاء رجل إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال له: يارسول اللَّه إنّى إرتكبت فى السّر أربع ذنوبٍ، الزّنا و شرب الخمر و السّرقة والكذب، فأيّتهُنَّ شِئتَ تَركتُها لك، (لم يكن يريد أن يقلع عنها أجمع، وإكراماً للرّسول؛ يريد أن يقلع عن واحدةٍ فقط؟!. فقال

له الرسول صلی الله علیه و آله: «دَع الكَـذِبَ». فـذهب الرجل، وكلما أراد أن یهمّ بالخطیئة، یتذكر عهده مع الرسول صلی الله علیه و آله، و یقول ربّما سألنی، و علیّ أن أكون صادقاً فی الجواب، فیجری علیّ الحدّ، و إن كـذبت فقد نقضت العهد مع الرسول صلی الله علیه و آله، ممّا إضطّره أخیراً لتركها أجمع. فرجع ذلك الرجل للرسول صلی الله علیه و آله، و قال له: «قَدْ أَخَذتَ عَلَیَّ السَّبِیلَ كُلَّهُ فَقَد تَركتُهُنَّ أجمع» «۲». و نستنتج ممّا ذُكر آنفاً: أنّه فی كثیرٍ من الموارد، ولأجل تربیة و تهذیب النّفوس و الأخلاق، أو لإصلاح بعضها، یجب أن نبدأ من الجُذور، و كذلك الإستعانة بالمقارنات و الأخلاق الاخری المتعلقة بها.

من أین نبدأ؟

اشارة

تعرفنا علی كلّیات علم الأخلاق، و نتائجه وآثاره و مقاصده و فُروعه، والآن آن الأوان، وبما لـدینا من المعلومات والمعارف الكلّیة، البِـدء فی طریق تهـذیب النّفس، أو الإنتقال من المسائل الذهنیّة إلی میدان الممارسة و التّطبیق، ومن الكلّیات إلی الجزئیات. ویجب التّوقف هنا، لتهیئة لوازم سفرنا الروحانی، حتی لا نصاب فی سلوكنا لذلك الطّریقُ بالحیرة و الضّلالة وعدم التّنظیم و التّنظیر، و علیه فلابدّ من الإلتفات إلی امور: ۱- ثلاثة رُؤی فی كیفیّة التعامل مع المسائل الأخلاقیّة. ۲- هل یحتاج الإنسان فی كل مرحلة إلی استاذٍ و مرشدٍ؟ ۳- دور الواعظ الخارجی والواعظ الـداخلی. ۴- الامور التی تُساعد الإنسان فی عملیة الوصول إلی هذا الهدف؛ مثل ذكر اللَّه والعبادة والأدعیة، الزّیارات، النصائح المتكررة، التلقین. ۵- طهارة المحیط.

ثلاث نظریّات فی كیفیّة التعامل مع المسائل الأخلاقیّة:

النظریّة الأولی

رأیٌ یقول: إنّ تهـذیب النفس، نوع من الجهاد و محاربة أعـداء الـداخل، الّذین یتحرّكون الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۴ لإیقاع الإنسان فی مستنقع الرّذیلة، و شراك الخطیئة. هـذا الرأی مقتبسٌ فی الأصل، من حدیث الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله، المعروف، عنـدما خاطب الرسول صلی الله علیه و آله، قومٌ من المجاهـدین، رجعوا لتوّهم من الغزو فقال: «مَرحَباً بِقَومٍ قَضَوا الجِهادَ الأَصغَرَ وَبَقِیَ عَلَیهِم الجِهادُ الأَكبَرُ، فَقِیلَ یا رَسُولَ اللَّهِ، ما الجِهادُ الأكبرُ، قالَ: جِهادُ النَّفسِ» «۱». وجاء فی البحار فی ذیل هذا الحدیث: ثُمّ قَالَ صلی الله علیه و آله: «أَفضَلُ الجِهادِ مَنْ جاهـدَ نَفْسَهُ الَّتِی بَینَ جَنْبَیهِ» «۲». هـذا وقد فُسّرت بعض الآیات التی وردت فی دائرة الجهاد، بالجهاد الأكبر، إمّا لأنّها تخصّ الجهاد مع النفس، أو لمدلولها العام فی حركة السیاق القرآنی، الذی یتناول القِسمین للجهاد. وجاء فی تفسیر القمی، فی ذیل الآیة (۶) من سورة العنكبوت: «وَمَنْ جاهَـدَ فَإِنّما یُجَاهِـدُ لِنَفْسِهِ إنَّ اللَّهَ لَغَنِیٌّ عَنِ العالَمِینَ»، قَالَ علیه السلام: «و من جاهد نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ وَاللَّذَّاتِ وَ المَعاصِی» «۳». ویمكن أن نستوحی هذا المعنی من هذه الآیة، من حیث إنّ فائدة الجهاد تعود علی الإنسان نفسه، ویتّضح ویتجلّی أكثر فی الجهاد مع النفس، وخصوصاً أنّ الآیة التی جاءت قبلها، تكلّمت عن لقاء اللَّه: «وَمَنْ كَانَ یَرجُوا لِقاءَ اللَّهِ ...»، ونعلم أنّ لقاء اللَّه، و الشهود و القرب منه، هو الهدف الأصلی للجهاد مع النفس. و كـذلك جاء فی آخر آیةٍ من سورة العنكبوت: «وَالَّذِینَ جاهَدُوا فِینَا لَنَهْدِیَنَّهُم سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الُمحسِنِینَ». وهذه الآیة أیضاً ناظرةٌ حسب الظاهر إلی الجهاد الأكبر، وذلك لقرینة: (فینا)، و جملة: «لَنَهْدِیَنَّهُم سُبُلَنا»، أو تتضمن مفهوماً عاماً یستوعب كلا النَّحوین من الجهاد. وجاء أیضاً فی الآیة (۷۸) من سورة الحج: «و جاهِدُوا فِی اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۵ جَعَلَ عَلَیكُم فِی الدِّینِ مِنْ حَرجٍ». فقد فسّر أغلب المفسّرین كلمة الجهاد بمعناها ومفهومها العام، الذی یشمل الجهاد الأصغر والأكبر، أو بخصوص معنی الجهاد الأكبر، وكما قال المرحوم العلّامة الطّبرسی فی كتابه مجمع البیان، أنّ أكثر المفسّرین ذهبوا إلی أنّ المقصود من حقّ

الجهاد، هو إخلاص النيّة والأعمال والطّاعات للّه‌تعالى «۱». وقد ذكر العلّامة المجلسى رحمه الله هذه الآية، فى زمرة الآيات النّاظرة للجهاد الأكبر «۲» كذلك. و جاء فى الحديث المعروف عن أبى ذرّ رحمه الله أنّه قال: قُلتُ يا رسُولَ اللّهِ أَىُّ الجِهادِ أفضَلُ؟ فَقالَ صلى الله عليه و آله: «أنْ يُجاهِدَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَهَواهُ» «۳». وكما ورد فى حديث: جنود العقل وجنود الجهل، هذا المعنى أيضاً، إذ يُشبّه حياة الإنسان بساحةِ حربٍ، العقلُ جنوده فى جهةٍ، و الجهلُ و هوى النّفس و جنودهما فى الجهة المقابلة، فهذان المعسكران، يعيشان دائماً فى حالة حربِ سِجالٍ، و من خلال هذا النّزاع، و معطيات حالات الصّراع فى أعماق النّفس، تتولد الكمالات المعنويّة للإنسان، وذلك عندما ينتصر العقل وجنوده، و النّصر الآنى، هو السّبب فى التّقدم النّسبى للكمالات الإنسانيّة.

النظريّة الثّانية: نظريّة الطّب الرّوحانى

فقد ذهبوا إلى أنّ الرّوح كجسم الإنسان، تُصاب بأنواع الأمراض، و لأجل الشّفاء يتوجب اللّجوء إلى أطبّاء النّفس و الرّوح، والإستعانة بأدوية الأخلاق الخاصّة، حتى تبقى الرّوح سالمةً و نشطةً و فعّالةً. و الجدير بالذكر، أنّ القرآن الكريم أشار إلى الأمراض الأخلاقية و الروحية، فى إثنى عشر موضعاً، و عبّر عَنها بالمرض «۴»، ومنها الآية (۱۰) من سورة البقرة، إعتبرت النِّفاق من الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۶ زمرة الأمراض الروحية، فقالت: «فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزادَهُم اللّهُ مَرَضاً»؛ بسبب إصرارهم على النّفاق. وفى الآية (۳۲) من سورة الأحزاب، و صفت عبيد الشّهوة بمرضى القلوب، الذين يتحيّنون الفرص لإصطياد النّساء العفيفات، حيث خاطب البارى تعالى نساء النبى صلى الله عليه و آله، فقال: «فَلا تَخْضَعنَ بِالقَولِ فَيَطمَعَ الَّذِى فى قَلْبِهِ مَرَضٌ». وجاء فى الآيات الاخرى نفس هذا المعنى، أو أوسع منه، بحيث تناولت الآيات، جميع الإنحرافات الأخلاقيّة و العقائديّة. و فى معنى عميق آخر، عبّر القرآن الكريم، عن القلوب المليئة بنور المعرفة والأخلاق و التّقوى: بالقلوب السليمة. و جاء ذلك على لسان النّبى إبراهيم عليه السلام، حيث قال: «وَ لا تُخْزِنِى يَومَ يُبعَثُونَ* يَومَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إلّامَنْ أَتىْ اللّهَ بِقَلبٍ سَلِيم» «۱». «السّليم» من مادة «السّلامة»، و تقع فى مقابل الفساد و الإنحراف والمرض، و «القلب السّليم» كما جاء فى الرّوايات عن المعصومين عليهم السلام، فى تفسير هذه الآية، أنّه القلب الذى خَلا من غير اللّه تعالى، (منزّه من كلّ مرضٍ أخلاقى وروحى). و قال القرآن الكريم فى مكانٍ آخر: إنّ إبراهيم عليه السلام عندما طلب من البارى تعالى: القلب السّليم، (كما أشارت الآيات الآنفة الذّكر)، تحقّق له ما يُريد، و شملته رحمة ولطف اللّه تعالى، وأصبح ذا قلبٍ سليم، فنقرأ فى الآيات (۸۳ و ۸۴) من سورة الصافات: «وإنَّ مِنْ شَيعَتِهِ لَإبراهيم* إذْ جاء رَبَّهُ بِقَلبٍ سَليم». نعم، فإنّ إبراهيم عليه السلام كانَ يتمنى أن يكون ذا قلبٍ سليم، و بالسّعى و الإيثار و محاربة الشرك، و هو النفس من موقع عبادة اللّه، إستطاع أن يصل بالنّهاية إلى ذلك المقام. و نجد فى الأحاديث الإسلامية، إشاراتٌ كثيرةٌ حول هذا الموضوع، ومنها: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۷ ۱- يصف الإمام على عليه السلام، الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى نهج البلاغة، فيقول: «طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَراهِمَهُ وَأَحمَى مَواسِمَهُ يَضَعُ ذِلِكَ حَيثُ الحاجة إلَيهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمى و آذانٍ صُمٍّ وَأَلسِنَةٍ بُكم، مُتَتَبِّعٌ بِدوَائِهِ مَواضِعَ الغَفلَةِ وَمَواطِنَ الحَيرَة» «۱». ۲- ورد فى تفسير القلب السّليم، الذى ذُكر فى الايتين الشّريفتين أعلاه، رواياتٌ كثيرةٌ، فنقرأ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله، سئل: ما القَلْبُ السّلِيم. فقال صلى الله عليه و آله: «دِينٌ بِلا شَكٍّ وَهُوىً، وَعَمَلٌ بِلا سُمْعَةٍ وَرياءٍ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلامَةِ، ولا سَلامَةَ كَسَلامَةِ القَلبِ» «۳». وجاء فى حديثٍ آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا أَحَبَّ اللّهُ عَبداً رَزَقَهُ قَلبَاً سَلِيماً وَخُلْقاً قَويمَاً» «۴». ۳- وقد ورد التعبير عن الأخلاق الرّذيلة، فى الروايات بأمراض القلب. فورد فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «إيّاكُم وَالمِراءَ وَالخُصُومَةَ فإنّهما يُمرِضانِ القُلُوبَ عَلَى الإخوانِ، وَ يَنْبُتُ عَلَيهِما النِّفاقَ» «۵». وجاء أيضاً عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ما مِنْ شَيءٍ أَفْسَدَ لِلقَلبِ مِنْ خَطِيئَتِهِ» «۶». ۴- ونقرأ عن الإمام على عليه السلام أيضاً: «أَلا وَ مِنَ البَلاءِ الفاقَةُ، وَأَشَدُّ مِنَ الفاقَةِ مَرَضُ البَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ البَدنِ مَرَضُ القَلبِ». «۷» الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۸ ۵- وجاء أيضاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فى معرض حديثه عن الحسد، و أنّه كان ولا يزال على طول التأريخ

مرضٌ نفسى عضال، فقال: «أَلا إِنَّهُ قَدْ دَبَّ إِلَيكَم داءُ الامَمِّ مِنْ قَبلِكَم وَهُوَ الحَسَدُ، لَيسَ بِحالِقِ الشَّعْرِ، لَكِنَّهُ حالِقُ الدِّينِ، ويُنجِى فِيهِ أنْ يَكُفَّ الإِنسانُ يَدَهُ وَيَحْزُنَ لِسانَهُ وَلا يَكُونَ ذا غَمزٍ عَلَى أَخِيهِ المُؤمِنُ» «۱». ۶- و قد ورد فى التّعبير عن الرذائل الأخلاقيّة، فى كثيرٍ من الرّوايات ب: «الدّاء» و مفهومها المرض، وجاء مثلًا فى الخطبة (۱۷۶) من نهج البلاغة، حيث يصف الإمام عليه السلام فيها القرآن الكريم: «فَإسْتَشفُوهُ مِنْ أَدوائِكُم ... فَإنَّ فِيهِ شِفاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالغيُّ والضَّلالُ». ونرى أيضاً هذا التعبير فى روايات كثيرة اخرى. و خلاصة القول، إنّ الفضائل و الرّذائل، و طبقاً لهذه النظرية و الرؤية، علامةٌ لسلامة و مرض الرّوح عند الإنسان، والأنبياء عليهم السلام والأئمّة المعصومين عليهم السلام، كانوا معلمى أخلاق، و أطباء نفسيين، و تعاليمهم تجسّد فى مضمونها الدّواء النّافع و العلاج الشافى. و على هذا، فكما هو الحال فى الطّب المادى، ولأجل الوصول إلى الشّفاء الكامل، يحتاج المريض إلى الدواء، و يحتاج إلى الحُمية من بعض الأكلات، فكذلك فى الطّب النّفسى و الرّوحى الأخلاقى، يحتاج إلى الإمتناع عن أصدقاء السّوء، و المحيط الملّوث بالمفساد الأخلاقيّة، و كذلك الإمتناع عن كلّ ما يَساعد على تفّشى الفساد، فى واقع الإنسان النفسى، و محتواه الداخلى. فالطّب المادى جعل العمليّة الجراحيّة كعلاجٍ لبعض الحالات، و كذلك جعل الطّب الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۹ الرّوحى الحدود و التّعزيرات و العُقوبات كوسيلةٍ، ودواءٍ رادعٍ، عن الأعمال المنافيّة للأخلاق، و هى بِمنزلة إجراء العمليّة الجراحيّة فى الطّب المادى. وكما نرى فى الطّب المادى، أنّه جعل العلاج فى مرحلتين، مرحلة الوقاية: و هى المحافظة على الصّحة البدنيّة، و الثّانية: مرحلة العلاج للمريض، فكذلك فى الطّب الرّوحى و الأخلاقى، يمرّ بمرحلتين: مرحلة الإرشاد والتعليم من قبل معلمى الأخلاق، للمحافظة على نفوس الناس من التلّوث بالرذائل، و الثّانية: مرحلة العلاج للمذنبين الملوّثين بالرّذائل. و ما جاء فى الخطبة (۱۰۸) من نهج البلاغة، فى وصف الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و معالجاته بالمراهم والكيّ للجروح، يبيّن مدى التّنوع فى الطّب الرّوحى، كما هو الحال فى الطّب المادى. ففى الطّب المادى (الجسمانى)، توجد مجموعة إرشاداتٍ و أوامر كليّة لعلاج الأمراض، و قسمٌ من الأوامر التى تخص كلّ مرض بذاته، فكذلك الطّب الرّوحى، فالتّوبة و ذكر اللّه والعبادات الاخرى، والمحاسبة والمراقبة للنفس، هى اصولٌ كليّةٌ للعلاج، وكلّ مرضٍ أخلاقى، نجد الأوامر والإرشادات الخاصة به، مذكورةٌ فى الكتب الإسلاميّة و الأخلاقيّة.

النظريّة الثالثة: نظريّة السّير و السّلوك

وقد شبّه الإنسان فى هذه النظريّة، بمسافر إنطلق من نقطةِ العدم، إلى لقاء اللّه تعالى، و يتحرك فى سلوكه بهدف لقاء اللّه، و القرب من الذّات المقدّسة اللّامتناهية. ففى هذا السّفر، و كما هو الحال بالنسبة لأسفارنا الماديّة، يجب تحضير المركب و المتاع، و إزالة الموانع التى تقف فى الطّريق، و التّفكير فى كيفية التّصدى للّصوص وقطاع الطّريق و الأعداء، للمحافظة على المال والأرواح، فهذا السّفر الرّوحانى و المعنوى، فيه منازل وطرق ملتوية وصعبة العبور، و مطبّاتٌ خطرةٌ، و لا يمكن العبور منه بسلامة، إلّابمعونة الدليل المطّلع و العارف بالطّريق، و العُبور منها واحداً بعد واحدٍ حتّى الوصول إلى محطّ الرّحال ومنزل المقصود. و يصرّ البعض أنّ السّير و السّلوك إلى اللّه تعالى، و معرفته و منازله، و زاده و أدلّائه، و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۰ الطّريق الموصل إليه، هو علمٌ غير علم الأخلاق، و منفصلٌ عنه، ولكن و بنظرةٍ أوسع، نرى أنّ السير و السّلوك الرّوحى، يلتقى فى نفس الطّريق التى تهدف إليه التربية الأخلاقية، و تحصيل الفضائل فى خط التّكامل المعنوى، أو على الأقل أنّ الأخلاق الإلهيّة هى أحد أبعاد السّير و السّلوك الرّوحانى. وعلى أيّة حال، فإنّ الآيات و الروايات، أشارت إلى هذه النّظرية أيضاً، ومنها: الآية (۱۵۶) من سورة البقرة، حيث تقول: «الَّذِينَ إذا أَصابَتْهُم مُصِيبَةٌ قالُوا إنّا لِلّهِ وَإِنّا إِليهِ راجِعُونَ». فمن جهةٍ، يرى الإنسان نفسه أنّه مُلكٌ للّهتعالى، و من جهةٍ اخرى، يرى نفسه أنّه مُسافر، و يتحرّك بإتّجاه اللّه تعالى شأنه. و نقرأ أيضاً فى سورة العَلق: «إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجعى «۱»». وجاء فى سورة الإنشقاق: «يا أَيُّها الإِنسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدحاً فَمُلاقِيهِ» «۲». و جاء فى سورة الرّعد: «رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَها ... يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلَقاءِ رَبِّكُم تُوقِنُونَ» «۳». ويوجد أكثر من (۲۰ آية)، تحدثت عن أن لقاء اللّه تعالى، فى الواقع هو مقصود السّالكين إلى اللّه والعارفين

به، و يعنى اللّقاء المعنوى و الرّوحى مع المحبوب، و المقصود الذى لا مثيل له. و صحيحٌ أنّ هذه الآيات، و آياتُ الرّجوع إلى اللّه تعالى، تستوعب جميع هذه المعانى، ولكن هذا لا يمنع من أنّ سير وسلوك المؤمن و الكافر، من ناحية الفِطرة والخلقة، هو بإتّجاه البارى تعالى، فبعضٌ ينحرف عن طريق الفطرة، فيسقط فى وادٍ سحيقٍ، ولكن أولياء اللّه و مع إختلافهم بالمراتب، يصلون إلى المقصود، مثل الحيامن التى تسير جميعاً فى عالم الرّحم لِتكوين الجَنين، فبعضها تموت فى المراحل الأولى بسبب بعض الآفات، و تتوقف عن الحركة، وبعضها يستمر فى طريقه، ليصل أحدها إلى الهدف. و أفضل و أوضح من هذه التّعابير، هو تعبير القرآن الكريم، حيث يقول: «إِنَّ خَيرَ الزَّادِ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۱ التَّقوى ، (وعادةً كلمة: الزّاد، تقال للطعام الذى يحمله المسافر معه، ولكنّها فى الأصل موضوعةٌ لمعنى أشمل: بحيث تشمل كلَّ ذخيرةٍ). و على هذا الأساس يقول: إنّ التّقوى هى خيرُ الزّاد، و هى إشارةٌ إلى سير الإنسان فى طريق التّوحيد الخالص، و على كلّ حال فإنّ هذا السّفر الرّوحانى يحتاج إلى زادٍ، وزاده لابدّ وأن يكون معنوياً أيضاً. و نرى مثل هذا التعبير، واردٌ بكثرةٍ فى الرّوايات الإسلاميّة. و فى موارد متعدّدةٍ من نهج البلاغة، أتى ذكر التّزود للآخرة: ففى الخطبة (۱۵۷) يقول الإمام عليه السلام: «فَتَزَوَّدوا فِى أَيّام الفَناءِ لأَيّام البَقَاءِ». وفى الخطبة (۱۳۲) نرى تعبيراً أوضح، فيقول عليه السلام: «إنّ الدُّنيا لَمْ تُخْلَقُ لَكُم دارَ مُقام، بَل خُلِقَتْ لَكُم مَجازاً لِتَزَوَّدُوا مِنها الأَعمَالَ إِلَى دارِ القَرارِ». وجاء فى الخطبة (۱۳۳)، تعبير ألطف و أدَق، فقال عليه السلام: «وَالبَصِيرُ مِنها مُتَزَوِّدُ والأَعمى لَها مُتَزَوِّدُ». وهناك آيات فى القرآن الكريم، يمكن أن تحمل فى مضمونها إشاراتٌ لهذه النظريّة، و منها: «صِراطُ العَزيزِ الحَميدِ» «۱»، و «الصِّراطُ المُستَقِيمَ» «۲»، و «سَبِيلِ اللَّهِ»، موجودةٌ فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآن الكريم، و «لِيَصُدّوا عنْ سَبِيلِ اللَّهِ» «۳»، وأمثالها يمكن الإشارة بها إلى هذه النظرية.

تنوع الطّرق لأرباب السّير و السّلوك

اشارة

من الجدير بالذكر، أنّ أرباب السّير و السّلوك، و العلماء الذين سلكوا هذا الطريق، وإتخذوا من القرآن الكريم و السّنة الشّريفة دليلًا لهم، (لا الصّوفيين الذين تأثروا بالمذاهب غير الإسلاميّة الأجنبيّة)، فكلّ واحد من اولئك الأفاضل إقترح طريقةً تختص به، أو بتعبيرٍ أدق، إتّخذوا منازل و مراحل، سنأتى بها بصورةٍ ملخّصة، حتّى يكتمل البحث، و يكون أكثر فائدة:

۱- السّير و السّلوک المنسوب: «للسيد بحر العلوم»

اشارة

هناك كتاب منسوب للعلّامة الفقيه العالم: «السيد بحر العلوم»، و رغم أنّ بعض أبحاثه لا يمكن القول بصدورها منه، إلّاأنّ بعض أقسامه و الحقّ يقال، فى غاية الأهميّة، فقد ذكر السّيد فى هذا الكتاب أربعة عوالم و منازل، مهمّة للسّير و السّلوك إلى اللّه تعالى، و القرب منه، وهى: ۱- الإسلام. ۲- الإيمان. ۳- الهجرة. ۴- الجهاد. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۴ و كلّ واحد من هذه العوالم الأربعة، ذكر له ثلاث مراحل، فيصبح المجموع إثنى عشرةَ مرحلةً، و بعد تجاوز هذه المراحل الإثنى عشر، يصل السّالك إلى اللّه، و إلى عالم الخُلوص والفناء، والمراحل أو المنازل الإثنى عشر هى: المنزل الأول: الإسلام الأصغر، والقصد منه هو إظهار الشّهادتين و التّصديق بهما فى الظّاهر، و أداء الوظائف الدينيّة. المنزل الثانى: الإيمان الأصغر، وهو عبارة عن التّصديق القلبى والإعتقاد الباطنى بكل المعارف الإسلاميّة. المنزل الثالث: الإسلام الأكبر، و هو عبارةٌ عن التّسليم فى مقابل كلّ حقائق الإسلام، و الأوامر و النّواهى الإلهيّة. المنزل الرابع: الإيمان الأكبر، و هو عبارةٌ عن روح ومعنى الإسلام الأكبر، و الّذى ينتقل من مرتبة الطاعة، إلى مرتبة الشّوق و الرّضا و الرّغبة. المنزل الخامس: الهجرة الصّغرى، و هى الإنتقال من «دار الكفر»، إلى «دار الإسلام»، و هى شبيهةٌ بهجرة المسلمين، من مكّة

التی کانت مقرّ للکفار إلی المدینة. المنزل السّادس: الهجرة الکبری، و هی الهجرة والإبتعاد عن أهل الذنوب والعصیان، وعدم الجلوس مع الظّالمین والملّوثین. المنزل السابع: الجهاد الأکبر، و هو عبارةٌ عن محاربة جنود الشّیطان، بالإستمداد من جنود الرّحمان، و هی جنود العقل. المنزل الثامن: منزل الفتح و الظّفر علی جنود الشیطان، و التّحرر من سلطتهم، و الخروج من عالم الجهل و الطّبیعة. المنزل التاسع: الإسلام الأعظم، و هو عبارةٌ عن الغلبة علی جنود الشّهوة والآمال البعیدة، فتنتصر العوامل الموقظة الخارجیة، علی العوامل الإنحرافیّة الداخلیّة، و هنا یکون القلب، مرکزاً للأنوار الإلهیّة، و الإضافات الرّبانیّة. المنزل العاشر: الإیمان الأعظم، وهو الفناء فی اللّه تعالی، ومرحلة الدّخول فی عالم: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۵ «فَآدخُلِی فِی عِبادِی وادخُلِی جَنَّتِی»، وعندها تظهر حقیقة العبودیّة للّه‌تعالی فی واقع النّفس. المنزل الحادی عشر: الهجرة العظمی، و هی هجرة الذّات و نسیانها، و السّفر إلی عالم الوجود المطلق، و التّوجه الکامل للذّات المقدّسة للباری تعالی، و هی الّتی تدخل فی جملة خطاب: «وادخُلِی جَنَّتِی». المنزل الثّانی عشر: الجهاد الأعظم، فبعد هجرة الذّات، یتوسل باللّه تعالی أن یمحو کلّ آثار الأنا، و یضع القدم علی بساط التّوحید المطلق. فبعد أن تُطوی هذه العوالم الإثنا عشر، یدخل فی عالم الخُلوص، و یکون مصداقاً لقوله تعالی «بَل أَحیاءٌ عِندَ رَبِّهِم یُرزَقُونَ». «۱»

کیفیة السّیر و السّلوک فی هذه الطریقة:

فی رسالة السّیر و السّلوک المنسوبة للعلّامة بحر العُلوم، و بعد ذکره للعوالم والمنازل المذکورة آنفاً، یتطرق إلی کیفیة السّیر فی هذا الطریق الصعب، و الملیء بالمفاخر، و یذکر (۲۵) أمراً للوصول إلی المقاصد العلیا، ونذکرها بشکل مختصر: فالسّالک إلی اللّه تعالی، و المرید للقرب منه، لأجل الوصول إلی هذه العوالم، وبعد إطّلاعه الکامل علی اصول الدین و فروعه، و أحکامه الإسلامیة من الطُرق المعتبرة، یشدُّ الرحال ویأخذ طریقه فی عملیة السّلوک، من خلال الإلتزام بالمراحل ال (۲۵)، لیصل إلی المقصود: أولًا: ترک الآداب و الرّسوم والعادات التی تقف عقبةً فی الطریق، وتغرقه فی بحر الآثام. ثانیاً: العزم القاطع للسّیر فی هذا الطّریق، فلا یخاف شیئاً، و لا یتردّد، ولیعتمد علی لُطف اللّه تعالی. ثالثاً: الرّفق و مُداراة النّفس، فلا یحمّلها أکثر من طاقتها، کی لا تنفر ولا تنطفیء جذوتها، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۶ ولئلّا تنقطع عن المسیر. رابعاً: الوفاء، وهو الوفاء بالبقاء علی العهد فی التّوبة، و ترکه للذّنوب وَ عدم العودة إلیها، ولیکون وفیّاً مع استاذه أیضاً. خامساً: الثّبات و الدّوام، یعنی الدّوام علی ما إختاره من برامج لنفسه، حتی تُصبح عادةً عنده، و لیغلق طریق العودة علی نفسه. سادساً: المُراقبة، وهی عبارة عن الإنتباه لنفسه فی کل الامور و الأحوال، ولِئّلا تصدر منه المخالفة. سابعاً: المحاسبة، کما جاء فی حدیث: «لَیسَ مِنّا مَنْ لَم یُحاسِبْ نَفسَهُ کُلَّ یَوم» «۱». ثامناً: المؤآخذة، حیث یوآخذ نفسه فی کلّ خطأ یصدر منه ویعاقبها. تاسعاً: المسارعة، یعنی یعمل بمقتضی أمر: «سَارِعُوا إِلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُم» «۲»، الوارد فی القرآن الکریم، فیُسارع فی کلّ خیر، لئلّا یسبقه الشّیطان ویوسوس له فی ترکه. عاشراً: خُلوص الباطن، وهو تطهیر الباطن، بحیث لا یکون أدنی غش فی قلبه، والحب التام لرسول اللّه صلی الله علیه و آله صاحب الشّریعة، و الأوصیاء المعصومین علیهم السلام. الحادی عشر: الأدب، حفظ حُرمة الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و أوصیاءه المعصومین علیهم السلام، بحیث لا یلفظ بلفظ یدل علی عدم الرّضا منهم، و الإعتراض علیهم علیهم السلام، و حفظ حرمة الأکابر، ولبیان حاجته فی الدّعاء لا یستعمل ألفاظاً تدل علی الأمر والنّهی. الثانی عشر: النیّة، و تعنی إخلاص القصد فی هذا المسیر و الحرکة، و جمیع الأعمال للّه تعالی. الثالث عشر: الصّمت، ویعنی الإکتفاء بالمقدار اللّازم من الکلام. الرابع عشر: الجوع و قلّة الأکل، و هو من الشّروط المهمّة لسلوک هذا الطریق، ولکن لیس للحدّ الذی یبعث علی الضّعف وعدم القدرة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۷ الخامس عشر: الخلوة، و هی عبارةٌ عن العزلة عن أهل العصیان، و طلّاب الدنیا و أصحاب العقول الناقصة، و التّوجه الخالص للّه‌عند العبادة و الذّکر، و الإبتعاد عن الضّوضاء و عناصر التّشویش الذهنی. السادس عشر: السّهر، و خصوصاً فی الثّلث الأخیر من اللیل، الذی أکدّت علیه الآیات و الرّوایات. السابع عشر: الدّوام علی الطّهارة، وهو أن یکون علی وضوء دائماً، حیث ینوّر الباطن بأنوارٍ خاصّةٍ. الثامن عشر: التّضرع للّه‌تعالی، والتحرک علی مستوی اظهار الخضوع

له، أكثر و أكثر. التاسع عشر: عـدم إعطاء النفس ما تريد و إن كان مُباحاً، بالقدر الذى يستطيع. العشـرون: كتمان السّر، وهو من أهم الشّروط، و هو ما يؤكـد عليه أساتذة هذا الأمر، حتى لا يجرّ الإنسان للرياء و التّظاهر، وإذا ما حصـلت له المكاشـفة، يجب أن لا يخبر أحد لئلّا يُصاب بالعجب. الواحد والعشـرون: يجب الإلتزام فى عمليّة السّلوك المعنوى باستاذ، سواء كان الأستاذ عامّاً للسّير و السّلوك أو خاصّاً، و هو رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله والأئمّـة المعصومين عليهم السـلام. و يجب على السّالك الإنتباه إلى أنّ هـذه المرحلـة، هى مرحلـةٌ دقيقةٌ جداً، حتى لا يختبر أحداً و لا يطّلع على صـلاحيّته العلميّة و الدينية، ولا يعتمد على إرشاداته بصورة كليّة، لأنّه يوجد بعض الشـياطين يتلبّسون بلبـاس الأساتـذة، وذئاب تلبس ثوب الرّاعى، فتحرف السّالك عن الجادّة. ويقول المرحوم العلّامـة الطباطبائى فى هـذا المجـال: إنّ الإطّلاع على العلوم والأسـرار الغريبـة، و مـا وراء الطّبيعـة وأسـرار الإنسـان، والمشـى على المـاء والنـار والإخبـار بالمغيّبات، كلّها لا تؤكـد أنّ ذلك الإنسان قـد وصل إلى مرحلة الكمال، لأنّ كلّ تلك الامور تحصل فى مرتبة المكاشـفة الرّوحيّة، و الطّريق طويـل حتّى الوصول إلى الكمـال. الثـانى والعشـرون: «الأوراد»، و هى عبـارةٌ عن الأذكار التى تفتـح للسّالك الطّريق و المرور الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۸ من المطّبـات الصّـعبة، و تعينه فى المسـير إلى اللَّه تعـالى. الثـالث والعشـرون: نفى الخواطر، وهو تسـخير القلب، والحكومـة عليه و التّمركز الفكرى، بحيث لا يمر من خـاطره شـىء، إلّابإختياره وإذنه، أو بتعبير آخر، لا يشـغل تفكيره الأفكـار المُشوّشـة، و هو من الامـور الصّـعبة. الرابع والعشـرون: التّفكر، والقصـد منه أنّ السّالك يسـعى من خلال التّفكير الصـحيح، و العميق، فى إكتساب المعرفة الحقّة، ويحصـر تفكيره فى عالم الصّفات، والأسماء الإلهيّة و تجلّياته و أفعاله. الخامس والعشرون: الذِكّر، و المراد منه التّوجه القلبى للـذّات المقدّسـة للبارى تعالى، وليس الـذّكر اللّسانى الذى يسـمّى بالوِرد، أو بعبارةٍ اخرى، يكون كلّ نظره جمال الإله، ولا يرى شـيئاً غيره. هذه هى خلاصة، ما نسب للعلّامة بحر العلوم فى دائرة السّـير و السّلوك، و تبعه فى ذلك مع إختلاف يسيرٍ، العلّامة الطّباطبائى، و ذلك كما جاء فى رسالته «لبّ اللباب».

۲- طريقة المرحوم الملكى التّبريزى

وهو المرحوم «الحاج ميرزا جواد الآقا تبريزى»، وهو من الاساتذة المعروفين فى السّـير و السّلوك إلى اللَّه، و قد إنتهج فى رسالته (لقاء اللَّه)، نهجاً يختلف عمّا جاء به فى الرّسالـة المنسوبـة للعلّامة بحر العلوم. فهو يُذكر فى البداية، أنّ لقاء اللَّه هو الغاية القصوى، و الهدف الأعلى، للسّـير و السّـلوك، و يستشـهد لذلك بآياتٍ متعدّدةٍ من القرآن الكريم، وكذلك بالروايات الكثيرة لُمدّعاه، و يصرّح بأنّ لقاء اللَّه تعـالى ليس هو المشاهـدة العينيـة، لأنّ البارى تعالى منزّه عن الكيفيات التى توجب رؤيته بالبصـر، و لا هو لقاء النّعيم و الثّواب فى يوم القيامة، بل هو نوع من «الشّـهود»، واللّقاء القلبى والروحى والمشاهدة بالبصـيرة. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۹ وبعدها يقترح برنامجاً للسّـير فى هـذا الطريق الطويل، و المحفوف بالمخاطر، و يتلخص فى عدّة امور: ۱- العزم والنيّة لسـلوك هذا الطريق. ۲- التّوبة النّصوح من الأعمال السّالفـة، و هى التّوبـة التى تنفـذ فى أعماق الوجـدان و الوعى، فى واقع النفس، و تعمل على تغييره، و غسل آثار الذّنوب وأدران الخطايا من جسمه وورحه. ۳- حمل الزّاد للطريق، و ذكرَ له عدّة برامج: الف: صباحاً، المشارطة: (يشرط على نفسه أن لا يمضى إلّافى طريق الحق)، وفى النّهار المراقبة: (الإنتباه لئلّا يحيد عن الطريق)، ومساءاً المحاسبة: (لنفسه على ما فعله فى النّهار). ب- التّوجه للأوراد و الأذكـار، و وظائف اليقظـة والمنام. ج- التّوجه لصـلاة اللّيل، و الخَلوة باللَّه تعالى، و إحياء الليل وترويض النفس فى حالات النوم والأكـل، بحيث لا يتجاوز عن الحـدّ الضـرورى. ۴- الإسـتفادة من سـوط السّـلوك، و هـو عبـارة عن مُؤاخـذة النّفس و توبيخها، لتوجُّهِها للدنيا و تقصـيرها فى طلب الحق، و عدم وفائها، و إطاعة الشّـيطان فى معصية اللَّه تعالى، ويستغفر اللَّه على كلّ ذلك ويعزم على السّـعى فى طريق الإخلاص والإيمان و الصـلاح. ۵- عنـد التّحول، وفى هذه المرحلة، و قبل كلّ شـىء، يجب أن يفكّر فى المـوت، ليميت حبّ الـدنيا فى قلبه و يصلح الصّـفات القبيحـة عنـده، و هو دواءٌ نـافعٌ فى هـذا المجـال، (وبعـدها يفكر فى عظمـة اللَّه وأسـماءه و صـفاته، ويذكر أولياء الحق، وليسعى بأن يُشابِهِهم فى صفاتهم). ۶- عنـد القرب من منزل المقصود، يشـير إلى أنّ الإنسان

لدیه ثلاثة عوالم: ١- عالم الحسّ والطّبیعة. ٢- عالم الخیال والمثال. ٣- عالم العقل والحقیقة. فعالم الحسّ و الطّبیعة کلّه ظلمات، وإذا لم یعبره فلن یستطیع الوصول لعالم المثال، و هو العالم الـذی تکون فیه الحقائق لها صورٌ عاریـةٌ عن المادّة. الاخلاق فی القرآن، ج ١، ص: ١٢٠ وما دام یراوح فی عالم المثال، فلن یستطیع الوصول إلی عالم العقل، الـذی هو عالم الحقیقة والأصل للنفس الإنسانیة، الذی لا ـ صورة ولا ـ مـادة فیه، فإذا وصل لعالم العقل، و أدرک نفسه خالیـةً عن المادة و الصّورة، فسیصل إلی معرفـة الباری تعالی، و یکون مصداق لقوله: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَد عَرَفَ رَبَّهُ «١»»

٣- طریقةٌ اخری

اشارة

فی رسالـة «لقاء اللَّه» للعالم والمحقق الکبیر، الآقا المصـطفوی، أشار إلی برنامج آخر للسّیر و السّلوک، فی رسالته الجامعة و الغنیة، و المعتمدة علی الآیات والأخبار، حیث أشار أولًا إلی الآیات المتعلّقة بلقاء اللَّه، وبعدها شرع فی تفسیر معنی اللّقاء؛ أنّ المراد منه اللّقاء المعنوی و الرّوحی، وأضاف أنّ الإنسان ولأجل وصوله للقاء اللَّه تعالی فی هذا السیر المعنوی، علیه أن یکسر حدود المادة والمکان و الزّمان، و کـذلک الحـدود الذّاتیة لکلّ المُمکنات، و یفنی فی عالم اللّاهوت، و یکون المخاطب لقوله تعالی: «یا أَیَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ ارجَعِی إِلی رَبِّکِ راضِیَةً مَرضِیَّةً فادخُلِی فِی عِبادِی و ادخُلی جَنَّتی» «٣». و أقترح خمسة مراحل للوصول إلی المقصود الأکبر: المرحلة الاولی: التّحرک علی مستوی تکمیـل وتقویـة الإعتقـادات، و التّوجه الخـاص لُاصول الـدّین. المرحلـة الثانیـة: التّوبـة من الـذنوب، و التّحرک من هـذا الموقع للإتیان بالأعمال الصّالحـة وأداء الواجبات. المرحلـة الثالثة: السّعی الجاد لتطهیر النّفس من الرذائل، و تحلیتها بالفضائـل الأخلاقیـة. الاخلاق فی القرآن، ج ١، ص: ١٢١ المرحلـة الرابعـة: محو الأنانیّة، و الفنـاء فی مُقابل عظمـة الحق. و فی هـذه المرحلـة التی ینقطع الإنسـان فیها عن التّعلقات المادیـة، من الأهل والأموال والأولاد واللّـذات، تکون الشّـهوات المادیّة و الخیالیّة قد تغیّرت و تبـدّلت، إلی تعلّقٍ و إرتبـاطٍ روحی ومعنوی، والـذی یبقی هو التّعلق بالـذّات و النّفس، و هـذا التعلّقً متجـذّر و قویّ لـدرجةٍ کبیرةٍ جـدّاً، ولشـدّة ظهوره: خفی، و تبقی ملاحظةٌ واحدةٌ و هی، أنّ هدف السّالک فی جمیع هذه المراحل هو الوصول إلی لقاء اللَّه، وفی الواقع والباطن أنّ کلّ عمل یکون قـد أدّاه هو له ولنفسه. وبعبارة اخری: کان یُریـد الوصول إلی المقامات العلیا، و القُرب من اللَّه تعالی، و الحصول علی الکمالات المعنویـة و الروحیـة، فکلّ ذلک کان بـدافع النّفس و الذّات، و لیس لِلهدف الأصـلی، و لذلک فهو عنـد وصوله لمثل هذا المقام یفرح غایة الفرح، ولکن إذا وصل غیره إلی هذا المقام، فسوف لن یکون فرحاً لهذا الحد، وهنا یجب أن تُحـذف «الأنا» و تُنسـی ویکون المحبوب للسّالک هو تجلّی اللَّه سـبحانه، لا من خلال حبّ الـذّات، أو بعبارةٍ أوضح، یجب أن تُمحی «الأنا»، و هی الحِجاب الأکبر و المانعُ الأقوی، و آخر الحُجب للوصول إلی اللَّه تعالی ولقائه. ولإزالـة هـذا المانع، توجد عدّة طرق: ١- طریق التّوجه القلبی للَّهتعالی، و التّوحیـد الذّاتی و الصّفاتی والأفعالی، و منه یفهم أنّ غیره لا شـیء فی مُقابله. ٢- التّفکر و الإستدلال للوقـوف بـوجه «الأنانیـة» وحجـاب النفس، بمعنی أن یری أنّ اللَّه تعـالی غیر محـدودٍ بحـدٍّ، و هو الأـزلی و الحقّ المطلق، والنفس هی الموجود المحدود فی کلّ شیء، و فی منتهی الضّعف و العجز و الفقر والحاجة إلی اللَّه تعالی، ومن دون المدد الإلهی فإنّها لا تستطیع الصّمود و لا لِلحظـةٍ واحدةٍ. ٣- المعالجـة بالأضـداد، بمعنی أنّه کلّمـا أحسّ بوجود «الأنا» فی وعیه، یعالـج هـذا الموقف بالتّوجه للَّهو الصّالحین من عبـاده، لکی یعیش فی الحضور الـدّائم مع البـاری تعـالی. المرحلـة الخامسـة: فی هـذه المرحلـة یصـبح السّالـک إنساناً ملکوتیاً، و یـدخل فی عالم الاخلاق فی القرآن، ج ١، ص: ١٢٢ الجبروت!. و القصـد من الدخول فی مرحلة الجبروت، هو أنّ الإنسان یصل إلی مرحلةٍ من الصّفاء و الإخلاص، یکون فیها مندّکاً فی ذاتِ اللَّه تعالی، وله نفوذٌ و سلطةٌ علی الامور، فیتحرک فی أداء وظائفه الإلهیّة، و إرشاد الناس، و الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، من موقع المسؤولیـة و الإنضـباط فی خط الرّسالـة، و یکون علی بصیرةٍ

كاملـةٍ من أمره. أو الأـحرى، ينسى نفسه، ويكـون على علم بكـلّ المسائـل والوظـائف والأحكـام والآـداب الشـرعية، و طرق السّـير و السّـلوك، و يكون تشخيصه لِلأمراض والأدوية دقيق جدّاً، كالطّبيب الحاذق الذى يعرف الدّاء و الدّواء و يشخصه جيّداً «۱». و الجدير بالذّكر أنّه قد استدلّ لكلّ هذه المطالب فى كتابه، بالآيات و الرّوايات الإسلاميّة، كشاهدٍ على مُدّعاه.

خلاصة ما تقدم من مذاهب السّير و السّلوك:

يُستفاد ممّا تقـدّم من تعليمات أرباب هـذا الفن، و الطريق: (الذين مشوا فى نهج الإسلام الأصيل وطريق أهل البيت عليهم السلام لا المتصوفـة)، اصولٌ مشتركـةٌ فى عمليّـةِ السّيرِ و السّلوك إلى اللّه و هى: ۱- أنّ الهـدف الأصلى، هو لقاء اللّه وشـهود ذاته المقدسـة، بالبصيرة و الحُضور الروحى المعنوى عنده. ۲- للوصول لهـذا الهدف، ينبغى التّحرك أولًا من موقع التوبة من جميع الذنوب و الرذائل الأخلاقية، و التّحلى بالفضائل. ۳- فى هذا الطريق يجب أن لا ينسى الآداب الأربعة: المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة، و المعاقبة، يعنى يُشترط فى الصّباح على نفسه، أن لا يـذنب ولا يخـالف رضـا البـارى تعـالى، و يراقب نفسه فى طول النّهار و فى اللّيل و عنـد النوم، يجلس للمحاسبة، و إذا ما صـدرت منه مخالفـةٌ يعاقب نفسه بتركه لأنواع اللّذائـذ. ۴- التّصـدى لهوى النفس من موقع المخالفـة، لأنّ الهـوى هو من أكبر السّدود فى هـذا الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۲۳ الطّريـق، و مخـالفته هى من أوجب الواجبـات. ۵- التّوجه لأذكارٍ و أورادٍ وردت فى الشّرع المقـدس، و أمثال: «لا حَولَ وَلا قُوَّةَ بِاللَّه»، و ذكر «لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ سُبحانَكَ إِنِّى كُنتُ مَن الظّالِمِينَ»، وذكر «يـا اللَّه» و «يـا حَىُّ» «يـا قَيُّوم» وهى الزاد فى هـذا الطّريق و السـبب للقوّة. ۶- التوجه القلبى لحقيقـة التّوحيد للذات و الصّفات و الأفعال للّه تعالى، و الغرق فى صـفات كماله وجماله، وهى زاد آخر لهذا الطريق الوعر المليء بالمطبّات و التّحديات الصـعبة. ۷- كسر أكبر الأصنام، و هو صنم الأنانيّة و الّذات الفرديّة، و هو من أهم الشّروط للوصول للمقصود. ۸- و قد إشترط البعض الإستعانة بالاستاذ، و السّير فى هذا الطريق تحت إشرافه، فيكون كالطبيب الذى يعمل على معالجته، والبعض لا يعتمدون على الاستاذ، و حصل فى كثير من الموارد، و للأسف الشديـد، الوقوع فى حبائل الشيطان، و ذلك بسبب الإعتماد على الاستاذ، حيث يعتبرونه كالملاك، فيـذهب دينهم وإيمانهم وأخلاقهم إدراج الرّياح!. و يرى البعض الآخر، أنّ وظيفة الإرشاد والسير على هدى الأنبياء والأولياء، والأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، هى آخر المراحل، ولكن كثيراً منهم لم يذكروا شيئاً، وتركوا السّالك بحاله. والغرض من الإتيان بهذا البحث، فى المبـاحث الأخلاقيـة، فى هـذا الكتـاب، هو: أولًا: سـرد عصارة من التّفكرات التى لها علاقـة بالمباحث الأخلاقيـة، حتى يتنور القارىء ويتحرك فى طريق التّهذيب و إصـلاح الذّات. ثانياً: نحذّر طلاب الحقيقة، أنّ الحدّ بين الحقّ و الباطل ضـئيل جدّاً، فكثيرٌ من الشّـباب من ذوى القلوب النّقيـة، كـان هـدفهم الوصول إلى الحقّ و العين الصّافيـة، ولكنّهم إنجرفوا فى طريق الضّـلالة، و تركوا طريق العقـل و الشّـرع، ولـذلك تاهوا فى وادى الحيرة، و غرقوا فى مسـتنقع الخطيئـة، ولم يسـلموا من مخالب الـذّئاب الضّارية، الذين يرتدون مسوح الزّهد و القداسة، فأضاعوا وفقدوا كلّ ما لديهم.

هل يلزم وجود المُرشد فى كلّ مرحلةٍ؟

اشارة

يعتقد كثير من أرباب السّير و السّلوك، أنّ السّائرين فى طريق الكمال و الفضيلة، و التقوى و الأخلاق، والقرب إلى اللّه تعالى، يجب أن يكونوا تحت إشراف الاستاذ والمرشد، كما ذكر فى رسالة السّير والسلوك للعلّامة بحر العلوم، و رسالة لبّ الألباب للمرحوم العلّامة الطّباطبائى، فى الفصل الحادى والعشرون من وظائف السّائر إلى اللّه، هو التّعليم و التعلم تحت نظر وإشراف الاستاذ، سواء كان الاستاذ عالِم كالعلماء الذين مشوا فى هذا الطريق، أم الأساتذة الخصوصـيين، و هم الأنبياء الأئمة و المعصومين عليهم السلام. ولكن المطّلعين

من أهل الفن، يُحذّرون السّائرين على طريق التّقوى و التّهذيب، من عدم الإلتجاء بسهولة لأيٍّ كان، وإذا لم يطمئنّوا إطمئناناً كافياً، ولم يختبروا صلاحيتهم العلميّة والدينية، فلا يسلّموهم أنفسهم، ولا يكتفوا حتى بإخبارهم للمستقبليات، و لا أعمالهم غير الطبيعيّة، ولا حتى مرورهم على الماء والنار، لأنّ صدور هذه الأعمال ممكن من المرتاضين غير المهذّبين أيضاً. وقال البعض الآخر: إنّ الرّجوع للُاستاذ لازم فى المراحل الأوليّة، وأمّا بعد السّير و عبور عدّة مراحل، فلا يحتاج إلى الاستاذ، و الرّجوع للُاستاذ الخصوصى و هو الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، حتّى نهاية المراحل، يكون لازماً و ضرورياً. الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۲۶ و قد إستدلوا على لزوم الرّجوع للُاستاذ تارةً، بهذه الآية الشّريفة، التى تقول: «فَاسْئَلُوا أَهلَ الذِّكْرِ إن كُنتُم لاتَعلَمُونَ» «۱». فرغم أنّها تتناول التعليم لا التربية، ولكن الحقيقة أنّ التربية تعتمد على التّعليم فى كثير من الموارد، فلذلك يجب الرّجوع للمطلعين فى مثل هذه الموارد، وهذا المعنى يختلف إختلافاً واضحاً عن إختيار شخصٍ خاص ليكون ناظراً على أعمال وأخلاق الإنسان. ويستشهد القائلون بضرورةِ المرشد تارةً اخرى؛ بحكاية موسى مع الخضر عليهما السلام، فقد كان موسى عليه السلام بحاجةٍ للخضر، مع ما أنّه كان من الأنبياء وأولى العزم، وقطع قسماً من الطّريق بمساعدته عليه السلام. ولكن و بإلقاء نظرةٍ فاحصةٍ على قصّة موسى والخضر عليهما السلام، نرى أنّ موسى عليه السلام عندما تعلم من الخضر عليه السلام، إنّما كان بأمر من اللَّه تعالى لأجل الاطّلاع على أسرار الحكمة الإلهيّة بالنسبة للحوادث التى تحدث فى هذا العالم، والاخرى أنّ علم موسى عليه السلام كان عملًا ظاهرياً، «ويتعلّق بدائرة التّكليف»، و علم الخضر عليه السلام علماً باطنياً، (خارج عن دائرة التكليف) «۲»، وهذا الأمر يختلف عن مسألة إختيار الاستاذ و المرشد، فى كل مراحل التّهذيب للنفس و السيّر فى طريق التّقوى، وإن كان يشير ولو بالإجمال إلى أهميّة كسب الفضيلة، فى محضر الاستاذ فى خط التّكامل المعنوى. وقد يستشهد لذلك أيضاً بحكاية لقمان الحكيم و إبنه، فهو استاذ إلهى أخذ بيد إبنه و ساعده فى سلوك ذلك الطريق «۳». ونقل العلّامة المجلسى فى بحار الانوار، عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال: «هَلَكَ مَنْ لَيسَ لَهُ حَكِيمٌ يَرشُدُهُ» «۴». ولكن و من مجموع ما ذُكر، لا يمكن إستفادة لزوم المرشد فى دائرة السّلوك الأخلاقى و الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۲۷ تهذيب النفس، بحيث إذا لم يكن تحرك الإنسان فى خطّ التّهذيب النّفسى و التّزكية الأخلاقية، تحت إشراف المرشد، فسوف يختل برنامج التربية و الأخلاق و التّقوى، و يتعطل السّير و السّلوك فى حركة الواقع النفسى والمعنوى لدى الفرد، لأنّ الكثير من الأشخاص إلتزموا بالرّوايات والآيات والأحاديث الإسلامية، و عملوا بها، و وصلوا إلى مقاماتٍ عالية و درجاتٍ كبيرةٍ دون الإستعانة بمرشدٍ أو معلّمٍ خاصٍ على مستوى التّربية الأخلاقيّة، و طبعاً لا يمكن إنكار فائدة الأساتذة و المرشدين و توجيهاتهم القيّمة، فهم عناصر جيّدة للوصول إلى المقصود من أقرب الطرّق، و معدّات فاعلةٌ لمواجهة المشاكل الأخلاقيّة لتحديات الواقع، و حلّها وفق مستجدّات الواقع و مستلزمات العقيدة. و جاء فى نهج البلاغة أيضاً: «أَيُّها النّاسُ استَصبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصبَاحٍ، وَاعظٌ مُتَّعِظٌ» «۱». ولكن وللأسف نجد فى كثير من الموارد، أنّ النّتيجة كانت عكسيّة، فكثير من الأشخاص عرّفوا أنفسهم بأنّهم مرشدون للناس فى سلوك سبيل التّربية و التّهذيب، ولكن اتّضح بأنّهم قطّاع طُرق، وكمْ من الأشخاص الطّاهرين الطالبين للحقّ إنخدعوا بهم، و ساروا فى طريق التّصوف أو الإنحراف، و سقطوا فى منحدر الرّذيلة، و ارتكبوا مفاسد أخلاقية كبيرة؛ و عليه فنحن بدورنا نحذّر السّائرين على هذا الطّريق، إذا ما أرادوا الإستفادة من الحضور، عند استاذ و مرشدٍ فى المسائل الأخلاقيّة، فيجب أن يتوخّوا جانب الحذر و الإحتياط، و ليتأكدوا من حقيقة الأمر، و لا يغترّوا بالمظاهر الخادعة، بل ليتفحّصوا عن سوابقهم، وليشاوروا أصحاب الفنّ فى هذا المجال، كى يصلوا إلى غايتهم المنشودة.

دور الواعظ الداخلى (الباطنى):

تكلّمنا عن دور الواعظ الخارجى بصورةٍ كافيةٍ، والآن جاء دور الواعظ الداخلى؛ حيث يستفاد من بعض الأخبار والروايات الإسلامية أنّ الضّمير الحيّ هو الواعظ الداخلى والباطنى للإنسان، وله دور مهم فى السّير على طريقِ التّكامل الأخلاقى و التّقوى، وبالأحرى

الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۸ لا یمکن التّدبیر بدونه، فی مواجهة التحدیات الصّعبة و قوی الإنحراف. فقد جاء فی حدیثٍ عن الإمام علی بن الحسین علیهما السلام، أنّه قال: «یا إبنَ آدمَ إِنَّکَ لاتَزَالُ بِخَیرٍ ما کانَ لَکَ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِکَ، وَما کانَتِ الُمحاسَبَةُ مِن هَمِّکَ» «۱». و نُقل أیضاً عنه علیه السلام، مشابهٌ لهذا المعنی، مع قلیلٍ من الإختلاف «۲». وجاء فی نهج البلاغة أیضاً، أنّ: «وَاعَلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ یُعَنْ عَلَی نَفْسِهِ حتّی یَکُونَ لَهُ مِنْها وَاعِظٌ وَزَاجرٌ، لَم یَکُن لَهُ مِنْ غَیرِها لا زَاجرٌ وَلا واعِظٌ» «۳». ومن البدیهی أنّ الإنسان فی هذا الطّریق یحتاج إلی واعظٍ قبل کلّ شیء، لیکون معه فی کلّ حال،: ویعلم أسراره الداخلیة، ویکون رقیباً علیه ومعه دائماً، وأیّ عاملٍ أفضل من الواعظ الداخلی وهو الوجدان، یتولی القیام بهذا الدّور، و ینبّه الإنسان إلی منزلقات الطّریق، و تعقیدات المسیر، و یصدّه عن الإنحراف و السّقوط فی الهاویة. ونقرأ فی حدیثٍ عن الإمام علیّ علیه السلام: «إجْعَلْ مِنْ نَفْسِکَ عَلی نَفْسِکَ رَقِیباً» «۴». وجاء فی حدیثٍ آخر عنه علیه السلام: «یَنبَغِی أَنْ یَکُونَ الرَّجُلُ مُهَیمِناً عَلی نَفْسِهِ مُراقِباً قَلْبَهُ، حافِظاً لِسانَهُ» «۵». ۱۱

العناصر اللّازمة لتربیة الفضائل الأخلاقیّة

اشارة

إضافةً لما ذکرنا من برنامج للصّعود بالإنسان فی أجواء التربیة الأخلاقیّة، یوجد هناک عناصر اخری، لها أثرها الکبیر فی منح الإنسان قوّة التّصدی، لحالات الضعف أمام الرّذائل الأخلاقیّة، وتقویة اصول الفضائل فی واقع الإنسان، و حرکته التّکاملیة فی الحیاة، و منها:

۱- طهارة وصفاء المحیط

اشارة

ممّا لا شک فیه أنّ المحیط الذی یعیش فیه الإنسان، یعکس أثره الکبیر علی سلوکیات و روحیّات ذلک الإنسان، حیث یسترفد کثیراً من صفاته وأفعاله من المحیط الإجتماعی و الثّقافی، فالمحیط النّظیف و الطّاهر غالباً ما یفرز اناساً طاهرین، والعکس صحیح. و رغم أنّ الإنسان یمکن أن یعیش نظیفاً وطاهراً فی الوسط الملّوث، وبالعکس یمکنه أن یسیر فی طریق الرّذیلة والإثم فی المحیط الطّاهر، و بعبارةٍ اخری إنّ الظّروف الإجتماعیّة و الثّقافیة التی یعیش فیها الإنسان، لیست العلّة التّامة فی صلاح و إنحراف الإنسان، ولکنّها یمکن أن تُهییء الأرضیة لذلک قطعاً، وهذا ممّا لا یقبل الإنکار. و قد یقول البعض، بأنّ الإنسان یخضع لإجبار المحیط و المجتمع، «فیبقی الإنسان کما هو الموجود فعلًا»، ولکننا ننکره جملة و تفصیلًا، من دون أن ننکر دور العوامل القویّة فی عملیّة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۰ إخضاع الفرد لمتطلبات الواقع و تحدیاته، فی أجواء التّفاعل الإجتماعی. بعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم، و نقرأ الآیات التی تؤیّد تأثیر المحیط فی شخصیّة الإنسان، بالدّلالة الإلتزامیّة، أو المطابقیّة للکلام، لنستوحی منها المفهوم القُرآنی فی هذا الإطار: ۱- «وَالْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِی خَبُثَ لَایَخْرُجُ إِلَّا نَکِداً کَذَلِکَ نُصَرِّفُ الْآیَاتِ لِقَوْمٍ یَشْکُرُونَ» «۱». ۲- «وَجَاوَزْنَا بِبَنِی إِسْرَائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَی قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلَی أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا یَا مُوسَی اجْعَل لَنَا إِلَهاً کَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» «۲». ۳- «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنْ الْکَافِرِینَ دَیَّاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً» «۳». ۴- «یَا عِبَادِی الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی وَاسِعَةٌ فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ» «۴». ۵- «إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِکَةُ ظَالِمِی أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِیمَ کُنتُمْ قَالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِیهَا فَأُوْلَئِکَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِیراً» «۵».

تفسیر و إستنتاج:

«الآيةُ الاولى» تحدّثت عن تأثير المحيط فى أعمال وأفعال الإنسان، ببيانٍ لطيفٍ و جذّابٍ، و قد إختلف المفسّرون فى تفسير هذه الآيةُ، و ذهب كلّ واحدٍ منهم إلى رأى ... فبعضهم قال: إنّ المراد منها، أنّ ماء الوحى الرّقراق كقطرات المطر، ينزل على أرض الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳۱ القلوب فترتوى منه القلوب الطاهرةُ، و تنبتُ ورود المعرفةُ وفواكه التّقوى و الطّاعةُ اللّذيذةُ، ولكن القلوب السّوداء والملوثةُ، لا تتأثر به من موقع الإستفادةُ فى حركةُ الحياةُ، وعندما نرى أنّ ردود الفعل، قبال دعوات الأنبياء، و تعاليم الوحى ليست متساويةُ عند الجميع، فهذا لا يدلّ على وجود النقص والخلل فى فاعليّةُ الفاعل، بل أنّ الإشكال إنّما هو فى قابليّةُ القابل «۱». و الأمر الآخر أنّ الغرض من بيان هذا المثال، هو أن يكون طلب الفضائل والمحاسن من محلّها المناسب، لأنّ السّعى فى المحل غير المناسب ليس هو إلّاإهدار و تضييع للطاقات «۲». الإحتمال الثالث، فى تفسير هذه الآيةُ و يمكن الإستفادةُ منه هنا، هو أنّ فى هذا المثال شبّه الإنسان بالنبات، ولكن الأرض التى تنبت فيها النباتات إمّا حلوةُ أو سبخةُ، ممّا تنعكس تأثيراته على النّبات أيضاً، و فى المحيط الملّوث، لا يمكن تربيةُ الإنسان فى إطار التعاليم الإلهيّةُ والقيم الأخلاقيّةُ، مهما كانت التعليمات وأساليب التربيةُ قويّةٌ و مؤثرةٌ، فكما أنّ قطرات المطر المُوجبةُ لبعث الحياةُ للأرض، لا يمكن أن تؤثر فى الأرض السّبخةُ، فكذلك الحال فى عناصر التربيةُ فى المحيط الملّوث، وبناءاً عليه، يجب علينا أن نهتم بإصلاح المحيط الإجتماعى، و الثّقافى، الذى نعيشه ونتفاعل معه دائماً، للتوصل إلى تهذيب النفوس، و تحكيم الأخلاق الصالحةُ، فى واقع الإنسان والحياةُ. و بالطّبع لا يوجد تقاطع بين التفسيرات الثلاثةُ المتقدّمةُ، والمثال الآنف الذّكر، يمكن أن يكون ناظراً لهذه التفسيرات الثّلاثةُ على السّواء. نعم، فإنّ المحيط الإجتماعى الملّوث بالرذيلةُ، هو عدوّ للفضائل الأخلاقيّةُ، والحال أنّ المحيط السّالم و الطّاهر، يهيىء أحسن و أفضل الفرص، لغرض تهذيب النّفوس، فى معارج الكمال الرّوحى والمعنوى. و قد ورد فى الحديث المعروف عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله مُخاطباً أصحابه: «إيّاكُم وَخَضراءِ الدِّمَنِ»، قِيلَ يا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ خَضراءُ الدِّمَنِ قال صلى الله عليه و آله: «المَرأةُ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳۲ الحَسناءِ فِى مَنْبَتِ السُّوءِ» «۱». هذا التّشبيه البليغ، يمكن أن يكون إشارةً، لتأثير المحيط الصّالح و السّيىء فى شخصيةُ الإنسان، على المستوى الإيجابى و السّلبى، أو هو إشارةٌ لمسألةُ الوراثةُ، و تأثيرها على مُجمل الشّخصيةُ، أو إشارةٌ للإثنين معاً. وفى «الآيةُ الثانيةُ»: إشارةٌ لقوم بنى إسرائيل، الّذين بقوا لسنواتٍ طويلةٍ، تحت إشراف وتعليمات النّبى موسى عليه السلام، فى عمليّةُ الهدايةُ الرّوحيةُ و المعنويّةُ، و فى مجال التوحيد و سائر الاصول الدينيّةُ، ورأوا بامّ أعينهم المعجزات الإلهيّةُ، كإنفلاق البحرلهم، ونجاتهم من براثن فرعون وجنوده، ولكن وبمجرد أن صادفوا فى طريقهم للشام والأرض المقدسةُ، قوماً يعبدون الأصنام، تأثّروا بهم و بمحيطهم الملّوث، وقالوا: «يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». فتعجّب موسى عليه السلام من هذا الإنقلاب، و غضب غضباً شديداً، من قولهم هذا وقال لهم: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». وأخذ يبيّن لهم مفاسد عبادةُ الأصنام. والعجيب أنّ قوم بنى إسرائيل، و بعد التّوضيحات الصّريحةُ و المكرّرةُ لموسى عليه السلام، بقوا تحت تأثير هذا المحيط المسموم السّلبى، بحيث إستطاع السّامرى أن يتحرك من موقع إغوائهم، و تفعيل عناصر الإنحراف لديهم فى غيبةُ موسى عليه السلام، و الّتى إستغرقت عدّةُ أيّام، حيث صنع لهم صنماً من ذهبٍ، و تبعه الغالبيّةُ من هؤلاء القوم، و تحوّلوا من أجواء التّوحيد إلى أجواء الشّرك. فهذا الأمر يمثل علامةً واضحةً على تأثير المحيط السّلبى، فى صياغةُ السّلوك الإنسانى، من موقع الانحراف والزيغ فى دائرةُ المسائل الأخلاقيةُ، بل و حتّى العقائديّةُ أيضاً، ولا شك أنّ بنى إسرائيل وقبل مرورهم باولئك القوم، كانت لديهم الأرضيّةُ المساعدةُ لعبادةُ الأصنام، وذلك إثر بقائهم مع الوثنيّين المصريّين لمدةٍ طويلةٍ، فعندما رأوا ذلك المنظر، عادوا فى دائرةُ الذّاكرةُ إلى ذلك الماضى الأسود، وعلى كل حال فإنّ كلّ هذه الامور، هى دليل واضح على تأثير الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳۳ المحيط الإجتماعى، فى أخلاق و عقائد الإنسان فى حركةُ الواقع النّفسى. وفى «الآيةُ الثالثةُ»: نجد شاهداً آخر على تأثير المحيط على أفكار وأفعال الإنسان، و هو ما نراه فى سلوك نوح عليه السلام، و دعاؤه على قومه الكفّار بالفناء و المَحق. إنّ نوحاً عليه السلام لم ينطلق فى دعائه عليهم من موقع الذات والانفعال، بل من موقع العقل و البرهان، فقال الله تعالى فى القرآن الكريم، على لِسان نوحٍ: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً». فهم فى الحال الحاضر كفّار ومنحرفون، و فى حالةُ إستمرارهم

فى التّكاثر و التّناسل فسوف يؤثّرون على أولادهم فى عمليّة الإيحاء لهم بالكفر، و يربّوهم تربيةً منحرفةً. و من «الآيتين الرابعة والخامسة»، نستوحى لزوم الهجرة من المجتمع والمحيط المنحرف، حيث يخاطب البارى تعالى عباده فى الآية الرابعة، يقول: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ». وفى الآية الخامسة، يحذّر المؤمنين من البقاء فى المجتمع الغارق فى الضّلالة، و يؤكّد لهم لزوم الهجرة، و أنّ عذرهم غير مقبول فى حالة البقاء والتكاسل، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً». وفى الحقيقة إنّ مسألة الهجرة هى من الاصول الأساسيّة فى الإسلام، و قد شيّد الإسلام دعائمه عليها، حيث تتضمن عمليّة الهجرة، حكمٌ و غاياتٌ عديدةٌ و أهمّها الهروب و الفرار من المحيط الملّوث، و النجاة من تأثيراته السيّئة على واقع الإنسان و محتواه الداخلى. و ليست الهجرة مختصة بزمان صدر الإسلام، كما يعتقد البعض، بل هى جارية فى كلّ عصرٍ و زمانٍ يتعرض فيها المسلمون لضغوط قوى الشرك و الفساد و الكفر، التى تشكّل عناصر ضغطٍ على الرّوح المنفتحة على اللّه والخير، وليفّروا بدينهم وأخلاقهم وعقائدهم من أجواء المحيط الملّوث، فجاء فى الحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلى أَرْضٍ وَإِنْ كانَ شِبراً مِنَ الأَرضِ إِستَوجَبَ الجَنَّةَ وَكانَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳۴ رَفِيقَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله وَإِبراهِيمَ عليه السلام» «۱». فالتأكيد على مقدار الشّبر، إنّما يدلّ على أهميّة المسألة فى دائرة الإحتفاظ بالإيمان؛ فلو تسنّى للإنسان ذلك، و بأىّ مقدارٍ وأىّ زمانٍ و مكانٍ، فمعناه التوافق مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و إبراهيم عليه السلام فى خطّ الرّسالة و الدّين. و الخلاصة، أنّ المحيط والمجتمع الذى يعيش فيه الإنسان، كان ولا يزال عاملًا مهمّاً فى تكوين وصياغة شخصية الإنسان، و أخلاقه و مؤثّراً فيها، وإن كان الأمر ليس على وجه الجَبر، وبناءاً على ذلك فإنّ تطهير أجواء المحيط الإجتماعى من أهم العوامل لتهذيب الأخلاق وتربية الملكات الفاضلة فى المحتوى الداخلى للإنسان. و إذا لم يستطع أنّ يغيّر الإنسان من أجواء المحيط شيئاً، فيجب عليه أن يُهاجر و يترك ذلك المحيط الغارق فى الزّيغ و الضّلالة، و كما أنّ الإنسان، و عندما تتعرض حياته المادية للخطر، يتحرك من موقع الإبتعاد والهجرة من أرضه، فكذلك عليه أن يُهاجر منها، عندما تتعرض قِيَمُ الأخلاقيّة و حياته المعنويّة، التى هى أهم من حياته الماديّة، للخطر ...، و لا ينبغى أن يتذرّع بأنواع الحجج و الأعذار، ليبقى فيها بحجّة أنّها أرضى و أرضَ آبائى ...، وغير ذلك من الأعذار و التّبريرات الواهية، و يستسلم لعناصر التّلوث و الإنحراف التى تؤثر عليه و على أولاده، فى الدائرة السّلبية و لا يهاجر منها؟ فيتوجب على جميع علماء الأخلاق، أن يتحركوا فى عمليّة التربية، لغرض إحياء الفضائل الأخلاقية، و تفعيل عناصر الخير و الإيمان، من خلال إصلاح المحيط والمجتمع، و بدون ذلك، فإنّ السّعى الفردى و الآنى فى هذا الخط، سيكون أثره ضعيفاً فى حركة التّربية و التّهذيب.

۲- دور الأصدقاء والعِشرة

اشارة

و الموضوع الآخر، الذى أثبتت التجربة تأثيره العميق على السلوك الأخلاقى، و إتّفق عليه جميع علماء الأخلاق والتربية والتعليم، هو عنصر الأصدقاء ودور المعاشرة معهم، ففى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳۵ حال كون الصّديق فاسداً و منحرفاً، فى دائرة السّلوك الأخلاقى، فسيؤثّر على صديقه السليم، من موقع الانحراف كذلك، والعكس صحيح أيضاً، فالكثير من المؤمنين، و الأقوياء الإرادة، إستطاعوا أن يؤثّروا على زملائهم الفاسدين، على مستوى الهداية و الإصلاح، بحيث جعلوا منهم اناساً أتقياء، و ملتزمين فى دائرة السّلوك الدّينى و الأخلاقى. ونعود للقرآن الكريم، و الآيات الّتى تتناول هذ الموضوع: ۱- «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ* حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» «۱». ۲- «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ* يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ* قَالَ

هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَوَاءِ الْجَحِیمِ* قَالَ تَاللَّهِ إِنْ کِدْتَ لَتُرْدِینِی* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّی لَکُنتُ مِنْ الْمُحْضَرِینَ» «۲». ۳- «وَ یَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَی یَدَیْهِ یَقُولُ یَا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیلًا* یَا وَیْلَتِی لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِیلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنْ الذِّکْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِی وَ کَانَ الشَّیْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» «۳».

تفسیر و إستنتاج:

الآیات الاولی، التی وردت فی محلّ البحث، تحدّثت عن جلوس الشّیطان، مع الغافلین عن ذکر اللَّه، من منطق الغُوایة، وتوضح تأثیر قرین السّوء، فی السّلوک الأخلاقی للإنسان ومستقبله، فتقول أولًا: «وَمَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمَنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۶ و بعدها یُبیّن القرآن الکریم، دور قرین السّوء فی حرکة الإنسان و الحیاة، فإنّ الشّیاطین یوصدون طریق الهدایة و الحرکة إلی اللَّه تعالی، أمام الإنسان، و یقفوا عقبةً فی طریق الوصول إلی الهدف المقدس، والأنکی من ذلک، أنّ هؤلاء المنخدعین یحسبون أنّهم مهتدون: «وَإِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنْ السَّبِیلِ وَیَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ». وبعدها یتطرّق القرآن الکریم إلی النتیجة، فیقول: إنّ هذا الإنسان عندما یرد فی عرصات القیامة، و عند حضور الجمیع عند اللَّه تبارک و تعالی، و کشف الأسرار والحقائق، یقول لقرینه الشّیطانی: «حَتَّی إِذَا جَاءَنَا قَالَ یَا لَیْتَ بَیْنِی وَبَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ». حیث نستوحی من هذه التعبیرات، بأنّ قرین السّوء، یمکن أن یحرف الإنسان من موقع الأغواء، عن طریق الباری تعالی، و یصدّه عن سبیل الهدایة و الصّلاح، فیهدم علیه دعائم الأخلاق، و یشوّه الواقع النّفسی و الفکری له، فینخدع هذا المسکین ویحسب أنّه علی هدیً، فإرجاعه عن غیّه، و العودة به إلی الصّراط المستقیم، سیکون ضرباً من المحال، ولن یستیقظ من أوهام الغفلة، إلّاوقد فات الأوان، و بعد غلق طریق العودة علیه. و کذلک یُستفاد من الآیة الشریفة، أنّ قرین السّوء یبقی دائماً مع الإنسان فی حیاته الاخرویّة الأبدیّة، و کم هو مؤلم، أن یری الشّخص المسبّب فی بؤسه و هلاکه، یعیش معه دوماً، ولن تنفع معه الیوم الأمانی و الآمال بالإنفصال عنه ومفارقته، فیقول: «وَلَنْ یَنفَعَکُمْ الْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی الْعَذَابِ مُشْتَرِکُونَ» «۱». وفی مضمون الآیات الآنفة الذّکر، الآیة (۲۵) من سورة فصّلت، فتقول: «وَقَیَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَیَّنُوا لَهُمْ مَا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَیْهِمْ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ کَانُوا خَاسِرِینَ». «الآیة الثانیة»: من هذه الآیات محل البحث، تتحدث عن الأشخاص الذین عاشوا مع الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۷ أصحاب السّوء، و کانوا یتحرکون معهم فی أجواء الضّلالة و الإنحراف، ولکن اللّطف الإلهی شملهم، و إستطاعوا بسعیهم وجدّهم فی التّحرک بعیداً عن وساوس الشّیطان، و أنقذوا أنفسهم من الوقوع فی براثنه، بعد أن کانوا قد وصلوا إلی حافّة الهاویة، فُهنا یتحدث القرآن الکریم عن تأثیر قرین السّوء فی تکوین عقائد الإنسان وأخلاقه، ولکن لیس بالشّکل الذی یکون فیه الإنسان مجبوراً و غیرُ قادرٍ علی إنقاذ نفسه من شراک الزیغ فقال: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَی بَعْضٍ یَتَسَاءَلُونَ* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی کَانَ لِی قَرِینٌ* یَقُولُ أَئِنَّکَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِینَ* أَئِذَا مِتْنَا وَکُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِینُونَ» «۱». و فی هذا الأثناء یذکر قرینه القدیم، و یشرع بالبحث عنه، فینظر من أعالی الجنّة، فإذا به یراه فی أعماق الجحیم: «فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَوَاءِ الْجَحِیمِ». فقال له: «قَالَ تَاللَّهِ إِنْ کِدْتَ لَتُرْدِینِ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّی لَکُنتُ مِنْ الْمُحْضَرِینَ». فنری من هذه الآیات، أنّ قرین السّوء بإمکانه أن یؤدی بالإنسان إلی الجحیم، لولا الإیمان و التّقوی ولطف اللَّه تعالی فی واقع الإنسان. و فی «الآیة الثالثة»: نری التأسف الشّدید و التأثر العمیق، الذی یعیشه الظالمون فی یوم القیامة، بسبب إختیارهم ومصاحبتهم لأصدقاء السّوء، لأنّهم کانوا العامل الأساس فی محنتهم الفعلیة: «وَیَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَی یَدَیْهِ یَقُولُ یَا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیلًا* یَا وَیْلَتِی لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِیلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنْ الذِّکْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِی وَکَانَ الشَّیْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا». وبناءاً علی ذلک فإنّ الظّالم فی یوم القیامة، أول ما یتأسف علی ترکه الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و قطعه للعلاقة معه، وبعدها یتأسف علی توثیق العلاقة مع أصدقاء السّوء، و بعدها یصرّح، أنّ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۸ العامل الأصلی لضلاله، هو نفس هؤلاء الأصدقاء المنحرفین، و مرضی القلوب، و أن تأثیرهم علیه کان أشدّ من تأثیر النداءات الإلهیّة: (طبعاً عند المنحرفین فقط). و أمّا «الآیة

الأخیرة»: فقـد تحـدثت عن أصـدقاء السوء، و عبّرت عنهم بجنود الشـیطان و أنّهم من شـیاطین الإنس، والجـدیر بالذکر، أنّ التعبیر عن تأسّف هـذه الجماعـة، ورد بجملـة: «وَیَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَی یَدَیْهِ ...»، و هی أعلی مراحل التّأسف، ففی البدایة، یعضّ الإنسان إصـبعه بدافع الندم، و فی مرحلةٍ أقوی یعضّ باطن کفّه، و فی مرحلةٍ أشدّ یعضّ علی یدیه الإثنتین، وهو فی الحقیقة نوعٌ من الإنتقام من نفسه، و أنّه لماذا قصّـر فی حقّ نفسه ورماها فی التهلکة؟ فما یُستفاد من الآیات الآنفة الذّکر، هو أنّ الأصدقاء و الأصحاب، لهم أثرهم الکبیر فی سـعادة أو شـقاء الإنسان، لیس علی مسـتوی التّأثیر فی السّـلوک الأخلاقی فحسب، بل وعلی مسـتوی العقائد أیضاً، فهنا یجب علی المرشـد أن یهتم فی عملیّـة صـیانة الأفراد من الزیغ و الإنـحراف، و یرعاهم بتوجیهاته بعیـداً عن أجواء التلوّث، و خصوصاً فی عصـرنا الحاضـر، الذی إنتشـرت فیه وسائل الفساد، عن طریق رِفاق السّوء بصورةٍ مُخیفةٍ، و أصبحت سبباً من أسباب الإنحراف و السّیر فی خطّ الباطل.

دور الأخلّاء فی الرّوایات الإسلامیّة:

وردت روایات وأحادیث مستفیضة فی هذا المضـمار عن الرّسول الأکرم صـلی الله علیه و آله، و الأئمّة الأطهار علیهم السلام، تعکس أهمیّـة هـذه المسألـة، ففی حـدیث الرّسول الأـکرم صـلی الله علیه و آله، أنّه قال: «المَرءُ عَلی دِینِ خَلِیلِهِ وَقَرِینِهِ» «۱». وجاء هذا المعنی أیضاً فی حدیثٍ آخر، نقل عن الإمام الصادق علیه السـلام، أنّه قال: «وَلْا تَصحَبُوا أَهْلَ البِدَعِ وَلْا تُجالِسُوهُم فَتَصیرُوا عِنْدَ النّاسِ کَواحِدٍ مِنْهُم». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۹ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله: «المَرءُ عَلی دِینِ خَلِیلِهِ وَقَرِینِهِ» «۱». و نفس هذا المعنی ورد عن الإمـام علی علیه السـلام أیضـاً، وفیه تصویر عن حالـة التّـأثیر المُتقابـل، فی دائرة التّفاعل المشترک بین الأفراد فقال: «مُجالَسـةُ الأخیارِ تَلحَقُ الأَشرارِ بالأخیارِ وَمُجالِسةُ الأَبرارِ لِلفُجّارِ تَلحَقُ الأبرارِ بِالفُجّارِ». وجاء فی ذیل هذا الحدیث، عبارةٌ فی غایة الأهمیّة، حیث یقول: «مَنْ إشـتَبَهَ عَلَیکُم أَمرُهُ وَلَم تَعرِفُوا دِینَهُ فـانظُرُوا إلی خُلَطائِهِ» «۲». وفی بعض الروایات، ورد هـذا المعنی فی دائرة التّمثیل، فقال: «صُـحبَةُ الأَشـرارِ تَکسِبُ الشَّرَّ کَالرِّیـحِ إذا مَرَّتْ بِالنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتِناً» «۳». و یُسـتفاد من هذه التّعبیرات: أنّه وکما أنّ المعاشـرة و الصّـحبة للأراذل، تهیء الأرضـیة لحرکة الإنسان نحو الانزلاق فی طریق الشر، فإنّ المعاشرة مع الأَخیار تنیر قلب الإنسان بضیاء الهدی، و تُحیی فیه عناصـر الخیر. ونقرأ هذا المعنی فی حدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «عَمارَةُ القُلُوبِ فی مُعاشَرَةِ ذَوی العُقُولِ»». و جاء فی حدیثٍ آخر عنه علیه السـلام، أنّه قال: «مُعاشَـرَةُ ذَوِی الفَضائِلِ حَیاةُ القُلُوبِ» «۵». فتأثیر المُجالسـة علی قدرٍ من الأهمیّة، بحیث قال فیه النّبی سـلیمان علیه السـلام: «لا تَحْکُمُوا عَلی رَجُلٍ بِشیءٍ حَتّی تَنْظُرُوا إلی مَنْ یُصاحِبُ فَإِنَّما یُعْرَفُ الرَّجُلُ بِأَشکَالِهِ وَأَقرَانِهِ؛ ویُنْسَبُ إلی أَصحابِهِ وَأَخدَانِهِ» «۶». ونقرأ فی حـدیثٍ جاء عن لقمـان الحکیم، فی نصائحه لإبنه، فقال له: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۰ «یا بُنَیَّ صاحِبِ العُلَماءَ، وأَقرِبْ مِنْهُم، وَجالِسـهُم وَزُرهُم فِی بِیُوتِهِم، فَلَعَلَّکَ تَشْبَهُهُم فَتَکُونَ مَعَهُم» «۱». و علی کلّ حال، فإنّ الرّوایات الشّریفة، ملیئـة بمثل هـذه النصائـح، فی دائرة الإهتمام بالرّفقـة و أثر الصّدیق فی أخلاق وسـلوک الإنسان، ولو جُمعت فی إطارٍ واحدٍ لأـمکن تـألیف بحثٍ شامـلٍ کامـلٍ فی هـذا المضـمار. و نختم الکلاـم بحـدیث عن الإمـام علی علیه السـلام، فی وصایاه لإبنه الحسـن الُمجتبی علیه السلام: «قارِنْ أَهْلَ الخَیرِ، تَکُن مِنْهُم، وبایِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ مِنْهُم» «۲».

تأثیر العِشرة فی التحلیلات المنطقیّة:

یقولون: إنّ أحسن وأفضـل دلیـلٍ لإمکـان الشـیء، هو وقوعه، و فی موضوع بحثنـا، فـإنّ رؤیـة نمـاذج عینیّـة من مُعاشـرة بعض الأفراد للأـراذل، و کیف أنّهـا أصـبحت مصـدراً لأنواع المفاسـد و الإنحرافات الخُلقیّـة لهم، و بالعکس، فإنّ مُصاحبـة الأخیار، ساهمت لـدی البعض، علی تطهیر أنفسـهم، من شـوائب الرّذیلـة و الزّیغ، و هـذه الموارد هی خیر دلیـلٍ علی بحثنـا هـذا. فـالتشبیه القـدیم القائـل: إنّ

الأخلاق القبیحة، مثل الأمراض السّاریَة، تنتشر بین الأصدقاء و الأقارب بسرعةٍ فائقةٍ، هو تشبیهٌ صحیحٌ، خصوصاً فی الموارد التی یکون فیها الشخص، حَدث السّن أو ضعیف الإعتقاد و الإیمان، و تکون نفسه مستعدّةً لقبول أخلاق الآخرین، فالمُعاشرة لمثل هؤلاء الأفراد، مع أصدقاء السّوء، تکون بمثابة سهم مُهلکٍ و قاتلٍ فی دائرةِ الإیمان، و عناصر الخَیر فی الشّخصیة، و قد شاهدنا الکثیر من الأفراد والأشخاص من الطیّبین، الذین تغیّروا بالکامل بسبب معاشرتهم لرفقاء السوء، و تحوّل مجری حیاتهم من أجواء الخیر إلی أجواء الشّر، و هُناک إثباتاتٌ و أدلّةٌ مختلفةٌ من تقریر هذه الحالةٌ فی واقع الإنسان من النّاحیة النّفسیة و الرّوحیة: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۱ ۱- من جملة الامور الّتی توصل إلیها علماء النّفس، هو وجود روح المُحاکاة فی الإنسان، یعنی أنّ الأفراد ینطلقون فی حرکة الحیاة، من موقع الشّعور أو اللّاشعور، بمُحاکاة أصدقائهم وأقاربهم، فالأشخاص الّذین یعیشون حالة الفرح و السرور، ینشدون الفرحة و الحُبور من حوالیهم، والعکس صحیح. فالأفراد المُتشائمین، الذین یعیشون الیأس و سوء الظن، یؤثرون علی أصحابهم، و یجعلونهم یعیشون حالة سوءِ الظّن، و هذا الأمر یبین لنا السّبب فی تأثیر الأصدقاء بعضهم بالبعض الآخر بسرعةٍ. ۲- مَشاهدة القبائح و تکرارها، یُقلّل من قبحها فی نظر المشاهد، و بالتدریج تصبح أمراً عادیّاً، ونحن نعلم أنّ إحدی العوامل المؤثّرة فی ترک الذنوب و القبائح، هو الإحساس بقبحها فی الواقع النّفسی للإنسان. ۳- تأثیر التّلقین فی الإنسان غیر قابل للإنکار، و أصدقاء السّوء یؤثرون دائماً علی رفقائهم فی دائرة الفکر و السّلوک من خلال عملیّة التلقین والایحاء، فیقلبون عناصر الشرّ فی إعتقادهم إلی عناصر الخیر، ویغیّرون حسّ التّشخیص لدیهم لعناصر الخیر و الشرّ فی منظومة القیم، فتختلط علیهم الامور، فی خطّ المستقبل و کیفیّة التعامل مع الغیر. ۴- المُعاشرة لرفاق السّوء، یشدّد سوء الظن فی الإنسان مع الجمیع، وتفضی به هذه الحالة النّفسیة السلبیّة إلی السّقوط فی وادی الذّنوب والفساد الأخلاقی، فنقرأ فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «مُجالَسَةُ الأَشرارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بالأَخیارِ» «۱». وجاء فی حدیث آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّ معاشرة رفاق السّوء تمیت القلب، فقال: «أَربَعٌ یُمِتنَ القَلبَ ... وَمُجالَسَةُ المَوتی فَقِیلَ لَهُ یا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا المَوتی ، قَالَ صلی الله علیه و آله: کُلُّ غَنِیٍّ مُسْرِفٍ» «۲». وهذا الموضوع، یعنی سریان الحُسن و القُبح الأخلاقی بین الأصدقاء، فی أجواء المُعاشرة إلی درجةٍ من الوضوح، ممّا حدی بالشّعراء إلی نظم الشعر فی هذا المضمار، من قبیل قولهم: عن المرء لا تسلْ وسلْ عن قرینه فکلّ قرینٍ بالمقارن یقتدی

۳- تأثیر الاسرة والوراثة فی الأخلاق

اشارة

من المعلوم أنّ أوّل مدرسةٍ لتعلیم القیم الأخلاقیّة، یدخلها الإنسان هی الاسرة، فکثیرٌ من اسس الأخلاق، تنمو فی واقع الإنسان هناک، فالمحیط السّلیم أو الملّوث للُاسرة، له الأثر العمیق فی صیاغة السّلوک الأخلاقی، لأفراد الاسرة، إنّ علی مستوی الأخلاق الحسنة أو السیئة، فالحجر الأساس للأخلاق فی واقع الإنسان یوضع هناک. و تتبیّن أهمیّة الموضوع، عندما یتّضح أنّ الطفل فی حرکته التکاملیّة، و مسیرته فی خط التّربیة: أولًا: یتقبّل ویتأثر بالمحیط بسرعةٍ کبیرةٍ. ثانیاً: إنّ ما یتعلمه الطّفل فی صغره، سوف ینفذ إلی أعماق نفسه و روحه، و قد سمعنا الحدیث الشریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام، یقول فیه: «العِلمُ فِی الصِّغَرِ کالنَّقشِ فِی الحَجَرِ» «۱». فالطفل یستلهم کثیراً من سجایا أبیه وامّه واخوته وأخواته، فالشّجاعة و السّخاء و الصّدق و الوفاء، و غیرها من الصّفات و السّجایا الأخلاقیّة الحمیدة، یأخذها و یکسبها الطّفل من الکبار بسهولةٍ، و کذلک الحال فی الرّذائل، حیث یکسبها الطّفل من الکبار بسهولةٍ أیضاً. و بالإضافة إلی ذلک، فإنّ الطّفل یکسب الصّفات من أبویه عن طریقٍ آخر، و هو الوراثة، فالکروموسومات لا تنقل الصفات الجسمانیة فحسب، بل تنقل الصفات الأخلاقیّة أیضاً، ولکن من دون تدخل عنصر الإجبار، حیث تکون هذه الصّفات قابلةٌ للتغییر، ولا تسلب المسؤولیّة من الأولاد أیضاً. و بعبارةٍ اخری، أنّ الأبوین یؤثران علی الطّفل أخلاقیاً من طریقین، طریق التّکوین، و الاخلاق فی القرآن،

ج ۱، ص: ۱۴۳ طریق التّشریع، و المراد من التّکوین هو الصفات و السّجایا المزاجیّة و الأخلاقیّة المتوفرة فی الکروموسومات و الجینات، و الّتی تنتقل لا إرادیاً للطفل فی عملیّة الوراثة. و الطریق التشریعی یتمثل فی إرشاد الأبناء، من خلال أسالیب التّعلیم و التّربیة للصفات الأخلاقیّة، التی یکتسبها الطفل من الأبوین بوعی وشعور. و من المعلوم أنّ أیّاً من هذین الطّریقین، لا یکون علی مستوی الإجبار، بل کلّ منهما یُهیّیء الأرضیّة لنمو و رشد الأخلاق فی واقع الإنسان، ورأینا فی کثیرٍ من الحالات أفراداً صالحین و طاهرین، لأنّ بیئتهم کانت طاهرةً و سلیمةً، والعکس صحیح أیضاً. ولا شک من وجود إستثناءات فی الحالتین تبیّن أنّ تأثیر هذین العاملین، و هی: «التربیة والوراثة»، لا یکون تأثیراً علی مستوی جَبر، بل یخضع لأدوات التّغییر و عنصر الإختیار. و نعود بعد هذه الإشارة إلی أجواء القرآن الکریم، لنستوحی من آیاته الکریمة ما یرشدنا إلی الحقیقة: ۱- «إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً» «۱». ۲- «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَکَفَّلَهَا زَکَرِیَّا» «۲». ۳- «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَی آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَی الْعَالَمِینَ* ذُرِّیَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» «۳». ۴- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَکُمْ وَأَهْلِیکُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» «۴». ۵- «یَا أُخْتَ هَارُونَ مَا کَانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا کَانَتْ أُمُّکِ بَغِیّاً» «۵»

تفسیر و استنتاج:

«الآیة الاولی»: تتحدث عن نوح ودعائه علی قومه بالهلاک، حیث إستدلّ علی ذلک الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۴ بقوله: «إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً». فهذا الکلام یدلّ علی أنّ الفجار و المنحرفین، لا یلدون إلّاالفجّار و المنحرفین، و لا یستحقون الحیاة الکریمة من موقع الرّحمة، بل یجب أن ینزل علیهم العذاب أینما وجدوا وحلّوا، و الحقیقة أنّ البیئة، و تربیة الاسرة وکذلک الوراثة، کلّها عوامل تؤثر فی الأخلاق و العقیدة، فی حرکة الحیاة والإنسان، والمهم فی الأمر أنّ نوحاً علیه السلام، قطع بکفر وفساد أولادهم اللّاحقین، لأنّ الفساد إنتشر فی المجتمع بصورةٍ کبیرةٍ جدّاً، فلا یمکن لأحدٍ أن یفلت منه بسهولةٍ، و طبعاً وجود مثل هذه العوامل، لا یعنی سلب الإرادة من الإنسان، وقد ذهب البعض إلی أنّ نوح علیه السلام، توجّه لهذه الملاحظة عن طریق الوحی الإلهی، عندما قال له الباری تعالی: «إِنَّهُ لَن یُؤمِنَ مِن قَومِکَ إِلّامَن آمن» «۱». و من الواضح، أنّ هذه الآیة لا تشمل الأجیال القادمة، لکنّه لا یُستبعد أنّه علیه السلام حکم علیهم بالإعتماد علی الامور الثلاثة السّابقة الذّکر، و هی: (البیئة، وتربیة الاسرة، و عامل الوراثة). و قد ورد فی بعض الرّوایات أنّ الکفّار من القوم، کانوا یأتون بصبیانهم الممیزین عند نوح علیه السلام، و یقول الأب لإبنه؛ أتری هذا الشّیخ یا بُنی؟ إنّه شیخٌ کذّاب، فلا تقترب منه، هکذا أوصانی أبی، «وإفعل أنت ذلک مع إبنک أیضاً». و ظلّ الأمر علی هذا المنوال علی تعاقب الأجیال «۲». و فی «الآیة الثانیة»: یحدثنا القرآن الکریم عن السیّدة مریم علیها السلام، والتی تعتبر من أهم وأبرز الشخصیات النسائیة فی العالم، و قد ورد فی النّصوص الدینیّة، ما یبیّن أنّ مسألة التربیة والوراثة و البیئة، لها أهمیّة کبیرةٌ فی رسم وصیاغة شخصیّة الإنسان، فی خطّ الحقّ أو الباطل، و لأجل تربیة أفرادٍ صالحین، یجب علینا التّوجه لتلک الامور. و من جملتها، حالة الام فی زمان الحَمل، فتری أنّ امّ مریم کانت تستعیذ باللَّه تعالی من الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۵ الشّیطان الرجیم، وکانت تتمنی دائماً أن یکون من خُدّام بیت اللَّه، بل نذرت أن یکون ولیدها کذلک. فتقول الآیة الکریمة: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً». تشبیه الإنسان الطّاهر بالنبات الحَسن، هو فی الحقیقة إشارةٌ إلی أنّ الإنسان کالنبات، یجب ملاحظته ملاحظةً دقیقةً، فالنبات ولأجل أن ینبت نباتاً حسناً مثمراً، یجب فی بادیء الأمر الإستفادة من البذور الصّالحة، و الإعتناء به من قبل الفلّاح فی کل مراحل رشده، إلی أن یصبح شجرةً مثمرةً، فکذلک الطفل فی عَملیّة التربیة، حیث ینبغی التّعامل معه من منطلق الرّعایة و العنایة، و تربیته تربیةً صحیحةً، لأنّ عامل الوراثة یؤثر فی نفسه وروحه، و الاسرة التی یعیش فیها، و کذلک البیئة والمحیط الذی یَتعایش معه، کلّها تمثل عناصر ضاغطة فی واقعه النّفسانی و المزاجی. و الجدیر بالذّکر، أنّ اللَّه سبحانه جاء بجملة: «وکَفّلَها زکَریا» فی ذیل الآیة، وهی الکفالة لمریم علیها السلام «۱»، و معلوم حال من یتربی علی ید نبیٍّ من أنبیاء اللَّه تعالی، بل اللَّه تعالی هوالذی إختاره لکفالتها

ورعايتها. فلا غرابة والحال هذه، أن تصل مريم عليها السلام لدرجاتٍ ساميةٍ، من الإيمان و التّقوى، و الأخلاق و التربية، ففى ذيل هذه الآيـة، يقول القرآن الكريم: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الِمحرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَـاءُ بِغَيْرِ حِسَـابٍ». نعم فإنّ التربيـة الإلهيّـة: تُثمر الأخلاق الإلهيّـة، و الرزق من اللّه فى طريق التّكامل المعنوى للإنسان. وقد ورد فى «الآية الثالثة»: مقدّمةٌ لقضـية مريم عليها السـلام، و كفالة زكريّا عليه السلام لها، وفيها الكلام عن تأثير العامل الوراثى، و عامل التربيـة فى تكريس الطهـارة و التقوى و الفضـيلة، فى مضـمون الاخلاـق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۶ الإنسـان و محتواه الـداخلى، فقال تعـالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَى آدَمَ وَنُوحـاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَـالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُـهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ». فالذرّيـة التى بعضـها من بعضٍ، إشارة لعامل الوراثة أو التربية الاسـريّة، أو كلاهما وهو شاهد حيٌّ يؤيد مُدّعانا من تأثير عناصـر الوراثة و التربية، فى الشّخصـيّة و معطياتها فى خط التّقوى و الفضـيلة. و أشارت الرّوايات التى نُقلت فى ذيل هذه الآية، لذلك المعنى «۱» أيضاً، وعلى كل حال، فإنّ الآيات الآنفـة الـذّكر، تـدلّ على مـدى تأثير معطيات التربيـة والبيئـة و الوراثة، فى نفسـية الإنسان، و أثرها العميق فى صـياغة قابليّـاته، و الإرتفـاع به للتّصـدى لمقام الرئاسـة المعنويّة على الخلق، ولا يمكن إنكار تلك المَعطيات، و لا يمكن أبـداً مُقايسـة هؤلاء الأطهار الـذين عاشوا أجواءَ الفضـيلة، بالّـذين ورثوا الكفر و الفساد و النّفاق من آبائهم وأجدادهم. و فى «الآية الرابعة»: خاطب البارى تعـالى المؤمنين وقـال لهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وقـد تَلت هـذه الآيـة، الآيات الّتى جاءت فى بداية سورة التّحريم، و التى حذّرت فيها نساء النّبى صلى الله عليه و آله من أعمالهنّ، وبعدها ذكر المطلب بصورة حكم عامٍّ شمـل كـلّ المؤمنين. و من المعلوم أنّ المقصود من هـذه النـار، هى نـار الآـخرة، ولاـ يمكن الإتقاء من تلك النار، إلّا بالإهتمام بعمليّة التعليم و التربيـة السّـليمة فى واقع الاسـرة، و التى بـدورها توجب ترك المعاصـى، و الإقبال على الطّاعة و تقوى اللّه تعالى. و بناءً على ذلك فإنّ هذه الآية تعيّن و تبيّن وظيفة ربّ الاسـرة، و دوره فى التّربية والتعليم، وكذلك تبيّن أهميّة و تأثير عنصر التربية و التعليم، فى ترشـيد الفضائل و الأخلاق الحميدة، و السيّرة الحسنة. و يجب الإهتمام فى ترجمة هذا البرنامج، إلى عالم الممارسة و التطبيق، من أوّل لبنـةٍ توضع فى بناء الاسـرة، أى منـذ إجراء عقـد الزّواج و الرّباط المُقـدس، و يجب الإهتمام بإسـلوب التربيـة، من أوّل لحظةٍ يولد فيها الطّفـل، و يستمر البرنامـج التّربوى فى كـلّ المراحـل التى تعقبهـا. الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۷ فنقرأ فى حـديثٍ عن الرّسـول الأكرم صـلى الله عليه و آله، أنّه عنـدما نزلت هـذه الآيـة الشّـريفة، سأله أحـد أصـحابه، عن كيفيّـة الوقاية من النار، له و لعياله، فقال له الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله: «تَأمُرُهُم بِما أَمَرَ اللَّهُ وَتَنهاهُم عَمّا نَهاهُم اللَّهُ إنْ أَطاعُوكَ كنْتَ قَدْ وَقَيْتَهُم وَإِنْ عَصَوكَ كُنْتَ قَدْ قَضَيتَ ما عَلَيكَ» «۱». و يجب أن يكون معلوماً، أنّ الأمر بالمعروف يعدّ من الوسائل الناجعة لوقاية الاسرة من الإنحراف و السّقوط فى هاويـة الجحيم، ولأجل الوصول إلى هـذا الهـدف، علينا الإسـتعانة بكلّ الوسائل المتاحـة لـدينا، و كـذلك الإسـتعانة بالجوانب العملية والنفسـية و الكلاميـة، ولا يُسـتبعد شـمول الآيـة لمسألـة الوراثـة، فمثلًا أكل لقمة الحلال عند إنعقاد النّطفة و ذكر اللّه، يُؤثر إيجابياً فى تكوين النّطفـة، و تنشـئة الطّفل و حركته فى المستقبل فى خطّ الإيمان. «الآية الخامسة والأخيرة»: تشـير إلى قصّة مريم عليها السـلام و ولادتهـا للمسيـح عليه السـلام، الـذى وُلـد من دون أب، و تعجّب قومهـا من ذلك الأمر الفظيع بنظرهم!، فقال البارى تعالى على لسان قومها: «يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً». فهذا التعبير، (و خصوصاً نقل القرآن الكريم من موقع الإمضاء و التأييـد)، إن دل على شـيء فهو يـدلّ على معطيات عوامل الوراثـة من الأب والام، وكـذلك تربيـة الاسـرة وتأثيرها فى أخلاق الطفل، وكلّ الناس لمسوا هذه الأمر بالتجربة، فإذا شاهدوا أمراً مُخالفاً للمعهود، إستغربوا و تعجّبوا. و من مجموع ما تقدم، يمكننا أن نستوحى هذه الحقيقة، وهى أنّ الوراثة و التربية، من العوامل المهمّة، فى رسم و غرس القيم الأخلاقيّة فى حركة الواقع النفسى للإنسان، إن على مستوى الأخلاق الحسنة أو السيئة.

الأخلاق والتربية فى الأحاديث الإسلاميّة:

لا شکّ أنّ المدرسة الأولی للإنسان، هی واقع الاسرة، فمنها یتعلم الإنسان الدّروس الاولی للفضیلة أو الرذیلة. وإذا ما تناولنا مفهوم التربیة بشکله العام: «التکوین والتشریع»، فإنّ أوّل مدرسةٍ یدخلها الإنسان، هی رحم الام وصلب الأب، و الّتی تؤتی معطیّاتها بصورةٍ غیر مباشرةٍ علی الطفل، و تهییء الأرضیّة للفضیلة، أو الرّذیلة فی حرکته المستقبلیّة. و قد ورد فی الأحادیث الإسلامیّة، تعبیراتٌ لطیفةٌ و دقیقةٌ جدّاً فی هذا المجال، نشیر إلی قسم منها: ۱- قال علیٌّ علیه السلام: «حُسْنُ الأَخلاق بُرهانُ کَرَم الأَعراقِ» «۱». و بناءً علیه فإنّ الاسر الفاضلة، غالباً ما تقدّم للمجتمع أفراداً متمّیزین علی مستوی الأخلاق الحسنة، وبالعکس فإنّ الأفراد الطالحین، ینشؤون غالباً من عوائل فاسدة. ۲- ورد فی حدیث آخر عن الإمام علی علیه السلام أنّه قال: «عَلَیکُم فِی طَلَبِ الحَوائِجِ بأشراف النُّفُوسِ وَذَوی الاصُولِ الطَّیِّبَةِ، فإنَّها عِنْدَهُم أَقضی وَهِی لَدَیهِم أَزکی «۲». ۳- و فی عهد الإمام علی علیه السلام لمالک الأشتر رحمه الله، ووصایاه له فی إختیار الضّباط للجیش الإسلامی، قال له: «ثُمَّ الصَقْ بِذَوی المُروُءاتِ والأَحسابِ وَأَهلِ البُیُوتاتِ الصَّالِحَةِ والسَّوابِقِ الحَسَنَةِ ثُمَّ أَهْلِ النَّجدَةِ وَالشَّجاعَةِ والسَّخاءِ وَالسَّمَاحَةِ فإنَّهُم جِماعُ مِنَ الکَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ العُرفِ» «۳». ۴- وورد عن الإمام الصادق علیه السلام، حدیث یُبیّن تأثیر الآباء الفاسدین علی شخصیة الأطفالِ و سلوکهم الأخلاقی، فقال: «أَیّما إمرَأَةٍ أَطاعَتْ زَوجَها وَ هُوَ شارِبٌ لِلخَمْرِ، کَانَ لَها مِنَ الخَطایا بِعَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ وَکُلُّ مَولُودٍ یُولَدُ مِنْهُ فَهُوَ نَجِسٌ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۹ وقد ورد النّهی الأکید، فی روایاتٍ اخری کثیرةٍ عن تزویج الشّارب للخمر، و السّیء الأخلاق «۱». ۵- و قد ورد فی الحدیث النبوی المشهور، بالنّسبة إلی تأثیر تربیة الأب والام علی الأولاد، أنه قال: «کُلُّ مَولُودٍ یُولَدُ عَلَی الفِطْرَةِ حتی یَکُونَ أَبواهُ هُمَا اللَّذانِ یُهَوِّدانِهِ وَیُنَصِّرانِهِ» «۲». فالتربیة التی تعمل علی تغییر إیمان و عقیدة الطّفل، کیف لا تعمل علی تغییر سلوکه الأخلاقی فی الدّائرة الإجتماعیة؟ ۶- و هذا الأمر جعل مسألة التربیة الصّالحة، من أهم حقوق الطّفل علی الوالدین، فنقرأ فی الحدیث النبوی الشّریف: «حَقُّ الوَلَدِ عَلی الوَالِدِ أنْ یُحْسِنَ إسمَهُ وَیُحْسِنَ أَدَبَهُ» «۳». فمن الواضح أنّ مدالیل الأسماء، لها أثرها الأکید علی نفسیّة و روحیّة الطّفل، فأسماء الشّخصیات الکبیرة من أهل التّقوی والفضیلة، تجذب الإنسان المُسمّی بأسمائهم إلیهم، و تدعوه للتّقرب إلیهم، و بالعکس، فإنّ أسماء الفسقة و الکفّار، تقرّب من یتسمی بأسمائهم منهم أیضاً «۴». ۷- و نقرأ فی النبوی الشریف أیضاً: «ما نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ أَفضَلَ مِنْ أَدبٍ حَسَنٍ» «۵». ۸- وقال الإمام السجّاد علیه السلام، بتعبیرٍ أوضح: «وَإِنَّکَ مَسؤولٌ عَمَّا وَلِّیتَهُ بِهِ مِنْ حَسَنِ الأَدبِ وَالدَّلالَةِ عَلَی رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ وَ المَعُونَةَ لَهُ عَلَی طَاعَتِهِ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۰ ۹- و قال الإمام علی علیه السلام، بأنّ أخلاق الأبوین، هی عبارةٌ عن میراث الأبناء منهما، فیقول علیه السلام: «خَیرُ ما وَرَّثَ الآباءُ الأَبناءَ الأَدَبَ» «۱». ۱۰- و نختم هذا البحث بحدیثٍ آخر عن الإمام علی علیه السلام، حیث بیّن الإمام علیه السلام، شخصیته للجهّال الذین یقیسونه بغیره، فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُم مَوضِعی مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالقَرابَةِ القَرِیبَةِ وَالمَنزِلَةِ الخَصِیَّةِ، وَ ضَعَنِی فِی حِجْرِهِ وَ أَنا وَلِیدٌ یَضُمُّنِی إِلَی صَدرِهِ ... یَرفَعُ لِی کُلَّ یوم عَلَماً مِنْ أَخلاقِهِ وَ یَأْمُرُنِی بِالإقتِداءِ ..». و اللطیف فی الأمر، أنّ الإمام علیه السلام وفی أثناء حدیثه، بیّن قسماً من أخلاق الرّسول صلی الله علیه و آله، فقال: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلی الله علیه و آله مِن لَدُنْ أن کانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَکٍ مَنْ مَلائِکَتِهِ یَسلُکُ بِهِ طَرِیقَ المَکارِمِ وَ مَحَاسِنَ أَخلاقِ العالَمِ لَیلَهُ و نَهارَهُ» «۲». و صحیح أنّ الصفات النفسیة و الأخلاقیّة، سواء کانت سیئة أم حسنة، فهی تنبع من باطن الإنسان وإرادته، ولکن لا یمکن إنکار معطیات البیئة وأجواء المحیط، فی تکوین وترشید الأخلاق الحسنة والسّیئة، و کذلک عنصر الوراثة من الوالدین والاسرة بصورة أعم، و توجد شواهد عینیّة کثیرة، و أدلة قطعیّة علی ذلک، ترفع الشّک و التردید فی المسألة. وبناءً علی ذلک، و لأجل بناء مجتمعٍ صالحٍ و أفرادٍ سالمین، علینا الإهتمام بتربیة الطّفل تربیةً سلیمةً، و الإنتباه لعوامل الوراثة و أخذها بنظر الإعتبار، فی واقع الحیاة الفردیّة و الإجتماعیّة.

۴- معطیّات العلم و المعرفة فی التربیة

اشارة

ومن العوامل الاخرى، فى عمليّة تهذيب الأخلاق وترشيدها، هو الصعود بالمستوى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۵۱ العلمى والمعرفى للأفراد، فإنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان، كلّما إرتقى مستواه فى دائرة العلوم والمعارف الإلهيّة، أينعت سجاياه الإنسانيّة، و تفتحت فضائله الأخلاقيّة، و العكس صحيح، فإنّ الجهل وفقدان المعارف الإلهيّة، يؤثر تأثيراً شديداً على دعامات و اسس الفضيلة، و يهبط بالمستوى الأخلاقى للفرد، فى خطّ الإنحراف و الباطل. و فى بداية هذا الكتاب، فى مبحث علاقة العلم بالإخلاق، ذكرنا أبحاثاً مختصرةً عن الأواصر الحاكمة بين هذين العاملين، و أشرنا إلى أنّ بعض الفلاسفة و العلماء، بالغوا فى الأمر و إدعوا أنّ: «العلم يساوى الأخلاق». وبعبارة اخرى: أنّ العلم أو الحكمة و المعرفة، هى المنبع الرّئيسى للأخلاق، «كما نُقل عن سقراط الحكيم»، و أنّ الرّذائل الأخلاقيّة سببها الجهل. فمثلًا المتكبّر و الحاسد، إنّما إبتلى بهذين الرذيلتين، بسبب عدم علمه بواقع الحال، فلا توجد عنده صورةٌ واضحةٌ عن أضرارهما وتبعاتهما السلبيّة، على واقع الإنسان الدّاخلى، ويقولون أنّه لا يوجد إنسان يخطو خطوةً نحو القبائح عن و عيٍ و علمٍ بها. و بناءً على ذلك، إذا تمّ الصّعود بالمستوى العلمى لدى أفراد المجتمع، فإنّ ذلك بإمكانه، أن يكون عاملًا مساعداً، لتشييد صرح الهيكل الأخلاقى السّليم فى المجتمع. و بالطّبع فإنّ هذا الكلام فيه نوع من المُغالاة و المُبالغة، و يُنظر للمسألة من زوايةٍ خاصّةٍ، رغم أننا لا ننكر أنّ العلم يُعدّ من العوامل المهمّة لتهيئة الأرضيّة، و خَلقِ الأجواء الملائمة لِسيادة الأخلاق، بناءً على ذلك فإنّ الأفراد الاميّين و الجهلة، يكونون أقرب إلى منحدر الضّلالة والخطيئة، وأمّا العلماء الواعون، فيكونون على بصيرةٍ من أمرهم ويبتعدون عن الرّذيلة، من موقع الوضوح فى الرّؤية، ولا ننسى أنّ لكلّ قاعدةٍ شَواذ. و قد ورد فى القرآن الكريم هذا المعنى، فى بيان الهدف من البعثة: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۵۲ و بناءً على ذلك، فإنّ النّجاة من الضّلال المبين، و الطّهارة من الأخلاق الرّذيلة و الذنوب، تأتى بعد تلاوة الكتاب المجيد، و تعليم الكتاب والحكمة، و هو دليلٌ واضحٌ على وجود العلاقة و الإرتباط بين الإثنين. و قد أوردنا فى الجزء الأوّل من الدّورة الاولى من نفحات القرآن الكريم، شواهد حيّةً و كثيرةً من الآيات القرآنية، حول علاقة العِلم والمعرفة بالفضائل الأخلاقيّة، و كذلك علاقة الجهل بالرذائل الأخلاقيّة، ونشير هنا بشكل مختصرٌ إلى عشرة نماذج منها:

۱- الجهل مصدرٌ للفساد و الإنحراف

نقرأ فى الآية (۵۵) من سورة النّمل: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». فقرن هنا الجهل، بالإنحراف الجنسى والفساد الأخلاقى.

۲- الجهل سبب للإنفلات و التّحلل الجنسى

ورد فى الآية (۳۳) من سورة يوسف على لسان يوسف عليه السلام، فى أنّ الجهل قرينٌ للتحلل الجنسى، فقال تعالى: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ».

۳- الجهل أحد عوامل الحسد

ورد فى الآية (۸۹) من سورة يوسف عليه السلام، أنّه عندما جلس يوسف عليه السلام على عرش مصر، و تحدّث مع إخوانه الذين جاءوا من كنعان إلى مصر، لإستلام الحنطة منه، فقال: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ». أى أنّ جهلكم هو السبب فى وقوعكم فى أسر الحسد، الذى دفعكم إلى تعذيبه، و السّعى لقتله، و القائه فى البئر.

۴– الجهل مصدر التّعصب و العناد و اللؤم

فى الآية (۲۶) من سورة الفتح، نرى أنّ تعصّب مشركى العرب فى الجاهلية، كان بسبب جهلهم و ضلالهم: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

۵– علاقة الجهل بالذرائع

تاريخ الأنبياء ملىءٌ بمظاهر التبرير، و خلق الذّرائع من قبل الأقوام السّالفة، فى مواجهة أنبيائهم، وقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه الظاهرة، و مرَّة اخرى يشير إلى علاقة الجهل بها، فنقرأ فى الآية (۱۱۸) من سورة البقرة: «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ». فالتأكيد هنا على أنّ عدم العلم أو الجهل، هو الذى يتولى خلق الأرضيّة للتذرع، و تبيّن الآية الكريمة، العلاقة الوثيقة بين هذا الإنحراف الأخلاقى مع الجهل، وكما أثبتته التجارب أيضاً.

۶– علاقة سوء الظنّ مع الجهل

ورد فى الآية (۱۵۴) من سورة آل عمران، الكلام عن مُقاتلى احد: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ». ولا شك فى أنّ سوء الظّن، هو من المفاسد الأخلاقيّة، و مصدر لكثير من الرذائل الفردية و الإجتماعيّة فى حركة الواقع والحياة، وهذه الآية تبيّن علاقة الظّن بالجهل بصورةٍ واضحةٍ.

۷– الجهل مصدر لسوء الأدب

ورد فى الآية (۴) من سورة الحجرات، إشارةً للّذين لا يحترمون مقام النبوة، و قال إنّهم قوم لا يعقلون: الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۵۴ «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ». فقد كانوا يزاحمون الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فى أوقات الرّاحة، و فى بيوت أزواجه، و يُنادونه بأعلى أصواتهم قائلين: يا مُحَمِّد! يا مُحَمِّد! اخرُجُ إلَينا. فكان الرّسول صلى الله عليه و آله ينزعج كثيراً من سوء أدبهم وقلّة حيائهم، ولكن حياؤه يمنعه من البوح لهم، وبقى كذلك يتعامل معهم من موقع الحياء، حتى نزلت الآية، و نبّهتهم لضرورة التأدّب أمام الرسول صلى الله عليه و آله، و شرحت لهم كيف يتعاملون معه صلى الله عليه و آله، من موقع الأدب و الإحترام. و فى تعبير: «أكثرهم لا يعقلون»، إشارة لطيفة للسّبب الكامن وراء سوء تعاملهم، و قلّة أدبهم وجسارتهم، وهو فى الغالب عبارةٌ عن هُبوط المستوى العلمى، و الوعى الثقافى لدى الأفراد.

۸– أصحاب النّار لا يفقهون

لا شك أنّ أصحاب النّار هم أصحاب الرذائل، و الملوّثين بألوان القبائح، وقد نوّه إليهم القرآن الكريم، و عرّفهم بالجُهّال، و عدم التّفقه، و يتّضح منه العلاقة بين الجهل و إرتكاب القبائح، فنقرأ فى الآية (۱۷۹) من سورة الأعراف: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ». فقد بيّنت هذه الآية وآيات كثيرةٌ اخرى، العلاقة الوطيدة بين الجهل، و بين أعمال السوء و إرتكاب الرذائل.

۹– الصبر من معطيات العلم

الآیة (۶۵) من سورة الأنفال، تنبّه المسلمین على أنّ الصّبر الذی یقوم على أساس الإیمان و المعرفة، بإمکانه أن یمنح المسلمین قوّة للوقوف بوجه الکفّار، الذین یفوقون المسلمین عدداً وعدّةً، تقول الآیة: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۵ «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِینَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ وَإِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَةٌ یَغْلِبُوا أَلْفاً مِنْ الَّذِینَ کَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَایَفْقَهُونَ». نعم فإنّ جهل الکافرین، هو السبب فی عدم إستطاعتهم فی الصّمود بوجه المؤمنین، و فی مقابل ذلک فإنّ وعی المؤمنین هو السّبب فی صمودهم، بحیث یُعادل کلّ واحدٍ منهم عشرة أنفارٍ من جیش الکفّار.

۱۰– النّفاق والفرقة ینشآن من الجهل

أشار القرآن الکریم فی الآیة (۱۴) من سورة الحشر إلى یهود (بنی النضیر)، الذین عجزوا عن مُقاومة المسلمین، لأنّهم کانوا مُختلفین و مُتفرقین، رغم أنّ ظاهرهم یحکی الوحدة و الإتفاق، فقال: «لَا یُقَاتِلُونَکُمْ جَمِیعاً إِلَّا فِی قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَیْنَهُمْ شَدِیدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِیعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَایَعْقِلُونَ». وبناءً على ذلک فإنّ النّفاق والفرقة و التشتت، و غیرها من الرذایل الأخلاقیّة، الناشئة من جهلهم وعدم إطّلاعهم على حقائق الامور.

النتیجة:

تبیّن ممّا جاء فی أجواء تلک العناوین العشرة السّابقة، التی وردت فی سیاق بعض الآیات القرآنیة، علاقة الفضیلة بالعلم من جهة وعلاقة الرذیلة بالجهل، من جهةٍ اخرى، و قد ثبت لنا بالتجربة ومن خلال المشاهدة، أنّ أشخاصاً کانوا منحرفین بسبب جهلهم، وکانوا یرتکبون القبیح و یمارسون الرّذیلة فی السّابق، ولکنّهم إستقاموا بعد أن وقفوا على خطئهم، و تنبّهوا إلى جهلهم، و أقلعوا عن فعل القبائح و الرذائل، أو قلّلوها إلى أدنى حدٍّ. و الدّلیل المنطقی لهذا الأمر واضح جدّاً، وذلک لأنّ حرکة الإنسان نحو التّحلی بالصّفات والکمالات الإلهیّة، یحتاج إلى دافعٍ و قصدٍ، وأفضل الدّوافع هو العلم بفوائد الأعمال الصّالحة ومضار القبائح، وکذلک الإطّلاع و التعرّف على المبدأ و المعاد، و سلوکیات الأنبیاء والأولیاء الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۶ ومذاهبهم الأخلاقیة، فکلّ ذلک بإمکانه أن یکون عاملًا مساعداً، یسوق الإنسان للصّلاح و الفلاح، و الإبتعاد عن الفساد والباطل فی حرکة الحیاة والواقع. و بالطّبع المراد من العلم هنا، لیس هو الفنون والعلوم المادیّة، لأنّه یوجد الکثیر من العلماء فی دائرة العلوم الدنیویّة، ولکنّهم فاسدین ومفسدین ویتحرکون فی خط الباطل و الإنحراف، ولکن المقصود هو العلم والاطّلاع على القیم الإنسانیة، و التعالیم والمعارف الإلهیّة العالیة، التی تصعد بالإنسان فی مدارج الکمال المعنوی و الأخلاقی، فی مسیرته المعنویة.

علاقة «العلم» و «الأخلاق» فی الأحادیث الإسلامیّة:

الأحادیث الإسلامیّة من جهتها، مشحونة بالعبارات الحکیمة الّتی تبیّن العلاقة الوثیقة بین العلم والمعرفة من جهةٍ، وبین الفضائل الأخلاقیّة من جهةٍ اخرى، وکذلک علاقة الجهل بالرّذائل أیضاً. وهنا نستعرض بعضاً منها: ۱– بیّن الإمام علی علیه السلام علاقة المعرفة بالزهد، الذی یُعدّ من أهمّ الفضائل الأخلاقیّة، فقال: «ثَمَرةُ المَعرِفَةِ العُزُوفُ عِنْ الدُّنیا» «۱». ۲– وَ وَرد فی حدیثٍ آخر عنه علیه السلام، قال: «یَسیرُ المَعرِفةِ یُوجِبُ الزُّهدَ فِی الدُّنیا»». و المعرفة هنا یمکن أن تکون إشارةً لمعرفة الباری تعالى، فکلّ شیء فی مقابل ذاته المقدّسة لا قیمة له، فما قیمة القَطرة بالنسبة للبحر، و نفس هذا المعنى یمثّل أحد أسباب الزهد فی الدنیا وزبرجها، أو هو إشارةٌ لعدم ثبات الحیاة فی الدّنیا، و فناء الأقوام السّابقة، و هذا المعنى أیضاً یحثّ الإنسان على التّحرک فی سلوکه و أفکاره، من موقع الزّهد، و یوجّهه نحو الآخرة و النّعیم المقیم، أو هو إشارةٌ لجمیع ما ذُکر آنفاً. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۷ ۳– وَ وَرد عنه علیه

السلام فی حدیث آخر، بیان علاقة الغِنی الذّاتی، و ترک الحرص علی الامور الدنیویة، بالعلم والمعرفة، فقال: «مَنْ سَکَنَ قَلْبَهُ العِلْمُ بِاللَّهِ سُبحانَهُ سَکَنَهُ الغِنی عَنْ الخَلْقِ» «۱». و من الواضح أنّ الذی یعیش المعرفة، بالصّفات الجمالیّة و الجلالیّة للباری تعالی، و یری أنّ العالم کلّه، هو إنعکاسةٌ أو و مضةٌ، من شمس ذاته الأزلیّة الغنیّة بالذات، فیتوکل علیه فقط، و یری نفسه غنیّاً عن الناس أجمعین، فی إطار هذا التوکّل والإعتماد المطلق علی اللَّه تعالی. ۴- و جاء فی حدیث عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حول معرفة اللَّه وعلاقتها بحفظ اللّسان من الکلام البذیء، و البطن من الحرام، فقال صلی الله علیه و آله: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَظَمَتَهُ مَنَعَ فاهُ مِنْ الکَلامِ وَبَطْنَهُ مِنَ الحَرامِ» «۲». ۵- وَرَد عن الإمام الصّادق علیه السلام، علاقة المعرفة بالخوف منه تبارک و تعالی، الذی هو بدوره مصدر لکلّ أنواع الفضائل، فقال: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ خافَ اللَّهَ وَمَنْ خافَ اللَّهَ سَخَتَ نَفْسَهُ عَنِ الدُّنیا» «۳». ۶- بالنّسبة للعفو وقبول العذر من الناس، قال أمیر المؤمنین علیه السلام: «أَعْرَفُ النَّاسِ بِاللَّهِ أَعْذَرَهُم لِلنّاسِ و إنْ لَمْ یَجِدْ لَهُم عُذراً» «۴». (و من البدیهی أنّ هذا الحدیث ناظرٌ إلی المسائل الشخصیّة، لا المسائل الإجتماعیّة). ۷- حول معرفة اللَّه و ترک التکبر، قال علیه السلام: «وَ إنَّهُ لا یَنبَغِی لَمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أنْ یَتَعَظَّمُ» «۵». ۸- حول العلم والعمل، قال علیه السلام: «لَن یُزَّکی العَمَلُ حتّی یُقارِنَهُ العِلْمُ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۱۵۸ ومن المعلوم أنّ طهارة العمل لا تنفکّ عن طهارة الأخلاق. ۹- و نقرأ فی حدیثٍ آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حول هذا الموضوع: «بِالعِلمِ یُطاعُ اللَّهُ وَیُعبَدُ وَبالعِلمِ یُعْرَفُ اللَّهُ وَیُوَحَّدُ وَبِهِ تُوصَلُ الأَرحامُ وَیُعْرَفُ الحَلالُ وَ الحَرامُ وَ العِلمُ إمامُ العَمَلِ». «۱» ففی هذا الحدیث، إعتبر کثیراً من السّلوکیات الأخلاقیّة الإیجابیّة، هی ثمرةٌ من ثمار العلم و المعرفة. ۱۰- ورد نفس هذا المعنی بصراحةٍ أقوی عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «ثَمَرَةُ العَقلِ مُداراةُ النَّاسِ» «۲». و فی مقابل الأحادیث التی تتحدث عن العلم و المعرفة، و علاقتها بالفضائل الأخلاقیّة توجد أحادیث شریفة اخری، وردت فی المصادر الإسلامیّة حول علاقة الجهل بالرذائل، و هی تأکید آخر لموضوع بحثنا هذا ومنها: ۱- فی حدیثٍ عن علی علیه السلام قال: «الجَهلُ أَصلُ کُلِّ شرٍّ» «۳». ۲- و ورد أیضاً عنه علیه السلام: «الحِرصُ وَالشَّرَهُ والبُخلُ نَتِیجَةُ الجَهلِ» «۴». لأنّ الحریص أو الطّماع، غالباً ما یتحرک فی طلب امورٍ زائدةٍ عن إحتیاجه، و فی الحقیقة فإنّ ولعه بالمال و الثروة و المواهب المادیّة، ولعٌ غیر منطقی و غیر عقلائی، وهکذا حال البخیل أیضاً فبِبُخله یحرص، و یحافظ علی أشیاء لن یستفید منها فی حیاته، بل یترکها لغیره بعد موته. ۳- و نقل عنه علیه السلام فی تعبیرٍ جمیلٍ: «الجَاهِلُ صَخْرَةٌ لایَنْفَجِرُ مائُها! وَشَجَرَةٌ لایَخْضَرُّ عُودُها! وَأَرْضٌ لایَظهَرُ عُشْبُها!» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۱۵۹ ۴- وَ وَرد عنه علیه السلام أیضاً، فی إشارةٍ إلی أنّ الجاهل یعیش دائماً فی حالة إفراطٍ أو تفریطٍ، فقال: «لا تَری الجَاهِلَ إلّامُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً» «۱». فطبقاً للرأی المعروف عن علماء الأخلاق، أنّ الفضائل الأخلاقیّة هی الحد الأوسط بین الإفراط و التفریط، الذی ینتهی إلی السّقوط فی الرذائل، ویُستفاد من الحدیث أعلاه، أنّ العلاقة بین الجهل من جهة و الرذائل الأخلاقیّة، من جهةٍ اخری، هی علاقةٌ و طیدةٌ جدّاً. ۵- یقول کثیر من علماء الأخلاق، أنّ الخُطوة الاولی لإصلاح الأخلاق، و تهذیب النّفس، هی المحافظة علی اللّسان و الإهتمام بإصلاحه، وقد ورد فی الأحادیث الإسلامیّة، تأکید علی علاقة الجهل ببذاءة اللّسان، فنقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الهادی علیه السلام: «الجَاهِلُ أَسِیرُ لِسانِهِ» «۲». و خُلاصة القول، أنّ الرّوایات الإسلامیّة الکثیرة أکدت علی علاقة العلم بالأخلاق الحسنة، و الجهل بالأخلاق السیّئة، و کلّها تؤید هذه الحقیقة، و هی أنّ إحدی الطّرق المؤثرة لتهذیب النّفوس، هو الصّعود بالمستوی العلمی و المعرفی لِلأفراد، و معرفة المبدأ و المعاد، والعلم بمعطیات الفضائل و الرذائل الأخلاقیة، فی واقع الإنسان والمجتمع. هذا الصعود بالمستوی العلمی للأفراد علی نحوین: النحو الأول: زیادة المعرفة بسلبیات السّلوک المنحرف، و الإطّلاع علی أضرار الرذائل الأخلاقیة بالنسبة للفرد والمجتمع، فمثلًا عندما یُحیط الإنسان علماً، بأضرار المواد المخدّرة أو المشروبات الکحولیة، وأنّ أضرارها لا یمکن اصلاحها علی المستوی القریب، فذلک العلم سیهیّیء الأرضیّة فی روح الإنسان، للإقلاع عن تلک السلوکیات المضرّة، و بناءً علیه فکما أنّه یجب تعریف النّاس بمضرّات المخدرات، و المشروبات الکحولیة، وعلینا تعریف النّاس بطرق مُحاربة الرّذائل و إحصاء عُیوبها، و أسالیب تنمیة الفضائل، و إستجلاء محاسنها، ورغم أنّ ذلک لا یُمثّل العلّة التّامة لإحداث حالة التغییر، و التّحول فی الإنسان، ولکّنه بلا شک یمهّد الاخلاق فی القرآن،

ج۱، ص: ۱۶۰ ویهیّیء الأرضیّة المساعدة لذلک. القسم الثانی: الصّعود بالمستوی العلمی بصورةٍ عامّةٍ، فعندما یطّلع الإنسان علی المعارف الإلهیّة، ومنها المبدأ و المعاد، و أقوال الأنبیاء و الأولیاء، و ما شابه ذلک، فإنّ الإنسان سیجد فی نفسه میلًا نحو الفضائل، و رغبةً فی الإبتعاد عن الرّذائل. و بعبارةٍ اخری: إنّ تدنّی المستوی العلمی بالامور العقائدیة، کفیل بخلق محیطٍمناسب لنمو الرذائل، والعکس صحیحٌ فإنّ زیادة المعرفة تبعث فی روح الإنسان الرّغبة و الشّوق نحو ممارسة الفضیلة.

۵- دور الثّقافة الإجتماعیّة فی تربیة الفضائل والرذائل:

اشارة

الثّقافة عبارة عن مجموعةٍ من الامور، التی تبنی فکر وروح الإنسان، و تمنحه الدّافع الأصلی للتحرک نحو المسائل المختلفة. وعلی مستوی المِصداق، تمثّل الثّقافة مجموعةً من العقائد، و التاریخ و الأدب و الفن، و الآداب و الرّسوم لمجتمعٍ ما. و قد تکلمنا فی السّابق عن بعض معطیات البیئة و المحیط و المعرفة، و دورها فی إیجاد الفضائل و الرّذائل، و نتطرّق الآن لباقی أقسام الثّقافة الإجتماعیّة، و دورها فی تحکیم و تقویة عناصر الخیر، ودعامات الفضائل فی واقع النّفس، أو تعمیق عناصر الرّذیلة فیها. وأحد هذه الامور، العادات و التقالید و السّنن لقومٍ من الأقوام، فإذا إستوحت مقوّماتها من الفضائل، فستکون مؤثّرة فی خلق الأجواء المناسبة لتربیة و تهذیب النّفوس، وأمّا لو إسترفدت قوتها وحیاتها من الرّذائل الأخلاقیّة، فستکون البیئة مهیّئة لتقبل أنواع القبائح أیضاً. وَ وَرد فی القرآن الکریم إشاراتٌ واضحةٌ فی هذا المجال، تبیّن کیفیّة إنحراف الأقوام السّابقة، بسبب الثّقافة المنحرفة والتقالید والأعراف المنحطة لدیهم، و الّتی أدّت بهم إلی السّقوط فی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۱ منزلقات الخطیئة، و الإنحدار فی هاویة الرذائل الأخلاقیة، ومنها: ۱- «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَیْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَایَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۱». ۲- «وَإِذَا قِیلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَیْنَا عَلَیْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ کَانَ آبَاؤُهُمْ لَایَعْقِلُونَ شَیْئاً وَلَا یَهْتَدُونَ» «۲». ۳- «إِذْ قَالَ لِابِیهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِیلُ الَّتِی أَنْتُمْ لَهَا عَاکِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَها عَابِدِینَ» «۳». ۴- «وَکَذَلِکَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ» «۴». ۵- «وَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ» «۵». ۶- «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ کَظِیمٌ* یَتَوَارَی مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَیُمْسِکُهُ عَلَی هُونٍ أَمْ یَدُسُّهُ فِی التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا یَحْکُمُونَ» «۶». ۷- «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَمَاءُ بَیْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» «۷».

تفسیر و إستنتاج:

ما نستوحیه من الآیات الکریمة محلّ البحث، هو أنّ ثقافة الأقوام والامم السّالفة، لها دورٌ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۲ فاعل فی تربیة و نمو الصفات الأخلاقیّة، أیّاً کانت، فإذا کانت الثّقافة السّائدة بمستوی مرموق، فمن شأنها أن تفرز لنا أفراداً ذوی صفاتٍ حمیدةٍ و أخلاقٍ عالیةٍ، والعکس صحیح، والآیات الکریمة السّابقة الذّکر، تُشیر إلی المعنیین أعلاه. ففی «الآیة الاولی»: نقرأ قول الأقوام السّالفة، الّذین یعیشون الإنحراف، و یمارسون الخطیئة من موقع الوضوح فی الرؤیة، فإذا سُئلوا عن الدّافع لمثل هذه التصرفات الشائنة، و السلوکیات المنحرفة، قالوا بلغة التّبریر: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَیْهَا آبَاءَنَا ...». ولم یکتفوا بذلک بل تعدّوا الحدود، و قالوا: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا». بناءً علی ذلک، فإنّهم إتخذوا سُنّة الّذین مَضوا من قبلهم دلیلًا علی حسن أعمالهم، ولم یخجلوا من أفعالهم القبیحة، علی مستوی النّدم و الإحساس بالمسؤولیّة، بل کانوا یعطوها الصّبغة الشرعیّة أیضاً. «الآیة الثّانیة»: طرحت نفس المعنی ولکن بشکل آخر، فعندما کان الأنبیاء یدعون أقوامهم إلی الشریعة الإلهیّة النّازلة من عند اللَّه تعالی، کانوا یتحرّکون فی المقابل من موقع العناد و

التکبر، و یقولون بغرور: (سنتّبع سنّة آبائنا). ولم یکن سبب ذلک، إلّالأنّهم وجدوا آبائهم یؤمنون بها و یتّبعونها، و بذلک لبست ثیاب القداسة و إعتبروها دیناً فی حرکة الحیاة والواقع، فهی عندهم أفضل من آیات القرآن الکریم، و شرائع الباری تعالی: «وَإِذَا قِیلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَیْنَا عَلَیْهِ آبَاءَنَا»، وعلیه، فلماذا فضّلوا العمل بسنّة الجهلاء، علی إتّباع آیات الوحی الإلهی؟. و یضیف القرآن الکریم قائلًا: «أَوَلَوْ کَانَ آبَاؤُهُمْ لَایَعْقِلُونَ شَیْئاً وَلَا یَهْتَدُونَ». ووَرد فی «الآیة الثّالثة»: الکلام عن السّنن وعادات الأقوام أیضاً، و دور الثّقافة الخاطئة فی صیاغة الأعمال المتقاطعة مع الأخلاق، ففی بیان یشابه الآیات الماضیة، نقرأ قصّة إبراهیم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۳ وعبدة الأصنام فی بابل، فعندما کان یلومهم إبراهیم علیه السلام لعبادتهم الأصنام التی لا تضرّ و لا تنفع، کانوا یقولون بصراحة: وجدنا آباءنا لها عاکفین: «إِذْ قَالَ لِأَبِیهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِیلُ الَّتِی أَنْتُمْ لَهَا عَاکِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِینَ». فأجابهم إبراهیم علیه السلام بأشدّ الکلام و أغلظه، بقوله: «وَقَالَ لَقَدْ کُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُکُمْ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ». ولکن وللأسف الشدید، إنتقل هذا الضّلال المبین إلی الأجیال، جیلًا بعد جیل، فأصبح جزءاً من ثقافتهم، و أکسبه توالی الزّمن علیه مسوح القداسة، فلم یمح قبحه فحسب، بل أصبح من إفتخاراتهم علی المستوی الحضاری و الدّینی. «الآیة الرابعة»: توحی لنا نفس المعنی، ولکن بشکلٍ آخر، ففی معرض جوابهم علی السّؤال القائل: لماذا تعبدون هذه الأصنام رغم أنّکم تعیشون سلامة العقل؟، تقول الآیة علی لسانهم: «بَلْ قالُوا إنّا وَجِدنا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ». فلیس أنّهم لم یعتبروا هذه الحماقة، ضلالةً فحسب، بل إعتبروها هدایةً و فلاحاً، و رثوه عن آبائهم الماضین، وذکرت «الآیة التی بعدها» أنّ هذا هو طریق ومنطق کلّ المترفین علی طول التاریخ، وقالت: «وَکَذَلِکَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ فی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ». و من البدیهی أنّ ذلک التقلید الأعمی، الذی کان یظهر جمیلًا فی ظلّ تلک القبائح، له أسبابٌ کثیرةٌ و أهمّها تبدّل ذلک القُبح إلی سُنّةٍ و ثقافةٍ بمرور الزّمن. و ورد نفس هذا المعنی فی الآیة (۱۰۳ و ۱۰۴) من سورة المائدة، فقد إبتدع عرب الجاهلیّة بدَعاً ما أنزل اللَّه بها من سلطان، فکانوا یحلّون الطعام الحرام ویحرّمون الطعام الحلال، وکانوا یتمسکون بالخرافات و العادات السیئة، و لا یقلعون عنها أبداً، و یقولون: «حَسْبُنا ما وَجِدنا عَلَیهِ آبائَنا». و یتبیّن ممّا تقدم من الآیات الکریمة، تأثیر العادات الخاطئة و السّنن البائدة، فی قلب الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۴ الامور رأساً علی عقب، بحیث یضحی الخطأ صواباً فی الواقع الأخلاقی والفکری لدی النّاس. و فی «الآیة الخامسة»: یوجد موضوع جدید بالنّسبة لِدَور العادات و السّنن فی تحول القیم الأخلاقیّة، و هو: أنّ قوم لوط الذین سوّدوا وجه التّأریخ بأفعالهم الشّنیعة، (و لِلأسف الشّدید، نری فی عصرنا الحاضر، أنّ الحضارة الغربیّة أقرّت تلک الأفعال علی مستوی القانون أیضاً)، فعندما دعاهم لوط علیه السلام، والقلّة من أصحابه، إلی التّحلی بالتّقوی و الطّهارة فی ممارساتهم وأفعالهم، تقول الآیة أنّهم إغتاظوا من ذلک بشدّةٍ: «وَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ یَتَطَهَّرُونَ». فالبیئة الملوّثة، و السّنن الخاطئة و الثّقافة المنحطّة أثّرت فیهم تأثیراً سلبیاً، ممّا حدی بهم إلی إعتبار الطّهارة و التّقوی جنایةً، و الرّذیلة والقبائح من عناصر العزّة و الإفتخار، و من الطّبیعی، فإنّ الرذائل تنتشر بسرعةٍ فی مثل هذه البیئة، التی تعیش أجواء الإنحطاط و الخطیئة، و تندرس فیها الفضائل کذلک. «الآیة السادسة»: تقصّ علینا قصّة وأدِ البنات الُمریعة فی العصر الجاهلی، ولم یکن سبب ذلک سوی تحکیم الخُرافات و السّنن الخاطئة فی واقع الفکر والسلوک لدی الأفراد، فقد کانت ولادة البنت فی الجاهلیّة عاراً علی المرء، و إذا ما بُشّر أحدهم بالانثی یظلّ وجهه مسودّاً من فرط الألم، و الخجل، علی حدّ تعبیر القرآن الکریم «۱»: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ کَظِیمٌ* یَتَوَارَی مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَیُمْسِکُهُ عَلَی هُونٍ أَمْ یَدُسُّهُ فِی التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا یَحْکُمُونَ». و لا شکّ أنّ القتل من أقبح الجرائم، و خصوصاً إذا کان القتیل طفلًا ولیداً جدیداً، ولکن الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۵ السّنن الخاطئة والتقالید الزائفة، التی کانوا علیها مَحَقت القُبح من هذه الجریمة النّکراء، و جعلت منها فضیلةً. و بالنّسبة لوأد البنات الفضیع، جاء فی بعض التّفاسیر: أنّ البعض من هؤلاء الجاهلین، کانوا یستخدمون اسلوب الدّفن للبنات، و بعض یغرقونهن، والبعض الآخر کانوا یفضّلون رمیهنّ من أعلی الجبل، وقسم آخر کانوا یذبحون بناتهم «۱»، وأمّا بالنسبة لظهور هذا الأمر عند العرب، و تأریخه والدافع الأصلی له، فقد وردت أبحاثٌ مفصّلة

لا يسع المقام لذكرها الآن «۲». والكلام فى كيفيّة تمهيد الطريق للرذائل الأخلاقيّة، من خلال تلك السّنن الخاطئة، و العادات الزّائفة، وكيف تحلّ الرذائل مكان الفضائل، هو دليلٌ و شاهدٌ آخر على أنّ الثّقافة تُعتبر من الدّواعى المهمّة لتفعيل عناصر الفضيلة، أو تقوية قوى الإنحراف و الرذيلة، فى واقع الإنسان، و بالتّالى فإنّ أوّل ما يتوجب على المصلحين، فى حركتهم الإصلاحية، هو إصلاح ثقافة المجتمع والسير بها فى خط العقل و الدّين. و نرى فى عصرنا الحاضر ثقافات زائفة، لا تتحرك بعيداً عمّا كان فى عهد الجاهليّة، حيث أضحت مصدراً لأنواع الرذائل الأخلاقيّة فى حركة الحياة الإجتماعية، و قد إنعقد فى السّنوات الأخيرة مؤتمراً عالمياً فى بكين عاصمة الصين، و شارك فيه أغلب دول العالم، ونادى فيه المشاركون بالعمل لتثبيت ثلاثة اصول، و أصرّوا عليها من موقع إحترام حقّ الإنسان وهى: ۱- حريّة العلاقات الجنسيّة للمرأة. ۲- الجنسيّة المثليّة. ۳- حرّية إسقاط الجنين. و قد واجهت هذه الامور معارضةً شديدةً من قبل بعض الدول الإسلامية، و منها الجمهورية الإسلامية. و من الطبيعى، عندما يُدافع نواب الدّول المتحضّرة عن مثل هذه الامور الشنيعة، تحت الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۶۶ ذريعة الدفاع عن حقوق المرأة، فأيّة ثقافةٍ سوف تظهر للوجود؟، و أيّة رذائل ستنتشر فى المجتمع؟، الرذائل التى لا تضرّ بالمسائل الأخلاقيّة للناس فحسب، بل و ستؤثر أيضاً على حياتهم الإجتماعيّة و الإقتصاديّة، من موقع إهتزاز المبادىء الإنسانيّة فى منظومة القيم. «الآية السابعة»: تستعرض علاقة الفضائل بثقافة المحيط والبيئة، فما وردنا من أحاديث عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، تبيّن مدى الرّقى الأخلاقى الذى حصل فى المجتمع المظلم آنذاك، نتيجة النّهضة الفكريّة و الأخلاقيّة التى جاء بها الإسلام إلى ذلك المجتمع، فيقول القرآن الكريم: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيَماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ». و عبارة: «فالذين معه»، لا تحصر هذه المعيّة فى زمانٍ خاصٍّ، و مكانٍ معيّنٍ، بل تمتد إلى المعيّة فى القيم الأخلاقيّة، و الأفكار الأنسانيّة، فكلّ من يقبل تلك الثّقافة الإلهيّة المحمديّة يكون من مصاديق الآية.

علاقة الآداب و السّنن بالأخلاق فى الرّوايات الإسلاميّة:

أعطى الإسلام أهميةً كبيرةً لهذه المسألة، ألا و هى، سنّ السنن الصّالحة، و الإبتعاد عن السنن السّيئة، و للمسألة إنعكاساتٌ و أصداءٌ كبيرةٌ فى الأحاديث الإسلامية، و يستفاد من مجموع تلك الأحاديث، أنّ الهدف هو سنّ العادات الصّالحة، كى تتهيّأ الأرضية اللّازمة للتحلّى بالأخلاق الحميدة، و إزالة الرذائل الأخلاقية من واقع النفس و السّلوك، ومنها: ۱- ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «خَمْسٌ لا أَدَعُهُنَّ حَتّى المَماتِ الأَكْلُ عَلَى الحضيضِ مَعَ العَبِيدِ ...، وحَلْبُ العَنزِ بِيَدى وَلَبْسُ الصُّوفِ وَالتَّسلْيمُ عَلَى الصِّبيانِ، لَتَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعدِى» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۶۷ و الهدف من كلّ ذلك، هو إيجاد روح التّواضع عند الناس من خلال الإقتداء بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فى حركة السّلوك الإجتماعى. ۲- و جاء فى حديثٍ آخر عنه صلى الله عليه و آله. أنّه قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عُمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ كانَ لَهُ أَجْرَهُ وَمِثْلَ اجُورِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ اجُورِهِمْ شَيئًا، ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيَّئَةً فَعُمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ كانَ عَلَيهِ وِزْرَهُ ومِثلَ أَوزارِهِم مِنْ غَيرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيئاً» «۱». و ورد فى بحارالأنوار نفس هذا المضمون. و نقل هذا الحديث بتعابير مختلفةٍ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الإمام الباقر و الإمام الصّادق عليهما السلام، و هو يُبيّن أهمية التّمهيد للأعمال الأخلاقيّة، و أنّ التّابع و المتبوع هما شريكان فى الثواب و العقاب، و الهداية و الضّلال. ۳- ولذلك أكّد الإمام على عليه السلام، على مالك الأشتر هذا المفهوم أيضاً، لحفظ السنن الصالحة، والوقوف فى وجه من يريد أن يكسر حرمتها، فيقول: «لا تَنْقُضْ سُنَّةً صالِحَةً عَمِلَ بِها صُدُورُ هذِهِ الامَّةِ و إجتَمَعَتْ بِها الالفَةُ وَصَلُحَتْ عَلَيها الرَّعِيَّةُ، ولا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشىءٍ مِنْ ماضِى تِلكَ السُّنَنِ فَيَكُونُ الأَجرُ لِمَنْ سَنَّها وَالوِزرُ عَلَيكَ بِما نَقَضْتْ مِنْها» «۲». و بما أنّ السّنن الحسنة تساعد على تعميق عناصر الخير، و نشر الفضائل الأخلاقيّة فى واقع المجتمع، فهى تدخل فى مصاديق الإعانة على الخير و نشر السّنن الحميدة، و أمّا إحياء السّنن القبيحة والرذائل الأخلاقية، فتدخل فى مصاديق الإعانة على الإثم والعدوان، و نعلم أنّ فاعل الخير و الدّال عليه شريكان فى الأجر، وكذلك

فاعل الشّر و الـدّال عليه شـريكان فى العقاب أيضاً، من دون أن يقل من ثواب العاملين، أو عقابهم شـيء. و السّـنة الحسـنة بدرجةٍ من الأهمية، بحيث قال الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، فى الرواية المعروفة فى الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۸ حقّ جدّه الكريم: «كَانَتْ لِعَبدِ المُطِّلبِ خَمساً مِنَ السُّنَنِ أجراها اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِى الإِسـلام: حِرَّمَ نَساءَ الآباءِ عَلَى الأبناءِ، وَ سَنَّ الدِّيَةَ فِى القَتْلِ مأَةٍ مِنَ الإبلَ، وَ كَانَ يَطُوفُ بِالبَيتِ سَبَعَةَ أَشواطٍ، وَ وَجَدَ كَنزاً فَأَخْرَجَ مِنْهُ الخُمسَ، وَسَمّى زَمزَمَ حِينَ حَفرَها سِقايَةَ الحاجِّ». ويستخلص من مجموع ما تقـدم أنّ الآداب و السّنن و العادات، لها معطياتٌ مهمّـةٌ، على مسـتوى إيجاد الفضائل أو تكريس الرّذائل على حـدّ سواء، ولـذلك أكّد عليها الإسـلام تأكيـداً شديـداً و جعل الثّواب لمن يسنّ السّـنن الصالحة، والعقاب لمن يسنّ السّـنن الرّذيلة، و إعتبرها من الذنوب الكبيرة.

۶- علاقة العمل بالأخلاق

اشارة

صحيـح أنّ أعمـال الإنسـان تتبع أخلاـقه الظاهريّـة و الباطنيّـة، بحيث يمكن القول أنّ الإنسان يتأثر فى سلوكه العملى، بأخلاقه الباطنية الكامنة فى عالم اللّاشـعور، ولكن من جهةٍ اخرى، يمكن لأعمال الشّخص أن تؤثر فى أخلاقه، من خلال صـياغة المضـمون للصّـفات الأخلاقيّـة فى واقع الإنسـان ومحتواه البـاطنى، ومعنـاه أنّ عمليّـة الممارسـة المسـتمرة، لعمـلٍ ما حسـناً كان أو قبيحاً، سـيؤثر فى نفسـيّة الإنسان، و يحوّل ذلك العمل إلى حالـةٍ باطنيّةٍ، و بالإسـتمرار يصـبح من ملكات الإنسان الأخلاقيّة الحسـنة، أو القبيحة، و بناءً عليه فإنّ من الطرق المؤثرة لتهـذيب النّفوس، هو تهـذيب الأعمال فى حركـة الواقع الخارجى، فمن مارس الأعمال القبيحة، فسوف تتحول على أثر التّكرار إلى ملكـةٍ سيّئةٍ فى أعمـاق روحه، و تكون السّـبب فى ظهور الرّذائـل الأخلاقيّـة فى دائرة السّـلوك والممارسـة. وبناءً على ذلك نرى التأكيد فى الرّوايات على أنّ يسـتغفر الناس بسـرعةٍ عند الخطأ، ويغسلوا تلك الآثار بماء التوبة، كى لا تخلّف آثارها السّلبية على القلب، وتتحول إلى ملكاتٍ أخلاقيّةٍ قبيحةٍ. و بعكسـها نجد التأكيد على تكرار الأعمال الصّالحة، بشـكلٍ مسـتمرٍ كى تصـبح عادةً عنـد الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۹ الإنسان، فى واقعه النفسـى والروحى. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، و نسـتعرض الآيات الشّـريفة التى تشـير إلى هذا المعنى: ۱- «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «۱». ۲- «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «۲». ۳- «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً» «۳». ۴- «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» «۴». ۵- «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» «۵». ۶- «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»» .۷- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» «۷».

تفسير و إستِنْتاجُ:

فى «الآيـة الاولى»: نجـد إشارةً إلى معطيات الذّنوب السّـلبية على قلب روح الإنسان، فهى تسـلب الصّـفاء و النّورانية منه، وتحلُّ الظّلمة مكـانه، فيقول اللَّه تعـالى فى القرآن الكريم: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». فجملـة: «مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، جاءت بصـيغة الفعل المضارع، الذى يدلّ على الإستمرار، الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۰ بمعنى أنّ الأعمال القبيحة، بإمكانها أن توجد تغييرات وتحولات كبيرة، فى قلب الإنسان وروحه، فهى كالصّـدأ الذى يحجب نورانيّة وصـفاء المرآة ويكدّرها. فالرّذيلة تُقسّـى القلب وتسـلبه الحَياء، فى مقابل الـذّنب، فيغلب عليه الشّـقاء و الظّلمة، أمّا «الرّين» على وزن «عين»، فهو الصّدأ يعلو على الأشـياء الثمينة، نتيجةً لرطوبة الجوّ، فيكوّن طبقـةً حمراء تُغطّى ذلـك الشّـىء، وهو علامـة على فسـاد ذلك الفِلِز. فإختيار هـذا التعبير هو إختيار مُناسب جـدّاً، حيث

أكـدت عليه الرّوايات الإسـلامية، مراراً و تكراراً، و بحثنا الآتى سيكون حول هـذا الموضوع. و فى «الآيـة الثانيـة»: تعدّت مرحلة الرّين وأشـارت إلى مرحلـة «التّزيين»، وبنـاءاً عليه فالتكرار لعملٍ ما، يبعث على تزيينه فى عين الإنسان و نظره، و تتوافق معه النفس الإنسانيـة، لدرجـةٍ يعتبره الإنسـان من المواهب و الإفتخـارات التى يتميز بهـا على الآخرين، فيقول اللّه تعـالى: «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فجملـة: «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، و كذلك «المسـرفين»، هى دليلٌ واضحٌ على تكرارِ الذّنب من قبلهم، فالتّكرار لها، لا يمحو قُبحها فقـط، بـل و بالتّدريـج سـتتحول الخطيئـة إلى فضـيلةٍ فى نظرهم، و هـذا يعنى فى الحقيقـة المسـخ لشخصـيّة الإنسـان، و هو من النتائج المشؤومـة لتكرار الـذّنوب. وهنـاك خلافٌ حول الفاعـل، الـذى يزيّن لهؤلاء الأفـراد أعمالهم القبيحـة ... فقـد ورد فى بعض الآيات الكريمة، إنتساب ذلك الفعل إلى البارى تعالى، و إعتبره كعقابٍ لهم، لأنّهم أصرّوا على الذّنوب، فالتّزيين هو إستدراج لهم، وليذوقوا وبـال أعمالهم فقال الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ» «۱». و فى الآية (۴۳) من سورة الأنعام، نسب ذلك الفعل للشّـيطان الرّجيم، فيقول عن الكفّـار الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۷۱ المعانـدين، الذين لا يحبون النّاصـحين: «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون». و مرةً اخرى نسب ذلك الفعل للأصنام، فيقول اللّه تعالى «وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ» «۱». و اخرى (وكمـا ورد فى الآيـة التى هى مورد بحثنـا الآن)، ورد بصورة الفعل المبنى للمجهول: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً». و بنظرةٍ فاحصـةٍ نرى، أنّ هذه التّعابير لا تتقاطع فيما بينها، بل أحدها يكمّل الآخر، فمرةً تكون الزّينة عاملًا على تكرار العمل، فالتّكرار يُقلّل من قبح العمل، و يصل إلى مرحلةٍ لا يحسّ معها بالذّنب، و بالإستمرار يحسُن فى نظر صاحبه، فيُقيّده و لا يستطيع التّحرر من ذلك الفخ، الـذى نُصب له، و هى حقيقـةٌ يمكن للإنسان أن يلمسـها، بالتّتبع و النّظر لحال المجرمين. و فى موارد اخرى، فإنّ الوساوس الشّـيطانية الخارجيّة، و الوساوس الباطنيّة النفسيّة، تزيّن للإنسان سوء عمله، و يصل الأمر به إلى إرتكاب الكبائر، بحجـة أنّه يؤدّى واجبه الـدّينى فيغتاب شـخصاً ما، بـدون ذنبٍ و هو يتصور أنّه على حقٍّ، ولكن الحسـد فى الواقع هو الـذى يدفعه الى ذلك، و التأريخ مليءٌ بمثل هذه الجنايات الفظيعة، فوساوس النّفس و الشّيطان لا تعمل على التّستر على قبح العمل فقط، بل تجعله من إفتخاراته. و ربّمـا يعـاقب البـارى تعالى، أشـخاصاً لعنادهم، و عـدم قبولهم النّصـحية، و لا يكون العقاب إلّا بتزيين سوء عمل الإنسان، لتشـتدّ عقوبته ويفتضـح أكثر فأكثر. و يجب التّنويه، إلى أنّه و طبقاً للتّوحيد الأفعالى، فإنّ كلّ عملٍ و أثرٍ موجودٍ فى هذا العالم، يمكن أن يُنسب إلى اللّه تعـالى، لأنّ ذاته المقدّسـة هى علّـةُ العلل، و لا يعنى هـذا الأمر أنّ الأفراد قـد اجبروا على أفعالهم، فالحمـد للّهالـذى جعل القوّة والقدرة على الفعل ومَنَحها لِعباده، واللعنة على الذين يسـتعملون تلك القوّة فى دائرة الشـر والذّنوب. و ربّما تقتضـى طبيعة الأشـياء، التّزيين والزخرفة، فنقرأ فى الآيه (۱۴) من سـورة آل عمران: الاخلاـق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۷۲ «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ...». وإحـدى العوامل لتزيين الأعمال القبيحـة فى نظر الشّـخص، التّكرار لها، فهو يُؤثر فى نفس و روح الإنسان، و يغيّر أخلاقه، و العكس صـحيحٌ، فإنّ تكرار الأعمال الحسنة يصبح ملكةً بالتدريج عند الإنسان، و يبـدّله إلى أخلاقٍ فاضـلةٍ، و لـذلك و لأجل تهـذيب النّفوس و نمو الفضائل الأخلاقيّـة، نوصـى السّالكين فى هـذا الطّريق، بالإسـتعانة بتكرار الأعمـال الصّالحـة، وأن يحـذروا من تكرار الأعمـال السـيئة، فالأوّل هو المعين الناصـح للإنسان، و الثانى عـدوّ غـدّار. و «الآيـة الثاالثـة»: تتحـدث عن تزيين سوء أعمـال الإنسـان أيضاً، فيقول تعالى: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً». فكما جاء فى تفسـير الآيـة السّابقـة: فإنّ من العوامل لتزيين سوء الأعمال هو التّكرار، و التّطبيع عليها، و التّدريـج يؤدّى إلى أن يفقد الإنسان، الإحساس بقُبحها، و سوف يولع بها ويفتخر أيضاً. و اللّطيف أنّ القرآن الكريم، عنـدما يسأل ذلك السّؤال، لا يـذكر النّقطـة المقابلـة لها، بصورةٍ مباشـرةٍ، و يفسـح المجـال للسّـامع، أن يتصور النّقطـة المقابلـة بنفسه، ويتفهمها أكثر، فهو يريـد أن يقول: هل أنّ هـذا الفرد، يتساوى مع من يميّز الحق من الباطـل فى حركـة الحياة؟، أو هل أنّ هؤلاء الأفراد، يشـبهون الأفراد من ذوى القلوب الطّاهرة، الـذين يعيشون حالـة الإهتمام بمحاسـبة أنفسهم، والبعد عن القبائح ...؟. و يجب الإنتباه، الى أنّ اللّه تعالى يقول، فى ذيل الآية مخاطباً رسوله الكريم: «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». و هو فى الحقيقة عقابٌ للّذين يفعلون القبائح،

فيجب أن تكون عاقبتهم كـذلك. وقـد جاء فى تفسير، «فى ظلال القرآن»: أنّ البارى تعالى إذا أراد أن يهـدى الإنسان للخير، «بسبب نيّته و عمله»، فيجد فى قلبه الحساسيّة و التّوجه الخاص لسوء الأعمال، فهو دائماً على حذرٍ من الشّيطان و الخطأ و الزّيغ ولا يأمن الإختبار، و ينتظر المَدد الإلهى دائماً، وهنا يكون الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۳ الفصل بين طريق الهداية والفلاح، وبين خطّ الضّلال و الهلاك «۱». و قد ورد، أنّ أحد أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، (او أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام)، قال: سألت الإمام عليه السلام ما هو العجب الذى يبطل عمل الإنسان؟ فقال عليه السلام: «العُجبُ دَرَجاتٌ مِنْها أنْ يُزَيَّنَ لِلعَبْدِ سُوءُ عَمَلِهِ فَيَراهُ حَسَناً فَيُعْجِبُهُ وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنعاً» «۲». و «الآية الرابعة»: تتحدث عن مَلِكة سَبأ، و عاقبتها والأخبار التى جاء بها الهدهد لسليمان عليه السلام، من تلك الأرض واولئك القوم: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ». فالشّمس مع نورها الوهّاج، و عظمتها و فائدتها؛ لكنّ طلوعها و غروبها، و إنحجابها بالغيوم، تبيّن أنّها هى بدورها أيضاً تابعة لقوانين الكون، و لا إرادة لها أبداً، و لا تستحق التقدير. ولكنّ الآباء علّمت الأبناء، و التربية الخاطئة و السُنّة الضّالة، و تكرار العمل، حَدَت بالنّاس لتصوّر القبيح فى صورةٍ حسنةٍ، و فى بعض البلدان، يعبدون البقر، و يؤدّون الطّقوس أمامها، و هو مدعاةٌ للسّخريّة و الضَّحِك، ولكنهم يفتخرون بذلك. و من العوامل المهمّة لذلك، هو التّكرار لذلك العمل الذى عوّد الإنسان على القبيح و جعله حسناً. و قد يُنسب هذا الفعل للشّيطان، ولكن فى الحقيقة، الشّيطان له وسائل متعدّدة للغواية، و منها التّكرار للقبيح و التعوّد عليه. «الآية الخامسة»: لها نفس المحتوى الوارد فى الآيات السابقة، ولكن بتعبيراتٍ جديدةٍ، حيث قال تعالى، مخاطباً رسوله الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً». الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۴ فالكلام عن المتضرّر الأوّل فى المعركة، و هو الذى يصرف عمره وفكره وطاقته فى الطّريق الغلط، و هو يحسب أنّه يُحسن صُنعاً، و هو فرحٌ و مسرورٌ و يفتخر بذلك. فلماذا يُبتلى الإنسان بهذه المصائب؟، ليس ذلك إلّالأنّه تعوّد على القبائح، و إتّباع هوى النّفس، و الأنانية و العجب، فتجعل الحُجب على قلبه وعقله، فلا يرى الحقيقة واضحةً صائبةً كما هى. و النتيجة لهذا الأمر، جاءت فى الآية التى بعدها فقال تعالى «اولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِم وَلِقائِهِ وَحَبِطَتْ أَعْمَالَهُمْ». و فسرت الروايات الإسلاميّة، هذه الآية بتفسيرٍ و تعبيراتٍ متعددةٍ، وكلٌّ منها هو فى الحقيقة مصداقٌ للآية، فبعضها فسّرت الآية بالمنكرين لولاية أميرالمؤمنين عليه السلام، و بعضها فسّرت الآية بالرّهبان المسيحيين، فهم الذين يتركون الدنيا بالكامل و لذائذها، وهم فى الحقيقة مخطئون، و يتحرّكون فى دائرة الفكر والعمل فى الطّريق المنحرف. و البعض الآخر من الروايات، ذكرت فى تفسيرها أنّهم أهل البدع من المسلمين؛ واخرى فسّروها، بخوارج النّهروان، وقال آخرون: أنّها نزلت فى أهل البدع من اليهود و النّصارى، فكلّ هؤلاء الأشخاص على خطأ و أعمالهم مليئةٌ بالإجرام و الظّلم، ولكنهم كانوا يحسبون أنّهم على صواب. و تجدر الإشارة إلى أنّ، جملة: «حبطت أعمالهم»، التى جاءت فى ذيل الآية، هى من مادة «حبط،» و من معانيها المعروفة هو البعير أو حيوان آخر، يأكل العلف بشراهةٍ، حتى العلف السّام والضار بحيث يؤدى إلى إنتفاخ بطنه، و قد يؤدّى به فى بعض الأحيان للموت، فالبعض يتصور أنّ ذلك هو دليل على قوته و قدرته، ولكنّ الحقيقة هى غير ذلك، بل هو المرض بعينه، أو مقدمةٌ لموته، ولكن الجهّال يعتبرونها من القوّة و القدرة. و قسمٌ من النّاس يبتلون بمثل هذه العاقبة، فيكون كلّ سعيهم و قوتهم لهلاك أنفسهم، و هم يتصورون أنّهم سلكوا طريق السّعادة و الرفاه. الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۵ «الآية السادسة»: تتناول مسألة قبول التّوبة من قبل اللّه تعالى، لمن تتوفر فيهم بعض الشّرائط: ۱- الّذين يعملون السّوء بجهالةٍ و لا يعرفون عواقب الذّنوب على نحو الحقيقة. ۲- الّذين تابوا بسرعةٍ من أعمالهم القبيحة، فاولئك الّذين تشملهم الرّحمة الإلهيّة، و يقبل اللّه تعالى توبتهم، فقال: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً». والمراد من كلمة «الجهالة»، التى وردت فى الآيه، ليس هو الجهل المطلق الذى يوجب العذر؛ لأنّ العمل فى حالات الجهل المطلق، لا يعتبر من الذنب، بل هو الجهل النّسبى الذى لا يعلم معه عواقب ومعطيات الذّنوب فى حركة الواقع والحياة. و أمّا جملة: «يتوبون من قريب»، فقال البعض أنّها قبل الموت، ولكن إطلاق كلمة «قريب»، على فترة ما قبل الموت، التى ربّما تستغرق (۵۰) سنة أو أكثر، لا

تكون مناسبة لهذا النوع من التّفسير، و إستدل مؤيّدوا هذه النظريّة، بروايات لا تشير إلى هذا التفسير، ولكنّها بيانٌ مستقلٌ و منفصلٌ عنه. و قال البعض الآخر، إنّها الزّمان القريب لإرتكاب الذّنب، حتى تمسح التوبة الآثار السّيئة للذنب فى روح و نفس الإنسان، و فى غير هذه الصّورة، فستبقى الآثار فى القلب، وهو ما يناسب كلمة القريب عُرفاً و لغةً. «الآية السابعة»: تناولت مسألة الزكاة ومعطياتها، فجاء الأمر للرّسول الكريم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً». و يتحدث القرآن الكريم عن الزّكاة، و بيان معطياتها الأخلاقيّة و المعنويّة، فى خطّ التربية، ويقول: «تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا». نعم، فإنّ دفع الزكاة يحدّ من الرّكون إلى الدنيا وزخارفها، ويقمع البخل فى واقع النفس الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۷۶ البشريّة، و يحث الإنسان على مراعاة حقوق الآخرين، و يغرس فيه حبّ السّخاء و الإنسانيّة. و علاوةً على ذلك، فإن دفع الزّكاة يقف بوجه المفاسد النّاشئة عن الفقر والحرمان، و بأداء تلك الفريضة الإلهيّة، نكون قد شاركنا فى إزالتها نهائياً، من واقع المجتمع، لذلك فإنّ الزّكاة تسهم فى رفع الرّذيلة والفقر فى حركة الإنسان والحياة، و تُحلّى الإنسان بالفضائل الأخلاقيّة، و هذا الأخير هو موضوع بحثنا، و هو دور العمل الصّالح و الطّالح، فى تحريك عناصر الخير و الشّر، و الفضائل و الرذائل الأخلاقية، فى واقع الإنسان و المجتمع. و جاء نفس هذا التعبير بشكلٍ آخر فى آية الحجاب فيقول تعال «إذا سَأَلْتُمُوُهُنَّ مَتاعاً فَاسأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجابِ ذَلِكُم أَطْهَرُ لَقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» «۱». فهذه الآية الشّريفة، تبيّن بوضوح أنّ التعفف فى العمل يبعث على طهارة ونظافة القلب، وبالعكس فإنّ الجرأة على إرتكاب المنكر و عدم الحياء، يلوّث روح و قلب الإنسان، و يعمّق فى نفسه الميل إلى الرذائل الأخلاقيّة.

النّتيجة:

كان الهدف من شرح الآيات الآنفة الذّكر، هو معرفة تأثير الأعمال فى الأخلاق، وبلورتها لروح الإنسان، فلأجل بناء الذّات وتهذيب النّفس، يتوجب مراقبة أعمالنا من موقع الحذر و الإنضباط و المسؤوليّة، لأنّ تكرار الذّنب والإثم يذهب بقبحه من جهة، ومن جهة اخرى يمنح الإنسان التعوّد عليه، وبالتدريج يصبح ذلك العمل ملكةً لديه، ولا يزعجه فقط، بل ويتحول إلى عنصر فخرٍ من إفتخاراته.

كيفيّة تأثير «العمل»، فى «الأخلاق» فى الرّوايات الإسلاميّة:

تعكس الأحاديث الإسلامية بوضوح، ما تقدّم من علاقة العمل بالأخلاق فى الآيات الكريمة، ذلك المطلب بوضوح، و من تلك الأحاديث: ۱- نقرأ فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ما مِنْ عَبْدٍ إلّاوَفِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيضاءٌ فَإذَا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ فى النُّكْتَةِ نِكْتَةٌ سَوداءٌ فَإنْ تابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوادُ، وإنْ تَمادَى فِى الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوادُ حَتَّى يُغَطِّى البَياضَ، فَإذَا غَطّى البَياضَ لَمْ يَرْجِعْ صاحِبُهُ إلَى خَيرٍ أَبَداً، وَهُوَ قَولُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: «بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «۱». فهذه الروايه، تُبيّن بوضوح، أنّ تراكم الذّنوب يُفضى إلى ظهور الرذائل فى سلوكيات الإنسان، و يدفعه بإتجاه الإبتعاد عن الفضائل، ممّا يورّث النّفس الإنسانيّة الغرق فى الظّلام الكامل، و عندها لا يجد الإنسان فرصةً للرجوع إلى طريق الخير، والإنفتاح على اللّه والإيمان. ۲- الوصيّة المعروفة عن أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام، حيث قال له: «إنَّ الخَيرَ عادَةٌ» «۲». و ورد نفس هذا المضمون، فى كنز العمّال، فى حديثٍ عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «الخَيرُ عادَةٌ والشَّرُ لَجاجَةٌ» «۳». و أيضاً نقل نفس هذا الحديث، و بشكل آخر، عن الإمام السجّاد عليه السلام، أنّه قال: «أُحِبُّ لِمَنْ عَوَّدَ مِنْكُم نَفْسَهُ عادَةً مِنَ الخَيرِ أنْ يَدُومَ عَلَيها» «۴». فيستفاد من هذه الروايات، أنّ تكرار العمل، سواء كان صالحاً أم طالحاً، يسبّب فى وجود حالة الخير أو الشر عند الإنسان، فإذا كان خيراً فسيشكل مبادىء الخير فى نفسه، و إن كان شرّاً فكذلك، و بكلمةٍ واحدةٍ هو التأثير المتقابل للأعمال، و الأخلاق فى حركة الحياة، و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۷۸ الواقع النّفسى للإنسان. ۳- ورد فى حديثٍ آخر، عن على عليه السلام فى وصيّته المعروفة، للإمام الحسن عليه السلام: «وَعَوُّدْ

نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى المَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الخُلُقُ التَّصَبُّرُ فى الحَقِّ» «۱» ویتبیّن هنا أیضاً، أنّ «العادة» هی ولیدة، التکرار، للعمل مع الصّبر علی صعوبات الحیاة، من موقع الحقّ و المسؤولیّة. ۴- ورد فی الرّوایات، التّعجیل بالتّوبة و عدم التّسویف، لئلّا تبقی آثار الذّنوب فاعلةً فی القلب، ممّا یؤدّی إلی تحولها إلی ملکةٍ أخلاقیّةٍ راسخةٍ فی النفس، فنقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الجواد علیه السلام، أنّه قال: «تَأْخِيرُ التَّوبَةِ إغتِرارٌ، وَطُولُ التَّسْوِيفِ حَيرَةٌ ... وَالإِصرارِ عَلَى الذَّنبِ آمْنٌ لِمَكْرِ اللَّهِ» «۲». و جاء فی النّبوی الشّریف حدیث آخر، لطیف عن التّوبة و تأثیرها الإیجابی، فی تلاشی الذّنوب من واقع النّفس، فقال: «مَنْ تابَ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ وَأُمِرَتْ جَوَارِحَهُ أنْ تَسْتُرَ عَلَيهِ، وَبِقاعُ الأرْضِ أنْ تَكْتُمَ عَلَيهِ وَأُنْسيَتِ الحَفَظَةُ ما كانَتْ تَكْتُبُ عَلَيهِ» «۳». فهذا الحدیث یبیّن أنّ التوبة، تغسل الذّنوب و تعید الصّفاء و القداسة الأخلاقیّة للإنسان. و جاء هذا المعنی بصورة أوضح، فی الحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «التَّوبَةُ تُطَهِّرُ القُلُوبَ وَتَغْسِلُ الذُّنُوبَ» «۴». فهذا الحدیث یبیّن أنّ الذنب یترک آثاره فی القلب، فی عملیّة تطبیع نفسی لعناصر المزاج، ولکن التّوبة تزیل هذه الآثار، و لا تفسح المجال لتشکّل تلک الأخلاق السلبیة، فی المحتوی الداخلی للفرد. و ورد فی التعبیر عن التّوبة بأنّها «طهور»، فی روایاتٍ عدیدةٍ، و هو یحکی عن علاقة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۹ الذّنب بظهور الحالات الباطنیّة القبیحة «۱». و ورد فی المناجاة: الخمسة عشر، المعروفة للإمام السجاد علیه السلام، فی القسم الأول منها، و هی مناجاة التّائبین: «وَ أَماتَ قَلْبِی عَظِيمَ جِنايَتِی فَأَحْيِهِ بِتَوبَةٍ مِنْكَ يا أَمَلِی وَبُغْيَتی» «۲». نعم! فإنّ الذّنب یکدّر القلب ویلوث النفس الإنسانیة، وبتکرار الذنب فإنّ القلب یذبل و یموت، ولکنّ التوبة بإمکانها، أن تعید النّشاط و الحیاة للقلوب، لتعیش جو الإیمان و الطُّهر. و بناءً علیه، فإنّه یتوجب علی السائرین إلی اللَّه تعالی، تحکیم دعائم الفضائل الأخلاقیّة، فی وجدانهم وسلوکیاتهم، و لینتبهوا لمعطیّات و تبعات أعمالهم الإیجابیّة و السّلبیة، فکلّ واحدٍ من تلک الأعمال سیؤثر فی القلب، فإنّ کان خیراً فخَیر، و إن کان شَرّاً فشرّ.

۷- علاقة «الأخلاق» و «التّغذیة»

اشارة

ربّما سیتعجب البعض من هذا العنوان، و ما هی علاقة الأخلاق والروحیّات والملکات النّفسیة بالغذاء، فالأولی للرّوح و الثّانیة للجسم، ولکن بالنّظر للعلاقة الوثیقة، بین الجسم والروح فی حرکة الحیاة و الواقع، فلن یبقی مجالًا للتعجب، فکثیراً ما تسبّب الأزمات الرّوحیة فی الإصابة بأمراضٍ جسدیّةٍ، تضعف جسم الإنسان و تشل عناصر القوّة فیه، فیبیض الشّعر، و تظلم العین، وتخور القوی عند الإنسان والعکس صحیح أیضاً، فإنّ الفرح و حالات الرّاحة التی یمرّ بها الإنسان، تنمی جسمه و تقوّی فکره، و قدیماً توجّه العلماء لتأثیر الغذاء علی روحیّة الإنسان وسلوکه المعنوی، و تغلغَلت هذه المسألة فی ثقافات الناس، علی مستوی الموروث الفکری والوعی الاجتماعی، فمثلًا شِرب الدّم یبعث علی قساوة القلب، والعقیدة السّائدة هی أنّ العقل السّلیم فی الجسم السّلیم. ولدینا آیاتٌ و روایات تشیر إلی هذا المعنی، و منها الآیة (۴۱) من سورة المائدة، فقد الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۰ أشارت إلی فئةٍ من الیهود الذین مارسوا أنواعاً کثیرةً من الجرائم بحقّ الإسلام و المسلمین من قبیل التّجسس و تحریف الحقائق الواردة فی الکتب السّماویّة، فقال الباری تعالی: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ». و یعقّب مباشرةً قائلًا: «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ». و هذا التعبیر یبیّن أنّ عدم طهارة قلوبهم، إنّما کان نتیجة لأعمالهم، الّتی منها تکذیب الرّسول والآیات الإلهیّة، وأکلهم للحرام بصورةٍ دائمةٍ، ومن البعید فی خطّ البّلاغة و الفصاحة، أن یأتی بأوصاف لا علاقة لها بجملة: «لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ». و منها یعلم أنّ أکل السّحت یسوّد القلب و یُمیته، و یکون سبباً لنفوذ عناصر الرّذیلة، و الزیغ، و الإبتعاد عن الخیر والفضائل. وفی الآیة (۹۱) من سورة المائدة، ورد الحدیث عن شرب الخمر ولعب القمار، فقال عزّ من قائل: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ». و لا شک فإنّ العداوة و البغضاء، هی من الحالات الباطنیّة، التی ترتبط برابطةٍ وثیقةٍ مع شرب الخمر ولعب القمار، کما ورد فی الآیة الشریفة، وهو

دلیل علی أنّ أکل السّحت و الشّراب الحرام یساعد علی بروز الرذائل الأخلاقیة، و تکریس حالات العداء والخصومة بین الأفراد، فی خط الشیطان. ونقرأ فی الآیة (۵۱) من سورة المؤمنون، قوله تعالی: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً». ویعتقد بعض المفسّرین أنّ تقارن ذکر هذین الأمرین: وهما «أکل الطّیبات و العمل الصالح»، هو خیر دلیلٍ علی وثاقة العلاقة بینهما، و هی إشارةٌ إلی أنّ إختلاف و تنوّع الأکلات و الأطعمة، له معطیات أخلاقیة مختلفة و متنوّعة أیضاً، فأکل الطیّبات، یطیّب الرّوح و یصلح العمل، وبالعکس فإنّ الأکل الحرام یُظلم الرّوح، و یخبّث العمل «۱». و قد إستدلّ فی تفسیر «روح البیان»، وبعد إشارته لعلاقة العمل الصّالح بأکل الطیّبات، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۱ بالأشعار التالیة: و أشار فی تفسیر: «الإثنی عشری»، فی ذیل هذه الآیة، إلی علاقة نورانیّة القلب و صفائه، و الأعمال الصّالحة بأکل الحلال «۱».

علاقة التّغذیة بالأخلاق فی الرّوایات الإسلامیّة:

هذه العلاقة لم ترد فی الآیات القرآنیة بصورةٍ واضحة، ولا یوجد لها سوی إشاراتٌ خفیفةٌ، ولکن هذا الأمر: «علاقة التّغذیة بالأخلاق»، له صدی واسع فی الرّوایات، و نورد منها: ۱- نقرأ فی الرّوایات الواردة، أنّ من شروط إستجابة الدّعاء هو الإمتناع عن أکل الحرام، حیث جاء شخص إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، و قال له: احِبُّ أنْ یُستَجاب دُعائِی، فقال له رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «طَهِّرْ مَأكَلَكَ وَلا تَدْخُلْ بَطْنَكَ الحَرامَ» «۲». و جاء فی حدیثٍ آخر عنه صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُستَجابَ دُعاءَهُ فَلْيُطَيِّبْ مَطْعَمَهُ وَمَكْسَبَهُ» «۳». و نقرأ فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، أنّه قال: «أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعاءً بِظَهْرِ قَلبٍ قاسٍ» «۴». و یستنتج من ذلک، أنّ الأکل الحرام یُقسّی القلب، و لأجله لا یستجاب دعاء آکلی الحرام، و تتوضح العلاقة الوثیقة بین خبث الباطن و أکل الحرام، فی ما ورد عن الإمام الحسین علیه السلام، فی حدیثه المعروف فی یوم عاشوراء، ذلک الحدیث الملیء بالمعانی البلیغة، أمام اولئک القوم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۲ المعاندین للحقّ من أهل الکوفة، فعندما آیس من تحولهم إلی دائرة الحقّ و الإیمان، و إستیقن أنّهم لن یستجیبوا له فی خط الرسالة قال لهم: إنّکم لا تسمعون إلی الحق لأنّه قد: «مُلِئَتْ بُطُونُكُم مِنَ الحَرامِ فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِكُم» «۱». ۲- و یبیّن حدیث آخر، علاقة الأکل الحرام بعدم قبول الصّلاة و الصّیام و العبادة، و منها ما ورد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «مَنْ أَكَلَ لُقْمَةَ حَرامٍ لَنْ تُقْبَلَ لَهُ صلاةُ أَرْبَعِينَ لَيلَةً، وَلَمْ تُسْتَجَبْ لَهُ دَعوَةُ أَرْبَعِينَ صَباحاً، وَكُلُّ لَحْمٍ يُنْبِتُهُ الحَرامُ فَالنّارُ أَولَى بِهِ، وَإِنَّ اللُّقْمَةَ الواحِدَةَ تُنْبِتُ اللَّحْمَ» «۲». و من الطبیعی فإنّ قبول الصّلاة له شروطٌ عدیدةٌ، و منها: حضور القلب وطهارته من الدّرن و الغفلة، والحرام یسلب منه تلک الطّهارة و الصّفاء، و یخرجه من أجواء النّور و الإیمان. ۳- نقل عن الرسول الأکرام صلی الله علیه و آله، و الأئمّة علیهم السلام، أنّ: «مَنْ تَرَكَ اللَّحْمَ أَرْبَعِينَ صَباحاً ساءَ خُلُقُهُ» «۳». و هذا الحدیث یبیّن نصیحة طبیّةً مهمّةً، و هی أنّ الإنسان إذا ترک أکل اللّحم، لمدّة طویلة، فسیورثه سوء الخلق و الإنقباض فی النّفس، فی دائرة التّفاعل مع الآخرین، و ورد فی مقابله العکس أیضاً، وهو ذمّ الإفراط فی تناول اللّحم والإکثار منه، فإنّ من شأنه أن یورثه نفس الأعراض والأمراض الخُلقیة. ۴- و قد ورد فی کتاب: «الأطعمة والأشربة»، روایات ذکرت العلاقة بین الأطعمة والأخلاق الحسنة والسیئة ومنها: ما ورد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «عَلَيكُم بِالزَّيتِ فإنّهُ يَكْشِفُ المُرَّةَ ... وَيُحَسِّنُ الخُلُقَ» «۴». ۵- فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَقِلَّ غَيْظَهُ فَلْيَأكُلْ لَحمَ الدُّراجِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۳ وهذا الحدیث یبیّن بصورة جیدة علاقة الغذاء بالغضب والصّبر. ۶- فی روایةٍ مفصّلة وردت فی تفسیر العیاشی، نقلها عن الإمام الصّادق علیه السلام، حیث سئل عن علّة تحریم الدم، فقال علیه السلام: «وَأَمَّا الدَّمُ فَإِنَّهُ يُورِثُ الكَلَبَ وَقَسْوَةَ القَلبِ وَقِلَّةَ الرَّأفَةِ وَالرَّحمَةِ لا يُؤمِنُ أَنْ يَقْتُلَ وَلَدَهُ وَ والِدَهُ». و فی القسم الآخر من نفس الروایة، قال علیه السلام: «وَ أَمَّا الخَمْرُ فإنَّه حَرَّمَها لِفِعْلِها وَفَسادِها وَ قَالَ إنَّ مُدْمِنَ الخَمْرِ كَعابِدِ الوَثَنِ، وَ يُورِثُ إرتِعاشَاً وَيُذْهِبَ بِنُورِهِ وَيَهْدِمَ مُرُوَّتَهُ» «۱». ۷- ونقل فی الکافی روایات متعددة، عن العنب وعلاقته بإزالة الغم، ومنها ما روی عن الإمام الصادق علیه السلام، أنّه قال: «شَكى نَبِيٌّ مِنَ الأنبياءِإلى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الغَمَّ فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَكْلِ العِنَبِ» «۲».

فنلاحظ تأکیداً أشدّ علی علاقة التغذیة بالمسائل الأخلاقیة، التی تعکس الحالة النفسیة للفرد. ۸- الأحادیث التی وردت فی أکل الرمان کثیرة، و أنّها تنوّر القلب وتدفع وساوس الشیطان، فجاء عن الإمام الصّادق علیه السلام: «مَنْ أَکَلَ رُمّانَةً عَلَی الرِّیقِ أَنارَتْ قَلْبَهُ أَرْبَعِینَ یَوماً» «۳». ۹- وَردت روایات متعددة فی باب «الأکل»، نری فیها العلاقة المطّردة بین التغذیة و المسائل الأخلاقیّة، فی دائرةالصّفات و الحالات النفسیة، و منها الحدیث الوارد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، فی وصیته لجعفر بن أبی طالب رضی الله عنه، فقال له: «یا جَعْفِرُ کُلِ السَّفَرجَلَ فَإِنَّهُ یُقَوی القَلْبَ وَیُشْجِعُ الجَبَانَ» «۴». ۱۰- و نقل عن الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله، حدیث یروی علاقة فضول الطعام بقساوة القلب، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۴ فنقل عنه صلی الله علیه و آله فی کتاب «أعلام الدّین»: «إِیّاکُم وَفُضُولَ المَطْعَم فَإِنَّهُ یَسِمُ القَلْبَ بِالقَسوَةِ وَیُبْطِیء بِالجَوارِحِ عَنِ الطّاعَةِ وَیَصُمُّ الهِمَمَ عَنْ سِماعِ المَوعِظَةِ». «فضول الطعام»: یمکن أن تکون إشارةً لإدخال الطعام علی الطعام، و الأکل الزّائد عن الحاجة، أو أنّها تدل علی تناول الطّعام المتبقی من الوجبات السّابقة، أی بقایا الطعام الفاسد، و علی أیّة حال، فإنّ الحدیث یدل علی علاقة التّغذیة بالمسائل الأخلاقیة، التی تُؤطّر سلوک الإنسان فی حرکة الحیاة. وورد هذا المعنی أیضاً فی بحار الأنوار الذی نقل الحدیث عن رواة أهل السنة، و نقلوه أیضاً عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله «۱». ویستفاد من هذا الحدیث ثلاثة امور: ۱- إنّ الأکل الزائد یُقسّی القلب. ۲- ویقعد الإنسان عن العبادة فی دائرة الکسل والإسترخاء. ۳- یُصمّ آذانه فی مقابل الوعظ، فلا تؤثر فیه النّصیحة والموعظة فی خطّ التربیة، و هذا الأمر ملموس فعلًا، فإنّ الإنسان یثقل عند الأکل الکثیر، و لا یکاد أن یؤدّی عبادته من موقع الشّوق و الرّغبة، و لا یبقی لدیه نشاط فی خطّ العِبادة، و بالعکس فی حالة ما إذا تناول طَعاماً خفیفاً، فسیکون دائماً علی نشاطٍ فی حرکة الإیمان، و یؤدّی عباداته و وظائفه فی وقتها المعین لها. و کذلک بالنّسبة للصّیام، فهو یرقّق القلب ویهییء الإنسان لقبول المواعظ، و بالعکس عندما یکون الإنسان ملیء البطن، فإنّه لا یکاد یفکر فی شیءٍ من عوالم الغیب، و لا یعیش فی أجواء المَلکوت. ۱۱- و قد بیّنت الأحادیث الشریفة أیضاً، علاقة العسل بصفاء القلب، فنقل عن أمیر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۵ المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «العَسَلُ شِفَاءٌ مِنْ کُلِّ داءٍ وَلا داءَ فِیهِ یُقِلُّ البَلْغِمَ وَیُجَلّی القَلْبَ»».

النّتیجة:

تبیّن ممّا ذکر آنفاً، العلاقة الوثیقة بین الغذاء و الروحیّات و الأخلاق، و نحن لا ندّعی أبداً أنّ الأکل والغذاء هو العلّة التّامة لبلورة الأخلاق، ولکنّه یمثل عاملًا مُساعداً فی ذلک، بحلاله و حَرامه، و أنواعه. و یقول علماء العصر الحاضر، أنّ السّلوکیات الأخلاقیة عند الإنسان، تنطلق من خلال ترشّح بعض الهرمونات من الغدد الموجودة فی جسم الإنسان، و الغُدد بدورها، تتأثر مباشرةً بما یأکله الإنسان، وعلی هذا الأساس، فإنّ لحومَ، الحیوانات تحمل نفس الصّفات النفسیّة الموجودة فی الحیوان، فالضّواری تفعّل فِعْلَ عناصر التّوحش فی الإنسان، و الخنزیر یذهب بالغیرة عند الإنسان، و هکذا فإنّ لحم أیّ حیوان، یخلف بصماته علی روح آکله مباشرةً، و ینقل إلیه صفاته. هذا من الناحیة المادیّة الطبیعیّة، وأمّا من الناحیّة المعنویّة، فإنّ أکل الحرام یُظلم الروح و القلب، و یُضعف الفضائل الأخلاقیّة کما تقدم. و أخیراً نختم هذا البحث، بنقل قصّةٍ تاریخیةٍ نقلها المسعودی فی مروجه، فقال: نقل عن الفضل بن الرّبیع أنّ «شریک بن عبداللَّه»، دخل یوماً علی «المهدی»، الخلیفة العبّاسی فی وقتها فقال له المهدی العباسی: «أی شریک»، أعرض علیک ثلاثة امور، علیک أن تختار إحداها، فقال ما هی؟، فقال له: إمّا أن تقبل منصب القضاء، أو أن تعلّم إبنی، أو تأکل معنا علی مائدتنا، ففکّر شریک قلیلًا، وقال إنّ الأخیرة أسهلها، فحجزه المهدی، وقال لطبّاخه، حضّر له أنواعاً من أطباق أمخاخ الحیوانات، المخلوطة بالسّکر و العسل. فعندما أکلَ شریک من ذلک الطعام اللّذیذ، «و طبعاً الحرام»، قال الطبّاخ للمهدی، إنّ هذا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۶ الشّیخ لن یُفلح أبداً بعد هذا الطّعام، فقال الرّبیع: وفعلًا قد صدقت نبوءة الطبّاخ، فإنّ شریک بعدها قبل منصب القضاء، و علّم أبناء المهدی أیضاً «۱».

الصفات و الأعمال الأخلاقیّة:

من المعلوم أنّ کلّ فعلٍ یفعله الإنسان له أصلٌ و أساس فی باطنه و محتواه الدّاخلی، أو بعبارةٍ اخری، إنّ الأعمال هی مرآة باطن الإنسان، فإحداهما بمنزلة الجذر، و الاخری بمنزلة السّاق و الأوراق و الثّمر. و بناءً علیه: فإنّ الأعمال الأخلاقیّة، لا تنفک عن الصّفات الأخلاقیّة، فمثلًا النّفاق، له جذوره فی روح الإنسان، و یحکی عن إزدواجیّة ذلک الشّخص، و عدم توحیده فی دائرة الإیمان، فهذه الصّفة الباطنیّة تحثّ الإنسان علی سلوک طریق النّفاق و الرّیاء مع الغیر. الحسد أیضاً من الصّفات الباطنیّة السلبیّة، حیث یتمنی معه الشّخص الحاسد، زوال النّعم التی أعطاها الباری تعالی لغیره، و تتجلی هذه الصّفة الذّمیمة فی أعماله و أفعاله، التی یرید بها التّصدی لسعادةِ ذلک المحَسود من موقع العداوة والخصومة. الکِبَر و الغُرور، هی صفاتٌ باطنیّة کذلک، نشأت من جهل الإنسان لقدره و مقامه، و هی ناشئةٌ من عدم تحمل الإنسان لثقل المواهب الإلهیّة، التی یُعطیها الباری له، و یتبیّن هذا الأمر من تصرفاته، و عدم إعتنائه بالغیر، و بذاءة لسانه وتحقیره للآخرین. و رُبّما، ولأجل ذلک لم یفرق علماء الأخلاق بین هذین الإثنین فی کتبهم الأخلاقیّة، فمرّةً یعرّجون علی الصّفات الداخلیة للإنسان، واخری یتطرّقون للأعمال الخارجیّة، التی تستمد مقوّماتها من عالم الصّفات الباطنیّة، فیطلق علی الأول: «الصّفات الأخلاقیة»، و علی الثانی: «الأعمال الأخلاقیّة». و طبعاً الأعمال الأخلاقیة، هی موضوع المباحث الفقهیّة لدی الفُقهاء، ولکن و مع ذلک، فإنّ علماء الأخلاق قد تناولوها بالبحث فی دائرة السّلوک الأخلاقی للفرد، ومن الطّبیعی فإنّ نظرة عالِم الأخلاق، تختلف عن نظرة الفقیه، فالفقیه یبحث المسألة فی إطار الأحکام الخمسة: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۷ (الحُرمة، الوُجوب، و الإستحباب، و الکراهة، و الإباحة)، و لربّما تطرّق للثواب و العقاب، للأعمال فی نطاق الحیاة الآخرة، ولکن عالِم الأخلاق ینظر إلیها من منظار کمال الرّوح و النّفس، أو إنحطاطها وتسافلها فی خطّ الإنحراف، وبهذا یتبیّن الفرق بین الصّفات و الأفعال الأخلاقیة، ویتمّ من خلالها تمییز نظر الفقیه عن نظر عالِم الأخلاق. ۱۲

الخُطی العملیّة فی طریق التّهذیب الأخلاقی

اشارة

نتطرّق فی هذا الفصل للعوامل الّتی تساعد علی تربیة، و نمو «الفضائل الأخلاقیّة»، و تقرّب الإنسان من اللَّه تعالی خطوةً خطوة، و هذا البحث، غایة الأهمیّة فی علم الأخلاق، و یتناول اموراً عدیدة:

الخطوة الاولی: التّوبة

اشارة

یقول کثیر من علماء الأخلاق، إنّ الخطوة الاولی لتهذیب الأخلاق و السّیر إلی اللَّه، هی «التّوبة»، التّوبة التی تمحو الذّنوب من القلب وتبیّض صفحته وتجعله یتحرک فی دائرة النور، و تنقله من دائرة الظّلمة، و تخفف ثقل الذّنوب من خزینه النّفسانی، و رصیده الباطنی، و تمهّد الطّریق للسّیر و السّلوک إلی اللَّه تعالی، فی خط الإیمان و تهذیب النّفس. یقول المرحوم: «الفیض الکاشانی»، فی بدایة الجزء السابع من کتابه: «المحجّة البیضاء»، الذی هو فی الواقع، بدایة الأبحاث الأخلاقیّة: (فإنّ التّوبة من الذنوب، و الرّجوع إلی ستار العُیوب و علّام الغیوب، مبدأ طریق السّالکین، و رأس مال الفائزین، و أوّل إقدام المریدین، و مفتاح إستقامة المائلین و مطلع الإصطفاء و الاجتباء للمقرّبین!). الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۰ و بعدها یشیر إلی حقیقةٍ مهمّةٍ، و هی أنّ أغلب بنی آدم یتورطون غالباً

بالمعاصی، و یشیر إلی معصیهٔ آدم: (التی هی فی الواقع، من ترک الأولی)، و توبته منها، ویقول: «وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمی و إجترم، فهی شنشنهٌ یعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه، فما ظَلم، ولکنّ الأب إذا جبر بعد کسر، و عمّر بعد أن هدم، فلیکن النزوع إلیه فی کلا طرفی، النّفی و الإثبات و الوجود والعدم، ولقد قلع آدم سنّ النّدم، و تندّم علی ما سبق منه و تقدّم، فمن إتّخذه قدوهً فی الذنب دون التّوبهٔ فقد زلّت به القدم، بل التجرد لمحض الخیر دأب الملائکهٔ المقرّبین، والتجرُّد للشرّ دون التّلافی، سجیّهٔ الشّیاطین، و الرّجوع إلی الخیر بعد الوقوع فی الشرّ ضرورهٔ الآدمیین، فالمتجرّد للخیر ملک مقرّب، عند الملک الدّیان، والمتجرّد للشرّ شیطان، والمتلافی للشرّ بالرجوع إلی الخیر بالحقیقهٔ إنسان. والمصرّ علی الطّغیان، مسجّل علی نفسه بنسب الشّیطان، فأمّا تصحیح النّسب بالتجرّد لمحض الخیر إلی الملائکهٔ، فخارج عن حیّز الإمکان، فإنّ الشرّ معجون مع الخیر، فی طینهٔ آدم، عجناً محکماً لا یخلّصه إلّا إلی إحدی النارین: نار الندم أو نار جهنم» «۱». أو بعبارهٔ اخری: أنّ الإنسان غالباً ما یُخطیء، و خصوصاً فی بدایهٔ سیره إلی اللَّه تعالی، فإذا ما وجد أنّ أبواب العودهٔ موصدهٌ فی وجهه، فسیورثه الیأس الکامل، و یبقی یُرواح فی مکانه، ولذلک فإنّ التّوبهٔ تعتبر من الاصول المهمّهٔ فی الإسلام، فهی تدعو کلَّ المذنبین إلی العمل لإصلاح أنفسهم، و الدّخول فی دائرهٔ الرّحمهٔ الإلهیّهٔ، و السّعی لجبران ما مضی. و قد بیّن الإمام السّجاد علیه السلام، فی مناجاته: «مناجاهٔ التائبین» أفضل وأحلی صورهٔ لها، فقال: «إلهی أَنْتَ الّذِی فَتَحْتَ لِعبادِکَ باباً إلی عَفْوِکَ سَمَّیْتَهُ التَّوبَهَ فَقُلْتَ تُوبُوا إلی اللَّهِ تَوبَهً نَصُوحاً، فَما عُذْرُ مِنْ أَغْفَلَ دُخُولَ البابِ بَعْدَ فَتْحِهِ» «۲». و الجدیر بالذکر أنّ الباری تعالی یحبّ التّائبین، لأنّ التّوبهٔ تعتبر الخطوهٔ الاولی لکی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۱ یعیش الإنسان فی أجواء السّعادهٔ و الحیاهٔ الکریمهٔ. وقد ورد عن الإمام الباقر علیه السلام: «إنّ اللَّهَ تَعالی أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَهِٔ عَبْدِهِ، مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ راحِلَتَهُ وَ زادَهُ، فِی لَیلَهٍٔ ظَلْماءَ فَوَجَدها» «۱». فهذا الحدیث مزج بکنایات خاصهٔ وعبارات جذابهٔ، لیبیّن أنّ التّوبهٔ فی الواقع، الزّاد و الرّاحلهٔ لعبور الإنسان من وادی الظّلمات، لیصل إلی معدن النّور و الرّحمهٔ، و یعیش حالات الکرامهٔ فی الصفات الإنسانیّهٔ. و علی أیّهٔ حال، فإنّ ما یطرح فی مبحث التّوبهٔ امورٌ عدیدهٌ، أهمّها هی: ۱- حقیقهٔ التّوبهٔ. ۲- وجوب التّوبهٔ. ۳- عمومیهٔ التّوبهٔ. ۴- أرکان التّوبهٔ. ۵- قبول التّوبهٔ، هل عقلی أو نقلی؟ ۶- تقسیم التّوبهٔ وتجزئتها. ۷- دوام التّوبهٔ. ۸- مراتب التّوبهٔ. ۹- معطیات و برکات التّوبهٔ.

۱- حقیقهٔ التّوبهٔ

«التوبهٔ» فی الأصل، هی الرجوع عن الذّنب «هذا إذا ما نسبت للمذنبین»، ولکن الآیات القرآنیهٔ و الرّوایات نسبتها إلی الباری تعالی، وعلیه فیصبح معناها: الرجوع إلی الرّحمهٔ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۲ الإلهیّهٔ، تلک الرحمهٔ التی سُلبت من الإنسان إثر إرتکابه للمعصیهٔ و الذّنب، فبعد عودته لموقع العبودیهٔ و العبادهٔ، تمتد إلیه الرّحمهٔ الإلهیّهٔ من جدید، و بناءاً علی ذلک فإنّ أحد أسماء الباری تعالی، هو (التواب). و «التّوبهٔ» فی الحقیقهٔ: هی مشترک لفظی أو معنوی بین اللَّه وعباده، (ولکن إذا ما نُسبت للعبد، تتعدی بکلمهٔ «إلی»، وإذا ما نُسبت للباری تعالی، فهی تتعدی بکلمهٔ «علی») «۱». و ورد فی «المحجّهٔ البیضاء»، عن حقیقهٔ التّوبهٔ فقال: «إعلم أنّ التّوبهٔ عبارهٌ عن معنی ینتظم و یلتئم، من ثلاثهٔ امورٍ مرتّبهٍ: علم وحال و فعل، فالعلم أوّل والحال ثان و الفعل ثالث، أمّا العلم فهو معرفهٔ عِظم ضرر الذنوب، و کونها حجاباً بین العبد و بین کلّ محبوب، فإذا عرفت ذلک معرفهً محقّقهً بیقینٍ غالب علی قلبه، ثار من هذه المعرفهٔ، تألّمٌ للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، فإن کان فواته بفعله تأسّف علی الفعل المفوّت، فیسمّی تألّمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم علی القلب و إستولی؛ إنبعث من هذا الألم فی القلب، حالهً اخریً تسمّی إرادهً و قصداً إلی فعلٍ له تعلّق بالحال و بالماضی و الإستقبال. فثمر نور هذا الإیمان مهما أشرق علی القلب، نار الندم فیتألّم به القلب، حیث یبصر بإشراق نور الإیمان أن صار محجوباً عن محبوبه» «۲». و هو الشّیء الذی یدعوه البعض: بالثّورهٔ الروحیّهٔ و النفسیّهٔ، و یعتبرون التّوبهٔ نوعاً من الإنقلاب الرّوحی، فی باطن الإنسان علی کلّ شیء، وتحثّه هذه الحالهٔ علی إتخاذ موقف جدید، حیال أعماله وبرامجه الآتیهٔ، من موقع الوضوح فی الرّؤیهٔ لعناصر الخیر و الشرّ.

۲- وجوب التّوبة

إتّفق علماء الإسلام على وجوب التّوبة، و كذلك فإنّ القرآن قد صرّح بها فى الآية (۸) الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۹۳ من سورة التّحريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». إنّ كلّ الأنبياء عندما يتقلدّون أعباء الرّسالة، فأوّل شىء يدعون إليه هو التّوبة، لأنّه بدون التّوبة و تنقية القلب، لا يوجد مكان للتّوحيد والفضائل فى أجواء النّفس و واقع الإنسان. فالنّبى هود عليه السلام، أوّل ما دعى قومه: إلى التّوبة و الإستغفار، فقال تعالى «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» «۱» و كذلك النّبى صالح عليه السلام، جعل التّوبة أساساً لعمله و دعوته، فقال تعالى «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» «۲». ثم النّبىّ شعيب عليه السلام، الذى تحرك فى دعوته من هذا المنطلق، فقال تعالى «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ» «۳». و دعمت الروايات ذلك الأمر، و أكّدت على وجوب التّوبة الفوريّة، ومنها: ۱- وصية الإمام على عليه السلام لإبنه الإمام الحسن عليه السلام: «وَإِنْ قَارَفْتَ سَيِّئَةً فَعَجِّلْ مَحوَها بِالتَّوبَةِ» «۴». طبعاً حاشا للإمام أن يقترف الذّنوب، ولكن قصد الإمام على عليه السلام هنا، تنبيه الآخرين إلى هذا المعنى. ۲- قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، لإبن مسعود: «يابنَ مَسْعُودَ لا تُقَدِّمِ الذَّنْبَ وَلا تُؤَخِرِ التَّوبَةَ، وَلَكِنْ قَدِّمِ التَّوبَةَ وَأَخِّرِ الذَّنْبَ» «۵». ۳- وفى حديثٍ آخر، قال الإمام على عليه السلام: «مُسَوِّفُ نَفْسِهِ بِالتَّوبَةِ مِنْ هُجُومِ الأَجِلَ عَلَى أعْظَمِ الخَطَرِ». «۶» الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۹۴ ۴- وقال الإمام الرضا عليه السلام نقلًا عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «لَيسَ شَىءٌ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُؤمِنٍ تائِبٍ أو مُؤمِنَةٍ تائِبَةٍ» «۱». و يمكن أن يكون هذا الحديث دليلًا على وجوب التّوبة، لأنّها أحبّ الأشياء إلى اللَّه تعالى فى دائرة السّلوك البشرى. مضافاً إلى ذلك، هناك دليلٌ عقلى على وجوب التّوبة، وهو أنّ العقل يحكم، بوجوب دفع الضّرر المحتمل أو المتيقن، و تحضير وسائل للنجاة من العذاب الإلهى، و بما أنّ التّوبة هى أفضل وسيلةٍ للنجاة من العذاب، فلذلك يحكم العقل السليم بوجوبها، فالعاصين أنّى لهم الخلاص، من العذاب الدّنيوى والاخروى، و لمّا يتوبوا بعد؟! نعم، فإنّ التّوبة واجبةٌ، بدليل القرآن و الرّوايات و العقل، إضافةً إلى قبول المسلمين لها أجمع، وبناءً عليه فإنّ الأدلّة الأربعة تحكم بوجوب التّوبة، و وجوبها فورى، و قد تطرق علم الاصول لهذا الأمر، على أساس أنّ الأوامر كلّها ظاهرةٌ فى الوجوب ما لم يثبت العكس.

۳- عموميّة التوبة

لا تختص التّوبة بذنبٍ من الذنوب، أو شخص من الأشخاص، ولا تتحدّد بزمانٍ و لا مكانٍ و لا عمرٍ محدد. و عليه فإنّ التّوبة تشمل جميع الذّنوب و تستوعب كلّ فردٍ فى أى مكانٍ أو زمانٍ كان، وإذا ما إحتوت على كلّ الشّروط، فستُقبل من قبل البارى تعالى، والإستثناء الوحيد الذى لا تُقبل فيه التّوبة، والذى أشار إلى القرآن الكريم، هو: التّوبة عند حضور الموت، أو نزول العذاب الإلهى، (كما تاب فرعون فى آخر لَحَظات عمره)، فعندها لن تُقبل توبته، لأنّ التّوبة عندها ليست توبةً حقيقيّةً، و لا هى صادرةٌ من الشّخص من موقع الإختيار، فيقول البارى تعالى: «وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۱۹۵ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً» «۱». و نقرأ فى قصّة فرعون: عندما إنفلق البحر لموسى عليه السلام، و تبعه فرعون وجنوده، واغرق فرعون، فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ» «۲». ولكنّه سمع الجواب مباشرةً، فقال تعالى: «أَلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ» «۳». وأمّا بالنسبة للأمم السّابقة، فقال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ». فأجابهم القرآن الكريم: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» «۴» و كذلك بالنّسبة للحدود الإلهيّة، عندما يقع المجرم فى أيدى العدالة، فلن

تقبل توبته، لأنّه لم يتب واقعاً بل خوفاً من العقاب لا غير. فالتّوبة التى لا تقبل من البارى تعالى، هى التّوبة التى تخرج من شكلها الإختيارى فى مسيرة الإنسان. وقال البعض: توجد ثلاثة موارد اخرى لا تقبل فيها التوبة: الأول: «الشّرك»، حيث يقول القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» «۵». ولكن هذا الأمر يبتعد عن الصّواب و الصّحة، بل أنّ الآية لم تتكلم عن التّوبة، ولكنّها تحدثت عن العفو عن المشرك من دون توبةٍ، وإلّا فانّ كلّ الأشخاص قبل الإسلام، تابوا من الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۹۶ شركهم وقبلت توبتهم، و كذلك كلّ من يدخل فى الإسلام فى عصرنا الحاضر، فتوبته مقبولةٌ عند جميع علماء المسلمين، ولكن إذا مات المُشرك و هو على شِركه، فلن يتوب اللَّه تعالى عليه، أمّا فى حالة أن يموت على التّوحيد، ولكنّه قد إرتكب ذنوباً فى سالف حياته، فمن الممكن أن يعفو عنه اللَّه تعالى، وهذا ما نستوحيه من مفهوم الآية الكريمة. وخلاصة القول، أنّ المشركين لن يشملهم العفو الإلهى المنفتح على الخلق، بل هو للمؤمنين الموحّدين، و التّوبة تغفر كلّ الذنوب حتى الشّرك. ثانياً و ثالثاً: يجب أن تكون التّوبة مُباشرةً بعد الذنب، و لا تؤخّر إلى وقتٍ بعيدٍ، و كذلك يجب أن يكون إرتكاب الذنب عن جهالةٍ لا عن عنادٍ، و نقرأ فى الآية (۱۷) من سورة النساء: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً». والجدير بالملاحظة، أنّ كثيراً من المفسّرين، حملوا هذه الآية على التّوبة الكاملة، لأنّه من الطّبيعى، عندما يُذنب الإنسان من موقع العناد و الغىّ، ثم يتوجّه لحقيقة الحال، و يندم على أفعاله السّابقة، فإنّ البارى تعالى يتوب عليه، و قد حدّثنا التأريخ عن نماذج كثيرةً و أفراداً كانوا فى صفوف المُعاندين و الأعداء، ثم رجعوا عن غيّهم و تابوا، و عادوا إلى حضيرة الإيمان و الصّلاح. و من المعلوم حتماً، لو أنّ الإنسان أمضى عمره بالذّنوب و العصيان، ولكن تاب بعدها توبةً نصوحاً، و تحول من دائرة المعصية والإثم، إلى دائرة الطّاعة و الإيمان، فإنّ اللَّه تعالى سيقبل توبته لا محالة. و نقرأ فى الحديث المشهور عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَقَالَ: أَلا وَسَنَةُ كَثِيرَ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِشَهْرٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَقَالَ: شَهْرُ كَثِيرٌ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِجُمْعَةٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، قَالَ: وَجُمْعَةُ كَثيرٌ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِساعَةٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَ ساعَةُ كَثِيرٌ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُغَرغِرَ بِالمَوتِ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۹۷ و طبعاً القصد منه، التّوبة بجميع شرائطها، فمثلًا إذا كان فى عنقه حقوق الناس فعليه أن يوصى بها لمن هو بعده، ثم يتوب بعدها. و توجد آياتٌ كثيرةٌ، تدلّ على شمولية التوبة لجميع الذّنوب، و منها: ۱- نقرأ فى الآية (۵۳) من سورة الزمر: «قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». ۲- نقرأ فى الآية (۳۹) من سورة المائدة: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ۳- نقرأ فى الآية (۵۴) من سورة الأنعام: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ففى هذه الآية نرى، أنّ سوء العمل مطلقٌ و يشمل كلّ الذّنوب، و مع ذلك فلا تُحجب عنه التّوبة و طريق العودة. ۴- نقرأ فى الآية (۱۳۵) من سورة آل عمران: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». و هنا الظّلم أيضاً يشمل جميع الذنوب، لأنّ الظلم مرّة يقع على الغير و اخرى على النفس، ووعدت هذه الآية، جميع المذنبين بالتّوبة عن جميع ذنوبهم و آثامهم، فى أطار الذّكر و الإستغفار. ۵- نقرأ فى الآية (۳۱) من سورة النّور، حيث خاطبت جميع المؤمنين: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». فكلمة «جميعاً» تدعو جميع المذنبين للتوبة، و لولا شمولية و عمومية التّوبة، لما صحّت هذه الدّعوة القرآنية. و الجدير بالملاحظة، أنّ الآيات المذكورة آنفاً، مرّةً تؤكّد على الإسراف، و اخرى على الظّلم، و مرّةً على سوء العمل، والوعد الإلهى بالمغفرة لجميع هذه العناوين، فى حال إنضوائها الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۹۸ تحت عنوان التّوبة، عن كل سوءٍ و ظلمٍ و إسرافٍ يقترفه الإنسان ويتوب منه، فإنّ اللَّه تعالى سيتوب عليه. و وردت رواياتٌ كثيرةٌ فى هذا المجال، فى مصادر الفريقين، السّنة و الشّيعة، وأنّ باب التّوبة مفتوح حتى اللّحظات الأخيرة من العُمر، ما لم يرى الإنسان الموت بعينه. و يمكن الرجوع إلى الرّوايات فى كتبٍ، مثل: بحار الأنوار «۱»، واصول الكافى «۲»، و الدرّ المنثور «۳»، و كنز العمّال «۴»، وتفسير الفخر الرازى «۵»، و تفسير القُرطبى «۶»، و تفسير روح البيان

«۷»، و تفسير روح المعانى «۸». وكتب اخرى، ويمكن القول أنّ هذا الحديث هو من الأحاديث المتواترة.

۴- أركان التّوبة

كما نعلم، أنّ حقيقة التّوبة هو الرّجوع إلى ساحة البارى تعالى، و الإقلاع عن العِصيان، فى ما لو كان ناشئاً من النّدم على ما سبق من الأعمال السّيئة، و لازم النّدم هو العلم بأنّ الذنب يحيل بين المذنب والمحبوب الحقيقى، ويترتب عليه العزم و التّصميم على عدم العودة، و على التّحرك لجبران ما فات، و محو آثار الذنوب السّابقة من باطن وجوده وخارجه، و يتحرّك كذلك فى دائرة إعادة الحقوق الباقية فى ذمّته، وأكّد القرآن الكريم، فى كثير من الآيات على هذا المعنى، و جعل التّوبة مقارنةً للإصلاح: ۱- الآية (۱۶۰) من سورة البقرة، و بعد الإشارة إلى ذنب كتمان الآيات الإلهيّة و و العقاب الذى يترتب على ذلك قالت: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۹۹ ۲- الآية (۸۹) من سورة آل عمران، و بعد إشارتها لمسألة الإرتداد و عقابها، يقول تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ۳- الآية (۱۴۶) من سورة النساء، وبعد إشارتها للمنافقين، و عاقبة أمرهم السّيئة، تذكر: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ». ۴- و فى الآية (۵) من سورة النّور، و بعد ذكرها للعقوبة الشّديدة المترتبة على القَذف، فى الدنيا و الآخرة، ذكرت: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ۵- وبالتالى نرى عنصر التّوبة، بمثابة قانون كلّى يستوعب فى نطاقه جميع الذّنوب، فقال تعالى فى الآية (۱۱۹) من سورة النحل: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». ۶- ورد شبيه لهذا المعنى، فى الآية (۸۲) من سورة طه: «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى». و أشارت الآية الكريمة هنا، بالإضافة إلى رُكنى التّوبة الأساسيّين، و هما: العودة إلى اللّه، والعمل الصالح، و جُبران الماضى، ذكرت مسألة الإيمان والهداية. و الحقيقة أنّ الذنوب تقلل نور الإيمان فى قلب الإنسان، و تحرفه عن الطّريق، و عليه فإنّه بالتّوبة يجدّد إيمانه و هدايته، فى نطاق إصلاح الباطن. ۷- و ورد فى سورة الأنعام، الآية (۴۵)، معنى مشابه أيضاً: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». و ممّا ذكر من الآيات الآنفة، تتضح لنا مسألة التّوبة بصورةٍ كاملةٍ، فالتّوبة الحقيقيّةُ ليست بلفظ الإستغفار وحده، و النّدم على ما مضى، و الإقلاع عنه فى المستقبل، بل تتعدّى إلى دائرة الإنفتاح على العمل، لإصلاح كلّ التّقصيرات و المفاسد الّتى صدرت منه فى السّالف، و محو آثارها من نفسه و ورحه و من المجتمع، لتحصيل الطّهارة الكاملة فى واقع الإنسان والحياة، وطبعاً بالقدر الممكن. فهذه هى التّوبة الحقيقيّة، وليس الإستغفار وحده!. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۰ و الجدير بالذّكر أنّ كلمة «الإصلاح»، ورد ذكرها دائماً بعد ذكر التّوبة، كالآيات الآنفة الذّكر، و معناها واسعٌ يشمل كلّ ما فات، من قصورٍ و تقصيرٍ يُبعد الإنسان عن خطّ الإيمان، ومنها: ۱- التّائب يجب أن يُؤدّى جميع الحقوق لُمستحقيها، فإنّ كانوا أحياء فَبِها، و إلّافلورثتهم. ۲- إذا كان قد تعامل مع الآخرين، من موقع الإهانة و الغيبة، و غيرها من الامور السلبية فى دائرة السلوك، فيجب عليه طلب الحلية منهَ وردّ إعتباره مادام الآخر يعيش فى هذه الدنيا، وإن كان قد وافاه الأجل، فعليه أن يتحرّك على مستوى إرسال الثّواب لروحه، كى ترضى ۳- أن يَقْضى ما فاته من العبادات: كالصّلاة و الصّيام و دفع الكفارات. ۴- نعلم أنّ ممارسة الخطيئة والوقوع فى منحدر الذنوب، يُظلم الرّوح و يسوّد القلب، فعلى التّائب السّعى لتنوير قلبه بالطّاعة و العّبادة، لتنفتح روحه على اللّه تعالى، فى أجواء الإيمان. و أفضل و أكمل تفسير ورد لمعنى الإستغفار، هو ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، فى كلماته القصار فى نهج البلاغة: قال عليه السلام لقائلٍ قال بحضرته: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»- وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يعرف سوابقه و أعماله- «ثَكَلَتْكَ امُّكَ أَتِدرِى مَا الاسْتِغْفارُ؟ الإسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ العِلِّيينَ، وَهَوَ إسمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعانٍ. أَوَّلُها النَّدمُ عَلى مَا مَضى والثَّانِى العَزْمُ عَلَى تَرْكِ العَودِ إِلَيهِ أَبَداً. والثَّالِثُ أنْ تُؤَدِّى إِلَى الَمخْلُوقِينَ حُقُوقَهُم حَتَّى تَلقَى اللَّهَ أَمْلَسَ لَيسَ عَلَيكَ تَبِعَةٌ. الرّابعُ أنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيكَ ضَيَّعْتَها فَتُؤَدِّىَ حَقَّها. الخَامِسَ أنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِى نَبَتَ عَلى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأحزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الجِلْدَ بِالعَظمِ، وَيَنْشَأَ بَينَهُما لَحْمٌ جَدِيدٌ.

و السَّادِسَ أن تُذِيقَ الجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ المَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۱ ونقل نفس هذا المعنى فى و روايةٍ اخرى، عن كميل بن زياد عن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمِيرَ المؤمنين العَبْدُ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَنْهُ فَما حِدُّ الإستِغْفَارِ؟. فقال الإمام عليه السلام: «يا ابْنَ زِيادٍ التَّوبَةُ». قلت: بَسْ. قال عليه السلام: «لا». قلت: فَكَيفَ؟ قال عليه السلام: «إنَّ العَبْدَ إذا أصابَ ذَنْباً يَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِالتَّحْرِيكِ». قلت: وَما التَّحْرِيكُ؟. قال عليه السلام: «الشَّفَتَانِ وَاللِّسانِ يُرِيدُ أَنْ يَتْبَعَ ذَلِكَ بِالحَقِيقَةِ». قلت: وَ ما الحَقِيقَةُ؟. قال عليه السلام: «تَصْدِيق فِي القَلْبِ وَإِضْمارُ أَنْ لا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ الَّذِى اسْتَغْفَرَ مِنْهُ». فقلت: «فإذا فَعَلَ ذَلِكَ فَإنَّهُ مِنَ المُسْتَغْفِرِينَ». قال عليه السلام: «لا». فقال كميل رحمه الله، قلت: فَكَيفَ ذاكَ. فقال الإمام عليه السلام: «لِأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الأَصْلِ بَعْدَهُ». فقال كميل رحمه الله: فَأَصْلِ الإِسْتِغْفارِ ما هُوَ؟. فقال الإمام عليه السلام: «الرُّجُوعُ إِلَى التَّوبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذى إِسْتَغْفَرْتَ مِنْهُ وَهِىَ أَوَّلُ دَرَجَةِ العابِدِينَ». ثم قال الإمام عليه السلام: «وَ تَرْكُ الذَّنْبِ والإستِغفارِ اسمٌ وَاقِعٌ لِمعانٍ سِتّ». ثم ذكر نفس المراحل السّتة، المذكورة فى قصار الكلمات لنهج البلاغة، مع قليلٍ من الاختلاف «۱». و يمكن أن يقال: إنّ التّوبة إذا كانت كما ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام، فلن يوجد تائب حقيقى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۲ أبداً. ولكن يجب الّتبّهُ إلى أنّ بعض الشروط السّتة، هى فى الحقيقة من كمال التّوبة، كما فى الشّرط الخامس و السّادس، أمّا الشّروط الأربعة الاخرى، فهى من الشّروط الواجبة و اللّازمة، أو كما يقول بعض المحقّقين: إنّ القسم الأول، و الثّانى من أركان التّوبة، و الثّالث و الرابع هما من الشروط اللّازمة، و الخامس و السّادس من شروط الكمال «۱». وجاء فى حديثٍ آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «أمّا عَلامَةُ التَّائِبِ فَأَرْبَعَةٌ: النَّصِيحةُ للَّهِ فِى عَمَلِهِ وَتَركُ الباطِلِ وَلُزُوم الحَقِّ وَالحِرصُ عَلَى الخَيْرِ» «۲». ويجب الإنتباه، أنّ الذّنب إذا تسبّب فى إضلال الآخرين، مثل الدّعاية المضلّة، و البدعة فى الدّين، سواء كان عن طريق البيان، أو عن طريق الكتابة، فيجب عليه إرشاد الضّالين بالقدر الّذى يستطيع، وإلّا فلن تُقبل توبته. و منه يتّضح صعوبة سلوك طريق التوبة، بالنّسبة إلى المحرّفين للآيات الإلهيّة، و المُبتَدِعين فى دين اللَّه تعالى، و الذين يتحرّكون على مستوى إضلال الناس، و سوقهم إلى الإنحراف. فليس من الصحيح، أن يُضلّ شخصٌ عدداً غفيراً من النّاس، فى الملأ العام، أو بكتاباته ومقالاته، ثمّ يجلس فى زاوية البيت، و يستغفر اللَّه تعالى ليعفو عنه، فمثل هذه التّوبة، لن تُقبلَ أبداً. و كذلك الذى يهتك حرمة أحد الأشخاص أمام الملأ، ثم يستحلّ منه على إنفراد، أو يتوب فى خَلوته، فلن تُقبل مثل هذه التّوبة، ما لم يرد إعتبار ذلك الشخص، أمام الملأ العام. و بناءً على هذا، فإنّنا نقرأ فى الرّوايات عن أشخاصٍ هَتكوا حُرمة الغير، و اجرى عليهم الحَد، فإنّ توبتهم لن تقبل، إلّاإذا رجعوا عن غيّهم وكلامهم. و قد ورد فى حديث مُعتبر، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال الرّاوى: سألت أبا عبدللَّه عليه السلام عن المحدود إذا تاب، أتقبل شهادته؟، فقال: «إذا تابَ وَتَوبَتُهُ أَنْ يَرْجَعَ مِمّا قالَ وَيُكِذِّبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الإمامِ وَ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، فإذا فَعَلَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۳ فَإِنَّ عَلَى الإمامِ أَنْ يَقْبَلَ شَهادَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ»». وَ وَرد فى حديثٍ آخر: «أَوصى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إلى نَبِيٍّ مِنَ الأنبِياءِ، قُلْ لِفُلانَ وَعِزَّتِى لَو دَعَوتَنِى حَتّى تَنْقَطِعَ أَوصالُكَ، ما اسْتَجَبْتُ لَكَ، حَتّى تَرّدَ مَنْ ماتَ إلى ما دَعَوتَهُ إِلِيهِ فَيَرْجَعَ عَنْهُ» «۲». فهذا الحديث يبيّن أهميّة مسألة الإصلاح، و السّعى لجبران الخلل من موقع التّوبة، و إلى أىّ حدٍّ يمتد فى آفاق الممارسة العمليّة، و بدون ذلك ستكون التّوبة صوريّة أو مقطعيّة. و آخر ما يمكن أن يقال فى هذا المجال، أنّ من يقنع من الإستغفار بالإسم، مُقابل كثرة الذّنوب و المعاصى، ولا يسعى فى تحصيل أركانه و شروطه، فكأنّه قد إستهزأ بنفسه، و بالتّوبة و بالإستغفار. و فى ذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «التّائِبُ مِنَ الذَّنِبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لِهُ، وَالمُقِيمُ عَلَى الذَّنْبِ وَهُوَ مُسْتَغْفِرٌ مِنْهُ كالمُستَهزِىء» «۳».

۵- قبول التوبة: هل هو عقلى أم نقلى؟

إتّفق علماء الأخلاق أنّ التّوبة الجامعة للشّرائط، مقبولة عند اللَّه تعالى، و يدل على ذلك الآيات و الرّوايات، ولكن يوجد نقاش حول قبول التّوبة، هل هو عَقلى أم عقلائى، أم نَقلى؟. و يعتقد جماعة، أنّ سقوط العقاب الإلهى، هو تفضل من البارى تعالى، فبعد تحقق

التّوبـة من العبـد، يمكن للبـارى تعـالى أن يتوب على عبـده ويغفر له، أو لاـ يغفر له، كمـا هو المُتعـارف بين النّـاس، عنـدما يقوم أحد الأشـخاص بظلم الغَير، فِللمظلوم أن يغفر له، أو لا يعفو عنه. و ترى جماعـةٌ اخرى، أنّ العقاب يسـقط حتماً بعد التّوبة، وعدم قبول عُذر المجرم، من اللَّه الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۴ تعالى، بعيـدٌ و قبيحٌ، و لا يصدر منه تعالى. و هنا يمكن قبول رأى ثالث، وهو أنّ قبول التّوبـة أمر عقلاـئى، يعنى أنّ العقـل وإن لم يوجب قبول التّوبـة و العُـذر، ولكنّ بنـاءَ العُقلاء فى العالم كلّه، مبنيٌّ على قبول عـذر الخاطىء، و إقالة عثرته، إذا ما عاد عن غَيّه، و أصلح أعماله السّيئة، و جَبر ما كسره، و أرضى خصمائه بطرقٍ مختِلفَةٍ، فهذا الموقف هو بنـاء العقلاـء فى العـالم أجمع، فلو أصـرّ شـخص على نفى هـذا المبـدأ العقلائى، ولم يقبله فى سـلوكه إتجّاه المُعتـذر، فسيعتبر حقوداً وخارجـاً عن موازين الإنسانيـة والأخلاـق. و لا شك أنّ اللَّه تعالى، و هو القادر و الغنى عن العالمين، أَوْلى وأجـدر من عباده بالعفو و المغفرة، و قبول عـذر التائب، و عـدم إنزال العقاب عليه. و يمكن القول بأكثر من ذلك، و هو وجوب قبول التّوبـة، لـدى العقل الـذى يعتمد على قاعدة: «قُبح نَقض الغَرض». و توضيـح ذلك: نحن نعلم أنّ البارى تعالى، غنيٌّ عن عباده وطاعة العالمين، وإن كلّفنا بشـىءٍ فهو لطفٌ منه، للسير فى خطّ التّكامل و التّربية، فالصّلاة و الصّيام تُربّى النّفس و تُقرّب الإنسان من اللَّه تعالى، وكذلك سائر الواجبات، فلهـا قِسـطٌ فى عمليّة التّكامـل الإنسانى. فنقرأ عن الحـج: «لِيَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُم» «۱». و نقرأ فى الآيـات الاـخرى، أنّ الصّـ لاة تنهى عن الفحشاء والمنكر «۲»، و الصّوم سبب للتّقوى «۳»، و الزّكاة لتطهير الأفراد والمجتمع من الرذائل الأخلاقيّـة و الإنحرافات «۴». و إعتبرت الرّوايات الإيمان، سـبباً للطهارة من الشّـرك، و الصّلاة لِدرء الكِبر عن الإنسان، و الحجّ سبباً لوحدة المسلمين، و الجهاد لِعزّة المسلمين .... «۵» و عليه فإنّ كلّ التّكاليف الإلهيّة، هى من أسـباب سعادة الإنسان، و تكامله فى خط الإيمان الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۵ و الحقّ و التّكامل، هذا هو الهدف الأصـلى للإنسان، فى دائرة الوصول لمرتبة القرب الإلهى، و العبودية الحقّة، قال البارى تعالى: «وَ ما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّالِيَعْبُـدُونِ» «۱». و لاـ شـك فـإنّ وجوب التّوبـة، و قبولها من قبل البارى تعالى، يشـكّل إحـدى حلقات التّكامل المعنوى للإنسـان، لأـنّ الإنسـان من طبيعته الخطأ، فإذا أوصـد الباب دونه، فلن يتكامل أبـداً. و إذا ما احيط الإنسان علماً بالتّوبـة، و أنّ البارى فتح الباب أمامه بشـرط إصـلاح ما مضـى، فمثل هذا الإنسان يكون أقرب للسّعادة و التّكامل، ويبتعد عن الإنحراف و الخطأ فى مسيرة الحياة. و النّتيجـة: أنّ عـدم قبول التّوبة يؤدى إلى نقض الغرض، لأنّ الهدف من التّكاليف و الطّاعة، هو تربية و تكامل الإنسان، وعدم قبولها لا ينسـجم مع هذا الغرض، ومن البعيد عقلًا على الحكيم، أن ينقض غرضه. و على كلّ حال، فإنّ التّوبة و قبولها لها علاقةٌ وثيقـةٌ بالتّكامل الإنسانى، و بـدونها سـينتفى الـدّافع و القصـد للتّكامل، و سـيكون الإنسان فى غايـة اليأس من النّجاة، مما يشـجعه على التّمادى فى إرتكاب المعاصى و مُمارسة الجريمة، و لذلك فإنّ كلّ المربّين، سواء كانوا إلهيين أم ماديّين، يؤكّدون على مسألة التّوبة، و يجعلون الطّريق مفتوحـاً دائمـاً أمام الخاطئين، كَى يُحرّكوا فيهم روح الأنابـة، و دافع الإصـلاح والحركـة نحو الكمال المُطلق. و عليه فإنّ التوبة بشرائطها، لم تحكم بها الآيات و الرّوايات فقط، بل هى ثابتة بحكم العقل و سيرة العُقلاء، و هذا أمرٌ لا يمكن تجاهله البتّة.

۶- التّبعيض فى التّوبة

هل يمكن للإنسان أن يقيم على بعض الذّنوب، و يتوبَ عن البعض الآخر؟؛ فمثلًا إذا كان يشربُ الخَمر و يغتابُ الناس، فهل يصحّ منه الإقلاع عن الخمر فقط، بينما يسـتمر فى خط الغِيبة؟ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۶ يقول البعض: إنّ التّوبة يجب أن تكون شاملةً لكلّ الذّنوب، لأنّ المسألة تعود إلى عِصـيان البارى تعالى، وَهَتك حُرمته، فالنّادم يجب أن يترك كلّ الذّنوب، لا أنّ يُصِرّ عليها. لكن هـذا الكلام مُجانب للصواب، حيث يمكن القول بصـحّة التّجزئة فى عمليّة التّوبة، (و صـرّح بها بعض العلماء، مثل المرحوم النّراقى فى «معراج السـعادة»، و قد نقلها عن أبيه رحمه الله)، لأنّه ربّما يكون الإنسان، على إطّلاعٍ كاملٍ على آثار بعض الذّنوب وَ عَواقبها السّـيئة، أو هو عند اللَّه أشدّ وأقبح، ولأجل ذلك فإنّه يتركه على مستوى الممارسة و يتوب منه، أمّا بالنّسبة للذنوب التى هى أقلّ قُبحاً، أو أقل عِقاباً، أو لأنّ علمه بها و إطلاعه على ما يترتب عليها من المفاسد، ليس كافياً بالدّرجة التى تردعه عنه، فإنّه يستمر فى ممارستها. فأكثر

التائبين هم كذلك، فغالباً ما يقلعون عن بعض الذّنوب، و يبقون على البَعض، ولم يردنا شيءٌ من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أو الأئمّة الأطهار عليهم السلام، أو علماء الإسلام، ينفى قبول مثل هذه التوبة، ويؤكّد على التوبة الكاملة الشاملة لكلّ الذنوب التى يرتكبها الإنسان. و نرى فى الآيات الشّريفة، إشارات واضحة على معنى التّجزئة فى التّوبة، و صحّة القول بالتّفكيك، فمثلًا بالنّسبة للمُرابين، يقول تعالى «وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ» «۱». و بالنّسبة للمرتدين بعد الإيمان، يقول تعالى «أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۲». و بالنّسبة للمحاربين والمتسبّبين فى ضَلال الناس و المجتمع، فبعد ذكر ما يستحقون من العِقاب الشّديد، يقول تعالى «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاْعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۳». و أمّا بالنّسبة للأعمال المنافية للعفّة، فيقول تعالى «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً» «۴». و فى مكان آخر أشار إلى الذّنوب، مثل: الشّرك، و قتل النفس، و الزنا، و عقوباتها، فقال: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۷ «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» «۱». ورغم أنّ بعض الآيات، تناولت بعض العقوبات الدنيويّة، و العفو عنها بالتّوبة، لكنّ الحقيقة أنّه لا يوجد فرق من هذا اللحاظ، فإذا ما غفرت فى الدنيا فستغفر فى الآخرة قطعاً. و الخُلاصة: أنّه لا يوجد مانعٌ من التّفكيك و التّفريق، بين الذّنوب من جهاتها المختلفة، مثل: (الفرق فى ميزان المعلومات، الدّوافع، و قُبح الذّنوب)، ولكنّ التّوبة الكّاملة الشّاملة، هى التّوبة التى تستوعب جميع الذنوب، بدون التّفريق بينها فى خطّ العودة إلى اللَّه تعالى.

۷- دوام التّوبة

التّوبة يجب أن تكون مستمرةً و دائمةً، هذا من جهةٍ، فعندما يُخطىء الإنسان إثر وساوسه النّفسية «النّفس الأمّارة»، عليه أن يُقدِم على التّوبة لتدخل فى مرحلة: «النّفس اللّوامة»، و بعدها تصل إلى مرحلة: «النّفس المطمئنة»، لتقلع جذور الوَساوس من أساسها. و من جهةٍ اخرى: و بعد توبته من الذنب، عليه أن يُراقب نفسه بإستمرار، و ليحذر من نقض العهد مع البارى تعالى، فى المستقبل أو بعبارة اخرى: إذا وجد فى نفسه بقايا لِلميل إلى الذّنب، و الرّغبة فى الإثم، عليه أن يُجاهد نفسه، و يتحرك فى مجال تهذيبها من هذه الشّوائب، ليكونَ فى صفّ التّائبين و المُجاهدين. بعضَ علماء الأخلاق، تطرّقوا لبحوثٍ لا طائل لها، و هوَ هلْ: مقام التائب و مجاهدته و ممارسته لعناصر الذّنوب فى الخارج أفضل، أم التّائب الذى يقلع جذور الذّنب من قلبه «۲»؟ وليس من المُهم الأفضليّة، بل المُهم هو العمل على تكريس حالة الإنضباط، فى جو المسؤوليّة و عدم العودة لممارسة الذّنب، و لرعاية هذا الأمر يتوجب اتّباع امور، منها: ۱- الابتعاد عن أجواء الذّنب، و عدم مُجالسة أهل المعاصى، لأنّ التّائب يكون فى البداية ضعيف القلب جداً، كالمريض فى بدايةُ شفائه من مرضه، فأدنى شىء، بإمكانه أن يثير فى نفسه الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۸ مشاعر الخطيئة، بالمستوى الذى يشلّ فيه إرادة الصّمود، و يحوله إلى كيانٍ مهزوزٍ، أمام حالات المرض، و يُشدّده عليه، و كالمُعتاد على الأفيون، التّارك له للتَوِّ أيضاً، يتأثر بالأجواء الملوّثة بسرعةٍ. ۲- عليه هجر أصدقاء السّوء، و تجديد النّظر فى علاقته معهم، و الفرار منهم كالفرار من الوحوش الضّارية. ۳- فى حالات وقوعه فى دائرة وسوسة الشّيطان، يشتغل بذكر اللَّه تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۱». ۴- لِيفكر دائماً بالذّنب الّذى تاب منه، و إفرازاته، و يجعلها نصب عينه، لِئَلا يغفل و ينسى مضرّاته، وإلّا ستهجم عليه الوَساوسُ و الدّوافعُ لإيقاعه فى هُوّةِ الخطيئة مرّةً اخرى. ۵- لِيتّعظ بقصص الماضين و السّابقين و من وقعوا فى المَهالك، جرّاء معاصيهم، و حتّى الأنبياء المعصومين، و لتركهم الأوْلى أحياناً، مثلًا، يُفكّر فى قصّة آدم عليه السلام، و السّبب الّذى أدّى إلى خسرانه، ذلك المُقام السّامى و طَرده من الجنّة، أو حكاية يونس النّبى عليه السلام، الذى حُبس فى بَطن الحوت، و يَعقوب الّذى ابتلى بفراق ولده. فكلّ ذلك يؤثر إيجابياً، فى تفعيل عناصر الإرادة و الصّمود، فى خطّ الإيمان و الإنفتاح على اللَّه تعالى. ۶- التّفكير بالعقوبات التى وضعها البارى للعاصين، وليجعل هذه الحقيقة أمام عينه دائماً، وهى أنّ معاودته لإرتكاب الذّنوب، يمكن أن يؤدى به إلى إستحقاق عقوبةٍ أشدّ وأقوى. و فى المقابل، ليفكر برحمة اللَّه تعالى و لُطفه، و هو اللّطيف الخبير الغفور، فرحمته بإنتظار التّوابين العائدين إلى خطّ الإستقامة و الإيمان، و ليُحدّث نفسه بعدم تضييع هذا

المقام، الذی وصل إلیه بعد تعبٍ و عناءٍ، فی واقع العمل و المُثابرة. ۷- لیشغل وقته بالبرامج الصّحیحة السّلیمة، و التمّتع بغیر الُمحرّم، و لا یدع فراغاً فی أوقاته، یفضـی به أن یعیش التّخبط فی الوَساوس الشّیطانیة مرّةً اخری. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۹ و قد سُئل أحـد العُلمـاء، عن قوله صـلی الله علیه و آله: «التّـائِبُ حَبیبُ اللَّهِ»، فقـال: إنّمـا یکون التّـائب حبیبـاً إذا کـان فیه جمیع ما ذکره فی قوله تعـالی: «التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاکِعُونَ السَّاجِـدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنْ الْمُنکَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُـدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِینَ» «۱».

۸- مراتب التّوبة

ذکر علماء الأخلاق، درجات و مراتب مختلفة للتّوبة و التّائبین. و یمکن تقسیم التّائبین من جهةٍ، إلی أربعة أقسام: القسم الأوّل: اولئک التّائبون الـذین لا یقلعون عن الـذنوب، ولا یتأسـفون علی ما فعلوا، حیث وقفوا عنـد مرحلة النّفس الأمّارة، وعاقبتهم غیر معلومةٍ أصـلًا، فَمِن المُمکن أن یعیش حالةَ التّوبة فی آخر أیّام حیاته، و تکون عاقبته الحُسنی، ولکنّ الطامّة الکبری، عندما یتفق موتهم مع معاودتهم للذنب، وهناک ستکون عاقبتهم السّوآی، و فیها الخُسران الأبدی. القسم الثانی: التّائبون بحق الّذین یستمرون فی طریق الحقّ و الطّاعة، و یتحرّکون فی خـطّ الإسـتقامة، ولکن الشّـهوات تغلبهم أحیانـاً، فیکسـرون طوق التّوبـة، و یرتکبون بعض الـذّنوب، من موقع الشّعور بالضّعف أمامهـا، ولکنّهم لاـ یقعـون فی هـذا الخطـأ، من موقـع الّتمرد و الجُحـود و العِنـاد، علی وعی الموقف، بـل من موقع الغفلـة و الإندفاع العفوی فی حالات الضّعف، الّتی تفرزها حالات الصّـراع مع النّفس الأمّارة، و لهذا یحدثون أنفسـهم بالتّوبة من قریب، هؤلاء الأشـخاص وصـلوا إلی مرحلـة النّفس اللّوامـة، و الأمل بنجاتهم أقوی. القسم الثّالث: التوّابون الـذین یجتنبون کَبائِر الإثم، و یتمسّـکون باصول الطّاعات، ولکنهم قـد یقعون فی حبائل المعصـیة، لا عن قصـدٍ و عمدٍ، ولذلک یتوبون مباشـرةً عن الذّنب، فیلومون أنفسـهم و یعزمون علی التّوبة والعودة إلی خطّ الإسـتقامة بإستمرار، و یعیشون حالة الإبتعاد عن الذّنب دائماً. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۰ النّفس اللّوامـة لهـذه المجموعة، مهیمنةٌ علیهم، و یعیشون علی مقربةٍ من النّفس المُطمئنّة، و الأمل بنجاتهم أکبر. القسم الرابع: التّوابون بعزمٍ و قوةٍ إرادة، فی طریق الطّاعـة للَّهتعالی، فلا تهزّهم العَواصف التی تفرضـها حالات الصّـراع مع الخَطیئـة، و لا یخرجون من أجواء التّقوی، صـحیح أنّهم لیسوا بمعصومین، و لَرُبّما فکّروا بالمعصیة، ولکنّهم محصّنین مُبعدین عنها، فَقِوی الإیمان و العقل عندهم، سَلبت هوی النّفس فـاعلیّته فی واقعهم البـاطنی، و کبّلته بالسّـلاسل الغلاـظ، فی خـطّ التّزکیـة و الجهـاد الأـکبر، فلا سبیل للشّیطان و الأهواء علیهم. فاولئک هم أصـحاب: «النّفوس المطمئنّة»، الذین نعتتهم الآیات (۲۷ الی ۳۰) من سورة الفَجر، و خُوطِبوا بأبلغ خِطابٍ، فقال عز من قائل: «یا أَیَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَـةُ آرجِعِی إِلَی رَبِّکِ راضِـیَةً مَرْضِـیَّةً». فـدخلت بإفتخارٍ فی أجواء النّور و القُرب الإلهی: «فَآدْخُلِی فِی عِبـادِی و آدْخُلی جَنَّتِی». و من جهـةٍ اخری، فـإنّ لِلتوبـةِ مراحـل علی مستوی المصـادیق أیضاً: المرحلة الاولی: التّوبـة من الکفر إلی الإیمان. المرحـلة الثّانیـة: التّوبـة من الإیمان الموروث التّقلیدی، و التّحرک نحو الإیمان الحقیقی المُسـتحکم. المرحلة الثّالثة: التّوبة من الـذّنوب الکبیرة الخَطرة. المرحلـة الرّابعـة: التّوبـة من الذّنوب الصّـغیرة. المرحلة الخامسة: التّوبة من التّفکیر بالذّنب، و الخواطر المشوبة بالمعصـیة، و إن لم یرتکب الُمخالفـة فی دائرة الفعل و المُمارسة. فکلّ فرقةٍ من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبیاء من إضـطراب السّـر، (فی کلّ لحظـةٍ لم یتوجهوا فیها إلی اللَّه تعالی بالباطن والسِّر). و توبةُ الأصـفیاء من کلّ تنفّس بغیر ذکر اللَّه «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۱ و توبـةُ الأولیاء من تلوین الخطرات. و الخَواص من الإشـتغال بغیر اللَّه. و توبـة العوام من الذّنوب. و کلّ واحدٍ منهم، یشـتمل علی نوعٍ من المعرفة و العلم، فی أصل توبته، و مُنتهی أمره «۱».

۹- معطیات و برکات التّوبة

إذا كانت التّوبـة توبـةً حقيقيـةً و واقعيـةً و نابعـةً من الأعماق، فلابـدّ من أن تقع مورد القَبول من قبل اللّه تعالى، العَفوّ الغَفور، و ستنشر خيرها بركاتها على صاحبها فى حركةُ الحياة، و تُغطّى على ما صدر منه من معاصـى، أدّت به إلى السّقوط فى منحدر الضّلال و الزّيغ. مثل هذا الإنسان، يعيش أجواء الحَذر الدّائم من مجالس السّوء و العصـيان، و من كلّ عوامل الذّنب و الوساوس، و التّداعيات الاخرى، الّتى توقعه فى و حلّ المعصـيةُ مرّةً اخرى. و يعيش حالـةُ الخجل و النّدم، و يدأب بإسـتمرار لتحصـيل رضا اللّه تعالى، و جبران ما فاته من الطّاعات. هذه هى العلاقات الفارقةُ لهم، عن المتظاهرين والمرائين. قال قسم من المفسّرين، فى معرض تفسيرهم للآيةُ الشّريفةُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً» «۲». قـالوا: إنّ المراد من التّوبـة النّصوح، هى تلك التّوبـة التى تفعّل فى الإنسان عناصر الخير من موقع النّصيحةُ، و تتجلى فى روح التّائب على مسـتوى حثهـا له، للقضاء على جـذور العصـيان فى باطنه، قضاءً تامّاً بلا رجعةٍ بعدها. و فسّرها قسم آخر، بالتّوبةُ الخالصةُ، و قال آخرون إنّ: «النّصوح» من مادّةُ «النّصاحةُ»، و هى بمعنى الخِياطةُ و التّرقيع، لما حدث من تمزيق، وبمـا أنّ الـذّنوب: الإيمـان والـدّين فتقوم الاخلاـق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۲ التّوبـة بتوصـيلها ببعض، و تعيـد التّائب إلى حضيرةُ الأولياء، كما تجمع الخياطةُ بين قطع الثّوب «۱». إنّ بركات و فوائد التّوبةُ جمّةٌ لا تُحصى، و قد أشارت إليها الرّوايات والآيات العديدةُ، و منها: ۱- تمحو و تُفنى الـذّنوب، كما ورد فى ذيل الآيةُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً»، ورد «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» «۲». ۲- تمنـح التّـائب بركات الأرض و السّـماء، كما ورد فى الآيات (۱۰ و ۱۱ و ۱۲) من سـورةُ نوح عليه السـلام: «فَقُلْتُ آسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً». ۳- تبدل التّوبةُ السّيئات حسـنات، كما ورد فى سورةُ الفرقان الآيةُ (۷۰): «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ». ۴- يتعامل اللّه مع هذا الإنسان، من موقع السّتر على الذّنوب، و ينسى الملائكةُ الكاتبين ذنبه، و يأمر أعضاء بدنه بالستر عليه يوم القيامـةُ، و كتمان أمره، فقـد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «إذا تابَ العَبْدُ تَوبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ اللّهُ وَسَتَرَ عَلَيهِ فِى الدُّنيا وَالآخِرَةِ»، فَقُلْتُ: وَكَيفَ يَسْتُرُ؟ قَالَ: «يُنْسِى مَلَكَيهِ ما كَتَبا عَلَيهِ مِنَ الذُّنُوب، وَ يُوحِى إِلَى جَوَارِحِهِ: اكْتُمِى عَلَيهِ ذُنُوبَهُ، وَيُوحِى إِلى بِقاعِ الأَرْضِ: اكْتُمِى ما يَعْمَلُ عَلَيكَ مِنَ الذُّنُوب، فَيَلْقَى اللّهَ حِينَ يَلْقاهُ وَلَيسَ عَلَيهِ شَىءٌ يَشْهَدُ عَلَيهِ بِشَىءٍ مِنَ الذُّنُوبِ» «۳». ۵- التّائب الحقيقى، يُحبّه اللّه تعالى، لدرجةٍ أن ورد فى الحديث: «إنّ اللّهَ عَزَّوَجَلَّ أَعطَى التّائِبِينَ ثَلاثَ خِصالٍ، لَو أَعطى خِصْلَةً مِنْها جَمِيعَ أَهْلِ السَّمواتِ والأَرضَ لَنَجوا بِها». و بعـدها يشـير إلى الآيةُ الشـريفةُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۳ و قال: «مَنْ أَحَبَّهُ اللّهُ لَمْ يُعَذِّبْهُ». ثمّ يُعرّج على الآيـةُ: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» «۱»» «۲». إلى هنـا نصـل إلى خاتمـةُ بحثنا، فى الخطوةُ الاولى لتهـذيب الأخلاـق، و هى التّوبـةُ، و توجـد مطـالب اخرى فى هـذا المجـال، يمكن الإسـتفادةُ منها فى بحوثٍ مُستقلةٍ. نعم، فإنّه ما لم ينجلِ عن القلب و الروح صـدأ الـذُنوب، و يتحرك الإنسـان لتطهير النّفس من مخلفـات المعصـيةُ بمـاء التّوبـةُ، فلن يشـرق القلب بنـور ربّه، ولن يتمكن هـذا الإنسـان من السّير على خطّ الإيمـان، و السّلوك إلى اللّه تعالى والفوز بجواره، ولن يـذوقَ طعم التجلّيات العرفانيّـةُ، فى حركـةُ الحيـاةُ المعنويّـةُ. هـذا هو أوّل محطٍّ للرحال، وأهمّها، ولا يمكن تخطّيه إلّابعزمٍ صادقٍ و إرادةٍ راسـخةٍ، يـدعمها لطفٌ إلهى و توفيقٌ ربّانى، ولا يُلقّيها إلّاذو حظٍّ عظيمٍ.

الخطوةُ الثّانيةُ: المشارطةُ

تكلمنا سابقاً بصورةٍ مقتضـبةٍ، عن بعض برامـج وخُطى السّـير و السّلوك، المشتركـةُ بين كبار العلماء و السّائرين على ذلك الدّرب، و يصل البحث بنا عن التّوبةُ، إلى واقع التفصيل لتلك المباحث، مدعوم بالآيات و الرّوايات الشّريفةُ: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۴

الخطوة التالية التى ذكرها علماء الأخلاق، فى خطّ الإلتزام الدّينى بعد التّوبة: «المشارطة»: والقصد منها هو الإشتراط على النّفس وتذكيرها وتنبيهها، وأفضل الأوقات لها هو بعد صلاة الفَجر، و التنوّر بأنوار هذه العبادة الإلهيّة، الكبيرة العظيمة عند اللّه تعالى، فيذكّر نفسه و يوصيها بأن تَتحرك فى طريق الخَير و الصّلاح، فإذا ما إنقضى العُمر فلن يفيد النّدم، و لا يمكن الإستدراك، وليجعل نصب عينيه هذه الآية الشّريفة: «وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ» «۱»، فإذا ما ضاع العُمر، فلن ينفع شىءٌ بعده: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» «۲». وعليه أنّ يُحدِّث نَفسه، و يقول لها: تصوّرى أنّ العُمر قد إنقضى، و زالت الحُجب و تجلّت الحقائق المُرّة، و برزت مَعالم العَذاب، و هَولِ المطّلع، و مُنكَر وَ نكير، فحينئذٍ تشعرين بحالة النَّدم على ما عَمِلْتِ، و تقولين: «رَبِّ ارْجِعُونى* لَعَلّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ» «۳». و على فرض إنّك لم تسمعى جواب: «كلّا»، و أعادوكِ الى الدنيا فهل ستتعظين و تُكَفّرين عمّا قصرتِ فى جَنب اللّه؟؟ ثمّ يوصى نفسه بجوارحه السّبعة: العَين و الاذن و اللّسان و اليّد و الرّجل و البطن و الفَرج، فهذه الجوارح مُنصاعَةٌ لكِ اليوم و فى خدمتك، فلا تقحميها فى المعاصى، فإنّ لجهنَّم سبعة أبوابٍ، لكلِّ باب جماعةٌ خاصةٌ من النّاس، يدخلون جهنّم منها، فعليك بالسيّطرة الدّقيقة على الجوارح لئَلّا تنحرف عن الطّريق القويم، و الهدف المرسوم لها، و بذلك توصِد أبواب جهنم دونها، و تفتح أبواب الجنان لها؟. و يُوصى النّفس بالمُراقبة لِجوارحه، للإستعانة بها فى طريق الطّاعة لا المعصية، فهى نِعَمٌ كبيرةٌ مُحاسب عليها الإنسان غداً. و نَجد فى أدعية الإمام السجاد عليه السلام، تأكيداً لمسألة المُشارطَة فى حركة الإنسان المنفتح على اللّه. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۵ ففى الدّعاء، رقم (۳۱) المعروف بدعاء التّوبة، يقول الإمام عليه السلام «وَلَكَ يا رَبِّ شَرطِى أَلّا أَعُودَ فى مَكْرُوهِكَ، وَضَمانى أَنْ لا أَرجَعَ فى مَذْمُومَكَ وَعَهْدِى أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعاصِيك». و كذلك الحال فى الآيات القرآنية، فإنّ أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، كانوا من خلال إرتباطهم مع اللّه تعالى، بنحوٍ من العهدِ و الميثاقِ، يُطبّقون نوعاً من المُشارطة على أنفسهم، فى خط الرّسالة و المسؤولية، ففى الآية (۲۳) من سورة الأحزاب، نقرأ: «مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ... «۱». و كان البعض الآخر، ينقضون العهد مع البارى تعالى، بعد توكيدها، فورد فى سورة الأحزاب، الآية (۱۵): «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا». وَ وَرَد فى حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَتَعاهَدْ النَّقْصَ مِنْ نَفْسِهِ غَلَبَ عَلَيهِ الهَوى وَمَنْ كانَ فى نَقْصٍ فَالمَوتُ خَيرٌ لَهُ» «۲». «فالمُشارطة» إذن: هى من الخُطى المهمّة لِتهذيب الأخلاق، ولولاها لتراكمت سُحب الغفلة و الغُرور، على قلب وروح الإنسان، و لَحادَت به عن الطّريق القويم، و الجادّة المستقيمة.

الخطوة الثّالثة: المراقبة

«المُراقبة» من مادة: «الرَّقَبَة»، و بما أنّ الإنسان يحنى رقبته عند مراقبة الأشياء و الأوضاع، فاطلِقَت على كلّ أمر يُحتاج فيه إلى المواظبة و التّحقيق. و هذا المُصطلح عند علماء الأَخلاق، يُطلق على «مراقبة النّفس»، و هى مرحلةٌ تاليةٌ لمرحلة المُشارطة، يعنى أنّه يتوجّب على الإنسان، و بعد مُعاهدته و مُشارطته لنفسه بالطّاعة الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۶ للأوامر الإلهيّة، و الإجتناب عن الذّنوب، عليه المُراقبة و المُواظبة على طهارته المعنوية، لأنّه فى أدنى غفلةٍ، فإنّ النّفس ستَنقُض كلّ العُهود و المواثيق، و تَسلُك به فى خطّ المعصية مرّةً اخرى. و طبعاً يجب أن لا ننسى أنّ الإنسان و قبل مراقبته لِنفسه، فإنّ الملائكة تراقب أعماله، فيقول القرآن الكريم: «وإنّ عَلَيكُم لَحافِظِينَ» «۱». فالحافظون هنا هم الذين يتولون عملية المراقبة لأعمال الإنسان، و ذلك بقرينة الآيات التى تردُ بعدها، فتقول: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ»» .وفى الآية (۱۸) من سورة (ق) يقول تعالى «ما يَلْفِظُ مِنْ قَولٍ إلَّا لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». و فوق هذا و ذاك، فإنّ اللّه تعالى مِن ورائهم محيط بكلّ شىء، و فى الآية (۱) من سورة النساء، نقرأ: «إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيكُم رَقِيباً». و كذلك فى سورة الأحزاب، الآية (۵۲): «وَكانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ رَقِيباً». و فى الآية (۱۴) من سورة العلق: «أَلَم يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرى . و الآية (۲۱) من سورة سَبأ: «وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَىءٍ حَفِيظٌ». ولكن المحلّقين فى أجواء التّقوى و تهذيب النّفس، يراقبون أفعالهم و سلوكياتهم، قبل مراقبة اللّه تعالى لهم، و

یعیشون الوَجَلَ و الخَوف من أعمالهم و فعالهم، و فی مُراقبةٍ دائمةٍ، لِئَلّا یصدر منهم ما یسلب تلک النّعمة، و الحالة العرفانیّة التی یعیشونها مع اللَّه تعالی شأنه. أو بعبارةٍ اخری: الرّقیب الباطنی یعیش معهم وعلی یقظةٍ دائماً، بالإضافة إلی الرّقابة الخارجیّة، و خوف اللَّه تعالی. و فی الحقیقة، فإنّ الإنسان فی هذه الدنیا، حاله حالَ الذی یمتلک جوهرةً ثمینةً، یرید أن یقایضها بمتاع له ولعیالِه، و من حَوالَیهِ السرّاق و قطاعُ الطّریق، و یخاف علیها من السّرقة أو البیع بِثَمنٍ بَخْسٍ، و إن غفل عنها لِلَحظةٍ فسیُضَیّعها، و تذهب نفسه علیها حَسراتٍ. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۷ و السّائر فی خطّ التّوبة و المراقبة، یعیش الحالة هذه أیضاً، فإنّ الشّیاطین من الجِنّ و الإنس مُترصّدون لِغوایته، هذا بالإضافة إلی النّفس الأمّارة، و هوی النّفس، فإذا لم یُراقب نفسه و أعماله، فلا یأمن معها، مِنْ أن تسرق جوهرة الإیمان و التّقوی، و ینتقل من هذه الدنیا، خالی الوفاض وصفَر الیدین، و فی الآیات و الرّوایات إشاراتٌ کثیرةٌ، و تلمیحاتٌ متنوعةٌ حول هذه المرحلة، ومنها: ۱- الآیة (۱۴) من سورة العَلَق: «أَلَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری . فهی إشارةٌ إلی مراقبة اللَّه تعالی لَه، وعلیه مُراقبة أعماله أیضاً. وَوَجّه فی آیَةٍ اخری الخطاب لِلمؤمنین: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِمَا تَعْمَلُون» «۱». فَجُملة: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ...»، تبیّن لنا فی الحقیقة مفهوم المراقبة للنفس، علی مستوی السّلوک و العمل. وَ وَرَد نفس المعنی، ولکن بشکلٍ مُقتضبٍ، فی سورة عَبَس، الآیة (۲۴): «فَلْیَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَی طَعَامِهِ»، (من الحلال والحرام) «۲». ۲- ورد عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فی تفسیر الإحسان فی الآیة: «إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ»، فقال: «الإحسانُ أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ کَأَنَّکَ تَرَاهُ فَإنْ لَم تَکُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ یَراکَ» «۳». و من الطّبیعی فإنّ المُعایشة مع هذه الحقیقة، و هی أنّ البّاری تعالی معنا أینما کُنّا، و الرّقیب علینا، من شأنه أن یخلق فینا روح الرّقابة، و نکون معها دائبین علی الإنسجام، مع خطّ الرّسالة من موقع الإلتزام. ۳- ورد حدیثٌ عن أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «یَنْبَغِی أنْ یَکُونَ الرَّجُلُ مُهَیمِناً عَلی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۸ نَفْسِهِ مُراقِبَاً قَلْبَهُ، حافِظاً لِسانَهُ» «۱». ۴- جاء عن الإمام الصادق علیه السلام: «مَنْ رعی قَلْبَهُ عَنِ الغَفلَةِ وَنَفْسَهُ عَنِ الشّهْوَةِ وَعَقْلَهُ عَنِ الجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فی دِیوانِ المتَنَبِّهِینَ ثُمَّ مَنْ رعی عَمَلَهُ عَنِ الهوی وَدِینَهُ عَنِ البِدعَةِ وَ مالَهُ عَنِ الحَرام؛ فَهُوَ مِنْ جُملَةِ الصَّالِحِینَ» «۲». ۵- ما ورد فی الحدیث القُدسی: «بُؤساً لِلقانِطِینَ مِنْ رَحْمَتِی وَیا بُؤساً لَمَنْ عصانی وَلمْ یُراقِبْنِی» «۳». ۶- جاء فی إحدی خطب أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «فَرَحِمَ اللَّهُ إمرءاً رَاقَبَ رَبَّهُ وَتَنکَّبَ ذَنْبَهُ، وَکابَرَ هَواهُ، وَکَذَّبَ مُناهُ» «۴». ۷- وقد ورد فی نهج البلاغة أیضاً: «فاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ تَقِیَّةَ ذی لُبٍّ شَغَلَ التَّفَکُّرَ قَلْبَهُ ... وَرَاقَبَ فِی یَومِهِ غَدَهُ» «۵». نعم فإنّ «الرقابة» علی النفس أو المُراقبة للّه‌تعالی، أو لیوم القیامة، کلّها تعکس حقیقةً واحدةً، ألا و هی النّظارة و الرّقابة الفاحصة الدّقیقة الشّدیدة للإنسان علی أعماله، فی کلّ حالٍ و زمانٍ و مکانٍ. و خلاصة القول: إنّ السّائر إلی اللَّه تعالی، و بعد «المشارطة» مع نفسه وربّه، وبعد تهذیب النفس وتربیتها علی طاعة اللَّه و عبودیّته، علیه المراقبة والمداومة علی العهد الذی قطعه علی نفسه فی خطّ التوبة، کالّدائن الذی یطلب من مدینه وفاء دیونه، فأیّ غفلة عن مخاطر المسیر، ستعود علیه بالضّرر الفاحش، و تؤخره عن الرّکب کثیراً.

الخطوة الرّابعة: المحاسبة

اشارة

رابع خطوة ذکرها العلماء والسالکون فی هذا المجال، هی: «المحاسبة» للنفس، فی کلّ یوم أو کلّ شهر أو کلّ سنة، فَلْینظر الإنسان ماذا قدّم من أعمالٍ حسنةٍ، أو إرتکب من أعمالٍ قبیحةٍ، و یُفکر فی ما یَبدَر منه، من طاعةٍ أو عصیانٍ للّه‌تعالی، أو لهوی النّفس. فیحاسب نفسه حساباً عسیراً، کالتّاجر الذی یحسب فوائده و عوائده من تجارته التی إتّجر بها، و هل عادت علیه بالنّفع أم الضرر؟. فکذلک السّائر إلی اللَّه تعالی فی خطّ الإیمان و التوبة، علیه أن یُحاسب نفسه بأدقّ ممّا یفعله التاجر مع أمواله وتجارته. و المُحاسبة للدین أو للدنیا، لا تخلو من فائدتین: إذا بیّنت الفاتورة، الرّبح الوفیر، فَهو دلیلٌ علی صحّةِ العمل و الدّوام علیه، وإذا ما بیّنت العکس،

فهو الـدّليل على الخطأ و الخطر، فربّمـا تلاعب أحـد موظّفيه، أو خـانه بالإختلاس ومـا شابهها من الامور، فعليه الإسـراع فی التثبّت و التّفحص والإصلاح. و تخبرنا الآيات الكريمة، عن وجود النّظم و الحسابات الدقيقة فی عالم الوجود، وتدعو الإنسان للتّفكر فيها جيّداً، ومنهـا: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فی الْمِيزَانِ» «۱». ونقرأ فی آيةٍ اخرى: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» «۲». وكذلك: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم» «۳». و من جهةٍ اخرى، نجـد أنّ القرآن الكريم، قـد أخبر فی آياتٍ متعـددةٍ، عن وجود حسابٍ دقيقٍ فی يوم القيامـة، كمـا ذكر على لسـان لُقمـان الحكيم لإبنه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فی صَخْرَةٍ أَوْ فی السَّمَوَاتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» «۴». وكذلك: «وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِی أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۰ ومسألة الحساب هذه مهمّةٌ، لدرجة أنّ أحد أسـماء يوم القيامةِ، هو: «يوم الحِساب»: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» «۱». و يكون الإنسان هو الحَسيب على نفسه: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» «۲». و بـالنّظر لهـذه الامور و الظّروف، فـإنّ كـلّ شـیءٍ فی الـدنيا والآخرة يكون بحساب، فكيف يمكن لإنسـان أن يغفـل عن مُحاسبة نفسه، ومن وراءه يومٌ ثقيـلٌ، و كـلّ شـیءٍ بميزانٍ و مقـدارٍ: و من يعمل مثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شـراً يَره) فكلّ ما ذكر آنفاً، يحمل إلينا رسالةً و دعوة، لإثارة عناصـر الإنتباه وعدم الغفلة عن الحساب و المحاسبة، فأنت إذا أردت أن تكون مُخفّاً فی يوم الحساب، عليك الإسراع بمحاسبة نفسك هنا فی الدنيا، قبل أن تحاسب فی الاخرى، و يقال فيها: ولاتَ حينَ مناص. أمّا الروايات، فقـد أشـبعت الأمر بحثاً، و منها: ۱- مـا ورد عن الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، فی حـديثه المعروف: «حاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبلَ أَنْ تُحاسَبُوا، وَ زِنوها قَبْلَ أَنْ تُوزَنوا وَتَجَهَّزُوا للعَرضِ الأَكْبَرِ» «۳». ۲- و عنه صـلى الله عليه و آله مخاطباً أبا ذر رحمه الله: «يـا أَباذَر حاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُ فَإِنَّهُ أَهونُ لِحِسابِكَ غَـداً وَزِنْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُوزَنْ» «۴». ۳- وَ وَرد عن على عليه السلام أنّه قال: «ما أَحَقُّ للإنسانِ أَنْ تَكُونَ لَهُ ساعَةٌ لا يَشْغُلُهُ شاغِلٌ يُحاسِبُ فِيها نَفْسَهُ، فَيَنظُر فِيما إِكْتَسَبَ لَها وَ عَلَيها فی لَيلِها وَ نَهارِها» «۵». فهـذا الحـديث يبيّن لنا بوضوح، مسألـة المحاسبة فی ساعات الفراغ، وهی من الامور الجـديرة بالإنسان الكامل، الـذی يعيش همّ المسؤوليّـة، فی دائرة حركته المنفتحـة على اللَّه تعـالى. ۴- مـا ورد عن الإمـام الصادق عليه السـلام، بنفس المعنى ولكن بشـكلٍ آخر، فيقـول عليه السـلام: «حَقٌّ عَلَى الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۱ كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنـا، أَنْ يُعْرِضَ عَمَلَهُ فی كُلِّ يَومٍ وَلَيلَـةٍ عَلى نَفْسِهِ، فَيَكُونَ مُحاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً استَزادَ مِنْها وَ إِنْ رأَى سَيِّئَةً إِسْتَغْفَرَ مِنْها لِئلّا يُخْزى يَومَ القِيامَةِ» «۱». ۵- ما نُقلَ عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «يا هُشامُ لَيسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ فِی كُلِّ يَومٍ، فإِنْ عَمِلَ حَسَنَةً استَزَادَ مِنْها وَ إِنْ عَمِلَ سَيِّئَةً إِسْتَغْفَرَ اللَّهُ مِنْها وَ تابَ» «۲». فالروايات جمّـةٌ فی هـذا المجال ومن أراد الإكثار، عليه مراجعة مستدرك الوسائل: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس «۳». هـذه الرّوايات كلّها تبيّن أهميّـة المسألة فی الإسـلام، و أنّ مَنْ لم يحاسب نفسه فهو ليس من أتباع الأئمّة عليهم السـلام، الحقيقيين!. و كما أشارت الرّوايات إلى فلسـفة وحكمة هذا الأمر، فهو يزيد من الحسنات، و يمنع الإنسان من السّقوط فی وادی الهلاك والقبائح، و يُساعـده فی إنقاذه من بحر الغفلـة و الضّـياع، و هَلّا ساوينا الامور الماديّـة بالمعنويّـة الروحيّة، ففی الماديّات يُحسب حساب كلّ شـیءٍ، ولكـلٍّ دفتره الخـاص به، دفترٌ: يومی، و سـنوی، و شـهری، و للمخزن ... وو. ولسـنا مُسـتعدّين من وضع ولو ورقـةٍ واحـدةٍ نحاسب فيها أنفسـنا، على ما فعلت فی دائرة الطّاعة و المعصية، للَّهِ تعالى!!. هذا مع وجود فرق كبير بين الأمرين، و لا يُقاس أحدهما بالآخر، أو كما يقال شَتّان ما بين الثَّرى و الثُّريّا، فنقرأ حديثاً عن الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، يقول: «لا يَكُونَ العَبدُ مُؤمناً حتّى يُحاسِبَ نَفْسَهُ أَشد مِنْ مُحاسَبَةِ الشّريكِ شَرِيكَهُ، وَالسَّيِّدِ عَبْدَهُ» «۴». فهـذا الموضوع مهم لِلغايـة، إلى درجةٍ أنّ العلماء كتبوا فيه كتباً عديدةً، و منهم السيد إبن طاووس الحلی رحمه الله المتوفى فی سنة «۶۶۴ للهجرة» فی كتابه محاسـبة النّفس، و كتاب محاسبة النّفس فی إصلاح عمل اليـوم و الإعتـذار من الأمـس، للمرحوم الحـاج ميرزا على الحـائرى الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۲ المرعشـی، (المتوفى فی سنة ۱۳۴۴ للهجرة)، و محاسبة النّفس للسيّد على المرعشی، المتوفى فی سنة (۱۰۸۰ للهجرة «۱»). ويجدر هنا الإشارة إلى عدّة ملاحظات:

۱- كيفيّة محاسبة النّفس و إستنطاقها

و أفضل طريقٍ لذلك، ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام، نقلًا عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فقال: «أَكْيَسَ الكَيِّسِينَ مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ ...» فَقالُوا: يا أَميرِ المُؤمِنِينَ وَكَيفَ يُحاسَبُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ؟. قال: إذا أَصْبَحَ ثُمَّ أَمسى رَجَعَ إلى نَفْسِهِ وَ قالَ: يا نَفسُ إنَّ هذا يَومٌ مضى عَلَيكِ لا يَعُودُ إلَيكِ أَبَداً، وَ اللَّهُ سائِلُكِ عَنْهُ فيما أَفْنَيتَهُ، فَما الَّذِى عَمِلْتَ فِيهِ؟ أَذَكَرْتَ اللَّهَ أَمْ حَمِدْتَه؟ أَقَضَيتِ حَقَّ أَخٍ مُؤمِنٍ؟ أَنَفَّسْتَ عَنْهُ كُربَتَهُ؟ أَحَفِظتِيهِ بِظَهرِ الغَيبِ فِى أَهْلِهِ وَوَلَدِه؟ أَحَفِظتِيهِ بَعْدَ المَوتِ فِى مُخَلِّفِيهِ؟ أَكَفَفتِ عَنْهُ غَيبَةَ أَخٍ مُؤمِنْ بِفَضْلِ جاهَك؟ أَأَعَنْتَ مُسلِماً؟ ما الَّذِى صَنَعْتِ فِيهِ؟ فَيَذكُرَ ما كانَ مِنْهُ، فإنْ ذَكَرَ أَنَّهُ جَرى مِنهُ خَيرَ حَمَدَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ وَكَبَّرَهُ عَلى تَوفِيقِهِ، وإنْ ذَكَرَ مَعْصِيَةً أو تَقْصِيراً اسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ وَعَزَمَ عَلى تَرْكِ مَعاوَدَتَهُ وَمحا ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِتَجْدِيدِ الصَّلاةِ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ وَعَرَضَ بَيعَةَ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ عَلِى نَفْسِهِ وَقَبُولِها، وإعادَةَ لَعَنَ شانِئِيهِ وَأَعدائِهِ، وَدافِعِيه عَنْ حُقُوقِهِ، فإذا فَعَلَ ذَلِكَ قالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: لَستُ اناقِشُكَ فِى شَىءٍ مِنْ الذُّنُوبِ مَعَ مُوالاتِكَ أَولِيائِى وَمُعادَاتِك أَعدَائِى» «۲». نعم فإنّها أفضل طريقةٍ لمحاسبة النّفس، و إلجامها عن الّتمادى فى خطّ العصيان و الّتمرد.

۲- ما هى معطيات محاسبة النّفس؟

الإجابة على هذا السؤال، ظهرت جليةً فى طيّات بُحوثنا السّابقة، و الحَرِىّ بنا هنا الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۲۳ الإستعانة بالأحاديث التى وردت عنهم عليهم السلام، منها: ما ورد عن الإمام على عليه السلام: «مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ وَقَفَ عَلَى عُيوبِهِ، وَ أَحاطَ بِذُنُوبِهِ، و استَقالَ الذُّنُوبَ وَأَصْلَحَ العُيوبَ» «۱». و أيضاً عنه عليه السلام: «مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ سَعَدَ» «۲». و عنه عليه السلام: «ثَمَرَةُ الُمحاسِبِةِ صلاحُ النَّفْسِ» «۳». و يقول بعض العلماء فى هذا الفن، إنّ المحاسبة يجب أن تكون شبيهة، بالمحاسبة بين الشّريكين، فإذا ما وجد النّفع إستمر معه وبارك فى خُطاه، وإلّا فسيكون ضامناً للخسارة فى الحاضر والمستقبل. و أهمّ رأسمالٍ عند الإنسان: هو عمره، فإذا ما قضاه بالخير والمنفعة، فهو الفائز، ولكنه سوف يعيش الخسارة فى إرتكابه لِلذنوب، فموسم هذه التّجارة هى أيّامه، و شريكه فى المعاملة هو النّفس الأمّارة. فأوّل ما يطالبها بالفرائض، فإذا ما أدّتها فليشكر البارى تعالى، وليبارك خُطاه، و إذا ما ضيّعت فريضة ما، فليطالبها بقضائها وإذا كان فيها نقص، فليجبرها بالنّوافل، وعند المعصية يطالبها بالتّكفير عنها، كما يفعل التاجر مع شريكه، فى أتفه الامور و المبالغ التى لا قيمة لها، كى لا يُغبن فى المعاملة، وخصوصاً أنّ الإنسان، يواجه عدوّاً لدوداً مخادعاً، و هو النفس الأمّارة، و ليحاسب نفسه كما تحاسبه الملائكة، فى تداعيات أفكاره، وخواطر نفسه فى قيامه و فى قُعوده، ولماذا تكلّم، ولماذا سكن؟، وهكذا فى كلّ ساعةٍ و كلِّ يوم، و على كلّ فعلٍ و عملٍ، وإذا ما تهاون فى الأمر، فسوف تتراكم على قلبه و روحه الذّنوب و العيوب، و الأنكى من ذلك أنّ الإنسان ينسى ما يفعله بسهولةٍ، ولكنّ الكرام الكاتبين، لا يغفلون ولا يفترون فى عملهم، فقال البارى تعالى: «أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسَوهُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۲۴ ومسك الخِتام، نورد حديثاً يبيّن كيفيّة الحساب فى يوم القيامة، عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «لا تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ يَومَ القَيامَةِ، حَتّى يُسْئَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِى ما أَفناهُ وَعَنْ شَبابِهِ فَى ما أَبلاهُ، وَ عَنْ مالِهِ مِنْ أَينَ كَسَبَهُ وَ فى ما أَنْفَقَهُ وَعَنْ حُبِّنا أَهْلَ البيتِ» «۱».

الخطوة الخامسة: المعاتبة والمعاقبة

بعد «المحاسبة»، يأتى دور المُعاتبة و المُعاقبة للنّفس على أخطائها وأغلاطها، فالحساب بدون إظهار ردّ الفعل، لا فائدة فيه ولا ثمرة، ونتيجته ستكون عكسيةً، بل تحمل النّفس على الجرأة والجسارة و العناد، فى حركة الحياة والواقع، فكما يحاسب الرّئيس موظفيه عن تقصيرهم، و يعاقبهم بنوعٍ ما، وكلٌّ حسب حجم تقصيره، فكذلك يفعل السّائرون فى طريق البارى، فإذا ما جَمَحَت بهم أنفسهم يوماً،

فسوف يعاقبونها لجرأتها على سيّدها ومولاها. و أكّد القرآن الكريم على هذه المسألة، فأقسَم بالنّفسِ اللّوامة، لأهميتها: «لا اقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوامَهْ» «۲»، «۳». و نحن نعلم أنّ النّفس اللوامة، هى الضّمير الحى الذى يردع صاحبه عن إرتكاب المعاصى، و هو نوع من العِقاب للنفس. و من الواضح أنّ العقاب للنفس له درجاتٌ و مراتبٌ، و أوّل ما يبدأ من حالة الملامة، ثمّ يشدّد العقاب، وذلك بحرمان النّفس من بعض اللذائذ الدنيوية لفترة من الزّمن. و أشار القرآن الكريم، لنموذجٍ رائع حول هذا الموضوع، و ذلك بالنّسبة للثلاثة الذين الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۲۵ تخلّفوا فى غزوة تَبوك، و أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، الناس بمقاطعتهم فى كلّ شيءٍ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فعاقبوا أنفسهم على فعلتهم، و إنشغلوا بالتّوبة، و إنعزلوا عن الناس بالكامل، وبعد مدّة تاب اللّه تعالى عليهم، ونزلت الآية الكريمة: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَامَلْجَأَ مِنْ اللّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۱». فجملة: «وضاقت عليهم أنفسهم»، ربّما تكون إشارةً إلى مسألة: «معاقبة النّفس»، بالعزلة التى إختاروها لأنفسهم، فقبلها البارى تعالى منهم، وَ ورد فى شأن النّزول للآية (۱۰۲) من سورة التوبة: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». فهى تشير إلى قصة: «أبو لُبابة الأنصارى»، و هو أحد أصحاب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنّه تهاوَن عن نَصرة رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فى غزوة تَبوك، و بعدها ندم أشدّ الندم، فأراد أن يُكفّر عن فِعلته، فذهب إلى مسجد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وربط نفسه إلى أحد أعمدته، وأقسم أنّ لا يطلق نفسه إلّابموافقة اللّه و رسوله، أو يتوب اللّه تعالى عليه، فبقى على هذه الصورة حتى تاب اللّه تعالى عليه، ونزلت الآية، وصرّحت بقبول اللّه تعالى لِتوبته. و من الواضح، أنّ أبا لُبابة كان قد تحرك من موقع مُحاسبة النفس، و مُعاقبتها على فِعلتها، و هو دليلٌ على أنّ السّير و السّلوك إلى اللّه تعالى، كان موجوداً على عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله. وأمّا جملة: «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً»، فهى أيضاً ربّما تكون إشارةً لذلك المعنى أيضاً، و أَتحفتنا الرّوايات أيضاً، وأرشدتنا إلى موضوع بحثنا، ومنها: ۱- ما ورد عن على عليه السلام، أنّ قال فى أوصاف المتّقين، فى نهج البلاغة: «إن اسْتَصْعَبَتْ عَلَيهِ نَفْسُهُ فى ما تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِها سُؤلَها فِى ما تُحِبُّ» «۲». و المقصود منه، أن يمنع نفسه فى حالة جموحها، من النوم و الرّاحة و الأكل و الشّرب، الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۲۶ لتتأدّب و لتنصاع إليه. ۲- ما ورد فى غُرر الحِكَم، عن ذلك الإمام عليه السلام الهمام، أنّه قال: «إذا صَعُبَتْ عَلَيكَ نَفْسُكَ فاصْعَبْ لَها تَذِلُّ لَكَ». ۳- و عنه عليه السلام: «مَنْ ذَمَّ نَفْسَهُ أَصلَحَها، وَمَنْ مَدحَ نَفْسَهُ ذَبَحها» «۱» ۴- و عنه عليه السلام، قال: «دَواءُ النَّفْسِ الصَّومُ عَنِ الهوى وَالحَمِيةُ عَنْ لَذّاتِ الدُّنيا» «۲». و يحدّثنا التأريخ عن نماذجٍ كثيرةٍ من أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، و العلماء الكبار، و المؤمنين المُخلصين، الذين إذا مسّهم إغواء الشّيطان، و إرتكبوا بعض الذنوب، كانوا يسارعون فى وضع أنفسهم تحت طائلة العقاب، لئلّا يتكرّر هذا العمل منهم مرّةً اخرى فى المستقبل، و منها: ۱- ورد أنّ أحد أصحاب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، و إسمه «ثَعلبة» «۳»، كان من الأنصار، و كان يُؤاخى «سعيد بن عبدالرحمن»، و هو من المهاجرين، و صاحَبَ سعيدٌ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى إحدى غزواته، و خَلّف ثعلبة فى المدينة، مُعتمداً عليه فى حلّ مشاكل بيته و عائلته، و ما يحتاجونه من باقى الامور المعيشيّة، و فى يوم ما، إحتاجت امرأة «سعيد» إلى شيءٍ، فوقفت خلف الباب، تتحدّث مع ثعلبة فى ذلك الأمر، فوسوس له الشّيطان فى ممارسة الإثم، فكشف عن حجابها، فرآها جميلةً جدّاً، فأراد أن يضمّها إلى صدره، ولكنّها نهرته قائلة له: ما تفعل يا ثعلبة، أمِنَ الحقِّ أن يكون أخوك فى الجِهاد، و أنت تُريد بأهلِهِ السّوء؟! إنتبه ثعلبةُ من نومه وغفلته، وأيقظه هذا النّداء من غيّه، فَصاحَ وفرّ على وجهه فى البيداء باكياً، وهو يقول: «إلَهِى أَنْتَ المُعرُوف بِالغُفرانِ وأَنا المَوصُوفُ بِالعِصيانِ» «۴». فبقى فى الصحراء مدّةً طويلةً مُعاقباً نفسه، مَضيّقاً عليها لِما صدر منه، و فى قصّةٍ طويلةٍ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۲۷ تحكى أنّه عاد بعدها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وتاب على يده، فنزلت الآية أدناه لتوكيد قبول توبته، وهى الآية (۱۳۵) من سورة آل عمران: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَآسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ آلذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». ۲- نقل عن حالات الفقيه الكبير، المرحوم آية اللّه، البروجردى قدس سره، عندما كان يجلس للدرس مع طلابه، فربّما

بَدَر منه أثناء النّقاش، أن يرفع صوته بالتّوبيخ لأحد طلّابه، ولم يكن ذلك منه إلّامن باب المحبّة، و علاقة الأب مع إبنه، فكان يندم مباشرةً و يعتذر، و ينذر للصوم فی غَدِه ليُكفّر عن فعله، رغم أنّه لم يصدر منه ما يخالف الشّرع. ٣- نقلُ أحد كِبار عُلماء الأخلاق، عن أحد الوعّاظ، أنّه عندما كان يصعد على المِنبَر للوعظ و الخطابة، و قبل الشّروع كان يُسلّم على الحسين عليه السلام، و لا يبدأ بكلامه حتى يسمع الجواب منه عليه السلام، هذه الحالة المعنوية، لم تحصل لديه إلّابعد حادثةٍ حدثت له مع أحد الوعّاظ، حيث قَرّر فی يوم من الأيّام مع نفسه، يكسر مجلس ذلك الواعظ المعروف، بإيراده كلاماً أبلغ وأحلى من كلام ذلك الشّيخ، فتنبّه لِخَطئه، و أخذ على نفسه بعدم إرتقاء المنبر لمدّة (۴٠) يوماً، عِقاباً لنفسه على فعلتها تلك، فالقى فی قلبه ذلك النّور و تلك الحالة الإلهيّة. «١» و زبدة الكلام، أنّه وللحصول على النتائج و المعطيات، المرجوّة من المراقبة و المحاسبة، أن يتحرك الشّخص فی عملية التّزكية، من موقع معاقبة النفس عند زلَلِها و جُموحها عن الطريق، وإلّا فلا يمكن تَوخّى النّتائج المطلوبة فی نطاق التّهذيب و التّزكية، و هذا لا يعنی أننا نُمضی أعمال و فعال بعض الصّوفيين المنحرفين، كما أورد بعضها الغزالی فی كتابه: «إحياء العلوم»، فما يفعلوه من أعمال خَشنةٍ مُتهوِّرة، و سلوكياتٍ شاذةٍ، فی دائرة معاقبة النفس و جُبران تقصيرها، لا تَمُتّ إلى الدّين بصلةٍ، و قصدنا من المعاقبة، هی أعمالٌ مشروعةٌ فی دائرة المفاهيم الإسلاميّة، كالصّوم، و مخالفة الهوى، و حرمان النفس من بعض لذّاتها المادية، التی لا تخدش فی سماحة الدين ورأفته، بل هی من اسسه. الاخلاق فی القرآن، ج١، ص: ٢٢٨ و كما يقول المرحوم النّراقی، فی «معراج السّعادة»: إذا صدرت من الشّخص مخالفةٌ؛ ما فعليه تأديب نفسه و ترويضها، بالعبادات الثّقيلة مثلًا، أو بإنفاق الأموال التی يحبّها ويجمعها، أو يقوم يتجويع نفسه عند أكله لِلُقمة الحرام، أو يؤدب نفسه بالسّكوت، ويمدح الشّخص الذی يغتابه، أو يجبرها بذكر اللّه تعالى، وإذا إستهان أو استصغر أحداً من الناس لفقره، فليكرمه بالمال الكثير، و كذلك الحال فی بقيّة المعاصی، و الموبقات التی صدرت منه، ولكلٍّ بِحَسَبِه» .«١»

الخطوة السّادسة: «النيّة» و «إخلاص النيّة»

اشارة

تناول العلماء فی بداية مباحثهم الأخلاقية، مسألة «النيّة» و «إخلاص النيّة»، و فرّقوا بينهما وقالوا: إنّ «النيّة» شیءٌ، و «إخلاصُ النيّة» شیءٌ آخر، لكنّهم لم يذكروا فروقاً واضحةً و مشخّصَةً، فأدخلوا إخلاص النيّة فی مبحث النيّة، بحيث يصعب الّتمييز بينهما. و لأجل التّفريق و الّتمييز بينهما، يمكن القول: إنّ المقصود من «النيّة»: هو العَزمُ و الإرادةُ الرّاسختين لفعلٍ ما، بقطع النّظر عن الدّافع الإلهی، أو المادی الذی يقف خلفها. بالطّبع إذا أراد الإنسان أن يرى ثمرة عمله، فی دائرة الواقع وحركة الحياة، فعليه أن يدخل إلى ساحة العمل و السّلوك، بإرادةٍ قويّةٍ، و عزمٍ راسخ، لا تُزلزِلهُ التّحديات، و لا تهزّه الصّعاب، سواءً فی نطاق تحصيل العلم، أو فی الزّراعة و التجارة و السّياسة. و الخُلاصة: إنّ كلّ عملٍ إيجابی، نريد أن نصل به إلى النتائج المرجوّة، علينا فی البداية، أن نتقدم نحو ميدان العمل و الممارسة، بقلبٍ ثابتٍ و إرادةٍ بعيدةٍ عن التّردد، و بالطبع فإنّ هذا الأمر لا يتمّ إلّابالتنظير له، فی مرحلةٍ سابقةٍ، و دراسةِ كلّ جوانبه و الامور المحيطة به، من عوائد و نتائج إيجابيّة أو سلبيّة، و العقبات التی يمكن أن تقف بوجهه، و بعدها المُضی قُدُماً بخطى ثابتةٍ نحو الهدف، فی خطّ العمل و التّطبيق. الاخلاق فی القرآن، ج١، ص: ٢٢٩ و لأجل السّير فی طريق تهذيب الأخلاق و السلوك إلى اللّه تعالى، نحتاج إلى نيّة جادّةٍ، و إرادةٍ حاسمةٍ، لأنّ ضعف الإرادة، يمثّل أكبر عائقٍ أمام تحقيق ما يطمح إليه الإنسان، فی دائرة التّكامل الأخلاقی، فأىّ مانع يقف بوجهه، سُرعان ما يُولّی دُبُرَه و يعود أدراجَه، فالضّعف فی عنصر الإرادة، بإمكانه أن يَتَسرّب إلى سائر القوى الباطنيّة، و بالعكس، فإنّ القویُّ الإرادة، سيقوم بتوظيف قِواه، و ملكاته الداخليّة، و يدفعها بقوةٍ نحو الهدف المنشود. و هذا هو الأمر، الذی عبّر عنه القرآن الكريم ب: «العزم»، و قد سُمّی الأنبياء العظام، لعزمهم القوى، و إرادتهم الحديديّة، ب الأنبياء أولو العزم) «١»

فخاطب القرآن الكريم، الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قائلًا: «فَإذا عَزَمْتَ فَتَوَكّل عَلَى اللَّهِ» «۲». و بالنسبة لآدم عليه السلام، قال: «وَلَقَدْ عَهِدنا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» «۳»، حيث تناول من الشّجرة الممنوعة، ولم تكن لديه إرادةٌ قويةٌ فى خطّ الطّاعة. أمّا فى دائرة الرّوايات الشّريفة، فنرى أنّها توّجهت إلى عنصر العزم، و أكّدت عليه من موقع الأهميّة. ومنها: ما نقل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، فى أدعية رجب، نقرأ: «وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَفضَلَ زَاد الرَّاحِلِ إِلَيكَ عَزْمُ إرادَةً يَخْتارُكَ بِها وَ قَدْ ناجاكَ بِعَزمِ الإِرادَةِ قَلبى» «۴». و فى حديث آخر عن الصّادق عليه السلام، قال: «إِنّما قَدَّرَ اللَّهُ عَوْنَ العِبادِ عَلى قَدْرِ نَيّاتِهِم، فَمَن صَحَّتْ نِيّتَهُ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ، وَ مَنْ قَصُرَتْ نِيّتَهُ قَصُرَ عَنْهُ العَوْنَ بِقَدْرِ الَّذى قَصَّرَهُ» «۵». و فى حديثٍ آخر، عنه عليه السلام: «ما ضَعُفَ بَدَنٌ عَمّا قَوِيتْ عَلَيهِ النِّيَّةُ» «۶». فهذا الحديث، يبيّن لنا فاعليّة الإرادة، و دورها فى الصّعود بالقوى الجسمانيّة، إلى أبعد الحدود والمراتب فى حركة الإنسان. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۰ و من المعانى الاخرى «لِلنيّة»، هو إختلاف الدّوافع، بالنّسبة لِلأعمال الّتى تكون على هيئةٍ واحدةٍ فى الظّاهر، فالذّهاب للجهاد، يمكن أن يكون الباعث له هو كسب الغنائم، أو الإستعلاء على النّاس، أو يكون دافِعُهُ نصرة الحقّ، و دفع الظّلم، و إطفاء نار الفِتن، و أمثال ذلك. فالذّهاب لِلحرب، واحدٌ فى الشّكل و الظّاهر، ولكن شتّان بين النّوايا السّليمة، و بين النّوايا المغرضة. و لأجل ذلك، أتت الأوامر بإصلاح النيّة، و تنقيتها من الشّوائب، قبل السّلوك فى أىّ طريق، و ما السّالك فى خطّ اللَّه، و الكمال المعنوى بِمُستثنى عن ذلك، فهل أنّ هدفه من سلوك سبيل التهذيب والرياضة، هو التّكامل المعنوى، و الوصال الحقيقى، أم أنّه يريد كسب عنصر القوّة فى عالم النفس، و التّسلط على ما وراء الطّبيعة، ليشار إليه بالبَنان؟!. و ما وردنا من حديثٍ: «إنّما الأَعمالُ بالنِّيّاتِ»، هو إشارةٌ لهذا المعنى، وَ وَرد الحديث فى موسوعة: بحار الأنوار، عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال: «إِنّما الأَعمالُ بالنِّيّاتِ و إنَّما لِكُلِّ امرءٍ ما نَوى فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَ مَنْ كانَتْ هِجرَتُهُ إلى دُنيا يُصيبُها أو إمرَأَةٍ يَتَزَوَّجها فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيهِ» «۱». و كذلك الحديث الوارد عن عليٍ عليه السلام، حيث يقول: «عَلى قَدْرِ النِّيَّةِ تَكُونُ مِنَ اللَّه عَطِيَّةٌ» «۲». فهو إشارةٌ إلى نفس المعنى الآنف الذكر. و يُستفاد مما تقدم، أنّه ولأجل الوصول إلى المقاصد والأهداف المنشودة، فى أىّ أمرٍ و عملٍ، و خصوصاً المصيريّة منها، علينا أن نتحرّك فى دائرة العمل، بإرادةٍ قويّةٍ و عزمٍ راسخٍ، فى مُواجهة التحدّيات الصّعبة، لتحقيق الأهداف المرسومة، و بدون ذلك، سيحل فينا عنصر اليأس والحيرة و الضّياع. وكذلك هو حال السّائر فى طريق تهذيب النّفس، و إصلاح الخَلل فى واقعه الداخلى، عليه البدء بإرادةٍ حديديّةٍ، و يدعمها بالتوكّل على البارى تعالى، فى عمليّة السّلوك المعنوى، ويمكن الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۱ أن يتساءل المرءُ عن كيفيّةِ تَحصيل هذه الإرادة القويّة، فى واقعه الدّاخلى و النّفسى. و الجواب واضح جِدّاً، فَنفس الهدفِ المنشودِ، هو الحافز الأصلى الذى يدفع الإنسان نَحوه، فكُلّما كان الهدف سامِياً، كان السّير إليه أقوى وأشد، والخُطى نَحوه أثبت. فإذا أذعن الإنسان لهدف الحقيقة، و هىَ: أنّ وجوده، و الهدف من خلقته، ليس هو إلّا تهذيب الأخلاق و القربُ من اللَّه تعالى، و بِغَفلته أو تَغافُله عنها، سيقع فى مستنقع الرّذائل، و ينحدر فى وادى الظّلمات، فإذا صدّق تلك الحقيقة، و تعمّق فيها، أكثر و أكثر، فسوف يسير على بصيرةٍ من أمره، ثابتَ الخُطى، هادىءَ البال، مرتاحَ الضّمير، رابطَ الجّأش، بل وأكثر من ذلك، سيفدى روحه فى هذا السّبيل، و يكون مِصداقاً ل: «عَجّلْتُ إليك رَبِّ لِتَرضى . و يمكن القول فى جملة واحدة، أنّ الإرادة القويّة منشؤها المعرفة الكاملة، من موقع الوضوح فى الرّؤية و سمّو الهدف، فى وعى الإنسان.

الإخلاص:

المراد من «الإخلاص»، هو: إخلاص النيّة، و أن يكون الهدف، فى دائرة الفكر و السّلوك: هو اللَّه تعالى فقط. و قد يكون هناك أشخاص من ذوى الإرادة القويّة، تمنحهم القوّة للوصول إلى أهدافهم، إلّا أنّ الدّافع الحقيقى لهم، هو: النّفع المادى و المصلحة الذّاتية، ولكنّ أولياء اللَّه و السّالكين فى خطّ الحقّ و الإيمان، يتمتعون بإخلاص النيّة للَّه‌تعالى، إلى جانب الإرادة القويّة. و نرى فى القرآن الكريم و الرّوايات الإسلاميّة، أن عنصر: «الإخلاص»، إلى درجةٍ من الأهميّة، بحيث يُعدّ العامل الأساس فى حركة الإنسان و

الحياة، للفوز في الدنيا و الآخرة، و كلّ عملٍ في الإسلام، لا يقبل إلّاإذا توفّر عنصر الإخلاص للّه‌تعالى، هذا من جهةٍ: و من جهةٍ اخرى: نرى أنّ الإخلاص يعدّ من أصعب الامور، ولا يصل إلى الدّرجة العليا من الإخلاص إلّاالمقرّبون، رغم أنّ حالة الإخلاص محمودةٍ في أيّ مرحلةٍ و مرتبةٍ. الاخلاق في القرآن، ج۱، ص: ۲۳۲ و لنرجع الآن لِلقرآن الكريم، لنستوحي من آياته مسألة الإخلاص. فبعض الآيات تتحدث عن المخلِصين، و البعض الآخر عن المخلَصين من موقع الثناء، و التّمجيد بهم، و منها: ۱- في الآية (۵) من سورة البيّنة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ». حيث تتبيّن أهميّة هذا الموضوع، بالنّظر إلى أنّ الدّين له مفهومٌ واسعٌ يستوعب في إطاره، كلّ العقائد و الأعمال الباطنيّة و الخارجيّة، فالضّمير في: وما امروا، يعود على جميع أتباع المذاهب الإلهيّة والأديان السماوية، و الإخلاص و الصلاة و الزكاة، تمثّل: عناصر مشتركة بين الجميع، فهذا التّعبير في الآية، يبيّن حقيقةً واحدةً ألا و هي أنّ جميع الأوامر الإلهيّة مستقاةٌ من حقيقة التّوحيد و الإخلاص، في خطّ الطّاعة و العبوديّة. ۲- وفي آية اخرى، نجد أنّ القرآن الكريم يوجّه خطابه إلى جميع المسلمين، و يقول: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» «۱». ۳- و في مكان آخر، يخاطب الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و يقول: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» «۲». ويُستشف من هذه الآيات و آياتٍ اخرى، أنّ الإخلاص هو أساس الدّين و دعامته، التي يرتكز عليها في عمليّة تثبيت الإنسان، في خطّ الإيمان و الإنفتاح على اللّه تعالى. و سنتعرّض لِشرح معنى المخلِصين و المخلَصين، و الفرق بينهما في ما بعد، ولكن توجد هنا عباراتٌ على درجةٍ من الأهميّة، على مستوى المفاهيم القرآنية: ۱- الآية: (۳۹ و ۴۰) من سورة الحِجر، تتحدثان عن الشيطان، بعد ما طرد من رحمة اللّه سبحانه إلى الأبد، فقال بعنادٍ: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». فتبيّن هذه الآية، حالة المخلَصين من عباده، و أنّها إلى درجةٍ من القوّة و الإستحكام، حتى الشّيطان قد يأس منهم. ۲- الآية: (۳۹ و ۴۰) من سورة الصافات، تتحدثان عن وعد اللّه تعالى لعباده المخلَصين، الاخلاق في القرآن، ج۱، ص: ۲۳۳ بثوابٍ لا يعلمه إلّاالبارى تعالى، فيقول: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ». ۳- الآية: (۱۲۷ و ۱۲۸) من سورة الصافات، أيضاً صعدت بمقام المخلَصين، إلى درجةٍ أنّهم معفوّون من الحساب والحضور في المحكمة الإلهيّة، ويدخلون الجنّة مباشرة. ۴- الآية: (۱۵۹ و ۱۶۰) من نفس السورة، وصفت المخلَصين، بأنّهم الوحيدون الذين يصحّ منهم وصف الذات المقدسة، ممّا يدلّ على عمق معرفتهم الحقيقة بحقيقة الالوهيّة: «سُبْحانَ اللَّهِ عَمّا يَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ». فوصفهم للّهِ، لا إشكال فيه. ۵- الآية: (۲۴) من سورة يوسف، تحدّثت عن الحصانة الإلهيّة للنبي يوسف عليه السلام، في مقابل وساوس إمرأة العزيز الشّيطانيّة، فقال: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». أمّا ما الفرق بين المخلِصين والمخلَصين؟، هنا نجد تفسيراتٌ كثيرةٌ، و يمكن القول أنّ أفضل هذه التّفاسير، هو الذي يقول: أنّ «المخلِص» هو الذي يتحرك في طريق الإخلاص للّه‌تعالى، بعيداً عن كلّ الشّوائب و الأدران و المقاصد غير الإلهيّة، في دائرة الفكر والنيّة، و يتحرك بعيداً عن الرّذائل و القبائح، في دائرة الفعل والمُمارسة، أمّا «المخلَصين»، فهو الذي تحضره العناية الربانيّة، و المدد الإلهي، لرفع آخر شائبة من قلبه، و يشمله لطف الربّ لتخليصه من كلّ ما لا يحب و يرضى. وتوضيح ذلك: إنّ الشّوائب التي تصيب قلب الإنسان ووجوده على نوعين: نوعٌ يكون الإنسان منها على بصيرةٍ، و يسعى لإزالتها من واقع وجوده، بإخلاص النيّة والعقيدة والعمل، ويُوفّق في مسعاه. أمّا النّوع الآخر، فهو خفي لا يحسّ به الإنسان في مسارب النّفس و الرّوح، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ الشِّركَ أَخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّملِ عَلى صَخْرَةٍ سَوداءٍ في لَيْلَةٍ ظَلْماءٍ» «۱». الاخلاق في القرآن، ج۱، ص: ۲۳۴ فهنا لا يمكن العبور من هذه المطبّات، إلّابتوفيقٍ من الباري تعالى، و تسديدٍ إلهي يشمل حال السّائرين إليه، و بدونه ستبقى الشّوائب عالقة في القلب و النّفس، و كأنّ الباري تعالى يريد أن يُتحف هؤلاء المخلِصين، الذين لم يتخلّصوا تماماً من عَلَق الشّوائب، و وصلوا بالقرب من النّهاية، بأن يبدل شوائبهم باليّقين، بلطفه و عنايته، و يجعلهم في عداد المخلَصين. فعند وصول الإنسان إلى هذه المرحلة، يكون في مأمَنٍ من الأهواء، و من الوساوس الشّيطانية، بما يمثّل من تحدّيات صعبة في طريق التّكامل، و بالتّالي ينقطع طمع الشّيطان فيه، ويظهر عجزه عن إغوائه بصورةٍ رسميّةٍ. و هنا يستقر المخلَصين في النّعيم الخالد، و يرتعون بالمواهب الإلهيّة، و يكون

ثناؤهم و توصیفهم، للذات المقدّسة بالصّفات الجمالیّة و الجلالیّة الإلهیّة، قد صبغت بصبغة التّوحید الخالص، وبما أنّهم صفّوا حساباتهم فی هذه الدنیا، فستكون عاقبتهم أنّهم سیدخلون الجنّة بغیر حساب. و یصف الإمام علی علیه السلام فی بعض خطبه، التی وردت فی نهج البلاغة، اولئك المخلصین، فیقول: «قَدْ أَخْلَصَ للَّهِ فَاسْتَخْلَصَ» «۱». و قال الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله: «فَعِنْدَ ذَلِكَ إسْتَخْلَصَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِنُبُوَّتِهِ وَ رِسالَتِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ المُشَرِّفَةِ الطَّیِّبَةِ ... مُحَمَّداً اخْتَصَّهُ لِلنُبُوَّةِ وَاصطَفاهُ بالرِّسالَةِ» «۲». و فی حدیثٍ آخر عن أحد المعصومین علیهم السلام أنّه قال: «وَجَدْتُ ابنَ آدمَ بَینَ الشَّیطانِ فَإنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمائَهُ، خَلَّصَهُ وَ آسْتَخْلَصَهُ وَإلّا خَلّی بَینَهُ وَبَینَ عَدُوِّهِ» «۳». و الخلاصة، إنّ الإخلاص فی النّیة و الفكر و العمل، هو من أهمّ الخُطی فی عملیّة التّهذیب و التّربیة و السّیر إلی اللَّه تعالی.

الإخلاص فی الرّوایات الإسلامیّة:

و أتحفتنا الروایات بزخم كبیر من المفاهیم، التی تدور حول محور الإخلاص، و نشیر إلی بعضٍ منها: ۱- ما جاءنا عن الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «ثَلاثٌ لایَغُلُّ عَلَیهِنَّ، قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، إخلاصُ العَمَلِ للَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَ النَّصِیحَةِ لِأئِمَّةِ المُسْلِمِینَ، و اللُّزُومَ لِجَماعَتِهِم» «۱». ۲- ما ورد عنه صلی الله علیه و آله، فی حدیثٍ آخر: «الإخلاصُ سِرٌّ مِنْ أَسرارِی اسْتَودِعَهُ قَلْبَ مَنْ أَحَبَبْتُهُ مِنْ عِبادِی» «۲». ۳- قال الإمام علی علیه السلام: «الإِخلاصُ أَشرَفُ نِهایَةٍ» «۳». ۴- فی حدیث آخر عنه علیه السلام، قال: «الإخلاصُ أَعلَی الإِیمانِ» «۴». ۵- وعنه علیه السلام: «فِی إخلاصِ الأَعمالِ تَنافَسَ اولُوا النُّهی وَالألبابِ» «۵». ۶- ما ورد فی أهمیّة الاخلاص بحیث أنّ الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله، قسّم المؤمنین وفق درجات إخلاصهم، فقال: «بِالإخلاصِ تَتَفاضَلُ مَراتِبُ المُؤمِنِینَ» «۶». ۷- و فی بیان أنّ آخر مرحلةٍ من مراحل الیّقین، هو الإخلاص، قال الإمام علی علیه السلام: «غایَةُ الیَقِینِ الإخلاصُ» «۷». ۸- ما ورد من معطیات الاخلاص علی مستوی العمل، لدرجة أنّ قلیلًا منه یكفی للنّجاة، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «أَخْلِصَ قَلْبَكَ یَكْفَیكَ القَلِیلَ مِنَ العَمَلِ» «۸». ۹- وقال علی علیه السلام: «الإِخلاصُ عِبادَةُ المُقَرَّبِینَ» «۹». ۱۰- و نختم هذه الأحادیث، بحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال علیه السلام: «طُوبی لِمَنْ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳۶ أَخْلَصَ للَّهِ العِبادَةَ وَالدُّعاءِ، وَلَمْ یَشْغَلْ قَلْبَهُ بِما تَری عَیناهُ، وَلَمْ یَنْسَ ذِكْرَ اللَّهِ بِما تَسْمَعُ اذُناهُ وَلَمْ یَحْزَنْ صَدْرُهُ بِما اعطِی غَیْرَهُ»».

حقیقة الإخلاص:

یقول المرحوم الفیض الكاشانی، فی المحجّة البیضاء حول هذا الموضوع: «إعلم أنّ كلّ شیء یتصور أن یشوبه غیره، فإذا صفا عن شوبه، و خلص عنه سمّی خالصاً وسُمّی الفعل المصفّی، المخلص إخلاصاً، قال اللَّه تعالی: «وَإِنَّ لَكُمْ فی الأَنعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِیكُمْ مِما فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِینَ» «۲»، فإنّما خلوص اللّبن، أن لا یكون فیه شوب من الدم و الفرث، و من كلّ ما یمكن أن یتمزج به والاخلاص، یضادّه الإشراك، فمن لا یكون مخلصاً فهو مشرك، إلّاأنّ للشّرك درجاتٍ، و الإخلاص فی التوحید یضادّه الشرك فی الإلهیّة، و الشّرك منه خفی ومنه جلّی وكذلك الإخلاص» «۳». و كذلك ما ورد من تعبیرات لطیفةٍ فی الرّوایات، تبیّن الإخلاص الحقیقی والمخلصین الحقیقیین، منها: ۱- الحدیث الوارد عن الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «إنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِیقَةً، وما بَلَغَ عَبْدٌ حَقِیقَةَ الإخلاصِ، حَتّی لا یُحِبَّ أَنْ یُحْمَدَ عَلَی شَیءٍ مِنْ عَمَلٍ للَّهِ» «۴». ۲- نقل عنه صلی الله علیه و آله: «أَمّا عَلامَةُ الُمخْلِصِ فَأَربَعَةٌ، یُسْلِمُ قَلْبُهُ وَتُسلِمُ جَوارِحُهُ، وَبَذَلَ خَیْرَهُ وَكَفَّ شَرَّهُ» «۵». ۳- فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السلام، أنّه قال: «لا یَكُونُ العَبْدُ عابداً للَّهِ حَقَّ عِبادَتِهِ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳۷ حَتّی یَنْقَطِعَ عَنِ الخَلْقِ كُلُّهُ إلَیهِ، فَحِینَئِذٍ یَقُولُ هذا خالِصٌ لِی فَیَتَقَبَّلَهُ بِكَرَمِهِ» «۱». ۴- و أخیراً یقول الإمام الصادق علیه السلام: «ما أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَی عَبْدٍ أَجَلَّ مِنْ أَنْ لا یَكُونَ فِی قَلْبِهِ مَعَ

اللَّهِ غَيْرُهُ» «۲». الآن بعدما عرفنا أهميّة الإخلاص، ودوره العميق فى سلوك طريق الحّق و القرب من اللَّه، و السّير فى حركة الإنسان فى خط الإيمان والتوحيد، يبقى هنا سؤال يفرض علينا نفسه، وهو كيف يمكننا تحصيل الأخلاص؟ لا شك أنّ الإخلاص فى النيّة، هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهيّة، و كلمّا كان الإنسان متيقناً على مستوى التّوحيد الأفعالى، وأنّ كلّ شىء فى عالم الوجود يبدأ من اللَّه تعالى ويعود إليه، وهو المؤثر الأول وعلّة العلل وأنّ الاسباب و العِلل الجليّة والخفيّة خاضعة لأمره وتدبيره، فحينئذٍ يكون سلوك هذا الإنسان مُنسجماً مع هذه العقيدة، بالمستوى الذى يكون فيه عمله فى غاية الخُلوص، لأنّه لا يرى مُؤثّراً فى الوجود غير اللَّه، يثير فى نفسه الدّوافع المضادّة للإخلاص، و الحركة فى غير طريق التّوحيد. و عكست الرّوايات هذه الحقيقة، فقال الإمام على عليه السلام: «الإخلاصُ ثَمَرَةُ اليَقِينِ» «۳». و عنه عليه السلام: «ثَمَرَةُ العِلْمِ إخلاصُ العَمَلِ» «۴». وأخيراً تناول الإمام على عليه السلام المسألة بشىءٍ من التفصيل، فقال: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَ كَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصدِيقُ بِهِ، وَكَمالُ التَّصدِيقِ بِهِ، تَوحِيدُهُ، وَكَمالُ تِوحِيدِهِ الإِخلاصُ لَهُ» «۵».

موانع الإخلاص:

أشار علماء الأخلاق الأفاضل إلى هذه المسألة إشارات دقيقة وواضحة، فقال البَعض، إنّ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۸ موانع الإخلاص وآفاته على نحوين: جليّةٌ، و خفيّةٌ. فبعضها خطر جداً، و البعض الآخر أضعف، و الشّيطان و النّفس الأمّارة، يسعيان لتكدير صفاء القلب، و تلويثه بالرّياء، بالمستوى الذى يحوّل الإنسان إلى كيان مهزوزٍ، أمام حالات الخطر، و يشلّ فيه إرادة المُواجهة. فَبعضٌ من مراحل الرّياء واضحةٌ للعيان، بحيث يمكن لكلّ فرد التّوجه إليها، مثلما يأمر الشّيطان المصلى بالتوءدة بصلاته، كى يراه الناس ويقولوا هذا إنسانٌ مؤمنٌ، فلا يتحرّكون من موقع الغِيبة له و الوَقيعة فيه. فهذه من حيل الشّيطان الجليّة. و يمكن أن تكون وساوس الشيطان بصورةٍ أخفى حيث تتلبّس بلباس الطّاعة، فمثلًا، يلقى فى نفسك: أنّك إنسانٌ معروفٌ، و النّاس تشير إليك بالبَنان، و يجب أن تكون طاعتك وعبادتك على أتمّ الصّحة، لكى يقتدى بك الناس فى أعمالهم، وستكون شريكاً معهم فى ثوابهم، فَهنا ستستسلم لأحابيل الرّياء من دون أن تشعر. أو تكون الخُدع والحيل أشدّ وأقوى وأخفى فمثلًا يقول للمصلّى إنّ العبادة فى السرّ يجب أن تكون مثلها فى العلانية، والذى تكون عبادته فى السّر، أدنى مستوى من العلانية، يعتبر من المرائين، و بهذه الصّورة يدفعه ليحسن صلاته وينمّق عبادته فى الخفاء، ليكون كذلك فى صلاته أمام الناس، و هذا نوعٌ من الرّياء الخَفى، و يمكن أن يغفل عنه الكثيرون، وكذلك المراحل الأخفى والأشد «۱». نعم فإنّ آفات الإخلاص كثيرةٌ، و لا يستطيع أىّ إنسانٍ العبور منها، إلّابتوفيق ربّانى، و لطفٍ إلهى. و نجد هذا المعنى كذلك فى الرّوايات الإسلاميّة، حيث أتحفتنا بما يلزم، للتنبيه على آفات الإخلاص ومنها: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۹ ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام، حيث قال: «كَيفَ يَستَطِيعُ الإخلاصُ مَنْ يَغْلِبَهُ الهوى «۱». و فى الواقع فإنّ ما ذُكر فى الحديثِ، آنفاً، هو أهم وأقوى آفات الإخلاص، نعم فإنّ هوى النفس، يكدّر عين الإخلاص و يُظلِمُها. و عنه عليه السلام، قال: «قَلِّلِ الآمالَ تَخْلُصُ لَكَ الأعمالُ» «۲». و الجدير بالذّكر، أنّ الوساوس يمكن أن تأتى بشكلٍ آخر، فتقول للمُصلى لا- تذهب لِصلاة الجماعة، لأنّ نيّتك يمكن أن تتلّوث بالرّياء أمام الناس، وعليك بإقامة الصّلاة فى بيتك، لكى تعيش أجواء الإخلاص فى خطّ العبادة و الصلاة، و تتخلص من براثن الرّياء!!. أو يدعوه لترك المستحبات لنفس السّبب، لِيحرمه من ثوابها. ولعل هذا هو السّبب فى دعوة القرآن الكريم، للإنفاق بالسرّ و العَلانية: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «۳». و نختم بحثنا بملاحظةٍ مُهمّةٍ، ألا و هىَ، أنّ الإخلاص فى السرّ، ليس بتلك الدرجة من الصّعوبة والأهميّة، بل المهم هو أن يعيش الإنسان، حالة الإخلاص فى العلانية، و أمام مرأى و مسمعٍ من الناس.

معطيات الإخلاص:

بما أنّ حالهٔ الإخلاص، تُمثّل أغلى جوهرةٍ تُحفظ فى خزانهٔ الرّوح، و ما يترتّب على هذه الحالهٔ من معطيات إيجابيةٍ مهمّةٍ، فقد أوردت الرّوايات تلك المسألهٔ، بصورةٍ بليغةٍ جميلةٍ، و منها: «ما أَخْلَصَ عَبْدٌ للّهِ عَزَّوَعَلَّ أَربَعِينَ صَباحاً إلّاجَرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسانِهِ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۰ و فى حديثٍ آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «عِنْدَ تَحققُ الإخلاصُ تَسْتَنِيرُ البَصائِرُ» «۱». وَ وَرد عنه عليه السلام أيضاً: «فِى إخلاصِ النيّاتِ نَجاحُ الامورِ» «۲». و يتّضح من ملاحظهٔ هذا الحديث، أنّالنيّهٔ كلّما أخلصت، كان الإهتمام بباطن الأعمال أقوى، أو بتعبيرٍ أدق: إنّ الجَودهٔ و الدّقهٔ على مستوى السّلوك و العمل، ستكون فى ذَروتها، ونجاح العمل سيكون مضموناً، و العَكس صحيحٌ، فإذا كان الهدف يتركز على معالم الظاهر فقط، دون أن يولّى أهميّةً للمحتوى، فسيكون مصير العمل إلى الفَشل و الخَيبهٔ. و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَو خَلُصَتِ النِّيَاتُ لَزَكَّتِ الأَعمالُ» «۳».

الرّياء:

النقطهٔ المقابلهٔ للإخلاص هى: «الرّياء»، و قد ورد ذمّه بكثرةٍ فى الآيات و الروايات الشريفهٔ، التى نهرت النّاس من هذا العمل المُشين، و إعتبرته من أوضح مصاديق الشّرك الخفى، و علّهٔ بطلان الأعمال، و علامهٔ من علامات النّفاق. و نجد فيها أنّ الرّياء يهدم الفضائل، و يزرع بذور الرّذائل فى روح الإنسان، وُ يشغله عن الهدف الأساسى الحقيقى، فى خطّ الرّسالهٔ و الإستقامهٔ. و هو أداةٌ قويةٌ مؤثرةٌ بيد الشّيطان الرّجيم، لإضلال و صرف النّاس عن الطّريق الصّحيح، و تحويلهم من دائرهٔ الإيمان، إلى دائرهٔ الكفر و الإنحراف. و نعود هنا للآيات القرآنيهٔ الكريمهٔ، التى ترينا وجه المرائى القبيح، و النّتائج السلبيّهٔ المترتّبهٔ على الرّياء: ۱- «يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۱ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَايَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» «۱». ۲- «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» «۲». ۳- «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» «۳». ۴- «وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً» «۴». ۵- «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» «۵». ۶- «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» «۶».

تفسير و إستنتاج:

«الآيهٔ الاولى»: تبيّن أن المنّ بالصدقات و إيذاء الآخرين، يدخل فى عداد الرّياء و يمحق أعمال الخير، وتبيّن أنّ المرائى لا يعيش الإيمان باللّه ولا باليوم الآخر، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ...»، وبعدها يشبّه هؤلاء الناس بمثل الذى يُنفق أمواله من موقع الرّياء: «كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...». وجاء فى ذيل الآيهٔ: تشبيهٌ جميلٌ جدّاً لأعمالهم العقيمهٔ، التى لا تثمر فى نطاق المعنويّات و ترتب الثّواب، فأعمالهم كالصّخر الذى يعلوه التراب، فيَشتَبِه الفلاح فى أمره، فيبذر فيه البذور بأمل الخصب و الزّرع، فيأتى المطر ويزيل كلّ شىءٍ، فقال: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۲ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً». و من المؤكد أنّ مثل هذا العمل و الزرع، لن يثمر أو يورق، فكذلك سبحانه و تعالى، لا يهدى من ينطلق فى تعامله مع اللّه تعالى من موقع الرّياء والكفر، «لَايَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ». فعرّفت الآيهٔ مثل هؤلاء الأفراد بالمرائين الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر، و مرّهٔ اخرى عرّفتهم بالكافرين، الذين تتحرك أعمالهم كالسّراب المخادع، الذى لا قيمهٔ له، لأنّهم بذروا أعمالهم فى أرض الرّياء السّبخهٔ التى لا تصلح للزراعهٔ، و يوجد إحتمال آخر فى تفسير الآيهٔ، و هو أنّ المرائى نفسه بمثابهٔ قطعهٔ الصّخر، التى لا يثبت عليها التراب، ولا يفيد معه أىّ بذرٍ من بذور الخير و الصّلاح. نعم! فأرواحهم مريضةٌ و

أعمالهم عقيمـة، لا تقوم على أساس من الخير، و نيّاتهم مشوبـة بدرن الرّياء و الشّـرك الخَفى. و اللّطيف: أنّ الآية التى تلتها فى سورة البقرة، شبّهت أعمال المخلصـين، بجُنينةٍ لا بذور فيها إلّا بذور الصّـلاح، فأصابها وابلٌ فنبتت نَباتاً حسناً، فأثمرت ثمراً مضاعفاً و مُباركاً فيها. «الآيـة الثانيـة»: خاطبت الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، و أمرته بإيصال التّوحيد الخالص للنّاس، إنسـجاماً مع خطّ الرّسالة، و بإعتبار أَنَّ التّوحيدَ أصلٌ أساسى فى الإسـلام: «قُلْ إِنّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ إِنّما إِلَهُكُم إِلهٌ واحِدٌ». و بذلك يستوحى المؤمن من جو الآيـة الكريمـة، أنّ الأعمال يجب أن تكون خالصـةً و منزّهـةً من أدران الشّـرك: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْـرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً». و عليه فإنّ الشّـرك فى العبادة، يهدم أساس التّوحيد، و الإعتقاد بالمعاد فى حركة الإنسان و الحياة، أو بتعبيرٍ أدق: فإنّ جواز السّـفر إلى الجنّة الخالـدة، يتمثل بخُلوص العمل فى دائرة السّـلوك و النيّـة. و جاء فى شأن نزول الآية: قال إبن عباس: أنّهـا نزلت فى جُنـدب بن زهير العـامرى، قال: يا الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۴۳ رسول اللّه إنّى أعمـل العمل للّهتعالى، واريـد به وجه اللّه تعالى، إلّاأنّه إذا إطّلع عليه أحـد من الناس سـرّنى؛ فقال النّبى صـلى الله عليه و آله: «إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلا يَقْبَلُ إِلّا الطَّيِّبَ وَلا يَقْبَلُ ما شُورِكَ فِيهِ» «۱». وجاء فى شأن نزول الآيـة أيضاً، قال طاووس: قال رجل: يا رسول للّه! إنى احبّ الجهاد فى سبيل اللّه تعالى واحبّ أن يرى مكانى، فنزلت الآيـة. «۲» وَ وَرد مثل هذا المضـمون بالنّسبة للإنفاق وصِلة الرّحم «۳»، وتبيّن أنّ الآية الآنفة: نزلت بعد الأسـئلة المختلفـة، فى الأعمال المشوبة بغير الأهداف الإلهيّة، و قد إعتبرت المُرائى على حدّ من يعيش حالة الشّرك باللّه و الشّـخص الذى لا إيمان له بالآخرة. و نقرأ فى حديثٍ آخر، عن الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله: «مَنْ صَـلّى يُرائى فَقَدْ أَشرَكَ، وَ مَنْ صامَ يُرائِى فَقَدْ أَشـرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرائى فَقَدْ أَشرَكَ، ثُمَّ قَرَأ: فَمَنْ كانَ يَرجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ...» «۴». «الآيـة الثّالثة»: بيّنت أنّ الرّياء هو من فعل المنافقين: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا». والجـدير بالـذكر أنّ النّفاق عبارةٌ عن إزدواجيـة الظّاهر والباطن، وكـذلك الرّياء فهو إزدواجيـة الظاهر والباطن، حيث يتحرك المرائى فى أعماله لجلب الأنظـار، فمن الطّبيعى أن يكون الرّيـاء من برامـج المنـافقين. «الآيـة الرابعـة»: إعتبرت الأعمـال التى ينطلق بهـا الإنسان من موقع الرّياء، مساويـةٌ لعـدم الإيمان باللّه تعالى واليوم الأخر: «وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً». و عليه فإنّ المرائين هم أصـحاب الشـيطان، الذين يفتقدون الإيمان الحقيقى بالمبدأ و المعاد. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۴۴ «الآية الخامسة»: تنهى المسـلمين من التشبّه بأعمال المشركين الكفّار، الذين لا يفعلون شيئاً إلّاللرياء و التّفاخر فقط: «وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ خَرَجُـوا مِنْ دِيَـارِهِمْ بَطَراً وَرِئَـاءَ النَّاسِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيـلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَـا يَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ». فطبقـاً للقرائن و الشـواهد الموجودة، وتصـديق المفسّـرين، فإنّ هذه تشـير إلى خروج المشـركين من قريش فى يوم بَدر، بحليّهم وزينتهم وقد جلبوا معهم آلات الطّرب و اللّعب و اللّهو و النبيذ، وهم يقصدون جلب أنظار أصـحابهم من المشركين الوثنيين. و جاء فى بعض التّفاسير، أنّ منطقة بدر، كـانت تعتبر من المراكز التّجاريـة لعرب الجاهليّـة فى وقتهـا، و أنّ أبـا جهـل جاء بوسائل الطرب و الجوارى، لغرض مُراءاة النّاس، وفَقْأ العيون كمـا يقول المثـل الشّـائع. و على كلّ حال، فإنّ القرآن الكريم قـد نهى المؤمنين من أمثال هـذه الأعمال الشائنـة، و دعاهم إلى ترويض النّفس بالإخلاص و التّقوى، للتغلب على تلـك الحالات النفّسيـة الخطرة، و أن لا ـ ينسوا مصـير المُرائين و أتباع الشّـيطان فى معركـة بـدر. «و الآية الأخيرة»: من الآيات مورد البحث، نجدها تذّم الرّياء ولكن بصورة اخرى فتقول: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَـلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ». فقـد جاءت كلمة «الويل»، فى (۲۷) مورداً من القرآن، و إختصّت فى الأغلب بالـذّنوب الكبيرة الخطرة جـدّاً، وهنا تحكى عن شـدّة قُبح ذلك العمل فى واقع الإنسان و روحه. إنّ ما ورد فى الآيات الآنفـة الـذكر، يوضح إلى درجةٍ كبيرةٍ، قُبحَ هذه الخطيئة، و أخطارها و آثارها السـلبيّة على سـعادة الإنسان فى حركة الحياة، و من الواضح فإنّ الرّياء يقف حَجرَ عثرةٍ فى طريق تهذيب النّفس، و طهارة القلب و الرّوح للإنسان المؤمن.

الرّياء فى الرّوايات الإسلاميّة:

تطرقت الرّوايات لهـذا الأمر بقوّةٍ و أهميّـة بالغةٍ، و عرّفت الرّياء بأنّه من أخطر الذّنوب، و منها: ۱- ما وَرد عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قـال: «أَخْوَفَ مـا أَخافُ عَلَيكُمْ الرِّياء و الشَّهوةُ الخَفِيّةُ» «۱». ويمكن أن يكون المراد من الشّـهوة الخفيّة، هو المقاصـد الخفيّة للرياء. ۲- و أيضـاً ما نقل عنه صـلى الله عليه و آله: «أَدنى الرِّياءِ شِـرْكٌ» «۲». ۳- وأيضـاً عنه صـلى الله عليه و آله: «لا يَقْبَلُ اللَّهُ عَملًا فِيهِ مِقدارُ ذَرَّةٍ مِنْ رِياءٍ» «۳». ۴- و عنه صـلى الله عليه و آله: «إنَّ المُرائِى يُنادى يَومَ القِيامَةِ يا فاجِرُ يا غادِرُ يا مُرائى ضَلَّ عَمَلُكَ وَ حَبَطَ أَجْرُكَ إذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّن كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ» «۴». ۵- و قال أحد أصـحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، رأيت رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فى يوم مـا باكيـاً، فقلت: ما يُبكيك يا رسول اللَّه؟ فقال: «إنّى تَخَوَّفْتَ عَلى أُمَّتِى الشَّركَ، أَمّا إنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ صَنَماً وَلا شَمْساً وَ لاقَمَراً وَلا حَجرَاً، وَلَكِنَّهُم يُراؤُونَ بِأَعْمالِهِم»». ۶- و فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله قال: «إنَّ المَلَكَ لَيَصْعَدُ بِعَمَلِ العَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ فَإذا صَعَدَ بِحَسَناتِهِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إجْعَلُوها فِى سِجِّينٍ إنَّهُ لَيسَ إيَّاىَ أرادَ بِها» «۶». ۷- و أيضاً عنه صـلى الله عليه و آله: «يَقُولُ اللَّهُ سُبْحانَهُ إنِّى أَغْنَى الشُّرَكـاءِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا ثُمَّ أَشْرَكَ فِيهِ غَيرى فَأَنَا مِنْهُ بَرِىءٌ وَهُوَ لِلَّذِى أَشرَكَ بِهِ دُونِى» «۷». هـذه الأحاديث السّـبعة عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، بيّنت أنّ إثم الرّياء بدرجـةٍ من الشـدّة، بحيث لا الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۶ يضاهيه شـىءٌ من الذّنوب و الخطايا، و ما ذلك إلّاللنتائج السّـيئة للرّياء فى نفس وروح الإنسان، وكذلك على مستوى الفرد والمجتمع. أمّا ما ورد عن الأئمّـة عليهم السـلام: ۸- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السـلام، ينقل عن جـدّه عليه السـلام: «سَـيأتِى عَلَى النَّاسِ زَمانٌ تَخْبَثُ فِيهِ سَرائِرهُمْ وَتَحْسُنُ فِيهِ عَلانِيَّتِهِم، طَمَعاً فى الـدُّنيا لا يُريدُونَ بِهِ ما عِنْدَ رَبِّهِم يَكُونَ دِينُهُمْ رِياءً، لايُخالِطُهُم خَوْفٌ، يَعُمُّهُمُ اللَّهُ بِعِقابٍ فَيَدْعُونَهُ دُعاءَ الغَرِيقِ فلا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ» «۱». ۹- و فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «كُلُّ رِياءٍ شِرْكٌ، إنَّهُ مَنْ عَمِـلَ لِلنَّاسِ كانَ ثَوابُهُ لِلنّاسِ، وَ مَنْ عَمِلَ لِلَّهِ كانَ ثَوابُهُ عَلَى اللَّهِ» «۲». ۱۰- و فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام، قـال: «المُرائِى ظاهِرُهُ جَمِيلٌ وَ باطِنُهُ عَلِيلٌ» «۳». و قـال أيضاً: «ما أَقْبَحَ بِالإنسانِ باطِناً عَلِيلًا وَ ظاهِراً جَمِيلًا» «۴». و مـا ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، و عن الأئمّة الهداة، فى هذا المجال كثير.

فلسفة تحريم الرّياء:

قـد يتعجّب البعض الذين يعيشون السّذاجة الفكريّة، عند نظرهم و للوهلة الاولى، للروايات التى تتعرض لمسألة الرّياء، و نتائج المرعبة، و يتصورون أنّ عمـل الإنسـان إذا كـان سـليماً ومنتجـاً فى واقعه الخـارجى، فأيّـاً كانت النيّـة و الـدّافع، فلن يؤثر ذلك فى تغيير العمل، فالـذى يبنى مُستَشـفاً! أو مسـجداً أو يعبّـد الطّرق و الجسور .. و غيرهـا من الامور التى تصبّ فى الصّالـح العام للناس، فعمله صـحيحٌ و حسنٌ مهمـا كـانت نيّته، فلْنـدَع النّاس يفعلوا الخير، وما لنا والنيّـة!! الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۷ ولكن الخطأ الفادح يكمن هنا لأنّـه: أولًا: إنّ كـلّ عمـلٍ و فعلٍ يترتب عليه نوعان من ردود الفعل، أحـدهما ما ينعكس أثره فى نفس الإنسان، والآخر ما يترتب على الفعل فى الخارج، فالمُرائى يحطّم نفسه من الدّاخل و يُبعدها عن التّوحيد و الدّين الحنيف، و يوقعها فى وادى الشّرك، و يعتبر عزّته و إحترامه رهنٌ بيـدَ النّاس، و ينسـى قُـدَرة البارى تعالى فى دائرة التّصـرف فى عالم الوجود، و بهـذا يكون الرّياء نوعاً من الشّـرك باللَّه تعـالى، و يُفضـى إلى نتائـج وخيمـة على مسـتوى الأخلاق و القِيَم الإنسانيـة. و ثانياً: بالنّسبة للعمل الخارجى، الـذى يقصـد به الرّياء و السّـمعة، فالمجتمع هو الخاسـر الأوّل فى هـذا المضـمار، لأنّ المرائى يسـعى لتحسـين عمله، على مسـتوى الظّاهر فحسب دون الإهتمام بالباطن، ممّا يُفضـى إلى تحويل العمل، إلى إنحراف و إفسادٍ على المسـتوى الإجتماعى. و بعبارةٍ اخرى: إنّ المجتمع الـذى يتّخـذ من الرّياء مركباً، فى ممارسات الأفراد، سيكون كلّ شىءٍ فيه بلا مُحتوى، ك: (الثقافة، الإقتصاد، السياسة، الصحة والنظام والقوى الدفاعية) و كلّها ستهتم بالظّاهر فقط، ولا يكون الهدف منها نيل السّعادة الحقيقيّة للأفراد، بل سيركضون وراء كلّ شىءٍ برّاقٍ و جميلِ الظاهر، و أمّا باطنه، فاللَّه العالم. و هـذا النّوع من الإتجاه، يورد صـدمات و ضـربات و مضـرّات فى حركـة الواقع الإجتماعى، لا تخفى على ذهن الفطن الكيّس.

علامات المُرائي:

قد يصاب بعض الأشخاص، لدى مطالعتهم لتلك الأحاديث التى تُشدّد على المرائى بالوسَوسة النّاشئة من الإبهام فى تشخيص موضوع الرّياء، و رغم أنّ الحَذير بالإنسان التّشديد فى مسألة الرّياء، لأنّ نفوذه خفيٌّ جدّاً، وكم حَدَث للإنسان، أن يعمل عملًا ويبقى لفترةٍ طويلةٍ غير ملتفتٍ لأصابته بالرّياء، كالقصّة المعروفة عن أحد المؤمنين السّابقين، حيث نقل عنه، أنّه قضى صلوات جماعته كلّها، التى صلّاها فى سنوات من عمره الطويل، ولمّا سألوه عن السّبب قال: إنّى كنت دائماً اصلّى الجماعة فى الصّف الأول، وفى يوم من الأيّام تأخّرت الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۸ بعض الشّىء، فلم أجد مكاناً فى الصّف المقدّم، فإضطررت للوقوف خلف الجميع، فشعرت فى نفسى بالأذى من ذلك، و تنبهت لهذه المسألة، فأعدت جميع الصّلوات لأنّها كانت رياء؟! بالطّبع، الإفراط و التّفريط فى هذه المسألة، مَثَلُه كَمَثَلِ بقيّةِ المسائل، غير محمودٍ، و خطأٌ محضٌ، و المفروض التّنبّه للرياء من خلال تتبع مقدماته و علاماته، و لا نَدع مجالًا للوساوس فى إطار إكتشاف هذه الحالة السّلبية، فى دائرة السّلوك الخارجى، و الواقع النّفسى، و لعلماء الأخلاق الأفاضل أبحاثٌ لطيفةٌ فى هذا المضمار، و منهم العلّامة المرحوم الفَيض الكاشانى؛، فقد طرح سؤالًا فى كتابه: «المحجّة البيضاء»، و قال: فبأىّ علامةٍ يُعرف العالم و الواعِظ، أنّه صادق مخلصٌ فى وعظه، غير مريدٍ رئاء النّاس؟. قال فى جواب هذا السؤال: «فاعلم أنّ لذلك علاماتٍ، إحداها أنّه لو ظهر من هو أحسن منه و عظاً و أغزرُ منه علماً، و النّاس له أشدّ قبولًا، فرح به ولم يحسده، نعم لا بأسَ بالغِبطة، و هى: أن يتمنّى لنفسه مثل عمله، والاخرى أنّ الأكابِر إذا حَضروا مجلسه لم يتغيّر كلامه، بل يبقى كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعينٍ واحدةٍ، و الاخرى: أن لا يحبّ إتّباع النّاس له فى الطريق، و المشى خلفه فى الأسواق، و لذلك علاماتٌ كثيرةٌ يطول إحصاؤها» «۱». و أفضل المعايير لمعرفة المرائى من غيره، هو ما وردنا عن الأئمّة الأطهار، ومن جملة الأحاديث: ۱- فى حديثٍ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قال: «أَمّا عَلامَةُ المُرائى فَأَرْبَعَةٌ: يَحْرُصُ فى العَمَلِ لِلَّهِ إذا كانَ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَيَكْسَلُ إذا كانَ وَحْدَهُ وَ يَحْرُصُ فى كُلِّ أَمْرِهِ عَلَى الَمحمَدَةِ وَيُحْسِنُ سَمْتَهُ بِجُهْدِهِ» «۲». ۲- وَ وَرد فى نفس هذا المعنى فى حديثٍ عن أميرالمؤمنين، بألفاظٍ جميلةٍ، فقال: «لِلمُرائى أَرْبَعةُ عَلاماتٍ: يَكْسَلُ إذا كانَ وَحدَهُ، وَ يَنْشُطُ إذا كانَ فى النّاسِ، الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۹ وَ يَزيدُ فى العَمَلِ إذا اثنِىَ عَلَيهِ، وَيَنْقُصُ مِنْهُ إذا لَمْ يُثْنَ عَلَيهِ» «۱». و ورد نفس هذا المعنى عن لقمان الحكيم أيضاً «۲». و خلاصة القول: إنّ كلّ عملٍ، كان القصد منه المباهاة للناس، فهو دليلٌ على الرّياء، و مهما كان هذا القصد غامضاً و خفيّاً فى دائرة الوعى، فهو دليلٌ على إزدواجيّة شخصيّة الإنسان فى التعامل مع نفسه، فى الخلأ والملأ. و هذا الأمر فى الحقيقة بالغ فى الدقّة و الغموض، لدرجةٍ أنّ الإنسان يخدع وجدانه و ضميره، بإتيان نفس الأعمال التى يأتى بها فى الملأ، و بدرجةٍ عاليةٍ من الجودة و الحُسن، فى خلوته ليقنع نفسه أنّه لا يُرائى، لأنّه يساوى بأعماله فى الظّاهر والباطن، ولكنّ الحقيقة هى إزدواجيّة ذلك الشّخص، ففى كلا الحالتين يكون مرائياً. بالطّبع يجب إجتناب الإفراط و التّفريط فى هذه المسائل، لأننا وجدنا اناساً إمتنعوا من أداء كثيرٍ من الواجبات و حُرموا من الثّواب حذراً أو خوفاً من الرّياء، فلم يؤلّفوا كتاباً، ولم يرشدوا أحداً من النّاس، ولم يصعدوا المنابر، لا لِشىءٍ إلّالأنّهم كانوا يعيشون الخوف من الوقوع فى الرّياء؟! و قد ورد فى الرّوايات، أنّ من يقصد القُربة إلى اللَّه تعالى، إذا أتى بعملٍ ما علانيةً، و عرف به الناس وفرح هو من ذلك، ما دام قصده هو التّقرب إلى اللَّه سبحانه و تعالى، فلن يؤثّر ذلك على عمله «۳». و لا يخفى على القارىء الكريم، أنّ القصد من هذا الأمر، هو تشجيع النّاس إلى سلوك طريق الخير و الصّلاح، و إمضاء أعمالهم المتقرّب بها إلى اللَّه تعالى، فى السّر و العلانية، والمهم هو قصد القُربة و إخلاص النيّة فقط. و جاءت الآيات و الرّوايات، مؤكّدةً لهذا المعنى، وحثّت الإنسان على الإنفاق و التّصدق الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۵۰ فى السرّ و العلانية، وهذا إن دلّ على شىءٍ فإنّه يدلّ على إمكانيّة الإتيان بالأعمال علانيةً، و بدوافع إلهيّة بعيداً عن الرّياء. و يوجد خمسُ آياتٍ شجّعت على الإنفاق سرّاً و علانيةً، أو سِرّاً وجهراً «۱». مضافاً إلى أنّ قسماً كبيراً من العبادات، يؤدّى فى العلانية، فإذا مالم يتسلط الإنسان على نفسه فى خط الإلتزام الدينى، و يُمسك بزمامها فى دائرة النّوازع الذاتيّة، فَسيخسر هو و المجتمع كثيراً

من أشکال الثّواب و الخیر، وستختل أرکان بعض العبادات فی خطّ الممارسة والعمل.

علاجُ الرِّیاء:

یوجد طریقان لِمُعالجة حالة الرّیاء، فالرّیاء مَثَلُه کَمَثَلِ سائر الأخلاق السلبیّة و السّلوکیّات الذّمیمة، ففی بادیء الأمر، علینا التّرکیز علی معرفةِ العِلَل، و جذور هذه الحالة السّلبیة فی الواقع النّفسی، لأجل القضاء علیها، ثم التّحرک نحو دراسة عواقبها المؤلمة، و الکشف عنها فی عملیّة التّصدی لها، و توخی جانب الحَذر منها. بالطّبع لقد أشرنا آنفاً، أنّ الرّیاء هو: «الشّرک الأفعالی»، و الغفلة عن حقیقة التّوحید، فإذا ما تأصلت حقیقة التّوحید الأفعالی فی قلوبنا، و إستحکمت فی نفوسنا، و إستیقنّا أنّ العزّة للَّه جمیعاً، من موقع المشاهدة الوجدانیة، و رأینا أنّ الرّزق والضرّ و النّفع بیده و هو المسخّر للقلوب، فسوف لن نختار سواه بدلًا، ولن نُدنّس أنفسنا و أفعالنا بحالة الرّیاء الشّنیعة، التی لا تنسجم مع خطّ التّوحید فی دائرة الأفعال، فالذی یعیش الیقین الرّاسخ بهذه الحقیقة، و هی أنّ مَنْ یکون مع اللَّه تعالی، یکون کلّ شیءٍ معه، و بدونه فهو لا- شیء، ویری بعین البصیرة، مِصداق قوله تعالی: «إِنْ یَنْصُرْکُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَکُمْ وَإِنْ یَخْذُلْکُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِی یَنْصُرُکُمْ مِنْ بَعْدِهِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۱ وإذا أدرکنا هذه الحقیقة القرآنیة التی تقرر أنّ العزّة للَّه‌تعالی: «أَیَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للَّهِ جَمِیعاً» «۱». أجل إذا ترسّخَ الإیمان بهذه الحقائق الإیمانیّة فی أعماق الرّوح، فلا یجد الإنسان فی نفسه باعثاً علی الرّیاء و النّفاق، و کسب الجاه والمقام لدی الناس و المُفاخرة و المُباهاة. و قال بعض علماء الأخلاق، إنّ دعامة الرّیاء وأساسِه هو حبّ الجاه و المُقام، و عند تحلیلنا لمفهوم الرّیاء، نجد أنّه یتکون من ثلاثة أرکانٍ: «حبّ الثّناء والمدح من النّاس»، و «الفرار من مذمّتهم»، و «الطّمع لِما فی أیدیهم». ثم یضرب لذلک مثلًا و هو المجاهد فی سبیل اللَّه، فتارةً یکون قصدُه المُباهاة و المفاخرة، و إظهار شجاعته وبطولاته للنّاس، واخری خوفاً من أن یتّهمه النّاس بالجُبن و الخوف، و ثالثةً یکون دافعه الحصول علی الغنائم، و الفائز الوحید، هو الذی یدافع عن الحقّ و الدّین لا غیر. هذا من جهةٍ، و من جهةٍ اخری، عندما یتأمل الإنسان فی سلبیات الرّیاء و أضراره ونتائجه القاتلة، نری أنّه کالنّار التی تقع علی عبادات الإنسان و طاعاته، فتحوّلها إلی رماد تذروه الرّیاح، ولا- یقتصر الأمر علی ذلک فحسب، بل هو ذنبٌ عظیمٌ یسوّد وجه صاحبه فی الدّنیا و الآخرة ... الرّیاء: حشرة الإرضة التی تَنخر دَعامات بیت سعادة الإنسان، لینهار به فی وادٍ سحیقٍ من الشّقاء و الظّلام .. و الرّیاء بدوره نوعٌ من أنواع الکفر و النّفاق و الشّرک ... و الرّیاء یسحق الشّخصیّة و الحرّیّة و الکرامة، و أشدّ النّاس بؤساً یوم القیامة، المراؤون. فهذه حقائقٌ تردع الإنسان، و تبعده عن ذلک الأمر الشّنیع. و لا ننسی أنّ المرائی‌سیفتَضِح، إن عاجلًا أو آجلًا فی هذه الدّنیا، و ستظهر حقیقته الزّائفة علی فلتات لسانه و شَطحات کلماته، وهذا العامل له قسطٌ من التأثیر فی عملیّة الرّدع النّفسی، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۲ لحالة الرّیاء فی واقع الإنسان، مضافاً إلی أنّ لذّة العمل الصالح، و النیّة الطیّبة التی تطرأ علی الإنسان، لا- تقاس بشیءٍ، و هو أمرٌ یکفی لإخلاص النیّة. و یعتقد البعض، أنّ إحدی طرق المعالجة، هی السّعی إلی إخفاء العبادات و الحسنات، و لا یُمارسها فی العلن، لیتخلّص تدریجیّاً من هذه العقدة المستعصیّة فی الذّات المرائیّة. ولکن هذا لا یعنی، عدم الحضور فی صلاة الجَماعة و الجُمعة و الحج، لأنّها تعدّ أیضاً خسارةً کُبری لا تُعوّض.

هل النّشاط فی العبادة یُنافی الإخلاص؟

یُراود هذا السّؤال أذهان الکثیرین، و هو أنّهم یشعرون بنشاطٍ روحی، بعد الإتیان بالعبادة بالمستوی المطلوب، فهل أنّ هذا الشّعور بالنّشاط، یتقاطع مع الإخلاص، أو أنّه علامةٌ علی الریاء؟. و الجواب: أنّ النّشاط إذا إستمدّ اصوله، من التّوفیق الإلهی و النّور المعنوی المستقی من العبادة، و معطیاتها علی روح الإنسان، فلا- تَثریب ولا ضیر، و لا یُنافی الإخلاص فی النیّة، أمّا لو کان النّشاط ینشأ من

مشاهـدة النـاس له، فـإنّه يُنافى الإخلاص، رغم أنّه لا يكون سـبَباً فى بُطلان الأعمال، شـريطةَ أن لا يتغيّر مقـدار و كيفيّـة العمل بسـبب مشاهـدة الناس له. وَ وَرد هـذا المعنى فى الرّوايات الإسـلاميّة: منها ما وَرد عن أحـد أصـحاب الإمام الباقر عليه السـلام، أنّه قال: سألتُ الإمام عليه السلام، عن الرّجل يعمل الشّىء من الخير، فيراه إنسانٌ فيسّره ذلك. قال عليه السلام: «لا بَأْسَ، ما مِنْ أَحَدٍ إلا وَهُوَ يُحِبُّ أنْ يَظْهَرَ لَهُ فى النّاسِ الخَيرُ، إذا لَمْ يَكُنْ صَنَعَ ذَلِكَ لـذَلِكَ» «۱». و فى حـديثٍ آخر عن أبى ذر رحمه الله،- عنـدما سأل الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله-، قـال: قلت يا رسول الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۵۳ اللَّه: الرّجل يعملُ العمل لنفسه و يحبّه الناس. قال صـلى الله عليه و آله: «تِلكَ عاجِلُ بُشرى المُؤمِنِ» «۱».

ما الفرق بين الرّياء و السّمعة:

هـذا سؤال يفرض نفسه أيضاً، فهل يوجـد فرق بين الرّياء و السّـمعة؟، و هل أنّهما يتنافيان مع إخلاص النيّـة، و يوجبان بطلان العمل؟. الجواب: الرّياء: هو فعل الخير أمام مرآى و مسمع من النّاس، لكسب الوجاهة لديهم، و ليشار إليه بالبنان من موقع المدح و الثّناء. و أمّا السّـمعة، فهى أداء أفعـال الخير بعيـداً عن أنظـار النّاس، ولكن لِيُفهِمَهم لاحقاً أنّه هو الـذى فعل هـذه الامور، ليكتسب بـذلك و جاهةً لديهم، والحقيقة أن الدّافع لِكِلا الإثنين غير إلهى، فالأوّل يؤدّى عمل الخير أمام مرآى الناس، و الثّانى بصورةٍ غير مُباشـرةٍ و عن طريق السّـماع، ولا فرق بينهما فى دائرة فساد النيّة، و بطلان العمل و فقدان قصد القربة. ولكن إذا فسّرنا السمعة بأنّها أداء الفعل بقصد القُربّة، ولكن إذا علم النّاس فى الآجل و مـدحوه و أثنوا عليه، فإنّه يفرح بذلك، فلا شكَّ بأنّ هذه الحالة لا توجب بُطلان العمل. و يمكن أن يتحرك الإنسان فى سـلوكيّاته و أعماله، بقصد القُربة المطلقة، ولكنّه يرويها للناس بعد ذلك ليحتل مكانةً بينهم، «و هذا العمل يُسمى بالرّياء اللّاحق»، فهـذا السّـلوك أيضاً لا يُبطل العمل، لكنّه يُقّلل من قيمته إلى أدنى حـدّ، وخصوصاً من النّاحية الأخلاقيّة. و قد تحدّث بعض من كبار الفُقهاء، عن كيفيّة نفوذ و توغّل الرّياء فى أعمال الإنسان، و قالوا أنّها على عَشرِ صُوَرٍ: الصّورة الاولى: أن يكون قصده من الفعـل: مشاهـدة النّـاس له، و لاـ شكّ ببطلانها. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۵۴ الصورة الثّانيـة: أن يكون الهـدف فيها البارى تعالى، و الرّياء مَعاً، و هـذه الحالـة أيضاً موجِبـةُ: للبطلان و الإحباط. الثّالثة: أن يُرائى فى جزءٍ من الأعمال الواجبة، كما لو مارس الرّياء فى الرّكوع، أو السّـجود وحـده فى الصّـلاة الواجبة، و لا شك فى كونه يسـتوجب البُطلان، حتى لو كان هناك مجالًا للإسـتدراك، و حاله حالَ ما لو فقد وضوءه وهو فى أثناء الصّلاة، و إن كان الأحوط أن يأتى بالجزء الذى وقع فيه الرّياء، ثم إعادة الصّلاة بعد الإنتهاء. الصّورة الرّابعـة: الرّياء فى الجزء المسـتحب، كما فى القُنوت، فهو أيضاً من دواعى البُطلان. الخامسـة: أصلُ العمل و القَصد، يكون اللَّه تعالى، ولكنّه يؤدّيه فى مكانٍ عام: (كالمسـجد)، من دون قصـد ربّانى فيه، وهو باطلٌ أيضاً. السّادسة: أن يُرائى فى وقت العمل، فأصـل الصّـلاة للَّه‌تعالى، و لكنّه يُرائى فى أدائها فى أوّل وقتها، فعمله باطلٌ أيضاً. السّابعـة: أن يُرائى فى بعض خُصوصـيات و أوصاف العمل، كمـا لو صـلّى الجماعـة، و هو فى حالـةٍ من الخشوع والخضوع المُفتعلـة، وهو باطلٌ أيضاً، فالموصوف يتبع الأوصاف فى هـذه الحالـة. الثّامنة: أن تأتى بالعمل قربةً إلى اللَّه، ولكنّه يرائى فى مقدّمات العمل، فيذهب إلى المسجد بقصد الصّلاة و الثّواب، ولكنّ حركته نحو المسجد بقصـد الرّياء. فالكثير من الفُقهاء لا يرون بُطلان العمل لمثل هذا النوع من الرّياء، لأنّ مقدّمات الرّياء حدثت بعيداً عن العمل، وهو ما تقتضـيه القاعـدة الفِقهيّة. التّاسـعة: أن يُؤدّى بعض الأوصاف الخارجيّة بنيّة الرّياء، كما لو صـلّى للَّهِ تعالى، ولكنّه يحنّك نفسـه رياءً، فالبُرغم من قبـح هـذا العمل، ولكنّه لا يُبطل الصـلاة. «۱» عاشـراً و أخيراً: أن يتحرّك فى إتيـانه بالعمل، من موقع القربـة المطلقة للَّه‌تعـالى، ولكن إذا الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۵۵ شاهـده الناس، فإنّه يشـعر فى قرارة نفسه بالفرح، من دون أن يؤثّر ذلك على كيفيّـة العمل، فهـذا القسم لا يوجب البُطلان أيضاً، لأنّه لا يعـدّ من الرّياء. و نصل هنا إلى نهاية بحثنا حول الرّياء، و إن كنّا قد أعرضـنا عن كثيرٍ من الامور، إجتناباً للتّطويل.

الخطوة السّابعة: السّکوت و إصلاح اللّسان

اشارة

تناولت الرّوایات الإسلامیّة هاتین المسألتین، بمزیدٍ من الإهتمام، و کذلک علماء الأخلاق، أکّدوا علیهما فی أبحاثهم التّربویة، لإعتقادهم أنّ السّیر و السّلوک إلی اللَّه تعالی، لنْ یتحقّق فی واقع الإنسان إلّابالسّکوت، و حفظ اللّسان من الذنوب التی قد یقع الإنسان فیها من خلال الکلام، و إن کان، قد أتعب نفسه فی الریاضات الرّوحیّة و أنواع العبادات. أو بتعبیرٍ أدَقْ: إنّ مفتاح مسیرة التهذیب والسّلوک إلی اللَّه تعالی هو الإلتزام بهذینک الأمرین، ومن لم یستطع السّیطرة علی لسانه، فلن یُفلح فی الوصول، إلی الأهداف السّامیة و المقاصد العالیة. و بعد هذه الإشارة نعود إلی بحثنا الأساسی، و دراسة الآیات و الرّوایات التی وَرَدت فی هذا المِضمار.

السّکوت فی الآیات القرآنیّة الکریمة:

فی کِلا المَوردین، إعتبر القرآن الکریم، هذه المسألة من القیم السّامیة، فی خطّ الإیمان و الأخلاق، ففی بادِیء الأمر، إستعرض قصّة مریم علیها السلام، فعندما کانَت فی وضعها المُتأزّم، و تفکیرها فی حملها و حالة الطلق التی أصابتها، و وحدتها فی تلک الصّحراء المریعة، و قد هوّمت نحوها الهُموم من کلِّ جانبٍ، و أشدّها إفتراءات بنی إسرائیل علیها، فتمنّت الموت فی تلک السّاعة من بارئها، ولکن جاءها النّداء، أن لا تحزن و لا تغتم، فإنّ اللَّه معها و هو الذی یتکفّل الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۶ أمرها، وهذا ما تُحدِّثنا به الآیات التالیة: «فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلَی جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ یا لَیْتَنی مِتُّ قَبْلَ هذا وَکُنتُ نَسْیاً مَنْسِیّاً* فَنادَاها مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنی قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِیّاً* وَهُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْعَلَیْکِ رُطَباً جَنِیّاً* فَکُلِی وَ اشْرَبی وَقَرِّی عَیْناً فَإِمَّا تَرَیْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولی إِنّی نَذَرْتُ لِلرَّحْمانِ صَوْماً فَلَنْ أُکَلِّمَ الْیَوْمَ إِنسِیّاً» «۱». و إختلف المفسّرون فی الذی نادی مریم علیها السلام، فقال بعضهم: إنّه جِبرائیل علیه السلام، و سیاق الآیة قرینةٌ علی هذا المعنی، و قال البَعض الآخر، کالعلّامة الطّباطبائی رحمه الله، إنّه إبنها عیسی علیه السلام، و کلمة: «من تحتها»، تناسب هذا المعنی، لأنّه کان بین أقدامها، علاوة علی أنّ أغلب الضّمائر فی الآیة الشّریفة، تعود علی المسیح علیه السلام، و تَتَناسب أیضاً مع کلمة «نادی»، و علی کلٍّ فإنّ مَحَطَّ نظرنا، هو الأمرُ بنذر السّکوت، فأیّاً کان المُنادی، جبرائیل علیه السلام، أو المسیح علیه السلام، فإنّ المهم هو، أنّ ذلک النّذر، یفضله ویرجحّه الباری تعالی، و خصوصاً أنّ ذلک الأمر، کان سائداً فی وقتها، و هو من الأعمال التی یُتقرّب بها إلی اللَّه سبحانه وتعالی، فلذلک لم یعترض علی مریم علیها السلام أحد، بالنّسبة إلی هذا العمل بالذّات. و یوجد إحتمالٌ آخرٌ لصوم مریم علیها السلام، و هو الصّوم عن الطّعام و الشّراب، بالإضافة لصوم السّکوت. أمّا فی الشّریعة الإسلامیّة، فإنّ صوم السّکوت حرام، لتغیّر الظّروف المکانیّة و الزمانیّة، و قد وَرد عن الإمام علی بن الحسین السّجاد علیه السلام، أنّه قال: «وَصَومُ الصَّمتِ حَرامٌ» «۲». وَ وَرد فی نفس هذا المعنی فی حدیثٍ آخر، فی وصایا النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، إلی الإمام علی علیه السلام «۳». وَ وَرد عن الإمام الصّادق علیه السلام، أنّه قال: «وَ لا صَمْتَ یَوماً إِلَی اللّیلِ» «۴». و الطّبع، فإنّ من آداب الصّوم عندنا، هو المحافظة علی اللّسان و باقی الجوارح من الذّنوب، قال الإمام الصادق علیه السلام فی هذا الصّدد: «إنّ الصّومَ لَیسَ مِنْ الطّعام و الشّرابِ وَحْدَهُ إنَّ مَریَمَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۷ قالَتْ إنّی نَذَرتُ لِلرَّحمانِ صَوماً أی صمْتاً فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَکُم وَغُضُّوا أَبْصارَکُم» «۱». و من هذه الآیة و الرّوایات الشّریفة، التی وردت فی تفسیرها، تتبیّن أهمیّة و قیمة السّکوت، فی خطّ التّربیة و التّهذیب. و فی الآیة (۱۰) من نفس السورة، توجد إشارةٌ اخری لفضیلة السّکوت، و ذلک عندما وهب الباری تعالی یحیی علیه السلام، لنبیّه الکریم زکریّا علیه السلام، فخاطب الباری تعالی، و قال: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لی آیَةً»، فقال له: «قَالَ آیَتُکَ أَلَّا تُکَلِّمَ

النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً»، ولا تحركه إلّا بذكر اللَّه. و صحيح أنّ هذه الآية لم تَحمد ولم تَذم السّكوت، ولكن قيمة السّكوت تتّضح، من جعله: آيـةً النّبى زكريا عليه السلام. وورد نفس هذا المعنى، فى الآية (۴۱) من سورة آل عمران، فبعد تلقّيه البشارة من البارى تعالى، طلب أن يجعل له آيـةً فى دائرة تقديم الشّكر للبارى تعالى، فقال له: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً». و إحتمل بعض المفسّرين، أنّ إمتناع زكريا عليه السلام عن الكلام، كان بإختياره ولم يكن مجبوراً عليه، والحقيقة أنّه كان مأموراً بالسّكوت لمدّة ثلاثة أيّام. يقول الفَخر الرّازى، نقلًا عن «أبى مسلم»: أنّ هذا النحو من التّفسير جميلٌ و معقولٌ، لكنّه مخالفٌ لسياق الآية، فزكريّا عليه السلام طلب آيـةً لمّا بُشّر بيحيى و السّكوت الإختيارى لا يكون دليلًا على هذا المعنى، إلّابتكلّف وتحميل على المفهوم من الآية الشّريفة. و على أيّةِ حال فإنّ هذا الاختلاف فى تفسير الآية، لا يُؤثّر على ما نحن فيه، لأنّ غرضنا من إيراد هذه الآيات، هو التّنويه بقيمة السّكوت فى القرآن الكريم، بإعتباره آيةً من الآيات الإلهيّة.

السّكوت فى الروايات الإسلاميّة:

ما ورد عن: «الصّمت»، فى الروايات الإسلاميّة، أكثر من أن يُحصى فقد أشارت الروايات إلى عدّة نقاطٍ وملاحظاتٍ دقيقة وهامة جدّاً فى هذا الصّدد، و بيّنت ثمرات جميلةً للصّمت، و منها: ۱- دَور السّكوت فى تعميق التّفكير، و ثبات العقل، فقد قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إذا رَأَيْتُمْ المُؤمِنَ صَمُوتاً فَادْنُوا مِنْهِ فَإِنَّهُ يُلْقى الحِكْمَةَ، وَالمُؤمِنُ قَليلُ الكَلام كَثِيرٌ العَمَلِ وَالمُنافِقُ كَثِيرُ الكَلامِ قَلِيلُ العَمَلِ» «۱». ۲- و جاء عن الإمام الصّادق عليه السلام، أنّه قال: «دَلِيلُ العاقِلِ التَّفَكُّرُ وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمتُ» «۲». ۳- ما ورد عن الإمام على عليه السلام، أنّه قال: «أَكْثِرْ صَمْتَكَ يَتَوفَر فِكْرُكَ و يَستَنِيرُ قَلْبُكَ وَ يَسلَم النّاسُ مِنْ يَدِكَ» «۳». فيظهر من هذه الرّوايات، العلاقة الوثيقة الدقيقة، التى تربط التّفكر بالسّكوت، و دليله واضح، لأنّ القوى الفكريّة سوف تفقد التوحّد و الإنسجام، و تصيبها حالةٌ من التّشتت و الإنفلات، فى حالات الكلام الزّائد، و عندما يتخذ الإنسان السّكوت جلباباً له، فستَتَمَركز قِواه الفكريّة، ممّا يعينه على التّفكير الصّحيح، و بالتّالى إنفتاح أبواب الحِكمة بوَجهه، ولا يُلّقى الحكمة إلّاذو حَظٍّ عظيم. ۴- يُستَشفّ من بعض الأخبار، أنّ السكوت هو أهمّ العبادات، فنقرأ فى مواعظ الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله، لأبى ذر رحمه الله، قال: «أَرْبَعَ لا يُصِيبَهُنَّ إلّاَمُؤمِنْ، الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلَ العِبادَةِ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۵۹ ۵- و يُستفاد من الرّوايات الواردة، أنّ كثرة الكلام تزرع القساوة فى القلب، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حديثٌ يقول فيه: «كانَ المَسِيحُ عليه السلام يَقُولُ لاتكثروا الكَلامَ فى غَيرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإنَّ الَّذِينَ يكْثِرُونَ الكَلامَ فى غَيرِ ذِكْرِ اللَّهِ قاسِيَةٌ قُلُوبُهُم وَلَكِنْ لايَعْلَمُونَ» «۱». ۶- ما ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، أنّه قال: «إنَّ الصَّمْتَ بابٌ مِنْ أَبوابِ الحِكْمَةِ، إنَّ الصَّمْتَ يَكْسِبُ المَحَبَّةَ إنَّهُ دَليلٌ عَلَى كُلِّ خَيرٍ» «۲». فقوله إنّ السّكوت يكسب المحبّة، لأنّ أكثر المشاحنات و الملاحاة، تصدر عن اللّسان، و السّكوت يسدّ أبواب الشّر. ۷- السّكوت نجاةٌ من الذّنوب، و مفتاح دخول الجنة، فقد ورد فى حديثٍ عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قَالَ لِرَجُلٍ أَتاهُ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلى أَمْرٍ يُدخِلُكَ اللَّهُ بِهِ الجَنَّةَ؟، قَالَ: بَلى يا رَسُولَ اللَّه، قال صلى الله عليه و آله: «.... فاصْمُتْلِسانَكَ إلّامِنْ خَيرٍ، أَما يَسُرُّكَ أَنْ تَكُونَ فِيكَ خِصلَةٌ مِنْ هُذِهِ الخِصال تَجُرُّكَ إلى الجَنَّةِ» «۳». ۸- و السّكوت علامةُ الوقار، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام: «الصَّمْتُ يَكْسِبُكَ الوقارُ، وَيَكْفِيكَ مَؤُونَةَ الإعتِذارِ» «۴». فالثّرثار كثير الخطأ، كثير الإعتذار و النّدم، لما يصدر منه مِنْ شطحات، من موقع الغفلة و الإندفاع العاطفى و الإنفعال النّفسى. ۹- و عنه عليه السلام، فى حديث أوضح وأجلى فقال: «إنْ كانَ فى الكَلام بَلاغَةٌ فَفى الصَّمْتِ سَلامَةٌ مِنَ العِثارِ» «۵». فالصّمت قد يكون، أبلغ من أىّ كلام فى بعض الموارد!. ۱۰- ما ورد عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، أنّه قال: «نِعْمَ العَونُ الصَّمْتُ فى مَواطِنِ كَثِيرةٍ وَ إنْ كُنْتَ فَصِيحاً»». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۰ و هناك رواياتٌ كثيرةٌ فى هذا المجال، لم نذكرها هنا، خوفاً من الإطالة و الخروج عن مِحَور البحث.

إزالة وَهم:

إنّ كلّ ما ورد فی الآيات و الأحاديث الشّريفة، من معطيات الصّمت الإيجابيّة فی حياة الإنسان وواقعه، من قَبيل تعميق الفكر ومنع الإنسان من الوقوع فی الخطأ، و صيانته من كثيرٍ من الذّنوب، و حفظ وَقاره و شَخصيّته، و عدم الحاجة إلى الإعتذار المُكَرّر، و أمثالُ ذلك، كِلّ هذا لا يعنی أن السكوت، يمكن أن يتخذه الإنسان قاعدةً على الدّوام، فالسّكوت المَطلق مذمومٌ بدوره، و خسارةٌ اخرى لا تُعوّض. و الغاية ممّا تقدم، فی مَدح السّكوت و الصّمت فی الآيات و الرّوايات الإسلامية، هی منع اللّسان عن الثّرثرة و فضول الكلام، فی خط التّربية و مصداق، أن: «قلْ خيراً وإلّا فاسْكت»، و إلّافالسّكوت فی كثيرٍ من الامور، حَرامٌ مَسلّمٌ. ألم يذكر القرآن الكريم فی سورة الرحمن نعمة البيان باعتبارها من أسمى إفتخارات البشر؟ ألا تقام أكثر وأغلب العبادات كالصلاة وتلاوة القرآن الكريم ومراسم الحج والذكر باللسان؟ ولولا اللسان، فكيف سيتمكن المؤمن من إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر، وكيف سيكون دور الإرشاد والتربية والتعليم، وكيف سيتمكن العلماء والمصلحين من أداء دورهم فی عملية هداية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق والسعادة؟! فالمذموم هو الافراط والتفريط والطريق الوسطى هی الجادّة! وما صدر من إمامنا السجاد عليه السلام فی هذا المضمار هو خير مرشد ودليل فی هذا المجال، حيث سأله شخص عن أيهما الأفضل: الكلام أو السكوت؟ فقال عليه السلام: «لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُما آفاتٌ فَإذا سَلِما مَنَ الآفاتِ فَالكَلامُ أَفْضَلُ مِنَ السُّكُوتِ، قِيلَ الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۲۶۱ كَيفَ ذَلِكَ يا بنَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله؟ قَالَ: لِأَنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ ما بَعَثَ الأَنْبِياءَ وَالأَوصِياءَ بِالسُّكُوتِ، إنَّما بَعَثَهُم بِالكِلامِ، وَلا اسْتَحَقَّتِ الجَنَّةُ بِالسُّكُوتِ وَلا اسْتَوجَبَتْ وِلايَةً بِالسُّكُوتِ وِلا تِوَقِّيتِ النّارُ بِالسُّكُوتِ إنَّما ذَلِكَ كُلُّهُ بِالكَلام، وَما كُنْتُ لِأعدِلَ القَمَرَ بِالشَّمْسِ إنَّكَ تَصِفُ فَضْلَ السُّكُوتِ بِالكَلامِ وَلَسْتَ تَصِفُ فَضْلَ الكَلام بِالسُّكُوتِ» «۱». أجل لا شك أنّ لكلٍّ من الصّمت و الكلام، محاسنه و مَساويه، و الحقّ أنّ إيجابيات الكلام أكثر، ولكن متى؟، فقط: عندما يصل الإنسان، إلى مراحل سامية من التّهذيب للنفس، فی معراج الكمال المعنوی، وأمّا من كان فی بداية الطّريق، فعليه التّحلی بالسّكوت رَيْثَما تتعمق فی نفسه تلك الملكات الرّوحانية، التی يكتسبها الإنسان فی حركة الانفتاح على اللَّه، أو كما يُقال، ريثما يملك السّالك لسانه عن ممارسة اللّغو و الكلام الباطل، و بعدها يجلس لِلوَعظ والإرشاد. و بالإمكان بيان معيارٍ جيّدٍ لهذه الحالة، فنحن إذا أردنا فی يومٍ من الأيّام، تسجيل ما يصدر منّا من كلماتٍ و ألفاظٍ على آلة التسجيل، ثم أصغينا لهذه الأحاديث و الكلمات، من موقع الإنصاف و بعيداً عن التّعصب، فَسَنرى الشّريط مليءٌ بالتّفاهات و التّرّهات، ولن يبقى من الكلام المفيد إلّاكلماتٌ أو جملًا قليلةً، تتعلق بالغايات الإلهيّة و الحاجات الضرورية، فی حركة الحياة والواقع العملی. و يبقى أمرٌ أخير، تجدر الإشارة إليه، أَلا و هو، أنّ «الصّمت» و «السّكوت» وَردا بمعنى واحد فی معاجم اللّغة، ولكن بعض علماء الأخلاق ذهب إلى وجود فرق بينهما، فان السّكوت هو التّرك المُطلق للكلام، و الصّمت هو التّرك المقصود للكلام الزائد واللّغو، أی: «تركُك ما لا يُعينك»، و هدف السّالك الحقيقی فی إطار تهذيب النّفس، و السّلوك المعنوی ينسجم مع: [الصّمت لا [السّكوت .

إصلاح اللّسان:

ما تقدم آنفاً من أهمية السّكوت أو الصّمت، و دوره فی تهذيب النّفوس، و الأخلاق فی الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۲۶۲ خطّ السّير و السّلوك إلى اللَّه، هو فی الحقيقة من الطّرق الحياتيّة للوقاية من آفات اللّسان، لأنّ اللّسان فی الحقيقة، هوالمفتاح للعلوم و الثّقافة و العقيدة و الأخلاق، و إصلاحه يُعدّ أساساً لِكلّ الإصلاحات الأخلاقيّة فی واقع الإنسان، و العَكس صحيح، ولأجله فإنّ الحديث عن إصلاح اللّسان، أوسع منَ مبحث السّكوت و أَشمل. و قد إكتسب مبحث إصلاح اللّسان، أهميّةً بالغةً فی الأبحاث الأخلاقيّة بإعتباره، تُرجمان القلب ورَسول العَقل، و مفتاح شخصيّة الإنسان، و نافذة الرّوح على آفاق الواقع. و بعبارةٍ اخرى: إنّ ما يرتسم على صفحات الرّوح و النّفس، يظهر قبل كلّ شىء على فَلتات اللّسان، و اللّطيف فی الأمر أنّ قُدامى الأطباء، كانوا يُشخّصون

المرض، و يتعرّفون على سلامة الشّخص و مزاجه عن طريق اللّسان، فَلَم تكن عندهم هذه الإمكانيّات المعقدّة التى بأيدينا اليوم، فالطّبيب الحاذق، كان يتحرك فى عمليّة تشخيصه، لأمراض الباطن عن طريق اللسان، حيث يَنكشِف له من خلال ظاهر اللّسان ولونه، الأمراض الكامنة فى خَبايا جسم صاحبه. و هكذا الحال بالنّسبة لأمراض الرّوح و العقل و الأخلاق، فيمكن للّسان أن يكشف لنا المفاسد الأخلاقيّة، و السّلبيات النّفسية و التّعقيدات الرّوحية، التى تعتلج فى صدر وروح الإنسان أيضاً. و عليه، فإنّ علماء الأخلاق يرون، أنّ همّهم الأول والأخير حفظ وإصلاح اللّسان، و يعتبرونها خُطوةً مهمّةً و مؤثرةً فى طريق التّكامل الرّوحى و الأخلاقى، وقد عكس لنا أميرُالمؤمنين عليه السلام، ذلك الأمر فى حديثه الذى قال فيه: «تَكَلَّمُوا تُعرَفُوا فإنّ المَرءَ مَخبُوءٌ تَحتَ لِسانِهِ» «۱». وجاء فى حديثٍ آخر، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا يَستَقِيمُ إيمانُ عَبدٍ حَتّىْ يَسْتَقِيمَ قَلْبَهَ و لا يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حَتّى يَستَقِيمَ لِسانُهُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۳ و نعود بعد هذه الإشارة إلى أصل بحثنا، و نقسّمه إلى أربعة محاور. ۱- أهميّة اللّسان بإعتباره نعمة إلهية كبيرة. ۲- العلاقة الوثيقة بين إصلاح اللّسان، و إصلاح روح وفكر الإنسان وأخلاقه. ۳- آفاتُ اللّسان. ۴- الاصول والأسس الكليّة، لِعلاج آفاتِ اللّسانِ. فى المحور الأوّل: تحدّث القرآن الكريم، فى آيتين من سورة «البلد» و «الرّحمان»، بأبلغ الكلام. فنقرأ فى سورة البَلد، الآيات (۸- ۱۰): «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَينَينِ وَلِساناً وَ شَفَتَينِ وَ هَدَيناهُ النَّجْدَينِ». فبيّنت هذه الآيات الشّريفة، النّعم و المواهب الإلهيّة الكبيرة على الإنسان فى الحياة، من قَبيل نِعمة العين و اللّسان و الشفتان، كأدواتٍ و جوارحٍ يستخدمها الإنسان لمعرفة الخَير و الشّر. نعم، فإنّ الحقيقة، أنّ أعجب جوارح الإنسان هى اللّسان، قطعةٌ من البدن، حَمَلَتْ و حُمّلت أثقل الوظائف، فاللّسان علاوة على دوره فى بلع الطّعام و مَضغِه، فإنّه يؤدى واجِبَهُ بِمهارةٍ فائقةٍ من دون أيّ إشتباهٍ، فى أداء هذه المهمّة الكبيرة، وَلَوْلا مهارته فى تَقليب اللّقمة بين الأسنان، فماذا سيكون حالنا!، وبعد الأكل يقوم بعمليّة تنظيف الفم و الأسنان أيضاً. والأهمّ من ذلك و الأعجب، هو كيفيّة الكلام، بواسطة حركات اللّسان السّريعة، و المرتّبة و المنظّمة فى جميع الجهات. و اللّطيف فى الأمر، أنّ اللَّه سبحانه و تعالى، قد سهّل عمليّة الكلام، بصورةٍ كبيرةٍ بحيث أنّ اللّسان لا يملّ ولا يكلّ من النّطق و التّحدث إلى هذا و ذاك، و من دون تكلفةٍ و نفقةٍ، و الأعجب من ذلك، قابلية الإنسان للكلام، و تكوين الجمل و الكلمات المختلفة، كموهبةٍ إلهيةٍ، و ملكة أصليّةٍ فى روح الإنسان وفطرته، بالإضافة إلى إستعداده و قدرته، لتكوين و تأليف اللّغات المختلفة، وتعددها إلى الآلاف، و كلّما مرّ الزمان إزداد عددها و تنوّعها بتنوع الأقوام الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۴ والجماعات البشريّة. فليس عجيباً عندما يتحدث عنها القرآن الكريم، و يقول أنّها أعظم النعم؟ و الجدير بالذكر، أنّ الآية الكريمة ذكرت الشّفتين إلى جانب اللّسان، فهما فى الحقيقة يُساعدان اللّسان فى التّلفظ بالكثير من الحروف، وتنظيم الأصوات والكلمات فى عمليّة التّكلم. و من جهةٍ اخرى فإنّ الشّفتين، أفضل وسيلة للسّيطرة على اللّسان، كما حدّثنا بذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه و آله، عن البارى تعالى، أنّه قال: «يا ابنَ آدَمَ إنْ نازَعكَ لِسانُكَ فِى ما حَرَّمَتُ عَلَيكَ فَقَدْ أَعَنْتُكَ بِطَبَقَتَينِ فأطْبِق» «۱». و فى بداية سورة الرّحمان: (الآيات ۱- ۴)، يشير سُبحانه إلى نعمة البيان، التى هى ثمرة من ثمرات اللّسان، و بعد ذكر إسم «الرّحمان»، التى وسعت رحمته كلّ شىءٍ، يشير سُبحانه إلى أهمّ و أفضلّ المواهب الإلهيّة، يعنى القرآن الكريم، ثم خلقة الإنسان، ثم يعرّج على موهبة البيان لدى الإنسان: «الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». و بناءاً عليه فإنّ نعمة البيان، هى أهمّ موهبةٍ أعطاها اللَّه سبحانه، لعباده بعد خلقهم. و إذا ما أردنا أن نستعرض دور البيان، فى تكامل ورُقى الإنسان، ودوره الفاعل فى بناء الحضارة الإنسانيّة، عندها سنكون على يقينٍ بأنّه لولا تلك النّعمة الإلهيّة، و الموهبة الربّانية، لما إستطاع الإنسان أن ينقل خبراته وتجاربه للأجيال المتعاقبة، ولما تقدّم العِلم، ولما إنتشر الدّين والأخلاق والحضارات بين الامم السّابقة و اللّاحقة. ولنتصور أنّ الإنسان، فى يوم من الأيّام، سيفقد هذه الموهبة، فممّا لا شك فيه أنّ المجتمع البشرى، سيعود فى ذلك اليوم إلى أجواء التّخلف الحضارى، و الإنحطاط فى جميع الصُّعد. عُنصر «البيان»، تتوفر فيه أداةٌ و نتيجةٌ، و بما أنّنا إعتدنا عليه، فلذلك نتعامل مع هذه الظّاهرة من موقع اللّامبالاة وعدم الإهتمام، لكنّ الحقيقة هى غير ذلك، فهو عملٌ دقيقٌ معقّدٌ فنّىٌ لا مثيل له ولا نظير. لأنّه من جهة، تتعاون الأجهزة الصوتيّة فيما بينها، من الرئة إلى الهواء الداخل إلى الأوتار الصوتيّة، و التى بدورها تتعاون، مع: اللّسان و الشّفتان

و الأسنان و الحلق الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۵ و الفم، لتكوين و تأليف الأصوات بسرعةٍ فائقةٍ دقيقةٍ جدّاً، حتى يصل إلى الحُنجرة، التى تقوم بتقطيعه وتقسيمه حسب الحاجة. ثم إنّ قصّة وضع اللّغات البشريّة، و تعدّدها و تنوّعها هى قصةٌ عجيبةٌ و معقدةٌ، و تزيد من أهميّة الموضوع، «يقول بعض العلماء: أنّ عددَ لُغات العالم، وصل إلى حوالى (۳۰۰۰) لغة». و نحن نعلم أنّ هذا العدد لن يتوقف عند هذا الحد، و أنّ عدد اللّغات فى تزايدٍ مُستمرٍ. فهذه النّعمة الإلهيّة، هى من أهم و أغرب و ألطف النّعم، و التى لها دورٌ فاعلٌ فى حياة الإنسان وتكامله ورقيّه، و هى الوسيلة، لتقارب البشر وتوطيد العلاقات فيما بينهم، على جميع المستويات. و قد إنعكست هذه المسألة، فى الرّوايات بصورةٍ واسعةٍ، و منها ما وَرد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما الإِنسانَ لَولا اللّسانُ إِلّا صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ أَو بَهِيَمةٌ مُهمَلَةٌ» «۱». والحقُّ ما قاله الإمام عليه السلام، لأنّه لولا اللسان فعلًا لَما إمتاز الإنسان عن الحيوان، وَ وَرد فى حديثٍ آخر، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «الجَمالُ فِى اللّسانِ» «۲». و نقل هذا الحديث بصورة اخرى، عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «الجَمالُ فى اللّسانِ والكَمالِ فى العَقلِ» «۳». و نختم بحديثٍ آخرٍ عن عن الإمام على عليه السلام، فقال: «إِنّ فِى الإِنسانِ عَشَرَ خِصَالٍ يُظْهِرُها لِسانُهُ، شاهِدٌ يُخْبِرُ عَنِ الضَّميرِ، وَ حاكِمٌ يَفْصِلُ بَينَ الخِطابِ، وَ ناطِقٌ يَرُدُّ بِهِ الجَوابَ، وَ شافِعٌ يُدْرِكُ بِهِ الحاجَةَ، وَواصِفٌ يَعْرِفُ بِهِ الأشياءَ، وَأَمِيرٌ يأمُرُ بِالحَسَنِ، وَ وَاعِظٌ يَنهى عَنِ القَبِيحِ، وَمُعَزٍّ تَسْكُنُ بِهِ الأحزانُ، وَ حاضِرٌ (حامِدٌ) تُجْلى بِهِ الضَّغائِنُ، وَ مُونِقٌ تَلَذُّ بِهِ الأَسماعُ» «۴». ولحسن الختام، نعرج على كتاب: «المحجّة البيضاء» فى «تهذيب الأحياء». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۶ ففى بداية الكلام، و تحت عنوان: «كتاب آفات اللّسان»، يقول: (فإنّ اللّسان من نعم اللَّه العظيمة، و من لطائف صُنعه الغريبة، فإنّه صغيرٌ جرمه، عظيمٌ طاعته وجرمه، إذ لا يستبين الكفر و الإيمان، إلّابشهادة اللّسان، وهما غاية الطّاعة و الطغّيان، ثمّ إنّه ما من موجودٍ أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيّل أو معلوم، مظنون أو موهوم إلّاو اللّسان يتناوله، و يتعرّض له بإثباتٍ أو نفى، فإنّ كلّ ما يتناوله العلم، يُعرب عنه اللّسان، إمّا بحقّ أو باطلٍ، ولا شىء إلّاو العلم متناول له، وهذه خاصيّة لا توجد فى سائر الأعضاء، فإنّ العين لا تصل إلى غير الألوان و الصّور، و الأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللّسان رَحب الميدان، ليس له مردّ ولا لمجاله مُنتهى ولا حدّ، فله فى الخير مجال رَحب، و له فى الشرّ مجرى سحب، فمن أطلق عذبة اللّسان وأهمله مرخى العِنان، سَلك به الشّيطان فى كلّ ميدان، وساقه إلى شفا جرفٍ هار). «۱»

علاقة اللّسان بالفكر والأخلاق:

لا شك أنّ اللّسان هو نافذة الرّوح، و هو يعنى أنّ شخصيّة الإنسان مخبوءةٌ تحت لِسانِه، و بالعكس فإنّ كلمات كلّ إنسانٍ لها دورٌ فى بلورة وصياغة روحه ونفسيّته، فالتّأثير بين الكلام و شخصيّة المتكلم، هو تأثيرٌ مُتقابلٌ. و الآية الوحيدة التى تناولت، علاقة اللّسان بالفكر والأخلاق، هى الآية (۳۰) من سورة محمد صلى الله عليه و آله، بالشّكل الذى يشخّص معها الإنسان، ما يدور فى خُلد طَرفه المقابل، عن طريق حديثه وكلامه معه، ولذلك فإنّ الإنسان، سعى قديماً و حديثاً للتّركيز على هذا الأمر، لمعرفة خبايا و بواطن الرّجال عن طريق المحادثة و الطّب النّفسى، فنقرأ فى هذه الآية، التى نزلت لتفضح المنافقين، قوله تعالى: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ». و على حدّ تعريف الرّاغب، فى: «مفردات القرآن»، أنّ معنى «اللّحن»، هو الخطأ فى الإعراب، أو الانحراف عن قواعد اللّغة، أو قلب الكلام من الصّراحة إلى الكناية، و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۷ الإشارات، «ولحن القول» المقصود فى الآية، هو المعنى الأخير، وهى الكنايات و التّعبيرات ذات المعانى المتعدّدة، و الحّمالة لوجوهٍ. ففى حديثٍ عن أبى سعيد الخدُرى قال: (لَحْنُ القَولِ بُغْضُهُم عَلى بنَ أَبى طالبٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ المُنافِقِينَ عَلى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ بِبُغْضِهِم عَلى بنَ أَبى طالِبٍ) «۱». ولم تنسَ الروايات حظها فى هذا المجال، فقد وَرد: ۱- «ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئَاً إِلّاظَهَرَ فِى فَلَتاتِ لِسانِهِ وَ صَفَحاتِ وَجِهِهِ» «۲». فهذا الحديث يمكن أن يكون أساس الطبّ والعلوم النّفسية، و الحقيقة أنّ اللّسان هو مرآة الرّوح. ۲- و عنه عليه السلام أيضاً: «الإِنسانُ لُبُّهُ لِسانُهُ» «۳». ۳- و عنه عليه السلام أيضاً: «قُلْتُ أَربَعاً، أَنْزَلَ اللَّهُ تَصدِيقى بِها فى كِتابِهِ، قُلْتُ المَرءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ فإذا تَكَلَّمَ ظَهَرَ،

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالى (وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِى لَحْنِ القَولِ) «۴»، قُلْتُ فَمَنْ جَهِلَ شَيئَاً عاداهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ؛ (بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) «۵»، وَ قُلْتُ قِيمَةُ كُلِّ امرِءٍ ما يُحْسِنُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، فِى قِصَّةِ طالُوتَ (إِنَّ اللَّهَ اصطفاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بَسْطَةً فى العِلْمِ و الجِسم) «۶»، وَ قُلْتُ القَتلُ يُقِلُّ القَتلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَكُم فِى القِصاصِ حياةٌ يا اولِى الأَلبابِ) «۷»» «۸». ۴- و فى حديثٍ آخرٍ عنه عليه السلام أيضاً قال: «يُسْتَدَلُّ عَلى عَقْلِ كُلِّ امرِءٍ بِما يَجرِى عَلَى لِسانِهِ» «۹». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۸ و قال عليه السلام أيضاً: «إياكَ و الكَلامَ فى ما لا تَعْرِفُ طَرِيقَتَهُ وَلا تَعْلَمَ حَقِيقَتَهُ فَأَنَّ قَولَكَ يَدُلُّ عَلى عَقْلِكَ وَ عِبادَتِكَ تُنْبِؤُ عَنْ مَعْرِفَتِكَ» «۱». و الحقيقة أنّ اللّسان له دور حيوى و فعّال، فى حياة الإنسان وبناء شخصيته، وهو أمرٌ لا يخفى على أحدٍ، وله أصداءٌ واسعةٌ فى الرّوايات الإسلاميّة، و ما ورد آنفاً ليس إلّانَزَرٌ قليلٌ من ذاك الكمّ الكثير. و بالطّبع فإنّ النّعم الإلهيّة العظيمة، هى رأسمالٌ عظيمٌ لبناء الذّات فى طريق التّكامل المعنوى، وكلمّا إزدادت النعم الإلهيّة، و توسّعت، إزداد الأمر خطورةً، للحفاظ عليه من الآفات و الأخطار فى دائرة التّحديات الصعبة، التى تحاول القضاء على شخصيّة الإنسان. و المعروف: «أنّه إلى جانبِ كلِّ جبلٍ عظيمٍ وادٍ سحيقٍ»، ففى جانب كلّ نعمةٍ و موهبةٍ، هناك خطرٌ محدقٌ، فالطّاقة الذريّة مثلًا إذا استعملت فى الأغراض السلميّة، و الإعمار، فستبنى و تُعمّر دنيا الإنسان، وإذا ما استعملت فى الشر فستفنى العالم فى دقائق معددوة. و منها نفتح باب الحديث، على آفات اللّسان.

آفات اللّسان:

كما أشرنا أنّ فوائد اللّسان و بركاته البنّاءة عديدةٌ، و كذلك آثاره السلبيّة، و ما يترتب عليه من ذنوبٍ و آثام، و نتائجٍ مخرّبةٍ على مستوى الفرد والمجتمع، وقد ذكر العلّامة المرحوم الفيض الكاشانى رحمه الله، فى كتابه: «المحجّة البيضاء»، والغزالى فى كتابه: «إحياء العلوم»، بحوثاً مطوّلة، فذكر الغزالى عشرين نوعاً من أنواع الإنحرافات و الأخطار للّسان: ۱- الكلام فى ما لا يعنى الإنسان، «وليس له أثر مادّى و لا معنوى فى حياة الإنسان». ۲- الثّرثرة والكلام اللّغو. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۹ ۳- الجدال و المراء. ۴- الخصومة و النّزاع و اللّجاج فى الكلام. ۵- التّكلم حول المنكرات، مثل الشّراب و القمار و ما شابهه. ۶- التكلّف فى الكلام، و التّصنع فى السّجع و القافية. ۷- البَذاءة ۸- اللّعن لغير مستحقّيه. ۹- الغِناء. ۱۰- المِزاح الرّكيك. ۱۱- السّخرية و الإستهزاء بالآخرين. ۱۲- إفشاء أسرار الناس. ۱۳- الوعود الكاذبة. ۱۴- الكذب والأخبار الكاذبة. ۱۵- الغيبة. ۱۶- النّميمة. ۱۷- النّفاق فى اللّسان، «أو كما يقال ذواللّسانين». ۱۸- المدح لِغَير مُستَحقّيه. ۱۹- الكلام و التّحدث بدون تفكّر و تدبّر، حيث يُصاحبه الوقوع فى الخطأ والاشتباه عادة. ۲۰- التّساؤل عن الامور المعقدّة و الغامضة، التى تخرج عن قُدرة المسؤول، هذا و إنّ الدّقة فى البحث، أثبتت لنا أنّ الآفات لا تَنحصر بهذه الامور فقط، فالمرحوم الكاشانى و الغزالى، ربّما لم يكن قَصدهما، إحصاء جميع عناصر الخلل و الزّيغ فى اللّسان، ولذلك فإنّنا نضيف إلى هذه الموارد العشرين، موارد اخرى، و هى: ۱- التّهمة. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۷۰ ۲- الشّهادة بالباطِل. ۳- مدح النّفس. ۴- نشر الشّائعات و الأكاذيب، التى لا تعتمد على أساس، و إشاعة الفَحشاء و المُنكر، و إن كان من باب الإحتمال. ۵- البذاءَة و الخُشونة فى الكلام. ۶- الإصرار العَقيم: (كما أصرّ أصحاب بقرة بنى إسرائيل). ۷- ايذاء الآخرين بالكلام الجارِح. ۸- المذمّة لغير مُستحقيها. ۹- الكُفران و عدم الشّكر باللّسان. ۱۰- الدّعاية لِلباطِل، و التّرغيب على الذَنب، و الأمر بالمُنكر، و النّهى عن المعروف. و غَنىٌّ عن البيان، أنّ ما تقدّم آنفاً لا يشكل جميع خطايا اللّسان، بل يمكن القول أنّ هذه الموارد الثّلاثين، من امهّات المِوارد فى هذا الصّدد. و الجدير بالذّكر، أنّ البَعضِ أفرطوا فى هذا المجال، و نسبوا إلى اللّسان ذُنوباً هو بَرىءٌ منها، كَإظهار الفقر والمَسكنة و البدعة فى الدّين، و التّفسير بالرّأى و الجاسوسيّة ما شابَهها، فكلٌّ منها يعتبر ذنباً مُستقلًّا، فربما إرتكبت باللّسان أو بالقلم، أو بوسائل اخرى، و تصنيفها فى عداد ذنوب اللّسان، ليس بالشّىء المُناسب، لأنّه على هذا الأساس، يمكن تصنيف جميع الذّنوب فى قائمة ذنوب اللّسان، حيث إنّها ترتكب بنوعٍ ما، بواسطة اللّسان، أو أنّ لها علاقة به، كالرّياء والحسد والتكبر و القتل و الزّنا. و البعض أَقدم على كلّ خطيئةٍ من خَطايا اللّسان، و قسّمها إلى أقسامٍ عديدةٍ، و جعل كلّ قسم منها، فى فرع خاصٍّ و عنوانٍ مستقلٍ، مثل الجَسارة مع الأستاذ أو

الوالدین، أو تلقیبّهم بألقاب نابیةٍ. و علی کلّ حال، علینا إتخاذ جانب الإعتدال فی کلّ شـیء، و إن کانت هذه التّقسیمات، فی الحقیقة لا تؤثّر فی أصلِ البحث.

الاسس الکلیّة للوقایة من أخطار اللّسان:

اشارة

تبیّن ممّا سَبق، أنّ اللّسان فی الوقت الـذی یعـدّ فیه نعمةً إلهیةً عظمیةً، هو فی نفس الوقت، خطرٌ جدّاً إلی درجةٍ أنّ بإمکانه، أن یکون مصـدرَ الخطایا و الـذّنوب، و أن یَهبُط بالإنسان فی خطّ الباطل، إلی أسـفل السّافلین و یجره إلی الحَضـیض. و لأجله علینا التّفکیر، فی الاـصول التی تُعیننـا فی تجنّب أخطـاره الکبیرة، أو تقلیلها إلی أقصـی حـد. و نسـتعین فی دائرة الکشف عن أخطار اللّسان، بتوجیهات أئمّتنا العظام علیهم السـلام و روایاتهم، وکذلک نَسـتعین بِبَعض من کلمات علماء الأخلاق، حیث وضـعوا لنا اصولًا و اسـساً و خطوطاً عامةً، علیها التّعویل فی حرکتنا المعنویّة المتجهة نحو اللَّه تعالی، و منها:

۱- الإنتباه الحَقیقی لأخطار اللّسان

للوقایة من أخطار أیّ موجودٍ خطرٍ علینا، فی البِدایة نَلتَزِم حالة الإنتباه و التّوجه الّتام، لما یترتب علیه من أخطار، فعندما یستیقظ الإنسان کلّ یوم صـباحاً، علیه أن یُوصی نفسه و معها علی مستوی الحَذر، من شَطَحات لسانه وأفکاره، لأنّ هذا العضو من البدن إذا تعامل معه الإنسان، من موقع الإنضـباط فی خطّ المسؤولیّة، فسوف یصعد به إلی أوج السّعادة و الکَمال، و إذا أطلق له العِنان، فسیورد صاحبه فی المهالک، فهو وَحشٌ ضارَی لا همّ له إلّا التّـدمیر و التّخریب، وقد ورد هذا المعنی بصورةٍ جملیةٍ وتعبیراتٍ مؤثّرةٍ فی روایاتنا الشّـریفة، منهـا مـا ورد عن سـعید بن جُبیر، عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله، حیث قال: «إذا أَصبَحَ إبنُ آدَمَ أَصْـبَحَتْ الأَعْضاءُ کُلُّها تَشْـتَکِی اللِّسانَ أی تَقُولُ إتَّقِ اللَّهَ فِینا فَإنَّکَ إنْ اسْـتَقَمْتَ إسْتَقَمنا وَإنْ إعوَجَجْتَ إعوَجَجنا» «۱». و جاء عن إمامنا السّجاد علیه السلام: «إنَّ لِسان إبنِ آدَمَ یُشْـرِفُ عَلی جَمِیع جَوارِحِهِ کُلَّ صَـباحُ فَیَقُولُ کَیفَ أَصْـبَحْتُم؟! الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۲ فَیَقُولُونَ بِخَیرٍ إنْ تَرَکْتَنا وَیَقُولُونَ اللَّهَ اللَّهَ فِینا، وَیُناشِدُونَهُ وَیَقُولُونَ إنَّما نُثابُ وَنُعاقَبُ بکَ». «۱»

۲- السّکوت

تطرّقنا سابقاً لمباحث السّکوت، بصورةٍ وافیةٍ، و نقلنا آیات وروایات کثیرة فی هذا الصّدد، فکلّما کانَ الکلام أقل، کان الزّلل کذلک، وکلّمـا کان السّـکوت أکثر، کانتْ السّـلامة تحیط بالإنسان فی حرکـة الحیاة والواقع، عِلاوةً علی ذلک فإنّ إلتزام السّـکوت فی أغلب الحالاـت، یعوّد الإنسان السّـیطرة علی لسانه والحـدّ من جموحه، و الوصول فی هـذه الحالـة النّفسـیة، إلی درجـةٍ لا یقول إلّاالحقّ، و لا یتکلّم إلّابمـا یُرضـی اللَّه تعـالی. و یجب الإنتبـاه إلی أنّ المراد من السّـکوت، لیس هو السـکوت المطلق، فکثیرٌ من امورنـا الحیاتیّـة لا یتحقّق إلّابالکلام، من قبیل کثیرٍ من الطّاعاتِ و العبادات، و نشـر العلوم و الفَضائل، و إصـلاح ذات البَین، و أمثال ذلک، فالمقصود قلّة الکلام و الإجتناب عن فُضوله، فقـد قال الإمام علی علیه السـلام: «مَنْ کَثُرَ کَلامُهُ کَثُرَ خَطَؤُهُ، مَنْ کَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَیاؤُهُ، وَ مَنْ قَلَّ حَیاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَ مَنْ قَلَّ وَرَعَهُ ماتَ قَلْبُهُ، وَ مَنْ ماتَ قَلْبُهُدَخَلَ النّارَ» «۲». و نقل هذا التّعبیر، بصورةٍ اخری عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و

آله «۳». و فى حديثٍ آخر عن الإمام على عليه السلام، أنّه قال: «الكَلامُ كَالدَّواءِ قَلِيلُهُ يَنْفَعُ وَكَثِيرهُ قاتِلٌ» «۴».

۳- حِفظ اللّسان: «التفكّر أولًا ثّم الكَلام»

إذا فكّر الإنسان فى مضمون كلامه، و دوافعه و نتائجه، فسيكون بإمكانه أن يَتجنّب كثيراً من الشّطحات، و الذّنوب التى تنطلق من موقع الغفلة، نعم فإنّ إطلاق العِنان لِلّسان من موقع اللّامبالاة و الإستهانة، بإمكانه أن يوقعه فى أنواع الذّنوب و المَهالك فى حركةِ الحياة. الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۷۳ وَ وَرد فى حديثٍ عن الرسول الكريم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «إنَّ لِسانَ المُؤمِنِ وَراءَ قَلْبِهِ، فَإذا أرادَ أنْ يَتَكَلَّمَ بِشىءٍ تَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ، ثُمَّ أَمضاهُ بِلِسانِهِ و إنَّ لِسانَ المُنافِقِ أَمامَ قَلْبِهِ، فَإذا هَمَّ بِشىءٍ أَمضاهُ بِلِسانِهِ وَلَم يَتَدَبَّرْهُ بِقَلْبِهِ» «۱». وَ وَرد نفسُ هذا المعنى، مع بعض الإختلاف فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام، فى الخُطبة (۱۷۶) من نهج البلاغة. و نقرأ فى تعبيرٍ آخر ورد عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام، أنّه قال: «قَلْبُ الأَحْمَقِ فى فَمِهِ، وَفَمُ الحَكِيمِ فِى قَلْبِهِ» «۲». فَمن البَديهى، أنّ المراد من القلب هُنا هو العقل والفكر، وَ وُجود اللّسان فى موقع الأمام أو الخلف، هو كنايةٌ عن التدبّر والتفكّر فى محتوى الكلمات و الألفاظ، قبل النّطق بها، و بالفِعل كم يكون جميلًا، لو أنّنا حسبنا لكلامنا حسابه، و فكّرنا فى كلّ كلمةٍ نريد أن نقولها، و الدّوافع و النّتائج التى ستعقبها، و هل أنّها من اللّغو أو ممّا يفضى إلى إيذاء مؤمنٍ، أو إلى تأييد ظالم وأمثال ذلك، أو أنّها تنطلق من موقع الدّوافع الإلهيّة، و لغرض حماية المظلوم، و فى طريقٌ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، و كسب مَرضاة اللَّه تعالى؟!. ونَختم هذا الكلام، بحديثٍ جامع لجميع الموارد المذكورة آنفاً، يمنح قلب الإنسان نوراً و صفاءً، و قد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنْ أَحبَبتَ سَلامَةَ نَفْسِكَ وَسَترَ مَعايِبِكَ، فَاقْلِل كَلامَكَ وَأَكْثِر صَمْتَكَ، يَتوفَّرْ فِكْرُكَ وَيَستَنِرْ قَلْبُكَ». «۳» هذه هى خلاصة دور اللّسان فى تهذيب النّفس، وطهارة الأخلاق و الاصول الكلّية لحفظ اللّسان، و بالطّبع سوف نقدم شرحاً وافياً، لتفاصيل أهمّ الإنحرافات و الذّنوب اللّسانيّة، كالغيبة و التّهمة والكَذب والنَميمة ونشر الأكاذيب و إشاعة الفحشاء، وذلك فى المجلّد الثانى من الكتاب، إن شاء اللَّه تعالى، بعد الإنتهاء من بيان الاصول الكلّية لِلقيم الأخلاقيّة.

الخُطوة الثّامنة: معرفة اللَّه تعالى و معرفة النّفس

اشارة

من الخَطوات الاولى فى طريق إصلاح النّفس، و التّهذيب الرّوحى، و بلورة الأخلاق و الملكات الأخلاقية السّامية، فى واقع الإنسان هى: «معرفة النّفس». فكيف يمكن للإنسان أن يرقى فى درجات الكمال الرّوحى و يتحرك على مُستوى إصلاح عُيوبه، و التّخلص من رذائله الأخلاقيّة، والحال أنّه لا يعرف نفسه من موقع الوعى لذاته؟ و هل للمريض أن يذهب إلى الطّبيب، و لمّا يعرف أنّه مُصابٌ بالمرض؟ و هل لِلتائه الضّال عن الطّريق، أن يعرف وجهته، و يتحرك فى طريق العثور على الجادة الصّحيحة، قبل أن يعرف أنّه ضالٌ عن الطريق؟ و هل للإنسان أن يُهيّىء أسباب و وسائل الدّفاع عن نفسه، و هو لا يعرف أنّ العدوّ قد كَمَن له على باب داره؟ من الطّبيعى، أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة هو بالنّفى، فكَذلك من لا يعرف نفسه ولا عيوبه فإنّه لن يستطيع أن يتحرّك فى عمليّة إصلاح نفسه، ولن يستفيد من أطبّاء الرّوح، فى خطّ التّربية و التّهذيب. و بهذه الإشارة نعود إلى صُلب الموضوع، لنبيّن علاقة معرفة النّفس بِتهذيبها، و كذلك العلاقة بين: معرفة اللَّه وتهذيب النّفس.

۱- علاقة معرفة النّفس بتهذيبها

کیف یُمکن لمعرفـة النّفس أن تکون سـبباً فی تهذیب النّفس؟ دلیلُهُ واضحٌ و بَیّنٌ، لأنّه: أولًا: إنّ الإنسان عن طریق معرفة نفسه، سوفَ یَعی کرامـةَ نفسه، و شـرفَ ذاتِه، و عظمةَ الصّـنع الإلهی فی هذه الخِلقة، و بالتّالی سَـیُدرِک، أهمیّة الرّوح الإنسانیّة، التی هی نفحةٌ من نفحـات قُـدسه، نعم فـإنّه سَـیُدْرِک أنّ الجوهَرة الّثمینـة، التی منحه اللّه تعـالی إیّاهـا، علیه ألّـا یُضـیّعها و لا یَبیعها بأبخسِ الأثمان، فلن یُضـیّعها إلّـامن کانَ یعیش الرّذائل الأخلاقیّـة، و من غَرق الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۵ بِوحل الذّنوب، و مسـتنقع الخَطیئة. ثانیاً: الإنسـان بمعرفته لنفسه، سـیطّلع علی الأخطـار الـتی تحـدق به، جرّاء مِیوله النّفسـیة، وعنصـر الهَوی و دوافع الشّـهوة، الـتی تقع فی خطّ التّقابـل، مع سـعادته و تکـامله المعنوی فی حرکـة الواقع النّفسـانی، و سـیکون بإمکـانه التّحرک فی دائرة المُواجهـة الواعیـة، للوقوف بوجهها و التّصـدی لها. و من البـدیهی، أنّ الإنسان الذی لا یَخبُر نفسه لن یکون علی إحاطةٍ بوجود تلک الدوافع، ویبقی کالغافل عمّا یـدور حوالیه، بینما یکون الأعـداء قـد إحتوشوه من کلّ جانبٍ، و هو لا یُحرّک ساکناً، و بالطّبع فإنّ هـذا الشّـخص، سـیتلقّی ضـرباتٍ قاصـمةٍ من عـدوّه، وبعدها یخضع لواقع السّـیطرة من قِبل العدو، و أنّی له ساعتها، التّدبیر و التّفکیر من موقع الشّعور الهادِیء، و البعید عن الإنفعال و التّوتر!!. ثالثاً: بمعرفة النّفس، سـتظهر له خَبایا نفسه، و إستِعداداتِها المختلفة، و لأجل رُقیّها و کمالها و السّیر بها إلی اللّه، سیسـعی الإنسـان فی خـطّ التربیّـة و التّهـذیب، لِبلورة تلـک الإسـتعدادات و الکَمالاـت، و یسـتخرج کُنوزها من واقعه الـذّاتی، لیقترب بواسـطتها من آفاق السّـماء. و حال الشّخص الذی لا یتعامل مع ذاته، من موقع المعرفة و الوَعی، کحال الذی دَفَن فی بیته کُنوزاً، و هو لا یعلم بها، وهو بأمسّ الحاجـة إلیها لفقره المُـدقع، فیموت جوعاً بـدون أن یجد فی نفسه باعثاً علی الانتفاع بها، فی واقع الحیاة. رابعاً: إنّ کلّ واحدةٍ من المفاسد الأخلاقیّة، لها جذورها فی النّفس الإنسانیّة، و بمعرفة النّفس، سیسـعی الإنسان فی عملیّة قلع تلک الجُذور، من واقع النّفس و غلق تلک الرّوافـد التی تمـدّها بالماء الآسن، و مُعالجـة هـذا الواقع السّـلبی، بفتـح روافـد الماء الصّافی الرّقراق الذی یمـدّها بالحَیاة والوِصال الحقیقی المنفتـح علی الإیمان والصـفاء النّفسـی. خامساً: والأهم من هذا وذاک، فإنّ معرفة النّفس، تؤدّی إلی معرفة الربّ، و معرفة صـفاته الجلالیّة و الجمالیّة، و التی هی من أقوی الدّوافع الذاتیّة، لتربیة المَلَکات الأخلاقیّة، و الکَمالات الإنسانیّة، و طریقٌ قویمٌ لِلنجـاة من الإنحطاط و الرّذیلـة، و الصّـعود بها إلی أعلی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۶ مراتب الکمال المعنوی، و آفاق المَثل الإنسانیّة. و إذا أضـفنا إلی ذلک کلّه هذه الحقیقة، و هی أنّ الرّذائل تقلب حلاوة السعادة إلی مرارة الشّقاء، و تجرّ البشریّة إلی حیث الویلات و الـدّمار، فعندها سـتّتضح مدی الأهمیّة القُصوی، لمعرفة النّفس فی حیاة الإنسان والمجتمع البشـری. و قد وَرد فی کتاب: «إعجاز الطبّ النّفسـی»، للکاتب «کارل منینجر»: (معرفـة النّفس عبارة عن الإحاطة بقوی الخیر والمحبّة، ومعرفة عناصـر الشّـر و الکراهیّـة فی النفس الإنسانیّة، و أیّ تجاهلٍ و تغافلٍ عن وجود هذه القوی و العناصـر فی أنفسـنا، و فی الغیر، بإمکانه أن یُعرّض اسـس الحیاة للإهتزاز والخلَل) «۱». و فی کتـاب: «الإنسان ذلک المجهول»، وردت جملـةٌ تعتبر شاهـداً حیّاً علی مـدّعانا، فیقول: (لسوء الحظ فـإنّ الإنسـان المعاصـر، لم یتحرّک علی مستوی التّعرف علی نفسه، إلی جـانب التّقـدم الصّـناعی و التّطـور العلمی، ولم یوفّق برنـامج الحیاة، وفق واقعه الطّبیعی، و الفِطری، لـذلک فَمع ما فی الحیاة العصـریّة من زینةٍ و تفاخرٍ، لکنّها لم توصل الإنسان للسّـعادة المنشودة، فالتّقـدم الـذی حصل علی مسـتوی العلم والتّکنولوجیا، لم یحصل بتـدبیرٍ و تفکیرٍ، بل حصل عن طریق الصّدفـة المَحضـة ..، فلو رکّز: «غـالیلو» و «نیوتن» و «لاـفوازیه»، وغیرهـم من العلمـاء علی جسم وروح الإنسان، لربّما تغیّرت الـدنیا، ولمّا أصـحبت کما هی علیه الآن» «۲». و بناءاً علیه، فإنّ إحـدی العقوبات التی أعـدّها الباری تعالی، لِلمُعرضـین عن اللّه من موقع الّتمرد علی الحقّ، وحـذّر الباری تعالی، المسـلمین من الوقوع فیها، هی نسیان النّفس، و الغفلة عن الذّات: «وَلَا تَکُونُوا کَالَّذِینَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِکَ هُمْ الْفَاسِقُونَ» «۳».

۲- معرفة النّفس فی الرّوایات الإسلامیّة

و قد أغنتنا الرّوایات الشّریفة، الواردة عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، و الائمّة الهداة علیهم السلام، فی هذا الاخلاق فی القرآن،

ج۱، ص: ۲۷۷ المجال، ومنحتنا زَخماً معرفيّاً كبيراً، على مستوى بيان مَعطيّات معرفة النّفس، و أثرها الإيجابى فى حركة الإنسان، فى خطّ التّكامل المعنوى، و الأخلاقى، و منها: ۱- ما ورد عن الإمام على عليه السلام، أنّه قال: «نالَ الفَوزَ الأَكبَرَ، مَنْ ظَفَرَ بِمَعرِفَةِ النَّفسِ» «۱». ۲- و يقول عليه السلام، فى النّقطة المُقابلة لِهذا: «مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ بَعُدَ عَنْ سَبِيلِ النَّجاةِ، وَ خَبَطَ فى الضَّلالِ وَ الجَهالاتِ»». ۳- وَ وَرد فى حديث آخر، عن هذا الإمام الهمام عليه السلام: «العارِفُ مَنْ عَرِفَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَها وَ نَزَّهَها عَنْ كُلِّ ما يُبَعِّدُها» «۳». و يُستفاد من هذا التّعبير، أنّ معرفة النّفس سببٌ للتحرر من قيود الأهواء، و أسر الشّهوات، و تطهير النفس من الرذائل الأخلاقيّة. ۴- و نقرأ فى حديث آخر، عن هذا الإمام الكبير عليه السلام: «أَكْثَرُ النّاسِ مَعْرِفَةً لِنَفْسِهِ، أَخْوَفُهُم لِرَبِّهِ» «۴». و نَستوحى من هذا الحديث الشّريف، العلاقة الوثيقة بين الإحساس بالمسؤوليّة، من موقع الخَوف من اللّه تعالى الذى يعدّ منطلقاً لتهذيب النّفس فى خطّ التّقوى، و بين معرفة النّفس. ۵- وَ وَرد فى حديثٍ آخر، عن الإمام نفسه، يقول: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ جاهَدَها وَ مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ أَهْمَلَها» «۵». فطبقاً لهذا الحديث الشريف، فإنّ الدعامة الأصلية لجهاد النفس، أو الجهاد الأكبر، كما ورد التّعبير عنه فى الروايات الإسلاميّة، هى معرفة النّفس. ۶- وجاء فى نهج البلاغة، فى قصار الكلمات لأميرالمؤمنين عليه السلام: «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيهِ نَفْسُهُ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۷۸ هانَتْ عَلَيهِ شَهَواتُهُ» «۱». فالشّخص الذى عرف نفسه، على مستوى كرامتها الذّاتية، لا يعيش الذّلة فى إطار الخضوع للشّهوات، و الإستسلام للأهواء والنّوازع النّفسيّة. ۷- كما أنّ معرفة النّفس، تعتبر ركناً مُهمّاً فى تهذيب النّفس، فى خطّ التّكامل الأخلاقى و المعنوى، فالجهل بِكرامة النّفس، سبب للإبتعاد عن اللّه تعالى، ولِذا ورد فى حديثٍ آخر، عن الإمام العاشر: (الإمام الهادى عليه السلام): «مِنْ هانَتْ عَلَيهِ نَفْسُهُ فَلا تأَمَنْ شَرَّهُ» «۲». و مِن مَضمون ما تقدّم، يتبيّن بوضوح، أنّ من الدّعامات الأساسيّة للفضائل الأخلاقية، و التّكامل المعنوى، هو معرفة النّفس، ولن يصل الإنسان إلى غايته المَنشودة، إلّابعد عبور ذلك الممر الصّعب، ولذلك أكّد علماء الأخلاق، كثيراً على هذه المسألة، لِكى لا يغفل عنها السّائرون فى الطّريق إلى اللّه تعالى.

۳- معرفة النّفس طريقٌ لمعرفة الرّب

يقول البارى تعالى: «سَنُرِيهِمْ آياتِنَا فِى الْآفَاقِ وَ فى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» «۳». وَ وَرد فى آية اخرى، قوله تعالى: «وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» «۴». و إستدلّ بعض المحقّقين، بالآية الشّريفة، التى تتحدث عن عالَم الذَّرْ، على هذه الحقيقة أيضاً، و هى أنّ: «معرفة النّفس»، تعتبر الأساس والقاعدة: «لمعرفة اللّه تعالى حيث تقول الآية الكريمة: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا» «۵». و نقرأ فى تفسير الميزان: «فالإنسان وإن بلغ من التّكبر و الخُيلاء ما بلغ، و غرّته مساعدة الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۷۹ الأسباب ما غَرّتهُ و إستهوته، لا يسعه أن ينكر أنّه لا يملك وجود نفسه، و لا يستقلّ بِتدبير أمره، ولو ملك نفسه،- لوقاها ممّا يكرهه من الموت، و سائر آلام الحياة مَصائبها، و لإستقلّ بتدبير أمره، لم يفتقر إلى الخضوع، قبال الأسباب الكونيّة. فالحاجة إلى ربٍّ:- مَلِكٍ مُدَبّر-؛ حقيقة الإنسان، والفقر مكتوبٌ على نفسه، و الضعف مطبوعٌ على ناصيته، لا يخفى ذلك على إنسانٍ له أدنى الشّعور الإنسانى، والعالم و الجاهل، و الصّغير و الكبير، و الشّريف و الوضيع، فى ذلك سواء. فالإنسان فى أىّ منزلٍ من منازلِ الإنسانية نزل، يشاهد من نفسه أنّ له رباً يملكه و يدبّر أمره، وكيف لا يشاهد ربّه، و هو يشهد حاجته الذاتيّة؟ ولذا قيل: إنّ الآية تشير إلى ما يشاهده الإنسان فى حياته الدنيا. أنّه محتاج فى جميع جهات حياته، من وُجوده وما يتعلق به وجوده من اللّوازم و الأحكام، و معنى الآية أنّا خلقنا بنى آدم فى الأرض، و فرّقناهم، و ميّزنا بعضهم من بعضٍ بالتّناسل و التّوالد، وأوقفناهم على إحتياجهم ومربوبيتهم لنا، فإعترفوا بذلك قائلين، بلى شَهِدنا أنّك ربّنا» «۱». و بناءاً على ذلك، يثبت لنا أنّ التّعرف على حقيقة الإنسانيّة، بخصوصياتها و صفاتها، هى السّبب و الأساس لمعرفة البارى تعالى شأنه. و الحديث المعروف، الذى يقول: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عِرَفَ رَبَّهُ»، ناظر إلى هذه المسألة بالذات. و قد نقل هذا الحديث مرّةً عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و مرّةً اخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، و مرّةً نُقل عن صُحف إدريس عليه السلام. فجاء فى بحار الأنوار نقلًا عن صحف إدريس

عليه السلام، فى الصّحيفة الرّابعة، و التى هى صحيفة المعرفة: «مَنْ عَرَفَ الخِلْقَ عَرَفَ الخالِقَ، وَ مَنْ عَرَفَ الرِّزْقَ عَرَفَ الرَّازِقَ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۰ و على كلّ حالٍ، فإنّ مضمون هذا الحديث قد ورد بطرق متعدّدة، فى كتاب بحار الأنوار، عن الرسولً الأكرم صلى الله عليه و آله، أو أحد المعصومين عليهم السلام، أو إدريس النبى عليه السلام، وكذلك ورد عن الإمام على عليه السلام، فى: «غُرر الحِكَم» «۱». و قال العلّامة الطّباطبائى، فى تفسيره: «أنّ الشّيعة و السّنة قد نقلوا هذا الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله، و هو حديثٌ مشهورٌ» «۲».

التّفاسير السّبعة، لحديث من عَرف نفسه:

و قد وردت تفاسيرٌ عديدةٌ لهذا الحديث، و منها: ۱- يشير هذا الحديث إلى: «بُرهان النّظم»، فكلّ إنسانٍ يتعرف على عجائب الخِلقة، فى روحه و جِسمه، و ما تتضمّن من النّظم المعقد والمحيّر فى تفاصيلها الدقيقة، فسوف ينفتح له طريق إلى اللَّه تعالى، فإنّ هذا النّظم و الإنتِظام و الدّقة فى الخلقة، لا يمكن أن ينشأ، إلّابتدبير عالم قادر مبدىء معيد. ۲- و يمكن أن يكون هذا الحديث، إشارةً إلى بُرهان: «الوجود والإمكان»، فعندما ينظر الإنسان و يُدقّق فى تفاصيل وُجوده و نشأته، يرى أنّه وجودٌ مستقلٌ، من عِلمه و قُدرته و ذَكائه و سَلامته، فكلّها تحتاج إلى وجوده سُبحانه، و من دونه، فَهو لا شىء وسينتهى وجوده، وفى الحقيقة هو كالمعانى الحرفيّة، التى بدون المعانى الإسميّة، لن يكتمل لها معنى، كجملة: «ذهبتُ إلى المسجد»، فكلمة «إلى»، وحدها لا مفهوم لها إطلاقاً، من دون إرتكازها على كلمتى: «ذهبت» و «المسجد»، وكذلك الحال فى وجودنا بالنّسبة إلى اللَّه تعالى، فكلّ شخصٍ يحسّ فى نفسه هذا الإحساس، سيعرف ربّه من موقع الإعتماد و الإيمان أكثر، لأنّ وجود الممكن محال، بدون وجود الواجب. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۱ ۳- و يمكن لهذا الحديث، أن يدلّنا على: «برهان العلّة والمعلول»، فكلّ إنسان يَتَفكر فى نفسه، قليلًا فسوف يعرف أنّه معلول، لعلّةٍ اخرى منذ وجوده، و عندما ينظر لأبيه سيراه هو أيضاً معلولًا لعلّةٍ اخرى، و هكذا حتى يصلَ إلى علّةِ العلل، و إلّايلزم التّسلسل، و بطلان التّسلسل، أمرٌ مفروغٌ عنه لدى الحكماء «۱». و عليه، يجب أن تصل العلل إلى العلّة الاولى، التى لا تحتاج إلى عِلّة، فعلّة العِلل: وجوده فى ذاته، فعندما يرى الإنسان نفسه بهذا الوصف، فإنّه سيصل إلى البارى سبحانه و تعالى، من خلال هذا القانون العقلى. ۴- و يمكن أن يكون هذا الحديث، إشارة إلى «بُرهان الفطرة»، فعندما يعرف الإنسان فى تأمل حَنايا نفسه، و جَوانب فطرته، فسوف يتجلّى له نورُ التّوحيد، و ينفتح على اللَّه تعالى، ويصل من «معرفة النفس»، إلى «معرفة اللَّه»، ولن يحتاج إلى دليلٍ آخر يقوده إلى اللَّه تعالى. ۵- و يمكن أن يكون الحديث، ناظراً إلى مسألة: «صفات اللَّه تعالى»، بمعنى أنّ الإنسان عندما يرى محدوديّته، فى دائرة حالاته و صفاته فى عامل الإمكان، سيصل إلى نقاطِ ضعفهُ و يُدرك من خلال محدوديّته فى مجال الصّفات البشريّة، لا محدوديّة اللَّه تعالى، لأنّه لو كان مخلوقاً مثله، لكان محدوداً أيضاً، و من فنائه إلى بَقائه تَبارك و تعالى، لأنّه لو كان مخلوقاً أيضاً لكان فانياً، و كذلك يُدرك من خلال إحتياجاته و فَقره، إستغناء اللَّه وعدم حاجته عمّا سواه، و يُدرك قوّة البارى من خلال فَقره وحاجته هو ... وهكذا، وهذا ما يشير إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فى أوّل خطبةٍ، حيث يقول: «وَكَمالُ الإخلاصِ لَهُ نَفى الصِّفات عَنْهُ، لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيرُ المَوصُوفِ، وَ شَهادَةِ كُلِّ مَوصُوفٍ أَنَّهُ غَيرُ الصِّفَةِ» «۲». ۶- و نقل العلّامة المجلسى رحمه الله، تفسيراً آخر لهذا الحديث، عن بعض العلماء، أنّه قال: (الرّوح لطيفةٌ لاهوتيّة فى صفةٍ ناسوتيّةٌ: دالّةٌ من عشرة أوجهٍ، على وحدانيّة اللَّه وَ رَبّانِيَّتِهْ: ۱- لما حرّكت التهيكَل و دبّرته، علمنا أنّه لابدّ لِلعالم من مُحرّكٍ و مُدبّرٍ. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۲ ۲- دلّت وحدتها على وحدته. ۳- دلّ تحريكها لِلجسد على قدرته. ۴- دلّ إطّلاعها على ما فى الجسد على علمه. ۵- دلّ إستواؤها إلى الأعضاء على إستوائه إلى خلقه. ۶- دلّ تقدّمها عليه وبقاؤها بعده، على أزلَهِ و أَبده. ۷- دلّ عدم العلم بكيفيّتها، على عدم الإحاطة به. ۸- دلّ عدم العلم بمحلّها من الجسد، على عدم أينيتّه. ۹- دلّ عدم مسّها على إمتناع مسّه. ۱۰- دلّ عدم إبصارها على إستحالة رؤيته) «۱». ۷- التّفسير الآخر لهذا الحديث، هو أنّ جملة: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، هى من قَبيل التّعلّق بالمحال، يعنى بما أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه، فهو لن يعرف ربّه

بصورةٍ حقيقيةٍ. ولكن التّفسير الأخير هـذا غير مناسب، و التّفاسير السّابقة أنسب لسياق الحديث، ولا ضَير من إحتواء ذلك الحديث الشريف، لكلّ تلك المعانى الجليلة. نعم، فإنّ كلّ إنسان يعرف نفسه، سيعرف ربّه، و معرفة النّفس هى طريقٌ لمعرفة الرّب، و هى أهمّ وسيلةٍ لتهذيب الأخلاق، و طهارة النّفس و الرّوح، فذاته المقدسة هى مصدر لكلّ الكمالات و الفضائل، و أهمّ طريقٍ للسّير و السّلوك فى خط بناء الذات، و تهذيب الأخلاق، هو معرفة النّفس، ولكنّ معرفة النّفس تقف دونها موانعٌ كثيرةٌ، لابدّ من إستعراضها و بحثها.

موانع معرفة النّفس:

أوّل خطوةٍ تُتَّخذ، لعلاج الأمراض البدنيّة هى معرفتها، وعليه ففى وقتنا الحاضر، يمكن الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۳ تشخيص أغلب الأمراض، بالأشعّة السّينيّة، و السّونار، و المختبرات المختلفة لتحاليل الدّم والبول، وما شابهها من الامور، حيث يستطيع الطّبيب بمعونتها، من تشخيص مواضع الخلل البدنى بدقةٍ، و بالتالى يكون بإمكانه، وضع الأدوية والعلاجات لذلك المرض، و كذلك الحال فى الأمراض الروحيّة و النفسيّة على مستوى التّشخيص والمعالجة، فإنّنا إن لم نشخّص أمراضنا الرّوحيّة، بمساعدة الطّبيب الحقيقى للنفس، ولم نتمكن من العثور على جذور الرّذائل الأخلاقيّة، فى واقعنا النّفسى، فسوف لا يمكننا الوصول إلى طريقةٍ لعلاج هذه الأمراض، و جُبران مواضع الخَلل فى عالم النّفس. ولكن أغلب الناس، يتجاهلون الأعراض الخطيرة للأمراض، وذلك لِغَلبة الأنانيّة عليهم وحبّ الذات، الذى لا يسمح لهم برؤية النّقص على حقيقته، وهذا الهروب من الحقيقة، غالباً ما ينتهى إلى عواقب غير حميدة، ولا يتوجه إليها الإنسان إلّابعد فوات الأوان، و بعد تجاوز المرض مرحلة العلاج، ففى الأمراض الأخلاقيّة، و الإنحرافات النّفسية، غالباً ما يكون حبّ الذات و الأنانية، مانعاً قويّاً لِلناس، يحول دون معرفة صفاتهم الرّذيلة، و عيوبهم الأخلاقيّة و الإعتراف بها، بل ويتذرعون بالأعذار المختلفة، فى عملية التغطية اللّاشعورية، على تشوّهات الأنا ليكون الشّخص متعالياً عن النّقد و النّقص، و بذلك يعيش مثل هذا الإنسان، حالةَ الوَهم فى ثياب الواقع. و الحقيقة أنّ الأعترافَ بالخطأ فَضيلةٌ، ويحتاج إلى عزمٍ جدّى، و إرادةٍ راسخةٍ، و إلّافان الإنسان سيتحرك على مستوى تغطية عيوبه، و يُدرجها فى طىّ النسيان، ليخدع بها نفسه و من حواليه، بالظّواهر الخادعة والعناوين الزائفة. نعم فإنّ الوقوف على العيوب و النقص، فى واقع الذّات أمرٌ مرعبٌ و مريعٌ، و غالبيّة النّاس يهربون من واقعهم فى حركة الحياة، ولا يريدون أنّ يعترفوا بأخطائهم من موقع تحمّل المسؤوليّة، لكنّ الهروب من الحقيقة، سيعود بالضّرر الكبير على صاحبه، و سيدفع الإنسان الّثمن غالياً على المستوى البعيد، جرّاء ذلك!. و على كلّ حال، فإنّ المانع الحقيقى، و الحِجاب الأصلى لمعرفة الذّات، هو حجاب حبّ الذّات، و الأنانيّة و التّكبر، وما لم تنقشع هذه الحُجب، الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۴ و تلك الغَشاوات عن النّفس، فلن يستطيع الإنسان أن يعرف ذاته، و نوازعها وستغلق دونه أبواب المعرفة الاخرى، التى تريد به النّهوض و الوصول إلى الحقّ، فى خطّ التّكامل المعنوى، و التّحذيرات التى صدرت من رسولنا الكريم صلى الله عليه و آله، شاهدٌ حىٌّ على مدّعانا، منها: «إذا أرادَ اللَّهُ بِعَبدٍ خَيراً فَقَّهَهُ فى الدِّينِ وَزَهّدَهُ فى الدُّنيا وَبَصَّرَهُ عُيوبَهُ» «۱». و قال أميرالمؤمنين عليه السلام، فى حديثٍ آخر: «جَهْلُ المَرءِ بِعُيوبِهِ مِنْ أَكبَرِ ذُنُوبِهِ» «۲». و يُفرض علينا هذا السؤال نفسه، وهو أنّه كيف يستطيع الإنسان، أن يُزيل تلك الغَشاوات و الحُجب، التى ترين على نفسه و روحه؟. هنا أتحفنا الفيض الكاشانى فى هذا المجال، بنصائح قيمةٍ، فقال: (اعلم أنّ اللَّه تعالى، إذا أراد بعبدٍ خيراً بصّره بعيوب نفسه، فَمن كَملت بَصيرته لم تخف عليه عيوبه، و إذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكنّ أكثر الخلقِ جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القَذى فى عينِ أخيه و لا يرى الجذع فى عينه هو، فمن أراد أن يقف على عيب نفسه، فله أربع طُرق: الأوّل: أنّ يجلس بين يدى بصيرٍ بعيوب النّفس، مطّلعٌ على خَفايا الآفات، و يحكّمه على نفسه، و يتّبع إشارته فى مجاهداته، وهذا قد عزّ فى هذا الزمان وجوده. الثانى: أن يطلب: صديقاً صدوقاً بصيراً متديّناً، فينصبه رقيباً على نفسه، ليُراقب أحواله وأفعاله، فما يكرهه من أخلاقهِ و أفعاله و عيوبه الباطنة و الظّاهرة، يتبهه عَلَيها. فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمّة الدّين، كان بعضهم يقول: «رحم اللَّه إمرءً أهدى إلىّ عيوبى» «۳» ، وكلّ من كان أوفر عقلًا و أعلى منصباً، كان أقلّ إعجاباً و أعظم اتّهاماً لنفسه، إلّاأنّ هذا أيضاً قد عزّ، فقلّ فى الأصدقاء من

يترك المُداهنة، فيخبر بالعَيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب، فلا يَخلو أصدقاؤك عن حَسودٍ، أو صاحب غرض، يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۵ مُداهنٍ يُخفى عنك بعض عُيوبك، لهذا كان داوود الطائى قد إعتزل عن النّاس، فقيل له: لِمَ لا تُخالط النّاس؟، قال: ماذا أصنع بأقوام يخفون عنّى ذُنوبى. ان أهل الدين يحبون أن يُنبّهوا على عُيوبهم، بنصيحة غيرهم، و قد آلَ الأمر إلى أمثالنا، بأن وأبغضُ الخلق إلينا من يَنصحنا، و يُعرّفنا عيوبنا، و يكاد أن يكون هذا مُفصِحاً عن ضَعف الإيمان، فإنّ الأخلاق السّيئة: حيّاتٌ و عقاربٌ لدّاغةٌ، ولو نبّهنا منبّهٌ على أنّ تحت ثوبنا عقرباً، لشكرنا له ذلك و فرحنا به، و إشتغلنا بإبعاد العقرب و قتلها، و إنّما أذى العقرب على البدن، و يدوم ألمها يوماً أو بعض يوم، و نكايةُ الأخلاق الردّية على صميم القلب، وعسى أن يدوم بعد الموت، أبداً أو آلافاً من السّنين، ثمّ إنّا لا نفرح بمن ينبّهنا عليها، و لا تشتغل العداوة معه عن الإنتفاع بنصحه. الطّريق الثّالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه، من لسان أعدائه، فإنّ عين السّخط تُبدى المساوى، و لعلّ إنتفاع الإنسان بعدوٍّ مشاحن، يذكرّ عيوبه، أكثر من إنتفاعه بصديقٍ مداهنٍ، يُثنى عليه و يمدحه، و يخفى عنه عُيوبه. الطّريق الرّابع: أن يخالط الناس، فكلّ ما يراه مذموماً، فيما بين الخَلق فيطالب نفسه بتركه، وما يراه محموداً يطالب نفسه به و ينسب نفسه، إليه، فإنّ المؤمن مرآةُ المؤمن، فيرى فى عيوبِ غيره عيوبُ نفسه، و ليعلم أنّ الطّباعَ مُتقاربةٌ فى إتّباع الهوى، فما يتّصف به واحد من الأقران أعظم منه، أو عن شىء منه، فيتفقّد نفسه ويطهّرها عن كلّ ما يذمّه من غيره، و ناهيكَ بهذا تأديباً، فلو ترك النّاس كلّهم ما يكرهونه من غيرهم، لإستغنوا عن المؤدّب، قيل لِعيسى عليه السلام: من أدَّبك؟ فقال: «ما أدّبَنى أحد، رأيت جهلَ الجاهل فجانبته» «۱».

الخُطوة التّاسعة: العبادة و الدّعاء تصقل مرآة القلب:

اشارة

الخُطوة الاخرى، هى العبادة و الدّعاء، و لأجل التّعرف على دور، العِبادة و الدّعاء فى بناء و تهذيب النّفوس، علينا أولًا التّعرف، على حقيقة ومفهوم العبادة و الدّعاء. الواقع أنّ الحديث عن هذا الموضوع، طويلٌ وعريضٌ، وقد تناوله العلماءُ، العظماءُ، فى كتبهم الأخلاقيّة والتفسيريّة و الفقهيّة، بصورةٍ مُفصّلةٍ ووافيةٍ، ولكن يمكن القول و بإختصارٍ شديدٍ: علينا قبل معرفة حقيقة العبادةِ و مفهومها، أوّلًا أن ندرس مفهوم كلمة «عبد»، و هى الأصل و الجَذر اللّغوى، لكلمة: «العِبادة». «العبُد» لُغة تُطلق على الإنسان، الذى لا حول له ولا قوّة، فى مقابِل مولاه، فإرادته تابعةٌ لإرادة مَولاه، ولا يملك شيئاً فى عرضِ ما يملكه مولاه، و لا حقَّ له فى التّقصير فى طاعة سيّده. و عليه فإنّ العبودية، هى آخر وأقصى مراحل الخُضوع والخُشوع، فى مقابل السيّد، حيث إنّ كلّ شىءٍ فى حياته يراهُ من هبته و إنعامه و إكرامه، ومن هنا يتبيّن لنا بوضوح، أنّه لا أحد يستحقّ هذه الدّرجة من العِبادة، و يكون مَعبوداً سوى اللَّه تعالى، فهو الفَيض اللّامتناهى الذى لا ينقطع أبداً. و من بُعدٍ آخر، أنّ «العُبوديّة»: هى قمّة و نهاية التّكامل المعنوى، للرّوح فى حركة التّكامل المعنوىللإنسان، و غايةُ ما يطمح إليه الإنسان، من حالة القُرب من اللَّه تعالى، و التّسليم المُطلق لِلذات المُقدسة، فالعبادة لا تنحصر بالرّكوع و السّجود و القيام و القُعود، بل إنّ روح العِبادة هى التّسليم المطلق للَّهتعالى، و لذاته المُقدسة و المَنزّهة من كلّ عيبٍ و نقص. و من البديهى أنّ العبادة، هى أفضل وسيلةٍ للرّقى المعنوى، و تحصيل الكَمال المطلق، فى حركة الإنسان والحياة، وتقف حائلًا أمام كلّ رذيلةٍ، فإنّ الإنسان يسعى لِلقُرب من معبوده، لِتَتَجلى فى نفسه إشعاعاتٌ من نور قُدسه و جَلاله و جَماله، و يكون مظهراً و مرآةً لصفات الجمال و الكَمال الإلهيّة، فى واقعه النّفسى و سلوكه العملى. و فى حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «العُبودِيّةُ جَوهَرَةٌ كُنْهُها الرُّبُوبِيَّةُ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۷ و هو إشارة لتلك الإنعكاسة الربّانية، التى تتجلّى فى العبد جرّاء العِبادة الخالصةِ، المنفتحة على اللَّه، حيث يصل بواسطتها إلى درجاتٍ من الرّقى و الكمال، بحيث يمكنه معها السّيطرة على الكَون، و يكون صاحبٌ بالولاية التَّكوينيّة، أو هو: كالحديد الأسود، الذى يحمّر جرّاء مجاورته لِلنار، وهذه الحرارة و النّورانية ليست من ذاته، لكنّها من معطيات تلك

النـار. و منها نعود لِلقرآن الكريم، لنستوحى ممّا فيه من آياتٍ حول العبادة، و ما لها من دور فى تنميـة الفضائل الأخلاقيـة: ۱- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «۱». ۲- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «۲». ۳- «وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» «۳». ۴- «إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» «۴». ۵- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» «۵». ۶- «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۶». ۷- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» «۷».

تفسير و إستنتاج:

تتحرك الآيات الآنفـة الذّكر، لتؤكّد لنا حقيقةً واحدةً، ألا و هى، أنّ كلّ إنسانٍ يريد الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۸ الوصول إلى الكمال المطلقُ و يتحرك على مستوى تهـذيب النّفس، عليه أنّ يسلـك طريق العبادة، فالسّائر فى خطّ الإسـتقامة و التّربيـة، ولأجل أن يبنى نفسه، و يحصل على ملكة التّقوى، عليه أنّ يَعبُد و يَدعو اللَّه تعالى، من موقع العِشق و الشّوق ليوفقه فى ذلك، ويطلب منه العَون، لإزالـة شوائب نفسه، لِتّتصل النّقطـة بالبحر، و لِتَنْدَكّ ذاته بالذّات الأزليّة، و يتحول نحاس وجوده، فى بوتقة العِشق، إلى ذهبٍ خالصٍ. هنا تحرّكت «الآيـة الأُولى»، لتخاطب جميع الناس بدون إستثناء، أن يسلكوا إلى اللَّه من موقع العِبادة، وأرشدتهم لِطريق التقوى، فقالَ تعـالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». و التّأكيـد على مسألـة الخلقـة للأوّلين، لعلها تقع فى دائرة تنبيه العَرب الجاهلين، الذين كانوا يستدلون بعبادتهم للأصنام، بسنّة آباهم، فيقول البارى: إنّنا خلقناكم و الجِبلّة الأولين، نعم فهو الخـالق والمالـك لكـلّ شـيءٍ و لا يستحق العبادة أحدٌ إلّاهو، وإذا ما توجه الإنسان، حقيقـةً نحو البارى تعالى، فستتفتح فى جوانحه عناصـر الخير و التّقوى، لأنّ ما يوجـد من الشّوائب فى النفس، إنّما هو بِسبب التّوجه لغير اللَّه، من موقع العبادة الزّائفـة. فهذه الآيـة تبيّن معالم الرّابطـة والعلاقـة الوثيقـة، بين العبادة التقوى. و تطرقت «الآيـة الثّانيـة»، للحديث عن عبادةٍ مهمّةٍ، و هى الصّوم و علاقته بالتّقوى، فقـال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». و من المعلوم أنّ الصّوم يُنوّر القلب و يجلوه، بحيث يحسّ معه الإنسان أنّه يعيش القُرب من الحسـنات، و البُعد عن السّيئات و القَبائح، والإحصائيات التى ترد فى هذا الشّهر من المصادر المختصّـة عن الجرائم، تشير إلى أنّها تصل إلى أدنى مستوى، فى شـهر رَمضان، و أنّ الشـرّطة فى هذا الشّهر المُبارك، يتفرّغون لِلأهتمام بامور اخرى، إداريّة عالقة بالأشـهر الماضيـة!!. و هذا الأمر إنّ دلّ على شىءٍ، فهوَ يدلّ على أنّ الإنسان، كلّما إقترب من اللَّه تعالى، فى خطّ العبوديّـة و الطّاعـة، فإنّه يبتعـد عن الموبقات و الآثام، و القبائـح بنفس المقدار. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۹ و أشارت «الآيـة الثّالثة»، إلى علاقة الصّلاة بالنّهى عن الفَحشاء و المنكر، و خاطبت الرّسول الكريم صلى الله عليه و آله، بإعتباره قـدوة واسوة للآخرين، فقـالت: «وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». «فالفَحشاء و المنكر»، عبارةٌ عَنْ مجموعـة الأفعال غير الأخلاقيّة، التى تنبع وتنشأ من الصّفات الأخلاقيّة، و النّزعات الشّريرة الموجودة فى مطاوى النّفس البشـرية، حيث تؤثّر بدورها فى سلوك الإنسان، و تفرز الأخلاق الظاهريّة لَه، و «الصّلاة» تمثّل أداةَ ردعٍ لتلك الأخلاق المنحرفـة، فى دائرة السّلوك، لأنّ الأذكار و الأدعيـة، تعمل على تهـذيب النّفس، و ترويضـها و تطويعها فى طريقِ الخَير و الصّلاح، و حالـة القُرب من البارى تعالى، هذه هى التى تتولى إبعـاد الإنسان عن منبع الشّر و الرّذيلـة، الـذى هو عبارةٌ عن هوى النّفس و حبّ الـدنيا، من خلال الإنفتاح على آفاق المَلكوت، لِتَغرف نفسه من أنوار القُدس، وترتفع به إلى عالم الخلودِ و الكَمالِ المُطلق. فالمصلّى الحقيقى سيبتعد عن الفحشاء و المنكر لا مُحالة، لأنّ الصّلاة و العِبادة تَصون النّفس من المنكرات، و تحول دون إختراق الرذائل للنّفس الإنسانيّة، وتعمل على تَفعيل عناصـر الخَير، فى أعماق الوِجدان. و تحدّثت «الآيـة الرابعة» عن حالة الجَزع و البخل، اللّذان هما من السّجّايا الوضيعة فى واقع الإنسان، و خُصوصاً الجَزع فى حالـة سيطرة المشـكلات و الشّرور، و البُخـل فى حالـة إنفتـاح أبواب الثّراء أمام الإنسان، و إسـتثنت الآيـة المصلّين، و قالت: «إِنَّ

الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ». فهذه الآيات الكريمة، تبيّن لنا بصورةٍ جيدةٍ، أنّ التوجه للّه‌تعالى، و السّير فی خطّ العبادة و الدُّعاء و المناجات، له دورٌ هامّ فی مَحو الرّذائل الأخلاقيّة، من قبيل البُخل و الجّزع من واقع النّفس. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۰ و تشيرُ «الآية الخامسة»، إلى تطهير النّفس، بواسطة «الزّكاة»، و التی بدورها تُعتبر، من العبادات الإسلاميَّةِ المُهِمَّةِ، فی ديننا الحنيف، فتقول: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا». و جُملة: «تُزكيهم بها»، هی دليلٌ واضحٌ على هذه الحقيقة، و هی أنّ الزّكاة تعمل على تطهير النفس، من البَخل و الحِرص و حُبِّ الدنيا، وتزرع فی نفسه صفة الكرم، و حبّ الخير لِلناس، وتثير فی نفسه الحركة، على مستوى حماية الفقراء و المحتاجين. و ما ورد من روايات فی هذا الصدد، تبيّن هذه الحقيقة أيضاً، ومنها الحديث النبوی الشريف: «ما تَصَدَّقَ أَحَدُكُم بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ- وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إلّاالطَّيِّبَ-، إلّاأَخَذَها الرَّحمانُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كانَتْ تَمْرَةً فَتَربُو مِنْ كَفِّ الرَّحمانِ فی الجِنان حَتّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ» «۱». هذا الحديث الشّريف يبيّن تلك العلاقة الوثيقة المباشرة، بين هذه العبادة المهمّة و بين توطيد العلاقة مع اللَّه تعالى، و تفعيل الحالات المعنوية فی واقع الإنسان ومحتواه الداخلی. و تتحرك «الآية السّادسة»، من موقع الإشارة إلى عبادة مهمّةٍ اخرى و هی عبادة: «الذِّكر»، للَّهِ تعالى، و ما لَها من دورٍ فی بعث الطّمأنينة، فی واقع الرّوح فتقول: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». فالطّمأنينة تقترنُ دائماً مع التّوكل على البارى تعالى؛ و عدم الوقوع فی أسر الماديّات والامور الدنيويّة، من الإنخداع بَبريق الدُنيا، و الطّمع و البُخل و الحَسد و ما شابهها من الامور، فَمع وجود هذه الحالات السّيئة فی واقع النفس، فسوف لن يذوق الإنسان معها الرّاحة و الطّمأنينة. و عليه، فإنّ ذكر اللَّه تعالى بإمكانه إزالة هذه الصّفات السّلبية عن القلب، و تطهير النّفس منها لِتَتَهيأ الأرضيّة المساعدة، فی تَفتّح براعم السّكينة و الطّمأنينة فی واقع القلب و الرّوح. أو بتعبيرٍ أدق، إنّ جميع الإضطرابات الرّوحية، و أشكال القلق النّفسی، فی واقع الذّات الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۱ البشريّة، ناشئة من هذه الرّذائل الأخلاقيّة، وستزول وتقلع جذورها بذكر اللَّه، الذی يعمل على تسكين روح الإنسان، و تجفيف مصادر القلق هذه، لِتحل محلّها السّكينة والهدوء النّفسی «۱». و أخيراً تناولت «الآية السّابعة»، دور الصّلاة و الصّيام فی رفع المعنويات، و تقوية عناصر الخير فی وجدان الإنسان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ». و قد فسّرت بعض الرّوايات الإسلاميّة الصّبر بالصيام «۲»، من حيث كون الصّوم أحد المَصاديق البارزة لِلصبر، و إلّافالصّبر له مفهومٌ وسيعٌ يشمل كلّ أنواع المُقاومة، و التّحدی لِلأهواء النّفسانية و الوساوس الشيطانية، فی طريق طاعة اللَّه تعالى، وكذلك تَستوعب الآية حالة الصّبر على المصائب و المحن، التی تصيب الإنسان فی حركة الواقع. و قد وَرد فی حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه كلّما أهمّه شيءٌ إندفع مُسرعاً نحو الصّلاة، وبعدها يتلو هذه الآية ثلاث مرّاتٍ: «كانَ عَلِيٌّ عليه السلام إذا أَحالَهُ أَمْرٌ فَزِعٌ قامَ إِلى الصَّلاةِ ثُمَّ تَلا هذِهِ الآيةَ: «و اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»» «۳». نعم فإنّ العبادة ترسخ فی النّفس محاسنها، و تصقلها و تعمل على تفعيل عناصر الخير فيها، من: التّوكّل و الشّهامة و الصّبر و الإستقامة، و تستأصل الرّذائل الأخلاقيّة من قَبيل: الجُبن و الشّك و الإضطراب و التّوتر النّاشیء من حالات الصّراع، وحبّ الدنيا وتزيحها عن واقع النّفس، وبهذا تحيى العبادة فی واقع النّفس، شطراً مُهمّاً من الفضائل الأخلاقية، وكذلك تقوم بإلغاء الكثير من عناصر الشّر، و قوى الإنحراف و الرّذيلة من وجود الإنسان.

النّتيجة:

نستنتج ممّا ذُكر آنفاً: أنّ العِبادة لَها دورها الفاعل، والعميق فی تَهذيب الأخلاق، و يمكن تَلخيص هذا المعنى فی عدّة نقاط: ۱- إنّ التوجه لِلمبدأ، والإحساس بحضور اللَّه تعالى، مع الإنسان فی كلّ وقتٍ و مكانٍ، يدفع الإنسان نحوَ المزيد من مُراقبة أعماله وحركاته وسكناته، و يُساعده على السّيطرة على ميوله الذّاتية، و أهوائه النفسيّة، لأنّ العالم محضر اللَّه، والمعصية فی حال الحضور، تمثّل الإنحراف عن خطّ الحقّ، و بالتّالی فهی عين الوقوع فی لُجّة الكُفران للنعمة. ۲- إنّ التّوجه لصفات جَلاله و جَماله، التی وردت فی

العبادات و الأدعية، يثير فى نفس الإنسان حالةً من لُزوم الإقتباس، من تلك الأنوار القُدسيّة، و يعيشها فى واقعه الرّوحى، ليسير فى طريق التّكامل الأخلاقى. ۳- التّوجه للمَعاد والمحكمة الإلهيّة العظيمة فى يوم القيامة، يمثّل أداةً فاعلةً لتطهير و تزكية النّفس، خوفاً من العقاب و الحِساب فى غدٍ. ۴- العِبادة و الدّعاء، تضفى على الإنسان هالاتٍ من النّور لا توصف، فلا تستطيع معها ظُلمات الرّذيلة أن تقف أمامها، فيحسّ الإنسان بالقُرب الإلهى، و صفاء الضّمير بعد كلّ عبادةٍ، شريطَة أن تكونَ مقرونةً بحضور القلب. ۵- إنّ مضامين العبادات و الأدعية، غنيٌّ جدّاً بالتّعاليم والآداب الأخلاقيّة، فهى ترسمُ الطّريق لِلسالك نحو اللَّه تعالى، و هى فى الحقيقة دروسٌ قيّمةٌ، توصل الإنسان السّالك لِهدفه السّامى، من أقصر طريقٍ، و بدونِ العبادة و المُناجاة، و خاصّةً فى حالات الخَلوة مع اللَّه، تعالى و لا سيّما فى وقت السّحر، فسوف لن يصل الإنسان إلى غايته المنشودة.

تأثير العبادة فى صقل الرّوح فى الرّوايات الإسلاميّة:

لهذه المسألة، صَداً وَاسعاً فى الرّوايات الإسلاميّة، و نشير إلى بعضٍ منها، تاركين التّفاصيل الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۹۳ إلى البحوث الموسّعة: ۱- أشارت جميع الرّوايات الإسلاميّة، التى تناولت فلسفة الأحكام، إلى دور العبادة فى تهذيب النّفوس و صفاء القلوب، فقال الإمام على عليه السلام، فى قِصار كلماته: «فَرَضَ اللَّهُ الإيمانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّركِ، والصَّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الكِبْرِ وَالزَّكاةَ تَسبِيباً لِلرِّزْقِ وَالصِّيامَ إبتِلاءً لإخلاصِ الخَلْقِ»». وَ وَرد نفس هذا المعنى، مع إختلافٍ بسيطٍ فى خُطبة الزّهراء عليها السلام فإنّها تقول: «فَجَعَلَ اللَّهُ الإيمانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّركِ، والصَّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الكِبْرِ وَالزَّكاةَ تَزكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً فى الرِّزْقِ وَالصِّيامَ تَثبِيتاً لِلإخلاصِ» «۲». ۲- و يشبّه الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله الصّلاة بنهرٍ جارى، يتولى تطهير البدن كلّ يوم خمس مرّاتٍ، حيث يقول: «إنّما مَثَلُ الصَّلاةِ فِيكُم كَمَثَلَ السّرى- وهو النهر- عَلى بابِ أَحَدِكُم يَخرُجُ إلَيهِ فى اليَوم وَاللَّيلَةُ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ خَمسُ مرّاتٍ، فَلا يَبْقى الدَّرنُ عَلَى الغَسلِ خَمْسُ مرّاتٍ، وَلَم تَبْقَ الذُّنُوبُ عَلى الصَّلاةِ خَمسُ مرّاتٍ» «۳». و عليه فقد ذكرت هذه الرّوايات، لكلّ عبادةٍ: دوراً خاصّاً فى عمليّة تهذيب النّفوس الإنسانيّة. ۳- وَ وَرد فى حديثٍ آخر عن الإمام الرضا عليه السلام، يشرح فيه السّبب، الذى شرّع اللَّه تعالى بِسَببه العبادة، فيقول: «فَإنْ قالَ فَلِمَ تَعبَّدَهُم؟ قِيلَ لِئَلا يَكُونُوا ناسِّين لِذِكْرِه ولا تارِكِينَ لِأَدَبِهِ وَ لا لاهِينَ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ إذا كانَ فِيهِ صَلاحُهُم وَقِوامُهُم، فَلَو تُرِكُوا بِغَيرِ تَعَبُّدٍ لَطالَ عَلَيهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم» «۴». فيتّضح من ذلك أنّ العبادة، تجلو القلب و تُبلور الرّوح و تَحثّ على ذكر اللَّه تعالى، الذى هو الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۹۴ مدعاة لإصلاح الظاهر والباطن. ۴- وَ وَرد فى حديث آخر، عن الإمام الرّضا عليه السلام، و فى مَعرض حديثه لإحصاء فوائد الصّلاة، أنّه قال: «مَعَ ما فِيهِ مِنَ الإِيجابِ وَالمُداوَمَةِ عَلى ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِاللَّيلِ وَالنَّهارِ لِئَلا يَنْسَى العَبْدُ سَيِّدَهُ وَمُدَبِّرَهُ وَخَالِقَهُ، فَيَبْطُرَ وَيَطْغى وَيَكُونَ فِى ذِكْرِهِ لِرَبِّهِ وَقِيامِهِ بَينَ يَدَيهِ زاجِراً لَهُ عَنِ المَعاصِى وَ مانِعاً لَهُ عَنْ أَنْواعِ الفَسادِ» «۱». ۵- وَ وَرد عن الإمام الصادق عليه السلام، فى دور الصّلاة و ميزان قبولها، أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أنْ يَعْلَمَ أنْ قُبِلَتْ صَلاتُهُ أمْ لَم تُقْبَلْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ مَنَعَتْ صَلاتُهُ عِنَ الفَحشاءِ وَالمُنْكَرِ، فَبِقَدَرِ ما مَنَعَتْهُ قُبِلَتْ» «۲». فهذا الحديث يُبيّن بوضوح، أنّ صحّة الصّلاة و قبولها، لها علاقةٌ طرديّةٌ بالأخلاق و الدّعوة إلى الخير و ترك الشّر، و من لم تؤثّر صلاته، فى تفعيل عناصر الخير و الصّلاح فى وجدانه، فعليه أن يعيد النّظر فيها حتماً، لأنّها وإن كانت مسقطة للتكليف، إلّاأنّها غير مقبولةٍ لدى البارى تعالى. ۶- و فى فلسفة الصّيام، قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إنَّ الصَّومَ يُمِيتُ مُرادَ النَّفْسِ وَشَهْوَةَ الطَّبْعِ الحَيوانِى، وَ فِيهِ صَفاءُ القَلْبِ وَطَهارَةِ الجَواحِ وَ عَمارَةُ الظَّاهِرِ وَ الباطِنِ، وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعَم، وَالإحْسانِ إلى الفُقَراءِ، وَزِيادَةُ التَّضَرُّعِ وَالخُشُوعِ، وَالبُكاءِ وَجَعَلَ الإلتِجاءِ إلى اللَّهِ، وَسَبَبُ إنْكِسارِ الهِمَّةِ، وَتَخْفِيفِ السَّيِّئاتِ، وَتَضعِيفِ الحَسَناتِ وَ فِيهِ مِنَ الفَوائِدِ ما لا يُحْصى «۳». فقد ذكر هذا الحديث الشّريف، أربعة عشر صفةً إيجابيةً للصّوم فى واقع النّفس، و هى مجموعةٌ من الفضائل و الأفعال الأخلاقيّة، تصعد بالإنسان فى مدارج الكمال المعنوى و الإلهى. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۹۵ ۷- و نختم هذا البحث الواسع، بحديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «دَوامُ العِبادَةِ بُرهانُ الظَّفَرِ بِالسَّعادَةِ» «۱». و من أراد التّفصيل أكثر فليراجع: «وسائل الشّيعة»، الأبواب الاولى من العِبادات، و كذلك ما ورد

فی: «بحار الأنوار». نعم فإنّ کلّ من یطلب السّعادهٔ، علیه أن یتحرک بإتّجاه توثیق العلاقهٔ مع اللَّه تعالی، من موقع الدّعاء و العبادهٔ.

النّتیجهٔ:

نستنتج من هذه الرّوایات الشّریفهٔ التی أوردناها، و الاخری التی أَعْرَضنا عنها لِلإختصار، أنّ علاقهٔ العبادهٔ بصفاء الرّوح، و تهذیب النّفوس، و تفعیل القیم الأخلاقیّهٔ فی واقع الإنسان، علاقهٌ طردیّهٌ، و کلّما تحرّک الإنسان فی عبادته، من موقع الإخلاص للَّه‌تعالی، کان أثرها فی نفسه أقوی وأشدّ. و هذا الأمر محسوس جدّاً، فالمخلص الذی یؤدی عبادته بحضور قلبٍ، فإنّه یحسُ بالنّور والصفاء فی قلبه، و المیل إلی الخیر و النّزوع عن الشّر، ویجد فی روحه العبودیّهٔ والخشوع والخضوع الحقیقی، بإتجاه خالقه وبارئه. و هذا الأخیر فی الحقیقهٔ هو العامل المشترک بین جمیع العبادات، و إن کان لکلّ منها تأثیر خاص علی النفس، فالصّلاهٔ تنهی عن الفَحشاء و المنکر، و الصّیام یقوّی الإرادهٔ و ینشط العقل، لِیُسیطر علی جمیع نوازع النّفس، والحج یمنح الإنسان بُعداً معنویاً، یجعله بعیداً عن زخارف الدّنیا و زبرجها، و الزّکاهٔ تقمع البخل فی واقع النّفس، و تقضی علی أشکال الطّمع والحرص علی الدنیا. و ذِکر اللَّه یَهدیء الرّوح، و یمنحها الطّمأنینهٔ والرّاحهٔ، و کلّ ذکرٍ من الأذکار، تتجلّی فیه الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۶ صفهٌ من صفاتِ جَلاله و جَماله سبحانه و تعالی، التی تتولّی ترغیب الإنسان فی السّلوک إلی اللَّه، و الإنسجام مع خطّ الرّسالهٔ. و علیه فإنّ الشّخص الذی یؤدّی العبادهٔ علی أتمّ وجهٍ، سینتفع من فوائدها فی دائرهٔ المعطیات العامهٔ، وکذلک تمنحه العبادات آثارها الإیجابیّهٔ الخاصّهٔ، بما یحقّق له بلورهٔ فضائله الأخلاقیّهٔ، و ملکاته النفسانیّهٔ فی واقع وجوده، فالعِبادهٔ تشکّل الخطوهٔ والحجر الأساس، لبناء النّفس، فی خطّ التّقوی و الإیمان، و الإنفتاح علی اللَّه، شَریطهٔ الانس بمثل هذه المعانی الروحیّهٔ، و التّعرف علی فلسفهٔ العبادهٔ، فلا ینبغی أن نقنع بالمحافظهٔ علی قوی الجسم وحده، و لأهمیّهٔ مَبحث الذّکر خصّصنا له بَحثاً مُستقلًّا عن باقی البحوث.

ذِکر اللَّه و تربیهٔ الرّوح:

أعطی علماء الأخلاق، الأهمیّهٔ القُصوی لِلذکر، و ذلک تبعاً لما ورد، فی الرّوایات الإسلامیّهٔ و القرآن الکریم، و اعتبروه من العناصر المهمّهٔ فی خطّ العبادهٔ، و تطهیر النّفس و تهذیبها، و ذکروا لکلّ مرحلهٍ من مراحل السّیر و السّلوک، الذّکر الخاص بها. فمثلًا فی مرحلهٔ التّوبهٔ، ینبغی للسالک فی طریق الحقّ، الإهتمام بذِکر: «یاغَفّار»، و فی مرحلهٔ محاسبهٔ النّفس: «یاحَسیب»، و فی مرحلهٔ إستنزال الرّحمهٔ: «یا رحمان» و «یا رَحیم» ... وَ هَلُمَّ جرّا. و هذه الأذکار تتناسب و حالات الإنسان، و السّلوک الذی یسلکه الإنسان فی خطّ الإستقامهٔ، و الإلتزام بها علی کلّ حالٍ حسنٍ، و لا تختص بعنوان: قصد الوُرود إلی ساحهٔ الرّحمهٔ الإلهیّهٔ. نعم فإنّ ذکر اللَّه تعالی، من أکبر العبادات وأفضل الحسنات، فی عملیّهٔ التّصدی للتحدیات النّفسیهٔ الصّعبهٔ، و تحقیق الصّیانهٔ من الوساوس الشّیطانیهٔ. ذکرُ اللَّه، یخرق حُجب الأنانیّهٔ والغرور و النّوازع النّفسانیهٔ، التی تُعدّ من أَقوی العوامل، لِهَدم سعادهٔ الإنسان، ویمنح الإنسان وعیاً فی أجواء السّلوک إلی اللَّه تعالی، من الأخطار التی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۷ تهدّد سعادته، ویرسم له معالم مسیرته فی حرکهٔ الحیاهٔ والواقع. ذکر اللَّه تعالی: هو المطر الذی ینزل علی أرض القَلب، لِیسقی بذور التّقوی و الفضیلهٔ، و یعمل علی تقویتها و تنمیتها. و الحقیقهٔ أنّ المحاولهٔ للإحاطهٔ بعظمهٔ هذه العبادهٔ، و إحصاء معطیّاتها علی مستوی تهذیب النّفس، لا تفی بالغرض، و لا تحیط بأهمیتها فی خطّ السّلوک المعنوی للإنسان. بعد هذه الإشارهٔ نعود إلی القرآن الکریم، لنستوحی من آیاته، أهمیّهٔ ذکر اللَّه تعالی: ۱- «الَّذِینَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِکْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۱». ۲- «وَأَقِمْ الصَّلَاهَٔ إِنَّ الصَّلَاهَٔ تَنْهَی عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْکَرِ وَلَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ» «۲». ۳- «إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِی وَأَقِمْ الصَّلَاهَٔ لِذِکْرِی» «۳» ۴- «إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوکَ بِآیَاتِی وَلَا تَنِیَا فِی ذِکْرِی» «۴». ۵- «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهًٔ ضَنکاً» «۵». ۶- «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاهِٔ وَالْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ

عَیْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» «۶». ۷- «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِکْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاةَ الدُّنْیَا» «۷». ۸- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً* وَسَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَأَصِیلًا* هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَمَلَائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَکَانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً» «۸». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۸ ۹- «إِنَّمَا یُرِیدُ الشَّیْطَانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِی الْخَمْرِ وَالْمَیْسِرِ وَیَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ» «۱». ۱۰- «رِجَالٌ لَاتُلْهِیهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ» «۲».

تفسیر و إستنتاج:

«الآیة الاولى»: تطرّقت للحدیث عن دور ذکر اللَّه تعالى، فی خلق حالة الطّمأنینة فی القلوب؛ لِتتولّى إنقاذ الإنسان من حالات الزلّل و التّوتر، وتوجهه فیها إلى تحقیق الفضائل الأخلاقیة فی واقع النّفس، فیقول تعالى «الَّذِینَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِکْرِ اللَّهِ». ثمّ یبیّن قاعدةً کلیّةً، تقول: «أَلَا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». فما یجول فی خاطر الإنسان و خُلده، من الحُزن من المستقبل و التّفکیر بالرّزق، و الموت و الحیاة و المرض و ما شابهها من امور الدنیا، کلّها تدفع الإنسان للتّفکیر الجاد فی مصیره، وتسلب منه الرّاحة النّفسیة، و تَورثه القلق الحقیقی نحو المستقبل المجهول. و کذلک عناصر: البخل و الطّمع، و الحرص، هی أیضاً من الامور التی تزرع القلق و التّوتر فی نفس الإنسان، ولکن عندما یتجسّد ذِکر اللَّه الکریم، الغنی القوی، الرّحمن الرّحیم، الرزّاق فی وعی الإنسان، ویعیش الإیمان بأنّ اللَّه تعالى، هو الواهب والمانع الحقیقی، فعندما تَتَجسّد هذه المعانی و المفاهیم، و تتفاعل مع بعضها فی واقع الإنسان فی حرکة الحیاة، فسوف یعیش الإطمئنان، و السّکینة أمام تحدّیات الواقع، فکلّ شیءٍ یراه مسیّراً لقدرة اللَّه تعالى وإرادته المطلقة، و ما شاء کانَ و ما لَمْ یَشأ لم یکن. و بهذا سیطمئن الإنسان، و یسلّم أمره إلى بارئه، و ستزرع فی نفسه حالة التّقوى و حبّ الفضائل، و هو ما نَقرأه فی الآیة الشّریفة: «یَا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِی إِلَى رَبِّکِ رَاضِیَةً مَرْضِیَّةً* فَادْخُلِی فِی عِبَادِی* وَ ادْخُلِی جَنَّتِی» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۹ و تحرکت «الآیة الثّانیة»، بعد ذکرها لمعطیات الصّلاة، على مستوى النّهی عن الفحشاء والمُنکر: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْکَرِ»، إلى تقریر هذه الحقیقة و هی: «وَلَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ». نعم، فإنّ ذکر اللَّه هو روح الصّلاة، والرّوح أشرف شیءٍ فی عالم الوجود، فإذا ما مَنَعت الصّلاة عن الفحشاء و المُنکر، فإنّما ذلک بسبب تضمّنها لذکر اللَّه، لأنّ ذکر اللَّه هو الذی یذکّر الإنسان بالنّعم، التی غرق بها الإنسان فی واقع الحیاة، و تذکّر نِعم اللَّه، بِدوره یمنع الإنسان من العصیان و الطّغیان، و سیخجل من إرتکاب الذّنوب، هذا من جهةٍ. و من جهةٍ اخرى، سیدعو الإنسان للتّفکیر بیوم القیامة، الذی لا ینفع فیه مالٌ و لا بنون، و یوم تنشر الصّحف و تَتطایر الکُتب، و یعیش المُسیئون الفضیحة و العار، فی إنتظار ملائکة العذاب التی تأخذهم إلى الجحیم، و یکتب الفوز و النّصر للمحسنین، و سیکون فی إستقبالهم ملائکة الرّحمة الذین یقولون لهم، ادخلوها بسلامٍ آمِنین، فذِکر هذه الامور، و تجَسیدها فی وعی الإنسان، سیدفع إلى التّوجه نحو الفضائل، و یمنعه من مُمارسة الرّذیلة و الإثم. و قال بعض المفسّرین، إنّ جُملة: «وَلَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ»، إشارةً إلى أنّ ذِکر اللَّه تعالى، هو أسمى و أرقى العبادات، فی مسیرة الإنسان المعنویّة. و یوجد إحتمالٌ آخرٌ، و هو أنّ المقصود من: «وَلَذِکْرُ اللَّهِ»، هو ذِکر اللَّه لِعبده، (و ذلک فی مقابل ذکر العبد للَّه‌تعالى) «۱». حیث یصعد ذکر اللَّه تعالى به، إلى أسمى و أعلى درجات العبودیّة، فی آفاقها الواسعة، ولا شیء أفضل من هذه الحالة المعنویّة للإنسان، ولکنّ الإحتمال الأوّل، یتناسب مع معنى الآیة أکثر. «الآیة الثّالثة»: ذکرت أوّل کلام للَّه‌تعالى، مع نبیّه موسى علیه السلام، فی وادی الطّور الأیمَنِ، فی البُقعة المبارکة عند الشّجرة، فسمع موسى علیه السلام النداء قائلًا: «إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۰ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِکْرِی». و الحقیقة أنّ الآیة ذکرت، أنّ الهدف والفلسفة الأصلیّة للصّلاة، هی ذکر اللَّه تعالى، و ما ذلک إلّالأهمیّة الذّکر، فی حرکة الإنسان المنفتحة على اللَّه تعالى، و خُصوصاً أنّها ذکرت مسألة الصّلاة، و ذکر اللَّه بعد بحث التّوحید مباشرةً. «الآیة الرابعة» خاطبت الأخوین موسى و هارون علیهما السلام، من موقع نَصبهما لِمقّام النّبوة و السّفارة الإلهیّة، وأمرتهما بمحاربة قوى الإنحراف و الزّیغ، و التّصدی لفرعون و

أعوانه: «اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوکَ بِآیَاتِی وَلَا تَنِیَا فِی ذِکْرِی». فالأمر بـذکر اللَّه تعالی و عـدم التّوانی فیه، لِلوقوف بوجه طاغیـهٔ: مثلَ فِرعون، هو أمرٌ یحکی عن دور الـذّکر و أبعاده الوسیعهٔ، و أهمیّته الکبیرهٔ فی عملیّـهٔ السّلوک إلی اللَّه تعالی، فـذِکر اللَّه یمنح الإنسان عناصـر القّوهٔ و الشّـجاعهٔ، فی عملیّهٔ مواجههٔ التّحدیات الصّعبهٔ، لِلواقع المُنحرف. وَ وَرد فی تفسیر: «فی ظِلال القرآن»، فی مَعرض تفسیره لهذه الآیهٔ، قوله: (إنّ اللَّه تعالی أمر موسـی و هارون علیهما السـلام، أن اذکرونی، فإنّ ذِکری، هو سِلاحکم و وسیلتکم لِلنجاهٔ) «۱». و بعض المفسّـرین فسّـروا کلمهٔ «الذّکر»، الواردهٔ فی الآیهٔ، بإبلاغ الرّسالهٔ، و قال البعض الآخر، أنّها مطلق الأمر بالذّکر، و قال آخرون: إنّها ذِکر اللَّه تعـالی خاصّـهً، و الحقیقـهٔ أنّه لاـ فرق بین التّفسـیرات الثّلاثـهٔ، و یمکن أن تجتمـع کلّهـا فی مفهوم الآیـهٔ. و من المعلوم أنّ الرّسول الأکرم صـلی الله علیه و آله، و لِاجل أن یسـتمر فی إبلاغ الرّسالهٔ، و التّحرک فی خطّ الطّاعهٔ و التّصدی لقوی الباطل و الإنحراف، علیه أن یسـتمد القـوّهٔ و القـدرهٔ من ذکر اللَّه تعـالی، و التّوجه إلیه فی واقع النّفس والقلب. الاخلاـق فی القرآن، ج ۱، ص: ۳۰۱ و تناولت «الآیـهٔ الخامسـهٔ»، إفرازات و نتائـج، الإعراض عن ذکر اللَّه تعالی فی حرکهٔ الإنسان، قال تعالی: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَـهً ضَنکاً وَنَحْشُرُهُ یَومَ القِیامَهِٔ أَعمی . فعذابهم بالدّنیا أنّهم یعیشون ضنک العیش، وفی الآخرهٔ العمی، و فَقد البَصرا!. فضنک العیش، ربّما یکـون بتضـییق الرّزق علی مـن یعیش الغفلـهٔ عـن ذکر اللَّه تعـالی، أو ربّمـا بإلقـاء الحرص علی قلـب الغنی، فیتحرک فی تعـامله مع الآـخرین، من مَوقـع الطّمـع و البُخـل، فلاـ یکـاد یُنفـق درهمـاً فی سبیـل اللَّه، ولاـ یعین فقیراً ولـو بشـقّ تَمرهٍٔ، فیکون مِصـداق حـدیث أمیرالمؤمنین علیه السـلام، حیث یقول: «یَعِیشُ فِی الدُّنیا عَیْشَ الفُقَرَاءَ وَیُحاسَبُ فِی الآخِرَهِٔ حِسابَ الأَغِنیاء» «۱». ففی الحقیقهٔ أنّ أغلب الأغنیـاء وبسـبب حرصـهم الشّدیـد علی النّفع المـادی، یعیشون فی حالـهٔ قلقٍ دائمـهٍٔ، و لا ینتفعون من أموالهم بالقـدر الکافی، وتکون علیهم حسـرات فی الدّنیا و الآخرهٔ. ولکن لماذا یُحشـر أعمی؟ وَ لَربّما لِتشابُه الأحداث هناک، مع الأحداث فی الدنیا، فالغافل عن ذکر اللَّه تعـالی فی الـدنیا، و لإعراضه عن الحقیقـهٔ و آیـات اللَّه تعـالی، و تَجـاهله لـدواعی الحقّ و الخیر فی بـاطنه، فإنّه لا یری الحقّ بعین البصیرهٔ، فی حرکهٔ الحیاهٔ والواقع، و لذلک سوف یُحشر أعمی فی عَرصات القِیامهٔ.

کیف یکون ذِکر اللَّه؟

فسّرت الکثیر من الرّوایات الإسلامیّهٔ، ذِکر الباری تعالی: «بالحج»، وَ وَرد فی البعض الآخر، أنّ الذّکر هنا: بمعنی الولایهٔ لأمیر المؤمنین علیه السـلام. و الحق أنّ الإثنین هما مِصداقان من مَصادیق ذکر اللَّه تعالی، فالحجّ هو مجموعهٌ من الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۳۰۲ الأعمـال و السّـلوکیات، تـذکّر بـاللَّه تعالی، و کـذلک علی علیه السـلام، فـذِکره و النّظر إلیه عبادهٌ، تُعمّق فی الإنسان روح الإیمان، و تُذکّره باللَّه تعالی. «الآیهٔ السّادسهٔ»: خاطبت الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، من موقع النّهی عن طاعهٔ الأشخاص الذین یعیشون فی غفلـهٍٔ، وحثّته علی معاشـرهٔ الّـذین یـذکرون ربّهم، صـباحاً و بِالغَداهٔ و العَشِیّ، ولا یریدون إلّااللَّه تعالی، فقال تعالی «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاهِٔ وَالْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَیْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَهَٔ الْحَیَاهِٔ الدُّنْیَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». و من المعلوم أنّ اللَّه سبحانه و تعالی، ما کان لیعـذّب أحـداً بالغفلـهٔ عن ذکره، بل لأنّ مثل هؤلاء الأشـخاص، ینطلقون فی تعاملهم مع الحقّ، من موقع العناد و التّمرد و التّکبّر و التعصّب لِلباطل. و بناءاً علیه، فإنّ القصـد من الإغفال هو سـلب نعمهٔ الـذّکر منه، لِیلاـقی جزاءه فی الـدّنیا قبل الآخرهٔ، و لهـذا، فإنّ ذلک لا یسـتلزم الجَبر. و لا نری أحـداً من هـذه الجماعـهٔ، إلّامُتّبعاً لِهواه، مُتّخذاً سبیل الإفراط و التّفریط فی کلّ فعاله، لذلک تعقّب الآیهٔ قائلهً: «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». و یُستفاد من هذه الآیهٔ، أنّ الغفلهٔ عن ذِکر اللَّه تعـالی، تؤثّر سـلباً فی أخلاـق وروح الإنسان، و تُودّی به إلی وادی الأهواء، و تجرّه إلی منحـدرِ الأنانیـهٔ. نعم، فإنّ روح و قلبَ الإنسان، لا یسع إثنان، فإمّا «اللَّه تعالی»، و إمّا «هوی النّفس»، و لا یمکن الجمع بینهما. فالهَوی هو مصـدر الغَفلهٔ عن اللَّه تعالی، و خلقه، و سَـحق جمیع القِیم و الاصول الأخلاقیهٔ، و بالتّالی فإنّ هَوی النّفس، یغرق الإنسان فی عُتمهٔ ذاته الضّیقهٔ، و یُعمی بصره عن کلِّ شیءٍ یـدور حوله فی واقع الحیـاهٔ، والإنسـان الـذی یتحرّک من موقع الهَوی، لا یری إلّاإشـباع شَـهواته، الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص:

۳۰۳ ولا مفهوم عنده لمفاهيم أخلاقيّة، مِثلَ: صلة الرحم وَ المُروّة والإيثار. «الآية السابعة»: خاطبت الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً، من موقع التّحذير، عن مُخالطة المُعرِض عن ذِكر اللَّه تعالى، فقالت: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا». فى تفسير «ذِكر اللَّه»، قال البعض: أنّ المراد منها فى هذه الآية، هو القرآن الكريم، و إعتبرها البعض الآخر، إشارةً لِلأدلّة العقليّة و المنطقيّة، و قال آخرون، أنّها الإيمان، و الظّاهر أنّ ذكر اللَّه تعالى، له مفهومٌ واسعٌ يشمل كلّ ما ذُكر آنفاً. و ذَكر آخرون، أنّ هذه الآية تدعو لترك جهاد هؤلاء، و لهذا السّبب، نُسخت بآيات الجهاد التى نزلت بعدها، و الحقّ أنّه لا نَسخ فى البَيّن، و كلّ ما فى الأمر، أنّها تمنع من مُجالسة الغافلين عن ذِكر اللَّه تعالى، ولا مُنافاة بينها وبين مسألة الجهاد بشرائطها الخاصة. و أخيراً تبيّن هذه الآية، العلاقة و الرّابطة الوثيقة بين: «حبّ الدنيا» و «الغفلة عن ذِكر اللَّه»، فكَما أنّ ذِكر اللَّه تعالى له خصائصه، و معطياته الإيجابية على الإنسان، على مستوى تَقوية عناصر الفضيلة و ترشيد القيم الأخلاقيّة، فكذلك الغفلة لها آثارها، و نتائجها السلبيّة على روح الإنسان، على مستوى تقوية عناصر الشّر و الرذيلة فيها. «الآية الثّامنة»: خاطبت جميع المؤمنين، ودعتهم إلى ذِكر اللَّه تعالى، و الخروج من دائرة الظّلمات إلى دائرة النّور، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا* هُوَ الَّذِى يُصَلّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً». و الجدير بالذّكر فى هذا الأمر، أنّ الآية الكريمة، بعد الأمر بالذّكر الكثير، و التّسبيح له بكرةً و أصيلًا، تخبرنا عن أنّ اللَّه تعالى، سيصلّى هو و ملائكته علينا، و يخرجنا من الظّلمات إلى النّور، أَلَيسَ ذلك هو هدفنا فى حركة الحياة، أَلَيس ذلك هو مُبتغانا من الإلتزام فى خطّ الرّسالة، و كلّ ما نريده هو، أنّ الذّكر و صلاة الربّ و الملائكة علينا، سيزرع فينا روح التّوفيق الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۳۰۴ لِلطاعة و السّير فى طريق الخَير، و يقلع من واقعنا بذور الشرّ، و جذور الفساد، ولتحل محلّها عناصر الفَضيلة و النّسك والأخلاق الحميدة؟!. و قد وَرد فى تفسير الميزان، أنّ ذيل الآية الكريمة، هو بمنزلة التبيّن لعلّة الأمر، ب: «الذّكر الكثير»، و هو يؤيّد ما أشرنا إليه آنفاً «۱». و قد وَردت تفاسيرٌ مختلفةٌ، و آراءٌ مُتغايرةٌ لعبارة: «الذّكر الكثير»، فقال بعضهم، أن لا يُنسى اللَّه تعالى فى كلّ وقتٍ و مكانٍ. و قال بعضٌ آخرٌ أنّه الذّكر و التّسبيح، بأسماء وصفات اللَّه الحُسنى. و ذكرت روايات اخرى، أن المقصود به، هو التّسبيحات الأربعة، أو تسبيح الزّهراء عليها السلام. و قال إبن عباس: كلّ أوامر اللَّه تعالى تنتهى إلى غايةٍ ما، إلّاالذّكر فلا حدّ له أبداً، و لا عُذر لتاركه أبداً. و على كلّ حالٍ، فإنّ «الذّكر الكثير»، له مفهومٌ واسعٌ، و يمكن أن يجمع بين طيّاته كلّ ما ذكر آنفاً. أمّا ما ذكر من، «الظّلمات» و «النّور» فى هذه الآية، فما المقصود منه؟. إختلفوا فى تفسيرها أيضاً، فقال البعض أنّها الخُروج من ظلمات الكفر إلى الإيمان، و قال الآخرون، أنّها الخروج من ظلمات عالم المادة، إلى نور الأجواء المعنويّة و الرّوحانية، وقال بعضٌ آخر، إنّها الخروج من ظلمات المعصية إلى نور الطّاعة، و لا تَنافى فى البَين هنا. إضافةً إلى أنّها، تشمل الخروج من ظلمات الرّذائل الأخلاقيّة إلى نور فضائلها، و هى أهمّ معطيات ذِكر اللَّه جلّ شَأنه. «الآية التّاسعة»: حذّرت المؤمنين من نتائج مُعاقرة الخَمرة و القِمار، فقال تعالى «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ». فذكرت هذه الآية، ثلاثة مفاسد لِشرب الخمر والمقامرة: إيقاع العداوة بين النّاس، و الردع و الصدّ عن ذكر اللَّه، و عن الصّلاة، و يستفاد من ذلك أنّ الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۳۰۵ ذكر اللَّه، كالصّلاة و المحبّة بين النّاس، أمرٌ ضرورى و حياتى للإنسان فى واقعه النّفسى، و الحِرمان منه، يعتبر خَسارةً كُبرى لا تُعوّض. بالإضافة إلى أنّه يستفاد من جوّ الآية، وجود علاقةٍ بين: «الغفلة عن ذِكر اللَّه، و الصّلاة»، و «ظهور العداوة و الشّحناء و المفاسد الأخلاقيّة الاخرى»، و هذا هو بيت القصيد، و ما نُريد التّوصل إليه. و فى «الآية العاشرة»: و الأخيرة، أشارةٌ إلى رجالٍ، أحاطهم اللَّه تعالى بأنوارِ قُدسه، فى بيوتٍ ليس فيها إلّاذِكرُه و تَسبيحُه و التّقديسُ له، و هى الآية: (۳۶ و ۳۷) من سورة النّور، فقالت: «فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...». و بناءً عليه، فإنّ أوّل خُصوصيات الرّجال الإلهيين: هو المُداومة على ذِكر اللَّه فى أى وقتٍ و فى كلّ مكانٍ، حيث لا تغرّهم الدّنيا، بغرورها و زخارفها و ملاهيها الجميلة الخدّاعة، و هو أسمى إفتخار يعيشونه فى واقعهم. ثم تذكر الآية، خصوصيّات اخرى، لهؤلاء المؤمنين فى دائرة السّلوك الدّينى، من قبيل إقامة الصّلاة و إيتاء الزّكاة.

النّتیجة:

نستنتج ممّا ذُکر آنفاً من الآیات الکریمة، والآیات الاخری التی لم نذکرها تجنّباً لِلأطالة، أن ذکر اللَّه تعالی یورث الإنسان إطمئنان القَلب، و یَنهی عن الفحشاء و المنکر، و یزّود النّفس بالقُدرة و القُوّة الّلازمة، فی مقابل التّحدیات الصّعبة لِلعدو الدّاخلی و الخارجی، و یمیت الرّذائل الأخلاقیّة فی قلب الإنسان، کالحِرص و البُخل و حبّ الدنیا، الذی هو رأس کلّ خطیئةٍ. فلا ینبغی للسّائر فی خطّ التّقوی و الإیمان، أن یغفل عن هذا السّلاح الفعّال، فهو الدّرع الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۶ الحصین لکلّ من یرید أن یتحرّک، علی مستوی تهذیب النّفس و تربیة عناصر الفضیلة فیها، وهو السدّ المنیع للمؤمنین، مقابل قوی الشّر و الانحراف، و سلاحهم الذی یمدّهم بالقوّة و العزیمة، فی مقابل الأعداء، و الأخطار التی تحدق بهم فی هذه الدنیا، الملیئة بالوُحوش الضّاریة الکاسرة، التی لا تعرف الرّحمة و الشّفقة، ولیکن ذِکرُهم للَّهِ کَذِکرهم لأنفسهم، بل أشدّ و أقوی.

علاقة ذِکر اللَّه، بتهذیب النّفوس فی الأحادیث الإسلامیّة:

اشارة

إنّ إستعراض الکلام، عن أهمیّة ذِکر اللَّه فی الأحادیث الإسلامیّة، لا یتّسع له هذا المُختصر، و ما نَبتغیه فی هذا المجال، هو أنّ ذکرَ اللَّه، یعدّ من العوامِلَ المهمّة فی تهذیب النّفوس و تشذیب الأخلاق و بناء الرّوح، و قد أغنتنا الرّوایات فی هذا المجال، و ما وَرد عن المعصومین الأربعة عشر، إلی ما شاء اللَّه، ولکنّنا نختار منها ما یلی: ۱- نقرأ فی حدیثٍ عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «مَن عَمَّرَ قَلْبَهُ بِدَوامِ الذِّکرِ حَسُنَتْ أَفْعالُهُ فی السِّرِّ وَالجَهْرِ» «۱». فقد بیّن الحدیث الشّریف، هذه العلاقة و الرّابطة بوضوحٍ تامٍّ. ۲- نقرأ فی حدیثٍ آخر عن الإمام علیه السلام نفسه، حیث قال: «مُداوِمَةُ الذِّکرِ قُوتُ الأَرواحِ وَ مِفْتاحُ الصَّلاحِ» «۲». ۳- و عنه علیه السلام أیضاً، قال: «أَصلُ صلاحِ القَلبِ إِشتِغالُهُ بِذِکْرِ اللَّهِ» «۳». ۴- و أیضاً فی حدیث آخر عنه علیه السلام، قال: «ذِکرُ اللَّه دَواءُ أَعلالِ النُّفُوسِ» «۴». ۵- و عنه علیه السلام، قال: «ذِکرُ اللَّهِ رَأسُ مالِ مُؤمِنٍ، وَرِبْحُهُ السَّلامَةُ مِنَ الشَّیطانِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۷ ۶- و أیضاً عن هذا الإمام الهمام علیه السلام، أنّه قال: «الذِّکْرُ جَلاءُ البَصائِرِ وَنُورُ السَّرائِرِ» «۱». ۷- و أیضاً عن إمام المتقین علیه السلام، قال: «مَنْ ذَکَرَ اللَّهَ سُبحانَهُ أَحیَی قَلبَهُ وَنَوَّرَ عَقْلَهُ وَلُبَّهُ» «۲» ۸- و أیضاً عن الإمام نفسه علیه السلام، أنّه قال: «إسْتَدیمُوا الذِّکْرَ فَإِنَّهُ یُنِیرُ القَلبَ وَهُوَ أَفْضَلُ العِبادَةِ» «۳» ۹- وَرد فی «میزان الحکمة»، عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً خالِصاً، تَحْیُوا بِهِ أَفْضَلَ الحَیاةِ وَتَسْلُکُوا بِهِ طُرُقَ النَّجاةِ» «۴». ۱۰- وَ وَرد عن الإمام علی علیه السلام فی نهج البلاغة، فی وصیّته المعروفة لإبنه الإمام الحسن علیه السلام، أنّه قال: «اوصِیکَ بِتَقوَی اللَّهِ یا بُنَیَّ! وَلُزُوم أَمْرِهِ وَعِمارَةِ قَلْبِکَ بِذِکْرِهِ»». ۱۱- وَرد فی غُرر الحِکم، عن مولی الموحدین أمیر المؤمنین علیّ علیه السلام، قال: «ذِکْرُ اللَّهِ مَطْرَدَةُ لِلشَّیطانِ». ۱۲- وَلِحُسن الخِتام، نَختم هذا البحث، بحدیثٍ عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، وإن کانت هناک روایاتٌ وافرةٌ لا یسعها هذا المختصر، قال: «ذِکْرُ اللَّهِ شِفاءُ القُلُوبِ» «۶». و نَستلهم ممّا ذُکر آنفاً، أنّ ذِکر اللَّه تعالی، له علاقةٌ وثیقةٌ و قریبةٌ جدّاً بتهذیب النّفوس، فهوُ ینَوّر القلب، و یجلو الرّوح من عناصر الکِبر و الغُرور و البخل و الحَسد، و الأهمّ من ذلک أنّه یطرد الشّیطان الرجیم، من واقع الإنسان الدّاخلی، وَ یُعید لِلنفس ثِقتها. و علی حدِّ تعبیر بعض العلماء الأکارم، أنّ القلب لا یَخلو من أمرین، لا یجتمعان فی مکانٍ واحدٍ، فإمّا أن یتّجه لِذکر اللَّه سُبحانه و تعالی و یغذیه بنوره و یطرد منه الظّلمات و الشّیطان، و إمّا أن یکون مَرتعاً و مَلعباً لِلشّیطان الرّجیم و وساوسه، یوجهه حیث یشاء. و من جهةٍ اخری، فإنّ الذّات المقدسة هی مصدر لکلِّ الکمالات، و ذکر اللَّه تعالی یُؤدّی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۸ إلی أنّ الإنسان یقترب من ذلک المصدر فی کلّ یوم، و بالتّالی یتحرک فی طریق الإبتعاد عن الرّذائل الأخلاقیّة و الأهواء النّفسانیة، التی تنبع من

النّقص المعنوى فى واقع النّفس. و بناءً على ذلك يجب الإستعانة بهذا السّلاح الماضى، و النّور المخترق لِلظلمات، لِلعبور من متاهات هذا الطّريق الموحش المُظلم، المحفوف بالأخطار الجسيمة، إلى جادّة السّلام، و الكمال الإلهى فى عالم النّفس، ممّا يورث إستقرارها و إتّصالها ببارئها. و نُكمِّل بحثنا بثلاثِ نقاطٍ، و ملاحظاتٍ، لا تخلو من فائدة:

۱- ما هى حقيقة الذِّكر

يقول «الرّاغب» فى كتاب «المُفردات»: إنّ الـذِّكر له مَعنيان، فمرّةً حضور الشّىء فى الذّهن، و مرّةً بمعنى حفظِ المَعارف و الإعتقادات الحقّة فى باطن الرّوح. و قال الأعاظم من علماء الأخلاق: إنّ «ذكرَ اللَّه تعالى»، ليس هو لِقَلقَةِ لِسانٍ، أو مجرّد التّسبيح و التّحميد و التّهليل و التّكبير، فى دائرة الألفاظ والكلمات، بل هو التّوجه الحقيقى للَّهِ تعالى، و الإذعان لِقُدرته و الإحساس بوجوده أينَما كُنّا. و لا شكّ أنّ مِثلَ هذا الذّكر هو المطلوب، وهو الغاية القصوى و الدّافع للإتجاه نحو الحسنات، و الإعراض عن السّيئات و القَبائح. و لذلك نقرأ عن الرّسول الكريم صلى الله عليه و آله فى حديثٍ فى هذا المضمار: «وَلَيْسَ هُوَ سُبحانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ للَّهِ وَلا إلَهَ إلّا اللَّهِ وَاللَّهُ أكْبَرُ، وَلَكِنْ إذا وَرَدَ عَلى ما يَحْرُمُ عَلَيهِ، خافَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ» «۱». و نقل ما يقرب لهذا المعنى فى حديث عن الإمامين: الصّادق و الباقر عليهما السلام «۲». و نقل حديث آخر عن على عليه السلام، أنّه قال: «الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ عِنْدَ المُصِيبَةِ، حَسَنٌ جَمِيلٌ وَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ ما حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيكَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ حاجِزاً» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰۹ و نستنتج من ذلك، أنّ الذّكر الحقيقى، هو الذّكر الذى يترك أثره الإيجابى فى أعماق روح الإنسان، و يفعّل إتجاهاته الفكريّة و العمليّة فى خطّ التّقوى و الإلتزام الدّينى، و يربّى فى النّفس و الرّوح، عناصر الخير و الصّلاح، و يدعو الإنسان إلى اللَّه العزيز الحكيم. و من يذكر اللَّه تعالى على مستوى اللّسان، و يتبع الشّيطان على مستوى المُمارسة و العمل، فهو ليس بِذاكِرٍ حقيقى، و لا يذكر اللَّه من موقع الإخلاص، بل هو كما قال الإمام على بن موسى الرّضا عليه السلام: «مَنْ الذِّكْرِ ولَمْ يَسْتَبِقْ إلى لِقائِهِ فَقَدْ إسْتَهزَءَ بِنَفْسِهِ» «۱».

۲- مراتب الذّكر

ذكر علماء الأخلاق، أن ذّكر اللَّه تعالى، على مراتب و مراحل: المرحلة الاولى: الذّكر اللّفظى، حيث يجرى فيها الإنسان أسماء اللَّه الحُسنى، و صفات جَماله و جَلاله، على لسانه، من دون التّوجه إلى معانيها و مُحتواها، كما يفعل كثيرٌ من المصلّين السّاهين فى صلاتهم، وهو نوع من الذّكر، و له تأثيره المحدود على آفاق النّفس و الفِكر! ولكن لماذا؟. لأنّه أولًا: يعتبر مقدمةً لِلمراحل التّالية. و ثانياً: أنّه لا يخلو من التّوجه الإجمالى نحو اللَّه تعالى، لأنّ المصلى و على أيّةِ حالٍ، يعلم أنّه يصلّى و هو واقفٌ بين يَدَىِّ اللَّه تعالى، ولكنّه لا يتوجه لما يقول بصورةٍ تَفصيليّةٍ، ولكن مع ذلك فهذا النّوع من الذّكر، لا يؤثّر فى حياة الإنسان، على مستوى تهذيب النّفس و تربية الأخلاق. المرحلة الثانية: الذّكر المعنوى، وهو أن يلتفت الإنسان لمعانى الأذكار التى تجرى على لسانه، و من البديهى أنّ التّوجه لمعانى الأذكار، و خصوصيّة كلّ واحدةٍ منها، سيعمّق الإمتداد المعنوى لمضامين الذّكر فى واقع الإنسان، و بالإستمرار و المداومة سيحسّ الذّاكر، بمعطيات هذا الذّكر فى نفسه و روحِهِ. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۱۰ المرحلة الثّالثة: الذّكر القلبى، و قالوا فى تفسيره، إنّه الإحساس الوجدانى بحضور اللَّه تعالى، فى أجواء القلب، ثم جريان ذكر اللَّه على اللّسان، فعندما يرى عجائب خلقته، و دقائق صنعته، من أرضٍ و سماءٍ و مخلوقاتٍ، و ما بثّ فيها من دابّةٍ، سيقول: «العَظَمَةُ للَّهِ الوَاحِدِ القهَّارِ». فهذا الذّكر نابعٌ من القلب، و ينبىءُ عن حالةٍ باطنيّةٍ فى داخل الإنسان. و مرّةً يشهد الإنسان فى نفسه، نوعاً من الحُضور المعنوى للَّه‌تعالى، من دون واسطةٍ، فيترنّم بأذكارٍ، مثل «يا سُبُّوحُ وَيا قُدُّسُ» أو «سُبحانَكَ لا إلَهَ إلّا أَنْتَ». و هذا الأذكار القلبيّة، لها دورها الفاعل فى تهذيب النّفوس

وتربیة الفضائل الأخلاقیّة، کما عاشت الملائکة هذا النوع من الذّکر، عندما شاهدوا آدم علیه السلام، وسِعة علمه و إطّلاعه علی الأسماء الإلهیّة، فقالوا: «سُبْحَانَکَ لَاعِلْمَ لَنا إلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إنَّکَ أنْتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ» «۱». و أشار القرآن الکریم، إلی مراحلٍ من الذّکر، فقال: «وَاذْکُرْ اسْمَ رَبِّکَ وَتَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلًا» «۲». و فی مکانٍ آخر، یقول: «وَاذْکُرْ رَبَّکَ فی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَخِیفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالاصَالِ وَلَا تَکُنْ مِنْ الْغَافِلِینَ» «۳». ففی الآیة الاولی، نجد تقریراً علی مستوی التّوجه لِلذکر اللّفظی العمیق، ثم التّبتل و الإنقطاع إلی اللَّه تعالی، أیْ: التّحرک من موقع الإبتعاد عن الناس، و الإتصال باللَّه تعالی فی خطّ العبادة و الذّکر. و الآیة الثّانیة: تتحدث عن الذّکر القلبی، الذی یؤدّی إلی أن یعیش الإنسان، حالة التّضرع و الخوف من الباری تعالی، فی أجواء الذکر الخفی، فتتحرک عملیّة الذّکر بشکلٍ بطیءٍ من الباطن و تجری علی اللّسان.

۳- موانع الذّکر

لا توجد موانع تقف فی طریق الذّکر اللّفظی، فیمکن لِلإنسان أن یذکر أسماء و صفات اللَّه الجمالیّة و الجلالیّة، و یجریها علی لِسانه فی أیِّ وقتٍ شاء، إلّاأن یکون الإنسان مُنشغلًا وغارقاً فی الدّنیا، لدرجةٍ لا یبقی وقتٌ لِلذکر اللّفظی. أمّا الذّکر القلبی و المعنوی، فتقف دونه موانعٌ و سدودٌ کثیرةٌ، أهمّها ما یَکمُنْ فی واقع الإنسان نفسه، فبالرّغم من أنّ اللَّه تبارک و تعالی، مع الإنسان فی کلِّ مکانٍ و زمانٍ، و أقرب إلینا من کلّ شیءٍ: «وَنَحْنُ أَقرَبُ إِلَیهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِیدِ» «۱». أو کما ورد فی الحدیث العلوی المشهور: «ما رأیتُ شَیئاً إلّاوَرَأیتُ اللَّهَ قَبلَهُ وَبَعدَهُ وَ مَعَهُ». ولکن مع ذلک، فإنّ کثیراً من أعمال الإنسان و صفاته الشّیطانیّة، تضع الحُجب علی عینه، فلا یُحسّ بوجود اللَّه تعالی أبداً، من موقع الحضور و الشّهود القلبی، و کما یقول الإمام السّجاد علیه السلام، فی دعاء أبی حمزة الثمالی: «وإنَّکَ لا تَحتَجِبُ عَنْ خَلْقِکَ إلّا أن تَحجُبَهُم الأعمالُ دُونَکَ»، و أهم تلک الحُجب، هی «الأنانیّة» التی تذهل الإنسان عن ذکر ربه. فالأنانی لا یعیش مع اللَّه تعالی من موقع الوُضوح فی الرّؤیة، لأنّ الأنانیّة من أنواع الشّرک التی لا تتناسب مع حقیقة التّوحید!. و نقرأ فی حدیثٍ عن علیٍّ علیه السلام أنّه قال: «کُلُّ ما أَلهی مِنْ ذِکْرِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ إِبلِیسَ» «۲». و فی حدیث آخر عن علیٍّ علیه السلام أنّه قال: «کُلُّ ما أَلهی عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ المَیسرِ» «۳». ونعلم أن المَیسر، جُعِل فی القرآن الکریم، ردیفاً لعبادة الأوثان «۴». و نختم هذا الکلام عن موقع الذّکر، بحدیثٍ عن الرّسول الأکرم، و قد جاء فی معرض تفسیره للآیة الکریمة: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا، لَاتُلْهِکُمْ أَمْوَالُکُمْ وَلَا أَوْلَادُکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ، وَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱۲ مَنْ یَفْعَلْ ذَلِکَ فَأُوْلَئِکَ هُمْ الْخَاسِرُونَ» «۱». قال صلی الله علیه و آله: «هُم عِبادٌ مِنْ امَّتی، الصَّالِحُونَ مِنْهُم لا تُلهِیهِم تِجارَةٌ ولا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَ عنِ الصَّلاةِ المَفرُوضَة الخَمْسِ» «۲». نعم فإنّهم فی کلّ حرکاتهم و سکناتهم، یبتغون وجه اللَّه تعالی، ولا غیر.

القُدوات فی خطّ الإستقامة

إشارة:

کلّ إنسانٍ یسعی للسّیر قُدُماً، تبعاً لِلُاسوة التی یتأسّی بها، لیواکب معها ویعیش فی رحابها، و فی آفاقها الواسعةُ ولتنعکس صفاتها فی نفسه وذاته. و بعبارةٍ اخری، فإنّه یوجد فی قلب کلّ إنسان، مکانٌ فارغٌ لا یشغله إلّاالأبطال و القُدوات و المُثل، و لهذا السّبب فإنّ الامم البشریّةً تفتخر بأبطالها الحقیقیّین أو تخترع لنفسها أبطالًا من افق خیالها، بحیث تُشکل قسماً من ثقافة الامم و الشّعوب، و أنساقاً تحتیّةً تبنی علیها تأریخها، فتفتخر ببطولاتهم وتشید بهم فی معطیاتهم، و تسعی دائماً لِلاقتداء بهم فی صفاتهم وبطولاتهم. علاوةً علی أنّ (المحاکاة)، هی أصلٌ مُسَلّم به، من الاصول النّفسیة فی واقع الإنسان و حرکته فی الحیاة، وطبقاً لهذا الأصل و الأساس، فإنّ الإنسان

يسعى ليصبغ نفسه بصِبغة الآخرين، و يحاكيهم على مستوى الممارسة و السّلوك، (خُصوصاً) الأبطال، و ينجذب لأعمالهم وصفاتهم التى تمثل قيماً مطلقة فى وعيه وثقافته. و هذا التّأثير و التّأثر و الجذب و الإنجذاب، بالنّسبة إلى الأفراد الذين يؤمنون بالقُدوة والرّمز أقوى وأَشد. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٣١۴ و بناء على ذلك، نجد فى الإسلام أصلين مهمّين، فى دائرة المفاهيم الدينيّة، بإسم «التّولّى» و «التبرّى». أو بعبارةٍ اخرى: «الحبُّ فى اللَّه» و «البغض فى اللَّه»، وكلٌّ منهما، يحكى لنا عن حقيقةٍ مهمّةٍ فى واقع الإنسان، و تَماشياً مع هذا الأصل المهمّ فى دائرة المعتقد، فإنّه يتوجب على الإنسان المسلم، أن يُحبّ من يحبّه اللَّه، و يكره من يُبغضه اللَّه تعالى، و أن يتّخذ من الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمّة المعصومين عليه السلام، اسوةً له فى حركته المنفتحة على اللَّه و الحقّ. و هذا الأمر بدرجةٍ من الأهمية، بحيث ورد فى القرآن الكريم، أنّه من علامات الإيمان، و فى الرّوايات الشّريفة عرّف بأنّه: «أَوثَقْ عُرى الإِيمانِ» و أنّ حركة الإنسان فى خطّ الإيمان، لا تكون مثمرةً بدون: «التّولّى» و «التّبرّى»، و معه سوف تقبل منه سائر العبادات و الطّاعات. و هذين الأمرين، يعنى التولّى والتبرّى، أو الحب فى اللَّه و البُغض فى اللَّه، هُما من أهمِّ الخُطى المؤثّرة، على مُستوى تهذيب النّفوس و القلوب، و السّير إلى اللَّه تعالى فى خطّ الإستقامة. و على هذا الأساس، نرى أنّ كثيراً من علماء الأخلاق، و أرباب السّير و السّلوك، يؤكّدون على ضرورة اتخاذ الاستاذ و المُرشد فى خطّ التّربية و التّهذيب، و سنتناوله فى المستقبل إن شاء اللَّه تعالى، بصورةٍ وافيةٍ. و الآن نعرج على الآيات القرآنية، لنستوحى منها ما يتعلق بمسألة التولّى و التبرى، و دورهما فى صِياغة السّلوك الدّينى للإنسان: الآيات: ١- «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» «١». ٢- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَ الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٣١۵ اللَّهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ» «١». ٣- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» «٢». ۴- «لَاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ» «٣». ۵- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» «۴». ۶- «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۵». ٧- «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «۶». ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» «٧».

تفسير و إستنتاج:

يتّضح من آيات سورة المُمتحنة، أنّ بعض المؤمنين السّذج، وخلافاً لأوامر الشّريعة و الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٣١۶ تعليمات الإسلام، كانوا على علاقةٍ سريّةٍ بالأعداء. و قد جاء فى شأن النّزول للآيات الاولى من هذه السّورة الشّريفة، و قبل فتح مكّة المشرّفة أنّه كتب أحد الأشخاص، إسمه «حاطِب بن أبى بلتعة»، لكفّار قريش رسالةً سلّمها بيد إمرأةٍ، إسمها «سارة»، حذّرهم فيها، من أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، يعدّ العدّة لفتح مكّة، فعليهم أنّ يستعدّوا لِلقتال، فإنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قادم. حدثِ هذا الأمر، و الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، يتهيأ و يعدّ العدّة، و هو يسعى حثيثاً لِئَلّا يصل هذا الخبر إلى المشركين، حرصاً منه على أن لا تُراق فى ذلك دماءٌ كثيرةٌ، و أن يتمّ الفتح بدون مقاومة، فأخذت هذه المرأة الرّسالة، و أخفتها فى جَدائلها، و تحرّكت مسرعةً نحو مكّة. فأخبر الأمين جبرائيل عليه السلام، الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالخبر، فأرسل على أثرها الإمام على صلى الله عليه و آله، و قال لها: أخرجى ما عندك، فأنكرت فى البداية، ولكنّها إستسلمت أخيراً تحت واقع التّهديد بالقتل، و سلّمت الرّسالة لِعلى عليه السلام، و هو بدوره سلّمها لِلرسول الكريم صلى الله عليه و آله. فأمر صلى الله عليه و آله بإحضار حاطِب و وبّخه كثيراً، فإعتذر حاطب عن فعلته بأعذارٍ واهيةٍ، لكنّ الرسول صلى الله عليه و آله قبلها صوريّاً، فما ورد فى الآيات الاولى، من السّورة هو تحذيرٌ للمسلمين،

لإجتناب مثل هذه الأعمال، و بیان واحدٍ من الاصول والمبادیء الإسلامیّة المهمّة، علی مستوی التّبری من الأعداء وموالاة الأولیاء، أو کما قِیل: «الحُبُّ فِی اللّهِ وَالبُغْضُ فِی اللّهِ». و فی بدایة السّورة، تحرّکت الآیة الکریمة لتخاطب جمیع المؤمنین، من موقع التّحذیر، من إقامة العلاقة الودّیة والعاطفیّة مع الأعداء، و قالت: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَعَدُوَّکُمْ أَوْلِیَاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ کَفَرُوا بِمَا جَاءَکُمْ مِنْ الْحَقِّ یُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِیَّاکُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّکُمْ». و نعلم أنّه عندما تتقاطع أواصر «المحبّة و الصّداقة» مع أواصر « «العَقائد و القِیم»»، فالنّصر سیکون حلیف أواصر المحبّة و الصّداقة، علی حساب إهتزاز العقیدة، و بذلک ینحدر الإنسان فی خطّ الباطل، فما نراه من التّأکید علی: «الحُبُّ فِی اللّهِ وَالبُغْضُ فی اللّهِ»، أو تولّی الأولیاء و التّبری من الأعداء، نابعٌ من هذا الأساس. ثمّ تستمر الآیات، «و بالذّات فی الآیة الرابعة»، علی حثّ المسلمین علی الإقتداء بإبراهیم الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۳۱۷ النبی علیه السلام، و أصحابه المخلصین، و أنّهم اسوةٌ حسنةٌ للمؤمنین، الذین یتحرّکون من موقع الرسالة: «قَدْ کَانَتْ لَکُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِی إِبْرَاهِیمَ وَالَّذِینَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْکُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». الاسوة «علی وزن لُقمة»، تحمل مَعْناً مصدریاً، بمعنی التّأسی والإتّباع للآخرین، و بمعنی آخر هو الإقتداء بالآخرین. و من البدیهی أنّ هذا الأمر، یمکن أن یکون علی مُستوی الفضیلة أو الرّذیلة، و لذلک فإنّ الآیة الشّریفة، عبّرت عن إبراهیم علیه السلام بأنّه قدوةٌ حسنةٌ، لأنّه قطع کلّ أواصر المحبة و وشائج الموّدة، التی کانت بینه و بین قومه، فی سبیل عقیدته وتوحیده للّه‌تعالی. یقول «الرّاغب» فی «مفرداته»، إنّ کلمة «الأسی» علی وَزن (عَصا)، وهی بمعنی الغمّ و الألم، فکلمة اسوةٌ أخذت من هذه المادة، و یقال لِلمصاب بمصیبةٍ: «لکَ بِفلانٍ اسوةٌ». ولکنّ بعض أرباب اللّغة، مثل: إبن فارس فی «المقاییس»، فصّل بین المعنیین، فقال: «أنّ الأوّل ناقصٌ (واوی)، و الثّانی ناقصٌ (یائی)»، و علی کلّ حالٍ فإنّ القرآن المجید، حثّ المسلمین علی مسألة: «الحُبُّ فِی اللّهِ وَالبُغْضُ فِی اللّهِ»، و جعل لهم إبراهیم علیه السلام قدوةً، لأنّ إختیار القدوة الصّالحة لحرکة الإنسان، فی خطّ التّقوی و الإیمان، له دورٌ عمیقٌ فی طهارة روح الإنسان، و أفکاره و سلوکیاته. و هذا هو ما یؤکّد علیه علماء و الأخلاق، فی عملیّة السّیر و السّلوک إلی اللّه، فإنّ إختیار القدوة یُعدّ أهمَّ خطوةٍ لحرکة الإنسان فی طریق الرّقی. «الآیة الثانیة»: إستمراراً لبحثنا الآنف الذّکر، تتحدث عن إبراهیم علیه السلام و صحبه، فتقول: «لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کَانَ یَرْجُوا اللَّهَ وَالْیَوْمَ الْآخِرَ وَمَن یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ». و فرّق هذه الآیة عن الّتی قبلها، فی أمرین: الأوّل: إنّ هذه الآیة أکّدت علی مسألة: «الحُبُّ فی اللّهِ وَالبُغْضُ فی اللّهِ»، بأنّها من الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۳۱۸ علامات الإیمان باللّه والمعاد. الثانی: إنّ التّأکید علی هذا الأمر، لا ینبع من حاجة الباری إلیه، بل هو من حاجة الإنسان إلیه، فی مساره التّکاملی و المعنوی إلی اللّه تعالی، و لِحفظ سَلامة المجتمع البشری فی حرکة الواقع و الحیاة. «الآیة الثّالثة»: ناظرةٌ إلی غَزوة الأحزاب، وهی فی الحقیقةِ تشیرُ إلی مُلاحظةٍ مُهمّةٍ جِدّاً، ألا و هی: أنّ الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و بالرّغم من الأزمات النّفسیة و التّحدیات الصّعبة فی تلک الظّروف، و سوء ظنّ بعض المسلمین الجدد، بالوعد الإلهی بالنّصر فی میادین الوَغی فإنّه بَقی صامِداً ینظّر لِلحرب، و یستخدم أفضل التّکتیکات العسکریّة، إنتظاراً لِلّحظة الحاسمة، و کان ینتظر الفُرصة للإنقضاض علی عدوّه، فکان یَمزح مع أصحابه لیقوّی من معنویاتهم، و أخذ المِعوَل بنفسه لِیحفُر الخَندق بیده، و یُشجع أصحابه ویذکّرهم باللّه تعالی وثوابه، ویبشّرهم بالفتوحات المُقبلة العَظیمة. و هذا الأمر تَسبّب فی تماسک المسلمین، و مقاومتهم أمامَ عدوّهم، و جیشه الجرّار المتفوق علیهم بالعدّة و العَدَد، بالتّالی الإنتصار علیهم، فقال تعالی «لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کَانَ یَرْجُو اللَّهَ وَالْیَوْمَ الْآخِرَ وَذَکَرَ اللَّهَ کَثِیراً». فالرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، لا یُتأَسّی به فقط فی میادین الجِهاد الأصغر، بل وکذلک فی میادین الجِهاد الأکبر، ألا وهو جهاد النّفس و التّصدی لِلأهواء المُضلّة، من موقع المحاربة، فَمن یتّخذِه اسوةً حسنةً فی هذا المضمار، فإنّه سیصل من أقرب الطّرق و أسرعها، إلی غایته و هدفِه المَنشود. و الجدیر بالذّکر، أنّ هذه الآیة، علاوةً علی ذکرها لِمسألة الإیمان باللّه و الیوم الآخر: «لِمَنْ کَانَ یَرْجُو اللَّهَ وَالْیَوْمَ الْآخِرَ ...»، أکّدت علی ذِکر اللّه تعالی بجملة: «وَذَکَرَ اللَّهَ کَثِیراً». فهم یقتدون بقائدهم الربّانی و یستلهمون منه الإیمان، و ذِکر اللّه کثیراً حیث یحرک فیهم الذّکرُ الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۳۱۹ الکثیرِ، عنصر الإهتمام للمسؤولیات التی القیت علی عاتقهم، وَ مَنْ أفضل من الرّسول الأکرم صلی

الله عليه و آله، لِيكون لهم اسوةً و قـدوةً، فى خـطّ الإلـتزام الـدّينى و الأخلاقـى و الإنفتـاح على اللَّه؟ «الآيـة الرابعـة»: نوهت إلى النّقطة المقابلـة، ألا وَ هَى: البُغض فى اللَّه تعالى فى خطّ الحقّ، فتقول: «لَاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ». فهـذه الآيـة الشـريفة، صـرّحت و أرشـدت، إلى الطريق التى يجب على المؤمن سـلوكها، عنـد تقاطع الطّرق، و تضارب «العلاقـة الإلهيّة» مع «العلاقات الاسـريّة»، فلو أنّ الآبـاء و الإخوة و الأقربـاء، تحرّكوا فى خطّ الباطل و الإنحراف و الكُفر، فإنّ طريق اللَّه هى الجادّة الحقيقيّـة، لِلإلتحاق بالرّكب الإلهى المقـدس. و مـا ورد فى هـذه الآيـة، من قوله تعـالى: «أُوْلَئِكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ». ليس إلّاتأكيـداً على المعنى المتقـدم، و تشـجيعاً لذلك الأمرالمهم الحياتى، أى أنّ «الحُبُّ فِى اللَّهِ وَالبُغْضُ فِى اللَّهِ»، نابعٌ من الإيمان، و طريق التّكامل الحقيقى فى خطّ الإيمان، السّلوك المعنوى، و بعبارةٍ اخرى: إنّ هـذين الأمرين، يؤثّر أحـدهما فى الآخر بصورةٍ مُتقابلـةٍ، مع فارقٍ واحدٍ، و هو أنّه يجب الإبتداء فى عمليّة السّـلوك المعنوى، بالإيمان بالمبدأ و المعاد، و التّكامل المعنوى يكون، من حصّة: «الحُبُّ فى اللَّهِ وَالبُغْضُ فى اللَّهِ». «الآيـة السّادسـة»: تطرّقت لأواصـر المحبّـة المعنويّـة بين المؤمنين، و قـالت: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۲۰ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فهـذا الرّباط المعنوى، يتّخذ من الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر، و إقام الصّلاة و إيتاء الزّكاة، و طاعـة اللَّه و رسوله، أساسـاً و دَعامـةً فى صـياغة السّلوك، حيث يعين الفرد، على إسـتلهام الأخلاق الحَسنة و الأعمـال النّافعـة، من الآخرين، فيكون كلّ واحدٍ منهم اسوةً للآخر، و من أراد الإلتحاق بهذه الجماعة، عليه أن يكون مُشابهاً لها فى دائرة الفكر و السّلوك، دون الجماعات المنحرفـة الضّالـة المضـلّة، التى يجب عليه البَراءة منها و الإبتعاد عنها. و فى الحقيقـة، فإنّ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، الـذى يُعـدّ عاملًا مُساعـداً و فَعّالًا، فى عمليّـة تهـذيب وتربيـة النّفوس، يدعوهـم إلى الإلتزام بالإنضـباط الدّينى و الأخلاقى، من موقع النّصيحة و التّواصـى بـالحقّ. «الآيـة السّابعـة»: فرّقت بين المؤمنين و الكـافرين، على مسـتوى السّلوك فى واقع الحياة، فالمؤمنون يتّخذون من صـفات جَماله و جَلاله، اسوةً لهم فى مسيرتهم المعنويّة و الأخلاقيّة، و الكافرون اسوتهم الطّاغوت، حيث تكون أعمالهم و صـفاتهم إنعكاس لِأعمال وَ صفات الطّاغوت، فقالت: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». فالخروج من الظّلمات إلى النّور، يعتبر نتيجـةً و ثمرةً لِلإيمـان بـاللَّه تعـالى و ولايـته، و الخروج من النّور إلى الظّلمـات، هو من معطيـات الطّاغوت و ولايته. و النّور و الظّلمـة هنا، لهما مفهـومٌ واسـعٌ جِدّاً، بحيث يسـتوعبان، جميـع الفضائـل و القبائـح و الحسـنات و السّـيئات. نَعم، فـإنّ الشّـخص الـذى يعيش فى أجواء المَلكـوت، و فى ظـلّ ولايـة «اللَّه»، فـإنّه سـيبدأ رِحلتـه و هِجرتـه، من الرّذائـل إلى الفضائـل و من القبائـح إلى الجَمـال الرّوحى، و من السّـيئات إلى الحسـنات، لأنّ صِـفات جَماله و جَلاله، هى اسوته الحقّـة فى رحلته المعنويّـة. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۲۱ فذاته المُقدّسـة، منزّهـةٌ عـن كـلِّ عيبٍ و نقصٍ، و هـو الرّؤوف الرّحيم، الجَواد الكَريم، و هكـذا يتحرّك نحـو التّحلى بالفضائـل الأخلاقيـة الاخرى، لأنّ هـدفه هـو وِصـال المَحبـوب و المَعبود. و العَكس صـحيحٌ، فـإنّ الحركـة من الفَضائـل إلى الرّذائـل هى من شـأن عَبـدَةِ الطّاغوت و الأوثـان، التى لا تنفع فى شـىءٍ أبـداً. «الآيـة الثّامنـة»: خاطبت المؤمنين من موقع النّصـيحة، بإلتزام طريق التّقوى و صـحبة المؤمنين، و قـالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». فى الحقيقـة أنّ الجملـة الثّانيـة، فى الآيـة الشّريفة: «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»، هى إكمـال لِلجملـة الاولى: «اتَّقُوا اللَّهَ ...». نعم، فإنّه يتوجب على السّالك لِطريق التّقوى و الزّهـد و الطّهّارة، أن يكون مع الصّادقين و تحت ظلّهم، و قـد وَرد فى الرّوايات من الطّرفين: السـنّة و الشّـيعة، و فى الكُتب المُعتبرة، أنّ المِصـداق الأكمل لهذه الآية، هو الإمام على عليه السـلام، أو أهلَ بيته عليهم السـلام. و هـذه الرّوايات، موجودةٌ فى كتبٍ، مثل: «الـدّر المَنثور لِلسّـيوطى» و «المَناقب لِلخَوارِزمى» و «دُرَر السّـمطين لِلزرنـدى» و «شَواهـد التّنزيل للحَسَـكانى»، و غيرها من الكُتب الاخرى «۱». و كـذلك أوردها: «الحافظ

سُلیمان القُنـدوزی» فی «یَنابیع المَودّة»، و «العلّامة الحموینی» فی «فَرائد السّـمطین»، و «الشّـیخ ابو الحَسن الکازرونی» فی «شَـرف النّبی» «۲». و قد وَرد فی بعض الأحادیث، و بعد نزول الآیة الآنفة الذّکر، أنّ سـلمان الفارسـی رحمه الله، سأل الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و قـال له: هـل أنّ هـذه الآیـة عامّـةٌ أو خاصّـةٌ؟، فأجـاب النّبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله: «أَمّـا المَـأمُورُونَ فَعـامَّةُ المُؤمِنِینَ وَأَمَّا الصَّادِقُونَ فَخاصَّةُ أَخِی عَلِیٌّ وَ أَوصِـیائُهُ مِنْ بَعْـدِهِ إِلی یَومِ القِیامَـةِ» «۳». الاخلاـق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۲ و من الطّبیعی فـإنّ إتّباع الإمام علی علیه السلام و أوصیاءه، جاریةٌ و مستمرةٌ إلی یومِ القیامة، للإهتداء بِهَدیِهِم، و الإقتداء بفعالهم و أخلاقهم فی حرکة الحیاة.

النّتیجة:

یُستفاد ممّا ذکر آنفاً، من الآیات التی إستعرضت مسألـة «التّولّی و التّبرّی»، أنّ مسألة الوُصول إلی مرتبة القُرب من الذّات المقدّسة، و تولّی أولیاءه من عباده الصّالحین، و التّبرّی من الظّالمین و الغاوین، و فی کلمـةٍ واحـدةٍ: «الحُبُّ فی اللَّهِ وَالبُغْضُ فی اللَّهِ»، تعـدّ من أهمّ المسائل و المفاهیم، فی دائرة التّعلیمات القُرآنیـة، ولها دورها الکبیر و أثرها العمیق، فی مُجمل المسائل الأخلاقیّـة، فی حرکـة الإنسان المعنویّـة. و هـذا الأسـاس القرآنی و المفهـوم الإسـلامی، له دورُه المُباشـر فی جمیـع المَسائـل الحیاتیّـة، إن علی المسـتوی الفَردی أو الاجتماعی، الدنیوی أو الاخروی، لا سِیّما فی المسائل الأخلاقیّة و السّـلوک الأخلاقی لِلأفراد، فی تعاملهم و تَفاعلهم مع الآخرین، فی حرکة الحَیاة و الُمجتمع. فهذه المفردة العقائدیّة، فی دائرة المفاهیم الإسلامیّة، بإمکانها أن تبنی نفوس المؤمنین علی إتّباع الصّالحین و الطّـاهرین، و إتخـاذهم اسوة حسـنة، خُصوصـاً الرّسول الأـکرم صـلی الله علیه و آله و أهـل بیته علیهم السـلام، فی کلّ خطوةٍ یخطوها الإنسان المُؤمن فی خطّ الإیمان، و بـذلک تکون من العوامل المهمّـة، للوصول إلی الهدف الحقیقی من وراء خلقة الإنسان، ألا وَ هِیَ تهذیب النّفوس و تربیة الفَضائل الأخلاقیة فی واقع النّفس البشریّة.

التولّی و التبرّی فی الرّوایات الإسلامیّة:

وَردت أحادیثٌ مسـتفیضةٌ فی هذا الصّدد، سواء عن طریق أهلِ السُّنة أو الشّـیعة، و طَرحت موضوع التبرّی والتولّی بقوّةٍ، و أکّدت علیه بصورةٍ شدیدةٍ، قلّما نَجدُ لها نظیراً، بالنّسبة إلی المواضیع الاخری الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۳ ولا شَکَّ أنّ هذه الأهمیّة، نابعةٌ من المعطیـات الإیجابیّـة الکثیرة، لِمسألـة التّولی لِأولیـاء اللَّه، والبراءة من أَعـداءِه تعـالی، حیث توثّق عُری الإیمـان و أواصِـر المحبّـة و الصّداقـة، مع أولیـاء اللَّه تعـالی، و تُعمّق حالـةَ الإبتعاد و النّفور من الظّالمین الفاسـقین، و تنعکس هـذه النّتائج علی إیمان الشّـخص و أَخلاـقه و تَقواه، من موقع القوّة و الصّـفاء و الإمتـداد فی واقع الإنسـان و محتواه الـداخلی، و تحثّ هـذه الأحادیث النّاس، علی إختیار القُـدوة الصّالحـة فی عملیّة السّـیر و السّـلوک، فی طریق اللَّه سـبحانه وتعالی. و نُشـیر هنا إلی مجموعةٍ من الأحادیث الشّـریفة، فی هذا المجال، جمعت من کُتبٍ مُختلفةٍ: ۱- قال علیٌّ علیه السلام فی خطبته القاصعة، و فی وصفه للرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ کـانَ فَطِیماً أَعَظَمَ مَلَکٍ مِنْ مَلائِکَتِهِ یَسْلُکُ بِهِ طَرِیقَ الَمکارِمِ وَمَحاسِنَ أَخلاقِ العالَم، لَیلَهُ وَ نَهارَهُ وَلَقَـدْ کُنْتُ أَتَّبِعُهُ إِتِّباعَ الفَصِـیلِ أَثَرَ امِّهِ یَرْفَعُ لی فی کُلِّ یومٍ مِنْ أَخلاقِهِ عَلَماً وَ یَأْمُرُنی بِالإِقتِـداءِ بِهِ» «۱». و یبیّن هذا الحدیث، أنّ رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله نفسهُ کان له من یرشـده و یهـدیه، ولـدیه القدوة الحسـنة علی شـکل ملکٍ من ملائکة اللَّه العِظام. و کذلک الإمام علی علیه السـلام، جعـل من الرسول الأکرم صـلی الله علیه و آله قـدوةً له، فکان یتبعه فی کلّ اموره وحرکاته وسـکناته، فیتعلم منه کلّ یوم أمراً جدیداً، عِلماً مفیداً، و أخلاقاً نبیلةً. فلّما کان کُلٌّ من الرسول الأکرم صـلی الله علیه و آله و علی علیه السـلام، یحتاجان إلی القُدوة الحسنة، فی بدایـة المسیر إلی اللَّه، فکیف بحال الباقین؟ ۲- الحـدیث المعروف: «بُنِیَ الإسـلام ...»، الـذی وَرد من طُرق متعـدّدةٍ عن المَعصومین، و منهـا مـا ورد عن زُرارة عن الباقر علیه السـلام، أنّه قال: «بُنی الإِسـلامُ عِلی خَمْسَـةٍ: عَلَی الصَّلاةِ وَالزَّکاةِ والحَـجِّ وَالصِّوم وَالولایَـةِ»، قالَ زُرارَةُ، فَقُلتُ: وَأَیُّ شَـیءٍ مِنْ ذَلِکَ أَفْضَلُ؟، فَقالَ: الوَلایَـةُ أَفْضَلُ لَانّها مِفتاحُهُنَّ وَالوالی هُوَ الدَّلِیلُ عَلیهِنَّ» «۲». الاخلاق

فى القرآن، ج۱، ص: ۳۲۴ و من هـذا الحـديث يُستفاد، أنّ الإقتداء بالقُدوة الصّالحة، يعين الإنسان على إحياء سائر البرامج، الدينية و المسائل العباديّة الفردية و الإجتماعيّة، و هى إشادةٌ واضحةٌ بدور الولاية، فى مسألة تهذيب النّفوس و تحصيل مكارم الأخلاق. ۳- عن الإمام الصّادق عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لأصحابه: «أىُّ عُرَى الإِيمانِ أَوثَقُ؟، فَقَالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وَ قالَ بَعْضُهُم الصَّلاةُ، وَ قَالَ بَعْضُهُم الزَّكاةُ، وَقَالَ بَعْضُهُم الصِّيامُ، وَقَالَ بَعْضُهُم الحجُّ والعُمْرَةُ، وَقَالَ بَعْضُهُم الجِهادُ. فَقالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه و آله: لَكُلٍّ ما قُلْتُم فَضْلٌ وَلَيسَ بِهِ، وَلَكِنْ أَوثَقُ عُرَى الإِيمانِ الحُبُّ فِى اللّهِ وَالبُغْضُ فِى اللّهِ وَتَوَلّى أَولِياءِ اللّهِ وَالتَّبَرّى مِنْ أَعداءِ اللّهِ» «۱». و قد حرّك الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أذهان أصحابه بهذا السّؤال. و هكذا كانت سيرة الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، عندما كان يريد أن يطرح موضوعاً مهمّاً، فبعض منهم أبدى جهله، وبعض منهم قال الصّيام و ... ولكن فى نفس الوقت، الذى أكّد رسول اللّه على أهميّة تلك الامور فى الإسلام، قال: «الحُبُّ فِى اللّهِ وَالبُغْضُ فِى اللّهِ». و التّعبير بكلمة: «عُرى جَمع «عُروة»، هى بمثابة حلقة الوصل لِلقرب من اللّه تعالى، و إشارةٌ إلى أنّ السّلوك إلى اللّه، لا يتمّ إلّامن خلال التمسّك بهذه العروة، و الصّعود بواسطتها إلى مراتب سامية من الكمال المعنوى، وليس ذلك إلّالأنّ الحبّ فى اللّه و الإقتداء بأولياء اللّه، عاملٌ مهمٌّ فى تسهيل الحركة فى جميع إتّجاهات الخير و الصّلاح. و بإحياء هـذا الأصل، سوف تنتعش بقيّة الاصول الدّينيّة، ولكن مع إهماله وترك العمل به، فإنّ سائر الاصول ستَضعف و تَموت. ۴- و فى حديثٍ آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام، أنّه قال لجابر الجُعفى رحمه الله: «إذا أَرَدتَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ فِيكَ خَيراً فَانظُرْ إِلى قَلْبِكَ فَإِنْ كانَ يُحِبُّ أَهْلَ طاعَةِ اللّهِ وَ يُبْغِضُ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ، فَفِيكَ خَيرٌ وَاللّهُ يُحِبُّكَ، وَإِنْ كانَ يُبْغِضُ أَهْلَ طاعَةِ اللّهِ وَ يُحِبُّ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ، الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۲۵ فَلَيسَ فِيكَ خَيرٌ، وَاللّهُ يُبْغِضُكَ وَالمَرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» «۱». وَ جُملة: «والمَرء مَعَ من أحبّ»، هى إشارةٌ جميلةٌ و لطيفةٌ إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ هذه العِلاقة ستمتد وتستمر إلى يوم القيامة، وهى دليلٌ واضحٌ على أهميّة مسألة «الولاية»، فى المباحث الأخلاقيّة. ۵- فى حديثٍ آخر عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «وُدُّ المُؤمِنِ لِلمُومِنِ فِى اللّهِ مِنْ أَعْظَم شُعَبِ الإِيمانِ، أَلا وَمَنْ أَحَبَّ فِى اللّهِ وَأَبْغَضَ فِى اللّهِ وَأَعطى فِى اللّهِ وَمَنَعَ فِى اللّهِ فَهُوَ مِنْ أَصفِياءِ اللّهِ» «۲». ۶- فى حديثٍ آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السلام، أنّه قال: «إذا جَمَعَ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ الأَوَّلِينَ وَ الآخَرينَ، قامَ مُنادٍ فَنادى يُسْمِعُ النّاسَ، فَيَقُولُ: أَينَ المُتَحابُّونَ فى اللّهِ، قالَ: فَيَقُومُ عُنُقٌ مِنْ النّاس، فَيُقالُ لَهُم إِذْهَبُوا إِلَى الجَنَّةِ بِغَيرِ حِسابٍ، قَالَ: فَتَلَقّاهُم المَلائِكَةُ فَيَقُولُونَ إِلى أَينَ؟ فَيَقُولُونَ إِلى الجَنَّةِ بِغَيرِ حِسابٍ!، قَالَ: فَيَقُولُونَ فَأَىُّ ضَرْبٍ أَنْتُم مِنْ النّاسِ؟، فَيَقُولُونَ نَحْنُ المُتَحابُونَ فِى اللّهِ، قَالَ: فَيَقُولُونَ وَ أَىُّ شَىء كانَتْ أَعمالُكُم؟، قَالُوا كُنّا نُحِبُّ فى اللّهِ وَ نُبْغِضُ فِى اللّهِ، قَالَ فَيَقُولُونَ، نِعْمَ أَجرُ العامِلِينَ» «۳». و تعبير «نِعْمَ أَجرُ العامِلِينَ» يبيّن أنّ المحبّة لأولياء اللّه والبغض لأعداء اللّه هو أكبر مصدر للخير فى واقع الإنسان والحياة والمانع عن الشر والانحراف فى مسيرة التكامل الأخلاقى. ۷- وَرد فى حديثٍ عن الرّسول الكريم صلى الله عليه و آله: «إنَّ حَولَ العَرشِ مَنابِرٌ مِنْ نُورٍ، عَلَيها قَومٌ لِباسُهُم وَ وُجوهُهُم نُورٌ، ليسُوا بِأَنْبِياءٍ يَغْبِطَهُمُ الأَنْبياءُ وَ الشُّهَداءُ، قالُوا يا رَسُولَ اللّهِ حَلِّ لَنا، قَالَ: هُم المُتَحابُّونَ فى اللّهِ وَالمُتَجالِسُونَ فِى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۲۶ اللّهِ وَالمُتَزاوِرُونَ فى اللّهِ»». ۸- و إكمالًا للحديث أعلاه، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «لَو أَنَّ عَبدَينِ تَحابا فِى اللّهِ أَحَدُهُما بِالمِشْرِقِ وَالآخرُ بِالمَغْرِبِ لَجَمَعَ اللّهُ بَينَهُما يَومَ القِيامَةِ وَ قَالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه و آله: أَفْضَلُ الأَعْمالِ الحِبُّ فى اللّهِ والبُغْضُ فى اللّهِ» «۲». و يبيّن هذا الحديث، أنّ أوثق العُرى والأواصر فى دائرة العلاقات الإجتماعيّة، هى آصرة الدّين التى تُحقّق التّوافق و الوئام بين الأفراد، وتدفعهم لِلمحبّة للّهوفى اللّه، وهذه الحالة تؤثّر فى النّفوس، من موقع التّزكية و التّهذيب. ۹- نقرأ فى الحديث القُدسى، قال اللّه تعالى لموسى عليه السلام: «هَلْ عَمِلْتَ لى عَمَالًا؟!، قالَ صَلَّيتُ لَكَ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ لَكَ، قَالَ اللّهُ تَبارَكَ وَ تَعالى وَ أَمّا الصّلاةَ فَلَكَ بُرهانٌ، والصَّومَ جُنَّةٌ والصَّدَقَةُ ظِلٌّ، والذِّكْرُ نُورٌ، فَأَىُّ عَمَلٍ عَمِلْتَ لِى؟!، قَالَ مُوسى دُلَّنى عَلى العَمَلِ الَّذى هُوَ لَكَ، قَالَ يا مُوسى هَلْ وَالَيتَ لى وَلِيّاً وَ هَلْ عادَيتَ لِى عَدُوّاً قطُّ، فَعَلِمَ مُوسى إِنَّ أَفْضَلَ الأَعمالِ، الحُبِّ فى اللّهِ والبُغْضُ فى اللّهِ» «۳». ۱۰- ونختم هـذا البحث، بحديثٍ آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام، (رغم وجود الكثير من الأحاديث الشّريفة فى هـذا الموضوع، أنّه قال: «مَنْ أَحَبَّ لِلّهِ وَأَبْغَضَ لِلّهِ وَأَعْطىٰ لِلّهِ وَمَنَعَ لِلّهِ فَهُوَ مِمَّنْ كَمُلَ إِيمانُهُ»

«۴». و نَستوحی من الأحادیث العشرة الآنفة الذّکر، أنّ الإسلام قد أعطی الأهمیّة القُصوی، لمسألة الحُبّ فی اللّه والبغض فی اللّه، و إعتبرها أفضل الأعمال، وعلامة کمال الدّین، و أسمی من: الصّلاة و الزّکاة و الصّیام والحج والإنفاق فی سبیل اللّه تعالی، ومن یَتَحلّی بهذه الصّفة، یکون مع الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی الجنّة، بحیث یغبطه فیها الأنبیاء و الشّهداء و الصّدیقین. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۷ فهذه التّعبیرات و غیرها، تبیّن لنا دور و فعّالیّة مسألة التبرّی و التولّی، فی جمیع البرامج الدّینیة و الإلهیّة، ودلیل هذا الأمر واضحٌ جدّاً، لأنّ الإنسان المؤمن، عندما یُحِبّ القُدوة الإلهیّةُ و الإنسان الکامل، لتقواه وإیمانه وفضائله الأخلاقیة، فإنّ ذلک من شأنه، أن ینعکس علی روحه و سُلوکه صفاتِ و سلوک هذه القدوة، و یدفعه لِلتأسّی بها فی أعماله و حرکاته و سَکناته! و هذا هو بالفعل، ما یَصبو وَیدعو إلیه علماء الأخلاق، بإعتباره أصلًا أساسیاً فی تهذیب و تربیة النّفوس، و أنّ الإقتداء بالقُدوة الصّالحة، من شأنه أن یکون شرطاً أساسیاً، لأن یسلک بالإنسان طریق الهدایة و الصّلاح، فی خطّ الإیمان و الإنفتاح علی اللّه تعالی. و من الأدلّة المهمّة، التی أوردها القرآن الکریم، و أکّد علیها رسوله الکریم صلی الله علیه و آله، هو التّذکیر بأَنبیاء اللّه تعالی و أفعالهم و تأریخهم و حیاتهم، و الغَرض من ذلک کُلّه، الإقتداء بهم و إتّباع سیرتهم. جدیرٌ بالذّکر، أنّ کلّ إنسانٍ یحبُّ البطولات و الأبطال، و یحبُّ أن یَقتدی بأحد الأبطال، لیجعله اسوةً و قدوةً فی حیاته فی جمیع أبعاده المختلفة. عملیّة إنتخاب مثل هؤلاء الأبطال، یؤثر علی حیاة الإنسان، من موقع صیاغة الشّخصیة و کیفیّة السّلوک، و علی فرض حدوثِ تغیّرٍ فی نظرة الإنسان نحو القُدوة، فَستتغیر حیاتُه بالکامل، تَبعاً لها. و الکثیر من الأفراد أو الشعوب، لمّا لم یُسعفهم الحظّ فی إتخاذ القُدوة الصّالحة، تَوسّلوا بأبطالٍ مزیّفین، کَی یُعوّضوا النّقص الحاصل لدیهم فی هذا المجال، و أدخلوهم فی ثقافتهم و تأریخهم، وألّفوا فی سیرتهم الأساطیر و الحکایات، و البطولات الخیالیّة. و البیئة و الدّعایة السّلیمة أو المغرضة، لَها دورها فی إختیار اولئک الأبطال، فیُمکن أن یکونوا من رجال الدّین، و السّیاسة، أو وجوهٌ ریاضیّةٌ أو تمثیلیّةٌ. و هذا المیل البَشری لِلأبطال، و القُدوات الإنسانیة، یمکن أن یوجّه بالصّورة الصّحیحة، و یفعّل دوره فی تربیة الفضائل الأخلاقیّة و السّلوکیات الحسنة، فی الحیاة الفردیّة و الإجتماعیّة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۸ و بناءً علی ذلک، فإنّ الآیات و الرّوایات أکّدت علی هذه الضّرورة، و هی مسألة التولّی و التّبرّی، و إتّخاذ أولیاء اللّه قدوةً و اسوةً حسنةً، و بدونها ستبقی برامج التّربیة و التّهذیب، ناقصةُ المُحتوی و المُضمون.

قصّة موسی و الخَضر علیهما السلام:

إتّخاذُ المعلّم و الدّلیل، فی طریق السّیر و السّلوک إلی اللّه تعالی، من الأهمیّة بمکانٍ، بحیث أُمِرَ بَعض الأنبیاء، فی بُرهةٍ من الزّمن، للحُضورَ عند الاستاذ أو المُرشد. و من ذلک قصّة موسی علیهما السلام و الخضر، الملیئة بالمفاهیم والمضامین العمیقة، و التی وَردت فی سَورة الکهف، من القرآن المجید. فقد امِرَ موسی علیه السلام، لأجل إسترفاد بعض العلوم، التی تحمل الجانب العملی و الأخلاقی أکثر من الجانب النّظری، أُمِرَ بالذّهاب إلی عالم زمانه، لِیَستقی منه العِلم، و قد عرّفه القرآن الکریم، بأنّه: «عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَیْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً». فشدّ موسی علیه السلام، الرّحال فعلًا مع أحد أصحابه، متّجهاً نحو المکان الذی یتواجد فیه الخِضر علیه السلام، و مع غَضّ النّظر عَمّا صادفاه فی الطّریق إلیه، وَصل مُوسی علیه السلام إلی المکان الموعود، فقال له الخِضر علیه السلام: «إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعی صَبراً»، ولکنّ موسی علیه السلام وعده بالصّبر. توالت الأحداث الثّلاثة، واحدة بعد الاخری، المعروفة و الواردة فی القرآن الکریم: أولها خَرق السّفینة الّتی کانوا علیها، فإعترض موسی علیه السلام، و ذکّره بخَطر الغَرق لِلسفینة بمن فیها، فقال له الخِضر: «ألم أَقُل لَکَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعی صَبراً» فندم و إختار علیه السلام السّکوت، حتی یوضّح له ملابسات الأمر. ولَم یَمض قلیلًا، حتی صادفوا صَبیّاً فقتله، الخِضر علیه السلام مباشرةً من دون توضیح و دلیل، فهذا الأمرُ المُریع أثارَ موسی علیه السلام مرّةً اخری، و نسِیَ ما تَعهّد به، و إعترض علی استاذه بأشدّ من الّتی قَبلها، فقال: «أَقَتَلْتَ نَفساً بِغَیرِ نَفْسٍ لَقَد جِئتَ شَیئاً إمراً». و لِلمرّة الثّانیة، ذکّر الخِضر موسی علیه السلام بالعهد الذی قطعه علی نفسه، و قال له: إذا تکرّر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۹ منک هذا العمل لِلمرّة

الثّالثة، فسوف تَنقطع العلاقة بینی و بینک، و ننفصل فی هذا السّفر، فعلم موسی علیه السلام، أنّ فی قَتل الغلام سِرّاً مُهمّاً، فآثر السّکوت، لیتّضح له السرّ فیما بعد. و تَلَتها الحادثة الثّالثة، و قد وردوا فی قَریةٍ، فلم یُضیفوهما ولم یعبؤوا بهما، فَوجد الخِضر علیه السلام جداراً یُرید أن یَنقضّ، فَأقامَه علیه السلام، و طلب العَون من موسی علیه السلام فی هذا الأمر، فَرمَّم الجِدار، فضاق موسی ذَرعاً بالأمر، فَصاح: «لَو شِئتَ لَتَّخَذْتَ عَلِیهِ أَجراً». فأین یکون موضع التّعامل مع هؤلاء من موقع الرّحمة، مع کلّ تلک القساوة التی واجهوها من أهل تلک القریة؟. و هنا أعلن الخِضر علیه السلام إنفصاله عن موسی علیه السلام، لأنّه نقض العَهد ثلاثَ مرّاتٍ، ولکنّه و قبل الفِراق، أعلمه بالأسرار لتلک الحوادث الثّلاثة، فقال له: إنّ السّفینة کانت لِمساکین، و کان عندهم ملکٌ یأخذ کلّ سفینةٍ سَلیمةٍ غَصباً، فَأعَبْتُها کَیْ لا یأخذها منهم، و الشّاب المقتول، کان یستحق الإعدام، لأنّه کافرٌ و مرّتدٌ، و کان الخوف علی أبویه من موقع التّأثیر علیهما، ولئلا یحملهما علی الکفر. و الجِدار کان لیتیمین فی المدینة، و کان تَحته کنزٌ لَهُما، وکان أبوهما صالحاً، فأراد ربّک أن یستخرجا کنزهما فیما بَعد، لیعیشا بذلک المال، ثم أکدّ علیه أن کلّ ذلک کان بأمر اللَّه تعالی، ولیس تصرّفاً من وَحی أفکاری «۱». رجع بعدها موسی علیه السلام، محّملًا بمعارفٍ و علومٍ فی غایة الأهمیّة. و نحن بدورنا نستلهم من تلک القصّة، عدّة دروسٍ، منها: ۱- العثور علی معلّم مطّلع حکیم للتعلّم عنده، و الإستنارة من نور علمه، أمرٌ من الأهمیّة بمکان، بحیث امِرَ رسول من رُسل اولی العزم بذلک، وقد قطع المسافات الطویلة کی یَدرس عنده، و یقتبس من فَیض علمه. ۲- عَدم تعجّل الامور، و إنتظار الفرصة المُناسبة، أو کما یُقال: «إنّ الامور مرَهونةٌ بِأَوقاتها». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۰ ۳- الحوادث الجاریة حولنا، ربّما تحمل ظاهِراً و باطناً، وعلینا عدم النّظر إلی الظّاهر فقط، لِئلّا نخطأ فی الحکم علی الامور، من موقع العجلة و عدم التّأنّی، و علینا الأخذ بنظر الإعتبار بَواطِنها. ۴- عدم الإنضباط و الإلتزام بالعهود، ربّما یَحرم الإنسان من بعض البرکات المَعنویّة إلی الأبد. ۵- الدّفاع عن الأیتام و المستضعفین، و الوقوف فی وجه الظّالمین و الکفار، یُعتبر واجباً علی المؤمنین، الذین یتحرّکون فی خطّ الرّسالة و المسؤولیّة، و قد تُدفع فی سبیل ذلک الأثمان الباهظة. ۶- أینما وصل الإنسان فی مراحل العِلم و الرّقی، علیه أن لا یتغترّ بعلمه، و لا یتصور أنّه وصل إلی حدّ الکمال، لأنّه قد یتسبب هذا التّصور، فی تجمید حرکة الإنسان الصّاعدة، و القناعة بما عِنده من العلم. ۷- إنّ للَّهِ تعالی جُنوداً و ألطافاً خفیّةً تنصرُ المظلوم، بِطرقه المختلفة، وکلّ إنسانٍ مؤمنٍ، علیه أن یتوقّعها فی کلّ لحظةٍ. و هناک نقاطٌ مفیدةٌ اخری أیضاً. و هذه القصّة سواء کانت تحمل أهدافاً حقیقةً لتعلیم موسی علیه السلام، أم أنّها تحمل نِداءاتٍ للناس؛ لکی یتعلموا ویقتدوا بالأعاظم من البشر، لا تختلف عما نحن بصدده. والخُلاصة: أنّ القدوة و الدّلیل و الاسوة، هو أمرٌ لابدّ منه للاستزادة من العلوم، و تهذیب النّفوس فی خطّ التّکامل المعنوی و بناء الذّات. ۱۴

الوجه الآخر للولایة، و دوره فی تهذیب النّفوس

اشارة

لا یَنحصر دور الإعتقاد بالولایة، فی المسائل الأخلاقیة و تهذیب النّفوس و السّیر إلی اللَّه تعالی، علی إتّخاذ القُدوات الصّالحة و الإقتداء بکلامهم و فِعالهم، بل و بحسب إعتقاد بعض الأعاظِم و العُلماء، یوجد هناک نوعٌ آخر من الولایة، هو فرعٌ من الولایة التّکوینیة، یستطیع معها القادُة الإلهِیّیون، و بواسطة نفوذهم الرّوحی المباشر، فی عالم الوجود و التّکوین، من معرفة النّفوس المستعدّة للتربیة و الإصلاح، و التّصرف المعنوی المَباشر، فی المستوی الرّوحی لِلإنسان فی خطّ التّربیة. و توضیح ذلک: إنّ الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله و الأئمّة المعصومین علیهم السلام، هَمْ القلب النّابض لِلاُمّة الإسلامیّة، و کلّ عضوٍ من الأعضاء، یکون له إرتباطٌ وثیقٌ بالقلب، سیتسنی لذلک العَضو أن یسترفِد من المنبع مَنافع أکثر، أو أنّهم بمنزلة الشّمس المشرقةِ، فکُلّما إنقشعت سُحب الأنانیة عن القلب، فإنّ تلک الأشعّة ستتولی تربیة عناصر الخیر فی النّفس، فَتورقُ و تثمرُ، و تنعکس آثارها علی شخصیّة الإنسان، فی إطار

السّلوك و الفِكر. و هنا تأخذ الولاية شَكلًا آخر، و تنحى مَنْحاً يختلف عن السّابق، و سيكون الكلام فيها عن المَعطيات الخفيّة الغامضة، فى دائرة التّأثير التّربوى، غير التى نعرفها سابقاً، فى دائرة التّصرفات الظّاهريّة. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۳۲ يقول القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً». فهذه الشّمس المنيرة، و هذا السّراجُ المنير، يتولّى وظيفتين، فمن جهة أنّه يُضيء لِلإنسان الطريق إلى اللَّه تعالى، ليعرف الطّريق الصّحيح و الجادة المؤدّية إلى الحقّ و الصّلاح، و يبتعد عن حافّة الهاوية. و من جهةٍ اخرى، فإنّ هذا النّور الإلهى، يؤثّر لا شعوريّاً فى واقع الإنسان، و يتولى إصلاح النّفس فى خطّ التّربية الأخلاقيّة، و يساعدها فى عمليّة التّكامل و الرّقى. و كَنموذجٍ على ذلك، ما نقرأه فى الحديث المرفوع عن «هِشام بن الحَكم»، و مناظرته مع «عَمرو بن عُبيد»، العالم بِعلم الكلام السّنى، عندما ذَهب هشام إلى البصرة، و أجبره ببيانٍ لطيفٍ و منطقى، على الإعتراف بِلزوم وجود الإمام فى كلّ عصرٍ و زمانٍ. قال هشام: بلغنى ما فيه عَمرو بن عبيد، و جلوسه فى مسجد البصرة، فعظُم ذلك علىّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مَسجد البَصرة، فإذا أنا بحلقةٍ كبيرةٍ فيها عَمرو بن عبيد، و عليه شَملةٌ سوداءٌ، متّزراً بها، من صوفٍ و شملةٌ مرتدياً بها، و النّاس يسألونه، فإستفْرَجت النّاس فأفرَجوا لى، ثمّ قَعدت فى آخر القَوم، على رَكبتى، ثم قلت: أيّها العالم، إنّى رجلٌ غريبٌ تأذن، لى فى مسألةٍ!. فقال لى: نَعم. فقلت له: أَلك عَينٌ؟ فقال: يا بُنىّ أىّ شىءٍ هذا السّؤال، و شىء تراه كيف تَسأل عنه. فقلت: هكذا مَسألتى. فقال: يا بُنىّ سَلُ وإن كانت مَسألتك حَمقاء. قلت: أجبنى فيها. قال لى: سَلْ. قلتُ: ألكَ عينٌ؟ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۳۳ قال: نَعم. قلت: فما تَصنع بها؟. قال: أرى بها الألوان والأشخاص. قلت: ألكَ أنفٌ؟ قال: نَعم. قلتُ: فما تصنع به؟ قال: أشمُّ به الرّائحة. قلتُ: ألكَ فمٌ؟ قال: نَعم. قلتُ: فما تصنع به؟. قال: أذوقُ بِهِ الطّعام. قلت: ألك اذنٌ. قال: نَعم. قلتُ: فما تصنع بها؟. قال: أسمع بها الصّوت. قلت: أَلك قلب؟. قال: نعم. قلتُ: فما تصنع به؟ قال: امیّز به كلّما ورد على هذه الجَوارح و الحَواس. قلتُ: أوَ لَيس فى هذه الجَوارح غِناً عن القلب؟. فقال: لا. قلتُ: و كيف ذلك، و هى صحيحةٌ سليمةٌ؟. قال: يا بُنى إنّ الجوارح إذا شكّت فى شىءٍ، شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته، ردّته إلى القَلب الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۳۴ فيسْتَيقِن اليَقين و يُبطل الشّك. فقلت له: فإنّما أقام اللَّه القلب؛ لِشّك الجَوارح؟. قال: نعم. قلتُ: لابدّ من القلب، و إلّالم تَستَيقن الجوارح؟. قال: نعم. فقلتُ له: يا أبا مَروان، فاللَّه تَبارکَ و تعالى، لم يترک جوارحک حتّى جَعل لها إماماً، يُصحّح لها الصّحيح، و يتيقّن له ما شکّ فيه، و يترک هذا الخَلق كلّهم فى حِيرتهم و شَكّهم و إختلافهم، لا يُقيم لهم إماماً يردّون إليه شَكّهم و حِيرتهم، و يُقيم لَک إماماً لِجوارحک، تردّ إليه حيرتک و شَکّک؟ قال: فَسكت ولم يقل شَيئاً، ثم إلتفتَ إلىّ، فقال لى: أنتَ هُشام بن الحَكم؟، فقلتُ: لا. قال من جُلسائه؟، قلت: لا، قال: فَمن أَنتَ، فقلت: من أهلِ الكوفة. قال: فأنت إذاً هوَ، ثمّ ضمّنى إليه، و أقعدنى فى مَجلسه، وزالَ عن مجلسه، و ما نطَق حتّى قُمت. قال: فَضحِک أبوعبداللَّه عليه السلام، و قال: يا هُشام من عَلّمک هذا؟. قلتُ: شىءٌ أخذته منک، و ألّفته. فقال الإمام: «هذا واللَّه مكتوبٌ فى صُحف إبراهيم وَ موسى». «۱» نعم، فإنّ الإمام بمنزلةِ القَلب، لِعالَم الإنسانيّة، و هذا الحديث يمكن أن يكون إشارةً، لِلولاية و الهداية التّشريعيّة أو التّكوينية، أو الإثنين معاً. و كذلک ما ورد، فى حديث أبى بَصير وجاره التوّاب، هو شاهدٌ آخر على هذا المَطلب: قال أبو بَصير: كان لى جارٌ يتبع السّلطان، فأصابَ مالًا فإتّخذ قِياناً، و كان يجمع الجَموع و يشربُ المُسكِر و يُؤذينى، فشكوته إلى نفسه غيرَ مَرّة، فلم يَنتَهِ، فلّما ألحَحتَ عليه، قال: يا هذا أنا رجلٌ مُبتلى، و أنت رجلٌ معافى، فلو عرّفتنى لِصاحبک رَجوتُ أن يَستنقذنى اللَّهُ بک، فوقع ذلک فى قلبى، فلما صِرت إلى أبى عبداللَّه عليه السلام، ذكرتُ له حاله. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۳۵ فقال لى: «إذا رجعت إلى الكُوفة، فإنّه سيأتيک، فقل له: يقول لک جعفر بن محمد: دعْ ما أنت عليه، و أَضمِنْ لک على اللَّه الجنّة». قال أبو بَصير: فلمّا رجعت إلى الكوفة، أتانى فيمن أتى، فاحْتبستُه حتّى خَلا منزلى. فقلت: يا هذا، إنّى ذكرتُک لأِبى عبداللَّه عليه السلام، فقال: «أَقرِأه السّلام و قل له: يترک ما هو عليه، و أَضمن له على اللَّه الجَنّةَ». فَبَكى، ثمّ قال: اللَّه، قال لک جعفر عليه السلام هذا؟ قال: فحلفت له، أن قال لى ما قلت لک. فقال لى: حَسبُک وَمَضى، فلما كان بعد أيّامٍ بعث إلىّ و دعانى، فإذا هو خَلف باب داره عُريان. فقال: يا أَبا بصير، ما بقى فى منزلى شىءٌ، إلّاو خرجت عنه، و أنا كما ترى. فَمشيتُ إلى إخوانى، فجمعت

له مـا كسوته به، ثمّ لم يـأت عليه إلّاأيّامـاً يسيرةً، حتّى بعث إلىّ: أنّى عليل فآتْنى، فجعلت أختلف إليه، و اعالجه حتّى نزل به الموت. فكنت عِنده جالساً و هو يجود بنِفسه، ثم غُشـى عليه غشيةً ثم أفاق، فقال: يا أبا بَصير، قد و فّى صاحبك لنا، ثم مات، فَحَججت فأتيت أباعبداللّه عليه السـلام، فإستأذنت عليه، فلمّا دخلت قال مبتدئاً من داخل البيت، وإحدى رجليّ فى الصّحن والاخرى فى دهليز داره: «يا أبا بَصـير قد وفيّنا لصاحبك». «۱» بالطّبع يمكن أن يقال: إنّ هـذا الحـديث حمل فى طيّاته، جانب التّوبـة العاديّـة المعروفـة بين الناس، ولكنّنـا نقول: إن ذلك الرّجل المـذنب والمليء بالمعاصـى، من رأسه إلى أخُمص قـدمه، لم يكنِ ليُغيّر طريقـة حياته، و اتّخاذه جانب الصّـلاح و الفلاح، و على حدّ إعترافه هو، بأنّه لولا الإمام عليه السـلام و عنايته، لم يكن له أن يتحول من دائرة الظّلمة و المعصـية، إلى دائرة النّور والهدايـة. و يوجـد إحتمالٌ قويٌّ، و هو أنّ هذا الإنقلاب و التّحول، فى روح و سـلوك هذا الرجل المذنب المسـتعد لِلتوبة، كان بسـبب التّدخل الرّوحى للإمام عليه السلام، و تصرفه فى محتواه النّفسى، و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۳۶ ذلك لوجود نقطةٍ مضـيئةٍ و بصـيصٍ من الأمل فى أعماق قلبه، و هو تمسّـكه بالولايـة، حيث أدّى إلى أن يتحرّك الإمام عليه السلام إلى نجدته و إنقاذه، فى آخر لحظات حياته و أيّام عمره. و النّموذج الآخر لهذا التّأثير المعنوى، و الولايـة التكوينيّة فى تهذيب النّفوس المستعدّة، هو ما نقله العلّامـة المجلسـى رحمه الله فى بحـار الأنوار، عن الإمام الكاظم عليه السـلام، و الجاريـة التى أرسـلها هارون إليه. فقـد وَرد أنّ هارون الرّشـيد، أنفـذَ إلى موسـى بن جعفر عليه السـلام جاريـةً خصـيفةً، لها جمالٌ و وضاءةٌ لتخـدمه فى السّـجن، فقال له: «بَل أَنْتُم بِهَدِيّتِكُم تَفرَحُونَ» «۱»، لا حاجة لى فى هذه و لا فى أمثالها، قال: إسـتطار هارون غَضباً، و قال: إرجع إليه وقل له: ليس بِرضاك حبَسناك، و لا بِرضاك أخذناك، و إترك الجارية عنده و إنصـرف. قال: فَمضى و رجع، ثم قام هارون عن مجلسه، و أنفذَ الخادم إليه ليتفحص عن حالها، فرآها ساجدةً لربّها لا ترفعُ رأسـها، تقول: قُدّوسٌ سُـبحانك سُبحانك. فقال هاورن: سَحرها و اللّه موسى بن جعفر بسحره، علىّ بها، فأتى بها و هى تَرتَعـد، شاخصةً نحو السّـماء بصـرها، فقال: ما شأنك؟. قالت: شأنى الشّأن البديع، إنّى كنت عنده واقفةً، و هو قائمٌ يصلّى ليله ونهاره، فلمّا إنصرف عن صلاته بوجهه، و هو يسبّح اللّه و يقدّسه، قلت: ياسيّدى هلْ لك حاجة اعطيكها؟ قال: وما حاجتى إليـك؟ قلت: إنّى ادخلت عليك لِحوائجك. قال: ما بالُ هؤلاء؟. قالت: فَالتفتُ فإذا روضـةٌ مزهرةٌ، لا أبلغ آخرها من أوّله بنظرى، ولا أوّلها من آخرها، فيها مجالسُ مفروشةٌ بالوِشىّ و الدّيباج، و عليها و صفاً وَ وَصائِف، لم أر مثل وجوههم حُسناً، و لا مِثل لباسهم لِباساً، عليهم الحَرير الأخضـر، والأكليلُ و الـدّر و الياقوت، و فى أيـديهم الأباريق و المَناديل، و من كلّ الطّعام، فخَررت ساجـدةً حتّى أقامنى هذا الخادم؛ فرأيت نفسى حيثُ كنت. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۳۷ فقال هارون: يا خبيثة، لعلّكِ سجدت فَنمت فرأيت هذا فى مَنامك؟. قالت: لا واللّه ياسيّدى، إلّاقبل سُـجودى، رأيت فسـجدت من أجلِ ذلك. فقال هاورن: إقبض هذه الخبيثة إليك، فلا يسمع هـذا مِنها أحد، فأقبلت فى الصّـلاة، فإذا قيل لها فى ذلك، قالت: هكذا رأيتَ العَبد الصّالح عليه السـلام، فسئلت عن قولها، قالت: إنّى لمـا عَيِيت من الأـمر نادتنى الجوارى، يا فلانـة أبعـدى عن العبـد الصّالـح، حتّى نـدخل عليه، فنحن له دونك، فما زالت كـذلك حتّى ماتت، و ذلك قبل موتِ موسـى عليه السـلام بأيّامٍ يسيرةٍ «۱». و فى هـذه القصّـة، نشاهد نموذجاً آخر من تأثير الإمام عليه السـلام، فى روح تلـك الجاريـة المسـتعدّة للتّربيـة و الإصـلاح الرّوحى، و الهدايـة فى طريـق الحقّ و العودة إلى اللّه تعـالى. والخلاصـة: أنّ تـاريخ الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، و الأئمّة الهداة عليهم السـلام، حافل بمثل هذه الحوادث، حيث يتّفق لبعض الأشـخاص، أن يلتقوا مع النّبى أو الإمام، فينقلب مَساره فى حركـة الحياة و الواقع و يتغيّر كلياً، و يتحوّل إلى النّقطـة المقابلـة، فى حين أنّ هـذا التغيّر، ما كان ليحصل بواسطة الأسـباب العاديـة، بحسب الظّاهر، و هـذا الأمر يـدلّ على أنّ الإنسان الكامل، هو الذى تولى هذه العمليّة التغييريّة، فى هؤلاء الأشـخاص من خلال التّصرف و التّدخل فى النّفوس، و هو ما نسمّيه بالولايـة التكوينيّة. و من المؤكّد أنّ هذه العنايـة، و اللّطف و التّوجه، لم يكن إعتباطاً، بل هو لوجود نقاط قوّة فى شخصـيّة الفرد المُعتنى به، لتشـمله العنايـة الإلهيّة، بواسطة الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمّة الطّاهرين عليهم السلام.

كلام العلّامة الشّهيد المطهّرى:

نترك الكلام و القَلم هنا، للعلّامة الشّهيد المطهّرى قدس سره، حيث يقول فى كتابه: «ولاءها و الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۳۳۸ ولايتها»: (تستعمل هاتين الكلمتين عادة فى أربع موارد: و لاء المحبة: (أى المحبّة لأهل البيت) عليهم السلام، و ولاء الإمامة، بمعنى التّأسى بالأئمّة عليهم السلام، و جعلهم القدوة لأعمالنا و سلوكيّاتنا، و ولاء الزّعامة، بمعنى حقّ القيادة الاجتماعيّة والسّياسية للأئمّة عليهم السلام، و ولاء التّصرف، أو الولاء الرّوحى و هو أسمى هذه المراحل). و بعدها يوضّح الأوّل و الثّانى و الثّالث، ثمّ يعرج على المعنى الرّابع، الذى هو مورد بحثنا و يقول: (إنّ التّصرف الرّوحى والمعنوى، هو نوعٌ من القُدرة و التّسلط الخارق للتكوين، بمعنى أنّ الإنسان و من خلال عبوديّته الحقّة للّه‌تعالى، يحصل على مقام القُرب الإلهى المعنوى و الرّوحى، و نتيجة لهذا القُرب، يصبح إنساناً كاملًا، يتحرك فى طريق هداية الناس نحو المعنويات، و يتسلط على الضّمائر، وتكون له قدرة الشّهود على الأعمال، و بالتّالى يصير حُجّة اللَّه فى زمانه! فمن وجهَة نظر الشّيعة، أنّ كلّ زمان لا يخلو من إنسانٍ كاملٍ، يتمتع بقدرة التّصرف الغيبى فى العالم والإنسان، و ناظرٌ و شاهدٌ على الأرواح والقلوب، وهذا الإنسان هو حجّةُ اللَّه على الأرض. و المقصود من التّصرف، أو الولاية التكوينيّة، ليس كما يعتقد بعض الجهّال، من أن يتولى الإنسان الكامل، مسألة القَيوميّة و التدبير فى العالم، بحيث يكون الخالق و الرّازق و المفوض، من جانب اللَّه تعالى. و هذا الإعتقاد، رغم أنّه لا يعتبر شركاً، بل هو كما ورد فى القرآن، بالنّسبة إلى الملائكة: «المُدَبِّراتُ أَمرَاً وَالمُقَسِّماتِ أمراً»، فهو بإذن اللَّه تعالى، والقرآن يُخبرنا أنّ لا نَنسب مسائل الخلقة و الرّزق والموت و الحَياة، إلى غير اللَّه تعالى. ولكن المقصود، هو أنّ الإنسان الكامل، ولقربه من اللَّه تعالى، يصل إلى مرحلةٍ تكون له الولاية فى التّصرف فى: (بعض امور) العالم. ثم يضيف قائلًا: ويكفى هنا أن نشير إشارةً إجماليةً إلى هذا المطلب، وتوضيح اسسه بالإعتماد و على المفاهيم و المعانى القرآنية، لِئلّا يعتقد البعض، أنّ هذا جزافاً من الكلام. الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۳۳۹ فلا شك أنّ مسألة الولاية، بمعناها الرّابع، هى من المسائل العرفانيّة، و مجرد كونها عرفانيّة، لا يعنى نكرانها بالكامل. ثمّ يشرح بإسهاب، معطيات القرب من اللَّه تعالى، و يستنتج منها، ما يلى: فعلى هذا الأساس، من المحال على الإنسان، و بعد قربه و طاعتِه للَّهِ تعالى، ألّا يصل إلى مقام الملائكة، بل وأرقى، أو على الأقل يساوى الملائكة فى مقامهم، الملائكة التى تدبّر و تتصرف فى عالم الوجود، بإذن اللَّه تعالى» «۱». ويمكن أن نخرج من هذا الحديث بنتيجة، و هى أنّ العلاقة المعنويّة، و الإرتباط بالإنسان الكامل، يمكن أن يساعد الإنسان فى عمليّة التّصرف، و النّفوذ فى حياة الاناس المستعدّين والمتقبلين للإصلاح، وسوقهم تدريجياً فى خطّ التّهذيب الأخلاقى، و إبعادهم من جو الرّذائل إلى جو الفضائل الأخلاقية والكمالات الروحيّة.

الاستغلال السّيىء:

تتعرض المفاهيم البنّاءة و الصّحيحة، للُامم و الشّعوب فى كلّ زمانٍ و مكانٍ للإستغلال و التّحريف دائماً، و هذا الإستغلال فى الحقيقة لا يؤثر على صحة و قداسة أصل المسألة. ولم تكن مسألة القدوة الأخلاقيّة فى خطّ التربية و التّهذيب، و لزوم الإستفادة من الاستاذ العامّ و الخاصّ، لأجل السّلوك إلى اللَّه و تهذيب الأخلاق، مستثناة من هذا الأمر، فجماعةُ من الصّوفيّة طَرحوا أنفسهم، بعنوان: «مُرشد» أو «شيخ الطّريقة» و «القُطب»، و دعوا الناس لإتّباعهم و التّسليم المُطلق إليهم، بل و تعدّوا الحُدود، و قالوا إذا ما شاهدتم سلوكاً يصدر من الشّيخ، مخالفاً للشريعة، فلا عليك و لا ينبغى عليك الإعتراض، لأنّ ذلك يخالف روح التّسليم المُطلق للمرشد. و يُستفاد ومن كلمات «الغزالى»، المؤيد للصّوفية، فى فصولٍ متعددّةٍ من كتابه «إحياء العلوم»، هذا المعنى أيضاً، حيث يُشمّ منها رائحة الصوفيّة، و الحقيقة أنّ فِرقاً من الصّوفية، الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۳۴۰ تعتبره من كبار أعلامها، فقد قال فى الفصل (۵۱) من الجزء الخامس، الباب الخامس: (نَظَرُ الصّوفية إنّ أدب المريدين فى مقابل شيوخهم هو، أن يجلس المريد مقابل الشّيخ مسلوب الإختيار، فلا يتصرف فى نفسه وماله إلّابأمره ... و أفضلُ أدب المُريد أمام الشّيخ: هو السّكوت و الخمود و الجمود، إلى أن يملى عليه

شيخه، ما يراه له صلاحاً فى أعماله و أفعاله ... و كلّما رآى من شيخه خِلافاً، و عسُر عليه فهمه، تذكّر حكاية مُوسى و الخِضر عليهما السلام، فإنّ الخضر قد عمل أعمالًا أنكرها مُوسى، ولكن عندما كشف له الخِضر أسرارها إنتبه مُوسى، وعليه فكلّما فعل الشّيخ، كان له عُذراً بلسان العِلم و الحِكمة» «۱». و يقول العارف العطّار، فى أحوال يوسف بن حسين الرّازى، عندما أمره ذو النّون المَصرى: (مرشده)، الخُروج من بلدِه والعودة إلى دياره، طلب يوسف منه برنامجاً يعمل به، فقال له ذُو النّون: عليك بنسيان ما قرأته، و امح كلّ ما كتبته، ليُزال الحِجاب!. ونقل عن أبى سعيد، قوله للمُريدين: «رَأسُ هذا الأمر، كَبْسُ المَحابِرِ وَ خرَقُ الدَّفاتِرِ وَنِسيانِ العِلم» «۲». ونقل عن أحوال و حالات «أبو سعيد الكندى»، أنّه كان قد نزل فى الخانقاه، و إجتمع عنده جمعٌ من الدّراويش، وكان يطلب العلم سرّاً، وفى يوم من الأيّام سقطت من جيبه محبرةٌ، فإنكشف سرّه: «و هو أنّه من هواة تحصيل العلم»، فقال له أحد الصّوفيين: (استر عليك عَورتك) «۳». ولا شك فإنّ الجو الحاكم هناك، كان نتيجةً لتعاليم مرشدهم فى هذا الأمر، ولكنّ الحقيقة أنّ الاسلام قد أكّد على خلاف هذا المسلك، ففى الحديث الوارد عن الصّادق عليه السلام، عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «وُزِّنَ مِدادُ العُلَماءِ بِدِماءِ الشُّهَدَاءِ، فَرُجِّحَ مِدادُ العُلَماءُ عَلى دِماءِ الشُّهَدَاءِ» «۴». فانظر إلى الفرق بين المسلكين!!. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۴۱ و لأجل الإطّلاع على كيفيّة التّحريف و الإنزلاق فى منحدر الإفراط و التّفريط، و كيف تنحرف مسألةٌ معينةٌ عن المنطق و الشّرع، لدى وقوعها بأيدى مَنْ لا أهليّة له، على التّنظير فى امور الدّين؟، و كيف تَتعرض للإستغلال و التّشويه، علينا إلقاء نظرة على كلام: «كيوان القِزوينى المُلقّب ب منصور على شاه»، حيث يُعتبر من أقطاب الصّوفية، فقد بيّن حدود و صلاحيّات القُطب، و قال: «لِلقطب أن يدّعى عشرةَ خُصوصيّات: ۱- أنّ عندى باطنُ الولاية التى كانت عند الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ... مع فرقٍ واحدٍ هو، أنّه المؤسس وأنا المروّج والمدير والحارس!. ۲- عندى القُدرة على تربية الأفراد، و تهذيب نفوسهم، و إزالة العناصر الخبيثة و الخصائص الشّريرة، فى واقعهم ونزعها ونقلها إلى الكفّار. ۳- أنا حرّ من قيود الطّبع و النّفس. ۴- يجب أن تؤدى جميع عِبادات و مُعاملات المُريدين، بإجازةٍ و موافقةٍ منّى. ۵- كلّ إسم القّنه لِلمُريدين، و أجيزهم بذكره فى القلب أواللّسان، يكون هو ذلك الإسم فقط هو اللَّه، ويسقط الباقى من درجة الإعتبار. ۶- كلّ المعارف الدينيّة و العقائديّة، إن كانت قد حصلت بموافقتى، فهى صحيحة، وإلّا فهى عينُ الزّيف، و مَحض الخَطأ. ۷- أنا مفترضُ الطّاعة، و لازمُ الخِدمة، و لازم الحفظ. ۸- أنا حرٌّ فى عقائدى. ۹- أنا ناظرٌ للأحوال القَلبيّة لمريدىّ دائماً. ۱۰- أنا قسيم النّار والجنّة «۱». هذا الكلام أشبهُ بالهَذيان منه إلى البَحث المَنطقى، رغم أنّه قد لا يقبله أغلب الصّوفيين، ولكن مجرد أنّه يرى نفسه بعنوان: «قُطب»، و إدّعائه أن للأقطابِ، إختياراتٌ و صلاحيّاتٌ لم الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۴۲ يدّعيها حتى الأنبياء لأنفسهم، فإن ذلك يكفى، فى تبيان مدى إستغلال هؤلاء المدّعين، لمثل هذه العناوين الضّبابيّة و حاجة الناس للمعلم، فى أمر التّسير و السّلوك إلى اللَّه تعالى، و ما يمكن أن يترتّب على ذلك، من عواقبِ سلبيّةٍ على مستوى، سَوقِ النّاس فى خَطّ الباطل. فهذه الإدّعاءات، بعض منها من خواصّ الأنبياء، والاخرى لم يجرء على ادّعائها أحد من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، و أىّ شخصٍ له قليلٌ من الإلمامٌ بالدّين، سيتوجه إلى فَضاعةِ الأمرِ و خُطورته. و إذا ما رَجعنا إلى كُتب أهل التّصوف، مثل، «تَذكرة الأولياء» لِلشيخ العَطار، و «تاريخ التّصوف»، و «نفحات الانس»، و بعض أبحاث «إحياء العُلوم»، نرى أنّ الإدّعاءات و الخُصوصيّات التى يضعوها لِلأقطاب، و شيخُ طريقتهم: فضيعةٌ، و لذلك فإنّ بعض مُحقّقى الشّيعة وفقهائهم، و قفوا بِشدّةٍ و قوّةٍ، مقابل هذه الطّائفة، حتى أنّ هذا الموقف تسبّب بإيذاء بعض الّذين يتعاملون مع المفاهيم الدينيّة، من موقع الجهل و السطحيّة، لكن الحقيقة أنّ المثقفين و المطّلعين، يعلمون أنّ إطلاق العِنان لمثل هذه الأفكار المُنحرفةُ من شأنه أن يَقضى، على فُروعِ و اصولِ الدّين الحَنيفِ بصورةٍ كاملةٍ. نَصل هُنا و إيّاكم إلى نِهاية أبحاثنا، عن كلّيات المسائل الأخلاقيّة، فى ظلّ الآيات القرآنية، أبحاثٌ تعتبر الأساس و القاعدة الّتى يقومُ عليها صَرحُ الأخلاق و تهذيب النّفوس، و تفتحُ أمامنا أبواب المباحثِ المستقبليّة، حول مصاديق الرّذائل و الفضائِل، واحدةً بعد اخرى. إلهنا!: «إنّ الوصول إلى أوج الفضائل الأخلاقيّة و الحياة، فى أجواء القُرب منك، لا تُستطاع إلّا بتَوفيقك و تَسديدِك، فَأعنّا بعونَك، وجُد علينا بفضلك، وَ قرّبنا مِنك، و اجعلنا من أصحاب النّفوس المطمئنّة، لندخل فيمن يقعونَ مَورداً لخطابك،: «فَادْخُلى فِى عِبَادِى* وَ ادْخُلى

جَنَّتی». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۴۳ رَبّنا!: إنّ حَبائلَ الشّیطانِ قویّةٌ، و سهامَه مَهلکةٌ، وهوی النّفس عدوٌّ لا یرحم، و رذائل- النّفس کالأشواک تُوخز الرّوحَ و تُؤذیها، و لا یُنجینا من ذلک کلّهُ إلّاعنایتُک الخاصّة و لطفُک الخَفی. ربّنا!: إننا نُسلّمُ الأمرَ إلیکَ فی خِتام حدیثنا، و نقرأ الدّعاء المعروفَ الواردَ عن الرّسول الکریم صلی الله علیه و آله، و نقول: «اللَّهُمَّ لا تَکِلنِی إلی نَفْسِی طَرفَةَ عِینٍ أَبَداً» «۱». تمّ والحمد للّه الجزء الأول من کتاب الأخلاق فی القرآن فی ۲۴/ ۳/ ۱۳۷۶ ه. ش المصادف ۸/ صفر ۱۴۱۸ ه. ق

الجزء الثانی

الأخلاق الحسنة والسیئة فی القرآن

مقدّمة (منهج البحث):

تعرضنا فی الجزء الأوّل من هذا الکتاب (الأخلاق فی القرآن) إلی الاصول العامة فی المسائل الأخلاقیة والمناهج المختلفة لتهذیب النفس، والمذاهب الأخلاقیة، والدوافع والنتائج وقد بحثنا هذه المواضیع والمسائل بالتفصیل علی ضوء ارشادات وتعالیم القرآن الکریم علی شکل تفسیر موضوعی. ونری الآن أنّ الوقت قد حان لبحث جزئیات الفضائل والرذائل الأخلاقیة بالاستفادة من تلک الاصول العامة واستعراض مواردها علی ضوء تعلیمات الوحی والآیات القرآنیة. ومن ذلک سنتعرض فی هذا المجال للفضائل والرذائل الأخلاقیّة علی مستوی الآثار والنتائج والعواقب الإیجابیة والسلبیة لکلّ واحدة منها، وبالتالی طرق الوقایة من الرذائل الأخلاقیة ومعالجتها وکیفیّة کسب الفضائل والملکات الأخلاقیة الحمیدة. ولدی ورودنا فی هذا الموضوع وهذه الدراسة تأمّلنا کثیراً فی المناهج والنظم الدراسیة والعلمیة الّتی یمکن الاستفادة منها فی هذا البحث العمیق، فهل ینبغی البحث علی مستوی المناهج الیونانیة فی تقسیم الأخلاق إلی أربعة أقسام (الحکمة، العدالة، الشهوة، الغضب)؟ فی حین أنّ هذا التقسیم لا یتلاءم ولا ینسجم مع الآیات القرآنیة الّتی نرید دخول هذا البحث من خلالها وعلی ضوئها، ولا- أنّ هذا المنهج خال من العیوب والنقائص الّتی تمّت الإشارة إلیها فی الجزء الأوّل. أم أنّ ترتیب الفضائل والرذائل ینبغی أن یکون علی مستوی ترتیب حروف الالفباء، فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶ حین أنّ هذا المنهج یختلف کثیراً عن منهج الدراسة المنطقیة ولا ینسجم معها کثیراً. أم ینبغی أن نقرر هذه الدراسة وفق منهج المذاهب الشرقیة والغربیة فی المسائل الأخلاقیة فی حین أنّ کلّ واحدة من هذه المذاهب لا تخلو من مشکلة أو مشکلات منهجیة، مضافاً إلی أنّها لا تتناغم مع التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم والّذی نزمع دراسة القیم الأخلاقیة علی ضوئه. وفجأة وبلطف الله والالهام الباطنی تجلّی لنا منهج جدید فی استیحاء المفاهیم الأخلاقیة من القرآن الکریم، وهو أننا نعلم أنّ القرآن الکریم خصّص قسماً مهماً من أبحاثه الأخلاقیة والسلوکیة فی ضمن دراسته لسلوکیات الأقوام السالفة وتاریخ المجتمعات البشریة الماضیة وما ترجمه الأوائل علی المستوی العملی من أخلاق وقیم وفضائل کانت تتحرک فی تلک المجتمعات الإنسانیة وبالتالی الکشف عن عواقب تلک السلوکیات وعرض نتائج تلکم الأعمال والممارسات الأخلاقیة، وللانصاف فإن القرآن الکریم بحث المسائل الأخلاقیة فی دائرة التجربة العینیة والخارجیة فی اطار ممارسة الأقوام السالفة لتتضح النتائج المترتبة علیها لکلّ قارئ ومستمع إلی هذا التاریخ الغابر، ویخرج منها بنتائج عملیة وعمیقة. ولهذا السبب رأینا أنّ من الأفضل فی معیار نظم المباحث الأخلاقیة وبالنظر إلی السیاق الّذی یحکم دراساتنا الماضیة فإننا سوف نجعل من هذه الدراسة التاریخیة للقرآن الکریم معیاراً حاکماً فی هذه المباحث العلمیة والأخلاقیة. وبعبارة اخری إننا بحثنا هذه المواضیع من قصة آدم وحواء ووسوسة آدم وهبوطهما من الجنّة وما ترتّب علی ذلک من سلوکیات سلبیة أدّت إلی هذه الواقعة التاریخیة من طرد الشیطان الرجیم من مرتبة القرب الإلهی وحرمان آدم وحواء من الجنّة وأمثال ذلک، ونعلم أنّ الشیطان قد طُرد من الجنّة والمرتبة السامیة بسبب (الاستکبار) و (الإنانیة) و (العجب) وبالتالی بسبب (العناد والتعصب) حیث رفض السجود لآدم، وکذلک وقع آدم وحواء فی مصیدة الشیطان بسبب (الحرص) وحیث أکلا من ثمرة الشجرة الممنوعة بدوافع من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص:

۷ وساوس الشیطان، ثمّ تصل النوبـة إلى قصة (هابیل) و (قابیل) وما تضـمنت هذه القصة من صـفات قبیحة کانت هی الدافع على قتل هابیل، ثمّ نصل إلى قصـة نوح وما جرى على الأقوام البشـریة من الطوفان وکذلک الحوادث الّتی جرت على قوم بنی إسـرائیل ونبیهم موسـى وما تضـمّنته من سیرة الأنبیاء من الفضائل والمکارم الأخلاقیة فی ذلک الوسط المنحرف والّذی تسبّب بأنواع الأذى والعقوبات الإلهیـة على هؤلاء القوم. هـذا المنهـج مضافـاً إلى کونه جـذاباً ومشوّقـاً فـإنه یتنـاغم مع سـیاق البحوث القرآنیـة وتتجلّى فیه الفضـائل والرذائـل الأخلاقیـة فی صورة تجسـید عینی لهـا فی حرکـة الإنسان والواقع الاجتماعی على مسـتوى الحس والتجربـة. نسأل اللَّه تعالى توفیقنا وجمیع أفراد المجتمع للتخلص من آثار الرذائل الأخلاقیة الّتی تبدل المجتمع إلى جهنم وإلى نار محرقة، ونسأله تعالى أن یهب لنـا التوفیق للتحرک من موقع الفضائل والمکارم الأخلاقیـة الّتی تصـبغ قلوبنا بالصـفاء والطمأنینـة وتهب لنا السـعادة والمراتب المعنویة السامیـة فی حرکـة الإنسان التکاملیة، أی مرتبة القرب من اللَّه تعالى. (آمین یا ربّ العالمین). ربیع الأوّل ۱۴۲۰ ه. ق قم- ناصر مکارم الشیرازی

التکبّر والاستکبار

تنویه:

إنّ أوّل صـفة من الصـفات الأخلاقیـة الذمیمـة وأوّل رذیلـة نقرأهـا فی تاریـخ الأنبیـاء وبدایـة خلقـة الإنسـان، وکما یعتقـد أکثر علماء الأخلاق أنّها أُمّ المفاسد والرذائل الأخلاقیة وأصل جمیع أنواع الشـقاء الإنسانی، هی (التکبر والاستکبار) والّتی وردت فی قصة إبلیس عنـدما خلق اللَّه سـبحانه وتعالى آدم وأمر الملائکـة وکـذلک إبلیس بالسـجود له. هذه القصة المثیرة والمعبّرة هی قصة محذرة وملیئة بالعبر لجمیع الأفراد والمجتمعات البشـریة، والجدیر بالذکر أنّ النتائج والعواقب الوخیمة للتکبّر والاستکبار لا تتجلّى فی قصة خلق آدم فحسب، بل نراها متجلیة على طول الخط فی سیرة الأقوام السالفة من تاریخ الأنبیاء ومدى الدور المخرب والمدّمر لهذه الصفة الذمیمة فی حرکـة الإنسـان والمجتمع البشـری. والیوم نرى أنّ مسألـة الإسـتکبار لهـا الـدور الأـوّل فی خلق الأـجواء الفاسـدة وزیـادة المفاسـد الأخلاقیة والإجتماعیة فی العالم والمجتمعات البشـریة المعاصرة وتعد بحقّ البلاء الکبیر على واقع الإنسانیة المعاصرة والحضارة البشریة الفعلیـة والّتی لا نجد صدىً واسـعاً وتجاوباً من قِبل المفکّرین والمصـلحین فی إصـلاح هذا الخلل الکبیر الّذی یتعرض له الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰ المجتمع البشری من جراء هذه الصفة الرذیلة. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الشریفة مـا یرشـدنا ویُلقی بـالضوء على هـذا البحث، أی الآیـات المتعلّقـة بسـیرة آدم إلى سـیرة نبیّنا الأکرم فی دائرة آثار ودوافع هـذه الصـفة الأخلاقیة الذمیمة. ۱- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِکَةِ اسْـجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَـجَدُواْ إِلَّا إِبْلِیسَ أَبَى وَاسْـتَکْبَرَ وَکَانَ مِنَ ا لْکَافِرِینَ» «۱». ۲- «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَـا یَکُونُ لَکَ أَن تَتَکَبَّرَ فِیهَا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصـغِرِینَ» «۲» ۳- «وَإِنِّی کُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصـبِعَهُمْ فِی ءَاذَانِهِمْ وَاسْـتَغْشَوْاْ ثِیَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَکْبَرُواْ اسْتِکْبَاراً» «۳». ۴- «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَکْبَرُواْ فِی ا لْأَرْضِ بِغَیْرِ ا لْحَقّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ یَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَکَـانُواْ بِآیَاتِنَا یَجْحَـدُونَ» «۴». ۵- «قَـالَ ا لْمَلَأُ الَّذِینَ اسْـتَکْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّکَ یَا شُـعَیْبُ وَالَّذِینَ ءَامَنُواْ مَعَـکَ مِن قَرْیَتِنَـآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ کُنَّا کَارِهِینَ» «۵». ۶- «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَـى بِالبَیّنَاتِ فَاسْتَکْبَرُواْ فِی الْـأَرْضِ وَمَـا کَانُواْ سَابِقِینَ» «۶» ۷- «لَتَجِـدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـدَا وَةً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ ا لْیَهُودَ وَالَّذِینَ أَشْـرَکُواْ وَلَتَجِـدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ الَّذِینَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّیسِینَ وَرُهْبَانًا وَأَ نَّهُمْ لَایَسْتَکْبِرُونَ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱ ۸- «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَکْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هذَآ إِلَّا سِحْرٌ یُؤْثَرُ» «۱». ۹- «الَّذِینَ یُجَادِلُونَ فِی ءَایَاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ کَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِینَ ءَامَنُواْ کَـذَلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى کُـلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ» «۲». ۱۰- «قِیـلَ ادْخُلُواْ أَبْوَا بَ جَهَنَّمَ خَالِـدِینَ فِیهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ا لْمُتَکَبِّرِینَ» «۳» ۱۱- «سَأَصْرِفُ عَنْ آیَاتِیَ الَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ یَرَوْاْ کُلَّ آیَةٍ لَّایُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ الرُّشْدِ لَایَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا

وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَیّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۴». ۱۲- «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ ا لْمُسْتَكْبِرِينَ» «۵». ۱۳- «لَنْ يَسْتَنكِفَ ا لْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا ا لْمَلئكَةُ ا لْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتی وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» ۱۴- «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ وَلَايَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِی سَمّ ا لْخِيَاطِ وَكَذَلِکَ نَجْزِی الْمُجْرِمِينَ» «۶».

تفسیر و استنتاج:

البلاء العظیم علی طول التاریخ البشری:

إنّ الآیات القرآنیـة الکریمـة ملیئـة ببیان مفاسـد الاسـتکبار والعواقب الوخیمـة المترتبـة علی التکبّر وکذلک المشـکلات البشـریة الّتی تزامنت وترتبت علی هـذه الصـفة الذمیمـة علی طول التاریـخ البشـری وتأثیر هذه الصـفة الرذیلة السـلبی فی تقدّم وتکامل الإنسان فی أبعـاده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲ المعنویـة والمادیـة حیث لا تخفی علی أحـد، وما قرأنا فی الآیات أعلاه إنّما هو فی الحقیقة ناظرٌ إلی هذا الموضوع. «الآیة الاولی والثانیة» تتحدّث عن إبلیس والقصة المعروفة لسجود الملائکة عندما أمرهم اللَّه تعالی بالسـجود لآدم تعظیماً له وقد کان إبلیس فی ذلک الوقت فی صف الملائکة بسـبب علوّ مرتبته ومقامه، وقد سـجد جمیع الملائکة إلّاإبلیس لأنّه آثر عصـیان الأمر الإلهی وتکبّر علی الحقّ وعلی اللَّه، وبالتالی تمّ طرده من ذلک المقام السامی بسـبب رفضه الصـریح للسـجود وحتّی اعتراضه علی أصـل الأمر الإلهی له، ولـذلک أمره اللَّه تعالی بالخروج من ذلک المقام وتلک المرتبـة إلی أسـفل السافلین حیث تقول الآیـة: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ» «۱». «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَکَ أن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصـغِرِينَ» «۲». وفی الحقیقـة أنّ هـذه أوّل معصـیة وقعت فی عـالم الوجود هـذه المعصـیة هی الّتی أدّت بمخلوق مثل إبلیس والّذی کان قد عبداللَّه سـتة آلاف سـنة (کما ورد فی الخطبة القاصـعة لأمیرالمؤمنین علیه السـلام فی نهج البلاغة) وأُخرج من ذلک المقام بسـبب تکبّر ساعـة فحبطت أعماله وعباداته وطاعاته وسـقط من ذلک المقام الّـذی کان یُعـدّ فیه مع الملائکة حیث یقول أمیرالمؤمنین علیه السـلام: «إذْ احبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ... عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ» «۳». وفی هـذه القصة المثیرة والمعبّرة نقرأ دقائق ونکات مهمّة جداً حول عواقب التکبّر ونسـتوحی منها أنّ هذه الصـفة الرذیلة یمکن أن تؤدی إلی واقع الکفر والخروج من الإیمـان تماماً کمـا ورد فی الآیـات محـل البحث «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ»» .الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳ وهکذا یتجلّی فی هذه القصة أنّ إبلیس وبسبب حجاب الکِبر والغرور قد تعامل مع الواقع من موقع الجهـل التامّ حیث خاطب اللَّه تعالی من موقع الاعتراض والرفض للأمر الإلهی وقال: «قَالَ لَمْ اكُنْ لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسنُونٍ» «۱». فی حین أنّ من الواضح أن شـرف آدم لم یکن لأنّه مخلوق من الطین بل بسـبب تلک النفخة الإلهیة والروح الإلهی الّتی نفخها اللَّه تعالی فی آدم: «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» «۲»، وحتّی إبلیس لم یکن لیدرک افضلیة التراب علی النار، التراب الّـذی صار مصـدر جمیع البرکات فی واقع الخِلقة وظهور الحیاة وأنواع المعادن والذخائر الطبیعیة من الماء والنباتات وسائر المواد الاخری الّتی تتولـد منها النار ولـذلک قال بمنتهی الغرور «خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۳». مضافاً إلی أنّ الکثیر من الأشـخاص الّذین یقعون فی الخطیئة والزیغ فإنّهم قد یعودون إلی مسارهم الفطری والسلیم بعد أن یدرکوا خطئهم ویتحرکوا من موقع إصـلاح الخلل والتوبـة، ولکن حالة التکبّر والإسـتکبار هی من الامور الّتی لا تفسح المجال للإنسان المخطیء فی سـلوک طریق التوبة بعد الانتباه وإدراک الخطأ، ولهذا السـبب فإنّ الشـیطان عندما التفت إلی خطئه لم یتب منه، لأنّ الکبر والغرور لم یسوّغ له أن یتحرک من موقع التسـلیم والتعظیم لجوهر الخلقـة (أی الإنسـان) بـل إنّه زاد من تکبره وعنـاده وأقسم علی إضـلال جمیع النـاس (إلّا عَبـادَ اللَّهِ المخلصـین) وطلب من اللَّه تعالی العمر المدیـد لیستمر فی غیّه ونصب شـراکه وفخاخه لبنی آدم لیضـلهم عن سبیل اللَّه وعن سـلوک طریق الحقّ. وبهـذا فإنّ التکبّر والأنانیـة والعجب وأمثال ذلک تعـدّ مصدراً من مصادر الحالات السـلبیة والصـفات الذمیمة الاخری من

قبيل الحسد، الكفر، الإفساد، ارتكاب الفحشاء والمنكر. وبهذا يكون الشيطان كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى الخطبة القاصعة قد وضع أساس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴ التكبّر والتعصب فى الأرض وعمل على التصدى للقدرة الإلهية المطلقة من موقع العناد واللجاجة: «فَعَدُوُّ اللَّهِ امَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الّذى وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ وَنَازَعَ اللَّهَ رِداءَ الْجَبْرِيَّةِ وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ» «۱». وبسبب هذه الحالة الدنيئة والفعل الدنىء فإنّ اللَّه تعالى قد جعل الشيطان ذليلًا وألبسهُ لباس الهوان والحقارة كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة: «الَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكَبُّرِهِ وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ فَجَعَلَهُ فِى الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَاعَدَّ لَهُ فِى الْآخِرَةِ سَعِيراً» «۲». والخلاصة أنّه كلّما تدبّرنا فى قصة إبليس وافرازات التكبّر والغرور فإننا نستجلى دقائق مهمّة وكثيرة عن أخطار التكبّر والاستكبار. «الآية الثالثة» تتحرك حول استعراض قصة نوح أول أنبياء اولى العزم وصاحب الشريعة، هذه القصة توضح لنا أنّ المصدر الأساسى للكفر وعناد قوم نوح مع نبيّهم يمتد إلى حيث صفة التكبر والاستكبار. فعندما نقرأ الشكوى الّتى تقدّم بها نوح إلى اللَّه تعالى من قومه نجد أنّه يؤكد على هذه المسألة وهى أنّ مخالفتهم نابعة من شدّة استكبارهم حيث تقول الآية: «وَإِنّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصبِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْباراً» «۳». فهنا نرى أيضاً أنّ التكبر ورؤية الذات من موقع الغرور والعجب والتفوق على الآخرين يمثل منبع الكفر والعناد مع الحقّ. لقد كان تكبرهم إلى درجة أنّهم لم يتحملوا حتّى سماع كلام الحقّ والّذى يمكن أن يؤثر فى تنبّههم وإيقاضهم من ضلالهم ولذلك كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵ ثيابهم على رؤوسهم لكى لا يصل إليهم صوت نوح ويتأثروا بهذا الكلام الإلهى الصادر من أعماق الفطرة الإنسانية، فهذا العداء وهذه الكراهية لكلام الحقّ ليس لها مسوّغ ودافع سوى حالة التكبر الشديد الّذى كان يعيشه هؤلاء القوم الظالمون. هؤلاء كانوا يتعرضون لنوح ودعوته ويتساءلون من موقع الاعتراض أنّ نوح كان يحيط به الأراذل من الناس والفقراء والمساكين وأبناء الطبقات الضعيفة من المجتمع، فلذلك قرروا عدم الاقتراب من نوح والجلوس معه ما دام هؤلاء الأراذل والضعفاء بحسب تعبيرهم مع نوح. أجل فإنّ التكبر والأنانية العجيبة الّتى كان يعيشها هؤلاء الناس كانت قد أحرقت الفضائل الأخلاقية فى واقعهم وحوّلتها إلى رماد. وفى الحقيقة فإنّ هذه الرذيلة الأخلاقية وهى التكبر تعدّ عاملًا أساسياً لعنادهم وإصرارهم على الكفر إلى درجة أنّهم كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويغطّون رؤوسهم بثيابهم خوفاً من تأثير كلام نوح فى أنفسهم. ومن الملفت للنظر أنّ هذا العمل إنّما يدلّ على أنّهم كانوا يعترفون فى قرارة أنفسهم بحقّانية دعوة نوح ويعتقدون به ويدل على ذلك وضعهم أصابعهم فى آذانهم وتغطيتهم رؤوسهم بثيابهم. ويُحتمل أيضاً أنّهم كانوا يغطون رؤوسهم بثيابهم لكيلا يروا نوح ولا يراهم نوح فلعلّ رؤيتهم له توجب الأُنس به والرغبة والميل لسماع كلماته. وأخيراً فإنّ حالة العجب والغرور ورّثتهم الجهل وعدم سماع انذارات نوح عليه السلام فى آخر لحظات العمر حيث كانت هناك فرصة للنجاة فلم يكونوا يحتملون صدقه فى هذا الانذار لذلك عندما كان نوح عليه السلام يصنع السفينة فإنّ هؤلاء القوم الظالمين كانوا يمرّون عليه ويهزءون به ويسخرون منه ولكن نوح كان قد حذّرهم بقوله: «... انْ تَسْخَرُوا مِنّا فَانَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» «۱»، ولكن فى ذلك اليوم سوف لا تكون لكم فرصة للتنبّه حيث تحيط الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶ بكم أمواج البلاء والطوفان فلا ملجأ. وأساساً فإنّ أحد علامات المستكبرين هو أنّهم لا يتعاملون مع المسائل الّتى لا تدور فى دائرة مصلحتهم ومنفعتهم من موقع الجديّة بل يتخذونها وسيلة للعب واللهو ويتحركون دائماً من موقع الاستهزاء والسخرية بالمستضعفين حيث يمثل ذلك جزءاً من سلوكهم وديدنهم فى حياتهم، وكم رأينا أنّهم فى مجالسهم ينطلقون للعثور على مؤمن مستضعف ليجعلونه محور سخريتهم وضحكهم، وبذلك يكون هذا السلوك منشأ للترفيه عن أنفسهم، فهؤلاء وبسبب هذه الروح الاستكبارية يرون أنّهم العقل الكلّى ويتصورون أنّ الثروة الّتى اكتسبوها من الطريق الحرام هى علامة وآية لذكائهم ولياقتهم الّتى تبيح لهم أن يتعاملوا مع الآخرين من موقع التحقير والتهميش. وفى «الآية الرابعة» نتجاوز عصر نوح عليه السلام لنصل إلى عصر (قوم عاد) ونبيّهم هود عليه السلام، وهنا نرى أنّ السبب الأساس لشقاء هؤلاء القوم الظالمين هو عامل التكبر وروح الاستكبار المترسخة فى نفوسهم حيث تقول الآية: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» «۱».

وهنا نرى أيضاً أنّ هذه الصفة الأخلاقية الذميمة وهى صفة التكبر والاستكبار كانت سبباً بأن يتصوّروا أنفسهم أقوى الموجودات فى عالم الخلقة وحتّى أنّهم نسوا قدرة اللَّه تعالى وبالتالى تعاملوا مع الآيات الإلهية من موقع الإنكار وأوجدوا جداراً سميكاً بينهم وبين الحقّ. والملفت للنظر أنّ الآية الّتى تليها (الآية ۱۶ من سورة فصلت) تشير إلى أنّ اللَّه تعالى ولأجل تحقير هؤلاء المتكبرين المعاندين قد سلط عليهم اعصاراً شديداً ومهولًا فى أيّام نحسات بحيث جعلت من أجسادهم كالرماد المبثوث وكالريشة فى مهب الريح. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷ أجل فإنّ التكبر يعدّ حجاباً على بصيرة الإنسان يمنعه من رؤية أيّة قدرة فوق قدرته حتّى أنّه لا يرى قدرة اللَّه تعالى على نفسه وأفعاله. وتعبير «بغير الحقّ» هو فى الواقع قيد توضيحى، لأنّ التكبر والاستكبار بالنسبة للإنسان هو بغير حقّ دائماً وبأيّة حالة، فلا يليق بالإنسان أن يتصرّف من موقع التكبر ويلبس هذا الرداء الّذى لا يليق إلّابالقدرة الإلهية المطلقة. «الآية الخامسة» تتحدّث عن زمان شعيب وقومه، وهنا نرى أيضاً أنّ السبب الأساسى لشقاء قوم شعيب وضلالهم هو الاستكبار حيث تقول الآية: «قَالَ ا لْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» «۱». لماذا يجب على شعيب والّذين آمنوا معه وسلكوا طريق التقوى والانفتاح على اللَّه أن يخرجوا من ديارهم ومدنهم؟ هل هناك دليل آخر غير تحرّك الأثرياء والمتكبرين من قوم شعيب فى التصدى للدعوة الإلهية والرسالة السماوية ونظرتهم إلى الّذين آمنوا من موقع الاستصغار والاستحقار وبالتالى الانطلاق فى سبيل إلغائهم ونفيهم وإبعادهم عن ديارهم؟ أما قولهم «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا» فلا يعنى أنّ الّذين آمنوا مع شعيب كانوا على ملّة هؤلاء المستكبرين ودينهم، بل بسبب أنّهم كانوا منسوبين إليهم وإلى هذه المدينة، ونعلم أنّ التكبر وحبّ الذات يوجب على الإنسان المتصف بهذه الصفة أن يرى كلّ شىء متعلّقاً به ومن ممتلكاته. «الآية السادسة» ناظرة إلى عصر موسى وفرعون وقارون، حيث تتحدّث هذه الآية عن قصة هؤلاء وترى أنّ العامل الأساس لانحراف وضلال وشقاء قوم فرعون هو حالة التكبر فتقول: «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ» «۱»، ولهذا السبب فإنّهم لم يذعنوا للحقّ وبالتالى فقد أصابهم عذاب اللَّه وأهلكهم ولن يستطيعوا الفرار منه. (قارون) ذلك الرجل الثرى الّذى كان يرى أنّ ثروته العظيمة دليلًا على مقامه ومنزلته السامية عند اللَّه تعالى وكان يرى أنّ هذه الثروة العظيمة إنّما حصل عليها بسبب لياقته وذكائه، ولذلك تملّكه الغرور والفرح والفخر، فكان يخرج على قومه من فقراء بنى إسرائيل بعظيم الزينة ومظاهر الثروة إصراراً منه على تحقيرهم وإذلالهم، وكلّما نصحوه بأن يستخدم هذه الثروة لنيل الدرجات العليا فى الآخرة والسعادة المعنوية فى حركة الحياة والمجتمع، فإنّ هذه النصائح لن تؤثر فيه وذهبت أدراج الرياح، لأنّ الغرور والتكبر منعه من إدراك حقائق الامور وصدّه عن دفع هذه الأمانة الإلهية الّتى بيده لأيام معدودة لأصحابها الواقعيين. أمّا «فرعون» الّذى جلس على عرش السلطنة والقدرة فإنّه قد أصابه الغرور والتكبر بأشد من صاحبه حتّى أنّه لم يقنع من الناس بعبوديتهم له بل كان يرى نفسه أنّه (ربّهم الأعلى). أمّا «هامان» الوزير المقرّب لفرعون والّذى كان شريكاً له فى جميع جرائمه ومظالمه بل إنّ جميع إدارة امور المملكة كانت بيده فإنّ القرآن الكريم صرّح أيضاً بأنّه ابتلى بالكبر والغرور الشديد. هؤلاء الثلاثة اتّحدوا فى مقابل موسى عليه السلام ودعوته الإلهية وانطلقوا فى الأرض فساداً وأمعنوا فيها اضلالًا للناس وإذلالًا لهم إلى أن شملهم العذاب الإلهى الشديد، فأغرق فرعون وهامان فى أمواج النيل الهادرة حيث كانوا يعدون النيل مصدراً لقدرتهم وأساساً لملكهم، أمّا قارون فقد ابتلعته الأرض بكنوزه وثرواته الطائلة. «الآية السابعة» تتحدّث عن قوم عيسى بن مريم عليه السلام والفرق بينهم وبين اليهود حيث الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹ تقول: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَا وَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ا لْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ» «۱». ثمّ تذكر الدليل والعلّة لهذا التفاوت والفرق بين هاتين الطائفتين وتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ». ومن هذه العبارة يتضح جيداً أنّ أحد العوامل الأصلية لعداء اليهود للّذين آمنوا هو حالة التكبر والاستكبار تجاه الحقّ فى حين أنّ أحد أدلّة تعامل النصارى مع المؤمنين من موقع المحبّة واللطف هو عدم وجود هذه الصفة الذميمة فى أنفسهم. إنّ الأشخاص الّذين يعيشون التكبر والاستكبار يريدون أن يقف الآخرون أمامهم موقف الذلّة والحقارة والعجز،

ولهذا السبب فإنّهم إذا رأوا يوماً نعمة قد أنعم اللَّه بها على الآخرين فإنّهم يجدون فى أنفسهم عداءً وكراهية شديدة تجاه هؤلاء الّذين أنعم اللَّه عليهم، أجل فإنّ الاستكبار هو سبب الحسد والحقد والعداء تجاه الحقّ والناس. صحيح أنّ هذه الآية لا تتحدّث عن جميع النصارى بل ناظرة إلى النجاشى وقومه فى الحبشة الّذين استقبلوا المسلمين المهاجرين إليهم أحسن استقبال ولم يلتفتوا إلى وساوس أزلام قريش الّذين أرسلتهم قريش ليحركوا النجاشى على طرد المسلمين من الحبشة وتسليمهم إلى المشركين، وهذا الأمر هو الّذى تسبّب فى أن يجد المسلمون فى أرض الحبشة ملجأً وملاذاً لهم من شر المشركين الّذين كانوا ينصبون لهم أشد العداوة والكراهية، ولكن الآية على أيّة حال تقرر أنّ الاستكبار هو العامل الأساس للعداوة والبغضاء للحقّ وأهل الحقّ فى حين أنّ التواضع يُعد أساساً للمحبّة وتعميق أواصر العلاقة والعاطفة مع أهل الإيمان والخضوع مقابل الحقّ. «الآية الثامنة» تتحرّك من موقع التأكيد على هذا المعنى وتقرير هذه الحقيقة المهمّة، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰ وهى أنّ الاستكبار هو سبب (الكفر والعناد وعدم المرونة مقابل الحقّ)، وهنا تستعرض الآية حالة (الوليد بن المغيرة المخزومى) الّذى كان يعيش فى عصر نزول القرآن وتصف حالته فى مقابل الحقّ والآيات القرآنية وتقول: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ» «۱». كلمة «سحر» توضح جيداً أنّ الوليد قد أقرّ واذعن بهذه الحقيقة وهى أنّ القرآن الكريم له تأثير عجيب على الأفكار والقلوب ويتمتع بجاذبية كبيرة لعواطف الناس، فلو أنّ الوليد نظر إلى هذه الآيات نظر المنصف والطالب للحقّ فإنّه سوف يعد هذا التأثير الغريب للقرآن دليلًا على إعجازه، وبالتالى سوف يؤمن به، ولكن بما أنّه كان ينظر إليه من خلال حجاب الغرور والتكبّر فإنّه كان يرى فيه سحراً كبيراً كسحر الأقوام السالفة، أجل فكلّما تراكم حجاب التكبّر على بصيرة الإنسان وقلبه فإنّه سينظر إلى آيات الحقّ بنظر الباطل وينقلب الباطل فى نظره إلى حقّ. والمشهور أنّ الوليد كان يعيش الغرور إلى درجة أنّه كان يقول: «انَا الْوَحِيدُ بْنُ الْوَحِيد، لَيْسَ لِى فِى الْعَرَبِ نَظِيرٌ، وَلَا لأَبى نَظِيرٌ!» فى حين أنّ الوليد كان يُعتبر بالنسبة إلى الناس فى ذلك الزمان رجلًا عالماً وقد أدرك عظمة القرآن جيداً وقال فيه عبارة عجيبة مخاطباً بنى مخزوم: «إنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوةً، وَانَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَانَّ اسْفَلَهُ لَمُغْدَقٌ، وَانَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلى عَلَيْهِ». هذا التعبير يقرب بوضوح إلى أنّ الوليد أدرك عظمة القرآن أكثر من أىّ شخص آخر من قومه ولكن التكبّر والغرور منعه من رؤية شمس الحقيقة والإذعان لنور الحقّ. وتأتى «الآية التاسعة» لتستعرض فى سياقها خطاب مؤمن آل فرعون لقومه ويحتمل أن تكون هذه الآية جزءاً من خطابه أو جملة مستقلة معترضة من الآيات القرآنية الكريمة حيث نقرأ فيها قوله تعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» «۱». «يطبع» من مادّة «طبع» وتأتى فى هذه الموارد بمعنى الختم، وتشير إلى عمل تم فى الماضى والحال ويراد به الشيء الّذى يُراد بقائه دون استخدام وتصرف فيغلق عليه ويُسد بابه ويوضع عليها مادّة لاصقة إما من الطين أو الشمع أو ما شابه ذلك ويختم عليها بختم معين بحيث إذا أراد شخص فتحه سيضطر إلى كسر هذا الختم وبالتالى سيتّضح ويتبين أنّه تصرّف فيه فيحال إلى المحكمة. وعلى هذا الأساس فإنّ عملية الطبع والختم على قلوب المتكبرين يشير إلى أن عناد هؤلاء وعدائهم للحقّ قد أسدل على قلوبهم وأفكارهم حجاباً ظلمانياً بحيث لا يقدرون معه على إدراك حقائق عالم الوجود، ولا يرون سوى أنفسهم ومصالحهم وأهوائهم النفسية ونوازعهم الدنيوية، فكانت أذهانهم وعقولهم بمثابة ظروف مغلقة لا- يمكن معها من إفراغ محتواها الفاسد ولا ملئها بالمحتوى السليم والفكر الصحيح، وهذا فى الواقع هو نتيجة التكبّر وحالة الجبارية الّتى يعيشها هؤلاء الاشخاص، وفى الواقع فإنّ الصفة الثانية متولدة من الصفة الاولى لأنّ (جبار) تأتى فى هذه الموارد بمعنى الشخص الّذى يعاقب وينتقم من مخالفيه من موقع الغضب الشديد والنقمة لا- من موقع العقل والحكمة، وبعبارة اخرى: أنّ الجبّار هو الشخص الّذى لا- يرى إلّانفسه وأهوائه ولا يرى للآخرين محلًا من الإعراب سوى أنّهم اتباع له. وبالطبع فإنّ هذه المفردة «الجبّار» تطلق أحياناً على اللَّه تعالى أيضاً ويراد بها مفهومٌ خاص وهو الشخص الّذى يُجبر نقائص الآخرين ويصلحها. وتنطلق «الآية العاشرة» لتشير إلى أصل كلى لا يختصّ بطائفة معيّنة، وهو أنّ الكافرين عندما يقتربون من حافة جهنم يُقال لهم إنّ هذا العذاب هو بسبب أنّكم تتصفون بصفة التكبّر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲ فتقول الآية: «قِيلَ ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ا

لْمُتَكَبِرِينَ» «۱». وشبيه هـذا المعنى قـد ورد فى آيات متعددة اخرى من القرآن الكريم منها ما ورد فى الآية ۶۰ من سورة الزمر: «الَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ». ومن الملفت للنظر أنّ من بين جميع الصـفات الأخلاقية الذميمة لأصحاب النار قد أكدت الآية على مسألة التكبر ممّا يقرر هـذه الحقيقـة، وهى أنّ هذه الصـفة الذميمة هى الأساس فى سـقوط هؤلاء فى هذا المصـير المؤلم بحيث تكون جهنم هى مقرّهـم النهائى ومصيرهـم الخالد. وممّا يلاحظ فى هذه الآية أنّ كلمة «مثوى» من مادّة «ثوى تعنى المحل الدائم والمقر الّذى يستقر فيه الإنسان فى نهايـة المطاف، وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء لا نجاة لهم من العـذاب الأليم فى الآخرة. «الآية الحادية عشـر» تتحدّث أيضـاً عن المتكبّرين بشـكل عـام وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَيّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۲». هذه العبارات المثيرة الواردة فى هـذه الآيـة الكريمـة تخبر عن عمق المصيبة الّتى يبتلى بهـا هؤلاء المتكبرون، فإنّ اللَّه تعـالى سيجازى هؤلاء الأشـخاص ويعـاقبهم من موقع أنّهم لاـ يجـدون فى أنفسـهم قبولًـا للحقّ بحيث إنّهم لو رأوا جميع آيات اللَّه ومعجزاته المتنوعـة فإنّهم لا ينفتحون على الإيمان ولا يسـلكون خط الصـلاح والهـدى ولو أنّهم وجـدوا الصـراط المسـتقيم مفتوحاً أمامهم فإنّهم لا يسـلكونه بل إذا وجدوا طريق الغى والضـلال فـإنّهم يسـلكونه من فورهم ويتحركون فى خط الضـلالة والباطل والإنحراف. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳ وعبارة «بغير الحقّ» هى فى الواقع قيد توضـيحى لأنّ العظمة والكبرياء مختصان باللَّه تعالى وقدرته المطلقة، وأمّا بالنسـبة للإنسان الّذى ليس سوى ذرّة صـغيرة من ذرات عالم الوجود الواسع، فإنّ رداء العظمـة والكبرياء بالنسبة له ليس حقّاً وليس من حقّه أن يرتـدى هذا الرداء. بعض المفسّـرين ذهبوا إلى أنّ هـذا القيـد هو قيـدٌ احترازى وقـالوا: إنّ التكبر على قسـمين: تكبر فى مقابـل أولياء اللَّه فهو (بغير الحقّ) وفى مقابل ذلك التكبر فى مقابل أعـداء اللَّه وهو (بالحقّ) ولكن مع الالتفات إلى جملـة «يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ» يتّضـح جيداً أنّ هذا التفسـير غير منسـجم مع سـياق الآية لأنّ التكبر فى الأرض وفى مقابل البشـر جميعاً هو خلقٌ مذموم وقبيح بصورة مطلقة. وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشـريفة تشـير فى سياقها إلى أهم آثار وعواقب التكبر الوخيمة، وهى أنّ مثل هذا الإنسان لا يذعن أمام آيات الحقّ ولا يؤمن بها بل على العكس من ذلك، فإنّه وبسـبب هذه الصفة الذميمة سيدخل أبواب الضلالة، ويسلك سبيل الغى لدى مشاهدته فوراً. أجل فإنّ صـفة الكبر والغرور تمثل حجاباً على قلب الإنسان وروحه ممّا يتسبّب أن يرى الحقّ باطلًا والباطل حقّاً، وبـذلك يحجب عن الإنسان أبواب السـعادة والنجاة ويفتح له أبواب الضـلالة وعلى أساس أنّها أبواب السـعادة، فما أعظم شقاء الإنسان الّذى لا يرى علائم الحقّ ويتغافل عنها ويسـلك طريق الضـلالة والزيغ والإنحراف ويتصور أنّ هـذا المسـير هو الّـذى يؤدى به إلى السـعادة والنجاة!! «الآية الثانيـة عشـر» تقول: «لَـاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَايُسِـرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ ا لْمُسْتَكْبِرِينَ» «۱». وقـد ورد ما يشـبه هذا المعنى فى القرآن الكريم مرّات عديـدة من قبيل قوله: الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴ «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ» «۱». «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» «۲» «إِنَّ اللَّهَ لَايُحبُّ الْمُعْتَدِينَ» «۳» «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِين» «۴» «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ» «۵» «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ» «۶» ويقول فى الآية محل البحث: «انَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». إنّ التـدقيق فى مثل هـذه العبارات يوضـح وجود رابطه خاصـة بين هـذه الامور المـذكورة فى هـذه الآيات، بحيث يمكن القول أنّ القـدر المشترك بين الصـفات الرذيلـة فى هـذه الآيات السـبعة المـذكورة آنفاً هو حبّ الذات والغرور والعجب أو التكبر الّـذى يعـد منبعاً للظلم والفساد والإسـراف والفخر على الآخرين. وهنا تقول الآية: إنّ اللَّه تعالى لا يحب أيّاً من هذه الطوائف السبعة، ومفهومها أنّ من يتصف بهـذه الصـفات ويكون مصـداقاً لأحد هذه الطوائف فإنّه مطرود من ساحة الربوبية والرحمة الإلهية الواسـعة، لأنّه متصف بأخطر الرذائل الأخلاقية، وهى التكبر المانع من القرب إلى اللَّه تعالى. «الآية الثالثة عشـر» من الآيات محل البحث وكما ورد فى الروايات فى شأن نزولها أنّها تتحدّث عن طائفة من نصارى نجران وتقول: «لَنْ يَسْتَنكِفَ ا لْمَسِيحُ أن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵ ا لْمَلئِكَةُ ا لْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» «۱». وتقول الآيـة الّتى تليهـا مؤكـدة على أصـل مهم ومصيرى فى حيـاة الإنسـان والمجتمع البشـرى: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصلِحتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَايَجِدُونَ لَهُم مّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَانَصِيرًا» «۲». هذه

الآيات ناظرة إلى دعوى واهية لطائفة من النصارى الّذين ذهبوا إلى إلوهية المسيح وتصوّروا أنّهم لو أنزلوا المسيح من هذا المقام وأنّه عبداللَّه فإنّ ذلك سيكون هتكاً لحرمته وإهانة لساحته ومقامه السامى. وأمّا القرآن فيقول لهم أنّه ليس المسيح ولا أى واحد من الملائكة أو من المقرّبين له هذا المقام، ولا يتصوّر أحد منهم ذلك بل يرون أنفسهم عباد اللَّه ويذعنون أمام هذه الحقيقة الناصعة، ويأتون بطقوس العبودية له، ثمّ يذكر القرآن أصلًا كليّاً ويقول: إذا تحرّك أى واحد من المخلوقين حتّى الأنبياء الإلهيين أو الملائكة المقرّبين مبتعداً عن خط العبودية ومتلبساً بلباس الاستكبار أمام الحقّ تعالى واستنكف عن عبادته وتكبر فإنّه سوف لا يستطيع انقاذ نفسه من العذاب الإلهى ولا- يستطيع أحد انقاذه من خالق العقاب الأليم المقرّر له. والملفت للنظر أنّ الآية الأخيرة تقرّر أنّ الإيمان والعمل الصالح يقعان فى النقطة المقابلة، للاستكبار والأنانية ورؤية الذات أعلى من الواقع، وبالتالى يمكننا أن نستوحى منها هذه النتيجة، وهى أنّ من يسلك طريق الاستكبار وينطلق فى فكره وسلوكه من موقع التكبّر فليس له إيمان حقيقى ولا- عمل صالح. «الاستنكاف» فى الأصل من مادّة «نكف» على وزن «نصر» وهى فى الأصل بمعنى مسح قطرات الدموع على الوجه بالأصابع، وعليه فيكون الاستنكاف من عبودية اللَّه تعالى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶ يعنى الابتعاد عنه وذلك بسبب أحد العوامل المختلفة من قبيل الجهل أو الكسل وحب الراحة وغير ذلك، ولكن عندما وردت جملة «اسْتَكْبَرُوا» بعد هذه العبارة فإنّ ذلك يشير إلى الاستنكاف الّذى يقع من موقع الكبر والغرور ويكون معلولًا لهما، وبذلك يكون ذكر هذه الجملة بعد تلك العبارة فى الواقع إشارة إلى هذه النكتة الدقيقة. وعلى أيّة حال فإنّ التعبيرات المثيرة فى هذه الآيات تدلّ على أهمية هذه المسألة وأنّ هذه الصفة الذميمة وهى الاستكبار تنتج هذه العواقب الوخيمة لدى كلّ إنسان يتصف بها. وفى «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات محل البحث نقرأ نتيجة اخرى من النتائج الخطيرة والإليمة المترتبة على حالة الاستكبار حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ وَلَايَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمّ ا لْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱». ففى هذه الآية الشريفة ورد أوّلًا (التكذيب بآيات اللَّه) إلى جانب (الاستكبار) وكما ذكرنا سابقاً أنّ أحد العلل المهمّة لإنكار آيات اللَّه والتصدى لدعوة الأنبياء هى حالة الاستكبار الّتى يعيشها الأقوام البشرية، فأحياناً كانوا يقولون: ما هو امتياز هذا النبى عنا؟ ولماذا نزلت عليه آيات اللَّه دوننا؟ ويقولون أحياناً اخرى: إن الاراذل والفقراء من الناس إلتفّوا حوله ونحن أعلى شاناً من أن نكون كأحدهم، ولو أنّ هذا النبى قد طرد هؤلاء المؤمنين به من حوله فسوف يفسح لنا المجال للدخول فى مجلسه والمشاركة فى الاستماع لكلماته ومواعظه، وهكذا من خلال هذه التبريرات والذرائع الواهية كانوا يعرضون عن الإيمان باللَّه والتحرّك فى خط المسؤولية. عبارة: «وَلَايَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمّ ا لْخِيَاطِ» والّتى وردت فى القرآن الكريم فى هذه الآية فقط هى تأكيد واضح على عظمة هذه الخطيئة وهذا الاتصاف السلبى والخطير فى حركة الإنسان فى الحياة، أى كما أنّ عبور الجمل (أو طبقاً لتفسير آخر: الحبل الضخم) غير ممكن ومستحيل من ثقب أبرة فإنّ دخول المتكبرين إلى الجنّة والنعيم الإلهى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷ محال أيضاً، ولعلّ ذلك يشير إلى أنّ طريق الجنّة إلى درجة من الدقّة بحيث يشبه ثقب الأبرة ولا- يمر من خلاله إلّامن تحلّى بصفة التواضع ورأى نفسه من واقع حاله. وجملة: «لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ» هى إشارة إلى ما ورد فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهو أنّ المؤمنين عندما ينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الاخرى أنّ روحهم وأعمالهم تصعد إلى السماء وتفتح لهم أبواب السماء ويستقبلهم الملائكة، ولكن عندما يصعد بروح الكفّار والمتكبرين وأعمالهم إلى السماء فسوف توصد أبواب السماء أمامهم وينادى المنادى أنّه أذهبوا بها إلى جهنم وبئس المصير.

النتيجة النهائية:

ونستنتج من مفهوم الآيات المذكورة آنفاً أنّ القرآن الكريم يعتبر (التكبّر والاستكبار) من أقبح الصفات والأعمال على مستوى السلوك البشرى، وأنّ هذه الصفة الذميمة يمكنها أن تكون مصدراً للكثير من الذنوب العظيمة وحتّى أنّها قد تورث الإنسان حالة

الكفر باللَّه تعالى والأشخاص الّذين يعيشون هذه الحالة لا يتسنّى لهم إدراك معنى السعادة الحقيقية والطريق إلى مرتبة القرب الإلهى موصد أمامهم، وعليه فإنّ على السالكين طريق الحقّ لابدّ لهم قبل كلّ شىء من تطهير أنفسهم وقلوبهم من تلوثات هذه الصفة الأخلاقية القبيحة بأن لا يروا لأنفسهم تفوّقاً فى وجودهم على الآخرين ولا ينطلقوا فى تعاملهم مع الناس من موقع التكبر والأنانية، فإنّ هذه الحالة من أكبر موانع الوصول إلى اللَّه تعالى والقرب المعنوى من الكمال المطلق.

التكبّر فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية أحاديث كثيرة على مستوى ذمّ التكبر وبيان حقيقته ونتائجه الوخيمة على الفرد فى حركة الحياة والواقع وطرق علاجها ولا يسعنا ذكر هذه الروايات بأجمعها فى هذا المختصر، ولكننا نكتفى منها بما يلى: ١- ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ايَّاكُمْ وَالْكِبْرَ فَانَّ ابْلِيسَ حَمَلَهُ الْكِبْرُ عَلَى أنْ لَايَسْجُدَ لِآدَمَ» «١». ٢- وهذا المعنى نفسه ورد بتعبير آخر فى خطب نهج البلاغة حيث نقرأ فى الخطبة القاصعة كلاماً كثيراً عن (تكبر إبليس) والنتائج المترتبة على ذلك حيث يقول: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِابْلِيسَ اذْ احْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ ... عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَنْ ذَا بَعْدَ إبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ» «٢». إنّ العبارات المثيرة أعلاه تبين جيداً أنّ التكبر والأنانية وحالة الفوقية الّتى يعيشها إبليس والإنسان بإمكانها أن تفضى، ولو فى لحظات قليلة، إلى أخطر العواقب الوخيمة وكيف أنّها كالنار المحرقة الّتى تأتى على الأخضر واليابس من الأعمال الصالحة فتحرقها وتجعلها رماداً منثوراً وتتسبب فى الشقاء الأبدى والعذاب الخالد لصاحبها. ٣- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إحْذَرِ الْكِبْرَ فَانَّهُ رَأْسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ» «٣». وهذا الحديث الشريف يبين هذه الحقيقة، وهى أن مصدر الكثير من الذنوب والخطايا هى حالة الكبر والفوقية الّتى يعيشها الإنسان بالنسبة إلى الآخرين. ۴- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَا دَخَلَ قَلْبَ امْرِءٍ شَىْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إلّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلُ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ! قَلَّ ذَلِكَ أوْ كَثُرَ» «۴». ۵- وفى اصول الكافى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اصُولُ الْكُفْرِ ثَلَاثَةٌ، الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢٩ الْحِرْصُ وَالْاسْتِكْبَارُ وَالْحَسَدُ، فَامَّا الْحِرْصُ فَانَّ آدَمَ حِينَ نُهِىَ عَنِ الشَّجَرَةِ حَمَلَهُ الْحِرْصُ عَلَى أنْ اكَلَ مِنْهَا، وَامَّا الْاسْتِكْبَارُ فَابْلِيسُ حَيْثُ امِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَابى، وَامَّا الْحَسَدُ فَابْنَا آدَمَ، حَيْثُ قَتَلَ احَدُهُمَا صَاحِبَهُ» «١». وعليه فإنّ أوّل الذنوب الّتى نشأت على الأرض كان مصدرها هذه الثلاثة من الصفات الأخلاقية الذميمة. ۶- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» «٢». ٧- وفى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «اقْبَحُ الْخُلْقِ التَّكَبُّرُ»». إنّ الأحاديث الإسلامية الواردة فى المصادر الروائية كثيرة فى هذا الباب ولكن هذا المقدار المعدود من هذه الأحاديث يكفى لبيان شدّة قبح هذه الرذيلة. فقد قرأنا فى الأحاديث المذكورة آنفاً أنّ الكبر هو مصدر الذنوب الاخرى، وعلامة على نقصان العقل، وسبباً لإهدار طاقات الإنسان وقواه المعنوية، ويعتبر من أقبح الرذائل الأخلاقية بحيث إنّه يتسبب فى حرمان الإنسان من دخول الجنة فى نهاية المطاف، وكلّ واحد من هذه الامور بحدّ ذاته يمكن أن يكون عاملًا مؤثراً فى ردع الإنسان عن التحرّك فى هذا الاتجاه وسلوك طريق التكبر، فكيف بأن يتصف بمثل هذه الصفة الذميمة الّتى تؤدى إلى سقوطه من مقام الإنسانية ومرتبة الإيمان فى حركة التكامل المعنوى؟

التكبّر فى منطق العقل:

ومضافاً إلى الآيات والروايات الشريفة فإنّ (التكبّر والاستكبار) يُعتبر مذموماً فى منطق العقل بشدّة، لأنّ العقل يرى أنّ جميع أفراد البشر هُم عباد اللَّه تعالى وكلّ إنسان يجد فى نفسه نقاط إيجابية وقابليات وملكات فى طريق الكمال، وكلّهم من أب واحد وامّ واحدة، فهم سواسية فى ميزان الخلق، فلا دليل على أن يرى أى إنسان نفسه أعلى من الآخرين ويفتخر على غيره ويسعى لتحقيره،

وحتّى لو رأى فى نفسه موهبـة موهبـة من اللَّه تعالى لم تكن لدى الآخرين، فمثل هذه الموهبة يجب أن تكون سبباً ليتحرك فى خط الشكر للَّه تعالى والتواضع لا فى خط الكبر والغرور. إنّ قباحة هـذه الصـفة الذميمـة يعـد من البـديهيات الّتى يشـعر بها كلّ إنسان فى وجدانه ويعترف بها، ولهـذا فإنّ الأشـخاص الّذين لا يعتنقون أى دين ومذهب يذمون حالة التكبّر والأنانية أيضاً ويرون أنّها من أقبح الصـفات والسلوكيات فى دائرة السلوك الإنسانى. وفى الواقع فإنّ قسماً مهماً من مسألة (حقوق الإنسان) الّتى تم تدوينها من قِبل مجموعة من المفكّرين غير المؤمنين ناظرة إلى مسألـة التصدى لحالة الاستكبار الدولى، ومع أننا قد نرى من الناحية العملية نتائج معكوسة على هذا القرار الـدولى بحيث أصبح أداة طيّعة بيد المستكبرين للتحرك من موقع إدانة الآخرين لا العمل على تطبيق هذه المقررات الأخلاقية بإنصاف على جميع الـدول والمجتمعات البشرية المعاصرة. وأساساً كيـف يرتـدى الإنسان رداء التكبّر فى حيـن إنه وكمـا يقـول أميرالمؤمنين عليه السلام كان فى البدايه نطفة حقيرة، ثمّ جيفة نتنة، ثمّ هو فيما بينهما يحمل العذرة؟ الإنسان ضعيف وعاجز إلى درجة أنّ البعوضة تؤذيه وحتّى أقل من البعوضة، أى المكروب والفيروس الّذى لا يُرى بالعين المجرّدة قد يوقعه فى حبال المرض الشديد ويؤدى به إلى أن يرقد على سرير المرضى لمدّة طويلة، والإنسان الّذى يتالم من حرارة الهواء أو برودته ولو انقطع المطر مدّة عنه لشعر بالهلاك والتلف ولو أنّ المطر زاد قليلًا عن المألوف لوقع فى مصيبة أدهى ولو أنّه قد ارتفع ضغطه قليلًا لوقع فى خطر الموت وكذلك لو انخفض ضغطه أيضاً، وهو لا يعلم مصيره ومستقبله حتّى لمدى ساعة من المستقبل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱ القريب ولا يعلم متى يحين أجله وقد يكون أقرب الناس إليه هو الّذى يقتله ويذهب بحياته، وقد يكون الماء الّذى يروى حياته موجباً لموته أيضاً، وكذلك الهواء الّذى يتنسّمه ويستنشقه قد يتحول إلى إعصار مدمر فى حركة سريعة فيتحول بيته ومأواه إلى خرائب وبذلك يفقد كلّ شىء لأتفه الأسباب. ومن الامور الّتى تمثل علامة من علامات عجز الإنسان هى الأمراض الّتى تأخذ بحياة الإنسان وسعادته وسلامته والّتى غالباً ما تكون بسبب المكروبات والفيروسات الصغيرة جداً بحيث لا ترى إلّابأقوى المجاهر والمكرسكوبات وبإمكانها أن تصرع أقوى الناس واغناهم وأشدّهم قوّة وقدرة. إنّ مرض السرطان الموحش الّذى يُعدّ مرض العصر فى هذا الزمان ويحصد أكثر الضحايا على الرغم من سعى آلاف الأطباء والعلماء فى كلّ يوم وصرف مليارات من الأموال لعلاجه وايقافه عند حدّه هذا المرض كيف يحدث؟ أنّه يحدث بسبب طغيان واستكبار وتضخم خلية واحدة من خلايا البدن الّتى لا تُرى إلّابالمجهر العظيم حيث تشرع هذه الخلية بالتكثّر من دون وازع أو نظم معين، وهكذا تتضخّم هذه الخلايا وتصبح على شكل غدّة سرطانية فى زمن قليل. إنّ الكثير من القادة العسكريين ورؤساء العالم الّذين يقودون الجيوش العظيمة قد صُرعوا بهذا الداء الوبيل، أى أنّ جيوشهم العظيمة لم تقدر على التصدى لخليّة صغيرة جداً من خلايا الجسد. أجل فمثل هذا الضعف والعجز الذاتى للإنسان كيف يسوغ له إدّعاء العظمة والكبرياء بحيث يرتدى لباس العزة والعظمة على المخلوقين فى حين أنّ العظمة والكبرياء مختصّتان باللَّه تعالى وليس لسواه من المخلوقات سوى العجز والفاقة والفقر. ونختم هذا البحث بحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام يبين فيه خلاصة لهذا البحث المنطقى ببيان جميل حيث يقول: «مِسْكِينُ بْنُ آدَمَ مَكْتُومُ الْاجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲ تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «۱». فهل مع هذا الحال يليق بالإنسان أن يرى لنفسه تفوقاً وتكبراً على الآخرين ويفتخر عليهم من موقع رؤية العظمة للذات والأنا؟

ملاحظات:

اشارة

وقد بقيت هنا مسائل وامور مهمّة لابدّ من بيانها وهى كما يلى:

۱- تعريف التكبّر وحقيقته

قـال علماء الأخلاق: إنّ أساس التكبّر وتعريفه هو أن يرى الإنسان علوّاً وتفوقاً على غيره، وعليه فالتكبّر يتكون من ثلاثـة أركان: الأوّل أن يرى لنفسه مقامـاً ومرتبـة معيّنـة، الثـانى أن يرى لغيره أيضـاً مقامـاً معيّنـاً، والركن الثالث أن يرى مقامه أعلى من مقام الآخر ويشـعر بالراحـة والفرح لأجـل ذلـك. وعلى هـذا الأساس قالوا: إنّ التكبّر يختلف عن العُجب، ففى العجب لا توجـد مقارنـة مع الآخر، بل إنّ الإنسان يتملّكه حالـة من رؤيـة العظمـة فى نفسه بسـبب العلم أو الثروة أو القدرة أو حتّى العبادة حتّى لو لم يكن إنسان آخر على وجه الأرض، ولكن فى حالـة التكبّر هناك مقارنـة مع الآخرين حتماً بحيث يرى نفسه أعلى منهم. إنّ مفردة «الكبر والتكبّر» تارة تطلق على الحالة النفسـية الّتى ذكرناها آنفاً، وتارة اخرى تطلق على العمل أو الحركة الناشـئة من تلك الحالة النفسانية، مثلًا أن يجلس الإنسان أو يسير بخطوات أو يتحـدّث بحديث يظهر منه انه يرى لنفسه تفوقاً على أقرانه وجلسائه، فمثل هذه الأعمال والسـلوكيات تسـمّى بالتكبّر أيضاً والّتى تمتـد فى جذورها وأصـلها إلى تلك الحالة الباطنية والنفسانية الذميمة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳ إنّ علائم التكبّر كثيرة، منهـا أنّ المتكبر يتوقع اموراً كثيرةً من النـاس مثـل أن يتوقع منهم أن يسـلموا عليه، وأن لا يـدخل أحـداً إلى المجلس قبله، وأن يجلس فى صـدر المجلس دائماً، والناس لا يرون لأنفسـهم شخصـية أمامه ولا يتكلمون معه من موقع الانتقاد والنقد بل حتّى من موقع النصـيحة والموعظة فيحفظون احترامه وحرمته دائماً ويقفون أمامه موقف الخاضع الخاشع ويتحدثون بعظمته ومقامه السامى دائماً. ومن البديهى أنّ ظهور وبروز هذه الحالات فى ممارسات الإنسان وسـلوكياته تابع لدرجة شدّة وضعف حالة التكبّر فى واقعه النفسانى، ففى بعض الموارد تتجلّى هـذه العلامـات جميعـاً، وفى بعضـها الآـخر يتجلّى قسم منها. هـذه الحالات والسـلوكيات فى الواقع الخارجى لها جـذور باطنيـة وأحياناً تكون ضـعيفة وخفيّـة إلى درجة إن الإنسان نفسه لا يشـعر بوجودها بل قد يتصور هذه الصـفة الذميمة من موقع نقطـة القوّة (من قبيل الاعتماد على النفس وتوكيد الذات والشخصـية) فتختلط عليه الحالة، وأحياناً تكون ظاهرة إلى درجة أنّ الآخرين أيضاً يدركون وجودها فى هذا الإنسان.

۲- أقسام التكبّر

هناك مفاهيم متعددة تحكى عن هذه الحالة النفسانية حيث يتصور البعض أنّها مترادفة وبمعنى واحد، والحال أنّ هناك اختلاف دقيق فيما بينها رغم أنّها تمتـد جميعاً إلى أصل «التكبر» ولكنها تتجلّى فى زوايا ووجوه مختلفـة. (حالـة الفوقية)، (الأنانية)، (الذاتية)، (عظمة الشخصـية)، (التفاخر)، كلّ هذه المفاهيم تمد جذورها إلى أصل «التكبر» رغم أنّها تعنى مفاهيم مختلفة وناظرة إلى سـلوكيات متنوعة فى حركـة الإنسان الإجتماعية والنفسـية. فقد تحكى الكلمة عن رؤية الذات أعلى من الآخرين وهى (النظرة الفوقية). وقد يرى الإنسان نفسه هو الأجـدر بسـبب هـذه الفوقيـة فيتحرّك ليسـتلم زمـام الامـور فى جميع المنـاحى الإجتماعيـة والمناصب السياسـية فهى (النظرة الأنانية). الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴ والشـخص الّذى يسعى فى المسائل الإجتماعية وخاصة عند بروز المشكلات والأزمات أن يؤمّن منافعه الشخصـية ولا يهتم بمصالـح الآخرين ومنافعهم فهى (الأنانيـة). والشـخص الّـذى يسـعى إلى تحكيم سـلطته على الآخرين وجعـل الآـخرين طوع إرادته فهو مبتلى بحالـة (السـلطوية)، وأخيراً فـإنّ الشـخص الّـذى يسـعى لاظهـار ما لـديه من مقام أو ثروة أمام الآـخرين ويتعزّز بها فهى حالـة (التفاخر). وعلى هـذا الأساس فإنّ هـذه الصـفات والحالات تشترك جميعاً فى أصل «التكبّر» رغم أنّها تظهر وتتجلى بأشكال مختلفة.

۳- التكبّر على مَنْ؟

يقسّم علماء الأخلاق التكبر إلى ثلاث أقسام: ۱- التكبر أمام اللَّه. ۲- التكبر مقابل الأنبياء. ۳- التكبر على خلق اللَّه. والمراد من التكبر مقابل اللَّه تعالى والّذى يُعـد من أسوأ أنواع التكبر وناشـئاً من غايـة الجهل هو أنّ الإنسان الضـعيف يدّعى الإلوهية، وليس فقط أنّه لا

يرى نفسه عبداً للَّهبل يسعى إلى دعوة الناس لعبادته أيضاً، أو يقول كما قال فرعون «.... انَا رَبُّكَمُ الْاعْلَى» «۱» أو يقول «... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ الِهٍ غَيْرِى ...» «۲». ومن البعيد جداً أن يرى الإنسان مثل «فرعون» الّذى حكم أرض مصر سنين متمادية أنه واقعاً «الربّ الأعلى للناس وأنّه معبود الناس جميعاً حتّى لو كان على درجة شديدة من قلّة العقل وقلّة الذكاء، إذن فالمراد حسب الظاهر أنّ فرعون وأمثاله ولغرض تحميق عامّة الناس واستحمار السُذّج منهم أن يدعوا هذا الأدّعاء لتثبيت أركان حكومتهم وسيطرتهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵ الشكل الآخر من التكبر إمام اللَّه هو ما نجده من تكبر إبليس وأتباعه حيث استكبروا ورفضوا إطاعة اللَّه تعالى من موقع الأفضلية لأنفسهم والاعتراض على الحكم الإلهى وأمره حيث قالوا: إنّ إبليس الّذى خلق من النار لا ينبغى له السجود لمخلوق من تراب كما تقول الآية على لسان إبليس: «... لَمْ اكُنْ لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ» «۱»، أو تقول الآية: «... قَالَ انَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۲». أجل فإنّ الحجاب العظيم للكبر والغرور قد يصل إلى درجة أن يحجب عقل الإنسان وبصيرته عن رؤية حقائق الامور وأنّه موجود ضعيف فيرى انه أعلم من اللَّه تعالى. القسم الآخر للتكبر هو التكبر فى مقابل الأنبياء والمرسلين الّذين أرسلهم اللَّه تعالى إلى أقوامهم كما نرى هذه الحالة فى طوائف المستكبرين من الأقوام السالفة أمام أنبيائهم اذ رفضوا طاعة الأنبياء من موقع التكبر والغرور وقالوا: «... أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ...» «۳» أى موسى وهارون، وتارة كانوا يقولون مثل مقولة قوم نوح عليه السلام: «وَلَئِنْ اطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ انَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ» «۴». وتارة اخرى يتذرعون بذرائع طفولية ويقولون من موقع العناد واللجاجة: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَائَنَا لَوْلَا انْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا» «۵». القرآن الكريم يقول فى سياق هذه الآيات الشريفة: «لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى انْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً» «۶». القسم الثالث من أقسام التكبر هو التكبر فى مقابل عباد اللَّه بحيث يرى نفسه أعلى منهم ويرى الآخرين من موقع الحقارة والدنائة وأنّهم لا قيمة لهم أمامه وبالتالى فلا يرى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶ للآخرين حقّاً عليه بل يتوقع من الآخرين أن يحترمونه ويعترفون بعظمته ويذعنون لأوامره ومطاليبه. وهذا النوع من التكبر له نماذج كثيرة فى حياتنا الإجتماعية فلا حاجة للإطالة فى شرحه وبيان مصاديقه وموارده، وقد يمتد هذا النوع من التكبر ويصل إلى درجة فى أعماق النفس إلى التكبر فى مقابل الأنبياء ثمّ التكبر أمام اللَّه تعالى. أجل فإنّ نار التكبر والغرور تنشأ من التكبر فى مقابل عباد اللَّه عادة ثمّ يتدرج الإنسان ويتمادى فى هذه الحالة حتّى يتكبر أمام دعوة الأنبياء ويرفض إطاعتهم وبالتالى يصل به الأمر إلى التكبر أمام اللَّه تعالى.

۴- دوافع التكبّر

للتكبر أسباب ودوافع كثيرة تعود كلّها إلى أنّ الإنسان يتصور لنفسه كمالًا معيناً، وبسبب حبّه لذاته فإنه يرى نفسه أكبر من واقعها ويحتقر الآخرين كذلك. بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفيض الكاشانى) فى كتابه المحجّة البيضاء يذكرون فى مسألة دوافع الكِبر وأسبابه سبعة أسباب: الأوّل: الأسباب الدينية من العلم والعمل، والاخرى الأسباب الدنيوية من النسب والجمال والقوّة والثروة وكثرة الأعوان والأصحاب، ثمّ ذكر الفيض الكاشانى لكلّ واحدة من هذه الأسباب شرحاً وافياً نذكره بشكل مختصر، حيث يقول: الأوّل: العلم، وما اسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «آفة العلم الخيلاء» فلا يلبث أن يتعزّز بعزّ العلم، ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام. العلم الحقيقى هو الّذى يعرف الإنسان به نفسه وربّه وخطر الخاتمة وحجة اللَّه على العلماء وعظم خطر العلم فيه، كما سيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم وهذه العلوم تزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ويقتضى أن يرى أنّ كلّ الناس خير منه لعظم حجة اللَّه تعالى عليه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷ بالعلم وتقصيره فى القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء: «من إزداد علماً إزداد خوفاً» وهو كما قال. الثانى: العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة الغرور والكبر واستمالة قلوب الناس الزهّاد والعبّاد ويترشح الكبر منهم فى الدنيا والدين. أما الدنيا فهو أنّهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم

والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس من الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه فى حقّ العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منّهٔ على الخلق، وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك قال النبى صلى الله عليه و آله: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»، وإنما قال ذلك لأن هذا القول يدل على أنّه لخلق اللَّه، مغتر باللَّه، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم» وكم من الفرق بينه وبين من يحبّه للَّهويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجو لنفسه فالخلق يدركون النجاهٔ بتعظيمهم إياه للَّهفهم يتقربون إلى اللَّه بالدنو منه وهو يتمقت إلى اللَّه بالتنزه والتباعد منهم كأنه مرتفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبّوه لصلاحه أن ينقلهم اللَّه الى درجته فى العمل وما أجدر إذا ازدراهم بعينه أن ينقله اللَّه الى حدّ الإهمال. وهذه الآفهٔ أيضاً قلما ينفك عنها العباد وهو أنّه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر اللَّه له ولا يشك فى أنّه صار ممقوتاً عند اللَّه ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين العجب والكبر والاغترار باللَّه وقد ينتهى الحمق والغباوهٔ لبعضهم إلى أن يتحدّى ويقول سترون ما يجرى عليه، وإذا اصيب بنكبهٔ زعم أنّ ذلك من كراماته وأنّ اللَّه ما أراد به إلّاشفاء علته والانتقام له. فما أعظم الفرق بين مثل هذا الجاهل وبين بعض ما ورد عن أحد العباد الّذى قال بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمهٔ لجميعهم لولا كونى فيهم، فانظر إلى الفرق بين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸ الرجلين. ونختم هذا البحث بحديث شريف عن النبى الأكرم حيث ورد فى الروايات أنّه تحدث بعض الأصحاب عن رجل وذكروه بخير للنبى صلى الله عليه و آله فأقبل ذات يوم فقالوا: يارسول اللَّه هذا الّذى ذكرناه لك، فقال: إنى أرى فى وجهه سفعهٔ من الشيطان فسلم ووقف على النبى صلى الله عليه و آله وأصحابه، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «أسألك باللَّه حدّثتك نفسك أن ليس فى القوم أفضل منك؟ فقال: اللهم نعم» «۱» ، فرأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بنور النبوهٔ ما استكن فى قلبه سفعهٔ فى وجهه. الثالث: التكبر بالنسب والحسب فالّذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلماً وقد يتكبر بعضهم فيرى أنّ الناس له موالٍ وعبيد ويأنف من مجالستهم ومخالطتهم، والحال أنّ الإسلام ليس فيه تفاضل بالحسب والنسب، كما روى عن أبى ذر أنّه قال: قاولت رجلًا عند النبى صلى الله عليه و آله فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبى صلى الله عليه و آله: «يا أبا ذر طف الصّاع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل». قال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدى» فانظر كيف نبهه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه رأى لنفسه فضلًا بكونه ابن بيضاء وإن ذلك خطأ وجهل فانظر كيف تاب وكيف قلع من نفسه شجرهٔ الكبرياء خمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أنّ العزّ لا يقمعه إلّاالذلّ «۲». وعلى أى حال فقد قرأنا كثيراً من النصوص الشريفهٔ فى القرآن والروايات تؤكد لنا أن لا فضل لإنسان على آخر بالنسب والعرق وأمثال ذلك، فهذه كلها امور اعتباريهٔ تعرض على الإنسان من الخارج، بينما تتقوم شخصيهٔ الإنسان وقيمته بما يتضمنه من امتيازات معنويهٔ فى محتواه الباطنى، وعلى فرض أنّ ارتباطه مع بعض العظماء بالنسب يوجب له فضيلهً وامتيازاً على غيره، فلا ينبغى أن يكون ذلك سبباً للاحساس بالغرور والتكبر والتفاخر على الآخرين. وعندما نرى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغهٔ، أو الإمام زين العابدين عليه السلام فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹ خطبته المعروفهٔ فى الشام يفتخران بنسبهما فذلك ليس من قبيل حبّ التفوق والتفاخر، بل بدافع آخر، حيث أرادا إظهار إمامتهما ورسالتهما الدينيهٔ الإلهيهٔ لبعض المغفلين والجهلاء، مثل ما يقوم به قائد الجيش من تعريف نفسه للجنود وبيان مكانته ومقامه بهدف دعوتهم الى اطاعته وامتثال أوامره. الرابع: التفاخر بالجمال وذلك يجرى أكثره بين النساء ويدعو ذلك التنقّص والثلب والغيبهٔ وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روى عن عائشهٔ أنّها قالت: دخلت امرأهٔ على النبى صلى الله عليه و آله فلما خرجت فقلت بيدى- هكذا- أى أنّها قصيرهٔ، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «قد اغتبتها» وهذا منشؤه خفى الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرهٔ لما ذكرتها بالقصر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأهٔ فى جنب نفسها فقالت ما قالت. الخامس: الكبر بالمال وذلك يجرى بين الملوك فى الخزائن، وبين التجار فى بضائعهم، وبين الدهاقين فى أراضيهم، وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير

ويقول له أنت مكدّ ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك. ومن ذلك تكبر قارون اذ قال تعالى «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظّ عَظِيمٍ» «۱» وقد ورد فى التواريخ أنّه كان يخرج على قومه من بنى إسرائيل بجميع خدمه وحشمه البالغ عددهم أربعة آلاف نفر وهم يركبون الجياد المزينة بالحلى وملابس الزينة ويصحبون معهم الجوارى الجميلات وهنّ فى كامل الزينة من الجواهر والذهب، ولكن كل ذلك ينتهى فى لحظة حيث خسفت به الأرض بأمر اللّه وابتلعت ما كان له من ثروات وقصور ودفن قارون معها أيضاً وصار عبرة لمن اعتبر «۲». السادس: القوة والقدرة البدنية وشدة البطش أو الموقع السياسى أو الاجتماعى، والتكبر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰ به على أهل الضعف، وغالباً ما يتوفر هذا الحال لدى الامراء والأقوياء وأصحاب السلطة من الناس حيث يرون أنفسهم «ظل اللّه فى الأرضين» ويتوقعون من الآخرين أن يتعاملوا معهم من موقع التعظيم والتكريم كما يفعل الغلمان والعبيد. ولو صدرت منهم أقل حركة أو كلمة خاطئة لا تتفق ومقامهم العالى وشأنهم الكبير فسوف لا ينجو صاحبها من العقاب. وقد ذكر فى بعض حالات السلاطين القدماء أنّه كلما أراد الناس الدخول عليه فى مجلسه فيجب عليهم تكميم أفواههم بمنديل أو أى شىء آخر لئلّا يتلوث معطف السلطان ببخار أفواه الرعايا ورائحة فمهم الكريهة، وهذا هو السبب فى تفعيل عنصر الكبر والغرور فى نفوس هؤلاء وما يتولد منه من أخطاء كبيرة ومآثم شنيعة تؤدى إلى الإسراع فى زوال حكمهم وإنهيار دولتهم. السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والعلماء والعشيرة والأقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمتنفذين، وبالجملة فكلّ ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا وإن لم يكن فى نفسه كمالًا أمكن أن يتكبر به، حتّى أنّ المخنث يتكبر على أقرانه بزيادة قدرته ومعرفته فى صنعة المخنثين لأنّه يرى ذلك كمالًا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلّانكالًا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أنّ ذلك كمال وإن كان مخطأً فيه «۱». هذه الامور السبعة هى امور قد يصاب الأشخاص بجميعها أو ببعض منها ويتطاولون على الآخرين بالفخر والتكبر، وبالطبع لا تنحصر الدوافع بهذه السبعة، فإنّ كلّ صفة كمال أو نقطة قوّة معنوية أو مادية سواءً واقعية أو خيالية يمكن أن تسبب الغرور وتدفع بصاحبها إلى التكبر على الآخرين. وهذا الكلام لا يعنى أنّ الإنسان يجب عليه للتوقى من التكبر والغرور أن يبتعد عن أسباب الكمال ولا يتحرّك باتجاه المعنويات والكمالات الإنسانية ويقتل فى نفسه عناصر الخير والصلاح لكى لا تكون منشئاً للغرور والفخر، بل الغرض من ذلك إن الإنسان كلّما الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱ إزداد فى علمه وعبادته وقوته وقدرته وثروته فعليه أن يسعى ليكون أكثر تواضعاً وخشية وخضوعاً للحقّ، ويتفكر فى أنّ هذه الكمالات والمواهب ليست ثابتة له بالذات وكلّها لا تعدّ شيئاً مقابل قدرة اللّه تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى

۵- جذور التكبّر

إن حالة التكبر الذميمة لها جذور كما هو الحال فى سائر الرذائل الأخلاقية، فينبغى البحث عنها بدقة ومعرفتها، وفى غير هذه الصورة فإنّ قلع هذه الصفة من أعماق النفس وتطهير القلب منها يكون أمراً محالًا. ويذكر بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفيض الكاشانى) فى كتابه المحجّة البيضاء أربعة جذور واصول للتكبر وهى: العجب، الحقد، الحسد، الرياء. ويرى الفيض الكاشانى أنّ جذور التكبر الباطنية تتمثّل فى (العجب) فهذه الحالة من رؤية الذات والإعجاب بها وتعظيمها هى السبب فى أن يرى الإنسان نفسه أعلى من الآخرين وأفضل منهم وبالتالى يتحرّك فى التعامل معهم من موقع التفاخر والتعالى، وهناك أصل آخر وهو (الحقد) والكراهية الّتى يشعر بها الإنسان تجاه الشخص الآخر حيث يتسبب ذلك فى أن يتظاهر بمواهبه وامتيازاته أمام ذلك الشخص، والثالث (الحسد) الّذى يتسبّب فى إيجاد هذه الرذيلة الأخلاقية، والرابع (الرياء) الّذى يؤدى إلى أن يتظاهر الإنسان بامتيازاته أمام الآخرين فيورثه ذلك حالة من التكبر عليهم. هذه الجذور الأربع تشكل الاصول والاسس لصفة التكبر، ولكن حسب الظاهر أنّ جذور التكبر لا

تنحصر فی هذه الصفات الأربع بل هناك امور اخری یمكنها أن تكون منشئاً ومصدراً للتكبّر.

۶- النتائج والعلائم

إنّ الأمراض الأخلاقیة هی مثل الأمراض النفسیة والبدنیة تكون مصحوبة دائماً بآثار وعلائم ظاهریة، فكما أنّ الإنسان إذا اشتكی مرضاً فی الكبـد ظهرت علیه آثار هذا المرض الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲ بصور مختلفـة علی جلده ووجهه ولون عینه ولسانه وأمثال ذلك، فهكذا إذا ابتلی الشخص بمرض أخلاقی مزمن فتظهر آثاره وعلائمه فی أعماله وسلوكیاته وكلماته. وقد أورد الكبار من علماء الأخلاق آثار الكبر وعلائمه فی كتبهم المفصّلة، وهـذه الآثار والعلائم قـد تظهر علی الوجه أحیاناً مثل أن یقطب المتكبّر وجهه فی مقابل الآخرین وینظر إلیهم بنظرة الاستحقار والمهانة بل قد لا یكون مستعداً لأن یقابلهم بجمیع وجهه. وأحیاناً اخری تظهر علائم هذا الخلق الـذمیم علی كلمـات الشـخص، فیتحـدّث بعبارات فیها نوع من المبالغـة عن نفسه ویـذكر نفسه بضـمیر الجمع بل قـد یتغیر لحن صوته لـدی تحـدّثه عن نفسه وعن الآخرین بمـا یحكی عن حالـة الغرور والتكبّر الّتی تعتمـل فی نفسه. فتارة یتجلّی الكبر فی أن یُبیح لنفسه التحدّث وقطع كلام الآخرین حیثما شاء ولا یسمح للآخرین بالحدیث ولا یُصغی لحدیثهم ویتوقع منهم الاصغاء لحدیثه وكلامه فقط، ویری أنّ كلام الآخرین طویلًا مهما قصر وكلامه الطویل والفارغ قصیراً وضروریاً. وأحیاناً یتجلّی التكبّر علی حركاته وأعماله وسلوكیاته فیحب أن یقف الآخرون تعظیماً له بینما یجلس هو أمامهم ولا یقوم لأحد عندما یرد علیه. ونقرأ فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «مَنْ ارَادَ انْ یَنْظُرَ الَی رَجُلٍ مِنْ اهْلِ النَّارِ فَلْیَنْظُرْ الَی رَجُلٍ قَاعِدٍ وَبَیْنَ یَدَیْهِ قَوْمٌ قِیَامٌ» «۱». وكذلك یحب أن لا یكون وحیـداً عندما یمشـی فی الشارع وأمام الناس بل یسیر معه وخلفه جماعة، فقد ورد فی الحدیث الشریف «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِی بَعْضِ الْاوْقَاتِ یَمشِی مَعَ الْاصْحَابِ فَیَأْمُرُهُمْ بِالتَّقَدُّمِ وَیَمْشِی فِی غِمَارِهِمْ» «۲». وكذلك یحب المتكبّر أن یأتی الآخرون لرؤیته دون أن یذهب هو لرؤیة الآخرین، ویجتنب الجلوس مع الفقراء والمحتاجین ومن یظهر علیه انه من أهل المستویات الدانیة فی المجتمع، ولو انه اتفق له أن سار معه مثل هؤلاء الأشـخاص فإنه یسـعی جاهـداً للتخلّص الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳ منهم فی أقرب فرصـة أو یوحی لهم بالإبتعاد عنه. ویحب أیضاً أن لا یعمل لأهل بیته شیئاً من السوق بیده ولا یقوم بعمل من أعمال البیت وتقوم زوجته وأولاده وخادمه بإظهار مراتب الخضوع أمامه والسعی لتلبیة حوائجه وأطاعة أوامره. وأحیاناً تظهر آثار التكبّر علی طریقة لباسه وكیفیّته وخاصّةً فی الألبسـة الغالیـة الّتی تجلب الإنتبـاه أو فی مركبه وسیارته أو فی ظـاهر بیته ووسائل معیشـته، أو فی مكان كسـبه ومحله وتجارته بل حتّی فی لبـاس أولاده وأقربائه والمنتسبین إلیه وطریقـة حیاتهم حیث یكون هـدفه من كلّ ذلك أن یتفاخر علی الآخرین بثروته ویبرز إلیهم بنقاط قوته لیثبت لهم انه أفضل منهم وأكثر امتیازاً وعنواناً. وبالطبع فإنّ هـذا الكلام لا یعنی أن یمتنع الإنسان من لبس الجیّد من الثیـاب ویلبس الرث منهـا بـل كما ورد فی الحـدیث النبوی الشـریف «كُلُوا وَاشْـرَبُوا وَالْبِسُوا وَتَصَـدَّقُوا فِی غَیْرِ سَـرَفٍ وَلَا مَخِیلَـةٍ» «۱». وخلاصـة الكلام أنّ ظهور هـذا الخلق الـذمیم أی (التكبّر) یمكن أن یسـتوعب جمیع مناحی وشؤون حیاة الإنسان ولا یمكن أن یبتلی الإنسان بهذه الصفة الرذیلة مهما كانت طفیفة إلّاوظهرت علی قسمات وجهه وفی طیّ كلماته وأعماله وسلوكیاته.

۷- مفاسد التكبّر وعواقبه الوخیمة

إن هـذا الخلق الـذمیم كمـا سـبقت الإشـارة إلیه له آثـار مخربـة جـداً وعواقب وخیمـة تعرض علی روح الإنسـان ومعتقـداته وأفكاره، وكذلك تعرض علی المجتمع البشـری أیضاً بحیث یمكن القول انه لیس هناك جهة من جهات حیاة الإنسان الفردیة والإجتماعیة تقع فی أمان من عواقب هذه الصـفة الأخلاقیة السلبیة، ویمكن الإشارة إلی عدّة موارد منها فیما یلی: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۴ ۱- التلوث بالشـرك والكفر إنّ أوّل مفسدة وأخطرها هو أن یورث التكبّر صاحبه التلوث بالشـرك والكفر، فهل لكفر إبلیس وانحرافه من

مسـیر التوحیـد بـل حتّی اعـتراضه علی حکمـهٔ اللّه تعـالی وأمره، لـه أصـل ومصـدر غیر الکـبر فی نفس إبلیس؟ وهـل أنّ الفراعنهٔ والنمرودیین وغیرهم من الأقوام الطاغیـهٔ الّذین رفضوا دعوهٔ الأنبیـاء کان لهم دافع غیر التکبّر؟ أنّ التکبر لا یبیح للإنسان أن یستسلم ویذعن أمام الحقّ، لأن التکبر والغرور هو فی الحقیقهٔ حجاب سـمیک علی بصیرهٔ الإنسان فیحجبه عن رؤیهٔ جمال الحقّ بل أحیاناً یری ملائکهٔ الحقّ علی شـکل موجود مخیف وموحش، وهذا من أعظم الضـرر الّذی یلحق بالإنسان من جراء التکبّر، ولعلّه لهذا السبب ورد فی الحـدیث الشـریف عن الإمام الصادق علیه السـلام عندما سأله الراوی عن أقل درجهٔ الإلحاد فقال له الإمام «إنَّ الْکِبْرَ ادْنَاهُ» «۱». ۲- الحرمان من العلم والمعرفـهٔ وأحد العواقب المشؤومهٔ للتکبر هو أنّ الإنسان یحرم نفسه من العلم والمعرفهٔ ویعیش حالهٔ الجهل المرکب دائمـاً لأن الإنسان إنّما یصل إلی حقیقـهٔ العلم والمعرفـهٔ فیما لو سـعی لتحصـیلها من أی شـخص وأی طریق کما یبحث الشـخص عن جوهرهٔ ثمینهٔ والحال أنّ المتکبّر لا یکون مسـتعداً لتحصیل العلوم والمعارف من الأشخاص الّذین یراهم دونه أو فی مرتبته. الأشخاص الّذین یتحرّکون فی سبیـل طلب العلم والمعرفـهٔ هم الّـذی یعیشون التحرر فی أفکـارهم من القوالب النفسانیـهٔ فی حین أنّ صـفهٔ الکبر والغرور لا تسـمح للإنسان أن یسـتوعب مطلباً مهماً. ولهـذا نقرأ فی الحدیث المعروف عن الإمام الکاظم علیه السـلام فی کلامه لهشام بن الحکم یقول: «إنَّ الزَّرْعَ یَنْبُتُ فِی السَّهْـلِ وَ لَـایَنْبُتُ فِی الصَّفَـا فَکَـذَلِکَ الْحِکْمَـهُٔ تَعْمُرُ فِی قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۵ وَلَـا تَعْمُرُ فِی قَلْبِ الْمُتَکَبِّرِ الْجَبَّارِ، لِـانَّ اللَّهَ جَعَـلَ التَّوَاضُعَ آلَهَ الْعَقْـلِ وَجَعَـلَ التَّکَبُّرُ مِنْ آلَهِ الْجَهْـلِ» «۱». ۳- التکبر المصدر الأساسـی للکثیر من الـذنوب لو تأملنا فی حالات الأشـخاص الّذین یعیشون الحسد، الحرص، بذاءهٔ اللسان، والذنوب الاخری لرأینا أنّ الأصل ومصدر جمیع هذه الرذائل الأخلاقیهٔ تنشأ من صـفهٔ التکبر، فهؤلاء لا یجدون فی أنفسهم رغبهٔ لرؤیهٔ من هو أفضل منهم، ولهذا فإنّ أیّهٔ نعمهٔ وموهبهٔ وموفقیهٔ تکون من نصـیب الآخرین فسوف یتعاملون معهم من موقع الحسد. إن هؤلاء ولغرض توطید أرکان حالهٔ الفوقیـهٔ لشخصـیاتهم فـإنّهم یحرصـون علی جمع الأـموال والـثروات. ولغرض إظهـار العلو علی الآـخرین یـبیحون لأنفسـهم تحقیرهم ویلوثون ألسـنتهم بأنواع البذاءهٔ فی الکلام والسبّ والشتم والهتک لإشباع هذه الحاجهٔ والنقص فی أنفسهم ولإطفاء هذه النار المستعرهٔ فی وجودهم. ونقرأ فی حـدیث عن أمیرالمؤمنین قوله «الْحِرْصُ وَالْکِبْرُ وَالْحَسَـدُ دَوَاعٍ الَی تَقَحُّم الـذُّنُوبِ» «۲». ونقرأ فی حـدیث آخر عن الإمام علی علیه السـلام أیضاً أنّه قال: «التَّکَبُّرُ یُظْهِرُ الرَّذِیلَهَ» «۳». ۴- التکبر مصدر النفرهٔ والفرقهٔ إن من البلایا المهمهٔ الّتی ترد علی المتکبرین هو الإـنزواء الإجتمـاعی وتفرّق النـاس من حولهم لأن شـرف الإنسان وعزّته الذاتیـهٔ لا تسـمح له بالخضوع أمام الأشـخاص المغرورین والمتکبّرین والانصیاع لأـوامرهم، ولهـذا السبب فـإنّ النـاس وحتّی المقرّبین سوف یتحرّکون بعیـداً عن هؤلاء المتکبّرین، وعلی فرض أنّ الآخرین یجـدون أنفسـهم مضـطرین لمعاشـرتهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۶ بسـبب الروابط الإجتماعیهٔ وبعض الضـرورات المعیشـیهٔ فإنّهم یجـدون فی أنفسـهم التنفر والکراهیـهٔ لهؤلاء. ونقرأ فی حـدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین أنّه قال: «مَنْ تَکَبَّرَ عَلَی النَّاسِ ذَلَّ» «۱». وفی حـدیث آخر عن الإمـام الصـادق أنّ رسـول اللّه صـلی الله علیه و آله قـال: «امْقَتُ النَّاسِ الْمُتَکَبِّرُ» «۲». وفی حدیث آخر عن الإمام علی أنّه قال: «ثَمَرَهُٔ الْکِبْرُ الْمَسَبَّهُٔ» «۳». وهذا المضمون ورد أیضاً فی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قـال: «لَیْسَ لِلْمُتَکَبِّرِ صَـدِیقٌ» «۴». وقـال أیضـاً فی حـدیث آخر: «مَا اجْتَلَبَ الْمَقْتَ بِمِثْلِ الْکِبْرِ» «۵». ۵- التکبر سـبب هدر المواهب الدنیویـهٔ إن کلّ إنسان لا یکون موفقاً فی حیاته إلّاإذا اسـتطاع جـذب تعاون الآخرین وانسـجامهم معه من موقع توطیـد أواصـر المحبهٔ والتعاون المشترک بین الأفراد، أما الشـخص الّذی یعیش الإنزواء ویسـلک فی حیاته ومعیشـته الوحدهٔ فإمّا أن یفشل فی اطار المعیشـهٔ الکریمهٔ أو یکون له نصیب قلیل من الموفقیهٔ فی حرکهٔ الحیاهٔ، وبما أنّ التکبر یدفع بالإنسان إلی زاویهٔ الإنزواء والعزلهٔ فإنّ توفیقاته فی حرکهٔ الحیاهٔ الإجتماعیهٔ سـتکون قلیلهٔ بالتبع. ونقرأ فی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین أنّه قال «بِکَثْرَهِٔ التَّکَبُّرِ یَکُونَ التَّلَفُ» «۶» أی تلف وهدر عوامل التوفیق وعناصـر النجاح فی الحیاهٔ. ویمکن تفسـیر هذا الحدیث بشـکل آخر وهو أن یقال بأن الکثیر من الحروب الدامیهٔ والنزاعـات المـدمرهٔ تنشـأ من حالـهٔ التکبر والاسـتکبار، فـالبعض یسـتلم زمام الامور فی دول الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۷ العالم ویریـد أن یتحکم ویتسـلط علی الآخرین من موقع القوّهٔ والقـدرهٔ وهـذا بـدوره یکون سـبباً فی حصـول النزاعات الدمویهٔ الکثیرهٔ فتهدر

الطاقات وتُسفک الدماء الکثیرة فی هذا الطریق وتتحول الدیار إلی الخراب الشامل. وأحیاناً یتجلّی التکبر من خلال القومیة والعرقیة حیث یری البعض أنّهم أطهر عرقاً وأسمی قومیة من الأقوام الاخری وهذه النظرة المتعالیة تمثل أحد الأسباب المهمة للحروب طیلة التاریخ البشری. فالنظرة الفوقیة والاستعلائیة للجنس الآری هو أحد العلل المهمة فی حدوث الحروب العالمیة الّتی خلفت ملایین القتلی والمجروحین وأتلفت ملیارات الثروات والأموال وخلّفت اضراراً لا تحصی وخلاصة الکلام أنّه: إذا درسنا الخسائر الّتی تتسبّب بواسطة التکبّر علی روح وجسم الإنسان وفی حیاته الفردیة والإجتماعیة لرأینا أنّه لیس هناک صفة من الصفات الذمیمة تکون هدّامة ومخربة إلی هذه الدرجة الّتی تنتجها حالة التکبّر فی الإنسان.

۸– علاج التکبّر

لقد بحث علماء الأخلاق علاج التکبر فی دراسات مفصلة تدور أغلبها حول محور العلاج بطریقین: العلم والعمل. أمّا الطریق (العلمی) فیمکن تصویره بأن یتفکر الأشخاص المتکبرین فی أنفسهم أنّهم مَن هم وأین کانوا وإلی أین یذهبون وما هو مصیرهم فی النهایة؟ ویتفکّرون کذلک فی عظمة اللَّه ویشاهدون أنفسهم أمام قدرة اللَّه المطلقة ورحمته الواسعة. إن التاریخ ملیء بالعِبر والحوادث المثیرة عن مصیر الفراعنة والنمرودیین والجبابرة من الأکاسرة والقیاصرة وأمثالهم بحیث لو أنّ الإنسان قرأ قلیلًا من هذه الحوادث والوقائع التاریخیة لعلم أنّ الانتصارات والملذات الدنیویة لا تعدّ شیئاً یمکن الاعتماد علیه علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۸ مستوی بیان عظمة الإنسان. عندما یکون الإنسان فی أوّله نطفة مهینة وفی آخره جیفة نتنة ویعیش بین هذین عدّة أیّام فلا یعدّ ذلک شیئاً یستحق الفخر والتکبّر والغرور. إنّ الإنسان فی بدایة تولده لیس سوی طفل ضعیف جدّاً وعاجز عن کلّ شیء وحتّی انه لا یتمکن من حفظ الماء الملقّی فی فمه بشفاهه، وکذلک عندما یبلغ سن الشیخوخة یکون ضعیفاً إلی درجة أنّه إذا أراد المسیر عدّة خطوات وکان یتمتع بأقدام سالمة فإنه لا یتمکن من ذلک إلّابأن یستریح کُلما قَطّعَ کلّ عدّة خطوات ویجدد طاقته ثمّ ینهض لیکمل مسیره متوکأً علی عصاه وقد احنی الدهر قامته، ولو لم یکن ذا أقدام سلیمة فإمّا أن یکون قد ابتلی ببعض عوارض الشیخوخة الّتی یبتلی بها أکثر الأشخاص فیجب أن یُنقل من جهة إلی اخری بواسطة الکرسی المتحرک. ونقرأ فی حدیث عن الإمام الباقر أنّه قال «عَجَباً لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ وَانَّمَا خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ یَعُودُ جِیفَةً وَهُوَ فِیما بَیْنَ ذَلِکَ لَایَدْرِی مَا یُصْنَعُ بِهِ» «۱». إذا ذهبنا یوماً إلی المستشفیات ورأینا الکثیر من الأقویاء والأصحّاء یرقدون علی أسرّة المستشفی بسبب حادثة اصطدام أو مرض معیّن حیث لا قدرة لهم علی الحراک، فندرک حینئذاک مقدار قوّة الإنسان وقدرته البدنیة الّتی یفخر بها. ولو نظرنا إلی الأثریاء المعروفین الّذین قد استولی علیهم حالة الإنهیار الاقتصادی والإفلاس المادی بتغیر بسیط فتحوّل حالهم من أعلی المقامات إلی أسفل السافلین وحینئذٍ نعلم أنّ الثروة الطائلة لیست شیئاً یعتمد علیه الإنسان ویفتخر به. ولو نظرنا إلی أصحاب القدرة والسلطة فی العالم وکیف أنّهم مع حدوث التغیر فی الوضع السیاسی یسقطون من کراسیهم وعروشهم ویفقدون قدرتهم أو یقبعون خلف قضبان السجن أو یحکم علیهم بالأعدام لرأینا القدرة الظاهریة لیست قابلة للاعتماد والفخر. إذاً فبأی شیء یفخر الإنسان؟ وکیف یستولی علیه الغرور ویباهی الآخرین ویفتخر علیهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۹ لقد ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام زین‌العابدین علیه السلام انه عندما وقع نزاع بین سلمان الفارسی وبین شخص مغرور ومتکبّر، فقال ذلک الشخص لسلمان: مَنْ أنت؟ فقال له سلمان: أما اولای واولاک فنطفة قذرة، وأما اخرای واخراک فجیفة منتنة، فإذا کان یوم القیامة، ووضعت الموازین، فمن ثقل میزانه فهو کریم، ومن خف میزانه فهو اللئیم» «۱». والخلاصة أنّ الإنسان کلّما تفکر وتأمل فی هذه الامور أکثر هبط من مرکب الغرور والکبر ووجد نفسه من موقع الحقیقة الشاخصة وبعیداً عن الأوهام النفسانیة والحالات الشیطانیة. وأما علاج التکبر علی المستوی (العملی) فهو أن یسعی الإنسان فی دراسة سلوکیات المتواضعین ویتحرّک مثلهم فی تعامله الاجتماعی حتّی تترسخ هذه الفضیلة فی أعماق وجوده وتتجذر فی واقعه النفسانی فیکون متواضعاً أمام اللَّه والناس فیسجد علی التراب قائلًا: «لَا الَهَ إلَّااللَّهُ حَقّاً حَقّاً سَجَدْتُ لَکَ تَعَبُّداً وَرِقّاً لَامُسْتَنْکِفاً وَلَا مُسْتَکْبِراً». وأمثال هذه العبارات. وکذلک

يلبس الملابس البسيطة ويأكل الأطعمة غير الممنوعة ويجلس مع عماله أو خدامه على مائدة واحدة ويتقدّم بالسلام على الآخرين ولا يجلس صدر المجلس ولا- يتقدم على الغير فى مشيه. أن يتعامل فى علاقاته مع الصغير والكبير من موقع العاطفة الجياشة والمحبّة الصميمية ويجتنب مجالسة المتكبرين والمغرورين ولا يرى لنفسه أى امتياز على الآخرين، والخلاصة أن يتحرّك فى سلوكه بعلامات التواضع أو يسعى للتظاهر بمظاهر التواضع فى البداية فى عمله وكلامه وحالاته الاخرى حتّى تصير لديه عادة ثمّ ملكة التواضع. وجاء فى حالات نبى الإسلام أنّه كان يجلس على الأرض ويأكل الطعام ويقول: «إنَّمَا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۰ أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ» «۱». وقد سمعنا الحديث المعروف عن الإمام على أنّه كان لديه يوماً قميصان اشترى أحدهما بأربعة دراهم والآخر بثلاث دراهم ثمّ قال لغلامه قنبر: اختر أحدهما، فاختار قنبر القميص الّذى قيمته أربعة دراهم وأختار الإمام ما كان بثلاث دراهم «۲». وجاء فى خطبة ۱۶۰ من نهج البلاغة أنّ الإمام كان يتحدّث عن نبى الإسلام ويقول: «وَلَقَدْ كَانَ يَأْكُلُ عَلَى الْارْضِ وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبْدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ وَيَرْكَبُ الْحِمارَ الْعَارِىَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ». وطبعاً هذه الامور وبسبب تغير الظروف الزمانية والمكانية لا- تُعتبر معمولًا بها فى هذا العصر ولا- يوصى باتباعها وسلوكها، ولكن الهدف هو أننا بمطالعة حالات هؤلاء العظام والتوجّه إلى مقامهم السامى نتعلم التواضع من سلوكياتهم ونُبعد بذلك الكبر والغرور عن ذواتنا وأفعالنا. هذا كلّه من جهة، ومن جهة اخرى: بما أنّ التكبر له أسباب وعلل مختلفة تمت الإشارة سابقاً إلى سبع علل منها ذكرها علماء الأخلاق، فلأجل إزالة كلّ واحدة من هذه العلل والأسباب هناك طرق وخطوات عملية وعلمية للتغلب عليها ومعالجتها منها: الأشخاص الّذين يجدون فى أنفسهم افتخاراً على الناس بسبب نسبهم وعراقتهم الاسرية يجب أن يتأمّلوا فى هذه الحقيقة وهى أوّلًا: إن افتخارهم بكمالات الآخرين من الآباء والأجداد هو عين الجهل، فلو أنّ الأب كان إنساناً فاضلًا ولكن الابن يفتقد إلى أدنى فضل وكمال فلا ينتقل كمال الأب وفضله إلى الابن ولا يوجد فى الابن قيمة مشهودة، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۱ وثانياً: إذا تأمل جيداً وجد أنّ أباه نطفة وجدّه الأعلى تراباً وهذه الامور ليست ذات قيمة يفتخر بها الإنسان ويرى لنفسه امتيازاً على الآخرين. وقد ورد فى الحديث الشريف أنّ لقمان الحكيم قال لابنه «يَا بُنَيَّ وَيْلٌ لِمَنْ تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ، كَيْفَ يَتَعَظَّمُ مَنْ خُلِقَ مِنْ طِينٍ، وَالَى طِينٍ يَعُودُ؟ لَايَدْرى الَى مَاذَا يَصِيرُ؟ الَى الْجَنَّةِ فَقَدْ فَازَ أوْ الَى النَّارِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً». وأمّا الأشخاص الّذين يتملكهم الغرور والتكبر بسبب جمالهم الظاهرى فيجب أن يتأملوا جيّداً أنّهم وبسبب مرض بسيط يصيب الجلد والوجه سيتحول جمالهم الباهر إلى وجه مشوّه وقبيح وحتّى لو لم يصبهم ذلك المرض فإنّهم بعد أعوام قليلة سيصلون إلى مرحلة الشيخوخة حيث يتراكم غبار السنين على وجوههم ويغيّر من ملامحه الجميلة ويحنى قامتهم المستقيمة ويدبُ فى مفاصلهم العجز والضعف فإذا كان ذلك الشىء المورث للفخر زائلًا بهذه السرعة، فكيف يكون سبباً للغرور والتفوق والتكبر على الآخرين؟ وإذا كان سبب التكبر هو قوته البدنية وقدرته الجسمانية فيجب أن لا ينسى انه قد يصاب أحياناً بعارضة قلبية صغيرة أو سكتة دماغية تكون نتيجتها أن يصاب قسم من بدنه بالشلل والعجز عن الحركة تماماً بحيث لا يتمكن من دفع حتّى ويتوقف الذباب عن نفسه ولو أصابه شوكة أو وخزته ابرة لا يتمكن من إخراجها أو التخلص منها لوحده. وأمّا لو كان سبب التكبر هو الثروة وكثرة المال والأعوان والأنصار فيجب أن يعلم أوّلًا: أنّ هذه الامور خارجة عن وجود الإنسان ولا تمثل شيئاً من ذاته وحينئذٍ لا تكون من عناصر الفخر والمباهاة، فكيف يفتخر الإنسان بشخصيته وعزّته الذاتية بامور من قبيل السيارة أو البيت أو الحصان وأمثال ذلك؟ وكيف يتصور شرفه وكرامته فى مثل هذه الامور المادية والأجنبية عن ذاته؟ هذه الامور يمكنها أن يمتلكها اللئيم من الناس واوضعهم نسباً وشرفاً، الامور الّتى يستطيع اللصوص بكلّ سهولة سرقتها منه فما أهون الشرف الّذى يستطيع اللصوص سرقته فيفتقده صاحبه بين عشية وضحاها. ومضافاً إلى ذلك فنحن نعلم أنّ الأموال والثروات الدنيوية تنتقل من يد إلى يد دائماً فالثروات الطائلة لدى الأغنياء قد تكون يوماً من نصيب الفقراء ويسكن أصحاب القصور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۲ يوماً فى الأكواخ. فمثل هذا الشىء بمثل هذا القدر من التزلزل والاهتزاز كيف يمكنه أن يكون عنصر الافتخار للإنسان وسبباً لغفلته عن مصيره وكمالاته المعنوية فى حركة الإنسان والحياة؟ وإذا كان سبب الكبر والغرور هو العلم الكثير ومع الأسف يُعتبر هذا من أقبح الآفات النفسانية الّتى تصيب الإنسان وبهذه النسبة يكون

علاجه أصعب وأعقد من العلل الاخرى وخاصة مع ورود الكثير من الآيات والروايات فى فضل العلم والتعلم حيث يمكن أن يصاب الإنسان بالغرور والكبر بعد قرائتها ومطالعتها، فيجب أن يتفكر أصحاب العلم والمعرفة أنّ القرآن الكريم وفى الآية (۵) من سورة الجمعة قد شبّه العلماء الّذين لا يتحركون على مستوى تطبيق علمهم فى ممارساتهم وسلوكياتهم، شبّههم بالحمار الّذى يحمل الكتب والأسفار على ظهره «كَمَثَلِ الحمارِ يَحملُ أسفاراً». وأيضاً يتفكر فى أنّ الشخص العالم ستكون مسؤوليته ثقيلة بنفس نسبة علمه إلى الآخرين ويمكن أن يغفر اللّه تعالى للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد كما ورد فى الروايات الشريفة. ولا ينبغى أن ننسى أنّ حسابهم يوم القيامة أصعب وأشد من حساب الآخرين، فكيف والحال هذه يكون العلم هذا سبباً للمباهات والافتخار على الغير؟ وأخيراً إذا كان سبب التكبر هو العبادة وطاعة اللّه تعالى فيجب على هذا الإنسان أن يتفكر فى أنّ اللّه لا يقبل من العبادة ما كان خليطاً بالعجب والكبر ويعلم أنّ الجاهل النادم أقرب إلى النجاة من العابد المغرور. هذا ولا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ قبول العبادة مشروط بأن يرى الإنسان فى نفسه الحقارة والدونية مقابل عظمة اللّه وقدرته وفضله على العباد ولو انه جاء بجميع عبادات الجن والأنس لوجد أنّ عليه أن يعيش الخوف والخشية من اللّه تعالى ولا يغفل عن ذلك طرفة عين.

۹– الاختبارات العلاجية

سبق وأن قلنا إن الأمراض الأخلاقية تشبه إلى حد كبير الأمراض البدنية وأنّ المقارنة بين هاتين الظاهرتين كفيل بحل الكثير من المشاكل، ومنها أنّ الطبيب فى الأمراض البدنية وبعد معالجة المريض يرسله مرّة اخرى إلى المختبر ليتأكد من شفائه الكامل، ولو انه رأى بعض آثار المرض لازالت فى بدنه فإنه يستمر فى علاجه حتّى يحصل المريض على الشفاء الكامل. وقد استخدم علماء الأخلاق فى مناهجهم وتعليماتهم الأخلاقية لعلاج الأمراض الخطرة مثل (التكبر) هذا المنهج أيضاً بحيث إن الإنسان عندما يتحرّك فى سبيل علاج التكبر ولأجل الاطمئنان من قلعه تماماً من وجوده ونفسه يجب أن يعرض على نفسه بعض الامور ويمتحنها لكى يطمئن إلى زوال جذور هذا المرض من أعماق نفسه. وقد ذكر الفيض الكاشانى بالاستفادة من (احياء العلوم) للغزالى تجارب فى هذا المجال ملفتة للنظر: الامتحان الأوّل: أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه فإنّ ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحقّ فذلك يدل على أنّ فيه كبراً دفيناً. الامتحان الثانى: أن يجتمع مع الأقران والامثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم، فإنّ ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلّفاً حتّى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر، وهاهنا للشيطان مكيدة وهى أن يجلس فى صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الاراذل فيظن أنّ ذلك تواضع وهو عين الكبر فإنّ ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنّهم إنما تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغى أن يقدم أقرانه ويجلس تحتهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الّذى يخرج خبث الكبر من الباطن. الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب فإنّ ثقل ذلك عليه فهو كبر فإنّ هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۴ النفس عنها ليس إلّالخبث فى الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف الّتى تزيل داء الكبر. الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت فإنّ أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإنّ كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر فإنّ كان يثقل إلّا عند مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب ومله المهلكة له إن لم تتدارك. أقول ليس كل رياء مذموماً بل قد يكون مستحباً بل واجباً إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يليق بذوى المروات أن يرتكبوا الامور السيئة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم فى الخلوة إلّاأنّ ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والبلاد والأشخاص فلابدّ من مراعاة ذلك، روى فى الكافى عن الصادق عليه السلام: «أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحى منه، فقال عليه السلام: اشتريته لعيالك وحملته إليهم أما واللّه لولا

أهل المدینۀ لأحببت أن أشتری لعیالی الشیء ثم أحمله إلیهم». أراد علیه السلام لولا مخافۀ أن یعیبوا علی ذلک، مع أنّ جدّه أمیرالمؤمنین علیه السلام کان یفعل مثله إلّاأنّه لما لم یعیبوا علیه بمثله فی زمانه وفی شأنه جاز له أن یرتکبه وکان منقبۀ له وتعلیماً. الامتحان الخامس: أن یلبس ثیاباً بذلۀ فإنّ نفور النفس عن ذلک فی الملأ ریاء وفی الخلو کبر، وقد قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «ومن اعتقل البعیر ولبس الصوف فقد برئ من الکبر»» .ولکن لا ینبغی أن یکون الدافع لذلک هو التظاهر بالتواضع فإنّ ذلک بنفسه نوع من الکبر المقترن مع الریاء والشرک الخفی. ونکرر مرةً اخری بأن هذه الامور تختلف باختلاف الأزمنۀ والأمکنۀ والاشخاص. ولابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جمیع هذه الظروف والعمل طبق مقتضیاتها وما یناسبها من دون التورط فی حبائل النفس وخدع الشیطان، ولذلک ینبغی الاستفادة أیضاً من حکم الآخرین وآرائهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۵ وهنا نثیر هذا السؤال وهو أنّه لماذا یهتم الناس کثیراً بالصحۀ البدنیۀ والطب الجسمانی ویتحرکون فی طلب الدواء والعلاجات لیطمئنوا علی سلامتهم البدنیۀ. والحال أنّهم لا یعیشون ذلک الاهتمام بأمر الطب الروحانی والأخلاقی الّذی یضمن لهم سعادتهم الاخرویۀ فی الحیاة الباقیۀ کما هو مدلول الآیۀ الشریفۀ: «إلّامن أتی اللَّه بقلبٍ سلیم». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۶

التواضع

تنویه:

من الواضح أنّ التواضع یشکل النقطۀ المقابلۀ للتکبّر والغرور، ومن العسیر الفصل الکامل بین هذین البحثین، ولذلک نجد أنّ هذین البحثین متلازمین فی الآیات والروایات الإسلامیۀ وکذلک فی کلمات علماء الأخلاق، فإنّ ذم أحدهما یلازم مدح الآخر، وکذلک العکس فإنّ عملیۀ التمجید والثناء علی التواضع یستلزم کذلک ذم التکبر، وهذا من قبیل مدح العلم والثناء علی العالم والمتعلم الّذی یقترن دائماً مع ذمّ الجهل وتوبیخ الجاهل. وعلی کلّ حال فإنّ هذا الکلام لا یعنی أنّ بحثنا المتعلق بالتواضع هذا سیکون فی زاویۀ النسیان ونکتفی بذم التکبر وبیان قبائح وعواقب هذه الصفۀ الذمیمۀ لا سیّما أن بین التکبر والتواضع نسبۀ الضدّین. لا النقیضین أی أنّ التکبر کما انه صفۀ وجودیۀ فکذلک التواضع صفۀ وجودیۀ نفسانیۀ أیضاً ویقعان علی الضد من الآخر فی واقع الإنسان ونفسه، ولیسا من قبیل الوجود والعدم الّذی یستلزم بالضرورة وجود أحدهما عدم الآخر بالتبع. وفی الروایات الإسلامیۀ نجد إشارة إلی هذا المعنی أیضاً ومن ذلک قول الإمام علی علیه السلام: «ضَادُّوا الْکِبْرَ بِالتَّواضُعِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۸ مع هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته ما یتعلق بمسألۀ التواضع ونختار منها ما یُلقی الضوء علی هذا البحث المهم رغم وجود آیات کثیرة تبحث هذا الموضوع بالکنایۀ أو بالملازمۀ. ۱- «یَا ایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَیُحِبُّونَهُ اذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ اعِزَّةٍ عَلَی الْکَافِرِینَ ...» «۱» ۲- «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْارْضِ هَوْناً وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۲». ۳- «وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ» «۳».

تفسیر واستنتاج:

«الآیۀ الاولی» من الآیات مورد البحث تتحدّث عن مجموعۀ من المؤمنین الّذین شملتهم رعایۀ اللَّه وعنایته فکانوا یحبون اللَّه ویحبهم، وإحدی الصفات البارزة لهؤلاء أنّهم یتعاملون مع أخوانهم المؤمنین من موقع التواضع والمودّة (اذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ) وکذلک فی المقابل (اعِزَّةٍ عَلَی الْکَافِرِینَ). (اذِلَّةٍ) جمع «ذلول» و «ذلیل»، ومن مادة «ذُل» علی وزن حُر، وهی فی الأصل بمعنی الملائمۀ والتسلیم واللیونۀ والإنعطاف فی حین أنّ کلمۀ «اعِزَّة» جمع «عزیز» ومن مادّة «عزة» وتأتی بمعنی الشدّة والصلابۀ، ویقال للحیوانات المطیعۀ «ذلول» لأنها ملائمۀ ومسلّمۀ للإنسان، و «تذلیل» فی الآیۀ الشریفۀ «ذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِیلًا» إشارة إلی هذا المعنی، وهو سهولۀ اقتطاف

ثمارها ثمار الجنّة، وأحياناً تُستخدم كلمة «ذِلّة» في موارد سلبية وذلك إذا واجه الإنسان موقفاً يُجبر فيه على شيء من غيره، وإلّا فإنّ المعنى السلبي لهذه الكلمة لا ـ الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۵۹ يوجد في بطنها ومفهومها في الأصل. وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة تدل بوضوح على أهمية التواضع وسمو مقام المتواضعين، ذلك التواضع الّذي ينبع من أعماق الإنسان ويمتد إلى وجدانه ليذيع في النفس احترام الطرف الآخر المؤمن ويتحرّك معه من موقع المودّة والتسليم والانعطاف مع الطرف الآخر. في «الآية الثانية» نجد إشارة أيضاً إلى الصفات البارزة والفضائل الأخلاقية لجماعة من عباد اللَّه تعالى الّذين وصلوا في سلوكهم المعنوي إلى مرتبة عالية من الكمال الإنساني والإلهي، حيث نقرأ في آيات سورة الفرقان من الآية ۶۳ إلى الآية ۷۴ اثنا عشر فضيلة مهمة وكبيرة لهؤلاء الأشخاص، والملفت للنظر أنّ أول صفة تذكرها الآية لهؤلاء هي صفة التواضع، وهذا يدلّ على أنّ التكبّر كما يمثل أخطر الرذائل الأخلاقية فكذلك التواضع يمثل أهم الفضائل الأخلاقية في واقع الإنسان وحركته الإجتماعية والمعنوية حيث تقول الآية «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً». (هون) مصدر بمعنى الهدوء والليونة والتواضع، واستعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل هنا لغرض التأكيد، أي أنّهم يعيشون التواضع والهدوء إلى درجة وكأنهم عين التواضع، ولهذا السبب تستمر الآية في سياقها بالقول «وَاِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً»؛ أي لو واجههم الجهلاء والأراذل من الناس من موقع الشتيمة والكلام الباطل فإنّ جوابهم لا يكون إلّابعدم الاعتناء وغض الطرف من موقع عظمة شخصيتهم وكِبَر نفوسهم. وفي الآية الّتي تليها وبعد أن يتم الحديث عن التواضع مع الآخرين من الناس يتحدّث القرآن الكريم عن تواضعهم أمام اللَّه تعالى ويقول «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً». ويقول الراغب في كتابه «مفردات القرآن»: الهوان على وجهين، أحدهما: تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به (ثم يورد الآية محل البحث) ونحو ما روى عن الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۶۰ النبي صلى الله عليه و آله: «المؤمن هيّن ليّن» «۱». الثاني: أن يكون عن جهة متسلّط مستخف به فيذمّ به «۲». ولا يخفى أنّ المقصود بقوله: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هوناً» ليس هو المشي في حالة التواضع فحسب، بل المقصود نفي كلّ نوع من التكبّر والأنانية والسلوكيات السلبية النابعة من حالة التكبّر السلبية والّتي تتجلّى في أعمال الإنسان وأفعاله الاخرى، وذكرت الآية المشي باعتباره نموذج عملي للدلالة على وجود التواضع كملكة نفسانية لدى هؤلاء، لأن الملكات الأخلاقية تتجلّى دائماً على كلمات الإنسان وحركاته الخارجية إلى درجة أنّه في الكثير من الحالات يُستدل على وجود أنواع من الصفات الأخلاقية في الشخص بواسطة المشي. أجل فإنّ أول صفة لعباد الرحمان هي التواضع الّذي يملأ وجودهم وينفذ إلى أعمال نفوسهم فيتجلّى ويظهر على حركاتهم وسكناتهم وكلماتهم، وعندما نرى أنّ اللَّه تعالى في الآية ۳۷ من سورة الإسراء يأمر نبيه الكريم بالقول «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً» فالمقصود ليس هو النهي عن حالة المشي بصورة معينة، فحسب بل الهدف هو غرس التواضع في جميع الحالات والسلوكيات الاخرى والّذي يُعد علامة على عبودية اللَّه تعالى. «الآية الثالثة» تخاطب النبي الأكرم وتقول «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «خفض» على وزن «كرب» هو في الأصل بمعنى السحب إلى الاسفل، وعليه فجملة «وَاخفِض جَناح» كناية عن التواضع المقرون بالمحبة والحنان كما هو حال الطائر الّذي يفتح جناحه ويضم إليه فراخه إظهاراً للمحبّة وبدافع الحنان ولصونهم من الأخطار المحتملة وحفظهم من التفرّق، وعلى هذا الأساس فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله مأمور بأن يتحرّك من هذا الموقع ليحفظ المؤمنين تحت جناحه وظلّه. الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۶۱ وهذا التعبير جميل جدّاً وملىء بالمعاني والنكات الدقيقة الّتي جُمعت في جملة واحدة. وعندما يُؤمر نبي الإسلام بالتواضع وإظهار المحبّة للمؤمنين فإنّ وظيفة المؤمنين وتكليفهم الأخلاقي تجاه بعضهم البعض واضح، لأن النبي الأكرم يُعتبر قدوة واسوة لجميع أفراد الامّة الإسلامية. وقد ورد هذا المضمون أيضاً في الآية ۸۸ من سورة الحجر حيث يقول تعالى «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» وهنا نرى أنّ المخاطب في هذه الآية هو النبي الأكرم أيضاً حيث أمره اللَّه تعالى بخفض جناحه للمؤمنين أي بالتواضع المقرون بالمحبّة في تعامله مع اتباعه من المؤمنين. وشبيه هذه العبارة مع تفاوت بسيط ورد في سورة الإسراء كتكليف للمسلم تجاه والديه حيث تقول الآية «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». ومن مجموع ما ورد من الآيات أعلاه نستوحي جيداً أنّ القرآن الكريم لم يكتف بذم التكبّر والاستكبار في مجمل السلوك

الأخلاقی للإنسان بل أکد علی النقطة المقابلة له أی التواضع والانعطاف واثنی علیه بتعبیرات مختلفة.

التواضع فی الروایات الإسلامیة:

اشارة

لقد ورد فی المصادر الروائیة لدی الشیعة وأهل السنّة أحادیث کثیرة فی باب التواضع تبین أهمیة هذه الصفة الأخلاقیة فی حرکة الإنسان التکاملیة والإجتماعیة، وورد فی بعضها علامات المتواضعین ونتائج وثمار التواضع وحدوده وآدابه. أما عن أهمیة التواضع فقد وردت تعبیرات جمیلة وجذابة فی الروایات الشریفة منها: ۱- ورد فی الحدیث الشریف أنّ رسول اللّه قال یوماً مخاطباً أصحابه: «مَا لِی لَاارَی عَلَیْکُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ؟! قَالُوا: وَمَا حَلَاوَةُ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ: التَّوَاضُعُ!» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۲ ولا یخفی أنّ حقیقة العبادة هی غایة الخضوع امام اللّه تعالی فالشخص الّذی ذاق حلاوة الخضوع والتواضع مقابل حقیقة الالوهیة والذات المقدسة فإنه سیتحلّی أیضاً بالتواضع مع الخلق. ۲- وفی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام: «عَلَیْکَ بِالتَّوَاضُعِ فَانَّهُ مِنْ اعْظَمِ الْعِبَادَةِ» «۱». ۳- وورد عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام: «التَّوَاضُعُ نِعْمَةٌ لَایُحْسَدُ عَلَیْهَا» «۲». ومن الطبیعی أنّ کلّ نعمة تصیب الإنسان فإنه سیتعرض فی الجهة المقابلة لأذی الحساد حیث تتحرک فیهم عناصر الحسد والکراهیة أکثر بحیث یضیق الفضاء علی صاحب النعمة ویعیش فی حالة من التوتر الّذی یفرزه حالة الحسد فی الطرف المقابل ولکن التواضع مستثنی من هذه القاعدة فهو نعمة لا تتغیر بحسد الحساد. ونختم هذا البحث المفصل بحدیث آخر عن النبی الأکرم: ۴- «یُبَاهِی اللَّهُ تَعَالَی الْمَلَائِکَةَ بِخَمْسَةٍ: بِالْمُجَاهِدِینَ، وَالْفُقَرَاء، وَالَّذِینَ یَتَوَاضَعُون للّهِ تَعَالَی، وَالْغَنِیِّ الّذی یُعْطِی الْفُقَرَاءَ وَلَا یَمُنُّ عَلَیْهِمْ، وَرَجُلٍ یَبْکِی فِی الْخَلْوَةِ مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» «۳». وعن ثمرات التواضع ونتائجه الإیجابیة وردت روایات کثیرة عن المعصومین نکتفی بذکر نماذج منها: ففی حدیث شریف عن الإمام أمیرالمؤمنین: «ثَمَرَةُ التَّوَاضُعِ الْمَحَبَّةُ وَثَمَرَةُ الْکِبْرِ الْمَسَبَّةُ» «۴». وفی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً: «بِخَفْضِ الْجَنَاحِ تَنْتَظِمُ الْامُورَ» «۵». ومن الواضح أنّ عملیة تنظیم امور المجتمع لا تتسنّی إلّابالتعاون والتکاتف الإجتماعی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۳ والعاطفی بین الأفراد، وهذا التعاون والتکاتف لا یکون إلّابأن یکون المدیر والمدبّر والقائم علی امور المجتمع لا یتعامل مع الأفراد بالضغط والإجبار أو بأن یتباهی ویتفاخر علی الآخرین ویری نفسه أفضل منهم، فإنّ المدیر الموفق فی عمله هو من یعیش حالة الحزم والقاطعیة فی عین التواضع والمحبة مع الآخرین. ونقرأ فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «التَّوَاضُعُ لَایَزِیدُ الْعَبْدَ الّا رَفْعَةً فَتَوَاضَعُوا یَرْفَعْکُمُ اللَّهُ» «۱». أحیاناً یتصور الإنسان أنّ التواضع یقلل من قیمة الشخصیة ویصغر شخصیة الفرد فی نظر الآخرین، فی حین أنّ هذا التصوّر ساذج ومجانب للصواب، فإننا نری أنّ الأشخاص المتواضعین فی المجتمع یتمتعون بالاحترام البالغ من قِبل الآخرین، وتواضعهم لا یزیدهم إلّا احتراماً وعزّة فی نفوس الناس. ویُستفاد من الأحادیث الإسلامیة انّ التواضع شرط فی قبول العبادات والطاعات ومن ذلک ما ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «التَّوَاضُعُ اصْلُ کُلِّ خَیْرٍ نَفِیسٍ وَمَرْتَبَةٌ رَفِیعَةٌ ... وَمَنْ تَوَاضَعَ للّهِ شَرَّفَهُ اللَّهُ عَلَی کَثِیرٍ مِنْ عِبَادِهِ ... وَلَیْسَ للّهِ عَزَّوَجَلَّ عِبَادَةٌ یَقْبَلُهَا وَیَرْضَیها الّا وَبَابُهَا التَّوَاضُعُ، وَلَا یَعْرِفُ مَا فِی مَعْنی حَقِیقَةِ التَّوَاضُعِ الَّا الْمُقَرَّبُونَ الْمُسْتَقِلِّینَ بِوَحْدَانِیَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْارْضِ هَوْناً وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۲». ونختم هذا البحث بحدیث عن السیّد المسیح علیه السلام حیث قال: «بِالتَّوَاضُعِ تَعْمُرُ الْحِکْمَةُ لَا بِالتَّکَبُّرِ، کَذَلِکَ فِی السَّهْلِ یَنْبُتُ الزَّرْعَ لَافِی الْجَبَلِ» «۳». والخلاصة أنّ التواضع فی حرکة الحیاة العلمیة والثقافیة یؤثر إیجابیاً فی حیاة الإنسان (لأنّ الشخص المتکبر یکون محجوباً عن رؤیة حقائق الامور بسبب تکبره) وکذلک یؤثر التواضع تأثیراً إیجابیاً فی حرکة الإنسان الإجتماعیة (لأنّ الشخص المتواضع یزیده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۴ تواضعه محبة فی قلوب الناس ویحترمه الجمیع لأخلاقه الحسنة والطیبة) وکذلک یؤثر التواضع تأثیراً إیجابیاً فی علاقة الإنسان بخالقه لأن التواضع یمثل روح العبادة ومفتاح قبول الأعمال والطاعات. وبالنسبة

إلى علامات التواضع فقد وردت روايات لطيفة وجميلة فى الروايات الإسلامية، ففى حديث عن الإمام على بن أبى طالب نقرأ: «ثَلَاثٌ هُنَّ رَأْسُ التَّوَاضُع: انْ يَبْدَءَ بِالسَّلَامِ مَن لَقِيَهُ، وَيَرْضَى بِالدُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمجْلِسِ، وَيَكْرَهُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةَ» «۱». وفى بعض الروايات نقرأ علامات اخرى أيضاً للتواضع منها ترك المراء والجدال، أى أنّ الإنسان لا يدخل فى مناقشة وجدل فكرى من أجل اشباع رغبة التفوق على الآخرين واظهار فضله عليهم، ومن العلامات الاخرى عدم الرغبة فى ثناء الناس عليه ومدحهم له «۲».

۱– تعريف التواضع

«التواضع» من مادّة «وضع»، وهى فى الأصل بمعنى وضع الشيء إلى الأسفل. وهذا التعبير ورد بالنسبة إلى النساء الحوامل اللآتى يلدن حملهن فيقال «وضعت حملها» وكذلك بالنسبة إلى الخسارة والضرر الّذى قد يتحمله الإنسان فيقال «وضيعة»، وعندما تُطلق هذه الكلمة ويُراد بها صفة أخلاقية فى الإنسان فإنّ مفهومها أنّ الإنسان ينخفض بنفسه عن مكانته الإجتماعية، بعكس حالة التكبّر الّتى يفهم منها استعلاء الإنسان عن واقعه الإجتماعى وطلب التفوق على الآخرين. ويرى البعض من أهل اللغة أنّ «التواضع» بمعنى «التذلل» والمقصود من التذلل هنا الخضوع والتسليم. وذكر المرحوم النراقى فى «معراج السعادة» فى تعريف التواضع أنّه قال (التواضع عبارة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۵ عن الإنكسار النفسى الّذى لا يرى معه الإنسان نفسه أعلى من الآخرين ولازمه أن يتحرك الشخص تجاه الآخرين من موقع الاحترام والتعظيم لهم بكلماته وأفعاله) «۱». وفى حديث آخر عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال عندما سُئل: «مَا حَدُّ التَّوَاضُعِ الّذى إذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ مُتَوَاضِعاً؟ فَقَالَ: التَّوَاضُعُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا انْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيُنَزِّلُهَا مَنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ لَايُحِبُّ انْ يَأْتِيَ الَى احَدٍ الّا مِثْلُ مَا يُؤْتَى الَيْهِ، انْ رَأَىَ سَيِّئَةً دَرَاهَا بِالْحَسَنَةِ، كَاظِمُ الْغَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» «۲». وممّا ورد فى هذه الرواية الشريفة والمهمة هو فى الحقيقة علامات التواضع حيث يمكننا من خلالها التوصل إلى تعريف التواضع. وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «التَّوَاضُعُ الرِّضَا بِالْمَجْلِسِ دُونَ شَرَفِهِ وَانْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ لَقِيتَ وَانْ تَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَانْ كُنْتَ مُحِقّاً» «۳». والحقيقة هى أن تعريف التواضع لا ينفصل عن علامات التواضع لأن من أفضل التعاريف للمفردات اللغوية والأخلاقية هو التعريف المشتمل على علامات ذلك الموضوع المراد تعريفه.

۲– التواضع وكرامة الإنسان

عادة نرى فى مثل هذه المباحث الأخلاقية أنّ البعض يسلك فيها مسلك الافراط والبعض الآخر مسلك التفريط، مثلًا يتصور البعض أنّ حقيقة التواضع هى أنّ الإنسان يستذل نفسه أمام الناس ولا يرى لنفسه مقداراً وشأناً من الشؤون، وقد يقوم بأعمال واهنة يسقط بسببها من أنظار الناس فيساء الظن به كما ذكر فى حالات الصوفية هذا المعنى أيضاً وأنّهم عندما يشتهرون فى منطقة بالصلاح والفضل فإنّهم يرتكبون أعمال قبيحة ومنافية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۶ للمروءة ليسقطوا فى أنظار الناس، مثلًا لا يهتمون بأمر العبادة وقد يرتكبون الخيانة فى أمانات الناس بحيث يتركهم الناس، وبهذه الطريقة يتصورون أنّ هذا الاسلوب هو نوع من التواضع ورياضة النفس. بينما نجد أنّ الإسلام لا يُبيح للإنسان تحقير نفسه وإذلالها باسم التواضع ولا يرضى بأن يتحرّك الإنسان لإسقاط شخصيته وكرامته وسحقها، فالمهم أنّ الإنسان فى عين ممارسة التواضع يحفظ شخصيته الإجتماعية ولا يذل نفسه، فلو أنّ الإنسان سعى للتحلى بالتواضع بصورته الصحيحة فليس لا يجد هذه الآثار السلبية فحسب بل على العكس من ذلك، فإنّ احترامه وشخصيته ستزداد وتتعمق فى أنظار الناس، ولهذا ورد فى الروايات الإسلامية عن أميرالمؤمنين أنّه قال «بِالتَّوَاضُعِ تَكُونُ الرَّفْعَةُ» «۱». ويقول الفيض الكاشانى تحت عنوان غاية الرياضة فى خلق التواضع: «اعلم إنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الّذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الّذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً، والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة

ومن غير تخاسس، فإنّ كلا ـ طرفى قصد الامور ذميم، وأحب إلى اللّه تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أى أنّه وضع شيئاً من قدره الّذى يستحقه، والعالم إذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند اللّه العدل وهو أن يعطى كل ذى حقّ حقّه، فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ولمن بقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال وإجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلک، وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره وخاتمته» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۷ ۳ و ۴

الحرص والقناعة

تنويه:

سبق وأن قرأنا فى الفصل السابق الحديث الوارد عن الإمام على بن الحسين زين‌العابدين يذكر فيه أنّ أوّل مصدر للمعصية هو التكبر حيث تكبّر إبليس ورفض السجود لآدم بسبب تكبره وطغيانه، ثمّ ذكر الإمام زين العابدين (الحرص) بعنوان انه المصدر الثانى للمعصية حيث ذكر فيه ما صدر من الترك للأولى من قِبل آدم وحواء وأكلهما من الشجرة الممنوعة بدافع من الحرص، ثمّ ذكر (الحسد) الّذى يتمثل فى حسد قابيل لأخيه هابيل وقتله. إن افرازات الحرص السلبية لم تتجلّى فقط فى قصّة آدم بل فى قصص الأنبياء وتصدّيهم لسلوكيات أقوامهم المنحرفة طيلة التاريخ البشرى، فنحن نرى فى قصص الأقوام البشرية السالفة والمجتمعات المختلفة أنّ الحرص والطمع كان يمثل المصدر للكثير من الجرائم والحروب الدموية والغارات الوحشية وسحق المبادئ الإنسانية والفضائل الأخلاقية فى حركة الحياة البشرية والمجتمعات الإنسانية. والنقطة المقابلة لهذه الرذيلة الأخلاقية هى (القناعة) الّتى تورث الإنسان الطمأنينة والهدوء النفسى، العدالة، الصلح، الاخوة والصفاء فى دائرة العلاقات الإجتماعية، وبالنظر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۸ إلى المنهج المتّبع لترتيب الفضائل والرذائل الأخلاقية (المنهج الّذى يبتدئ فى دراسة واستعراض حالات الأنبياء من آدم إلى نبيّنا الكريم الواردة فى القرآن المجيد) فإنّ ثانى صفة من الصفات الرذيلة هى الحرص المتمثل فى قصّة آدم، وكذلك قصة شعيب وداود وبشكل عام اليهود، وسنتعرض كذلك ما ورد من الحوادث المتعلقة بالمسلمين والمشركين العرب فى عصر النزول أيضاً. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ما ورد فى هذا المضمون الأخلاقى: ۱- «فَوَسْوَسَ الَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ ادُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى* فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى» «۱». ۲- «وَالَى مَدْيَنَ اخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ الَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَائَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ اشْيَائَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْارْضِ بَعْدَ اصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ انْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «۲». ۳- «انَّ هَذَا اخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ وَانَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَانَابَ» «۳». ۴- «وَلَتَجِدَنَّهُمْ احْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ اشْرَكُوا يَوَدُّ احَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ الْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ انْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۹ ۵- «انَّ الْانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» «۱». ۶- «وَاذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا الَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُل مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» «۲». ۷- «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الَّذى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۳»

تفسير واستنتاج:

تتحدّث «الآية الاولى» من الآيات المذكورة آنفاً عن قصة آدم وزوجته حواء وما جرى لهما مع الشيطان الرجيم، فطبقاً للآيات القرآنية فإنّ اللَّه تعالى قد اسكن آدم وحواء الجنّة ونهاهما عن الاقتراب من الشجرة الممنوعة وحذرهما من إغواء إبليس ووسوسته، ولكن الشيطان افلح فى إغوائه ووسوسته وارتكب آدم ترك الأولى وأكل من الشجرة الممنوعة، وبذلك طرد من الجنّة وغرق فى دوّامة البلايا والمشاكل الدنيوية فى هذه الحياة. الآيات أعلاه تشير إلى هذه الحادثة التاريخية وتقول: «فَوَسْوَسَ الَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ ادُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى* فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى . وفى الواقع فإنّ الشيطان ذكر لآدم عن الشجرة الممنوعة بانّ كلّ من يأكل منها سوف يحظى بطول العمر ويغرق فى النعمة والسعادة الخالدة. ما هو السبب الّذى دفع آدم إلى قبول وسوسة الشيطان والاعتماد على كلماته ووعوده ونسيان الأمر الإلهى ونهيه عن تناول ثمرة الشجرة الممنوعة؟ أليس الحرص والطمع هو الّذى حجبه عن رؤية حقائق الامور؟ وبهذا نرى أنّ حالة التكبر هى الّتى أدّت إلى ضلال الشيطان وعصيانه لأوامر اللَّه تعالى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۰ فى بداية الخلقة، وترتب على ذلك أعظم المفاسد فى عالم الوجود، وهكذا نرى أنّ حالة الحرص والطمع والرغبة فى الملّذات المادية والدنيوية هى العامل الآخر لشقاء الإنسان وغرقه فى وحل المفاسد والمشاكل الكثيرة فى حياته، ولهذا السبب فقد ورد فى النصوص الدينية أنّ اصول الكفر ثلاثة: «التكبر» الّذى أدّى إلى ضلال إبليس وانحرافه عن طريق الحق، «الحرص» الّذى تسبب فى انحراف آدم وخروجه من الجنّة، و «الحسد» الّذى تسبب فى قتل هابيل على يد أخيه قابيل. وصحيح أنّ النهى الإلهى المتوجه لآدم لم يكن نهياً تحريمياً ولذلك لم تكن مخالفته معصية مطلقة بل كان من قبيل (الترك للأولى ، أو بتعبير آخر كان نوعاً من النهى الإرشادى كما فى نهى الطبيب للمريض عن تناول بعض الأطعمة غير الملائمة لصحته ومزاجه ولكن على أيّة حال فقد كان المتوقع من آدم أن لا يرتكب هذا الترك الأولى، لكن صفة الحرص والطمع قد دفعت بآدم إلى هذا المنزلق الخطير، وبالتالى أوقع نفسه وذريته من البشر فى دوّامة من المشاكل والشدائد والمصائب فى حركة الحياة. «الآية الثانية» تتحدّث عن قصّة قوم شعيب الّذين دفعهم الحرص على المزيد من الملذات الدنيوية والطمع فى التكاثر فى الأموال والثروات المادية أن يديروا ظهورهم عن الحقّ ويتركوا دعوة نبيهم شعيب وإنكار التعليمات السماوية الّتى جاء بها هذا النبى الكريم لتهديدهم وتخليصهم من أدران الشهوات المادية الرخيصة حيث تقول الآية: «وَالَى مَدْيَنَ اخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ الَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ اشْيَائَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْارْضِ بَعْدَ اصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ انْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». وطبقاً لهذه الآية فإنّ انحراف قوم شعيب كان يتمثل أوّلًا فى الشرك وعبادة الأوثان ثمّ التطفيف فى الميزان وأكل أموال الناس بالباطل والغش والإفساد فى الأرض، وهكذا نرى أنّ هؤلاء القوم كانوا حريصين على الدنيا إلى درجة أنّهم قالوا لشعيب كما تصرّح الآية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۱ «قَالُوا يَا شُعَيْبُ اصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ انْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَائُنَا اوْ انْ نَفْعَلَ فِى امْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ...» «۱». هذا والحال أن غصب حقوق الناس والتطفيف فى الميزان لم يكن ليؤدى إلى عدم زيادة ثرواتهم وأموالهم فحسب، بل كما أشار القرآن الكريم ادّى إلى فساد المجتمع وإيجاد الخلل والارتباك فى مفاصله وزوال الثقة بين الأفراد فى عملية التفاعل الإجتماعى واهدار الطاقات واتلاف الأموال وأمثال ذلك، وعليه فإنّ صفة الحرص أدّت إلى نتائج معكوسة فى مسيرتهم الإجتماعية والدنيوية. «الآية الثالثة» من الآيات محل البحث تستعرض الحادثة الّتى حدثت لداود والّتى تعكس فى مضمونها الصفة الذميمة للحرص وابعادها السلبية فى حياة الإنسان وعلاقته مع الآخرين، وتتلخص هذه القصة فى أخوين جاءا إلى النبى داود فقال أحدهما «انَّ هَذَا اخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» «۲» وهكذا نجد أنّ صاحب التسع وتسعين نعجة طمع فى ضم نعجة أخيه الواحدة إلى نعاجه وأصرّ عليه بقبول هذا العرض والطلب، وعندما سمع داود هذا الكلام تأثر كثيراً و «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ» ثمّ ذكر داود لهذين الأخوين أنّ هذه الحالة تكاد تكون طبيعية لدى بنى البشر وخاصة فى حالة الشركة مع بعضهم فيتحرك بعضهم من موقع الظلم والاجحاد بحقّ البعض الآخر، باستثناء المؤمنين الّذين يمنعهم إيمانهم من سلوك طريق الباطل وقال لهما «وَانَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا

هُمْ». ونقرأ فى ذيل الآيـة الكريمـة «وَظَنَّ دَاوُدُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَانَابَ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۲ ولكن مـاذا حـدث لـداود فى هـذه الفتنـة وهـذا الامتحـان الإلـهى؟ هناك كلام كثير بين المفسّـرين، وأما ما ورد فى التوراة المحرّفـة الحالية فيتلخص فى أنّ داود كان قـد طمع فى زوجة أحد قادته العسكريين ويدعى «اوريای حتى» والّذى كانت له زوجة جميله جدّاً فعشـقها داود واحتـال لتحريرهـا من قيـد زوجيتهـا مع اوريا ليتمكن من الزواج بها مع انه كانت له أزواج عديـدة، وهكـذا نرى أنّ هـذه القصـة المفتعلـة لا ـ تتنـاسب مطلقـاً مع قداسـة الأنبياء الإلهيين بل لا تتناسب مع الأخلاق الإنسانيـة لـدى أىّ إنسان فى المسـتوى المتوسط من الأخلاق، فانّ كلّ إنسان يسـتقبح هـذه الحالة فى نفسه وفى غيره من البشـر. والمشـهور بين المفسِّـرين الإسـلاميين هو أنّ امتحان داود كان يتعلق بمسألـة القضاء وانه اسـتعجل فى حكمه وقبل أن يسـمع حجّة الطرف الآخر حكم بينهما وقضـى للأوّل على الثانى، وبالرغم من أنّ حكمه وقضائه كان مصيباً للحقّ فإنّ اللّه تعالى وبّخه على تركه للأولى فى هذه القضـية، ثمّ إنّ داود التفت إلى ذنبه وتاب منه. وعلى أيّة حال فمقصودنا من اسـتعراض هذه القصة هو أنّ الإنسان عندما يسـتولى عليه الحرص والطمع فإنه يتحرّك من موقع ارتكاب الظلم والجور حتّى بالنسبـة إلى أخيه الضـعيف والمسكين ولا يأبى عن غصب حقّه وحرمانه من أبسط لوازم الحياة والمعيشة. أجل فإنّ الحرص على الـدنيا وملـذاتها لا يعرف حـدّاً وحدوداً بل يجرّ الإنسان إلى ارتكاب أشـنع الظلم والجور فى حقّ الآخرين. «الآية الرابعة» من الآيـات التى جاءت فى البحث وتشـير إلى حرص اليهود على الحياة الـدنيا، وتنطلق الآيـة من موقع الـذم لهؤلاء فتقول: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ احْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ اشْرَكُوا». هؤلاء حريصون على جمع الأموال والثروات، حريصون على الملك والتسلط على الدنيا، حريصون على التمسّك بزمام الامور، والعجيب أنّهم احرص من المشركين الّذين لا يلتزمون بأىّ دين ولا يعتقدون بأيّة شريعة سماوية فى حيـن أنّ التعليمـات السـماوية تـذم الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۳ هـذه الحالـة الأخلاقية السـلبية والمفروض بالإنسان الملتزم بالـدين والشـريعة أن تؤثر فيه هـذه التعليمـات السـماوية وتحـدد من حرصه على الـدنيا وزخارفهـا الزائلـة ولكننا نجـد أنّ اليهود كانوا أحرص من المشـركين عليهـا. وكما تقول الآيـة «يَوَدُّ احَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ الْفَ سَنَةٍ». فهؤلاء و من أجل جمع الثروات وبـدافع الخوف من العذاب الإلهى الّذى ينتظرهم بسبب ظلمهم وعدوانهم وغصبهم لحقوق الآخرين وسفكهم لدماء الأبرياء فإنّهم كانوا يتمنون هذا العمر الطويل. والملفت للنظر أنّ حالة اليهود فى هذا العصر لم تختلف عنها فى العصور السابقة فنراهم يعيشون حالة الحرص الشديد هذه بل وأشد من السابق، فإنّ التاريخ المعاصـر يشهد بأن اليهود لا يمتنعون من ارتكاب أيّة جناية فى سبيل المزيد من جمع الثروات والأموال، فما أكثر الحروب الدامية الّتى أشعلوها بين المجتمعات البشرية، وما أكثر دماء الأبرياء الّتى سفكوها، وما أكثر الفتن الّتى أوقدوا نيرانها بين الشـعوب، وما أكثر الأسـلحة والمواد المخـدّرة الّتى تاجروا بها لإفساد وتـدمير العلاقات الإجتماعيـة بين أبناء البشـر، كلّ ذلك من أجـل تحكيم اركـان سـيطرتهم على مقـدّرات الامـم والشـعوب، ومـا أكثر الكـذب والـدجل والـذى يروجونه بين الناس من الإذاعات العالميـة الّتى يقف الصـهاينة واليهود من ورائها. إذا أردنا أن نسـتعرض النتائج السـلبية والعواقب الوخيمة لحالة الحرص والطمع وحب الـدنيا على الإنسان فينبغى أن نسـتعرض أعمال هؤلاء على هذا المسـتوى وتعبير «حياة» الّذى جاء فى الآية بصورة نكرة لعله إشارة إلى هـذه الحقيقة، وهى أنّ هؤلاء القوم يريدون ويطلبون الحياة لأجل اللّذة فقط ولكن أيّة حياة؟ هل هى حياة إنسانية، أو حياة حيوانية، أو حياة الوحوش فى البرارى والغابات؟ كلّ ذلك غير مهم فى نظر هؤلاء. وكما قال بعض المفسّـرين أنّ هـذه الآية لا تتحدّث عن اليهود فقط بل تمثل تحـذيراً لجميع أفراد البشـر تحـذرهم من الحرص وعواقب حبّ الدنيا لكيلا يبتلوا بما ابتُلى به اليهود فى حياتهم الدنيوية وسلوكياتهم الأخلاقية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۴ وقد ورد فى الآيات القرآنية والروايات الشـريفة عن اليهود أنّهم قتلوا الكثير من الأنبياء الإلهيين لمجرّد مخالفتهم لهم ونهيهم عن سلوكياتهم المنحرفـة ورغباتهم اللامشـروعة فى هـذه الحياة، وكـذلك تحريفهم لآيات اللّه وكتبه السـماوية وكلّ ذلك كان بسـبب حرصـهم وحبهم للـدنيا. «الآيـة الخامسة» تتحرّك على مستوى اسـتعراض صـفات الإنسـان وحالاـته السـلبية من الحرص والجزع والبخـل وأمثـال ذلـك وتقول: «انَّ الْانْسَـانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً». وقد ذكر المفسّرون وأرباب اللغة لكلمة «هلوع» معان كثيرة، وفى الواقع أكثرها من باب اللازم والملزوم ومتقاربة المعنى،

ومن ذلک ما ذکره صاحب لسان العرب من المعانی الأربعة لهذه الکلمة وهی: الحرص، الجزع، الضجر، وقلة الصبر، وأورد فی «مجمع البیان» أیضاً لمعنی الهلوع: «ضجور» و «شحیح» و «جزع» و «شدید الحرص». وذهب صاحب کتاب التحقیق أنّ الجذر الأصلی لهذه الکلمة هو رغبة الإنسان فی الاستمتاع بالنعم والملذات، أما الجزع والحرص وقلّة الصبر فکلّها من آثار هذه الکلمة ومعناها الأصلی. ومن مجموع ما تقدّم یظهر أنّ هذه الکلمة تتضمن ثلاث نقاط سلبیة فی دائرة الأخلاق وهی: الحرص، الجزع والبخل. وفی الواقع فإنّ تفسیر کلمة «هلوع» ورد فی نفس السورة بعد هذه الآیة حیث یمکن استفادة المفهوم الواقعی لها بحیث تتضمن هذه المعانی الثلاثة لأن «جزوع» من مادة «جزع» و «منوع» من مادّة «منع»، ویدخل فی معناها البخل والحرص. وعلی أیّة حال فإنّ الآیات المذکورة وردت فی مقام ذم الأشخاص الّذین یستولی علیهم الحرص والبخل والجزع. ویمکن القول أنّ «الحرص» هو المصدر الأساس للبخل، لأن الحریص یرید الاحتفاظ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۵ بکلّ شیء لنفسه ومنه ینشأ البخل، وکذلک فإنّ الحرص أحیاناً یسبب الجزع وقلّة الصبر، لأن الحریص إذا فقد بعض ممتلکاته ومتعلقاته فسوف یتألم کثیراً ویتعامل مع الامور من موقع الجزع والحدّة. فالآیة الشریفة تقرر بأن الإنسان قد خُلق بهذه الصفات، ولکن قد یُثار فی الذهن هذا التساؤل، وهو أنّ اللَّه تعالی قد خلق الإنسان من أجل السعادة الخالدة ونیل المقامات والکمالات المعنویة، فکیف یخلقه بهذه النقائص ونقاط الضعف الّتی تحجبه عن سلوک طریق الحقّ وتصدّه عن السیر فی طریق الکمال والسعادة؟ وقد أجاب البعض علی هذا السؤال بأن هذه الصفات السلبیة تتعلق بالإنسان الفاقد للإیمان، فإنّ طبع الإنسان المؤمن یتناغم مع الصبر والمثابرة والکرم وأمثال ذلک ولکن عندما ینفصل عن دائرة الإیمان، فمن الطبیعی أن یجزع مقابل أقل مشکلة وأدنی شدّة لأنّه یفتقد السند والدعامة الأساسیة فی حیاته العملیة ویجد نفسه وحیداً فی مقابل تحدّیات الواقع الصعبة، فلذلک یتعامل مع الحیاة من موقع الحرص والبخل ولا یجد فی نفسه اعتماداً وتوکلًا علی اللَّه تعالی الّذی بیده مفاتح الغیب وبالتالی لا یطمئن إلی غده وما سیواجهه فی المستقبل من حوادث وأزمات. والشاهد علی هذا هو أنّ الآیات الّتی جاءت بعد هذه الآیة استثنت المصلین من هذا الحکم العام علی الإنسان، ویحتمل أیضاً أنّ الآیات محل البحث کما هو الحال فی کثیر من الآیات الشریفة الّتی تصف الإنسان بأنه «ظلوم» و «جهول» و «یؤوس» و «کفور» و «طغی وأمثال ذلک، فتشیر هذه الآیات إلی وجود بُعدین فی کیان الإنسان: البُعد الّذی یأخذ بالإنسان ویصعد به إلی أعلی علّیین، وهو ما یصطلح علیه بقوس الصعود، والبُعد الآخر ما یجره إلی أسفل السافلین وهو قوس النزول. ویری العلّامة الطباطبائی فی «المیزان» رأیاً آخر فی هذا الصدد، فیقول بأن الحرص صفة من الصفات الذاتیة للإنسان ومتفرعة علی حبّ الذات، وهی فی الأصل لیست من الرذائل لأن حبّ الذات الّذی تتولد منه هذه الصفات هو المحور الأساس الّذی یسوق الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۶ الإنسان إلی الکمال المعنوی ویدفعه نحو طریق السعادة الخالدة، فهذه الصفات إنّما تکون ذمیمة وقبیحة فیما لو لم یستخدمها الإنسان فی الطریق الصحیح واللائق، وفی الحقیقة أنّ هذه الصفات مثل سائر الصفات النفسانیة الّتی إذا لزمت حدّ الاعتدال تُعدّ فضیلة وإذا تجاوزت إلی جهة الافراط أو التفریط فإنّها تکون من الرذائل. وعلی أیّة حال فالآیات أعلاه تبین أنّ القرآن الکریم دعا جمیع الناس إلی الإیمان والصلاة والدعاء والإنفاق فی سبیل اللَّه لإطفاء نار الحرص والبخل والجزع فی وجوده وواقعه النفسانی. «الآیة السادسة» تستعرض واقعة من الوقائع الّتی جرت فی زمان صدر الإسلام حینما کان المسلمون یعیشون القحط والجوع وغلاء الأسعار، وهناک وردت قافلة إلی المدینة محملة بالبضائع والمواد الغذائیة من الشام وقد صادف دخول هذه القافلة الظهر من یوم الجمعة حیث کان النبی یخطب فی الناس خطبتی الجمعة. وقد کان المتعارف فی ذلک الزمان أنّه عندما تَرد قافلة إلی مدینة معیّنة تُدق الطبول ویُعزف علی آلات الموسیقی حتّی یجتمع الناس بسرعة لشراء ما یحتاجونه من هذه القافلة، وعندما سمع المصلون صوت القافلة الواردة إلی المدینة ترک بعضهم من الّذین أسلموا حدیثاً صلاة الجمعة وتوجّهوا إلی السوق لشراء البضاعة من القافلة فی حین لم یکن لذلک ضرورة لازمة وکان من الممکن التوجّه إلی القافلة بعد إتمام صلاه الجمعة، وعلی أیّة حال فلم یبق فی المسجد سوی اثنا عشر رجلًا وامرأة واحدة، فنزلت الآیات أعلاه تذم هؤلاء الّذین ترکوا صلاة الجمعة بدافع الحرص علی زخارف الدنیا، وقد ورد فی الحدیث الشریف أنّ النبی قال حینها: لو لم یبق هؤلاء النفر لأمطرت

السماء حجارة علی الناس. ویُستفاد من سیاق الآیة أعلاه أنّ التوجّه إلی السوق والقافلة لم یکن بدافع من تأمین الحاجات الضروریة للمعیشة بل بدافع من الهوی وسُماع الألحان الموسیقیة لدی البعض، وقد یکون بدافع من التجارة والربح المادی لدی البعض الآخر. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۷ وعلی أیّ حال فإنّ القرآن الکریم یبین هذه الواقعة بهذه العبارة «وَاذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَیْهَا وَتَرَکُوکَ قَائِماً». ثمّ یخاطب النبی الکریم بالقول «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَیْرُ الرَّازِقِینَ». ویُحتمل أنّ البعض ترک الصلاة والنبی الأکرم وتوجّه إلی السوق والقافلة لتأمین حاجاته الضروریة للحیاة (بالرغم من وجود الوقت الکافی لتهیئتها بعد الصلاة) ولکن التعبیر أعلاه یبین بوضوح أنّ فئة من هؤلاء توجّهوا إلی القافلة بدافع من الحرص علی شراء السع والبضائع بقیمة زهیدة ثمّ بیعها بأعلی الأثمان طمعاً فی الثروة والمال الکثیر، وجماعة توجّهوا إلی القافلة بوحی الأهواء والنوازع النفسانیة وبذلک حرموا أنفسهم من السعادة العظمی فی حضور الصلاه مع النبی الأکرم صلی الله علیه و آله. وجاءت الآیة السابعة» والأخیرة من الآیات محل البحث لتتحدّث عن الأشخاص الّذین یتحرکون فی تعاملهم مع الآخرین من موقع السخریة والاستهزاء وذلک بدافع من الغرور لما یعیشونه من حالة الثراء ویتصورون أنّ ذلک یسوّغ لهم الاستهزاء بالمؤمنین الفقراء. فتقول الآیة «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الّذی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* یَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» فمثل هذا الشخص الّذی یجمع الأموال بدون حساب للحلال والحرام ویتصور أنّ هذه الأموال تؤدی إلی بقائه وخلوده وابتعاد الموت عنه أنّ هذه الثروة تُبیح له السخریة بالآخرین من الفقراء والمُعدمین. جملة «عَدَّده» الناظرة إلی حساب الأموال من قِبَل أصحاب الثروة تشیر إلی شدّة حرصهم وولعهم بهذه الأموال والثروات بحیث إنه کلّما ازدادت أموالهم ازدادوا حبّاً وشغفاً بها ولذلک فهم یعدّدونها دائماً ویجدون فی ذلک لذّة کبیرة. وجملة «الّذی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» هی فی الواقع بمثابة العلّة للهمز واللمز المذکور فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۸ الآیة الاولی، أی أنّ الثروة الدنیویة الطائلة ادّت بهم إلی درجة من الغرور والسکر بحیث إنّهم کانوا ینطلقون من موقع السخریة والاستهزاء بفقراء المؤمنین وکانوا یتصورون انه لیس فقط هذه الأموال والثروات هی الخالدة مدی الدهر بل أصحاب الثروة کذلک. إنّ دراسة حال أصحاب الدنیا العجیب وتعاملهم الغریب مع الواقع یرشدنا إلی ما یحیّر العقول من عجیب سلوکیاتهم، فتری البعض منهم رغم احاطتهم الوافرة بالعلوم المادیة والطبیعیة لیس لهم هدف سوی جمع الأموال والثروات، وعندما یُسألون هؤلاء عن هدفهم من جمع المال رغم أنّهم لا یمتلکون عائلة ولا ینطلقون فی سفرات ترفیهیة وسیاحیة، فیجیبون بأننا نفرح بإضافة صفر أمام أرقام الأموال المؤدعة لنا فی البنوک!

النتیجة النهائیة:

من مجموع ما تقدّم من الآیات الشریفة وما ذکر لها من تفسیر نستنتج أنّ مسألة الحرص والطمع وحبّ الدنیا والشغف بجمع الأموال والثروات أمر خطیر جدّاً فی دائرة المفاهیم القرآنیة، وهو مصدر لکثیر من أشکال الشر والفساد ویُعد من أقوی الموانع فی مسیرة تهذیب النفس وفی خط التکامل الأخلاقی والمعنوی.

الحرص وحبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیة:

اشارة

إن مفردة «الحرص» والکلمات المرادفة لها وردت فی الأحادیث الإسلامیة بشکل واسع علی مستوی أبعادها ودوافعها ونتائجها السلبیة حیث نختار منها نماذج معدودة: ۱- نقرأ فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم یخاطب فیه أمیرالمؤمنین فیقول: «اعْلَم یَا عَلِیُّ! انَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِیزَةٌ وَاحِدَةٌ یُجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۹ ۲- وهذا المعنی والمضمون نجده بصورة اخری فی نهج البلاغة فی عهد أمیرالمؤمنین لمالک الأشتر حیث أوصاه الإمام أن یحذر ویتجنب من استشارة البخلاء والجبناء

وأهل الحرص والطمع فقال «انَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزٌ شَتَّى یَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ» «۱». فالشخص الّذی یحسن الظن باللّه تعالی وقدرته المطلقة علی الوفاء بالعهد وتأمین الرزق للعباد فإنه سوف لا یحرص أبداً علی جمع الأموال والثروات. الإنسان الّذی یعیش حالة التوکّل علی اللّه ویؤمن بألطافه وعنایاته فإنه لا یخشی غیره ولا یخاف أیّة قوّة غیر قوته المطلقة. والإنسان الّذی یأمل دائماً برحمة اللّه تعالی ولطفه فإنه لا یجد فی نفسه بخلًا اطلاقاً. أجل فإنّ المؤمن الکامل فی توحیده وإیمانه باللّه تعالی وبأسمائه وصفاته الحسنی فإنه لا یمکن أن یتلوث بهذه الخصال الثلاثة القبیحة والرذیلة رغم انها تشترک فی الباطل بأصل واحد (ولهذا السبب نجد أحیاناً انها تسمّی باسم غریزة واحدة وأحیاناً اخری بأسماء مختلفة لأنها متعدّدة فی الظاهر ولکنها متحّدة فی الباطن). ۳- إنّ الحرص علی الدنیا وملذاتها وزخارفها بإمکانه أن یورث الإنسان التعب والشقاء ویورّطه فی السعی الدائب لتأمین رغباته الوهمیة، وقد ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین أنّه قال «الْحِرْصُ مَطِیَّةُ التَّعَبِ» «۲». ۴- وفی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین أیضاً أنّه قال: «الْحِرْصُ عَنَاءٌ مُؤَبَّدٌ» «۳». وعندما ندرس حالات الّذین یعیشون الحرص والطمع فی حرکة الحیاة نری مدی التعب والشقاء الّذی یعیشه هؤلاء لیل نهار فی سبیل جمع الأموال والزخارف الدنیویة من دون الاستفادة منها، وهذا شاهد صدق علی الحدیث المذکور آنفاً. ۵- الإنسان الحریص لا یجد طعم الشبع أبداً، ولهذا السبب فهو دائماً یسعی لجمع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۰ الأموال واکتناز الثروات حتّی لو لم ینتفع بها، ولذلک ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «الْحَرِیصُ فَقِیرٌ وَلَوْ مَلَکَ الدُّنْیَا بِحَذَافِیرِهَا» «۱». ۶- وقد ورد فی الأحادیث الشریفة أنّ الأشخاص الّذین یتخلصون من شراک الحرص ولا یقعون اسری الطمع هم الّذین یتمتعون بالغنی الباطنی، ومن ذلک قول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی حدیث آخر «اغْنَی الْغِنَی مَنْ لَمْ یَکُنْ لِلْحِرْصِ أَسِیراً» «۲». ۷- الحرص علی جمع الأموال والمادیات یُفضی بالإنسان إلی الوقوع فی الهلکة، ولیست الهلکة المعنویة فقط بل فی کثیر من الأحیان تکون مصحوبة بالهلکة المادیة أیضاً، حیث نقرأ فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه قوله: «انَّ الدِّینَارَ وَالدِّرْهَمَ اهْلَکَا مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ وَهُما مُهْلِکَاکُمْ» «۳». ۸- إنّ الإنسان الحریص یُکبّل نفسه بالقیود یوماً بعد آخر إلی أن یوصد أمامه طریق النجاة والفلاح، کما نقرأ فی المثال الّذی ورد عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «مَثَلُ الْحَرِیصِ عَلَی الدُّنْیَا مَثَلُ دُودَةِ الْقَزِّ، کُلَّمَا ازْدَادَتْ مِنَ الْقَزِّ عَلَی نَفْسِهَا لَفّاً کَانَ ابْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ! حَتَّی تَمُوتَ غَمّاً!» «۴». ۹- إنّ الحرص والطمع یهدم شخصیة الإنسان ویسحق کلّ قیمة له فی أنظار الناس کما یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الْحِرْصُ یَنْقُصُ قَدْرَ الرَّجُلِ، فَلَا یُزِیدُ فِی رِزْقِهِ!» «۵». ۱۰- إنّ الحرص من الامور الّتی تؤدی إلی الکثیر من الذنوب والخطایا والقبائح منها عدم مراعاة الحلال والحرام وترک احترام حقوق الآخرین والتلوث بأنواع الظلم والجور والعدوان، ولذلک ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام من جملة ما أوصی به مالک الأشتر فی عهده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۱ المعروف أنّه قال «لَاتُدْخِلَنَّ فِی مَشْوَرَتِکَ حَرِیصاً یُزَیِّنُ لَکَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ» «۱». وعلی هذا الأساس فإنّ عواقب الحرص ونتائجه وخیمة جداً فی حیاة الإنسان حیث یورثه البعد عن اللّه تعالی ویهدم مروئته ویکسر شخصیته ویسلب منه الراحة والطمأنینة وبالتالی یُفضی به الحرص إلی الوقوع فی وحل الذنوب الکبیرة الاخری فیبتعد یوماً بعد آخر عن السعادة والکمال المعنوی ویغدو أسیراً وذلیلًا فی قیود النفس الأمارة وأحابیل الشیطان، وبکلمة واحدة انه یفقد دینه ودنیاه.

۱- تعریف الحرص

بالرغم من أنّ معنی ومفهوم (الحرص) واضح للجمیع إجمالًا، ولکن الدقة والتوجه إلی مضمونه العمیق یکشف لنا نقاط جدیدة فی دائرة هذا المفهوم. یقول الراغب فی مفرداته فی تعریف الحرص بأنه بمعنی شدّة الرغبة والمیل إلی شیء معیّن، ویری أنّ هذه الکلمة فی الأصل تأتی بمعنی الضغط علی اللباس عند غسله بالماء بواسطة ضربه بالخشبة وأمثال ذلک. وقد ورد عن أمیرالمؤمنین تعبیر جمیل جداً فی تعریف الحرص عندما سُئل: ما هو الحرص؟ فقال «هُوَ طَلَبُ الْقَلِیلِ بِاضَاعَةِ الْکَثِیرِ» «۲» ویری علماء الأخلاق أنّ الحرص من الرذائل الأخلاقیة المتعلّقة بقوّة الشهوة وذکروا فی تعریفه (أنّ الحرص صفة من الصفات النفسانیة تدفع الإنسان إلی جمع

ما هو أکثر من حاجته، وهو من شُعب حبّ الدنیا ومن الصفات المهلکة والأخلاق الفاسدة) ویمثلون للحرص بأنه کالصحراء المترامیة الأطراف وکالأرض الموحشة الّتی لا حدود لها فکلّما سار فیها الحریص لا یصل إلی غایتها ومنتهاها. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۲ (الحریص) یُقال لشخص مبتلیاً بمرض، مثل مرض الاستسقاء حیث کلّما شرب من الماء فإنّ عطشه لا ینطفأ. إنّ الشخص الحریص لا یقبل أی دلیلٍ منطقی علی سلوکیاته، فلو قیل له مثلًا إنک بلغت من العمر ثمانین سنة ولم یبق من عمرک إلّاالقلیل، فلماذا هذا الولع والشوق لجمع الأموال والثروات؟ وبالرغم من انه یفتقد الجواب الصحیح لهذا السؤال ولکنه یستمر فی سلوکه الطفولی ولا ینتهی منه، بل علی العکس من ذلک حیث نری أنّ بعض الناس یزداد حرصاً وطمعاً کلّما ازداد سناً وأوغل فی مرحلة الشیخوخة، کما ورد فی الحدیث المعروف عن النبی الأکرم أنّه قال: «یُشِیبُ بْنُ آدَمَ وَیَشُبُّ فِیهِ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ وَطُولُ الْامَلِ» «۱».

۲- النتائج السلبیة للحرص فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة

رأینا فی الآیات والروایات الشریفة المذکورة سابقاً مدی النتائج السلبیة والعواقب الوخیمة لحالة الحرص فی واقع الإنسان، ولذلک فإنّ مطالعتها تغنینا عن أی شرح وتفسیر آخر فی هذا المجال ومن ذلک: ۱- إنّ الحریص مُبتلی فی التعب المستمر والعسر والحرج فی حرکة الحیاة. ۲- إنّ الحریص لا یشبع أبداً، ولهذا فإنه لو ملک الدنیا بأجمعها فإنه یعیش عیشة الفقراء أیضاً. ۳- إنّ الحریص یعیش عیّش الفقراء ویموت موت الفقراء ولکنه یحاسب فی الآخرة حساب الأغنیاء. ۴- إنّ الحرص یفضی بالإنسان إلی الهلکة لأن الإنسان الحریص وبسبب عشقه للدنیا ولزخارفها فانه لا یری آفاق الخطر المحیطة بها بل یسارع إلیها بکلّ عجلة وهلع. ۵- إنّ الإنسان الحریص یکبل نفسه بقیود المادیات وأحابیلها ویزداد قربه من هذه القیود یوماً بعد آخر حتّی یوصد أمامه سبیل النجاة. ۶- إنّ الحرص یذهب بشرف الإنسان وماء وجهه ویسقط حرمته ومروءته فی أنظار الناس، لأن الحریص ولغرض الحصول علی مقصوده لا یلتزم بالاعراف الاجتماعیة ولا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۳ یتقید بالقیم والمُثل والسلوکیات المعتبرة فی المجتمع الانسانی بل یعیش کالأسیر المقید بسلسلة من رقبته یقوده الحرص من هنا إلی هناک. ۷- إنّ الحرص یؤدی بالإنسان إلی التلوث بأنواع الذنوب کالکذب، الخیانة، الظلم والعدوان وغصب حقوق الآخرین وأمثال ذلک، لأنّه إذا أراد مراعاة الحلال والحرام فإنه سوف لن یصل إلی مقصوده فی حیاته الدنیویة. ۸- إنّ الحرص یتسبّب فی إبعاد الإنسان عن اللَّه تعالی ویورثه الصغار فی أنظار عباده ویسلبه الطمأنینة والسکینة والهدوء النفسی فیعیش حیاته مع العذاب الروحی والقلق المزمن. ۹- إنّ الحریص یجمع الأموال والثروات الّتی یتحمل مسؤولیتها فقط بینما ینتفع بها الآخرون. ۱۰- إنّ الحرص إنّما هو نتیجة من نتائج سوء الظن باللَّه وفی نفس الوقت یعمق هذه الحالة لدی الإنسان ویؤکد فی نفسه سوء الظن هذا

۳- غنی النفس

والملفت للنظر أنّ الإنسان الحریص یطلب الغنی من خارج ذاته ووجوده فی حین أنّ أصل الغنی وحقیقته یجب أن یحصل علیها الإنسان من داخله. وقد سُئل أحد العلماء عن حقیقة الغنی وعدم الحاجة والفقر فقال: أن تقصر من آمالک وترضی بما قسم لک. وفی الحدیث الشریف الوارد عن رسول اللَّه وکذلک عن أمیرالمؤمنین أیضاً نقرأ هذا المضمون السامی فی دائرة القیم الأخلاقیة والمعنویة «خَیْرُ الْغِنِیَ غِنَی النَّفْسِ» «۱». وفی روایة اخری عن رسول اللَّه أنّه قال: «الْغِنَی فِی الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فِی الْقَلْبِ» «۲». أجل فإذا کانت روح الإنسان تعیش الجوع المعنوی بسبب الحرص فإنه لو ملک هذا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۴ الإنسان الدنیا بحذافیرها فإنه یعیش فقیراً کذلک، ولو أنّ روحه کانت تعیش الغنی الذاتی ولم یجد فی نفسه الحاجة والطمع فإنه لو سُلب منه جمیع ما فی الدنیا فإنه یعیش الغنی کذلک.

۴- الحرص المذموم والممدوح

إنّ مفردة (الحرص) تأتی فی الموارد السلبیة فعندما تُطلق هذه الکلمة یراد منها الحرص علی الأموال والثروة والمقام وسائر الشهوات المادیة والدنیویة، وذلک بسبب أنّ هذه الکلمة تستعمل غالباً فی هذه الموارد المذمومة والقبیحة. ولکن أحیاناً تستخدم هذه الکلمة فی موارد إیجابیة ونافعة وبذلک تستحق المدح ولا تکون من الأخلاق الرذیلة بل تُعد من الفضائل أیضاً وذلک عندما تتحکم هذه الصفة فی الإنسان فی موارد الشوق والرغبة الشدیدة فی أعمال الخیر والصلاح. ومن جملة ما ذکر القرآن الکریم من فضائل نبی الإسلام هو حرصه علی هدایة الناس وانقاذهم من الضلال حیث یقول: «لَقَدْ جَائَکُمْ رَسُولٌ مِنْ انْفُسِکُمْ عَزِیزٌ عَلَیْهِ مَا عَنِتُّم حَرِیصٌ عَلَیْکُمْ بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ» «۱». ویقول فی مکان آخر: «انْ تَحْرِصْ عَلَی هُدَاهُمْ فَانَّ اللَّهَ لَایَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِینَ» «۲». وقد ورد ما یشبه هذا المعنی والمضمون فی آیات اخری من القرآن الکریم أیضاً «۳». وطبعاً وردت هذه الکلمة فی القرآن الکریم فی مصادیق سلبیة أیضاً. أما فی الروایات الإسلامیة فإنّ کلمة «الحرص» وردت فی موارد کثیرة إیجابیة وفی ذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی خطبته المعروفة فی بیان صفات المتقین مخاطباً لهمّام الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۵ «فَمِنْ عَلَامَةِ احَدِهِمْ انَّکَ تَری لَهُ قُوَّةً فِی دِینٍ وَحِرْصاً فِی عِلْمٍ» «۱». وورد فی الروایات الشریفة موارد متعددة أنّ من علامات المؤمن هو حرصه علی التفقه فی الدین أو حرصه علی الجهاد فی سبیل اللَّه أو الحرص علی التقوی وأمثال ذلک «۲». ونختم هذا البحث بحدیث شریف عن الإمام الباقر یقول «لَا حِرْصَ کَالْمُنَافِسَةِ فِی الدَّرَجَاتِ» «۳». وعلی هذا فإنّ للحرص مفهوم واسع ویأتی بمعنی شدّة العلاقة والرغبة بشیء معین بحیث یسعی جاهداً لتحصیله، فلو وقع هذا الشیء فی طریق الخیر والسعادة والصلاح لکان ممدوحاً، ولکن إذا وقع فی طریق الدنیا وتحصیل المال والثروة والملذات الرخیصة فإنه یکون مذموماً کذلک، ولکن الغالب فی استعمال هذه الکلمة هو فی الموارد السلبیة والسلوکیات الذمیمة.

۵- علاج الحرص

من المعلوم أنه وفی علاج الأمراض البدنیة لزوم الرجوع إلی الأسباب والجذور، لأن العلاج بدون قطع جذور المرض لا ینفع علی المدی الطویل وستبقی النتائج والآثار السلبیة فی وجوده، وحتّی لو تمّ العلاج من خلال استخدام المهدئات والعلاجات المؤقتة فإنّ المرض سوف یتجلّی ویظهر بعد مدّة. وهکذا الحال فی الأمراض الأخلاقیة، فلابدّ أوّلًا من التوغل لمعرفة جذور المرض ثمّ قطعها من الأساس. وکما تقدّمت الإشارة إلیه، (وورد فی الأحادیث الإسلامیة أیضاً) أنّ أحد جذور الحرص هو سوء الظن باللَّه وعدم التوکل علیه، وکلّ ذلک یعود إلی اهتزاز ارکان التوحید الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۶ الأفعالی لدی الإنسان. فالشخص الّذی یعتقد بأن اللَّه قادر ورازق وأنّ مفتاح الخیرات بیده فقط «بِیَدِکَ الْخَیْرُ انَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» «۱» فسوف لا یجد فی نفسه حالة الحرص علی جمع الأموال والنعم المادیة الاخری. إنّ الشخص الّذی یعیش الإیمان الکامل بوعد اللَّه تعالی وقوله: «مَا عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ...» «۲» فبدلًا من الحرص علی جمع الأموال فإنه سیحرص علی انفاقها فی سبیل اللَّه. وعندما تهتز أرکان الإیمان فی وجود الإنسان وخاصّة التوحید الأفعالی فإنّ الصفات الرذیلة سوف تتجذر فی نفس الإنسان وأخطرها الحرص، وحینئذٍ فلابدّ من تقویة أرکان الإیمان لمنع تفشی هذه الصفة ورسوخ هذه الحالة السلبیة فی باطن الإنسان. وأحد الأسباب الاخری للحرص هو الجهل وعدم الاطلاع علی حقائق الامور وما یترتب علیها من نتائج وآثار فی الواقع العملی. فإذا علم الإنسان أنّ الحرص یتسبّب فی سلب طمأنینته وهدوئه فی حرکة الحیاة وانه سیوقعه فی العسر والشقاء والتعب الدائم، وأنّ الحرص سوف یُهدم مروءته ویحطّم شخصیّته ویسقطه فی أنظار الناس، وأنّ الحرص یتسبب فی أن یعیش عیشة الفقراء بالرغم من غناه الظاهری وأنّ ما جمعه من الأموال والثروات سینتفع به الآخرین ولکنه سیُسأل عنها یوم القیامة بالرغم من أنّ الآخرین هم الّذین ینتفعون بها فی الدنیا. أجل فإنّ الحریص إذا فکر فی هذه النتائج

والعواقب الوخيمة فإنّ ذلك سيؤثر فى نفسه وروحه تأثيراً ايجابياً. ويقول الفيض الكاشانى فى المحجّة البيضاء: إعلم أنّ هذا الدواء مركّب من ثلاثة أركان «الصبر» و «العلم» و «العمل» ومجموع ذلك خمسة امور: الأوّل وهو العمل: الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق، فإنّ هذا القدر يتيسّر بأدنى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۷ جهد ويمكن معه الإجمال فى الطلب، فالاقتصاد فى المعيشة هو الأصل فى القناعة ونعنى به الرّفق فى الإنفاق وترك الفرق فيه. قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من اقتصد أغناه اللّه، ومن بذّر أفقره اللّه، ومن ذكر اللّه عزّوجلّ أحبّه اللّه» «۱». الثانى: أنّه إذا تيسّر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقّق بأنّ الرّزق الّذى قدّر له لابدّ وأن يأتيه وإن لم يشتدّ حرصه، قال تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ا لْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ» «۲». الثالث: أن يعرف ما فى القناعة من عزّ الاستغناء وما فى الطمع والحرص من الذل فإذا تحقّق له ذلك إزدادت رغبته فى القناعة لأنّه فى الحرص لا يخلو من تعب وفى الطمع لا يخلو من ذل، قال النبى صلى الله عليه و آله: «عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس» «۳». الرابع: أن يكثر تأمّله فى تاريخ بعض اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى ومن لا دين لهم ولا عقل، ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويقارن بينهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أرذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخلق عند اللّه حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنک والقناعة باليسير. الخامس: أن يفكر فى مخاطر جمع المال والثروة من دون قيد أو شرط، وكذلك فى عواقب هذا العمل فى الدنيا والآخرة، وكذلك عليه أن يفكر فى العواقب الحميدة التى تأتى من القناعة. وعليه أن يفكر دائماً فى أمور دنياه وينظر الى مادونه من الخق، لا أن ينظر الى من هم أعلى منه فى الغنى لأن الشيطان يسوّل للانسان دائماً ويدعوه للنظر الى مافوقه، ويقول له فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۸ وساوسه: ماذا ينقصك حتى يكون فلاناً أغنى منك؟ لماذا لا تسعى لكى تصل الى ما هم فيه؟ أُنظر الى هؤلاء وقد غرقوا بالخير والنعمة وتمتعوا بلذائذ الدنيا؟! وأنت تفكر فقط فى الخوف من الله، وقد ضيقت على نفسک بالتزامک المستمر بالحلال والحرام، هل أنت اكثر تديناً من هؤلاء ام أنت أخوف منهم من الله؟! قال أبوذر: «أوصانى خليلى أن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوقى- أى فى الدنيا-».

۶- إجابة عن شبهة

وهنا يمكن أن يتصور البعض أنّ الإسلام ومن خلال هذه الآيات والروايات المذكورة فى هذا الباب لا يتلائم مع تطور الحياة المادية والدنيوية للناس أو أنّه ينظر إلى اصول التمدن المادى والتطور العلمى على مستوى الطبيعة بنظرة سلبية، من خلال دعوته لاتباعه إلى التجرد عن الدنيا وعدم التعلّق بها، فى حين أنّ هذا التصور اشتباه كبير، فالإسلام يتصدّى لمحاربة الحالات الأخلاقية السلبية فى واقع الإنسان الّتى تنطلق من الحرص وحب الدنيا والتضحية بالقيم الأخلاقية والإنسانية من أجل الرفاهية الدنيوية واشباع الملذات الرخيصة، لا أنّه يقف أمام استخدام الطاقات الفكرية والمواهب الطبيعية فى عملية التطور العلمى فى خط الكرامة الإنسانية وتوكيد حرية الإنسان من النوازع والأهواء النفسانية وتقوية القيم المعنوية. وتوضيح ذلك: أنّ المواهب المادية فى حد ذاتها هى أدوات ووسائل للوصول إلى المقاصد الاخرى وتحقيق طموحات الإنسان فى حركة الحياة وليستفيد منها فى الصعود فى مدارج الكمال المعنوى والإنسانى، فلو انه استخدمها فى غير هذا الغرض وتحرّك معها من موقع الأهواء والشهوات الرخيصة فسوف يبتعد بذلك عن الهدف من الخلقة ويسقط فى مهاوى الرذيلة والانحطاط والتسافل الأخلاقى، وهذه الامور تتقاطع مع التعاليم الإسلامية. ومثلها كمثل الأدوات الصناعية والمنتوجات المادية الّتى يمكن الاستفادة منها بوجهين، فالطائرة يمكن الاستفادة منها للتنقل السريع وتسهيل وصول الإنسان إلى مقصده والتوسع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۹ فى العمران وتأمين المعيشة ومساعدة الفقراء والمحتاجين وأمثال ذلك، كما يمكن الاستفادة منها بطريقة اخرى وذلك بجعلها أداة حربية لقتل البشر وإلقاء القنابل على الأبرياء وتخريب المدن والقرى وإحراق الأخضر واليابس وإتلاف مواهب الطبيعة. وعليه فلا ينبغى النظر إلى موقف الإسلام السلبى من حالة الحرص والطمع وحبّ الدنيا لدى الإنسان

كذريعة لترك النشاطات الاقتصادية والتطور العلمي والصناعي وبالتالي يتحول معها الإنسان إلى شخص خامل وكسول ويتعامل مع الأحداث والمجتمع من موقع الانزواء والعزلة كما نلاحظ ذلك لدى بعض المتصوفة حيث يسلكون هذا المسلك بالتوسل بأمثال هذه المفاهيم الدينية والنصوص الإسلامية.

حبّ الدنيا

تنويه:

إنّ أحد جذور (الحرص) وما يترتب عليه من عواقب وخيمة سبق أن ذكرناها في الفصل السابق، هو حبّ الدنيا والتعلق بزخارفها وزبارجها. فعندما تتقد نار هذا الحب الدنيوي في أعماق الإنسان فسوف تقوده إلى أنواع الحرص والولع بالنسبة إلى المواهب المادية والدنيوية من قبيل سائر أنواع العشق الّذي يغطي على فكر الإنسان وعقله ويسوقه يوماً بعد آخر إلى السقوط في لجّة التلوث بالخطايا والالتصاق بالعالم السفلي. ولهذا السبب فإنّ القرآن الكريم ومن أجل قطع جذور الحرص والولع قد تحرّك في آياته الكريمة من موقع ذمّ حبّ الدنيا والافراط في التوغل في ملذاتها والتشبّث بزخارفها والّذي يمثل الجذور الأصلية للحرص والطمع في بُعدهما السلبي، ونقرأ في المفاهيم القرآنية تعبيرات مختلفة تحط من قدر الدنيا وقيمتها لكي يخفف ذلك من حب أهل الدنيا لها ويتحركوا بعيداً عن أجوائها ويتخلصوا بذلك من الحرص والطمع ولا يضحوا بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية على مذبحها. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحي من تعبيراتها الدقيقة ما يضيء لنا الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۹۲ الطريق لدراسة هذه المبادئ والمواقف الأخلاقية المهمة: ١- إنّ القرآن الكريم يرى أنّ الدنيا ما هي إلّالعب ولهو كما يلهو ويلعب الأطفال، وقد ورد وصف ذلك في آيات متعددة، ففي قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...» «۱». وفي آية اخرى قوله تعالى «اعْلَمُوا انَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْامْوَالِ وَالْاوْلَادِ ...» «۲». وفي الحقيقة أنّ هذه الآيات الكريمة تشبّه أصحاب الدنيا بأنّهم كالأطفال الّذين يعيشون الغفلة والجهل عمّا يدور حولهم ولا همّ لهم إلّاالاشتغال بالتوافه والسفاسف من الامور فلا يرون حتّى الخطر القريب المحدق بهم. بعض المفسّرين قسّم حياة الإنسان إلى خمس مراحل (من الطفولة إلى أن يبلغ مرحلة الكهولة في سن الأربعين) وذكر أنّ لكلّ مرحلة ثمان سنوات وقال: إنّ السنوات الثمانية الاولى من عمر الإنسان هي مرحلة اللعب، والسنوات الثمانية الثانية هي مرحلة اللهو، والسنوات الثمانية الثالثة حيث يعيش الإنسان في فترة الشباب فإنه يتجه إلى الزينة والالتذاذ بالجمال، والسنوات الثمانية الرابعة يقضي وقته وطاقاته في التفاخر، وأخيراً في السنوات الثمانية الخامسة يهتم بالتكاثر في الأموال والأولاد، وهنا يثبت شخصية الإنسان ويستمر على هذه الحالة إلى آخر عمره، وبالتالي فإنّ أصحاب الدنيا لا يبقى لهم مجال للتفكر في الحياة المعنوية والقيم الإنسانية السامية. ٢- ومن الآيات الاخرى في هذا المجال نرى مفهوم «متاع الغرور» بالنسبة إلى الحياة الدنيا حيث يقول تعالى «... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» «۳». الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۹۳ ويقول في مكان آخر «... فَلَا تَغُرَّنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّه الْغَرُورُ» «۱». وهذه التعبيرات تدلّ على أنّ زخارف الدنيا وبريقها الخادع يُعد أحد الموانع المهمة للتكامل المعنوي والصعود في درجات الكمال الإلهي للإنسان وما دام هذا المانع موجوداً فإنه لا يصل إلى شيء من هذه الكمالات المعنوية. إنّ الحياة الدنيا مثلها كمثل السراب الّذي يجذب العطاشى نحوه في الصحراء المحرقة ولكنهم لا يحصلون على شيء منه أخيراً، وهكذا حال التعلقات المادية الدنيوية فإنّها تجذب أصحاب الدنيا نحوها طمعاً في إرواء ظمأهم وعطشهم إلّاأنّهم لا يجدون ما يطلبونه في هذا المسير المنحرف بل يزدادون ظمأً وحُرقة، وكما أنّ السراب يبتعد عن الإنسان كلّما مشى نحوه وهكذا يظل يركض وراء السراب حتّى يهلك، فكذلك الدنيا تبتعد عن الإنسان كلّما اتّجه نحوها فتزيده عطشاً لها وارهاقاً حتّى يهلك. ونرى هذه الحالة في الكثير من أصحاب الدنيا الّذين يركضون وراء متاع الدنيا وزخارفها سنوات مديدة من عمرهم وعندما يحصلوا على شيء منها فانهم يصرّحون

بأنّهم لم يجدوا ضالّتهم إلّاوهى (الهدوء النفسى والطمأنينة الروحية) بل يعيشون الجفاف الروحى أكثر ويجدون أنّ ملذات الحياة الدنيا تقترن دائماً مع الاشواك والمنغصات وبدلًا من أن تورثهم الهدوء والطمأنينة فإنّها تعمل على إذكاء حالة القلق والإضطراب فى جوانحهم وأعماق وجودهم وبذلك لا يجدون مبتغاهم فيها. ٣- وهناك طائفة اخرى من الآيات الكريمة الّتى تقرر لنا هذه الحقيقة، وهى أنّ الانجذاب نحو زخارف الدنيا وزبارجها يؤدى إلى أن يعيش الإنسان الغفلة عن الآخرة، أى أن يكون الشغل الشاغل له وهمه الوحيد هو تحصيل هذه الزخارف الخادعة، فتقول الآية الشريفة: «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمُ غَافِلُونَ» «٢». الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٩٤ فهؤلاء يجهلون حتّى الحياة الدنيا أيضاً وبدلًا من أن يجعلونها مزرعة الآخرة وقنطرة للوصول إلى الحياة الخالدة ونيل المقامات المعنوية وميداناً لممارسة السلوكيات الّتى تصعد بهم فى سُلّم الفضائل الأخلاقية ومدارج الإنسانية، يتخذون الدنيا بعنوان انها الهدف النهائى والمطلوب الحقيقى والمعبود الواقعى لهم، ومن الطبيعى أنّ مثل هؤلاء الأشخاص يعيشون الغفلة عن الحياة الاخرى. ويقول القرآن الكريم فى آية اخرى: «ارَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ»» ثمّ تضيف الآية «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ الّا قَلِيلٌ» «٢» أجل فإنّ الأشخاص الّذين يعيشون ضيق الافق ومحدودية الفكر فانهم يرون الدنيا كبيرة وواسعة وخالدة وينسون الحياة الاخرى الأبدية الّتى قرّرها اللّه تعالى لحياة الإنسان الكريمة والمليئة بالمواهب الإلهية والنعيم الخالد. ٤- ونقرأ فى قسم آخر من الآيات الكريمة أنّ الدنيا هى (عرض) على وزن (غرض) بمعنى الموجود المتزلزل والّذى يعيش الاهتزاز والتغير والتبدل فى جميع جوانبه وحالاته، ومن ذلك قوله تعالى «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ» «٣». وتقول الآيات فى مكان آخر مخاطبة لأصحاب النبى الأكرم «... يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ...» «۴». وفى آيات اخرى نجد هذا التعبير أيضاً حيث يدلّ على أنّ جماعة من المسلمين أو غير المسلمين وبدافع من الحرص والطمع تركوا الاهتمام بالمواهب الإلهية الخالدة والحياة الاخرى والقيم الإنسانية العالية واشتغلوا فى جمع زخارف الدنيا الزائله واشباع الملذات الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٩٥ الرخيصة فى حركة الحياة الدنيا. أجل فان النعمة الحقيقية هى ما عند اللّه تعالى وما بقى فكلها (عرض) يقبل الزوال والاندثار. وهذا التعبير هو فى الحقيقة انذار لجميع طلاب الدنيا بأنّهم ينبغى عليهم الاهتمام بما لديهم من طاقات ورأس مال عظيم وبإمكانهم استخدامها فى سبيل حياة كريمة وخالدة فلا يضيعونها فى الامور الرخيصة والزائلة. ۵- ونقرأ فى قسم آخر من الآيات التعبير عن المواهب المادية بأنّها «زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» «١». ووردت تعبيرات مشابهة لهذه الآية فى آيات اخرى أيضاً فى قوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ الَيْهِمْ اعْمَالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ» «٢». وفى مكان آخر يخاطب القرآن الكريم نساء النبى صلى الله عليه و آله ويقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِازْوَاجِكَ انْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ امَتِّعْكُنَّ وَاسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا» «٣». وهذه التعبيرات توضح بصورة جيدة أنّ هذا البريق لزخارف الحياة الدنيا ما هو إلّازينة للحياة المادية، وبديهى أنّ الإنسان لا يُعبّر عن الامور الحياتية والمصيرية بتعبير (زينة) أو (زينة الحياة الدنيا) أى الحياة السفلى والتافهة. ومن الجدير بالذكر انه حتّى أنّ مفهوم (الزينة) نجده فى آيات اخرى مبنياً للمجهول حيث ورد تعبير (زُيّن) وهذا يدلّ على أنّ هذه الزينة غير حقيقية بل خيالية ووهمية. مثلًا نقرأ فى سورة البقرة الآية ٢١٢ قوله تعالى: «زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...». ونقرأ فى سورة آل عمران الآية ١۴ قوله تعالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٩۶ هذه التعبيرات وتعبيرات اخرى مماثله تشير إلى أنّه حتّى مفهوم (الزينة) فى مثل هذه الموارد ما هى إلّازينة وهمية وخيالية حيث يتوهم الناس من طلاب الدنيا انها زينة حقيقية وواقعية. وهنا يتبادر سؤال مهم، وهو انه لماذا جعل اللّه تعالى مثل هذه الامور زينة فى أنظار الناس؟ ومن المعلوم أنّ الدنيا إنما جُعلت لتربية الإنسان واختباره وامتحانه لأن الإنسان إذا ترك مثل هذه الزينة الجميلة والخادعة والّتى تكون مقرونة بالحرام والإثم غالباً من أجل اللّه تعالى والسير فى خط التقوى والإيمان فإنّ ذلك من شأنه أن يعمق فى نفسه روح التقوى والقيم الأخلاقية ويصعد به فى مدارج الكمال المعنوى وإلّا فإنّ صرف النظر عن هذه الامور المخادعة بمجرّده لا يُعدّ افتخاراً ومكرمة للإنسان. وبعبارة أدق فإنّ التمايلات والرغبات الباطنية والأهواء النفسانية تزين للإنسان الامور المادية بزينة جميلة لكى تدعوه إلى ارتكاب الاثم وممارسة الحرام، وعليه فإنّ هذه

الزینهٔ تنبع من ذات الإنسان ومن باطنه، وعندما نری فی الآیات الکریمهٔ نسبهٔ التزین إلی اللَّه تعالی فذلک بسبب أنّ اللَّه تعالی هو الّذی خلق هذه التمایلات والرغبات والأهواء الطاغیهٔ، وعندما نقرأ فی بعض الآیات نسبتها إلی الشیطان الرجیم فی قوله تعالی: «... وَزَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ اعْمَالَهُم ...» «۱» فـذلک بسـبب أنّ عملیـهٔ التزیین هـذه بالرغم من انها من جههٔ منسوبهٔ إلی اللَّه تعالی بسـبب القانون العام فی عالم الخِلقهٔ، إلّاأن إتّباع هذه الأهواء والشـهوات من جههٔ هو عمل الشـیطان الرجیم الّذی یسوّل للإنسان هذه الامور الخاطئهٔ لیوقعه فی الاثم والـذنب. وعلی أیّهٔ حال فإنّ المسـتفاد من مجموع الآیات المـذکورهٔ أعلاه أنّ «حبّ الـدنیا» إذا اسـتقر فی قلب الإنسان وبصورهٔ مفرطهٔ فإنه سیؤدی به إلی الابتعاد عن اللَّه تعالی والغفلهٔ عن الآخرهٔ.

حبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیهٔ:

وقـد ورد ذمّ الـدنیا وحبهـا فی الروایات الإسـلامیهٔ کثیراً ولاسـیّما ما ورد فی کلمات النبی الأکرم وخطب نهـج البلاغـهٔ بصورهٔ واسـعهٔ ومفصّلهٔ ومن ذلک: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عندما سُئل عن سبب تسمیهٔ الدنیا بالدنیا فقال «لِانَّ الـدُّنْیا دَنِیَّهٌ خُلِقَتْ مِنْ دُونِ الْآخِرَهِٔ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «اکْبَرُ الْکَبائِرِ حُبُّ الدُّنْیا» «۲». ۳- ونفس هـذا المعنی ورد فی کلمـات أمیرالمؤمنین حیث قال: «حُبُّ الـدُّنْیا رَاْسُ الْفِتَنِ وَاصْلُ الْمِحَنِ» «۳». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر أیضاً عن الإمام علی علیه السـلام قوله: «انَّ الدُّنْیا لَمُفْسِدَهُٔ الدِّینِ وَمُسْلِبَهُٔ الْیَقِینِ» «۴». ۵- وورد فی حدیث آخر عن الإمام الصـادق علیه السـلام أنه قـال: «انَّ اوَّلَ مَـا عُصِیَ اللَّهُ بِهِ سِتٌّ: حُبُّ الـدُّنْیا وَحُبُّ الرِّئَاسَـهِٔ وَحُبُّ الطَّعَامِ وَحُبُّ النَّوْمِ وَحُبُّ الرَّاحَـهِٔ» «۵». واغلب هـذه الامور السـتهٔ أو جمیعها نجدها متوفرهٔ فی قصهٔ طغیان الشـیطان الرجیم ومعصـیته وترک الأولی لآدم ومعصـیهٔ قابیل، ولذا ذُکرت بأنّها أول الخطایا والمعاصی. ۶- ونقرأ فی حدیث آخر أنّه سـئل الإمام علی بن الحسین علیهما السلام: «ایُّ الْاعْمَالِ افْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟» قال: «مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَهِٔ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَمَعْرِفَهِٔ رَسُولِهِ افْضَلُ مِنْ بُغْضِ الدُّنْیا وَانَّ لِذَلِکَ لَشُعَباً کَثِیرَهًٔ وَلِلْمَعَاصِی شُعَباً». ثمّ یذکر الإمام علیه السلام اصول المعاصی الثلاث وهی «الکبر» لدی إبلیس، و «الحرص» الّذی سبب فی اخراج آدم وحواء من الجنهٔ، و «الحسـد» الّذی دفع قابیل لأن یقتل أخاه، ثمّ أضاف: «فتشـعب من ذلک حبّ النساء وحبّ الـدنیا وحبّ الرئاسهٔ وحبّ الراحهٔ وحبّ الکلام وحبّ العلو والثروهٔ، فصـرن سـبع خصال، فاجتمعن کلهنّ فی «حبّ الـدنیا» فقال الأنبیاء والعلماء بعـد معرفـهٔ ذلک: «حبّ الـدنیا رأس کلّ خطیئهٔ». ثمّ إنّ الإمام ومن أجل التمییز بین الدنیا الممدوحهٔ والمذمومهٔ ذکر فی نهایهٔ الحدیث «وَالدُّنْیا دُنْیا بَلَاغ وَدُنْیا مَلْعُونَهٔ» «۱». ۷- ونقرأ فی حـدیث آخر عن الإمام علی بن أبی طالب قوله «ارْفُضِ الدُّنْیا فَانَّ حُبَّ الدُّنْیا یُعمِی وَیُصِمُّ وَیُبْکِمُ وَیُذِلُّ الرِّقَابَ» «۲». ومن الطبیعی انه عندما یتجذر العشق لشـیء من الأشیاء فی وجود الإنسان فانه یجعله غافلًا عن أوضح الأشیاء، فتراه یتمتع بعین ولکنه لا یری الوقائع، وله اذن ولکنه لا یسمع، وله لسان ولکنه لا یتحرّک إلّابما یهیم فی قلبه من العشق لذلک الشیء، فتراه ومن أجل الوصول إلی محبوبه أی الدنیا فانه مستعد لأنّ یخضع إلی کلّ ذلهٔ ومهانهٔ. ۸- وأیضاً نقرأ فی الحدیث الشریف بالنسبهٔ إلی بیان الموارد السلبیهٔ لحبّ الدنیا قول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی الحکمهٔ من هذا الحکم الإلهی «حُبُّ الدُّنْیا یُفْسِدُ الْعَقْلَ، وَیُصِمُّ الْقَلْبَ عَنْ سُمَاعِ الْحِکْمَهِٔ وَیُوجِبُ الِیمَ الْعِقَابِ» «۳». ۹- ونقرأ فی حدیث آخر فی بیان الآثار الضارهٔ والمفاسد الکثیرهٔ لحبّ الدنیا ما ورد عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «انَّ الـدُّنْیا مُشْـغِلَهٌ لِلْقُلُوبِ وَالْابْدَانِ» «۴». ۱۰- ونختم هذه البحث بحدیث شـریف آخر عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله وهو: «انَّهُ مَا سَکَنَ حُبُّ الدُّنْیا قَلْبَ عَبْدٍ الّا الْتَاطَ بِثَلَاثٍ: شُغْلٍ لَایُنْفَدُ عَنَاؤُهُ، وَفَقْرٌ لَایُدْرَکُ غِنَاهُ، وَأمَلٍ لَایَنَالُ مُنْتَهَاهُ» «۵».

الدنیا المطلوبهٔ والدنیا المذمومهٔ:

قلنا کراراً أن المقصود من حبّ الـدنیا فی هـذا البحث هو ما یساوی العشق للـدنیا لا الاسـتفادهٔ المعقولهٔ من المواهب المادیهٔ والطبیعیهٔ للتوصل بها إلی الکمال المعنوی فإنّ ذلک لیس من حبّ الـدنیا قطعاً بل من حبّ الآخرهٔ، وبعبارهٔ اخری أنّ الکثیر من البرامج المعنویهٔ

للسير فى خطّ التكامل الإنسانى لا تتسنّى بدون الامكانات المادية، وفى الواقع أنّ هذه الامكانات المادية من قبيل مقدمة الواجب الّتى إذا أتى بها الإنسان بنيّة مقدمة الواجب، فمضافاً إلى أنّها لا تكون عيباً فإنّها تكون مشمولة بالثواب الإلهى أيضاً. ولهذا السبب نجد فى الآيات القرآنية الكثيرة تعبيرات ايجابية عن مواهب الدنيا، ومن ذلك: ما ورد فى آية الوصية من التعبير عن مال الدنيا به «خير» أى الخير المطلق حيث تقول الآية: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ اذَا حَضَرَ احَدَكُمُ الْمَوْتُ انْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْاقْرِبينَ بِالْمَعْرُوفِ» «۱». ۲- ويقول فى مكان آخر «بركات السماء والأرض» عن مواهب الطبيعة الّتى فتحها اللّه تعالى للمؤمنين وذلك فى قوله تعالى: «وَلَوْ انَّ اهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْارْضِ ...» «۲». ۳- ونقرأ فى مكان آخر التعبير عن المال والثروة بأنّها «فضل اللّه» كما ورد فى سورة الجمعة: «فَاذَا قُضِيَتِ الصَّلَوةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْارْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ...» «۳». ۴- وفى آية اخرى ورد أنّ كثرة الأموال والثروات بأنّها ثواب من اللّه تعالى للتائبين كما ورد فى قصة نوح: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِامْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ انْهَاراً» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۰ وفى مكان آخر يقرر أنّ الأموال هى وسيلة للحياة ومحور للنشاطات الدنيوية للأقوام البشرية وتؤكد الآيات على عدم وضعها بيد السفهاء وتقول: «وَلَاتُؤْتُوا السُّفَهَاءَ امْوَالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً» «۱». ۵- وفى مورد آخر يتحدّث القرآن الكريم عن وعد اللّه تعالى للمجاهدين فى سبيله بالغنائم الكثيرة ويعدها من أنواع الثواب الإلهى لهم ويقول: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ...» «۲». ۶- وفى موضع آخر من الآيات القرآنية الكريمة يتحدّث القرآن عن النعم المادية الدنيوية ويعبّر عنها ب (الطيبات) كما نقرأ فى سورة الأعراف الآية ۳۲ قوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى اخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...». وفى مورد آخر يقول: «وَاذْكُرُوا اذْ انْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْارْضِ تَخَافُونَ انْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَايَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» «۳». هذه التعبيرات العميقة وأمثالها من تعبيرات القرآن الكريم يُستفاد منها جيداً أنّ المواهب المادية والدنيوية فى ظلّ ظروف خاصّة وأجواء متناسبة ليست فقط غير مطلوبة بل هى طيبة وطاهرة وباعثة على طيب البشر وطهارتهم. ۷- ونقرأ فى آيات اخرى عبارات تقرر أنّ الامكانات المادية مضافاً إلى انها من فضل اللّه على الإنسان يمكنها أن تكون سبباً للصعود بالإنسان إلى مرتبة الصالحين كما ورد فى الآية ۷۵ من سورة التوبة: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ». هذه الآية الشريفة وبالنظر إلى شأن نزولها كما ورد فى التفاسير انها نزلت فى أحد الأنصار يُدعى «ثعلبة بن حاطب» الّذى طلب من النبى صلى الله عليه و آله أن يدعو له بكثرة المال لينفق الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۱ منه فى سبيل اللّه وليكون من الصالحين ففى البداية لم يستجب النبى لطلبه لما يعرف من مزاجه وروحيته ولكن بعد إصراره دعا له النبى بذلك وكانت النتيجة معروفة، فهذه الآية توضح على أنّ الامكانات المادية يمكنها أن تكون وسيلة للصعود بالإنسان فى مدارج الكمال المعنوى ونيل السعادة الحقيقية والوصول إلى مرتبة الصالحين والمقربين. ومن مجموع العناوين السبعة الواردة بالآيات أعلاه يتضح جيداً أنّ النعم المادية والمواهب الدنيوية ليست مذمومة وقبيحة بالذات بل هى تابعة لكيفية استخدامها واستعمالها والطريقة الّتى يسلك بها الإنسان فى الاستفادة منها، فلو انه استفاد منها بصورة صحيحة لأضحت مطلوبة وجميلة ونقيّة وطاهرة، وفى غير هذه الصورة فهى ذميمة وسلبية ومضرّة. والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الروايات الكثيرة فى كتاب وسائل الشيعة فى باب (اسْتِحْبَابُ الاسْتِعَانَةِ بِالدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ) «۱». وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملى فى هذا الباب إحدى عشر رواية كلّها شاهدة على انه يمكن الاستفادة من المواهب المادية والدنيوية فى سبيل تحقيق السعادة الأُخروية ومن جملة ما أورده العاملى حديثاً عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْغِنَى» «۲». وفى حديث آخر فى هذا الباب عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «غِناً يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُكَ عَلَى الْاثْمِ» وورد فى حديث آخر عن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال للإمام: واللّه إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال عليه السلام: «تحبّ أن تصنع بها ماذا؟» قال: أعود بها على نفسى وعيالى، وأصل بها وأتصدق بها وأحجّ وأعتمر، فقال أبو عبداللّه عليه السلام: «ليس هذا طلب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۲ الدنيا، هذا طلب الآخرة» «۱». ونختم هذا البحث بكلام لأميرالمؤمنين فى الخطبة ۲۰۹ من نهج البلاغة حيث يقول عندما

دخل مع جماعـة لعيادة «العلاء بن زياد الحارثى» وهو من الشخصـيات المعروفة فى البصره ومن أصـحاب الإمام حيث كان قد اشترى داراً وسيعة فقال له الإمام «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِى الدُّنْيَا وَانْتَ الَيْهَا فِى الْآخِرَةِ كُنْتَ احْوَجُ». ثمّ إنّ الإمام أكمل كلامه بهذه العبـارة «وَبَلَى انْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تُقْرِىَ فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ» «۲» النتيجـة: هى أنّ المواهب الماديـة والدنيويـة متى ما أصـبحت وسـيلة للوصول إلى الكمال المعنوى وبناء الآخرة ومساعـدة الضـعفاء وحمايـة المحرومين وترويج وتقوية دعائم الحقّ والعدالة فليس هناك أفضل منها، وإذا سـلك بها الإنسان فى مسـير الذنوب والحرص والتكـاثر بـدون ملاحظـة الحلال والحرام فليس هنـاك شـىء أسوء منهـا، أجـل فمثـل هؤلاء الناس من أتباع الـدنيا الّـذين يتحركون فى اسـتخدام هذه النعم والمواهب فى طريق اشـباع الغرائز المادية فإنّهم يجمعون فى واقعهم النفسانى مجموعة من الصـفات الرذيلة والرغبات القبيحة والدنيئة. ويروى أحد أصـحاب الإمام على بن موسـى الرضا ويُدعى محمّد بن إسماعيل بن بزيع حيث يقول: سمعت من الإمام الرضا أنّه قال: «لَا يَجْتَمِعُ الْمَالُ الّا بِخِصَالٍ خَمْسٍ بِبُخْلٍ شَدِيـدٍ وَامَلٍ طَوِيلٍ وَحِرْصٍ غالبٍ وَقَطِيعَـةِ الرَّحِمِ وَايثَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» «۳».

الحسد

تنويه:

إن أحد الرذائل الأخلاقية الاخرى الّتى اقترنت مع نتائج سلبية كبيرة فى حياة الفرد والمجتمع هى صفة (الحسد) ويعنى كما ذكر علماء الأخلاق (الحزن على رؤيـة النعمـة لـدى الآخرين وتمنى زوالها بل السـعى فى طريق رفعها عن الطرف الآخر). إن الحسـد يملأ أجواء الروح الإنسانيـة بالظلمة ويشوّه معالم النفس ويثير فى المجتمع البشـرى عدم الأمن والقلق والتوتر الناشـىء من حالات الصـراع النفسـى بسـبب دوافع الحسـد. إنّ الحسود ليس له راحة فى الدنيا ولا يتنعم فى الآخرة، وبما أنّ سـعيه فى حركة الحياة هو إزالة آثار النعمة عن الطرف المحسود فسوف يتلوث بأنواع الجرائم النفسـية والعمليـة ومن بين ذلك: الكـذب، الغيبـة، ارتكاب أنواع الظلم والعدوان بل قد يؤدى به الأـمر فى حالات الحسـد الشديـدة إلى القتل وسـفك الـدماء أيضاً. وفى الحقيقـة يمكن القول إن الحسـد هو أحـد الجـذور الأصـلية لجميع أنواع الفساد والسيّئات ومن أشنع فخاخ الشيطان وأخطر شراكه وهو المصيدة الّتى وقع فيها الإنسان الأوّل المتمثل بابن آدم (قابيل) حيث تلوثت يـده بدم أخيه (هابيل) بدافع من الحسد، ولهذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۴ السبب نجد فى الروايات الإسـلامية والمفاهيم الدينيـة أنّ الحسـد يُعـد أحد الاصول الثلاثة للكفر أى (التكبر، الحرص، الحسد). إنّ الشـخص الحسود فى الواقع يعـترض على حكمـة اللّه تعـالى، ولهـذا السـبب فالحسـد نـوع مـن الكفر والشـرك الخفى. والنقطـة المقابلـة للحسـد هـو (حب الخير) للآخرين، أى أن يحب الإنسان أن يرى نعمـة اللّه تصـيب الآخرين من أفراد المجتمع ويلتـذ بـذلك ويسـعى لحفظها ويرى أنّ سـعادته مقرونة بسـعادة الآخرين ومصالحه فى خط واحد مع مصالح الآخرين ومنافعهم. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنقرأ فى أجوائها معطيات هذه المسألة: ۱- «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَلَمِينَ* إِنّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَا لِكَ جَزَا ؤُا الظَّلِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» «۱». ۲- «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا ابَتِ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سجِدِينَ* قَالَ يَابُنَىَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». «۲» ۳- «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا»» .۴- «وَدَّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲،

ص: ۱۰۵ ۵- «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» «۱» ۶- «وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَا نِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» «۲» ۷- «وَنَزَعْنَا مَافِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَا نًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» «۳».

تفسیر واستنتاج:

نار الحسد المحرقة

«الطائفة الاولی من الآیات محل البحث تتحدّث عن قصة ابنی آدم وأنّ أحدهما قد ملکه الحسد علی الآخر بحیث أدّی به إلی أن یقتل أخاه، وبذلک وقعت أوّل جریمة قتل علی الأرض وکانت فی الحقیقة بدایة للجرائم البشریة الاخری. تقول الآیة الکریمة «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ ا لْمُتَّقِينَ» «۴». أی اننی لم أقصد أن اسیء إلیک لتصمّم علی قتلی فإنّ مشکلتک هی من باطنک لأنّ عملک غیر خالص ولم یقترب بالتقوی، ولذلک لم یتقبل اللَّه منک لأن اللَّه تعالی لا یتقبل إلّا ما کان طاهراً نقیاً. ثمّ تقول الآیة «لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَ نَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ ا لْعَلَمِينَ» «۵». ثمّ إن قابیل وبسبب نار الحقد والحسد المتأججة فی قلبه صمّم علی قتل أخیه هابیل وتمزیق أواصر الاخوّة بینهما بحیث إنّ الحقد والحسد حجبا عن عینه کلّ القیم الأخلاقیة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰۶ والمثل الإنسانیة وارتکب تلک الجنایة الشنیعة کما تقول الآیة «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ا لْخَاسِرِينَ» «۱». أجل لقد أصبح من الخاسرین فی الدنیا والآخرة، فقد خسر اخوه وخسر نعمة الأمن والاستقرار النفسی والهدوء الروحی، لأن القاتل لو بقیت له ذرة من الوجدان فسوف یعیش عذاب الوجدان باستمرار ولا یجد طعم الهدوء والراحة فی الدنیا، وکذلک حاله فی الآخرة حیث یستقر فی جهنم وبئس المصیر. وقد ورد فی الروایات انه قتل أخاه وهو نائم «۲»، وتُعد هذه جنایة مضاعفة تدلّ علی أنّ الحسد إذا ما استعر فی قلب الإنسان فسوف یحول کلّ نعیم إلی رماد تذروه الریاح. ولکنّ قابیل ندم بسرعة علی فعلته الشنیعة وملکهُ الحزن العمیق، وکلّما نظر إلی جسد أخیه الدامی سرت فی نفسه قشعریرة وتملکه الخوف والقلق، فما کان منه إلّاأن حمل جسد أخیه ولم یعلم ما یصنع به واین یذهب به بحیث یغطی علی آثار جنایته؟ مضافاً إلی أنّ هذا المنظر الموحش یقلقه ویزعجه فلم یکن یدری ما یصنع فی هذه اللحظة، وعلی رغم جنایته العظیمة وذنبه الکبیر فإنّ لطف اللَّه قد شمله کما تقول الآیة «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَا رِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا ا لْغُرَابِ فَأُوَا رِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» «۳». وقد جاء فی بعض الروایات أنّ قابیل رأی أمام عینه غرابین یتقاتلان فقتل أحدهما الآخر ثمّ حفر له حفرة فی الأرض ودفن فیها جسد الغراب المقتول. وقال بعض إن غراباً جاء بجسد غراب میت ودفنه، وقیل أیضاً أنّ قابیل رأی غراباً یدفن بعض المواد الغذائیة لیحفظها کما هو دیدن الغربان فتعلم من ذلک دفن الموتی «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰۷ وعلی أیّة حال فقد ندم قابیل بشدة ولکن ندمه لم یکن مستقراً ومن موقع التوبة والانابة إلی اللَّه تعالی حتّی یکون من شأنه تطهیره من الذنوب. وهنا یطرح سؤالان، الأوّل: ما المقصود من «القربان» فی قوله تعالی «إذ قرّبا قرباناً»؟ والآخر: هو انه من این عَلِما أنّ اللَّه تعالی تقبل قربان هابیل ولم یتقبل قربان قابیل؟ ولم یرد فی القرآن الکریم ما یشیر إلی جواب عن هذین السؤالین، واما الروایات فهی مختلفة علی مستوی السند أو المتن والدلالة، ولکن ما یتطابق مع المنطق والعقل ویتلائم مع القرائن الموجودة هو ما ورد فی الروایة عن سلیمان بن خالد قال: قلت لأبی عبداللَّه علیه السلام جعلت فداک إن الناس یزعمون أنّ آدم زوج ابنته من ابنه؟ فقال أبو عبداللَّه علیه السلام: «قد قال الناس فی ذلک ولکن یا سلیمان أما علمت أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: لو علمت أنّ آدم زوج ابنته من ابنه لزوجت زینب من القاسم، وما کنت لارغب عن دین آدم. فقلت جعلت فداک إنهم یزعمون أنّ قابیل إنما قتل هابیل لأنهما تغایرا علی اختهما، فقال له: یا سلیمان تقول هذا! أما تستحیی أنّ تروی هذا علی نبی اللَّه آدم؟ فقلت: جعلت فداک فبم قتل قابیل هابیل؟ فقال: فی الوصیة ثم قال لی: یا سلیمان أنّ اللَّه تبارک وتعالی أوحی إلی آدم أن یدفع الوصیة واسم اللَّه الأعظم إلی هابیل، وکان قابیل أکبر منه، فبلغ ذلک قابیل، فغضب فقال: أنا

أولی بالکرامة والوصیة. فأمرهما أن یقربا قرباناً بوحی من اللَّه إلیه، ففعلا فقبل اللَّه قربان هابیل فحسده قابیل فقتله» «۱». وعلی أیّة حال فإنّ قابیل وجد نفسه فی مفترق طریقین لإنهاء حالة القلق والإضطراب الّتی یعیش فیها: أحدهما التوبة إلی اللَّه تعالی والسعی لجبران ما صدر منه من الاثم بالعمل الصالح والخالص والتحرک فی خط التقوی والاستقامة والانفتاح علی اللَّه (وهو العمل الّذی یسمّیه علماء الأخلاق ب «الغبطة» وهی حالة ممدوحة وبناءة) ولکن قابیل اختار الطریق الآخر، أی السعی لإزالة النعمة من أخیه، وبذلک أوقع نفسه فی أسوء طریق وانتخب أشنع وسیلة بذلک وتلوثت یده بدم أخیه البریء لیطفیء نار الحسد فی قلبه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰۸ إذا تسبب «تکبر» إبلیس لأن یقع طرید رحمة اللَّه إلی الأبد، وتسبب «الحرص» فی أن یحرم آدم من الجنّة، فإنّ «الحسد» قد جعل قابیل ملعوناً ومطروداً من رحمة اللَّه إلی الأبد بسبب قتله لأخیه، وکلّ قتل یقع فی الدنیا فإنّ قابیل له سهم من تلک الجنایة باعتباره المؤسس لها. فالتاریخ البشری ملیء بالجنایات والفجائع المختلفة الّتی تنطلق بدافع من (الحسد). «الطائفة الثانیة» من الآیات الکریمة التی تحدثت عن جانب آخر من هذه الصفة الذمیمة فی حالات الإنسان وهی «الحسد» وآثارها المدمرة فی حیاة الفرد والمجتمع، وتستعرض فی ذلک قصة النبی یوسف واخوته. «النبی یوسف» لم یکن صاحب الجمال فی وجهه وملامحه البدنیة فحسب بل کان یتمتع بمنتهی الجمال فی أخلاقه وسیرته الحمیدة، وهذا الأمر هو الّذی اخبر عن مستقبله العظیم کما توقع له أبوه یعقوب وأحبه ذلک الحبّ الشدید، وکان هو السبب فی غرس عامل (الحسد) فی قلوب أخوته الّذین کانوا أکبر منه سناً. وهذا الموضوع تجلّی بوضوح عندما حکی یوسف لأبیه حلماً کان قد رآه حیث تقول الآیة: «إِذْ قَالَ یُوسُفُ لِأَبِیهِ یَا ابَتِ إِنّی رَأَیْتُ أَحَدَ عَشَرَ کَوْکَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَیْتُهُمْ لِی سجِدِینَ» «۱». وکان النبی یعقوب یعلم أنّ مثل هذه الرؤیا لیست رؤیا عادیة ومن افرازات الخیال للأطفال بل هی علامة علی مستقبل مشرق ینتظر ابنه یوسف فقال له کما تتحدث الآیة: «قَالَ یَابُنَیَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْیَاکَ عَلَی إِخْوَتِکَ فَیَکِیدُواْ لَکَ کَیْدًا إِنَّ الشَّیْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِینٌ» «۲». ولکن هل أنّ اخوة یوسف علموا بمضمون رؤیا یوسف العجیبة الّتی تتحدّث عن الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰۹ مستقبله الزاهر أم لا؟ لا نعلم بذلک علی وجه الدقة، ولو أنّهم کانوا قد علموا بذلک لکانت هذه بمثابة البذرة الثانیة لحالة (الحسد) الّتی اعتمرت قلوبهم، ولکن علی أیّة حال فإنّ الأب کان یعلم انه إذا علم الاخوة بمضمون هذه الرؤیا العجیبة فانهم سوف یتحرکون ضد أخیهم یوسف من موقع العداوة والخصومة، ولهذا أصرّ علیه بکتمان هذا الخبر عنهم. وجاء فی بعض الروایات أنّ یعقوب ومن فرط فرحه وسروره بهذه الرؤیا قد أخبر زوجته بذلک علی أساس انها تکتم الخبر، ولکن بما أنّ السر إذا تجاوز الاثنین فشا، فإنّ هذه الحکایة انتشرت وعلم بها اخوة یوسف، وجاء فی روایة اخری أنّ یوسف لم یستطع کتمان خبر هذه الرؤیا، (فتصوّر أن نهی أبیه هو نهی ارشادی لا نهی تحریمی) فعندما علم اخوته بخبر الرؤیا قالوا أنّ یوسف یطمح أن یکون ملکاً «۱». ولکن إذا لم یعلم الاخوة بخبر الرؤیا فانهم علی الأقل کانوا یرون تعامل أبیهم مع یوسف وسلوکه الّذی ینبیء عن عظیم حبّه له وخاصة انه کان بقیة امّه راحیل الّتی ماتت وهو فی طفولته. القرآن الکریم یقول فی هذا الصدد «إِذْ قَالُواْ لَیُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَی أَبِینَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ» «۲». وبهذه الصورة اصدروا حکمهم بضلالة أبیهم، وبعد ذلک صمّموا علی رفع هذا المانع الکبیر، أی یوسف، من طریقهم لیبقی لهم حبّ أبیهم ومودّته، وضمن البحث فی (جلسة شیطانیة) قرروا ما یلی «اقْتُلُواْ یُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا یَخْلُ لَکُمْ وَجْهُ أَبِیکُمْ وَتَکُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِینَ» «۳». وکما نعلم انه لم یتم لهم قتل أخیهم یوسف بل قد توسّط أحد الاخوة فی ذلک وتم القرار الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۰ بإبعاده إلی أرض بعیدة ومنطقة نائیة، وبالرغم من أنّ هذا النفی والتبعید لیوسف قد سبّب الحزن الشدید لأبیه یعقوب بحیث ابیضّت عیناه من الحزن وصار بصیراً من کثرة البکاء، ولکن هذا العمل وعلی خلاف توقع الاخوة اصبح مقدمة لینال یوسف مقام القدرة والسلطنة علی بلاد مصر الّتی کانت تعتبر من أعظم البلدان فی ذلک الزمان وکذلک لم یحظوا بحبّ أبیهم أیضاً. أجل فإنّ الامواج الخطیرة للحسد قویة وعظیمة إلی درجة أنّها دفعت الاخوة إلی قتل أخیهم وتسبّبت فی أن یحملوا أوزاراً کبیرة اخری منها الکذب وکتمان الجریمة ونسبت أبیهم إلی الضلالة واهانة نبی من الأنبیاء وأمثال ذلک. «الآیة الثالثة» تشیر إلی قصة الیهود وتتحدث عن سلوکیاتهم الذمیمة، ونعلم أنّ طائفة عظیمة من بنی إسرائیل قد قرأوا علامات النبی فی آخر الزمان

ومنطقة ظهوره، فرحلوا من (الشامات) إلى (المدينة) ليحظوا بصحبة ذلك النبى ويؤمنوا به، ولذلك كانوا ينتظرونه دائماً. ولكن بعد ظهور هذا النبى فإنّ الكثير منهم لم يبقوا على تعهدهم والتزامهم المسبق بحمايته ونصرته والإيمان به، بل أصبحوا فى صف المخالفين له والمحاربين لدعوته، والسبب الأهم فى ذلك هو عنصر «الحسد» والآخر هو ماتوهموا من وقوع منافعهم ومصالحهم فى الخطر. القرآن الكريم يتحدّث لنا عن هذه الحالة لليهود فيقول «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ ا لْكِتَابَ وَا لْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا» «۱». أجل فإنّ المشيئة الإلهية قد تعلقت فى أن يملك آل إبراهيم والّذين كان اليهود من ذريتهم وأن تكون لهم النبوة والعلم، ولكن المشيئة الإلهية قررت فى زمان لاحق أن تتعلق النبوة والعلم بمحمّد وآله الكرام وكلّ ذلك وفقاً للمصالح الّتى تتعلق بها المشيئة الإلهية، فهل أنّ اليهود كانوا يقبلون أن يحسدهم الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله فى الزمان السالف؟ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۱ إذن فلماذا استعرت فى قلوبهم نيران الحسد عندما يرون أنّ نعمة اللَّه قد صارت من نصيب آخرين وبذلك تحركوا فى خط الباطل. «الآية الرابعة» تتحدّث عن طائفة من أهل الكتاب الّذين يتعاملون مع المسلمين من موقع الحسد، والظاهر انها ناظرة إلى اليهود وتقول «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ا لْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ا لْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۱». إن الحسد قد يصل بالإنسان إلى درجة أن لا ينحصر تأثيره فى الامور المادية مورد التنازع بين الناس عادة فحسب بل قد يتجاوز ذلك إلى الامور المعنوية الّتى لا تتزاحم بطبعها فى تواجدها بين أفراد البشر كافة بخلاف حال الامور المادية الّتى تتزاحم بالذات بين الأفراد، وهؤلاء يحسدون المؤمنين من موقع العناد والاصرار ويسحقون على سعادتهم ويديرون ظهورهم للحقّ بسبب امور موهومة، ونفس هذا الحسد يتسبّب أن يضعف فى الآخرين أيضاً الدافع لسلوك طريق السعادة والتحرّك فى خط الإيمان والتقوى، وهذا من عجائب الحسد. وقد ذكر الكثير من المفسّرين أنّ جملة «حَسَداً مِنْ عِنْدِ انْفُسِهِمْ» إشارة إلى أنّ العامل لهذه الحالة فى نفوسهم هو عنصر الحسد المتجذر فى باطنهم والّذى يتفرع من جهلهم وعدم اطلاعهم على حقائق الامور بل حتّى بعد اطلاعهم على الحقيقة يسلكون هذا المسلك المنحرف كما تقول الآية بعد ذلك «مِّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ا لْحَقُّ». ولكنّ القرآن الكريم يخاطب المسلمين من موقع الأمر إلى أن يتركوا هؤلاء الحسّاد لحالهم (لأن نار الحسد المستعرة فى قلوبهم هى أفضل جزاء لهم) ولكن لا يتصوروا أنّ هذا العفو والصفح من قِبل المسلمين يستمر إلى ما لا نهاية وأنّهم أحرار فى سلوك أىّ عدوان واضرار بالآخرين، كلّا. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۲ إنّ الزمان سوف يُثبت على انّ العذاب الإلهى سوف يُحيط بهؤلاء المنحرفين والظالمين إما فى الدنيا بواسطة جيش الحقّ فيعذبهم اللَّه ويريهم جزاء مؤامراتهم الخبيثة وممارساتهم المنحرفة تجاه أصحاب الحقّ، أو يذيقهم العذاب فى الآخرة. وعلى أيّة حال فهذه الآية تشير إلى أنّ المسلمين الّذين اعتنقوا الإسلام حديثاً عليهم أن لا يستسلموا لوساوس اليهود وغيرهم من المنحرفين وقوى الضلال لأنهم ينطلقون فى تعاملهم مع المسلمين من موقع الحسد ولا يريدون سعادتهم بل يتألمون لما يروا من سعادة المسلمين فى ظلّ التقوى والإيمان. «الآية الخامسة» وهى الآية الخامسة من سورة الفلق تشير إلى شرّ الحاسدين وتخاطب النبى بأن يتعوذ باللَّه تعالى من شرّ كلّ حاسد وتقول «وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» «۱». وفى بداية هذه السورة تخاطب النبى بالقول «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ا لْفَلَقِ* مِن شَرِّ مَا خَلَقَ». ثمّ تقسم المخلوقات الشريرة إلى ثلاثة أقسام وتقرر أنّ أساس الشرّ والعامل الأصلى له فى العالم هى هذه الامور الثلاثة: الأوّل: المخلوقات الشريرة الّتى تستغل ظلمة الليل وتهجم على الإنسان فى حال نومه ويقظته، والتعبير بكلمة (غاسق) (ويعنى الموجود الشرير الّذى يهجم فى الليل) وذلك لأن الحيوانات الوحشية والحشرات المؤذية تخرج ليلًا من آجامها وجحورها بل إنّ الأشخاص من أهل الشرّ والخبث والدنائة يستغلّون ظلمة الليل غالباً للوصول إلى مقاصدهم الشريرة. ولكن الظلام هنا يمكن أن يكون له معنىً واسع بحيث يشمل كلّ أنواع الجهل والغفلة والمؤامرات الخبيثة وأمثال ذلك لأن قطّاع طريق الحقّ يستغلون جهل الناس عادة ويهجمون على المؤمنين واصفياء القلوب من موقع التآمر عليهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۳ ثمّ تشير السورة إلى الأشرار الّذين ينفخون فى العقد، وهو تعبير يشير إلى النساء اللواتى يسلكن طريق الإنحراف كما هو حال الساحرات الّذين يقرأن بعض الأوراد والتمائم فى

حال عملیة السحر ثمّ ینفخن فی العُقد ویقرأن علی البسطاء والسذّج من الناس مطالب وکلمات غیر مفهومة، وبهذه الوساوس یسعین إلی ایجاد عنصر الخذلان فی إرادتهم ویجرّونهم إلی حال التردید والتشکیک، فعندما تضعف الإرادة فی الإنسان یتسنّی حینئذٍ لجیش الشیطان أن یهجم ویتسلط علیه. ثمّ تشیر الآیات إلی الطائفة الثالثة والأخیرة من طوائف الشرّ وتقول «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ». وهنا یتضح أنّ أحد عوامل التخریب والفساد فی العالم هو عامل الحسد والتخریب الّذی ینشأ من فعل الحسّاد، وعلیه فالآیة فی حدیثها عن المنابع الثلاثة للشرّ والفساد (وهی: المهاجمون فی ظلمة اللیل، والموسوسون الّذین یتحرکون من خلال الإعلام لهدف تضعیف عقائد الناس وایمانهم وایجاد الخلل فی العلاقات الاجتماعیة، والحاسدون الّذین یتحرکون بین الناس من موقع التخریب) فهذه الآیات شاهد ناطق علی المراد أی الأضرار الوخیمة للحسد. أمّا ما ورد فی الآیة من هذه السورة من الصفة الإلهیة (بِرَبِّ الْفَلَقِ) یمکن أن یکون إشارة إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ هذه الطوائف الشریرة الثلاثة تستغل دائماً الظلمة والجهل والاختلاف والکفر، فلو أنّ هذه الظلمات تبدّلت إلی نور العلم والاتحاد والایمان فإنّ قوی الانحراف هذه سوف لا تستطیع أن تعمل شیئاً. «الآیة السادسة» من الآیات مورد البحث بعد أن مدحت الأنصار مدحاً بلیغاً (وهم الّذین دعوا نبی الإسلام إلی یثرب ونصروه واستقبلوه أحسن استقبال وجعلوا جمیع ما لدیهم من امکانات تحت اختیاره) تحدّثت عن (التابعین) وهم الّذین جاءوا بعد المهاجرین والأنصار والتزموا خطّ الایمان واعتنقوا الإسلام واستمروا فی خط الایمان، تقول الآیة «وَالَّذِینَ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۴ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَا نِنَا الَّذِینَ سَبَقُونَا بِالْإِیمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّکَ رَؤُوفٌ رَّحِیمٌ» «۱». وعلی هذا الأساس یقول هؤلاء بعد طلبهم المغفرة لهم ولمن تقدّمهم فی الإیمان (المهاجرین والأنصار) حیث یطلبون من اللّه تعالی أن یُزیل أی شکل من أشکال (الغِل والحقد والحسد) فی قلوبهم بالنسبة إلی المؤمنین، لأنهم یعلمون انّه مادامت هذه الامور تعیش فی قلب الإنسان فإنّ روابط المحبّة والاخوّة والإتحاد لا یمکن أن تؤثر أثراً وبالتالی لا ینال الفرد التوفیق فی حرکته الدینیة والاجتماعیة. کلمة (غِل) المأخوذة من مادّة (غلل) وکما یقول الراغب فی کتابه (المفردات) هی فی الأصل بمعنی الشیء الخفی الّذی ینفذ تدریجیاً وبخفاء، ولهذا یُقال للماء الجاری (غلل) لأنّه ینفذ إلی الأشجار تدریجیاً. ثمّ استُعمل الغلول فی (الخیانة) لأنها تنفذ بخفاء وتدرّج، وکذلک استُعملت فی (الحقد والحسد) حیث ینفذان إلی القلب بشکل خفی وتدریجی. وجاء فی (لسان العرب) أنّ الحسد نوع من (الغلّ) کما أنّ من مصادیقه هو الحقد والعداوة أیضاً. والکثیر من المفسّرین یرون فی تفسیر الغِل بمعنی الحسد کالفخر الرازی فی (التفسیر الکبیر) والمراغی فی تفسیره والقرطبی فی (الجامع لأحکام القرآن) فی ذیل هذه الآیة محل البحث. «الآیة السابعة» والأخیرة من الآیات مورد البحث تتحدّث عن صفات أهل الجنّة وتقول بعد تصریحها باستقبال الملائکة لهم فی القیامة ودعائهم لهم بالسلامة والأمن «وَنَزَعْنَا مَا فِی صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَا نًا عَلَی سُرُرٍ مُّتَقَابِلِینَ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۵ أجل فإنّ أهل الجنّة طاهرون من کلّ أشکال الحسد والحقد والعداوة الّتی یتصف بها أهل النار، وإذا رأینا أنّهم یعیشون حالة الأخوة والسلامة والأمن فی الجنّة فإنما هو بسبب زوال هذه الامور السلبیّة من وجودهم وقلوبهم (وذلک بلطف اللّه وببرکة أعمالهم الصالحة فی الدنیا). ولا شکّ أنّ الناس فی الدنیا لو عاشوا بحیاة خالیة من الحقد والعداوة والحسد فی تفاعلهم الاجتماعی فیما بینهم لأضحت حیاتهم الدنیویة کحیاة أهل الجنّة حیث یعیشون الأمن والأمان والاخوة والصفاء أیضاً.

النتیجة:

ومن مجموع ما تقدّم من الآیات المذکورة آنفاً تتضح الآثار السلبیّة الوخیمة لحالة الحسد فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة، ویتضح کذلک موقف القرآن السلبی والشدید من هذه الصفة الأخلاقیة الذمیمة، فالحسد هو الّذی تسبب فی أن یقتل الإنسان أخاه وأن یُغمض عینه عن رؤیة الحقّ ویُسدل علی عقله حجاباً کثیفاً یمنعه عن رؤیة الحقیقة ویُثیر فی أجواء المجتمع الظلمة، ویقطع أواصر المحبّة والود بین الأفراد، ویحوّل المجتمع البشری إلی جهنم محرقة تحرق المتلوثین بهذه الصفة الذمیمة.

الحسد فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ في الروايات الإسلامية الذمّ الشديد لحالة الحسد بحيث قلّما نجد صفة من الصفات الرذيلة قد ورد ذمّها بهذه الشدّة في النصوص الدينية، وعلى سبيل المثال وكنماذج وعيّنات من ذلك نكتفي بإستعراض عدّة روايات تتحدّث حول هذا الموضوع: الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۱۱۶ ۱- ورد في الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۱». والتعبير أعلاه يشير إشارة واضحة إلى انّ نار الحسد يمكنها أن تأتي على جميع عناصر السعادة لدى الإنسان وتحرق حسناته وأتعابه طيله عمره وتهدر ثمرات اتعابه بحيث يخرج من الدنيا صفر اليدين. ۲- وهذا المعنى ورد بصورة أشد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام حيث قالا: «انَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْايمانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۲». أجل فإنّ الصفة الرذيلة للحسد لا تحرق الحسنات فقط بل تحرق الإيمان أيضاً وتبدّله إلى رماد، وسيأتي تفصيل الكلام في شرح هذا الحديث الشريف. ۳- وفي حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَسَدُ شَرُّ الْامْرَاضِ» «۳». وطبقاً لهذا الحديث فإنه ليس هناك من الأمراض الأخلاقية أسوء وأشر من الحسد. ۴- وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «رَأْسُ الرَّذَائِلِ الْحَسَدُ» «۴». ۵- وكذلك ورد عن هذا الإمام في تعبيره الكنائي عن الحسد «للَّهِ دَرُّ الْحَسَدِ مَا اعْدَلَهُ بَدَءَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ» «۵». ۶- وأيضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «ثَمَرَةُ الْحَسَدِ شَقَاءُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» «۶». ۷- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «آفَةُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» «۷». الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۱۱۷ ۸- وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: عندما كان موسى بن عمران يناجي اللَّه عزّوجلّ إذ نظر إلى رجل في ظلّ العرش، فقال: «يَا رَبِّ مَنْ هَذَا الّذى قَدْ اظَلَّهُ عَرْشُكَ» «۱» فقال: «يَا مُوسَى هَذَا مِمَّنْ لَمْ يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ». ۹- وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسِتَّةٍ». «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟» «قَالَ: الْامَرَاءُ بِالْجَوْرِ، وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهَاقِينُ بِالتَّكَبُّرِ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرُّسْتَاقِ بِالْجَهَالَةِ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ» «۲». وعليه فإنّ الحسد يمثل بلاء العلماء بالدرجة الاولى. ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله (رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب) أنّه قال: «انَّهُ سَيُصِيبُ امَّتِى دَاءُ الْامَمِ! قَالُوا: وَمَاذَا دَاءُ الْامَمِ؟! قَالَ: الْاشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِى الدُّنْيا، والتَّبَاعُدُ والتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْىُ، ثُمَّ يَكُونُ الْهَرْجُ!» «۳».

امور مهمة:

اشارة

بعد أن اتضح موقف القرآن الكريم والروايات الإسلامية من هذه الرذيلة الأخلاقية (الحسد) وعمق الفاجعة المترتبة عليه في حياة الإنسان والمجتمع البشري بقيت عدّة نقاط مهمّة في هذا البحث لابدّ من استعراضها لتتضح الأبعاد المختلفة لموضوع الحسد وهي عبارة عن: ۱- معنى ومفهوم الحسد. الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۱۱۸ ۲- دوافع الحسد. ۳- علامات وآثار الحسد. ۴- المعطيات الفردية والاجتماعية للحسد. ۵- طرق الوقاية من الحسد وعلاجه.

۱- مفهوم الحسد والغبطة

ذكر علماء الأخلاق في تعريف الحسد انه: تمني زوال النعمة عن الآخرين سواءاً وصلت هذه النعمة إلى الحاسد أم لا. وعليه فإنّ عمل الحسود هو التخريب أو تمنّي التخريب وزوال آثار النعم والمواهب الإلهية عن الآخرين سواءاً انتقلت إليه تلك النعمة أم لا. وعلى هذا الأساس فإنّ أشد أنواع الحسد هو أن يتمنّى الإنسان زوال النعمة عن الآخر ويتحرّك في هذا المسير أيضاً سواءً عن طريق ايجاد سوء

الظن بالنسبة إلى المحسود، أو عن طريق ايجاد الموانع لعمله فى حركة الحياة والمعيشة، وهذا النوع من الحسد يحكى عن خبث الباطن الشديد للحسود. والمرتبة الأدنى منها هى أن يكون هدف الحاسد هو تحصيل تلك النعمة عن طريق سلبها من الآخرين، وبالرغم من انّ هذه الحالة هى من الرذائل الأخلاقية ولكنها ليست فى الشدّة كما رأينا فى المرتبة الاولى منها. وهناك مرتبة أدنى من ذلك أيضاً حيث يتمنّى فيها الحاسد زوال النعمة عن الآخر بدون أن يتحرّك فى هذا السبيل على مستوى الكلام أو الخطوات العملية الاخرى. وهذه الحالة الذميمة إذا حصلت للإنسان بدون اختيار منه كما قد يحصل لدى الكثير، فلا يترتب عليها إثم، ولكن إذا كانت بمحض ارادته بحيث حصلت له بسبب بعض المقدمات الاختيارية وبإمكانه إزالة هذه المقدّمات، فبلاشك تُعتبر هذه من الرذائل الأخلاقية أيضاً ولكن هل يترتب على ذلك إثم أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۹ وهنا تأمّل فى هذا الموضوع ناشىء من هذه الحقيقة، وهى هل أنّ الصفات الباطنية حتّى لو كانت اختيارية هى محرمة حتّى لو لم تظهر فى عمل الإنسان وفعله، أو تُعتبر صفة أخلاقية تكشف عن انحطاط أخلاقى لذلك الشخص بدون أن تستتبعها حرمة فى البين؟ وعلى أيّة حال فإنّ النقطة المقابلة للحسد هى (الغِبطة) وهى أن يتمنّى الإنسان أن تكون له نعمة مثلما للآخرين أو أكثر منها بدون أن يتمنّى زوال تلك النعمة عن الآخر. ولكن البعض يرى انّ (الغبطة) نوع من الحسد أيضاً ويستشهد لذلك بحديث شريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً» .ولكن من الواضح أنّ هذا المعنى ينسجم مع تفسيرنا للحسد بمفهومه الواسع بحيث يشمل كلّ مقارنة لما لدى الفرد من النعم مع ما لدى الآخرين منها، وهو فى الواقع نزاع لفظى، والمعروف هو ما تقدّم آنفاً من تعريف الحسد. وعلى أيّة حال فالحسد صفة ذميمة وقبيحة فى دائرة الأخلاق، فى حين انّ (الغِبطة) ليس فقط غير مذمومة، بل محمودة ومطلوبة أيضاً، وتعتبر سبباً لترقى المجتمع والصعود به فى مدارج الكمال كما ذكر ذلك الطريحى فى (مجمع البحرين) فى مادّة (حَسَدَ). ونقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله «انَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبُطُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغْبُطُ» «۲».

۲- دوافع الحسد

من المعلوم أنّ الكثير من الصفات الرذيلة تتناغم مع بعضها وبينها تأثير متقابل، والحسد أيضاً من هذه الصفات حيث ينشأ من صفات قبيحة اخرى، وهو بنفسه يُعد منبعاً ومصدراً لرذائل كثيرة أيضاً. ويذكر علماء الأخلاق للحسد منابع كثيرة منها: العداوة والحقد بالنسبة إلى الآخرين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۰ حيث يتسبّب فى أن يتمنّى الإنسان زوال النعمة عن الطرف الآخر الّذى يحمل له العداء ويبطن له الحقد. والآخر هو الكِبر والغرور، ولهذا إذا رأى المتكبر غيره يتمتّع بنعم أكثر منه فإنه يتمنّى زوالها بل يسعى فى إزالتها أيضاً لكى يُحرز تفوّقه على الآخرين. الثالث: حبّ الرئاسة حيث يتسبّب فى أن يتمنّى الإنسان زوال نعمة الآخرين لكى يستطيع بذلك من تحكيم سيطرته وحكومته عليهم، لأنّه إذا لم تكن قدرته وثروته وامكاناته الاخرى أكثر من الآخرين فإنه قد لا يستطيع أن يثبّت أركان حكومته عليهم. الرابع من أسباب الحسد: الخوف من عدم الوصول إلى المقاصد الدنيوية، لأن الإنسان يتصور أحياناً أنّ النعم الإلهية محدودة فلو أنّ الآخرين حصلوا عليها فيمكن أن يُحرم منها أو لا يصل إليه منها إلّاالقليل. الخامس: الاحساس بالحقارة والدونية، فالأشخاص الّذين لا يجدون فى أنفسهم اللياقة للوصول إلى المقامات العليا وحيازة المراتب السامية فإنّ ذلك يتسبب فى ابتلائهم بعقدة الحقارة الّتى تدفعهم إلى تمنى زوال النعمة من الآخرين وأن لا ينال الآخرون مكانة اجتماعية مهمة ليكونوا معهم سواء. السادس: من أسباب الحسد هو البخل وخبث الباطن لأن البخيل ليس فقط غير مستعد لأن يبذل ما فى يده إلى الآخرين، بل يتألم عندما يرى نِعم اللَّه تعالى تصل إلى غيره، أجل فإنّ ضيق الافق ودنائة الطبع وخساسة النفس تقود الإنسان إلى أن يعيش الحسد فى واقع النفس، وأحياناً تتوفر جميع هذه الأسباب والدوافع الستة للحسد لدى الفرد، وأحياناً اخرى اثنان أو ثلاثة منها، فتشتد خطورة الحسد بنفس النسبة. ولكن الأهم من ذلك فإنّ الحسد يمكن أن يمتد بجذوره إلى عنصر العقيدة ومكامن الدين، فمن كان يؤمن باللَّه تعالى وقدرته ولطفه ورحمته وعدالته وحكمته، كيف يمكنه أن يجد فى نفسه حالة الحسد للآخرين؟ إن الشخص الحسود يكاد

يعترض على اللَّه تعالى بلسان حاله وأنّه لماذا رزقت فلاناً الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۱ تلك النعمة؟ وأين العدالة؟ وأين الحكمة؟ ولماذا لا تعطينى مثله؟ بل قد يتصور نسبة العجز إلى اللَّه تعالى عندما يعطى غيره ولا يعطيه هو ولهذا يفضل أن تسلب تلك النعمة من ذلك الشخص وتصل إليه. وعلى هذا الأساس فالحاسد فى الحقيقة يعيش فى حالة من اهتزاز دعائم الإيمان والتوحيد الأفعالى فى واقعه الروحى، لأن الإنسان المؤمن بأصل التوحيد الأفعالى يعلم جيداً أن تقسيم النعم الإلهية على العباد لا يكون اعتباطياً، بل وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، ويعلم كذلك أنّ اللَّه تعالى يملك القدرة فى أن يرزقه أكثر وافضل من ذلك الشخص فيما لو كان يتمتع باللياقة لمثل هذه النعم والمواهب، إذن عليه أن يسعى لتحصيل القابلية واللياقة لذلك. ولهذا نقرأ فى الحديث القدسى حيث يخاطب اللَّه تعالى نبيه زكريا: «الْحَاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِى، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِى، غَيْر رَاضٍ لِقِسْمَتِىَ الَّتِى قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادى» «۱». وقد ورد شبيه هذا المضمون عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حيث قال: «إنّ اللَّه تعالى أوحى إلى موسى بن عمران: «لَا تَحْسُدَنَّ النَّاسُ عَلَى مَا آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْلِى، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ الَى ذَلِكَ، وَلَا تَتَّبِعُهُ نَفْسَكَ، فَانَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعَمِى، ضَادٌّ لِقَسْمِىَ الّذى قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادى وَمَنْ يَكُ كَذَلِكَ فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنّى!» «۲». والخلاصة أنّ الحسود لا يتمتع فى الحقيقة بدعائم إيمانية وعقائدية راسخة وإلّا فإنه يعلم أنّ حسده ما هو إلّانوع من أنواع الإنحراف عن خط التوحيد وعن الحقّ. ويقول الشاعر فى هذا المجال: الا قل لمن كان لى حاسداً اتدرى على من اسأت الأدب؟! اسأت على اللَّه فى فعله إذا أنت لم ترض لى ما وهب! «۳»

۳- علامات الحسد

إنّ هذه الصفة الرذيلة كسائر الصفات الأخلاقية الذميمة الاخرى تارة تكون صريحة واخرى خفية، ولهذا لابدّ من تتبع كلمات علماء الأخلاق وعلماء النفس فى استعراضهم لحالات الحسد وعلاماته أو ما استفدناه بالتجربة، فلابدّ من معرفة الحسد ووجوده فى مراحله الأوّلية قبل أن يتجذّر فى باطن الإنسان وتستحكم دعائمه ويصعب علاجه حينئذٍ. ومن جملة العلائم الّتى ذُكرت للحسد امور: ۱- أنّ الحاسد يحزن ويتألم عندما يسمع بنعمة تصيب الآخر حتّى لو لم تظهر آثار الحزن على محياه. ۲- أحياناً يتجاوز هذه المرحلة وينطلق لسانه بالتعرض للطرف الآخر بذكر معايبه وانتقاده من موقع التنقيص والتسقيط. ۳- وأحياناً يتجاوز هذه المرحلة أيضاً ويتحرّك فى تعامله مع الآخر من موقع الخصومة والعداوة. ۴- وأحياناً يكتفى هذا الشخص بإظهار عدم اهتمامه للطرف الآخر أو يقطع رابطته وعلاقته معه ويسعى إلى اجتنابه وعدم رؤيته وأن لا يسمع شيئاً عنه، فلو اتفق وأن دار الحديث عنه سعى لتغيير موضوع الحديث وقطع على القائل مقولته، وإذا اجبر يوماً على التحدّث عنه بأمر من الامور فإنه يسعى لإخفاء صفاته البارزة ونقاط قوّته أو اكتفى بالسكوت. وكلّ واحدة من هذه الامور تدلّ على وجود حالة الحسد الخبيثة. وفى الأحاديث الشريفة الواردة، من مصادر أهل بيت العصمة والطهارة اشارات واضحة على هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد فى كلام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ انَّهُ يَغْتَمُّ فِى وَقْتِ سُرُورِكَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۳ وبعكس ذلك عندما يواجه الطرف الآخر ضرراً أو يقع فى مشكلة فإنّ الشخص الحسود سيفرح لذلك كما ورد فى الآية ۵۰ من سورة التوبة «انْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَانْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ اخَذْنَا امْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ». وهناك آيات متعددة اخرى تشير إلى هذا التصرّف السلبى والسلوك الذميم من قِبل الكفّار الّذين يواجهون ما أنعم اللَّه تعالى على المؤمنين من موقع الحسد والكراهية. وقد وردت فى الأحاديث الشريفة اشارات مكررة إلى هذه المسألة وأنّ الحاسد يفرح من زوال النعمة على المحسود ويغتم لما يصيبه من النعم، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَاسِدُ يَفْرَحُ بِالشُّرُورِ وَيَغْتَمُّ بِالسُّرُورِ» «۱».

۴- النتائج السلبية للحسد

إن الحسد يتميز بنتائج سلبيهٔ كثيرهٔ على المستوى الفردى والاجتماعى والمادى والمعنوى فى حركهٔ حياهٔ الإنسان، بحيث يقلّ نظيره من الصفات الأخلاقيهٔ السلبيهٔ الّتى تترتب عليها مثل هذه النتائج السلبيهٔ والأضرار الكثيرهٔ، وأهمها: الأوّل: إن الحسود يعيش الغم والهم دائماً، وهذا الأمر يتسبب فى أن يبتلى بالأمراض الجسميهٔ والنفسيهٔ. فكلّما ينال الطرف الآخر من التوفيق والنعمهٔ أكثر فإنّ الحاسد يتألم لذلك أكثر حتّى قد يناله الأرق الشديد ويسلبه ذلك هدوئه واستقراره وبالتالى تضعف بنيته ويغدو نحيفاً مريضاً، فى حين انه يتمتع بامكانات ماديهٔ جيّدهٔ ولو انه أبعد هذه الصفهٔ الرذيلهٔ عن نفسه لأمكنه أن يعيش عيشهٔ طيّبهٔ ومرفّههٔ. وقد ورد فى الأحاديث الشريفهٔ إشارهٔ إلى هذه النكتهٔ بالذات حيث حذّر الأئمّهٔ المعصومين من هذه الحالهٔ، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «اسْوَءُ النَّاسِ عَيْشاً الْحَسُود» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۴ ونفس هذا المعنى ورد فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام حيث قال: «لَا رَاحَهَٔ لِحَسُودٍ» «۱». ونجد هذا التعبير أيضاً فى حديث آخر عنه عليه السلام «الْحَسَدُ شَرُّ الْامْرَاض» «۲». وجاء فى تعبير آخر: «الْعَجَبُ لِغفلَهِٔ الْحُسَّادِ عَنْ سَلَامَهِٔ الْاجْسَادِ» «۳». ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن هذا الإمام رغم وجود أحاديث كثيرهٔ فى هذا الباب حيث قال «الْحَسَدُ لَايَجْلِبُ الّا مَضَرَّهًٔ وَغَيْظاً، يُوهِنُ قَلْبَك، وَيَمْرُضُ جِسْمَكَ» «۴». والآخر: أنّ الأضرار المعنويهٔ للحسد أكثر بمراتب من الأضرار الماديهٔ والبدنيهٔ للإنسان، لأن الحسد يأكل دعائم الإيمان ويمزق علاقهٔ الإنسان مع ربّه بحيث يجعل الإنسان يُسيء الظنّ باللّه تعالى وحكمته، لأن الحسود فى أعماق قلبه يعترض على اللّه تعالى على ما وهب للآخرين من نعمه ورزقهم من فضله. ونقرأ فى الحديث المعروف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لَا تُحَاسِدُوا فَإنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْايمانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۵». ونفس هذا المعنى ورد عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أيضاً وعن حفيده الإمام الباقر عليه السلام كذلك. وقد أورد المرحوم الكلينى فى الكافى حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «آفَهُٔ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» «۶». وورد عن هذا الإمام أيضاً قوله «انَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغْبِطُ» «۷» . ويُستفاد جيداً من هذا الحديث أنّ الحسد يتقاطع مع روح الإيمان ويتناغم مع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۵ النفاق فى واقع الإنسان. وقد سبق وإن ذكرنا فى الأبحاث الماضيهٔ الحديث القدسى الشريف حيث خاطب اللّه تعالى نبيه زكريا وقال: «الحاسد عدوّ لنعمتى، متسخّط لقضائى، غير راضٍ لقسمتى الّتى قسمت بين عبادى». الثالث: من الآثار السلبيّهٔ والنتائج المضرهٔ للحسد هو انه يسدلّ على عقل الإنسان وبصيرته حجاباً سميكاً يمنعه من إدراك حقائق الامور ومعرفهٔ الواقعيات، لأن الحسود لا يستطيع أن يرى نقاط القوّهٔ فى المحسود حتّى لو كان استاذاً كبيراً ومصلحاً اجتماعياً جليلًا بل انه يبحث دائماً عن نقاط ضعفه وعيوبه، وأحياناً يرى نقاط قوّته بمنظار نقاط ضعفه ويشاهد ايجابياته من موقع النظر السلبى، ولهذا السبب قال أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسَدُ حَبْسُ الرُّوحِ» «۱» فإنّ الإنسان يحبس روحه فى حالهٔ الحسد عن إدراك حقائق الامور. الرابع: من أضرار الحسد هو انه يسلب الإنسان اصدقائه ورفاقه، لأن كلّ فرد من الأفراد يتمتع بنعمه أو نعم خاصّهٔ قد لا تكون لدى الآخرين، فلو عاش الإنسان هذه الحالهٔ الرذيلهٔ وهى الحسد بالنسبهٔ إلى ما يراه من نعمهٔ على الآخرين فانه سيحسد جميع الناس، وهذا الأمر يتسبّب فى أن يبتعد الناس عنه ويعمل على تمزيق روابط المحبهٔ والمودهٔ معهم. والشاهد على هذا الكلام ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَسُودُ لَاخُلَّهَٔ لَهُ» «۲». الخامس: من الآثار السيئهٔ للحسد هى انّ الحسد يمنع الإنسان من الوصول إلى المقامات العاليهٔ والمراتب الساميهٔ فى حركهٔ التكامل الأخلاقى والمعنوى والاجتماعى، بحيث إنّ الشخص الحسود لا يستطيع أبداً أن يحصل على منصب خطير من المناصب والمقامات الاجتماعيهٔ، لأنّه بحسده هذا سيعمل على تفريق الآخرين وإبعادهم من حوله، والشخص الّذى تقوى فيه القوّهٔ الدافعهٔ لا ينال مرتبهٔ عاليهٔ فى الدائرهٔ الاجتماعيهٔ. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۶ والشاهد على ذلك هو قول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسُودُ لَايَسُودُ» «۱». السادس: هو أنّ الحسد يؤدى إلى تلوث صاحبه بأنواع الذنوب الاخرى، لأن الحسود ولغرض الوصول إلى مقصده وهدفه أى إزالهٔ النعمهٔ عن الآخرين يستخدم كلّ الوسائل ويرتكب أنواع الظلم والعدوان من الغيبهٔ والتهمهٔ والكذب والنميمهٔ وغيرها لتسقيط الطرف الآخر، وبذلك يفتح الحسد له أبواب السلوكيات الخاطئهٔ والتحرّك فى خط الظلم والباطل. وهنا يوجد شاهد آخر على هذا الكلام وهو ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه

السلام «الْحَسُودُ كَثِيرُ الحَسَرَاتِ، وَمُتَضَاعَفُ السَّيِّئَاتِ» «۲». السابع: إن من شقاء الحسود انه يضر بنفسه أكثر ممّا يضر الطرف الآخر لأنّه يعيش حالۀ من العذاب النفسی والروحی فی حياته الدنيا بغض النظر عمّا يترتب علی ذلک من العذاب الأخروی يوم القيامۀ. وقد أشارت الأحاديث الإسلامية إلی هذه الحقيقۀ، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الْحَاسِدُ مُضِرٌّ بِنَفْسِهِ قَبْلَ انْ يَضُرَّ بِالْمحْسُودِ، كَابْلِيسِ اورِثَ بِحَسَدِهِ بِنَفْسِهِ اللَّعْنَۀُ، وَلِآدَمَ الْاجْتِبَاءُ وَالْهُدَی» «۳».

۵- مراتب الحسد:

لقد ذكر علماء الأخلاق للحسد مراتب ومراحل مختلفۀ، ومن ذلك أنّ الحسد يمرّ بمرحلتين متميّزتين تماماً: ۱- وجود الحسد فی أعماق النفس بحيث يسيطر عليه الإنسان فلا يظهر فی كلماته وأفعاله وسلوكياته. ۲- وجود الحسد فی أعماق النفس بحيث يخرج عن سيطرۀ الإنسان ويظهر فی أقواله الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲۷ وأفعاله من موقع السعی للانتقام من المحسود وإزالۀ النعمۀ الّتی عليه. ويستفاد من بعض الروايات أنّ جميع الناس (أو غالبيتهم) يعيشون الحسد فی نفوسهم، ولكن ما لم يظهر علی أقوالهم وأفعالهم فإنه لا يترتب علی ذلك إثم ومعصيۀ. ومن ذلك ما ورد عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله قوله: «ثَلَاثٌ لَايَنْجُو مِنْهُنَّ احَدٌ: الظَّنُّ، وَالطِّيَرَۀُ، وَالْحَسَدُ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ، اذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّق، وَاذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ، وَاذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» «۱». وورد فی حديث آخر قوله: «قَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ» «۲». ويستفاد من هذا التعبير أنّ هذا الحكم ليس عاماً ولا يشمل الأنبياء والأولياء، لأنهم ما لم يطهر ظاهرهم وباطنهم من الحسد فإنّهم لا يصلوا إلی المقامات الساميۀ ولا يصعدون فی معارج الكمالات المعنويۀ، ولذلك ورد فی تفسير الحديث الشريف الّذی يقول (إنّ الحسد لا يخلو منه أیّ إنسان حتّی الأنبياء) فقد فُسِّر بعنوان (محسود) أیّ انّ الحسّاد يحسدون كلّ شخص حتّی الأنبياء الإلهيين فيحسدونهم علی مقامهم العالی ومرتبتهم المعنويۀ الساميۀ لدی اللَّه تعالی. وعلی أيّۀ حال فلا شكّ فی أنّ صفۀ الحسد هی من الرذائل الأخلاقيۀ سواءً وصلت إلی مرحلۀ الظهور والبروز أم لا، والكلام هنا فی انه هل يترتب علی الحسد إثم وعقوبۀ فيما لو لم يصل إلی مرحلۀ الظهور والبروز أم لا؟ والظاهر انه لا دليل علی كون هذه الحالۀ من الإثم والذنب رغم انها من الصفات الذميمۀ. ولكن المرحوم النراقی فی (معراج السعادۀ) يقول: (إذا دفع الحسد صاحبه لأن يرتكب بعض الأفعال والأقوال الذميمۀ من قبيل الغيبۀ والشتم للطرف الآخر فإنه يرتكب بذلك إثماً، وكذلك إذا امتنع من إظهار مثل هذه السلوكيات وتجنّب الأفعال الّتی تدلّ علی الحسد ولكنه كان طالباً فی باطنه زوال نعمۀ المحسود وراغباً فی ذلك ولم يشعر بالامتعاظ من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲۸ وجود هذه الحالۀ فی نفسه ولم يغضب عليها فإنه مذنبٌ أيضاً) «۱». ولكن الظاهر انه لا دليل علی حرمۀ القسم الثانی من حالات الحسد هذه. وعليه فإنّ مرحلۀ عدم الظهور والبروز بدورها لها حالتين: الاولی الحالۀ الّتی لا يشعر الشخص فيها بالتأثر والانزعاج من وجود هذه الحالۀ فی نفسه ولا يسعی لرفعها بل ينسجم معها أيضاً، والثانيۀ: أن لا يكون كذلك. ولا يبعدُ أن يأثم الشخص فی الحالۀ الاولی رغم عدم وجود الدليل القاطع علی ذلك.

۶- علاج الحسد:

رأينا فی الأبحاث السابقۀ أنّ (الحسد) عبارۀ عن مرض أخلاقی خطير بحيث انه لو لم يتحرّك الإنسان لعلاجه فإنه سيتلف ويدمّر دينه ودنياه. وعلاج هذا المرض الأخلاقی كسائر علاج الصفات الرذيلۀ الاخری يقوم علی دعامتين: ۱- الطريق العلمی. ۲- الطريق العملی. امّا بالنسبۀ إلی الطريق (العلمی) فينبغی للشخص الحسود أن يتأمل جيداً فی أمرين: أحدهما النتائج السلبيّۀ والعواقب الضارۀ للحسد علی المستوی الروحی والبدنی، والآخر يتأمل فی جذور ودوافع حصول هذه الحالۀ فی النفس. إن علی الحاسد أن يری نفسه كالشخص المعتاد علی المخدرات والمدمن علی الهيروئين، فعليه أن يتدبر فی أمر هؤلاء المدمنين وكيف أنّهم فقدوا سلامتهم البدنيۀ

والنفسية وفقدوا حيثيّتهم الاجتماعية واسرتهم وابناءهم، وكيف أنّهم يعيشون فى أسوء الحالات النفسية ويموتون فى سن الشباب ولا يحزن عليهم أىّ شخص لموتهم بل إنّ موتهم يتسبب فى سعادة أسرتهم واصدقائهم، فكذلك يجب على الحسود أن يعلم انّ هذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۹ المرض الأخلاقى سوف يعمل على إهلاكه، فيأكل معنوياته ويُحرق نقاط قوته وصفاته الايجابية ويسلب منه راحته ونومه ويهيمن بسحابة من الحزن على قلبه وروحه، بل سيؤدى به إلى ما هو اشنع من ذلك حيث يكون طريد رحمة اللَّه ويكون مصيره مصير إبليس وقابيل، وبالتالى مع كلّ ذلك فسوف لن يصل إلى هدفه ومقصوده وهو زوال النعمة عن المحسود. ولاشكّ أنّ التفكّر بهذه الآثار والعواقب السلبيّة ومشاهدة الحوادث ذات العبرة وقراءة الأحاديث الشريفة فى هذا الباب، والّتى مرّت الإشارة إليها آنفاً، سيكون له تأثير ايجابى كبير فى علاج هذا المرض الأخلاقى. إن (الحسود) يجب أن يعلم أنّه إذا كانت المواد المخدرة كالهيروئين تهدد سلامة الروح والجسم للشخص وتُسرع فى أجله، فهو أيضاً يمرّ فى هذه الحالة الذميمة ويورثه الحسد الأمراض الجسمية والنفسية ويخسر بذلك دنياه وآخرته، لانه يعترض عملًا على حكمة اللَّه تعالى، وبذلك يسقط فى وادى الشرك والكفر، هذا من جهة. ومن جهة اخرى عليه أن يتفكر فى بواعث الحسد وجذوره ويسعى إلى قطعها وإزالتها، فلو كان من ذلك اختلاطه ومجالسته مع رفاق السوء وتأثّره بوساوسهم، فعليه أن يقطع الإرتباط معهم، وإذا كان الباعث لذلك حالة البخل وضيق النظر فعليه أن يسعى لعلاج هذه الحالة فى نفسه، وإذا كان السبب هو ضعف الإيمان باللَّه وعدم معرفته بالتوحيد الأفعالى فعليه أن يتحرّك من موقع تقوية مبانى الإيمان وتعميق أُسس التوحيد فى قلبه، وإذا كان الباعث لذلك انه يعيش الجهل بطاقاته وامكاناته الذاتية وبالتالى فإنه يعيش عقدة الحقارة والدونيّة الّتى من شأنها أن تفضى به إلى الحسد فعليه أن يسعى لعلاج ذلك فى ظلّ التوكل على اللَّه تعالى والاعتماد على النفس والقضاء على عقدة الحقارة هذه، وبذلك سيتحرّك بعيداً عن حالة الحسد تجاه الآخرين. والأفضل أن يسجّل الحسود خلاصة هذه الامور على صفحة أو صفحات ويحاول قراءتها كلّ يوم مرّة واحدة، بل يقرأها بصوت عالٍ عبارةً عبارة ويتفكّر فى كلّ عبارة منها الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۰ ويمعن النظر خاصّة فى الروايات الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام فى هذا الباب والّتى سبقت الإشارة إلى جملة منها، ولا شكّ أنّ كلّ إنسان يعيش حالة الحسد فى نفسه إذا تابع هذا السلوك والبرنامج بشكل جدّى فإنه سيرى آثاره الإيجابية فى مدّة قصيرة، وستتخلص روحه وجسمه من شر الحسد تدريجياً، وتنفتح أمامه افق السلامة والسعادة فى حركة الحياة والواقع. وينبغى على الحسود خاصّة التفكير فى هذه النقطة بالذات، وهى أنّه لو صرف وقته وطاقاته الّتى يهدرها بالحسد فى ترميم شخصيته وتقوية بُنيته النفسية والاهتمام بموفقّيته وتكامله فإنه من المحتمل جدّاً أن يتساوى أو يتفوق على المحسود وينال بذلك الراحة والرضا. وبتعبير آخر: يجب عليه أن يستبدل دوافع الحسد بدوافع الغبطة ويعمل على تبديل القوى المخربة إلى قوى بنّاءة فى حركة الذات والشخصية. وقد ورد هذا المضمون فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «احْتَرِسُوا مِنْ سُورَةِ الْبُخْلِ وَالْحِقْدِ وَالْغَضَبِ وَالْحَسَدِ وَاعِدُّوا لِكُلِّ شَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ عِدَّةً تُجَاهِدُونَ بِهَا مِنَ الْفِكْرِ فِى الْعَاقِبَةِ وَمَنْعِ الرَّذِيلَةِ وَطَلَبِ الْفَضِيلَةِ» «۱». أمّا من الناحية (العملية) فتعلم أنّ تكرار العمل المعيّن يؤدى تدريجياً إلى صيرورته عادة فى النفس، والاستمرار على العادة يبدّلها إلى ملكة وصفة باطنية، فلو أنّ الحسود وبدلًا من سعيه إلى تسقيط اعتبار وشخصية الغير تحرّك على مستوى تقوية شخصيته هو، وبدلًا من التحدّث بالغيبة وذم الطرف الآخر يسعى إلى ذكر صفاته الإيجابية ومدحه أمام الآخرين، وبدلًا من السعى فى تخريب حياة الطرف الآخر المادية يسعى إلى بذل المعونة والمساعدة له ويذكره بالخير ما أمكنه ذلك، أو يتحرّك من موقع المحبة والمودة تجاه ذلك الشخص ويريد له الخير والسعادة ويدعو له بالموفقية ويوصى الآخرين بذلك أيضاً، فمن المعلوم أنّ تكرار مثل هذه الأعمال والسلوكيات بإمكانه إزالة آثار الحسد من واقع النفس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۱ والروح وتثبيت النقطه المقابلة لها وهى حالة (حبّ الخير للآخرين) فيعيش الإنسان فى أجواء النور والصفاء والمعنويات الإنسانية. علماء الأخلاق يوصون الشخص الجبان بأن يتحرّك لإزالة هذه الرذيلة الأخلاقية من نفسه من موقع التواجد فى ميدان الخطر ليكتسب بذلك حالة الشجاعة ويحمّل نفسه هذه الصفه الإيجابية حتّى ترتفع من نفسه حالة الخوف والجُبن وتكون الشجاعة بصفة عادة وحالة

فى نفسه وبالتالى تكون ملكة. فكذلك الحسود يجب عليه الاستفادة لعلاج هذه الحالة من ضدّها، فكلّ حالة معينة تُعالَج بضدّها. وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله «اذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» «۱». وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «انَّ الْمُؤْمِنَ لَايَسْتَعْمِلُ حَسَدَهُ» «۲». ومن جملة الامور المؤثرة كثيراً فى علاج الحسد هو أن يرضى العبد برضى اللَّه تعالى ويسلّم لمشيئته ويقنع من حياته بما أنعم اللَّه عليه، فقد ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ رَضِىَ بِحَالِهِ لَمْ يَعْتَورَهُ الْحَسَد» «۳».

۷- النُصح وحبّ الخير للآخرين

النقطة المقابلة للحسد هى (النصح وحبّ الخير للآخرين) بمعنى أنّ الإنسان ليس فقط لا يحبّ زوال النعمة من الآخر بل يطلب بقائها وزيادته عليه وعلى جميع الناس الأخيار والصالحين، أو بتعبير آخر: إنّ ما يحبّه لنفسه ويطلبه لذاته من السعادة والخير المعنوى والمادى يريده ويحبّه للآخرين، وهذه الصفة والحالة النفسية تعد من الفضائل الأخلاقية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۲ المعروفة والّتى وردت الإشارة إليها فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. إنّ الأنبياء كانوا ناصحين مشفقين على أقوامهم وكانوا يحبّون الخير لهم، وهذه الحالة تعتبر من صفاتهم البارزة كما يقول القرآن الكريم على لسان (نوح) شيخ الأنبياء: «ابَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَانْصَحُ لَكُمْ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۱». فهنا نرى انه بعد مسألة إبلاغ الرسالة تتحدّث الآية الكريمة عن النُصح وحبّ الخير للُامّة وهى النقطة المقابلة للحسد والبخل والخيانة. ونفس هذا المعنى مع تفاوت يسير ورد عن النبى هود عليه السلام حيث يقول: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» «۲». وهذا المعنى ورد أيضاً عن النبى صالح (الأعراف الآية ۷۹) والنبى شعيب (الأعراف الآية ۹۳). ومن البديهى أنّ حبّ الخير للآخرين لا ينحصر بهؤلاء الأنبياء الأربعة، بل يشمل جميع الأنبياء الإلهيين والأولياء المعصومين الّذين كانوا يتّصفون بهذه الصفة الإيجابية، وكذلك يجب على أتباعهم أيضاً أن يكونوا من محبى الخير للآخرين ويطهرون أنفسهم من الحسد والبخل. وفى حديث شريف عميق المضمون ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال عن رجل من الأنصار انه من أهل الجنّة، وعندما تحقّقوا فى سيرته وعمله فلم يروا انه كان كثير العبادة مثلًا، بل كان حينما يأخذ مضجعه فى منامه يذكر اللَّه تعالى ثمّ ينام حتّى صلاة الصبح، فأثار فيهم حاله هذا التساؤل والاستغراب، فسألوا منه عن السبب فى أنّه صار من أهل الجنّة فقال «مَاهُوَ الّا مَا تَرَوْنَ غَيْرَ انِّى لَااجِدُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِى نَفْسِى غِشّاً وَلَا حَسَداً عَلَى خَيْرٍ اعْطَاهُ اللَّهُ ايَّاهُ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۳ وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ اعْظَمَ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ امْشَاهُمْ فِى ارْضِهِ بِالنَّصِيحَةِ لِخَلْقِهِ» «۱». وفى رواية اخرى وردت عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً ذكر فيها المعيار لحبّ الخير للناس وأنّه أن يرى منافع الآخرين كمنافع نفسه ويدافع عنها كما يدافع عن منافعه حيث قال «لَيَنْصَحُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ اخَاهُ كَنَصِيحَتِهِ لِنَفْسِهِ» «۲». ويقول الراغب فى كتابه (مفردات القرآن): النصح، تحرّى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، وهو من قولهم نصحت له الودّ، أى أخلصته، وناصح العسل أى خالصه أو من قولهم: نصحت الجلد خطته، والناصح يقال للخياط. (لأنّه يصلح القماش ويخيطه) وبما أنّ الشخص الخيّر يسعى إلى اصلاح عمل الآخرين من موقع الاخلاص والخلوص استعملت فى حقّه هذه المفردة، وأساساً فإنّ كلّ شىء خالص من الشوائب سواءاً فى الامور المادية أو المعنوية، فى الكلام أو العمل، يقال له: ناصح. وعلى هذا الأساس فعندما يرد بحث النصيحة فى أجواء البحوث الأخلاقية فإنّ المقصود منه ترك أىّ شكل من أشكال الحسد والحقد والبخل والخيانة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۴

الغرور والعُجب

تنويه:

إن أحـد الرذائل الأخلاقيـة المشـهورة ليس عنـد علماء الأخلاق فحسب بل عنـد سائر أفراد الناس هى (الغرور)، وهـذه الصـفة الرذيلة تتسبّب فى انفصام الشخصيـة والجهل بالنسبة إلى الـذات والآخرين والغفلـة عن مكانته الفردية والإجتماعية والتخبّط فى دوّامة الجهل والعجب وعـدم الإطلاع على حقـائق الامـور. إنّ الغرور يفضـى بالإنسـان أن يبتعـد عـن اللّه تعـالى ويسـير فى خطّ الشـيطان، ويقلب الواقعيات فى نظره، وهذا الأمر يتسبب فى اضرار كثيرة على المستوى المادى والمعنوى للإنسان. الشخص المغرور يعيش فى المجتمع مكروهـاً من الآخرين حيث يتعامل معهم من موقع التوقعات الكثيرة الّتى تُفضـى به إلى الإنزواء والعزلـة الإجتماعيـة. والغرور يُعتبر من الدوافع والمصادر لصـفات رذيلة اخرى من قبيل التكبّر والانانية والعُجب والحقد والحسد بالنسبة إلى الآخرين والتعامل معهم من موقع التحقير والإزدراء. ونعلم أنّ أحد العوامل الأصلية لطرد الشيطان الرجيم من مرتبة القرب الإلهى هو (الغرور) الّذى كان يعيشه الشيطان، وأحـد الأسـباب فى عـدم انقيـاد الكثير من الأقوام السالفـة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۶ لـدعوات الأنبياء السـماوية وجود هذه الصـفة الذميمة فى واقعهم وأنفسـهم. إن الفراعنة والنماردة ابتعدوا عن اللّه تعالى بسـبب غرورهم وبالتالى أصبح مصيرهم الأسود عِبرة للبشـرية. (الغرور) أحيانـاً يتجلّى فى فرد معيـن، واخرى فى قـوم ومجتمـع أو عِرقٍ بشـرى، ولا شـكّ أنّ القِسم الثـانى اخطر على واقع الإنسـان والمجتمع لأنّه قـد يـدمّر بلـد كامـل أو يُحرق العـالم بنـاره، كما حصل فى الحرب العالميـة الاولى والثانيـة حيث كان الغرور والتعصّب العِرقى للألمان على الأقل أحـد العوامل المهمّـة لنشوب هـذين الحربين وبهذه الإشارة نسـتعرض أوّلًا تفسـير مفردة (الغرور) ومفهومها فى منابع اللغة وكتب علماء الأخلاق، ثمّ نعود إلى الآيات والروايات الشريفة لإستجلاء أسباب الغرور وآثاره وافرازاته وطرق علاجه والوقاية منه.

۱- مفهوم الغرور

إن هـذه المفردة وردت بشـكل واسع فى كلمات العرب ولاسيّما فى الآيات القرآنيـة الكريمـة والروايات الإسـلامية. يقول الراغب فى مفرداته عن هـذه الكلمـة: فـالغرور (بفتـح الغين ليتضـمن معنىً وصـفياً) كـلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشـهوة وشـيطان، وقـد فسّـر بالشـيطان إذ هو أخبث الغارّين. وفى (صـحاح اللغـة) عن كلمة (غُرور) انها بمعنى الامور الّتى تجعل الإنسان غافلًا (سواءاً المال والثروة أو الجاه والمقام أو العلم والمعرفـة). ويقول بعض أرباب اللغـة كما يـذكر الطريحى فى (مجمع البحرين): إن الغُرور هو ما كان جـذاباً وجميلًا فى ظاهره ولكنه مظلم ومجهول فى باطنه. وجاء فى كتاب (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم) بعـد نقل كلمات أرباب اللغـة: أنّ الجـذر الأصـلى لهـذه المفردة هى بمعنى اصول الغفلـة بسـبب التأثر بشـىء آخر لـدى الإنسان ومن لوازمها وآثارها الجهل والغفلة والنقصـان والإنخـداع و ... الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۷ وجاء فى (المحجّـة البيضاء فى تهذيب الأحياء) الّذى يُعتبر من أفضـل كتب الأخلاق وعبارة عن تهـذيب لكتاب (إحياء العلوم) للغزالى: «فالغرور هو سـكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسـهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم» «۱». وجاء فى (التفسـير الأمثل) فى معنى هذه المفردة أنّ (غَرور) على وزن (جسور)، صيغة مبالغة بمعنى الموجود الشديد الخُداع والحيلة والمكر ولذلك سُمّى الشيطان ب (غَرور) حيث يوسوس للإنسان ويخدعه ويستغفله، وفى الحقيقة هو من قبيل بيان المصـداق الواضح، وإلّا فإنّ كلّ إنسان أو كتاب يمكن أن يقع فى مقام الوسوسة وكلّ موجود إذا عمل على إضـلال الإنسان فإنه يدخل فى مصاديق كلمة (غَرور).

الغَرور فى القرآن الكريم:

لقـد وردت هذه المفردة فى القرآن الكريم مرّات عديدة، وكذلك ورد مضـمونها فى آيات اخرى أيضاً: ۱- «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» «۲». ۲- «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَانَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ

الرَّأْيِ وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .... قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۳». ۳- «قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَانَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۸ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآأَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» «۱». ۴- «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «۲». ۵- «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّاكَانُواْ يَفْتَرُونَ» «۳». ۶- «فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» «۴». ۷- «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۵». ۸- «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَاتُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ* يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» «۶». ۹- «فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ» «۷». ۱۰- «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». «۸» ۱۱- «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...» «۹». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۹ ۱۲- «يأَيُّهَا النَّاسُ .... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۱».

تفسير واستنتاج:

إن أوّل شرارة للغرور كما أشرنا إلى ذلك سابقاً كانت فی بداية خلق الإنسان وتجلّت فی إبليس كما تتحدّث عن هذه الواقعة «الآية الاولى» من الآيات مورد البحث عندما سَأل اللَّه تعالى إبليس عن السبب فی امتناعه عن السجود لآدم «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ اذْ امَرْتُكَ ...» «۲». قال الشيطان الّذی تملّكه الغرور والعُجب «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» «۳». أجل فإنّ حجاب الغرور والعجب قد أسدل على عين بصيرته حجاباً سميكاً إلى درجة أنّه لم يسوّغ له سلوك طريق السعادة وامتثال الأمر الإلهی الصريح، فسقط فی هُوَّة العصيان والتمرد وأصبح مطروداً وملعوناً إلى الأبد، وعلى هذا يمكن القول انه كما أنّ قائد المستكبرين فی العالم هو إبليس، فكذلك قائد المغرورين فی العالم إبليس أيضاً، وهذان المفهومان أیّ الغرور والإستكبار بمثابة اللازم والملزوم. إن إبليس وبسبب الغرور والإستكبار لم يستطع أن يرى حقيقة كرامة التراب على النار وأفضلية التوبة على العناد والإصرار على الذنب، فكان من ذلك أن سلك فی خط الضلال والتيه وبقى كذلك إلى الأبد. «الآية الثانية» تتحدّث عن قصة نوح أیْ أوّل أنبياء اولو العزم وتوضح جيداً أنّ أحد العوامل المهمّة فی عناد قومه ووقوفهم ضد دعوته وارشاداته المخلصة من موقع الغرور هو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۰ هذه الصفة الرذيلة (الغرور) حيث تقول الآية «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَانَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» «۱». وبعد عدّة آيات يستعرض القرآن الكريم حالة الغرور والعُجب أكثر لدى هؤلاء الضالين حيث قالوا لنوح بصراحة «قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۲». عادةً يتخذ الإنسان طريقاً يُبعده عن الأضرار المحتملة بحكم العقل ويتجنب عن سلوك الطريق الّذی يُحتمل أن يواجه الخطر فيه، ولكن هؤلاء القوم المغرورين وبالرغم من مشاهدتهم لآثار حقّانية دعوة هذا النبی الكريم من خلال معجزاته ووجود احتمال نزول العذاب الإلهی فإنّهم لم يكتفوا بعدم الإهتمام والإعتناء بدعوته بل تحرّكوا مع دعوة نوح من موقع طلبهم لنزول العذاب الإلهی. أجل فإنّ ذلك الغرور الّذی صار حجاباً على بصيرة الشيطان قد أصبح حجاباً لقوم نوح عن رؤية الحقيقة، وبالتالی ذاقوا العذاب الإلهی الشديد وهلكوا عن آخرهم، وهذا هو مصير المغرورين على طول التاريخ. وتأتی «الآية الثالثة» لتتحدّث عن قوم شعيب الّذين جاءوا بعد قوم نوح وتورطوا فی الغرور والعُجب أيضاً فكان مصيرهم هو نفس ذلك المصير المؤلم حيث تقول الآية «قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَانَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآأَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» «۳». هؤلاء فی الحقيقة لن يجدوا جواباً منطقياً أمام البراهين العقلية والدعوة السماوية الحكيمة والمعجزات الإلهية الّتی جاء بها شعيب، ولكنّ غرورهم وأنفتهم لم تبح

لهـم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۱ الإستسلام أمام دعوة الحقّ وبالتالى غشيهم العذاب الإلهى وأصابتهم الصاعقة السماوية والصيحة المهولة، فدمّرت كلّ ما لديهم فى طرفة عين، ولم تبق لهم سوى أجساد متمزقة وآثار خاوية. «الآية الرابعة» ناظرة إلى قصة فرعون وتستعرض بُعداً آخر من أبعاد هذه الصفة الرذيلة، وتشير إلى أنّ الغرور والعُجب قد يمتد إلى باطن الإنسان ويستولى على عقله وروحه بحيث انه ليس فقط لا يهتم بالأدلة الواضحة على نبوة موسى عليه السلام بل يواجهها بكلمات طفولية تنطلق من موقع العناد والغرور حيث تقول الآية «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهـذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هـذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «۱». ثمّ تمادى فرعون فى مواجهته لموسى وتمسّك بكلمات واهية وغير منطقية من قبيل أنّ موسى إذا كان صادقاً فلماذا لا يلبس الأسورة من الذهب؟ ولماذا لم تنزل الملائكة معه؟ وهكذا نجد أنّ الأشخاص المغرورين كالفراعنة والنمروديين وبسبب إهمالهم لدعوة الحقّ وغرورهم لا يدركون جيداً ماذا يقولون ولا يهتمون لذلك حيث نجد كثيراً أنّ مثل هؤلاء يتكلمون بكلمات سخيفة بحيث يسخر منها حتّى المقربون منهم فى أنفسهم، ومن المعلوم أنّ هذه الحالة تتسبّب فى غلق جميع نوافذ المعرفة الإلهية أمام الإنسان، وايصاد جميع الطرق لسلوك سبيل الكمال المعنوى والتعالى الأخلاقى. واللطيف أنّ موسى الّذى كان يشكو من لُكنة فى لسانه تتعلق بمرحلة الطفولة ولكنه عندما بُعث إلى النبوة وطلب من اللّه تعالى أن يحلُل عقدةً من لسانه فإنّ اللّه تعالى استجاب له ذلك ولكنّ فرعون لم يهتم لهذه الظاهرة العجيبة وبقى مصراً على وضعه السابق حيث أشار فى كلامه إلى تلك اللكنة الّتى كانت لدى موسى فى الصِغر. «الآية الخامسة» تشير إلى اليهود الّذين كانوا يرون فى أنفسهم حالة من التشخّص الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۲ والغرور والعُجب بتصورهم مميزات مختصة بهم تجعلهم يتفوقون ويمتازون على غيرهم من أفراد البشر، وهذا التفكير الخاطىء هو السبب فى ضلالهم وطغيانهم حيث تقول الآية «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَا تٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ» «۱». أى أنّ اللّه إذا أراد أن يعذبنا فإنّ عذابه سيكون خفيفاً ولأيّام معدودة وذلك بسبب اننا قوم ممتازون. إن تاريخ بنى إسرائيل يشير إلى انّ هؤلاء القوم كانوا أكثر الأقوام والشعوب طغياناً وذنوباً، وأحد العوامل والأسباب المهمة فى سلوكهم الخاطىء هذا هو الغرور والعُجب لديهم. ومع الأسف إننا نجد أنّ طائفة منهم باسم (الصهاينة) يرتكبون كلّ يوم جرائم بشعة ضدّ الشعوب البشرية بسبب ما دخلهم من الغرور الكبير بعرقهم وامتيازاتهم الزائفة، وفى ذلك شوّهوا تاريخهم السيّء أكثر من السابق. هؤلاء يريدون كلّ شيء لهم ولا يرون للآخرين الحقّ فى أىّ شيء، فهم يرون أنّهم قوم متميزون على سائر البشر وينظرون إلى الآخرين نظر الاحتقار والدونية. «الآية السادسة» ناظرة إلى قوم صالح، الّذين قد أسكرهم الغرور إلى درجة أنّهم طلبوا من نبيّهم نزول العذاب الإلهى عليهم، بالرغم من رؤيتهم المعجزات الإلهية على يد نبيّهم صالح فتقول الآية «فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» «۲». ويتابع القرآن الكريم ما حدث لهؤلاء القوم الظالمين ويتحدّث عن مصيرهم المأساوى ويقول: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين» وهكذا كانت عاقبة القوم المغرورين. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۳ «الآية السابعة» تتحدّث عن أهل النار الّذين يعيشون العذاب والظلمة الشديدة يوم القيامة فى حين يعيش المؤمنون بنور الإيمان ويردون عرصات المحشر مسرعين، فيناديهم هؤلاء المنافقون وأهل النار: «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِىُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۱». ثمّ تقول الآية الّتى بعدها بصراحة انه يُقال لهم «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الّذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير». وهنا يتجلّى بصورة واضحة أنّ أحد الصفات البارزة لهؤلاء المنافقين من أهل النار هى الغرور والإبتلاء بحبال الأمانى الطويلة والتوهمات الزائفة فى حركة الحياة الدنيوية. وكما ذكرنا فى بداية البحث أنّ كلمة (غَرور) تتضمن معنى الخداع والمكر، ولكن أحياناً يخدع الإنسان نفسه أيضاً ويكون مغروراً بذلك، وأحياناً اخرى ينخدع بوساوس الشيطان أو الأفراد الّذين يعيشون حالة الشيطنة والمكر. «الآية الثامنة» تتحدّث عن المنافقين المغرورين فى هذه الدنيا وكيف أنّهم ينظرون إلى فقراء المؤمنين الحقيقيين من موقع الحقارة والإزدراء ويتظاهرون أمامهم بالثروة والمال حيث تقول الآية متحدّثة عنهم وعن حالة الغرور المسيطرة عليهم «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ

السَّمَاوَا تِ وَا لْأَرْضِ وَلكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ» «۲». ثمّ يصل بهم الغرور إلى ذروته بحيث يصرّحون بأنه إذا رجعنا من ميدان الحرب إلى المدينـة فسوف نُثبت لهؤلاء الفقراء والمعدمين مَن نحنُ «يَقُولُونَ لَئِن رّجَعْنَآ إِلَى ا لْمَدِينَـةِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۴ لَيُخْرِجَنَّ ا لْأَعَزُّ مِنْهَا ا لْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ا لْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» «۱». إذا لم يكن المنافقون يعيشون حالة (الغرور) فلا داعى لأن يتبجّحوا بثروتهم وأموالهم أمام المؤمنين وينظروا إليهم نظر الاحتقار والإزدراء وبالتالى ينزلقون فى وادى الكفر والنفاق والضـلال. «الآيـة التاسـعة» تتحدّث عن طبيعة الإنسان، أو بعبارة اخرى: طبيعة الإنسان الّذى لم يتكامل فى مدارج الكمال الأخلاقى بل بقى فى حالـة عـدم النُضـج النفسـى والروحى، فمثل هذا الإنسان عندما يجد اللَّه قد أنعم عليه نعمة فإنه يتملكه الغرور والطغيان بسـبب ضيق افقه وتفكيره فتقول الآيـة «فَأَمَّا ا لْإِنسَـانُ إِذَا مَـا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبّى أَكْرَمَنِ» «۲». إذا كان هـذا الكلام صادراً من موقع الشـكر والثناء للَّه‌تعالى فإنه يـدلّ على التواضع قطعاً ويـدفع الإنسان بالتالى إلى مساعـدة الأيتام والمساكين، ولكن كما هو الظاهر من جوّ الآيات أنّ هذا الإنسان بعد ذلك يتحدّث من موقع الغرور والعجب، وبهذا فإنّ هذا الكلام ليس فقط لا يترتب عليه أثراً إيجابياً ومطلوباً بل سـيكون مصدراً لطغيانه وتكبره على الحقّ. «الآيـة العاشـرة» تتحدّث عن المشـركين الأنانيين والمغرورين فى مكّة وتقول «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ» «۳». ولكن اللَّه تعالى بعـد ذلك يحذر هؤلاء المغرورين وينذرهم بالعذاب القريب ويقول «سَـيُهْزَمُ ا لْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» «۴». وفى جميع هـذه الموارد نلاحـظ جيـداً أنّ الغرور يمثـل عاملًا مهماً فى تورط الإنسان فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۵ دوّامـة الـذنوب والشـقاء والتعاسـة، والقرآن الكريم يُخبرنا بخبر إعجازى عن إنهزام هؤلاء المغرورين وسـرعان ما تلحق بهم الهزيمة والدمار ويكونون عبرة للآخرين. «الآيـة الحادى عشـر» تتحدّث عن المشـركين الّذين اتخذوا الدين السـماوى لعباً ولهواً بسـبب الغرور الّـذى أصابهم والّذى ادّى بهم إلى الكفر والعناد مع الحقّ فتقول الآية «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ا لْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...» «۱». ولعلّ هـذا التعبير يشـير إلى أنّ هؤلاء لا يقبلون الهدايـة وغير جـديرين بها، لأن الغرور قـد اسكرهم إلى درجـة أنّهم خُدعوا بزخارف الدنيا وبريقها المادى، فهم لا يجدون فى أنفسهم استعداداً للتسليم والإذعان للحقّ ولا يواجهون الحقّ إلّاعلى مستوى السخرية والاسـتهزاء، وهـذا يعنى عمق الفاجعـة الّتى تورطوا فيها بسـبب غرورهم وعُجبهم. وعبارة (دينهم) هى إشارة إلى فطريـة الـدين الإلهى حيث يشترك فيه جميع أفراد البشر حتّى المشركين، أو هو إشارة إلى الأشخاص الّذين اتخذوا دينهم الوثنى سخرية بسبب الغرور، فلا يجـدون فى أنفسـهم إلتزاماً بأحكام الوثنية ولا يتحركون مع الأوثان من موقع الانضـباط والإلتزام، أو إشارة إلى الدين الإسـلامى الّذى أنزله اللَّه تعـالى من أجلهم ولمصـلحتهم. «الآيـة الثانيـة عشـر» تتحرّك من موقع التحـذير لجميع النـاس بـأن لا ينخـدعوا بالحياة الـدنيا وبزخارفها ولا يغتروا بجمالها المادى ولا يقعوا فى مصائد الشـيطان وتقول «يأَيُّهَا النَّاسُ .... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۲». واللطيف أنّ هـذه الآيـة ذكرت من أسـباب الغرور سـببين: أحـدهما زخارف الـدنيا، والثانى الشـيطان، وهذا التعبير يـدلّ على أنّ الإنسان أحياناً يغتر بالأوهام وبالتصورات الواهيـة بـدون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۶ أن يحظى بشىء من الحياة الماديـة المرفهـة ويتصور لنفسه مقاماً ومنزلـة غير واقعيـة، وبذلك يطغى أمام الحقّ ويواجه اللَّه والدين من موقع الطغيان والتكبّر ويقع فى شراك الشيطان، وصحيح أنّ زخارف الدنيا وجمالها وبريقها هو أحد مصائد الشيطان، ولكن أحياناً يكون الخيال والتصوّرات الذهنية نافذة يعبر منها الشيطان ويستقر فى فكره ويوسوس له ما يغتر به.

النتيجة النهائية:

اشارة

ومن مجموع ما تقـدّم من الآيات الكريمـة وتفسـيرها تتبيّن لنا هـذه الحقيقـة، وهى أنّ مسألة الغرور والعُجب والأنفة كانت من العوامل الأصـلية للفساد والإنحراف والكفر والنفاق منـذ أن وضع آدم قـدمه على هـذه الكرة الأرضيه وحتّى فى جميع أدوار التاريـخ البشـرى

وعصور الأنبياء والأقوام السالفة وإلى هذا اليوم، وقراءة هذه الشواهد ومطالعة هذه الآيات يشير إلى أيّة درجة كانت هذه الصفة الرذيلة مصدر شقاء طائفه عظيمة من الشعوب والمجتمعات البشرية، ولو لم يكن دليلًا على قبح هذه الرذيلة الأخلاقية سوى هذه الآيات لكفى ذلك.

۱- الغرور فی الروايات الإسلامية

إنّ الموقف السلبي والشديد من الغرور في الروايات الإسلامية ينعكس في أبواب كثيرة وطوائف متعددة من الروايات: ۱- ففي حديث عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ ابْعَدُ افَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخَمُورِ» «۱». ۲- وفي حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «جِمَاعُ الشَّرِّ فِي الْاغرَارِ بِالْمَهَل وَالْاتِّكَالِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۷ عَلَى الْعَمَلِ» «۱». فالإنسان المغرور هو الّذي يأتي بعمل بسيط ويتصور بذلك انه من أهل النجاة يوم القيامة ويتحرّك في حياته الدنيا بكامل الحرية بسبب هذا الغرور، أو انه يكون قد ارتكب بعض الذنوب والمعاصي ولكنه يجد في امهال اللَّه تعالى له امتيازاً لنفسه وبذلك يغتر بهذا الإمهال. ۳- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام أنّ الغرور يتقاطع مع العقل حيث يقول «لَا يُلْقَى الْعَاقِلُ مَغْرُوراً» «۲». ۴- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً أنّ الغرور يوقع الإنسان في دوّامة من الخيالات والتصورات الزائفة ويقطع عنه أسباب النجاة حيث يقول: «مَنْ غَرَّهُ السَّرَابُ تَقْطَعَتْ بِهِ الْاسْبَابُ» «۳». ۵- ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً في تعبير جميل حول طائفة من المنحرفين: «زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ» «۴». ۶- وفي حديث آخر عن هذا الإمام أنّه يعدّ الغرور والعُجب أحد الموانع لقبول الإنسان للموعظة والنصيحة ويقول: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حَجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ» «۵». ۷- وورد في الحديث الشريف عن هذا الإمام أيضاً في جملة قصيرة وعميقة المحتوى «طُوبَى لِمَنْ لمْ تَقْتُلُهُ قَاتِلَاتِ الْغَرُورِ» «۶». إن ما ورد أعلاه من الروايات الشريفة لا يُعدّ إلّانماذج قليلة ممّا ورد من النصوص الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۸ الكثيرة حول بيان أخطار الغرور والعُجب، ولكن مطالعة هذه النماذج القليلة من الروايات في هذا الباب يكفي لبيان الأضرار الوخيمة والآفاق السلبية للغرور.

۲- أسباب الغرور

ذكر بعض علماء الأخلاق أنّ الغرور من الصفات القبيحة الّتي يبتلي بها كلّ طائفة من الناس بشكل من الأشكال رغم تعدّد أسبابه ومراتبه ودرجاته. فقد ذكروا أنّ أسباب الغرور والعجب كثيرة جدّاً، وقسّموا المغرورين إلى طوائف مختلفة: طائفة المغرورين بالعلم والمعرفة وهم الأشخاص الّذين يتملكهم الغرور عندما يصلوا إلى مرتبة معيّنة من العلم، فيتصورون أنّهم ملكوا الحقيقة فلا يرون سوى أفكارهم وعلومهم ولا يهتمون بأفكار الآخرين ولايعتبرون لها قيمة، وأحياناً يرون أنفسهم من المقربين عند اللَّه تعالى ومن أهل النجاة قطعاً، ولو انّ البعض واجههم بقليل من النقد فإنّهم سوف يجدون الألم يعتصر قلوبهم لأنهم يتوقعون من الجميع احترامهم وقبول كلامهم. وأحياناً يصيب الغرور بعض الأشخاص الضيقي الافق الّذين تعلّموا عدّة كلمات وقرأوا عدّة كتب وتصوّروا أنّهم فتحوا بلاد الصين وحلّوا المشكلات العويصة في العلم لمجرّد أنّهم قرأوا الكتاب الفلاني، وهذا من أسوأ أنواع الغرور الّذي يجر العالم إلى منزلقات السقوط والإنحطاط العلمي والإجتماعي. ونقرأ في حديث شريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول لابن مسعود: «يَابْنَ مَسْعُودا! لَاتَغْتَرَّنَّ بِاللَّهِ وَلَا تَغْتَرَّنَّ بِصَلَاحِكَ وَعِلْمِكَ وَعَمَلِكَ وَبِرِّكَ وَعِبَادَتِكَ» «۱». فنرى في هذا الحديث الشريف إشارة لعوامل وأسباب اخرى للغرور منها: الأعمال الصالحة، الإنفاق في سبيل اللَّه، العبادات، والّتي يمثل كلّ واحدٍ منها عاملًا من عوامل الغرور. وقد نرى بعض الأشخاص الصالحين الّذين عندما يُوفّقون لأداء بعض العبادات أو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۹ الأعمال الصالحة يتملكهم الشعور بالغرور بسبب ضيق افقهم وصغر نفوسهم فيتصوّرون أنّهم من أهل النجاة والسعاده ويرون سائر الناس بمنظار

الإستهانة والتصغير، وهذا قد يؤدى بهم إلى الهلاك والسقوط فى وادى الضلالة والإنحراف. وأحد العوامل الاخرى للغرور هو أن يغتر الإنسان بلطف اللَّه وكرمه ومغفرته، حيث نجد بعض الأشخاص يرتكبون الذنوب بجرأة وبدون أىّ تردّد، وعندما يُسأل منهم عن سبب ارتكابهم لهذه الأعمال القبيحة، يقولون: اللَّه كريم وغفور ورحيم، فنحن نعرف أنّ اللَّه أكبر وأسمى من أن يؤاخذ بهذه الذنوب ويعاقبنا بسبب هذه التصرفات، وأساساً فنحن لو لم نُذنب فلا معنى لعفو اللَّه ومغفرته. إنّ مثل هذه الأفكار المنحرفة والكلمات غير المنطقية تزيد من جرأتهم على ارتكاب الذنوب وبالتالى تؤدى بهم إلى السقوط والهلاك. ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم والروايات الإسلامية قد ذمّت هذا النوع من الغرور بشدّة ونهت عنه نهياً مؤكداً كما نقرأ فى الآية السادسة من سورة الإنفطار قوله تعالى «يَا ايُّهَا الْاِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِربِّكَ الْكَرِيم». ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى تفسير هذه الآية الكريمة «يَا ايُّهَا الْاِنْسَانُ مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ؟ وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ؟ وَمَا انَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟!» «۱» وفرق بين الشخص الّذى يرتكب الذنب ولكنه مع ذلك يعيش الجرأة ولا يجد فى نفسه غضاضة لذلك وكأنه يطلب اللَّه شيئاً، وبين الشخص الّذى يرتكب الذنب ولكنه يعيش الخجل والندم ويأمل أن يشمله اللَّه تعالى برحمته وعطفه، فالأوّل قد ركب مَطِيّة الغرور، والثانى هو المتّصل بحبلٍ من اللَّه ولطفه والأمل برحمته الواسعة. ومن العوامل والأسباب الاخرى للغرور هو الجهل وعدم الإطلاع والمعرفة، كما أنّ العلم والمعرفة أحياناً يكون سبباً للغرور، فكذلك عدم المعرفة أيضاً قد يسبب الغرور فى الكثير من الأشخاص الجهّال، ولذلك ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۰ قوله «مَنْ جَهِلَ اغَرَّ بِنَفْسِهِ وَكَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ امْسِهِ» «۱». والآخر من أسباب الغرور والّذى يبتلى به الكثير من الناس هو الإغترار بزخارف الدنيا وبريقها من المال والمقام والشباب والجمال والقدرة وأمثال ذلك. إنّ بعض الأشخاص الّذين يعيشون ضيق الافق وصِغَر النفس إذا وجدوا أحياناً أنّهم على شيءٍ من الثروة والمال أو المقام، فسوف ينسون أنّ هذه عارية بأيديهم وأنّها فى معرض الزوال والفناء، وهذا النسيان يتسبّب لهم فى العُجب والوقوع فى دوّامة الغرور، وهذا الغرور يتسبّب لهم فى الابتعاد عن اللَّه تعالى والاقتراب من الشيطان والتلوث بكثير من الذنوب. ونقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «الدُّنْيَا حُلُمٌ وَالْاغْتِرَارُ بِهَا نَدَمٌ» «۲». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «لَاتَغُرَّنَّكَ الْعَاجِلَةُ بِزُورِ الْمَلَاهِى، فَانَّ اللَّهْوَ يَنْقَطِعُ، وَيُلْزِمُكَ مَا اكْتَسَبْتَ مِنَ الْمَآثِم» «۳». ومن العجائب أنّ جميع الناس يرون بامّ أعينهم ظاهرة الزوال السريع للنعم المادية والدنيوية وتلاشى الأموال والثروات وسقوط الحكومات والقدرات الدنيوية كلّ يوم، ولكن عندما تصل النوبة إليهم يتملكهم الغرور الشديد بحيث يتصوّرون انّ ما يتعلق بهم مخلّد وسيبقى إلى الأبد ولا يزول عنهم إطلاقاً. أجل فإنّ أسباب الغرور متنوعة بشكل كبير، والخلاص من هذه المصيدة صعبٌ جداً ولا يتسنّى للإنسان إلّافى إطار التقوى والتوكل على اللَّه والإلتفات إلى انّ جميع هذه الامور سريعة الزوال وفانية.

۳- علائم الغرور

إن علامات الغرور تارة تكون واضحة جداً بحيث إنّ الإنسان يدركها فوراً وفى أوّل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۱ بادرة ويدرك أنّ الشخص الفلانى مصاب بداء الغرور والعُجب، من قبيل عدم اهتمامه بالآخرين، عدم اهتمامه بالحلال والحرام والأحكام الشرعية، عدم مراعاة الأدب مع الكبار وترك المودّة والمحبّة مع الأصدقاء والأقرباء، التعامل مع الأقل منه شأناً من موقع القساوة والخشونة، التحدّث بكلام مرتبك وبعيد عن الأدب، الضحك العالى والقهقهة، قطع كلام الآخرين، النظر إلى الصالحين والأخيار والعلماء بعين الحقارة والإزدراء، وكذلك المشى بصورة غير متعارفة، ضرب الأقدام على الأرض عند المشى، تحريك الكتفين، النظرات غير المتعارفة إلى الأرض والسماء، وحتّى أحياناً يصدر منه بعض سلوكيات المجانين والسفهاء من الناس، وكلّ ذلك من علائم الغرور والفخر. ولكن أحياناً اخرى تكون علائم الغرور خفية ومستورة، فلا يمكن إدراكها بسهولة بل تحتاج إلى دقّة وتأمل للعثور على هذه الصفة فى واقع النفس أو لدى الآخرين، من قبيل أنّ بعض الأشخاص وبعد مدّة قصيرة من الدرس يتركون استاذهم ويرون أنّهم مستغنون عن الدرس والاستاذ، أو من قبيل الشخص الّذى يجد فى نفسه علاقة شديدة للإنزواء والعزلة عن الناس، ويمكن

أن يبرّر ذلـك بعـدم حضور مجالس الغيبـة والتلوث بالـذنوب وأمثال ذلك، فى حين أنّه مع قليل من الدقـة نجـد أنّ السـبب الحقيقى لـذلك هو الغرور والفخر والعجب حيث يرى نفسه طـاهراً ومؤمنـاً ويرى الآخرين أقلّ من ذلك شأناً لتلوّثهم وجهلهم. أجل ليس فقط صفـة الغرور هى الّتى تختفى أحيانـاً فى زوايـا النفس، بـل هنـاك الكثير من الصـفات الرذيلـة تعيش فى واقع الإنسان فى حالـة كمون وخفاء ولا يعلمُ بها الشخص بل قد تظهر هذه الصفات الرذيلة بمظهر حسن وتلبس لباس الفضيلة بحيث يعتقد صاحبها بأنّها فضائل ولا يستطيع تشخيص ذلك إلّاللأساتذة والأساطين من علماء الأخلاق وأصحاب السلوك وأرباب المعرفة.

۴– المعطيات الفردية والإجتماعية للغرور

قلّما نجد لسائر الصـفات الرذيلة من الآثار السيئة والنتائج السـلبية والمضـرة مثلما نجده الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۲ فى الغرور والفخر. إن افرازات الغرور السلبية تكاد تستوعب جميع حياة الإنسان الدنيوية والآخروية على مستوى الضرر والفساد، ومن بين الأضرار المترتبة على الغرور ما يلى: ۱- إن الغرور يسدلّ على عقل الإنسان وبصـيرته حجاباً سـميكاً يمنعه من إدراك حقائق الامور ولا يسمح له برؤية نفسه والآخرين كما هو الواقع ولا يسـمح له أن يقيّم الحوادث الإجتماعية تقييماً سليماً ويتخذ منها موقفاً صحيحاً. وقد سبق أن ذكرنا الحديث الشـريف الوارد عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «سُكْرُ الغَفلةِ والغُرور أبْعدُ إفاقةً مِن سُكْرِ الخُمور». ۲- إن الغرور يُعـد عاملًا مهمـاً للفشـل والتخلّف الفكرى والجفـاء النفسـى فى حركـة الحياة. فالجيش المغرور من السـهل أن يقع فى حبائل الهزيمة والفشـل الـذريع، والسياسـى المغرور من اليسـير أن يسـقط فى حركته السياسـية ويخسـر نفوذه الإجتمـاعى ومقـامه السياسـى، والطالب المغرور يفشل فى الامتحان، والرياضـى المغرور سوف يخسـر اللعبة مع الطرف المقابل، وأخيراً فالمسلم المغرور سيكون مورد الغضب الإلهى، والتعبير بقوله (قاتلات الغرور) فى الروايات الإسـلامية يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى. ۳- إنّ الغرور يعمل على توقف حركـة الإنسـان التكامليّـة بـل قـد يؤدى به إلى الإنحطـاط والتخلّف، لأـن الإنسـان عنـدما يُصـاب بالغرور فإنه لا يرى نقائصه ومعايبه، وبالتالى فالشـخص الّذى لا يشـعر بالنقصان فسوف لا يتحرّك باتّجاه الكمال وإصـلاح الخلل. وهذا ما نقرأه فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث قـال: «مَنْ جَهِـلَ أغرّ بنفسهِ وكان يَومه شـرّاً من أمْسِهِ». ۴- إن الغرور يتسبّب فى حبـط الأعمال وفساد الطاعـات، لأنّه لا يسـمح للإنسان بأعمال الدقـة فى عمله وبالتالى يتسبّب فى خراب العمل، فالطبيب المغرور يمكن أن يبعث بمريضـه إلى الموت أو يؤدى به إلى تلف أحـد الأعضاء، والسائق المغرور سيبتلى بالحوادث الخطرة، وهكـذا المؤمن المغرور قـد يبتلى بالرياء والعُجب وسائر الامور الّتى تفسـد العمل وتحبط الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۳ الحسنات كما ورد فى الحديث عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قال «غَرُورُ الْامَلِ يُفْسِـدُ الْعَمَلَ» «۱». ۵- إن الغرور يمنـع من التفكّر فى عواقب الامـور كمـا ورد عن أميرالمؤمنين عليه السـلام قوله «لَمْ يُفَكِّرْ فِى عَوَاقِبِ الْامُورِ مَنْ وَثِقَ بِزُورِ الْغُرُورِ» «۲». ۶- انّ الغرور غالباً ما يتسبّب فى الندم وذلك لأن الإنسان المغرور لا يسـتطيع التقييم الصـحيح للحوادث بالنسـبة له وللآخرين وسـيقع فى محاسـباته الفرديـة والإجتماعية فى الخطأ والاشـتباه، وهذا الأمر يُفضـى به إلى الندم، وفى هذا المجال يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام: «الدنيا حلم والأغترار بها ندمٌ» «۳». ۷- ويمكن القول فى جملة واحـدة: إن الأشـخاص الّـذين يعيشون حالة الغرور هُم فى الواقع فقراء ومساكين فى الدنيا والآخرة كما ورد فى الحديث الشـريف عن الإمام الصادق عليه السلام «الْمَغْرُورُ فِى الدُّنْيَا مِسْكِينٌ وفِى الْآخِرَةِ، مَغْبُونٌ لِانَّهُ بَاعَ الْافْضلَ بِالْادْنَى» «۴».

۵– طرق علاج الغرور

بمـا أنّ الغرور ينشأ غالبـاً من الجهـل وعـدم المعرفـة بـالنفس وعـدم تقييم الـذات بشـكل صـحيح فإنّ أوّل خطوة لعلاج هـذا المرض الأخلاقى هو معرفـة النفس ومعرفـة اللّه تعالى وكذلك معرفة الاسـتعدادات والقابليات لدى الأشـخاص الآخرين. إذا رجع الإنسان فى

ذكرياته إلى مرحلة الطفولة وجد نفسه عاجزاً عن كلّ شيء، وإذا تفكّر الإنسان فى المراحل المتقدّمة من عمره وجد نفسه عاجزاً أيضاً عن عمل أىّ شيء، وإذا تفكّر فيما لديه من القدرة والمال والثروة والشباب والجمال، لوجد انّ جميع هذه الامور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۴ تتعرض للتلف والزوال وتصيبها الآفات المختلفة. وكذلك إذا عاد لينظر فى تاريخ الأقوام السالفة والمجتمعات البشريه الماضية وسرعة زوال قدراتها وتلف أموالها وثرواتها وإندثار ما تبقى من امكاناتها وحضارتها وشموخها، لما أصابه الغرور. كيف يغتر الإنسان بعلمه والحال انه من المحتمل أن يُصاب بضربة على رأسه فينسى جميع علومه بل ينسى حتّى اسمه؟ وكيف يغتر الإنسان بأمواله فى حين أنّ تغييراً بسيطاً فى السوق أو وقوع حادثة مهمة اجتماعية أو سياسية أو عسكرية بامكانها أن تُبيد جميع أمواله بل قد يغرق فى الدين والقرض أيضاً. وعلى أيّة حال فإنّ ممّا يزيل عن الإنسان حالة الغرور والفخر والسكر بزخارف الدنيا وبريقها هو معرفة النفس وأوضاع العالم الدنيوى المتحركة وعدم ثباتها وكثرة تغيرها وتبدلّها. والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء المغرورين من موقع التحذير والإنذار ويقول: «أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» «۱». وشبيه هذا المعنى ورد فى سورة غافر الآية ۲۱ و ۸۲ أيضاً إذا تفكر الإنسان جيداً فى معالم وأعضاء جسمه وكوامن روحه ونفسه لوجد الضعف مهيمناً على أجواء كيانه وكيف أنّ الحوادث الجزئية والتوافة بإمكانها أن تهدم حياته وتشل حركته فسوف لا يصاب بسكر الغرور أبداً كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مِسْكِينُ بْنُ آدَمَ مَكْتُومُ الْاجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۵ ونقرأ فى حالات (عيّاض) الوزير المعروف والمقتدر للسلطان محمود الغزنوى حيث ورد انه كان يدخل كلّ يوم فى غرفة خاصّة ويغلق الباب من ورائه وبعد لحظات يخرج منها، فلفت هذا السلوك نظر البعض وتعجّبوا من هذا السلوك وتصوروا أن سرّاً خطيراً كامناً فى هذه الغرفة، وبعد التحقيق اتّضح لهم انه اخفى ملابسه الّتى كان يلبسها أيّام كان راعياً للغنم فى هذه الغرفة، وكلّ يوم يدخل إلى هذه الغرفة لينظر إلى تلك الملابس الرثّة ويقول لنفسه: لقد كنتَ يا عياض راعياً للغنم والآن سلّمك اللَّه مقام الوزارة، فلا تغتر بذلك وعليك أن تخشى غداً عندما تفقد هذا المقام وعليك دينٌ ولا تستطيع الوفاء به. ولو أنّ جميع أرباب القدرة والسلطة سلكوا هذا المسلك فى تربية نفوسهم فإنّ الغرور لا يجد طريقاً للنفوذ إلى قلوبهم، ولكن مع الأسف فإنّ كلّ إنسان لا يكون مثل عيّاض.

طول الأمل

تنويه:

إن (طول الأمل) يُعد من أهم الرذائل الأخلاقية الّتى تجر الإنسان إلى ارتكاب أنواع الذنوب والخطايا وتبعده عن اللَّه تعالى وتسلك به فى خط الشيطان وبالتالى يترتب على ذلك الكثير من العواقب الوخيمة. وبالطبع فإنّ أصل (الأمل) ليس فقط غير مذموم بل له دور مهم فى إدامة حركة الحياة والتطور البشرى فى الأبعاد المادية والمعنوية. إذا سُلِب الأمل من قلب (الامّ) فإنّها لا تجد دافعاً لإرضاع طفلها وتحمل أنواع المشقة والألم بتربيته وتنشئته كما ورد هذا المعنى فى الحديث النبوى الشريف «الْامَلُ رَحْمَةٌ لِامَّتِى وَلَوْلَا الْامَلُ مَارَضِعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرَهَا» «۱». إن من يعلم مثلًا بأن هذا اليوم هو آخر يوم من حياته أو أنّه سيموت بعد أيّام قليلة ويغادر الدنيا فإنه سيترك جميع ما فى يده من أعمال ونشاطات فى دائرة المعيشة والعلاقات الإجتماعية، وفى الحقيقة فإنّ ذلك يعنى انطفاء شعلة الحياة ولعلّ أحد الأسباب لخفاء الأجل هو أن يبقى الإنسان فى حالة الأمل والرجاء ويعيش الحركة الطبيعية فى امور المعيشة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۸ كما نقرأ هذا المعنى فى ما ورد عن المسيح عليه السلام (انه كان جالساً يوماً فى مكان وشاهد شيخاً كبيراً يحرث الأرض بمسحاته ويعمل على سقى الأرض وزراعتها، فطلب المسيح عليه السلام من اللَّه تعالى أن يسلب منه

الأمل فی الحیاة: اللهم انزع منه الأمل فوضع الشیخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عیسی اللّهم أردد إلیه الأمل فقام وجعل یعمل فسأله عیسی عن ذلک فقال بینما أنا أعمل إذ قالت لی نفسی إلی متی تعمل وأنت شیخ کبیر فألقیت المسحاة واضطجعت ثمّ قالت لی نفسی واللّه لابدّ لک من عیشٍ ما بقیت فقمت إلی مسحاتی «۱». ولهذا السبب فإنّ الأمل ضروریٌ فی ایجاد التحرّک أکثر لدی أفراد المجتمع من موقع النظر إلی المستقبل فی حرکة الحیاة. ولکنّ نفس هذا الأمل الّذی یُعدّ رمز حرکة الإنسان وسعیه فی حیاته الدنیویة والماء الّذی یسقی أرض حیاته المیّتة ویُنعش احساساته وعواطفه بغدٍ أفضل، نفس هذا الأمل إذا تجاوز عن حدّه المرسوم أصبح علی شکل سیل مدمّر یأتی علی الأخضر والیابس ویُغرق الإنسان فی وحل حبّ الدنیا والظلم والجریمة والإثم. ولهذا نجد أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یری فی (طول الأمل) أحد العدوّین الشرسین للإنسان ویقول: «إنّ أشد ما أخاف علیکم خِصْلَتانٌ اتِّبَاعُ الْهَوی وَطُولُ الْاَمَلِ، فَامَّا اتِّبَاعُ الْهَوی فَانَّهُ یَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ، امَّا طُولُ الْاَمَلِ فَانَّهُ یُحبب الدُّنْیا» «۲». وشبیه هذا المعنی بتفاوت یسیر ورد أیضاً عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج البلاغة. وبهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها نتیجة طول الأمل وأثره فی مصیر الأقوام السالفة والمجتمعات البشریه بشکل عام: ۱- «وَاذْکُرُواْ إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَکُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۹ قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ا لْجِبَالَ بُیُوتًا فَاذْکُرُواْ ءَالَا ءَ اللَّهِ وَلَاتَعْثَوْاْ فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» «۱». ۲- «أَتَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ ءَایَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ» «۲». ۳- «یُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَکُن مَّعَکُمْ قَالُواْ بَلَی وَلکِنَّکُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَکُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْکُمُ ا لْأَمَانِیُّ حَتَّی جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّکُم بِاللَّهِ ا لْغَرُورُ» «۳». ۴- «أَلَمْ یَأْنِ لِلَّذِینَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِکْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ا لْحَقّ وَلَا یَکُونُواْ کَالَّذِینَ أُوتُوا ا لْکِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَیْهِمُ ا لْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَکَثِیرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۴» ۵- «ذَرْهُمْ یَأْکُلُواْ وَیَتَمَتَّعُواْ وَیُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» «۵». ۶- «أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّی فَلِلَّهِ ا لْأَخِرَةُ وَا لْأُولَی «۶». ۷- «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الّذی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* یَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۷». ۸- «إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّواْ عَلَی أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ لَهُمُ ا لْهُدَی الشَّیْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَی لَهُمْ» «۸».

تفسیر واستنتاج:

منابع طول الأمل

«الآیة الاولی والثانیة» تتحدّثان عن قوم عادٍ وثمود حیث بعث اللَّه لهم (هود) و (صالح) وکانوا یعیشون الوضع الاقتصادی المزدهر فی زراعتهم وصناعتهم وبالتالی تسبب ذلک فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۰ تعلّقهم الشدید بالدنیا وعاشوا طول الأمل فیها ممّا أورثهم ذلک الغرور والکبر والفخر إلی درجة أنّهم لیس فقط لم یهتمّوا لدعوة أنبیائهم هود وصالح، بل إنّهم تصدوا لهم بالمخالفة والعدوان. القرآن الکریم یذکر فی الآیات الاولی علی لسان النبی صالح علیه السلام مخاطباً لقومه «وَاذْکُرُواْ إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَکُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ا لْجِبَالَ بُیُوتًا فَاذْکُرُواْ ءَالَا ءَ اللَّهِ وَلَاتَعْثَوْاْ فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» «۱». وفی «الآیة الثانیة» یستعرض القرآن حالة قوم (عاد) والّذی سبقت الإشارة إلیها فی الآیة السابقة فی الحدیث عن قوم ثمود. وتتحدث الآیة الکریمة علی لسان النبی هود علیه السلام مخاطباً قومه «أَتَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ ءَایَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ» «۲». وهنا أراد هو بهذا الکلام أن یُفهم قومه أنّ أحد العلل المهمّة لإنحرافهم عن جادة الصواب وسلوکهم فی خطّ الباطل هو اتباعهم للأهواء واعتمادهم علی الآمال العریضة والطویلة والّتی أدّت بهم إلی الغفلة عن اللَّه تعالی والفرق فی زخارف الدنیا والإبتلاء بزبارجها. (مصانع) جمع مصنع، بمعنی البناء العظیم والقصر الشامخ والمستحکم، والأصل لهذه المفردة هی مادّة (صَنَعَ) والّتی تأتی بمعنی أداء العمل الحسن، وعلیه فإنّ (صنع) لا یقال لکلّ عمل، بل یُطلق علی الأعمال الّتی لها امتیاز خاص. إن قوم عاد وثمود تصوّروا بأنّهم وبسبب هذه الأبنیة القویة والمجلّلة والقصور الفخمة الّتی أوجدوها فی قلب الجبال أنّهم بإمکانهم أن یصونوا أنفسهم من الآفات والحوادث الطبیعیة ویخلدوا فیها لسنوات متمادیة بعیداً عن کلّ اشکال الشقاء والبؤس. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۱ ونفس هذا

المعنی ورد عن قوم ثمود فی آیات اخری أیضاً حیث نقرأ علی لسان صالح علیه السلام قوله «أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هٰهُنَآ ءَامِنِينَ* فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ* وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» «۱». ولاشکّ أنّ الغرور والغفلة الّتی حصلت لهم من طول الأمل لا ـ تنحصر بقوم عاد وثمود، ولکن القرآن الکریم یذکر هذه الصفة والحالة النفسیة لهؤلاء القوم کصفة بارزة من صفاتهم الأخلاقیة. «الآیة الثالثة» تتحدّث عن جدال المؤمنین والمنافقین یوم القیامة حیث یجد المنافقون أنفسهم یعیشون فی ظلمة المحشر فی حین أنّ المؤمنین یتحرکون نحو الجنّة بنور الإیمان، وهنا یطلب المنافقون من المؤمنین أن یستفیدوا من نورهم وینتفعوا من ضیاءهم، ولکنه یُقام حاجز بینهما یحجب کلّ طائفة عن الاخری. وهنا یصرخ المنافقون «... الَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ...» «۲» إذن فلماذا أنفصلتم عنّا؟ فیجیب المؤمنون «... قَالُواْ بَلَى وَلٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ا لْأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ ...» «۳». وعلیه فالآیة أعلاه تبین أربع عوامل لشقاء المنافقین، والرابع منها طول الأمل والإغترار بالأمانی الطویلة والعریضة. (امانی) جمع (أمنیة)، وهی من مادّة (مَنی علی وزن (مَغز) وهی فی الأصل بمعنی المقیاس والمیزان، لأن الإنسان فی عالم الخیال وأحلام الیقظة یقیس الامور لنفسه وما یترتب علیها من معطیات، ولهذا السبب یُقال للخیالات الباطلة والکلام الزائف والآمال العریضة (امنیة) وجمعها (أمانی). الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۲ وورد فی تفسیر منهج الصادقین وتفسیر القرطبی فی ذیل هذه الآیة حدیثاً عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأنّ رسول اللّه کان أحد الأیّام یعظ أصحابه فرسم لهم خطوط متوازیة علی الأرض ثمّ خطّ لهم خطاً عمودیاً ثمّ قال: اتعلمون ما معنی هذه الخطوط؟ فقالوا: لا یا رسول اللّه! فقال: هذه الخطوط هی من قبیل الآمال والتمنیات للناس (والّتی لا حدّ لها ولا حصر) وامّا ذلک الخط العمودی فهو الموت ونهایة الحیاة الدنیا الّذی خُطّ علی بنی آدم جمیعاً والّذی سوف یُبطل جمیع هذه الآمال والتمنیات. ونفس هذا المعنی مع تفاوت یسیر نقله (ابن مسعود) عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله حیث قال: «خطّ لنا رسول اللّه صلی الله علیه و آله خطاً مربعاً، وخطّ وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخطّ عن یمینه ویساره خطوطاً صغاراً، فقال: هذا ابن آدم وهذا أجله محیط به وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإنّ اخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» «۱». «الآیة الرابعة» تخاطب المؤمنین بصورة غیر مباشرة وتحذرهم بأن یکونوا علی وعی کامل بوضعهم وحالهم لکی لا تأخذهم الآمال والتمنیات وتُفضی بهم إلی المصیر المؤلم للأقوام السالفة وتقول «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ا لْحَقّ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ ا لْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ا لْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۲». والمفهوم من هذه الآیة انّ ما یبعث علی لین قلب الإنسان وانعطافه وتوجهه إلی الحقّ وتحرّکه فی خطّ الإیمان والانفتاح علی اللّه هو ذکر اللّه تعالی، أجل فإنّ ذکر اللّه من شأنه أن یُزیل جمیع الآمال الطویلة والعریضة ویجعل الإنسان ملتفتاً إلی مسؤولیاته وواقعه ویُجلی قلب الإنسان ویضیئه، ویتسبّب فی أن یتحرّک الإنسان فی تصوراته وتفکیره من رؤیة الواقع وحقیقة الحیاة الدنیا فیری عدم ثباتها وعدم استقرارها جلیاً أمام ناظریه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۳ «الآیة الخامسة» تخاطب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله مشیرةً إلی الکفّار والمشرکین وتقول «ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» «۱». أجل أنّ هؤلاء مثلهم کمثل الدواب والأنعام لا یفهمون من الحیاة الدنیا سوی المأکل والمشرب والتمتع بإشباع الشهوات البدنیة، وعلیه فهم أضل من الأنعام واسوأ حالًا بسبب أنّهم یعیشون طول الأمل فی حیاتهم وأفکارهم بحیث إن طول الأمل هذا یمنعهم من التفکیر بمستقبلهم وما ینتظرهم فی الغد حتی ینشب الموت مخالبه فی أرواحهم. وهنا نجد أنّ الآیة توضح الأثر السلبی للآمال الطویلة علی حیاة الإنسان وتبین إلی أیّة درجة تجعل هذه الآمال الإنسان مشغولًا بنفسه ودنیاه وغافلًا عن اللّه تعالی. وجملة (ذرهم) تبین بوضوح انه لا ـ أمل فی هدایة هؤلاء وإلّا فإنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی الأصل مأمورٌ بهدایة جمیع الناس فلا معنی لأن یترکهم مع احتمال الهدایة فیهم. وکیف یصحّ توقّع الهدایة من طائفة من الناس فی حین أنّ هدفها النهائی فی حرکة الحیاة هو الأکل والشرب والنوم والحیاة فی الدنیا کما تعیش الحیوانات، لأن هذه الآمال الطویلة لا تدعهم یفکرون لحظة فی نهایة هذه الحیاة وخالقها والواهب لکلّ هذه المواهب فی عالم الوجود وما هی الغایة من هذا الخلق العظیم؟ «الآیة السادسة» من الآیات مورد البحث والتی تشیر إلی هذه الحقیقة، وهی انّ الآمال الطویلة الّتی لا یحصل علیها الإنسان غالباً تحیط بالإنسان وتؤسر

جميع امكاناته وقابلياته وتحجزه عن سلوك طريق السعادة وبالتالى ستمنعه من سلوك طريق الكمال المعنوى والإنسانى وتقول: «أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى «۲». وهذا الاستفهام فى الحقيقة هو نوع من الاستفهام الإنكارى، فكيف يمكن أن يعيش الإنسان كلّ هذه الآمال والتمنيات وينالها ويصل إلى مقاصده فى حين أنّ طول هذه الآمال الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۴ يستغرق أحياناً عشرات أو مئات الأضعاف من عمر الإنسان الطبيعى، وأحياناً تقع هذه التمنيات فى خطّ اللانهاية بحيث كلّما وصل الإنسان فى حركة الحياة إلى مقدار معيّن منها تجلّت له آمال اخرى تدعوه إلى مواصلة الحركة. ويجب الانتباه إلى أنّ هذه الآية وردت بعد آيات تشير إلى اصنام المشركين الّذين كانوا يعيشون الأمل بشفاعتها والقرب من اللَّه تعالى بواسطتها، فالقرآن يقول: إنّ هذا الأمل لا يتحقّق إطلاقاً، ولكن مع ذلك فإنّ مفهوم الآية عام، وكما فى الإصطلاح أنّ المورد لا يخصّص الوارد. «الآية السابعة» تتحدّث عن أهل الدنيا الّذين يعيشون الآمال الطويلة والتمنيات العريضة وتقول: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الّذى جَمَعَ مَالًا وَعدَّدَهُ «۱»* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۲». وفى الواقع أنّ هذه الآيات الثلاثة بمثابة العلّة والمعلول، لأن الإنسان الأنانى والإنتهازى سوف يتحرّك فى تعامله مع الآخرين من موقع الإستهزاء بسبب الثروة الكبيرة والمال الكثير عنده والّذى جَمَعه بطرق غير مشروعة، لأنه جَمَع مثل هذه الثروة بدافع من تصوّره أنّ هذه الثروة من شأنها أن تكتب له الخلود فى هذه الحياة، فهذا التصوّر المصحوب ب (طول الأمل) وكثرة التمنيات الدنيوية تسبب لهذا الشخص الغرور والإستعلاء والعجب، وهذا بدوره يتسبب فى أن يتحرّك مع الآخرين من موقع الإستهزاء والسخرية «۳». ويُستفاد جيداً من هذه الآية أنّ الآمال والتمنيات الطويلة والعريضة تارةً تصل إلى حدّ ينسى الإنسان معها الموت تماماً ويتصوّر انه مخلّد أبد الدهر، وهذا الأمر يؤدى به إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۵ الطغيان ويقوّى فيه حالة الإستكبار والفوقية وبالتالى تورثه هذه الحالة الوقوع فى الكثير من الذنوب الاخرى. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث: تتحدّث عن طائفة من الأشخاص الّذين عرفوا الحقّ من موقع الوعى ولكنهم أداروا ظهورهم له وأعرضوا عنه بعد ذلك وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِم مّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» «۱». (أَمْلَى لهم) من مادّة إملاء، بمعنى ظهور الآمال البعيدة والطويلة الّتى تشغل الإنسان بنفسه. وهذه الآية فى الحقيقة ناظرة إلى هذا المعنى وهو انه كيف يمكن أن يكون الإنسان عارفاً للحقّ ومصدّقاً به فى البداية ثمّ يتجاهل هذه العقيدة ويعرض عنها ويوصد أبواب النجاة أمامه ويسلك فى خطّ الإنحراف والزيغ. هل يمكن للإنسان العاقل أن يسلك هذا المسلك؟ أجل فعندما تحيط الوساوس الشيطانية بالإنسان وتصوّر له القبائح حسنات وتوقعه فى منزلقات الآمال والتمنيات الطويلة فلا يبعد أن ينسى ما كان عليه من الحقّ ويعرض عنه بسبب ذلك. ومن هنا يمكن إدراك البلاء العظيم الّذى تنزله الآمال الطويلة على الإنسان وكيف أنّ الإنسان العاقل يفقد عقله معها تماماً ويصبح غريباً عن ذاته ويترك عقله لمجموعة من الأوهام والخيالات الّتى تقوده فى خط الباطل وتبتعد به عن اللَّه تعالى. ومن مجموع الآيات المذكورة آنفاً والّتى تحدّثت عن مصير بعض الأقوام الماضين وبعض المعاصرين لعصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وبعض الآيات تحدّثت بشكل قانون عام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۶ يمكن استخلاص هذه النتيجة، وهى انّ طول الأمل وكثرة التمنيات تُعدّ من أخطر أعداء الإنسان فى صياغة حياته السعيدة، وبإمكانها أن توقع أفراد البشر بل المجتمعات البشرية فى هوّة السقوط والإندثار والشقاء.

طول الأمل فى الروايات الإسلامية:

بما أنّ طول الأمل له تأثير مخرب جداً على حياة الإنسان المعنوية والأخلاقية وحتّى الدنيوية والمادية أيضاً، فإنّ الروايات الإسلامية قد ذمت هذه الخصلة بتعبيرات مختلفة، وأشارت إلى أسباب منطقية لذلك، وعلى سبيل المثال نشير إلى نماذج من هذه الروايات: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «ارْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ جُمُودُ الْعَيْنِ وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ وَطُولُ الْامَلِ وَالْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيا» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ اطَالَ امَلَهُ سَاءَ عَمَلُهُ» «۲». وهذا المعنى ورد بصورة أوضح فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال «اطْوَلَ النَّاسِ امَلًا اسْوَئُهُمْ عَمَلًا» «۳». ۳- وورد فى نهج البلاغة

فی الخطبة ۱۴۷ تعبیراً عمیقاً فی هذا المجال قال: «انَّمَا هَلَکَ مَنْ کَانَ قَبْلَکَمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَیُّبِ آجَالِهِمْ حَتَّی نَزَلَ بِهِمْ الْمَوْعُودُ الّذی تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ». ۴- وفی حدیث آخر عن فاطمة بنت الحسین علیهما السلام عن أبیها الإمام الحسین علیه السلام عن جدّه رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «انَّ صَلَاحَ اوَّلِ هَذِهِ الْامَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْیَقِینِ وَهَلَاکَ آخِرِهَا بِالشُّحِّ (بالشَّکِّ) وَالْامَلِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۷ وبدیهی أنّ من العوامل المهمة لانتصار المسلمین فی صدر الإسلام هو الإیمان والیقین الراسخ بالإضافة إلی عدم اهتمامهم بزخارف الدنیا وبریقها، حیث تسبب ذلک فی أن یرد المسلمون الأوائل إلی میدان القتال والجهاد بشجاعة فائقة وشوق بالغ فلم یکونوا یرون إلّا اللّه تعالی ولا یتحرکون إلّافی خط الطاعة والتقوی ولا یدیرون ظهورهم إلی الأعداء من موقع الهزیمة والتخاذل. ولکن عندما امتدت إلیهم الآمال الطویلة وملکتهم العلائق الدنیویة وخدعتهم ظواهر الدنیا حلّ الشک والتردید محلّ الیقین، والشغف بأُمور الدنیا محلّ الزهد، وبدأوا یتراجعون أمام أعدائهم ویسلکون سبیل التخلف والإنحطاط الحضاری والثقافی، فلا سبیل لهم الیوم لتجدید عظمتهم الاولی سوی احیاء تیْنَک الأصلین الرئیسیّین. ۵- وفی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «الْامَلُ سُلْطَانُ الشَّیَاطِینِ عَلَی قُلُوبِ الْغَافِلِینَ» «۱». ۶- وجاء فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً انه وصف مثل هؤلاء الأشخاص بعنوان شرّ الناس وقال: «شَرُّ النَّاسِ الطَّوِیلُ الْامَلِ، السَّیِّیءُ الْعَمَلِ» «۲». وکذلک ورد فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً قوله: «انَّ الْمَرْءَ یُشْرِفُ عَلَی امَلِهِ فَیَقْطَعُهُ حُضُورُ اجَلِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ لَاامَلٌ یُدْرَکُ وَلَا مُؤَمَّلٌ یُتْرَکُ» «۳». ۷- وفی حدیث شریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «اشْرَفُ الْغِنَی تَرْکُ الْمُنَی» «۴». لأن التمنیات الطویلة والعریضة تتسبّب فی أن یعیش الإنسان الحاجة والفقر فی نفسه دائماً ویمدّ یده فی سبیل إشباع هذه الحاجة إلی أیّ شخص وبذلک یحقق شخصیته ویسحق حیثیته الإنسانیة من أجل هدف لن یصل إلیه أبداً. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۸ ۸- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام قوله: «کَذَّبَ مَنِ ادَّعَی الْایمَانَ وَهُوَ مَشْغُوفٌ مِنَ الدُّنْیَا بِخِدَعِ الْامَانِیِّ وَزُوَرِ الْمَلَاهِیِّ» «۱». ومن الواضح أنّ المتعلق بالدنیا والمشغوف بزخارفها وملذاتها فإنه ومن أجل الوصول إلی کلّ شیء منها لابدّ له أن ینسی کلّ شیء یشدّه إلی الحقیقة والواقع ومن ذلک سوف یُصاب الإیمان بالإهتزاز والضعف. ۹- وکذلک ورد عن هذا الإمام فی حدیث قصیر وملیء بالمعنی أنّه قال: «الْامَانِیُّ تُعْمَی عُیُونَ الْبَصَائِرِ» «۲». ۱۰- وورد فی حدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال یوماً لأصحابه «اکُلُّکُمْ یُحِبُّ انْ یَدْخُلَ الجَنّةَ؟». «قَالُوا نَعَمْ یَا رَسُولَ اللَّهِ» قال: «قَصِّرُوا مِنَ الْامَلِ وَاجْعَلُوا آجَالَکُمْ بَیْنَ ابْصَارِکُمْ وَاسْتَحْیُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَیَاءِ» «۳». ۱۱- وأیضاً نقرأ فی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «انَّ الْامَلَ یُذْهِبُ الْعَقْلَ، وَیُکَذِّبُ الْوَعْدَ، وَیَحِثُّ عَلَی الْغَفْلَةِ وَیُورِثُ الْحَسْرَةَ» «۴». ۱۲- ونختم هذا البحث بروایة اخری عن رسول اللّه بعنوان (مسک الختام)، فقد ورد فی هذا الحدیث أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أخذ ثلاثة أعواد فغرس عوداً بین یدیه والآخر إلی جانبه وأما الثالث فأبعده وقال: هلا تدرون ما هذا؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: «هَذَا الْانْسَانُ! وَهَذَا الْاجَلُ! وَهَذَا الْامَلُ یَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَیَخْتَلِجَهُ الْاجَلُ دُونَ الْامَلُ!» «۵». الأحادیث الشریفة أعلاه والّتی هی غیض من فیض الروایات المذکورة فی المصادر الإسلامیة فی باب طول الأمل تبین بوضوح سعة دائرة الخطر وعمق الفاجعة المترتبة علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۹ هذه الرذیلة الأخلاقیة، وتؤکد علی أنّ الآمال الطویلة والتمنیات العریضة تُعد من أشد أعداء سعادة الإنسان والمانع القوی أمام حرکته فی خط القرب الإلهی والإیمان والانفتاح علی اللّه.

الآثار السلبیة لطول الأمل:

اشارة

إن للآمال والتمنیات الواسعة آثار مخربة کثیرة فی حیاة الإنسان المعنویة والمادیة والّتی اشارت إلیها الروایات المذکورة آنفاً، وکذلک ما ورد فی الآیات القرآنیة المذکورة فی صدر البحث، وبشکل عام یمکن القول: أنّ طول الأمل یترتب علیه آثار مخرّبة

ونتائج مدمّرة كالتالى:

۱– طول الأمل مصدر الكثير من الذنوب

إن أحـد أسوأ الآثار السـلبية لطول الأمل والتمنيات العريضـة هى أنّها تـدعو الإنسان للتورط بأنواع الذنوب لأن الحصول على متعلقات هـذه الآمال والتمنيات لا تتسنّى عادة إلّا بطرق غير مشـروعة، وعليه فإنّ من يعيش هذه الرذيلة الأخلاقية يجد نفسه مضـطراً إلى الغض عن الكثير من مسائل الحلال والحرام فى سبيل تحقيق أمنياته وأن لا يُراعى فى ذلك حقوق الآخرين ولا ممنوعات الشـريعة المقدسة، فيتحرك من موقع غصب حقوق النـاس، أكـل أموال اليتامى التطفيف فى الميزان، أكل الربا، الرشوة وأمثال ذلك. ولهـذا السـبب فقد ورد فى الحديث المعروف فى (غرر الحكم) «مَنْ طَالَ امَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ» «۱». وورد أيضاً «اطْوَلَ النَّاسِ امَلًا اسْوَئُهُمْ عَمَلًا» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۰ وجاء فى النقطـة المقابلـة لـذلك: «مَنْ قَصَّرَ امَلُهُ حَسُنَ عَمَلُهُ» «۱». وكلّ من هـذه الأحاديث الثلاثـة وردت عن مولانا أميرالمؤمنين الّذى نفديه بأنفسنا ونفدى كلامه النورانى البنّاء.

۲– طول الأمل وقساوة القلب

وكما رأينا فى الآيات القرآنيـة المـذكورة فى بدايـة البحث انها تتحـدّث عن أحـد الأقوام الماضـية وتقول: «فطال عليهم الأمد فقسـت قلوبهم». والسـبب فى ذلك واضـح، لأن طول الأمل يورث الإنسان الغفلة عن اللّه تعالى ويقوى فيه عنصـر الحرص ويُبعده عن الآخرة، وكلّ هذه من الأسـباب المهمة لقساوة القلب. ولهذا السبب ورد فى الحديث الشـريف أنّ اللّه تعالى خاطب موسـى وقال: «يَا مُوسَى لَا تُطَوِّلْ فِى الـدُّنْيَا امَلَكَ فَيَقْسُوا قَلْبَكَ، وَالْقَاسِـى الْقَلْبِ مِنِّى بَعِيدٌ» «۲». ونفس هـذا المعنى ورد فى حـديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ يَأْمُلُ انْ يَعِيشَ ابَداً يَقْسُو قَلْبُهُ وَيَرْغَبُ فِى الدُّنْيَا» «۳».

۳– طول الأمل ونسيان الأجل

وهذا الأثر السـلبى لا يحتاج إلى مزيد شرح وبسط، ويمكن فهمه بوضوح على مستوى الأشخاص الّذين يعيشون هذه الرذيلة الأخلاقية حيث لا تجـدهم يـذكرون الموت أبـداً ويفكرون بالآخرة بل يعيشون الغفلـة التامّـة عن هـذه الامور المصـيرية. وقـد جاء فى الحـديث المعروف عن النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله وكـذلك عن أميرالمؤمنين عليه السـلام القول: «طُولُ الْامَـلِ يُنْسِـى الْاخِرَةِ» «۴». «اكْثَرُ النَّاسِ امَلًا اقَلُّهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً» «۵».

۴– طول الأمل والعُسر فى الحياة

ومن البـديهى انه كلّمـا امتـدت آمـال الإنسـان وقويت جـذورها فى واقع النفس فإنّهـا تتطلّب موارد ومقـدّمات أكثر، وكـذلك تـدعو صاحبهـا للإقتصـاد أكثر فى الأموال والثروات لغرض التوصل إلى تحقيق تلك الآمال والتمنيات، ونتيجـة هـذين الأمرين هى أن يعيش الإنسان فى ضـنكٍ من العيش وتعب من زحمة العمل وصعوبة المشكلات الّتى يواجهها هو وعائلته حيث يجد نفسه مضطراً إلى العمل ليـل نهار وبـدون توقف. وفى ذلك وردت أحاديث عن أميرالمؤمنين تقول: «مَنْ كَثُرَ مُنَاهُ كَثُرَ عَنَائُهُ». وقال أيضاً: «مَنِ اسْـتَعَانَ بِالْامَانِىِّ افْلَسَ». (حتّى لو عاش حياة الأغنياء فى كثرة المال والثروة). وقال أيضاً: «الرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ» «۱».

۵– طول الأمل والذلّة فى الحياة

إنّ الأشخاص الّذين يعيشون الآمال الطويلة مضافاً إلى كدحهم وتعبهم الدائم فإنّهم يعيشون فى شخصيّتهم الإنسانية الشعور بالذلّة والحقارة حيث يضطرون إلى سحق حيثيّتهم لغرض التوصل إلى هدفهم الموهوم والخيالى ويذعنون ويخضعون أمام كلّ أحد ويمدّوا أيديهم لأىّ شخص كما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «ذُلُّ الرِّجَالِ فِي خَيْبَةِ الْآمَالِ» «۲».

۶- الحرمان من النعم والمواهب

وكما تقدّمت الإشارة إليه فى الأشخاص المتورطون فى دوّامة الأمل ومستنقع التمنيات فإنّهم يجدون أنفسهم مضطرون إلى الاقتصاد والتقتير على أنفسهم فى الحياة وعدم الإستفادة من المواهب الكثيرة والنعم الوفيرة الّتى لديهم كلّ ذلك من أجل تحقيق تلك الآمال البعيدة، ولهذا السبب فإنّهم يقترون ويقتصدون فى كلّ شىء حتّى على أنفسهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۲ وعائلتهم، وهذا هو البخل أو الشح الّذى يحرم الإنسان من النعم والمواهب الإلهية فى عين تملكه للإمكانات والثروات الوفيرة فيعيش عيشة الفقراء وهو غنى. وقد نرى فى زماننا هذا بعض الأشخاص الّذين يبتلون بطول الأمل ويتحركون فى سبيل تأمين حياتهم وأبناءهم تحت عنوان (التأمين على الحياة) ويُحرموا بذلك أنفسهم وأبناءهم من المواهب والنعم الإلهية الكثيرة!!

۷- طول الأمل وعدم إدراك الحقائق

إنّ الآمال والتمنيات البعيدة حالها حال السراب الّذى يخدع الضمآن فى الصحراء المحرقة ويجرّه إليه ليعيش الضمأ والعطش أكثر دون أن يصل إلى مقصوده، فهذه الآمال والتمنيات تُظهر الامور الواقعية بأقنعة مزيّفة ولذلك لا يُدرك الإنسان أين يذهب وإلى أين يتجّه؟ وما هى وظيفته فى قِبال الامور المصيرية؟ ومن ذلك ورد فى الحديث الشريف الّذى سبقت الإشارة إليه، عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «الْأَمَانِيُّ تُعْمِي عُيُونَ الْبَصَائِرِ» «۱». وخلاصة الكلام انّ الشخص الّذى يمكنه إدراك وجه الحقيقة الجميل كما هو عليه هو الشخص الّذى لا يغطى عقله بحجاب الآمال والتمنيات ولا يعيش وسط السُحُب المظلمة والمظلّلة لطول الأمل.

۸- طول الأمل وكفران النعمة

ومن البديهى أنّ طول الأمل يقود الإنسان لأن يتعلق قلبه بما لا يحصل عليه أبداً ولهذا فإنه يرى نعمة اللَّه عليه قليلة ومواهبه حقيرة فلا يتعامل مع ما لديه من هذه المواهب العظيمة من موقع الإهتمام والعناية وهذا هو عين كفران النعمة ممّا يترتب عليه عواقب سيّئة فى الدنيا والآخرة. وقد ورد فى الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَانَّهَا تُذْهِبُ بِبَهْجَةِ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ، وَتُلْزِمُ اسْتِصْغَارَهَا لَدَيْكُمْ، وَعَلَى قِلَّةِ الشُّكْرِ مِنْكُمْ» «۲».

دوافع طول الأمل وأسبابه:

إن العمدة فى دوافع طول الأمل هو الجهل وعدم الإطلاع على حال الدنيا وما فيها من التغيرات والإبتلاءات وعناصر التضاد فى حركة الحياة، وكذلك الجهل بقدرة اللَّه ولطفه وثوابه العظيم فى الآخرة، فمجموع هذه الجهالات تدفع الإنسان إلى منزلقات طول الأمل والتمنيات العريضة. وتوضيح ذلك: إن الإنسان وبسبب جهله بنفسه وعدم الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهى أنّه قد يحين أجله فى كلّ لحظة ويرحل عن هذه الدنيا، فقد تعترض جلطة من الدم فى شرايين قلبه أو دماغه فيُصاب بالسكتة القلبية أو الدماغية أو يُصاب بزلزلة أو حريق أو حادثة سيارة وأمثال ذلك ممّا يُنهى حياته الدنيوية، نعم وبسبب جهله بهذه الامور فإنه يتورط فى شراك الآمال والتمنيات

البعیدة ویحسب أنّ عمره طویلٌ جداً ثمّ یحیط نفسه بطائفه من التصورات الواهیة والآمال البعیدة الّتی لا تسمح له أن یفكر بالواقع وبالحقائق المحیطة حوله فی واقع الحیاة. وهكذا بالنسبة إلی جهله بحال الدنیا وعدم وفائها لا بالصغیر ولا بالكبیر، ولا بالشاب ولا بالشیخ، فنری أحیاناً أنّ مئات الصبیان یموتون قبل أن یموت شیخ واحد، واخری قبل أن یموت المریض بالسرطان یموت عشرات الأشخاص السالمین. وأحیاناً تجر السلاطین إلی أن یعیشوا الذلّة والمهانة ویستبدلوا عروشهم وقصورهم بزنزانات السجن، وقد یصبح الثری الغارق فی النعمة بین عشیة وضحاها فقیراً معدِماً لا یجد عشاء یومه، أجل فالجهل بهذه الامور من شأنه أن یوقع الإنسان فی دوامة طول الأمل. وهنا یقول سلمان الفارسی التلمیذ الكبیر لمدرسة الوحی: «ثَلَاثٌ اعْجَبَتْنِی حَتَّی اضْحَكَتْنِی: مُؤَمِّلُ الدُّنْیَا وَالْمَوْتُ یَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ لَیْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِكٌ بملء فِیهِ لَا یَدْرِی اسَاخِطٌ رَبُّ الْعَالَمِینَ عَلَیْهِ امْ رَاضٍ عَنْهُ» «۱». وفی الروایات الإسلامیة اشارات واضحة علی هذا المعنی حیث یقول الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۷۴ أمیرالمؤمنین علیه السلام: «مَنْ ایْقَنَ انَّهُ یُفَارِقُ الْاحْبَابَ وَیَسْكُنُ التُّرَابَ وَیُوَاجِهُ الْحِسَابَ وَیَسْتَغْنِی عَمَّا خَلَّفَ، ویَفْتَقِرُ الَی مَا قَدَّمَ كَانَ حَرِیّاً بِقَصْرِ الْامَلِ وَطُولِ الْعَمَلِ» «۱». وجاء فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً: «اتَّقُوا خِدَاعَ الْآمَالِ، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلِ یَوْمٍ لَمْ یُدْرِكْهُ، وَبَانِی بَنَاءٍ لَمْ یَسْكُنْهُ، وَجَامِعِ مَالٍ لَمْ یَأْكُلْهُ» «۲». وأحیاناً یكون الجهل بالآخرة والثواب العظیم الخالد الّذی أعدّه اللَّه للمؤمنین سبباً فی أن یتصور الإنسان الخلود لهذه الحیاة الدنیا ویغرق فی الأوهام والتمنیات والآمال الدنیویة وأحیاناً یتسبب جهله بالسعادة الكامنة فی الزهد والتحرر من أسر الشهوات والنوازع الدنیویة إلی أن یُحرق نفسه بنار طول الأمل. وقد ورد فی الحدیث عن الإمام الباقر علیه السلام قوله: «اسْتَجْلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقَصْرِ الْامَلِ» «۳». وأحیاناً یغفل الإنسان عن قدرة اللَّه تعالی وینسی هذه الحقیقة الحاسمة فی واقع الحیاة أو یكون جاهلًا بها ولا یعلم أنّ اللَّه تعالی ومنذ انعقاد نطفته فی رحم امّه فإنه بعین اللَّه ومحطُّ عنایته ورعایته فی كلّ اموره فی حین انه كان یعیش الضعف بمنتهاه ولا تصل إلیه ید أحد من الناس لتُعینه وتوصل إلیه رزقه فی ظلمات الرحم، وتستمر عنایة اللَّه به إلی آخر حیاته، وكذلك حال أولاده إذا كانوا یسیرون فی خط الإیمان والصلاح فإنّ اللَّه تعالی لا یتركهم لوحدهم، وإن كانوا من أعداء اللَّه فلا مسوّغ لأن یتعب الإنسان نفسه فی سبیلهم وخدمتهم. أجل فإنّ الجهل بهذه الامور یؤدی بالإنسان إلی أن یُسجّل اسمه فی دائرة (التأمین علی الحیاة له ولأبناءه) وهكذا یتورط بمصیدة طول الأمل. إن جمیع حالات الجهل هذه (جهل الإنسان بنفسه، جهله بالدنیا، جهله بقدرة اللَّه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۷۵ تعالی، جهله بالآخرة ونعیمها الخالد) یتسبب فی أن یعیش الإنسان الحیرة والضیاع فی صحراء الحیاة المحرقة أسیر الآمال والتمنیات العریضة.

علاج طول الأمل:

لابدّ فی علاج الأمراض من التوجّه إلی الجذور وقلعها من الأساس لیتسنّی للإنسان التخلص من المرض بشكل حاسم، كما لم یقطع جذور المرض فإنّ العلاج السطحی والظاهری سوف لا ینفعه علی المدی الطویل، وبعبارة اخری: انه حالة من حالات التسكین للمرض لا علاجه. وبالنظر إلی هذا الأصل الأساس ومع الإلتفات إلی جذور الآمال والتمنیات فی واقع الإنسان یمكن أن نصل إلی هذه النتیجة، وهی أنّه لابدّ من التفكّر والتأمل بجدّیة فی جذور هذا المرض الأخلاقی. فمن جهة یجب علی الإنسان أن یعلم بأنه كائن مُعرّض للتلف والموت وأنّ الفاصلة بینه وبین الموت قلیلة جدّاً، فهذا الیوم یعیش السلامة والصحّة والنشاط ولكن قد نجده غداً وهو متورط بأنواع الأمراض الصعبة أو المصائب المحزنة، والیوم هو قوی وغنی ومتمكن، وغداً یمكن أن یبدو ضعیفاً ومن أفقر الناس، والنماذج علی ذلك كثیرة فی صفحات تاریخ البشریة. ومن جهة اخری یجب أن یتفكر فی إهتزاز الدنیا وتغیّرها الدائم وعدم اعتبارها. أجل فإنّها لا تثبت لأحدٍ من الناس إطلاقاً. ومن جهة ثالثة علیه أن یتدبّر ویتأمل بهذه الحقیقة، وهی اننا نعتقد بالمعاد والیوم الآخر والحساب الإلهی فی عرصات المحشر والثواب والعقاب علی الأعمال والأفعال فی الدنیا وأنّ هذا العالم ما هو إلّاقنطرة وجسر یعبر علیه الإنسان إلی تلك الحیاة الخالدة فعلیه أن یتزوّد من هذه الحیاة ولا یتصور أنّها حیاة خالدة وانها هی الأصل والهدف من الخلقة. وكذلك

يتفكّر فى أنّ الحرص على جمع الأـموال والثروات واكتنازها لغرض تحقيق تلك الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۶ الآمال والتمنيات الواسعة فى الحياة الـدنيا لا يجلب له السعادة أبداً، بل سيزيده شـقاءاً ومحنةً أيضاً، ويتفكّر أيضاً فى أنّ أهم حالات الهدوء والطمأنينة هى هـدوء الروح وسعادة الوجـدان الّتى لم يحصـل عليهـا الإنسـان، إلّاإذا سـار فى خطّ التقوى والتوكل على اللَّه من موقع الإيمان به ومعرفة حال الدنيا لا من موقع الحرص والولع فى تحصيل نعيمها الفانى وإمكاناتها المادية. وأنّ أفضل الطرق للوصول لهذا الهدف هو مـا ورد فى الحـديث النبوى المعروف: «خُـذْ مِنْ دُنْيـاكَ لِاخِرَتِـكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَمِنْ صِـحَّتِكَ لِسُـقْمِكَ، فَانَّكَ لَاتَـدْرِى مَا اسْمُكَ غَداً» «۱». أى ماذا يحصل لك فى الغد وهل أنت من الأموات أم الأحياء، من المرضـى أم الأصحّاء؟ والعامل الآخر الّذى يُربّى الآمـال والتمنيـات ويقوى جـذورها فى نفس الإنسـان هو الأـهواء النفسـية والعشق للـدنيا والتعلق بها، فكلّما سـعى المرء فى التقليل من تعلّقاته الدنيوية فإنّ أمله فى الحياة سيكون أقصـر، وعلى العكس من ذلك كلّما تعلّق الإنسان بالدنيا أكثر كلّما ازدادت آماله وكثرت تمنياته. ولغرض تحصـيل هـذا الهـدف أى تقصـير الأمل فى الـدنيا فإنّ من أقوى العوامل المؤثرة فى ذلك هو ذكر الموت الّذى يُزيل عن بصـيرة الإنسان حجُب الغفلـة فيرى حقائق الامور كما هى ويُشاهـد الواقعيات الكامنـة خلف المظاهر البراقة والظواهر الزائفة. ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين عليه السـلام فى الخطبة ۹۹ فى نهـج البلاغة قوله: «الَا فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الْامْنِيَّاتِ». ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ضمن خطبة له: «عُدَّ نَفْسَكَ فِى اصْحَابِ الْقُبُورِ» «۲» . وذلك لكى لا تبتلى بطول الأمـل. ونقرأ فى النقطـة المقابلـة لـذلك مـا ورد عن أميرالمؤمنين أنّه قال: «اكْثَرُ النَّاسِ امَلًا اقَلُّهُمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۷ لِلْمَوْتِ ذِكْراً» «۱». والطريق الآـخر للتصـدى لطول الأمـل وتضـعيفه فى واقع النفس هو مطالعـة الآثار السـلبية المترتبـة عليه. أجل فالإلتفات إلى هـذه الحقيقـة، وهى أنّ طول الأمل يُعـد مصـدراً للكثير من الـذنوب والرذائل الأخلاقيـة، ومن الأسـباب المهمـة لقساوة القلب ونسـيان الآخرة، وأن يعيش الإنسان حياة التعب والذلّـة والحرمان من النعم والمواهب الإلهية، وتسدل على بصـيرته وعقله حجاباً سميكاً لا يـدعه يرى الحقيقة من موقع الوضوح فى الرؤية، كلّ ذلك يتسـبب فى أن يتحرّك الإنسان على مسـتوى التفكير الجدى فى علاج هـذه الحالـة السـلبية قبل أن يدمّر سـيل الأمل بيت سـعادته وبذلك يقوم بتحديد آماله وتهذيب تمنياته ليعود إلى صف العقلاء والسعداء الّذين يعيشون الأمل بشكل معقول ومنطقى. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى ذلك: «حَاصِلُ الْمُنَى الْاسَفُ وَثَمَرَتُهُ التَّلَفُ» «۲». أى تلف إمكانات الإنسان وعمره الثمين. ويقول عليه السلام فى حديث آخر: «احْذَرُوا الْامَانِىَّ فَانَّهَا مَنَايَا مُحَقَّقَةٌ» «۳».

وهنا نقطتان:

الاـولى: إن الطب المـادى يتحرّك فى اسـلوبه العلاـجى للأمراض الجسـمية والنفسـية من موقع ايجاد البـديل، أى انه يسـتبدل رغبات الإنسان الّتى تقوده إلى المرض برغبات اخرى أقوى منها تجره إلى ساحل السـلامة والصحّة، مثلًا الشخص الّذى يعيش الرغبة الشديدة فى تنـاول الأطعمـة الدسـمة والسـكريات بحيث تسـبب له أمراض مختلفـة، فيوصـى بتنـاول مقـدار كبير من الفاكهـة والخضـروات، أو الأشـخاص المـدمنين على المواد المخدّرة فإنّ الأطباء يوصونهم باسـتبدال هذه العادة بعادات اخرى سـليمة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۸ وهـذه النقطة صادقة أيضاً فى الأمراض الأخلاقية، وذلك بأن يقوم معلم الأخلاق باسـتبدال الآمال الطويلة فى الامور المادية بالآمال الطويلة المعنوية فى دائرة الثواب الإلهى فى الآخرة أو الرغبة الشديدة إلى العلم والمعرفة والتقرب إلى اللَّه تعالى بدلًا من العشق للمـال والجـاه و .... وأمثال ذلك. النقطـة الاخرى أنّ للآمال بـدورها مراتب، فأحياناً يتمنّى الإنسان أن يكون له عمراً طويلًا أو مخلّـداً، كما يتحـدّث القرآن الكريم عن طائفـة من اليهود ويقول: «... يَوَدُّ أَحَـدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـنَةٍ ...» «۱». وهذا الطلب لعدد ألف سـنة إذا كـان المراد به هو هـذا المقـدار بالـذات فيـدلّ على طلبهم للعمر الطويل جـدّاً، ولو كان المراد منه بيان الكثرة فيـدلّ على طلبهم للعمر اللامتناهى واللامحدود. بعض الناس يعيشون التمنيات والآمال فى مراحل أدنى من ذلك، كأن يتمنّى أن يعيش مائة سـنة، أو خمسـين سنة، أو عشـر سـنوات أو أقل، ويُستفاد من الروايات انّ كلّ هذه تُعدّ من الآمال الطويلة (وطبعاً إذا كان الهدف من ذلك هو نيل المتع

المادیـة وتحصـیل الامکانات الدنیویـة فحسب لا الأبعاد المعنویـة والإلهیـة والتحرّک فی خطّ تقدّم البشـریة وخدمة الناس). ومن جهة اخری فـإنّ الآمال والتمنیات لها أنواع مختلفـة، فأحیاناً یکون الهـدف منها هو الجهـة المادیـة، واخری المقام، وثالثـة الشـهوات، ورابعة جمیع ذلک. وجمیع هـذه الأقسام للآمال والتمنیات الطویلـة والعریضـة مذمومـة فی الـدائرة الأخلاقیـة رغم أن بعضـها أقبح من البعض الآخر.

الآمال والتمنیات الإیجابیة والبنّاءة:

وآخر مـا یمکن أن یُقـال فی بحث طـول الأمـل هـو أنّ الآمـال والتمنیـات لیست بأجمعهـا الاخلاـق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۷۹ سلبیة وعلامة انحطاط الشخصیة والسقوط الأخلاقی، لأن هذه الآمال والتمنیات إذا کانت متجهة نحو القیم الأخلاقیة والمُثل الإنسانیة الرفیعة، أو تصب فی دائرة الخدمـة الإجتماعیـة وتتحرّک فی خطّ تکامـل المجتمع وتطوره الحضـاری فی مراتب الکمـال وتقود الإنسـان إلی السـعی وبـذل الجهد أکثر فی هذه المسائل، فلا شکّ فی أنّ مثل هذه الآمال والتمنیات حتّی لو کانت طویلة وعریضة فإنّها لیست فقط غیر مذمومـة بـل من علامـات الکمـال الإنسـانی للفرد. وأساسـاً کما تقـدّم فی بدایـة البحث أنّ الأمل بالمسـتقبل یمثل القوّة المحرکة للإنسان لبذل الجهد والسعی فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة فإذا انطفأ نور الأمل والرجاء فی قلب الإنسان فإنه یصبح کالدُمیة بلا روح ویتلاشـی عنه عنصـر النشاط والحرکـة ویتحول الإنسان إلی کائن جاف وبارد ومن دون هدف معیّن. وفی الواقع فإنّ الآمال علی قسـمین: أحدها (الآمال الکاذبة) والّتی هی کالسـراب فی صحراء الحیاة حیث تدعو العطاشی إلیها وتجرّهم نحوها دون أن ینالون شیئاً بـل یزدادون عطشـاً إلی أن تهلکهم. والآـخر (الآمـال الصادقـة) والإیجابیـة والبنّاءة والّتی هی کالماء الّـذی یسـقی کلّ حی ویقوّی فی الإنسـان روح الحیـاة والسـعی والنشـاط، وکلّمـا ازداد نشاطاً وحرکـة ازدادت معنویّته وصـعد فی معراج الکمال. وهـذا هو ما أشار إلیه القرآن الکریم بقوله: «ا لْمَ‌الُ وَا لْبَنُونَ زِینَـةُ ا لْحَیَا ةِ الـدُّنْیَا وَا لْبَاقِیَاتُ الصَّالِحَاتُ خَیْرٌ عِنـدَ رَبِّکَ ثَوَابًا وَخَیْرٌ أَمَلًا» «۱». وقد اشارت هذه الآیـة إلی کلا القسـمین من الآمال: الإیجابیة والسـلبیة. وهناک اشارات دقیقة فی الروایات الإسـلامیة إلی الآمال الإیجابیة والبنّاءة ومن ذلک ما ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «انَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِیرَ لَیَقُولُ یَا رَبِّ ارْزُقْنِی حَتَّی افْعَلَ کَذَا وَکَذَا مِنَ الْبِرِّ وَوُجُوهُ الْخَیْرِ، فَاذَا عَلِمَ اللَّهُ ذَلِکَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِیَّتِهِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۸۰ کَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْاجْرِ مِثْلَ مَا یَکْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ، انَّ اللَّهَ وَاسِعٌ کَرِیمٌ» «۱». وأساساً فإنّ عزم الإنسان وهمّته بمقدار آماله الإیجابیة، فکلّما اتسـعت دائرة هذه الآمال فإنّ عزمه وهمّته ستزداد أیضاً، واللطیف انه یُستفاد من الروایات الإسلامیة جیداً أنّ اللَّه تعالی یُعطی الثواب للأشخاص المؤمنین بمقدار ما لدیهم من الأمل والرجاء، لأن ذلک من علامات قابلیة الروح والجسم لأداء الأعمال الصالحة أکثر، وحتّی انه یُسـتفاد من الروایات أنّ الإنسان إذا کان یرجو ویأمل أملًا جمیلًا وایجابیاً لغرض تحصـیل رضا اللَّه تعالی فإنه لا یرحل من هـذه الـدنیا إلّاویوفّق لنیل هذا الأمل وتحقیقه کما ورد فی الحـدیث الشـریف عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ تَمَنَّی شَـیْئاً وَهُوَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ رِضاً، لَمْ یَخْرُجْ مِنَ الدُّنْیَا حَتَّی یُعْطَاهُ» «۲». وطبعاً یمکن أن تکون هناک بعض الموارد الّتی تسـتوجب المصـلحة أن لا یصل الإنسان إلی ذلک الأمل ولا یناله، لأنّه إذا حصل علیه فسوف تترتب علی ذلک بعض الآثار السـلبیة من قبیل الغرور والغفلـة والعشق للـدنیا وأمثال ذلک ولذلک فإنّ اللَّه تعـالی بألطـافه الخفیـة لاـ یوفقه للوصول إلی هـذه الآمـال والتمنیـات. ونختم هـذا البحث بالإشـارة إلی نکتـة اخری وهی أنّ التمنیـات الإیجابیـة تدعو الإنسان إلی بناء شخصـیته وتتسبب فی تکامله المعنوی والروحی، لأنّه یعلم أنّ الشخصـیات الکبیرة لن تبلغ هذا المبلغ من الکمال إلّامن خلال تهیئة أسباب الکمال هذا وکما یقول الشاعر: اعَلِّلُ النّفس بالآمال ادرکُهَا مَا اضْیَقَ الْعَیْشَ لَولَافُسحَةُ الْامَلِ

التعصّب والعناد

تنویه

لاشـكّ أنّ أساس العبوديـة والطاعـة للّه‌تعالى يكمن فى عنصـر التسليم والتواضع والخضوع مقابل الحقّ، وعلى العكس من ذلك فإنّ كلّ اشكال (التعصب واللجاجـة) تورث الإنسان البعد عن الحقّ والحرمان من السـعادة. (التعصب) بمعنى الإرتباط غير المنطقى بشـىء معيّن إلى درجـة أنّ الإنسـان يضـحى بالحقّ من أجل ذلك، أمّا (العناد) فيعنى الإصـرار على شـىء معيّن بحيث يسـحق تعليمات العقل والمنطق تحت قدمه من أجل ذلك، والثمرة لهاتين الشـجرتين الخبيثتين هو (التقليد الأعمى) الّذى يُعد من أقوى الموانع والسدود أمام تكامـل الإنسـان وحركته فى خطّ المعنويـات والإيمان والكمال الأخلاقى. عنـدما نراجع سـيرة الأنبياء العظام وأسـباب انحراف الأقوام السالفه عن سـلوك طريق الحقّ والـدعوة الإلهية يتضّح لنا جيداً أنّ هذه الامور الثلاثة (التعصب والعناد والتقليد الأعمى لها دورٌ أساس فى عمليـة الانحراف هذه، وفى القرآن الكريم اشارات كثيرة إلى هذه المسألة بالذات حيث ينبغى دراسـتها والتدبّر فيها: ونبدأ من قوم نوح عليه السلام حيث يقول القرآن الكريم: الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۲ ۱- «وَإِنّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا» «۱». ۲- «وَقَالُواْ لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» «۲». ثمّ يـورد القرآن الكريم قصـة هود ويقول: ۳- «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُـدَ اللَّهَ وَحْـدَهُ وَنَـذَرَ مَاكَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۳». ثمّ تصل النوبـة إلى قصة إبراهيم عليه السـلام حيث يقول القرآن الكريم: ۴- «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُواْ وَجَـدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِدِينَ» «۴». ۵- «قَالَ هَلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» «۵». ثمّ تصل النوبة إلى قوم موسى وفرعون فيقول: ۶- «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» «۶». ثـمّ يصـل إلى عصـر النبى الأ كرم صلى الله عليه و آله حيث نرى نفس الأعمـال والسـلوكيات تصدر من أعدائه حيث يقول عنهم القرآن الكريم: ۷- «وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَـيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» «۷». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۳ ۸- «إِذْ جَعَـلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَـةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَـىْءٍ عَلِيمًا» «۱». ۹- وكـذلك يقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُؤْمِنِينَ» «۲». وأحياناً يـذكر تعصب الأقوام السالفة بعضها ضد البعض الآخر ويقول: ۱۰- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ فِيما كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» «۳». وفى مكـان آخر يستعرض مسألة التقليد الأعمى والتعصب واللجاجة بعنوانها برنامج عام لجميع الأقوام الذين يتحركون فى خط الضلالة والباطل ويقول: ۱۱- «وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَـةٍ مّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَـدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» «۴». ۱۲- «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُون» «۵».

تفسير واستنتاج:

المنهج العام للأقوام المنحرفين

كما تقدم فإنّ هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث، (أىْ التعصب والعناد والتقليد الأعمى تُعد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۴ منهجاً عاماً فى سـلوك جميع الأقوام الّذين يتحركون فى خطّ الإنحراف والضـلال والزيغ، فهؤلاء وبسبب تعصبهم الشديـد للأفكـار الخرافية والتقاليد الزائفة، وعنادهم وإصـرارهم على اعتناقها وعدم التخلى عنها، وبالتالى اتباعهم لآبائهم وأسـلافهم إتباعاً أعمى وبذلك انتقلت الخرافـات والعقائـد الزائفـة جيلًا بعـد جيل حيث ضاعت دعوة رجال الحقّ والأنبياء الإلهيين الّذين جاءوا لهـدايتهم فى زَحمـة النعرات الجاهلية لهؤلاء الأقوام المنحرفين. ونبدأ قبل كلّ شىء بقصة نوح مع قومه لنرى أنّ هؤلاء الّذين كانوا يعبدون الأوثان كانوا إلى درجة من التعصب والعنـاد فى مقابـل دعـوة نـبى عظيم من اولى العزم حتّى أنّهم كـانوا يسـتوحشون من سـماع صـوته ودعـوته إلى اللّه كما

تتحدّث «الآيـة الاولى من الآيـات مورد البحث على لسـان نـوح فتقـول: «وَإِنّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا» «۱». أجـل فـإنّ تعصّبهم وعنادهم كان من الشـدّة والقوّة إلى درجـة أنّهم لن يسـمحوا لآذانهم أن تسـمع صوت نوح الحامل للنداء الإلهى، وكذلك لم يسمحوا لعيونهم أن ترى وجهه وسيماءه، وبهذه الطريقة العجيبة كانوا يتهربون من الحقيقة، فما أخطر هذه الحالة الّتى يعيشها الإنسان الجاهل والمتعصب!! وتأتى «الآية الثانية» لتكشف عن بُعدٍ آخر من هذه الرذائل الأخلاقية المتجذّرة فى قوم نوح وتقول: «وَقَالُواْ لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» «۲». أما لماذا لم يكونوا على استعداد لترك هذه الاصـنام التى صـنعوها بأيديهم، بل كانوا يرون أنّها حاكمة على مصيرهم ومصير العالم؟ لا دليل لـذلك سوى التعصب والتقليـد الأعمى للتقاليـد الزائفة والعقائد البالية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۵ وفى «الآية الثالثة» يتحدّث القرآن الكريم عن قوم عاد وجـدالهم مع نبيّهم هود ويقول: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَاكَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». فهؤلاء كـانوا إلى درجـة من العنـاد والجهـل والتعصّب بحيث أنّهم لم يطيقوا دعوة هـذا النبى إلى التوحيد الخالص واعترضوا عليه فى دعوته لترك ما كانوا يعبدونه من الأوثان حتّى أنّهم كانوا مسـتعدين لاسـتقبال امواج البلاء بدلًا من التنازل عن عقائـدهم المنحرفـة. وعلى هـذا الأسـاس وبسبب التعصب والاصـرار والتقليـد الأعمى فإنّ التوحيـد الخالص الّذى هو روح عالم الوجود كان فى نظرهم أمراً موحشاً وغريباً، وبالعكس فإنّ عبادة الأوثان الّتى لا عقل لها ولا شـعور كان أمراً معتبراً ومعقولًا لديهم، بل حتّى أنّهم سـلكوا على خلاف مقتضـى قـانون دفع الضـرر المحتمل الّذى يحكم به العقل حيث لم يهتموا أدنى اهتمام باحتمال نزول العـذاب الإلـهى عليهم وكـانوا يصرّون على نبيّهم أن يـدعو ربه بتعجيـل نزول العـذاب عليهم، وهـذه الحماقـة من هؤلاء ليست سوى حصيلة للتعصب والعنـاد. أجـل فهؤلاء ولأجـل الفرار من الحقّ والإسـتمرار على سلوكهم الجاهلى فى تقليـدهم الأعمى للآباء كانوا يسـرعون نحو هلاكهم والعقـاب الإلهى عليهم وبالتالى تحقّق ما كانوا يطلبونه من نبيّهم واحترقوا بأجمعهم فى عـذاب اللَّه، وهـذه هى نتيجـة العناد والتعصب الجاف والتقليـد الخاطىء. وتتعرض «الآيـة الرابعـة» إلى إحدى الإفرازات المشؤومة لهذه الرذائل الأخلاقية على الإنسان، وتتحـدّث عن (نمرود) وقومه وتقول عن النبى إبراهيم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» «۲». ولكنه لم يسـمع جواباً منهم على كلامه إلّاأنّهم قالوا: «قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۶ وعندما قال لهم إبراهيم بصـراحة حاسـمة: إنكم أنتم وآبـائكم فى ضـلال مبين، لم يستيقظوا من غفلتهم، فلم يكن من إبراهيم إلّاأن بين لهم تفاهة هذه التماثيل والأصـنام من موقع العمل والممارسة، فحطّم هذه الأصـنام لكى يثوبوا إلى عقولهم، ولكنهم بدلًا من الانتباه من سـكرتهم وجهـالتهم وبـدلًا من أن يمزّقوا حجب الجهـل والتعصب واللجاجـة فقـد هـدّدوا إبراهيم بـالحرق بالنار، وألبسوا تهديـدهم لباس الفعل وترجموه على أرض الواقع، وقـذفوا بإبراهيم وسطأمواج النيران الملتهبة، وعندما رأوا أنّ هذه النار تحوّلت إلى نعيم وجنّة وكانت برداً وسـلاماً على إبراهيم، وشاهـدوا أكبر معجزة إلهيـة بـامّ أعينهم استمروا مع ذلـك فى سلوكهم الأحمق بتأثير قيود الجهل والتعصب والاصـرار، وادّعوا أنّ ذلك كان من قبيل السـحر. كلّ ذلك يدلّ على أنّ هذه الرذائل الأخلاقية إلى أيّة درجة هى خطرة على الإنسان ومانعـة من التحرّر فى الفكر والوصـول إلى الحقّ، وأنّ الأشـخاص الّذين يقعون أسـرى فى براثن هـذه الرذائـل فـإنّهم يعيشون الـذلّة والحقـارة إلى غايتهـا وبـذلك يحطّمـون عزّتهم الإنسانيـة ويهبطون من مقـام الإنسانيـة الشامـخ ويقبلون بكـلّ ذلـك بـدلًا من التسـليم والإذعان إلى الحقّ. وتشـير «الآيـة الخامسة» أيضاً إلى عبادة الأوثان لدى قوم (نمرود) عندما واجههم إبراهيم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على سـخافة هذه العقيدة من خلال الحوار العقلى والمنطقى حيث تقول الآية: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ» «۱». ولكن هؤلاء لم يكن لـديهم أىّ جواب منطقى فى مقابل هـذه التساؤلات الحاسـمة إلّا أنّهم لاذوا بكهف التقليد الأعمى كما تقول الآيـة: «قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۷ فى حيـن أنّ الإنسـان إذا أراد أن يسـلك فى خطّ التقليـد فعلى الأقل يجب أن يقلـد ويتبع العالم والخبير بالوقائع ليشـير عليه ما ينفعه فى هـذا السبيل لا أن يقلـد الجاهل والأحمق، ولكنّ حجاب التعصب واللجاجـة كان سـميكاً إلى درجة انه لن يسـمح لأقل شـعاع من نور شـمس الهداية والمنطق والدليل

العقلى فى النفوذ إلى أعماقهم ووجدانهم ليضىء باطنهم بنور الحقّ. «الآيـة السادسـة» تتحدّث عن لجاجة الفراعنة وعنادهم فى مقابل المعجزات الواضحة والآيات البيّنة لموسى حيث فضّلوا البقاء على عقائدهم الوثنية الّتى ورثوها من أسلافهم بدافع من اللجاجة والإصرار والعناد حيث تقول الآية: «قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» «۱». هؤلاء لم يسألوا من أنفسهم عن دين موسى هل هو حقّ أم باطل، وماذا يمتاز على دين الأسلاف؟ بل كان كلامهم يدور فقط فى اننا يجب أن نحفظ دين الآباء والأجداد سواءاً كان حقّاً أم باطلًا، فالقيمة الواقعية لنا تكمن فى هذا المنهج فقط، ثمّ قالوا مع كثير من سوء الظن أنّ ما جاء به موسى من الدين الإلهى هو فى الواقع مقدّمة لتحصيل مقاصده السياسية وبسط سيطرته وحكومته على الناس، فلاـ إله فى البين ولاـ الوحى الإلهى، وهكذا كانوا يتحركون من موقع سوء الظن هذا وبسبب ذلك التعصب والعناد فى طريق الابتعاد عن الحقّ والإعتذار بتبريرات واهية فى سبيل تحكيم موقعيّتهم مقابل دعوة موسى ولعلّهم كانوا يخافون من أنّه إذا تجلّى نور الهداية الإلهية لشعب مصر عن طريق شريعة موسى فإنّهم سيفقدون بذلك دينهم الخرافى الّذى ورثوه من الآباء وكذلك يفقدون حكومتهم المبنية على هذا الأساس، ولهذا فإنّهم تصدّوا لموسى ودعوته بكلّ ما اوتوا من قوة وتحركوا من موقع تشجيع الناس وتعميق حالة التعصب والعناد فيهم، وبما أنّ الملأ من الفراعنة كانوا يريدون كلّ شىء فى سبيل تعزيز حكومتهم وسيطرتهم على الناس فتصوّروا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۸ أنّ موسى وهارون كذلك يريدون الدين كوسيلة واداة للتوصل إلى الحكومة والسيطرة. وهذا المرض الأخلاقى يستمر مع البشر على طول التاريخ إلى أن نصل إلى زمن الإسلام وعصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. وفى «الآية السابعة» نرى أيضاً أنّ العامل الأساس فى انحراف المشركين العرب هو التقليد الأعمى والتعصب لتراث الآباء والأجداد والّذى يوصد أبواب المعرفة من كلّ جانب على أصحاب هذه الصفة الرذيلة فتقول الآية: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ...» «۱». ولكن القرآن الكريم يجيبهم على هذا التصور الباطل بجواب حاسم وقاطع ويقول: «... أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» «۲». ويتضح من سياق هذه الآية أنّ هؤلاء المشركين لم يُنكروا على النبى صلى الله عليه و آله دعوته السماوية وأنّه يتحدّث من قِبل اللَّه تعالى (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ)، ولكنهم كانوا غارقين فى مستنقع التعصب والعناد والجهل إلى درجة أنّهم يفضلون دينهم الّذى ورثوه عن الآباء والأجداد على دين اللَّه وهم يعلمون بأن أسلافهم كانوا يعيشون الجهل والضلالة. وبهذا نجد أنّ الجهل والتعصب يتسبب فى أنّ الإنسان يترك بسهولة (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ) ويدير له ظهره ويتجه نحو الباطل رغم انه يميز بين الحقّ والباطل من موقع الوضوح فى الرؤية. وتستعرض «الآية الثامنة» قصة الحُديبية حيث يذكر اللَّه تعالى المسلمين بما جرى من حوادث مهمة وأنّ الكفّار رغم رؤيتهم لعلائم حقانيّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّهم وبسبب التعصّبات الجاهلية لم يتحرّكوا فى خطّ الإيمان، وكانت هذه الرذيلة الأخلاقية قد منعتهم من سلوك طريق السعادة العظمى فتقول الآية: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ا لْحَمِيَّةَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۹ حَمِيَّةَ ا لْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ا لْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا» «۱». (الحميّة) من مادّة (حَمى (على وزن حَمَدَ) بمعنى الحرارة الّتى يشعر بها الإنسان فى بدنه بسبب العوامل الخارجية أو الأشياء الاخرى، ولهذا السبب اطلقت على الحُمّى أيضاً وهى حرارة المرض. ثمّ اطلقت هذه المفردة على الحالات الروحية والأخلاقية من قبيل: الغضب والتكبّر والتعصب وأمثال ذلك وأنّها بمثابة حالات يعيشها الإنسان فى حرارة باطنية كالنار المستعرة فى قلب الإنسان. والملفت للنظر أنّ هذه الآية أضافت الحميّة إلى الجاهلية، وذلك للإشارة إلى التعصبات المنطلقة من موقع الجهل وعدم العلم، وفى نفس الوقت اضافت السكينة الّتى تقع فى النقطة المقابلة لها إلى اللَّه تعالى، وهى الحالة من الهدوء والراحة النفسية الّتى يعيشها الإنسان من موقع الإيمان والوضوح والإنسياق مع الحقيقة. وسيأتى فى البحوث اللاحقة الكلام حول التعصّب الإيجابى والسلبى وحول إضافة الحمية إلى الجاهلية. «الآية التاسعة» تشير إلى نكتة اخرى فى هذا المجال، وتكشف النقاب عن جانب آخر من التعصب الشديد للعرب فى عصر الجاهلية وتقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُؤْمِنِينَ» «۲». يعنى انّ التعصب القومى والعِرقى لهؤلاء العرب كان إلى درجة من الشدّة بحيث إنّ القرآن مع جميع المعارف السامية

والفصاحة والبلاغة والمضامين العظيمة لو كان قد نزل على غير العرب فإنّ تعصبّهم العِرقى يمنعهم من الإيمان به ويسدل عليهم حجاباً يُبعدهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹۰ عن إدراك الحقيقة والوصول إلى المقصود. ورغم أنّ بعض المفسّرين قد ذكر لهذه الآية تفسيرات اخرى، ولكن أوضح التفاسير وأنسبها لسياق هذه الآية هو ما ذُكر آنفاً. وعلى هذا الأساس ورد فى بعض الروايات الإسلامية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ الأشخاص الّذين يعيشون التعصّب والعناد هم شركاء لأعراب الجاهلية حيث يقول: «مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ مَعَ اعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» «۱» . وحبّةٍ من خردل يُضرب بها المثل بالصغر لدى العرب. وتأتى «الآية العاشرة» لتكشف النقاب عن هذه الرذيلة الأخلاقية فى أقوام بشرية اخرى وأنّ كلّ قوم وطائفة يرون أنفسهم أنّهم الأفضل بدافع التعصب واللجاجة ويتحركوا فى تعاملهم مع الآخرين من موقع الإبعاد والنفى ويحسبون أنفسهم أنّهم عباد اللَّه المتميزون على سائر الأقوام والشعوب البشرية، وهذا الأمر هو الّذى تسبب فى نزاعات مستمرة وصراعات دائمة بين الأقوام البشرية حيث تقول الآية: «وَقَالَتِ ا لْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ ا لْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ا لْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ا لْقِيَامَةِ فِيما كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» «۲». ويُستفاد من سياق هذه الآية أنّ هذا اللون من التعصّبات وأشكال الغرور ينبع من الجهل وعدم المعرفة وأنّ كلّ فئة من الناس تعيش الجهل وعدم المعرفة سوف يتورطون فى هذه الرذيلة الأخلاقية. وعبارة (الّذِينَ لَايَعْلَمُونَ) لها مفهوم واسع وأحد مصاديقها هم المشركون العرب، ولذلك فسّرها بعض المفسّرين بأنّهم قوم نوح، أو ذكروا فى تفسيرها أنّ المراد منها جميع الامم البشرية الّتى عاشت التعصب والعناد بسبب الجهل وعدم المعرفة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹۱ «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن أصل كلّى وعام وتبيّن أنّ حالة التعصب والاصرار على طول التاريخ البشرى كان لها الدور المهم فى استمرار الأقوام البشرية فى سلوكهم فى خطّ الكفر ومحاربة التوحيد وتقول: «وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» «۱». وسياق الآية يوحى إلى أنّ أهم مانع فى مقابل الإيمان واتباع الأنبياء الإلهيين هو التعصب والتقليد الأعمى الناشىء من حالة الجهل الّتى يعيشها الإنسان. وهنا تتضح الأبعاد الخطيرة لهذه الرذيلة الأخلاقية. ونقرأ فى «الآية الثانية عشر» والأخيرة أنّ الجاهليين وبسبب حالة التعصب واللجاجة كانوا يتهمون أكبر الأنبياء الإلهيين بالجنون ويجعلون ذلك ذريعة لمخالفتهم للدعوات السماوية وتقول: «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» «۲». والعجيب أنّ هؤلاء كانوا غارقين فى دوّامة الجهل والتعصّب الأعمى إلى درجة أنّهم لم يكونوا يُدركون أنّ كلامهم هذا متناقض، فإنّ كونه (شاعراً) يدلّ على الذوق السليم والقريحة والتأمّل والتفكر والإطلاع الوافى على دقائق الكلام (والملاحظ أنّ كلمة الشاعر من مادّة الشعور) وهذا ما يتقاطع مع كونه مجنوناً كما هو واضح. وأحياناً يتهمون الأنبياء بالسحر والجنون كلاهما فى حين أنّ السحر يحتاج إلى الإطلاع الواسع على بعض العلوم والمعارف ويستبطن ذكاءاً خاصاً، وكلّ هذا يتقاطع مع الجنون، وهذا يوضّح أنّ كلام هؤلاء المتناقض لم يكن بوحيٍ من العقل والتفكر الهادىء والمنسجم بل بدافع من الجهل والتعصب والعقدة.

النتيجة النهائية:

وبمرور إجمالى على الآيات الكريمة المذكورة آنفاً والّتى هى نموذج من كثير من الآيات القرآنية فى هذا المجال تتضح هذه الحقيقة وهى انّ أهم موانع المعرفة والوصول إلى الحقيقة هو حالة التقليد الأعمى الناشىء من التعصب واللجاجة والتحرّك من موقع الرغبات النفسية وبدافع من الأهواء والنوازع الباطنية الّتى تحبس الإنسان فى سجن مظلم من الجهل المطبق. إن الأضرار والخسائر الكثيرة المترتبة على هذه الرذيلة الأخلاقية قد سوّدت صفحات التاريخ البشرى وواجه الأنبياء الإلهيين بسببها مشاكل كثيرة فى طريق هداية الناس إلى اللَّه والحقّ وسُفكت بسببها الكثير من الدماء، وهذا يكفى فى إدراك شناعة هذه الحالة الذميمة فى السلوك الإنسانى. لولم تكن هذه الرذيلة الأخلاقية موجودة فى باطن الإنسان فإنّ تاريخ البشرية سيلبس ثوباً آخر ويسطع بوجهٍ جديد فى حركة التكامل الحضارى والتقدّم العلمى ولفُتحت الأبواب أمام البشرية للصعود إلى مدارج عالية من الكمال المعنوى وبدلًا من أن تتحوّل طاقاته

وامکانیاته الکبیرة إلى سیلٍ مخرب بسبب الجهل والتعصب فإنّ من شأنها أن تتحول إلى منظومة واسعة من المعارف الإلهیة والسلوکیات الأخلاقیة الحمیدة والمُثل الإنسانیة الّتی تقود الإنسان فی کلّ بُعدٍ من أبعاد حیاته الدنیویة إلى العمران والتکامل المادی والمعنوی.

التعصب والعناد فی الأحادیث الإسلامیة:

اشارة

وقبل أن نستعرض فی بحثنا هذا مفهوم التعصب ودوافعه ونتائجه الوخیمة على حیاة الإنسان نرى من اللازم أوّلًا استعراض الأحادیث الإسلامیة فی هذا الباب لأنها تتضمن الکثیر من الامور المتعلقة بهذا الموضوع بصوره إجمالیة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹۳ والأحادیث الشریفة فی هذا الموضوع کثیرة ونشیر إلى نماذج منها: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّٰه صلى الله علیه و آله: مَنْ کانَ فِی قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِیَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ مَعَ اعْرابِ الْجاهِلِیَّةِ» «۱». وهذا التعبیر یشیر إلى أنّ هذه الرذیلة الأخلاقیة إلى درجة من الخطورة بحیث إنّ أدنى درجة منها تتقاطع مع الإیمان الخالص. ۲- وورد فی حدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «انَّ اللَّهَ یُعَذِّبُ السِّتَّةَ بِالسِّتَّةِ، الْعَرَبَ بِالْعَصَبِیَّةِ، وَالدَّهَاقِینَ بِالْکِبْرِ، وَالْامَرَاءَ بِالْجَوْرِ، وَالْفُقَهَاءَ بِالْحَسَدِ، وَالتُّجَّارَ بِالْخِیانَةِ، وَاهْلَ الرَّسَاتِیقِ بِالْجَهْلِ» «۲». والملفت للنظر أنّ هذا الحدیث الشریف یذکر التعصب على رأس هذه الامور الستة فی حین أنّها جمیعاً من الذنوب الکبیرة. ۳- ونقرأ فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلى الله علیه و آله قوله: «لَیْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا الَى عَصَبِیَّةٍ، وَلَیْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِیَّةٍ، وَلَیْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِیَّةٍ» «۳». ۴- وجاء فی الخطبة المعروفة بالقاصعة عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی نفی التکبر والتعصّب وأنّ هذه الحالات هی السبب الأساس فی إنحراف إبلیس وشقائه وأنّ اللّٰه تعالى عندما أمر الملائکة بالسجود لآدم فسجدوا إلّاإبلیس فإنه یقول: «اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِیَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وَتَعَصَّبَ عَلَیْهِ لِاصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللَّهِ امَامُ الْمُتَعَصِّبِینَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَکْبِرِینَ، الَّذی وَضَعَ اسَاسَ الْعَصَبِیَّةِ» «۴». ۵- وفی حدیث آخر عن رسول اللّٰه صلى الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رَبَقَ الْایمَانِ مِنْ عُنُقِهِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹۴ ونعلم أنّ التعصّب والعناد هُما لازم وملزوم، ولهذا السبب أوردناهما تحت عنوان واحد، وأما بالنسبة إلى حالة العناد والاصرار فی السلوک البشری وآثارها السلبیة فلدینا الکثیر من الروایات فی هذا الباب، منها: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّٰه صلى الله علیه و آله أنّه قال: «ایَّاکَ وَاللِّجَاجَةَ، فَانَّ اوَّلَهَا جَهْلٌ وَآخِرَهَا نَدَامَةٌ» «۱». ۲- وجاء فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «اللِّجَاجُ اکْثَرُ الْاشْیَاءِ مَضَرَّةً فِی الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» «۲». ۳- وفی حدیث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «اللِّجَاجُ بَذْرُ الشَّرِّ» «۳». ۴- وجاء فی نهج البلاغة قوله: «اللِّجَاجَةُ تَسِلُّ الرَّأْیَ» «۴». ۵- وأیضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «لَیْسَ لِلَجُوجٍ تَدْبِیرٌ» «۵». ومع ملاحظة هذه الروایات الشریفة یتضح التأثیر المخرب لهاتین الرذیلتین الأخلاقیتین (التعصّب واللجاجة) فی الحیاة الفردیة والإجتماعیة للناس بحیث إنهما یدفعان الإنسان بعیداً عن الإیمان والإسلام ویجعلانه غریباً عن الأجواء الروحیة المنفتحة على اللّٰه تعالى ویقودانه إلى الکفر والشرک والإقتداء بالشیطان وترک حبل الإیمان، وسوف یأتی لاحقاً الدوافع الکامنة فی هذه الحالة الأخلاقیة.

۱- مفهوم التعصّب ودوافعه

(التعصّب) من مادّة (عَصَبَ) وهی فی الأصل بمعنى الخیوط العصبیة والعضلیة الّتی تربط بین مفاصل العظام والعضلات، ثمّ استُعملت هذه الکلمة لیُراد بها کلّ نوع من الارتباط الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹۵ الشدید الفکری والعملی والّذی یستبطن غالباً معنىً ومفهوماً سلبیاً رغم وجود بعض العلائق الإیجابیة أیضاً فی مفهومها حیث سیأتی تفصیل ذلک فی الأبحاث اللاحقة إن شاء اللّٰه.

وبـديهى أنّ التعلّقات غير المنطقية بالنسبة إلى شخص ما أو عقيدة معيّنة أو شىء من الأشياء فإنه يقود الإنسان إلى اللجاجة والتقليد الأعمى بالنسبة إلى ذلك الشىء أو الشخص، وبالتالى سيكون العامل المهم فى بروز أنواع النزاعات والحروب والاختلافات المستمرة بين البشر. وكلّما تحرك الإنسان على مستوى إزالة هذه التعصبات من ساحة الحياة البشرية والمجتمع الإنسانى فإنّ الناس سوف يتعاملون فى ما بينهم من موقع العقل والمنطق والحوار الهادىء والهادف، وبذلك تزول الكثير من الاختلافات وأسباب النزاع ويعود الهدوء ليُخيّم على المجتمع الإنسانى ويعيش الإنسان فى حركته الإجتماعية بكلّ أشكال الطمأنينة والمحبّة والاخوة. إن مثل هذا التعصب الّذى يتولد مباشرة من حالة اللجاجة والتقليد الأعمى ينبع من الامور التالية: ۱- حُبّ الذات والتعلّق الشديد بالأسلاف إن الإفراط فى حبّ الذات يتسبب فى أن يتعلّق الإنسان بالامور المنسوبة إليه بشدّة ويعتبرها جزءاً من شخصيته وكيانه ومن ذلك الرابطة مع الآباء والأجداد والتقاليد المرسومة فى مجتمعه. إنّ هذا التعلّق الشديد يؤدى إلى نقل الكثير من الخرافات والقبائح إلى الأجيال الاخرى بذريعة حفظ الآداب والسنن والرسوم الإجتماعية وبالتالى فسيخلق حجاباً يصدّ الإنسان عن أيّة معرفة جديدة وارتباط بالحقائق والواقعيات. إن الدفاع الشديد عن القبيلة والعشيرة أحياناً يصل إلى درجة أن أسوأ أفراد القبيلة وأشنع الأعراف والسنن السائدة فى هذه القبيلة تتحول فى نظر الأشخاص المتعصبين إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۶ إيجابيات كبيرة وامتيازات مهمة لهذه القبيلة، فى حين أنّ أفضل أفراد القبيلة الاخرى وأسمى الآداب والسنن فى تلك القبيلة تكون هى الأسوأ والأقبح فى نظر هذا الإنسان. ۲- انخفاض المستوى الثقافى والفكرى وكلّما انخفض المستوى الثقافى للناس وعاش أفراد المجتمع فى اهتزاز على مستوى الفكر والثقافة فإنّ التعصبات الجاهلية وأشكال العناد والتقليد الأعمى ستكون حاكمة على هؤلاء الأشخاص، بخلاف إذا ارتفع المستوى الثقافى فى المجتمع وعاش الناس فى علاقاتهم المنطق والعقل والإلتزام الفكرى، فإنّ ذلك من شأنه أن ينفى التعصّب واللجاجة وتستبد حالة التقليد الأعمى بالتحقيق والدراسة والحوار الفكرى النافع للوصول إلى الحقيقة. ۳- ضعف الشخصية والعامل الآخر للتعصّب والتقليد الأعمى هو أنّ الإنسان يعيش أحياناً ضعف الشخصية بالنسبة إلى بعض الشخصيات الّذين يوحون إليه بالقداسة فى أفعالهم وأقوالهم وبذلك يصعدون عن مستوى دائرة النقد حتّى لو كان النقد علمياً وأخلاقياً، وهذا الأمر يتسبب فى أن يتبعهم بعض العوام بعيون مُغمضة وآذان صمّاء ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الدفاع عن هؤلاء الّذين يرتدون لباس القداسة الزائفة بدون أن يتفكر الإنسان فى مضمون كلامهم وبباطن أفعالهم وسلوكياتهم وآثارها على المدى البعيد. ۴- الإنزواء الإجتماعى والفكرى: والعامل الآخر من عوامل التعصّب هو أنّ الإنسان عندما ينفرد بأفكاره أو بمحيطه الإجتماعى الخاصّ وينفصل عن الجماعات الاخرى والأفكار المخالفة والمتنوعة ويعيش الجهل بالنسبة إلى سائر التيارات الفكرية والثقافية فى المجتمعات البشرية الاخرى، فإنّ ذلك من شأنه أن يُفعّل حالة التعصّب والإلتزام الشديد بما لديه من أفكار وعقائد، فى حين انه لو انفتح على الآخرين وتلاقح فكره مع أفكارهم وقارن بين هذه الأفكار من موضع استكشاف نقاط الضعف والقوّة واستجلاء العناصر الإيجابية والسلبية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۷ فى كلٍّ منها، فإنّ ذلك يقوده إلى انتخاب الأفضل منها من موقع الوضوح والإختيار الحرّ.

۲- الآثار السلبية للتعصّب والعناد

إن الآثار السلبية والنتائج المخربة للتعصّب والاصرار فى حركة حياة الإنسان المتعصّب تتجلّى فى الكثير من الموارد: ۱- إن التعصّب يعنى الإرتباط غير المنطقى بشخص معيّن أو عقيدة أو عادة أو عرف خاصّ كما سبقت الإشارة إليه، وهذا من شأنه أن يُسدل حجاباً سميكاً على عقل الإنسان وبصيرته يمنعه عن إدراك الحقائق وجوانب الخير والشرّ والمصلحة والمفسدة فى الامور وبالتالى يُحرمه من العثور على طريق للحل والنجاة. ولهذا رأينا فى الأحاديث السابقة أنّ اللجوج لا يتمتع بمديرية سليمة، ورأينا أيضاً فى حالات الشيطان انه لم يتمكن من إدراك البديهيات واوضح الحقائق بسبب تعصبه وعناده، ولذلك قطع عن رقبته طوق العبودية للّه‌تعالى فطرد من ساحة القرب الإلهى إلى الأبد. ۲- إن العصبية والعناد بمثابة النار المحرقة الّتى من شأنها تمزيق العلائق الإجتماعية فى المجتمع وتسلب

منه روح الوحدة والالفة وتنثر فيه بذور النفاق والفرقة وتقود الطاقات والقوى البنّاءة الّتى يجب أن تُصرف فى سبيل إعمار المجتمع فى حركته الحضارية باتجاه التضاد والصراع الذاتى فيما بينها، كما نقرأ هذا المعنى فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اللِّجَاجُ يُنْتِجُ الْحُرُوبَ وَيُوغِرُ الْقُلُوبَ» «۱». ۳- إن التعصّب والعناد يتسبّبان فى ابتعاد الأحبّة والأصدقاء عن الإنسان وتبديل الصداقة إلى عداوة وتضاد. ۴- إن التعصّب والعناد من الأسباب والعوامل المهمّة للكفر، وانطلاقاً من هذه الحالة نجد أن أكثر الشعوب والامم السالفة وبسبب التعصّب والعناد كانت تسير فى خطّ الباطل والكفر برسالات السماء والإمتناع عن قبول الحقّ بدافع من المحافظة على السنن البالية والتقاليد الزائفة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۸ (وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا المعنى فى تفسير الآيات السابقة). ۵- إنهما يورثان صاحبهما الألم والتعب والوقوع فى زحمة المشاكل الكثيرة، لأنهما يتسببان بالإنسان أن يعيش مدّة طويلة ولسنوات عديدة أحياناً فى حالة من الحيرة والضلال، وعندما يصل إلى طريق مسدود فإنه عند ذاك يشعر بالتعب واليأس من هذا الطريق الموحش. ومن هذا الموقع نقرأ فى الحديث الوارد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «ثَمَرَةُ اللِّجَاجِ الْعَطَبَ» «۱». ولهذا السبب فإننا نجد أنّ التعصّب غالباً ما يورث الندم كما تقدّمت الإشارة إليه فى الأحاديث السابقة. ۶- انهما يُفقدان الشخص توازنه فى اختيار الامور ويجرانه إلى مواقع لن يرغب الولوج فيها، ولهذا ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لَا مَرْكَبَ اجْمَحَ مِنَ اللِّجاجِ» «۲». ۷- وأخيراً فإنّ التعصّب واللجاجة يحوّلان حياة الإنسان فى دنياه وآخرته إلى دمار وخراب، لأنهما يورثانه فى حياته الدنيا العداوة والفرقة والاخطاء الكثيرة وفقدان الراحة والهدوء والإستقرار، وفى الآخرة يتسببان فى ابتعاده عن رحمة اللَّه، وهذا هو ما ورد فى الرواية عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «اللِّجَاجُ اكْثَرُ الْاشْيَاءِ مَضَرَّةً فِى الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» ومرّة اخرى نرى من الضرورى الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث (التعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى رغم أنّها تختلف فى دائرة المفهوم والمحتوى إلّاأنّها تتحد فى دائرة المصداق وترتبط برابطة وثيقة، وفى الإصطلاح: بينهما علاقة اللازم والملزوم، ولذلك أوردناها جميعاً فى بحث واحد. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۹ أمّا الدوافع على التعصّب واللجاجة فواضحة أيضاً، لأن أشكال التعصّب الأعمى والمخرّب ينطلق قبل كلّ شىء من الجهل بالامور، ولهذا السبب فإنّ كلّ طائفة تعيش الجهل أكثر فإنّها تعيش حالة التعصّب والتقليد الأعمى أكثر إلى درجة أنّ الإنسان على هذا المستوى غير مستعد لإيجاد التحول والتغيير نحو الأفضل فى وضعه وحالته النفسية والإجتماعية، ولذلك كانت العصبية دائماً سبباً للتخلف الحضارى والإجتماعى. وقد قرأنا فى الأخبار السابقة أيضاً ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إياك واللجاجة، فإنّ أولها جهل وآخرها ندامة». والعامل الآخر الّذى يدفع الإنسان باتجاه التعصّب واللجاج هو الأنانية وحبّ الذات، لأن الشخص الأنانى يحبّ كلّما لديه من العلائق والامور الّتى تُنسب إليه وترتبط به حتّى على المستوى الاصول والتقاليد الخاطئة والعقائد الزائفة، ولذلك قد يظهر عصبية شديدة لما عليه قومه وقبيلته من التقاليد والعقائد ويقبل ما ورثه من آبائه من السنن والمعارف من دون أىّ تحرّك فكرى واستقلال عقلى. وأحياناً يكون التقاعس وحبّ الراحة من الدوافع الاخرى الّتى تقود الإنسان للتعصّب واللجاجة، لأن الانتقال من حالة إلى اخرى يحتاج فى كثير من الأحيان إلى بذل الجهد والسعى ومواجهة الموانع والتحديات الّتى يفرضها الواقع، وأنّى للكسول والمتقاعس أن يتحرك فى هذا السبيل، ولهذا السبب نجده يتمسك دائماً بما لديه من الأفكار والعقائد والأوهام المختلفة.

۳- التعصّب الإيجابى والسلبى

هناك ثلاث مفاهيم متقاربة فى المعنى وهى: التعصّب، الحميّة، التقليد، وكلّ واحدٍ من هذه الامور تنقسم إلى: إيجابى وسلبى. أو: ممدوح ومذموم، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۰ رغم أنّ مفردة (التعصّب) ترد غالباً فى المعنى المذموم والسلبى. وبشكل عام فإنّ الإنسان إذا ارتبط بالامور غير المنطقية وتحرّك فى سلوكه من موقع قبولها والدفاع عنها فهو من التعصّب المذموم، وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم بعنوان (العصبية الجاهلية) ولكن إذا خضعت علاقة الإنسان مع هذه الامور للمنطق والعقل وكانت النتائج

المترتبة علیها مفیدة وبنّاءة وتعصّب لها الإنسان فهو من التعصّب الممدوح والإیجابی. ونقرأ فی نهج البلاغة فی الخطبة (القاصعة) لأمیرالمؤمنین علیه السلام إشارة إلی هذا المعنی حیث یقول: «فَاطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِی قُلُوبِكُمْ مِنْ نِیرَانِ الْعَصَبِیَّةِ، وَاحْقَادِ الْجَاهِلِیَّةِ، فَانَّمَا تِلْكَ الْحَمِیَّةُ تَكُونُ فِی الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّیْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ» «۱». فنجد فی هذه الخطبة انها تقوم علی أساس من ذمّ الكِبر والغرور والتعصّب واللجاجة، ویقول الإمام فی مكان آخر أیضاً: «فَانْ كَانَ لَابُدَّ مِنَ الْعَصَبِیَّةِ فَلْیَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْافْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْامُورِ الَّتِی تَفَاضَلَتْ فِیهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُیُوتَاتِ الْعَرَبِ ... فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ، مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَ الْمَعْصِیَةِ لِلْكِبْرِ، وَالْاخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْیِ» «۲». فعلیه فالإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام یشیر فی هذه الخطبة إلی (التعصّب) بكلا قسمیه، وعندما سُأل الإمام زین العابدین علیه السلام عن معنی العصبیة ذكر كلا القسمین أیضاً وقال: «الْعَصَبِیَّةُ الَّتِی یَأْثِمُ عَلَیْهَا صَاحِبُهَا انْ یَرَی الرَّجُلُ شِرَارَ قَوْمِهِ خَیْراً مِنْ خِیَارِ قَوْمِ آخِرِین! وَلَیْسَ مِنَ الْعَصَبِیَّةِ انْ یُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِیَّةِ أنْ یُعِینَ قَوْمَهُ عَلَی الظُّلْمِ» «۳». وطبقاً لهذا الحدیث فإنّ العصبیة الّتی یعیشها أفراد القوم أو القبیلة مادامت تسیر فی خطّ الخیر والصلاح فهی إیجابیة وممدوحة، لأن هذه العصبیة والارتباط الشدید لا یدفع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۱ الإنسان إلی ارتكاب الممنوعات ولا یقوده نحو الخطیئات بل یُعمق فیه أواصر المحبّة ویؤكد وشائج المودّة بین الأفراد، امّا التعصّب المذموم فهو أن یسحق العدالة والحقّ تحت قدمه من أجل قومه ویضحی بالقیم الأخلاقیة والشرعیة للحفاظ علی القیم الخرافیة والتقالید الزائفة. وورد فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً قوله «لَمْ یَدْخُلِ الْجَنَّةَ حَمِیَّةٌ غَیْرُ حَمِیَّةِ حَمْزَةِ ابْنِ عَبْدِالْمُطِّلِب، وَذَلِكَ حِینَ اسْلَمَ غَضَباً لِلنَّبِیِّ فِی حَدیثِ السِّلَا الّذی الْقِیَ عَلَی النَّبِیّ صلی الله علیه و آله» «۱». وبدیهی أن تعصّب حمزة فی الدفاع عن النبی الأكرم صلی الله علیه و آله فی مقابل المشركین الّذین یعیشون العصبیة الحمقاء والجاهلیة الزائفة لم یكن تعصّباً خارجاً عن حدود العقل والمنطق والعدالة، ولذلك فهو من التعصّب الممدوح، ولو أنّ حمزة قد سلك فی تعصبه هذا فی خط الباطل وارتكب ما یخالف الحقّ والعدالة فإنّ ذلك یقع فی دائرة التعصّب المذموم والسلبی أیضاً.

۴- التقلید البنّاء والأعمی

إن (التقلید) ینقسم كالتعصّب إلی قسمین: ایجابی وسلبی. وبعبارة أدّق، یمكن تقسیم التقلید إلی أربعة أنحاء وأشكال، ثلاثه منها سلبیة وواحد ایجابی. الأوّل: (تقلید الجاهل للجاهل) وهو أن یتحرك بعض الجهلاء والسذّج من الناس فی أفكارهم وسلوكیاتهم بدافع من تقلید طائفة اخری من الجهال ویستوحون منهم اعتقاداتهم وسننهم وتقالیدهم، فمثل هذا التقلید هو الّذی ورد الذمّ والتوبیخ علیه بشدّة فی القرآن الكریم حیث یُعد من أسباب الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۲ التعصّب واللجاجة وأحیاناً من نتائجهما المترتبة علیهما، وهذا هو العامل المهم فی انتقال الخرافات من قوم إلی قوم آخرین، وهذا هو ما تصدّی له الأنبیاء والدعاة إلی الحقّ من موقع إبطاله ودحوه. الثانی: (تقلید العالِم للجاهل) وهو أشنع أنواع التقلید، وهو أن یتحرك الإنسان بالرغم من علمه ومعرفته فی السیر فی خط الباطل ویتبع الجهلاء فی ذلك بسبب ما علق علی قلبه من حالات التعصّب الذمیم. إن مسألة (الاستعوام) واستسلام العلماء أمام أفكار الجهال والعامّة من الناس هو نوع من تقلید العالم للجاهل. الثالث: (تقلید العالِم للعالم) ویكون بصورة أن یتقاعس العالم عن البحث والتحقیق فی أمر من الامور ویستسلم للنتائج الّتی توصل إلیها عالم آخر من دون دراسة ونظر فاحص، ومن الواضح أنّ هذا النوع من التقلید مذموم أیضاً رغم انه لیس بشناعة القسم الأوّل والثانی، لأنّه ینبغی علی العلماء وأهل المعرفة فی كلّ قوم وامّة أن یبذلوا ما لدیهم من الجهود فی دائرة التحقیق والبحث العلمی فی كلّ مسألة لإستخلاص النتائج الّذی یفرضها البحث العلمی، ومع توفر الاستعداد والقابلیة للتحقیق والبحث فإنّ الاستسلام الأعمی إلی الآخرین لیس من شأن العالم، ولهذا ورد فی الفقه الإسلامی أنّ التقلید حرام علی المجتهد. وقد ورد فی التعبیرات المعروفة فی اجازات الاجتهاد هذه العبارة (یُحرم علیه التقلید)، إلّاأن یكونا متخصصین فی مجال التخصص العلمی (كالطبیب المتخصّص فی أمراض القلب مثلًا یراجع الطبیب المتخصّص بأمراض العین فی هذا المورد بالذات)

أو یرجع المتخصّص لاستاذه، فهو فی الواقع من قبیل القسم الرابع الّذی ستأتی الإشارة إلیه. الرابع: (تقلید الجاهل للعالم) بما یتعلق بعلمه، وبعبارة اخری: أن یراجع غیر المتخصص إلی المتخصص فی کلّ فن، وبعبارة ثالثة أیضاً: إن ما لا یحیط به الإنسان عِلماً علیه أن یرجع فی ذلک لأهل العلم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۳ والخِبرة لیقتبس منهم (کما فی رجوع المرضی إلی الأطباء فی الأمراض المختلفة) وهذه المسألة تُعد من الاسس والدعائم للحیاة الفردیة والإجتماعیة للإنسان. وتوضیح ذلک: أنّ العلوم والفنون والمعارف البشریة إلی درجة من السعة والکثرة بحیث إنّ کلّ واحد من البشر لا یمکنه الإحاطة بها جمیعاً، وقد کان هذا الحال من قدیم الأیّام وقد تجلّی هذا المعنی أکثر فی عصرنا الحاضر حیث تشعّبت العلوم والمعارف وتطوّرت بشکل کبیر جدّاً بحیث إنّ کلّ إنسان لا یستطیع حتّی فی الإحاطة بجمیع فروع علم واحد من العلوم کالطب مثلًا أو الهندسة فکیف الحال بالعلوم الاخری ومع هذا الحال فلا ـ مفر أمام الناس إلّابأن یرجع الجاهل منهم إلی العالم، وهذا أصل مسلّم فی حرکة الحیاة وقد بنیت علیه سیرة العقلاء فی جمیع العالم، والسیر بخلاف هذا المنهج یؤدی قطعاً إلی تخلخل مفاصل المجتمع واهتزاز أرکانه وبالتالی انحطاطه الحضاری والثقافی. وهکذا الحال فی المسائل المعنویة والأخلاقیة والعلوم الدینیة، فلا یمکن أن یتوقع من جمیع الناس أن یکونوا أصحاب فکر واجتهاد فی جمیع العلوم والمعارف الإسلامیة، فبعض هذه الفروع العلمیة إلی درجة من السعة بحیث تحتاج لدراستها والإحاطة بها إلی خمسین سنة من البحث والتحقیق (من قبیل علم الفقه). فمن الطبیعی أن یرجع الأشخاص المنشغلین عن هذه العلوم والجاهلین بها إلی العالم والخبیر بها، ولکن بالنسبة إلی اصول الدین والعقائد المذهبیة الّتی تشکّل دعائم المنظومة فی الفکر الدینی فإنّ علی کلّ إنسان أن یحیط بها بمقدار ما یمکنه ذلک منها ولا یقبل من العقائد إلّاما کان مستنداً إلی دلیل وبرهان، فالتقلید فی مثل هذه الامور غیر جائز، بل لابدّ من التحقیق والفحص وعدم قبول المعتقدات الدینیة الأساسیة إلّاعن دلیل وبرهان. وعلی أیّة حال فإنّ مثل هذا التقلید لا یُعد من القسم المذموم ولا یدخل فی دائرة التقلید السلبی بل هو مصداق قوله تعالی: «... فَاسْئَلُوا اهْلَ الذِّکْرِ انْ کُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» «۱». ولیس من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۴ قبیل قوله تعالی «... انَّا وَجَدْنَا آبَائَنَا عَلَی امَّةٍ وَانَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» «۱». وهذا لا یرتبط بمسألة التعصّب المذموم الّذی هو الدافع للإنسان إلی سلوک طریق اللجاجة والتقلید الأعمی

۵– طرق العلاج

إن الطریق لعلاج هذه الرذیلة الأخلاقیة هو کسائر علاج الرذائل الأخلاقیة الاخری فإنه یتطلب فی المرتبة الاولی الإلتفات إلی الدوافع والجذور والسعی لإزالتها من واقع الإنسان وباطنه، ومع العلم بأنّ جذور التعصّب هو ما تقدّم من الانانیة والافراط فی حبّ الذات، انخفاض المستوی الثقافی، ضعف الشخصیة، العزلة الاجتماعیة والفکریة، وأمثال ذلک. ولابدّ لإزالة هذه الصفة الرذیلة وتطهیر النفس منها من الصعود بالمستوی العلمی والثقافی للأفراد والسعی للتعرف علی الأقوام والشعوب الاخری والاطلاع علی أفکارهم وعقائدهم، وکذلک تعدیل حبّ الذات فی شخصیة الإنسان وقلع المیول والاتجاهات المضرة فی نفسه والّتی تورثه التعصّب واللجاجة والتقلید الأعمی وکذلک یجب الالتفات إلی الآثار السلبیة لهذه الحالات الذمیمة من أجل إصلاح النفس وتهذیبها وتطهیر القلب من هذه الشوائب والأدران المحیطة بها. وعندما یدرک الإنسان أنّ التعصّب واللجاجة تسدل علی فکره وعقله حجاباً وستاراً مضمراً یمنعه من إدراک الحقائق وفهم الواقعیات وکذلک من شأنه أن یمزق العلائق الإجتماعیة بین أفراد المجتمع ویبذر بذور النفاق والاختلاف والفرقة بینهم، ویُفضی إلی الشقاء والتعاسة ویورث الإنسان التعب والدرک وحتّی انه قد یؤدی به إلی الإنزلاق فی دوّامة من المشاکل لم یکن یتوقعها أبداً. فمطالعة هذه الامور من شأنها أن تقلّل من شدّة العصبیة والعناد وتساعد الإنسان فی النزول عن مرکب الغرور والتعصّب والتقلید الأعمی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۵ وأن یسلک بالتالی فی خطّ السعادة والإنصاف ویسلک المنهج العقلانی فی التفکیر والمعتقد. وأحد الامور الاخری فی طریق علاج هذه الرذائل الأخلاقیة هو تغییر شکلها ومحتواها، بمعنی أنّ الإنسان یقوم بعملیة استبدال الدوافع السلبیة بدوافع اخری ایجابیة. مثلًا: الشخص الّذی یعیش التعصّب الشدید بالنسبة إلی الامور غیر

المنطقيـة أو الخرافيـة، فبـدلًا من أن يسـعى إلى قتـل الـدافع لهـذا التعصب فى نفسه يقوم بتحويله إلى الجهـة الإيجابيـة فيتعصب للُامور الحقّة. وهذا هو ما قرأناه فى الخطبة القاصعة للإمام أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث يقول: «فإنّ كان لابدّ من العصبية فليكن تعصـبكم لمكـارم الخصال ومحامـد الأفعال ومحاسن الامور» «۱». وإذا كـان المفروض على الإنسـان أن يتعصب لشـيء فى علاقـاته وتفاعله مع الآخرين فالأفضل أن يكون تعصبه للقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

۶- التسليم مقابل الحق

النقطة المقابلة للتعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى هو التسليم مقابل الحقّ الّذى يُعد من الفضائل المهمة الأخلاقية، أىّ أنّ الإنسان يقبل بالحقّ من أىّ شـخص كان حتّى لو رآه أبعد الناس وأصـغرهم فيسلّم له. وهذه الفضيلة الأخلاقية هى السبب فى التقدّم العلمى والتطور الحضارى للبشـرية وتورث الإنسان الحصانـة من الوقوع فى الضـلالة وسـلوك طريق الباطل. ولايتحلّى بهـذه الصـفة الأخلاقية الحميدة إلّاأهل الإيمان والصالحون من الناس والّـذين يبتعـدون عن الافراط فى حبّ الذات والتعلقات القومية الذميمة ويجتنبون الميول الذاتية فى دائرة الفضـيلة والمعتقد. إن التسـليم مقابل الحقّ هو من علامات الإيمان، وسلامة الفكر والروح، وارتفاع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۶ المستوى الثقافى لدى الإنسان، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الخصلة الحميدة مخاطباً النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِـدُوا فِى انْفُسِـهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْلِيماً» «۱». ويقول فى مكـان آخر: «وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلَـا مُؤْمِنَـةٍ اذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ امْراً انْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ امْرِهِمْ» «۲». وطبعاً فإنّ التسـليم (بعنوان فضـيلة أخلاقية) يُسـتعمل على معنيين: أحدهما: التسـليم مقابل الحقّ والّذى يقع فى النقطة المقابلة للتعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى والآخر: هو التسـليم مقابـل القضاء والقـدر الإلهيين فيعيش الإنسان فى حالـة الشـكر والرضا بما قسم اللّه ولا يعيش السـخط والكفران. وموضع البحث فى هذا الفصل هو ما يتعلق بالمعنى الأوّل، امّا المعنى الثانى فسوف يأتى الكلام عنه فى بحث (الرضا والتسليم). ۱۰ و ۱۱

الجُبن والشجاعة

تنويه:

ومـن الرذائـل الأخلاقيـة الاـخرى فى منظومـة القيـم هى صـفة (الجُبن) والخـوف غير المنطقى والّـذى يـورث الإنسـان الذلّـة والمهـانة والسقوط ويحطّ من قدر صاحبه ويتلف طاقاته ما كان منها بالفعل أو بالقوة ويفضى به إلى أن يتسلط عدوه عليه. والنقطة المقابلة لهذه الصـفة الذميمة هى (الشـجاعة) والشـهامة والجرأة والّتى تُعد مفتاحاً للنصر والفلاح فى حركة الإنسان الإجتماعية وعنصر العزّة والعظمة للمجتمع البشرى سواءاً فى ميدان الحرب والجهاد أو فى ميدان السياسة والاجتماع وحتّى فى الميادين العلمية فإنّ الشجاعة تُعتبر مفتاحاً للورود إلى هـذه الميادين، ومن هذا المنطلق نجد أنّ علماء الأخلاق أطنبوا فى ذكر هاتين الصـفتين (الجبن والشـجاعة) وبيّنوا أسـبابها ونتائجها وآثارها على حياة الفرد والمجتمع. وورد فى كتب القدماء من علماء الأخلاق أنّ الشجاعة هى أحد الأركان للفضائل الأربعة، وبالمقابل ذكروا الجبن باعتباره أحـد الرذائل الأربع أيضاً. وورد فى سـيرة الأنبياء العظام واتباعهم الحقيقيين ما يجسد هذه الصـفة وأنّ هؤلاـء العظمـاء كـانوا مظهراً من مظـاهر الشـجاعة واسـطورة للمقاومـة والتصـدى للباطـل وقـوى الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۸ الانحراف وخير قدوة لجميع الناس فى هذا الطريق. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى دروساً فى هذه الفضيلة الأخلاقية وما يترتب من الآثار السـلبية على صـفة الجبن أيضاً. ۱- نقرأ فى قصـة إبراهيم عليه السـلام قوله تعالى: «وَلَقَـدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَا هِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْـلُ وَكُنَّا بِهِ عَـالِمِينَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُواْ وَجَـدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِـدِينَ* قَالَ لَقَـدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَـلالٍ مُّبِينٍ* قَـالُواْ أَجِئْتَنَـا بِـالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللّـاعِبِينَ* قَـالَ بَـل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى

ذَلِكَم مّنَ الشَّاهِدِينَ* وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكَم بَعْدَ أن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ* فجعلهم جُذاذًا إلّاكبيرًا لَّهُمْ لَعلَّهُم إلَيهِ يَرْجعُونَ» «۱». ۲- وبالنسبة إلى موسى بن عمران عليه السلام نقرأ قوله تعالى: «يَامُوسَى لَاتَخَفْ إنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ» «۲». ۳- ونقرأ عن طالوت وجنوده الشجعان: «... فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَاطَاقَةَ لَنَا ا لْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ اللَّهِ كَم مّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ا لْقَوْمِ ا لْكَافِرِينَ» «۳». ۴- وبالنسبة إلى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والفئة الشجاعة من المؤمنين معه وكذلك من يدّعى الايمان نقرأ قوله تعالى: «وَإذْ قَالَت طَّآئفَةٌ مّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأذِنُ فَرِيقٌ مّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلَّا فِرَارًا* ... وَلَمَّا رَأى ا لْمُؤْمِنُونَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۹ ا لْأَحْزَابَ قَالُواْ هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَآ زَادَهُمْ إلَّا إيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «۱». ۵- ونقرأ فى مكان آخر قوله تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إلَّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مّنْ عِندِهِ أو بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إنَّا مَعَكُم مُّتَرَبّصُونَ» «۲». ۶- وحول جماعة من انصار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ا لْوَكِيلُ* ... إنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطنُ يُخَوّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» «۳». ۷- «الَّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلَّا اللَّهَ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۴».

تفسير واستنتاج:

الأنبياء والشجاعة

تتحدّث «الطائفة الاولى من الآيات محل البحث عن شجاعة النبى إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد مقابل عبدة الأصنام من قومه الّذين كانوا يعيشون التعصّب واللجاجة والخشونة، وتشير الآيات إلى هذا النبى العظيم وكيف انه تصدّى لأقوى سلطة فى تلك الفترة لوحده ومن دون أن يكون له ناصر من قومه، فى مقابل كثرة الأعداء الغاضبين والذين كانوا يمثلون خطراً عليه حيث كانوا يتمتعون بدعم الحكومة والسلطة فى ذلك الزمان. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۰ وقد عبّرت الآيات الكريمة عن ذلك بقولها: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إبْرَا هِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» «۱». وفى الواقع فإنّ اللَّه تعالى قد وهب لإبراهيم مؤهّلات كثيرة تمنحه القدرة على تحمّل تلك المسؤولية العظيمة والاستفادة من هذه المواهب والقابليات فى خطّ تقوية دعائم الإيمان والتوحيد والتصدّى للعامل الأساس فى شقاء البشرية، أى عبادة الأصنام والأوثان، وكما سيأتى فى سياق هذه الآيات الشريفة أنّ إبراهيم ابتدأ أوّلًا بدعوة عمّه آزر للإيمان بصراحة اللهجة وتمام القوّة وقال له: «مَا هذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ». وعندما أجابه آزر بالقول: «قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِدِينَ». فأجابه إبراهيم عليه السلام: «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ». إنّ آزر لم يكن يصدّق لحدّ الآن أنّ إبراهيم سوف يتصدى بهذه الصراحة والجدّية لمقاومة هذه الأصنام الّتى يعبدها الجميع ولذلك سأله: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللّاعِبِينَ». ولكن إبراهيم عليه السلام أجابه أنّه جادٌّ فى كلامه هذا وقال: «قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مّنَ الشَّاهِدِينَ». ثمّ أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ» «۲». وهكذا ترجم إبراهيم عليه السلام قوله فى ميدان العمل بعد أن استغلّ الفرصة المناسبة لذلك، فكسّر الأصنام جميعها إلّاالصنم الأكبر لعلّهم يثوبون إلى رُشدهم أو يرجعون الى الصنم الاكبر المسبب لهذه الحادثة ليسألوه كما تقول الآية: «فجعلهم جُذاذًا إلّاكبيرًا لَّهُمْ لَعلَّهُم إلَيهِ يَرْجِعُونَ» «۳». وهناك اختلاف بين المفسّرين فى مرجع الضمير فى قوله (إليه) فى ذيل الآية، وقد أورد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۱ المفسّرون احتمالات عديدة، فذهب البعض إلى أنّه يعود إلى (كبيرهم) أىّ يرجعون إلى الصنم الكبير ويسألونه عن سبب تحطّم وانهدام هذه الأصنام والسبب فى نجاته هو من بينهم، وطبيعى أنّ هذا الصنم سيعجز عن الجواب، ومن هنا يتضّح لهم خواء معتقدهم. والاحتمال الآخر هو أنّ الضمير يعود إلى (إبراهيم) يعنى أنّ الوثنيين يرجعون إلى إبراهيم ويسألونه عن الدافع الّذى حمله على هذا التصرّف، فيوضّح لهم الحقائق (وطبعاً فى هذه الآية

تكون جملة (إلّا كبيراً لهم) عديمة التأثير فى مفهوم الآية بخلاف الاحتمال السابق). الاحتمال الثالث: أن يعود الضمير إلى اللَّه تعالى، أى أنّ مشاهدة ضعف هذه الأصنام وذلتها فى مقابل إنسان واحد سيؤدى إلى أن يثوب الوثنيون إلى رشدهم ويتركوا عبادة الأصنام ويتجهوا إلى اللَّه تعالى ويسلكوا خطّ العبادة والتوحيد. (وهذا التفسير أيضاً يرد عليه الإشكال السابق). ولكن الأنسب من الجميع لسياق الآيات هو التفسير الأوّل. وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ أحد الفضائل الأخلاقية للأنبياء اولى العزم هو شجاعتهم المنقطعة النظير، وأنّهم لم يكونوا يشعرون بالخوف إلّافى دائرة الإيمان باللَّه تعالى وفى مقابل الذات المقدسة، وفى هذا الطريق لم يكونوا يعيشون التردّد والخوف والضعف بأى شكل من الأشكال، وبالتالى فهم منزّهون ومطهَّرون عن حالة الجُبن والخوف الّذى يُعد رذيلة أخلاقية كبيرة، ولهذا نجد إبراهيم عليه السلام وهو يتصدّى لجماعات الوثنيين وقوى الانحراف والأعداء الشرسين لوحده وينتصر عليهم أخيراً، ولاشكّ أنّ الأنبياء العظام لو كانوا يعيشون حالة الخوف والجُبن فى حركة الحياة فإنّهم لم يكونوا قادرين على أداء مهمّتهم الرسالية والإنتصار على الأعداء. وتتحرك «الآية الثانية» من موقع توجيه الخطاب للنبى موسى بن عمران، وذلك لمّا نزل عليه الوحى لأول مرّة وقد صدر له الأمر بأن يُلقى عصاه الّتى تحوّلت بإعجاز إلهى إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۲ ثعبان عظيم، فخاف موسى من هذه الظاهرة العجيبة وقرّر الفرار، إلّاأنّ الخطاب الإلهى جاءه ليعلّمه أوّل درس أخلاقى تجاه الحوادث وقال: «يَامُوسَى لَاتَخَفْ إِنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ» «۱». ونظراً إلى أنّ جميع أنحاء العالم هى فى محضر اللَّه تعالى وإن كلّ زاوية من زوايا الكون هى محلّ حضور ذاته المقدسة وعلمه وقدرته، ولذلك على المؤمنين أن لا يخافوا بأيّة حال وفى كلّ الظروف بل عليهم أن يعيشوا حالة التوكل على اللَّه تعالى ويواجهوا تحديات الواقع بشجاعة وشهامة، ويسيروا بهذه الروح المعنوية فى خطّ الرسالة وتحقيق الأهداف المقدسة. وطبقاً لما ورد فى سورة القصص فى الآية (۳۱) أنّه قيل لموسى «يَا مُوسَى اقْبِلْ وَلَا تَخَفْ انَّكَ مِنَ الْآمِنِين». فشعر موسى بهذا الخطاب الإلهى بالطمأنينة والسكينة تدغدغ أعماق قلبه واستعاد قوته ورباطة جأشه، وهنا جاءه النداء الإلهى يحمل دستوراً أكبر وأهم، وهو أنّ لاـ يكتفى بعدم الخوف من هذا الثعبان العظيم بل يجب أن يتجه إليه ويأخذه بيده حتّى يعود إلى حالته الاولى! «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْاولَى» «۲». ومن المعلوم أنّ هذا العمل كان يمثل لموسى الصعوبة البالغة، ولكنه نجح أخيراً فى الإمتثال والإذعان لهذا الأمر الإلهى. أجل فإنّ على موسى أن يستوعب التجربة الكبيرة فى محضر الذات المقدّسة ليقف أمام ثعبان أكبر وأخطر من هذا، أى فرعون والملأـ من قومه وحكومته الجبارة الّتى يجب أن يأخذها موسى منهم كما يأخذ عصاه. الكثير من المفسّرين ذهبوا فى تفسير كلمة (جان) فى الآية أعلاه تعنى صغار الحيّات الّتى تهجم على الشخص بسرعة، فى حين أنّه فى مكان آخر تتحدّث الآيات عن عصى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۳ موسى الّتى ألقاها أمام الفراعنة بكلمة (ثعبان) بمعنى الحيّة العظيمة، ولهذا السبب فقد احتمل البعض أنّ العصى فى بداية أمرها تبدّلت إلى حيّة صغيرة وتدريجياً تحوّلت إلى ثعبان عظيم. وذهب آخرون إلى أنّ (العصا) تبدلت إلى حيّة عظيمة، ولكنها من جهة سرعة الحركة فهى كالحية الصغيرة السريعة. والملفت للنظر أنّ جملة (لا تخف) وردت فى القرآن الكريم تسع مرّات، وفى خمسة موارد كان المخاطب فيها موسى بن عمران، ولعلّ ذلك بسبب أنّ موسى كان يعيش بين أعداء كثرة وشديدى الخطورة كفرعون وهامان والملأ، ويجب أن يعد العدّة بمثل هذا الخطاب الإلهى لمواجهة هؤلاء الأعداء. وتستعرض «الطائفة الثالثة» من الآيات الكريمة قصة (طالوت) وقومه من بنى إسرائيل والّذى انتخبه نبيّهم فى ذلك الوقت (إشموئيل) بعنوان قائد جيش بنى إسرائيل لمواجهة (جالوت) وجيشه الظالم. وعندما أراد طالوت مواجهة جالوت وقتاله قام بعملية اختبارية لجيشه ليطهره من الشوائب وضعفاء النفوس والجبناء، الّذين قد يُفضى وجودهم فى جيشه إلى سريان الجبن والضعف فى سائر مفاصل جيش بنى إسرائيل. أجل فعندما كان جيش طالوت يشعر بالعطش الشديد وصلوا إلى نهر، فأراد طالوت أن يختبر جنوده العطاشى هناك وقال: كلّ من يشرب من هذا الماء فليس منّا، وامّا من قاوم العطش ولم يشرب إلّارشفات فهو منّا، ولكن أغلب أفراد الجيش الّذين كانوا من الجبناء وضعفاء النفوس لم ينجحوا فى هذا الامتحان والاختبار وشربوا من الماء إلّاعدة قليلة بقوا أوفياء لطالوت، فهؤلاء كانوا يعيشون روح الشجاعة والقوّة والبسالة حيث قالوا فى دعائهم: «... رَبَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ اقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۴ وهكذا أنزل اللّه تعالى نصره وعنايته ورحمته على هذه الفئة القليلة من المؤمنين ونصرهم على جيش جالوت العظيم ببركة شجاعتهم وثباتهم فى مواجهة التحدّيات والاختبارات الصعبة. ونقرأ فى «الآيات التالية» أنّ القرآن الكريم يتحدّث عن جبن طائفة من المنافقين وضعفاء الإيمان فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفى حرب الأحزاب، ويتحدّث كذلك عن شجاعة بعض المؤمنين الحقيقيين وثبات قدمهم فى مواجهة الأعداء الشرسين حيث تقول الآية: «وَإِذْ قَالَت طَّآئفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» «۱». وطبعاً فإنّ ميدان القتال فى معركة الأحزاب كان يغص بجيوش الأعداء وكثرة عددهم وعُدتهم بحيث يستوحش من هذا المنظر الرهيب كلّ الأشخاص الّذين يعيشون الاهتزاز فى شخصيتهم والخوف والرعب فى واقعهم. ولكن كما تقول الآية (۲۲) من هذه السورة أنّ المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يعيشون الطمأنينة والثقة بوعد اللّه إزدادوا إيماناً: «وَلَمَّا رَأَى ا لْمُؤْمِنُونَ ا لْأَحْزَابَ قَالُواْ هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَآ زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «۲». واللطيف انه يُستفاد من بعض الروايات أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أجاز للمنافقين وضعفاء الإيمان والجبناء بأن يعودوا إلى المدينة، لأن بقائهم فى تلك الظروف العصيبة مع جيش الإسلام لا ينفع شيئاً سوى بث الرعب والضعف والتخاذل فى قلوب الآخرين. ولهذا السبب نقرأ فى الآية (۴۷) من سورة التوبة فى حديثها عن جماعة من هذه الطائفة: «لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا». ومعلوم أنّ كلمة (خَبَل) و (خبال) تعنى الإضطراب والترديد الناشيء من ضعف العقل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۵ وعدم القدرة على اتخاذ الموقف والعزم على شيء، وكلّ ذلك ناشيء من الخوف والجُبن الّذى يقود الإنسان إلى ارتباك الفكر وعدم التوازن فى اتخاذ الموقف. وفى «الآية الخامسة» نواجه منظراً جديداً من شجاعة أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، الشجاعة الّتى تنطلق من موقع الإيمان باللّه تعالى، حيث أنّ هؤلاء المؤمنين يرون أنفسهم فى ميدان الحرب على مفترق طريقين وكليهما يؤدّيان بهما إلى الجنّة ورضا اللّه تعالى: طريق يؤدى إلى الشهادة وبالتالى السعادة العظمى فى الحياة الآخرة، والآخر يقودهم إلى النصر على العدو، وهو أيضاً مبعث الفخر والاعتزاز لهم فى الدنيا والآخرة، فى حين أنّ العدو محكوم بالهزيمة والخسران بأيّة حال، فإما الموت الذليل والمهين فى هذه الدنيا، أو عذاب اللّه فى الآخرة. وبديهى أنّ الشخص الّذى يعيش هذه الرؤية فإنه سوف لا يدع أىّ خوف وضعف يتسرّب إلى قلبه، وبذلك يتخلّص الإنسان من هذه الرذيلة الأخلاقية الكبيرة، وفى ذلك تقول الآية: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَو بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ» «۱». وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ العامل الأساس لانتصار المسلمين فى حروبهم الحاسمة فى ذلك العصر هو الشجاعة المنطلقة من الإيمان باللّه والمنطق الرصين: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ». وتأتى «الآية السادسة» لتستعرض وجهاً آخر من شجاعة هؤلاء المؤمنين فى معركة احد، ونعلم أنّ المسلمين فى معركة احد قد أصابتهم الهزيمة النكراء بسبب غفلة طائفة من المسلمين الطامعين بحطام الدنيا الّذين تركوا مواقعهم الحسّاسة واشتغلوا بجمع الغنائم، وهكذا اصيب المسلمون فى هذه المعركة بخسائر كبيرة، وطبقاً لما ورد فى التواريخ أنّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۶ الأعداء المنتصرين فى أثناء عودتهم من ميدان القتال إلى مكّة ندموا على رجوعهم هذا واتفقوا مرّة اخرى أن يعودوا إلى المدينة ليستفيدوا من هذه الفرصة الثمينة ويُجهزوا على الإسلام والمسلمين ويتخلّصوا منهم إلى الأبد. فعندما سمع نبى الإسلام بذلك اتخذ موقفاً مهماً جداً، حيث أمر جيش الإسلام بالخروج لمواجهة جيوش الأعداء ولم يستثن أحداً من المسلمين حتّى من به جراحة بسبب المعركة الدامية الّتى جرت قبل قليل. هذا الأمر النبوى اثّر أثره بشكل كبير وأحلّ الرعب والخوف والاضطراب فى صفوف الأعداء بحيث إنهم رجّحوا الاكتفاء بالانتصار النسبى والعودة إلى مكّة على الهجوم الثانى على المسلمين، وهكذا تخلّص المسلمون من شرّهم. والآية محل البحث تشير إلى هذا المعنى وتثنى على شجاعة المسلمين وتقول: «الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ا لْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» «۱». ثمّ تتحدث عن إيمانهم وشجاعتهم واصفة حالتهم المتماسكة فى مقابل الارهاب الاعلامى للأعداء الّذى يتحرك من موقع التهويل والتخويف وتقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ا لْوَكِيلُ» «۲». وهذه هی الحادثة الاولی من نوعها فی تاریخ الحروب البشریة حیث لم یشاهد فی تاریخ البشریة أنّ المجروحین یعودون فوراً إلی میادین القتال لیساهموا فی دفع خطر الأعداء، أجل إن هذه الشجاعة والشهامة الفریدة هی التی اجهضت مؤامرة العدو، وهذا الحضور القوی والسریع إلی المیدان هو الّذی زرع الیأس فی قلبه. وعلی أیة حال فإنّ واقعة «حمراء الأسد» کانت ظاهرة عجیبة بدّلت حلاوة النصر لدی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۱۷ قریش إلی مرارة، وبیّنت لهم أنّ المسلمین بالرغم من هزیمتهم بسبب زیغ جماعة منهم، إلّا أنّهم مازالوا ثابتین فی المیدان وأنّ علی العدو أن یتوقع ضربات المسلمین فی المستقبل. وبهذا أثرت هذه الواقعة لیس فقط فی التصدی إلی هجوم الأعداء ودفع الخطر، بل فی وضع الأساس لانتصارات لاحقة، وتطهیر ما علق فی النفوس من آثار سلبیة للانتکاسة فی احد، ومنح المسلمین الأمل فی حیاتهم الجدیدة بالتوکل علی اللَّه تعالی. ویستفاد من الآیة الشریفة أعلاه أنّ عملیة الارهاب الاعلامی الّذی قام به بعض الشیاطین لبث الرعب والخوف فی قلوب المسلمین من جیوش قریش، لیس فقط لم یؤثر فی زعزعة إیمانهم وثقتهم باللَّه تعالی وبالإسلام، بل إزداد إیمانهم واشتدت ثقتهم باللَّه وتوکلهم علیه، کلّ ذلک کان بسبب أنّهم کانوا یعیشون الثقة بوعد اللَّه وصدق النبی الأکرم وأنّهم لو عملوا بارشادات النبی فی واقعة احد فإنّ النصر سیکون حلیفهم لا محالة. ومن عجائب هذه الواقعة هو أنّ النبی صلی الله علیه و آله أمر المسلمین الّذین اشترکوا فی احد فقط بالحضور إلی حمراء الأسد دون غیرهم، لکی یفهم العدو أنّ جیش المسلمین فی احد مازال قویاً رغم وجود الکثیر من الجرحی فی صفوفه، وما زال مستعداً للقتال دون ضعف وفتور رغم استشهاد العدید من ابطاله وأفراده، وهذا هو الّذی أخاف الأعداء وزرع الخوف والقلق فی قلوبهم. ونقرأ فی الآیات اللاحقة وفی الآیة ۱۷۵ من هذه السورة إشارة للتفاوت بین الأفراد الّذین یعیشون الخوف والجبن وبین المؤمنین الّذین یعیشون الشجاعة والتوکل، حیث تقول الآیة: «إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». ونستوحی من هذه الآیة الشریفة أنّ مثل هذا الخوف یتّسم بصفة شیطانیة والغرض منه تضعیف روحیة المؤمنین واهتزاز معنویاتهم واتخاذ موقف انفعالی أمام تحدیات الظروف وبالتالی التهرب من ضغط المسؤولیة والتکلیف، والحال أنّ المؤمنین الحقیقیین لا یشعرون بالخوف إلّامن اللَّه تعالی. وطبقاً لهذه العبارات الواردة فی الآیة الشریفة فإنّ الجبن یمتد فی جذوره إلی عناصر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۱۸ الشر فی واقع الإنسان فی حین أنّ الشجاعة تسترفد مقوماتها من عنصر الإیمان وتعدّ من معطیاته وثماره، لأن المؤمن وبالتوکل علی اللَّه القادر المطلق یری نفسه منتصراً فی جمیع المیادین. أما الأشخاص الّذین یعیشون الاهتزاز فی إیمانهم ویعتمدون علی قدراتهم الذاتیة فإنّهم منهزمون علی أیة حال لما یروا من محدودیة قدراتهم وهزال امکاناتهم، ولذا یستولی علیهم الخوف والاضطراب أمام تحدیات الواقع ومشکلاته المتزایدة. لقد تکاتفت قوی الشر والانحراف فی واقعة «حمراء الأسد» لإظهار قوّة جیش قریش وتفخیمها بأکبر حجم لإخافة المؤمنین والقاء الرعب فی قلوبهم، إلّاأنّ القرآن الکریم یقرر أنّ أولیاء الشیطان واتباعه هم الّذین یتأثرون بهذه المظاهر الخدّاعة، بینما یعیش أولیاء اللَّه الثبات والاستقامة فی خط الحقّ والرسالة «۱». وتنطلق «الآیة السابعة» والأخیرة من الآیات مورد البحث للتذکیر بهذه الحقیقة، وهی أنّ إحدی صفات المبلّغین الرسالیین هی طهارتهم من رذیلة الجبن والخوف من غیر اللَّه تعالی، وتقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۲». إن تبلیغ الرسالة الإلهیة من أهم وظائف الأنبیاء والمرسلین، وهذا لا یتسنی إلّابخلو النفس من أیة شائبة من شوائب الخوف والجبن والتردد. هذه الآیة الشریفة الناظرة إلی الأنبیاء الماضین تحذّر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بالدرجة الاولی، واتباعه المخلصین بالدرجة الثانیة من مغبة الشعور بالخوف والتردد حین إبلاغ الرسالات السماویة وأنّ علیهم أن لا یخشون أحداً إلّااللَّه تعالی، ومفهوم هذا الخطاب الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۱۹ القرآنی هو أنّ الأشخاص الجبناء والّذین یعیشون الخوف والتخاذل فی الموقف غیر لائقین لتولی هذه المهمة وأداء هذه الرسالة. وذهب بعض المفسرین إلی أنّ هذه الآیة تدلّ علی أنّ الأنبیاء الإلهیین لا ینبغی لهم استعمال التقیة، ولکن هذا الرأی إنما یکون صحیحاً إذا فسّرنا التقیة بمعناها السلبی من الخوف والخشیة من المخالفین، والحال أنّ التقیة لا تستوحی مقوماتها من الخوف دائماً، بل قد تکون بدافع من الحرص علی جذب المخالفین إلی سواء السبیل وإیصال الناس

إلى الغايات الإلهيّة بصورة تدريجية، ولعلّ قول إبراهيم عليه السلام «هذا ربى» أمام الوثنيين من قومه كان من هذا القبيل (فتأمل).

النتيجة النهائية:

تبيّن من خلال استعراضنا لجملة من الآيات الكريمة أهمية الشجاعة والشهامة فى حركة الإنسان المؤمن، ودور هذه الفضيلة الأخلاقية فى صياغة مصير الإنسانية على المستوى المادى والمعنوى، وكذلك تبيّن فى الجهة المقابلة الآثار السلبية لرذيلة الجبن وعواقبها السيئة على حياة الإنسان. وصحيح أنّ هذه الآيات الكريمة لم تفصل البحث عن الشجاعة والجبن بصورة مستقلة وبشكل مباشر، إلّاأنّها أشارت إلى دور هذه المفاهيم الأخلاقية فى حياة الإنسان بشكل ضمنى وببيان دقيق وجميل.

الجبن والخوف فى الروايات الإسلامية:

اشارة

ونقرأ انعكاساً واسعاً فى الأحاديث الشريفة لهذه الرذيلة الأخلاقية من موقع الذم والتحذير الشديد من الاتصاف بها، من قبيل: ۱- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً وَلَا حَرِيصاً وَلَا شَحِيحاً» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۰ ويستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ «الخوف» و «الحرص» و «البخل» لا تنسجم مع روح الإيمان، لأنّ المؤمن يتوكل فى جميع اموره على اللَّه تعالى، ومن كان يملك مثل هذا الأساس المتين فى حركة الحياة لا يمكن أن يعيش الخوف ولا البخل ولا الحرص، لأنّه يعيش الأمل برحمة اللَّه وفضله فلا يتعلق قلبه بشيء من حطام الدنيا. ۲- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْجُبْنُ وَالْحِرْصُ وَالْبُخْلُ غَرَائِزُ سُوءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ» «۱». وهذا الحديث فى الحقيقة بيان آخر لما ورد فى الحديث السابق حيث يبيّن الجذور الأصلية لهذه الصفات الرذيلة. ۳- وقد نهى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام اتباعه من استشارة الجبناء لأن خوفهم يؤثر فى صياغة الرأى ويبعده عن جادة الصواب: «لَا تُشْرِكَنَّ فِي رَأْيِكَ جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْامْرِ وَيُعَظِّمُ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ» «۲». ونفس هذا المعنى ورد فى عهد الإمام لمالك الاشتر بشكل آخر حيث نهى الإمام على مالك الاشتر عن مشورة البخلاء والجبناء والحريصين. ۴- وهذا الموضوع إلى درجة من الأهمية بحيث إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر بعدم اشتراك الأفراد الجبناء فى أى جهاد ضدّ المشركين لئلّا يُضعفوا معنويات الآخرين، فقال: «مَنْ احَسَّ مِنْ نَفْسِهِ جُبناً فَلَا يَغْزُ». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يوضّح الحديث أعلاه ويقول بصراحة: «لَا يَحِلُّ لِلْجَبَانِ انْ يَغْزُو، لِانَّهُ يَنْهَزِمُ سَرِيعاً وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ مَا كَانَ يُرِيدُ انْ يَغْزُوَ بِهِ فَلْيُجَهِّز بِهِ غَيْرَهُ» «۳».

۱- الخوف المعقول وغير المعقول

لاشكّ أنّ المراد من الجبن والخوف هنا ليس هو الجبن المعقول والخوف المنطقى بل يقع فى دائرة اللامعقول واللامنطقى، وتوضيح ذلك: إن الخوف من الامور الّتى تتضمن الخطر واقعاً هى أحد الحالات الروحية والطبيعية فى الإنسان وأحد المواهب والنعم الإلهية الكبيرة، وانه لولا هذه الحالة تجاه الخطر فإنّ الإنسان لايشعر بالخوف إذا واجهه الخطر حيث يفقد حياته سريعاً، وهذا هو ما ورد فى كلمات علماء الأخلاق باسم (التهوّر) فى مقابل الخطر والّتى هى صفة ذميمة من قبيل أن يعبر الشخص الشارع المزدحم بالسيارات بدون أن ينظر يميناً أو يساراً ولا يحاذر من الخطر، فمثل هذا الشخص سيتعرض للحوادث الخطرة الّتى سرعان ما تؤدى بحياته. مثل هذا النوع من الخوف فى حياة الإنسان اليومية، وهكذا فى موارد الخوف من تناول الأطعمة المشكوكة أو الخوف فى دائرة المسائل السياسية والاقتصادية وغيرها، يُعتبر خوفاً منطقياً، ويتسبب فى نجاة الإنسان من الأخطار الّتى تهدد حياته فى حركة الحياة والواقع. أمّا الخوف المذموم فهو أن يخاف الإنسان من المظاهر والعناصر الّتى لا تستبطن خطراً فى حدّ ذاتها، بل يتصور الخطر الموهوم فيها،

فیخاف من کلّ خطر وهمی وکلّ عدوٍ خیالی ویخاف من کلّ شـیء حتّی من خیاله، مثل هذا الإنسان یعیش حالة التردّد فی کلّ عمل یرید الاشتراک به مخافة عدم نجاحه فی ذلک العمل وبالتالی یمنعه هذا الخوف من تصعید طاقاته وقابلیاته ویعیش التخلف والکسل والفشل والذلّة والمهانة. إن هذه الحیاة الدنیا فی حقیقتها میدان للصراع مع الموانع والمشکلات والأخطار الموجودة دائماً فی مفاصل وزوایا هذه الحیاة، ومالم یواجه الإنسان هذه الأخطار والموانع من موقع الجرأة ویستعد بجدّیة لمقابلتها فإنه لا یوفَّق فی حیاته. والغالب إننا لا یمکننا تحقیق النجاح والنصر فی کلّ عمل نعمله أو نضمن عدم وجود الخطر فیه، فهذا من الخیال المحال وهو من الأوهام الزائفة، وهنا یتجلّی الدور المهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۲ للشجاعة والشهامة فی واقع الإنسان تجاه التحدّیات الصعبة، وتتجلّی کذلک الآثار السلبیة لرذیلة الخوف والجبن أیضاً. إن کلّ مزارع یحتمل الجفاف والأمراض الزراعیة الّتی تصیب مزرعته، وکلّ تاجر یحتمل تغیّر الأسعار وتحوّل أوضاع السوق، وکلّ مسافر یحتمل وقوع الحوادث الخطرة فی الطریق، وفی کلّ عملیة جراحیة یُحتمل وجود الخطر، فإذا عملت هذه الاحتمالات علی منع الإنسان من القیام بشاطاته الحیاتیة فلابدّ أن یجلس الإنسان جانباً ولا یقدم علی أی عمل من الأعمال بل ینتظر الموت فقط. ومن المعلوم أنّ الإنسان فی مثل هذه الموارد یجب أن یتوقع الأخطار الجدّیة ثمّ یضع لها ما یقابلها من العلاجات والحلول ویتجنّب التهوّر وإلقاء نفسه بالتهلکة، ولکن فی نفس الوقت لا ینبغی للاحتمالات الموهومة واللامعقولة الّتی تکتنف العمل دائماً أن تکون مانعة له من الإقدام علی سلوک هذا الطریق. وهذا هو أفضل تعریف لمسألة الشجاعة بعنوانها صفة من الصفات الأخلاقیة الفاضلة، والخوف بعنوانه من الصفات الأخلاقیة الرذیلة. وقد ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الحسن المجتبی علیه السلام فی تعریف الجبن قوله: «الْجُرْأَةُ عَلَی الصَّدیقِ وَالنُّکُولُ عَنِ الْعَدُوّ» «۱». ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام أنّه قال فی جوابه علی سؤال عن الشجاعة: «مُوَافِقَةُ الْاقْرانِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الطَّعانِ» «۲». القرآن الکریم یقول أیضاً فی إحدی آیاته: «وَلَا تُلْقُوا بِایْدِیکُمْ الَی التَّهْلُکَةِ» «۳». ویقول فی مکان آخر فی وصف المؤمنین: «... اشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ ...» «۴» ولا یخالجهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۳ خوف موهوم فی هذا الطریق. إنّما تقدّم آنفاً یوضح جیداً أنّ الشجاعة هی الفضیلة الّتی تقع فی الحدّ الوسط بین (التهوّر) و (الجبن).

۲- الآثار السلبیة للجُبن فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة

ویترتب علی هذه الصفة الرذیلة آثار سلبیة کثیرة فی حیاة الإنسان والّتی تُعد من الأسباب والعوامل المهمة فی فشله وذلّته. إننا نقرأ الکثیر عن حالات الشعوب والامم علی طول التاریخ البشری، ونقرأ أنّ الکثیر منها رغم امتلاکها لوسائل القوّة والمنعة من العُدة والعدد، إلّاأنّها کانت تعیش الذلّة والمهانة والأسر لسنوات طویلة، ولکن بمجرد أن ینبری من بینها قائد شجاع وشهم یتخطّی بها صفوف التقدّم والنهضة ویُعبّی طاقاتها وأفرادها فی سبیل الکرامة والتقدّم فإنّها سرعان ما تنفض عن نفسها رداء الذلّة والمهانة والتخلف وترتقی إلی أوج العزّة والعظمة. إن شجاعة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی مختلف موارد سیرته العملیة من هجرته إلی المدینة وموقفه فی بدر واحد والأحزاب وسائر الغزوات الاخری یُعد من أهمّ العوامل لانتصار المسلمین وتقدّمهم السریع، ولهذا ورد فی الأحادیث الإسلامیة عن الإمام علی قوله: «الشُّجَاعَةُ عِزٌّ حَاضِرٌ وَالْجُبْنُ ذُلٌّ ظَاهِرٌ» «۱». ویقول فی مکان آخر أیضاً: «الشُّجَاعَةُ نَصْرَةٌ حَاضِرَةٌ وَفَضِیلَةٌ ظَاهِرَةٌ» «۲». وأحد الآثار السلبیة الاخری لهذه الرذیلة الأخلاقیة هو أنّها تمنع الإنسان من التصدی لکثیر من الأعمال والنشاطات المهمة، لأن هذه الأعمال الکبیره تقترن عادة مع مشاکل کبیرة أیضاً وتتطلّب رجالًا یقفون أمام هذه المشکلات والموانع من موقع الشجاعة والجرأة، فلا یتسنّی للشخص الجبان أن یخوض فی اطار هذه الأعمال إطلاقاً. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۴ وعلیه فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص وعلی فرض حصولهم علی بعض الموفقیّة المحدودة والتافهة فی الحیاة فإنّهم یعجزون عن التصدّی للأعمال المهمة علی المستوی الاجتماعی والتغییر الإصلاحی الّذی یحتاجه الناس. وهذه المسألة من الأهمیة إلی درجة أنّ الإسلام نهی عن المشورة مع الجبناء والّذین یعیشون حالة الخوف والرعب الوهمی فی دائرة مدیریة المجتمع والأعمال المهمة فی عملیة التغییر

والإصلاح الإجتماعى، لأن هؤلاء من شأنهم أن يقرأوا آية اليأس فقط وبذلك يُحبطوا عزم المدراء الموفَّقين ويثبطوا من إرادتهم القوية. وكما رأينا أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام يوصى مالك الأشتر فى عهده المعروف ان لا يستشير أحداً من الجبناء لئلّا يُصاب بالضعف والإحباط ويقول: «لَا تَدْخُلَنَّ فِي مَشْوِرَتِكَ ... جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْامُورِ» «۱». ويقول فى مكان آخر أيضاً: «وَيُعَظِّمُ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ».

۳- دوافع الجُبُن

۱- ضعف الإيمان وسوء الظنّ باللّه، لأن الشخص الّذى يعيش الإيمان باللّه والثقة به وينطلق فى حياته من موقع التوكل والأمل برحمة اللّه ولطفه والتصديق بوعده، مثل هذا الشخص سوف لا يذوق طعم الذلّة والمهانة والضعف ولا يتردد أو يخاف أمام الحوادث الصعبة ولا يهتز لتحديات الواقع الثقيلة، وهذا هو ما ورد فى عهد أميرالمؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر حيث يقول: «انَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزٌ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ». ۲- الشعور بالحقارة وضعف الشخصية لدى الفرد، ولهذا نجد انه كلّما كانت شخصية الإنسان نافذة وقوية وشعر الإنسان معها بالكرامة واحترام الذات فإنّ ذلك ممّا يزيد فى شجاعته وشهامته، ولذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «شِدَّةُ الْجُبْنِ مِنْ عَجْزِ النَّفْسِ وَضَعْفِ الْيَقِينِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۵ ۳- (الجهل وقلّة المعرفة) حيث تسبب للإنسان غالباً الخوف الموهوم، كما نرى فى خوف الإنسان من الأشخاص أو الحيوانات الّتى لا يعرفها على وجه الدقة ولكن عندما تتضح له الصورة ويتعرف عليها تذوب حالة الخوف فى نفسه تدريجياً. ۴- (طلب الراحة والعافية) يُعد أحد الأسباب للخوف المذموم، لأن الشجاعة تتطلب الخوض فى دوّامة المشكلات واللاملائمات لكى يتسنّى للإنسان أن يخرج منها منتصراً، وهذا المعنى لا يتلائم ولا ينسجم مع مزاج من يطلب الراحة والعافية. ۵- إن دروس الحوادث المُرة والمؤلمة قد يتسبّب غالباً فى أن يعيش بعض الناس حالة الخوف والرعب، لأن هذه الحوادث المرة تترسخ فى أذهانهم وتمتزج بالخوف الّذى قد يستمر بالإنسان إلى آخر حياته ولا يمكنه التخلّص منه إلّابعض العلاجات النفسية. ۶- إن الإفراط فى سلوك طريق الحذر من شأنه أن يورث الخوف أيضاً أو هو عامل من عوامل ايجاد الخوف فى النفس، لأن مثل هذا الإنسان يتوقى كلّ ما يحتمل فيه الخطر، وهذا يؤدى به إلى أن يعيش حالة التردد والخوف من الإقدام. ۷- وممّا لا ينبغى إنكاره أنّ الحالة الروحية والمزاجية والبدنية للأفراد أيضاً مؤثرة فى بروز هذه الحالة السلبية، فترى بعض الأشخاص وبسبب ابتلائهم بضعف الأعصاب أو ضعف القلب يخافون من كلّ شىء، فى حين يشعرون فى نفس الوقت بالتنفر من هذه الحالة والإمتعاض لوجودها فى واقعهم ولكنهم لا يستطيعون التخلّص منها. هؤلاء يقولون: أنّ الخوف المتسرب فى أعماقنا ليس باختيارنا بل نجده مفروض علينا، ولكن الصحيح أنّ هذه الحالة قابلة للعلاج أيضاً.

۴- طرق العلاج والوقاية

إن أحد الطرق الأصلية لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية، كما فى سائر الرذائل الاخرى، أن يتفكر الإنسان من جهة فى آثارها السلبية وعواقبها الوخيمة على المستوى الفردى والاجتماعى للإنسان، فعندما يطالع الشخص الجبان والّذى يعيش حالة الخوف والرعب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۶ من كلّ إقدام مثمر، الآثار السلبية للخوف الموهوم وما يترتب عليه من ذلّة وحقارة وتخلف وحرمان من الكثير من مواهب الحياة فى حياته أو حياة الآخرين، فإنه سيتحرك فى الغالب لتجديد فكرته ونظرته عن هذه الحالة ويسعى لتطهير نفسه منها. ومن الطرق المهمة الاخرى فى عملية العلاج هو السعى إلى قطع دوافع وجذور هذه الرذيلة من واقع النفس، فعندما تزول السحب المظلمة لسوء الظنّ باللّه من سماء القلب، وتشرق شمس التوكل على اللّه فى أجواء الروح الإنسانية، فإنّ ظلمات الخوف الموهوم ستزول بسرعة عن النفس البشرية، ولكن قد يحتاج هذا الأمر إلى مطالعة ودقّة أكثر. ومن الطرق الاخرى للعلاج هو

أن یتورّط الإنسان فی المیادین المثیرة للخوف والوحشة ویعمل علی إقحام نفسه مرات عدیدة فی مثل هذه المیادین والأجواء المثیرة، وعلی سبیل المثال فعندما یجد الإنسان نفسه یخاف من تناول الدواء أو زرق الابر فعلیه أن یقحم نفسه مرّات عدیدة فی مثل هذه الأعمال کیما تزول حالة الخوف. والبعض الآخر یستوحش من السفر فی السفینة أو الطائرة، ولکن تکرار مثل هذه السفرات من شأنه أن یزیل الخوف منه. وبعض الناس یجد حالة التردد والخوف فی نفسه عند حضوره أمام الآخرین أو عند إلقائه لمحاضرة أو کلمة أمام الجمع، ولکن هذا الخوف والتردّد یزول غالباً بتکرار مثل هذه الأعمال. وأحد أهداف التمرینات العسکریة والمناورات الّتی تُجریها الحکومات لجیوشها وقواها العسکریة هو إزالة آثار الخوف من قلوب أفراد الجیش من الحروب. ونجد هذا المعنی بصورة جمیلة ورائعة فی الکلمات القصار لأمیرالمؤمنین علیه السلام حیث یقول: «اذَا هَبْتَ امْراً فَقَعْ فِیهِ، فَانَّ شِدَّةَ تَوَقِّیهِ اعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ» «۱». ویقول العلّامة المرحوم الخوئی فی شرحه لنهج البلاغة عند شرح هذه العبارة: «کثیراً ما یستوحش الإنسان من بعض الامور بسبب جهله وجبنه فیمنعه ذلک الخوف من نیل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۷ الموفقیة فی الحیاة، وهنا الإمام علیه السلام یحرضه علی خلع حالة الجبن عن نفسه لأن تحمل ضغط هذه الحالة قد یکون فی کثیر من الحالات أشد علی الإنسان من التورط فی ذلک الأمر المخوف». ثمّ یضیف: «إن المخترعین والمکتشفین فی العالم نالوا أوسمة الفخر بالعمل بهذه التوصیة الحکیمة، حیث توغلوا إلی أعماق الغابات الاستوائیة والصحاری الأفریقیة وخاضوا لجج البحار ووصلوا إلی الجزر البعیدة وحصلوا علی ثروات طائلة وشهرة عظیمة مضافاً إلی ما قدّموا إلی البشریة من علم ومعرفة لا یستهان بها» «۱». وقد ورد فی المثل المعروف: «امُّ الْمَقْتُولِ تَنَامُ وَامُّ المُهَدَّدِ لَاتَنَامُ». وقیل أیضاً: «کُلُّ امْرٍ مِنْ خَیْرٍ أَوْ شَرٍّ فَسِمَاعُهُ اعْظَمُ مِنْ عَیَانِهِ» «۲». وأحد الطرق الاخری لعلاج حالة الجبن والخوف هو أن یعیش الإنسان بطُهر ونقاء من شوائب الرذیلة والأعمال الذمیمة، لأن الأشخاص الملوّثین یخافون غالباً من نتیجة أعمالهم، وبما أنّ نتیجة هذه الأعمال سوف تتجلّی إلی الملأ یوماً من الأیام فإنّهم یعیشون حالة الخوف فی أنفسهم، ولذلک ورد فی الحدیث المعروف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «مَا اشْجَعُ الْبری وَاجْبَنَ الْمُرِیبُ» «۳». ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَیَّزَتِ الْاشْیَاءُ لَکَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَکَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْکِذْبِ» «۴».

۵- معطیات الشجاعة فی حیاة الإنسان

والنقطة المقابلة لصفة الجبن الرذیلة، هی الشجاعة والشهامة والجرأة علی الخوف فی الأعمال المهمة کما تقدّمت الإشارة إلیه ضمن حدیثنا عن الجبن والخوف، فکلّ واحد من هاتین الصفتین المتقابلتین تتضح بدراسة ما یقابلها من الحالات الأخلاقیة، فمعرفة مفهوم الجبن لا تتسنّی بدون معرفة مفهوم الشجاعة، وکذلک العکس فإنّ من العسیر أن ندرک مفهوم الشجاعة بدون أن نُحیط علماً بمفهوم الجبن والخوف. وبهذا نری من اللازم ولغرض تکمیل الأبحاث السابقة أن نتحدث أکثر عن صفة الشجاعة وآثارها الایجابیة ومعطیاتها فی حرکة الحیاة وخاصة من وجهة نظر الأخبار والأحادیث الإسلامیة: ۱- ما ورد فی عهد الامام علی علیه السلام لمالک الأشتر (والّذی یُعدّ أشمل دستور إلهی وسیاسی) فی عملیة إدارة الحکومة فی موارد متعددة أنّ أمیرالمؤمنین علیه السلام أشار إلی هذه المسألة، فیحذّر فی أحد الموارد مالک الأشتر من المشورة مع الأشخاص الجبناء والّذین یعیشون حالة الخوف والحرص والبخل. ویقول فی مکان آخر بالنسبة إلی قادة الجیش (أو المعاونین والموظفین والمسؤولین): «ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِی الْمُرُوآتِ وَالْاحْسَابِ وَاهْلِ الْبُیُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ثُمّ اهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخاء وَالسَمَاحَةِ، فَانَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْکَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ» «۱». وهنا نجد أنّ الإمام یری أنّ صفة الشجاعة والشهامة تُعد من الاصول الأساسیة والقیم الأخلاقیة المهمة للإنسان المدیر والمدبّر وخاصة علی مستوی قادة الجیش أو المسؤولین الکبار فی الحکومة. ۲- ویقول هذا الإمام فی حدیث آخر: «الشَّجَاعَةُ زَیْنٌ، الْجُبْنُ شَیْنٌ» «۲». ۳- وورد عن هذا الإمام الهُمام قوله فی حدیث آخر: «السَّخَاءُ وَالشَّجَاعَةُ غَرَائِزُ شَرِیفَةٌ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۹ یَضَعُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِی مَنْ احَبَّهُ وَامْتَحِنْهُ» «۱». ۴- وورد عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی ذکره لفضائل أهل بیته أنّه ذکر سبع صفات

وأحدها الشجاعة. وفى حديث آخر ذكر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فضائله وفضائل أهل بيته فى كلمتين، وأحد هاتين الفضيلتين هى الشجاعة. ۵- ونقرأ فى حديث ليلة المبيت (وهى الليلة الّتى بات فيها الإمام على عليه السلام على فراش النبى صلى الله عليه و آله فى ليلة الهجرة إلى المدينة) أنّه عندما حاصر المشركون بيت النبى صلى الله عليه و آله ليلًا، ثم هجموا فى الصباح الباكر إلى داخل الدار رأوا علياً نائم فى فراش النبى، فقال أبو جهل: أما ترون محمداً كيف أبات هذا و نجا بنفسه لتشتغلوا به وينجو محمد، لا تشتغلوا بعلى المخدوع لينجو بهلاكه محمد .... فقال على عليه السلام: «أَلِى تَقُولُ هذا يا أَبا جَهل؟ بَلِ اللَّهُ قَدْ أَعطانِى مِنَ العَقلِ ما لُو قُسِّمَ عَلى جَميع حُمَقاء الدُّنيا وَمَجانِينِها لَصارُوا بِهِ عُقلاء، وَمِنَ القُوَّةِ ما لَو قُسِّمَ عَلى جَمِيع ضُعَفاءِ الدُّنيا لَصارُوا بِهِ أَقوياء، وَمِنَ الشَّجَاعَةِ مَا لَوْ قُسِّمَ عَلَى جَمِيعِ جُبَنَاءِ الدُّنْيَا لَصَارُوا بِهِ شَجْعَاناً» «۲». ۶- ونقرأ فى الخطبة المعروفة للإمام زين‌العابدين فى الشام أنّ هذا الإمام ابتدأ خطبته التاريخية بقوله: «ايُّهَا النَّاسُ: اعْطِينَا سِتاً وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ اعْطِينَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالسَّمَاحَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» «۳». ۷- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام (رغم وجود أحاديث كثيرة فى هذا الباب) قال: «الْغِيرَةُ الشَّدِيدَةُ عَلَى حَرَمِكَ، وَالسَّخَاءُ، وَحُسْنُ الْخُلْقِ، وَصِدْقُ اللِّسَانِ وَالشَّجَاعَةُ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۰ ويتبين من الأحاديث المذكورة آنفاً وكذلك الآيات والروايات الكثيرة فى هذا الباب أهمية هذه الفضيلة الأخلاقية وقيمتها من بين القيم الإنسانية الرفيعة الّتى يراها الإسلام فى مجمل تعاليمه الأخلاقية والإنسانية. وممّا يجدر ذكره هو أنّ (الشجاعة) لها معنىً واسع وتمتد لمساحات شاسعة من السلوكيات الإنسانية، والشجاعة فى ميدان الحرب والقتال هو أحد فروعها ومصاديقها، ومنها الشجاعة فى ميدان السياسة، وفى المسائل العلمية وإبداع النظريات الجديدة المنطقية والاختراعات العلمية، والشجاعة فى مقام القضاء والحكم وأمثال ذلك، فكلّ واحدٍ منها يعد من فروع هذه الشجرة الأخلاقية والصفة الكريمة للإنسان، ولذلك نقرأ فى بعض الروايات «الصَّبْرُ شَجَاعَةٌ» «۱». وورد فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام قوله: «اشْجَعَ النَّاسِ اسْخَاهُمْ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَيَّزَتِ الْاشْيَاءُ لَكَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَكَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْكِذْبِ» «۳». فهذه الأحاديث الشريفة تقرر فى كلّ واحد منهما فرعاً من فروع الشجاعة الّتى تندرج تحت المفهوم العام لهذه الكلمة. ۱۲

ضعف النفس والتوكل على اللَّه

تنويه:

وردت الإشارة فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة والروايات الإسلامية وكذلك سيرة الأنبياء والأولياء والصالحين وفى كتب علماء الأخلاق وأرباب السير والسلوك إلى مسألة «التوكل» بعنوان أنّها من الفضائل الأخلاقية المهمة الّتى لا يتسنّى للإنسان الوصول إلى مقام القرب الإلهى بدونها. والمراد من التوكل هو: تفويض الامور إلى اللَّه والاعتماد على لطفه، لأن (التوكل) من مادّة (وكالة) بمعنى اختيار الوكيل والاعتماد عليه فى تسيير الامور، وبديهى انه كلّما كان الوكيل يتمتع بقدرة أكبر واحاطة علمية أكثر فإنّ الشخص الموكل يشعر فى قرارة نفسه بالهدوء والسكينة أكثر، وبما أنّ اللَّه تعالى وقدرته لا محدودة، فعندما يتوكل الإنسان عليه يشعر بالطمأنينة والسكينة تدغدغ قلبه وتنفذ إلى أعماق روحه، فتمنحه القدرة على التصدى للمشكلات والحوادث الصعبة، وأن لا يعيش الخوف من الأعداء والأخطار المختلفة، ولا يرى نفسه فى مأزق فى حركة الحياة، فيسير بالتالى بقلب مطمئن وبطريق مفتوح متجهاً صوب أهدافه ومقاصده. الإنسان الّذى يعيش التوكل على اللَّه لا يشعر إطلاقاً بالحقارة والضعف بل يرى نفسه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۲ وبالإعتماد على لطف اللَّه وعلمه وقدرته المطلقة منتصراً وناجحاً فى حياته الفردية والاجتماعية، وحتّى أنّه لو اصيب بالفشل أحياناً فإنّ ذلك لا يفرض عليه اليأس والقنوط. وعندما يتجلّى مفهوم التوكل بمعناه الصحيح فى واقع الإنسان وعلى سلوكياته فإنّ ذلك من شأنه أن يثير الأمل فى القلب ويبعث على تقوية الإرادة وتحكيم دعائم المقاومة والشجاعة. إنّ مسألة التوكل لها دورٌ

مهم فی حیاة الأنبیاء الإلهیین، فعندما نستعرض الآیات القرآنیة فی هذا الباب نجدها تشیر إلی أنّ هؤلاء الأنبیاء واجهوا سلسلة الحوادث والمشکلات المدمّرة والعظیمة بسلاح التوکل علی اللَّه، وکانت أحد الأسباب المهمة لانتصارهم وتغلّبهم علی هذه المشکلات هو کونهم یتمتعون بهذه الفضیلة الأخلاقیة. وبهذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته دروساً من سیرة الأنبیاء الإلهیین فی مسألة التوکل ودورها المهم فی حیاتهم العملیة وذلک بالترتیب: (نبدأ من نوح علیه السلام وننتهی إلی نبی الإسلام صلی الله علیه و آله). ۱- «وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ یَاقَوْمِ إِنْ کَانَ کَبُرَ عَلَیْکُم مَّقَامِی وَتَذْکِیرِی بِآیَاتِ اللَّهِ فَعَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَکُمْ وَشُرَکَآءَکُمْ ثُمَّ لَایَکُنْ أَمْرُکُمْ عَلَیْکُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَیَّ وَلَا تُنظِرُونِ» «۱». ۲- «إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَرَبِّکُم» «۲». ۳- «رَّبَّنَآ إِنِّی أَسْکَنتُ مِن ذُرِّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُواْ الصَّلَوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَا تِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ» «۳». ۴- «إِنْ أُرِیدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِیقِی إِلَّا بِاللَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَإِلَیْهِ أُنِیبُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۳ ۵- «وَقَالَ یَابَنِیَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَا حِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَا بٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِی عَنکُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَیْءٍ إِنِ الْحُکْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَعَلَیْهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ» «۱». ۶- «وَقَالَ مُوسَی یَاقَوْمِ إِن کُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُواْ إِنْ کُنتُم مُّسْلِمِینَ* فَقَالُواْ عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ» «۲». ۷- «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَیْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَی ا لْقَوْمِ ا لْکَافِرِینَ» «۳». ۸- «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِیَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ» «۴». ۹- «وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَکَّلَ عَلَی اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَی مَآ ءَاذَیْتُمُونَا وَعَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ» «۵». ۱۰- «... وَمَن یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ...» «۶».

تفسیر واستنتاج:

معطیات التوکل فی حیاة الأنبیاء

عندما نطالع القرآن الکریم فی اطار حدیثه عن سیرة الأنبیاء نلاحظ أنّ القرآن یستعرض من صفات الأنبیاء الإلهیین صفة (التوکل) بعنوان ابرز ظاهرة وصفة تتجلّی فی سیرة الأنبیاء علی طول التاریخ، حیث نجدهم یعیشون روح الاعتماد علی اللَّه والتوکل علیه فی مقابل المصاعب والمشاکل الجمّة الّتی یواجهونها فی خطّ الرسالة والدعوة إلی اللَّه، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۴ وأنّهم کانوا لا یرتبطون بأیّ شیء برابطة الاعتماد والتعلق سوی بالقدرة المطلقة للذات المقدسة. ونبدأ من النبی نوح علیه السلام: «الآیة الاولی من الآیات محل البحث تستعرض حیاة نوح مع قومه المتعصّبین والمعاندین حیث واجههم بکلّ شجاعة ودعاهم بالکلام الهادئ والمتّزن والمنطقی من موقع الاعتماد علی اللَّه والتوکل علیه، فتقول الآیة الشریفة مخاطبة نبی الإسلام: «وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ یَاقَوْمِ إِنْ کَانَ کَبُرَ عَلَیْکُم مَّقَامِی وَتَذْکِیرِی بِآیَاتِ اللَّهِ فَعَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَکُمْ وَشُرَکَآءَکُمْ ثُمَّ لَایَکُنْ أَمْرُکُمْ عَلَیْکُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَیَّ وَلَا تُنظِرُونِ» «۱». فما هو العامل الّذی دفع بنوح مع قلّة المؤمنین من حوله إلی التصدی لکلّ قوی الانحراف والأعداء المعاندین من قومه بهذه الشهامة والشجاعة والسخریة من قوّتهم وعدم الاهتمام بقدراتهم وبمخططاتهم وبأوثانهم؟ وبالتالی فقد وجّه إلیهم ضربة قاصمة علی المستوی الروحی والنفسی. أجل لم یکن هذا العامل سوی الإیمان باللَّه والتوکل علیه، والعجیب أنّ نوح لم یکتف فقط بمواجهتهم من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام بقدراتهم ومعبوداتهم بل دعاهم إلی مبارزته وشجّعهم علی مواجهته، أجل فمثل هذا الإظهار للقوّة واستعراض العضلات لا یتسنّی فی الحقیقة إلّامن المتوکلین. ونظراً إلی أنّ سورة یونس الّتی تستبطن هذه الآیة محل البحث، مکیة، فإنّ اللَّه تعالی أراد من المسلمین فی مکّة أن یلتفوا حول نبی الإسلام صلی الله علیه و آله کالفراش الّذی یدور حول المصباح ویُظهروا من أنفسهم القوّة والقدرة أمام الأعداء الشرسین وأن لا یعیشوا الخوف والرعب من هذه القدرات الموهومة مقابل قدرة اللَّه ومشیئته. وعبارة (شرکائکم) یمکن أن تکون إشارة إلی الأصنام الّتی جعلوها شریکة للَّه‌تعالی، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۵ وقد ورد هذا التعبیر أیضاً فی موارد اخری کثیرة من القرآن الکریم. أو یکون المراد منه هو أتباعکم وأصدقائکم وأعوانکم، أی اجمعوا جمیع قواکم وقدراتکم لتتحرکوا بها فی التصدی لی ولمواجهتی. وتأتی «الآیة الثانیة» للتحدث علی لسان النبی هود الّذی

عاش بعـد عصـر نوح عليه السـلام وقـد هـدّده قومه الوثنيّون بالموت، ولكنه انطلق من موقع القوّة والتوكل على اللَّه وقال لهم بصـراحة كما تقول الآيهٔ: «... قَالَ إِنّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنّى بَرِىءٌ مّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونِ* انّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ» «۱». واللطيف أنّ هود لم يكتف بعدم الاهتمام والاعتناء بقوى مخالفيه من عبّاد الأوثان وقدراتهم ومؤامراتهم بل انه سعى لتحريكهم وإثارتهم للتصدى له ومواجهته لكى يثبت لهم أنّ قلبه وروحه يرتبطان بقوهٔ أخرى وانه بالتوكل على اللَّه تعالى لا يعيش فى نفسه أىّ شـعور بالخوف من مؤامراتهم مهما عظمت قوتهم واشـتدت قـدرتهم، وهـذا يـدلّ على أنّ التوكل على اللَّه يقود الإنسان إلى حيث المواقف الشـجاعهٔ والبطوليهٔ والسير فى خطّ الاسـتقامهٔ والحقّ. فما أعجب أن يقف رجل واحد بمفرده أو مع القليل من أصحابه مقابل هذه الكثرهٔ الكاثرهٔ من قوى الانحراف والأعداء الأشداء مثل هذا الموقف البطولى ويتحرك فى مواجهته لهم من موقع الاستهزاء بتهديـداتهم والسـخريهٔ بمؤامراتهم!! أجل فإنّ هـذه من معطيات الإيمان والتوكل على اللَّه فى حياهٔ الإنسان. وقـد ذكر أحد المفسّـرين القـدماء وهو (الزجاج) أنّ هـذه الآيـهٔ تعـد من أهم الآيات الّتى تتحـدّث عن الأنبياء العظام والّتى اسـتعرضت فيها قصـهٔ نبى من الأنبياء يقف هـذا الموقف البطولى فى مقابل جماعات كثيرهٔ من مخالفيه ويتحدّث معهم مثل هذا الحديث الشـجاع، ومثل هذا التعبير ورد فى قصـهٔ نوح عليه السـلام وكـذلك فى الحـديث عن سيرهٔ النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أيضاً. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۶ والجـدير بالـذكر أنّ القرآن الكريم وبعـد هـذه الآيـهٔ يتحدّث عن أنّ هود عليه السـلام خاطب قومه المعاندين بخطاب من موقع العقل والاستـدلال وقال: «مَا مِنْ دَابَّةٍ الَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» «۱». ثمّ أضـاف: إن قـدرهٔ اللَّه تعالى ليست بالقـدرهٔ الّتى توحى لصاحبها بالغرور والإـنحراف عن خطّ الحقّ بل «انَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم». وعليه فأنا أعتمـد على من قـدرته مطلقـهٔ وافعاله عين الصواب والعدالـهٔ. وتأتى «الآيهٔ الثالثهٔ» لتشير إلى جانب من سيرهٔ النبى إبراهيم عليه السـلام وتوكّله على اللَّه فى أحلك الظروف وأصعب الحالات الّتى يواجهها الإنسان وتقول: «رَّبَّنَآ إِنّى أَسْكَنتُ مِن ذُرّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلوا ةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مّنَ الثَّمَرَا تِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۲». فلو لم يكن ايمان إبراهيم كالجبل الشاهق، ولم يكن له قلب كالبحر المتلاطم، ولم يكن يعيش التوحيد والتوكل فى أعلى مراتبه، فهل يمكنه كإنسان طبيعى أن يسكن زوجته وابنه الحبيب فى صحراء قاحلهٔ ومحرقهٔ بلا ماءٍ ولا كلاء ليس لشـىء إلّاامتثالًا لأمر اللَّه تعالى ثمّ يعود من هناك إلى وطنه الأصـلى؟ هذه الحادثهٔ العجيبهٔ تذكرنا بحادثهٔ اخرى فى سيرهٔ إبراهيم عليه السـلام العظيم، وهى عندما وضعه مخالفوه وأعداؤه المعاندون فى قفص الإتهام بسبب تحطيمه أصنامهم، فكان إبراهيم على وشك أن يُقتل ولكنه مع ذلك لم يترك السـخريهٔ من أصنامهم وعقائدهم الزائفهٔ وكان ينطلق فى حواره معهم من موقع المنطق والـدلائل القويـهٔ فى عمليـهٔ إبطال منطقهم الخرافى وإثبات زيف مـدّعياتهم الواهيـهٔ. «الآيهٔ الرابعهٔ» تشـير إلى قصهٔ شـعيب عليه السـلام الّذى جاء بعد فترهٔ من النبى هود عليه السلام وقُبيل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۷ موسى عليه السلام، حيث وقف مقابل المشـركين من قومه وتصدّى لعقائدهم وتهديداتهم ومؤامراتهم من موقع الاسـتهزاء والسخريهٔ، وكان يقول لهم فى حكايته عن دعوته ورسالته السـماويهٔ: «... إنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» «۱». أجل فأنا لا أخاف من شـىء لاعتمـادى على إيمـانى بـاللَّه والتوكـل على ذاته المقدسـهٔ وسأستمر فى خـطّ الرسالـهٔ والـدعوهٔ إلى اللَّه والإصـلاح مـا أمكننى ذلك وبالاتكال على اللَّه. والجـدير بالـذكر أنّ شـعيب ولغرض تنفيـذ عمليـهٔ الإصـلاحات الواسـعهٔ الّتى كان يتحرّك باتجاهها فى مجتمعه الفاسـد كـان يعتمـد على ثلاـث دعـائم: الاولى: تهيئـهٔ المقـدّمات للعمل من قبل اللَّه تعالى حيث تشير إلى ذلك كلمـهٔ «توفيقى»، ثمّ بالإنطلاـق من عزم راسـخ وارادهٔ قويـهٔ بالشـروع بالعمل والإصـلاح، وذلك بقوله «عليه توكلت»، ثمّ أن تكون للإنسان المصلح دوافع سليمهٔ وبنّاءهٔ للقيام بعمليهٔ الإصـلاح، وهو ما أشار إليه بقوله (إليه انيب). وتتحرّك «الآيهٔ الخامسهٔ» لتسـتعرض لنا كلام يعقوب لأولاده، ويعقوب هو الجدّ الأعلى لبنى إسـرائيل والّذى كان يعيش فى مضـيقهٔ شديدهٔ فى ذلك الزمان، فمن جههٔ فقد ابنه العزيز يوسف، ومن جهـهٔ اخرى كان يعيش القحط الشديـد فى كنعان الّذى أصاب الناس فى تلك المناطق، فكانوا يواجهون التحديات والظروف الصـعبهٔ بسـبب ذلـك، وبالتـالى وجـد نفسه مجبراً على أن يودع ابنه الآـخر (بنيامين) بيـد ابنائه الآخرين الّذين كانوا يعيشون الجفاف الروحى

والعاطفی، وذلک لغرض تحصیل القوت والطعام من أرض مصر ویحصلوا علی المساعدة من عزیز مصر، وهنا أوصی یعقوب ابناءه المتجهون إلی مصر بقوله: «وَقَالَ یَابَنِیَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَا حِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَا بٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ...» «۲». ثمّ أضاف: اننی بهذه التوصیة لا أستطیع أن أصُدّ عنکم البلاء أو أمنع عنکم ما قدّر اللَّه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۸ لکم، «... وَمَآ أُغْنِی عَنکُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَیْءٍ إِنِ الْحُکْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَعَلَیْهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ» «۱». وعلی هذا الأساس فإنّ یعقوب أوصی أولاده بوصایا خاصة لمقابلة الحوادث المتوقعة، ولکنه أکد علیهم أنّه بهذه التوصیة لا یستطیع أن یقف مقابل الحوادث أو یضع تدبیراً حاسماً لجمیع المشکلات والمصاعب الّتی سیواجهونها فی سفرهم هذا، بل انّ علیه أن یضع ما یمکنه من الحلول والتوصیات، وأمّا الباقی فیجب أن یتوکلوا علی اللَّه تعالی. وبهذا فإنّ یعقوب فی الحقیقة قد أوصاهم بالتوکل علی اللَّه، وقد ذکر الدلیل والسبب فی تأکیده علی هذا المعنی، وهو انّ جمیع الامور بید اللَّه تعالی: «إِنِ الحُکْمُ الّا للَّه». إذن فینبغی علی الإنسان أن یعیش التوکل والاعتماد علی هذه القدرة المطلقة والّتی لا توجد أیة قدرة اخری فی مقابلها فی عالم الوجود. ومن الواضح أنّ المراد بکلمة (الحکم) هنا هو (الحکم التکوینی) للَّه‌تعالی فی عالم الخلقة والّتی تعود جمیع الأسباب لدیه ولیست ناظرة إلی الحکم التشریعی. (فتأمل). وتتعرض «الآیة السادسة» إلی ما جری بین موسی علیه السلام وقومه بنی إسرائیل، وذلک عندما أظهر موسی دعوته الإلهیة وأبرز معجزاته العظیمة ولکن مع ذلک لم یؤمن به جمیع بنی إسرائیل بل آمن به واتبعه جماعة منهم، فی حین انّ بنی إسرائیل کانوا مستضعفین بأجمعهم من قبل الفراعنة وکانوا یعیشون الخوف وشدّة العذاب من قبل فرعون وقومه، فعندما نری أنّ زوجة فرعون وبسبب اعلانها الإیمان بموسی علیه السلام قد وضعت تحت طائلة العذاب الشدید من قبل زوجها فرعون، فمن الواضح ما کان تعامل فرعون مع سائر بنی إسرائیل، ولهذا السبب فإنّ موسی بن عمران ولغرض ایجاد حالة من الطمأنینة والهدوء النفسی فی قومه وإزالة عنصر الخوف والرعب المسلّط علیهم أمرهم بالتوکل علی اللَّه، «وَقَالَ مُوسَی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۹ یَاقَوْمِ إِن کُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُواْ إِنْ کُنتُم مُّسْلِمِینَ» «۱» وهذا یعنی انکم لا یمکنکم التصدی لمثل هذا الحاکم الجائر ومواجهته من موقع القوّة والخلاص من شرّه إلّابالتوکل علی اللَّه تعالی. ومن البدیهی أنّ موسی علیه السلام نفسه کان فی مرتبة متقدمة من هذا الأمر من حیث تجسیده لمعنی التوکل فی ممارساته العملیة، ولو لم یکن یتمتع بمقام التوکل فکیف یستطیع وهو راعٍ للأغنام بدون أن یتمتع بأیة قدرة ظاهریة مواجهة أعتی قوّة وحکومة فی ذلک الزمان؟ وهکذا لبّی المؤمنون من بنی إسرائیل نداء موسی علیه السلام «فَقَالُواْ عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا ...» «۲». ثمّ توجّهوا إلی اللَّه تعالی وقالوا: «... رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ» «۳». والمقصود من (فتنة) فی الآیة الأخیرة هو ما قد یتعرضون له من التعذیب والتنکیل علی ید أزلام فرعون، وقد وردت هذه الکلمة فی سورة (البروج) فی مورد أصحاب الأخدود، وکذلک فی الآیة ۸۳ من هذه السورة مورد البحث والّتی أشرنا إلیها سابقاً. ویُحتمل أنّ المراد من (الفتنة) فی کلا الموردین هو عملیة الإنحراف عن خطّ التقوی والطاعة والإیمان، لأن الفراعنة لو تسلّطوا علی المؤمنین لرأوا ذلک دلیلًا علی حقانیّتهم ولاستمروا فی طریق الإنحراف بأقدام ثابتة وعزم راسخ أکثر من السابق. وتستعرض «الآیة السابعة» فی إطار الحدیث عن الأزمنة الّتی تلت عصر موسی علیه السلام حیث کان بنو إسرائیل یعیشون العناء والظلم علی ید سلطان جبّار یُسمّی (جالوت)، فکان أن اضطروا إلی اللجوء لنبی لهم یُدعی (إشموئیل) وطلبوا منه أنّ یُعیّن لهم قائداً یقود جیوشهم نحو مواجهة جالوت والتخلّص منه واستعادت أراضیهم وبیوتهم منه، فعیّن إشموئیل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۴۰ طالوت ملکاً وقائداً علیهم والّذی کان شاباً قویاً وعارفاً بالامور ولائقاً لهذا المقام من کلّ جهة، ولکن بنی إسرائیل رفضوا الإذعان لهذا التعیین، ثمّ قبلوا به أخیراً بعد أنّ بیّن لهم نبیّهم الخصوصیات والممیزات الفریدة فی طالوت. أمّا طالوت فقد اختبر جیشه بعدّة اختبارات لیهیئهم أکثر من الناحیة النفسیة والروحیة لجهاد العدو. والآیة مورد البحث تتحدّث عن الفترة اللاحقة لذلک حیث تستعرض منظر الواقعة بین طالوت وجیشه من جهة، وجالوت وجیشه العظیم من جهة اخری، وتقول: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَیْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَی ا لْقَوْمِ ا لْکَافِرِینَ» «۱». فصحیح أنّ جیش طالوت کان یعانی القلّة فی أفراده بالنسبة لجیش جالوت الجرار وما یتمتعون به من سلاح وامکانات حربیة واسعة، ولکن الشیء الّذی أخلّ بالموازنة وأربَکَ المعادلة لصالح

المظلومين من بنى إسرائيل وبالتالى كتب لهم النصر والغلبة على عدوهم القوى هو الإيمان باللّه والتوكل عليه ومواجهة العدو من موقع الصبر والاستقامة فى طريق نصرة الحقّ. ولهذا السبب فإنّ الآية الّتى تليها تُصرح بهذه النتيجة الباهرة وتقول: «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ». وبديهى أنّ حالة الصبر والاستقامة هى السبب فى ثبات القدم ورسوخ المواقع، وثبات القدم سببٌ لتحقيق النصر، ولهذا ورد ذكر هذه الامور الثلاثة بالترتيب فى دعائهم المذكور فى الآية الشريفة، ومعلوم أنّ روح هذه الامور الثلاثة تكمن فى الإيمان والتوكل على اللّه تعالى. وتأتى «الآية الثامنة» لتتحدّث عن نبى الإسلام ومقام توكله على اللّه تعالى، فعندما كان يواجه المشكلات والضغوط الصعبة فى حركته التبليغية علّمه اللّه تعالى كيف يتغلب على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۱ هذه المشكلات الكبيرة وقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» «۱». وهذه الآية توضّح جيداً أنّ الإنسان مهما كان وحيداً فريداً مقابل تحدّيات الظروف الصعبة فإنه إذا كان يعيش التوكل على اللّه فلا يشعر بصعوبة هذه المشاكل، لأن اللّه تعالى هو رب العرش العظيم وذو القدرة اللامتناهية الّتى لا تعتبر القوى الاخرى شيئاً بالنسبة لها ولا تأثير لها فى مقابل قدرة اللّه ومشيئته، فمن كان العرش والعالم الأعلى فى قبضته فكيف يسمح لعباده المتوكلين عليه أن يخوضوا لوحدهم أمواج المشكلات أو يتركهم لوحدهم أمام أعدائهم الشرسين؟ وممّا يجدر ذكره أنّ البعض يرون أنّ هذه الآية والّتى هى آخر آية من سورة التوبة والآية الّتى قبلها هى من آخر الآيات الّتى نزلت على نبى الإسلام، واللطيف أنّ الآيات الشريفة الّتى نزلت فى أوّل البعثة تحوى هذا المضمون أيضاً وتدلّ على أنّ رأس المال الأصلى والدعامة الحقيقية لرسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ذلك الزمان هى التوكل على اللّه، فنقرأ فى الآية ۳۸ من سورة الزمر الّتى نزلت فى تلك الأزمنة من بداية البعثة قوله: «... قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ا لْمُتَوَكِّلُونَ» وعليه فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يعيش التوكل فى بداية البعثة وفى نهايتها وفى جميع الأحوال، وهذا الأمر هو السبب الأوّل فى حركة النبى الأكرم فى خطّ الاستقامة والثبات والنصر. «الآية التاسعة» تتعرض للحديث عن جميع الأنبياء السابقين من زمان نوح عليه السلام إلى الأنبياء الّذين جاءوا بعده وتقول عندما واجه هؤلاء الأنبياء المخالفة الشديدة لأقوامهم ورأوا أنفسهم لوحدهم وقالوا: «وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۲ مَآءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» «۱». ونستوحى من هذه الآية أنّ التمسّك بالتوكل على اللّه مقابل المشكلات والمصاعب الشديدة الّتى تفرضها الظروف الصعبة كان عمل جميع الأنبياء على طول التاريخ. وفى الواقع أنّهم كانوا يقفون أمام طوائف الأعداء والمشاكل الكبيرة بالاستمداد من عنصر التوكل وينتصرون فى نهاية المطاف، ومن هنا يتبيّن دور التوكل فى حياة البشر وخاصّة على مستوى القادة والمصلحين من الناس. وفى الحقيقة إنما يمنح الأنبياء القدرة والقوّة رغم عدم وجود العُدة والعدد فى مقابل قدرة الحكومات الكبيرة وقوى الإنحراف المختلفة ولا يشعرون مع ذلك بالتراجع والضعف والخوف هو حالة التوكل على اللّه والّتى تجعل «ما سوى اللّه» فى نظرهم صغيراً وتافهاً. والملفت للنظر أنّ الآية الواردة قبل هذه الآية (الآية ۱۱ من سورة إبراهيم) تقول: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». وفى هذه الآية الشريفة محل البحث نقرأ «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ». ومن إدغام هاتين الآيتين يستفاد أنّ المؤمن الواقعى هو المتوكل على اللّه، وكذلك يستفاد من هذه الآية أنّ التوكل وليد المعرفة والهداية الإلهية كما أنّ الصبر والاستقامة فى مقابل اعتداءات الأعداء وتحرّشاتهم وليد التوكل (فتأمل). وتتعرض «الآية العاشرة» إلى ذكر نتيجة واضحة للتوكل على اللّه بحيث تعمل على حث الجميع لطلب هذه الحالة فى واقعهم، وتَعِدهم بالنجاة والنصر أيضاً وتقول: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» «۲» وفى الواقع فإنّ اللّه تعالى أوعد جميع المتوكلين عليه بحل مشكلاتهم بشكل حتمى، ثمّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۳ استعرضت الآية الشريفة الدليل على ذلك وقالت: «إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ». وبديهى فإنّ مثل هذه القدرة المطلقة بإمكانها الوفاء بجميع الوعود وحلّ جميع المشكلات مهما كانت ثقيلة وصعبة، فكلّها تحت إرادته ومشيئته. وجملة قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا يمكن أن تكون جواباً على سؤال مقدّر، وهو لماذا نعيش أحياناً غاية التوكل على اللّه تعالى ولكن الحلّ والنصرة قد يتأخر؟ القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال بأنكم لا تعلمون مصالح الامور، فكلّ شىء يكون بحساب ويتطلب زمان وفرصة مناسبة، وكلّ حالة تكون مطلوبة فى ظرفها الخاصّ،

ولهذا وبمقتضـی أنّ «الْاُمُورُ مَرْهُونَةٌ باوْقَاتِهَا» فأحياناً تقتضـی المصلحة تأخير النتيجة، وعليه فإنّ العجلة والتسرع فی مثل هذه الامور غير صحيح. ويشبه هذا المعنى ما ورد فی الآية (۱۶۰) من سورة آل عمران حيث نجد أنّ القرآن الكريم يقرر بأن النصـر والهزيمة كليهما من اللّهتعالى وأنّ طريق الوصول إلى النصـر يمر من خلال التوكل على اللّه فتقول الآية: «إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِی يَنصُرُكُم مّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ا لْمُؤْمِنُونَ».

النتيجة النهائية:

ونستوحی من الآيات المذكورة آنفاً والّتی استعرضت سيرة أقدم الأنبياء الإلهيين إلى أن وصلت إلى نبی الإسلام أنّ مسألة التوكل فی حياة البشر وجهاد الأنبياء وانتصارهم على المشكلات والتحديات الصعبة الّتی يفرضها الواقع بمثابة الأساس لكلّ هذه التحركات الإيجابية والمثمرة فی سلوك الإنسان على المستوى المادی والمعنوی، وتدلّ على أنّ هذه الفضيلة الأخلاقية بإمكانها أن ترتفع بالإنسان إلى مستويات عالية فی سلّم الكمال المعنوی، والنقطة المقابلة لها، أی عدم الاعتماد والتوكّل على اللّه تعالى يتسبب فی السقوط الحضاری والمعنوی للفرد والمجتمع.

التوكل فی الأحاديث الإسلامية:

اشارة

وتولی الروايات الإسلامية أهمية كبيرة إلى هذه الفضيلة إلى درجة اننا قلما نجد من الآثار الإيجابية والبركات على صفة من الصفات الأخلاقية الفاضلة مثلما ورد فی حقّ هذه الفضيلة، وما سنذكره من الروايات الشريفة عبارة عن نماذج مقتطفة من كثير ممّا ورد فی هذا الباب ممّا لا يسمح لنا المجال لاستيعابها جميعاً. ۱- ما ورد فی الحديث الشريف عن رسول اللّه صلی الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ سَرَّهُ انْ يَكُونَ اقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ» «۱». ۲- ونقرأ فی حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «فِی التَّوَكُّلِ حَقِيقَةُ الْايقَانِ» «۲». ۳- وفی حديث آخر عميق المعنى ما ورد فی قصة إبراهيم عليه السلام فی تفسير علی بن إبراهيم حيث تقول الرواية: أنّه لما وضعوا إبراهيم فی المنجنيق، جاءه عمه آذر وصفعه على وجهه بشدة وقال له: ارجع عما أنت عليه، ولم يبق شیء إلّاطلب إلى ربه، أن ينجی ابراهيم وقالت الأرض يا رب ليس على ظهری أحد يعبدك غيره فيحرق، وقالت الملائكة مثل ذلك وجاء إليه جبرئيل فی الهواء، وقد وضع فی المنجنيق، فقال يا إبراهيم هل لك إلیّ من حاجة؟ فقال إبراهيم أما إليك فلا، وأما إلى ربّ العالمين فنعم. فدفع إليه خاتماً عليه مكتوب: «لَا الَهَ الَّا اللّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ، الْجَأْتُ ظَهْرِی الَى اللّهِ، اسْنَدْتُ امْرِی الَى اللّهِ، وَفَوَّضْتُ امْرِی الَى اللّهِ» فأوحى اللّه إلى النار (كونی برداً وسلاماً) فاضطربت اسنان إبراهيم من البرد حتّى قال (سلاماً على إبراهيم) فهبط جبرئيل وجلس معه يحدثه فی النار وفی روضة خضراء، ونظر إليه نمرود فقال: «مَنِ اتَّخَذَ الَهاً فَلْيَتَّخِذْ مِثْلَ الَهِ ابْرَاهِيمَ» «۳». أجل فإنّ التوكل على اللّه تعالى قد حوّل النار إلى بستان جميل وجنّة خلابة، هذا التوكل الّذی منح إبراهيم القوّة على ضبط النفس والهدوء والسكينة حتّى انه لم يجد حاجة إلى الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۴۵ التوسل بجبرئيل واعتبر ذلك ابتعاداً عن اللّه وخلافاً لمقتضى الإيمان والتوكل وانه لابدّ من تحصيل الماء من العين الصافية نفسها. ۴- ويقول الإمام الصادق عليه السلام فی تعبير آخر: «انَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَاذَا ظَفَرَا بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ اوْطَنَاهُ» «۱». وهذا يعنی أنّ القلب الّذی تحوّل إلى مركز للتوكل على اللّه فإنه يشعر بالغنى وعدم الحاجة لما سوى اللّه تعالى، وكذلك فإنّ مثل هذا الإنسان يعيش العزّة والقدرة لأنّه يتحرّك من موقع الاعتماد على القدرة المطلقة الّتی تتعالى على جميع القدرات الاخرى ولا تقبل الضعف والتردد والإهتزاز. ۵- ونقرأ فی حديث آخر بهذا المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ لَا يُغْلَبُ وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللّهِ لَايُهْزَمُ» «۲». ۶- وورد فی حديث آخر عن الإمام علی بن أبی طالب عليه السلام أنّه قال: «مَنْ

تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ذَلَّتْ لَهُ الصِّعَابُ وَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْاسْبَابُ» «٣». وكيف لايكون كذلك فى حين أنّ (مسبّب الأسباب) هو اللَّه تعالى وكلّ شىء خاضع وخاشع له. ٧- وفى حديث آخر عن هذا الإمام انه أشار فى كلامه إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ التوكل ليس فقط يُعدّ من العوامل الخفيّة فى باطن الكون بل من العوامل المؤثرة فى نفس الإنسان وباطنه أيضاً حيث يمنحه القوّة الّتى تنجيه من الوساوس والشبهات فقال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ اضَاءَتْ لَهُ الشُّبَهَاتُ» «۴». ٨- وأيضاً ورد عن هذا الإمام فى خطابه للناس جميعاً «يَا ايُّهَا النَّاسُ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢۴۶ واتَّقُوا بِهِ فَانَّهُ يَكْفِى مِمَّنْ سِوَاهُ» «١». ٩- وعن جابر بن يزيد الجعفى أنّه قال: خدمت سيّد الأنام أبا جعفر محمّد بن على عليه السلام ثمانية عشرة سنة فلما أردت الخروج ودعته فقلت له: افدنى، فقال: بعد ثمانية عشر سنة يا جابر؟ قلت: «نَعَمْ انَّكُمْ بَحْرٌ لَايُنْزَفُ وَلَا يُبْلَغُ قَعْرُهُ». قال عليه السلام: يا جابر بلغ شيعتى عنى السلام وأعلمهم أنّه لا قرابة بيننا وبين اللَّه عزّوجلّ، ولا يتقرب إليه إلّابالطاعة له، يا جابر من أطاع اللَّه وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى اللَّه لم ينفعه حبنا. يَا جَابِرُ مَنْ هَذَا الّذى سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ اوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْفِهِ؟ اوْ وَثَقَ بِهِ فَلَمْ يُنْجِهِ؟» «٢». ونجد فى هذا الحديث الشريف أنّ التوكل على اللَّه والثقة بوعده وكرمه، ودعاءه والطلب منه بعنوان ثلاث وسائل للنجاة والفلاح. أجل فإنّ الإنسان إذا توجّه إلى العين الصافية واغترف منها الماء الزلال فلا حاجة له لأن يمدّ يده إلى هذا وذاك. ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن لقمان الحكيم رغم وجود أحاديث كثيرة تقرر أهمية التوكل وآثاره الإيجابية الكبيرة على حياة الإنسان المادية والمعنوية، وذلك عندما أوصى لقمان ابنه بقوله: «يَا بُنَىَّ! تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ثُمَّ سَلْ فِى النَّاسِ، مَنْ ذَا الّذى تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟!» «٣». إن عظمة هذه الفضيلة الإنسانية الكبيرة، يعنى التوكل على اللَّه فى الأحاديث الإسلامية والنصوص الدينية الشريفة إلى درجة من الوضوح بحيث لا- تحتاج إلى توضيح أكثر من الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢۴٧ هذا، وبخلاف ما يقابلها من الحالة الذميمة الّتى تربط الإنسان بالقوى الاخرى الزائفة وتهبط به من أوج العزة والافتخار والاستقلال فى أبعاد شخصيّته الإنسانية إلى حيث الضعف والذلّة والمهانة وبالتالى عدم القدرة على التغلب على التحديات الّتى يفرضها الواقع وعدم حلّ المشاكل الّتى تواجه الإنسان فى حركة الحياة. وبعد بيان أهميّة التوكل فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية نصل إلى مسألة تحليل هذه الفضيلة فى أبعادها المختلفة وتوضيح بعض الزوايا المعتمة منها:

١- حقيقة التوكل

رأينا فى ما تقدّم أنّ (التوكل) من مادّة (وكالة)، بمعنى ايداع الامور إلى اللَّه تعالى والاعتماد على لطفه ورحمته، وهذا لا يعنى أن يعيش الإنسان حالة التكاسل وعدم التحرّك فى نشاطات الحياة بل عليه أن يبذل ما امكنه من السعى والجهد فى سلوك طريق الحياة بجدّية ولكنه فى نفس الوقت يعيش حالة التوكل على اللَّه بالنسبة إلى ما لا يجد فى نفسه القدرة على تذليل الصعاب ويستمد من ألطافه الجلية والخفية فى ما يمنحه القدرة على الإستمرار فى هذا الطريق. ويقول أحد علماء الأخلاق المعروفين فى تفسير التوكّل: «اعلم أنّ التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معانى درجات المقربين، وهو فى نفسه غامض من حيث العلم وشاق، وقال عليه السلام: لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، بل انظروا إلى خلقه وعمله. ووجه غموضه من حيث العلم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد، والتباعد عنها بالكلية طعن فى السنّة وقدح فى الشرع، والاعتماد على الأسباب انغماس فى غمرة الجهل. والتحقيق فيه أنّ التوكل المأمور به فى الشرع هو اعتماد القلب على اللَّه فى الامور كلّها وانقطاعه عمّا سواه، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها، وكان سكونه إلى اللَّه تعالى دونها مجوزاً أن يؤتيه اللَّه مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الأسباب الّتى الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢۴٨ حصلها، وأن يقطع اللَّه هذه الأسباب عن مسبباتها». ثمّ يضيف قائلًا: «وليس معنى التوكل- كما يظنه الحمقى أنّه ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضم، فإنّ ذلك جهل محض، وهو حرام فى الشرع، فإنّ الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب الّتى هداه اللَّه إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك ممّا أحلّه اللَّه» «١». ونقرأ فى (المحجّة البيضاء) فى بحث حقيقة التوكّل قوله: «إعلم أنّ التوكّل

من أبواب الإيمـان وجميع أبواب الايمـان لاـ تنتظم إلّـابعلم وحـال وعمـل والتوكـل كـذلك ينتظم من علم هو الأصـل، ومن عمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكّل». ثمّ يشرع بـذكر بعض التفاصيل عن عنصر العلم الّذى يمثل الأساس للتوكل، وبعد بيان مطول يصل إلى ذكر حقيقـة التوكل الّتى هى عبارة عن الأساس الّـذى يبتنى التوكل عليه، وحاصـله أن ينكشف لک أن لا فاعل إلّااللَّه، وأن كلّ موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلک فالمنفرد بابداعه واختراعه هو اللَّه تعالى لا شـريک له، وإذا انكشف لـک هـذا لم تنظر إلى غيره بـل كـان منه خوفک وإليه رجاؤک وبه ثقتک وعليه اتكالک فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخّرون لا استقلال لهم بتحريک ذرّة فى ملكوت السماوات والأرض» «۲». وقد ورد فى الحديث الشـريف عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عندما سُئل: «مَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوجلَّ؟ فَقَال صلى الله عليه و آله: الْعِلْمُ بِانَّ الْمَخْلُوقَ لَايَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِى وَلَا يَمْنَعُ وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ». ثمّ قال صلى الله عليه و آله: «فَاذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِکَ لَمْ يَعْمَلْ لِاحَدٍ سِوَى اللَّهِ وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِى احَدٍ سِوَى اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۹ ونقرأ فى حـديث آخر أنّه سُئل الإمام عليه السلام عن حقيقة التوكل فقال: «لَا تَخَافُ سِوَاهُ» «۱». ويستفاد من هذه العبارات أنّ روح التوكل هى الانقطاع إلى اللَّه وهجر التعلق بالمخلوقات والأسـباب، وما لم يصل الإنسان إلى هذه المرتبة فهو بعيد عن حقيقة التوكل، وكذلک يستفاد من الروايات الرفض الأكيد للمفهوم السلبى من التوكل، أى ترک الاستفادة من الأسباب المادية، فقد ورد فى حديث معروف أنّ رجلًا اعرابياً ترک نـاقته وجـاء إلى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قائلًا: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» فقال له النبى صـلى الله عليه و آله: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» «۲». ولهذا السبب ورد فى الآيات الكريمـة والسنّة النبوية نصوص كثيرة توجب على المؤمنين الأخذ بالأسـباب الظاهرية وأنّ ذلک لا يتقاطع مع روح التوكل من قبيل قوله تعالى: «وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...» «۳». ومن جهة اخرى نرى أنّ القرآن الكريم يبيّن للمسـلمين كيفية صلاة الخوف ويقول: «... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَاسْلِحَتَهُمْ ...» «۴». وعلى هذا الأساس نرى أنّ القرآن الكريم يوجب على المسـلمين الأخـذ بـأدوات الحـذر والحيطـة تجاه العـدو حتّى فى حـال الصـلاة، فكيف الحـال فى الموارد الاخرى؟ إن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله نفسه لم يتحرک فى هجرته من مكّة إلى المدينـة من موقع اللامبالاة بـالخطر وبدون تخطيط مسبق والاكتفاء بقول «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ»، بل تحرک على مستوى اغفال العدو بأن طلب من الإمام على عليه السلام من جهـة أن ينام على فراشه إلى الصباح، ومن جهـة اخرى خرج من مكّة ليلًا وعلى أتم السـريّة والخفاء، ومن جهة ثالثة لم يتوجه شـمالًا صـوب المدينـة مباشـرة، بـل توجه نحو الجنوب قليلًـا وبقى فى غـار ثور لثلاثـة أيّام مختفياً عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۰ الأنظـار، وعنـدما يأست قريش من العثور عليه خرج من الغار متوجهاً إلى المدينـة مستديراً حول مكّة وكان يسير ليلًا وأحياناً يسـلک الطرق غير السالكـة حتّى وصـل إلى المدينـة. إذن، فروح التوكـل الّتى كـان يعيشـها النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله بجميع وجوده واحساساته لم تمنعه من الأخذ بالأسـباب الظاهرية. وأساساً فإنّ مشـيئة اللَّه تعالى قائمة على أساس أن يأخذ الناس فى حركتهم لتحقيق مقاصدهم بالأسـباب والوسائل الموجودة كما ورد فى الحديث الشـريف عن الإمام الصادق عليه السـلام حيث قال: «ابَى اللَّهَ انْ يَجْرِىَ الْأَشْيَاءَ الّا بِاسْبَابٍ فَجَعَلَ لِكُلِّ شَىْءٍ سَبَباً» «۱». وعليه فـإنّ اهمـال عالم الأسـباب والمسببات ليس فقط لا يعـدّ من التوكل، بل هو فى الواقع اهمال للسـنن الإلهيّة الموجودة فى عالم الخلقة، وهذا ممّا لا ينسجم مع روح التوكل. ونختم هذا الكلام برواية تتعلق بزمان النبى موسـى عليه السـلام حيث ورد «أنّ موسـى عليه السلام اعتلّ بعلّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرأت. فقـال: لاـ أتـداوى حتّى يعـافينى من غير دواء، فطالت علّته فقالوا له: إن دواء هـذه العلّـة معروف مجرّب وإنّا نتـداوى به فنبرأ. فقال: لا أتداوى، فدامت علّته فأوحى اللَّه إليه: «وَعِزَّتِى وَجَلَالِى لَا ابْرَأْتُکَ حَتَّى تَتَدَاوَى بِمَا ذَكَرُوهُ لَکَ»، فقال لهم: داوونى بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس فى نفسه من ذلک، فأوحى اللَّه إليه: «ارَدْتَ انْ تَبْطُلَ حِكْمَتِى بَتَوَكُّلِکَ عَلَىَّ، فَمَنْ اوْدَعَ الْعَقَاقِيرَ مَنَافِعَ الْاشْيَاءَ غَيْرِى» «۲». هـذا الحـديث الشـريف يوضّـح لنا حقيقـة التوكل. وعنـدما نرى أنّ إبراهيم الخليل عليه السـلام لا يمدّ يده إلى الملائكة فى اللحظات الحرجة ولا يطلب إليهم انقاذه من نار نمرود فإنّ ذلک لا يتعارض مع مسألة الاسـتفادة من الأسباب الطبيعية الّتى قرأناها فى سيرة النبى

موسی علیه السلام، لأنّ التوسل بالأسباب المادیة والطبیعیة لم تکن واردة فی قصّة إبراهیم علیه السلام بل تحکی عن نوع من الاستمداد وطلب النجاة من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۱ الأسباب الغیبیة وغیر الطبیعیة، ولهذا لم یقبل إبراهیم علیه السلام فی هذه المرحلة بالذات أن یمد یده إلی ما سوی اللَّه تعالی (فتدبّر).

۲- معطیات التوکل وآثاره الإیجابیة

بما أنّ المتوکل علی اللَّه فی الحقیقة یفوّض أمره وحاله وعمله إلی اللَّه تعالی، ویعلّق أمله بالقدرة اللامتناهیة والذات المقدسة العالمة بکلّ شیء، ویعتمد علی اللَّه الّذی بإمکانه أن یحلّ له جمیع المشکلات ویسهل علیه ما عسر من الصعوبات، فإنّ أوّل أثر إیجابی یخلقه التوکل فی واقع الإنسان هو أن یثیر فی نفسه مسألة الاعتماد علی الذات ومقاومة المشکلات والوقوف علی قدمیه أمام سیل الحوادث الکبیرة فی حرکة الحیاة. ولو أنّ شخصاً وجد نفسه وحیداً فی میدان القتال مع الأعداء فإنه مهما کان قویاً ومستعداً للقتال فإنه سرعان ما یجد الضعف یدبّ فی نفسه ویفقد اعتماده علی نفسه، ولکن إذا أحسّ بأنّ جیشاً قویاً یدعمه من الخلف فإنه سیشعر بالقدرة الفائقة والشجاعة رغم عدم امتلاکه لأدوات القوّة ورغم ضعفه الذاتی. وقد وردت الإشارة إلی هذا المعنی فی الأحادیث الإسلامیة أیضاً، ففی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «کَیْفَ اخَافُ وَانْتَ امَلِی وَکَیْفَ اضَامُ وَانْتَ مُتَّکَلِی» «۱». وفی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَکَّلَ عَلَی اللَّهِ لَایُغْلَبُ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَایُهْزَمُ» «۲». أجل فکلّ إنسان یتوکل علی اللَّه فإنه یعیش الغنی وعدم الحاجة ویشعر بالعزّة والکرامة کما ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «انَّ الْغِنَی وَالْعِزَّ یَجُولَانِ فَاذَا ظَفَرَا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۲ بِمَوْضِعِ التَّوَکُّلِ اوْطَنَا» «۱». ومضافاً إلی ذلک فإنّ التوکل یُبعد عن الإنسان کثیر من الصفات الرذیلة من قبیل الحرص والحسد وحبّ الدنیا والبخل وغیر ذلک، لأنّه عندما یفوض الإنسان أمره إلی اللَّه تعالی ویعلم انه القادر علی کلّ شیء والعالم بحاجته وفقره فإنه سوف لا یبقی أثر لهذه الحالات السلبیة فی واقعه ونفسه. فعندما یقرأ المؤمن هذه الآیة الشریفة: «وَمَن یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» «۲» یجد نفسه غارقاً فی أسر التوفیق وغیر محتاج إلی أیّ إنسان، کما ورد فی بعض الأدعیة قوله: «اللَّهُمَّ اغْنِنِی بِالْیَقِینِ وَاکْفِنِی بِالتَّوَکُّلِ عَلَیْکَ» «۳». ومن جهة رابعة فإنّ التوکل یزرع فی قلب الإنسان نور الأمل الّذی بإمکانه أن یمنح الإنسان القدرة والقوّة فی حرکته ویذهب عنه عنصر التعب المسلط علیه، ویشعر بالاستقرار والهدوء النفسی فی کلّ الأحوال، ولذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی کلام مختصر وعمیق المعنی «لَیْسَ لِمُتَوَکِّلٍ عَنَاءُ» «۴». ومن جهة خامسة فإنّ التوکل علی اللَّه یزید من ذکاء الإنسان وقدرة الذهن علی التفکیر الخلّاب، ویفتح آفاقه المعرفیة، فیری الأشیاء من موقع الوضوح فی الرؤیة، لأنّه ومع غضّ النظر عن البرکات المعنویة لهذه الفضیلة الأخلاقیة فإنّ التوکل یتسبب فی أنّ الإنسان لا یجد فی نفسه قلقاً واضطراباً مقابل المشکلات الّتی تفرزها الظروف الصعبة فی حرکة الواقع، وبذلک تحفظ له قدرته علی التصمیم الجدّی والهادف الّذی ینطلق من موقع التفکیر المتّزن بحیث یجد طریق الحلّ أمامه بسهولة. ومن ذلک نقرأ فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «مَنْ تَوَکَّلَ عَلَی اللَّهِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۳ اضَائَتْ لَهُ الشُّبُهَاتِ وَکَفَی الْمَؤُونَاتِ وَامِنَ التَّبِعَاتِ» «۱».

۳- أسباب التوکل

إن التوکل کسائر الفضائل الأخلاقیة له أسباب ودوافع عدیدة، ویمکن القول أنّ أهمّ الأسباب والعوامل الّتی تمثل البنی التحتیة لصرح التوکل هو الإیمان والیقین بالذات المقدسة والمعرفة بصفات الجمال والجلال الإلهیة. عندما یقف الإنسان علی قدرة اللَّه وعلمه الواسع من موقع الوضوح والإدراک التام وأنّ جمیع المخلوقات فی عالم الوجود ما هی إلّاأدوات مسخرة للقدرة الإلهیة المطلقة، ویدرک جیداً مفهوم «لَا مُؤَثِّرَ فِی الْوُجُودِ الَّا اللَّه»، فإنه یری نفسه وقلبه معلّقاً بهذا الواقع الغیبی، ویری عالم الوجود میدان واسع

للألطاف الإلهية العظيمة، ومن هذا المنطلق يجد فى نفسه حالة التوكل على اللّه تعالى ويفوض أمره إليه ويطرق بابه فى الأزمات والشدائد والمشكلات الّتى تواجهه فى واقع الحياة، ويطلب منه أن يعينه فى حلّها والتغلب عليها (مع اقتران ذلك بسعيه وعمله). وبعبارة اخرى إن التوكل هو ثمرة لشجرة (التوحيد الأفعالى) هذه الشجرة المباركة الّتى أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كلّ حين بإذن ربها، ومن أهم ما يتناول الإنسان منها هو ثمرة التوكل. وقد أشارت الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية كراراً إلى هذه العبارة الشريفة، ومن ذلك انها وردت فى سبع آيات من القرآن الكريم وهى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». أى إن الإنسان الّذى يعيش الإيمان يجب عليه أن يتوكل على اللّه فقط، وهذه العبارة تبين جيداً الرابطة الوثيقة بين الإيمان والتوكل. ويقول الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام «التَّوَكُّلُ مِنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۴ ويقول فى حديث آخر: «اقْوَى النَّاسُ ايمَاناً اكْثَرُهُمْ تَوَكُّلًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ» «۱». وقد ورد فى الحديث الشريف عن الأصبغ ابن نباتة عن أميرالمؤمنين على عليه السلام فى ما يقرأه الإنسان فى سجوده يقول: «وَاتَوَكَّلُ عَلَيْکَ تَوَكُّلَ مَنْ يَعْلَمُ انَّکَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٍ» «۲». وممّا يجدر ذكره أنّ الأشخاص الّذين يعيشون الخوف والجبن ليسوا من أهل التوكل، لأن التوكل على اللّه يُزيل من روح الإنسان ونفسه ظلمة الخوف والجبن ويمنحه الشجاعة والشهامة فى التصدى لمعالجة الظروف الصعبة. عندما نتأمل جيداً فى هذه المسألة يتضح لنا دور اليقين والإيمان بصورة أكبر فى منح الإنسان عنصر التوكل وتطهير نفسه من شوائب الخوف والجبن، لأنّه كلّما كان إيمان الفرد أقوى وأشد ابتعد عنه الخوف والجبن مسافات أكبر. ولا ينبغى إهمال هذه الملاحظة، وهى أنّ مطالعة معطيات التوكل والتدبر فى آثاره الإيجابية وقراءة حالات المتوكلين على اللّه وتاريخ حياتهم بإمكانه أن يورث الإنسان روح التوكل على اللّه ويقوى فى وجوده وقلبه هذه الشجرة الطيبة المثمرة.

۴- درجات التوكل

رأينا ممّا تقدّم من البحوث السابقة السبب الّذى يدفع بعض الناس لأن يعيشوا التوكل فى مرتبته الشديدة والبعض الآخر فى مرتبة أدنى حيث تبين لنا أنّ التوكل هو وليد الإيمان، وكلّما اشتد إيمان الفرد باللّه تعالى وصفاته واسمائه الحسنى فإنّ ذلك من شأنه أن يزيد من نسبة توكله بهذا المقدار، فالتوكل الّذى كان يعيشه إبراهيم كان وليد إيمانه الراسخ، وكذلك التوكل العجيب لأميرالمؤمنين عليه السلام الّذى تجلّى فى (ليلة المبيت) (الليلة الّتى نام فيها أميرالمؤمنين عليه السلام فى فراش النبى صلى الله عليه و آله وهاجر فيها النبى إلى المدينة). كذلك وليد إيمانه القوى والراسخ، وهذ الحالات من التوكل نجدها لدى المؤمنين فى مراتب متوسطة أو أقل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۵ من ذلك بنسبة إيمانهم باللّه تعالى. وقد سأل شخص الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن مفهوم هذه الآية: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» فقال له الإمام عليه السلام: «لِلتّوَكُّلِ دَرَجَاتٌ» ثمّ أضاف: «مِنْهَا انْ تَثِقَ بِهِ فِى امْرِکَ كُلِّهِ فِى مَا فَعَلَ بِکَ فَمَا فَعَلَ بِکَ كُنْتَ رَاضِيَاً وَتَعْلَمَ انَّهُ لَمْ يَأْلُکَ خَيْراً وَنَظَراً، وَتَعْلَمَ انَّ الْحُكْمَ فِى ذَلِکَ لَهُ، فَتَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بِتَفْوِيضِ ذَلِکَ الَيْهِ» «۱». وقد ذكر بعض علماء الأخلاق للتوكل ثلاث مراتب: الاولى: أن يعيش الإنسان الاعتماد والاطمئنان والثقة باللّه تعالى كما يطمئن الإنسان ويثق بوكيله عندما يجده لائقاً ومخلصاً فيفوض اموره إليه (دون أن يفقد اصالته واستقلاله بهذا الاعتماد والثقة) وهذه هى أضعف مراتب التوكل. الثانية: أن يكون حاله فى اعتماده على اللّه وثقته بنفسه كحال الطفل بالنسبة لُامّه، فالطفل فى بداية الأمر لا يرى شيئاً سوى امّه ولا يعتمد على غيرها إطلاقاً، فما أن يراها حتّى يتعلق بها، وعندما يجد نفسه لوحده فإنه بمجرد أن يصيبه شىء أو حادثة فإنه يطلب امّه فوراً ويبكى أيضاً فى طلبها. ولاشكّ أنّ هذه المرتبة من التوكل أعلى من السابقة، لأن الإنسان فى هذه الحالة يجد نفسه غارقاً فى تجليات الحقّ ولا يرى أحداً غيره ولا يطلب من أىّ أحد حلّ مشكلاته إلّا من اللّه تعالى. المرتبة الثالثة: وهى بدورها أعلى من المرتبة الثانية فى سُلّم الكمال المعنوى، وهى أن يجد الإنسان نفسه عديم الإرادة والاختيار، فكلّما أراد منه اللّه شيئاً ورضى به كان رضاه بذلك الشىء وتعلّقت إرادته بذلك الشىء أيضاً، وكلّما عَلِم أنّ اللّه لا يريد ذلك الشىء فإنه لا يُريده أيضاً.

بعض العلماء یری أن توکل إبراهیم علیه السلام کان یحکی عن هذه المرتبهٔ الثالثهٔ، عندما الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۶ وضعوه فی المنجنیق وأرادوا قذفه فی النار المهیبهٔ، ولکنه مع ذلک لم یطلب شیئاً من الملائکهٔ علی مستوی انقاذه من الهلکهٔ، وعندما قالت له الملائکهٔ: هل لک حاجهٔ؟ قال: لی حاجهٔ ولکن لیست إلیکم، وعندما قیل له: اطلب حاجتک من اللَّه لینقذک من هذه النار المحرقهٔ، فقال: «حَسْبِی مِنْ سُؤَالِی عِلْمُهُ بِحَالِی» «۱». وهذه الدرجهٔ العالیهٔ من التوکل یندر وجودها بین الناس، وهی من خواص مقام الصدیقین الّذین یعیشون الذوبان والعشق للذات المقدسهٔ والغرق فی صفات جماله وجلاله.

۵- طرق تحصیل التوکل

لقد ذکر علماء الأخلاق طرقاً للتوصل إلی حالهٔ التوکل وکلّ منها بمثابهٔ عامل مؤثر لاکتساب هذه الفضیلهٔ الأخلاقیهٔ الکبیرهٔ، ومن ذلک: التوجه إلی حالهٔ (التوحید الأفعالی) وأن یعلم الإنسان یقیناً بأن کلّ شیء فی عالم الوجود متصلًا بذاته المقدسهٔ ومرتبط بها وأنّ اللَّه تعالی هو مصدر عالم الوجود والعلّهٔ التامهٔ لوجوده ووجود الکائنات وانه مسبّب الأسباب، فلا- مؤثر فی الوجود إلّابأمره وکلّ المخلوقات إنما تقتات من صفات مائدهٔ فضله ورحمته وکرمه. فبعد التأمل والتدبر فی هذه الامور یعود ینظر إلی حالاته الذاتیهٔ لیری کیف أنّ اللَّه تعالی اخرجه من صقع العدم والظلمهٔ إلی نور الوجود وألبسه رداء الوجود ومنحه کلّ تلک القوی والمواهب الکثیرهٔ المادیهٔ والمعنویهٔ ورعاه عندما کان فی رحم امّه فی (ظلمات ثلاث) حیث لم تکن تصل إلیه ید إنسان، ومع ذلک فإنه کان یتقلب فی نعمهٔ اللَّه وفضله ولم یحتج إلی شیء إلّاوأنعم اللَّه به علیه. وبعد أن خرج من عالم الرحم إلی فضاء هذه الدنیا فإنّ اللَّه تعالی وهب له کلّما یحتاجه من شرائط الحیاهٔ وما یفتقر إلیه فی بقائه وسلامته، من لبن الامّ إلی محبتها ورعایتها والسهر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۷ علیه ودفع الخطر عنه وأمثال ذلک. لقد وهب له اللَّه تعالی معرفهٔ کیف یرتضع من صدر امّه وهداه إلی معرفهٔ الطریق إلی تفعیل عواطفها وتسییر محبتها وحنانها تجاهه بحیث جعلها تخدمه لیل نهار فی حین انها لا تجد فی نفسها التعب من ذلک بل تحسّ باللّذهٔ وتشعر بالرضا بهذه الخدمهٔ الشاقهٔ والمتواصلهٔ. وعندما بلغ به العمر سنّ الرشد تواترت علیه نعم اللَّه ومواهبه المختلفهٔ من السماء والأرض واغرقته فی ألطافه وعنایاته اللامتناهیهٔ. أجل عندما یتفکر الإنسان بکلّ هذه الامور یتبین له جیداً أنّ کلّ شیء فی عالم الوجود خاضع ومطیع للَّه‌تعالی، وینبغی علیه أن یفوض جمیع اموره إلی الذات المقدسهٔ ویتوکل علیه کما هو مضمون الآیهٔ الشریفهٔ: «وَإِن یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا کَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ یُصِیبُ بِهِ مَن یَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ» «۱». إن الإیمان الراسخ بهذه الحقائق بإمکانه أن یوصل الإنسان إلی مرتبهٔ (التوکل) ویصعد به فی هذه الصفهٔ الکمالیهٔ إلی مراتب اخری ویجعله فی زمرهٔ المتوکلین الحقیقیین. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۸ ۱۳ و ۱۴

الشهوهٔ والعفاف

تنویه:

«الشهوهٔ» فی اللغهٔ لها مفهوم عام یطلق علی جمیع اشکال الرغبات النفسانیهٔ والمیل إلی التمتع واللّذهٔ المادیهٔ وأحیاناً تطلق کلمهٔ الشهوهٔ علی العلاقهٔ الشدیدهٔ بأمرٍ من الامور المادیهٔ. إن مفهوم الشهوهٔ مضافاً إلی المفهوم العام یطلق أیضاً علی خصوص «الشهوهٔ الجنسیهٔ»، وأما فی القرآن الکریم فنلاحظ أنّ مفردهٔ «الشهوهٔ» استعملت بالمعنی العام وبالمعنی الخاص، وفی هذا البحث فإنّ مقصودنا من هذه الکلمهٔ هو المعنی الخاص لأن تأثیراتها المخربهٔ والمدمرهٔ أکثر من سائر أشکال الرغبات الجسدیهٔ الاخری. «الشهوهٔ» تقع فی مقابل «العِفهٔ» والعفهٔ أیضاً لها مفهوم عام ومفهوم خاصّ، فاما المفهوم العام هو ضبط النفس فی مقابل الرغبات والمیول النفسانیهٔ والأفراط فی اتباعها، واما المفهوم الخاصّ فهو ضبط النفس فی مقابل متطلبات الغریزهٔ الجنسیهٔ والتحلل الأخلاقی. «العفهٔ» تعتبر من الفضائل

الأخلاقیة المهمة الّتی تساهم فی ترشید وتکامل المجتمعات البشریة بعکس الشهوة الّتی تقع فی مقابلها والّتی یوجب اتباعها سقوط الفرد أخلاقیاً وانحطاط المجتمع فی حرکته الحضاریة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۶۰ إن التحقیقات التاریخیة تشیر إلی أنّ المجتمعات الّتی کانت تتمتع بمقدار کافٍ من العفة کانت تتمتع بطاقات وقدرات حضاریة وإنسانیة وتعیش حالة من التقدّم والتکامل علی المستوی الفردی والاجتماعی وتعیش الأمن والهدوء والاستقرار فی مستویات عالیة، ولکن وبعکس ذلک الأشخاص أو المجتمعات الّتی کانت غارقة فی مستنقع الشهوات فإنّها فقدت طاقاتها البنّاءة وقواها الحیویة وبالتالی أضحت مستسلمة لتداعیات قوی الإنحراف والسقوط الحضاری. وطبقاً لنظر الحقوقیین فإنّ «الشهوة الجنسیة» تعتبر دعامة رئیسیة فی التورط فی الجریمة والعدوان إلی درجة أنّه قیل: إنّ فی کلّ جریمة هناک عنصر «الشهوة الجنسیة»، ولعلّ هذا التعبیر مبالغٌ فیه، ولکن الحقیقة أنّ طغیان «الغریزة الجنسیة» وطلب الشهوة یعتبر منشأً ومصدراً للکثیر من الجرائم والانحرافات الفردیة والاجتماعیة، فقد سفکت بسببها الکثیر من الدماء واتلفت الکثیر من الأموال والثروات، وتم تسریب الکثیر من الأسرار المهمة للحکومات والدول بواسطة النساء الجاسوسات من خلال استخدامهن لعنصر الجمال والجاذبیة الجنسیة، وبالتالی کانت هذه الغریزة هی السبب فی التورط فی الفضائح الأخلاقیة علی مستوی الشخصیات والدول. ومن خلال الآیات والروایات الشریفة، یمکننا أن نستوحی هذه الحقیقة، وهی أنّ «الشهوة الجنسیة» تعتبر إحدی الوسائل والأدوات المهمة للشیطان، ونجد فی القرآن الکریم اشارات متعددة لمفهوم العفة والشهوة فی موارد مختلفة، وفیما یلی بعض الآیات الکریمة الّتی تستنطق هذا المفهوم القرآنی: ۱- «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَا ت فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا* إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئکَ یَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ وَلَا یُظْلَمُونَ شَیْئًا» «۱» ۲- «وَاللَّهُ یُرِیدُ أَن یَتُوبَ عَلَیْکُمْ وَیُرِیدُ الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الشَّهَوَا ت أَن تَمِیلُواْ مَیْلًا عَظِیمًا» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۶۱ ۳- «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَکُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِینَ* أَئِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِیلَ وَتَأْتُونَ فِی نَادِیکُمُ الْمُنکَرَ فَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ کُنتَ مِنَ الصَّادِقِینَ» «۱». ۴- «وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِیءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هذَا یَوْمٌ عَصِیبٌ* وَجَآءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ وَمِن قَبْلُ کَانُواْ یَعْمَلُونَ السَّیِّئَاتِ قَالَ یاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَلَیْسَ مِنکُمْ رَجُلٌ رَّشِیدٌ* قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِی بَنَاتِکَ مِنْ حَقّ وَإِنَّکَ لَتَعْلَمُ مَانُرِیدُ* قَالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِی إِلَی رُکْنٍ شَدِیدٍ* قَالُواْ یَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُواْ إِلَیْکَ فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّیْلِ وَلَایَلْتَفِتْ مِنکُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِیبُهَا مَآأَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَیْسَ الصُّبْحُ بِقَرِیبٍ* فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِیَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَیْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّیلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّکَ وَمَاهِیَ مِنَ الظَّالِمِینَ بِبَعِیدٍ» «۲». ۵- «کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَیْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّیْنَاهُم بِسَحَرٍ» «۳». ۶- «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ا لْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَکُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ا لْعَالَمِینَ* إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ* وَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ یَتَطَهَّرُونَ* فَأَنجَیْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ کَانَتْ مِنَ ا لْغَابِرِینَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَیْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ ا لْمُجْرِمِینَ» «۴».

تفسیر واستنتاج:

آثار اتباع الشهوات فی التاریخ البشری

«الآیة الاولی بعد أن تذکر أسماء بعض الأنبیاء الإلهیین وتستعرض صفاتهم الکریمة وخصالهم الحمیدة تقول: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَا ت فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا» «۱». وهنا تستثنی الآیة المذکورة فوراً بعض الأشخاص الّذین یحملون صفات متمیزة وتقول: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئکَ یَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ وَلَا یُظْلَمُونَ شَیْئًا» «۲». والجدیر بالذکر أنّ الآیة محل البحث تتحدّث عن اتباع «الشهوات» بعد مسألة إضاعة الصلاة وتتبعها حالة الضلال والغی، ویمکن أن نستوحی من هذه العبارة انها تشیر من جهة إلی أنّ الصلاة تعد عاملًا مهماً فی الحدّ من طغیان الشهوات وبالتالی العمل علی تقویم سلوک الإنسان فی طریق الحقّ

والانفتاح على اللَّه بعيداً عن اشكال الإنحراف الأخلاقى وافرازات الأهواء النفسانية، وكما جاء فى الآية ۴۵ من سورة العنكبوت: «... انّ الصَّلَوةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ» ومن جهـة اخرى تشـير الآية إلى أنّ عاقبة «اتباع الشـهوة» هى الضـلال والإنحراف، كما نجد ذلك فى الآيهٔ ۱۰ من سورة الروم: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءوا السُّوأى أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». أجل أنّ عاقبة هؤلاء هى الضـلالة والزيغ ومـا يسـتتبع ذلك من النتائـج الوخيمـة، أى الغضب الإلهى والعقاب الاليم فى الآخرة. ومعلوم أنّ «الشـهوات» فى الآية محل البحث لها مفهوم واسع ولا تنحصر فى «الشهوة الجنسية»، بل تستوعب فى مفهومها كلّ أشكال الميول النفسانية والنوازع الدنيوية والأـهواء الشـيطانية، وطبعاً فإنّ الأشـخاص الّـذين تابوا من بعـد ذلك واسـتدركوا تورطهم فى الـذنوب بالعمل الصالـح وتحركوا على مستوى تقويـة إيمانهم القلبى الّذى تعرض للاهتزاز بسـبب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۳ الولوغ فى الخطيئـة فإنّ عاقبتهم أنّهم سيكونون من أهل الجنّة بعـد تطهير قلوبهم من الآثار السـلبية لاضاعـة الصـلاة واتباع الشـهوات. «الآية الثانية» وضـمن بيان التقابل بين «الرجوع إلى اللَّه» و «اتباع الشهوات»، والإشارة إلى أنّ هذين المفهومين لا يلتقيان فى الإنسان فى جهة واحدة بل يسيران به فى جهتين مختلفتين تقول: «وَاللَّهُ يُرِيـدُ أن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيـدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَا تِ أن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيًما» «۱». أجل فالأشخاص الّذين غرقوا فى وحول الخطايا والشـهوات يريـدون أن يورطوا الآخرين فى الخطيئـة وممارسة الاثم ليكونوا من أمثالهم ويتلوثوا بالذنوب، فى حين أنّ اللَّه تعالى يريد للناس الطهر والنقاء القلبى بتركهم الشـهوات وبعودتهم إلى اللَّه، وبالتالى لينالوا المعرفة والصـفاء والتقوى والسـعادة الدائمة، ويقول الأعاظم من المفسّرين أنّ المراد من «الميل العظيم» هو هتك الحدود الإلهية والتلوث بأنواع الذنوب والخطايا، والبعض منهم يرى أنّ المقصود منهـا هو نكاح المحارم وأمثال ذلك الّتى ورد النهى عنها فى الآيـة السابقـة والّتى هى فى الواقع أحـد مصاديق المفهوم أعلاه. والجـدير بالـذكر أنّ اتباع الشـهوات الوارد فى الآية الكريمة يمكن أن يكون له مفهوم عام، وكذلك يمكن أن يكون إشـارة إلى الشـهوة الجنسيـة بـالخصوص، لأـن هـذه الآيـة وردت بعـد آيـات تحـدثت عن حرمـة نكـاح المحارم والنساء المحصـنات والجوارى والبغايـا من الجوارى، وعلى أى حـال فـإنّ هـذه الآيـة تقرر حقيقـة مهمـة فى هـذا المجال، وهى أن طريق «اتباع الشـهوات» تتقاطع تماماً مع طريق «الانفتاح على اللَّه». الآيات الثالثـة والرابعـة والخامسـة والسادسـة من الآيات محل البحث تتحـدّث عن قصـة قوم لوط وتورطهم فى إنحراف أخلاقى فى دائرة الغريزة الجنسـية، فالشهوة هنا امتزجت مع انحرافات جنسية كثيرة على طول التاريخ، وفى كلّ آيـة من هـذه الآيات الكريمـة هناك نكتـة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۴ خاصّة تشـير إليها الآية القرآنية حيث نستعرضـها ونشـير إلى هـذا المضـمون الكامن فيها: «الآيـة الثالثـة» تتحـدّث عن النبى لوط وتسـتعرض خطابه لقومه فى اطار التوبيخ الشديد حيث تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَـةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ» «۱». «الفاحشـة» كلمة تطلق على كلّ عمل قبيح جـداً، رغم أنّ المتعارف فى المفهوم منها هو «الفحشاء الجنسـى»، والآيـة الكريمـة تشـير إلى أنّ هـذه الفاحشـة قد بدأت من قوم لوط وأنّإتيان المـذكر أو ما يعبر عنه باللواط لم يكن قبل ذلك متـداولًا فى المجتمعات البشـرية. ويسـتمر لوط فى التحدث مع قومه بلسان الـذم والتقريع ويقول: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...» «۲». فى هذه الآية نجد انها تشير إلى أحد العلل والأسـباب لتحريم «اللواط» ألا وهو ظاهرة انقطاع النسل، لأنّه لو تصورنا سـريان هذا السلوك المنحرف إلى جميع أفراد المجتمع فـإنّ هناك خطر انقطاع النسل البشـرى، وسوف تعيش الإنسانيـة حالـة التهديـد بالفناء والانـدثار. بعض المفسّـرين ذهبوا إلى أنّ جملة «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» المـذكورة فى الآيـة أعلاه هى إشارة إلى عمل السـرقة وقطع الطريق الّذى كان يمارسه قوم لوط، وبعض ذهب انها إشارة إلى التعرض الجنسـى للآخرين وللمارة الّـذين كانوا يمرون فى طريقهم. «نادى» من مادّة «ندى» بمعنى المجلس العام أو مجلس التفريـح والترفيه حيث يتنادى الناس فيه وينادى بعضـهم الآخر فى مثل هـذه المجالس. وبالرغم من أنّ القرآن الكريم لم يذكر أنّ قوم لوط فى مجالسـهم الترفيهيـة هـذه مـاذا كـانوا يرتكبون من منكرات اخرى، ولكن من الواضـح أنّ أعمالهم الاخرى كانت متناغمـة مع عملهم الشـنيع هـذا، وقـد ورد فى الروايـات الشـريفة أنّهم كـانوا يخلعون ملابسـهم أمام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۵ الآخرين ويمـارسون حالـة التعرى والتلفـظ بالألفـاظ الموهنـة والركيكـة ويتحـدّثون بالكلمـات القبيحـة فى مـا بينهـم ويقومـون بأعمـال وقحة

وممارسات قبيحة يخجل القلم عن ذكرها. قوم لوط هؤلاء كانوا قد غرقوا فى مستنقع الشهوة إلى درجة أنّهم أخذوا يستهزئون بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية، ولهذا السبب فعندما سمعوا كلام لوط تعجبوا من ذلک وأنكروا عليه هذا التوبيخ والذنب لأفعالهم وقالوا له كما تقول الآية: «... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». وبهذا فإنّهم استهزؤا بعذاب اللَّه وسخروا من كلام النبى لوط. وفى «الآية الرابعة» من الآيات محل البحث نجد إشارة إلى جانب آخر من قصة قوم لوط حيث تتحرک الآية لبيان حادثة الضيوف الإلهيين الّذين نزلوا بمهمة انزال العذاب فى قوم لوط وجاءوا على شكل شباب ذى وجوهٍ مليحة وجميلة إلى النبى لوط عليه السلام الّذى لم يكن يعرفهم، ولهذا أبدى خوفه وأنزعاجه لهذه الضيافة لما يعلم من سوء نية قومه اتجاه الغلمان والشبان فتقول الآية «وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» «۲». وفى هذه الاثناء تسامع قوم لوط بالخبر فأرادوا السوء بهؤلاء الضيوف الكرام: «وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ...» «۳». فلمّا رأى لوط ذلک منهم تألم بشدة لهذا الموقف المخزى من قومه تجاه ضيوفه وأراد التخلص منهم بشتى الطرق، ومنها انه عرض على هؤلاء الأشرار وبايثار عجيب بناته ليتم الحجّة عليهم ويكفوا عن ممارساتهم الشنيعة: «قَالَ ياقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۶ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» «۱». إن هؤلاء الأشرار أجابوه بمنتهى الوقاحة «قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِکَ مِنْ حَقّ وَإِنَّکَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ» «۲». أى انک تعلم إننا لا نحب مقاربة النساء وتعلم انحرافنا عن هذا المسلک الطبيعى فى إشباع الغريزة. وعندما رأى لوط هذه الوقاحة من قومه وتملكه اليأس من إصلاحهم أو دفعهم عن ضيوفه نادى من صميم قلبه ووجوده: «قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» «۳». أى يا ليتنى كنت امتلک القوّة لأُريكم جزاء عملكم الشنيع هذا أو أنّ لى عشيرة واتباع أقوياء يعينوننى على دفعكم عن ضيوفى .. وتتحرک الآيات فى هذا السياق لتبين أنّ هؤلاء الضيوف الكرام اخبروا لوطاً بأنّهم رسل اللَّه لإنزال العذاب على قومه وأنّهم مانعوه عن إيذاء قومه وعن أى تحرک عدوانى اتجاهه واتجاه ضيوفه، وأخبروه أنّ العذاب نازل على قومه حتماً غداً صباحاً، وسوف لا يفلت أحد منهم من هذا العذاب الإليم والعقاب المخيف حيث ستنقلب مدينتهم رأساً على عقب وتمطر السماء عليهم حجارةً من سجيل، وحين ذاک امروا لوطاً بالخروج مع أهلهِ من هذه القرية باستثناء زوجته الّتى كانت مداهنة مع الأشرار ويتركوا مدينتهم إلى حيث ينجوا بأنفسهم من العذاب الإلهى. «الآية الخامسة» من الآيات محل البحث وضمن الإشارة إلى إنزال العذاب الإلهى على قوم لوط بسبب أعمالهم الشنيعة تقول: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۷ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ» «۱». وهكذا تم اهلاک هؤلاء القوم الظالمين وإنقاذ آل لوط من هذا العذاب الإلهى المقيم وطبعاً باستثناء زوجته الخائنة الّتى شملها العذاب مع قوم لوط. وبالطبع كما ذكر فى هذه الآية كان يمثل قسماً من العذاب الإلهى على هؤلاء الأشرار، لأن القرآن الكريم يقول فى آية اخرى: «فَلَمَّا جَاءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ...» «۲». أى أنّ الزلزلة الّتى أصابتهم لم تدع لهم بناءاً ولا أرضاً إلّاقلبته رأساً على عقب ثمّ يقول: «وَامْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجّيلٍ مَنْضُودٍ» «۳». هذا المطر من الحجارة يمكن أن يكون قسماً من الشهب المتناثرة فى الفضاء حيث نزلت هذه الشهب والنيازک بأمر من اللَّه على اطلال هذه المدينة وأجساد أهلها المتناثرة. وهناک احتمال آخر فى معنى هذه الجملة، وهو أنّ كلمة «حاصب» تعنى العاصفة من الرمل حيث تنقل الرياح العاتية فى الصحراء كثبان الرمل من منطقة إلى اخرى فتظهر فى منطقة من الصحراء تلال من الرمل لم تكن موجودة قبل ذلک، بل تتكون فجأة من خلال مطر من الرمال والحجارة الّتى تحملها العاصفة الرملية بحيث تدفن معها قرى كاملة، وأحياناً تدفن تحتها قافلة من القوافل التجارية الّتى تجوب الصحراء. والجدير بالذكر أنّ هذه العواصف الرملية أو أمطار الحجارة قد تحدث بين الفينة والاخرى فى عالم الطبيعة، ولكن هذه المرة حدثت هذه العاصفة الرملية بأمر من اللَّه تعالى بوقتٍ مخصوص ومكان معين كما أخبر بذلک ملائكة اللَّه الّذين ارسلوا إلى نبى لوط عليه السلام. ويوجد احتمال آخر فى هذا الصدد، وهو انه من الممكن أن تكون الزلزلة الشديدة قد أصابت هذه المدن والقرى ودمرتها عن آخرها ثمّ نزل عليهم مطر الحجارة السماوية، ثمّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۸ حلت بهم العاصفة الرملية لتمحوا آثارهم وتفنى ما تبقى من وجودهم، وهذا العذاب الإلهى بهذه المراحل

الثلاثة الشديدة يبين غضب اللَّه تعالى على هؤلاء القوم الظالمين. «الآية السادسة» والأخيرة فى هذه الآيات وضمن الإشارة الموجزة إلى قصة قوم لوط من بدايتها إلى منتهاها تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ا لْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ا لْعَالَمِينَ» «۱». أجل، فإنكم تأتون الذكور لاشباع غريزتكم الجنسية دون النساء، ولذلك فأنتم منحرفون عن السبيل القويم لأنكم تركتم القوانين والمقررات الطبيعية والسنن الإلهية لاشباع الغريزة وسلكتم مسلك الإنحراف والزيغ الّذى من شأنه أن يؤدى إلى انقطاع النسل واشاعة أنواع المفاسد الاجتماعية والأمراض التناسلية، ورغم أن مرض «الايدز» الموحش يعتبر أحد الأمراض العصرية الّذى اكتشف مؤخراً، ولكن لا يبعد أن يكون هذا المرض موجوداً من ذلك الزمان أيضاً وقد اصيب به بعض هؤلاء الأشرار من قوم لوط، ولهذا السبب فإنّ اللَّه تعالى بحكمته ورحمته قد دفن أجسادهم تحت كثبان الرمل والحجارة ليكون ذلك عبرة للآخرين من جهة، ونعمة للناس من جهة اخرى لمنع انتشار وسراية هذا المرض إلى أنحاء اخرى من المعمورة. وعلى أى حال فإنّ هؤلاء القوم المجرمين كانوا على درجة من الوقاحة وعدم الحياء بحيث أنّهم مضافاً إلى عدم اصغائهم لكلمات لوط عليه السلام، أرادوا إخراجه مع أهله من مدينتهم بتهمة الطهر والنقاء حيث تتحدّث الآية القرآنية فى هذا السياق عن موقفهم المخزى هذا وتقول: «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» «۲». ولكن اللَّه تعالى يحكى لنا عاقبة قوم لوط هؤلاء ومصير نبيّهم الكريم حيث يقول: «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ا لْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۹ عَاقِبَةُ ا لُمجْرِمِينَ» «۱». أجل، إن هؤلاء كانوا قد غرقوا فى وحول الخطيئة وتلوثوا بأدران الإثم إلى درجة أنّهم كانوا يعتبرون أنّ الطهر والنقاء من الإثم والذنب اثماً وخطيئة بحد ذاته، ولهذا كانوا يرون إنزال العقوبة على الأبرياء والطاهرين من الناس بتهمة الطهر وعدم التلوث بالمعاصى ويحكمون عليهم بالنفى إلى مناطق بعيدة ويخرجوهم من بيوتهم ولكن العذاب الإلهى كان لهم بالمرصاد، وقد حلّ بهم قبل أن يطبقوا أحكامهم المزرية على لوط وأهله. إن القسم المهم من هذه الآيات وضمن بيان العاقبة المخزية لاتباع الأهواء والشهوات بالمعنى والمفهوم العام والخاصّ يشير إلى أنّ هذا العمل الشنيع يعد منبعاً للكثير من الذنوب والممارسات الخاطئة الّتى تورث الفرد والمجتمع الانحطاط والسقوط الأخلاقى والاجتماعى وتذُم وتُشنع على من يمارسون هذه الخطيئة.

اتباع الشهوات فى الروايات الإسلامية:

لقد أولت الأحاديث والروايات الإسلامية هذه المسألة اهتماماً كبيراً حيث نجد أنّ الكثير من المصادر الروائية تشير إلى عواقب هذا الفعل الشنيع وتحذر الناس من افرازات مثل هذه الممارسات الخطرة على الصعيد الدنيوى والاخروى بحيث يجد القارىء نفسه متأثراً بشدة من عمق مدلول هذه الروايات الشريفة، فهى تقرر أنّ التلوث بالشهوات سواءً بمفهومها العام أو الخاص يعد من الموانع الأساسية الّتى تصد الإنسان عن سلوك طريق السعادة والكمال، وكذلك من الأسباب المهمة لاشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمعات البشرية، وفيما يلى نستعرض بعض هذه الروايات والأحاديث الشريفة: ۱- ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّماءِ مِن الَه يُعبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۰ اعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوىً مُتَّبع» «۱». وبهذا يتضح أنّ اتباع الشهوة وهوى النفس يُعَدُّ من أخطر العوامل الّتى تقود الإنسان نحو منزلقات الخطيئة والانحطاط الأخلاقى. ۲- ويقول الإمام على عليه السلام «الشَّهَوَاتُ سُمُومٌ قَاتِلاتٌ» «۲» (حيث تقتل وتدمر شخصية الإنسان وايمانه ومروته). ۳- وجاء فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «الشَّهَوَاتُ مَصائِدُ الشَّيْطانِ» «۳» (حيث يصطاد الشيطان أفراد البشر بهذه الوسيلة بكلّ زمان ومكان وفى جميع سنوات العمر). ۴- وورد أيضاً عن هذا الإمام عليه السلام قوله «امْنَعْ نَفْسَکَ مِنَ الشَّهَواتِ تَسْلَمْ مِنَ الآفاتِ» «۴». ۵- وجاء فى حديث آخر عن الإمام «تَرْکُ الشَّهَوَاتِ افْضَلُ عِبَادَةٍ وَاجْمَلُ عَادَةٍ» «۵». ۶- يقول الإمام الصادق عليه السلام «مَنْ مَلَکَ نَفْسَهُ اذا غَضِبَ وَاذا رَغِبَ وَاذَا رَهِبَ وَاذا اشْتَهى حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ» «۶». ۷- يقول الإمام على عليه السلام فى حديث آخر «ضَادُّوا الشَّهْوَةَ مُضادَّةَ الضِّدِ ضِدَّهُ وَحَارِبُوهَا مُحَارِبَةَ الْعَدُوِّ العَدُوَ» «۷». وهذا الكلام يقرر بمنتهى الصراحة هذه الحقيقة وهى أن اتباع الشهوة يقع فى الطريق المقابل

للسعادة والكمال الإنسانى.

عواقب اتباع الشهوة فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام:

اما بالنسبة إلى عواقب اتباع الشهوات والأهواء الشيطانية فقد وردت تعبيرات عميقة للأحاديث الإسلامية ونحن نكتفى فى هذا المجال ببعض ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: ١- يقول أميرالمؤمنين على عليه السلام «اهْجُرُوا الشَّهَوَاتِ فَانَّهَا تَقودُكُمْ الى رُكُوبِ الذُّنُوبِ وَالْتَهَجُّم عَلَى السَّيئاتِ» «١». ٢- وفى حديث آخر نجد أنّ هذه المسألة تشتد لعاقبة اتباع الشهوات أنّ الإنسان يخرج من الدين والايمان كلياً فتقول الرواية «طَاعَةُ الشَّهْوَةِ تُفْسِدُ الدِّينَ» «٢». ٣- ويقول عليه السلام أيضاً: «طَاعَةُ الْهَوى تُفْسِدُ الْعَقلَ» «٣». ۴- «الْجَاهِلُ عَبْدُ شَهْوَتِهِ» «۴» يعنى إن الإنسان الجاهل يكون كالعبد الذليل المطيع لشهواته ونوازعه الرخيصة فلا اختيار له ولا حرية فى مقابلها. ۵- وفى حديث آخر «عَبْدُ الشَّهْوَةِ اسيرٌ لَايَنْفَكُّ اسْرُهُ» «۵» ۶- ويُقرر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عاقبة اتباع الشهوة وانها تمثل الفضيحة والعار على صاحبها «حَلاوَةُ الشَّهْوَةِ يُنَغِّصُهَا عارُ الْفَضيحَةِ» «۶». ٧- وفى حديث آخر يقرر الإمام عليه السلام أنّ الشهوة هى مفتاح جميع الشرور «سَبَبُ الشَّرِّ غَلَبَةُ الشَّهْوَةِ» «٧». ونظراً إلى أنّ كلمة «الشر» وردت بالألف واللام للجنس وذكرت بشكل مطلق فانها تدلّ الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢٧٢ على العموم وأنّ اتباع الشهوة يمثل منبعاً لجميع الشرور وأنواع الشقاء. ٨- ويشير الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى حديث آخر إلى هذه الحقيقة وهى أنّ غلبة الأهواء والشهوات على الإنسان تفضى إلى إيصاد سبيل السعادة والهدى أمام الإنسان ويقول «كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الهُدى مَنْ يَغلِبُه الهَوى «١». ٩- يقول هذا الإمام فى حديث آخر مشيراً إلى أنّ غلبة الشهوات يؤدى إلى ضعف شخصية الإنسان فيقول «مَنْ زَادَت شَهْوَتُهُ قَلَّتْ مُرُوّتُهُ» «٢». ١٠- وفى حديث آخر يبين الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وهى أن طريق الجنّة يقع فى الجهة المقابلة لاتباع الشهوة فيقول «مَن اشْتَاقَ الَى الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَوَاتِ» «٣». ١١- وفى رواية اخرى يُقرر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة، وهى أنّ الحكمة تتقاطع دائماً مع الشهوة فى قلب الإنسان ويقول «لا تَسْكُن الْحِكْمَةَ قَلْباً مَعَ شَهْوَةٍ» «۴».

النتائج الوخيمة لاتباع الشهوة:

اشارة

ومن خلال الأبحاث السابقة اتضح بأن «الشهوة» لها مفهوم عام وواسع بحيث يشمل كلّ رغبة وميل نفسانى يتيح للإنسان اللّذة، وبهذا لا تختص بالشهوة الجنسية رغم انها أحياناً وردت بمعنى الشهوه الجنسية بالخصوص. وقد ورد هذا المفهوم فى القرآن الكريم فى أحد عشر مورداً بالمفهوم العام، ولكن يستفاد المفهوم الخاص فى موردين، وأما فى الروايات الإسلامية وكلمات علماء الأخلاق فقد وردت هذه الكلمة فى الأغلب بمفهومها العام، وفى مقابل مفردة «العفة» الّتى تعنى الجام النفس وغض الطرف عن اللذائذ والذنوب. الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢٧٣ وقد ورد هذا المفهوم فى النصوص الدينية فى الأغلب بمعناه السلبى، ولكن أحياناً ورد بمعناه الإيجابى من قبيل قوله تعالى مخاطباً لأهل الجنّة «... وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ...» «١» أو يقول فى مكان آخر «... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ا لْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ا لْأَعْيُنُ ...» «٢». وعلى أى حال فإنّ هذه المفردة وردت فى الأغلب بمعناه السلبى والّذى يدلّ على الافراط فى اتباع الأهواء والنوازع النفسانية وغلبة الميول المخربة والمفضية إلى الوقوع فى الخطيئة والمعصية. وهكذا نجد أنّ هذه المفردة ومشتقاتها قد وردت فى ثلاثة عشر مورداً فى القرآن الكريم، ستة موارد منها تحمل المفهوم الإيجابى عن هذه المفردة، وسبعة اخرى تحمل فى مضمونها المعنى السلبى. وعلى أى حال فإنّ «الشهوة» بأى معنىً كانت إذا قصد منها المفهوم الخاصّ فإنّها تستبطن الأفراط فى اشباع الشهوة وبالتالى يترتب عليها الآثار المخربة والنتائج الوخيمة المترتبة على هذا السلوك المفرط فى طلب اللّذة، وقد مرّت الإشارة إلى

هـذه العواقب الوخیمـة فی الروایـات والأحـادیث المـذکورة آنفـاً، ولابـدّ من الاذعـان إلی أنّ مسیرة التاریـخ مملوءة من هـذه النتائج والعواقب الوخیمة للأفراط فی اشباع الشهوات ویمکننا الإشارة إلی هذه العواقب بشکل مختصر فی ما یلی:

۱- التلوث بالذنب

إن طلب اللّـذة وعبـادة الشـهوة یسوق الإنسـان باتجاه منزلقات الإثم وارتکاب أنواع الـذنوب، وفی الحقیقـة انه یعـد المصـدر الأساس للـذنب ومعصـیة اللَّه تعالی لأن الشـهوات إذا تغلبت علی الإنسان فبإمکانها أن تعمی وتصم الإنسان عن رؤیـة المخاطر ویکون مصداقاً للحدیث النبوی الشـریف حبُّک للشَّیء یُعمی ویُصم» «۳» وبـذلک تنقلب المفاهیم والحقائق الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۴ لدی العقل فیصـبح المعروف منکراً والمنکر معروفاً. ولهـذا السـبب بالـذات رأینا فی الروایات السابقة الواردة عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام (الروایة الثامنة) أنّ الإمام علیه السـلام یصـرح متسائلًا «کَیْفَ یَسْتَطیعُ الهُدی مَنْ یَغلِبُه الهَوی «۱». ویشـیر الإمام علیه السلام فی الحدیث العاشـر أیضاً إلی هذه الحقیقة وهی أنّ اتباع الشهوة یفسد شخصیة الإنسان ویضعف مروئته، وکذلک قرأنا قوله فی الحدیث التاسع أنّ اتبـاع الشـهوات بمثابـة عبـادة الوثن وبإمکانه أن یحطم إیمان الفرد ویتلف دینه، هـذا وقـد اورد المفسّرون وأرباب الحـدیث فی ذیل الآیات ۱۶ و ۱۷ من سورة الحشـر قصة العابد من بنی إسرائیل والذی یدعی «برصیصا» الّذی یُعَدُ شاهداً حیّاً علی هذا المدعی ولا بأس من استعراض هذه القصة النافعة رغم انها قد وردت فی الکثیر من الکتب المعروفة حیث نقل بعض المفسّرین أنّ رجلًا من بنی إسرائیل یدعی «برصـیصا» قد عبد اللَّه زماناً من الدهر حتّی کان یؤتی بالمجانین یداویهم ویعوذهم فیبرؤون علی یدیه، وانه أُتی بامرأة قد جُنّت وکـان لها أخوة فأتوه بها فکانت عنـده، فلم یزل به الشـیطان یزیّن له حتّی وقع علیها فحملت، فلما اسـتبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذهب الشـیطان حتّی لقی أحـد اخوتها فأخبره بالّـذی فعل الراهب وانه دفنها فی مکان کـذا، ثمّ أتی بقیـة أخوتها، وهکـذا انتشـر الخبر فساروا إلیه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالّذی فعل، فأمر به فصـلب، فلمّا رفع علی خشبة تمثل له الشیطان فقال: أنا الّذی ألقیت فی قلوب أهلها، وأنا الّذی أوقعتک فی هذا، فأطعنی فیما أقول أخلصک ممّا أنت فیه، قال: نعم. قال: اسـجد لی سجدة واحدة. فقال: کیف أسجد لک وأنا علی هذه الحالة، فقال: اکتفی منک بالإیماء، فأومی له بالسـجود فکفر باللَّه وقتل. فهو قوله تعالی: (کمثل الشـیطان إذ قال للإنسان اکفر ...». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۵ نعم هکذا هو مصیر من ابتلی بوسوسة الشیطان وسار فی خطّه.

۲- فساد العقل

إن اتبـاع الشـهوات والأـهواء النفسانیـة یُلقی علی عقل الإنسان وفکره حجاباً قائماً یمنعه من التمییز بین الحقّ والباطل، وأکثر من ذلک حیث یقلب الحقّ فی نظره إلی باطل ویجعل الباطل حقّاً، وقد قرأنا فی الروایات السابقة قوله علیه السلام «طَاعَةُ الهَوی تُفْسِدُ الْعَقلَ» «۱» ولهذا السـبب فإنّ الکثیر من طلاب الشهوة واتباع الهوی بعدما یرتکبون الممارسات القبیحة وتهدأ فی باطنهم سورة الشهوة وتخمد نار الهوی فإنّهم یعیشون حالـة الندم الشدید علی ما صدر منهم وأحیاناً یتعجبون من أنفسـهم علی الحماقة الّتی ارتکبوها. وفی هذا الصدد نقرأ قول أمیرالمؤمنین علیه السلام «اذا ابْصَرَتِ الْعَیْنُ الشَّهْوَةَ عَمِیَ الْقَلْبُ عَنْ العَاقِبَةِ» «۲».

۳- تحقیر شخصیة الإنسان الاجتماعیة

إن طلب الإنسان علی اللّـذة من شأنه أن یهـدم شخصـیة الإنسان ویحطم کیانه ومکانته الاجتماعیة ویسوقه إلی هاویة الذلّة والمسـکنة، لأـن مثـل هـذا الإنسـان یسـعی فی تحقیق رغبته وارضاء شـهوته إلی تحطیم الاطر الاجتماعیـة والثقافیـة السائـدة فی المجتمع ویرتکب الحماقات الّتی تفضـی إلی أن یکون مهاناً وحقیراً فی أنظار الناس، ومن البـدیهی أنّ الإنسان الّذی یعیش احترام الذات والمروءة فإنه

یشعر بنفسه علی مفترق طرق عند اشتداد النوازع والشهوات، فأما أن یرضخ لمتطلبات الشهوة ویذعن لتحدیات الهوی، أو یحتفظ باحترامه لذاته وکیانه الاجتماعی بین الناس، ومن العسیر غالباً الجمع بین هذین الاتجاهین. وفی حدیث ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «زِیَادَةُ الشَّهْوَةِ تُزری بِالْمُرُوَّةِ» «۳».

۴- اسر النفس

وأحد النتائج الوخیمة لاتباع الشهوات والأهواء هو أنّ الإنسان یقع اسیراً لنوازع النفس ومقیداً بقیود الشهوة، فالإنسان الشهوانی نجده یرزح تحت اغلال الشهوات إلی درجة أنّ الابتعاد عنها وکسر هذه القیود یضحی بالنسبة له أمراً قد یصل إلی درجة المحال أحیاناً، والمثال الواضح علی هذه الحقیقة هو ما نراه من الحیاة التعیسة والذلیلة للمدمنین علی المواد المخدرة، فإنّهم فی ظاهر الحال أحرار، ولکنهم فی الواقع أسری العادة والادمان الناشیء من أتباعهم لدواعی الشهوه فیعیشون حالة الأسر ویرزحون تحت قیود المواد المخدرة بحیث تمنعهم من أی حرکة إیجابیة ونافعة لأنفسهم ومجتمعهم وتطوقهم بأطواق حدیدیة تمنعهم عن أی انفلات ونجاة من هذا السجن المظلم، وخاصة إذا کان الهوی لدی الإنسان بمثابة أنواع من العشق الجنسی والشهوة الرخیصة للجنس الآخر، فحینئذٍ یصل الإنسان فی عبودیة الشهوة إلی الحدّ الأقصی یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا الصدد: «عَبْدُ الشَّهْوَةِ اسیرٌ لا یَنْفَکُّ اسْرُهُ» «۱». وفی حدیث آخر یقول هذا الإمام علیه السلام: «وَکَمْ مِنْ عَقْلٍ اسیرٌ تَحتَ هَوی أمیرٍ» «۲». وأیضاً ورد فی حدیث آخر أنّه قال: «الشَّهَوَاتُ تَسترِقُ الْجَهُولُ» «۳».

۵- الفضیحة والعار

الفضیحة الاجتماعیة هی أحد نتائج وافرازات الشهوة والرضوخ تحت مطالیبها الرخیصة، وتاریخ البشریة مفعم بنماذج من حیاة الشخصیات الممتازة والّتی لها رصید اجتماعی وافر ولکنهم وقعوا تحت تحدیات الشهوة ومطالیب الهوی فافضی بهم الحال إلی الفضیحة والعار. وقد ورد فی هذا الصدد الکثیر من النصوص الدینیة والأدبیة فی تراثنا الإسلامی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۷ والشعبی والّتی توضح هذه العلاقة بین اتباع الشهوة وبین الفضیحة والمذلة والمهانة الّتی تصیب هذا الإنسان المنحرف کما نقرأ ذلک فی قصة یوسف وزوجة عزیز مصر وکیف أنّ زوجة العزیز قد أدّی بها الأمر إلی الفضیحة والخزی رغم مقامها الشامخ لدی المجتمع المصری وکما یقول الشاعر: انَ الْهَوی هُوَ الهَوانِ قُلِبَ اسمُهُ فَاذا هَوَیْتَ فَقَدْ لَقَیْتَ هَوانا «۱»

عوامل وأسباب عبادة الشهوة:

اشارة

سبق وقلنا فی البحوث السابقة، أنّ علاج المفاسد الأخلاقیة یجب أن یبدأ من أسباب العلل والجذور، وتقدّم أنّ علماء الأخلاق یهتمون اهتماماً کبیراً فی مباحث هذا العلم بالبحث عن العلل والدوافع للسلوک الأخلاقی لدی الفرد، ولهذا السبب لابدّ من التطرق إلی العوامل والأسباب المؤدیة إلی أن یسلک الإنسان طریق عبادة الشهوة. إن الرغبات والمیول النفسانیة والّتی یعبر عنها بالشهوات وخاصّة الشهوة الجنسیة أمر طبیعی وموهبة الهیة ومن عوامل حرکة الإنسان نحو الکمال والتقدّم فی حرکة الحیاة والمجتمع، ولهذا لا یمکن إزالتها نهائیاً من واقع الإنسان ولا- یصحّ کبتها والسعی إلی تهمیشها والغائها، والتحرّک فی سبیل ارضاء هذه الشهوات بالمستوی المطلوب وفی حد الإعتدال لیس فقط لا یوجد أیَّ مشکلة فی حرکة الإنسان بل یُعد أحد العوامل الّتی توجب للإنسان التکامل والرقی

علی المستوی التربوی والاجتماعی. وامّا المفاسد الأخلاقیة المترتبة علی اشباع هذه الشهوات فتکمن فی طغیان الشهوة وخروجها عن موازین العقل والاعتدال فی ارضائها. والآن لابدّ من النظر فی العوامل الّتی تسبب خروج هذه الرغبات والمیول الباطنیة من سیطرة العقل بحیث تشکل للإنسان قوّة مخربة وتکون من أدوات الانحراف، وهذه العوامل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۸ المؤثرة فی ازدیاد ظاهرة الانحراف فی سلوک الإنسان الأخلاقی هی کما یلی:

۱- ضعف الإیمان

إن ضعف الإیمان هو العلّة الأصلیة لتغافل الإنسان عن الأوامر والتشریعات الإلهیة، فلو أنّ الإنسان کان یعیش بوجود اللَّه دائماً فی واقعه وقلبه ویراه حاضراً وناظراً إلی سلوکیاته وأفعاله، ویری محکمة العدل الإلهیة یوم القیامة بعین البصیرة فإنه لا یمکن أن یتجرأ علی کسر طوق الحدود الإلهیة ویتجاوز علی التشریعات الدینیة ویتلوث بالشهوات والمفاسد الأخلاقیة. وهذا المعنی هو البرهان الإلهی الّذی رافق یوسف فی أحلک الظروف وانقذه من التورط فی الإثم والمعصیة الّتی توفرت جمیع متقضیات ارتکابها وارتفعت جمیع الموانع لممارستها مع امرأة العزیز. فمع ضعف الإیمان وضعف التوجه إلی المبدأ والمعاد تتوفر حینئذٍ الأرضیة الکافیة لطغیان الشهوات بحیث یضحی الإنسان کالوحش الّذی خرج لتوّه من القفص، فلا یری أمامه أی رادع ومانع حیث یهجم علی کلّ شخص ویفترس کلّ ما یجده فی طریقه من الأحیاء. وهنا نلقی نظرة فاحصة علی ما ورد فی الحدیث الشریف الّذی قرأناه فیما سبق «مَنِ اشتَاقَ الَی الجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهواتِ» «۱». أحیاناً یتحرک الإنسان لاشباع الشهوة والتحرر من قیود الدین والأخلاق إلی کسر سد الإیمان، وفی هذا یقول القرآن الکریم «بَلْ یُرِیدُ الإنسانُ لِیَفْجُرَ امَامَهُ- یَسْئَلُ ایَّانَ یَوْمُ القیامَةِ» «۲»؛ الإنسان هنا یرید أن یتحرر من القیود المعنویة لیمارس الخطایا بدون خوف من یوم القیامة، ولهذا یسأل سؤال انکار وتردید.

۲- عدم الاهتمام بالکرامة الاجتماعیة والشخصیة الإنسانیة

إن عدم اهتمام البعض بالکرامة الاجتماعیة وعدم اهتمامهم بشخصیتهم الإنسانیة هو أحد العوامل الّتی تسبب للإنسان التلوث بأنواع الخطایا والتورط فی وحل الشهوات، فی حین أنّ احترام الإنسان لنفسه ولشخصیته الإنسانیة وحیثیته الاجتماعیة بإمکانه أن یقف حاجزاً ورادعاً عن ممارسة الخطیئة وطغیان الشهوة حتّی عُدَّ من عدم الإیمان باللَّه والآخرة. ولهذا السبب نجد أنّ الأشخاص الّذین یتمتعون بمکانة اجتماعیة فی المجتمعات غیر الدینیة لا یستسلمون لطغیان الشهوة بسهولة ولا یقعون ضحیة الأهواء والنوازع الرخیصة وخاصةً التحلّل الجنسی أو غریزة الغذاء واشباع البطن، لأن مکانتهم الاجتماعیة وسمعتهم وماء وجههم یقف سداً قویاً أمام طغیان هذه الشهوات، وعلیه فإنّ من یستسلم لنداء الشهوات ویرضخ لتحدیاتها هم فقط الأشخاص الّذین یعیشون الحقارة وضعف الشخصیة والدناءة.

۳- الغفلة والجهل

وأحد العوامل الاخری للتلوث بهذه الرذیلة الأخلاقیة هو الغفلة والجهل عن معطیات اتباع الشهوة وتأثیراتها السلبیة فی حرکة الإنسان والحیاة، لأن أکثر الرذائل الأخلاقیة تترتب علیها آثار سلبیة فی دائرة السلامة البدنیة والصحیة، الشخص الّذی یُفرط فی الطعام ویعیش حالة النهم إلی الغذاء واشباع البطن فإنه یبتلی بأنواع الأمراض البدنیة، وکذلک الشخص الّذی یفرط فی الغریزة الجنسیة فإنه یبتلی بضعف القوی البدنیة ویورثه هذا السلوک تدمیراً لشبکة الأعصاب ویورثه قصر العمر، وبالتالی یعرض سلامته الروحیة والجسمیة إلی الارباک والخلل. ولهذا نجد کثیراً من الأشخاص فی المجتمعات غیر الدینیة یلتزمون فی حیاتهم بالموازین الصحیة ویقیدون انفسهم

برعايـة الاعتـدال بالأكل والجنس، لأن الأطباء يوصون كثيراً فى رعايـة هـذه الامور وينبهون الناس إلى نتائـج الأفراط فى إشـباع هـذه الشـهوات الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۰ وعواقبها الوخيمة، وكذلك فإنّ المشـكلات الاجتماعية الناشـئة من اتباع الشـهوات غير قابلـة للانكار، فمن المعلوم أنّ افراط البعض فى طلب التنوع فى الأطعمة والاكثار من الغذاء هو السـبب فى أن يعيش البعض الآخر من النـاس حالـة الجوع وقلّـة الغـذاء، وهكـذا الحال فى التحلل الأخلاقى فى المسائل الجنسـية حيث يسـبب القلق والاضـطراب لـدى أفراد الاسـرة، وما أكثر ما يتسـبب فى سـريان التلوث بالخطيئة إلى داخل الاسرة الواحدة. وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ إنسان يلتفت جيداً إلى هذه الامور فسوف يحصل لديه العلم اليقينى بضرورة تقييد هذه الشهوات وضبطها من الانفلات والتحلل.

۴- المعاشرة مع رفاق السوء

ومن العوامل الاخرى للانحراف فى اشـباع الشهوات هو العشرة مع رفاق السوء والمحيط الملوث وادوات الأعلام الفاسد وأمثال ذلك، فـإنّ الغـالب على رفـاق السوء أنّهم يـدفعون من يعاشـرهم إلى ارتكـاب المحرمـات والتلوث بالـذنوب من خلال تعليمهم على الطرق المتنوعة لاشباع الشهوات بطرق ممنوعة بحيث يمكن القول أنّ أهم أسباب التلوث بالخطيئة والإنحراف فى اشباع الشهوة هو الاختلاط مع الملوثين والمنحرفين. وهكـذا بالنسـبة إلى أدوات الأعلام الفاسـد والمحيـط الاجتمـاعى الملوث تعتبر من العوامـل المهمـة للتلوث والإنحراف، وفى هذا المجال تحدّثنا فى الجزء الأوّل عن «الأرضـية المساعدة للفساد الأخلاقى) بشـكل وافر وذكرنا بشـكل مفصل أنّ العشرة والاختلاط مع الملوثين لا تفسد أخلاق الإنسان فحسب، بل قد تصل به إلى حدّ الكفر فى دائرة العقيدة أيضاً، ويتحدّث القرآن الكريم عن بعض أهل النار شارحاً لحالهم «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَّقَـدْ أَضَـلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» «۱». وهكذا نرى أنّ البيئة الفاسدة وعنصر التربية وما يقوم به الوالـدان من أسـاليب خاطئـة فى مجال تربيـة الطفل بسـبب ممارسـتهم للـذنوب وإنحرافهم عن الحقّ تعتبر من العوامل المؤثرة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۱ فى تلوث الإنسان بظاهرة الإنحراف وعبادة الشـهوة، ولهـذا نرى أنّ أغلب الأشـخاص الّذين كانوا يعيشون الأمان والطهر فى حياتهم عنـدما يلج فى مثل هذه البيئة الفاسدة والمحيط المنحرف سوف يتلوثون بالخطيئة ويفقدون إيمانهم السـابق ويغرقـون فى بحر الـذنوب والمفاسـد الأخلاقيـة. وبمـا إننـا بحثنـا هـذا المطلب فى الجزء الأوّل فى موضوع «كليـات المسـائل الأخلاقية» بشكل مفصل، فلذلك نكتفى بهذا المقدار من الإشارة إلى هذا المطلب المهم.

طرق علاج اتباع الشهوات:

اشارة

إن الطرق الكفيلـة بعلاج المفاسـد الأخلاقيـة تكاد تكون متشابهه فى الاصول فى جميع الموارد، وتتلخص هـذه الطرق بنحوين: علمى وعملى.

ألف) الطريق العلمى

والمراد من الطريـق العلمى هو أن الإنسـان يفكر ويتـدبر بالنتائـج والآثـار السـلبية لطلب اللّـذة واشـباع الشـهوة ويرى كيف إن الإنسـان المستسـلم لشهواته يعيش الذلّة والأسر وإنهزام الشخصية والشعور بالدونية والحقارة والابتعاد عن اللّه تعالى، وهذا المعنى نجده واضحاً على سـلوك اتباع الشـهوة وطلاب اللّذة الرخيصة وأنّهم كيف يعيشون الضـعف والوهن فى شخصيتهم الإنسانية وكرامتهم الاجتماعية.

وعلى هـذا الأساس فإنّ التأمل فى هـذه الظاهرة النفسـية والاجتماعية وكذلك التفكر فى حال وسيرة «اولياء اللَّه» واتباعهم المخلصين وكيف أنّهم وصلوا مقامات سامية من التكامل الإنسانى والأخلاقى بسبب محاربتهم للشهوات وامتناعهم عن سلوك طريق الخطيئة وصمودهم أمام تحديات الشهوة، مضافاً إلى ذلك فإنّ تقوية أركان العقل ودعائم الإيمان فى قلب الإنسان يجعله قادراً على كبح جماع شهواته وغرائزه، وفى هـذا المجال قال أميرالمؤمنين عليه السلام «مَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ استِهَانَ بِالشَّهَوَاتِ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۲ وفى حديث له عليه السلام «مَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ ظَهَرَ عَقْلُهُ» «۱». وكذلك قال عليه السلام «كُلَّما قَوِيَتِ الْحِكْمَةُ ضَعُفَتِ الشَّهْوَةُ» «۲». وفى حديث آخر يقول عليه السلام «اذْكُرْ مَعَ كُلِّ لَذَّةٍ زَوَالَهَا وَمَعَ كُلِّ نِعْمَةٍ انْتِقَالَهَا وَمَعَ كُلِّ بلِيَّةٍ كَشْفَها، فَانَّ ذَلِكَ ابْقى لِلنِّعمَةِ، وَانْفى لِلشَّهْوَةِ، وَاذْهَبُ لِلبَطَرِ، وَاقرَبُ الَى الْفَرَجِ وَاجْدَرُ بِكَشفِ الغُمَّةِ وَدَرْكِ الْمَأمُولِ» «۳». وعليه فإنّ التفكر فى العاقبة السيئة والآثار المخربة لاتباع الشهوات بإمكانه أنّ يصد الإنسان عن سلوك هذا الطريق، ولذلك نجد أنّ الأنبياء والقادة الإلهيين بذلوا جهوداً كبيرة فى هذا السبيل ليخلصوا الناس من التورط فى الخطايا والذنوب وينقذوهم من أسر الشهوات والأهواء. وفى حديث شريف عن رسول اللَّه يقول «خَمْسٌ انْ ادْرَكْتَمُوهُنَّ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِى قَومٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوهَا، الّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالاوَجَاعُ الَّتى لَمْ تَكُنْ فِى اسْلافِهِم الَّذِينَ مَضَوُا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكيَالَ وَالْميزانَ الّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلطانِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ الَّا مُنِعُوا الْمَطَرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهَائِمُ لمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ الّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِمْ عَدُوَّهُم وَاخَذُوا بعضَ مَا فِى ايْدِيهِمْ، وَلَمْ يَحْكُمُوا بِغَيرِ مَا انْزَلَ اللَّهُ الّا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بأسَهُمْ بَيْنَهُمْ» «۴». ولا شكّ أنّ التأمل والتدبر فى هذه المعطيات والنتائج الخطيرة لها تأثير مستمر أو مؤقت فى منع الإنسان عن ممارسة الخطيئة لارتكاب الذنب.

ب) الطريق العملى

ومن جهة اخرى فإنّ الطريق العملى لعلاج حالة «عبادة الشهوة» له وجوه وانحاء مختلفة منها: ۱- إن أفضل الطرق العملية للنجاة من مستنقع الشهوة هو الاشباع الصحيح للغرائز البدنية والرغبات الجنسية بالخصوص، لأنّه إذا تم اشباع هـذه الرغبات الباطنية والميول البدنية من طرق سليمة وبأدوات صحيحة فإنّ بإمكانها أن تنقذ الإنسان من النتائج السلبية والمخربة المترتبة على اتباع الشهوات، وبعبارة اخرى انه لا ينبغى للإنسان كبت هـذه الغرائز والرغبات والتغافل عن ارضائها بل يجب أن يسير بها المسار الصحيح والبنّاء لتكون مفيدة ونافعة فى حركة الحياة، وفى غير هذه الصورة يمكنها أن تتبدل إلى سيل مدمر ومخرب يهلك الحرث والنسل ولا يبقى للإنسان أى أثر من آثار الخير والصلاح. ولهذا السبب نرى أنّ الإسلام لم يهتم بالتسلية والترفية السليم والمعتدل فحسب بل عمل على حث الناس وترغيبهم فى هـذا الطريق لارضاء الغرائز، ومن ذلك ماورد فى خطبة معروفة للإمام الجواد الّتى قرأها عند عقد زواجه حيث قال «امّا بَعْدُ فَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْانَامِ انْ اغْناهُم بِالْحَلالِ عَنِ الْحَرام» «۱». وفى هذا الحديث المعروف هناك إشارة إلى هـذا المعنى أيضاً حيث تقول «لِلْمُؤمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ، فَسَاعَةٌ يُنَاجِى فيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمَّ مَعَاشَهُ، وَساعَةٌ يُخَلّى بَيْنَ نَفْسِهِ وَبينَ لَذَّتِها فيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ» «۲». ۲- ومن الطرق الاخرى للنجاة من قيود الشهوات هو أن يضع الإنسان لنفسه برنامجاً دقيقاً لحياته، لأنّه كلما سعى لبرمجة أوقاته فى اليوم والليلة «حتّى لو كان البرنامج يتضمّن جانب الترفية والرياضة البدنية» فإنه لا يكاد يجد برنامج للإنسياق وراء طلب اللّذة وفراغاً كافياً لسلوك طريق الشهوة. ۳- ومن العناصر الاخرى لعلاج هـذه الظاهرة أو الوقاية منها هو إزالة عوامل التلوث الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۴ بالخطيئة، لأن إمكانية التلوث بالشهوات فى البيئة الملوثة يكون أكثر، أى لو كانت أسباب المعصية متوفرة وطرق الإنحراف مفتوحة ووجود الحرية النسبية فى ارتكاب الذنوب واتباع الشهوات فإنّ النجاة من التلوث بالخطيئة ولا سيّما للشباب الّذين لا يمتلكون من المعرفة الدينية إلّاالقليل سيكون أمراً عسيراً للغاية. ۴- احياء الشخصية المعنوية والإنسانية لأفراد المجتمع يعد من الطرق المهمة للعلاج أو الوقاية من التلوث بالشهوات، لأنّه عندما يدرك الإنسان قيمة وجوده واعتباره وشخصيته ويعلم بانه يمثل عصارة الخلقة والغاية العليا بعالم الكائنات وخليفة اللَّه فى الأرض فلا يبيع نفسه بسهولة ولا يسلمها إلى عناصر الشهوة

وقوی الإنحراف. یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا المجال «مَنْ کَرُمَتْ عَلَیْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَیْهِ شَهْوَتُهُ» «۱» وفی حدیث آخر یقول علیه السلام «مَنْ عَرَفَ شَرَفَ مَعْنَاهُ صَانَهُ عَن دَنَائَةِ شَهْوَتِهِ ...» «۲». وآخر ما یقال فی هذا المجال هو انه لابدّ من الاهتمام بالطریق العملی لیس للتصدّی إلی الشهوات فحسب بل فی جمیع موارد مکافحة المفاسد الأخلاقیة لدی الفرد والمجتمع، بمعنی انه کلّما سلک الإنسان طریق مکافحة أهوائه الفاسدة وأخلاقه المنحرفة وسار فی الطریق القویم فإنّ هذه القوی والعناصر السلبیة ستخف وستندثر فی وجوده ونفسه وسوف ینتقل الإنسان فی هذا السلوک إلی أن یعیش الحالة النفسیة السلیمة، ومن هذه الحالة ینتقل إلی العادة، ومن العادة ینتقل إلی الملکة حیث تتحول هذه الحالة والعادة إلی ملکة راسخة فی نفسه وتکون بمثابة الطبع الکامل له، وعلی سبیل المثال إذا تحرّک الإنسان البخیل فی علاج هذا المرض الأخلاقی نحو البذل والعطاء فی دائرة الفعل والعمل، فإنّ نار البخل ستضعف وتخبو تدریجیاً فی باطنه إلی أن تنطفیء تماماً. فإذا تحرّک اتباع الشهوة أیضاً فی هذا الطریق وسلکوا مسلک التصدی والمقاومة أمام طغیان الشهوات، فإنّ هذه الشهوات والقوی المنحرفة الموجودة فی باطنهم ستضعف وتخبو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۸۵ تدریجیاً ویحل بدلها عنصر العقیدة ویعیش الإنسان حینئذٍ روح الطهارة والنقاء والانفتاح علی اللّه والمعنویات السامیة. وهذا المعنی نجده واضحاً بکلام أمیرالمؤمنین علیه السلام «قَاوِمِ الشَّهْوَةَ بِالْقَمْعِ لَهَا تَظْفُرْ» «۱».

شهوة الأکل والجنس:

لقد أورد الأعاظم من علماء الأخلاق کالفیض الکاشانی فی «المحجّة البیضاء» والمحقّق النراقی فی «معراج السعادة» والعلّامة السیّد شبّر فی کتاب «الأخلاق» کلًا من شهوة البطن وشهوة الجنس بصورة مستقلة وبحثوهما کلًا علی انفراد، وفی الحقیقة اتبعوا فی ذلک ما ورد فی الآیات القرآنیة والأحادیث الشریفة فی هذا المجال حیث ورد الاهتمام الکبیر بهاتین الغریزتین. الفیض الکاشانی یذکر فی کتابه «المحجّة البیضاء» هاتان الشهوتان ویقول: «أما بعد، فأعظم المهلکات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم علیه السلام وحواء من دار القرار إلی دار الذلّ والافتقار، إذ نهیا عن أکل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتّی أکلا منها فبدت لهما سوآتهما، والبطن علی التحقیق مصدر الشهوات ومنبت الأدواء والآفات. إذ یتبعها شهوة الفرج وشدّة الشبق إلی المنکوحات، ثمّ تتبع شهوة المطعم والمنکح شدّة الرغبة فی المال والجاه اللذین هما الوسیلة إلی التوسع فی المطعومات والمنکوحات، ثمّ یتبع استکثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسبات، ثمّ یتولد من ذلک آفة الریاء وغائلة التفاخر والتکاثر والکبریاء، ثمّ یتداعی إلی ذلک الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثمّ یفضی ذلک بصاحبه إلی اقتحام البغی والمنکر والفحشاء. وکلّ ذلک ثمرة إهمال المعدة وما یتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع وضیّق به مجاری الشیطان لأذعنت لطاعة اللّه ولم تسلک سبیل البطر والطغیان ولم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۸۶ ینجر به ذلک إلی الانهماک فی الدنیا وایثار العاجلة علی العقبی، ولم یتکالب کلّ هذا التکالب علی الدنیا. وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلی هذا الحدّ وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذیراً منها، ووجب ایضاح طریق المجاهدة لها والتنبیه علی فضلها ترغیباً فیها» «۱». والأخطر من ذلک أنّ الأشخاص من اتباع شهوة البطن والفرج یفقدون دینهم ویترکون إیمانهم فی هذا السبیل حیث نقرأ فی ذیل الآیة القرآنیة «وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَکُمْ وَلَا تَکُونُواْ أَوَّلَ کَافِرِ بِهِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِآیَاتِی ثَمَنًا قَلِیلًا وَإِیَّایَ فَاتَّقُونِ» «۲». إنّ اللّه تعالی یذم الیهود الّذین کانوا یشترون بآیات اللّه ویبیعونها بثمن بخس، فقد کانت هناک مجموعة من علماء الیهود وأحبارهم یقومون بتحریف آیات اللّه من أجل اشباع نهم شهواتهم لغرض دعوتهم لمجالس البذخ وموائد الترف الّتی کان یقوم بها الیهود اتجاه علمائهم، وبهذا فهم باعوا عملیاً آیات اللّه بثمن بخس «ولهذا انکروا وجود ذکر النبی الّذی یظهر آخر الزمان والّذی کان ینتظره الیهود والمذکور عندهم بالتوراة». وفی الروایات الإسلامیة نجد بحوثاً واسعة عن اخبار هاتین الشهوتین حیث تشیر إلی بعض هذه الموارد: ۱- قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله «ثَلاثٌ اخَافُهُنَّ بَعدی عَلَی امَّتی الضَّلالَةُ بَعْدَ المَعْرِفَةِ وَمُضِلّاتُ الْفِتَنِ وَشَهْوَةُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ» «۳». المقصود من الضلالة بعد المعرفة هو أن یترک الإنسان الحقّ والطریق المستقیم

بسبب وساوس المنحرفين وشبهات المخالفين ويسلك سبيل الانحراف والزيغ والضلالة، وهذا المعنى موجود دائماً وفى كلّ زمان وخاصة فى زماننا هذا. والمقصود من «مضلات الفتن» هو اشكال الامتحان الإلهى والاختبار الربانى لعباده الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۷ حيث يقع الإنسان أحياناً بسبب اتباعه للشهوات والأهواء فى الخطيئة ويسقط فى الامتحان، والمراد من «شهوة البطن والفرج» هو الأفراط فى الأكل وطلب اللّذة والأفراط فى طلب اللّذة الجنسية. إن سياق الحديث الشريف يوحى لنا بهذه الحقيقة، وهى أنّ الخطر المتوجه للناس والّذى يهدد وجودهم بسبب هذه الامور الثلاثة هو خطر عميق وجدى. ۲- يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى حديث آخر «اكْثَرُ مَا تَلِجُ بِهِ امَّتى النَّارَ الْاجْوَفَانِ الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ» «۱». ۳- ويقول الإمام الباقر عليه السلام «اذا شَبَعَ البَطْنُ طَغى «۲». ۴- وأيضاً يقول هذا الإمام فى حديث آخر «مَا مِنْ شَىءٍ ابْغَضُ الَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ بَطْنٍ مَمْلُوءٍ» «۳». ۵- وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا يُفْسِدُ التَّقوى الّا بِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ» «۴». ۶- وورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تَجْتَمِعُ الحِكْمَةُ وَالشَّهْوَةُ» «۵». ۷- وقال هذا الإمام عليه السلام أيضاً فى حديث آخر «مَا رَفَعَ امَرءاً كَهِمَّتِهِ وَلَا وَضَعَهُ كَشَهْوَتِهِ» «۶».

العفة من أكبر الفضائل الأخلاقية

تنويه:

تقع «العفة» فى النقطة المقابلة ل «شهوة البطن والفرج» وتعتبر من أهم الفضائل الإنسانية والأخلاقية على السواء. ويقول الراغب الاصفهانى فى كتاب «المفردات» فى معنى العفة أنّها حصول حالة للنفس تمتنع بها من غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطى لذلك. ويقول صاحب مقاييس اللغة فى معنى العفة: «العفة فى الأصل تأتى لمعنيين، الأول، الاجتناب عن القبائح، والآخر قلّة الشىء، ولذا يقال للبن المتبقى فى الرضع- عُفّة- على وزن مدّة». ويقول مؤلف كتاب «التحقيق» عن مفهوم العفة: «مادة عفّة فى الأصل بمعنى حفظ النفس من الميول والشهوات النفسانية، كما أنّ التقوى بمعنى حفظ النفس من ارتكاب الذنوب، وعلى هذا فالعفة صفة باطنية، فى حين أن التقوى ناظرة إلى الأعمال الخارجية». وقد ذكر علماء الأخلاق فى تعريف العفة انها الحدّ الوسط بين الشهوة والخمود. وماذكرنا آنفاً من معنى العفة كان فى مفهومهاالعام، لأن البعض قد أورد فى تعريف العفة النقطة المقابلة لها، أى الوقاحة وتمزيق ستار الحياء، ولهذا السبب نجد أنّ أكثر موارد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۰ استعمال مفردة «العفة» تختص للمسائل الجنسية. وعلى أى حال فإنّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية أنّ العفة (بكلا المعنيين) تعد من أعظم الفضائل الأخلاقية والإنسانية، ولا يمكن لأىشخص أن يسير نحو الكمال الإلهى ويسلك مسلك الانفتاح على اللَّه من دون التحلى بهذه الخصلة الشريفة، ونجد فى حياتنا الدنيوية أنّ كرامة الإنسان وشخصيته وسمعته رهينة بالتحلى بهذه الفضيلة الأخلاقية. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الكريمة هذا المفهوم السامى: ۱- «لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَايَسْئلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۱». ۲- «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» «۲». ۳- «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمخْلَصِينَ» «۳». ۴- «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ رَبّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مّنَ الْجاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۱ ۵- «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الْعَادُونَ» «۱». ۶- «... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ...» «۲».

التفسیر:

الفقیر المتعطش

فی «الآیـة الاولی یتحدّث القرآن الکریم عن أفضل موارد الانفاق ویقول مخاطباً المؤمنین بأن انفاقکم یجب أن یختص بالفقراء الّذین هـاجروا من بیوتهم واوطـانهم ولـم یسـتطیعوا تـأمین نفقـاتهم واحتیاجـاتهم عن طریق الجهـاد فی سبیـل اللّه أو السـفر للکسب والتجارة «لِلْفُقَرَآءِ الَّذِینَ أُحْصِرُواْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ لَایَسْتَطِیعُونَ ضَرْبًا فِی الْأَرْضِ» «۳». ثمّ یشـیر إلی خصوصـیة مهمة اخری من خصوصیات هؤلاء الفقراء، وهی أنّهم لشدة تعففهم وضـبطهم لأنفسـهم یحسـبهم الناس أغنیاء «یَحْسَبُهُمُ ا لْجَاهِلُ أَغْنِیَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِیَماهُمْ ...) «۴». أجل فإنّ هؤلاء یعیشون الضـبط الأخلاقی لنوازع النفس ولا یرسـلون السنتهم بالشکوی رغم احتیاجهم الشدید، ویسلکون مسلک الأغنیاء بین الناس ولکن المطلع علی أحوالهم یعرف حاجتهم ومسـکنتهم من سیماهم. ویبین القرآن الکریم سـمة اخری من سـماتهم ویقول «لَایَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ...» «۵». فهؤلاء لا یطلبون قضاء حاجتهم من الآخرین مهما أمکنهم ذلک، ولو اشتد بهم الحال واضطروا إلی المسألة، فإنّهم یفضـلون اقتراض ما یحتاجونه من المال علی السؤال من دون الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۹۲ أن یکون لدیهم اصـرار علی الآخرین. وفی ختـام الآیـة یقول تعـالی «وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ» «۱». أجل، فإنّ الأنفاق عملٍ إنسانی وفضـیلة أخلاقیـة وخاصـة علی من یتمتع بعزّة النفس وعلو الطبع وعفة الروح. وبدیهی أنّ المراد من «العفة» فی هذه الآیة هی العفة فی المسائل المالیـة لا الامور الجنسیـة، وقد ذکر بعض المفسّرین فی شأن نزولها انها نزلت فی «أصـحاب الصـفة» هؤلاء کانوا جماعة یبلغ عددهم أربعمائـة نفر تقریباً من المسـلمین المهاجرین من مکّـة وضواحی المدینة الّذین لم یکن لدیهم دارٌ فی المدینة ولا معارف وأقرباء فیها ولا عملٍ یتکسـبون فیه، ولکنهم فی نفس الوقت یعیشون فی غایة التعفف فی مکانٍ خاص إلی جوار مسجد النبی صلی الله علیه و آله، وکـان هؤلاـء یتحرکون نحو الجهـاد فی سبیـل اللّه متی ما أمرهم رسول اللّه صـلی الله علیه و آله وکانوا یتمتعون بعزّة النفس والتعفف الشدیـد بـالرغم من حـاجتهم الشدیـدة ومـا یشـعرون به من جوع. وعلی أی حـال فـالقرآن الکریم ذکر هؤلاـء فی الآیـة محـل البحث بتعبیرات مختلفـة من المـدح والثناء وجعلهم اسوة لجمیع المسـلمین. فی «الآیـة الثانیـة والثالثة» یتحدّث القرآن الکریم عن عفّة یوسـف وطهـارة ذیله فی أحلـک الظروف الّتی توفرت فیها جمیع أسـباب التورط فی الإثم والمعصـیة ولکنَّ یوسف حفظ نفسه أمام تحـدیات الواقع وضـغوط الحالـة واسـتعاذ باللّه تعالی، فنجح فی هذا الامتحان الإلهی الکبیر وخرج منه مرفوع الرأس، وکما یذکر القرآن الکریم واصـفاً هـذه الحالـة والحادثـة الّتی حـدثت لیوسف وامرأة العزیز فیقول: «وَرَا وَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَا بَ وَقَالَتْ هَیْتَ لَکَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوَایَ إِنَّهُ لَایُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۹۳ فلم تجذب ملامح یوسف ووجهه الجمیل عزیز مصـر فحسب، بل احبته زوجـة العزیز أیضاً وعشـقته بشدّة إلی درجة أن هذا العشق أثّر اثَرُهُ فی نفس هذه الامرأة وامتـد إلی أعماق قلبها، وشـیئاً فشـیئاً تعمق فی وجودها إلی درجـة انها لـم تعـد تُطیق کبته، ولکن النبی یوسف الّذی کان یعیش العفة والطهـارة والتقوی کـان قـد عشق اللّه تعـالی ولاـ غیر. هـذا وقـد اسـتخدمت امرأة العزیز الشابـة الجمیلـة شتّی الطرق بمختلف الوسائل للوصول إلی هـدفها، هـذه الوسائـل الّتی کـان یکفی بعضـها فی تحریـک أی شـابٍ أعزب فی عمر النبی یوسف، ولکنَّ یوسف عاش حالة الصـمود أمام تحدیات الشـهوة الشدیدة وفوّض نفسه وسـفینة حیاته إلی ذکر اللّه تعالی ورحمته، وإلّا لکان الغرق فی الخطیئة من نصیبه کما تصـرّح الآیة الّتی تلیها «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ کَذَلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَا لْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ا لْمُخْلَصِینَ» «۱». إن عبارة «من عبادنا» وکذلک «مخلصین» من العبارات العمیقة المعنی والّتی وردت فی هذه الآیة بعنوان اوسمة افتخار لیوسف علی موقفه الشـجاع هـذا. ورغم أنّ یوسف کان قد اتهم من قبل زوجة عزیز مصـر بالخیانة مع عفته وطهارته بحیث یمکنها أن تودی بحیاته، إلّاأنّ اللّه تعالی قـد وعد المؤمنین الطاهرین بالنجاة وانقذ یوسف بواسـطة شـهادة طفل رضـیع فی المهد ببراءته وطهارته من التهمة بصورة إعجازیة. وهناک مسطورات لبعض الأفراد الجهلة والمغرضین الّذین ذکروا فی تفسیر هذه الآیات أنّ المقصود بقوله

«همَّ بها» هو أنّ يوسف بدوره همَّ بالمعصية ومقاربة زليخا، وكما هو المعلوم أنّ هذا المعنى لا يليق بمقام عصمة الأنبياء ولا ينسجم مع سياق الآيات المذكورة أعلاه بل إن القرآن الكريم يصرّح بأنه لولا برهان اللَّه الّذى أعان يوسف فى وقت الشدّة لكان قد همَّ بها، ولكن بما إن برهان الرب حلَّ فى الوقت المناسب فإنه لم يقصد الخطيئة. وللفخر الرازى تعبير جميل فى تفسير هذه الآية حيث يقول: «وأما أنّ إبليس أقرّ بطهارته، فلأنه قال: فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلّاعبادك منهم المخلصين، فأقر بأنه لا الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٩۴ يمكنه اغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: «انه من عبادنا المخلصين» فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الّذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام الفضيحة إن كانوا من اتباع دين اللَّه تعالى فليقبلوا شهادة اللَّه تعالى على طهارته وإن كانوا من اتباع إبليس فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته» «۱». «الآية الرابعة» تتحدّث عن سيرة النبى يوسف المليئة بالأحداث بعدما حصل بينه وبين امرأة العزيز ماحصل، وتشير إلى محنة اخرى وامتحان آخر للنبى يوسف «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» فعندما امتد خبر وقوع هذه الحادثة ليشمل جميع بيوت المدينة وعلم الناس بقضية العشق الملتهب الّذى ألَمَّ بقلب امرأة العزيز اتجاه غلامها، فإنّ نسوة مصر اطلقن السنتهنَّ باللوم والتوبيخ لامرأة العزيز، ولكنها لما رأت ذلك أرادت إثبات براءتها فأعدت مائدة كبيرة واستضافت النسوة المعروفات ونساء الشخصيات الكبيرة فى مصر، ثمّ طلبت من يوسف أن يخرج عليهن ويدخل عليهنَّ ذلك المجلس الحافل. وعندما وقعت أعينهنَّ على الجمال العجيب ليوسف ارتبكن بشدّة وفقدن اختيارهُنّ وجرحنَّ أيديهنَّ بالسكين الّتى كانت بأيديهنّ لتقطيع الفاكهة وقلن جميعاً «حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَرًا إِنْ هذَآ إِلَّا مَلَكٌ» «۲». فعندما رأت امرأة العزيز منهن ذلك ورأت انها قد انتصرت فى هذا الموقف، توجهت إليهنّ بالخطاب وقالت «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّنَ الصَّاغِرِينَ» «۳». وكان هو ثانى امتحان صعب يمر بيوسف حيث وقع بين أمرين وطريقين، فاما أن الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٩۵ يستسلم لنوازع امرأة العزيز ويُرضى هيامها وعشقها منه، وبالتالى يعيش حالة الترف والدلال والنعمة الدنيوية، واما أن يقاوم هذه الرغبة الممنوعة ويكون مصيره السجن وتحمل أنواع الضغوط والصعوبات. ولكن يوسف ومن دون أى ترديد انتخب الطريق الثانى وسأل اللَّه تعالى أن يوفقه لذلك وقال «قَالَ رَبّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مّنَ الْجَاهِلِينَ» «۱». ويتضح من سياق هذه الآية أنّ نسوة مصر اللواتى حضرن فى مجلس امرأة العزيز قد دعون يوسف إلى التسليم لامرأة العزيز والرضوخ لطلبها، فكلّ واحدة تحدثت معه بأنواع الوسوسة فأحداهنَّ تقول: ايها الشاب ألم تر الجمال الآسر لامرأة العزيز، ألست تلتذ بالجمال وممارسة العشق معها؟ والاخرى تقول: إذا لم يؤثر فى قلبك جمال هذه المرأة فلا ينبغى أن تنسى انها زوجة عزيز مصر، فلو استطعت أن تكسب قلبها فسوف يكون بإمكانك التمتع بالثروة والمقام وتمام ما تريد فى الحياة. الثالثة تحذره من أنك لو لم يؤثر فيك جمال هذه المرأة، ولم تكن تهم بمقامها ومكانتها الاجتماعية ولكنك يجب أن تعلم بأن هذه المرأة سوف تغضب عليك وتتحول إلى موجود خطر يهدد حياتك، وسوف تنتقم بنفسها وترسلك إلى قعر السجون المظلمة حيث تنسى إلى الابد. وبما أنّ الطريق الأخير الّذى يقف أمام يوسف وهو الوقوع فى السجن الموحش فإنّ يوسف طلب من اللَّه تعالى ذلك فوراً، وخاطب ربّه بأن السجن احبُ إلىَّ من الوقوع بالمعصية والإثم، فانا مستعد لدخول السجن اطاعة لأمره وحفظاً لحدوده ومن أجل المحافظة على شرفى وعفتى فى مقابل طلب هؤلاء النسوة، وكان تهديد هؤلاء النسوة ليوسف بصورة جدية، وقد تمّ ذلك عملياً وأُلقى يوسف فى السجن، وبذلك انقذ نفسه وشرفه من تلوثات القصر ومفاسد المحيط حيث تذكر الآيات الّتى تلى هذه الآية أنّ ذلك السجن الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٩۶ الموحش كان فى الحقيقة سُلّماً لنيل يوسف مراتب سامية من الكمال الإلهى والمعنوى، وأخيراً تمكن يوسف بمشيئة اللَّه أن يجلس على عرش مصر واستطاع بمحافظته على تقواه وعفته وشرفه أن ينال كلّ شىء، فى حين أنّ جميع الملوثين افتضحوا ولم ينالوا مرادهم، فكان هذا هو جزاء اللَّه تعالى وثوابه الدنيوى للشرفاء والمخلصين من عباده، ويقول القرآن الكريم فى سياق هذه الآيات فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۱».

العفة السمة الأخلاقية للمؤمن:

«الآية الخامسة» من الآيات محل البحث تتحدّث عن الصفات البارزة للمؤمنين حيث يذكرها القرآن الكريم بعبارات قصيرة ومليئة بالمعنى ضمن بيان قسم مهم من صفات المؤمنين، ويذكر صفة العفة والطهارة بأنّها إحدى الصفات والخصال الممتازة لهؤلاء المؤمنين ويقول «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» «۲». والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يذكر من ضمن الصفات الممتازة للمؤمنين صفة العفة بعد الصلاه والزكاة والامتناع من اللغو وحتّى انه يذكرها قبل صفة الأمانة والوفاء بالعهد أيضاً.

العفة مفتاح النجاة:

وفى (آخر آية) من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم عشرة طوائف من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۷ الرجال والنساء الّذين نالوا المغفرة من اللَّه تعالى والأجر العظيم، فتذكر الآية فى سياقها أنّ الطائفة التاسعة من هؤلاء الرجال والنساء هم الّذين يعيشون العفة والطهارة من التلوث بالذنوب والّذين حفظوا اذيالهم وشرفهم من وحل الخطيئة. وتشير الآية الكريمة إلى الطائفة العاشرة من هؤلاء فى سياق بيان أوصافهم أنّهم كثيراً ما يذكرون اللَّه تعالى ولا يصعب أن تكون هذه الصفة مرتبطة مع الصفة السابقة، وهى العفة لوجود الارتباط الوثيق بين العفة وذكر اللَّه تعالى، فتكون من نتائج التحلّى بهذه الصفات هى المغفرة الإلهية والأجر العظيم الّذى لا يعلم عظمته إلّااللَّه تعالى. وقد وردت فى النصوص الدينية إشارة اخرى إلى أحد الطرق لحفظ النفس أمام تحديات الشهوة وطغيان الغريزة الجنسية، وهو «الصوم»، فعليه يكون بين العفة والصوم ارتباط وثيق ومباشر حيث يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ من اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةُ فَلْيَتَزَوَّجُ فَانَّهُ اغَضُّ لِلْبَصَرِ وَاحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعُ فَعَلَيهِ بِالصَّوْمِ» «۱».

العفة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية الاهتمام الشديد بالعفة حيث نشير إلى بعض ما ورد فيها: ۱- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «افْضَلُ الْعِبادةِ الْعِفافُ» «۲». ۲- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشىءٍ افْضَلَ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ» «۳». ۳- وفى روايةٍ اخرى عن هذا الإمام فى تفسيره للرواية السابقة انه جاء رجل إلى الإمام عليه السلام وقال: إنى ضعيف العمل قليل الصيام ولكنى أرجو أن لا آكل إلّاحلالًا. فقال له الإمام عليه السلام: «ايُّ الإجْتَهَادِ افْضَلُ مِنْ عِفَّةِ بِطْنٍ وَفَرْجٍ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۸ ۴- ويقول الإمام على عليه السلام: «اذا أرادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيراً اعَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ» «۱». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفضل فى وصف الشيعى الواقعى: «انَّمَا شِيعَةُ جَعْفَرٍ مَنْ عَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَاشْتَدَّ جَهَادَهُ وَعَمَلُ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوابهُ وَخَافَ عِقَابَهُ، فَاذَا رَأَيْتَ اولئكَ فَاولئكَ شِيعَةُ جَعْفرٍ» «۲». ۶- ويقول أميرالمؤمنين على عليه السلام: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوَّتِهِ، وَشُجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ انْفَتِهِ وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ» «۳».

النتيجة:

لقد تحصّل لدينا من خلال الآيات والروايات الشريفة أنّ الإسلام يهتم اهتماماً بالغاً بمسألة عبادة شهوة البطن والفرج وجعل من مسألة الغيرة على العرض علامة الشخصية المؤمنة وظاهرة من ظواهر سلوك الإنسان الشيعى الموالى لأهل البيت عليهم السلام، والتاريخ البشرى حافلٌ بالحوادث المأساوية الّتى تمتد جذورها إلى هذين العاملين «شهوة البطن والفرج» لأن شهوة البطن لا تسمح للإنسان فى التفكير المشروع لتحصيل الغذاء ورعاية حقوق الآخرين وسلوك طريق العدالة فى تحصيله، ولهذا السبب فإنّها تدفع الإنسان إلى أنواع

الخطايا والذنوب فى سبيل ارضائها، مضافاً إلى ذلك فإنّ شهوة البطن تعدُ مصدراً وسبباً أكيداً إلى الكثير من الأمراض الجسمية والأخلاقية إلى درجة أنّ هذه الغريزة تصبح بمثابة الوثن الّذى يدعو صاحبه إلى عبادته وطاعته فى جميع سلوكياته فى حركة الحياة والواقع الاجتماعى. وفى هذا المجال يقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى معرض حديثه عن آخر الزمان «يَأْتِى عَلَى النّاسِ زَمانٌ بُطُونُهُمْ آلِهَتُهُمْ وَنِسَائُهُم قِبْلَتُهُمْ وَدَنَانِيرُهُمْ دِينُهُمْ، وَشَرَفُهُمْ مَتَاعُهُمْ، لا يَبْقى مِنَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۹ الايمَانِ الّا اسْمَهُ وَلا مِنَ الاسلامِ الّا رَسْمَهُ وَلا مِنَ القُرآنِ الّا دَرْسَهُ، مَسَاجِدُهُمْ مَعْمُورَةٌ مِنَ الْبَنَاءِ وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ عن الْهُدى» «۱». وقد ورد فى ذيل هذا الحديث أنّ اللَّه تعالى سوف يبتلى هؤلاء الناس بأربع بلايا: جور السلطان، وقحط الزمان، وظلم الامراء والحكّام. والفرق بين الظلم والجور «كما ورد التقابل بينها فى الكثير من الروايات» يمكن أن يكون من جهة أنّ مفردة الجور فى الأصل تعنى الإنحراف عن طريق الحقّ، وعليه فإنّ جور السلطان يطلق على إنحراف سلوكيات أصحاب السلطة، فى حين أنّ الظلم يعنى عدم العدالة. وفى حديث آخر عنه يقول «ايّاكَ وَادْمَانَ الشَّبَعِ فَانَّهُ يُهَيّجُ الاسْقَامَ وَيُثيرُ العِلَلَ» «۲». وروى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من وُقى شرّ بطنه ولسانه وفرجه فقد وُقى من جميع البلايا» «۳».

طرق الوقاية من التحلل الأخلاقى:

اشارة

ومن أجل الوقاية من التحلل الأخلاقى وضبط الشهوات وخاصةً الشهوة الجنسية وشهوة البطن، هناك عدّة طرق عامة وكلية، أى سارية فى عملية الوقاية من جميع المفاسد الأخلاقية من قبيل تطهير المحيط الاجتماعى، دور الرفاق والأصدقاء، تربية الاسرة، العلم والمعرفة بنتائج وآثار الرذائل الأخلاقية، المسائل الثقافية وأمثال ذلك. وقد تحدّثنا فى هذا المجال بصوره مفصلة وكاملة فى الجزء الأوّل من هذه الدورة الأخلاقية تحت عنوان الشرائط اللازمة لتربية الفضائل الأخلاقية وهناك طريق آخر خاصّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۰ يتعلق بمسألة «العفة» فى المسائل الجنسية وسائر الشهوات النفسانية حيث يمكن استعراض عدّة امور للوقاية من استفحال وطغيان هذه الغريزة وضبط النفس على مستوى السلوك الأخلاقى:

۱- الحجاب وترك الزينة أمام الأجانب

لا شكّ أنّ أحد الامور الّتى تفعّل الغريزة الجنسية وتزيد من ضراوتها هو «التعرى والتزين بالنسبة للرجال والنساء» حيث يقع تأثير أحدهما بالآخر بشدّة وخاصة بالنسبة إلى الشباب العزاب بحيث يمكن القول أنّ التلوث بالخطايا الجنسية والإنحراف الجنسى يرتبط مباشرة بعدم الحجاب والتعرى والتزين أمام الأنظار حتّى انه طبقاً لبعض الأحصائيات أنّ هناك علاقة طردية بين زيادة واشتداد هذا العامل وبين زيادة التلوث الجنسى والتحلل الأخلاقى، مثلًا فى فصل الصيف وبسبب حرارة الجو فإنّ النساء يخففن من البستهنّ، وبهذه النسبة يتعرضن إلى التحرشات اللاأخلاقية من قِبل الشباب، وعلى العكس من ذلك فإنّ النساء فى فصل الشتاء وبسبب الملابس الشتوية وارتداء الثياب الّتى توفر لهنّ الحماية من برودة الجو فإنّ التعرض والتحرش بهنَّ يقل عن فصل الصيف، ولهذا فقد ورد التأكيد فى الشريعة الإسلامية على الحجاب حيث يذكر القرآن الكريم فى آيات متعددة منها الآيات ۳۱ و ۶۰ من سورة النور، والآيات ۳۳ و ۵۳ و ۵۹ من سورة الأحزاب على مسألة الحجاب ويخاطب أحياناً النساء المؤمنات، وأحياناً اخرى نساء النبى، وثالثة يستثنى العجائز والمسنات منهنّ حيث يتضح من ذلك التكليف الشرعى لسواهن، وعلى هذا يبين القرآن بعبارات مختلفة أهمية هذه الوظيفة الشرعية فى حركة الحياة والمجتمع الإسلامى. وبديهى أن ترك الحجاب أى السفور والتبرج هو مقدمة للتعرى والتحلل الجنسى الّذى يترتب عليه نتائج وخيمة ومفاسد كبيرة فى كلّ عصر وزمان. إن التبرج وعدم الإلتزام بالحجاب يسبب أن تتحرك بعض النسوة فى

حالة منافسة ومسابقة مستمرة لابداء وعرض مكامن اجسادهن وتحريك الشبان من هذا الطريق، وهذه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۱ الظاهرة تكاد تستفحل فى هذا العصر والزمان بسبب مشاكل التحصيل العلمى وما يرافق الزواج من مشكلات اقتصادية وارتفاع سن الزواج بحيث إن الغالبية من أفراد المجتمع هم من العزاب، وبهذا فإنّ المخاطر والأزمات الاجتماعية والنفسية الّتى يعيشها الناس فى هذا الزمان هى أكثر من أى وقتٍ مضى مضافاً إلى ذلك فإنّ التبرج والسفور من الناحية الأخلاقية والاجتماعية يتسبب فى ارباك العوائل على مستوى الأمن والاستقرار ويؤدى إلى بروز الجرائم الجنسية والأزمات العائلية، ويؤدى أيضاً إلى ازدياد الانفعال العصبى والأمراض النفسية الاخرى أيضاً الّتى تعد أحد افرازات ونتائج ضعف الوشائج الاسرية والروابط العائلية وضعف قيمة شخصية المرأة فى المجتمع.

٢- عدم اختلاط الرجل والمرأة

لا شكّ أنّ المجتمعات البشرية المعاصرة لا تتمكن من الفصل التام بين الرجل والمرأة فى حركة الواقع الاجتماعى، ولكن يمكن توقى الاختلاط فى الموارد غير الضرورية وبذلك يتسنّى للمجتمع التوصل إلى حفظ العفة الاجتماعية والتقوى الجنسية أكثر، والسبب الّذى يحتم هذ الضرورة هو كثرة المفاسد الأخلاقية والفضائح الاجتماعية فى مجتمعاتنا المعاصرة كما هو الملاحظ فى المجتمعات الغربية الّتى تبيح اختلاط الذكور والأناث بصورة فاحشة.

٣- رؤية التصاوير الخليعة والأفلام الرخيصة

إن للافلام الخليعة وبعض البرامج التلفزيونية دور مؤثر وكبير فى تحريك الغريزة الجنسية وخاصة بين الشباب، حيث يقوم الانتهازيون والفئات المنحرفة بالتكسب والتجارة عن هذا الطريق اللامشروع ويعملون على نشر الفحشاء والمنكر من خلال صناعة الأفلام المبتذلة أو كتابة القصص الخليعة ونشرها بين أفراد المجتمع بالوسائل المختلفة فتنتقل عِبر الأمواج إلى شتّى بقاع المعمورة من دون أى رادعٍ ووازع شرعى أو قانونى، وبهذا يتمكنون من خلق التعقيدات النفسية والأخلاقية للمجتمع البشرى، وأى غفلة عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۲ هذه السلوكيات المنحرفة تؤدى إلى السقوط الأخلاقى والحضارى للمجتمع الإنسانى. ومع غاية الأسف أنّ بعض الكتّاب وأهل العلم والمعرفة راجعوا هذه المسألة من موقع الانفعال، واستسلموا لهذه الفتنة، وسكتوا فى مقابل تحديات الواقع المنحرف بحجّة أنّ مخالفة هذه الظواهر المنحرفة غير ممكنة، أو مخافة الظهور أمام الناس بمظهر مختلف ورجعى أو مخافة الاتهام بالاصولية والرجعية، ولهذا فقد تركوا التصدى لقوى الإنحراف هذه وسلّموا المجتمع الإسلامى إلى أمواج الخطر. ۱۶

عامل الغفلة

تنويه:

«الغفلة» لها مفهوم واسع وشامل بحيث تستوعب فى طياتها الجهل بشرائط الزمان والمكان وظروف الواقع الّذى يعيش فيه الإنسان وتشمل الظروف الماضية والحاضرة والمستقبلية، وكذلك أفعال الشخص وصفاته وسلوكياته وما يظهر له من آيات الحقّ والنذر والعِبر الّتى تتزامن مع حوادث المعيشة والوقائع الّتى تصيب الإنسان فى حركة الحياة، والغفلة عن هذه الوقائع والحوادث وعدم اتخاذ موقف صحيح منها يمثل خطراً كبيراً يواجه سعادة الإنسان وشخصيته، هذا الخطر الّذى يمكن أن يحيط بالإنسان ويبتلعه ويهوى به فى مطاوى النسيان والعدم، الخطر الّذى بإمكانه أن يهدر أتعاب الإنسان بسنوات لذيذة من عمره فى لحظة واحدة. ولعلّكم سمعتم كثيراً بأن الشخص الفلانى الّذى كان يمتلك ثروة طائلة قد فقدها فى لحظة من لحظات الغفلة، وهكذا حال الإنسان فى طريق السعادة والحياة

المعنویة، فیمکن أن یعیش الإنسان الغفلة فی لحظة واحدة حتّی تتحول ثروته المعنویة وملکاته الإنسانیة إلی رماد وتراب. ولهذا السبب فإنّ علماء الأخلاق قد تحرکوا فی کتاباتهم لاستعراض مسألة «الغفلة» الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۴ وما یقابلها من «التذکر» وبحثوا أسباب هذه الظاهرة والعوامل الّتی تؤدی إلی استفحالها فی وجود الإنسان أو الطرق الکفیلة بإزالتها والحدّ من نتائجها السلبیة. وبهذه المقدمة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الإلهیة ما یسلط الضوء علی هذه المسألة المهمة فی حیاة الإنسان، والآیات الکریمة الّتی تتحدّث عن ظاهرة الغفلة کالتالی: ۱- «وَلَقَدْ ذَرَأْ نَا لِجَهَنَّمَ کَثِیرًا مِّنَ ا لْجِنّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّایَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْیُنٌ لَّایُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّایَسْمَعُونَ بِهَآ أوْلَئکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أوْلَئکَ هُمُ ا لْغَافِلُونَ» «۱». ۲- «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإذَا هِیَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِینَ کَفَرُواْ یَاوَیْلَنَا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا بَلْ کُنَّا ظَالِمِینَ» «۲». ۳- «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَا لْعَشِیّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُعَیْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ ا لْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِکْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۳». ۴- «إنَّ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِینَ هُمْ عَنْ ءَایَاتِنَا غَافِلُونَ* أوْلَئکَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا کَانُواْ یَکْسِبُونَ» «۴» ۵- «یَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مّنَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ عَنِ الْأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» «۵» ۶- «سَأَصْرِفُ عَنْ آیَاتِیَ الَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ ا لْحَقّ وَإنْ یَرَوْاْ کُلَّ آیَةٍ لَّایُؤْمِنُواْ بِهَا وَإنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ الرُّشْدِ لَایَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا وإنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ ا لْغَیّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُواْ بِآیَاتِنَا وَکَانُواْ عَنْهَا غَافِلِینَ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۵ ۷- «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِی الْیَمّ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُواْ بِآیَاتِنَا وَکَانُواْ عَنْهَا غَافِلِینَ» «۱». ۸- «فَإذَا رَکِبُواْ فِی الْفُلْکِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلَی الْبَرّ إذَا هُمْ یُشْرِکُونَ» «۲». ۹- «وَمَن یَعْشُ عَن ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیّضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ» «۳». ۱۰- «إنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْاْ إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشَّیْطَانِ تَذَکَّرُواْ فَإذَا هُم مُّبْصِرُونَ». «۴» ۱۱- «لَّقَدْ کُنتَ فِی غَفْلَةٍ مّنْ هذَا فَکَشَفْنَا عَنکَ غِطَآءَکَ فَبَصَرُکَ ا لْیَوْمَ حَدِیدٌ». «۵» ۱۲- «وَأَنذِرْهُمْ یَوْمَ ا لْحَسْرَةِ إذْ قُضِیَ ا لْأَمْرُ وَهُمْ فِی غَفْلَةٍ وَهُمْ لَایُؤْمِنُونَ». «۶»

تفسیر واستنتاج:

«الغفلة» المنبع الأصلی للمشکلات

«الآیة الاولی من الآیات محل البحث تتحدّث عن أسوأ أفراد البشر وتستعرض فی طیاتها فئة من الناس هم أشقی الناس جمیعاً وتصفهم بعدّة أوصاف وتقول «وَلَقَدْ ذَرَأْ نَا لِجَهَنَّمَ کَثِیرًا مّنَ ا لْجِنّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّایَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْیُنٌ لَّایُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّایَسْمَعُونَ بِهَآ أوْلَئکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أوْلَئکَ هُمُ ا لْغَافِلُونَ» «۷». فی هذه الآیة الشریفة نجد أنّ عنصر الغفلة یمثل العامل الأساس لشقاء الإنسان والسبب الأصلی الّذی یدفع الإنسان إلی جهنم وبئس المصیر، الغفلة الّتی تنشأ من ترک الإنسان بالتفکر والتدبر وعدم استخدام بصیرته وعدم إصغائه لصوت الحقّ حتّی یصل به الأمر إلی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۶ أن یصل إلی مستوی الانعام بل اضل منها واتعس، لأن الأنعام إنّما تعیش الغفلة فی حیاتها بسبب انها خلقت کذلک وعدم وجود ملکة التنبه والتعقل فی ذاتها، فی حین إن الإنسان إذا عاش الغفلة فی حیاته مع وجود عوامل التنبه بأدوات التذکر والتعقل فسیکون أضل من الأنعام بالتأکید. إن مفهوم الآیة أعلاه لا یعنی أنّ اللَّه تعالی یجبر بعض الناس علی سلوک طریق جهنم بل کما ورد التصریح فی الآیة نفسها أنّ أهل النار عندما صاروا من أهل النار بسبب اختیارهم لهذا الطریق والسلوک الشائن، لأن اللَّه تعالی قد أعطاهم العقل ولکنهم لم یستخدموا عقولهم، وأعطاهم السمع والبصر ولکنهم لم یصحوا إلی الحقائق الإلهیة فی آذانهم ولم یروا آیات اللَّه بأبصارهم، إذن فکلما یواجهونه من مشاکل دنیویة أو اخرویة فهو بسبب اختیارهم ومن ناحیتهم، وغایة الأمر أنّ اللَّه تعالی قد قرر قانوناً وناموساً یحکم عالم الوجود فی دائرة الإنسان، وهو أنّ کلّ من لم یستخدم المواهب الإلهیة فی مجالها الخاصّ ولم یتحرّک فی سبیل استخدام قابلیاته الذاتیة فی طریق التکامل المعنوی فسیکون مصیره إلی جهنم فی الآخر، فحصول هذا الشرط فی هذا القانون یرتبط بإرادة الإنسان ذاته. «الآیة الثانیة» تتحدّث عن الکتاب فی عرصات یوم القیامة، فی ذلک الوقت الّذی یقترب فیه وعد اللَّه حیث تسری فیه الوحشة ویملک الخوف

جمیع وجودهم وتتحجر عیونهم من الرعب، وهناک یتعالی صراخهم وعویلهم وینادون بالویل والثبور علی ما کانوا فی غفلهٔ من هذا الحال «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِیَ شَاخِصَهٌ أَبْصَارُ الَّذِینَ کَفَرُواْ یَاوَیْلَنَا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَهٍ مِّنْ هَذَا بَلْ کُنَّا ظَالِمِینَ» «۱». وعلی هذا فإنّ هذهٔ الفئهٔ من الناس یُقرون بأن «الغفلهٔ» هی العامل الأساس فی انحرافهم عن جادهٔ الحقّ، الغفلهٔ الّتی دعتهم إلی أن یتحرکوا من موقع الظلم علی أنفسهم وعلی الآخرین وترکهم لدعوهٔ الأنبیاء والکتب السماویهٔ والقاءها وراء ظهورهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۷ هؤلاء یتحدّثون بهذا الکلام عندما تصیب الزلزلهٔ جمیع عالم الوجود وتتجلّی یومئذٍ علامات القیامهٔ وتزول حجب «الغفلهٔ»، وهناک یعیش هؤلاء الندم حیث تکون أبواب التوبهٔ والانابهٔ إلی اللَّه مؤصدهٔ أمامهم «۱». «شاخصهٔ» من مادّهٔ «شخوص» وهی فی الأصل بمعنی الخروج من المنزل أو المدینهٔ إلی مدینهٔ اخری، وبما أنّ الإنسان عندما یستولی علیه الرعب تشخب عیناه وتتوقفان عن الحرکهٔ حیث یظل ینظر إلی نقطهٔ معینهٔ فی حالهٔ من البهت بحیث تکاد تخرج حدقهٔ العین من مکانها، فهذه الحالهٔ یطلق علیها بالشخوص. «الآیهٔ الثالثهٔ» تخاطب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله من موقع الارشاد لمن یصح معاشرتهم والحیاهٔ معهم وتقول «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوا هِ وَا لْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُعَیْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَهَ ا لْحَیَاهِ الدُّنْیَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِکْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۲». فی هذه الآیهٔ نقرأ صفات الأشخاص الّذین یمتلکون اللیاقهٔ لیکونوا فی صحبهٔ النبی ورفقته من موقع اتصافهم بالایمان والعبادهٔ وذکر اللَّه تعالی فی الصباح والمساء، وتحذر الآیهٔ الشریفهٔ أیضاً من اطاعهٔ الغافلین عن ذکر اللَّه والّذین یتحرکون من موقع الأهواء والشهوات إلی درجهٔ الافراط، ومن خلال مضامین هذه الآیهٔ الکریمهٔ نستوحی وجود علاقهٔ بین اتباع الهوی وبین الغفلهٔ، أجل فإنّ الغافلین عن ذکر اللَّه هم الّذین یتبعون أهوائهم ویعیشون حالهٔ الافراط فی سلوکیاتهم، ولو لم یکن فی ذمّ «الغفلهٔ» الا هذا لکفی وطبقاً لما بیّنته الآیهٔ أعلاه من أنّ اللَّه تعالی قد أغفل قلوب هؤلاء «أغفلنا قلبه عن الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۸ ذکرنا» یتضح جیداً أنّ ذلک کان نتیجهٔ أعمالهم السیئهٔ فی الحیاهٔ الدنیا وعلی شکل عقوبهٔ إلهیهٔ. والمعروف أنّ الآیهٔ محل البحث نزلت فی طائفهٔ من الأثریاء والمتکبرین فی عصر النزول حیث جاءوا إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وقالوا له: یا رسول اللَّه، إنک لو جلست فی صدر المجلس ونحیت عنّا هؤلاء وأریاح جبابهم- یعنون بذلک سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمین وکانت علیهم جباب الصوف ولم یکن علیهم غیرها- جلسنا إلیک وحادثناک وأخذنا عنک، فأنزل اللَّه تعالی هذه الآیهٔ إلی قوله: إنا اعتدنا للظالمین ناراً ... «۱». إن اللَّه تعالی کان یعلم ما فی نفوس هؤلاء الغافلین وأنّهم یعیشون الادعاءات الفارغهٔ والشعارات الجوفاء وأنّهم لیسوا بقابلین للاعتماد والثقهٔ لا فی حالهٔ الصلح ولا فی زمن الحرب ولا یمکن الاستفادهٔ من أفکارهم، ولهذا حذّر اللَّه تعالی نبیّه الکریم صلی الله علیه و آله من وساوسهم. «الآیهٔ الرابعهٔ» تتحرک فی سیاقها من خلال استعراض بعض أوصاف أهل النار وتقول: «إِنَّ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَیَاهِ الدُّنْیَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِینَ هُمْ عَنْ ءَایَاتِنَا غَافِلُونَ* أوْلَئکَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا کَانُواْ یَکْسِبُونَ» «۲» فی هذه الآیهٔ الکریمهٔ نقرأ أنّ السبب الأساس لانکار المعاد لدی بعض الناس ورضاهم بالحیاهٔ الدنیا ونسیان الآخرهٔ هو «الغفلهٔ» عن آیات اللَّه والّتی تمثل هذه الحالهٔ المحور والمصدر الحقیقی لشقاء الإنسان وتورطه فی المشاکل والمصائب، فی حین أنّ السبب الحقیقی لسعادهٔ المؤمنین وأصحاب النعیم فی الآخرهٔ یمتد فی جذوره إلی حالهٔ التنبأ والتذکر والانفتاح علی اللَّه تعالی کما ورد ذلک فی الآیات الّتی تلی هذه الآیهٔ. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۹ ونقرأ فی تفسیر روح البیان فی ذیل هذه الآیهٔ حدیثاً قدسیاً یقول: العجب ممّن یؤمن بالنار کیف یضحک؟ وممّن یتعلق بالدنیا وهو یعلم أنّه مفارقها، ومن الغافلین کیف یلهون فی حین أنّهم یعلمون أنّه لا یُغفل عنهم. ویتحدّث صاحب التفسیر المذکور فی ذیل هذا الحدیث الشریف عن قصهٔ «النعمان بن المنذر» الّذی کان أحد ملوک الحیرهٔ فی عصر الجاهلیهٔ، ویقول: فی أحد الأیّام کان هذا الملک جالساً للهو واللعب تحت شجرهٔ وارفهٔ الظلال، فقال له «عدی» وکان أحد أقربائه: أیّها الملک أنّ هذه الشجرهٔ تغنی فهل تعلم ما تقول؟ هذه الشجرهٔ تقول: رُبَّ رَکْبٍ قَدْ اناخُوا حَولَنا یَمزَجُون الخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلالِ ثُمَّ اضْحُوا اسَفَ الدَّهرُ بِهِم وَکَذاک الدَّهرُ حالًا بَعد حالٍ «۱» «الآیهٔ الخامسهٔ» تتحدّث عن الأشخاص الّذین یعیشون «الغفلهٔ» عن أسرار وقضایا عالم الوجود ولا یرون إلّاظواهر الامور، ویقنعون بهذا الظاهر الجذّاب لهذه الحیاهٔ الدنیا عن حقیقتها مع

الغفلـة عن باطنها الّـذى يشـير إلى الحياة الاخرى وتقول «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ». «۲» فلو أنّ الغفلة لم تلق عليهم بظلالها ولم تكبل عقولهم بقيودها لرأوا فى كلّ شـىء وفى كلّ كائنٍ وموجود من هـذا العالم آيـة من الآيات الّتى تـدلّ على اللَّه تعالى والمعاد، فالقرآن الكريم يسـتعرض أسـرار عالم الخلقـة ويقرر أنّ هـذا النظام المـدهش للعديد من عالم المادّة والطبيعة إنّما هو آيـة وعلامة على وجود اللَّه تعالى وعلامة كذلك على المعاد والحياة بعد الموت من خلال الحوادث المشاهدة والملموسة فى حركـة الحياة والواقع، غايـة الأمر انه لا يدرك مغزى هذه الآيات والعلامات ولا يقرأ مضـمونها الباطنى سوى أصـحاب البصـيرة الّذين قرؤوا نغمـة التوحيـد والمعـاد فى باطن هـذه الحوادث لا الأشـخاص الّـذين يتعاملون مع الحياة الـدنيا من موقع الأهواء والنوازع المادية الرخيصـة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۰ هـذا وإن تكرار ضـمير «هم» فى الآيـة الشـريفة يعـد تأكيداً على هذا المطلب، وهو أنّ «الغفلة» هى السـبب فى أن يتحرّك الإنسان من موقع الظواهر فحسب ولا يرى واقع الحال ويتوغل فى باطن الامور. والجدير بالذكر أنّ مفردة «الغفلة» وردت فى موارد تكون فيها أسباب ومقدمات التذكر والتنبه متوفرة لدى الإنسان، ولكنه وبسبب اتباعه للأهواء أو بسبب ضعف الإيمـان أو لأسـباب اخرى فـإنه يتغافـل عنهـا، والشاهـد على ذلـك الآيـات الّتى وردت بعـد هـذه الآيـة من سورة الروم حيث يسـتعرض اللَّه تعـالى فيهـا نماذج من آثار التوحيـد والمعاد فى عالم الخلقـة وفى واقع الإنسان ويحـذّر الغافلين عن التمادى فى غفلتهم وينـذرهم من عاقبـة هـذه الحالـة الوخيمـة. «الآيـة السادسـة» تتحـدّث عن أخطر فئة من الكفّار، وهم الّذين يعيشون حالة التكبر والعناد مضافاً إلى كفرهم، وفى آخر الآية تقرر السـبب الّذى ساقهم إلى الشـقاء الدائم، وهو الغفلة عن آيات اللَّه وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ا لْغَيّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». وقـد وقعت هذه الجملة من الآية الكريمة «سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِى» مورداً لبحث المفسّـرين ومناقشـاتهم، ولعلّه كـان بسـبب أنّ من المسـلّم أنّ اللَّه تعـالى يهـدى النـاس إلى طريـق الحـقّ، وأساسـاً فـإنّ جميـع الأنبيـاء والأوصـياء كانوا يهتمون بارشاد الناس وهـدايتهم إلى اللَّه تعالى، فكيف يجتمع هـذا المعنى مع قوله تعالى «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» وانه تعالى هو الّـذى يحرم هؤلاء عن الهدايـة والتوفيق لرؤيـة هذه الآيات على نفسـها، ولهذا نجد أنّ الكثير من المفسّـرين قد تكلفوا تأويل هذه الآية بما لا يتناقض مع الاصول والمبادىء المسـلمة. ويتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال اسـتعراض الآيات القرآنية الاخرى فى هذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۱ المجال، حيث تمثل بعض اعمال الإنسان وحالاته النفسية من قبيل التكبر والعناد أمام الحقّ والتعصب الشديـد حجباً مظلمـة على قلب الإنسان تمنعه من مشاهـدة جمال الحقّ، وفى الواقع أنّ هـذه الأعمال والصـفات القبيحة هى الّتى تسبب حجبهم عن الحقّ وتمنعهم من رؤية آيات اللَّه، وعندما تنسب الآية عملية الحجب هذه إلى اللَّه تعالى فإنما ذلك بسبب أنّ اللَّه تعالى قـد جعل هـذه النتيجة كعقوبة طبيعية واثر طبيعى مترتب على تلك الأعمال والصـفات، أى أنّ الانصـراف عن آيات اللَّه هو نتيجـة طبيعيـة مقررة فى قانون الخلقة لمن يمارس تلك الأعمال والصـفات القبيحة. والجدير بالذكر أنّ الآية الشـريفة تقرر فى ختامها وتؤكد على أنّ سـبب انصـرافهم عن آيات اللَّه هو تكذيبهم وغفلتهم عن هذ الآيات. «الآية السابعة» تتحرك من خلال استعراض حالة العناد لـدى الفراعنة فى مقابل الآيات الإلهية والبلايا المتنوعة الّتى أنزلها اللَّه على هؤلاء القوم الفاسـقين لينتهوا من غفلتهم ويؤوبوا إلى رشـدهم ويتبعوا نبيّهم «موسى بن عمران» وتقول «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ا لْيَمّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». ومن خلال السياق القرآنى فى هذه الآية نستوحى أنّ مصدر شقاء قوم فرعون وهلاكهم هو تكذيب الآيات الإلهية والغفلة عنها، ويمكن أن تكون «الغفلة» سـبباً للتكذيب، فإنّ الجذر الأصـلى لشـقائهم هو «الغفلة» عن آيات اللَّه، أو أنّهم قد تحركوا فى مقابل الدعوة السـماوية من موقع التكذيب أحياناً والغفلة أحياناً اخرى، وبهذا يكون كلّ من التكذيب والغفلة سـبباً مسـتقلًا للشـقاء والهلاك. بعض المفسّـرين يرى أنّ ضـمير «عنهـا» يعـود إلى النقمـة الإلهيـة والعـذاب الإـلهى، ففى هـذه الصورة يكون عنصـر التكـذيب بآيـات اللَّه هو الموجب لشـقائهم، ولكن هـذا الاحتمال ضـعيف جـداً لأن هـذا الضـمير ورد إلى جانب الآيات، وحسب الظاهر انه يعود عليها، وقد أورد بعض الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۲ المفسّـرين سؤالًا هنـا، ولعـلّ هـذا السؤال كـان هو السـبب فى احتمال عودة الضـمير إلى النقمة

والعذاب، وهو أنّ «الغفلة» حالة غير اختيارية ولذلك لا يمكن أن تستوجب عذاب اللَّه للإنسان. ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح، لأن «الغفلة» فى كثير من الموارد تكون اختيارية فى جذورها ومقدماتها، فعندما يتحرك الإنسان باتجاه آيات اللَّه ولا يتدبر فيها ولا يصغى لكلمات الأنبياء، فمن الطبيعى أن تستولى عليه حالة الغفلة، ومن هذا المنطلق نجد الناس كثيراً ما يذمون المجرمين والمنحرفين بسبب غفلتهم. «الآية الثامنة» وبالرغم من انها لم تذكر كلمة «الغفلة» فى سياقها، إلّاأنّ محتواها العام يتضمّن مفهوم الغفلة، فهذه الآية تتحدّث عن المشركين فى عصر النزول الّذين كانوا يتحركون من موقع الغفلة الشديدة وأحياناً ينتبهون من غفلتهم ويتجهون نحو التوحيد فى حالات خاصّة، وأحياناً اخرى يغرقون فى مستنقع الشرك والضلالة تماماً، فتقول الآية «فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» «۱». أجل، فإنّ اعصار الحوادث والأخبار من شأنه أن يزيح حُجب «الغفلة» عن أبصار هؤلاء ويتجلّى لهم حقيقة الأمر وواقع الحياة الدنيا، فطائفة منهم تستثمر هذا التنبيه وهذه اليقظة فى حركتها التكاملية والمعنوية ويتحركون لاصلاح أخطائهم وجبران ما فاتهم من العمر، ولكن هناك طائفة اخرى وهم الأكثرية يتنبهون فى هذه اللحظات فحسب وبعد انتهاء الحادثة يعودون ادارجهم نحو ما كانوا يعيشونه من الغفلة واتباع الهوى فى خط الباطل والإنحراف. بعض المفسّرين يذكر فى ذيل هذه الآية أنّ المشركين كانوا يصطحبون معهم أصنامهم فى أسفارهم البحرية ليحفظونهم من الغرق ولكنهم عندما يواجهون الخطر ويرون أمواج البحر الرهيبة الّتى تتقاذفهم من كلّ جانب كالريشة فى مهب الريح فإنّهم يلقون بأصنامهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۳ فى البحر ويتجهون نحو اللَّه بكلّ اخلاص ويتعالى صراخهم «يااللَّه يا اللَّه» «۱». «الآية التاسعة» تقرر حكماً عاماً وكلياً بالنسبة إلى جميع أفراد البشر وتقول «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» «۲». أجل، فإنّ التوجه إلى اللَّه تعالى يتسبب أن يكون الذاكر جليس الملائكة بمقتضى قوله تعالى «انّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنا اللَّهُ ثُمَّ استَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائِكة ...». والحال أنّ التغافل عن ذكر اللَّه يفضى بالإنسان أن يكون قرين الشياطين الّذين يسوقونه إلى حيث يريدون كما تقول الآية الشريفة «نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» وفى الواقع أنّ عمله هذا أى «الغفلة» عن آيات اللَّه يورثه البعد عن رحمة اللَّه وبالتالى يكون قرين الشياطين البعيدة عن رحمة اللَّه، وبعبارة اخرى: أنّ هذه الحالة هى جزاءه الدنيوى على حالة الغفلة هذه. وبالنظر إلى أنّ كلمة «يعش» من مادّة «عشو» على وزن «نَشَر»، بمعنى ضعيف النور فى بصره فلا يرى شيئاً بوضوح وكأنما يغطى عينه حجاب فلا يرى الحقيقة بوضوح، ومفهومها ليس هو سوى الغفلة والاعراض عن اللَّه تعالى، ويقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «إذَا أَرادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرّاً قَيّضَ لَهُ شَيطاناً قَبْلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ، فَلا يرى حَسَناً الّا قَبّحَهُ عِنْدَهُ حَتّى لا يَعْمَلُ بِهِ، وَلا يَرى قَبيحاً الّا حَسَّنَهُ حَتّى يَعْمَلُ بِهِ» «۳». وفى «الآية العاشرة» يتحدّث القرآن الكريم عن المتقين والّذين يقابلون امواج الوساوس الشيطانية ويعالجون حالات الغفلة مهما كانت قليلة بذكر اللَّه تعالى، فتكون النتيجة أنّ حجب الغفلة وتراكمات الوساوس تنقشع عن القلب وتنفتح البصيرة فتقول الآية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۴ «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ» «۱». هذا التعبير فى الآية الكريمة يشير إلى أن ذكر اللَّه تعالى يورث الإنسان بصيرةً فى قلبه فى حين أنّ الغفلة عن ذكر اللَّه تمهد الطريق لنفوذ الشياطين إلى قلبه. «طائف» يعنى من يطوف حول شىء معين، والمراد به كما ذكره جمعٌ من المفسّرين الكبار هو الوساوس الشيطانية الّتى تطوف حول قلب الإنسان لتتمكن من العثور على منفذ لها فى كعبة القلب وتحول هذا القلب إلى معبد للأوثان، وعملية النفوذ هذه لا تتسنى لهؤلاء الشياطين إلّافى حالة «الغفلة» عن ذكر اللَّه، لأن الإنسان بمجرد أن يذكر اللَّه تعالى فإنّ الوساوس والخطرات الشيطانية سوف تبتعد وتتلاشى ويتجلّى حينئذٍ نور الحقّ أمام بصيرة الإنسان فى حركته المنفتحة على اللَّه والحقّ. «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن الغافلين الّذين يعيشون حالة الغفلة والجهل المطلق إلى آخر عمرهم، ولكن عندما يحين أجلهم ويقعون فى سكرات الموت ويرون بامّ أعينهم آثار أعمالهم السيئة فحينئذٍ يعيشون الرعب والقلق الشديد، فيقال لهم حينئذٍ «لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مّنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ا لْيَوْمَ حَدِيدٌ» «۲». إن الآيات القرآنية هذه توحى بوجود ملكين يصطحبون الإنسان فى عرصات المحشر، أحدهما يسوقه إلى محكمة العدل الإلهى، والآخر يحضر بعنوان الشاهد على أعماله، ويحتمل أن يكون هذان الملكان هما الّذين كانا يصطحبان الإنسان فى الحياة الدنيا ويكتبون أعماله

الصغيرة والكبيرة، ففى القيامة يأخذان بيد المجرمين ومعهما كتابهما هذا إلى حيث المحكمة الإلهية الكبرى ولكنّ هؤلاء المجرمين لم يكونوا يحسون بوجود هذين الملكين فى الحياة الدنيا بل لم يكونوا يؤمنون بوجودهما بالرغم انهما يصحبون كلّ إنسان فى هذه الحياة، ويوم القيامة حيث تزاح الحجب وتزال الاستار وتنفتح عين البصيرة يرى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۵ الإنسان هذه الحقيقة الناصعة. «الآية الثانية عشر» والأخيرة من هذه الآيات محل البحث تتحدّث عن يوم القيامة وتبين حالات الغافلين فى هذا اليوم الملىء بالحسرات واشكال الحزن وتقول «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ا لْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ا لْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ» «۱». وأحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحسرة، لأن الغافلين الّذين كانوا يعيشون فى هذه الدنيا بعيداً عن الحقّ سوف ينتبهون من نومتهم هذه ويرون جميع أعمالهم، فهناك سيجدون أمامهم كتاب يقرر ما ارتكبوه من أعمال، فهناك من جهة اخرى الملائكة الّذين يشهدون عليهم، ومن جهة ثالثة والأشد من ذلك هو شهادة أعضاء الإنسان حتّى الجلد على ما ارتكبته فى الحياة من أعمال وسلوكيات شائنة، وهناك ترتفع نار الندم والحسرة وتستولى على وجود الإنسان ولكنهم لا يجدون طريقاً سوى مزيد التحسر على ما فاتهم من فرص ثمينة فى الحياة الدنيا، فليس لهم الرجوع للعودة لجبران ما فات لأن الطريق موصد من خلفهم والكتب قد اغلقت، فلا مجال للتوبة والانابة، ولذلك سيملأ الحزن وجودهم وخاصّةً عندما يسمعون نداء الملائكة الموبخ لهم حيث يقولون «لقد كنت فى غفلةٍ من هذا». وبديهى أنّ هذه الغفلة لا ـ تتعلق بحالات يوم القيامة ولا ـ عالم البرزخ، لأن الإنسان وبمجرد أن ينتقل من هذه الدنيا ويعانق الموت فإنّ سحب الغفلة ستزول أمام عينه ويرى حقائق العالم كما هى، وحينئذٍ لا يبقى معنى لمفهوم «الغفلة» كما تقول الآية ۹۹ و ۱۰۰ من سورة المؤمنون «حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون* لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا انَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ الَى يَومِ يُبْعَثُونَ».

النتيجة:

وممّا نستوحيه من الآيات المذكورة آنفاً أنّ الخطر الّذى يعيشه الإنسان بسبب الغفلة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۶ عن ذكر اللَّه وتجاهل الحقائق الّتى تستبطن عالم الوجود أكثر ممّا يتصور عادةً حيث بإمكان «الغفلة» أن تدمر جميع اركان سعادة الإنسان وتحرق فى أجوائها جميع الآمال الإيجابية فى حياة كريمة وتهدر جميع طاقاته وقابلياته الّتى يمكنه التوصل بها إلى أعلى مراتب الكمال المعنوى والإنسانى وتحولها إلى رماد وهباء منثور.

الغفلة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى النصوص الروائية أحاديث مثيرة حول عواقب الغفلة وآثارها السيئة والمدمرة فى حياة الإنسان، وبسبب كثرة هذه الروايات فسوف نختار منها ما يلى: ۱- عندما توجه النبى صلى الله عليه و آله فى معراجه إلى السماء سمع الخطاب الإلهى له يقول «يَا احْمَدَ انْتَ لا تَغْفَلْ ابَداً مَنْ غَفَلَ عَنّى لا ابَالِى بِاىِّ وَادٍ هَلَكَ» «۱» . وهذا الحديث يبين بوضوح أنّ عاقبة الغفلة هى الهلاك والدمار والمحقّ. ۲- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى عبارة مختصرة ومليئة بالمعنى «الْغَفْلَةُ اضَرُّ الاعْدَاء» «۲» لأن الغفلة هى السبب فى الكثير من الذنوب والآثام فى واقع الإنسان وسلوكه. ۳- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً فى حديث آخر «الْغَفْلَةُ تَكْسِبُ الإغْتَرارَ وَتُدْنِى مِنَ البَوَارِ» «۳». ۴- وأيضاً ورد عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «الْغَفْلَةُ ضَلالُ النُّفُوسِ وَ عُنْوَانُ النُّحُوسِ» «۴». لأن الطريق الوحيد للنجاة من الضلال هو التفكر والتدبر ولكن الغفلة هى الّتى تصد الإنسان عن هذا الطريق المنفتح على اللَّه والحقّ. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۷ ۵- وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «وَيلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ فَنَسِىَ الرَّحْلَةَ وَلَمْ يَسْتَعِدْ» «۱». ۶- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنْ كَانَ الشَّيطانُ عَدُوّاً فَالْغَفْلَةُ لِمَاذَا» «۲». وتقدّم فى الأحاديث السابقة أنّ الغفلة تارةً تكون عن اللَّه، واخرى عن يوم القيامة، وثالثة عن وساوس الشياطين وهكذا. ۷- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «فَيَا لَهَا

حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِى غَفْلَةٍ انْ يَكونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَانْ تُؤَدِّيَهُ ايَّامُهُ الَى الشَّقْوَةِ» «۳». والمقصود من الغفلة فی هذا الحدیث هو الغفله عن أداء الوظائف والواجبات الدینیة طیلة العمر. ۸- وقد ورد فی بعض الروایات أنّ هذه المسألة إلی درجة من الأهمیة حتّی انها اعتبرت هی الهدف لبعثة الأنبیاء، أی لعلاج مرض «الغفلة» بین الناس، کما نقرأ فی الخطبة ۱۰۸ من خطب نهج البلاغة فی بیان صفات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله «مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ» «۴». ۹- وفی حدیثٍ آخر عن هذا الإمام العظیم یتحدّث فیه عن آثار الغفلة المخربة ونتائجها المدمرة فی حیاة الإنسان ویقول: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالغِرَّةِ» «۵». ۱۰- وقد ورد فی الروایات الإسلامیة عن حالات عیسی ابن مریم أنه مرّ علی قریة مات أهلها بسخط اللّه، فأحیا عیسی بن مریم واحداً منهم وسأله عن أعمالهم. قال: عبادة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۸ الطاغوت وحبّ الدنیا مع خوف قلیل وأمل بعید وغفلة فی لهو ولعب» «۱». ۱۱- ویقول أمیرالمؤمنین علیه السلام بالنسبة للآثار الاجتماعیة لحالة الغفلة «مِنْ دَلائِلِ الدَولَةِ قِلَّةُ الْغَفْلَةِ» «۲». أجل فإنّ الغفلة وتجاهل الامور الاجتماعیة ستفضی إلی ضیاع الدولة. ۱۲- ونختم هذا البحث بحدیثٍ عن أمیرالمؤمنین حیث یبین للناس مخاطر الغفلة ویحذرهم من سوء عاقبتها ویقول «اتَّقِ ايُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ» «۳». وطبقاً لهذا البیان الشامخ فإنّ السبب الأساس لشقاء الإنسان یکمن فی ثلاث أشیاء: سکر الشهوة، الغفلة عن حقائق العالم، العجلة فی الامور، حیث نجد أنّ الإمام أمیرالمؤمنین یحذر فی هذا الکلام المختصر أفراد الإنسان من کلّ طائفة وقوم من هذه العناصر الثلاثة لیکونوا من أهل النجاة والسعادة فی الدنیا والآخرة.

النتیجة:

وبالرغم من أنّ أکثر الناس یعیشون الغفلة عن نتائج حالة الغفلة، ولکن أئمّة الدین کانوا یرون الفاجعة المترتبة علی هذه الحالة المأساویة، وبیّنوا للناس بعبارات مختلفة وخامة هذا المرض العضال کما تقدّم آنفاً فی الأحادیث الشریفة ودعو الناس إلی التدبر والتفکر. والجدیر بالذکر أنّ «الغفلة» لها مفهوم واسع وشامل، أی أنّ هذه المفردة وهذا المفهوم یشمل موارد کثیرة منها الغفلة عن اللّه، والغفلة عن یوم القیامة، والغفلة عن کون الحیاة الدنیا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۹ مهزوزة وغیر مستقرة، والغفلة عن الشیطان ووساوسه، وبشکل عام فإنّ الغفلة تستوعب جمیع الامور الّتی تتعلق بشکل أو بآخر بسعادة الإنسان فی حرکة الحیاة.

ملاحظات مهمة حول الغفلة:

اشارة

بالرغم من أنّ هذه الصفة لها تأثیر کبیر فی حیاة الإنسان ومصیره وتعد من الصفات الرذیلة، ولکن قد یثار هذا السؤال، وهو انه لماذا لم یتعرض علماء الأخلاق لهذه الرذیلة فی کتاباتهم وکلماتهم، وحتّی لو تعرضوا لها بالکلام فلا یکون کلاماً وافیاً لهذا الموضوع المهم، وعلی أی حال فهناک عدّة مباحث فی هذا الموضوع تستحق الدراسة والبحث کلًا علی انفراد وهی:

۱- عوامل الغفلة

ألف) الجهل «الغفلة» لها مصادر وأسباب کثیرة، من أهمها الجهل وعدم الاطلاع علی حقیقة الحال، وکذلک عدم معرفة اللّه فی مقام الربوبیة وعدم الاهتمام بمسألة المعاد وکذلک عدم معرفة وهمیة الثروة والمناصب الدنیویة والجهل بوساوس الشیطان وأمثال ذلک. ویقول الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا المجال «انَّ مَنْ عَرَفَ الايَّامَ لَمْ يَغْفَل عَنَ الاسْتِعْدَادِ» «۱». ب) الغرور والانانیة یعتبر الغرور أحد عوامل الغفلة وأحیاناً یکون الغرور نتیجة للغفلة أیضاً، لأن الإنسان المغرور لا یری إلّانقاطه الإیجابیة ولا یفکر إلّابمیزاته

الذاتيـة، وقـد يتصور أحياناً انها باقيـة له مدى الحياة، وهذا الأمر يسبب له الغفلة عن الحقائق فى عالم الوجود والّتى يكون لها دور هام فى أن يتعرض هذا الإنسان للهزيمة والاندحار. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۰ وقد شوهد فى التاريخ البشرى شخصيات كثيرة قد وقعت فى أسر «الغفلة» بسبب الغرور والعجب وتعظيم الذات حيث سلبتهم هذه الحالة القدرة على رؤية الواقع كما هو فتعرضوا للهزيمة أمام الأعداء ولم يتمكنوا من الصـمود لأنهم لم يكونوا يروا نقاط ضـعفهم. ج) سكر النعمة سكر النعمة (والّذى يشبه الغرور إلى درجة كبيرة ولكنه يختلف عنه فى الواقع) قد يوقع الإنسان فى مستنقع الغفلة أيضاً، فعندما تنفتح الدنيا على بعض الأشخاص فسوف يصابون بسـكر النعمة، وسكر النعمة هذا يوقعهم فى مهاوى الغفلة عن الواقع المحيط بهم وتستمر هذه الغفلة حتّى يحين أجلهم ويستيقظون من نـومتهم وسـكرهم كمـا ورد عن أميرالمـؤمنين عليه السـلام قوله «مَنْ غَفَـلَ عَنْ حَوَادِثِ الا ـيَّام ايْقَضَهُ الْحِمَـامُ» «۱». ويقول الإمـام زين العابدين عليه السـلام أيضاً «انَّ قَسْوَةَ الْبِطْنَةِ وَفَتْرَ الْمَيْلَةِ وَسَـكْرَ الشَّبَعِ، وَعِزَّةَ الْمُلْكِ مِمَّا يُثَبِّطُ وَيُبْطِى عَنِ الْعَمَلِ وَيَنْسِى الذِّكْرَ وَيُلْهِى عَنِ اقْتِرَابِ الاجَـلِ حَتّى كَانَّ الْمُبْتَلى بِحُبِّ الـدُّنيَا بِهِ خَبَلٌ مِن سُـكْرِ الشَّرَابِ» «۲». د) العافية والسـلامة البدنية بالرغم من أنّ السـلامة البدنية والعافيـة الجسـمانية تعـد من النعم الإلهيـة الكبرى على الإنسـان، ولكنهـا من جهـة اخرى تعـد من عوامـل الغفلـة أيضـاً، وهـذا فإنّ من الالطاف الإلهية الخفية أن تؤخذ هذه السـلامة البدنية من الإنسان ويبتلى بألوان المحنة والمرض لكى تزول عن بصيرته سُحب الغفلة، فيرى بعين القلب حقـائق العـالم، ويتحرك حينئـذٍ فى سـلوكياته وأفكـاره بالاتجـاه المنـاسب والطريق الصـحيح. ولهـذا أيضاً نجـد أنّ الحديث الشريف الوارد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يذكر فيه منافع وبركات المرض ويقول مخاطباً سلمان الفارسى حينما عاده فى مرضه «انتَ مِنَ اللَّهِ بِـذِكْرٍ وَدُعَـاؤُكَ الاخلـاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۱ فِيهِ مُسْـتَجَابٌ» «۱» . أى أنك الآن تعيش حالـة التـذكر والتنبه وقـد زالت منـك حجب الغفلـة ولهـذا فـإنّ دعائـك مسـتجاب. ه) طول الأمـل وأحـد العوامـل الا ـخرى للغفلـة هو طول الأـمل والتمنيـات الدنيويـة الموهومـة، حيث تسـتولى على قلب الإنسان وفكره وتجعله غافلًا عمّا يراد به، ويقول أميرالمؤمنين عليه السـلام فى الخطبة المعروفة بالديباج «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ انَّ الامَلَ يَذْهَبُ الْعَقْلَ وَيُكَذِّبُ الْوَعْدَ وَيَحِثُّ عَلَى الْغَفْلَةِ وَيُورِثُ الْحَسْرَةَ» «۲».

۲- العواقب المشؤومة للغفلة

إن الغفلـة عن ذكر اللَّه والمعاد وما يتعرض له الإنسان فى هذه الحياة من محن وابتلاءات بسـبب الذنوب والآثام كلّ هذه الامور تؤدى بالإنسـان إلى الوقوع فى منزلقات الخسـران والفناء وتسبب له اضـراراً غير قابلـة للجبران والتـدارك، كما ورد هـذا المعنى فى كلمات المعصومين وأئمّة الدين عليهم السـلام ومن ذلك: ألف) الغفلة تورث قساوة القلب إن قساوة القلب ليست سوى نتيجة للغفلة والابتعاد عن المعارف الإلهية، لأن العامل المهم فى لطافة الروح وانعطاف القلب أمام الحقّ هو ذكر اللَّه تعالى، فعندما ينقطع مطر الرحمة الإلهية عن أرض القلب بانقطاع الذكر فسيتحول القلب إلى صحراء قاحلة مليئة بالاشواك والحجارة كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قـال: «ايَّاكَ وَالْغَفْلَـةَ فَفِيهَا تَكُونُ قَسَاوَةُ الْقَلْبِ» «۳». ب) الغفلـة وموت القلب الغفلـة تفضـى فى النهايـة إلى موت القلب أيضـاً، أى أنّ الإنسـان بعـد أن يعيش حالـة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۲ القسـاوة وعـدم الانعطـاف فى قلبه وروحه فسوف يقـترب من موته المعنوى بحيث لا تعـد المواعظ والنصائـح تأثر فى مثل هـذا الإنسان، وفى هذه الصورة سوف يوصد باب العودة والانابة إلى اللَّه أمامه ولا يبقى هناك أمل فى نجاته، يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام «مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَـةُ مَاتَ قَلْبُهُ» «۱». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السـلام أنّه قال: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَـةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغِرَّةِ» «۲». ج) الغفلة وفساد الأعمال كما وأنّ «الغفلة» تسـبب فى بطلان أعمـال الإنسـان وفسادهـا، ولهـذا نجـد أنّ الأشـخاص الّـذين يعيشون الغفلـة عن اللَّه والآـخرة قلما يتحركون فى سـلوكياتهم فى دائرة الخيرات والمبرات، ولو أنّهم تحركوا فى هـذا السبيـل فإنّ الغفلـة لا تسوغ لهم أن يتمتعوا بحالـة الأخلاص فى طريق الانفتاح على اللَّه، فلا يصـدر منهم ذلك العمل بنية خالصة. ومن ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام «ايَّاكَ وَالْغَفْلَةَ وَالِاغْتِرَارَ بِالْمُهْلَةِ فَانَّ الْغَفْلَةَ تُفْسِـدُ الاعْمَالَ» «۳». ويحتمل فى تفسير هذا الحديث أنّ المراد منه فساد الأعمال السالفة للإنسان بسبب الغفلة اللاحقة، لأنّ الغفلة تتسبب فى

ارتكاب الـذنب والوقوع فى وادى الخطيئـة، والخطيئـة بـدورها تسـتوجب حبط الأعمال وافسادها. د) الغفلـة والقرب الإلهى مضافاً إلى ذلك فإنّ الغفلـة تسـتوجب سلب الإنسان اللياقة لنيل مرتبة القرب من اللَّه تعالى ولقائه، لأن الوصول إلى هذه المرتبة ونيل هذا المقام السامى لا يتسنّى للإنسان إلّافى ظلّ المعرفة والتذكر والتفكر وأن يعيش الإنسان حالة الوعى والاتصال مع المبدأ. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۳ وقد ورد فى بحار الأنوار للعلّامة المجلسى إشارة إلى هذا الموضوع فى مناجات أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث يقول: «الهى انْ أَنامَتْنِي الْغَفْلَةُ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلِقَائِكَ فَقَدْ نَبَّهَتْنِي الْمَعْرِفَةُ بِكَرمِ آلائِكَ» «۱». «مَنْ طَالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتُهُ» «۲». هذه العبارة هى مقطع للمناجات المعروفة بالمناجات الشعبانية حيث يقول العلّامـة المجلسى عنهـا انهـا المناجات الّتى كان أميرالمؤمنين والأئمّة المعصومين عليهم السـلام يدعون اللَّه بها فى شهر شعبان. ه) الغفلة سبب الوقوع فى الهلكة «الغفلة» كذلك تسبب للإنسان الهلاك فى الـدنيا والآخرة، لأن الإنسان الغافل سوف لا يـدرك جيـداً منافعه «سواء المادية أو المعنوية» وبالتالى فسوف يضـيع الفرص الثمينة الّتى تتعرض له، وسوف يؤدى به هـذا الحـال إلى اتلاف طاقاته وقابلياته الحيويـة، ومن هـذا المنطلق نقرأ فى الحـديث الشـريف الوارد عن الإمام على عليه السلام «مَنْ طَالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتهُ» «۳».

۳- علائم الغفلة

الكثير من النـاس يمكن أن يترددون فى كونهم من الغافلين ولا يعلمون بهـذه الحقيقه وهى هل أنّهم يتسـمون بسـمة الغفلـة أم لا؟ إذاً فمن الضرورى أن يفحص السالك إلى اللَّه ويتدبر حالته فى كلّ مرحلة من حياته لئلّا يقع فى زمرة الغافلين، ولذلك لابدّ من الالتفات والانتباه إلى علائم «الغفلة» حتّى لا يتورط فى الوقوع فى مخالبها وأسـرها. ولحسن الحظ فإنّ النصوص الشـريفة والأحاديث الإسـلامية قـد أوردت علائـم كـثيرة الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۴ للغـافلين نكتفى بالإشـارة إلى بعضـها: ۱- ورد فى الحـديث الشـريف والمفصل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى جوابه لشمعون بن لاوى أحـد أقطاب النصارى فى ذلك الزمان عندما سأل شـمعون النبى الأكرم عن علائم الغافلين فقال: «امَّا عَلَامَةُ الغَافِلِ فَارْبَعَةٌ الْعَمى وَالسَّهْو وَاللَّهْو وَالنِّسْـيَانْ» «۱». ونفس هذا المضمون نجد فى حكم ونصائـح لقمان الحكيم لولـده حيث يقول: يا بنى لكلّ شـىء علامـة يعرف بها ويشـهد عليها ... وللغافل ثلاث علامات: السـهو واللهو والنسيان «۲». والفرق بين السـهو والنسـيان هو أنّ النسـيان بمعنى عدم تذكر الحوادث والامور السابقة، ولكن السـهو يعنى عدم التوجه والانتبـاه للُامور الّتى ينبغى التوجه والانتباه لها. ۲- وإحدى علائم الغفلة هى أنّ الإنسان يتحرك فى معاشـرته ومجالسـته مع الفاسدين والمفسدين ويبتعد عن مجالس العبادة، وفى ذلك يقول الإمام الحسن عليه السـلام «الْغَفْلَةُ تَرَكُكَ الْمَسْجَد وَطَاعَتُكَ الْمُفْسِدَ» «۳». ۳- ومن العلامات المهمـة الاخرى للغفلـة هى عـدم الاكتراث بالنـذر، مثلًا عندما يمر الشـخص على مقبرة فإنه لا يخطر فى ذهنه انه سوف يكون من أهالى هـذه المقبرة غـداً، أو عندما يشترك فى تشييع جنازة أحد أقربائه أو أصدقائه فإنه لا يفكر فى أنّه سوف يتعرض يوماً لمثل هـذا الموقف ويكون هو المشيع ويسير الآخرون وراء جنازته. وقـد ورد فى نهـج البلاغـة أنّ الإمام على عليه السـلام كان يسـير خلف جنازة لأحـد المؤمنين فسـمع أحدهم يضـحك بصوت عال فتألم الإمام من ذلك وقال: «كَأَنَّ المَوْتَ فيهَا عَلَى غَيرِنَا كُتِبَ وَكَأَنَّ الْحَقَّ فيهَا عَلَى غَيرِنَا وَجَبَ وَكَأَنَّ الّذى نَرَى مِنَ الْاموَاتِ سَـفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ الَيْنَا رَاجِعُونَ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۵ ثمّ أضاف: «نُبَوِّئُهُمْ اجْـدَاثَهُمْ وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُم» «۱». ۴- ومن العلامـات الاـخرى للغفلـة أنّ الإنسان ينفق وقته وعمره الثمين فى امور موهومة لا تنفعه لحياته الاخروية، أو يتلف السـنوات المديدة من عمره وشبابه فى مواقف وأعمال لا تعود عليه بالنفع الدنيوى ولا الاخروى، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «كَفى بِالْرَّجُلِ غَفْلَةً انْ يُضِيعَ عُمْرَهُ فِي مَا لا يُنْجيهِ» «۲». وفى رواية اخرى عنه أنّه قال: «كَفى بِالْمَرْءِ غَفْلَةً أَن يَصْرِفَ هِمَّتَهُ فِي مَا لا يَعْنِيهِ» «۳»

۴- الطرق الكفيلة بمكافحة الغفلة

تعتبر «الغفلة» من الأمراض الأخلاقية الخطرة، ولابدّ فى علاجها من استخدام الأصول الكلية والمبادئ العامّة المستخدمة فى هذه المباحث الأخلاقية. ففى المرحلة الاولى علينا التفكر فى عواقب ونتائج الغفلة وخاصّة ما تقدّم ذكره من الروايات الشريفة والمباحث الأخلاقية السابقة فى هذا الموضوع، فإنّ التدبر فى العواقب الوخيمة هذه له أثرٌ كبير فى التنبه فى أن يعيش الإنسان حالة التنبه والوعى ويعود إلى سلوك طريق المعرفة واليقظة، مثلًا عندما يريد التخلص من الأدمان على المواد المخدرة أو يريد الوقاية من الوقوع فى أسرها، فعليه أن يتفكر فى الأشخاص الّذين ابتلوا بهذه البلية السوداء، وما كانت نتيجة حالهم وعاقبة أمرهم، وما حلَّ بهم وبأسرهم وابنائهم من الدمار والارباك والاهتزاز فى العلاقة العائلية، وحينئذٍ سوف يتسنّى له التوقف والانتباه وسلوك طريق العودة بل وتقديم النصح للآخرين وتحذيرهم من الوقوع فى هذا الوادى المهلك، وكذلك لابدّ من الرجوع إلى جذور هذه الحالة والعمل على علاجها وقطع جذورها و ... فما دامت أسباب المرض باقية فى روح الإنسان فإنّ العلاج سوف يكون ابتراً. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۶ وقد تقدّم فى المباحث السابقة تفصيل الكلام عن جذور الغفلة وأسبابها، فلا حاجة إلى التكرار، ولكن نواصل إلى المطالب السابقة نذكر فيما يلى بعض النقاط النافعة لإزالة الآثار السيئة للغفلة فى واقع الإنسان. ۱- كسب العبرة من التاريخ يجب دراسة التاريخ بدقة وتأمل وكسب العبرة من حوادثه ومجرياته، فأيوان كسرى فى المدائن واطلال قصور الملوك واهرام مصر تحدثنا بلسانها غير الناطق وتخبرنا عمّا جرى على الأقوام السالفة لنأخذ العبرة منهم، والخلاصة لابدّ من استطلاع تاريخ البشرية ومشاهدة آثارهم الباقية واستيحاء العبرة من كلّ ذلك. القبور المندثرة للابطال وقادة الحروب بالأمس ترزح أبدانهم المترفة أسيرة التراب، رؤية المسنين والعجائز الّذين كانوا بالأمس القريب شباباً ممتلئين حيوية ونظارة وهم الآن يعيشون العجز وعدم القدرة على ممارسة نشاطاتهم اليومية، كلّ هؤلاء كانوا بالأمس القريب أشخاصاً أقوياء وممتلئين بالفتوة والحيوية، ولكن حوادث الأيّام والسنين قد أخذت منهم مآخذها وأكلت منهم قوتهم وسلبتهم نشاطهم، ونحن الآن على آثارهم وسوف نبتلى بحالتهم. ومن الواضح إننا كلّما تفكرنا فى هذا المواضع أكثر وتأملنا فى تحول الأيّام وتبدل الحكومات وانتقال الثروات وتبدلّ المناصب الدنيوية فإننا سوف لا نعيش حالة الغفلة. الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «انَّ مَنْ عَرَفَ الْاَيَّامَ لَمْ يَغْفَل عَنْ الاسْتِعْدادِ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال «اغْفَلَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَتَّعِظ بِتَغَيُّرِ الدُّنْيا مِنْ حَالٍ إِلَى حالٍ» «۲». ۲- استمرار ودوام الذكر والعامل المؤثر الآخر لطرد آثار الغفلة هو استمرار ودوام الذكر، لأن ذكر اللَّه تعالى يحيى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۷ القلب ويجلى الروح ويفتح نور البصيرة حيث يرى الإنسان حقائق عالم الوجود ويرى الحقّ حقّاً والباطل باطلًا، وحينئذٍ يتمكن من تشخيص الصديق والعدو لسعادته وكماله المعنوى فى حركة الحياة. ولذلك قال أميرالمؤمنين عليه السلام «بِمَدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ تَنْجابُ الْغَفْلَةُ» «۱». ۳- الصلاة مع حضور القلب إن أداء الصلاة فى الوقت المقرر مع حضور القلب والتوجه إلى مضامينها السامية ومفاهيمها العالية والتعامل مع اللَّه تعالى فى الصلاة من موقع الفقر والمناجاة كلّ ذلك من شأنه أن يطهر القلب من أدران «الغفلة» ويجلى مرآة الروح الإنسانية فى حركة الانفتاح على اللَّه والكمالات الإلهية. إن طبيعة الحياة الدنيوية موجبة للغفلة عادةً، ولذلك قد ينشغل الإنسان أحياناً إلى درجة انه ينسى ويغفل عن كلّ شىء حتّى عن نفسه، والصلاة تعتبر فرصة مناسبة جداً للعودة إلى الذات والتدبر فى واقع النفس وكيفية انقاذها من مخالب «الغفلة»، ولذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ايُّمَا مُؤْمِنٍ حَافَظَ عَلَى الصَّلَواتِ الْمَفْرُوضَةِ فَصَلّاهَا لِوَقْتِهَا فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْغَافِلِين» «۲». ۴- التفكر والتدبر الطريق الآخر للوقاية من الغفلة وعلاجها هو التفكر والتدبر فى الامور، فكلّما تحرك الإنسان فى أعماله وأفعاله من موقع التدبر فى نتائجها الإيجابية والسلبية وتفكر فيما يترتب عليها من نتائج معنوية فى دائرة النفس والروح فإنّ ذلك من شأنه أن يبعد أمواج «الغفلة» الظلمانية عن الإنسان. وقد ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف فى خطابه لأبى ذرّ قال «يَا أَبَاذَر! هَمِّ بِالْحَسَنةِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۸ وَانْ لَمْ تَعْمَلْهَا لِكَى لا تُكْتَبَ مِنَ الْغَافِلِينَ» «۱». التفكير بالموت ونهاية الحياة من جملة الأفكار الّتى تورث الإنسان اليقظة وتبعده عن الغفلة وخاصّةً عندما يمر الشخص على مقبرة من المقابر ويتصور انه فى الغد القريب سيكون أحد سكنة هذه المقبرة وينقطع عن الحياة الدنيا، فهذا التفكير من شأنه أن يزيل استار الغفلة الّتى تتراكم على القلب بسبب الأهواء والشهوات والنوازع الدنيوية الاخرى.

وفى ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى أحد وصاياه لابنه الإمام الحسين عليه السلام «اىْ بُنَىَّ الْفِكْرَةُ تُورِثُ نُوراً وَالْغَفْلَةُ ظُلْمَةً» «۲». ۵- تغير المحيط إن الكثير من الاجواء الاجتماعية والطبيعية تورث الإنسان الغفلة وخاصةً الاشتراك فى مجالس الغافلين والبطالين، وجلسات اللهو واللعب، والسكن فى القصور الفخمة والمزخرفة وأمثال ذلك، فكلها تقود الإنسان باتجاه الغفلة عن حقائق الامور، وحتّى الكثير من المدن فى عالمنا المعاصر قد تبدلت إلى مركز من مراكز الفساد والغفلة. وأحد الطرق للخلاص من قيود الغفلة هذه هو ترك المشاركة فى مثل هذه الجلسات والاماكن، والهجرة من المدن الملوثة بالفساد، وفى غير هذه الصورة فإنّ التخلص من سلطان الغفلة عسيرٌ جداً. فلذلك نرى أنّ الإمام السجاد يقول لأبى حمزة الثمالى عند بيان أحد عوامل سلب التوفيق: «او لَعَلَّكَ رَأَيْتَنى آلِفُ مَجَالِسَ البَطَّالِينَ فَبَيْنى وبَيْنَهُم خَلَّيْتَنى». ونختم هذا البحث بحديثٍ عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال «احْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفاءِ وَقِلَّةَ الاعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّه» «۳».

۵- اليقظة والانتباه

«اليقظة» هى اليقظة المقابلة للغفلة وتأتى بمعنى الانتباه من النوم البدنى أو النفسى، وقد ذهب بعض العرفاء إلى أنّ اليقظة هى أوّل منازل السير والسلوك لأرباب المعرفة. واليقظة فى مصطلح العرفاء الإسلاميين هى الانتباه من نوم «الغفلة» والتوجه للأعمال والأفعال من موقع الضبط والوعى ولجبران الأخطاء السالفة وتصحيح المسيرة فى حركة السلوك المعنوى للإنسان. الإمام الخمينى يرى فى كتاب «الجهاد الأكبر أو جهاد النفس» ضمن اعتقاده بان اليقظة هى الخطوة الاولى فى تهذيب النفس يقول فى ذيل بحثه عن اليقظة «إلى متى تريد أن تبقى فى نوم «الغفلة» وأنت غارق فى لجة الفساد والشر، اتقِ اللَّه وأحذر عواقب الامور وانتبه من نوم الغفلة، فأنت لحدّ الآن لم تخطو الخطوة الاولى فى سلوكِكَ إلى اللَّه تعالى فالقدم الأوّل فى دائرة السلوك هو «اليقظة»، ولكنك مازلت فى حالة النوم، فافتح عينيك وقلبك واترك نومك، فلو أنّ قلبك لم يكن ملوثاً بآفاق الذنوب السوداء لم تقنع وتستمر على هذا النوم وكأن شيئاً لم يكن، فلا تشعر ماذا يجرى حولك بل تستمر فى سلوكك وأعمالك وأقوالك الباطلة، فلو أنك تفكرت قليلًا فى أمر آخرتك وعاقبتك المخيفة يوم القيامة لتحركت من موقع الاهتمام بالتكاليف وأداء المسؤوليات الثقيلة الملقاة على عاتقك». امّا الآيات والروايات الشريفة الّتى تقرر هذا المضمون والمحتوى فكثيرة، وأساساً فإنّ جميع آيات الإنذار والبشارة هو من أجل الوصول إلى هذه الغاية والهدف، أو إزالة آثار الغفلة عن قلب الإنسان وإيقاظه إلى ما ينتظره فى الغد ولكى لا يبقى فى نوم الغفلة والجهل. إن من جملة التعبيرات القرآنية فى دائرة الانذار والتحذير هى «افَلا تَعْقِلُون» «۱»» «أَفَلاتَذَكَّرُون» «۲» و «افَلَا تَتَفَكَرُونَ» و «او لَم يَتَدبَّرُوا القُرآن» وأمثال ذلك. فكلّها بمثابة الاعلام عن الخطر المحدق بالإنسان وايقاظه من النوم العميق الّذى يعيشه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳۰ فى أجواء الطبيعة المادية، ولذلك كان لابدّ له من منبه وجرس انذار ليستعد للمسير فى خط الإيمان والصلاح والتقوى وكذلك الآيات الّتى تؤكد على ذكر اللَّه تعالى لأن الاعراض عن ذكر الحقّ من شأنه أن يفسد حياة الإنسان، ويعيش بالتالى «معيشة ضنكا» فى هذا العالم ويحشر يوم القيامة أعمى ولذلك نجد أنّ المفاهيم القرآنية تتحرك باتجاه تحذير المسلمين من اسباب اللهو أو الغفلة وتسوقهم باتجاه ذكر اللَّه تعالى وكلّ ذلك من شأنه انعاش حالة «اليقظة» والوعى بالمصير فى واقع الإنسان وفكره. وقد أشارت الروايات الإسلامية بشكل واسع إلى مسألة «اليقظة» منها: ۱- ما ورد عن أميرالمؤمنين فى خطبته لدى الإشارة إلى الهدف من بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقال «ايُّهَا النَّاسُ انَّ اللَّهَ ارْسَلَ الَيْكُمْ رَسُولًا لِيُزِيحَ بِهِ عِلَّتَكُمْ وَيُوقِظَ بهِ غَفْلَتَكُمْ» «۱». وليس هذا الهدف مختصٌ بنبى الإسلام فحسب بل يشمل جميع الأنبياء فإنّهم بعثوا لهذا الغرض أيضاً، وايقاظ الناس من غفلتهم، أو على الأقل أنّ هذا الهدف هو أحد الأهداف الأساسية من دعوتهم. ۲- ويقول الإمام الحسن عليه السلام فى خطبته لأهل الكوفة: «ايُّهَا النَّاسُ تَيَقَّظُوا مِنْ رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ وَمِن تَكَاشُفِ الظُّلْمَةِ، فَوالّذى خَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَءَ النَّسَمَةَ وَتَرَدّى بِالْعَظَمَةِ، لَئِن قَامَ الىَّ مِنْكُمْ عُصْبَةٌ بِقُلوبٍ صَافِيَةٍ وَنِيّاتٍ مُخلِصَةٍ، لا يَكُونَ فِيها شَوْبُ نِفاقٍ وَلا نِيَّةُ افْتِرَاقٍ لَاجاهِدنَّ السَّيفَ قَدَماً قَدَماً وَلَاضَيِّقَنَّ مِنَ السُّيُوفِ جَوَانِبَها وَمِنَ الرِّماحِ اطرافَهَا وَمِنَ الْخَيْلِ سَنابِكَها

فَتَكَلَّمُوا رَحِمَكَمُ اللَّه» «۲». وهنا نرى أنّ الإمام الحسن عليه السلام فى هذا الكلام يدعو أهل الكوفة إلى جهاد معاوية وجيش الشام فى حين أنّهم قد تمكنت منهم «الغفلة» فلم يستجيبوا له. ۳- ونقرأ فى كتاب «فلاح السائل» الدعاء الّذى أقرّه الإمام الصادق عليه السلام أيضاً بغرض الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳۱ جبران الأخطاء والغفلة فى الصلاة حيث قال «فَصَلِّ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلْ مَكانَ نُقْصانِها تَماماً وَعَجَلَتى تَثَبُّتاً وَتَمَكُّناً، وَسَهْوِى تَيَقُّظاً، وَغَفْلَتى تَذَكُّراً، وكَسَلى نَشاطاً» «۱». ۴- وورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة قوله مخاطباً للإنسان اللاأبالى «أما مِنْ دائك بُلُولٌ امْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقْظَةٌ» «۲». ۵- ويقول أميرالمؤمنين فى حديثٍ آخر أيضاً «الَا مُسْتَيْقِظٌ مِنْ غَفْلَتِهِ قَبْلَ نَفادِ مُدَّتِهِ» «۳». وفى جميع هذه الروايات نجد أنّ «الغفلة» شبهت بنوعٍ من النوم تارةً، واخرى بنوعٍ من السكر، وشُبه قصد التذكر بنوعٍ من الانتباه واليقظة، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال: «سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرورِ ابْعَدُ افاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ» «۴». ۶- ونختم هذا البحث بحديثٍ آخر عن الإمام أميرالمؤمنين فى تشبيهه اليقظة بالمصباح المنير حيث قال «فَاسْتَصْبِحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِى الابْصارِ وَالاسْماعِ وَالافْئِدَةِ» «۵».

التغافل الإيجابى:

كما تقدّم أنّ الغفلة فى نور الحياة سببٌ للشقاء والانحطاط المادى والمعنوى فإنّ «التغافل» بالنسبة إلى هذه الامور يؤدى إلى نفس هذه النتيجة، أى أنّ الإنسان يجب أن يعلم بأن الواقع الدنيوى متزلزل وأنّ هذا العالم غير ثابت على أمرٍ واحد، وعليه أن يعبرهُ إلى حيث الحياة الخالدة، وأنّ الموت هو قانون طبيعى حتمى على الأشياء ولا اعتبار بالقوى الطبيعية والثروات المادية، ولكن مع كلّ ذلك فإنّ الإنسان الّذى يعيش الغفلة و «التغافل» يمر على هذه الحقائق من الكرام ولا يعنيه من أمرها شىء. هذا هو التغافل السلبى الّذى قد يترتب عليه آثار ونتائج مضرة أكثر من الغفلة نفسها، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳۲ لأن «الغافلين» قد يقعون فى دوامة الحوادث والمشاكل عن جهلٍ وعدم علمٍ بواقع الحال، اما «المتغافل» فهو يخطو باتجاه هذه المشاكل عن وعى وعلم مسبق، وبذلك تكون مسؤوليته الإلهية أكثر وظلم الناس له أشد. اما «التغافل الايجابى» فهو أن يعيش الإنسان بحالة يخفى معها الأشياء الّتى ينبغى اخفاؤها، أى أن يقوم الشخص باظهار عدم اطلاعه وعدم علمه بالأشياء الّتى يعلم بها ولكنَّ اظهارها له عواقب سيئة، ويتصرف معها تصرف المتغافل ويمر عليها مرّ الكرام من موقع سعة الصدر وقوّة الشخصية، لغرض حفظ ماء وجه الآخرين واحترامهم وحيثيتهم الاجتماعية. ومن جملة موارد التغافل الايجابى هو اخفاء عيوب الآخرين، فإنّ لكلّ شخص عيوباً وأخطاءً لا يحب أن يطلع عليها الآخرون، ولذلك يسعى لكتمانها، ولكن أحياناً يعلم بها بعض الأشخاص الأذكياء، ففى مثل هذه الموارد يكون التغافل مطلوباً، وفى الحقيقة هو نوعٌ من ستر العيوب الخفية الّتى لا ينبغى اظهارها إلّافى موارد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك بشكل لطيف ومستور أيضاً. وهناك بعض الموارد يكون الكشف عن العيب فيها مؤدياً إلى تسقيط شخصية الأفراد وكذلك يؤدى إلى حث الآخرين على المعصية، فالفضيحة قد تؤدى إلى زيادة الايغال فى ارتكاب الذنوب، وبعبارة اخرى: إذا زال حجاب الحياء عن المذنبين فإنّهم سوف يقدمون على ارتكاب الذنوب المختلفة، ولهذا ففى مثل هذه الموارد يكون «التغافل» مانعاً عن تفشى هذه الظاهرة الاجتماعية السلبية. وببيان عام يمكن القول أنّ أحد الاصول المهمة بالحياة الهادئة والوادعة هى أن يعيش الإنسان «التغافل» عن بعض الامور لا سيّما بالنسبة إلى المدراء وأصحاب المناصب الحساسة فى المجتمع حيث يجب عليهم الاستفادة من هذه المسألة بشكلٍ جيد لحلّ الكثير من المشاكل الّتى تعترضهم فى عملهم الاجتماعى، وهذا يعنى انه كلّما احتاج الأمر إلى تحذير وتنبيه فعليهم أن يقوموا بهذا الأمر، وكلّما احتاجت المسألة إلى «تغافل» لحلّها أو الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳۳ جعلها تراوح فى مكانها ولا تنتشر وتتفشى وتتعاظم فإنه عليهم سلوك هذا الطريق، ومن المعلوم ان المدير الّذى لا يرى للتغافل شيئاً حاسماً فى سلوكه الإدارى ولا يعير له اهتماماً فإنه سيوقع نفسه فى مشاكل وصعوبات غير موجهة وبدون مبرر. ولهذا السبب فإنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام أكدوا على هذه المسألة فى أفعالهم وأقوالهم، فمثلًا نجد أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يتعامل مع بعض الامور من موقع التغافل بحيث أدّى ذلك إلى اعتراض بعض

المسلمین الجهلة، فمثلًا اعترضوا علی النبی بأنه سریع التأثر بما یسمعه من کلمات من هنا وهناک، فلو قیل له إنّ فلان یقول عنک کذا وکذا لأسرع فی تصدیقه وقبوله وأرسل خلف ذلک الشخص معاتباً إیاه، ولو أنّ ذلک الشخص أقسم له انه لم یقل هذا الکلام فی حقّه لاسرع کذلک إلی تصدیقه أیضاً. القرآن الکریم یشیر إلی هذا المعنی فی الآیة ۶۱ من سورة التوبة ویقول «وَمِنْهُمُ الَّذِینَ یُؤْذُونَ النَّبِیَ وَیَقُولُونَ هُوَ اذُنٌ قُلْ اذُنُ خَیْرٍ لَکُمْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَیُؤمِنُ لِلمُؤمِنینَ وَرَحْمَهٔ لِلَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ ...». ومن البدیهی أنّ نبی الإسلام مع کلّ ذلک الذکاء والحرکة والدرایة الّتی اعترف بها الأعداء والأصدقاء لم یکن بالشخص الساذج إلی هذه الدرجة، بل کان یری أنّ وظیفته فی بعض الموارد هی «التغافل» وهذا التغافل یُعد مصدر رحمة لجمیع المؤمنین.

التغافل فی کلمات المعصومین علیهم السلام:

۱- ورد فی الحدیث المعروف عن الإمام زین العابدین علیه السلام وکذلک الإمام الباقر والصادق علیهما السلام عن «التغافل» قولهم «صَلاحُ حالِ التَّعایُشِ وَالتَّعَاشُرِ مِلُ مِکْیالٍ ثُلْثاهُ فِطَنَهٌ وَثُلْثُهُ تَغَافُلٌ» «۱». هذه الروایة فی الواقع ضمن تأکیدها علی التغافل الایجابی تحذر الإنسان من التغافل السلبی، ففی البدایة تؤکد علی الفطنة والانتباه والیقظة فی الامور وترک الغفلة وأنّ ذلک یعد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۴ ثلثی مکیال المعاشرة، ومفهومه هو أنّ الإنسان لا- ینبغی أن یعیش الغفلة وعدم الاطلاع بالنسبة إلی مسائل الحیاة والمعیشة بل یجب الانتباه والیقظة والتعامل مع الامور بدقّة متناهیة لیحرز بذلک خیره وصلاحه، ولکن من جهة اخری یجب علیه أن یعیش «التغافل» بالنسبة إلی الامور الّتی ینبغی علیه التغافل عنها وجعلها فی زاویة النسیان والاهمال من قبیل التفکیر فی المسائل الجزئیة للحیاة والّتی لیست بذات قیمة، لأنّ التفکر فی مثل هذه الامور والسفاسف بإمکانه أن یمنع الإنسان من التفکیر فی المسائل الأهم منها، وکذلک اخفاء عیوب الآخرین المستورة فی الموارد الّتی تستوجب المصلحة ذلک فإنّ التغافل فی مثل هذه الموارد یعتبر أمراً محموداً. ۲- وقد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «مِنْ اشْرَفِ اعمالِ الْکَریمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا یَعْلَمُ» «۱». ۳- وفی حدیثٍ آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «مَنْ لَمْ یَتَغَافَلْ وَلَا یَغُضَّ عَنْ کَثِیرٍ مِنَ الامُورِ تَنَغَّصَتْ عِیْشَتُهُ» «۲». وبدیهی أنّ الحیاة الدنیا لا تخلو من بعض الامور الّتی قد تحدث للإنسان من غیر توقع أو لا- تسیر الحیاة کما هو المطلوب وکما یرید لها الإنسان، فلو أنّ الشخص قد تحرّک فی تعامله مع الحیاة من موقع الفحص والدقّة فی جزئیات الامور وعاش الفضول فی حیاة الآخرین وأخذ یحاسبهم ویعاتبهم علی کلّ صغیرة وکبیرة فإنّ حیاته ومعیشته سوف تتنغص ویتفرق الآخرون من حوله. ونختم هذا البحث بالحدیث الشریف الوارد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً حیث یقول «وَعَظِّمُوا اقْدَارَکُمْ بِالتَّغَافُلِ عَنِ الدَّنِّی مِنَ الامُورِ ... وَلَا تَکُونُوا بَحَّاثِینَ عَمَّا غَابَ عَنْکُمْ، فَیَکْثُرُ عَائِبُکُمْ ... وَتَکَرَّمُوا بِالتّعَامِی عَنِ الاسْتِقْصَاءِ» «۳». ومن هذا الحدیث وکذلک بعض الأحادیث الاخری یستفاد جیداً أنّ هذا المفهوم «التغافل» لا یرد إلّافی الموارد الجزئیة والصغیرة من سفاسف الحیاة والواقع الاجتماعی. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۵ وعلی هذا الأساس فإنّ «التغافل» لا یتقاطع مع الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر والانتقاد البنّاء فی حرکة الحیاة الاجتماعیة لأن الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر یتعلقان بالواجبات والمحرمات الّتی هی خارجة عن دائرة «التغافل»، واما الانتقاد البنّاء فیتعلق بالامور المصیریة فی حیاة الفرد والمجتمع والّتی یترتب علیها نتائج مهمة، فی حین أنّ التغافل لا- یتعلق بالامور الجسیمة وذات الأهمیة أو الامور الّتی تکون المصلحة فی سترها والتغاضی عنها. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۶

البخل والشح

تنویه:

إن النعم والمواهب الإلهیة علی الإنسان تکون فی کثیرٍ من الموارد أکثر من حاجة الإنسان نفسه بحیث یمکنه أن یسهم الآخرین بها

ویشارکهم فی الاستفادة منها بدون أی ضرر یُلحق به، ولکنَّ بعض الناس وبسبب البخل والشح یمتنعون من ذلک ولا یجدون فی أنفسهم رغبة فی العطاء والجود بما لدیهم من نِعم کثیرة، وأحیاناً یتحرکون من موقع التفرج والتفاخر بهذه النعم والثروات الدنیویة إلی درجة أنّهم یثیرون حفیظة المحرومین ویجرحون قلوبهم بذلک وکأن هؤلاء یجدون لذّة خاصّة فی إثارة المحرومین هؤلاء. وأحیاناً تقترن هذه الصفة مع حالة «الانانیة» و «التکبر» و «الحرص» وأمثال ذلک من الصفات السلبیة القبیحة. إذا نظرنا إلی عالم الوجود من موقع التدبر والتأمل فسوف نشاهد آیات البذل والکرم والجود والانفاق فی کلّ مکان، الشمس تحترق دائماً وتبدل بعض وجودها إلی نور وحرارة وتُرسله إلی جمیع المنظومة الشمسیة حیث تعیش المخلوقات والأحیاء بهذا النور الساطع وتستدفی بهذه الحرارة الکافیة. الأرض بدورها تُخرج ما فی باطنها من أنواع الکنوز والمعادن الثمینة والمواد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۸ الغذائیة والمیاه الجوفیة، کلّ ذلک تضعه تحت اختیار الإنسان مجاناً وتعینه بذلک علی مصاعب الحیاة، وهکذا الحال فی سائر موجودات هذا العالم الفسیح فإنّ کلّ واحدة منها یعطی للإنسان ما لدیه مظهراً بذلک کرمه وجوده. ومضافاً إلی هذا العالم الکبیر نری فی العالم الصغیر، أی الإنسان أیضاً نفس هذه المسألة، فالقلب، والجهاز التنفسی، والمعدة، العین، الاذن، الید والرجل کلّها لا تعمل من أجل ذاتها فقط بل تخدم فی حرکتها وحیاتها جمیع أجزاء البدن، فلا معنی للبخل فی وجودها، بل کلّما هناک هو الکرم والجود یترشح من جمیع أجزاء البدن وجمیع خلایاه. فی هذا العالم الّذی تحکم فیه معالم الکرم والسخاء فهل هناک من مکان للإنسان البخیل؟ ألا یتقاطع وجود هذا الإنسان البخیل مع عالم الوجود وبالتالی فإنه محکوم بالموت والاندثار والزوال؟ علی هذا الأساس نری ذمّ «البخل» ومدح «السخاء والکرم» بشکل واسع فی الآیات والروایات الإسلامیة حیث نری أنّ «الجود والسخاء» بعنوان أنّهما من الصفات والأسماء الإلهیة البارزة فی عالم الوجود وتمثل سمة من سمات الأئمّة المعصومین علیهم السلام أیضاً. بهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها ما یضفی علی مفهوم «البخل» و «السخاء» ضوءاً وجلاءاً أکثر: ۱- «إِنَّ قَارُونَ کَانَ مِن قَوْمِ مُوسَی فَبَغَی عَلَیْهِمْ وَءَاتَیْنَاهُ مِنَ الْکُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِی الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْفَرِحِینَ* وَابْتَغِ فِیمَآ ءَاتَاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیَا وَأَحْسِن کَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ» «۱». ۲- «انّا بَلَوْنَاهُم کَما بَلَوْنا اصْحَابَ الْجَنَّةِ اذ اقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحینَ* وَلایَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَیْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَهُم نَائِمُونَ* فَاصْبَحَتْ کَالصَّرِیم» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۹ ۳- «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَکُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِینَ* فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِی قُلُوبِهِمْ إِلَی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا کَانُواْ یَکْذِبُونَ» «۱». ۴- «وَلَایَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَیْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَیُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ یَوْمَ ا لْقِیَامَةِ وَلِلَّهِ مِیرَا ثُ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ» «۲». ۵- «الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَیَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَیَکْتُمُونَ مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْکَافِرِینَ عَذَابًا مُّهِینًا» «۳». ۶- «وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنی وَکَذَّبَ بِالْحُسْنی فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری «۴». ۷- «هَا أَنتُمْ هَؤُلَا ءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَمِنکُم مَّن یَبْخَلُ وَمَن یَبْخَلْ فَإِنَّمَا یَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ ا لْغَنِیُّ وَأَنتُمُ ا لْفُقَرَآءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ یَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَیْرَکُمْ ثُمَّ لَایَکُونُواْ أَمْثَالَکُم» «۵». ۸- «.. وَمَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۶». ۹- «وَالَّذِینَ اذا انْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَلَمْ یَقْتُرُوا وَکَانَ بَیْنَ ذَلِکَ قَوَاماً» «۷». ۱۰- «قُلْ لَوْ انْتُم تَمْلِکُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّی اذاً لَامْسَکْتُمْ خَشْیَةَ الانْفَاقِ وَکَانَ الإنْسَانُ قَتُوراً» «۸».

تفسیر واستنتاج:

مصیر البخلاء

«الآیات الاولی من الآیات محل البحث تستعرض حادثة مهمة من الحوادث الّتی جرت علی بنی إسرائیل، فکانت عبرة لمن اعتبر ذلک أنّ أحد أثریاء بنی إسرائیل وبسبب البخل والتکبر والغرور، ابتلی بمصیرٍ عجیب وموحش. لقد کان «قارون» من أقرباء النبی موسی علیه السلام ومن الوجوه والشخصیات الثریة المعروفة لبنی إسرائیل، وحسب الظاهر کان من أوّل المؤمنین بموسی علیه السلام أیضاً وکان

مطلعاً وعارفاً بالتوراة، ولكنه كان كمثل الكثير من الأثرياء انانياً ومحبّاً للدنيا وبعيداً عن اللّه، وكان يحبّ بشكل عجيب اظهار ماله من الثروة أمام فقراء بنى إسرائيل، وكان فى كلّ مرّة يظهر عليهم بزينته وثروته الهائلة يخفق قلوب أصحاب الدنيا وأهل الطمع من بنى إسرائيل حتّى وصل بهم الأمر إلى أن يكون أملهم الوحيد أن يكونوا مثل قارون من حيث الثراء وكثرة المال. يقول القرآن المجيد فى هذه الآيات «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ» «۱». لقد كان ظلمه وبغيه على قومه بسبب «البخل» الشديد حيث لم يكن راغباً فى بذل شىءٍ منها، وفى نفس الوقت كان يخرج على الناس والفقراء بزينته وثراءه الفاحش ويجد بذلك لذّة فى نفسه، والأمر الآخر أيضاً الّذى زاد من بغيه هو مخالفته الشديدة للنبى موسى عليه السلام وتعامله مع الفراعنة وخاصّةً عندما طلب منه موسى عليه السلام اداء الزكاة. وأساساً أنّ الأثرياء وأصحاب الدنيا لديهم علاقة شديدة فى تقوية نفوذهم وقدرتهم فى المجتمع، وهذه العلاقة تارةً تكون بدافع من حبّ التكاثر، واخرى بسبب الخوف من القدرات السياسية والاجتماعية الاخرى لكى لا يلحق بثروتهم الضرر من قبل هذه القدرات وقوى السيطرة والسلطة، ولهذا السبب كانوا يقفون من الأنبياء ودعوتهم السماوية الّتى كانت تستوعب الناس وتظلهم تحت خيمة الحكومة الإلهية، كانوا يقفون منها موقف العناد والرفض. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۱ القرآن الكريم فى إدامة حديثه عن قارون وثروته يقول فى هذه الآية «وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ» «۱». لقد كان قارون فرحاً جدّاً من وضعه الاجتماعى وكان يعيش دائماً حالة اللهو واللّذة ولا يشعر بما يجرى على البؤساء والفقراء ولا يعيش محنتهم وحرمانهم وحتّى عندما قال له العقلاء من قومه «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» «۲». هذه التعاليم الخمسة والنصائح المشفقة ليس لم تؤثر إطلاقاً فى قلب قارون الأسود، بل زادته طغياناً وضلالًا إلى درجة انه انكر بصراحة التوحيد الأفعالى للّه‌تعالى وقال: «إنما اوتيته على علم». ويتحدّث القرآن الكريم فى آياتٍ اخرى من هذه السورة عن إحدى الرذائل الأخلاقية لقارون الّتى تتمثل تقريباً بدرجة من الجنون الّذى يبتلى به جميع الأثرياء المغرورين والّذين يتحركون فى خطّ الإنحراف وطلب المزيد من الثروة والمال بعيداً عن اللّه تعالى فتقول الآية: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۳». وأخذ يتبرج بهذه الثروة الطائلة من موقع الغرور والتفاخر حيث استعرض معه الجياد الغالية المزينة بالذهب وحمل معه الجوارى الجميلات الغارقات بأنواع الزينة والمجوهرات وكذلك سائر أنواع الأموال والثروة وزخارف الدنيا وبريقها الخداع حتّى أنّ طائفة من المؤمنين نصحوه بترك هذه السلوكيات الذميمة، إلّاأنّه بدلًا من أن يستمع إليهم ويسلك مع الفقراء والمعدمين مسلك اللطف والكرم والمواساة فانه انطلق من موقع العناد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۲ والإصرار لوضع الملح على جراح هؤلاء الفقراء والبؤساء ويجعلهم حيارى غارقون بالحسرة أمام هذا الغرور العجيب. وعندما ازدادت حدّة طغيانه لم يمهله اللّه تعالى أكثر من ذلك، فكان أن اصابت زلزلة قصره ومحل إقامته فقط فخسفت به الأرض وغاص فى أعماقها هو وجميع ثروته، وهكذا صار حديثاً بعد عين وعبرةً لمن اعتبر على طول التاريخ البشرى. إن الجذور الأصلية لشقاء «قارون» هو حالة «البخل» الّتى كان يعيشها بعمق بكامل وجوده، البخل الّذى صار منشأً وسبباً لانكاره لنبوّة موسى عليه السلام وتعامله مع عقيدة التوحيد الإلهى من موقع الاعتراض والرفض، وأخيراً ادّى به الحال إلى اتهام نبى اللّه موسى عليه السلام بالعمل المنافى للعِفة مع زانية معروفة، ولكن اللّه تعالى فضح أمره سريعاً، فكان يتصور انه مع تملكه لهذه الثروة العظيمة فإنه لا أحد يقدر على إيصال الضرر إليه، ولهذا السبب فلم يكن يمتنع من أى ظلم وجور على قوم بنى إسرائيل إلى أن نال جزاءه وعقابه. «الطائفة الثانية» من الآيات محل البحث تشير إلى قصة اخرى من قصص هؤلاء البخلاء ومصيرهم الأسود حيث يتحدّث القرآن الكريم هنا عن جماعة يسموهم «أصحاب الجنّة» ويرى بعض المفسّرين أنّهم كانوا جماعة من بنى إسرائيل يسكنون «اليمن» على مقربة من «صنعاء»، وذهب بعض المحققين إلى أنّ كلمة «حرد» الواردة فى سياق هذه الآيات يعنى «المنع» وهى من الكلمات المتداولة فى اليمن وتشير إلى أنّ هؤلاء كانوا من أهل اليمن. لقد كان عدد هؤلاء عشرة أشخاص وكان لديهم بستان كبير وثروه من أبيهم الّذى كان رجلًا كريماً وسخياً وصالحاً، وكان عندما يحين قطاف الثمار يفتح باب البستان على

مصراعيه للفقراء والمساكين لينالوا منه حاجتهم، وبـذلك كانت البركة وسعة المال والثراء تزداد فى أموال الأب، ولكنَّ ابناءه البخلاء كـانوا يتصورون أنّ مثل هـذا البـذل والعطاء الكثير الّذى يصب فى جيوب الفقراء والمحتاجين لا مسوّغ له، ولا مبرر لأن ينفق الإنسان من أمواله بهـذه الدرجة، وبذلك لقد عزموا على أن يمنعوا كلّ فقير من الدخول إلى هذا البستان الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۳ الكبير، وقرروا أيضاً فيما بينهم أن ينهضوا فى الصباح الباكر ومن دون اعلان أو سخط ليقطفوا ثمار هـذا البستان مع مجموعة من العمال وقبل أن يستيقظ الفقراء والمساكين من نومهم ويصل إليهم الخبر فإنّهم يقومون بنقل هذا المحصول الكثير. يقول البرسوئى فى «روح البيان»: «إنّ هـذه الحادثة وقعت بعد عصر عيسى بقليل حيث كان لهم أب كريم جداً، فكان يأخذ من بستانه ما يكفيه لسنته ويوزع الباقى على الفقراء، ولكن ما أن توفى الأب حتّى قال الأولاد: إننا إذا سرنا بسيرة والـدنا فإنّ حياتنا ستكون شاقة، لكثرة عيالنا وأطفالنا، فأقسموا أن يعجلوا فى الصباح الباكر على قطف الثمار وحتّى أنّهم لم يقولوا: إن شاء اللّه» «۱». وقد أنزل اللّه تعالى عليهم عـذاباً أليماً وعاقبهم بأشـد العقاب كما تقول الآية «فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» «۲». أجل، إن صاعقة محرقة ونار رهيبة نزلت على ذلك البستان وأحرقته من أوّله إلى آخره «فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» «۳». «الصريم» هو الشجرة غير المثمرة، أى أنّ الصاعقة اتلفت الثمار فقط دون الأشجار الّتى بقى منها الجذوع فقط، وفى الغد عندما نهض الاخوة وذهبوا فى الصباح الباكر إلى بستانهم ترجموا خطتهم على أرض الواقع، فلما وصلوا إلى ذلك البستان ورأوا ذلك المنظر المهيب والمفجع قالوا: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا انَّا لَضَالُّونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» «۴». جملة «انّا لضالّون» إشارة إلى أنّهم لم يكونوا يصدقون أنّ هذا البستان قد احترق بأكمله بعد ما كان قبل قليل زاهراً ومليئاً بالثمار ولكن عندما دققوا النظر أدركوا من خلال القرائن أنّ هذا البستان المحترق هو بستانهم الّذى اصبح بهذه الصورة لـذلك قالوا «بَلْ نَحْنُ مَحرُومُونَ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۴ وهناك احتمال آخر، وهو أنّ المراد بالضلالة هنا هى الانحراف عن طريق اللّه والحقّ لأنهم كانوا يتصورون إن السعادة تكمن فى عنصر «البخل»، والحال أنّ الطريق الصحيح لنيل السعادة الحقيقية هو الطريق الّذى سلكه أبوهم الكريم من قبل. وجاء فى الآيات التالية إن هـذه المجموعة من البخلاء انتبهوا من نوم الغفلة بسرعة وأخذوا يلومون أنفسهم واعترفوا بـذنبهم وعزموا على عدم تكراره فى المستقبل بعد أن طلبوا من اللّه تعالى بستاناً أفضل من السابق، وقد ورد فى بعض الروايات أنّ اللّه تعالى قبل توبتهم ووهبهم بستاناً أفضل وأحسن من بستانهم السابق. وعلى أية حال فإنّ الآية أعلاه تبين العواقب المؤلمة لحالة «البخل» والشُّح بحيث إن هذه الرذيلة تضر الإنسان حتّى فى أمر دنياه العاجلة. والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول فى بداية هـذه الآيات «إنا بَلَوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة» ولعلّ هذا التعبير إشارة إلى حالة القحط الشديد الّذى أصاب مكّة المكرمة بسبب البخل وترك الانفاق من قبل أثرياء قريش. «الآية الثالثة» تتحدّث عن مصير شخص بخيل فى عصر رسول اللّه، وطبقاً للكثير من التفاسير فإنّ هـذا الشخص كان من الأنصار ويـدعى «ثعلبة بن حاطب» والّذى كان فى بداية أمره معسراً وفقيراً بشدة وكان يتمنّى أن يكون يوماً من الأثرياء ولذلك طلب من النبى بالحاح شديد أن يدعو له بذلك ليكون من الأثرياء. فقال له النبى صلى الله عليه و آله: يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه، ولكنه أصرّ على ذلك وقال: يا رسول اللّه، ادع اللّه أن يرزقنى مالًا والّذى بعثك بالحق لئن رزقنى اللّه مالًا لاعطين كلّ ذى حقّ حقه وهو قوله «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۱». ثمّ إنّ النبى الأكرم دعا لهـذا الرجل بعد إصراره الشديد ليكون عبرةً لغيره فلم تمض فترة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۵ إلّا وانفتحت عليه أبواب الرزق والثراء ببركة دعاء النبى صلى الله عليه و آله وحصل على ثروة طائلة غير متوقعة، فملك قطعان كبيرة من الأغنام والإبل وأصبح من الموسرين جدّاً، ولكن عندما نزلت آية الزكاة وسمع بها وعلِمَ انه يجب عليه أن يدفع مقداراً قليلًا من هـذه الأموال بعنوان الزكاة إلى الفقراء والمساكين، فما كان من هـذا الرجل البخيل إلّاأن نقض عهده مع اللّه تعالى ومع رسوله الكريم ونسى وعده بمساعدة الفقراء وامتنع من دفع الزكاة. وهنا يتحدّث القرآن الكريم عن هذه الحالة بايجاز فيقول «فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ» «۱». وبالرغم من أنّ «ثعلبة» لم يكن سوى رجل واحد، ولكن عندما ازدادت أمواله وكثرت ثروته استخدم بعض الأشخاص لحفظها ورعايتها، ولذلك فمن المحتمل أن تكون صيغة الجمع الواردة

فى الآيـة إشارة إلى هذا المطلب. وهناك احتمال آخر وذلك بأن مثل هذه الحالات لا تختّص بثعلبة وطلبه من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، بل إن هـذه الحالـة تكثر بين الناس فى المجتمعات البشـرية حيث يطلبون من اللَّه تعالى هـذا الطلب ويعـدون بشتّى الوعود ولكنهم لاـ ينجحون فى الامتحان الإلهى ويتحركون بعـد ذلك من موقع نقض العهود هـذه، والسـلوك فى خط الانانيـة والبخل وحب الـدنيا وعلى أيـة حال فإنّ النتيجة الحتمية لنقض العهد والبخل هو أن تدب ريح النفاق فى قلوب هؤلاء البخلاء وتسـتمر معهم إلى يوم القيامـة كما تقول الآيـة «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَاوَعَـدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْـذِبُونَ» «۲». أجل، فإنّ الرجل كان فى أحد الأيّام من العباد والزهّاد وكان يسـمّى بحمامة المسـجد وكانت جبهته متورمة كثفنات البعير من أثر السـجود ولكن بسبب البخل والانانية والشح فإنه أصبح فى مواجهة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بحيث إنه اعترض على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بسـبب الأمر بالزكاة وقال بأن الزكاة تشـبه الجزيـة الّتى تؤخـذ من أهل الكتاب، وبهذا أصبح فى عداد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۶ المنافقين وأخيراً تم طرده من المجتمع الإسـلامى. «الآية الرابعة» تبين فى سياقها العقوبة الإلهية الشديدة للبخلاء، وما ورد فى هذه الآية من المجازات والكنايات بالنسـبة إلى البخل لم ترد فى سائر آيات القرآن الكريم حيث تقول الآية «وَلَايَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْـلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ...» «۱». ثمّ تضـيف الآية «سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ا لْقِيَامَةِ» «۲». فتكون الأموال الّتى جمعوها على شكل سلسلة ثقيلة تكبلهم وتمنعهم من أى حركة فى عرصات المحشر، وفى ختام الآية يقول تعالى «وَلِلَّهِ مِيرَا ثُ السَّمَاوَا تِ وَالْـأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» «۳». هذه الآية تشير إلى أنّ المحافظة على المال والسـعى لاكتنازه والبخل به لا ينفع الإنسان شـيئاً فى حيـاته الدنيويـة لأنّـه سوف يضـطر إلى ترك كـلّ ما لـديه ويرحل. وبالرغم من أنّ بعض الروايات فسّرت الآيـة أعلاه بمسألـة منع «الزكاة» ولكن حسب الظاهر فإن مفهوم الآية يستوعب فى مضمونه جميع أشكال البخل وحتّى مضافاً إلى البخل بالأموال يشمل البخل بالعلم والمعرفـة وأمثال ذلك كما ذكر بعض المفسّرين. أمّا تصوير الحالة الّتى تجعل هذه الأموال على شـكل حلقة وطوق حول رقبة البخيل يوم القيامـة، فينبغى القول طبقاً لما ورد فى بعض الروايات أنّ تلك الأموال تأتى يوم القيامـة على شـكل طوق من نار كما ورد فى تفسـير العياشـى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ما من عبد منع زكاة ماله إلّاجعل اللَّه ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً فى عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحسـاب، وهـو قـول اللَّه: «سَـيُطَوَّقُونَ مَـابَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ا لْقِيَامَـةِ» قـال: مـا بخلوا به من الزكـاة» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۷ ومن التعبير أعلاه يسـتفاد بوضوح أنّ التعبير بكلمـة «الطوق» هو فى الواقع من قبيل تجسم الأعمال التى يسـلكها الإنسان ويعملها فى الدنيا. لأن «الطوق» لا يبتعد ولا ينفصل عن الإنسان بأية حال، وعلى كلّ حال فإنّ التعبيرات المختلفة للآيـة كلّهـا تحكى عن قبـح «البخـل» وحسن «الانفاق» فى سبيل اللَّه والسـخاء فى المال وسائر المواهب الإلهيـة على الإنسان. والملفت للنظر أنّ أموال «البخلاء» لا تطوق الإنسان البخيل يوم القيامـة فحسب، بل فى الدنيا أيضاً تكون بمثابة القيود الّتى تثقل كاهل الشـخص بسـبب الاهتمام بحفظها وحسابها والخوف من نقصانها او تلفها وأمثال ذلك حيث يتلف الإنسان السنوات العزيزة من عمره من أجلها، ثمّ يضـطر إلى تركها والتوجه للحياة الاخرى محملًا بالمسؤولية بسـببها. «الآية الخامسة» تتحدّث عن الأشخاص الّذين لا يعيشون البخل لوحـدهم فقـط وإنّما يـدعون الناس إلى البخل أيضاً، وتبين حالهم من موقع الـذمّ والتقبيـح وأنّهم مصـداق عنوان «مختالٍ فخور»، وقد صرَّح القرآن الكريم فى عـدّة مواضع أنّ اللَّه تعالى لايحب من كان مختالًا فخوراً، ويقول اللَّه تعالى أيضاً بالنسـبة إلى هـذه الطائفة من الناس «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْـلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» «۱». ومن البديهى أنّ اللَّه تعالى لا يحبّ الشخص الّذى يعيش التضاد المطلق مع صفاته الحسنى وأسماء الجلال والجمال للَّه‌تعالى، وبالتالى فإنّ مثل هذا الإنسان يخرج من دائرة سُبل عنايات اللَّه الخاصّة. والملفت للنظر هو أنّ الآيات الّتى سبقت هذه الآية تشير إلى ما يصيب الإنسان من المصائب والبلايا وأن لا يتعلق الإنسان بهـذه الحياة ولا يغتر بما لـديه من امكانات ماديـة وقابليات دنيويـة، وليعلم أنّ «البخل» لا يجديه شـيئاً فى عمليـة الثراء والغنى بل إنّ الحياة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۸ الدنيا تتقلب من شـكلٍ إلى آخر، وبذلك قد يكون أثرى الناس وأكثرهم مالًا فى يوم آخر من أفقر الناس، ويتبـدل حال الفقير كـذلك بين عشـية وضـحاها ليكون من أغنى الناس، إذاً فلا داعى إلى

الفخر والمباهات والغرور بهذه الثروات المتنقلة لانها لا تحل مشكلة حقيقية للإنسان فى واقعه النفسى. والملاحظة المهمة الاخرى هى دعوة هؤلاء البخلاء الآخرين لسلوك طريق البخل أيضاً ليصبح الناس كلّهم مثلهم، فلا يفتضح أمرهم ولا يعيب عليهم الناس حالة الشح والبخل فيهم، مضافاً إلى أنّ مثل هؤلاء الأشخاص قد سحقوا العواطف الإنسانية تحت أقدامهم فهم يعيشون قساوة القلب وعدم الاحساس بالرحمة والعطف تجاه الآخرين، لذلك فإنّهم يتألمون عندما يرون سخاء الآخرين وترحمهم وعطفهم على الفقراء والمحتاجين ويودون أنّهم لو كانوا مثلهم فى البخل. وفى هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن أميرالمؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر المعيقة، وكان الرجل ممن يرجو نوافله ويؤمل نائله ورفده وكان لا يسأل علياً عليه السلام ولا غيره، فقال رجل لأميرالمؤمنين عليه السلام: واللّه ما سألك فلان ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: لاكثّر اللّه فى المؤمنين ضربك اعطى أنا وتبخل أنت، للّهأنت، إذا أنا لم اعط الّذى يرجونى إلّابعد المسألة ثمّ أعطيته بعد المسألة فلم أعطه إلّاثمن ما أخذت منه، وذلك لأنى عرضته أن يبذل لى وجهه الّذى يعفّره فى التراب لربى وربّه ...» «۱». «الآية السادسة» وضمن الإشارة إلى العقوبة الشديدة والعذاب الاليم الّذى ينتظر البخلاء تقول «وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِرُهُ لِلْعُسْرى وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ اذْا تَرَدّى «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۹ ويتضح جيداً من سياق هذه الآيات ما يلى: ۱- إن البخل لا يتسبب فى رفع حالة الاحتياج والفاقة فى النفس بل إنّ سلوك هذا الطريق سوف يزيد من مشاكل الإنسان الدنيوية والاخروية (والملفت للنظر أنّ كلمة «العسرى» فى الآية مطلقة تشمل جميع اشكال العسر فى الدنيا والآخرة). ۲- على فرض أنّ هذا الإنسان استطاع الحصول على ثروة طائلة من هذا السبيل واستطاع نقلها إلى الآخرة، ولكن ماذا ينفع ذلك عندما يهوى إلى جهنم فى ذلك اليوم؟ وقد ذكر المفسّرون فى تفسير كلمة «يسر» وهى النقطة المقابلة للعسر، احتمالات كثيرة تأتى كلّها أيضاً فى النقطة المقابلة لها، أى مفهوم «العسر»، الاحتمال الأوّل: أنّ المقصود من ذلك تهيئة أسباب التوفيق للتحرّك فى خطّ الطاعة والإيمان والانفتاح على اللّه تعالى، وعلى العكس من ذلك كلمة «العسر» و الّتى تعنى سلب التوفيق للطاعة والايمان، وذهب بعض آخر إلى أن معنى هذه الكلمة هو سهولة الحياة فى الدنيا وعدم مواجهة الإنسان صعوبات ومشاكل مهمة فى امور المعيشة، ويرى البعض الآخر آنها تعنى تيسير طريق الجنّة والثواب الإلهى العظيم يوم القيامة، والبعض الآخر فسّرها بالامدادات الإلهية الغيبية للإنسان وأمثال ذلك ولكن كما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ مفهوم «العسر» وكذلك «اليسر» مفهوم واسع يستوعب جميع هذه الامور المتعلقة بحياة الإنسان الدنيوية والاخروية. وفى «الآية السابعة» نجد خطاباً إلهياً لأصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الذم والتقريع حيث تقول الآية «هَا أَنتُمْ هَؤُلَاء ِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ» «۱». ومن أجل أن لا يتصور بعض الجهّال أنّ اللّه تعالى يحتاج لمثل هذه الأموال والانفاق تقول الآية فى سياقها أيضاً «وَاللَّهُ ا لْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ا لْفُقَرَآءُ» «۲» وعلى هذا الأساس فإنّ ما ينفقه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۰ الإنسان من الأموال هو فى الواقع أداء للأمانة الإلهية الّتى أودعت عنده لغرض اختباره وامتحانه وتربيته، وبذلك فإنّ اللّه تعالى أمر عباده بإيصال بعض هذه الأمانة إلى الفقراء والمساكين أو إنفاقها فى طريق الجهاد فى سبيل اللّه. وفى ختام الآية يتحرّك القرآن الكريم من موقع التهديد للأشخاص الّذين يعيشون البخل والشُّح ويقول: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُواْ أَمْثَالَكُم» «۱». وعلى هذا الأساس تنطلق الآية من موقع التهديد للبخلاء بالفناء والاندثار، وهذا من أشد اشكال التهديد الوارد للبخلاء. وبالرغم من أنّ مصداق الانفاق فى سبيل اللّه ومع ملاحظة سياق الآية والقرائن الموجودة هو الأنفاق فى طريق الجهاد، ولكن المفهوم واسع ويشمل كلّ عملٍ خير يتحرّك فيه المؤمن من موقع البذل والعطاء للآخرين. والكثير من المفسّرين من الشيعة وأهل السنّة ذكروا فى ذيل هذه الآية انه بعد نزولها سأل بعض الصحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن مراد القرآن الكريم من هؤلاء القوم الّذين يأتون بعد البخلاء ويحلون محلهم ولا يكونوا أمثالهم من هم؟ فوضع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يده على رجل سلمان الّذى كان جالساً إلى جنبه وقال «هَذَا وَقَومُهُ وَالّذى نَفْسى بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإيمانُ مَنُوطاً بِالثُرَيّا لَتَناوَلَهُ رِجالٌ مِنْ فَارْسٍ» «۲». «الآية الثامنة» بعد أن تأمر بالانفاق وتؤكد على أنّ الانفاق يورث الإنسان كلّ خير وبركة تقول: «.. وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

فَاولئکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۳». یقول الراغب الاصـفهانی فی کتابه «مفردات القرآن» الشُّح، (علی وزن مخ) بخلٌ مع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۱ حرص وذلک فیما کان عادة. «الفلاح» بمعنی الشق والقطع، ویستخدم لکلّ اشکال السعادة والنجاح والنصر والوصول إلی المقاصد والأهداف فی حرکة الحیاة، وینقسم أیضاً إلی الفلاح المادی والمعنوی. وقد ورد فی الآیات السابقة لهذه الآیة انذار وتحذیر للمسلمین بالنسبة إلی الفتنة من الأموال والأولاد، والظاهر انه مع هذا البیان ترید الآیة أن تبیّن موانع الانفاق لانه أحیاناً یواجه الشخص الوساوس من قبل الأبناء لکیلا یؤدی بهم انفاق الأب إلی الفقر والحاجة أو یعیشوا بدون میراث، وأحیاناً اخری یعیش الإنسان الوساوس النفسیة من مستقبل ابنائه وأنّهم سوف یعیشون حالة الفقر بعده، فیمنعه ذلک من الانفاق، ومن المعلوم أنّ جمیع هذه الوساوس تعد من أحابیل الشیطان ومن موانع «الفلاح» والنجاح فی معراج الکمال المعنوی، وتورث الإنسان الحرص والبخل الشدید. وقد ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام انه کان یطوف بالبیت من اللیل إلی الصباح ویقول «اللّهُمَّ قِنی شُحَّ نَفْسی» یقول الراوی فسألته: بأبی أنت وامّی لم اسمع منک هذه اللیلة غیر هذا الدعاء، فقال «وَایُّ شَیءٍ اشَدُّ مِنْ شُحِ النَّفْسِ انَّ اللَّهَ یَقُولُ وَمَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئکَ هُمُ المُفلِحُون» «۱». وعلی هذا فصفة «البخل» تعد من الموانع المهمة للفلاح إلی درجة أنّ الإمام الصادق علیه السلام یدعو اللَّه تعالی فی طوافه بالبیت من اللیل إلی الصباح بهذا الدعاء ویعتبر أنّ هذه الحاجة هی من أهم حاجاته فی خطّ الإیمان والطاعة والتربیة النفسیة. وتعبیر «خیراً لأنفسکم» بعد الأمر بالانفاق هو إشارة إلی هذه النکتة اللطیفة، وهی أنّ السخاء والانفاق فی سبیل اللَّه تعود معطیاته الایجابیة علی الإنسان نفسه حیث تربّی فیه الروح الإنسانیة ویتخلص قلبه من ظلمات الحرص وقیود «البخل»، ویترتب علی ذلک الکثیر من البرکات المادیة والمعنویة فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۲ ونختم هذا البحث بذکر حدیث شریف فی تفسیر معنی «الشُّح» عن الإمام الصادق علیه السلام حیث سأل «الفضیل بن عیاض»: هل تعلم معنی «الشحیح» فقال: البخیل، فقال له الإمام «الشُّحُ اشَدُّ مِنَ الْبُخلِ انَّ الْبَخیلَ یَبْخَلُ بِمَا فِی یَدِهِ وَالشّحیحُ یَشُحُّ عَلَی مَا فِی ایْدِی النّاسِ وَعَلَی مَا فِی یَدِهِ حَتَّی لا یَری فِی ایْدِی النّاسِ شَیْئاً الّا تَمَنّی انْ یَکُونَ لَهُ بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ، لا یَشْبَعُ وَلا یَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ عَزّوَجَلّ» «۱». «الآیة التاسعة» وضمن استعراضها لمسألة «البخل» تحت عنوان التقتیر تقول فی ذکر صفات عباد الرحمان: «وَالَّذِینَ اذَا انْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَلَمْ یَقْتُرُوا وَکَانَ بَیْنَ ذَلِکَ قَوَاماً» «۲». «یقتروا» من مادّة «قتر» علی وزن «صبر» ویقع هذا المفهوم فی النقطة المقابلة للاسراف، وأحی وفی الواقع فإ

النتیجة:

إن الآیات محل البحث تدلّ علی المفهوم الإسلامی والموقف القرآنی بالنسبة إلی «البخل» وقد ذکرت الآیات الشریفة نماذج من سلوک البخلاء ومصیرهم المشؤوم وعاقبتهم الالیمة والنتائج السلبیة المترتبة علی البخل فی حیاة الإنسان المادیة والمعنویة، وقد ذکرت الآیات الشریفة البخل بعنوان رذیلة أخلاقیة شنیعة من شأنها أن توقع الإنسان فی ورطة الشقاء والتعاسة وتبعده عن «الفلاح» والسعادة المنشودة.

البخل فی منظور الروایات الإسلامیة:

ونقرأ فی الأحادیث الشریفة روایات شدیدة، توضح موقف الإسلام من ظاهرة «البخل» منها: ۱- قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «الْبَخیلُ بَعیدٌ مِنَ اللَّهِ بَعیدٌ مِن النّاسِ، قَریبٌ مِنَ النّارِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «النَّظَرُ الَی الْبَخیلِ یُقْسِی الْقَلْبَ» «۲». ۳- ونقرأ فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله انه کان یطوف بالبیت فإذا رجل متعلق بأستار الکعبة وهو یقول: بحرمة هذا البیت إلّاغفرت لی ذنبی، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: وما ذنبک؟ صفه لی، قال: هو أعظم من أن أصفه لک، قال: ویحک ذنبک أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه، قال صلی الله علیه و آله: ویحک ذنبک أعظم أم الجبال؟

قـال: بـل ذنبی یـا رسول اللَّه. قال صـلی الله علیه و آله: فـذنبک أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه، قال صـلی الله علیه و آله: فذنبک أعظم أم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۵ السماوات؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه، قال صلی الله علیه و آله: ذنبک أعظم أم اللَّه؟ قـال: بـل اللَّه أعظم وأعلی وأجـل. قـال: ویحـک فصف لی ذنبـک، قال: یا رسول اللَّه، إنی رجل ذو ثروة من المال، وأنّ السائل لیـأتینی لیسألنی فکأنما یستقبلنی بشعلة من النار، فقال رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله: إلیک عنی، لا تحرقنی بنارک، فوالّذی بعثنی بالهدایـة والکرامـة، لـو قمـت بیـن الرکن والمقـام، ثمّ صـلیت الفی ألـف عـام، وبکیت حتّی تجری من دموعـک الأنهـار وتسـقی بها الأشـجار، ثمّ متّ وأنت لئیم، لأکبـک اللَّه فی النـار، ویحـک أما علمت أنّ اللَّه یقول: «... وَمَن یَبْخَلْ فَانَّمَا یَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ ...» «۱». «.. وَمَن یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۲» «۳». هـذا الحدیث یدلّ بوضوح علی أنّ «البخل» هو مصدر لأنواع الذنوب والمفاسـد بحیث یبعـده عن اللَّه تعالی إلی هـذه الدرجة. ۴- وجـاء فی حـدیثٍ آخر عن النبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «یَقُولُ قَائِلُکُم الشَّحیـحُ أَعْـذَرُ مِنَ الظّالِمِ وَأَیُّ ظُلْم أَظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ لا یَدْخُلُ الجَنَّةَ شَـحیحٌ وَلا بَخیلٌ» «۴». ۵- وورد فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله «الشُّحُ وَالایمانُ لا یَجْتَمِعانِ فِی قَلْبِ واحِدِ» «۵». ۶- وورد فی حدیث آخر عن النبی صـلی الله علیه و آله أیضاً قوله «الْبُخْلُ شَـجَرَةٌ تَنْبُتُ فی النّارِ فَلا یَلِجُ النّارُ الّا بَخیلٌ» «۶». ۷- وورد فی أحـد الروایات أنّ أحد أصـحاب النبی صـلی الله علیه و آله استشـهد فی میـدان الجهـاد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۶ فجـاءت امرأة من ذویه وأرحامه تبکیه وتقول یا شـهیداه، فقال النبی صلی الله علیه و آله: من أین علمتی انه شهید، «فَلَعَلَّهُ کَانَ یَتَکَلّمُ بِمَا لا یَعنیهِ اوْ یَبْخَلُ بِمَا لا یَنْقُصُهُ» «۱». هـذا الحـدیث یبین أنّ الکلامـ بمـا لا یعنی والبخل ولا سیّما بما لا یضره یتسبب فی سلب أکبر افتخار قـد یناله الإنسان ألا وهو الشهادة فی سبیل اللَّه. ۸- وقد ورد فی النصوص الإسـلامیة عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله کذلک قوله «جَاهِلٌ سَخِیٌّ احَبُّ الَی اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخیلٍ وَادْوَی الدّاءِ البُخْلْ» «۲». هـذا الحدیث یوضح أنّ البخل قد یؤدی إلی تلف معطیات العبادة وزوال آثارها الایجابیة فی حیـاة الفرد. ۹- وأیضـاً نقـل عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أنّه قـال: «المُوبِقـاتُ ثَلاثٌ شُحٌ مُطاعٌ وَهَویً مُتَبَّعٌ وَاعجَابُ المَرْءِ بِنَفسِهِ» «۳». ۱۰- ونختم هـذا الموضوع بروایـة اخری عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله رغم وجود روایات کثیرة فی هذا الباب، فقد ورد فی الحـدیث النبوی أنّ جماعـة من الأسـری جیء بهم إلی رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فأمر أمیرالمؤمنین علیه السـلام بضـرب أعناقهم ثمّ أمره بإفراد واحد منهم وأن لا یقتله فقال الرجل لم أفردتنی من أصحابی والجنایة واحدة؟ فقال: إن اللَّه عزّوجلّ أوحی إلیّ أنک سخی قومک ولا اقتلک. فقال الرجل: فانی أشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنک رسول اللَّه «۴».

جذور البخل وعلائمه:

إن الجـذور الأصـلیة لهـذه الرذیلـة الأخلاقیـة مثـل سـائر الرذائل الأخلاقیـة الاخری تتمثل فی ضـعف دعائم الإیمان ومعرفـة اللَّه لـدی الشـخص، فالإنسـان إذا اعتقـد بـأن اللَّه تعـالی قـادر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۷ علی کـلّ شـیء وإن جمیع مفاتیـح الخیرات والبرکـات بیـده تعـالی یجب أن یتیقن من أنّ اللَّه سیوفی بوعـده بالنسـبة إلی مـا یترتب علی الانفاق فی سبیل اللَّه إلی النتائـج المادیة والمعنویـة، فإذا عاش الإنسان بهـذه العقیدة، فلا مجال لأن یتلوث قلبه بالبخل أو یتصف قلبه بالامساک. یقول الإمام أمیرالمؤمنین علیه السـلام «البُخْلُ بِالمَوجُودِ سُوءُ الظَنِّ بِالمَعْبُودِ» «۱». أی أنّ الإنسان یسـیء الظن بما وعـد اللَّه تعالی من الثواب علی الانفاق والبـذل فی سبیله. وفی حـدیث آخر عن الإمـام الصـادق علیه السـلام أنّه قـال: «ان کـانَ الخَلَفُ مِنَ اللَّهِ عزّوجـلّ حَقّاً فَالبُخْلُ لِماذَا» «۲». ونقرأ فی کتاب «فقه الرضا» «ایّاکُمْ وَالبُخْلَ فَانَّهَا عَاهَةٌ لا تَکُونُ فی حُر وَلا مُؤمِنٍ انَّها خِلافُ الإیمانِ» «۳». وورد فی الحدیث القدسی عن رسول اللَّه تعـالی صـلی الله علیـه و آلـه یقـول «یَاعَبـدِی اتَبْخَلُنی ام تَتَّهِمُنی أَم تَظُنُّ انّی عَـاجِزٌ غَیرُ قَـادِرٍ عَلَی اثَابَتِـکَ» «۴». أجـل، إن الأحـرار والمؤمنین والّـذین یؤمنون بوعـد اللَّه تعـالی فـإنّهم یعیشون الاطمئنـان لقـدرة اللَّه تعـالی علی جمیع أنواع الثواب، فلا تهتز لهم یـد فی عملیـة الانفـاق فی سبیـل اللَّه، ولاـ یجـد البخل إلی أنفسـهم سبیلًا، بل یتحرکون دائماً فی خطّ الانفاق والجود علی عباداللَّه من الفقراء

والمساكين والمحتاجين ولا يطلبون الأجر إلّامن هو قادر على كلّ شيء وكريم بذاته وعليم بحال عباده. ومن العلائم الاخرى للبخل هى الاعتذار بالأعذار المختلفة لتبرير الامساك ومنع البذل للآخرين، البخلاء يتحركون دائماً فى عملية التغطية على هذه الرذيلة الأخلاقية المترسخة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۸ فى أنفسهم من موقع التذرع بالأعذار الواهية بل أنّهم يخدعون أنفسهم أيضاً بمثل هذه الأعذار، وعلى سبيل المثال من كان لديه مالٌ كثير ولكنه غير مستعد للانفاق منه أو إقراض الغير فإنه يتمسك فى هذا المنع بالأعذار من قبيل انه يحتمل اننى سأواجه مشكلة احتاج فيها إلى هذا المال، أو يحتمل أن يقع ابنى مريضاً على الفراش، أو من المحتمل أن يرد علىّ بعض الضيوف، أو أنّ المستقبل الاقتصادى للسوق يتجه إلى الكساد وأمثال ذلك. يقول الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام فى هذا الصدد «الْبَخِيلُ مُتَحَجِّجٌ بِالمَعاذيرِ وَالتَّعاليلِ» «۱». ويقول فى مكان آخر «كَثْرَةُ العِلَلِ آيَةُ البُخْلِ» «۲». فمن العلائم الاخرى للشخص البخيل هى ستر النعم والمواهب الإلهية بحجج وذرائع مختلفة عن أنظار الناس لكيلا يطلب الناس منه شيئاً منها، وبالطبع فإنّ هذه الحالة فى الكثير من الأوقات تلبس لباس المنطق والدليل من قبيل الخوف من الحسد أو الخوف من الأخطار غير المتوقعة وأمثال ذلك. العلامة الاخرى للبخل هى انه عندما يواجه الأمر الواقع وينفق شيئاً فى سبيل اللّه فإنه يجد فى نفسه ألماً وحزناً كبيراً وكأنه قد فقد شيئاً عزيزاً عليه أو أحد أحبته.

آثار ونتائج البخل:

إن من بين الصفات الذميمة والرذائل الأخلاقية قلما نجد صفة من الصفات تورث الإنسان مشاكل ومصاعب كالبخل بما له من افرازات سلبية كبيرة فى حركة الحياة والمجتمع، ومن جملة ذلك فان البخيل بالرغم من سعيه لحفظ أمواله وثروته فإنه يتنازل ويفقد الكثير من شخصيته وحرمته بين الناس، وفى هذا الصدد نجد أنّ الروايات الإسلامية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۹ قد أشارت إلى هذا المعنى على نحو الاجمال ومنها: ۱- يقول الإمام على عليه السلام «الْبَخيلُ يَسْمَحُ مِنْ عِرْضِهِ بِاكْثَرِ مِمَّا امْسَكَ مِنْ عَرَضِهِ» «۱». ۲- إن البخيل سوف يفقد باستمرار أصدقائه ورفاقه وبالتالى يصبح وحيداً غريباً أمام المشكلات الكبيرة الّتى تفرزها تحديات الواقع الصعب، وفى ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «لَيْسَ لِبَخيلٍ حَبيبٌ» «۲» ؛ وعلى فرض انه كان له صديق لمدّة قصيرة من الزمان فإنّ «البخل» يتسبب فى الحاق الذلّة لأصدقائه والعزّة لأعدائه كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «اَلبُخْلُ (البَخيلُ) يُذِلُّ مُصاحِبَهُ وَيُعِزُّ مُجانِبَهُ» «۳». ۳- إن «البخيل» يوقع نفسه فى التعب والضنك دائماً، وفى نفس الوقت فإنّ ورثته هم المستفيدون من عمله وتعبه، فهو فى الدنيا يتعب نفسه فى جمع الأموال، وفى الآخرة يجد نفسه مسؤولًا عنها كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْبَخيلُ خَازِنٌ لِوَرَثَتِهِ» «۴» الورثة الّذين قد لا ينفقون من أمواله درهماً فى سبيل اللّه وفى سبيل بذل الخيرات والمثوبات له. ۴- «البخيل» يعيش عيشة الفقراء لأن البخل عندما يشتد على الإنسان فإنه يبخل حتّى على نفسه، وبذلك لايجد السعادة والحياة الطيبة والمريحة لأنّه يعيش التفكير الدائم فى كيفية حفظ أمواله وزيادتها، وأحياناً تعرض عليه حالات نفسانية سلبية من قبيل سوء الظن الشديد بمن يحيط به، مثلًا يتصور أنّ الناس ينظرون إليه بعين الطمع ويحسدونه على ما لديه من الأموال والثروات بل ويعادونه أيضاً، وفى الأحاديث الإسلامية نجد أشارات جميلة إلى هذه المسألة، ومن ذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «عَجِبْتُ لِشَقِىَ الْبَخيلِ يَتَعَجَّلُ الفَقْرَ الّذى مِنْهُ هَرَبَ وَيَفُوْتُهُ الْغِنَى الّذى ايّاهُ طَلَبَ فَيَعيشُ فى الدُّنيا عَيْشَ الفُقَراءِ وَيُحاسَبُ فِى الآخِرَةِ حِسابَ الاغنياءِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۰ وفى حديثٍ آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «اَقَلُّ النّاسِ راحَةً الْبَخيلُ» «۱». ۵- «البخل» يوجب سوء الشهرة والسمعة ويؤدى إلى تهكم الناس ولعنهم لهذا الشخص البخيل كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام «بِالْبُخْلِ تَكْثُرُ المَسَبَّةَ» «۲». ۶- «البخل» جامعٌ للكثير من الأخلاق الرذيلة والصفات الذميمة ويعتبر مصدراً للكثير من الرذائل الأخلاقيه من قبيل سوء الظن، الحسد، الخوف، الجبن، سوء النيّة وتلوث الباطن وقساوة القلب وما إلى ذلك، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد «النَّظَرُ الَى البَخيلِ يُقْسِىَ الْقَلْبَ» «۳». وورد حديث آخر جامع لمساوىء البخل، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَساوِى العُيوبِ وَهُوَ زِمامٌ

يُقادُ بِهِ الَى كُلِّ سُوءٍ» «۴».

درجات البخل:

إن حال «البخل» كحال سائر الصفات الرذيلة فى أنّ له درجات ومراتب، وبعض هذه المراتب قد تكون خفية إلى درجة تخفى حتّى على الشخص نفسه وتخفى على الآخرين أيضاً، وهناك بعض المراتب إلى درجة من الوضوح بحيث إن كلّ إنسان يدركها حتّى الأطفال. بعض الناس يبخلون بأموالهم فحسب أى أنّهم غير مستعدين بأن ينتفع الآخرون بأموالهم بأى مقدارٍ كان، والبعض الآخر يتجاوز هذا الحدّ فيبخل بأموال الناس أيضاً، أى انه لو رأى أنّ شخصاً يقوم بالبذل والانفاق على الآخرين فإنه يتألم بذلك، وبعض آخر يتجاوز هذه المرحلة أيضاً فكلما رأى كرماً من الناس حتّى على نفسه فإنه يتألم بذلك وهذا أعجب أشكال البخل. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۱ ومن جهة اخرى فإنّ البعض يبخلون فى الامور المادية، والبعض الآخر فى الامور المعنوية كمن يبخل فى بذل العلم والمعرفة، وبعض الناس يبخلون فى الموضوعات المهمة من قبيل بذل الأموال الكثيرة، فى حين أنّ البعض الآخر يبخلون حتّى بالمسائل الجزئية من قبيل السلام، والبعض قد يبخل فى العطاء والانفاق المستحب فى حين أنّ هناك من يبخل حتّى فى الواجبات مثل أداء الخمس والزكاة، وبعض البخلاء لا- يتحركون فى تبرير بخلهم وامساكهم بينما نجد البعض الآخر يتسترون على هذا الامساك والاقتار بالتمسك بعناوين ظاهرية من قبيل عدم الاسراف أو تأمين نفقات الابناء أو الابتعاد عن الرياء والتظاهر أو التشكيك فى استحقاق المستحقين وأمثال ذلك. وعلى هذا فإنّ للبخل فروع متعددة وأشكال مختلفة، وينبغى على المؤمن المتقى مراقبة جميع هذه الاشكال والحذر منها والتصدى لها بإبعادها عن نفسه والحذر من التلوث بها كيما يحصل على مقام القرب الإلهى والكمال المعنوى فى حركة الحياة. ونجد فى الروايات الإسلامية اشارات لطيفة إلى أشكال وفروع البخل هذه ومنها: ۱- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْبُخْلُ بِاخْراجِ مَا افْتَرَضَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الامْوَالِ اقْبَحُ البُخلِ» «۱». ۲- وورد فى حديثٍ آخر أنّ الإمام على عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر ... فقال رجل لأميرالمؤمنين عليه السلام: واللَّه ما سألك فلان ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: لاكثّر اللَّه فى المؤمنين ضربك، أعطى أنا وتبخل أنت ...» «۲». ۳- وجاء فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ ابْخَلَ النّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلام» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۲ ۴- وفى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الْبَخيلُ حَقّاً مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» «۱». ۵- ويستفاد من بعض الروايات أنّ بعض مراحل البخل ينطوى تحت عنوان «اللئيم» وهو الّذى يعيش الدرجة الشديدة من البخل كما قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «الرِّجالُ أرْبَعَةٌ سَخِيٌ وَكريمٌ وَبَخيلٌ وَلَئيمٌ، فَالسَّخِيُ الّذى يَأْكُلُ وَيُعْطِيَ وَالكَريمُ الّذى لا يَأْكُلُ وَيُعطِيُ وَالبَخيلُ الّذى يَأكُلُ ولايُعطِيُ واللّئيمُ الّذى لا يَأكُلُ ولايُعطِيُ» «۲».

الوقاية من البخل وعلاجه:

كما أنّ الأمراض البدنية يتم التصدى لها والوقاية منها بالبحث عن جذورها وأسبابها فكذلك الحال فى الأمراض الأخلاقية، لأنّه ما لم تقلع جذور المرض فإنّ عناصر المرض تراوح فى مكانها وسوف تظهر فى آونة اخرى بالرغم من زوال آثارها بشكل مؤقت. وبما أنّ دوافع «البخل» متعددة وكثيرة، فينبغى البحث عن جذور هذا المرض لأن البعض يعيشون التعلّق الشديد بشهوات الدنيا، وبما أنّ الأموال هى الوسيلة للوصول إلى هذه الشهوات فإنّهم يتعلقون بها ويعشقونها إلى درجة أنّهم غير مستعدين لبذل أى مقدار منها، هؤلاء الأشخاص يجب عليهم قطع هذه العلاقة الشديدة بتوجيه النفس واشغال العواطف بامورٍ اخرى والتفكر فى العواقب الأليمة للخوض فى الشهوات وما يقع فيه أهل الدنيا من المشاكل والازمات، وعند ذلك يتحفظون من السير فى هذا الخط المنحرف. الدافع الآخر للبخل هو طول الأمل، فإنّ الآمال الطويلة تدعو الإنسان إلى جمع المال والبخل فى انفاقه، فلو أنّ هذا الإنسان قطع آماله وطموحاته وأدرك

أهتزاز الـدنيا وتذبـذبها وعـدم اسـتقامتها على حالٍ واحد، ورأى الأشـخاص الّذين رحلوا عن هذه الدنيا بحوادث الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۳ مختلفة وأمراض متنوعة بدون انذار أو مقدمات وقد كانت لديهم أعمال وطموحات طويلة وعريضة فى هذه الدنيا، فإنّ ذلك من شأنه أن يحـد من حالة «البخل» لدى هذا الإنسان. الباعث الآخر للبخل هو التعلق والعشق للأولاد والأهل والعيال حيث يدفعه ذلك إلى جمع الأموال وادخارها تحسباً لمستقبلهم فى حين أنّ اللَّه تعالى قد ضمَّن رزقهم ومعيشتهم، فلو كانوا من أولياء اللَّه وأحباءه فـإنّ اللَّه تعـالى سوف لاـ يتركهم لوحـدهم ولحـالهم، ولو كـانوا من أعـداء اللَّه فـإنّ جمع المـال لمثل هؤلاء الأشـخاص سـيكون أداة لتـوغلهم فى الـذنوب والآثـام وسـتقع مسؤوليـة ذلـك عليه، فليس من العقـل والمنطق أن يجمع الإنسـان المـال ويـدخره لمثـل هؤلاـء الأشـخاص، وبالطبع أحياناً نجـد بعض الأشـخاص وبسـبب لياقتهم الذاتيـة فإنّهم يتمتعون بعيشـة حسـنة وطيبة من دون أن يرثوا درهماً واحـداً من والـديهم بل قـد يعيشون أفضل من حياة الّـذين ورثوا أموالًا طائلـة من أبيهم. والباعث الآخر لـذلك كما يقول بعض علماء الأخلاق هو ما يشـبه المرض من دون علاج، أى أنّ البعض يحب المال من أجل نفس المال ويعشقه ويسعى دائماً لجمعه والاكثار منه ويستـوحش من بـذله وانفاقه، هؤلاء اصابتهم حالـة من النسيان والغفلـة عن أنّ المال إنما هو وسـيلة للتوصل إلى الأغراض الماديـة أو المعنويـة، وألا فلو اسـتخدم فى غير هذا السبيل وأصـبح بحدّ ذاته هدفاً يجمعه الإنسان فإنه لا يختلف حاله مع الحجر والخشب والآجر. امّا الطريق إلى الوقاية من «البخل» فإنّ على الشخص البخيل أن يجاهد نفسه ويعض على نواجذه وينفق من أمواله مهما مانعته نفسه من ذلك، وكلما تكرر منه هذا العلم فإنّ العشق للمال سوف يذوب ويتلاشـى من قلبه ومشاعره، كما هو الحال فى الشـخص الجبان الّذى إذا دخل ميادين الحياة من موقع مواجهة التحديات للواقع والمعيشة، فإنّ ذلك الخوف سوف يزول ويتلاشى بالتدريج، وهكذا بالنسبة إلى الشـخص الخجول حيث إنه إذا دخل مجالس الكبار ودفع بنفسه إلى التحـدّث فى مثل هـذه المجالس مرّات عديـدة فسوف تزول منه حالـة الخجل هذه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۴ ومن الطرق الاخرى هى التفكر فى كراهية الناس وانزجارهم من الشـخص البخيل والأشـخاص الّـذين لا يعيشون حالـة الكرم والبذل، فإنّ الناس يتعاملون معهم على مسـتوى أنّهم أشـخاص غير مرغوب بهم ولا يحترمونهم كما يحترمون الاسـخياء والكرماء من الناس، وأحـد طرق علاج «البخل» والابتعاد عن هـذه الرذيلـة الأخلاقية هو التفكّر فى العواقب الوخيمة والآفاق السلبية الكبيرة لحالة البخل حيث يترتب على ذلك أن يتخلص الإنسان تدريجياً من هذه الحالة الذميمة. وفى هذا الصدد يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام «البَخيلُ يَبْخَلُ عَلَى نَفْسِهِ بِاليَسيرِ مِن دُنياهُ وَيَسمَحُ لِوُرّاثِهِ بِكُلِّها» «۱». وجاء فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن بَرِءَ مِنَ البُخلِ نالَ الشَّرَفَ» «۲». فالتفكر فى كلّ هذه الامور بإمكانه أن يخلص الإنسان من أسر البخل وخاصّة إذا التفت إلى الروايات الشريفة الّتى تقرر أنّ البخل لا يجتمع مع الإيمان إطلاقاً. ۱۸

الجود والسخاء

تنويه:

تقع هاتين المفردتين «الجود والسـخاء» فى مقابل البخل، وتسـتعملان غالباً بمعنى واحد، ولكن أحياناً يسـتفاد من بعض كلمات العلماء أنّ الجود لنفس المرحلـة أعلى من السـخاء، لانه ورد فى تعريف الجود انه «البـذل بدون طلب وفى نفسه يرى ما بذله قليلًا» وقيل أيضـاً فى تعريفه «الجود هو الفرح من طلب الناس والسرور من العطاء لهم» وقال البعض أيضاً «الجود هو بذل المال بأن يراه مال اللَّه والسائل عبـداللَّه ويرى نفسه فيمـا بينهمـا واسطـة فقـط» فى حين أنّ السـخاء له معنىً واسع ويشـمل كلّ أنحاء البـذل والعطاء. وذكر البعض فى تعريفهما أنّ «الشخص الّذى يهب قسماً من أمواله إلى الغير ويبقى لنفسه القسم الآخر فهو السخى، والشخص الّذى يهب أكثر ماله إلى الغير ويبقى مقـداراً قليلًا منه لنفسه فهو الجواد» ويتبين طبقاً لجميع هذه التعاريف أنّ «الجود» مرحلة أعلى من «السـخاء». وعلى أية حال فـإنّ «الجود والسـخاء» من الفضائـل الأخلاقيـة المهمـة، وكلّمـا كـان «البخـل» من علامات الـدناءة والحقارة وضـعف الإيمان وفقـدان

الشخصیة للإنسان البخیل کان الجود والسخاء من علائم الإیمان وقوّة الشخصیة وسمو المکانة الاجتماعیة للشخص. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۶ اما فی القرآن الکریم رغم أنّ کلمة «الجود» أو «السخاء» لم تستخدم فی سیاق الآیات الکریمة، ولکن التعبیرات الاخری للآیات تنطبق علی هذین المفهومین حیث یتبین جیداً أنّ القرآن الکریم یعطی أهمیة بالغة لهما، وکنموذج علی ذلک نورد هذه الآیات الشریفة: ۱- «... یُحِبُّونَ مَن هاجَرَ الَیهِم وَلایَجِدُونَ فِی صُدورِهِم حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَیُؤْثِرُونَ عَلَی انْفُسِهُمْ وَلَوْ کَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ...» «۱». ۲- «وَیُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَی حُبِّهِ مِسْکیناً وَیَتیماً وَاسیراً* إِنَّمَا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزاءً وَلَا شُکوراً» «۲». ۳- «مَثَلُ الَّذِینَ یُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ کَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِی کُلّ سُنبُلَةٍ مّاْئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ یُضَاعِفُ لِمَن یَشَآءُ وَاللَّهُ وَا سِعٌ عَلِیمٌ» «۳». ۴- «الَّذِینَ یُنفِقُونَ أمْوَا لَهُم بِالَّیْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِیَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَلَاهُمْ یَحْزَنُونَ» «۴». ۵- «لَنْ تَنَالُواْ ا لْبِرَّ حَتَّی تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَاتُنفِقُواْ مِن شَیْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ» «۵». ۶- «الَّذِینَ یُؤمِنُونَ بِالغَیبِ وَیُقیمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُون» «۶». ۷- «وَلَا تَجْعَلَ یَدَکَ مَغْلُولَةً إلَی عُنُقِکَ وَلَا تَبْسُطْهَا کُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» «۷».

تفسیر واستنتاج:

سیماء الکرماء فی القرآن

«الآیة الاولی من الآیات محل البحث تتحدّث عن طائفة من الکرماء الأنصار فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۷ المدینة الّذین استقبلوا المهاجرین إلیهم من مکّة برحابة صدر واستضافوهم فی بیوتهم وفضلوهم علی أنفسهم بل حتّی أنّهم قالوا: نحن علی استعداد لتقدیم أموالنا وبیوتنا بیننا وبین المهاجرین ولا نطمع بشیءٍ من الغنائم الحربیة. القرآن الکریم یستعرض حالة هؤلاء المؤمنین فی الآیة الشریفة فیقول «... یُحِبُّونَ مَن هاجَرَ الَیهِم وَلایَجِدُونَ فِی صُدورِهِم حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَیُؤْثِرُونَ عَلَی انْفُسِهُمْ وَلَوْ کَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ...» «۱». وقد ذکر بعض المفسّرین المعروفین أنّ التاریخ البشری لم یعرف مثل هذا الاستقبال والحفاوة لجماعة من الغرباء لدی دخولهم إلی مدینة من المدن حیث استقبلهم المؤمنون استقبالًا عظیماً حتّی أنّهم کانوا یفضلوهم علی أنفسهم وسعوا إلی تقسیم کلّ ممتلکاتهم معهم بالسویة بل ورد فی بعض الروایات أنّ عدد المهاجرین کان أقل من المستعدین لضیافتهم وکان ذلک سبباً فی حدوث خلاف بینهم فی نیل افتخار الضیافة. فکانوا یقترعون فیما بینهم علی ذلک «۲». وعلی أیة حال فإنّ اللَّه تعالی قد مدح هذا الخلق الکریم وأثنی علی هذا الایثار والسخاء بهذه العبارات الکریمة. «الآیة الثانیة» تتحدّث عن الکرماء الّذین قدموا طعامهم إلی المسکین والیتیم والأسیر فی حین أنّهم محتاجون إلیه بشدّة ومن دون طمع فی أجرٍ وثناء من الطرف المقابل «وَیُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَی حُبِّهِ مِسْکیناً وَیَتیماً وَاسیراً* إِنَّمَا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزاءً وَلَا شُکوراً» «۳». وهناک روایات کثیرة من طرق الشیعة وأهل السنّة تتحدّث عن أنّ الآیات ۸- ۹ من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۸ سورة الدهر نزلت فی أهل البیت علیهم السلام، کما ذکر العلّامة الأمینی فی کتابه «الغدیر» عن أربع وثلاثین نفر من علماء السنّة المعروفین وأنّهم ذکروا هذا الحدیث الشریف فی کتبهم (مع ذکر اسم الکتاب ورقم الصفحة). وعلی هذا فإنّ الحدیث المذکور مشهور بین أهل السنّة بل متواتر، وأما علماء الشیعة فهو محل اتفاق وأنّ جمیع سورة الدهر أو قسم مهم منها نزلت فی أهل بیت النبی صلی الله علیه و آله وهم «علی وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام». ولدی التأمل والتدقیق فی آیات سورة الدهر یتضح جیداً أنّ اللَّه تعالی قد ذکر هؤلاء الکرماء من موقع التمجید والثناء والمدح ووعدهم جزیل الثواب فی الآخرة ووصفهم بأوصاف سامیة، فتارةً وصفهم بأنّهم «أبرار»، وفی مکانٍ آخر ذکرهم بعنوان «عباد اللَّه». «الآیة الثالثة» تتحرک من موقع التشویق والترغیب الشدید لمسألة الانفاق والبذل وتثنی علی الکرماء والاسخیاء بتعابیر فی غایة العلو والجمال وتقول «مَثَلُ الَّذِینَ یُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ کَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِی کُلّ سُنبُلَةٍ مّاْ ئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ یُضَاعِفُ لِمَن یَشَآءُ وَاللَّهُ وَا سِعٌ عَلِیمٌ» «۱». فلو أننا أخذنا بظاهر الآیة ولم نرتکب بعض التأویل والحذف والتقدیر للمفهوم منها فإنّ الآیة الشریفة تدلّ علی أنّ روح المنفق والمحسن تنمو أو تشتد إلی درجة کبیرة بعملیة البذل والانفاق کما أنّ أمواله تتضاعف وتتکاثر عدّة أضعاف بسبب الانفاق

وکذلک یتصاعد الإنسان الکریم فی مدارج الکمال بسرعة کبیرة وحتّی أنّ الخطوات الصغیرة فی هذا السبیل تترتب علیها آثار عظیمة ونتائج کبیرة. وعلی هذا الأساس فإنّ الانفاق والبذل مضافاً إلی أنّه یُعد قوّة تصعد بالإنسان فی مدارج الرشد والکمال المعنوی والإنسانی للمجتمع البشری، فکذلک هو الحال بالنسبة إلی الشخص نفسه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۹ وقد ورد فی الروایة الشریفة عن الإمام زین العابدین علیه السلام انه کلّما جاءه سائل وأعطاه من ماله فإنه یُقبل ید السائل، فلمّا سُئِل عن سبب ذلک قال «لِانَّها تَقَعُ فِی یَدِ اللَّهِ قَبْلَ یَدِ العَبدِ» «۱». «الآیة الرابعة» وضمن الإشارة إلی نکتة مهمة فی دائرة الانفاق تقول «الَّذِینَ یُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُم بِالَّیْلِ وَالنَّهَارِ سِـرًّا وَعَلَانِیَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَلَاهُمْ یَحْزَنُونَ» «۲». وعلی هذا الأساس فإنّ «السخاء» و «الانفاق» فی سبیل اللَّه بأی شکل کان فإنه مطلوب ومحبوب، ومن جهة اخری فإنّ «الانفاق» یورث الإنسان الأمن من عذاب اللَّه ویزیل الهمَّ والحزن من قلبه، فالأشخاص الکرماء لا خوفٌ علیهم ولا هم یحزنون لأن اللَّه تعالی قد ضمن رزقهم وسعادتهم فلا یحزنون علی ما بذلوه فی سبیل اللَّه لانهم یعلمون انما ینتظرهم من فضل اللَّه تعالی أکثر وأکثر ممّا بذلوه فی هذه الحیاة الدنیا. «الآیة الخامسة» تقرر هذا المعنی بتعبیر آخر وتتحدّث عن الانفاق بالقول «لَنْ تَنَالُواْ ا لْبِرَّ حَتَّی تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَاتُنفِقُواْ مِن شَیْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ» «۳». وفی لغة العرب فإنّ کلمة «بر» تأتی بمعنی الاحسان المقارن للقصد والاختیار، وهذه من علامات شخصیة الإنسان ومعنویته، واللطیف أنّ «البر» فی هذه الآیة جاء بشکل مطلق، وهذا یدلّ علی أنّه ما لم یکن الإنسان سخیاً وکریماً فإنه لا یصل إلی حقیقة البر والاحسان، رغم أنّ بعض المفسّرین فسّر کلمة «البرّ» بمعنی الجنّة، وبعض آخر ذکر أنّها بمعنی «التقوی و «الثواب الجزیل» ولکنَّ الظاهر أنّ مفهوم البرّ واسعٌ یشمل جمیع ما ذُکر له من مصادیق. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۰ «الآیة السادسة» تقرر أنّ الانفاق مضافاً إلی انه أحد الأرکان المهمة للتقوی وأنّه مصدر الهدایة الإلهیة للمؤمنین، تقول: «الَّذینَ یُؤمِنُونَ بِالغَیبِ وَیُقیمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُون» «۱». ومع ملاحظة أنّ «ینفقون» جاءت بشکل فعل مضارع، ومفهومها أنّ هؤلاء ینفقون من المواهب الإلهیة والعطایا الربانیة الّتی لدیهم بصورة مستمرة، وهذا یدلّ علی کرمهم وسخائهم المتجذر فی نفوسهم بحیث اصبح ملکة إنسانیة وصفة کریمة لدیهم. فتعبیر «مما رزقناهم» یشیر إلی نکتة لطیفة فی المقام، وهی أنّ هؤلاء یرون أنّ جمیع ما لدیهم من الأموال والنعم هی مواهب إلهیة ومن مال اللَّه، وعلیه فلا دلیل علی البخل فی بذل شیءٍ منها إلی الفقراء والمساکین والمحتاجین، ویتضح أیضاً من ذلک أنّ «الانفاق» لا ینحصر بالزکاة بل یستوعب معنیً أکبر من ذلک بحیث یشمل الصدقات الواجبة والمستحبة. «الآیة السابعة» والأخیرة من الآیات محل البحث وضمن الأمر بضرورة رعایة الاعتدال فی البذل والعطاء والابتعاد عن الافراط والتفریط تصور لنا صیاغة للسخاء والکرم الّذی هو الحدّ الوسط بین البخل والإسراف وتقول: «وَلَا تَجْعَل یَدَکَ مَغْلُولَةً إلَی عُنُقِکَ وَلَا تَبْسُطْهَا کُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» «۲». وقد ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام بیان هذا المطلب فی مثال جمیل حیث قال أخذ الإمام علیه السلام قبضة من التراب من الأرض وأمسک علیها بشدة وقال: هذا هو البخل، ثمّ أخذ قبضة اخری وفتح یده إلی درجة أنّ جمیع التراب انثال علی الأرض فقال: هذا هو الإسراف، وفی الثالثة أخذ قبضة وقلب کفه نحو السماء وفتحها فوقع شیء من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۱ التراب من بین أصابعه وأطراف کفه علی الأرض فقال علیه السلام: «القوام ما یخرج من بین الأصابع ویبقی فی الراحة منه شیء» «۱». وفی الآیة مورد البحث ورد التعبیر عن البخل بأنه «الید المغلولة إلی العنق»، وعبّرت الآیة عن الإسراف بقولها «تبسطها کلّ البسط»، وبذلک تحدّثت عن هذین المفهومین من موقع الذمّ والتوبیخ وذکرت فی هذا السبیل عاقبة هذین السلوکین بقولها «ملوماً محسوراً». ومن مجموع الآیات الشریفة المذکورة آنفاً والّتی تحدّثت عن السخاء والانفاق والبذل وما ورد فی تفسیرها یتضح جیداً عظمة وأهمیة هذه الصفة الإنسانیة والسامیة من بین الصفات الأخلاقیة والقیم الإنسانیة حیث إنّ الجود والکرم والسخاء لا ـ تتسبب فی سعادة المجتمعات البشریة ومحاربة الفقر وأنواع الحرمان والّتی هی بدورها تکون منشأً للکثیر من الذنوب والسلبیات الاخری فحسب، بل لها دورٌ مهم فی تکامل الإنسان المعنوی والروحی فی خط التقوی والانفتاح علی الحقّ.

السخاء فی الروایات الإسلامیة:

وقـد ورد فی الروايات الإسـلامية تعبيرات كثيرة وشامخة حول الجود والسـخاء يقل نظيرها بالنسـبة إلى الصـفات الاخرى، ونختار منها نماذج لبيان هذا المضـمون والمحتوى ١- ورد فی الحـديث الشـريف عن النبی الأـكرم صـلی الله عليه و آله أنّه قال: «السَّخاءُ خُلْقُ اللَّهِ الاعْظَمُ» «٢». وفی الحقيقة أنّ جميع أشكال السخاء والكرم فی عالم الوجود ما هو إلّاتجليات للكرم الإلهی الواسع لأن كلّ ما لدينا فهو من اللَّه تعـالی من أنواع النعم والمواهب، الأـرض والسـماء، الحيـاة ومتعلقاتها الكثيرة وكلّ شـیء فهو من نعمه وكرمه، وكلّ كرم فهو فرعٌ من ذلك الأصل اللامتناهی والأبـدی، لأنّه لو لم نحصل علی نعمـة وموهبة من اللَّه تعالی فليس بامكاننا بذل الاخلاق فی القرآن، ج٢، ص: ٣٧٢ شـیء منها، وحتّی صفة الجود والكرم هی من مواهبه ونعمه علی الإنسان. ٢- يقول الإمام الصادق عليه السلام «السَّخاءُ مِن اخْلَـاقِ الْانْبِيَاءِ وَهُوَ عِمَادُ الْايْمَانِ وَلَا يَكُونُ المُؤمِنُ الّا سَـخِيّاً وَلايَكُونُ سَـخِيّاً الّا ذُو يَقِينٍ وَهِمَّة عَالِيَةٌ لَانَّ السَّخاءُ شُـعاعُ نُورِ اليَقِينِ، وَمَنْ عَرَفَ مَا قَصَـدَ هانَ عَلَيْهِ مَا بَذَلَ» «١». ويسـتفاد من هذا الحديث أنّ هذه الصفة السامية تتمثل أوّلًا فی وجود الأنبياء كصفة كريمة من الصـفات الأخلاقيـة العالية ومن علامات الإيمان واليقين للمؤمن. ٣- ونقرأ فی حـديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «تَحَلَّ بِالسَّخاءِ وَالْوَرَعِ فَهُما حِلْيَةُ الإِيمَانِ وَاشْـرَفُ خَلالِكَ» «٢». وهذا الحديث يبين أنّ هذه الصـفة الشريفة من أفضل صفات المؤمن علی الاطلاـق. ۴- وورد فی حـديثٍ آخر عن هـذا الإمـام عليه السـلام أيضـاً أنّه قـال: «السَّخـاءُ ثَمَرَةُ العَقْـلِ وَالقَناعَـةُ بُرهانُ النُبْلِ» «٣». فالأشـخاص الّـذين يمتنعون عن بـذل شـیءٍ ممّا لـديهم إلی الآخرين ويسـعون لجمع الأموال الطائلـة ثمّ يتركونها ويرحلون إلی العالم الآخر، فهم فی الحقيقة ليسوا بعقلاء لأنهم لم يحصلوا من جزاء ذلك سوی علی التعب والنصب ولن ينتفعوا من أموالهم علی المستوی المادی والمعنوی، فأیُّ عقلٍ يرتكب مثل هـذه الحماقـة؟! ۵- وفی تعبير آخر عن هـذا الإمام فی بيانه لأهمية «السـخاء» يشـير إلی نقطة لطيفة اخری ويقول «غَطُّوا مَعايِبَكُم بِالسَّخاءِ فَانَّهُ سَتْرُ العُيوبِ» «۴». وقد ثبت بالتجربة صدق هذا الكلام الحكيم حيث نری أشخاصاً لهم عيوب كبيرة ولكنَّ النـاس مع ذلك يحترمونهم من أجلٍ كرمهم وجودهم. الاخلاق فی القرآن، ج٢، ص: ٣٧٣ ۶- وفی تعبير آخر عن هـذا الإمام عليه السـلام يقول «السَّخاءُ يَمْحَصُ الذُّنُوبَ وَيَجْلُبُ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ» «١». وهـذا التعبير يدلّ علی أنّ السـخاء كفّارة للكثير من الذنوب. ٧- ويقـول مـولی الموحـدين الإمـام علی عليه السـلام فی بيـانه للتـأثير العميـق للسـخاء فی جـذب قلوب النـاس ومحبتهم «مَا اسْـتَجْلَبَتِ المَحَبَّةُ بِمِثْلِ السَّخاءِ وَالرِّفْقِ وَحُسْنُ الخُلْقِ» «٢». ٨- ويقول رسول اللَّه صـلی الله عليه و آله فی هذا الصدد «السَّخیُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ» «٣». ٩- وفی حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «شَابٌّ سَخیٌّ مَرْهَقٌ فی الذُّنُوبِ احَبُّ الَی اللَّهِ عَزَّوَجـلّ مِنْ شَـيخٍ عَابـدٍ بَخِيلٍ» «۴». ومن المعلوم أنّ «السـخاء» هو يتسـبب فی الامـدادات الإلهيـة للإنسـان وبالتالی فإنه يفضـی إلی انقاذ ذلك الشاب الملوث بالـذنوب من واقعه المزری، ولكنَّ ذلك الشـيخ العابـد والبخيل يغرق فی الذنوب بسـبب بخله. ١٠- ونختم هـذا البحث بحديثٍ شـريف عن النبی الأكرم صـلی الله عليه و آله حيث يقول «تَجَافُوا عَنْ ذَنْبِ السَّخی فَانَّ اللَّهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّما عَثُرَ» «۵». ومن مجموع الأحاديث الشريفة المذكورة آنفاً تتبين الأهمية الكبيرة للسخاء فی كلمات المعصومين عليهم السلام حيث رأينا أنّ هذه الفضيلة تتميز من بين سائر الفضائل الأخلاقية علی مستوی الأهمية والفضيلة.

معطيات السخاء:

إنّ الآفـاق والمعطيـات الإيجابيـة للسـخاء ثابتـة بالتجربـة فی حياة الإنسان الفرديـة والاجتماعيـة، وقـد مرّت الإشارة إليها فی الأحاديث الإسـلامية أيضـاً، وهی معطيات كثيرة منها: ١- مـا يسـتفاد من الروايات المتعـددة والتجارب الكثيرة ان السـخاء يولـد المحبّـة فی قلب الصـديق والعدو وبالتالی فإنه يزيد من كثرة الأصدقاء ويقلل من عدد الأعداء. ٢- إنّ «السخاء» يعد ستاراً علی عيوب الشخص وبالتالی يحفـظ ماء وجهه وحيثيته فی أنظار الناس والمجتمع. ٣- إن السـخاء فی الوقت الّذی هو ثمرة من ثمار شـجرة العقل فإنه يزيد من عقل الإنسان أيضاً، فالعقل يقول: انه لا معنی لأن يتعب الإنسان فی جمع الأموال وتكديسـها وبالتالی تركها للورثة بدون أن يستفيد منها فی

تحصیل الثواب وکسب الوجاهة بین الناس، ومن جهة اخری فإنّ «السخاء» بإمکانه أن یجمع العلماء حول هذا الإنسان السخی وبالتالی یمکنه الاستفادة من أفکارهم وعقولهم وعلومهم. ۴- إن «السخاء» یتسبب فی تقلیل الفاصلة بین طبقات المجتمع وبذلک یعمل علی إزالة حالات التوتر النفسی المتولدة من حالات الصراع الطبقی أو یقلل من حدثها وتأثیرها، ویطفیء نار الحقد علی الأثریاء فی قلوب المحرومین ویقلل من حس الانتقام لدیهم، وبذلک یعمل علی توطید عنصر المحبّة والمودّة بین أفراد المجتمع. ۵- إن «السخاء» یؤدی إلی زیادة أنصار الإنسان السخی ویحفظ له وجاهته وسمعته فی المجتمع، ویدفع عنه شرَّ الأعداء والمغرورین، فلذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الْجُودُ حَارِسُ الَاعْرَاضِ» «۱». ۶- إن الجود و «السخاء» لهما من الآثار والمعطیات المعنویة الکبیرة جدّاً، ولهذا السبب فإنّها من صفات الأنبیاء بالخصوص کما قرأنا فی الروایات السابقة، والسخاء شعاعٌ لنور الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۵ الیقین، وحتّی لو کانت هذه الفضیلة لدی الأشخاص الّذین یعیشون البعد عن الإیمان والتقوی فإنّ ذلک سیکون مفیداً لهم، وفی حدیثٍ شریف أنّ اللَّه تعالی أوحی للنبی موسی علیه السلام بأنه «لا تَقْتُلُ السَّامِرِیَّ فَانَّهُ سَخِیٌّ» «۱». ومن المعلوم أنّ السامری تسبب فی فساد عظیم فی بنی إسرائیل واشاع فیهم دین الوثنیة وعبادة الاصنام وفی النهایة عاش طریداً وحقیراً إلی درجة انه ربما رجّح الموت علی الحیاة، ولکن مع ذلک فإنّ اللَّه تعالی أوحی لموسی علیه السلام أنّ یحفظ دمه ولا یقتله لسخاءه وکرمه. وقد نقل عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال لعدی ابن حاتم الطائی «دُفِعَ عَن أبَیکَ العَذابُ الشَّدیدُ لِسَخاءِ نَفْسِهِ» «۲». وفی ذیل هذا الحدیث ورد أنّ رسول اللَّه علیه السلام أمر بقتل جماعة من الجناة القتلة فی أحد الغزوات واستثنی منهم واحداً، فتعجب ذلک الرجل وقال: إن جنایتنا واحدة، فلماذا لم تأمر بقتلی؟ فقال له النبی صلی الله علیه و آله: إن اللَّه تعالی أوحی إلیّ بانک کریم قومک ولا ینبغی أن أقتلک. فلمّا سمع الرجل هذا الکلام من النبی اسلم وتشهد الشهادتین، أجل فإنّ سخاء هذا الرجل قاده إلی الجنّة. ورد عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قوله: «السخیّ محبب فی السماوات، محبب فی الأرض ... والبخیل مبغض فی السماوات ومبغض فی الأرضین» «۳».

حدود السخاء:

إن السخاء کسائر الصفات والأفعال الحسنة لابدّ له من مقدار بحیث إذا تجاوز الإنسان ذلک المقدار وقع فی الإفراط وبالتالی یکون من الرذائل، فلا ینبغی أن یؤدی السخاء إلی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۶ الاضرار بشخصیة الإنسان ووجاهته وحیثیته ووجاهة من یلوذ به أیضاً. یجب أن یکون «السخاء» فی الأموال الحلال لا ـ فی الأموال الّتی یحصل علیها الإنسان من الطریق الحرام والظلم والعدوان مثل سخاء الکثیر من السلاطین والملوک الجبابرة وامراء الجور. وکذلک لا ینبغی أن یکون «السخاء» فی الأموال المتعلقة ببیت المال، لأن أموال بیت المال ینبغی فیها الدقّة فی الحساب ورعایة العدالة فیها.

طرق تحصیل ملکة السخاء:

إن هذه الفضیلة الاجتماعیة کسائر الفضائل الاخری تحصل فی نفس الإنسان بالتعلیم والتربیة والتفکر والممارسة العملیة. إذا توجه الإنسان والتفت إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ هذه الأموال والثروات أمانة إلهیة بیده ولا دوام لها، فهذا العلم یدفع الإنسان إلی البذل والعطاء ویحسب ذلک وکأنه یضع هذه الأموال فی صندوق أمین یحفظها لیوم الحاجة والفاقة، وکذلک التأمل فی آثار وبرکات السخاء ومعطیاته المهمة فی واقع الإنسان وحیاته فإنّ ذلک یمکنه أن یکون مؤثراً فی تحریک عامل الشوق بالبذل والسخاء. إن مطالعة تاریخ حیاة الکرماء والبخلاء وسیرتهم والمقارنة بین هاتین الطائفتین من الاحترام الکبیر والشخصیة النافذة لدی الناس بالنسبة إلی الطائفة الاولی، والذلّة والحقارة والدناءة وسوء السمعة الّتی تحدق بالطائفة الثانیة، کلّ ذلک من شأنه أن یورث الإنسان «السخاء» فی دائرة السلوک الأخلاقی. هذه الامور هی من البعد النظری للمسألة، اما من حیث البعد العملی فإنّ الإنسان کلّما مارس هذا العمل أکثر وتمرّن علیه فی واقعه الاجتماعی فان هذه الفضیلة سوف تتعمق فی نفسه حتّی تحصل له ملکة الجود والسخاء، لأن تکرار

الأعمال الكريمة والتحرّك من موقع البذل والعطاء فی التعامل مع الناس حتّی لو كان ذلك شاقاً علی النفس فإنّه سيكون الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۷ بالتدريج عادة، ثمّ يتحول إلی حالة، وبالتالی يكون ملكة أخلاقية فی واقع النفس. وضمناً فإنّ عملية تربية الوالدين والمعلم والاستاذ مؤثرة كثيراً فی هذا المجال، فلو أنّهم عودوا الطفل حالة الجود والسخاء منذ الطفولة فإنّ هذه الملكة الأخلاقية سوف تمد جذورها إلی أعماق نفوسهم وقلوبهم وتكون فی الكبر جزءاً من شخصيتهم، ويذكر فی حالات «الصاحب بن عبّاد» أنّه كان فی أوان صغره إذا أراد المضیّ إلی المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً ودرهماً كلّ يوم وتقول له تصدّق بها علی أوّل فقير تلقاه فجعل هذا دأبه فی شبابه إلی أن كبر وماتت والدته. وكان لا يدخل عليه فی شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلّابعد الافطار عنده وكانت داره لا تخلو فی كلّ ليلة من ليالی شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فی هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فی جميع شهور السنة «۱». ونختم هذا البحث فی بعض الأحاديث الشريفة: ورد عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله أنّه قال: «اَلجَنَّةُ دَارُ الاسْخِياء» «۲». ويقول الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللَّه تعالی يقول «انّی جَوادٌ كريمٌ لا يُجَاوِرُنی لَئِيمٌ» «۳». وفی حديث آخر عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله أنّه قال: «طَعامُ الجَوادِ دَواءٌ وَطَعامُ البَخيلِ داءٌ» «۴». وأحد العرفاء يدعی «ابن سمّاك» «۵» يقول «عَجِبْتُ لِمَن يَشتَرِیَ الْمَماليكَ بِمالِهِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۸ وَلايَشتَرِی الْاحرارَ بِمَعروفِهِ» «۱». وقيل لابن عربی: من هو سيّدكم؟ فقال: «مَنِ احْتَمَلَ شَتْمَنَا وَاعطی سَائِلَنَا وَاغْضی جَاهِلَنا» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۹

العجلة والتسرع

تلويح:

إن لكلّ عمل مقدّمات بحيث إذا لم تتوفر هذه المقدمات فالاقدام عليه يكون بغير طائل وبلا نتيجة مثمرة، وإذا توفرت هذه المقدمات ولم يقدم الشخص عليه وأفلتت الفرصة من بين يديه فالنتيجة تكون كذلك، فالشخص المدير والمدبر هو الّذی ينتظر ويصبر إلی أن تحين اللحظة المناسبة وتترتب المقدمات ثمّ يقدم علی العمل لتحصيل النتيجة المرجوة ولا يتكاسل أو يهمل الموضوع حتّی تفلت منه الفرصة، ولهذا ورد فی معنی العجلة والتسرع، أنّ هذه الحالة من الصفات الرذيلة حيث يقدم الإنسان علی عملٍ بدون توفر المقدمات المطلوبة وبدون أن تتهيأ الأرضية اللازمة لذلك، وفی مقابل هذه الحالة ورد «الصبر والتأنی» الّذی يعد من الفضائل الأخلاقية ودليلًا علی عقل الرجل وحركته «وبالطبع فإنّ الصبر له أقسام اخری سنشير إليها فی الفصول اللاحقة». إن الخسارة العظيمة الّتی تلحق بالأفراد والمجتمعات من جهة العجلة والتسرع أكثر من أن تحصی والقرآن الكريم يوصی الناس من موقع صياغة برنامج جامع للحياة بالصبر والتأنی والاجتناب من «العجلة والتسرع» مستعيناً بذلك بقصص من سيرة الأنبياء والقادة المصلحين للمجتمعات البشرية السالفة ليبين من خلال هذه القصص والوقائع اضرار الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۰ العجلة المخربة ومعطيات الصبر والتأنی الطيبة. وبهذه الأشارة نعود إلی القرآن الكريم لنستوحی من آياته الشريفة ومن سيرة الأنبياء الماضين مفاهيم مؤثرة فی حركة الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان: ۱- «قَالَ لَهُ مُوسَی هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَی أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا* قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِیَ صَبْرًا* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا* قَالَ سَتَجِدُنِی إِنْ شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِی لَكَ أَمْرًا» «۱». ۲- «وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ ا لْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ا لِمحْرَابَ* ... وَظَنَّ دَاوُودُ أَ نَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» «۲». ۳- «فَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصاحِبِ الحُوتِ اذ نادی وَهُوَ مَكظُومٌ* لَولَا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمُومٌ* فَاْجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۳». ۴- «.. وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبْلِ ان يُقضی الَيكَ وَحيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً» «۴». ۵- «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِی فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» «۵». ۶- «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا» «۶». ۷- «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

لّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» «۷». ۸- «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۸». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۱ ۹- «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ* ... فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ» «۱». ۱۰- «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَستَعْجِلْ لَهُم كَانَّهُم يومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ الّا الْقَومُ الفَاسِقُونَ» «۲».

تفسير واستنتاج

فى «الآيات الاولى من الآيات محل البحث يستعرض القرآن قصة الخضر عليه السلام والنبى موسى عليه السلام، وطبعاً فإنّ القرآن الكريم لم يذكر اسم الخضر بل عبّر عنه بقوله «عَبْدَاً مِنْ عِبَادِنَا»، هذه القصة مشهورة ومعروفة لدى القارىء الكريم، وما هو محل نظرنا وبحثنا منها هو أنّ النبى موسى عليه السلام طلب العلم وذهب إلى حيث ينال العلم بسفرٍ خاصّ وجاء إلى الخضر ليستقى من علومه ومعارفه ما يختلف عن العلوم الّتى اكتسبها عن طريق الوحى، وهى العلوم المتعلقة بأسرار الطبيعة وحقائق الامور والحياة البشرية الّتى لابدّ أن يطلع على قسم منها نبىّ من اولى العزم مثل موسى عليه السلام لتتضح له الصورة جيّداً فى عملية التفاعل الإنسانى والاجتماعى وليكون على بيّنة من هذه الامور. وهنا قال الخضر لموسى عليه السلام بعد طلب موسى عليه السلام التعلم منه: بانك لا تتحمل ولا تطيق ما تراه من هذه العلوم لأنك لم تدرك حقائق الامور فى باطنها، ولكنَّ النبى موسى عليه السلام وعده بالصبر والتأنى واجتناب العجلة والتسرع، فشرط عليه الخضر هذا الشرط وانه إذا صحبتنى فيجب أن تلتزم السكوت اتجاه أى فعلٍ يصدر منى مهما كان عجيباً ومنافياً للمقررات والاصول السائدة بين الناس، ولابدّ أن تعلم أنّ فى ذلك حكمة سوف أُطلعك عليها، فتقول الآيات وهى تحكى هذه الحادثة «فَوَجَدا عَبداً مِن عِبادِنا ... قَالَ فَانِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۲ اتَّبَعْتَنى فَلا تَسْئَلْنى عَنْ شَىءٍ حَتّى احدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكراً» «۱». وعلى هذا الأساس أراد الخضر عليه السلام أن يُعلم موسى عليه السلام درساً فى روح الصبر والتأنى أمام الحوادث والمسائل المختلفة فى حركة الحياة ليتربى موسى عليه السلام على هذه الصفة الأخلاقية، ويسلك حياته الاجتماعية بعيداً عن حالة «العجلة والتسرع» فى تعامله مع الواقع والحياة «خاصة العجلة فى القضاء والحكم ولا سيّما بالنسبة إلى أعمال شخصيات كبيرة مثل موسى عليه السلام ء ومع هذا الوعد والشرط تحركا فى مسيرهما وسفرهما حتّى وصلا البحر فوجدا سفينة تريد أن تتحرك وترحل فركبا فيها، فلمّا مضت مدّة رأى موسى عليه السلام أمراً عجيباً من الخضر عليه السلام حيث شاهد الخضر عليه السلام وهو يحاول ايجاد ثقب فى اسفل السفينة سراً، فلم يتمالك موسى عليه السلام نفسه أمام هذا العمل الشنيع واعترض على الخضر بشدّة، ولكنَّ الخضر عليه السلام ذكره بوعده والشرط الّذى اشترط عليه، فما كان من موسى عليه السلام إلّاأن تراجع واعتذر عن فعله. ثمّ استمر فى طريقهما وسفرهما، وفجأة ارتكب الخضر عملًا أعجب من الأوّل حيث شاهد صبياً فقتله، وهنا صرخ به موسى عليه السلام محتجاً عليه بانك لماذا تقتل الأبرياء، ولماذا ترتكب هذه الأفعال القبيحة؟ وهنا نجد الخضر عليه السلام يذكره مرّة اخرى بعهده ووعده السابق من إلتزام الصبر والسكوت، فأجابه موسى معتذراً عن هذا التسرع وقال له: إذا رأيت منى اعتراضاً للمرّة الثالثة فإنّ لك الحقّ فى أن تنفصل عنى. ثمّ تحركا متنقلين من مدينة إلى اخرى إلى أن وصلا إلى قرية يتسم أهلها بالبخل الشديد وعدم اعتنائهم بالضيف، ولكنَّ الخضر عليه السلام لم يهتم لذلك بل شرَع فى ترميم جدار وجده فى حالة الانهيار والسقوط، فرأى موسى عليه السلام أنّ مثل هذا العمل تجاه ما رأوه من جفاء أهل هذه القرية هو عمل سخيف، ولذلك نسى مرّة اخرى عهده مع الخضر عليه السلام واعترض عليه فى هذا العمل. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۳ وهنا جلس الخضر عليه السلام ليشرح لموسى عليه السلام أسرار هذه السلوكيات والأفعال الغريبة ويبين له الحقائق الخفية لعالم الوجود بحيث إن موسى عليه السلام شعر بأنه قد فتحت أمامه نافذة جديدة على أسرار حياة الناس، وعندها ودع الخضر عليه السلام موسى عليه السلام بعد أن حمله معارف جمة من هذه العلوم الغريبة. وأخيراً تقول الآيات الكريمة فى استعراضها لما حدث بين الخضر وموسى عليهما السلام حيث تبين تفاصيل ورموز العلل الكاملة وراء هذه التصرفات

العجيبة للخضر عليه السلام وتقول على لسان الخضر عليه السلام «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً». «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً». «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» «۱». ولو أنّ موسى عليه السلام لم يستعجل بحكمه على أفعال الخضر عليه السلام لكان قد بقى مع الخضر واستفاد أكثر من علومه، ولكنَّ «العجلة والتسرع» كانا السبب لأن يحصل على هذه الثمار الثلاثة فقط ويحرم من الزيادة. «الطائفة الثانية» من الآيات محل البحث تستعرض واقعة اخرى لأحد الأنبياء العظام حيث تسببت العجلة والتسرع فى القضاء والحكم أن يقع مورد العتاب الإلهى. والقصة هى انه بينما كان داوود عليه السلام يوماً فى محرابه إذ دخل عليه رجلان أحدهما يشتكى من الآخر ويقول: «انَّ هَذَا اخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۴ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» «۱». وقبل أن يتحقق داود من المسألة ويدرس كافة تفاصيلها تسرع فى الحكم «... لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ ...» «۲». وهنا انتبه النبى داوود عليه السلام إلى انه ارتكب الترك الأولى «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» «۳». وليس هذا البحث محلًا مناسباً لدراسة هذه الواقعة بتمام تفاصيلها الدقيقة «وقد بحثناها فى التفسير الأمثل بالتفصيل» ولكننا نقتصر على بيان هذه الحقيقة، وهى أنّ «العجلة والتسرع» وخاصّةً بالنسبة إلى القضاء والحكم بين الناس سيفضى حتماً إلى تعقيد الامور والفضيحة وتعميق المشكلة على المستوى الفردى والاجتماعى. وتتعرض «الطائفة الثالثة» من الآيات محل البحث إلى قصة النبى يونس عليه السلام ومسؤوليته العظيمة فى الدعوة إلى الحقّ وهداية الناس إلى اللَّه، ولكنه فى لحظة من اللحظات تساهل فى أمر هذه المسؤولية الإلهية وارتكب الترك الأولى وبالتالى أصابه العقاب الإلهى بسبب ذلك. والقصة هى أنّ النبى يونس عليه السلام عاش مدّة طويلة مع قومه كالأب الحنون حيث تحمل مسؤولية انقاذ قومه من الضلالة والإنحراف، ولكنه لم يواجه منهم أمام منطقه الحكيم سوى السفسطة والمغالطة والسخرية، ولم يؤمن له من قومه إلّاعدد قليل جدّاً، ولعلّه لم يتجاوز الرجلين «أحدهما عابد والآخر عالم»، وأخيراً فإنّ النبى يونس عليه السلام أصابه اليأس من إيمان قومه، فدعى عليهم باقتراح من الرجل العابد، واستجاب اللَّه دعاءه، وأوحى إليه انه سينزل عليهم العذاب الإلهى فى اليوم الفلانى، وعندما اقترب زمان نزول العذاب ترك النبى يونس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۵ عليه السلام هؤلاء القوم وصحب معه الرجل العابد بدون أن يُتم الحجّة عليهم فلعلّهم يتوبون تلك اللحظات الأخيرة ويعودون إلى اللَّه تعالى، ولكنَّ الرجل العالم بقى معهم واستمر فى تبليغ الرسالة الإلهية. وقد أثمر هذا التبليغ وهذه الدعوة من الرجل العالم ثمره تزامناً مع اقتراب لحظات نزول العذاب، فحدث أن أوجب كلام هذا العالم وعلامات نزول العذاب تحولًا كبيراً فى أعماق نفوس هؤلاء القوم، وأنابوا إلى رشدهم وخرجوا مصطحبين معهم ذلك العالم إلى الصحراء ليعلنوا توبتهم وانابتهم إلى اللَّه وسلوكهم فى طريق الإيمان والتقوى، فلعلّ اللَّه يرحمهم ويغفر لهم، وهكذا قبل اللَّه تعالى توبتهم وتاب عليهم ولكنه وبخّ يونس عليه السلام على تسرعه وعجلته فى ترك هؤلاء القوم. القرآن الكريم يخاطب نبى الإسلام فى هذه الآيات الكريمة أن لا يستعجل فى طلب العذاب الإلهى على المشركين من قريش ولا يكون كيونس عليه السلام «فَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصاحِبِ الحُوتِ اذ نادى وَهُوَ مَكظُومٌ* لَولَا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمُومٌ» «۱». ولكن اللَّه تعالى قبل توبته من هذا الترك الأولى، وعندما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت كان قد تطهر من كلّ ذنب وترك للأولى، ولهذا نقرأ بعد هذه الآية قوله تعالى «فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۲». فالبرغم من أنّ يونس لم يتم الحجّة على قومه بالمقدار اللازم، ولكن اللَّه تعالى كان يتوقع من هذا النبى الكريم أن يصبر ويتأنى أكثر من ذلك، ولذلك عاقبه على عجلته وتسرعه فى مقابل عناد اولئك القوم. وتتحرك «الآية الرابعة» من موقع منع نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من «العجلة والتسرع» وتقول الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۶ «فَتَعالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلَا تَعجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبلِ ان يُقضى الَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً» «۱». ويستفاد من بعض الآيات القرآنية الاخرى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عند نزول الوحى كان يعيش حالة خاصّة من الشغف والشوق والحرارة

تقوده إلى الاستعجال فى استلهام الوحى، ولذلك تصدت هذه الآية الشريفة لتذكير النبى صلى الله عليه و آله بذلك ومنعه «.. وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبْلِ ان يُقضى اِلَيكَ وَحيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» «۲». ورغم أنّ المفسّرين ذكروا احتمالات عديدة فى تفسير هذه الآية الشريفة، ولكنّهم متفقون على أنّ الآية ناظرة إلى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لا ينبغى أن يستعجل فى استلام الوحى بالرغم من أنّ أصل الموضوع هو عمل إلهى ويتضمّن هداية الناس إلى اللّه تعالى. وعلى الرغم من أنّ استعجال النبى صلى الله عليه و آله فى استلام الوحى أو تلاوة الآيات القرآنية على أصحابه أو طلبه بنزول الوحى كلّ ذلك كان بسبب عشقه وشوقه لهداية الناس، ولكن حتّى هذا العمل الإيجابى والإنسانى لا ينبغى أن يتم من موقع العجلة بل ينبغى أن يكون متزامناً مع الصبر والتأنى. «الآية الخامسة» تتحدّث عن جميع الناس، أو بتعبير آخر عن طبيعة الإنسان وتقول: «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» «۳». وكأن الإنسان فى سلوكه وحركته فى حياته إلى درجة من العجلة وكأن ذاته ونفسه قد عجنت بالعجلة فهى عين العجلة. وتشير هذه الآية إلى أنّ طبيعة الإنسان مخلوقة منذ اليوم الأوّل بالعجلة والتسرع، ولكنه يجب عليه استخدام هذه الحالة وسلوك طريق التسرع والعجلة بعد توفر المقدمات للعمل لا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۷ قبل ذلك. وعبارة «بآياتى» يمكن أن تكون إشارة إلى معجزات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو آيات القرآن الكريم أو علائم العذاب الإلهى أو حلول القيامة أو جميع ذلك من الآيات الإلهية، فلا يختلف الحال فى أخذنا لكلّ هذه التفاسير المذكورة لهذه الآية، لأن جميع هذه الامور من نزول آيات القرآن وظهور المعجزات وحصول علائم القيامة وكذلك نزول العذاب الإلهى كلّها تتفق مع الحكمة الإلهية فى ظرف نزولها الخاصّ، ولا تقترن مع العجلة والتسرع لأن اللّه الحكيم لا يعمل عملًا على خلاف حكمته، وعليه فلا ينبغى الاستعجال فى طلب هذه الامور. أمّا قوله تعالى للآية الشريفة «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ» فهو إشارة إلى الأشخاص الّذين لم يتحركوا فى خطّ التربية الإلهية ولم يربّوا أنفسهم فى عملية تهذيب النفس وجهادها، وبعبارة اخرى: إن طبع الإنسان الأولى هو أن يتحرك بسرعة باتجاه اشباع حاجاته ورغباته البدنية والنفسية، وقد ورد هذا المضمون أيضاً فى الآية ۱۹ من سورة المعارج حيث يقول تعالى «انّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً» أى حريصاً وقليل الصبر. ولذلك نجد أنّ بعض الآيات الّتى تشير إلى كون الإنسان عجولًا فإنّها تتحدّث عن هداية الإنسان قبل ذلك كما فى الآية ۱۱ من سورة الإسراء والّتى ستأتى الإشارة إليها لاحقاً. وهذه الخاصية فى الإنسان «كونه عجولًا» حالها حال الأهواء النفسية والنوازع البدنية الاخرى الّتى هى بنّاءة وضرورية ومفيدة فيما لو تحرّك الإنسان على مستوى تعديلها وتهذيبها والاستفادة منها فى خطّ السعادة والتكامل المعنوى والإنسانى، وبذلك تخرج هذه الحالات السلبية فى الظاهر كونها مخربة وسلبية، فهى مثل السيل الهادر فإنه رغم ظاهره المدمر ولكنه إذا بنى الإنسان أمامه السدود لضبطه والاستفادة من قوته فإنه يتحول إلى قوّة ايجابية تؤدى إلى العمران والنور والرقى فى حركة الحياة الدنيوية. ونفس هذا المضمون ورد أيضاً فى «الآية السادسة» من الآيات محل البحث مع تفاوتٍ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۸ يسير وهو أنّ فى هذه الآية نجد إشارة إلى أحد الافرازات السلبية والسيئة للعجلة والتسرع حيث تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا» «۱». وهنا أيضاً نجد مفردة «الإنسان» الّتى تشير إلى طبيعة الإنسان الأولية، وقد تكررت هذه الكلمة فى أوّل الآية وفى آخرها أيضاً. «دعا» فى هذه الآية بمعنى طلب وأراد، سواءاً كان باللسان أو بالعمل، وبما أنّ الإنسان يتصف بالعجلة فى ذاته والتسرع فى تحصيل المنافع الشخصية فإنّ ذلك قد يتسبب فى أن لا يدرس جوانب المدرسة بشكل جيد ولا يدرك خيره وشره وبالتالى يوقع نفسه فى المخاطر والمشاكل المتنوعة. وهذا «الدعاء» تارةً يكون بصورة لفظية، يعنى أنّ الإنسان يطلب من اللّه تعالى وباصرار شديد بعض الامور الّتى لا تكون خيراً له فى الواقع بل هى شرٌّ له وإن كانت فى ظاهرها أنيقة ومطلوبة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام «وَاعِرِفْ طَريقَ نِجاتِكَ وَهَلاكِكَ كَى لاتَدعُوا اللّهَ بِشَىءٍ عَسى فِيهِ هَلاكُكَ وَانْتَ تَظُنُّ انّ فيهِ نَجاتُكَ قَالَ اللّهُ تَعالى «وَيَدَعُ الإنسانُ بِالشَّرِّ دُعائَهُ بِالخَيرِ وَكانَ الإنسانُ عَجُولًا» «۲». وأحياناً يتحرّك الإنسان على مستوى العمل فى طلب شيءٍ بدافع من وحى الأهواء والشهوات ويكون شقاءه فى ذلك ولكنه بسبب تزيين النفس وتسويلات الشيطان يحسب ذلك خيراً له وموجباً لسعادته ويحزن عندما لم يحصل عليه، فى حين انه سيتضح له بمرور الزمان انه إذا كان اللّه قد استجاب له طلبه ذلك

ونال حاجته وحقق هدفه فإنّ ذلك سيكون سبباً لشقائه مدى الحياة. وتستعرض «الآية السابعة» مطلباً جديداً على مستوى عجلة الإنسان، وهو أنّ هذا الإنسان العجول أحياناً بدلًا من أن يستعجل فى طريق الخير واكتساب الحسنات على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۹ الأقل فإنه يستعجل فى طريق الشر والفساد، كما نرى هذا الحال لدى الكفّار المعاندين عندما يحذرهم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من عذاب اللَّه وعقوباته الدنيوية، فتجدهم يستعجلون بهذا العذاب ويطلبون من النبى أن يسرع فى نزول العذاب المهلك، وفى الحقيقة يطلبون موتهم وهلاكهم من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كما تتحدّث الآية مورد البحث عن ذلك: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» «۱». أجل، إذا اقترنت العجلة لدى الإنسان بالعناد والإصرار، فالنتيجة هى ما قرأناه فى هذه الآية الشريفة، فبدلًا من الاستعجال لطلب الخير واكتساب الحسنات فإنّهم يستعجلون فى طلب الشرّ ويوقعون أنفسهم بأمواج البلاء والشقاء كما نجد هذا المضمون فى الآية الاولى من سورة المعارج «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ وَاقِعٍ* لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ». وقد ذكر الكثير من المفسّرين وأرباب الحديث أنّ هذه الآية نزلت فى «النعمان بن الحارث الفهرى» عندما نصب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الإمام على فى غدير خم خليفة له وقال قولته المشهورة «مَنْ كُنتُ مَولَاهُ فَهَذَا عَليٌّ مَولاهُ» فلمّا سمع بذلك هذا الرجل اغتاظ من ذلك وجاء إلى النبى معترضاً بشدّة، وعندما سمع من النبى أنّ هذا الأمر إنما هو أمرٌ إلهيٌّ ازداد غيظاً وقال: إلهى إن كان هذا هو الحقَ من عندك فانزل علينا حجارةً من السماء، فلم يمكث مدّة حتّى نزلت عليه حجارةً من السماء فأصابته فى رأسه وقتلته، وقد نزلت الآية فى هذه الواقعة «۲». ألم يكن من الأفضل لمثل هؤلاء الأشخاص أن يطلبوا من اللَّه تعالى بدلًا من العناد واللجاجة، الهداية والمغفرة وإزالة حالة التعصب والعناد فى ذاتهم؟ وطبقاً للآية مورد البحث فإنّ مغفرة اللَّه تسبق عذابه «سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ» وهكذا فإنّ اللَّه تعالى لا يعذب أحداً ما دام احتمال هدايته موجوداً، ولكن مع الأسف فإنّ بعض الناس المعاندين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۰ والمتعصبين يستعجلون بالعذاب الإلهى بدلًا من المغفرة والرحمة. وتتحرّك «الآية الثامنة» من الآيات مورد البحث للكشف عن بعد آخر من أبعاد صفة العجلة لهذا الإنسان وتقول: «وَلَوْ يُعَجّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ...» «۱» ولكن بما أنّ اللَّه تعالى غفور رحيم كريم فإنه لا يسرع فى عقاب القوم الفاسقين فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم ويسيرون فى خطّ التقوى والإيمان والتوبة. ويضيف القرآن الكريم فى ذيل هذه الآية الشريفة «فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۲» إلى أن يحين وقت مجازاتهم وعقوبتهم. وعليه فإنّ اللَّه تعالى لا يعمل مثل عملكم، فانتم تستعجلون باكتساب الخيرات والمنافع، ولكن اللَّه تعالى لا يُسرع فى عقابكم، لأن المقصود الأصلى للَّه‌تعالى ليس هو عقابكم بل غرضه هدايتكم وأنزال الرحمة عليكم. وطبقاً للآيات القرآنية الاخرى فيحتمل فى تفسير هذه الآية أن يكون المراد منها هو أنّ هؤلاء الناس يستعجلون بطلب نزول العذاب الإلهى عليهم كما يستعجلون فى طلب الخيرات والمنافع الدنيوية، ولكن القرآن الكريم يقول لهم: «لو أنّ اللَّه تعالى استجاب لطلبكم فى مسألة التسريع بنزول العذاب لم يبق أحداً منكم» «۳»، ولكنَّ المعنى الأوّل أو التفسير الأوّل للآية ينسجم أكثر مع ظاهرها. وفى «الآية التاسعة» وضمن الإشارة إلى حالة الاضطراب والقلق لدى الكفّار والمشركين فى مقابل وعد اللَّه تعالى للمسلمين بالنصر وهزيمة أعدائهم الكافرين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۱ ومعاقبتهم تقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ» «۱». أى لماذا لم تتحقق هذه الوعود الإلهية؟ أليس هذا دليلٌ على كذبكم وانكم تخادعون أنفسكم بهذه الوعود الزائفة؟ ويجيب القرآن الكريم على هذا التساؤل ويأمر النبى صلى الله عليه و آله بأن يقول لهم «قُل يَوْمَ الفَتحِ لا يَنْفَعُ الّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُم يُنْظَرُونَ ...» «۲». فلا تستعجلوا بنزول العذاب، لأنّه فى ذلك اليوم لايجد هؤلاء الكافرون فرصة للعودة إلى الحقّ. إن اللَّه تعالى بلطفه وكرمه وعنايته قد أمهلكم هذا اليوم لتعودوا إلى وجودكم وتسلكوا فى طريق الحقّ والإيمان، ولكن عندما يأتى ذلك اليوم فإنّ العذاب الإلهى سينزل عليكم وتوصد أمامكم أبواب التوبة فلا تستطيعون العودة والانابة إلى اللَّه، إذاً فبدلًا من أن تستعجلوا نزول العذاب عليكم، لابدّ أن تستثمروا هذه الفرصة والمهلة الإلهية وتتحركوا من موقع إصلاح الذات والسلوك فى خطّ التوبة والإيمان والانفتاح على اللَّه تعالى. ثمّ تأمر الآية الشريفة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتقول «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ

مُّنتَظِرُونَ» «۳»، فعليک أن تنتظر رحمۀ اللّه ونصره وهؤلاء ينتظرون عذابه وعقوبته. وقد ذکر بعض المفسّرين أنّ جملۀ «أنّهم منتظرون» هی إشارۀ إلی ما کان ينتظره الکفّار من موت نبی الإسلام أو هزيمته فی ميدان القتال، ولکنَّ التفسير الأوّل المذکور أعلاه أنسب إلی جو الآية. «الآيۀ العاشرۀ» تخاطب النبی الأکرم صلی الله عليه و آله وتوصيه بالصبر والاستقامۀ کما هی حالۀ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۹۲ الأنبياء الماضين، وبالرغم من أنّ التاريخ شاهدٌ علی أنّ النبی الأکرم صلی الله عليه و آله لم يتحرک من موقع العجلۀ والتسرع بل کان يسلک فی خطّ المثابرۀ والصبر والاستقامۀ فی کلّ أعماله وأفعاله، ولکنَّ الآيۀ الشريفۀ جاءت لتؤکد هذا المعنی علی نبيّنا الکريم وتقول «فَاصْبِر کَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم کَانَّهُم يومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ» «۱». ونظراً إلی أنّ جميع عمر الدنيا فی مقابل الآخرۀ لا يعد سوی ساعۀ واحدۀ من الزمان، فعليه لا تستعجل فی الأمر إلی أن تتم الحجّۀ عليهم، ويستفاد من هذا التعبير إلی أنّ جميع الأنبياء والمرسلين کانوا يعيشون الصبر والمثابرۀ والاستقامۀ مقابل عناد أقوامهم وجهالتهم ولجاجتهم وکانوا يمهلون أقوامهم حتّی النفس الأخير لغرض اصلاحهم وهدايتهم. ولم يکن نبی الإسلام صلی الله عليه و آله إلّاکأحد هؤلاء الأنبياء اولی العزم، وما ورد فی الآيۀ أعلاه هو فی الواقع يعبر عن تأکيد الآيۀ علی هذا المعنی أو أنّ مضمون الآيۀ له بعد تعليمی أو تربوی للآخرين، أو هو إنذارٌ إلی الکافرين بأن لا يهمل هذه الفرصۀ الثمينۀ ولا يُسیء الاستفادۀ من الامهال الإلهی. وهذه الآيۀ شاهدٌ أکيد علی أنّ الصبر والاستقامۀ وترک العجلۀ من الفضائل الأخلاقيۀ المتوفرۀ لدی جميع الأنبياء العظام الّذين کانوا طيلۀ التاريخ البشری أُسوةً وقدوةً لأقوامهم فی التحلّی بهذه الصفۀ الأخلاقيۀ السامية.

النتيجۀ:

ويتضح من مجموع الآيات أعلاه أنّ العجلۀ والتسرع لدی الأقوام والشعوب البشريۀ المختلفۀ فی نظر الإسلام صفۀ سلبيۀ، وتقع فی مقابل القيم الأخلاقيۀ الايجابيۀ من الصبر والمثابرۀ والتأنی إلی أن تتوفر مقدمات العمل، وأنّ الصبر والتأنی يعد من أهم الفضائل الأخلاقيۀ والإنسانيۀ، وهی الفضيلۀ الّتی کانت متوفرۀ لدی جميع الأنبياء العظام وقادۀ البشريۀ فی خطّ الحقّ والإيمان.

العجلۀ والتسرع فی الروايات الإسلاميۀ:

وقد وردت بحوث کثيرۀ فی الروايات الإسلاميۀ فی ذمّ العجلۀ ومدح التأني والصبر ونقرأ فی مضامينها نکات دقيقۀ فی هذا الموضوع من قبيل: ۱- ما ورد عن رسول اللّه صلی الله عليه و آله أنّه قال: «الْاناةُ مِنَ اللّهِ وَالعَجَلةُ مِنَ الشَّيْطانِ» «۱». ۲- وقال رسول اللّه صلی الله عليه و آله فی حديث آخر «انَّما اهْلَکَ النّاسَ الْعَجَلَةُ وَلَوْ انَّ النّاسَ تَثَبَّتُوا لَمْ يُهلِکْ أَحدٌ» «۲». وطبعاً أنّ المقصود من الهلکۀ هو الموت بسبب الحوادث غير المتوقعۀ والّتی تکون معلولۀ بالعجلۀ وعدم التثبت من الامور. ۳- وقد ورد عن النبی الأکرم صلی الله عليه و آله قوله: «ايّاکَ وَالعَجَلةَ فَانّکَ ان عَجَّلْتَ اخْطَأْتَ حَظَّکَ» «۳». ۴- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «مَعَ العَجَلِ يَکثِرُ الزَّلَلَ» «۴». ۵- وفی وصيۀ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام عندما کان الإمام علی علی فراش المرض قال: «انْهاکَ عَنِ التَّسَرُّعِ بِالقَوْلِ وَالْفِعْلِ» «۵». ۶- وقد ورد أيضاً عن الإمام أميرالمؤمنين قوله «الْعَجَلُ قَبلَ الْامْکانِ يُوجِبُ الغُصَّةَ» «۶» ؛ لأنّ العجلۀ تهدر أتعاب الإنسان وسعيه ولا يصل إلی نتيجۀ مطلوبۀ. ۷- وورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَن رَکَبَ العَجَلَ رَکِبَتْهُ المَلامَةُ» «۷». ۸- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَعَ التَّثَبُّتِ تَکونُ السَّلامَةُ وَمَعَ العَجَلَةِ تَکونُ النَّدامَةُ» «۸». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۹۴ ۹- وجاء عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «العَجَلَةُ مَذمُومَةٌ فِی کُلِّ أمْرٍ الّا فِی مَا يَدفَعُ الشَّرَّ» «۱». ۱۰- ونختم هذا البحث بحديثٍ شريف عميق المغزی عن الإمام علی عليه السلام أنّه قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ ان يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِن أَرَبَعَةٍ أَشياءٍ فَهُوْ خَليقٌ بانْ لا يَنْزِلَ بِهِ مَکرُوهٌ ابَداً. قِيلَ وَ مَا هِی؟ قَالَ: الْعَجَلَةُ وَاللِّجاجَةُ وَالعُجْبُ وَالتَّوانی» «۲». وقد رأينا فی هذه الأحاديث الشريفۀ أنّ التأنی هو عطيۀ إلهيۀ وموهبۀ ربانيۀ للإنسان بينما «العجلۀ» هی صفۀ شيطانيۀ تدفع بالإنسان إلی طريق الخسران والزيغ فی حرکۀ الحياۀ وتضيع عليه الفرص الثمينۀ،

وتكثر اشـتباهاته، وتكون عاقبته إلى النـدم والهلكـة، فى حين أنّ النقطة المقابلة لها، أى التأنى والصبر والتدبر يقود الإنسان إلى الفلاح والسعادة والاستفادة الكبيرة من الفرص الثمينة فى حياته الدنيوية.

ملاحظات مهمة:

۱- مفهوم العجلة والتسرع

إن العجلـة بما هى صـفة ذميمـة فى سـلوك الإنسان تظهر باشـكال مختلفة، بمعنى أنّ الإنسان وقبل أن يوفر مقدمات العمل يُقدم على تحصـيل النتيجـة، وهـذا العمل لا يترتب عليه سوى الفشل أو يثمر ثمرة ناقصـة. وهـذا كما لو أنّ الإنسان قطف الثمرة قبل نضـجها فإنه يحرم نفسه من طيب هـذه الثمرة أو تكون ذات فائـدة قليلـة، أو أنّه يقوم بنثر البـذور على الأـرض قبـل أن يحرثها فتكون النتيجـة تلف البذور أو قلّة المحصول الزراعى، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد: «وَمُجْتَنِي الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۹۵ الثَّمَرةِ لِغَيرِ وَقتِ ايناعِهَا كَالزّارِعِ لِغَيرِ ارْضِهِ» «۱». أى انه يتلف طاقـاته ورأس مـاله بـدون أن يعود عليه بالفائـدة المطلوبـة، والعجول: يقـال للأشـخاص الّذين لا يتمتعون بحالة الصبر فى أعمالهم وأقوالهم وتعاملهم مع الآخرين ولغرض الوصول إلى هدفهم لا يسلكون الطريق الصـحيح لـذلك، فلهذا السبب فإنّهم يقعون فى دوامة من المشـكلات والنواقص فى حركتهم الاجتماعية وسلوكهم فى خطّ التكامل المـادى والمعنوى. والصـفة المقابلـة للعجلـة والتسـرع هى «التأنى» والتريث والتحمل والطمأنينـة والوقار. ولا ينبغى أن تؤخـذ «العجلـة» بمعنى السـرعة فى الأقـدام على العمـل والّذى يحمـل مضـموناً ايجابيـاً فى حركـة الحيـاة، فالسـرعة فى العمل تكون بعـد ترتب وتوفر المقـدمات المطلوبـة لـذلك العمـل وأن لا يـدع الإنسـان الفرصـة تفلت من يـده للحصول على النتيجـة والثمرة، فمثل هـذا العمل من الواضح أنّه يعد أحد العوامل المهمة للفلاح والنجاة والموفقية، ولكننا نرى فى موارد كثيرة وجود الاشـتباه والخلط بين مصاديق العجلة وموارد السـرعة، أو نرى أنّ البعض ولغرض تبرير كسلهم واهمالهم يضيعون الفرص الثمينة ويقولون انه لا ينبغى العجلة فى الامور وأنّ العجلـة من الشـيطان، فى حين أنّ هناك فرقاً واضـحاً بينهما، ففى بعض الروايات نقرأ أنّ العجلـة تعد من أسـباب الندم، وأنّ التأنى من أسـباب السلامة، وهذا هو ما أشرنا إليه آنفاً. ونختم هذا الكلام بحديثٍ عن أميرالمؤمنين عليه السلام يبين فيه الفرق بين مفهوم العجلة والسرعة أو مفهوم التسرع والسرعة ويقول «ايّاكَ وَالعَجَلَةَ بِالامُورِ قَبْلَ اوانِهَا، وَالتَّساقُطَ فِيها عِندَ امْكانِها» «۲».

۲- المسارعة فى الخيرات

ونقرأ فى القرآن الكريم فى آيات متعـددة انه يـدعو إلى المسارعـة فى الخيرات والمسابقـة فى الحسـنات، ومن ذلك ما ورد فى الآية ۱۱۴ مـن سـورة آل عمران فى وصـف بعض المـؤمنين الحقيقيـن حيث يقـول «.. وَيُسـارِعُونَ فِي الخَيراتِ وَاولئكَ مِن الصَّالِحينَ ...». ويقول فى سورة الأنبيـاء الآيـة ۹۰ فى وصف جماعـة من الأنبيـاء العظـام مثـل زكريـا ويحيى ويقول عنهم «.. انَّهُم كَانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ ...». ويقول فى الآية ۶۱ من سورة المؤمنين فى شـرح الصفات البارزة لهؤلاء المؤمنين ويقول: «اولئكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ». وجاء فى الآيـة ۱۳۳ من سورة آل عمران أنّ هـذه المسألـة بعنوان خطاب عام لجميع المؤمنين أن يتحركوا من موقع المسارعـة، ويقول: «وَسَارِعُوا الَى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُـهَا السَّمَاوَاتُ وَالْارْضُ اعِـدَّتْ لِلمُتَّقينَ». ونفس هـذا المعنى ورد فى الآية ۱۴۲ من سورة البقرة تحت عنوان المسابقـة فى الخيرات حيث تقول الآية «... فَاستَبِقُوا الخَيراتِ ...». وبديهى أنّ المسارعة فى الخيرات كلها إشارة إلى هـذه الحقيقـة الواحـدة، وفى الواقع آنها من قبيل اللازم والملزوم لأن المسابقـة لا تتحقق بدون المسارعة، وكلّما طوى الشـخص الطريق إلى مقصوده بسـرعة أكثر فإنه بلا شكّ سـيصل إلى مقصوده أسـرع. وقد ورد فى الروايات الإسلامية إشارات جميلة وعميقـة المعنى بالنسـبة إلى هـذا الموضوع، نختار منها نماذج معيّنة وهى: ۱- قـال رسـول اللَّه صلى الله عليه و آله: «انّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ

الخَيْرِ مَا يُعَجَّلُ» «۱». ۲- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «بَادِرُوا بِعَمَلِ الخَيرِ قَبلَ ان تُشغَلُوا عَنْهُ بِغَيرِهِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۷ ۳- وفى أحاديث متعددة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن هَمَّ بِخَيرٍ فَلْيُعَجِّلْهُ وَلا يُؤَخِّرْهُ» «۱». ۴- وجاء هذا المعنى أيضاً فى حديث آخر بصورة مفصلة، قال الإمام الصادق عليه السلام «اذا هَمّ احَدُكُم بِخَيرٍ أوَ صِلَةٍ فَانّ عَن يَمينِهِ وَشِمالِهِ شَيطانَينِ فَلْيُبادِرْ لا يَكُفّاهُ عَن ذَلِكَ». ۵- وقال أميرالمؤمنين عليه السلام «لَيْسَ مِن عَادَةِ الْكِرام تَأخيرُ الْانعام» «۲». ۶- وقال الإمام الباقر عليه السلام «مَن هَمَّ بِشَىْءٍ مِنَ الخَيرِ فَلْيُعَجِّلْهُ فَانَّ كُلَّ شَىْءٍ فيهِ تَأخيرٌ فَانَّ لِلشَّيطانِ فِيهِ نَظْرَةً». وخلاصة الكلام فإنّ الموانع النفسانية والوساوس الشيطانية تصد الإنسان دائماً عن أعمال الخير، ولهذا فعندما تتوفر مقدمات ذلك العمل تجب المسارعة إليه قبل أن يضع بعض الجهال الضيقوا الافق العوائق فى طريق الحركة نحو الخير ويثبطوا الإنسان عن سلوك طريق الكمال المعنوى، ولابدّ أيضاً أن يفرق الإنسان بين السرعة والمسارعة فى أعمال الخير، وبين العجلة المذمومة الّتى تكون قبل توفر مقدمات العمل. ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال «لا تُؤَخِّر انالَةَ الْمُحتَاجِ الَى غَدٍ، فَانَّكَ لا تَدْرِى مَا يَعْرِضُ لَكَ وَلَهُ فِى غَدٍ» «۳».

الآثار السلبية للعجلة والتسرع:

۱- اتلاف الوقت والطاقات

إن هذه الصفة الذميمة يترتب عليها آثار مخربة كثيرة فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، والأضرار التى تعود على الإنسان بسبب هذه الحالة السيئة هى أكثر من أن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۸ تحصى ومن ذلك أنّها تعمل على اهدار طاقات الإنسان واتلافها وبالتالى تمنعه من الوصول إلى مقصوده ومطلوبه، مثلًا إذا قصد جيش العدو بلاد الإسلام ولم يتريث جيش الإسلام لكى يباغت العدو فى موقف من مواقف الضعف والعسر بالنسبة للعدو، أو قبل أن ينتهى جيش الإسلام من حيث العدّة والعدد والخطّة العسكرية يقوم هذا الجيش بالهجوم على العدو، فتكون النتيجة الاندحار والهزيمة لجيش الإسلام واتلاف الكثير من الطاقات والقوى وبالتالى تقوية جيش الأعداء وجرأتهم أكثر. وهذا المعنى يصدق أيضاً بالأعمال الفردية، لأن كلّ حركة تتصف بالعجلة فإنّها تتسبب فى اهدار الطاقات واتلاف الامكانات للإنسان. وينقل الفيض الكاشانى فى «المحجّة البيضاء» حديثاً جميلًا ويعتبر شاهداً ناطقاً على ما تقدّم آنفاً، حيث جاء فى هذا الحديث انه عندما ولد المسيح عليه السلام فإنّ الشياطين جاءوا إلى إبليس فقالوا: أصبحت قد نكست رؤوسها، قال: هنا حادث قد حدث، مكانكم، فطار حتى جال خافقى الأرض ولم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفّت حوله، فرفع إليهم فقال: إنّ نبيّاً قد ولد البارحة ما حملت انثى قط ولا وضعت إلّاوأنا بحضرتها إلّاهذا فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفّة «۱».

۲- اليأس

ومن المعطيات السلبية الاخرى للعجلة، هو حالة اليأس الّتى تصيب الإنسان عندما لا ينال مقصوده ولا يتسنّى له تحصيل النتيجة من عمله، وقد يفضى به هذا الحال إلى أن يسىء الظنّ بكلّ شىء حتّى بالتقدير الإلهى، ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام أنّه قال: «لا تَعْجَلْ عَلَى ثَمَرَةٍ لا تدرك وَانّما تَنالُها فِى اوانِها وَاعْلَمْ انَّ المُدَبِّرَ لَكَ اعْلَمُ بِالوَقتِ الّذى يُصلِحُ حَالُكَ فيهِ، فَثِقْ بِخَيَرَتِهِ فِى جَميع امورِكَ، يُصلِحُ حَالُكَ، وَلا تَعجَلْ بِحَوائِجِكَ قَبلَ وَقتِها فَيَضِيقُ قَلبُكَ وَصَدرُكَ وَيَخشاكَ (يغشاك) القُنوط» «۲».

۳- الندامة

الثالث من الآثار السیئة للعجلة هی الندم کما مرّت الإشارة إلیه فی الأحادیث السابقة، فما أکثر الأشخاص الّذین استعجلوا فی تحصیل النتیجة قبل أن تتوفر المقدمات وقبل أن تتهیأ الأرضیة لذلک، فکانت النتیجة هی اتلاف طاقاتهم وامکاناتهم وعدم تحصیل مقصودهم الحقیقی، فی حین أنّهم لو مکثوا وصبروا قلیلًا فسوف لا یتورطون فی ما وصلوا إلیه، وما أکثر الأشخاص الّذین اتجهوا من موقع العجلة فی طریق خاص وإذا بهم یرون الخسارة تحیط بهم من کلّ جانب وعندها أدرکوا خطأ هذا الطریق بعد فوات الأوان فاصبحوا یتحسرون علی ما صدر منهم ویقولون یا لیتنا لم نسلک هذا الطریق. وفی ذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام: «فَکَمْ مِن مُستَعجِلٍ بِما ان ادرَکَهُ وَدَّ انَّهُ لَمْ یُدرِکْهُ» «۱».

۴- الحزن والغم

الرابع من العواقب السلبیة للعجلة فی الأعمال هو أن یعیش الإنسان امواج الحزن والهم، لأن الفشل فی حرکة الحیاة الاجتماعیة المترتب علی العجلة والتسرع تکلف الإنسان غالیاً فی کثیر من الأوقات وتجعل الإنسان یعیش دائماً القلق والاضطراب والحزن. وقد ورد هذا المعنی فی إحدی الکلمات القصار لأمیرالمؤمنین علیه السلام حیث قال «العَجَلُ قَبْلَ الإمکانِ یُوجِبُ الغُصَّةَ» «۲».

۵- زیادة الخطأ

إن من الآثار السیئة الاخری للعجلة والتسرع هو کثرة ما یقع فیه الإنسان من الخطأ والاشتباه بسبب ذلک، لأن التخطیط الصحیح یحتاج إلی کثیر من التأمل والتدبر والدقّة، وهذا المعنی یتقاطع مع العجلة والتسرع، ولذا نری الأشخاص الّذین تستولی علیهم حالة العجلة فی تصرفاتهم وسلوکیاتهم فإنّهم یبتلون عادة بأخطار کثیرة سواءً علی مستوی تشخیص الهدف أو علی مستوی المنهج والطریق للوصول إلیه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۰ یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «مَعَ العَجَلِ یَکْثُرُ الزَّلل» «۱». وکذلک یقول علیه السلام: «مَن عَجَل کَثُرَ عِثارُهُ» «۲».

۶- کثرة الزلل

السادس من آثار العجلة والتسرع «کثرة الزلل» والّذی یمکن أن یکون بمعنی واحد مع کثرة الأخطاء ویمکنه أن یکون قسماً مستقلًا «الخطأ فی تشخیص الهدف والزلل فی طریق الوصول إلیه». ویقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا المجال «اصابَ مُتَأَنٍّ اوْ کادَ، واخطَأَ مُسْتَعجِلٌ او کَادَ» «۳». وعلی أیة حال فإنّ الأضرار الناشئة من العجلة والتسرع أکثر من أن یتصورها الإنسان، والضرر والخسارة الّتی یدفعها الإنسان العجول فی واقع الحیاة من الامکانات المادیة والأضرار النفسیة والمعنویة أکثر من أن تحصی

جذور هذه الصفة الذمیمة:

۱- اتباع الهوی

إن هذا الخلق الذمیم حال سائر الأخلاق الرذیلة الاخری ینبع من اتباع الهوی فی الأساس، فالإنسان إذا تحرّک بوحی أهوائه فإنه عادةً ولأجل تحصیل مطامعه ورغباته النفسیة یستعجل فی ذلک، والغالب أنّ الهوی لا یسمح له بأن یتدبر عواقب الامور ویتأمل فی الطریق

السليم فى الوصول إلى مقصده، ولهذا السبب فإنه يلقى بنفسه بصورة عشوائية فى هذا الاتجاه ويركض خلف ارضاء النوازع الذاتية والأهواء النفسية وبالتالى يتورط فيما لا يحمد عقباه.

۲- حبّ الدنيا والتعلق بها

الثانى من أسباب العجلة والتسرع هو حبّ الدنيا والتعلق بها الّذى يعد رأس كلّ خطيئة، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۱ فمن كان عبداً للدنيا فإنه لا يرى غيرها وكأنما يغلق عينه واذنه عن رؤية عواقب الامور ويلقى بنفسه وبدافعٍ من العشق للدنيا والشوق إلى تحصيل زخارفها من موقع العجله والتسرع وهو يتصور إنما يسعى لخيره ومصلحته ولكنَّ الأغلب هو أنّ هذه العجلة تتسبب فى تورطه بالمشاكل واصطدامه بالموانع الّتى لم يكن يراها بسبب العجلة ولم يكن مستعداً نفسياً لمواجهتها، ولهذا السبب فإنه يمنى بالهزيمة والفشل الذريع.

۳- ضيق الصدر وسعته

ومن الدوافع الاخرى للعجلة والتسرع هو ضيق الصدر وافق التفكير، فالأشخاص الّذين يعيشون ضيق الصدر وضيق الافق هم الّذين يسلكون طريق العجلة فى تحصيل مبتغاهم، واما من كان يعيش سعة الصدر ويتسم بسعة الافق فى تفكيره فنجده يخطو فى حركته الاجتماعية بتأنٍ ووقار وتدبّر فيما يصدر منه من سلوكيات وأعمال ويتجه لتحصيل مقاصده بعزم قوى وفى نفس الوقت ببرودة أعصاب، ولهذا فإنه قلما يصاب بالفشل والهزيمة. إن تسويلات الشيطان وخداع رفاق السوء والمتملقين والكاذبين والحساد والنمامين هى بدورها من العوامل المهمة للوقوع فى دائرة الاستعجال والتسرع. يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد «وَلا تَعجَلَّنَّ الَى تَصديقِ ساعٍ فَانَّ السَّاعِىَ غَاشٌّ وَان تَشبَّهَ بِالنَّاصِحينَ» «۱».

۴- الجهل

وأحد العوامل الاخرى للاستعجال بالامور الجهل والسفه، فان الشخص الجاهل والسفيه يعيش فى الغالب فى دائرة الأوهام والخيالات الباطلة فيتصور أن مقدمات هذا العمل الفلانى متهيئة وأنّ الأرضية مساعدة لذلك فيلقى بنفسه فى دوامة الحوادث ولا يرجع منها إلّابخف حنين ولا يكون مصيره منها سوى الفشل، فى حين أنّ الشخص العالِم بالامور والعاقل الذكى فإنه يسعى لبرمجة خطواته العملية فى سبيل الوصول إلى هدفه ومقصده وبالتالى فسوف يحصد ثمار هذا التأنى والتدبر ولا يصيبه سوى الفلاح. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۲ يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مِنَ الْحُمُقِ الْعَجَلَةُ قَبلَ الْامْكانِ» «۱».

طرق العلاج:

ولغرض التصدى لهذه الرذيلة الأخلاقية وعلاجها أو الوقاية منها فقبل كلّ شىء يجب التفكر فى هذه العواقب الوخيمة والآثار السيئة لحال الاستعجال والتسرع، فنحن نشاهد الكثير من الوقائع المؤلمة والحوادث والمشاكل الكثيرة الّتى تكون بسبب التسرع ... وهناك نماذج كثيرة من ذلك ذكرها لنا تاريخ الانسانية. فلو أنّ الشخص تفكر فى هذه الامور والآثار السيئة، فإنه سيدرك حتماً أنّ الاستعجال فى العمل مضافاً إلى انه لا يوصله إلى مقصده ولا يحصل على غايته بسرعة فإنه قد لا يحصل عليها أبداً فيما بعد. وما تقدّم من العبارات العميقة فى الروايات الشريفة من قبيل «العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ» و «وَالعَجَلَةُ قَبْلَ الامْكانِ يُوجِبُ الغُصّيةَ وَمَعَ العَجَلَةِ تَكوُن النَّدامَةُ» «۲» . يجب أن تكون بمثابة الشعار لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية يضعه نصب عينه كى يحد ذلك من عجلته فى الامور،

ویضع فی خاطره دائماً الحدیث الشریف الوارد عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إنّما أهلک الناس العجلة ولو أنّ الناس تثبتوا لم یُهلک أحد» «۳». ومن جهة اخری یجب علیه أن یمارس عملیة التأنی ویتمرن علیها ویلقن نفسه بها حتّی یمتزج هذا الخُلق الحسن بروحه ویمتد إلی أعماق وجوده، فیکون له کالطبیعة الثانیة، لأن کلّ عمل یتبدل بالممارسة والتمرن إلی عادة، وکلّ عادة تتبدل إلی خُلق وطبیعة فی نفس الإنسان.

الصبر والتأنی

تنویه:

إن الحیاة الدنیویة ملیئة بالمشاکل والمصائب الّتی تستوعب حیاة الإنسان فی واقعه الفردی والاجتماعی، ولو انه تصدی لهذه المشکلات وواجه هذه المخاطر والتحدیات للواقع العملی بصبرٍ ومقاومة ومثابرة فإنه سوف یتجاوزها وینتصر علیها قطعاً، وإلّا فإنه لن یصل إلی مقصوده أبداً، وسیجد نفسه یعیش الخنوع والخضوع للتحدیات الصعبة الّتی یفرضها علیه الواقع. والمراد من الصبر هو الاستقامة أمام المشاکل والحوادث المختلفة، والصفطة المقابلة له هو «الجزع» ویعنی افتقاد عنصر المقاومة والاستسلام أمام تحدیات الواقع والمشاکل الاجتماعیة والنفسیة فی حرکة الحیاة علی المستوی المادی والمعنوی، فلو أنّ الإنسان لم یقف أمام أهوائه الطاغیة ونوازعه النفسیة ولم یقاوم الجوانب الدنیویة ولم یسلک فی طریق «معرفة اللَّه» واطاعته، فإنه لن یصل إلی أی مرتبة من مراتب الکمال المعنوی والإنسانی، ولذلک قسم علماء الأخلاق الصبر إلی ثلاثة أقسام: ۱- الصبر علی الطاعة، أی علی المشکلات الّتی تواجه الإنسان فی خط التقوی والإیمان وطاعة اللَّه تعالی. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۴ ۲- الصبر علی المعصیة، ویعنی الصمود أمام النوازع النفسیة والأهواء الشیطانیة ومقاومتها والتصدّی لها. ۳- الصبر علی المصیبة، ویعنی الصمود أمام المصائب والحوادث المرة الّتی تصیب الإنسان فی حرکة الحیاة وعدم الانفعال عند حدوثها والخضوع لتحدیاتها وترک الجزع والفزع فی عملیة مواجهتها. ویعتبر «الصبر» من أهم أرکان الإیمان حیث یشبه الإمام علی مکانة الصبر بالنسبة إلی الإیمان کمکانة الرأس بالنسبة إلی الجسد، وقد لا نجد فی القرآن الکریم مورداً اهتم فیه القرآن من موقع التأکید والمدح مثل ما نجد ذلک بالنسبة إلی الصبر، فقد وردت سبعون آیة تقریباً فی هذا الموضوع، عشرةٌ منها مختصة بتوصیات القرآن للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله نفسه. ونقرأ فی آیات القرآن أنّ اللَّه تعالی وعد الصابرین أجراً عظیماً وبدون حساب «انَّما یُوَفَّی الصَّابِرُونَ اجْرَهم بِغَیْرِ حِسَابٍ» «۱». وأنّ الصبر هو مفتاح الجنّة کما تقول الآیة «سَلَامٌ عَلَیْکُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدَّارُ» «۲». وجاء فی الحدیث النبوی المعروف اشارات إلی هذا المعنی وأنّ الصبر نصف الإیمان، کما سیأتی تفصیله لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم بدراسة هذا الموضوع الأخلاقی المهم من جوانبه وابعاده المختلفة.

آیات الصبر:

۱- «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳». ۲- «وَجَآءُو عَلَی قَمِیصِهِ بِدَمٍ کَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنفُسُکُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَاللَّهُ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۵ الْمُسْتَعَانُ عَلَی مَاتَصِفُونَ» «۱». ۳- «وَإِسْمَاعِیلَ وَإِدْرِیسَ وَذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِینَ» «۲». ۴- «قَالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْرًا» «۳». ۵- «قَالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلقُواْ اللَّهِ کَم مِّن فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ» «۴». ۶- «فَاصْبِر کَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزم مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم کَانَّهُم یومَ یَرَونَ مَا یُوعَدُونَ لَمْ یَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ ...» «۵». ۷- «فَاصْبِر صَبراً جَمیلًا» «۶». ۸- «یأَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ» «۷». ۹- «یَا ایُّها الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِینَ» «۸». ۱۰- «قُلْ یَاعِبَادِ الَّذِینَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُواْ فِی هذِهِ الدُّنْیَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ

اللَّهِ وَا سِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۹». ۱۱- «سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۱۰». ۱۲- «أوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا» «۱۱». ۱۳- «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ا لْخَوْفِ وَا لْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَا لِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَا تِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۶ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» «۱». ۱۴- «.. وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَواْ بِالصَّبْرِ» «۲».

تفسير واستنتاج:

اسوة الصبر والمقاومة

«الآية الاولى تستعرض حياة أحد الأنبياء العظام الّذى صار مثلًا للصبر والاستقامة فى مواجهته للبلايا والمصائب فى الحياة، فى حياته الفردية والاجتماعية، ولهذا فإننا نقرأ فى حالاته وسيرته المذكورة فى سورة «ص» إن القرآن الكريم يضربه مثلًا للمسلمين فى أوائل البعثة الّذين كانوا يعيشون التحديات الصعبة والضغوط المستمرة من قِبل المشركين فى مكّة ويتعلموا منه درس الصبر والاستقامة والصمود فى مواجهة المشاكل والمصاعب المفروضة عليهم. وصحيح أنّ اسم النبى أيوب عليه السلام أو سيرته قد وردت فى عدّة سور فى القرآن الكريم، ولكنَّ ما ورد فى سورة «ص» يعدو شرحاً وافياً لسيرته الكريمة حيث تقول الآية ۴۴ من هذه السورة: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳». وهكذا واجه النبى أيوب عليه السلام مصائب عظيمة لغرض اختباره وامتحانه لمعرفة درجة شكره وطاعته للَّه‌تعالى وليصعد بهذا الطريق إلى مقامات سامية من القرب الإلهى، فقد كانت له ثروة كبيرة وبساتين وأغنام كثيرة وأبناء صالحون، ولكن كلّ ذلك فقده بين عشية وضحاها حتّى أبناءه أيضاً ونفس أيوب ابتلى بمرض شديد ومزمن إلى درجة انه كان يتلوى فى فراشه من شدّة الالم الّذى أوقعه فى الفراش أسيراً، ولكن أى واحدٍ من هذه الامور لم يستطع أن يقلل من شكره للَّه‌تعالى، ولم يتمكن أن يخدش فى صبره واستقامته فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۷ خط الإيمان والطاعة. هذا وقد سمع أيوب الكثير من التعريض به وبشخصيته، ولعلّ هذه المصيبة كانت عليه من أعظم المصائب، وأحياناً كان عُبّاد بنى إسرائيل ورهبانهم يأتون لرؤيته ويقولون له بصراحة: ما هو الذنب العظيم الّذى ارتكبته حتّى ابتلاك اللَّه بهذا الابتلاء والعذاب الشديد؟ ولكن هذا النبى العظيم لم يفقد صبره بل كان يعيش الانضباط الأخلاقى أمام نوازعه النفسية ويلهج لسانه بشكر اللَّه تعالى ويتعامل مع كلّ هذه المصائب من موقع الشكر لا من موقع كفران النعمة والشكوى والجزع، وبعد أن مضت عليه سنوات عديدة وهو يتحدى هذه الصعاب العظيمة دعا اللَّه تعالى لأن يكشف عنه هذا البلاء كما تقول الآية: «وَاذْكُر عَبْدَنا ايّوبَ اذ نَادى رَبَّهُ انّى مَسَّنِيَ الشَّيطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ». فعندما ختم هذا النبى العظيم جميع مراحل هذا الامتحان الإلهى الكبير ووقف أمام البلايا والمصائب المختلفة كجبلٍ من الصبر والاستقامة وأخجل الشيطان الرجيم من أن ينال منه ولو كلمة جزع وشكوى واحدة حتّى يئس منه، عندها فتح اللَّه تعالى أبواب رحمته عليه، وعاد عليه كلّ ما فقده من المال والأولاد والمواهب الدنيوية الاخرى بل ضاعفها له أضعافاً مضاعفة، والأهم من ذلك انه نال من ذلك مقاماً عظيماً فى دائرة القرب الإلهى ونال وسام «نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». وذكر المفسّر المعروف «ابن مسعود»: إن أيوب عليه السلام كان «رَأسُ الصَّابِرينَ الَى يَوم القِيامَةِ» «۱» وهكذا سجّل أيوب لنفسه هذا الشرف والافتخار على طول التاريخ البشرى. ولا ينبغى التساهل فى المرور على هذا المطلب، وهو أنّ إنساناً كان يتمتع بجميع الامكانات المادية والدنيوية، وفجأةً فقد كلّ شىء وجلس صفر اليدين حتّى انه لم يسلم من تعريضات قومه من الأصدقاء والأعداء وكناياتهم الموجعة الّتى كانت تؤلمهُ أكثر من طعنات السيوف والخناجر ومع ذلك لم يصدر منه حتّى كلمة واحدة على خلاف رضى اللَّه تعالى بل كان لسانه لهجاً بذكر اللَّه وشكره، وفى نهاية أمره قال كلمة واحدة تعبر عن دعاءه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۸ وتضرعه إلى اللَّه تعالى لا غير، وهى العبارة الّتى تصور البعض أنّها من قبيل الشكوى ولكنه خطأ فاحش لأنها لاتتضمن أى نوع وأى أثرٍ للشكوى فيها حيث تقول: «اذ نَادى رَبَّهُ انّى مَسَّنِيَ الشَّيطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ». وتأتى «الآية الثانية» لتستعرض صبر «النبى يعقوب» الّذى يُعد اسطورة فى الصبر والاستقامة، فقد فَقَدَ ابنه وأعز ما لديه فى الحياة، وهو «يوسف» الّذى كان يحبّه حبّاً جمّاً، وعاش سنوات مديدة بعينٍ باكية وصبرٍ عظيم حتّى انه عميت عيناه، ولكن

رغم ذلک فإنه لم تفلت منه کلمهٔ مخالفهٔ لرضی اللَّه تعالی وکان شاکراً وصابراً دائماً وکما تعبر الآیهٔ علی لسان یعقوب نفسه بکلمهٔ «صبرٌ جمیل» حیث تقول «وَجَآءُو عَلَی قَمِیصِهِ بِدَمٍ کَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنفُسُکُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَی مَاتَصِفُونَ» «۱». وهکذا نری إن الاخوهٔ الکذّابین غفلوا عن تمزیق قمیص یوسف عندما جاءوا به ملطخاً بالدم وقالوا لأبیهم إنّ الذئب قد أکل یوسف فی غفلهٔ منا، ولهذا لم یصدق یعقوب کلامهم هذا وقال: «بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنفُسُکُمْ أَمْرًا»، ولکن بما انه لم یکن یملک أی شیء اتجاه هذه الحادثهٔ المؤلمهٔ فاکتفی بالبکاء علی یوسف وقال: «فَصَبْرٌ جَمِیلٌ» أی الصبر المقترن مع الشکر للَّهعلی هذه المحنهٔ دون أن تمتد إلی قلبه حالهٔ الجزع الذمیمهٔ. وبالنسبهٔ لعبارهٔ «فَصَبْرٌ جَمِیلٌ» فللمفسّرین بیانات مختلفهٔ فی تفسیرها، فذهب البعض إلی أنّ «الصَبْرٌ الجَمِیلٌ» هو الصبر الّذی لا یخالطه الجزع ولا الشکوی للناس من المصیبهٔ، وذهب البعض الآخر إلی أنّ الصبر الجمیل أن یکون بدافع إلهی وطلباً لرضی اللَّه تعالی وقد ورد فی الروایات انه سُئل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن الصبر الجمیل ما هو؟ وقال «هُوَ الّذی لَا شَکْوَی مَعَهُ» «۲». وذهب آخرون إلی أنّ الصبر الجمیل هو ما لم یقترن مع الشکوی إلی الناس، وأجمل منه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۹ أن یعرض حاله علی اللَّه تعالی ویلتجی إلیه فی هذه المصیبهٔ ویؤدی حقّ الطاعهٔ والعبودیهٔ له. فعندما اعترض أبناء یعقوب علی أبیهم بسبب کثرهٔ البکاء علی یوسف وتذکره الدائم قال لهم إننی لا أشکو حالی إلی الناس وإلیکم بل «قَالَ انَّمَا أَشْکُوا بَثّی وَحُزْنِی الی اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ» «۱». «الآیهٔ الثالثهٔ» تتحدّث عن طائفهٔ اخری من الأنبیاء الإلهیین الّذین سلکوا فی دعوتهم لأقوامهم وفی مواجهةٔ المشکلات والمصاعب فی خطّ الاستقامهٔ والتحمل، من أجل ذلک فإنّ اللَّه تعالی أغرقهم برحمته وجعلهم فی زمرهٔ الصالحین: «وَإِسْمَاعِیلَ وَإِدْرِیسَ وَذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِینَ» «۲». أما صبر إسماعیل فواضح، وذلک بانه أوّلًا: استعد لأن یضحی بنفسه فی طاعهٔ اللَّه وامتثال أمره وامتثل لما أمره به أبوه من ذبحه کما أمر اللَّه، ولکن اللَّه تعالی شملهما بعنایته وأرسل لإبراهیم خروفاً أو کبشاً لیذبحه بدل إسماعیل. وثانیاً: لبقائه فی الصحراء المحرقهٔ فی منطقهٔ مکّهٔ وإلی جانب بیت اللَّه الحرام کی ما یقوی ویشتد أمر هذا المرکز الإلهی ویشیع أمرهُ بین الناس. وأمّا بالنسبهٔ إلی صبر إدریس فقیل: أنّه أوّل من بُعث من بین قومه یدعوهم إلی عبادهٔ اللَّه تعالی ولکنه بالرغم من ذلک واجه صعوبات کبیرهٔ فی هذا السبیل ولم یستجب له أحدٌ من قومه. وأمّا «ذی الکفل» فإنما سمی بهذا الاسم وصار فی زمرهٔ الصابرین الکبار من الأنبیاء الإلهیین فبسبب انه کان یعیش فی بنی إسرائیل، وکان یحکمهم نبیّاً من الأنبیاء، وفی یوم من الأیّام جاء الوحی إلی ذلک النبی وأخبره بحلول أجله وأنّ علیه أن یسلم مقالید الحکم إلی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۰ شخص آخر تتوفر فیه هذه الصفات الثلاثهٔ: أن یقوم فی کلّ لیلهٔ بالعبادهٔ والصلاهٔ، وأن یصوم کلّ یوم، وأن یحکم بین الناس دون أن یغضب، فقال شابٌ من المؤمنین: أنا أتکفل بکلّ هذه الامور، قال ذلک واستمر علی الوفاء بعهده والاتیان بهذه الثلاثهٔ (مع جمیع ما تتضمنها من مشاکل وصعوبات) وبذلک نال مقام النبی أیضاً فسُمی: ذی الکفل. أجل، فإنّ هؤلاء العظماء الثلاثهٔ کانوا اسطورهٔ للصبر والاستقامهٔ بحیث إنّ القرآن الکریم جعلهم اسوهٔ لجمیع المسلمین فی العالم وأشار إلیهم بذلک فی هذه الآیهٔ الکریمهٔ. وتتعرض «الآیهٔ الرابعهٔ» إلی الحدیث عن «قصهٔ موسی علیه السلام والخضر علیه السلام» ونقرأ فی هذه القصهٔ دروساً وعبراً مهمهٔ ونافعهٔ حیث جاء موسی علیه السلام إلی الخضر علیه السلام لطلب العلم وسأله أن یعلمه من العلوم والأسرار الإلهیهٔ، لأن هذه العلوم والأسرار هی غیر «علم الشریعهٔ» الّذی تلقاه موسی علیه السلام بطریق الوحی وکان علی اطلاع عام به، ولکنَّ تلک العلوم والمعارف متعلقهٔ بأسرار عالم التکوین والحوادث الواقعهٔ فی عالم الوجود، ولکن علی أیهٔ حال فإنّ الخضر علیه السلام کان قلقاً من عدم تحمل موسی علیه السلام بهذه العلوم والمعارف وقال له کما تذکر الآیهٔ «قَالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْرًا* وَکَیْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً» «۱». فکان أن وعد موسی علیه السلام معلمه بأن یصبر ویتریث ولا یعترض علی شیء، ولکن الحوادث والوقائع الّتی رآها فیما بعد کانت عجیبهٔ وغریبهٔ إلی درجهٔ أنّ موسی علیه السلام لم یطق صبراً إلی أن یخبره الخضر علیه السلام عن أسرارها، وفتح فمه بالاعتراض علی معلمه، فما کان من الخضر علیه السلام إلّاأن ذکره بوعده بالصبر والتریث، فاعتذر موسی علیه السلام بذلک ولکنه فی المرّهٔ الثالثهٔ قرر الانفصال إلی الأبد. وهذه القصهٔ العجیبهٔ تتضمن دروساً ومعارف کثیرهٔ، ولکن ما یرتبط ببحثنا هذا هو أنّ

موسـی علیه السلام لو صبر أكثر ولـم يعترض علی الخضر علیه السلام لكان يكتشف أسراراً جديدة ويزداد علماً إلی علمه، ولكن عدم صبره هـذا تسـبب بـأن لاـ يتعلم سوی ثلاثـة امورٍ فقـط، فی حين انه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۱ وكما يقول بعض المفسّـرين المعروفين أنّ موسی علیه السلام لو صبر أكثر لكان يتعلم من الخضر علیه السلام آلاف الأسرار والمعارف الموجودة فی عالم التكوين والخلقـة. وعلی هذا فإنّ الصبر يعد أحد مفاتيح العلوم والمعارف. ويمكن أن يتساءل البعض: ألم يكن الأنبياء أعلم الناس فی زمانهم؟ فكيـف طلب موسـی من اللَّه تعـالی أن يتعلم بعض العلـوم من الخضـر وحـتّی انه فـارقه بعـد ذلـك ولم يتعلم منه سـوی بعض الامـور والأسـرار القليلـة؟ والجواب علی هذا السؤال واضح، وهو أنّ كلّ نبی يجب أن يكون أعلم الناس بالنسـبة إلی دائرة مهمته ووظيفته فی تحمل مسؤولية الدعوة إلی اللَّه وهداية الناس إلی الحقّ، وهكذا كان موسـی أعلم الناس بنظام الشريعة والدين، ولكنَّ مسؤولية الخضر ودائرة علومه ترتبط بعالم التكوين وعمله وهو كعمل الملائكـة «المدبرات أمراً» المأمورين بتدبير عالم الوجود، ولهذا فإنّ الأعمال الّتی صـدرت من الخضـر قـد لا تكون مطابقة لموازين الشـرع فی الظاهر حتّی أنّ موسـی علیه السـلام اعترض علیه فی ذلك، ولكن عندما شرح الخضر علیه السلام الأسرار الكامنة فی أعماله قبل موسی علیه السلام منه ورضی بذلك. وأساساً فإنّ القوانين الحاكمة علی عالم التكوين رغم أنّها تصب فی نتيجـة واحـدة مع قوانين عالم التشـريع إلّاآنها منفصـلة عنها فی الظاهر، ولهـذا السـبب فإنّ صداقـة موسـی والخضـر علیهما السلام لم تدم طويلًا. ومن الممكن أنّ أن يكون لبعض الأنبياء وكذلك الأئمّة إحاطة بأسرار عالم التكوين أيضاً «كما يستفاد ذلك من الروايات بالنسبة إلی نبی الإسلام والأئمّة المعصومين علیهم السلام» ولكن هذا الأمر لا لزوم له فی توكيد مرتبة النبوة للأنبياء وكذلك مرتبة الإمامة للأئمّة لأن ذلك يعد مجرد فضـيلة لا شرطاً للرسالة والإمامة. «الآية الخامسة» تتحدّث عن أحد أنبياء بنی إسرائيل الّذی ورد اسمه فی التفاسير والتواريخ انه «اشموئيل» لكی يعين لهم رئيساً وقائداً للجيش ليحاربوا معه جالوت، فاختار الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۲ لهم رجلًا يدعی «طالوت» لانه يمتاز ببعض المميزات والصـفات الإيجابية الموجودة فيه بتفاصـيل قد تخرج عن موضوع هذا البحث. وعندما جاء طالوت بذلك الجيش العظيم من بنی إسـرائيل لحرب جالوت أدرك جيداً بفراسة من اللَّه تعالی أنّ هـذا الجيش العظيم غير قابـل للاعتمـاد، لاـنه رأی كـثيراً من أفراده يعيشون حالـة الكسـل والخمول وعـدم الهمـة، فمضافاً إلی أنّ وجودهم ليس فقط لا يبعث علی تقوية الجيش، بل سيؤدی إلی تضعيف روحية الآخرين أيضاً، لذا عزم علی تصفية جيشه بالعديد من الاختبارات والامتحانات، وبعـد أن نجـح فی ذلك وأتم اختباره لجيشه لم يبق منه إلّاعـدّة قليلـة. وهـذه الفئة القليلة كانت تعيش القلق والاضـطراب من قلّة الأفراد، فكان أحدهم يقول للآخر: نحن لا نسـتطيع مقاومة جيش جالوت العظيم ولا نتمكن من الصمود أمام قوته وجحـافله، ولكنَّ البعض منهم كمـا يقول القرآن الكريم «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَقُواْ اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» «۱». ثمّ إن هـذه الفئـة القليلـة عنـدما برزوا لجـالوت دعوا اللَّه تعالی أن يرزقهم حسن الصبر كما تقول الآيـة: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «۲». وعلی هـذا فقد اثبتوا أنّ الجماعة الكثيرة للجنود والجيش العظيم إذا كانوا فارغين من الدوافع المعنوية والاسـتقامة والصبر فإنّهم سينالهم الفشل الذريع فی ميدان القتال، بخلاـف الفئـة القليلـة، الّتی تعيش الاسـتقامة والصبر والثبـات فـإنه يمكنهـا الانتصـار علی الجيش العظيم فی العـدّة والعـدد، وبـذلك اسـتطاعت هذه العدّة القليلة مع قائدهم طالوت بالانتصار علی جالوت وجنوده الكثيرين ويهزموهم شـرَّ هزيمة، وهناك قتل داود الّذی كـان شاباً قويـاً فی جيش طالوت، «جالوت» واسـتطاع بنو إسـرائيل العودة إلی ديارهم وأهليهم فتخلصوا من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۳ سيطرة عـدوهم جالوت وتحرروا من أسره، وبهـذا فقـد خلفوا للتاريـخ البشـری درساً آخر عن أهمية الصبر والاسـتقامة فی سلوكهم العملی. ويسـتفاد من هـذه الآيـات الشـريفة أنّ التوكـل علی اللَّه بالإيمـان بالآخرة والثواب الإلهی يشـكل دعامـة قويـة للصبر والاســتقامة فی واقـع النفس، ونقرأ فی بعض الروايـات أنّ عـدد جيش جـالوت ۳۱۳ نفراً كما كان أصـحاب بـدر كـذلك فی العدد، واللطيف أنّ داود مع صـغر سـنه ولكنّه كان مسـلحاً بقوّة الإيمان، وكان قد أخذ معه مقلاعاً وعدّة أحجار ورمی بأحدها باتجاه جالوت فأصابته بجبينه وخرَّ جالوت صـريعاً بسـبب ذلك، فلمّا رأی جيشه ذلك أسـرعوا بالفرار يحدوهم خوف عظيم وتلاشـی ذلك الجيش

الكبير الّذى يبلغ عدده كما ورد فى بعض الروايات «منه ألف نفر» مسلحين بأنواع الأسلحة. وتستعرض «الآية السادسة» خطاب اللَّه تعالى للنبى الكريم صلى الله عليه و آله موصيةً له بالاستقامة وأن يقتدى بذلك بسيرة الأنبياء اولى العزم من قبله وتقول: «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاـ تَستَعْجِلْ لَهُم ...» «۱». ورغم أنّ هذه الآية الشريفة تتحدّث عن الصبر والتأنى فى مقابل طلب نزول العذاب الإلهى على المخالفين والأعداء إلى أن تتم الحجّة عليهم فلعلّه يوجد من بينهم من له رغبة فى سلوك طريق الحقّ ويهتدى بالتالى إلى الإيمان ويكون فى زمرة السعداء، ولكن هذا الأمر الإلهى بمثابة دستور عام ودليل واضح على فضيلة الصبر بعنوان منهج عام لجميع الأنبياء من اولى العزم. أجل فإنّ جميع الأنبياء العظام وأصحاب الشرائع السماوية عندما كانوا يواجهون أعدائهم المعاندين والأشخاص الّذين يعيشون الجهل والسفه والعناد كانوا يتسلحون بالصبر والاستقامة أكثر ليتمكوا من هداية الامّة إلى ساحل النجاة بصورة أفضل. النبى نوح عليه السلام دعا قومه إلى طاعة اللَّه «۹۵۰ سنة» ليل نهار فى الخفاء والاجهار الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۴ ووعظهم وحذرهم طيلة هذه المدّة المديدة ولكنه لم يؤمن له سوى بضع أفراد معدودين. النبى إبراهيم عليه السلام أُلقى فى النار الملتهبة، والنبى موسى عليه السلام تعرض هو والمؤمنين من قومه إلى أشد العذاب من قبل فرعون وأتباعه، وكذلك ما واجهه عيسى عليه السلام من بنى إسرائيل من الأذى والاتهام والطرد إلى أن أرادوا صلبه وقتله ولكن اللَّه تعالى انقذه فى اللحظة الأخيرة، والخلاصة أنّ الحياة الدنيا هى دائماً محل التضاد بين الحقّ والباطل حيث لا يمكن التغلب على المشكلات والمصاعب الّتى يواجهها الإنسان فى حركة الحياة إلّابقوّة الصبر والاستقامة. امّا المراد من الأنبياء اولى العزم من هم؟ فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ المراد به هم الأنبياء الّذين يأتون بشريعة جديدة وعددهم مع نبى الإسلام خمسة أشخاص، وامّا اختيار هذا الأسم والعنوان لهم فهو من أجل ارادتهم القوية وعزمهم القاطع فى الدعوة إلى الحقّ وهداية الناس إلى اللَّه تعالى، ولا شكّ أنّ هذه الفئة من الأنبياء كانوا يواجهون من المشاكل والمصاعب فى حركة التغيير بالرسالة الإلهية أكثر من غيرهم، لأن عرض شريعة جديدة تتقاطع مع كلّ ما يألفه الناس من الشرائع والقوانين السائدة لديهم يتضمّن مشكلات كثيرة وصعوبات يقوم بها المتعصبون من هذه الأقوام البشرية. وذهب بعضٌ آخر إلى أنّ عددهم «۱۸ نفر» حيث ورد اسمهم فى الآيات ۸۳ إلى ۹۰ من سورة الأنعام، وذهب البعض الآخر إلى أنّهم تسعة أشخاص، وآخرون إلى سبعة أشخاص، بينما ذهب البعض إلى ستة أشخاص، وبعض قال بأنّهم خمسة أشخاص، وذكر آخرون أنّ جميع الأنبياء الإلهيين هم «اولى العزم»، لأنهم يرون أنّ جميعهم يتمتعون بالعزم الراسخ فى أداء المسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقهم، ولكنَّ القول الأخير بعيد حسب الظاهر، وسائر الأقوال لا دليل عليها سوى ما ورد من الروايات الشريفة عن المعصومين عليهم السلام فى تفسير هذه الآية وأنّ عددهم مع نبى الإسلام هو خمسة أشخاص. وأما «الآية السابعة» فتعود لتخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من موقع الأمر بالصبر مقابل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۵ استهزاء وتكذيب المشركين واذاهم وتقول: «فَاصْبِر صَبراً جَميلًا» «۱». وقد ذكر المفسّرون فى تفسير «صبراً جميلًا» تفاسير مختلفة وقد تقدّم البحث عنها فى تفسير الآية الثانية فى هذا البحث وسنتابع الكلام فيها فى حديثٍ آخر لاحقاً، ويقول الإمام الباقر عليه السلام فى الجواب عن معنى الصبر الجميل فى هذه الآية، «صَبْرٌ لَيْسَ فِيهِ شَكْوىً الَى النّاسِ» «۲». وفى «الآية الثامنة» يخاطب اللَّه تعالى جميع المؤمنين ويأمرهم بالصبر والمثابرة وأنّ ذلك هو مفتاح السعادة والنجاة ويقول «يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۳». فنقرأ فى هذه الآية أربع أوامر تمثل مفتاح السعادة ومصدر الخيرات والبركات على الإنسان فى حياته المادية والمعنوية. الأوّل: الصبر والاستقامة والصمود أمام الحوادث والمشكلات والمصائب والموانع الّتى يجدها الإنسان فى حركته الدنيوية لتحديات الواقع وصعوبة الظروف. الثانى: المصابرة، وهى من باب «مفاعلة» وتأتى بمعنى الصبر والاستقامة مقابل صبر واستقامة الآخرين، وفى الحقيقة فإنّ الدستور الأوّل ناظرٌ إلى الصبر والاستقامة أمام أنواع المشكلات والحوادث الّتى يفرضها الواقع على الإنسان، أما الدستور الثانى فناظرٌ إلى الصبر والاستقامة أمام الأعداء، وعليه فكلّما بذل الأعداء جهداً فى سبيل المقاومة فى ميدان القتال، فعلى المؤمنين أن يبذلوا جهداً أكبر من ذلك ويعيشوا الصبر بأقوى ممّا لدى العدو كى ينالوا النصر والغلبة عليه. «رابطوا» من مادّة «مرابطة» وهى فى الأصل من «رباط» بمعنى شد الشىء إلى مكان معين، وتستعمل هذه

المفردة «مرابطة» عادةً بمعنى مراقبة الحدود والثغور لأن جنود الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۶ الإسلام يضعون مراكبهم وأدوات حربهم وامتعتهم فى ذلك المكان. وآخر دستور إلهى فى هذه الآية هو الأمر بتقوى اللَّه الّذى هو من قبيل الخيمة الّتى تستوعب بظلّها جميع الأوامر والدساتير السابقة، فعندما يكون الصبر والمصابرة والمرابطة من أجل اللَّه وبعيداً عن أى أشكال الرياء والأمراض الشخصية وتكون مقترنة بالتقوى فإنّ ذلك سيتسبب فى الفلاح والنجاة فى الدنيا والآخرة. بعض المفسّرين ذكر فى تفسير «المصابرة» أنّها الصمود ومقاومة العادات والأهواء النفسانية، لانها تقف فى المقابل أمام الإنسان لتمنعه من سلوك طريق الهدى والصلاح والسير فى خطّ التقوى والإيمان، فيجب على الإنسان أن يقف فى مقابلها بالمثل، وقالوا فى تفسير «المرابطة» أنّ المراد منها هو ربط النفس بطاعة اللَّه أو ربط القلب باللَّه تعالى وقد نقل عن أحد العرفاء انه كان يتجه إلى الحجّ مشياً على الأقدام، فالتقى بأعرابى راكباً جمله فقال له الأعرابى: أين تذهب يا شيخ؟ فقال له: إلى بيت اللَّه الحرام. فقال: لماذا أنت راجل؟ فقال: بل لدى مراكب كثيرة، فتعجب الأعرابى من ذلك فسألة: وما هى هذه المراكب؟ فقال العابد: عندما تنزل علىّ مصيبة فسأركب مركب الصبر، وعندما تنزل علىّ نعمة أركب مركب الشكر، وعندما يداهمنى القضاء والقدر أركب مركب الرضا، وعندما تطغى نفسى وتطلب منى شيئاً فأعلم أنّه لم يبق من عمرى شىء وما مضى منه أكثر ممّا بقى. فقال الأعرابى: فى الواقع أنت الراكب وأنا الراجل والسلام عليكم، فودعه وانصرف. «الآية التاسعة» تخاطب جميع المؤمنين بتعبيرٍ جديد وتتحرك ضمن توصيتهم بأن يلتزموا الصبر ويستعينوا بالاستقامة والتحمل فى مقابل تحديات الواقع الصعبة والمشكلات المفروضة عليهم وتقول: «يَا ايُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» «۱». وهذه الآية لها مفهوم واسع بحيث تشمل كلّ أشكال الصبر والاستقامة، سواءٌ الصبر على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۷ الطاعة أو الصبر على المعصية أو الصبر على المصيبة، فتوجب على الإنسان أن يستعين بكلّ عمل مهم بالصبر سواءً كان ذلك العمل هو الجهاد فى سبيل اللَّه أو غير ذلك، فلابدّ من الاستعانة بأحد أقسام الصبر بما يتناسب مع المشكلة الّتى تواجه الإنسان. ولابدّ من القول فى من فسّر الصبر بالصوم أنّ الصوم أحد المصاديق البارزة للصبر لا أنّه يستوعب جميع مفهوم الصبر فى هذه الآية الشريفة. وهنا يثار سؤال، وهو أنّه ما هى الرابطة بين الصبر بمعناه الواسع، وبين الصلاة؟ ذكر بعض المفسّرين فى مقام الجواب أنّ الرابطة بينهما هو أنّ الإنسان قد يفقد صبره أحياناً أو يتضعضع أمام المشكلات وضغط الواقع الصعب فتأتى الصلاة لتمنحه قوّة القلب الإرادة والعزم والتوكل على اللَّه تعالى، وبذلك فإنّ الصلاة تزيد الإنسان قوّة فى عملية الصبر والمقاومة. وبتعبير آخر: عندما يتجه الإنسان إلى البارى تعالى من خلال الصلاة فإنه يجد نفسه مرتبطاً بالقدرة اللامتناهية والحقّ الأزلى، وهذا العمل يزيد من مقاومة الإنسان فى مقابل المشكلات بحيث يبلغ به مرتبة أن يتغلب على جميع ما يواجهه من صعوبات ومشاكل ويستمر فى خط الاستقامة والتحمل والمثابرة، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأحياناً عن أميرالمؤمنين عليه السلام، وكلا الحديثين صحيحان من حيث السند: «اذَا أَهَالَهُ أَمْرٌ فَزِعٌ، قَامَ الى الصَّلَوةِ ثُمَّ تَلى هَذِهِ الآيَةِ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ «۱»» «۲». وعلى أية حال فإنّ هذه الآية من أوضح الآيات القرآنية الّتى تبيّن أهمية الصبر وكونه عاملًا مهماً فى نجاح الإنسان فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية. «الآية العاشرة» تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله «من جانب اللَّه تعالى» بأن يقول لجميع عباده المؤمنين: «قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۸ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۱». وهذه الآية الشريفة تدلّ من جهة على أنّ الإنسان يجب عليه أن يستعين بقوّة الصبر والاستقامة فى مقابل الصعوبات الّتى يفرضها الواقع وتفرضها عليه عملية الصراع مع الظالمين والجبابرة، لأنّه بدون ذلك فلا يوجد منفذ أمام الإنسان سوى الاستسلام للظالمين وقوى الإنحراف والخضوع لهم. ومن جهة اخرى فإنّها تشير إلى ثواب الصابرين عند اللَّه وأنّه لا يقبل العد والحساب. عبارة «بغير حساب» تشير إلى أنّ اللَّه تعالى سوف يجازى هؤلاء الصابرين بالثواب العظيم إلى درجة أنّ أحداً لا يقدر على عدّه واحصائه إلّااللَّه تعالى، ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه أنّه قال: «إذا نشرت الدواوين ونُصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان، ثمّ تلا هذه الآية: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۲». وهذه العبارة «بغير حساب» وردت فى

آیات متعـددة اغلبها یتعلق بالرزق الـدنیوی الکثیر الّـذی یهبه اللَّه تعالی لبعض الناس، ولکن فقط فی هذه «الآیة ۴۰ من سورة المؤمن» فتتحـدّث عن الثواب الإلهی للمؤمن والصابر یوم القیامـة، ومن المعلوم انه إذا کان الرزق الـدنیوی بـدون حساب فإنّ ذلک لا یعنی انه یتنـاسب مع کمیـة العمـل أو کیفیته، بـل یتنـاسب مع لطف اللَّه تعالی وعنایته لعبـده، وبالتالی تکون ثمرته سامیـة جـداً فی مقام القرب الإلـهی والکمال المعنوی. ونقرأ فی «الآیـة الحادیـة عشـر» تعبیراً جمیلًا جـداً عن أهمیـة الصبر والاسـتقامة، وذلک أنّ الملائکـة عنـدما تستقبل أهـل الجنّة من کـلّ بـاب یردون إلیها یقولون لهم: «سَلَامٌ عَلَیْکُمْ بِمَا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۹ صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدَّارُ» «۱». واللطیف أنّ الملائکة هنا أشاروا من بین جمیع الأعمال والطاعات والعبادات الّتی أتی بها أهل الجنّة إلی الصبر والاسـتقامة لأن ذلک کان سبب دخولهم الجنّة، ولو دققنا النظر لرأینا أنّ الصبر بحد ذاته له دورٌ مهم فی سعادة الإنسان ونجاته فی الآخرة ودخوله الجنّة لانه بدون الصبر فلا یستطیع الإنسان أن یتوقی من الذنوب ولا یؤدی العبادات والطاعات ولاجهاد النفس أو جهاد الأعداء، ولهذا السبب فإنّ الملائکـة فی أوّل سـلام وتبریک لهؤلاء ذکروا مسألة الصبر. والشاهد علی هذا الکلام أنّ جمیع الطاعات یأتی بها الإنسان فی ظلّ عنصر الصبر ونقرأ فی الآیة ۲۲ من هذه السورة قوله تعالی: «وَالَّذِینَ صَبَرُوا ابتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَاقَامُوا الصَّلَوةَ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِیَةً وَیَدْرَئُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ ...». وجاء فی تفسیر هذه الآیة حدیثاً جمیلًا عن الإمام علی بن الحسین علیه السلام أنّه قال: «إذا کـان یوم القیامـة ینـادی منـاد: لیقم أهـل الصبر، فیقوم جمعی من الناس فیقال لهم: انطلقوا إلی الجنـة، فتتلقاهم الملائکـة فیقولون إلی أین؟ فیقولون: إلی الجنـة. قـالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، فیقولون: من أنتم؟ فیقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما کان صبرکم؟ قالوا: صبرنـا أنفسنا علی طاعـة اللَّه، وصبرناهـا عن معاصـی اللَّه، وصبرناها علی البلاء والمحن فی الـدنیا، قال علی بن الحسین علیه السـلام: فتقول لهم الملائکـة: «سـلام علیکم بمـا صبرتم فنعم أجر العاملین» «۲». وذکر بعض رواة هـذا الحـدیث أنّ الملائکة تقول لهم: «سَلَامٌ عَلَیْکُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» «۳». «الآیة الثانیة عشـر» تکرر هذا المطلب بصورة جذابة، وهذه الآیة هی استمرار للآیات الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۰ الّتی تحدّثت عن صـفات «عباد الرحمان» واسـتعرضت فی سیاقها اثنی عشـر صـفة ایجابیة تبین شخصیتهم السامیة فی جمیع الأبعاد «اولَئِکَ یُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَروا وَیُلَقَّوْنَ فِیهَا تَحِیَّةً وَسَلاماً» «۱». «غُرفة» من مادّة «غَرْفَ» علی وزن «ظرف» بمعنی حمل الشـیء وأخـذه بالیـد ولـذلک یقال لمن یتناول الماء من العین بیـده انه: اغترف من الماء، وکـذلک تطلق هذه الکلمة علی الأقسام العلویة من البناء فیقال لها «غرفـة» وفی هـذه الآیـة اطلقت هـذه الکلمة علی أعلی المنازل فی الجنّة وأنّها من نصـیب الصابرین. ویستفاد من تعبیر الآیة أعلاه أنّ الصبر هو العنصر المشترک الممتد فی جمیع الصفات الاثنی عشر لهؤلاء العباد المخلصین «عباد الرحمان». وتأتی «الآیة الثالثة عشـر» وهی من الآیـات المعروفـة فی مسألـة الصبر لتثیر فی أجواء الصـابرین البشـارة بالثواب الإلهی الجزیل وتقول: «وَلَنَبْلُوَنَّکُم بِشَیْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِینَ* الَّذِینَ اذَا اصَابَتْهُمْ مُصیبَةٌ قَالُوا انَّا لِلَّهِ وَانَّا الَیهِ رَاجِعُونَ* اولئِکَ عَلَیْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَاولَئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» «۲». وبالرغم من أنّ هذه الآیات تشیر إلی غصن واحد من اغصان شـجرة الصبر، وهو الصبر علی المصائب والمشـکلات، ولکن تتضـح أهمیة ذلک من خلال ما یترتب علی هذا اللون من الصبر من صلوات اللَّه ورحمته علی هؤلاء الصابرین وأنّهم یسیرون فی خطّ الهدایـة والاسـتقامة والتـوجه إلی اللَّه تعـالی من خلال حـالة الاسـتقامة والصبر أمام البلایا والمصائب. فنظراً إلی أنّ الامتحان الإلهی للإنسان فی هذا العالم الدنیوی یُعد من السنن الحتمیة فی عالم التکوین، وأنّ العبور من هذا النفق والوادی العسیر لا یتسنّی ألا بالاسـتعانة بالصبر، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۱ وحینئذٍ یتضح دور الصبر والاسـتقامة فی حرکـة الحیاة الدنیویـة والنتائـج المترتبة علی ذلک، فما أعظم أن یجد الإنسان نفسه مشـمولًا بثلاث عنایات إلهیة فی مقابل الصبر وهی: الاولی: الصلـوات والتحیات الإلهیة من النوع الّذی یصلی فیه اللَّه تعالی علی نبیّه الکریم، ثمّ شمول رحمته الواسـعة لهذا الإنسان ودخوله فی دائرة اللطف الإلهی، والأهم من ذلک أنّ الهدایة الإلهیة سـتکون من نصیب هؤلاء والّتی هی مصدر جمیع النعم والمواهب وأشـکال السـعادة الدنیویـة والاخرویـة. وأما لماذا وردت کلمـة «صـلوات» بصورة جمع؟ هنا ذکر تفسـیران کلّ منهمـا محتمـل فی معنی الآیـة، الأوّل أنّ ذلـک إشـارة إلی أنواع الاکرام الإلهی والاحترام الربانی لهؤلاء، والآخر انه إشارة إلی تکرار

هـذه العملیة وأنّ اللّه یصـلّی علیهم عدّة مرّات، اما التعبیر بالرحمة بصورة نکرة فهو إشارة إلی الأهمیة والعظمة لهذه النعمة. واما الفرق بین الصـلوات والرحمة فقد ذکر البعض أنّ الصـلوات إشارة إلی مدح اللّه ولطفه ومغفرته، فی حین أنّ الرحمة إشارة إلی النعم المادیة والمعنویة فی الدنیا والآخرة. «الآیة الرابعة عشر» والأخیرة من الآیات مورد البحث والّتی وردت فی سورة العصـر فإنّها ضـمن بیان هذه الحقیقـة، وهی أنّ جمیع الناس سـیکون مصیرهم إلی الخسـران حتماً ما عدا الأشـخاص الّذین یتمتعون بأربع صـفات، وأحدها: الصبر والاسـتقامة وتقـول «وَالْعَصْرِ* انَّ الْانْسَانَ لَفِی خُسْرٍ* الَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» «۱». جملة «تواصوا» من مادّة «تواصـی» وتشـیر إلی انه ینبغی علی المؤمنین بعـد الإیمان والمعرفـة والعمل الصالـح أن یتحرکوا من موقع التکاتف والتعـاون لاحقـاق الحقوق والانصـاف والعدالـة فی التعامل مع الغیر والتوصـیة بـذلک فیما بینهم، لأنّ إحقاق الحقّ واجراء العدالـة فی المجتمع الإنسـانی لا یتسنّی إلّابالاسـتقامة والصبر أمام تحـدیات الواقع الصـعبة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۲ والموانع العسیرة، ولـذلک أوصت الآیة الشـریفة بالصبر علی مستوی العامل الرابع من العوامل المؤدیة إلی النجاة، وفی الحقیقة أنّ هذا العامل هو دعامة وأساس للعوامل الثلاثـة الاخری، وعلیه فإنّ الصبر یعـد أحد الأرکان الأصـلیة لسعادة الناس وتحرکهم فی خطّ الإیمان وتعمیق شـجرة الأخلاـق والصـلاح فی قلوبهم، وبـدونه سوف لاـ تثمر القیم الأخلاقیـة والأعمال الصالحـة فی واقع الإنسان والمجتمع شـیئاً، ولا یمکن احقـاق الحقوق واجراء العدالـة فی المجتمع البشـری، ولا شکّ أنّ احقاق الحقوق واجراء العدالـة یعـد من أهم الامور والوظائف، لأنّه أحیاناً یکون الحقّ فی الطرف المقابل للإنسان أو لأحـد أحبته وأقربائه، وهنا تکون اجراء العدالـة والعمل بالحقّ بحاجة إلی الاسـتمداد والاسترفاد من عنصـر الصبر. ومن مجموع ما تقـدّم من الآیات الشـریفة تتضح هذه الحقیقة، وهی أنّ أهمیة الصبر والاسـتقامة والمثابرة فی خطّ العدالـة والحقّ إلی درجة من الأهمیة أکثر ممّا نتصور، وکما یقول بعض المفسّـرین أنّ الصبر فی القرآن الکریم ورد أکثر من سبعین مرّة أو تکرر بما یقرب من مئة مرة، فی حین اننا لا نجد فضـیلة من الفضائل الأخلاقیة والإنسانیة قد وردت بمثل هذا التأکید فی الکتـاب العزیز، وهـذا إنمـا یـدلّ علی أنّ القرآن الکریم یولی هـذه الفضـیلة الأخلاقیـة أهمیـة کـبیرة ویعـدها عصـارة جمیع الفضـائل والأساس لجمیع أشکال السعادة الدنیویة والاخرویة والاداة الحاسمة للوصول إلی أی نوع من أنواع الفلاح والنجاح والموفقیة.

الصبر فی الأحادیث الإسلامیة:

وکما یقول بعض علماء الأخلاق أنّ الروایات الواردة عن المعصومین علیهم السـلام فی فضـیلة الصبر والاسـتقامة أکثر من أن تحصـی وقـد ورد فی بعض الکتب الأخلاقیة ما یقرب من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۳ تسعمائة حدیثاً عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السـلام فی هذا الموضوع، ولذلک نختار بعض النماذج من هذه الأحایث الشریفة لنستوحی منها دورساً فی هذه الفضیلة: ۱- قـال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله «الصَّبْرُ خَیْرُ مَرْکَبٍ مَا رَزَقَ اللَّهُ عَبْداً خَیراً لَهُ وَلَا اوسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» «۱». وعبارة «خیرُ مرکب» الواردة فی هذا الحدیث الشـریف تشیر إلی أنّ الصبر هو أفضل وسیلة للوصول إلی السعادة والنجاة وأنّ الإنسان بدونه لا یصل إلی شـیء من المقامات الاجتماعیـة والمعنویة فی الدنیا والآخرة. ۲- وعن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قـال: «عَلَیْکُم بِالصَّبْرِ فَانَّ الصَّبْرَ مِنَ الْایمَانِ کَالرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ» «۲». وهـذا الحـدیث یـدلّ علی أنّ الصبر یعـد مفتاحاً لجمیع الأبعاد الحیویـة فی حرکة الإنسان المادیـة والمعنویـة، ولهـذا ورد فی ذیل الحدیث المذکور «لا ایمانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ». ۳- وفی حـدیث آخر عن هذا الإمام علیه السـلام أیضـاً أنّه قـال: «لاـ یَعْدِمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ و انْ طَالَ بِهِ الزَّمـانُ» «۳». ومع الالتفـات إلی أنّ الصـبر ذکر هنـا بشـکل مطلق وکـذلک الظفر والنصب، فهذا یدلّ علی أنّ هذه الحکم یستوعب جمیع الأبعاد المادیة والمعنویة فی حیاة الإنسان. ۴- وقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی باب الصبر «الصَّبْرُ نِصْفُ الإیمانِ» «۴». وجاء فی بعض الروایات الاخری أنّ نصف الإیمان هو الشکر والنصف الآخر هو الصبر. أی الصـبر والاسـتقامة للوصول إلی النعم والمواهب الإلهیـة ثمّ الشـکر علی هـذه النعمـة، أی الاسـتفادة الصـحیحة من المواهب والنعم الإلهیة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۴ ومن الواضـح أنّ هـذا الحـدیث لا یتنافی مع الأحادیث السابقة، لأنّه کما تقدّم أنّ المؤمن

إذا لم يتمسك بالصبر فإنّ إيمانه سوف يتعرض للاهتزاز والارتباك بسبب الموانع الكثيرة الّتى يجدها فى طريقه، وكذلك لو لم يكن شكوراً على نعم اللّه تعالى، فإنّ هـذه النعم ستزول وتهرب من يده كما ورد فى الآية: «وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ انَّ عَذَابِى لَشَدِيد». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» «۱». ۶- ودليل هـذا المعنى ما ورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام يوضح هذا المعنى ويقول «الصَّبْرُ عَوْنٌ عَلى كُلِّ امْرٍ» «۲». لأنّه كما تعلمون أنّ نظام الحياة فى الدين والدنيا يضع أمام كلّ عملٍ مهم بعض الموانع الّتى لايتجاوزها ولا يعبرها إلّابالاستعانة بالصبر والاستقامة. ۷- اما بالنسبة للصبر عند المعصية فورد فى الحديث الشريف «وَمَنْ صَبَرَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبيلِ اللَّهِ» «۳». أجل فكليهما مجاهد فى سبيل اللّه، مع فارق أنّ أحدهما يجاهد العدو الخارجى «الجهاد الأصغر» والآخر يجاهد العدو الداخلى «الجهاد الأكبر». ۸- وورد فى حديثٍ آخر عن أميرالمؤمنين قوله: «انْ صَبَرْتَ ادْرَكْتَ بِصَبْرِكَ مَنازِلَ الابْرارِ وَان جَزَعْتَ اوْرَدَكَ جَزَعَكَ عَذابَ النّارِ» «۴». ۹- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال فى الصبر فى مقابل البلايا والمصائب «مَن ابْتُلى مِنَ المُؤمِنينَ بِبَلاءٍ فَصَبَرَ عَلَيهِ كَان لَهُ مَثَلُ اجرِ الْفِ شَهِيدٍ» «۵». ويقول العلّامة المجلسى بعد ذكر هذا الحديث فى الجزء ۶۸ من بحار الأنوار انه كيف يعقل أنّ للصبر مثل هـذا الثواب فى حين أنّ للشهيد بنفسه أحد الصابرين لانه صبر أمام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۵ العدو حتّى استشهد؟ ويمكن فى مقام الجواب عن هذا السؤال أن نقول: إنّ الشهيد يصبر أمام هجوم الأعداء، وهؤلاء الصابرون إنما يصبرون فى مقابل الصعوبات المرة الّتى تعترضهم فى الحياة من قبيل أنواع المرض، الفشل، وفقد الأحبّة وأمثال ذلك. والدليل الآخر على أفضلية الصابر بالنسبة إلى الشهيد هو أنّ الشهادة تحدث مرة واحدة للإنسان، ولكنَّ صعوبات الحياة تتكرر آلاف المرات. ۱۰- ويقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالنسبة إلى الثواب المعنوى للصابرين «مَنْ ابْتُلِىَ فَصَبَرَ وَاعْطِىَ فَشَكَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ اولَئِكَ لَهُم الْامْنُ وَهُم مُهتَدونَ» «۱». ۱۱- ويقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «الصَّبْرُ يُظْهِرُ مَا فِى بَوَاطِنِ العِبادِ مِنَ النُّورِ وَالصَّفاءِ والْجَزَعُ يُظْهِرُ مَا فِى بَوَاطِنِهِم مِنَ الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشَةِ» «۲». ۱۲- ونختم هذا البحث عن أحاديث الصبر بحديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول «الصَّبْرُ مَطَيِّةٌ لا تَكبُوا وَالقَناعَةُ سَيفٌ لا يَنْبُوا» «۳».

معطيات الصبر ونتائجه:

كما تقدّم فى المباحث السابقة فإنّ طبيعة الحياة الدنيا تقترن بالموانع والمشكلات والبلايا، فلو أنّ الإنسان لم يلتزم بالمقررات والقوانين الّتى تنسجم مع هذه الحياة ويحل بذلك ما يواجهه من مشكلات فإنّه سوف لايصل إلى مقصده ولا يحقق غايته، وكذلك فإنّ الآفات والمصائب موجودة فى ضمن النعم والمواهب وتتسبب فى فقدها أو الاضرار بها من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۶ قبيل المصائب الّتى تواجه الإنسان فى أولاده وأقربائه وأمثال ذلك. فالإنسان بدون الاستعانة بالصبر والاستقامة سوف لا يتمكن من سلوك طريق الكمال والسعادة فى بعده الإيجابى، وكذلك لا يتمكن من الصمود أمام عناصر الشّر فى حركة الحياة، ولهذا السبب فإنّ المفتاح الأصلى للموفقية والنجاح فى الحياة هو الاستعانة بالصبر والاستقامة، وبما أنّ الدين هو عبارة عن مجموعة الواجبات والمحرمات، أو الطاعات وترك المعاصى، فإنّ الإيمان والإلتزام بالدين لا يكون ولا يتحقق بدون الصبر والاستقامة، لانه وطبقاً لما تقدّم من البيان فإنّ الصبر بالنسبة للإيمان كالرأس بالنسبة إلى الجسد، ولذلك ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية «ومنها الأحاديث الواردة عن أميرالمؤمنين عليه السلام» أنّ الصبر قرين الظفر «الصَّبْرُ الظَّفَرُ» «۱». ونقرأ أيضاً فى الآيات القرآنية أنّ الشرط المهم لإنتصار المجاهدين فى سبيل اللّه هو الصبر والاستقامة فى هذا الطريق ومن ذلك قوله تعالى «... إِنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِأْ ئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنكُم مِّأْ ئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ» «۲». ما هذه القوّة الّتى تمنح رجلًا واحداً القدرة على مقابلة عشرة أشخاص، وتمنح مئة شخص القدرة على مقابلة ألف شخص؟ إن هـذه القوّة هى قوّة الصبر والاستقامة الّتى ورد التصريح بها فى الآية الشريفة. فالأشخاص الّذين يعيشون ضعف الإرادة وقلّة العزيمة سوف يواجهون الحوادث والمشاكل من موقع الاذعان والخنوع أو يديرون ظهورهم لها ويجمحون عن مقاومتها، ولكنه لا الدنيا تتحقق للإنسان بدون الصبر والاستقامة ولا الآخرة، ولهذا السبب فان الشعوب

الّتی حقّقت تقدماً علمیاً وتطوراً حضاریاً فإنما تحقق لها ذلک بواسطهٔ الاستقامهٔ والمثابرهٔ والصبر، ویذکر فی حالات العلماء الکبار، سواءاً الشخصیات الدینیهٔ الّتی فتحت أبواب العلوم والمعارف الدینیهٔ أمام الناس، أو علماء العلوم الطبیعیهٔ الّذین حققوا للبشریهٔ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۷ اکتشافات واختراعات مهمّهٔ، أنّهم کانوا یعیشون قبل کلّ شیء حالهٔ الصبر والاستقامهٔ والمثابرهٔ فی أعمالهم ودراساتهم، فأحیاناً یضطر أحد العلماء للکشف عن قانون علمی إلی اختیار العزلهٔ والانزواء فی المکتبهٔ أو المختبر لعدّهٔ سنوات حتّی یوفق أخیراً إلی هدفه واکتشافه. وقد ورد عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «مَنْ رَکِبَ مَراکِبَ الصَّبْرِ اهْتُدِیَ الَی مَیْدَانِ النَّصْرِ» «۱». وکذلک ورد عن هذا الإمام قوله «مِفْتَاحُ الظَّفَرِ لُزُومِ الصَّبْرِ» «۲». ومن جههٔ اخری نجد أنّ الأشخاص الّذین یشکون ضعف العزم وقلّهٔ الصبر والاستقامهٔ فإنّهم یتلوثون بسرعهٔ بأنواع الذنوب، لأنّ الذنوب لها جاذبیهٔ قویهٔ للنفس الأمارهٔ فی الإنسان، فلو لم تکن فی الإنسان قدرهٔ علی مقاومتها لأسرع الإنسان الخطی فی منزلقات الانحطاط والرذیلهٔ. وورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام قوله «کَمْ مِنْ صَبْرِ سَاعَهٍٔ قَدْ اوْرَثَتْ فَرَحَاً طَویلًا وَکَمْ مِنْ لَذَّهٍٔ سَاعَهٍٔ قَدْ اوْرَثَتْ حُزْناً طَویلًا» «۳». ومن الممکن أن یبتلی الإنسان فی مسیرهٔ حیاته بأنواع الضرر والخسارهٔ المادیهٔ والمعنویهٔ والاجتماعیهٔ، مثلًا بالنسبهٔ إلی موت الأحبّهٔ یجب القول: إن هؤلاء الأحبّهٔ من الأصدقاء والاقرباء لم یتولدوا فی وقت واحد وسوف لا یرحلون من هذه الدنیا فی وقتٍ واحد أیضاً، فهناک من یرحل قبل الآخر وهناک من یتأخر، والأشخاص الّذین یرحلون من هذه الدنیا أسرع سوف یخلفون فی قلوب أحبتهم حالات الغم والحزن علی فراقهم، فلو أنّ الإنسان لم یتحل بالصبر فسوف یفقد سلامته النفسیهٔ وصحّته الجسمیهٔ ویعیش الیأس فی الحیاهٔ ویتأخر عن القافلهٔ. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۸ أجل فإنّ الصبر مع وجود جمیع هذه الحوادث والمصاعب یمنح روح الإنسان وقلبه القدرهٔ علی الاستمرار فی حرکهٔ الحیاهٔ وإدامهٔ السلوک فی خطّ التکامل الإنسانی. وقد رأینا فی الأحادیث السابقهٔ أنّ الإمام الصادق علیه السلام یقول إنّ ثواب الصبر لدی الشیعهٔ مقابل المصائب والبلایا یعادل ثواب ألف شهید، وهذا المعنی یدلل علی ما تقدّم آنفاً من أهمیهٔ الصبر. والخلاصهٔ هی إننا کلّما تحدّثنا عن أهمیهٔ الصبر ودوره فی الصعود بالإنسان فی مدارج الکمال المادی والمعنوی، الدنیوی والأخروی، فلا نصل إلی غایهٔ الکلام ولا نحیط بتمام الموضوع، ولهذا فلا ینبغی أن نتصور أنّ ما ورد فی الروایات الشریفهٔ عن ثواب الصابرین هو مبالغهٔ فی الکلام، وبعبارهٔ اخری: یمکن التمسک بالحدیث الشریف الوارد عن الإمام الباقر علیه السلام حیث قال «انَّهُ مَنْ صَبَرَ نَالَ بِصَبْرِهِ دَرَجَهَٔ الصّائِمِ الْقائِمِ، وَدَرَجَهِٔ الشَّهیدِ الّذی ضَرَبَ بِسَیفِهِ قُدّامَ مُحمَّدٍ صلی الله علیه و آله» «۱».

أقسام الصبر:

وقد ورد فی الکثیر من کتب الأخلاق وکلمات علماء الأخلاق أنّ الصبر ینقسم إلی ثلاثهٔ أقسام: ۱- الصبر علی الطاعهٔ. ۲- الصبر علی المعصیهٔ. ۳- الصبر علی المصیبهٔ. والمراد من «الصبر علی الطاعهٔ» هو مقاومهٔ المشکلات الّتی تعترض طریق الطاعهٔ للّه تعالی وامتثال أوامره من قبیل أداء الصلاه والصوم والحجّ والجهاد ودفع الحقوق المالیهٔ مثل الخمس والزکاهٔ، وکذلک الصبر والاستقامهٔ مقابل المشکلات الّتی تقع فی طریق طاعهٔ الأوامر الاستحبابیهٔ والّتی تستوعب دائرهٔ عریضهٔ، والمقصود من «الصبر علی المعصیهٔ» هو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۹ الوقوف أمام الأهواء والدوافع النفسیهٔ والنوازع الدنیویهٔ الّتی تستعر فی قلب الإنسان وباطنه، وقد تستعر نیرانها إلی درجهٔ أن تتحول إلی اعصار یدمر جمیع عناصر الخیر فی الإنسان، ویتلف ما لدیه من الإیمان والتقوی والطهارهٔ والصدق والصفاء وأمثال ذلک. والمقصود من الصبر علی المصیبهٔ هو أن یتحلّی الإنسان بالصبر فی حیاته مقابل الحوادث المؤلمهٔ من قبیل فقد الأحبّهٔ، الخسارهٔ المالیهٔ الکبیرهٔ، وقوع شخصیته وسمعته الاجتماعیهٔ فی الخطر، وقوع الإنسان فی مخالب المرض العسیر والمؤلم، والابتلاء برفاق السوء أو الشریک الخائن أو الحکومهٔ الظالمهٔ وأحیاناً الزوج والزوجهٔ الفاسدهٔ وأمثال ذلک. وقد أورد علماء الأخلاق هذا التقسیم للصبر اقتباساً من الروایات الشریفهٔ کما ورد فی الحدیث الشریف النبوی أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «الصَّبْرُ ثَلاثَهٌٔ، صَبْرٌ عَلَی الْمُصیبَهِٔ وَصَبْرٌ عَلَی الطَّاعَهِٔ وَصَبْرٌ عَلَی الْمَعْصِیَهِٔ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَی المُصیبَهِٔ حَتَّی یَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزائِهَا، کَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلاثَ

مِائةِ دَرَجِةٍ مَا بَينَ الدَّرَجَةِ الَى الدَّرَجَةِ كَما بَينَ السَّمَاءِ الَى الارضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتَّ مائةِ دَرَجَةٍ، مَا بَينَ الدَّرَجَةِ الَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَينَ تُخُومُ الْارضِ الَى الْعَرْشِ وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَعْصِيةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعَ مِائةِ دَرَجَةٍ مَا بَينَ الدَّرَجَةِ الى الدَّرَجَةِ كَمَا بَينَ تُخُومِ الارْضِ الَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ» «۱». ويستفاد من عبارات هذا الحديث الشريف الصبر على المعصية أهمّ من الجميع، ثمّ الصبر على الطاعة، ثمّ الصبر على المصيبة الّتى يأتى فى المرتبة الثالثة من حيث الأهمية والثواب. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى حديث آخر بعد أن يقسم الإيمان إلى أربع «الصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى ارْبَعِ شُعَبٍ، عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ» «۲». ومع قليل من التأمل يتضح أنّ هدف الإمام عليه السلام من هذا البيان هو شرح دوافع الصبر والاستقامة لا فروعه وأغصانه، وهو مثل ما تقدّم من الحديث النبوى الشريف.

دوافع الصبر والاستقامة:

إن العوامل والعناصر الّتى تمنح الإنسان القدرة على الصبر مقابل مشكلات الطاعة وترك المعصية أو مقابل المصائب هى كثيرة، ولكلٍّ واحدٍ منها تأثير خاصّ فى تقوية وتعميق هذه الفضيلة الأخلاقية فى واقع النفس، وأهمها: ۱- تقوية دعائم الإيمان واليقين فى القلب، وخاصّةً مع ملاحظة هذه النكتة، وهى أنّ اللَّه تعالى هو أرحم الراحمين وهو المتكفل لرعاية مصالح عباده والعناية بهم، ومن هذا المنطلق قد يبتلى الإنسان ببعض الحوادث الّتى تكون أسرارها ومنافعها خفية على الإنسان ليقوى به روح الصبر، وهنا ينبغى الالتفات والتفكر بالثواب العظيم الّذى أعده اللَّه تعالى للمطيعين والورعين عن ارتكاب المعاصى فإنّ ذلك من شأنه أن يرسخ فى عزم الإنسان عنصر الصبر والاستقامة. ومن ذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «أَصْلُ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ» «۱». وبديهى انه كلّما اشتد إيمان الإنسان وكثرت معرفته بحكمة اللَّه ورحمته فإنّ صبره سيزداد تبعاً لذلك، وبتعبير آخر: أنّ تحمل الصبر سيكون أسهل وأيسر، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه «انَّا صُبَّرٌ وَشِيعَتُنا اصْبَرُ مِنّا» فقال له الراوى: جعلت فداك كيف يكون شيعتكم أصبرُ منكم؟ فأجابه الإمام عليه السلام «لَانّا نَصْبِرُ عَلَى مَا نَعْلَمُ وَشيعَتُنا يَصْبِرُونَ عَلَى مَا لايَعْلَمُونَ» «۲». ۲- إن تحصيل ملكة الصبر واكتساب هذه الفضيلة حاله حال الفضائل الأخلاقية الاخرى لابدّ فيه من الممارسة والتمرن ومقابلة الحوادث الصعبة ومواجهة التحديات المفروضة على الإنسان، ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين قوله «مَنْ تَوالَتْ عَلَيهِ نَكَباتُ الزَّمانِ اكْسَبَتْهُ فَضيلَةُ الصَّبْرِ» «۳». وبعبارة اخرى: إن الإنسان فى بداية مواجهته للمصيبة قد يصرخ ويحزن بشدّة، وكذلك الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۱ عندما يتحرّك فى خط الطاعة والاتيان بالعبادة فإنه قد يواجه مشكلة من ثقل هذه العبادة ويشعر بالتعب، ولكن تكرار هذه الحوادث وممارسة هذه العبادات سوف تكسبه بالتدريج فضيلة الصبر وتمنحه القوّة فى ذاته على الاستمرار فى خطّ الاستقامة. ۳- ومن العوامل المهمة فى تقوية ملكة الصبر فى الإنسان أن يلتفت الشخص إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الدنيا دار الحوادث والمشكلات، ولا يتسنّى له الحصول على أية موهبة من المواهب المادية والمعنوية من دون عبور هذه الموانع المختلفة والتغلب على تلكم المشكلات، وأيضاً يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الأفراد الّذين يعيشون النزق وقلة الصبر وسرعة الانفلات لا يصلون إلى مرتبة من مراتب الكمال النفسى والاجتماعى، كلّ ذلك من شأنه أن يقوى فى الإنسان العزم والإرادة والصمود أمام المشكلات والحوادث. وكما تقدّمت الإشارة إليه انه لابدّ لقطف الوردة من تحمل ألم الوخزة، ولتناول جرعة من العسل لابدّ من تحمل لسع النحل، وأنّ الكنوز موجودة عادةً فى الخرائب، والجنّة كامنة فى أعماق المشاكل والحوادث المؤلمة. ومن المعلوم أنّ كلّ إنسان يتفكر جيّداً فى هذه الامور فإنه سيجد فى نفسه القدرة على الصبر أكثر وتتعمق فيه هذه الفضيلة الأخلاقية، ومن ذلك ورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لِكُلِّ نِعْمَةٍ مِفْتاحٌ وَمِغْلاقٌ وَمِفتاحُهَا الصَّبْرُ وَمِغلاقُها الْكَسَلْ» «۱». ۴- وأحد العوامل والدوافع الاخرى للصبر وسُبل تقويته فى وجود الإنسان هو أن يتشبه الإنسان بالصابرين، وهذا الأمر يصدق على جميع الفضائل الأخلاقية، فكلّما تحلّى الإنسان فى الظاهر بصفة معيّنة فسوف تنفذ وتمتد إلى باطنه بالتدريج ويكتسب بذلك هذه الملكة. وورد فى حديث شريف عن

رسول اللّه صلى الله عليه و آله «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِف يَعُفَّهُ اللّهُ، وَمَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهُ اللّهُ وَمَا اعْطِى عَبْدٌ عَطاءً هُوَ خَيرٌ وَاوسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» «٢». الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ۴۳۲ ۵- الصبر له علاقة وثيقة بسعة وجود الإنسان وشخصيته، فكلّما اتسعت ظرفية الإنسان وقويت شخصيته فإنه يعيش الصبر والاستقامة أكثر وأشد، ولهذا السبب فإنّ الأطفال وكذلك الكبار الّذين يعيشون حالة الطفولة يجزعون لأقل حادثة، فى حين أنّ الأشخاص الّذين يتمتعون بشخصية قوية وسعة صدر فإنه يهضمون المشكلات ويتغلبون عليها. إن المسبح الصغير قد يتماوج بأدنى نسيم وأقل ريح بينما البحر الكبير لا يتماوج بهذه السهولة، وإنما سمّى أكبر المحيطات فى الدنيا بالمحيط الهادى لأن هيجان أمواجه هى أقل من هيجان الأمواج فى المحيطات الاخرى. إن مطالعة سيرة الشخصيات المهمة فى التاريخ البشرى وخاصّة الأنبياء والأولياء الإلهيين الّذين وصلوا إلى مقامات عالية ومراتب سامية فى دائرة الكمال المعنوى بسبب الصبر والاستقامة، يمكنها أن تكون من العوامل المؤثرة فى تقوية هذه الملكة الحميدة فى الإنسان ويكون دافعاً له على التحلى بهذه الفضيلة أسوةً بهؤلاء العظام. إن مسألة الصبر والاستقامة مقابل الحوادث المؤلمة والمشكلات الكبيرة الّتى تواجه الإنسان فى حركة الحياة لا تقتصر على البعد الأخلاقى والمعنوى فحسب بل هى مؤثرة بالنسبة إلى سلامة البدن وقواه الحيوية، فالأشخاص الّذين لا يملكون حالة الصبر أمام الحوادث فإنّ حياتهم عادةً تكون مقترنة بأنواع الأمراض وأهمها الأمراض القلبية والعصبية، فى حين أنّ الصابرين يتمتعون بعمرٍ طويل مع سلامة بدنية نسبية، ولذلك فإنّ علماء النفس يرون أنّ الدين بصورة عامة «والّذى يقوى فى الإنسان حالة الصبر أمام المشكلات» يعد أحد شروط سلامة الجسم والصحّة النفسية. وفى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَن احَبَّ الْبَقاءَ فَلْيُعِدَّ لِلْمَصائِبِ قَلْباً صَبُوراً» «١». «الجزع» يقع فى النقطة المقابلة للصبر، وهو الحالة النفسية الّتى لا تنضبط فيها النفس أمام الحوادث والمشاكل بحيث يعيش الإنسان الرضوخ والإذعان بالأمر الواقع وتحدياته الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ۴۳۳ الصعبة وتتملكه حالة اليأس من الخلاص، أو تمنعه هذه الحالة من التحرّك والسعى نحو المقصود والهدف. إن الجزع يعد من اشنع الصفات الأخلاقية وأسوأ الحالات النفسية للإنسان حيث تفضى به إلى الشقاء فى الدنيا والآخرة وتمنعه من تحصيل المقامات والمراتب العالية فى معراج الكمال، وتؤدى كذلك إلى فقدان شخصيته وحيثيته فى المجتمع وتكون حياته مليئة بالمنغصات والمؤلمات فلا يرى للراحة والسعادة وجهاً. وقد وصف القرآن الكريم الإنسان فى سورة المعارج بأنه موجود حريص وقليل الصبر عندما يدهمه بلاءٌ وسوء، وعندما يحصل على شىء من النعمة والخير فإنه يتحرك فيه عنصر البخل ويمنعه من البذل والعطاء كما تقول الآية: «انَّ الْانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» «١». والمراد من الإنسان فى هذه الآية «كما وردت هذه الكلمة فى آيات قرآنية اخرى تصف الإنسان بصفات سلبية مشابهة» هو الإنسان الّذى لم يصل بعد إلى مستوى النضج الأخلاقى والعاطفى ولم يسلك فى خطّ تهذيب النفس، ولذلك ورد فى ذيل هذه الآيات استثناء الأشخاص الّذين يعيشون الإيمان ويسلكون فى خطّ الصلاة ومساعدة المحرومين ومراعاة اصول العفة والأمانة كما تقول الآيات «الَّا الْمُصَلِّينَ ..... والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِم يُحَافِظُونَ» «٢». إنّ تعبير الآيات أعلاه لعلّه إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الأشخاص الّذين يعيشون الجزع وقلّة الصبر هم عادةً من البخلاء أيضاً، كما أنّ البخلاء يتسمون بالجزع أيضاً، وبعبارة اخرى: أنّ هاتين الصفتين يرتبطان برابطة وثيقة ويجتمعان فى دائرة مفهوم «هلوع». وقد ورد فى الروايات الإسلامية أيضاً بحوث عميقة وجذابة تتضمن ملاحظات دقيقة فى هذا المجال، وفيما يلى نشير إلى بعض النماذج منها: الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ۴۳۴ ١- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى ذمّ الجزع قوله «ايَّاكَ وَالْجَزَعَ فَانَّهُ يَقْطَعُ الامَلَ وَيُضَعِّفُ الْعَمَلَ وَيُورِثُ الهَمَّ» «١». ٢- وقد ورد أيضاً عن هذا الإمام يقول فى حديث آخر ضمن الإشارة إلى نكتة لطيفة اخرى: «الْجَزَعُ اتْعَبُ مِنَ الصَّبْرِ» «٢». والسبب فى ذلك واضح، وهو أنّ الجزع وقلّة الصبر لا يحل أيَّة مشكلة وليس له أثر سوى أن يحطم عناصر القوّة والاستقامة فى روح الإنسان وجسمه، ولهذا فإنّ الّذى يعيش الجزع يوقع نفسه فى التعب أكثر من الصابر، مثلًا عندما يفقد الإنسان عزيزاً له يمكن أن يصرخ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالجدار أو ينتحر أخيراً، ولكن أية واحدة من هذه السلوكيات لا تعيد له عزيزه، بل من شأنها أن تدمر دعائم الإيمان فى قلبه وتحطيم أركان سلامته البدنية والروحية، مضافاً إلى انه سيتلف ثوابه الأُخروى. ٣-

ويقول الإمام على عليه السلام أيضاً «الْجَزَعُ لا يَدْفَعُ الْقَدَرَ وَلَكِنْ يُحْبِطُ الاجْرَ» «۳». وبالنسبة إلى سبب احباط الأجر فلابدّ من القول: أنّ الجزع وعدم الصبر علامة على عدم الرضا وعدم التسليم لقضاء اللّه وقدره، فهو فى الواقع اعتراض على عدل اللّه وحكمته حتّى لو كان الجازع غافلًا عن هذا المطلب. ۴- وورد فى حديثٍ آخر عن الإمام الهادى عليه السلام وضمن الإشارة إلى نكتة اخرى «الْمُصِيبَةُ لِلصَّابِرِ وَاحِدَةٌ وَلِلْجَازِعِ اثْنانِ» «۴» . وكما تقدّم أنّ الجزع وعدم الصبر من شأنه مضافاً إلى زوال أجره وانعدام ثوابه أن يزيد فى مشكلته، وعليه فإنّ المصيبة على الجازع مضاعفة. ۵- ويقول الإمام الكاظم عليه السلام فى بيانه لأحد وصايا المسيح عليه السلام «وَلَا تَجْعَلُوا قُلُوبَكُم مَأْوىً لِلشَّهَواتِ انَّ اجْزَعَكُم عِنْدَ الْبَلاءِ لَاشَدُّكُم حُبّاً لِلدُّنيَا وَانَّ اصْبَرَكُمْ عَلَى الْبَلاءِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۵ لَازْهَدُكُم فِى الدُّنيَا» «۱». ويستفاد من هذه الرواية أنّ المصدر الأساس للجزع وعدم الصبر هو الحرص وحبّ الدنيا، ولأجل أن يخفف الإنسان من شدّة الجزع عليه أن يخفف من حبّه للدنيا وتعلقه بزخارفها. ۶- ونقرأ فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انْ تَحْتَسِبُوا وَتَصْبِرُوا تُوجَرُوا، وَانْ تَجْزَعُوا تَأْثِمُوا وَتُوزَرُوا» «۲». ۷- وفى حديثٍ مختصر وعميق المعنى عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول «مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ اهْلَكَهُ الْجَزَعُ» «۳». ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعنوان «مسكّ الختام» فقد ورد فى هذا الحديث أنّ رسول اللّه كتب إلى بعض أصحابه يعزّيه بابنه: «أما بعد فعظم اللّه جلّ اسمه لك الأجر والهمك الصبر ... فلا تجمعن أن يحبط جزعك أجرك وأن تندم غداً على ثواب مصيبتك وانك لو قدمت على ثوابها علمت أنّ المصيبة قد قصرت عنها واعلم أنّ الجزع لا يرد فائتاً ولا يدفع حزن قضاء فليذهب أسفك ما هو نازل بك مكان ابنك والسلام» «۴». وينقل المرحوم المحدّث القمّى فى «سفينة البحار» قصة جميلة عن «بزرجمهر» وزير كسرى تتعلق بمسألة الصبر هذه ويقول: «حكى عن بعض التواريخ أنّه سخط كسرى على بزرجمهر، فحبسه فى بيت مظلم وأمر أن يصفّد بالحديد، فبقى أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر مطمئن النفس، فقالوا له: أنت فى هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال. فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها فهى الّتى ابقتنى على ما ترون. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۶ قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلّنا ننتفع بها عند البلوى. فقال: نعم، أما الخلط الأوّل فالثقة باللّه عزّوجلّ. وأما الثانى: فكلّ مقدّر كائن. وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن. وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع ولا أعين على نفسى بالجزع. وأما الخامس: فقد يكون أشدّ ممّا أنا فيه. وأما السادس: فمن ساعة إلى ساعة فرج. فبلغ ما قاله كسرى فأطلقه وأعزّه «۱».

علاج الجزع وقلّة الصبر:

اشارة

إن هذا المرض النفسى والأخلاقى مثل بقية الأمراض الاخرى له طرق للعلاج ونشير إليها فيما يلى:

۱- تشخيص المرض

عندما يتوجه المريض إلى الطبيب الروحانى يقوم هذا الطبيب بالفحص عن علامات المرض الأخلاقى والروحى من قبيل: الضرب على الرأس والوجه، عض الأنامل، الصراخ والعويل، سوء الأخلاق والجفاف فى التعامل مع الآخرين، سوء المعاملة مع الزوجة والأطفال وكذلك الشكوى وعندها يدرك هذا الطبيب وجود مرض الجزع فى مثل هذا الشخص وبالتالى يقوم بعلاجه بطرق مختلفة.

۲- التفكير بالعواقب السلبية للجزع وقلّة الصبر

إن تفكير المريض بعواقب الجزع الوخيمة والآثار السلبية لقلّة الصبر له دورٌ مهم فی علاج هذا المرض الروحی، وقلما يسمع الإنسان بعواقب هذا المرض الوخيم ولا ينزجر لهذه الحالة ويتصدّى لرفعها من نفسه وإزالتها من أخلاقه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۷ أجل، فعندما يعلم الإنسان أنّ الجزع يذهب بأجره وثوابه عند اللّه تعالى من دون أن يحل له أية مشكلة، وكذلك يحطم أعصابه وقواه النفسية ويسلب منه سلامته البدنية والروحية، والأسوأ من ذلك انه يوصد أمامه أبواب حلّ المشكلة، لأن الإنسان إذا احتفظ ببرودة أعصابة عند بروز المشكلات والمصائب وتسلط على نفسه فإنّ ذلك من شأنه أن يفتح أمام عقله أبواب الحلّ لذلك المشكل أو على الأقل يقلل من شدّة المصيبة، ولكنَّ الإنسان وبسبب حالة الجزع والاضطراب وعدم التسلط على الأعصاب وبالتالی عدم تمركز الفكر فإنه لا يجد أمامه نافذة مفتوحة للأمل والحلّ، بل حتّى لو فتحت له الأبواب والنوافذ ليرى حلًا لهذه المشكلة فإنه وبسبب ما يعيشه من حالة الأضطراب والتوتر لا يرى هذه الأبواب والنوافذ، بخلاف ما إذا هدأ لحظة وضبط نفسه لفترة وجيزة ونظر إلى ما حوله فسيجد طريق النجاة والحلّ أمامه يسيراً. إن النظر الدقيق إلى هذه الحقائق والتدبر فيها له تأثير مهم فی تغير حالة الجزع لدى الإنسان وبالتالی مع تكرارها سينطوی الشخص تحت لواء الصابرين.

۳- مطالعة الآيات والروايات الواردة فی هذا الباب

إن مطالعة الآيات والروايات الشريفة الّتی تتحدث عن أجر الصابرين وثوابهم ومقامهم عند اللّه له دور مهم فی تقوية عناصر الصبر والاستقامة فی روح الإنسان، ومن ذلك ما ورد فی الآية الشريفة الّتی تبشر الصابرين بأعظم بشارة وتقول: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ اذَا اصَابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قَالُوا انَّا للَّهِ وَانَّا الَيهِ رَاجِعُونَ* اولئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» «۱». وعبارة «أُولئك هم المهتدون» تتضمن معنىً عميقاً ولها تفاسير مختلفة، وأحدها هو ما ذكر آنفاً من أنّ الصابرين سيجدون حلًا لمشكلاتهم أسرع من الآخرين وتفتح أمامهم أبواب النجاة والخلاص من الأزمات والبلايا، لأن أحد العوامل الأصلية للجزع هو «ضعف النفس» فكلّما سعى الإنسان فی تقوية معنوياته وتكريس عناصر الشد والقوّة فی نفسه فإنّ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۸ ذلك من شأنه أن يمنحه التوفيق لإزالة عناصر الجزع وقلّة الصبر من نفسه.

۴- مطالعة حالات الأنبياء والأولياء

وأحد الطرق لعلاج حالة الجزع هی مطالعة حالات الأنبياء والأولياء فی دائرة صبرهم واستقامتهم أمام المصائب والبلايا الكثيرة وما كانوا يتحملونه من أعدائه وأقوامهم، وتذكر هذه الحالات ومطالعتها يلهم الإنسان القوّة فی الصمود أمام حجم التحديات المفروضة عليه من الواقع الخارجی والداخلی.

۵- تلقين الاعتماد على النفس فی تحمّل الصعاب

ولا ينبغی أن ننسى هذه الحقيقة، وهی أنّ التلقين سواءً كان من طرف الشخص نفسه أو من قبل الآخرين فإنه يشكل عاملًا مؤثراً فی إزالة الأخلاق السيئة والصفات الذميمة من واقع النفس، فلو أنّ الشخص الّذی يعيش قلّة الصبر والجزع يلقن نفسه كلّ يوم بضرورة أن يتحلّى بالصبر، وكذلك يسعى ممن حوله من افراد الاسرة أو الأصدقاء فی تعميق هذا التلقين لديه، فلا شكّ فی ظهور آثار الصبر على سلوكياته وحالاته النفسية. ونختم هذا البحث بدعاء شريف للإمام زين العابدين عليه السلام يقول فيه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِی هَذَا صَلاحاً وَاوسَطَهُ فَلاحاً وَآخِرَهُ نَجاحاً واعُوذُ بِكَ مِنْ يَومٍ اوَّلُهُ فَزَعٌ وَاوسَطَهُ جَزَعٌ وَآخِرُهُ وَجَعٌ» ويستفاد من هذا الحديث أنّ الجزع يورث الإنسان الألم والوجع، فمضافاً إلى انه لا يزيل همه وألمه فإنه من شأنه أن يزيده ألماً وهمّاً.

الفرق بين الجزع والعواطف المعقولة:

إن قلب الإنسـان هو مركز العواطف والاحساسات الإنسانيـة، وكلّما فقـد الإنسان عزيزاً له فإنه يتألم لـذلك ويجرى دمع عينه من شّـدّة التـأثر، ولكن لاـ ينبغى الخلـط بين إظهار التأثر والحزن مع الجزع وقلّة الصبر، لأن قلب الإنسان يتأثر بالحوادث المؤلمـة بطبيعـة الحال، ويمكن أن تعكس عينه حالـة التأثر هذه وتبكى بسبب ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۹ وعليه فـإنّ البكاء والحزن على فقد الأحبّة يعد أمراً طبيعياً وإنسانياً. فالمهم هو أنّ الإنسان لا يسـلك فى المصيبة فى خطّ الجزع والشكوى وعدم الشكر ويتكلّم بكلمات لا تنسـجم مع الإيمان والعبوديـة للّهتعالى والرضا بقضائه، وفى هذا المجال نقرأ حديثاً عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَـرَبَ الخُـدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعا بِدَعْوَىَ الجَاهِلِيَّةِ» «۱». وقـد ورد فى سـيرة النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله انه عندما توفى ولده إبراهيم عليه السلام بكى النبى صلى الله عليه و آله عليه بحيث جرت دموعه على خديه وصدره الشريف فقالوا: يا رسول اللّه أنت تنهانـا عن البكـاء ولكنـك تبكى لوفـاة إبراهيم؟ فقال «لَيْسَ هَـذَا بُكاءً وَانّ هَـذِهِ رَحْمَـةٌ وَمَن لَم يَرحَمْ لا يُرْحَمُ» «۲». أى هـذا نوع من إظهار المحبـة والرحمـة الصادرة من العاطفـة الإنسانيـة الّتى يعيشـها الإنسان الواقعى. وقـد ورد هـذا الموضوع بتفصـيلٍ أكثر فى كتاب «بحار الأنوار» حيث ذكر المجلسـى أنّه عندما اتى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فوضـعه فى حجره فقال له: يـا بنى أنّى لا أملك لك من اللّه شـيئاً وذرفت عيناه، فقال له عبـدالرحمن: يا رسول اللّه تبكى أو لم تنه عن البكاء، قال: إنّما نهيت عن النوح عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعم لعب ولهو ومزامير الشـيطان وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه وشق جيوب ورنّة شيطـان إنّما هـذه رحمـة، من لا يرحم لا يرحم، لولا أنّه أمر حقّ ووعـد صـدق وسبيل باللّه وأن آخرنا سـيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً أشـد من هـذا وأنـا بـك لمحزونون»، «وَإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ تَبْكِيَ الْعَينُ وَيَـدْمَعُ الْقَلْبُ وَلا نَقولُ مَا يُسْـخِطُ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ» «۳». وأحياناً يمكن أن يفقد الإنسان انضـباطه وإلتزامه ويشق جيبه ويخمش وجهه ولكن كلّ ذلك يكون بالمقدار المعقول والطبيعى لغرض إيجاد الهيجان العام وتعبئـة العواطف الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۴۰ والاحساسات فى مقابل الأعداء فإنّ ذلك قد يكون ضـرورياً أيضاً ويسـتثنى من الأصل، إذاً فما ورد من بعض الحالات الاسـتثنائية لبعض العظماء يكون من هذا الباب. ونختم هذا الحديث بحديث آخر عن النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله يقول: «النِّياحَـةُ عَمَـلُ الجَاهِلِيَّةِ» «۱». والمراد من النياحـة هنا ليس إقامـة المآتم أو ذكر المصـيبة والبكـاء على الميت بصورة فرديـة أو جماعيـة بـل هو إشـارة إلى مـا كـان مرسوماً ومتـداولًا فى زمان الجاهلية بين العرب عنـدما كان يفقـدون أحـد الأحبّـة، فـإنّهم يـدعون نسوة لإقامـة النياحـة والتحـدّث بكلمات لزيادة النوح والبكاء على الميّت، وفى الغالب يصـفونه بأوصاف كاذبـة ومبالغ فيها وقـد يعملن على تمزيق ثيابهنَّ فيلطمن وجوههن ويخـدشن خـدودهن، وبذلك يسـعين إلى تثوير عواطف أهل العزاء وتفعيل حرارة المجلس.

نهاية الجزء الثانى:

اللّهمّ! أنت تعلم جيداً بأننا إذا وفقنا لسلوك طريق أوليائك فى تهذيب النفس وحسن الأخلاق وصفاء الباطن فانّا نطلب ذلك ونتعشقه من صميم القلب، فزدنا توفيقاً فى سلوك هذا الطريق وأعنا فى سلوك خطّ الإيمان والتقوى وحسن الأخلاق والحقنا بجماعة «مَنْ انْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» واجعلنا من جملة «وَحَسُنَ اولئكَ رفِيقاً». (آمين يا ربَّ العالمين) الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴

الجزء الثالث

الإعراض عن الأخلاق إعراض عن كل شيء

مقدمة:

فى هـذا الوقت الـذى أكتب فيه هـذه المقدمـة، يـدور الحـديث فى الأوسـاط العالميـة عن العمليـات الإرهابيـة الـتى وقعت فى أمريكا وأضـرارها على ذلك البلـد وعلى جميع العالم، ثم الحديث عن الحملات الانتقامية التى تزمع أمريكا القيام بها ضد أفغانسـتان ومناطق اخرى. الجميع يتحدث عن الآثار السياسية والاقتصادية المترتبة على هذه العمليات الإرهابية المدمّرة على المدى القصير والبعيد، ولكن قلّما نجـد من يتحدث عن المعطيات الأخلاقية لهذه الحادثة الفريدة. واحدى هذه المعطيات هو أنّ أكبر قدرة عالمية يمكنها أن تكون الأضـعف بين دول العالم بحيث ينهار رمز عظمتها وشـموخها فجأة بواسطة هجوم عدّة أشخاص. والمعطى الآخر يشير إلى عدم إمكان الاعتمـاد على شـىء فى هـذا العـالم، حيث يمكن أن تتبـدل جميع الحسابـات والمعادلاـت بواسـطة حادثـة ارهابيـة قـام بهـا أشـخاص معدودون بحيث أذلّت رقاب المقتدرين وفضـحت إدعاءات المسـتكبرين ودوّخت أذهان المدبّرين واستغفلت عقول الحاكمين بحيث لم ينتبهوا إلّابعد أن انتهى كل شـىء. والآخر، أنّ الإنسان المعاصر وبسبب ضعف دعائم الأخلاق الفردية والاجتماعية يدفع ثمناً باهضاً فى حركـة الحيـاة ويرى كـل شـىء فى خطر المحق والانهيـار. عنـدما ينهـار قصر «العدالـة» البهيـج وتحـل محلّه اطلال الظلم والجور، وافرازات الأنانيـة وحبّ الجاه والسلطة لقوى الانحراف ويصل النصل إلى العظم لـدى المحرومين والمعـدمين ويعيشون الاختناق فى هـذه الظروف العصـيبة. وعنـدما لاـ تسـمح حالاـت الغرور والتكبر بإدراك الحقائق الموجودة على أرض الواقع من موقع الوضوح فى الرؤية بحيث يعجز الإنسان عن إدراك ما يجرى حوله من تفاصيل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶ الحياة، فانّ مثل هذه الحوادث لا تكون خـارج اطـار التوقع، الحوادث الـتى أحـدثت اهتزازاً فى صـرح قوى الاسـتكبار والظلم وجعلتهم يعيشون التخبّط والتشنّج لأيّام وشـهور عديـدة. ألم يحن الـوقت الـذى ينكشف لنـا أنّ العـالم المـادى قـد وصـل إلى طريق مسـدود، ولابـدّ له من العودة إلى أجواء المعنويات والأخلاق الإنسانيـة ليتسـنى لها تجميـد عناصـر الارهاب من جهـة، واشاعة أجواء الحب والودّ والصـفاء من جهة اخرى. إنّ التغافـل عن الواقعيـات لاـ يؤدّى إلى زوالهـا، فمـا دامت أشـكال الظلم والجور والعـدوان والأنانيـة موجودة فى العـالم، فلابـدّ أن نتوقع حـدوث مثـل هـذه الوقـائع بل أشـدّ منها. إنّ الحـديث فى هـذا المجال واسع وكثير التفاصـيل والتحاليل لا يسـعنا استعراضـها فى هـذه المقدمة القصـيرة، والغرض هو الإشارة فقط إلى هذه المسألة لنعيش اليقظة، ولنعلم جميعاً أنّ إصلاح الوضع الخطير فى العالم المعاصر لا يجدى فيه القيام بعمليات انتقامية حيث تؤدّى إلى إلقاء الزيت على النار وتفضـى إلى زيادة الهجمات الإرهابية، ولإلقاء اللائمة على هـذا وذاك. لابدّ أن يتحمل الجميع مسؤوليتهم ويتحركوا من موقع الإذعان لمبادىء الأخلاق الإنسانية ولزوم تجسـيدها فى حياة الفرد والمجتمع لنيل الحياة السـعيدة والمفعمة بالأمن والتقدم. ومن هنا نمدّ أيدينا إلى البارى تعالى ونبتهل إليه ونشكره لتوفيقه لإتمام الجزء الثالث والأخير لكتاب «الأخلاق فى القرآن» حيث يمكننا أن نخاطب البشـرية من هـذا الموقع ونقول: * هذه هى أخلاقنا الإسـلامية! * هذه هى طريقة حياتنا ومعالم مسيرتنا! * هذا هو دستور النجاة من الأزمات والمشاكل! قم/ الحوزة العلمية ناصر مكارم الشيرازى ۱۳۸۰ ه ش الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷

حبّ الجاه

تنويه:

تختلف الميول الإنسانيـة من شـخص إلى آخر فـالبعض يحب المـال والبعض الآـخر يحب الجمـال وآخر يحب الكمـال، وآخر يطلب المقام والجاه، أى يطلب الوجاهـة، فيجب أن يحترمه الناس وينحنون له، ويريـد أن يشـيرون إليه بالبنان ويطلبون منه حوائجهم، وبعبارة أدق يحس بأنّه أرفع شأناً من الباقين، له الكلام الأول والأخير وإن كان أقل فهماً ودرايةً، ويسـمى مثل هذا الشـخص بالراغب للوصول لأعلى المراتب أو محب الجاه. هـذه الصـفة تتوفر فى الكبار أكثر منها لـدى الشـباب والصـغار، وفى بعض الأحيان ترافق الإنسان حتى الممـات، فتتلاشـى كـل قواه إلّاحبّ الجاه فهو راسـخ فى القلب بل يزداد رسوخاً وقوّة كلما امتـد العمر فى الإنسان. هـذه الرذيلـة هى

مصـدر لكثير من المفاسـد والفرديـة، فهى تبعـد الإنسان عن الخَلق والخالق، ولأجل الوصول لأهـدافه المشؤومـة تقحمه فى المهالك، والأنكى من ذلك أنّها تظهر فى الغالب بصورة حسنة مثل الاحساس بالمسؤولية والعزم على أداء الواجبات الاجتماعية ولزوم الإرادة الصحيحة وما شابه ذلك، فقد جاء فى الحديث: «آخرُ ما يَخرُجُ مِنْ قُلوبِ الصِّدِّيقِينَ حُبُّ الجاهِ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸ ويبين هـذا الحـديث خطورة هذهِ الرذيلة الأخلاقية. والجدير بالذكر أنّ هذه الصفة لها صلة وثيقة مع الرياء والتكبر والعُجب وغالباً ما يُشتبه بينها وبين مثيلاتها. وبهـذه الإشارة نعود لنستوحى ما ورد عن عللها وعواقبها فى القرآن الكريم: ۱- فى حادثة السامرى التى جاءت فى سورة طه فى الآيات ۸۵ و ۸۸ و ۹۵ و ۹۶ تبين أنّ حبّ الجاه هو السبب فى ضلال السامرى وجمع غفير معه من بنى اسرائيل حيث قال: «قالَ فانا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامِرِيُّ ... فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى فَنَسِيَ ... قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ- قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» «۱». ۲- «وَاذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَاخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» «۲». «وَقالَ الَّذينَ لايَرْجُونَ لِقائَنا لَوْلا انْزِلَ عَلَيْنا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنا لَقَد اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً» «۳». ۳- «وَنادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ» «۴». ۴- «قالَ إِنَّما اوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ... فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذينَ يُرِيدُونَ الْحَيوةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما اوتِيَ قارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم» «۵». ۵- «قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹ ۶- «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ» «۱». «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذيْنَ لايُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ» «۲».

تفسير واستنتاج:

ذم طُلاب الجاه

كما أشرنا سابقاً أنّ حبّ الجاه يعنى التعلق الشديد بالمكانة والمنزلة الاجتماعية والسعى لنيلها بأى صورة كانت، وهو من الرذائل الخطيرة التى لا تؤثر على الجوانب الروحية للانسان فحسب بل تجعل الشخص منبوذاً اجتماعياً، ويعيش العزلة القاتلة. ولقد رأينا على مدى تاريخ الأنبياء عليهم السلام والأقوام السالفة، كم كانت هذه الرذيلة منتشرة ومتفشية فيهم، بحيث تحدث عنها القرآن الكريم فى أكثر من آية وسورة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كثيراً من الرذائل لها مفاهيم مشتركة، وكما يقول المثل وجهان لسكة واحدةٍ، بحيث يمكن أن يصدر فعل قبيح من الإنسان يكون مصداقاً لعدّة صفات رذيلة، وقد نزلت فى مثل ذلك آيات من القرآن الكريم تعكس هذا المعنى لبعض الرذائل كالتكبر والغرور والأنانية والعجب والرياء وحب الجاه. وعلى أية حال، نرى فى الآيات الاولى قصة السامرى المعروفة لدى الجميع، فللسامرى سمعة قبيحة عند بنى اسرائيل، وكان محبّاً للجاه بشكل غريب، حيث استغل غياب النبى موسى عليه السلام وذهابه للقاء ربّه فى طور سيناء، فصنع من حلّى بنى اسرائيل عجلًا جسداً له خوار، فعندما كانوا يضعونه فى اتجاه الهواء تصدر منه أصواتاً غريبة، أو يقال أنّه جمع مقداراً من التراب الذى كان تحت أقدام جبرائيل عليه السلام أو مركبه الذى ظهر به عندما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰ اغرق فرعون وجنوده فى اليم، فوضع ذلك التراب داخل العجل الذهبى، والصوت الذى كان يصدر منه من بركة ذلك التراب. وبعدها دعى السامرى الناس لعبادة ذلك العجل ولم يمرّ وقت طويل حتى استجاب له بعضهم وعبدوا العجل وسجدوا له. وقال اللَّه تعالى فى القرآن الكريم: «قالَ فَانا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامِرِيُّ». فرجع موسى غضبان أسفاً إلى قومه وعاتب أخاه هارون عتاباً شديداً، وتبرأ القوم من فعلهم واتهموا السامرى فقال سبحانه وتعالى: «فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى فَنَسِيَ ...». وتوجه بعدها موسى عليه السلام إلى السامرى: «قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ- قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي». كان هدف السامرى من تلك الفتنة

المضـلّة هو الوصول إلى الجاه والمنصب والمقام، فعاقبه البارى تعالى بالطرد من المجتمع والإنزواء «قالَ فَاذْهَبْ فَانَّ لَکَ فِی الْحَیوةِ أنْ تَقُوْلَ لا مِساسَ». فکان فى الشریعة الموسویة وقوانینها الجنائیة، أنّ الإنسان، إذا ما أذنب ذنباً کبیراً، ینظر إلیه وکأنّه رجس خبیث نجس فلا یحق أن یمسّه أحد ولا یمس هو أحداً. ویقال: إن السامری ابتلی بمرض نفسی ووسواس شدید بحیث کان یخاف من جمیع الناس وإذا ما تقرب إلیه أحـد یصـیح ویقول «لا مساس»، نعم فهذا هو جزاء من یحب الجاه ویتلاعب بالدین لأجل أغراضه الدنیویة. وتتطرق الآیات القرآنیة فى «الآیة الثانیة» إلى نوع آخر من حبّ الجاه والمقام لبنى اسرائیل، فقد طلبوا أمراً عجیباً من موسى علیه السلام، فقالوا: «ارنـا اللَّه جهرةً» وإلّا لن نؤمن لـک أبـداً، فأخـذتهم الصاعقـة، ولولاـ لطف البـارى تعـالى لماتوا إلى الأبـد، وفیها قال تعالى فى قرآنه الکریـم: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱ «وَاذْ قُلْتُمْ یا مُوسَـی لَنْ نُؤمِنَ لَکَ حَتّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَةً فَاخَذَتْکُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنـاکُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ». ولکن ما هى الصاعقـة؟ إنّها رعـد وبرق ینتـج نتیجـة اصـطدام الغیوم ببعضـها، فهى تحمل الکهربائیـة الموجبـة وعنـد وصولها للأرض تبحث عن الکهربائیـة السالبـة فتتحـد معها بدرجـة حرارة تصل إلى ۱۵۰۰۰ مئویة فتحدث صوتاً مهیباً وإذا ما اصابت مکاناً ما فستدمره تدمیراً کاملًا. فى قصة بنى اسـرائیل عندما وقعت الصاعقة على بنى اسرائیل وتجلّى البارى للجبـل وجعله دکّاً مـات جمیع من اختارهم موسـى علیه السـلام من بنى اسـرائیل وعـددهم (۷۰) نفراً من شـدة الخـوف والهلع الـذى أصـابهم، وبقى موسـى على قیـد الحیـاة ولکنه غـاب عن الوعى وعنـدما أفـاق، طلب من البارى تعالى العفو والمغفرة ودعا لهم بالحیاة فاسـتجاب البارى دعاءه وأحیاهم وعلم هؤلاء القوم المعانـدین إلى أنّهم لیسوا بشـیء أمام قدرة البارى تعالى. أشار القرآن الکریم إلى هـذهِ الحادثـة فى مکان آخر وآیة اخرى فقال: «یَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتابِ أنْ تُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ کِتاباً مِنَ السَّماءِ». فیمکن أن یکون ذلک الطلب من التذرع أو من حبّ الجاه أو من الاثنین معاً، ویسـتمر القرآن الکریم ویقول قد سألوا أکبر من ذلک «۱» «فَقَدْ سَئَلُوا مُوسَی أَکْبَرَ مِنْ ذلِکَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهمُ الصاعِقَـةُ بِظُلْمِهِمْ». فهذه التعبیرات وما شابهها تبیّن مدى تغلغل حبّ الجاه والکبر والغرور والعناد فى قلوب بنى اسـرائیل، ولـذلک کانوا دائماً یتذرعون ویتحججون فى کل وقت، وهى نفس الصـفات الرذیلة التى نراها عند الیهود فى وقتنا الحاضر، ولحد الآن یعتبرون أنفسهم شعب اللَّه المختار، ویفکرون فى السیطرة على اقتصاد العالم، مع عدم قدرتهم وکفائتهم على ذلک. ولم یکن حبّ الجاه متغلغلًا فى قلوب بنى اسـرائیل فحسب، فالفراعنة ونمرود کانوا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲ أیضاً من مصادیق ذلک، فنقرأ فى القسم الثالث من الآیات، أنّ البارى تعالى قال عن فرعون: «وَنادَی فِرْعَوْنُ فِی قَومِهِ قالَ یا قُوْمِ أَلَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَهـذِهِ الأَنْهارُ تَجْری مِنْ تَحْتِی أَفَلا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هذَا الَّذی هُوَ مَهِینٌ وَلا یَکادُ یُبِینُ فَلَولا الْقِیَ عَلَیْهِ اسْورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جـاءَ مَعَهُ الْمَلائِکَةُ مُقْتَرِنِینَ». وقـد جمع فرعون فى هـذه الآیـة عـدّة رذائـل، الغرور، التکبر، حبّ الجـاه واغفـال البُسطاء من الناس، والغریب فى الأمر أنّ فرعون شاهـد معجزات النبى موسـى علیه السـلام بعینه ولکنه أصـرّ واسـتکبر وتمسک بمسألـة الطبقة الاجتماعیة والأسورة من الـذهب، ولثغة موسـى علیه السـلام فى الکلام (بالرغم من أن اللثغة قد زالت منه بعد البعثة بعد ما طلب موسـى ذلک من اللَّه تعالى). وعلى أیّة حال فإن فرعون لم یزد قومه إلّاضـلالًا. وفى «الآیـة الرابعـة» من هذه الآیات نواجه قصة «قارون» فهو من النماذج البـارزة للأشـخاص الـذین یعیشون حبّ الجاه عنـد بنى اسـرائیل، وهى الصـفة القبیحـة التى أودت بحیاته وأرسـلته إلى الحضـیض. فیا للعجب من الغرور وحبّ الجاه کیف یضع الحجب على بصـیرة وفهم الإنسان ویمنعه من درک أکثر الامور بداهةً، فعندما وعضه بعض بنى اسـرائیل وقالوا له: بما أنّ اللَّه قـد أنعم علیک فابتغ فیما آتاک اللَّه من النعم الدار الآخرة، ولا تنس نصـیبک من الدنیا، فکل شـیء آیـلٌ إلى الزوال وإیّـاک أن تسـتعمل هـذه الأـموال للإفسـاد فى الأرض ومحاربـة الرسول علیه السـلام. فقال ذلک الرجل المغرور فى جوابه: «قَالَ اوتِیتُهِ عَلی عِلمٍ عِندی ...» قال ذلک واستمر فى عناده وجموحه، ولأجل أن یرضى غریزة حبّ الجاه عنده، خرج على قومه بزینـة من الخیل والخـدّام وکثرة الغلمان الـذین کانوا یجلسون على سـرجٍ من ذهب ویلبسون أنواع الحُلى الذهبیة. وقد أخذ مثل ذلک المنظر البرّاق والمخادع بقلوب وعقول بنى اسـرائیل فقالوا: «قالَ الَّذِینَ یرِیـدُونَ الْحَیاةَ الـدُّنْیا یا لَیْتَ لَنا مِثْلَ ما اوْتِیَ قارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِیمٍ». الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳ ولکن وکمـا صـرّح القرآن الکریم فى هـذه الآیـات فإنّ اللَّه تعالى خسف بقارون الأرض

ودفنت کـل أمواله وقصوره والزینـة التی کـانت علیه وکـأن شـیئاً لم یکن، لا ـ قارون ولا امواله ولا زینته المبهرة للعقول!! وعنـدها انتبه الـذین تمنوا مقام قارون، انتبهوا من غفلتهم ورجعوا عن قولهم واسـتعاذوا باللَّه تعالی من أقوالهم. نعم فإنّ حبّ الجاه والغفلـة والغرور، تغوی الإنسان وتورثه الغفلة عن أبسط الامور البدیهیة للحیاة، وبما أنّ الإنسان خلق ضـعیفاً، فانّ أوهی عنوان أو أمتیاز یعرض علیه یغیر حیاته ویقلبها رأساً علی عقب ویفضی به إلی الهلکة لأنّه سرعان ما یدعی القدرة والاستقلال، بل یتعداها إلی مقام الالوهیة. وفی «الآیة الخامسـة» من الآیـات تتحـدث عن فرعون، وتصوّر لنـا حبّ الجـاه وأعمـاله الجنونیـة حیث خـاطب موسـی علیه السـلام قائلًا: «قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَیْری لَأَجْعَلَنَّکَ مِنَ الْمَسْجُونینَ» بلا شک، أنّ فرعون بادعائه للربوبیـة لم یکن من السذاجـة بدرجة لا یدرک فیها دعوة موسـی علیه السـلام المنطلقـة من التعریف باللَّه ربّ العالمین، فهو الحاکم علی أرض مصـر الوسـیعة. وبدیهی أن الأنانیة والتکبر وحبّه للجاه، لم تکن لتسـمح له بقبول الحق والمنطق السـلیم الصادر من اللَّه تعالی علی لسان نبیه موسـی علیه السـلام. وهذا هو طریق الطغاة وأفعالهم فـدائماً ما یقابلون الحق بالقوّة، والـدلیل والبرهان بالسـجن! ولکن عقوبـة السـجن فی مثل هـذه المواد لم تکن أداة رادعة فی دائرة التصـدی لخط الرسالـة والنبوة بقیادة موسـی علیه السـلام الـذی ضـعضع أرکان حکومـة فرعون، ولهذا ذکر بعض المفسـرین أنّ سجن فرعون لم یکن بالسـجن الـذی یخرج منه الإنسـان حیّاً، فالمسـجون فیه یلاـقی شتی أنواع العـذاب حتی یموت فیه. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴ و یـدور الحـدیث فی «الآیـة السادسـة» من هذهِ الآیات، عن مشـرکی العرب فبدلًا من أن یطلبوا الدلیل والبرهان والمعجزة من الرسول الأـکرم صـلی الله علیه و آله کـانوا یتـذرعون بـأنواع الـذرائع من موقع الانکار والجحود، فتارة یطلبون منه تفجیر الینـابیع والعیون من الصـحاری المقفرة الیابسـة والحـارة من أرض الحجـاز، وتـارة یطلبون جنـات من أعنـاب ونخیـل تجری من تحتها الأنهـار، وتـارة یطلبون انزال الحجـارة من السـماء واخری حضور البـاری تعالی والملائکـة والبیوت من الـذهب؟ وبعـدها یقولون: «أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَی فِی السَّماءِ وَلَنْ نُؤمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلُ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ». فاولئک بطلباتهم تلک، قد کشـفوا عن واقعهم الزائف حیث یعیشون منتهی الکبر وحبّ الجاه الـذی ملأ قلوبهم، واثبتوا أنّ الإنسان عنـدما یقع فی سـلوکه الأخلاقی والفکری تحت تـأثیر تلـک الصـفات الذمیمـة، فسوف یتحرک بعیـداً عن العقـل والمنطق. اختلف المفسـرون بـأن ما المراد من کلمـة (بیت من زخرفٍ)؟ فاحتملوا فیها أمرین: الأول أنّ المراد من الکلمة هو بیت ملیء بالذهب أو أشـیاء مصـنوعة من الذهب، والثانی: أنّ المراد هو بیت منقوش بالزخـارف الذهبیـة، ولکن التفسـیر الأـول أوفق لسـیاق الآیـة وذلـک بـالنظر إلی عبارة (من زخرفٍ). فی «الآیـة السابعـة» والأخیرة من هـذهِ الآیات التی وردت عقیب الحدیث عن قارون، صدر أمر إلهی عام فقال: «تِلْکَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لایُرِیُدونَ عُلُوّاً فِی الْارْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقینَ». نعم فإن عاقبة محبّی الجاه والمسـتکبرین، نفس عاقبة قارون الذی باع کل شـیء من أجل حبّه للجاه والمقام وعاش مغضوباً علیه، وختم حیاته باللعن الإلهی إلی الأبد. ویمکن الاسـتفادة من عطف الفساد علی العلو فی الأرض فی الآیـة أنّ المتکبرین الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۵ ومحبّی الجاه والمقام سـیفسدون فی الأرض فی نهایة المطاف کی یشـبعوا عطشـهم وغرائزهم، ولن یتوقفوا عند أی جنایة یرتکبونها. ومن الجدیر بالذکر أنّ الإمام علی علیه السـلام عندما آلت الیه الخلافة کان یخرج بنفسه إلی السوق، فیرشـد الضّال ویساعـد الضـعیف وعند مروره بجانب الباعة والکسـبة کان یقرأ علیهم هذهِ الآیة: «تِلْکَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لایُرِیُدونَ عُلُوّاً فِی الْارْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقینَ». وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السـلام أنّه عندما تلا هـذه الآیـة بکی وقال: «ذَهَبَتِ واللَّهِ الْأَمانیُّ عِندَ هذهِ الآیِةِ» «۱». ویمکن أن یکون مراد الإمـام علیه السـلام أنّه بما أنّ الباری تعالی جعل الآخرة للّـذین لا یریـدون علوّاً فی الأرض ولا یریـدون الرئاسـة، وهو أمر صـعب جدّاً، فسوف لا تبقی امنیة للشـخص المؤمن فی حرکـة الحیاة الدنیویـة. ویسـتفاد من مجموع الآیات التی ذکرت سابقاً وما شابهها من الآیات أن طلب الجاه والرئاسة، وخصوصاً إذا ما اقترن بالکبر والغرور والعناد فانّه سیفضی بالحیاة الإنسانیة إلی السقوط، وسوف لا تؤثر علی الفرد فقط بل تطال المجتمع ایضاً.

حبّ الجاه فی الروایات الإسلامیة:

ورد الحديث عن هذه الرذيلة مرّةً تحت عنوان (حبّ الجاه) ومرّة تحت عنوان (حبّ الرئاسة) واخرى بعنوان «الشرف»، ونختار قسماً من تلك الروايات الكثيرة: ۱- الروايات التى تتحدث عن مدى تأثير وتخريب هذهِ الرذيلة فى دائرة الدين والمعتقد، بحيث جاء فى الحديث النبوى الشريف: «ما ذِئبانِ ضاريانِ ارسِلا فِى زَرِيبَةٍ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶ غَنَمٍ أكثرَ فَساداً فِيها مِنْ حُبِّ المالِ وَالجاهِ فِى دِينِ الرَّجُلِ المُسلِمِ» «۱». وتأسيساً على ذلك، فإنّ حبّ الجاه والثروة وعبادة المقام تمثل عناصر خطيرة على مستوى عملية هدم الدين وتخريب الإيمان فى أعماق النفس، كما هو الحال فى علاقة الذئب والغنم. ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «حُبُّ الجاهِ وَالمالِ يُنبِتانِ النِّفاقَ فِى القَلبِ كَما يُنبِتُ الماءُ البَقلَ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ طَلَبَ الرِّئاسَةَ هَلَكَ» «۳». ۴- قد أولت الروايات الإسلامية أهمية كبرى لهذهِ المسألة من موقع التحسس لظهور أبسط العلامات لحبّ الجاه وحذّرت منها، ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إيّاكُم وَهَؤلاءِ الرُّؤساءِ الَّذِينَ يَتَرَأسُونَ فَوَاللَّهِ ما خَفَقْتِ النِّعالُ خَلفَ رَجُلٍ إلّاهَلَكَ وأَهلَكَ» «۴». ويجب التنوية إلى أن المستضعفين والمحرومين غالباً ما كانوا حفاة الأقدام فى ذلك الزمان والنعال مختص بالغنى، ومن البديهى أنّ هؤلاء لا يتبعون شخصاً فى سبيل اللَّه ومن أجل الخير! ۵- فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وفى معرض حديثه عن الجذور الأصلية للذنوب: «أوّلُ ما عُصِى اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِستِّ خِصالٍ حُبِّ الدُّنيا وَحُبِّ الرِّئاسَةِ وَحُبِّ الطَّعامِ وَحُبِّ النِّساءِ وَحُبِّ النَّومِ وَالرَّاحَةِ» «۵». ۶- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ حُبَّ الشَّرفِ وَالذِّكرِ لايَكُونانِ فِى قَلبِ الخائِفِ الرَّاهِبِ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷ ۷- وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ طَلَبَ الرِّئاسَةَ بِغيرِ حَقٍّ حُرِمَ الطَّاعَةَ لَهُ بِحَقٍ» «۱». ومن ذلك البيان يتبين أنّ حبّ الجاه والمقام يتقاطع دائماً مع الحق، ومنه يتبيّن أيضاً أنّ حبّ الرئاسة على نوعين:

الرئاسة بالحق والرئاسة بالباطل:

نقرأ فى بعض الآيات أنّ «عباد الرحمان» يطلبون من البارى تعالى أن يجعلهم للمتقين إماماً «واجعَلنا لِلمُتَّقِينَ إماماً» «۲». ومنه يتبيّن أنّ حبّ الرئاسة لا يقع فى الدائرة الذميمة دائماً، كما ذكر هذا المعنى العلّامة المجلسى قدس سره فى كتابه بحار الأنوار، حيث قسّم الرئاسة إلى نوعين: «رئاسة بالحق» و «رئاسة بالباطل»، بعدها ضرب مثالًا لرئاسة الحق وهو التصدى لمقام الفتوى والتدريس والوعظ، ويعقب قائلًا: إنّ الذى له الأهلية لذلك وهو عالم بالكتاب والسنة وهدفه هداية الخلق وتعليم الناس، فيجب عليه إمّا عيناً أو كفايةً التصدى لذلك المقام، ولكن الذى لا علم له ولا اطلاع بالمسائل وليس له هدف إلّاالشهرة وتحصيل المال والمقام، فتلك الرئاسة الباطلة، وهذا هو فعل المبتلين بالصفة الرذيلة وهى حبّ الجاه. وبعدها نقل عن بعض المحققين أن معنى كلمة «الجاه» هو تملك القلب والتأثير عليه، فحكمها حكم تملك الأموال، كل هذهِ الامور هى من أهداف الحياة، وتنتهى بالموت، والدنيا مزرعة الآخرة، فالذى يجعل من تلك زاداً له فى الآخرة فهو السعيد والمنعم، والذى يجعل منها وسيلة لإتباع الأهواء فهو الشقىّ الفقير «۳». وفى الواقع أنّ الذين يطلبون الرئاسة لأغراض اجتماعية وإنسانية، أو بعبارة اخرى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸ يطلبون الجاه للوصول للاهداف الإلهيّة وليس لحب المقام والرئاسة بالذات، اولئك فى الحقيقة السائرون على خط الإمام على عليه السلام الذى يقول: «أما وَالَّذى فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأ النَّسمَةَ لَولا حُضُورِ الحاضِرِ وَقِيامِ الحُجَّةِ بِوجُودِ النَّاصِرِ وَما أَخَذَ اللَّهُ عَلَى العُلَماءِ أَلّا يُقارُّوا عِلى كِظَّةِ ظالِمٍ وَلا سَغبِ مَظلُومٍ لأَلقَيتُ حَبلَها عَلى غارِبِها وَلَسَقَيتُ آخِرها بِكأسِ أولِها» «۱».

علامات حبّ الجاه:

يمكن معرفة الأفراد الذين يحبون الجاه والمقام عن طريق حركاتهم وكلماتهم وسلوكهم، فكل ما يفعلوه من خير يرغبون فى اظهاره والإعلان عنه، حتى تكون لهم المنزلة والمقام عند الناس. وعلى هذا فالذين يحبّون الجاه يتحرّكون فى سلوكهم الأخلاقى نحو الرياء

غالبـاً، لأنّ حبّهم للجاه لا يمكن اشـباعه إلّابالرياء، ولـذلك فإنّ بعض كبار علماء الأخلاق، ادرجوا عنوان الرياء وحب الجاه سويـةً فی كتبهم «۲». وكثير من الـذين يحبّون الجـاه يحبّون أن يحمـدوا بمـا لـم يفعلوا وبهـذا جـاءت الآيـة الشـريفة: «يُحِبُّونَ أن يُحمَـدُوا بِما لَم يَفعَلُوا» «۳» فهـدفهم الشـهرة والوجاهـة والإشارة إليه بالبنان، عن أی طريق كان، وليس هـدفهم من الوجاهـة هو التحرك باتّجاه تفعيل الخير فی المجتمع من موقع الإصـلاحات الاجتماعيـة، ولكن الهـدف هو مـدح النـاس وخضوعهم لهم والإشـارة إليهم بالبنان كما قلنا، فهم يسـعون للأعمال التی فيها الشهرة وإن كان مردودها قليلًا، ولا يسعون أبداً للأعمال التی لا تحقق لهم الوجاهة والسمعة وإن كانت تلـك الأعمـال تعود بـالنفع الكثير للمجتمع. محبو الجـاه يتوقعون أن يُمـدحوا دائمـاً، ولاـ يرغبون بالنقـد والتـأنيب وينتظرون الاـحترام الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹ من الجميع فی المجـالس وغيرها ولا يحبون أن يجلس أحـد فی مكان أعلی منهم، أو يقاطعهم فی أثناء كلامهم ويجب أن يكون كلامهم هو الكلام الأول والأخير، ومن قـدّم إليهم صـنوف المدح وآيات الاحترام والتبجيل فهو إنسان شريف ويعترف بالجميل، ومن لم يكن كـذلك فهو لئيم وناكر للجميل، ولـذلك فإن مثل هؤلاء الأشـخاص غالباً ما يكونون منبوذين ومكروهين، ورجوع بعض المحتاجين إليهم هو من باب الإجبار وعـدم الحيلة. مثل هؤلاء الأفراد يعرفون بسـرعة، وجاء فی حديث عن الإمام الصادق عليه السـلام: «إنَّ شِرارَكُم مَن أَحبَّ أن يُوطّأ عَقِبَهُ» «۱». ونقرأ فی حديث آخر عن الرسول الأكرم صـلی الله عليه و آله: «مَنْ أَحبَّ أن يُمثّل لَهُ الرِّجالُ فَليَتَبوءَ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ» «۲». ومن العلامات الاخرى لهم، أنّهم يعيشون فی حالة الوهم والشخصية الخيالية الضاربة فی أحلام اليقظة، فما لا يحصلونه فی عالم الواقع من المنزلة والجاه والاحترام يجدونه حاضراً فی عالم الوهم والخيال.

أسباب ومقاصد حبّ الجاه:

فی بحث «حبّ الجـاه» علّق المرحوم «الفيض الكاشـانی» تعليقـاً لطيفـاً، فقـال: «إنّ تعلق النـاس بحب الجاه والمقام، أو بعبارة اخرى أنّ حبّ التسـلط علی القلوب أقوى من حبّ المـال والثروة، لأنّ الوصول للمال والثروة يكون عن طريق الجاه، أسـهل منه عن طريق المال للجـاه، حيث يوجـد الكـثير من المتمولين لكن لاـ سـيطرة لهم علی قلوب النـاس، ولكن الـذين يسـتطيعون التـأثير علی القلوب، يكون تحصـيل المـال والثروة أسـهل لهم. ثانيـاً: الأموال تكون معرضـة للتلف والحفاظ عليها يعـدّ أمراً صـعباً لكن الـذی يملك الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰ القلوب يكون المحافظـة عليها أسـهل (وإن كانت فی هذا الطريق أسـهل). ثالثاً: التسـلط علی القلوب يزداد يوماً بعـد يوم بـدون تجشم عنـاء كبير، ونفس مـدح وثنـاء الناس كفيل بنشـرها، ولكن جمع وزيادة الأموال يحتاج إلی تجشم العناء الكبير» «۱». ولقـد ذكر المرحوم الفيض الكاشانی هذا الكلام لبيان ميل الإنسان لحالة «الجاه والمقام»، ولكن إذا دققنا النظر فسـنرى أنّه يمكن أن نعتبرهـا من الـدوافع «لحب الجاه»، لأنّه عنـدما يكون الجاه والمقام سـبباً لزيادة الأموال والوصول إلی جميع الأمانی والأهواء، علاوةً علی خضوع الناس وتواضـعهم، فمن الطبيعی أن تتوجه الأنظار إليه، بحيث يمكن القول أنّه لا يكاد أن ينجو منه أحد، وإن كان بمرتبةٍ أضـعف عنـد بعض الناس، وقـد ورد فی كلمات أهل المعرفـة والحكمة أنّه: «آخِرُ ما يَخرُجُ مِنْ قُلُوبِ الصِّدِيقِينَ حُبُّ الجاهِ» «۲». ومن الأسـباب الاخرى لحبّ الجاه هو «حبّ الـذات» المفرط عنـد الإنسان، حيث يتحرّك الإنسان لارضاء هـذا الـدافع المترسـخ فی أعماق النفس بكل وسـيلة تمكنه من تحصيل ذلك الغرض، ومنها المقام والمنزلة فی واقع المجتمع. وهناك دوافع اخرى لهذه الحالة النفسية مثل الشـعور بالحقارة والدونيـة، فالأشـخاص الذين ذاقوا مرارة الحقارة وعاشوا الإهانة من الآخرين لأیسـبب كان فإنّهم يسـعون وعن طريق حبّ الجاه والأمانی الكاذبـة لتعويض ذلك النقص. وكذلك الحسد والحقد والانتقام يمكنها أن تكون من الأسـباب وعلل حبّ الجاه، فإنّ من يعيش الحسـد تجاه الآخر يتحرّك من موقع طلب الرياسة والمنزلة الاجتماعية ليكون الآخر فی موقع أسـفل منه فی دائرة العلاقات الاجتماعيـة ويسـتغل الفرصة لتنفيذ ما فی قلبه من الحسد والحقد والانتقام. والخلاصة أنّ حبّ الجاه من الرذائل المعقدة التی لها جذور ومشتركات مع كثير من الرذائل الاخرى

علاج حبّ الجاه:

بالنظر للأبحاث التی مرّت بنا فی الوقایـة أو معالجـة الرذائل الأخلاقیـة اتضـح لدینا أصل کلّی وهو أن المبتلین بتلک الرذائل الأخلاقیة إذا ما تنبهوا للعواقب السـیئة لهذهِ الصـفات، فإنّهم فی الأغلب الأعم سیفکرون فی طرق العلاج لها وترکها. وهذا الأصل یصدق أیضـاً فی مورد حب الجاه، فإذا ما انتبه المبتلی بحبّ الجاه الى أنّ هـذهِ الرذیلة لا تبعده عن الخالق فحسب بل عن المخلوق ایضاً، فیهرب منه الصدیق ویبتعد عنه الناس، وأنّ هذه الصفة ستجرّه للریاء الذی هو من أخطر الذنوب أو ربّما یصبح «کالسامری» و «قارون» اللذان کفرا وعـادا نبی اللّه علیه السـلام، وإذا مـا علموا أنّ تـأثیر حبّ الجـاه علی الإیمـان القلبی للإنسان کمثل الـذئب الضاری فی قطیع الغنم، فلا یسلم دین وإیمان للإنسان فی حرکـة الحیاة الروحیـة ویسـتبدله بالنفاق الـذی ینبت فی قلب المحب للجاه کما ینبت الزرع فی الأرض السـهلة، فإذا علم الإنسان بکل هذه المخاطر والآثار المخرّبة لهذه الرذیلة فسوف یجدد النظر فی سلوکیاته وأعماله قطعاً. وإذا فکر هذا الشـخص بعدم ثبات هذهِ الدنیا والتفت إلی قصر العمر وأنّ النعم مواهب مؤقتة وعاریة مستردة أو علی حد تعبیر بعض علماء الأخلاق، أنّ کل الناس شـرقاً وغرباً لو سـجدوا للإنسان لمـدّة طویلة فلا یلبث أن یموت الساجد والمسـجود له، فمن الأکید أنّه سـینتبه من غفلته ویرعوی من سـلوکه. ومن الدروس الاخری النافعة فی التخلص من حبّ الجاه والسلطة هو مطالعة أحوال وحیاة فرعون ونمرود وقارون والسـامری، ونهایـة حیـاتهم المؤسـفة، هـذا من جهـة، ومن جهـة اخری فـإنّ حب الجـاه ناشـیء من ضـعف الإیمـان خصوصـاً الإعتقاد بالتوحیـد الأفعالی، فبتقویـة دعائم الإیمان فی أعماق القلب سـیزول حب الجاه، فمن یدرک عظمة اللّه تعالی، یوقن أنّ العالم بأسـره لا یساوی شـیئاً فی مقابل ذاته المُقدّسـة، وأن العزّة والذلـة والعظمة والحقارة بید اللّه تعالی، والأهم من ذلک کلّه أن القلوب بید خالقها، فلاـ یمکن الاعتمـاد علی اقبال الناس وإدبارهم، فإن إقبالهم وإدبارهم لا ثبات فیه مطلقاً ولا یعتمـد علیه، فالبعض الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۲ یمثّلهُ بالقِـدر فیه ماء وصل الی درجة الغَلیان فهو فی حالة تَغیّر مستمر، ومن یتحرّک فی تدبیر اموره علی ذلک الأساس فَمثله مثل الـذی یریـد البناء علی أمواج البحر، والمراهنة علی معطیات رضا الناس وحالة الاعتماد علیهم لا ینتج الضـرر الاخروی فقط، بل لا ینسـجم حتی مع خط العقل فی سلوکیاتنا الدنیویة أیضاً. کل ما ورد هی طرق العلاج من الناحیة العلمیة، وأمّا من الناحیة العملیة، فطریقـة علاـج حب الجـاه هو أن یضع الشـخص نَفْسَه فی حالـة یمیتُ فیهـا «حب الجـاه»، فمثلًا یجلس فی المجالس العامـة مع الأفراد العـادیین ولیس مع الشخصـیات المرموقـة، وعلی مسـتوی اللبـاس، یجب أن یتّخـذه من النوع المتوسـط وکـذلک بیته ومرکبه وطعـامه وأمثـال ذلک. ویعتقـد بعض اعاظم علماء الأخلاق، أنّ أفضل طریقـة لقطع حب الجاه هو العزلـة عن الناس، بشـرط ان لا تکون العزلة بـدورها وسـیلة لکسب الجاه عنـد الناس بطریقـة غیر مباشـرة. وقـد کان کثیر من المتصوفة ودعاة العرفان، ولأجل کسـر حب الجاه فی نفوسـهم یتصـرفون فی واقع الممارسـة بسـلوکیات لاـ یقبلها الشـرع، والعجیب أنّهم کانوا یسـمّون مثل هـذهِ الـذنوب الجلیـة بالـذنوب «الصوریـة» القابلة للصـفح والتسامح، وینقل المرحوم «الفیض الکاشانی» أنّ أحد الملوک القدماء قرر الذهاب الی زاهد زمانه، وعندما أحسّ ذلک الزاهـد قرب وصول الملک أمر بأن یأتوه بالخبز والخضـروات، وأخـذ یأکل بنهم وحرص ویکبر اللّقمـة فی یـده، وعندما رأی الملک ذلک المنظر، سـقط الزاهـد من عینه وعاد إدراجه بـدون أن یکلمه بشـیء، فقال الزاهد: «الحَمدُ للّهِ الّذِی صَـرَفَکَ عَنّی». وینقل عن بعضـهم أنّهم کانوا یأخذون بعض الأشربة ویضعونها فی آنیة ملوّنة کی یتصور الناس أنّهم یشربون الخمر وبذلک یسقطون من أعینهم. وینقل أیضاً عن آخر عرف بالزهـد بین الناس وأصـبح محطّاً للأنظار، فـدخل الحمّام یوماً ولبس ثیاب شـخص آخر تعمداً ووقف فی وسط الطریق فعرفه الناس فأخذوه وضربوه واخذوا الثیاب منه وأعادوها لصاحبها، وقالوا هذا رجل کذّاب ومخادع، وابتعدوا عنه!! الاخلاـق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۳ بلاـ شـک أن هـذهِ الأعمـال وما شابهها قـد تکون من الموارد المحرمـةً قطعاً وفی اخری من المکروهـات، ولم یبیـح الشـارع المقـدس أبـداً أن یضع الإنسان المسـلم نفسه فی هـذهِ المواضع حتی یلوّث سـمعته ویسـقط من أعین الناس، وکما أنّ سوء الظن بالناس محرم فی الاسلام، فکذلک توفیر عوامل سوء الظن هو بدوره من المحرمات. وعلیه یجب أن تکون الطرق فی تهـذیب الأخلاـق مشـروعة ومطابقـة للموازین الإسـلامیة والعقلیـة، ومع وجود الطرق الشـرعیة لا داعی لسـلوک السـبل غیر

المشروعة. والعجيب فى الأمر أن المرحوم «الفيض الكاشانى» عندما ذكر تلك الامور عقّب قائلًا: إنّ وضع الشراب المحلل فى آنية توهم الناظر بالشرب للمحرم هو محل تأملٍ من الناحية الفقهية ولكن أهل الحب والهوى يمكن أن يعالجوا أنفسهم بامورٍ لا يفتى بها الفقيه أبداً، ويعتبرونها من طرق إصلاح القلب، فبعد ارتكابهم لتلك الذنوب «الصورية» كانوا يجبرونها بالأعمال الخيريّة، وبعدها يذكر قصة سارق الحمّام «۱». لو كان هذا الكلام من بعض المتصوفة لما كان محلًا للتعجب، ولكن يصدر من فقيه معتبر كالفيض الكاشانى، فهو غير متوقع منه، فالتسلط على أموال الآخرين ولبس ثياب شخص آخر فى الحمام هو من الذنوب القطعية، وهو ليس بالذنب الصورى، وارتكاب الذنب لا يناسب أهل الحب والهوى ولا يُصلح القلب، علاوة على ذلك فمع وجود الطرق المشروعة فما الداعى للتوسل بتلك الطرق الملتوية؟ والأقرب للحق أنّ هذا العالم الكبير تأثر بكلمات الغزالى فى كتابه «احياء العلوم» فالغزالى لديه كثير من هذهِ الشطحات فى دائرة السلوك والممارسة الصوفية، ولعل قصد المرحوم الفيض الكاشانى هو نقل الكلام عن الغزالى وليس تأييداً لمثل تلك السلوكيات. وهناك فرقة «الملامتية» «۲» وهى من الفرق الصوفية المعروفة، حيث انتخبوا تلك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴ الطريقة لتخريب سمعتهم وتشويه شخصيتهم أمام الغير، ومن المؤكد أنّ الإسلام لا يقرّ مثل هذهِ الأعمال البعيدة عن المنطق والعقل والشرع، ويريد من الإنسان الوصول للحق عن طريقه المشروع لا غير. إنّ المرحوم الفيض الكاشانى لم يقرّ أعمال وطرق الملامتية، الذين كانوا يرتكبون الكبائر لكى يسقطوا فى أعين الناس، بل حرّمها فى أماكن اخرى من كتابه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵

التبرير والعناد

تنويه:

إنّ حالة التبرير للأخطاء تعتبر من أهم الموانع لدرك الحقيقة، لأنّها السبب فى عدم وصول الإنسان للحق بل وتركسه فى أو حال الباطل. والقصد من اسلوب التبرير والعناد، ليس هو الاصرار على مستوى كشف الحقائق وطرح السؤال تلو السؤال، بل إنّ السؤال هو المفتاح لكشف الحقائق، ولكن المقصود هو أنّ الإنسان وبعد انكشاف الحقائق والبراهين، يبقى مصراً على الباطل ويتهرب من الحق بتشبثه بالحجج الواهية وايراد المغالطات الغير المنطقية. يمكن أن تظهر هذهِ الرذيلة فى فردٍ ما بصورةٍ خاصة، أو تصبح سيرة وعادة لقوم من الأقوام. وقد أثبت التاريخ من بين الأقوام السابقة، أنّ قوماً من بنى اسرائيل كانوا أكثر عناداً من من غيرهم، ولذلك تطرقت كثير من آيات القرآن الكريم لعنادهم واصرارهم فى خط الزيغ والخطأ وسنتطرق لبحثها فى تفسيرنا للآيات إن شاء اللَّه تعالى. ويمكن القول أننا نجد هذهِ الرذيلة متمكنة ومتجذرة فى جميع الأقوام الذين يعيشون الجهل والانانية حيث لا يتركون أعمالهم القبيحة ولا يقلعون عنها بسهولةٍ. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶ وعلى أية حال فانّ هذا الخُلق القبيح من أسوأ الأخلاق الشيطانية، ويمكن القول إنّ أول درس تلقاه المعاندون على مستوى الاصرار على الخطأ كان بواسطة الشيطان، أمّا نتائج وافرازات هذا الخلق الذميم فكبيرة جداً لدرجةٍ أنّ الكثير من الحروب الدامية التى ذهبت بالأنفس والأموال ودمرت فيها المدن العامرة كانت بفعل هذه الخطيئة. بهذهِ الإشارة نعود للقرآن الكريم والروايات الإسلامية ونستعرض العوامل المسببة لهذا الخُلق القبيح وآثاره الضارّة وطرق علاجه: ۱- «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجّوا فِى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۱». ۲- «امَّنْ هذَا الّذِى يَرْزُقُكُم إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» «۲». ۳- «قالَ أَنْظِرنِى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قالَ إنّكَ مِنْ المُنْظَرِينَ قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِى لَاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» «۳». ۴- «قالَ رَبِّ إنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهاراً* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائى إلّا فِراراً* وَإنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا إسْتِكْباراً» «۴». ۵- «فَرَجَعُوا إلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إنَّكُمْ أَنْتُمُ الظالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ* قالَ أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللَّهِ ما لايَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ ... قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ» «۵». ۶- «وَإذْ

قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ أَنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَکُونَ مِنَ الجاهِلِینَ ... فَذَبَحُوها وَما کادُوا یَفْعَلُونَ» «۶». ۷- «وَإذْ قُلْتُم یا مُوسی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْکُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمُ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷ تَنْظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْنکُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ» «۱». ۸- «قالُوا یا مُوسی إنا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِیها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّکَ فَقاتِلا إِنّا ههُنا قاعِدُونَ» «۲». ۹- «وَقالُوا یا أَیُّهَا الساحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ* فَلَما کَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إذا هُمْ یَنْکُثُونَ» «۳». ۱۰- «أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولًا» «۴».

تفسیر واستنتاج:

«الآیة الأولی تتکلم عن الکفّار المعاندین، فإذا ما أنعم اللَّه علیهم ورحمهم وکشف عنهم البلاء لغرض تنبههم لأخطائهم نراهم علی العکس یزدادون غروراً، ویصرون علی غیّهم وطغیانهم «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَکَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجّوا فِی طُغْیانِهِمْ یَعْمَهُونَ». نعم فإن هذه الفئة التی تتعامل مع الحق والواقع من موقع العناد والاصرار علی الباطل، مرّة یتهمون الرسول صلی الله علیه و آله بالجنون وتارة یطلبون منه التسلیم لکلامهم، وعندما یرون المعجزات کانوا یصرون ویستکبرون وینکرون کل شیء. فاللَّه تعالی شأنه ولأجل تنبیههم، جعلهم عرضة للبلاء والتمحیص مرّة، ومرّة اخری یغدق علیهم من نعمهِ ورحمته، فلم ینفع کل ذلک لا البلاء والتمحیص ولا اغداق النعم، وکل ذلک کان بسبب جهلهم وعنادهم وتعصبهم. وقال بعض المفسرین: إنّ الطغیان له أشکال مختلفة، طغیان العلم هو التفاخر، وطغیان الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۸ المال البخل، وطغیان العبادة الریاء، وطغیان النفس اتباع الشهوات «۱»، فیصاب الإنسان بکل هذه الامور علی أثر اللجاج والعناد. وتتحرک «الآیة الثانیة» لتتناول بالبحث المشرکین اللجوجین ایضاً الذین لم یکونوا لیسلموا بأیة قیمة کانت للمنطق السلیم والواضح للرسول صلی الله علیه و آله، ولا استعداد عندهم لترک آلهتهم المصنوعة بأیدیهم. فیقول القرآن الکریم فی هذه الآیة: «امَّنْ هذَا الّذِی یَرْزُقُکُم إنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ بَلْ لَجّوا فِی عُتُوٍّ وَنُفُورٍ». کرّر القرآن الکریم هذا القول مراراً للمشرکین من أنّ أصنامکم لا فائدة منها، فلا یدفعون عنکم عدوّاً، ولا یرزقونکم، ولا یکلمونکم، ولا ینفعونکم ولا یضرونکم ولا عقل لهم ولا شعور. ومع ذلک کلّه أی دلیل لدیهم لعبادة تلک الأصنام؟ وعلی الرغم من فقدان الدلیل الحاسم علی سلوکهم المخالف للعقل والفطرة، استمروا بلجاجةٍ علی عبادة الأصنام. وتتعرض «الآیة الثالثة» من هذهِ الآیات إلی أول لجوج ومتعصب فی مقابل الحق، ألا وهو الشیطان، عندما تکبّر وطرد من قبل الباری تعالی وفقد مقامه الرفیع والمنزلة التی کانت لدیه بین الملائکة، وقد کان علیه أن یلتفت لخطأه الکبیر، ویعود إلی اللَّه تعالیمن موقع الندم، ویغسل ذنبه بماء التوبة، ویطفیء النار التی أججها بدموع الخجل، ولکنه أبی واستکبر وأصرّ علی البقاء فی دائرة المعصیة أکثر وأکثر ولم یکن ذلک إلّابسبب التکبّر والحسد واللجاجة، وقرّر أن ینتقم من آدم علیه السلام وذرّیته، ویضلّهم بوساوسه، ولیس لیوم أو ساعة أو شهر ولکنه سیستمر إلی نهایة الدنیا، فی تکریس الإثم والخطیئة وعناصر الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۹ الانحراف والزیغ فی کل المجتمعات فلا یسلم من منزلقات البؤس والفساد لا الکبیر ولا الصغیر ولا الرجل ولا المرأة. فطلب من اللَّه تعالی: «قالَ أَنْظِرنِی إلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ* قالَ إِنّکَ مِنْ الْمُنْظَرِینَ قالَ فَبِما أَغْوَیْتَنِی لَاَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَکَ الْمُسْتَقِیمَ». ومن المؤکّد أن العمر الطویل له فائدة کبری لکل شخص یزید من حسناته، ویصحح أخطاءه، وإذا کان له ماضٍ أسود یبدّله إلی مستقبل سعید ونورانی، ولکن العمر الطویل للطغاة والصعالیک والمعاندین علی العکس من ذلک فله نتائج عکسیة. ولعل إجابة دعائه بالعمر الطویل من رحمة اللَّه تعالی التی تستوعب الخاطئین، أو ربّما کان تقدیراً من اللَّه وجزاءً لعبادته للّه آلاف السنین، ولعله یعود عن غیّه، لکن هذهِ النعمة عندما تقع فی أیدی الطغاة والصعالیک والمعاندین فستتحول إلی نقمةٍ علیهم. وتأتی «الآیة الرابعة» لتتحدث عن قوم نوح علیه السلام وعنادهم فی مقابل دعوة نبیّهم الرحیم بهم، فدعاهم لیلًا ونهاراً فی الخلاء والملأ لینجیهم من العذاب، وکلما ألحّ علیهم فی قبول دعوة الحق، ازدادوا غیّاً وعناداً. فاشتکی نوح علیه السلام إلی اللَّه وقال: «قالَ رَبِّ إِنِّی

دَعَوْتُ قَوْمِی لَیْلًا وَنَهاراً* فَلَمْ یَزِدْهُمْ دُعائی إِلّا فراراً* وَإِنِّی کُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوا ثِیابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَکْبَرُوا إِسْتِکْباراً». فأی تعصب وعناد هـذا الـذی یضع الإنسان اصابعه فی آذانه حتی لا یسمع الحق ویلفّ وجهه ویغطیه بثوبه حتی لا ـ یری من یـدعوه إلی الحق والسعادهٔ والخیر، بل یتحرّک بعیـداً عنه ویتهرب من مواجهته؟! فالهروب من الحق له حـدود، ولکنهـم تعـدّوها إلی أبعـد شـیء ولم یتخـذوا غیر طریـق المعانـدهٔ والتعصب والإسـتبداد. فکیـف یجـوز للإنسـان المریض أن یفرّ من الطبیب، وللغارق فی الظلمات أن یتهرب من النور، وللغریق أن یتملّص من المنقذ له؟ إنّه أمر محیرٌ حقّاً، ولکن العناد واللجاج الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰ والإسـتکبار یقف وراء الکثیر من هـذا القبیل من السلوکیات الغارقهٔ فی الوهم والزیف. ولا نجـد أحداً من الأنبیاء علیهم السـلام دعا قومه کما دعا نوح علیه السلام إذ عمّر فیهم ۹۵۰ سنهً وأکّد علیهم دعوته الإلهیهٔ مراراً وتکراراً، وعبارهٔ «اللیل والنهـار» یمکن أن تکون إشارهٔ إلی مجالسـهم العمومیـهٔ التی کانوا یجلسون فیها باللیل والنهار، فکان یـدعوهم إلی اللَّه تعالی فی کل وقت، ولم یؤمن له إلّاقلیل، وعلی حـد تعبیر البعض أنّ معدل من کان یؤمن به من قومه فرد واحد لکل اثنی عشـرهٔ سـنهً. تعبیر: «جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ»، هو وضع رؤوس الأصـابع فی الآـذان لمنع السـماع، أو هو إشـارهٔ لشـدّهٔ موقفهم فی الهروب من الحق، وکـأنّهم کانوا یریـدون أن یـدخلوا أصابعهم کلها فی الآذان حتی لا یسـمعوا الحق. تعبیر: «فَلَمْ یَزِدْهُمْ دُعائی إِلّا فراراً»، یبین أنّ دعوهٔ نوح النبی علیه السلام کانت لها نتیجهً عکسیهٔ عندهم، نعم فإن المشاکسین والمستکبرین یصرون علی أفعالهم عند سماعهم للحق، ومثلهم کمثل المزابل عند هطول المطر علیها حیث تزداد عفونهٔ وتشتد رائحتها النتنهٔ. «الآیهٔ الخامسهٔ» تشیر إلی عناد قوم ابراهیم علیه السلام من عبدهٔ الأوثان فی بابل بعـدما أثبت لهم ابراهیم علیه السـلام بـدلیل قاطع زیف آلهتهم، فحطّم الأصـنام کلها إلّاکبیرهم وطلب منهم أن یسألوا الکبیر عمّن فعل بآلهتهم تلک الفعلهٔ الشـنیعهٔ؟؟ لقد تنبهوا للأمر فی واقعهم ولاموا أنفسـهم واستیقظوا للحظهٔ، ولو قدّر أن تستمر هذهِ اللحظهٔ لتغیر موقفهم من الشـرک إلی الإیمان، ولکن عنادهم ولجاجتهم وتعصـبهم لم یمنحهم الفرصهٔ للتفکیر السلیم وتقول الآیهٔ: «ثُمَّ نُکِسُوا عَلی رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ یَنْطِقُونَ». فقال إبراهیم علیه السـلام: «أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دوُنِ اللَّهِ ما لایَنْفَعُکُمْ شَیْئاً وَلا یَضُرُّکُمْ افٍّ لَکُم وَلِما تَعبُدُونَ أَفَلا تَعقِلُونَ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱ إذا تجرّد الإنسان من تعصبه وعناده، ورأی بامِّ عینیه أنّ الذی کان یعوّل علیه دائماً فی المحن والصـعاب، أصبح لا قیمهٔ له الیوم وتبیّن زیفه بحیث لا یستطیع معرفهٔ من عمل علی تخریبه وتحطیمه، ألیس من الجدیر بذلک الشـخص أن یستیقظ من نومته تلک ویتحرّک بعیداً عن تلک السلوکیات الغارقهٔ فی الزیف ویتجنب هذهِ الخرافات والاعتقـادات السـخیفهٔ ویطهر فکره منهـا؟! نعم فـإن التعصب واللجاج یضع حجاباً قویاً علی عین وقلب الإنسان فینکر اوضـح المسائل. واللطیف فی الأمر أنّ الآیهٔ الاولی ذکرت: «فَرجِعُوا إِلی أَنْفُسِهُم» وهو تعبیر حاکی عن الاستیقاظ والانتباه، ولکن الآیهٔ الثانیهٔ تقول: «ثُمَّ نُکِسُوا عَلی رُؤُوسِهُم» وهو تعبیر عن تراجع من موقع الوضوح فی الرؤیـهٔ وبـدوافع جاهلیهٔ وغیر منطقیهٔ مترسبهٔ فی دوافع النفس. «الآیهٔ السادسـهٔ»، تسـتعرض عناد بنی اسـرائیل الذی یضـرب به المثل ففی، هذه الآیهٔ وما قبلها اشارهٔ إلی قصهٔ القتل المُبهم الذی وقع فی قوم بنی اسـرائیل، وکاد أن یفضـی إلی إقتتال الطوائف فیما بینها. فقال موسـی علیه السـلام: بأمرٍ من اللَّه سوف نعرّف القاتل، فاذبحوا بقرهٔ ولامسوا بقسم من بدنها ببدن المقتول، فسیقول لکم من هو القاتل. حیّر هذا الاقتراح العجیب بنی اسرائیل، ولکنه فی نفس الوقت بعث الأمـل فی نفوسـهم، وحـان الوقت لتنفیـذ أوامر النبی موسـی علیه السـلام وانهـاء المسألـهٔ، ولکن بنی اسـرائیل وبصورهٔ غریبـهٔ أخـذوا یستشـکلون ویتسـاءلون من موقع العنـاد وعـدم الرغبـهٔ فی الامتثـال، فمرّهٔ یسألون عن عمرها ومرّهٔ عن لونها واخری عن نوعها وعملها، فبأسألتهم تلک ضـیّقوا فرصـهٔ العثور علی مثل هـذهِ البقرهٔ لحظهٔ بعـد لحظهٔ وبالتالی وبعد عناد کبیر وسـعرٍ خیالی وجدوا البقرهٔ بتلک الأوصاف المطلوبهٔ، ولو أنّهم لم یسألوا ولم یستشـکلوا وذبحوا أول بقرهٔ وقعت فی أیدیهم، لأنحلت المشکلهٔ، لأنّه لو کان (المأمور به) مشـروطاً بشرائط معینهٔ لوجب البیان الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۲ فی مقـام الحاجـهٔ، وکما یقول الاصولیون: «أن تأخیر البیان عن وقت الحاجـهٔ قبیـحٌ». وفی الحقیقـهٔ إنّ هـذهِ الأسـئلهٔ والتدقیق فی المسألهٔ یدلّ علی عدم إیمانهم بحکمهٔ اللَّه تعالی، والحکیم لابدّ وأن یبیّن کـل مـا هو لاـزم وضـروری من الشـرائط والقیود، ولا یحتاج للسؤال، ویمکن أن یکون قصـدهم من ذلک هو عـدم وجود تلک

البقرة حتى يستمروا بمغامراتهم التى يتحرّكون من خلالها فى دائرة العناد دوماً فى مقابل الإمتثال للحق، فقال القرآن الكريم: «وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ». فتبيّن هذهِ الآيات مدى النزاع الذى حصل بين بنى اسرائيل لمعرفة القاتل، وعلى ذلك كان يتوجب عليهم تنفيذ أوامر موسى عليه السلام بسرعة ليجدوا القاتل، ولكن اللّجاج الذى دخل فيه بنو اسرائيل لم يعطهم الفرصة لانهاء الأمر فسألوا وسألوا حتى صعّب عليهم البارى تعالى الأمر فأصبح البحث عن تلك البقرة أمراً مستعصياً جداً، فهى بقرة، صفراء بالكامل تسرُّ الناظرين، لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك، ولا ذلول وتثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمةً لاشيَةَ فيها، فمن البديهى عدم توفّر مثل هذه الأوصاف فى بقرة واحدة إلّابصعوبةٍ، ولكن كان عليهم أن يدفعوا ثمن لجاجهم وعنادهم، فاضطروا لشرائها بثمنٍ باهظ جدّاً، فذبحوها وضربوا بعضها ببدن الميت فعادت الحياة إليه باذن اللَّه ودلّهم على قاتله. «الآية السابعة» أيضاً تتحدث عن بنى اسرائيل وعنادهم العجيب حيث أخذوا باطراف موسى عليه السلام وطلبوا من نبيّهم المحال وقالوا: «وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً». الظاهر أنّهم كانوا يعلمون أنّ اللَّه تعالى ليس بجسم ولا جهة له ولا مكان، ولكن كلامهم كان بسبب طغيانهم وعتوّهم، ومن أجل أن يبيّن اللَّه تعالى جيداً مسألة استحالة رؤيته، ولتأديب اولئك القوم المعاندين أمر بسبعين من رؤوسائهم أن يخرجوا مع موسى عليه السلام للميعاد فى جبل الطور، ليتلقوا الجواب على سؤالهم العجيب هناك وينقلوا ما سيشاهدوه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۳ لقومهم، وعند وصولهم لجبل الطور، سأل موسى عليه السلام بالنّيابة عنهم أن يتجلّى اللَّه تعالى لهم جهرةً، فقال: «رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى»، فأخرج هذه الفكرة من رأسك الى الأبد. فصعقت صعقة شديدة ملأت الكون، وزلزل الجبل وتلاشى، ومات ال ۷۰ نفر إلّا موسى عليه السلام فقد فَقَدَ الوعى كما ذكر القرآن فى ذيل الآية: «فَأَخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ». وعندما استيقظ موسى عليه السلام، طلب من البارى تعالى إعادة الحياة إليهم، لئلا تعود المشاكل بينه وبين بنى اسرائيل: «قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» واستجاب اللَّه دعاءه وأعادهم للحياة كما صرّح بها القرآن الكريم فيما بعدها من الآيات «ثُمَّ بَعَثناكُم مِنْ بَعدِ مَوتِكُم لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ». ويتبيّن ممّا ذكر آنفاً أنّ موسى عليه السلام لم يطلب هذا الأمر من تلقاء نفسه، ولكن نزولًا عند رغبة بنى اسرائيل، حتى يُلَقّنوا درساً عملياً ويفهموا ان الذى لا يستطيع أن يشاهد الصاعقة كيف يمكن له أن يرى البارى تعالى شأنه؟ وهو أيضاً عقاباً وتأديباً لهم حتى لا يطلبوا اموراً مستحيلةً. «الآية الثامنة» من الآيات التى وردت فى مقام الحديث عن عناد بنى اسرائيل بعدما نصرهم اللَّه على عدوّهم وخلّصهم من شر فرعون وجنوده حيث توجهوا نحو الديار المقدسة يعنى بيت المقدس، التى كانوا يتمنون الوصول إليها، وعندما وصلوا على مقربة من الأرض المقدّسة جاءهم الأمر أن ادخلوا هذهِ الأرض ولا تخافوا ممّا سيحدث فيها، ولكنّهم قالوا لموسى عليه السلام: إنّ فيها اناس يسمّون (بالعمالقة) أشداء أقوياء ولن ندخلها حتى يخرجوا منها. فقال لهم بعض المؤمنين من موقع النصيحة والمسؤولية بأنّكم إذا دخلتم الباب عليهم فسينصركم اللَّه على العمالقة بفضله وعنايته. ولكن بنى اسرائيل ظلّوا على غيّهم وكما جاء فى الآية الكريمة «قالُوا يا مُوسى إنا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴ لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا ههُنا قاعِدُونَ». وهنا أيضاً ذاق بنو اسرائيل طعم عنادهم ولجاجتهم، فأخذ اللَّه تعالى النصر عنهم ودخول بيت المقدس أربعين سنةً، وتاهوا فى الصحارى القريبة منها، فسمّوا تلك الصحارى بأرض «التيه» التى كانت قسماً من صحارى (سيناء). والمسألة المهمّة والتى يجب الإشارة اليها هو أن اللّجاج وعدم الانصياع يفضى إلى التعامل مع البارى تعالى من موقع الاهانة والاستهزاء، حيث قالوا: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا ههُنا قاعِدُونَ»، فالإهانة والاستهزاء فى هذا الكلام يتجليان بكل وضوح، ولكن الجاهل والأنانى واللجوج لا يعرف منطق أفضل من هذا. والواقع أنّ التيه أربعين سنة فى تلك الصحارى، كان حكمة ورحمة إلهية، وبهدف تغيير النسل الذى نشأ فى مصر، والذى لم يستطع عمل موسى عليه السلام الثّقافى والفكرى الدؤوب أن يغيّر فيه الكثير، فجاء نسل جديد نشأ فى الصحراء وفى وسط المشكلات فحصلت فيه التغييرات الداخلية اللازمة لتحرير الديار المقدسة من الاعداء وإقامة الحكومة الإلهية، وفى الحقيقة أن هذهِ العقوبة كانت فى الواقع رحمة ربانية ولطف إلهى، وأكثر العقوبات الإلهية هى من هذا القبيل.

فى «الآيـة التاسعة» من الآيـات نقرأ حـديثاً عن قوم فرعون الـذين آتـاهم اللّه تعالى «بتسع آيات» «۱» إلهية على مسـتوى الاعجاز، ولم يكونوا بأقل عنادٍ واصـرار على الانحراف من بنى اسـرائيل حتى أنّهم قالوا لموسـى «وَقالوا يا أَيُّهَا الساحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنـا لَمُهْتَـدُونَ* فَلَما كَشَـفْنا عَنْهُمُ الْعـذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ». تعبيرات الآيـة واضـحة جـدّاً، فكلها تبيّن وتعكس العناد الـذى كانوا عليه، فأولهـا نعتوا موسـى عليه السـلام بالسـاحر ومع ذلـك يلجأون إليه لكى يخلصـهم من البلاء، وتعبير «ربّـك» علامـة اخرى على العناد. وتأكيـدهم على الإيمـان بموسـى عليه السـلام على فرض انقـاذهم من البلاء واضـح الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵ من كلمـة (إننا لمهتدون) وتعبير (ينكثون) التى وردت بصورة الفعل المضارع تبيّن أنّهم أبرموا العهود ونقضوها مرّات عديدة، وهو دليل على عنادهم أيضاً. وبالتالى فانّهم ذاقوا عقاب عنادهم ولجاجتهم، حيث اغرقهم البارى تعالى بجميع عـدّتهم وعـددهم ورؤسائهم فى اليمِّ «۱». «الآية العاشـرة» والأـخيرة من هـذه الآيـات، ناظرة لعناد المشـركين العرب حيث كانوا يصـرّون على عنادهم ويتهربون من قبول دعوة الرسول صلى الله عليـه و آله والـتى كـانت مدعمـة بالآيـات والمعجزات، ولـو كـان عنـدهم ذرّة من روح الحب للحقيقـة، لقبلـوا احـدى تلك المعجزات الكبيرة التى اتى بها الرسول الاعظم صـلى الله عليه و آله ومن جملتها القرآن الكريم المعجزة الخالدة للرسول الكريم صـلى الله عليه و آله، ولكنهم كـانوا فى كـل يوم يطلبون معجزةً جديـدة، ومع ذلك لا يؤمنون بها أيضاً، إلى أن وصـلوا إلى أقصـى درجات اللجاجـة والعنـاد، «أَوْ يَكُونَ لَـكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِى السَّمـاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنـا كِتاباً نَقْرَؤُهُ». هـذا الكلام هو دليل واضـح على التعامل مع الموقف من موقع العناد، وفيه أيضاً نقطـة مهمّـة، ألا وهى أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله يقول: إنى افعل ما اشاء ومتسـلط على جميع الكون، لكنّ الحقيقـة أنّ المعجزات دائماً تتحقق بأمرِ إلهى وكيفما يشاء البارى تعالى، لـذا نقرأ فى آخر الآيات: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا». ويـذكر فى شأن النزول أنّ قوماً من مشـركى مكّة وعلى رأسـهم (الوليـد بن المغيرة وابو جهل) اجتمعوا عنـد الكعبـة الشـريفة وأخـذوا يتحـدثون عن النبى وكيفيـة مواجهته، وبالتالى قرّروا أن يذهب أحدهم إلى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، ويقترح عليه أن يتوجّه إليهم يكلمهم ويكلمونه حول الدين الجديد، فأسـرع إليهم الرسول على أمل قبولهم للحق، لكنّه سمع الكلام الآنف الذكر، بالإضافة إلى مجابهتهم له بامور واهية ومهينةً اخرى ومن المؤكد أنّهم لـو كـانوا يطلبـون الحـق ويريـدونه، لتوجب على الرسول الأـعظم صـلى الله عليه و آله الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶ النزول عند رغبتهم، أو على الأقـل تنفيـذ إحـدى المعجزات، ولكنهم طالما شاهـدوا المعجزات من الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله لم يـذعنوا للحق، اضافـة إلى أنّهم بطلبهم هذا اعترفوا إنّهم لن يؤمنوا لرقىّ الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله فى السـماء أمام أعينهم حتى ينزل عليهم كتاباً من السـماء ليقرؤوه، ولو نزل الرسول صـلى الله عليه و آله عنـد رغبتهم وآتاهم بالمعجزة هذه لما آمنوا، لأنّ سابقة عنادهم ومواقفهم السلبية من الـدعوة هى أفضـل دليـل، فعنـدما كـانوا يشاهـدون المعاجز الباهرة، يقولون هـذا من السـحر وإنّ الرجل لساحر، وهكـذا يجهضون أى أثر للمعجزات فى وعيهم بتعاملهم معها بلغـة الاتهام الـذى ينطلق من موقع العناد. فتبيّن من مجموع الآيات الآنفة الـذكر أنّ مسألـة اللّجاج والعناد على مرّ العصور وتاريـخ البشـر كانت ولا تزال من أهم الموانع فى طريق الحق، حيث كان وجود هـذه الحالة النفسـية السـلبية يمثل مشـكلة عويصة تمتد فى أعماق نفوس المشـركين فى الأقوام السابقة، وعليه فلو تحرك الإنسان فى عملية الوصول إلى الحق والحقيقة فعليه أن يزيل هذه الصفة الذميمة من محتواه الداخلى ويتخلص منها.

اللجاج والمماراة فى الروايات الإسلامية:

أشـرنا فيما تقدم إلى الأبحاث المتعلقة بالتعصب واللجاج، وأوضحنا ما يترتب على هذه الحالة الأخلاقية من خلال الآيات الكريمة، من العواقب الوخيمة الناشئة من التعصب والتقليد الأعمى أمّا فى هذا البحث فستتكلم عن المماراة واللجاج فى دائرة الجدل، أو بتعبير آخر التمسك بمسألـة خاطئة لا للتعصب القومى الاعمى، ولكن بسـبب تجذّر العناد الطفولى فى النفس والذى قد نشاهده فى بعض الأفراد، فلاـ يسلّمون للحق بـل يريـدون التهرب منه. وكما رأينا فى الآيات السابقـة فان هـذهِ الرذيلـة الأخلاقيـة أحرقت فرص السـعادة والحياة

الكريمة لكثير من الأقوام. فوقعوا فى مستنقع البؤس والرذيلة، ونرى فى الأحاديث الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷ الإسلامية ابحاث موسّعة حول هذا الموضوع: ۱- فى حديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه و آله: «الخَيرُ عادَةٌ وَالشَّرُّ لَجاجةٌ» «۱». ۲- فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إِيَّاكَ وَمَذمُومَ اللَّجاجِ فإنّهُ يُثيرُ الحُرُوبَ» «۲». فتعبير اللجاج المذموم يعنى أنّ الإنسان ربّما يصرّ على امور الخير وبصورةٍ منطقية فهو بلا شك أمر محمود ورمز للموفقيّة. ولكن الاصرار على اللجاج المذموم، هو سبب لاستفزاز الآخرين، والمداومة عليه يؤدى إلى التعامل مع الآخرين من موقع العقدة والخصومة وإثارة الحروب وسفك الدماء. ۳- فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام: «جِماعُ الشَّرِّ اللَّجاجُ وَكَثرَةُ المُمارَاةِ» «۳». وفى الواقع أنّ كثيراً من المشكلات والمصائب الاجتماعية لا مصدر لها إلّاهذه الامور، فيقوم البعض بمناقشة الامور بدافع البحث والجدال والمماراة، ويقوم البعض الآخر ونتيجةً للجهل بالردّ عليهم من هذا المنطلق نفسه، فينشأ النزاع والصداع دون أن يكون لهم هدف معين على مستوى الكشف عن الحقيقة وتحصيل الواقع، ولو أنّهم سلكوا طريق العقل والتدبر، لاستطاعوا القضاء على كثير من المفاسد الاجتماعية من خلال الحوار المشترك الذى ينطلق من دوافع إنسانية فى واقع الإنسان والحياة. ۴- وفى حديث آخر عن نفس الإمام الهمام عليه السلام: «خَيرُ الأخلاقِ أَبعَدُها عَنِ اللَّجاجِ» «۴». يستفاد من هذا التعبير أنّ روح اللجاج والمماراة لها علاقة وثيقة بجميع الصفات الرذيلة، فإمّا أن يتأثر بها أو يؤثر بواسطتها. ۵- ونقل عنه عليه السلام أيضاً: «لا مَرْكَبَ أجمَحَ مِنَ اللَّجاجِ» «۵». ويستفاد من هذا الحديث، أنّ اللجاج يؤدى بصاحبه إلى منزلقات سحيقةٍ فى حركة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸ الواقع الأخلاقى للإنسان، فمرة يجرّه الى الكذب، واخرى إلى التكبر، وثالثة إلى الخداع والحيلة، ورابعة إلى الحرب والجدال كما جاء فى الروايات السابقة. ۶- جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّ موسى بن عمران عليه السلام عندما أراد أن يترك استاذه الخضر عليه السلام، طلب منه النصيحة والموعظة، فقال له: «إِيَّاكَ وَاللَّجاجَةَ أوْ تَمشِى فِى غَيرِ حاجَةٍ أو تَضْحكَ مِنْ غَيرِ عَجبٍ وَاذكُرْ خَطِيئَتَكَ وَإِيَّاكَ وَخَطايا الناسِ» «۱». فى هذا الحديث وضع اللجاج موضع من يمشى بلا هدف والتدخل بما لا يعنى الإنسان، وهو دليل على أنّ اللجوج لا يتبع العقل والمنطق بتاتاً. ۷- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَن لَجَّ وَتَمادى فَهُوَ رَاكِسٌ الَّذِى رانَ اللَّهُ عَلَى قَلبِهِ وَصارَتْ دَائِرَةُ السُّوءَ عَلَى رَأسِهِ» «۲». وعلى أيّة حال فان الأحاديث فى ذم هذه الرذيلة كثيرة جدّاً. والأحاديث التى أوردناها هى غيض من فيض، وهى تبيّن أنّ هذهِ الرذيلة لا تسلك بصاحبها سوى سبيل البؤس والدمار وتبعده من الحق وتقربه من الباطل، وتكون عاقبته أليمة وموحشة.

دوافع وعواقب اللجاج والمماراة:

من المعلوم أنّ هذه الصفة الأخلاقية هى من أخلاق الصبيّان، ولكنها قبل كل شىء تنشأ من الجهل وقصر النظر، فذوا العقول يتحرّكون فى حركة الواقع من خلال التدبّر والتفكر الذى ينطلق من موقع المنطق والدليل، فإذا ما ثبت لهم بالبرهان المنطقى، أنّ أمراً ما لا يتوافق مع الحقيقة فسرعان ما يتركونه ويقلعون عنه رغم اعتقادهم به لسنوات متمادية. ولكن الأفراد الجهّال والقصيرى النظر لا يقلعون عن شىء يعتقدون به ويمثل لديهم مفردة على مستوى المعتقد والدين، ولا يفيد معهم الدليل ولا المنطق. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹ ومن الأسباب الاخرى لتكريس حالة اللجاج والعناد هو مواجهة الشخص الذى ارتكب مخالفة معينة باللّوم المفرط والتقريع الزائد عن الحدّ وأمام الملأ العام، فانّ ذلك من شأنه أن يدفعه نحو الاصرار والعناد لإثبات أنّه ليس على خطأ ويتحرّك فى مواجهة الآخرين من خلال التمسك برأيه، وبالتدريج يعتقد أنّه على صواب ويبقى على ما هو عليه، والعكس صحيح فإذا ما عومل بلطف ولين ومحبّةٍ فسيرتدع ويعود إلى رشده. ولذلك نقرأ فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الإفراطُ فِى المَلامَةِ يَشُبُّ نِيرانُ اللَّجاجَةِ» «۱». العامل الثالث لظهور هذه الصفة: هو احساس الإنسان بالحقارة والدونية، فعقدة الحقارة تمنع الأفراد من الاستماع والإنصياع للآخرين توكيداً لشخصيتهم، فلا يقبلون الكلام المنطقى ويصرّون على سلوكهم وعملهم الباطل. أما الأفراد الذين لا يعيشون هذه العقدة ويمتازون بشخصية قوية، فلا حاجة لهم إلى هذا السلوك الباطل وسرعان ما يسلّمون للبرهان والمنطق السليم ولا يجدون فى أنفسهم

حاجة للاصرار على أفعالهم الخاطئة. ضعف الإرادة واهتزاز الشخصية يمكن اعتباره عامل رابع للّجاج، ومن البديهى أنّ إقلاع الشخص من عادة تعودها لمدّة طويلة ليس بالأمر السهل، والإعتراف بالخطأ ليس بالأمر الهيّن أيضاً، ويحتاج إلى قوة الإرادة والشجاعة، والأشخاص الذين يعيشون الحرمان من تلك الفضيلتين سيجدون فى أنفسهم دوافع لا شعورية لسلوك طريق العناد واللجاج. «حبّ الراحة» يمكن أن يكون العامل الخامس، لأن ترك المسير الذى سار عليه الإنسان ولمدّة طويلة ليس بالأمر السهل، وخصوصاً لدى الشخص المنعّم والمحبّ للراحة. ومن اليقين أنّ التحرك على خلاف حالة الاسترخاء الفكرى والكسل النفسى لا يلائم مذاقهم. فهذه من العوامل التى يمكن الإشارة إليها فى دائرة اللجاج والمماراة. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۰ وأمّا آثارها السلبيّة فليست خافيةً على أحد، فهى تورط الإنسان فى مشاكل بعيدة عنه كل البعد، كما تورط بنو اسرائيل بالبقرة من خلال البحث عن التفاصيل الدقيقة فى دائرة الطاعة وامتثال الأمر، وما ترتب من صعوبة البحث عنها وثمنها الباهض، فقد جاء فى الحديث أنّهم جمعوا أموالهم كلها لشرائها، وبعدها جاؤوا لموسى عليه السلام يبكون ويشتكون بأننا قد أفلسنا وافتقرت قبيلتنا وأصبحنا نستعطى من الناس بسبب العناد، فَرَقَّ لهم النبى موسى عليه السلام وعلّمهم دعاءً يعينهم على مشاكلهم «١». ومن افرازات هذه الرذيلة ومردوداتها السلبية على النفس هو الحرمان من فهم الحقائق التى تتولى تهيئة الأرضية لتكامل الإنسان، لأنّ اللجاج لا يعطى الفرصة للإنسان لإصلاح الخطأ والإذعان للحقائق، وعلى أثرها لا يستطيع التقدم والرقى فى درجات الكمال. والأثر الثالث لهذا الخلق الردىء، هو العزلة الاجتماعية وابتعاد الناس عن الشخص الذى يعيش حالة العناد، فالناس عموماً لا يحبّون اللجوج وينفرون منه، وليس لديهم استعداد للتعاون معه والدخول معه فى أجواء حقيقية من التكافل الاجتماعى، لأنّ التعاون الاجتماعى يحتاج للمرونة والسماحة وغض النظر، وهى أمور لا تتوفر فى اللجوج. وفوق هذا وذاك فمثل هؤلاء الأشخاص المغرورين ينعتون بالجهل وخفّة العقل فى المجتمع، ونفس سوء السمعة هذهِ يكون سبباً فى عزلتهم وانزوائهم، كما هو معروف فى حديث دعائم الكفر عن الإمام على عليه السلام حيث قال: «وَمَنْ نازَعَ فِى الرَّأى وَخاصَمَ شَهُرَ بِالمَثلِ (بالفشل) مِنْ طُولَ اللِّجاجِ» «٢». وخلاصة القول أنّ اللجاج والمماراة يبعد الإنسان عن اللَّه والناس، بل حتى عن نفسه، ولن تصبح للإنسان مكانةً بين الناس إلّابترك هذا الخلق السيّء.

الفرق بين الإستقامة واللجاج:

إذا ما اختار الإنسان طريق الخير ومسير الحق وثبت عليه، فيكون قد عَمِل بأفضل الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۱ الامور وهى بعينها فضيلة الصبر والاستقامة والتى تحدثنا عنها سابقاً، وإذا ما اختار الإنسان طريق الباطل وسبيل الانحراف مع عدم المرونة للتغيير بحيث إنّه يعتبر الجميع على خطأ وهو وحده الصحيح، ولا يتحرّك فى سبيل تصحيح الخطأ وجبران الزيغ، فيكون قد اختار طريق اللّجاج، وهو من أسوأ الأخلاق.

طريقة العلاج:

بصورة عامّة وكما هو معلوم فإنّ طريق العلاج للإمراض الأخلاقية يتمثل فى أمرين: «الأول»: الطريق العلمى وذلك من خلال تحليل عواقب تلك الرذيلة الأخلاقية، ومن هذا الطرق يمكن للشخص أن يعرف آثارها السلبية، ويعلم أنّها ستبعده من اللَّه تعالى والناس وتقف عقبة فى طريق تكامله وتمنعه من إدراك الحقائق وتعزله عن الناس، وتضع الحجب على القلب، وحينئذٍ يتحرّك هذا الإنسان من موقع الابتعاد عن هذه الرذيلة ويقلع جذورها من نفسه. اللجاج والمماراة لا ينسجم مع الإيمان كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «سِتَّةٌ لاتَكُونُ فِى المُؤمِنِ قِيلَ وَما هِى؟ قَالَ العُسرُ وَالنَّكدُ وَاللّجاجَةُ وَالكِذبُ وَالحَسَدُ وَالبَغى» «١». و «الطريق الآخر» لمحاربة تلك الرذيلة هو الحلّ العملى والتصدى لها فى ميدان الممارسة والعمل، فعندما يرى نفسه قد توفّرت على عناصر ومقدمات ظهور الرذيلة فى دائرة الحوار والنقاش، فعليه أن يُسلّم فوراً للحق ويشكر المتحدث، وإذا ما عاند وشاكس فليعتذر، ولا يعيد الكلام من لجاجةٍأبداً،

وإذا ما تکلم سهواً فلیسکت ویستعذ باللَّه من الشیطان الرجیم، وبتکرار هذا البرنامج العملی ستنکسر حدهٔ اللجاج فی نفسه وتندثر. ثم علیه أن یبتعد عن الأفراد اللّجوجین، ولا یترک الجدال والبحث أو المِراء، ولیقرأ عن العظماء کیف کانوا یقبلون الحق ولو من الصغیر أو العبید أو تلامذتهم، ویجلّوهم ویحترمونهم لأنّهم قالوا الحق. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۲ وبما أنّ من آثارها المباشرهٔ هو الریاء والجهل فکلّما استطاع الإنسان أن یکسِر شوکهٔ هاتین الصفتین فی نفسه فستقل لجاجته، ولیتذکر حالات الأقوام السابقهٔ وکفرهم ومقابلتهم للأنبیاء واختیارهم الکفر علی الإیمان واستحقاقهم العذاب الإلهی لا لشیء إلّا لأنّهم لجّوا فی باطلهم وأصروا علی زیفهم، ولئلا یصاب بما أصاب اولئک القوم من قبل، وکیف أن بنی اسرائیل باعوا کل ما لدیهم لیشتروا تلک البقرهٔ بحیث أفضی بهم إلی الاستجداء وذهبوا لموسی علیه السلام لیساعدهم فی التخلص من هذه الورطهٔ، فعلمهم دعاء یعینهم علی دنیاهم «۱»، وکل ذلک کان بسبب لجّتهم وعنادهم. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۳

الشکر وکفران النعمهٔ

تنویه:

«شکر النعمهٔ» یمکن أن یکون باللسان أو بالعمل، وعلیه فإنّ «الکفران» هو عدم الاعتناء بالنعم وتحقیرها وتضییعها، وهو أیضاً من الرذائل الأخلاقیهٔ ذات العواقب الوخیمهٔ، سواء کانت علی الصعید الفردی أو الاجتماعی، والواقع أنّ الشکر یقرّب القلوب ویحکّم المحبّهٔ فی المجتمع، والکفران یقطع أواصر المحبّهٔ والوئام ویجعل من المجتمع جهنّماً لا یطاق یعیش فیه الانسان حالات من العداوهٔ والبغض والحقد! کفران النعمهٔ مانع کبیر أمام تکامل الروح الإنسانیهٔ وتهذیبها والسیر إلی اللَّه تعالی، حیث یتسبب فی ذبول عناصر الخیر فی الضمیر ویطفیء النور الباطنی الممتد فی أعماق الوجدان ویلّوث الروح. و «شکر النعمهٔ» هو قضیهٔ فطریهٔ، اودعت فی الإنسان لتفتح له آفاق التوحید ومعرفهٔ اللَّه تعالی، ولهذا نجد أنّ کثیراً من علماء العقائد یفتتحون بحوثهم بمسألهٔ «ضرورهٔ معرفهٔ المنعم»، وسیأتی شرحها فی المستقبل إن شاء اللَّه تعالی. بهذه الإشارهٔ نعود للقرآن الکریم لنستعرض فیه الآیات التی تذم حالهٔ الکفران، وتمدح حالهٔ الشکر للنعمهٔ: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۴ ۱- «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَلَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِی لَشَدِیدٌ» «۱». ۲- «وَمَنْ شَکَرَ فَإِنَّمَا یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ کَفَرَ فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ» «۲». ۳- «وَمَنْ یَشْکُرْ فَإِنَّمَا یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ» «۳». ۴- «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَهً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَیَئُوسٌ کَفُورٌ* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّیِّئَاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ» «۴». ۵- «وَإِذَا مَسَّکُمْ الضُّرُّ فِی الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِیَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَکَانَ الْإِنْسَانُ کَفُوراً» «۵». ۶- «أَلَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَهَ اللَّهِ کُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ» «۶». ۷- «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْیَهً کَانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً یَأْتِیهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ کُلِّ مَکَانٍ فَکَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا کَانُوا یَصْنَعُونَ» «۷». ۸- «لَقَدْ کَانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ آیَهٌ جَنَّتَانِ عَنْ یَمِینٍ وَشِمَالٍ کُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّکُمْ وَاشْکُرُوا لَهُ بَلْدَهٌ طَیِّبَهٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمْ سَیْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَیْهِمْ جَنَّتَیْنِ ذَوَاتَی أُکُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَیْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ* ذَلِکَ جَزَیْنَاهُمْ بِمَا کَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِی إِلَّا الْکَفُورَ» «۸».

تفسیر واستنتاج:

«الآیهٔ الاولی» تستعرض کلام النبی موسی علیه السلام مع بنی اسرائیل، حیث یذکرهم بأمر الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۵ إلهی مهم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَلَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِی لَشَدِیدٌ»، فذکّرهم النبی علیه السلام بقضیهٔ الشکر ومعطیاته والکفران وآثاره السلبیهٔ وذلک بعدما انتصروا علی فرعون ونالوا الاستقلال وذاقوا طعم الحریهٔ والعظمهٔ وظهرت منهم بوادر کفران

النعمـة. جملـة «لأزيـدنّكم» فيها أنواع من التأكيدات، فهى وعد إلهى قطعى للشاكرين، بأنّه سـيزيدهم من فضـله، واللطيف فى الأمر أنّ اللَّه تعالى لم يخاطب كفّار النعمة بالقول: «لُاعذّبنكم» بل قال: «إنّ عذابى لشديد» وهو نهاية اللطف والرحمة فى دائرة التعامل المولوى تجاه المخلوقين، وفى نفس الوقت تهديـد شديـد ووعيـد مخيف لكفّار النعم بأنّ عليهم أخذ العبرة من قصة بنى اسـرائيل عندما كفروا أنعُم اللَّه «فتاهوا» فى الصـحراء أربعين سنة. فى «الآية الثانية» يدور الحديث عن النبى سليمان عليه السلام وقومه، عندما اقترح عليهم أن يأتوه بعرش ملكـة «سـبأ»، فقال له أحـد حواريه وكان عنده علم من الكتاب: «أنا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أن يَرتدَّ إلَيكَ طَرفُكَ»، فشـعر سـليمان عليه السـلام بـالفرح يغمر نفسه لوجود مثل هـذه الشخصـيات فى بلاطه ولـديهم الروحيات والمعنويات القويـة، فقرر أن يشـكر الخالق تعـالى، فقـال: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ». والجـدير بالـذكر أنّ ثواب الشـاكر ذكر فى هـذه الآـية بوضـوح، ولكـن عقـاب مـن يكفر بالنعمـة ذكر بصـورة غير مباشـرة «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ» حيث ركزت الآيـة على كرم اللَّه تعالى، وهو نهايـة رحمة اللَّه ولطفه فى دائرة التخاطب مع الإنسان. ويمكن اسـتفادة نقطة مهمّة اخرى من الجملة الانفة الذكر، وهى أنّ اللَّه تبارك وتعالى يحـذّر عباده من الكفر ويـدعوهم للشـكر لا لحاجة منه إليهم، وحتى على فرض كفران النعمة فإنّه يفيض من كرمه ولطفه على النـاس لعلّهم يرجعون عن غيّهم ولاـ يحرمون أنفسـهم من أنعُم اللَّه تعـالى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۶ وأساساً فإنّ الكتب الإلهية تعود بالنفع على العباد أنفسـهم، فهى بمثابة دروس لهم، لتربية أنفسهم، فالبارى تعالى غنىٌّ بذاته ولا يحتاج إلى أحد، لا لطاعـة العباد ولا عصـيانهم ولا يضـرونه بالعصـيان شـيئاً. «الآيـة الثالثـة» تحمل مضـمون الآيـة السابقـة حيث تسـتعرض لنا قصـة «لقمان الحكيم»: «وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ». الحكمة التى أتاها اللَّه تعالى للقمان تشمل معرفة أسرار الكون والعلم بطرق الهدايـة والصـلاح، والطريقـة المثلى للحياة الفرديـة والاجتماعيـة، التى جاءت بصورة نصائح لقمان لابنه فى سورة لقمان، وهى موهبـة إلهيـة ونعمـة روحيـة أكّد اللَّه تعالى على أهميّتها، كما ذكر فى الآيـة التى قبلها على أحدى النعم المعنوية، حتى لا يغرق النـاس فى منزلقـات النعم الماديـة ويتصورون أنّ النعم والمواهب الإلهيـة تنحصـر فى الماديّات فقط. ويجـدر هنا الإشارة إلى نقطتين: «الأولى» إنّ الشـكر أتى بصورة الفعل المضارع، والكفران بصـيغة الماضـى، وهى إشارة إلى أنّ مسـير التكامل والرقىّ والقرب إلى اللَّه تعالى يحتاج إلى المداومة على الشكر فى حين أنّ لحظة من كفران بإمكانها أن تفضى إلى نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة. و «الثانى» إنّ الآية ركّزت على صـفتى (الغنى الحميد)، بينما كان التركيز فى آية النبى سـليمان عليه السلام على صفتى (الغنى والكريم) وهذا الفرق يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ اللَّه تعالى غنىٌّ عن شـكر المخلوقين، فالملائكة تسـبح بحمده وتقدسه على الدوام، وإن كان غنيّاً عنهم أيضاً، ولكن العباد بشـكرهم يسـتوجبون المزيـد من النعم عليهم. «الآيـة الرابعـة» انطلقت للحديث عن الأشـخاص الذين يعيشون ضـيق الاـفق وعـدم الإيمـان والتقوى، فهم يعيشون الكفران للنعمـة بكـل وجودهم: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۷ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ». نحن نعلم أنّ القرآن الكريم عندما يتحدث عن الإنسان فى واقعه السـىء ويصـفه بصفات ذميمة بصورة مطلقة، إنّما يقصد الإنسان المنفصل عن اللَّه فى حركـة الحياة ومن يعيش عدم الإيمان أو ضـعف الإيمان، ولهذا ورد فى الآية التى جاءت بعد الآيات مورد بحثنا: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اولئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ». بهـذا الاسـتثناء يتبيّن أنّ الأفراد الـذين يعيشون حالـة اليأس من رحمـة اللَّه والغافلين والكفـورين، أفراد لم يصـلوا فى واقعهم النفسـى لمرحلـة الإيمـان بعـد. وعلى العموم يمكن أن نسـتنتج من الآيـات الآنفـة الـذكر، أنّ الكفران وعـدم الشـكر تؤدى بالإنسان إلى التلّوث بصـفات سـيئة اخرى تحرمه المغفرة والأجر الكبير. تعبير «لئن أذقنا» تعبير لطيف فى الموردين فيقول: إنّ ضـعاف النفوس والإيمان إذا سـلبت منهم نعمة من النعم، فسـرعان ما يجرى على ألسنتهم الكفر ويدب اليأس فى قلوبهم، وإن جاءتهم نعمـة إذا بهم يغترّون ويتحركون فى أجواء الغفلـة والطغيان، والـدنيا هى كلها شـىء صـغير وحقير، وما يصل إلى الإنسان منها أصـغر وأحقر، ومع ذلك فإنّهم يتأثرون بسـرعة لضـعف نفوسـهم وضـيق آفاق إيمانهم. ولكن الإيمان باللَّه تعالى ومعرفة ذاته المقدسة اللّامتناهية فى القدرة والعلم، تمنح الإنسان عناصـر القوة والحركة وتعينه على مواجهة أكبر الحوادث السيئة والحسنة دون

أن تؤثر فى نفسه شيئاً. وتنطلق «الآية الخامسة» لتشير إلى الأفراد الذين يتوجهون إلى اللَّه تعالى عند وقوع المصيبة ويدعونه ويتوسلون بلطفه بكل وجودهم، وبمجرّد انقشاع سحائب الأزمة ينسون كل شيء ويكفرون مرّة اخرى: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً» الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۸ وطالما جرّبنا هذا الأمر فى حياتنا الشخصية وشاهدنا ضعيفى الإيمان عندما يمحصون بالبلاء، كالمرض والفقر والمصائب الاخرى، يتوجهون باخلاص للبارى تعالى وبمجرّد انكشاف تلك المصائب وعودة المياه إلى مجاريها تراهم يتغيّرون ويسلكون طريق الكفر والحال أنّ الإنسان فى هذه الأحوال أيضاً يجب عليه التوجه والإلتجاء إلى الذات المقدسة أكثر من ذى قبل. وفى تكملة الآية الكريمة يعبّر القرآن الكريم بتعبير جميل جدّاً حيث يقول: «أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً». فهنا إشارة إلى أنّه كيف يمكن أن تكفروا وتتغيّروا فأينما تذهبوا فأنتم تحت سلطته، وبإمكانه أن يعذبكم فى أى مكان كنتم فيه سواء فى البرّ أو فى البحر؟ ويجب التوجه إلى أنّ كلمتى «الخسف» و «الغرق» فى هذه الآية لهما مفهوم مترادف فالأولى يراد بها الاختفاء فى الأرض، والثانية الاختفاء فى البحر. «الآية السادسة» من الآيات تتوجه بالخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتشرح عاقبة كفران النعم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» وبعدها يضيف: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ». هذه التعبيرات تبيّن أنّ كفران النعم الإلهية، يمكن أن يؤدى بقوم أو بمجتمع بأكمله إلى قعر جهنّم ولا يستبعد نزول العذاب الدنيوى فيها حيث تبدل دنياهم إلى جحيم لا يطاق. وقد اختلف المفسّرون فى المقصود من النعمة فى هذه الآية، فبعض قال: إنّها بركة وجود الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فالعرب المشركون قد كفروا بالنعمة بانكارهم لدعوته ورفضهم الاذعان لرسالته فاحلّوا قومهم دار البوار، وفسّرها البعض الآخر بأهل البيت عليهم السلام حيث كفر بهم البعض أمثال بنى امية، ولكن على الظاهر أنّ مفهوم الآية أوسع من هذه الدوائر والاطر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۹ فى مصاديق الآية ويشمل جميع النعم الإلهية، وما ذكر آنفاً يعدّ من مصاديقها الواضحة، على الرغم من تصريح الآيات التى وردت بعدها بالأشخاص الذين تركوا الإسلام والتوحيد واختاروا الشرك وعبادة الأصنام، ولكن هذه النماذج تعتبر أيضاً من مصاديقها البارزة. وقال البعض الآخر: مثل الفخر الرازى والمرحوم الطبرسى فى مجمع البيان، إنّ سبب النزول لهذه الآية ناظر لأهل مكّة الذين أعطاهم اللَّه تعالى أنواع النِعم وأهمها بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من بين ظهرانيهم، ولكنهم لم يقدّروا تلك النعمة وكفروا بها، فأصبحت عاقبتهم أليمة، فكفرهم بنعمة الرسول صلى الله عليه و آله هو نفس كفرهم باللَّه والرسالة! ولكننا نعلم أنّ شأن النزول لا يخصص مفهوم الآية بمورد خاص. وتأتى «الآية السابعة» لتتحدث عن جماعة أنعم اللَّه تعالى عليهم بنعمة ظاهرة وباطنة، نعمة الأمان والرزق الكثير والنعم المعنوية والروحية التى نزلت عليهم بواسطة نبيّهم ولكنّهم كفروا تلك النعم فعاقبهم اللَّه تعالى بعقاب الجوع والخوف: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» اختلف المفسّرون بأن هذه الآية هل تشير إلى مكان بالخصوص أم إنّها مثال عام كلى، فبعض يعتقد أنّها أرض مكّة، وتعبير «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...»، يقوى ذلك الاحتمال، لأنّه ينطبق بالكامل على أحوال وشرائط مكّة، إذ هى أرض جافة وصحراء قاحلة غير ذات زرع وماء ولكن اللَّه سبحانه قد باركها وأنزل عليها النعم من كل مكان. وتعبير «كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً» هو قرينة اخرى على أنّها مكّة، فأرض الحجاز غالباً ما كانت أرضاً غير آمنة إلّامكّة وذلك ببركة وجود الكعبة الشريفة. وعندما وصلت النعم المادية على أهل مكّة إلى الذروة أتمها اللَّه تعالى ببعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنّهم كفروا النعم الماديّة والمعنوية، فابتلاهم اللَّه تعالى بالقحط والخوف، وهذا هو مصير من كفر بأنعم اللَّه تعالى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۰ ومع ذلك فإنّ مفهوم الآية يمكن أن يكون أعم فيستوعب فى مضمونه جميع من يكفر بالنعمة وأرض مكّة هى أحد مصاديق هذه الآية، حيث ورد فى الروايات أن القحط والجوع أخذ منهم مأخذاً كبيراً بحيث كانوا يتغذّون على أجساد الموتى لسدّ جوعهم، وكذلك فى الغزوات الإسلامية، حيث أضرّت بهم كثيراً. «الآية الثامنة» من الآيات، تتطرق إلى قوم من أكفر الناس، وهم (قوم سبأ) حيث حباهم اللَّه تعالى: بأفضل النعم وأحسنها، ولكن غرورهم وغفلتهم واتباعهم لأهوائهم،

أعماهم وأضلّهم، فكفروا، فأخذهم اللّه بذنوبهم ومحق تلك النعم من أيديهم، فقال: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ». وقد ذكر المفسّرون أنّه على الرغم من أنّ أرض اليمن خصبة ولكن لفقدان الأنهار فيها، كانت أغلب أراضيها بائرة لا يستفاد منها، ففكر القوم ببناء سدّ يمنع السيول القادمة من الجبال، فبنوا عدّة سدود وأهمها (سد مأرب) حيث كان يقف أمام السيول بين جبلى بلق العظيمين، فتجتمع خلفه مياه كثيرة استطاعوا بواسطتها أن يزرعوا ويسقوا به جنائن وبساتين كثيرة قامت على طرفى السدّ، ونشأت حولها القرى وأصبحت مركزاً عظيماً للنشاط التجارى وتجمع الناس، فالقرى كانت متصلة ببعضها بحيث أن ظلال الأشجار كانت متصلة على طول الطريق ووفور تلك النعم كان مقترناً مع الأمان الاجتماعى والرفاه الاقتصادى، فكانت حياتهم هانئة جدّاً، اجتمعت فيها كل متطلبات الحياة آنذاك ومثل هذه الأجواء كان من شأنها أن تفضى لإطاعة اللّه تعالى والتكامل الروحى. ويستمر القرآن الكريم، فيقول إنّ النعم أصبحت كثيرة جدّاً ممّا حدى بهم لأنّ تتحرك فيهم عناصر الطغيان فنسوا ذكر اللّه تعالى وأخذوا يتفاخرون ويقسّمون الناس إلى طبقات، ولكنهم بالتالى ذاقوا وبال أعمالهم فأرسل البارى تعالى عليهم سيل العرم: «فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۱ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ». ومن عجائب هذه القصّة أنّ المفسّرين ذكروا هجوم الجرذان الصحراوية على السدّ فأخذت تنخر فيه من الداخل دون أن يراها الناس المغرورون المشتغلون بالملذّات وكفران النعم، وفجأة أمطرت السماء مطراً شديداً، وتحرّك سيل عظيم وتجمعت المياه خلف السدّ، ولكن جدران السد لم تتحمل كل هذا الضغط، فانهارت وأخذ السيل طريقه للقرى والأراضى الزراعية، فلم يُبق لها شىء، لا مزارع ولا أنعام، وتبدل كل شىء إلى صحراء قاحلة لا ينمو فيها سوى النباتات البرية، ففرت الطيور الجميلة وحلّت محلّها الغربان والبوم، وتفرق الناس إلى الأطراف وأصبحوا من أفقر الناس يأسفون على ماضيهم الجميل، ولكن هيهات، حيث لا تفيد ساعة ندم. نعم فهذه هى حال الأقوام التى تغفل عن ذكر اللّه وتكفر بأنعمه. والطريف فى الأمر أنّ الأثرياء منهم اعترضوا على قرب المسافات بينهم، حيث يستطيع أن يسافر كل أحد لقرب المسافة ووفرة الخير فى الطريق، فقالوا: أصبح بإمكان الفقير أن يسافر معنا أيضاً، فطلبوا من اللّه تعالى أن يباعد بين أسفارهم حتى لا يستطيع الفقراء السفر معهم أيضاً، نعم فقد وصلوا إلى أعلى مراتب الطغيان، فعاقبهم اللّه تعالى بأشدّ العقاب، فتفرق جمعهم وأصبحوا مضرباً للأمثال وخصوصاً فى الفرقة، فقالوا فيهم: (تفرقوا أيادى سبأ). من مجموع الآيات محل البحث تتبين خطورة وبشاعة كفران النعم، حيث تناولت الآيات هذه المسألة وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع وخاصة ما أحلّ الكفران بالأقوام السابقة من نتائج مدمرة وعواقب مشؤومة فى حركة الإنسان والحياة.

كفران النعم فى الروايات الإسلامية:

اشارة

تناولت الروايات الإسلامية هذه المسألة بصورة واسعة ومفصلّة وتكلّمت عن آثار حالة الكفران المشؤومة وأضرارها، وكذلك تناولت بركات الشكر للنعم والمواهب الإلهية، ومنها: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۲ ۱- جاء فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَسرَعُ الذُّنُوبِ عُقُوبَةً كُفرانُ النِّعْمَةِ» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «سَبَبُ زَوالِ النِّعَمِ الكُفرانُ» «۲». ۳- وعنه أيضاً عليه السلام: «كُفرُ النِّعْمَةِ مُزيلُها وَشُكرُها مُستَديمُها» «۳». ۴- فى حديث آخر عنه عليه السلام: «كُفرانُ النِّعَم يُزِلُّ القَدَمَ وَيَسلُبُ النِّعَمَ» «۴» ۵- وأيضاً عنه عليه السلام: «آفَةُ النِّعَم الكُفرانِ» «۵». ۶- وعنه عليه السلام أيضاً: «كافِرُ النِّعْمَةِ كافِرُ فَضلِ اللّهِ» «۶». ۷- والاستدراج هو أحد عقوبات البارى تعالى ويعنى أنّ اللّه تعالى يغدق على عبده الكافر نعمه ثم يسلبها منه حتى يحس بالألم والعناء الشديدين، وقد جاء فى حديث عن الإمام الحسين عليه السلام: «الإستِدراجُ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ لِعَبدِهِ أَنْ يُسْبِغَ

عَلَيهِ النِّعَمَ وَيَسلُبَهُ الشُّكرَ» «۷». ۸- عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «الذُّنُوبُ الَّتِى تُغَيِّرُ النِّعَمَ البَغىُ عَلَى النّاسِ والزَّوالُ عَنِ العادَةِ فِى الخَيرِ واصطِناعُ المَعرُوفِ، وَكُفرانُ النِّعَمِ وَتَركِ الشُّكْرِ» «۸». ۹- وفى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «كُفرُ النِّعْمَةِ لُؤمٌ وَصُحبَةُ الأحمَقِ شُؤمٌ» «۹». ۱۰- وختاماً نختم بحثنا بهذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى معرض حديثه عن جنود العقل وجنود الجهل، حيث أمر أصحابه بأن يتعرفوا على جنود العقل وجنود الجهل، وعندما سأله بعض أصحابه عنه قال: «إنّ اللَّهَ جَعَلَ لِلعَقلِ خَمساً وَسَبعينَ جُندِياً وَضِدَهُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۳ الجَهلُ إلى أن قال- والشُّكرُ وضِده الكُفرانُ» «۱». ما ذكر فى الروايات العشر السابقة، يبيّن مدى خطورة هذه الرذيلة وآثارها السيئة على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية وكيف أنّ الإنسان ينحدر من أوج الكرامة وذروة النعمة إلى قعر الذلّة والمسكنة، وتسلب منه التوفيقات الإلهية ويبتعد عن اللَّه تعالى ويقترب من الشيطان. وهنا يجدر الإشارة إلى عدّة نقاط:

۱- معنى كفران النعمة

الكفر يعنى فى الأصل الإخفاء، وبما أنّ الكافر يسعى فى إخفاء وتغطية النعمة، وقيمتها فسمّى عمله بالكفران. ومن البديهى أنّ الكفران مرّة يكون بالقلب واخرى باللسان واخرى بالعمل. ففى قلبه لا يستشعر الإنسان أهمية تلك النعمة، ويصرّح بلسانه بقلّة النعمة وعدم أهميتها، وفى العمل لا يتحرك من موقع الاهتمام بمواهب اللَّه عليه، وبدلًا من أن يستعملها بالخير، يستعملها بالشر ولذلك قال كبار علماء الأخلاق: «الشُّكْرُ صَرفُ العَبدُ جَمِيعَ ما أَنْعَمَهُ اللَّهُ تَعالى فِى ما خُلِقَ لأجلِهِ». لذلك فالكفران هو استعمال النعم فى غير محلها، فالعين التى وهبها اللَّه تعالى للإنسان ليرى بها طريق الحق والآيات الإلهية ويشخص بها الطريق السوى من البئر لئلا يقع فيه، فإذا به يستعملها فى موارد الحرام، وكذلك اليد والاذن وغيرها من الجوارح أو المال والثروة. وكأنّ هذا الكلام مقتبس من كلام الإمام الصادق عليه السلام، حيث يقول: «شُكرُ النِّعمَةِ إجتِنابُ المَحارمِ» «۲». وبهذا يتبيّن لنا معنى الشكر وعدم الشكر.

۲- عواقب الكفران

الكفران بالنعمة يفضى إلى نتائج سيئة كثيرة فى دائرة الماديات والمعنويات فى حياة الإنسان فمن ذلك أنّه يتسبب فى زوال النعم، لأنّ البارى تعالى حكيم، لا يعطى شخصاً شيئاً بدون حساب ولا يسلب أحداً شيئاً بلا مبرر، فالذين يكفرون بالمنعم فلسان حالهم يقول: بأننا لا نليق ولا نستحق هذه النعم، فتوجب الحكمة الإلهية سلب تلك النعم منهم، والذين يشكرون النعم فلسان حالهم يقول: إننا نستحق تلك النعم الإلهية وزد علينا يا ربّ، مثلًا عندما يرى الفلاح أنّ فى بستانه أشجاراً مورقة أكثر من غيرها فسوف يعتنى بها أكثر من غيرها حتى تنمو وتكبر بسرعة وتثمر، وإذا شاهد أشجاراً لا تثمر ولا تورق ولا ظلّ لها مهما أهتم بها وبذل لها العناية فى مجال السقى والتهذيب، فكفران الأشجار للنعمة يدعو الفلاح لعدم الاعتناء بها وتركها لحالها. وقد ورد فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَنْ شَكَرَ النِّعَمَ بِجِنانِهِ استَحَقَّ المَزيدَ قَبْلَ أن يَظهَرَ عَلَى لِسانِهِ» «۱». وجاء فى روايات اخرى نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه وبمجرّد الحمد والثناء يصدر البارى تعالى أمره بزيادة النعم على ذلك العبد، فقال: «ما أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبدٍ مِنْ نِعمَةٍ فَعَرَفَها بِقَلبِهِ وَحَمِدَ اللَّهَ ظاهِراً بِلِسانِهِ فَتَمَّ كَلامُهُ حَتّى يُؤمَرَ لَهُ بِالمَزيدِ» «۲». وبديهى أنّ الكفران يفضى إلى نتائج معاكسة كذلك، ويمكن أن يلطف به اللَّه تعالى ويؤخر عنه سلب النعمة ولكن وعلى أية حال إذا لم يتنبه الإنسان وبقى على ما هو عليه فى دائرة الغفلة والجحود للنعمة، فستسلب منه بالتأكيد، لأنّ ذلك من لوازم الحكمة الإلهية. ومن جهة اخرى فإنّ الكفران يسبب البعد من اللَّه تعالى وهو الخسران الأكبر، فعظماء علماء الكلام فى أول أبحاثهم ذهبوا إلى أن شكر المنعم هو من أول الدوافع لمعرفة البارى تعالى وأنّ شكر المنعم أمر وجدانى، فعندما يرى الإنسان نفسه غارقاً بالنعم الظاهرة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۵ والباطنة، وأنّها ليست منه

فسیسعی لشکر المنعم من خلال البحث عن مصدر النعمة، وهذا هو الذی یُمهد الطریق لمعرفة اللَّه تعالی، ولکنّ الناکرین لأنعم اللَّه والذین لا یقدّرون المنعم فسیحرمون من معرفة اللَّه تعالی، بالإضافة إلی ذلک فإنّ عدم شکر الخالق یفضی بدوره إلی عدم شکر المخلوق، فلا یقیم وزناً لجمیل الآخرین ومعروفهم، وکأنّه هو الذی له الحق علیهم، ممّا یسبّب نفور الناس منه وکراهیتهم له، وبالتالی سیؤدی إلی العزلة والإنزواء فی حرکة الواقع الاجتماعی وقلّة الصدیق والناصر فی مقابل المشکلات وتحدیات الواقع الصعبة.

أسباب ودوافع الکفران وطرق علاجه:

التقصیر فی الشکر ینشأ من عدم معرفة الإنسان بالمنعم بصورة کاملة، وأساساً فانّه لا یتحرک فی طریق التدبّر فی النعم الإلهیة، فمثلًا عندما ننظر إلی بدننا وما فیه من عجائب ودقائق وتفاصیل علی مستوی الخلقة فسنتوجه إلی أهمیة تلک النعم ویتحرک فینا حسّ الشکر للَّه تعالی. وعلی سبیل المثال إذا استطاع البشر أن یصنع مثل الأجهزة الموجودة فی الإنسان (مثل القلب والکبد والکلیة والرئتین) فستکون قطعاً أقل کیفیة من صنع خالقها، وستکلفه الکثیر جدّاً، وعلی هذا فإذا أردنا حساب قیمة ما یوجد لدینا من أعضاء وجوارح بدنیة فسیتبین أنّ لدینا وبحوزتنا ثروة کبیرة جدّاً. أمّا النعم الخارجیة، فیمکن أن تکون جرعة ماء تساوی الدنیا بما فیها، وقد نقل عن بعض العلماء أنّه دخل علی أحد الملوک وکان بید الملک قدح ماء فأراد أن یشرب فتوجه للعالم الکبیر وقال له عِظنی، فقال له العالم: إذا کنت فی یوم من الأیّام عطشاناً لدرجة الموت وجاؤوک بالماء بشرط أن تتنازل عن الملک، فهل ستتنازل؟ فقال نعم، فلا حیلة فی ذلک. فقال له: کیف تتعلق بُملک وحکومة تساوی شربة ماء؟ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۵۶ ویری الإنسان حیناً آخر مریضاً یصرخ من شدّة الألم بحیث یتمنی الموت علی هذا الألم، فلو اعطیت للإنسان الدنیا بأسرها وهو علی ذلک المرض، فلن یقبل بذلک، بل یرضی أن یأخذوا منه کلّ شیء إلّاالعافیة. هناک نعمٌ ظاهرها غیر مهم لکنّها إن فقدت فستتعرض حیاة الإنسان للخطر، مثل غدد اللّعاب التی ترطب الشفاه والفم وتلین الأکل وتسهل عملیة البلع، فإذا توقفت هذه الغدد فی یوم ما فسیجف الفم ویعسر علیه الأکل ویتوقف عن الکلام وتصبح الحیاة مستحیلة، فذلک الجزء الصغیر من بدن الإنسان أهم بکثیر من ثروات الدنیا أجمع. وکذلک فی نعمة الشمس والهواء والنباتات والمواهب الاخری العظیمة وعلی حدّ تعبیر القرآن الکریم: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا» «۱». ویجب التنبه أنّ کثیراً من النعم الإلهیة لا یتسنی للإنسان معرفتها، لأنّها لن تُسلب منه، فبعض النعم والمواهب تعیش مع الإنسان فاذا سلبت منه عرفها وأقرّ بعظمتها، وبعضها سیبقی فی الکتمان وهی کثیرة جدّاً. مثلًا مسألة الجاذبیة فلم یکن أحد یعرف قبل السفر إلی الفضاء وفقدان الجاذبیة هناک، کم هی مهمّة هنا علی الأرض، إذ لولاها لما استطاع الإنسان أن یفعل شیئاً لا زراعة ولا صناعة ولا حرکة، فأقل حرکة من الإنسان سیرتطم بالسقف والجدار وستتناثر الأطعمة والأشربة من المائدة ولن یستطیع الإنسان أن یأکل أو یشرب شیئاً، فحرکة الأرض تؤدی إلی قدف کل شیء فی الفضاء لولا الجاذبیة وستتحول الأرض إلی صحراء قاحلة محرقة، فتفکروا إننا لو قضینا العمر فی شکر هذه النعمة فهل سنؤدّی شکرها؟ وإذا أضفنا إلیها النعم المعنویة وهدایة الأنبیاء وکلام المعصومین علیهم السلام ونزول الکتب الإلهیة، والتی هی أعلی وأهم من النعم المادیّة، فسنعرف مدی عظمة وقیمة مواهب الرحمن وسنعرف قدرتنا علی الشکر کم هی ضعیفة وضئیلة. فالتوجه لهذه الامور تقلع جذور الکفران وتحیی فیه روح الشکر. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۵۷ ومنها نعرف طریقة العلاج، ولذلک قالوا: إنّ أول طریق للشکر هو المعرفة والتفکیر بالمواهب والصنائع الإلهیة وأنواع نعمه الظاهرة والباطنة «۱». الطریقة الاخری: هی النظر فی دائرة النعم والمواهب المادیة إلی المستویات الدنیا للناس، فکلما فکّر الإنسان فیها فستبعث فیه روح الشکر، ولکن إذا نظر إلی من هو أعلی منه من حیث الثروة والنعمة فسوف تستولی علیه الوساوس الشیطانیة وتؤذیه. ومن جهة ثالثة إذا ابتلی بمصائب الدنیا، فلیعلم أنّه یوجد مصائب أکبر من التی اصابته ولیشکر اللَّه أنّه لم یتورط بالأکبر والأشد منها. وقد نقل عن شخص أنّه اشتکی عند أحد العظماء أنّ السارق قد أتی وسرق کل شیء، فقال له: اذهب واشکر اللَّه تعالی إذ لم یأت الشیطان الی بیتک بدلًا من السارق، فلو أخذ منک إیمانک فما کنت تفعل؟ «۲» وقد ذکر الإمام الصادق علیه السلام فی کتاب

«التوحيد» المعروف بتوحيد المفضل حقائق توحيدية هامة من موقع تحليل ماهية النعم الإلهية فى تفاصيلها الدقيقة ومن خلالها ينفتح الإنسان على المنعم الحقيقى. ومن جملتها نعمة الكلام والكتابة وقد اعتبرها الإمام الصادق عليه السلام عمود الحضارة الإنسانية: وبعد شرح طويل لها قال: «فإنّه لو لَم يَكُن لَهُ لِسان مُهيأ للكَلام وَذِهن يَهتَدِى بِهِ للامور لَم يَكُن لِيتَكَلَّمَ أبَداً، وَلَو لَم يَكُن لَهُ مُهيأةً وَأصابعَ لِلكِتابَةِ لِيَكتُبَ أبداً، واعتَبر ذَلِكَ مِنَ البَهائِم الّتى لاكَلامَ لَها ولا كِتابَةَ، فَأصلِ ذَلِكَ فَطرَةِ البارى عَزَّوجَلَّ وما تفضل بِهِ عَلَى خَلقِهِ، فَمن شَكَرَ اثِيبَ، وَمَنْ كَفرَ فإنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ العالَمِينَ» «۳».

الشكر قناة موصلة للنعم الإلهية:

النقطة المقابلة للكفران، هى شكر الإله، ومفهومها تقدير النعم بالقلب واللسان والعمل، أمّا التى بالقلب فهى معرفة الخالق والتسليم إليه والرضا بعطائه وذكر الامور التى تبيّن تقدير وشكر الخالق من قبل المخلوق فى مقابل نعمه تبارك وتعالى، أمّا من الناحية العملية فهو وضع النعم والمواهب الإلهية فى المكان اللائق والذى خلقها اللَّه تعالى لأجله. يقول الراغب فى المفردات: الشكر هو بمعنى التصور للنعمة واظهارها، وقال البعض أن الكلمة فى الأصل كانت «كشر» بمعنى الإظهار والابراز (والدابة الشكورة) تطلق على الحيوان الذى يواظب ويهتم بالزرع والماء وتسمن يوماً بعد يوم، و «العين الشكراء» بمعنى العين المليئة بالماء ولذلك فإنّ الشكر بمعنى امتلاء وجود الإنسان من ذكر المنعم للنعم. والشكر على نوعين: شكر تكوينى وشكر تشريعى، الشكر التكوينى هو شكر المخلوق للمواهب والنعم التى بحوزته وتحت تسلطه، لتنمو كالشجر والورد والثمرة تكون تحت إشراف الفلّاح الخبير الذى يعرف كيف تثمر الثمار الجيدة، والكفران هو عدم ظهور أثر للمحافظة والمراقبة فيها من قبل الفلّاح. لذلك فإنّ الذى يستعمل النعم الإلهية فى طريق العصيان فقد كفرها تكوينيّاً. الشكر التشريعى هو أن يقوم الإنسان بشكر الخالق بالقلب واللسان. وذكرنا سابقاً أنّ الإنسان لا يستطيع أن يؤدّى شكر الخالق ونعمه، لأنّ نفس هذا التوفيق للشكر هو نعمة منه تعالى وهو نفسه يحتاج لشكر آخر، ولذلك جاء فى رواياتنا الإسلامية أنّ أفضل شكر الإنسان هو أظهار العجز عن شكر اللَّه فى مقابل نعمه والمعذرة عن ذلك التقصير، لأنّه لا يستطيع أحد أن يؤدّى ما يستحقه البارى تعالى. وذكرنا سابقاً الكثير من مطالب الشكر وما يقابلها من الكفران، ولتكميل هذا البحث نذكر بعض من الآيات والروايات عن المعصومين عليهم السلام، ونكتفى بهذا القدر منها: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِى فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۵۹ وشبيه لهذا التعبير جاء فى آيات اخرى. ومرّة يشير إلى العين والسمع والعقل فإنّها أهمّ وسيلة للمعرفة الإنسانية فيقول: وأمّا القرآن الكريم فقد جعل الصبر والشكر أحدهما قرين للآخر وهما وسيلتان لتفتح العلم والإيمان فى قلب الإنسان فقال: «وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» «۱». فالقرآن الكريم أشار فى موارد عديدة لوجود هذه الفضيلة (فضيلة الشكر عند الأنبياء العظام)، وأمرهم بالشكر «۲» ومرّة يخاطب آل داوود: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِى الشَّكُورُ» «۳». ويقول فى مكان آخر أنّ شرط رضا البارى تعالى هو الشكر: «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» «۴». الآيات حول الشكر فى القرآن الكريم كثيرة وتصل إلى حوالى ال ۷۰ آية، والجدير بالذكر أنّ صفة الشكور نسبت للَّه‌تعالى فى سورة النساء الآية ۱۴۷: «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً». مفهوم الآية يبيّن أنّ الشكر إذا صدر بصورة ومعنى حقيقى فإنّ العذاب الإلهى سيرتفع بالكامل، علاوة على أنّ صفة الشكور نسبت للَّه‌تعالى، فإنّ الشكر هو من الصفات المشتركة مع البارى تعالى، والفرق أن الإنسان بوضع النعمة فى موضعها السليم يكون قد أدّى شكرها، وفى المقابل يكون شكر البارى تعالى بزيادة المواهب لعباده. وجاء فى بعض الآيات القرآنية أن التوجه والانتباه للنعم الإلهية هو السبب فى حثّ الإنسان على الشكر ويكون هو الرادع عن الذنوب، ونقرأ فى سورة الأعراف فى خطابه للاقوام السابقة، الآية ۷۴: «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۰ وفى الآية ۶۹ من نفس السورة يقول: «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وهذا التعبير صريح بأن الشكر يكون سبباً للفلاح.

خلاصة القول، أنّ أساس كل سعادة وبركة إلهية هو الشكر، لأنه يقرّب الإنسان يوماً بعد يوم من اللَّه تعالى، ويحكم أواصر المحبّة بين العباد وخالقهم، وهو طريق التقوى والفلاح.

فلسفة الشكر:

الإنسان المنعم قد يتوقع الشكر من الطرف الآخر، أو ربّما يحتاجه فى بعض الأحيان، سواء كان احتياجاً مادياً أو معنوياً، أو لأجل موقعه ومركزه الإجتماعى. ولكن البارى تعالى، هو الغنى عن العالمين، حتى ولو كفر الناس جميعاً، فهو لا يحتاج لشكرهم، ومع ذلك فقد أكد على الشكر، فمثله كمثل باقى العبادات، ونتيجته تعود على نفس الإنسان، وإذا ما دققنا النظر قليلًا فستتوضح فلسفته. إذا قدّر الشخص النعم الإلهية سواء كان بالقلب أو اللسان أو بالعمل، فهو يستحق تلك النعمة، واللَّه سبحانه وتعالى هو الحكيم لا يسلب النعمة من أحد من دون دليل ولا يعطى لأحد من دون دليل، فعندما يشكر الإنسان النعم فلسان حاله يقول إننى مستحق للنعم، وحكمة البارى لاـ توجب له النعمة فقط بل تزيده أيضاً. ولكن لسان حال الكافر يقول: إننّى غير مستحق للنعمة وحكمة البارى تعالى توجب سلب تلك النعمة منه، وإذا شكر يوماً وكفر يوماً، فسيتعامل معه كالتالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۱». وعندما نقول أنّ الشكر سبب فى دوام النعمة فدليله هذا بعينه، وفى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «بِالشُّكرِ تَدُومُ النِّعَم» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۱ وفى حديث آخر قال: «ثَمَرَةُ الشُّكرِ زِيادَةُ النِّعَم» «۱». وعلاوة على ذلك عندما يتم غرس روح الشكر عند الإنسان، فتصل إلى شكر المخلوق، فشكر المخلوق فى مقابل ما يؤدّيه من أعمال جيدة، يكون سبباً مؤثراً فى حركة المجتمع وتفتح الاستعدادات الخلّاقة وفى أعماق الإنسان وبالتالى فسيتحرك المجتمع لشكر الخالق ومنه يفتح باب معرفته، فتتعمق العلاقة بين الإنسان وربّه، وكما أشرنا سابقاً فإنّ أول مسألة تبحث فى علم الكلام هى معرفة اللَّه عزّ اسمه، وأهمّ دليل فيها هو مسألة شكر المنعم والتى هى بدورها نابعة من الوجدان أو كما يقال بأنّ: قياساتها معها. عملية الشكر بالإضافة إلى أنّها تعرف الواهب، فإنّها تعرف النعم نفسها أيضاً، فالنعمة كلّما إزداد حجمها وكيفيتها، تستدعى شكراً أكبر وأكثر، ولأداء شكر المنعم تكون معرفة النعمة أمراً ضرورياً، وبالتالى تؤدى إلى توثيق الأواصر بين الخالق وعباده وتشغل نيران الحب له فى القلوب، وكم استتبعت المواهب المادية، مواهب معنوية أعلى وأسمى!

الشكر فى مصادر الحديث

الروايات فى هذا المجال لا تعد ولا تحصى، ونختار طائفة منها للقارىء الكريم: ۱- فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجَرِ كَأَجرِ الصَّائِمِ المُحتَسِبُ والمُعافِى الشاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجرِ كأَجرِ المُبتلى الصابِرِ والمُعطى الشاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجرِ كأجرِ المَحرُومِ القانِع» «۲». ۲- فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَكْتُوبٌ فِى التُوراةِ الشُّكرُ مِنَ النِّعَمِ عَلَيكَ، وَأَنعِم عَلى مَنْ شَكَرَكَ فَإِنَّهُ لازَوالَ لِلنَّعماءِ إذا شُكِرَتْ وَلا بَقاءَ لَها إذا كُفِرَتْ» «۳». ۳- فيبيّن هذا الحديث أنّ اللَّه تعالى وحده لا يزيد النعم فقط عند الشكر، بل وعلى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۲ الإنسان أن يزيدها عند الشكر أيضاً. ۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ثَلاثٌ لايَضُرُّ مَعَهُنَّ شَىءٌ، الدُّعاءُ عِندَ الكَربِ، والاستِغفارُ عِندَ الذَّنْبِ، والشُّكرُ عِندَ النِّعمَةِ» «۱». وأهمية الدعاء والاستغفار فى الثقافة الإسلامية معلومة، ومع ما تقدم من الروايات أعلاه تتبيّن أهمية الشكر للإنسان وأنّ أمامه ثلاث حالات لا رابع لها، فإمّا أن يكون قد اصيب بمصيبة، أو وصلته نعمة، فهو خائف بسبب الحفاظ عليها، أو يزلّ ويصدر منه ما يغضب الربّ، ودواء كل واحد منها ذكر فى الروايات، فالمشاكل تزول بالدعاء والذنوب بالاستغفار، وتثبيت النعم بالشكر، وجاء فى هذا المجال حديث عن الإمام عليه السلام: «نِعمَةٌ لا تُشكَرُ كَسَيِّئةٍ لا تُغفَرُ» «۲». ۴- فى حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً، أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان فى يوم من الأيّام راكباً ناقته وفجأة نزل وسجد خمس سجدات، وعندما قام وركب مركبه، قلت له: يا رسول

اللَّه رأيت منك اليوم أمراً لم أره من قبل، فقال: «نَعَمْ إستَقبَلَنى جِبرئِيلُ فَبَشَّرنى بِبشاراتٍ مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَسَجَدتُ للَّهِ شكَراً لِكَلِّ بُشرى «۳». ونستوحى من هذا الحديث أنّ القادة الإلهيين يؤدّون شكر كل نعمة على حدة مهما استطاعوا. ۵- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه أمر بشكر جامع وكامل فقال: «إذا أَصبَحتَ وَأَمسَيتَ فَقُلْ عَشرَ مَرّات: اللَّهُمَّ ما أَصبَحتْ بى مِنْ نِعمَةٍ أو عافِيةٍ مِنْ دِينٍ أو دُنيا فَمِنكَ وَحدَكَ لاشَرِيكَ لَكَ، لَكَ الحَمدُ وَلَكَ الشُّكرُ بِها عَلَىَّ ياربَّ حَتّى تَرضى وَبَعدَ الرِّضا» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۳ وبعدها قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّك إن فعلت ذلك فتكون قد أدّيت شكر النعم التى وافتك فى ذلك اليوم. ۶- عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى أحاديثه القصار والمليئة بالمعانى الجميلة، فيقول: «شُكرُ النِّعمَةِ أَمانٌ مِنْ تَحلِيلِها وَكَفِيلٌ بِتأييدِها» «۱». ۷- وقال عليه السلام فى حديث آخر: «شَرُّ النّاسِ مَنْ لايَشكُرُ النِّعمَةَ وَلا يرعى الحُرُمَةَ» «۲». والأحاديث فى هذا المجال كثيرة جدّاً ولا يسعها هذا المختصر وما ذكر سابقاً هو نزر يسير منها.

الشكر فى سيرة المعصومين عليهم السلام:

نحن نعلم أنّ احدى أشكال الحديث، هو فعل وتقرير المعصوم، وكما أنّ قوله يوضّح ويبيّن لنا معالم الدين ومعارفه، فكذلك بعمله وسكوته فى المواقع والمواضع التربوية المختلفة، سيرسم لنا معالم الطريق الصحيح للأحكام والمعارف والأخلاق خصوصاً فى مجال الشكر، والأمثلة عليه كثيرة: ۱- قال الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله عِندَ عائِشة لَيلَتها فَقالَتْ: يا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَتعَب نَفسَكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ما تَقَدمَ مِنْ ذَنبِكَ وَما تأَخرَ؟ فَقَالَ: يا عائِشة أَلا أَكُونَ عَبداً شَكُوراً؟» «۳». ومنه يتبيّن أن الدافع لعبادة الأولياء هو الشكر، ونقلت هذه الجملة كثيراً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى أحاديثه المختلفة، وهى «أَفلا أَكُنْ عَبداً شَكُوراً». ۲- فى حديث عن هشام بن الأحمر أنّه قال: «كُنتُ أَسِيْرُ مَعَ أَبى الحَسن عليه السلام (الكاظم) فِى بَعضِ أَطرافِ المَدِينةِ إذ ثَنّى رِجلَهُ عَن دابَّتِهِ فَخَرَّ ساجِداً، فَأَطالَ وَطالَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۴ وَرَكَبَ دابَّتَهُ فَقُلتُ: جُعلتُ فداك قَد أَطلتَ السُّجُودَ؟ فَقالَ: «إنّنى ذَكَرتُ نِعمَةً أَنعَمَ اللَّهُ بِها عَلَىّ فَأَحبَبتُ أَنْ أَشكُرَ رَبِّى» «۱» ويعلم من هذه الرواية أنّ الأئمّة عليهم السلام، كانوا ملتزمين بأداء الشكر لكل نعمة، وكانوا يوصون مريديهم ومحبّيهم بذلك أيضاً، حيث جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا ذَكَرَ أَحَدُكُم نِعمَةَ اللَّهِ عَزَّوجَلَّ فَلَيَضَع خَدَّهُ عَلى التُّرابِ شُكراً للَّهِ، فَإِنْ كانَ راكِباً فَليَنزِل فَليَضَعَ خَدَّهُ عَلَى التُّرابِ، وإِنْ لَم يَكُن يَقدَرُ عَلَى النُّزُولِ للشُّهرَةِ فَلَيَضَع خَدَّهُ عَلى قَربُوسِه، وإن لَم يَقدر فَلَيَضَع خَدَّهُ عَلى كَفِّهِ ثُمَّ لِيحمِدَ اللَّهَ عَلى ما أَنعَم عَلَيهِ» «۲». ۳- فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه واسمه أبو بصير: «إنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيشرَبَ الشَّربَةَ مِنَ الماءِ فَيُوجِبُ اللَّهُ لَهُ بِها الجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ: إنَّهُ لَيَأَخُذ الإِناءَ فَيَضَعهُ عَلى فِيهِ فَيُسمِّى ثُمَّ يَشرَبُ فَيُنَحِّيهِ وهُوَ يَشتَهِيهِ، فَيَحمدُ اللَّهَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَشرَب، ثُمَّ يُنَحِّيهِ فَيحمَدُ اللَّهَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَشرَب، ثُمَّ يُنَحِّيهِ فَيَحمُدُ اللَّه، فَيُوجِبُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ بِها الجَنَّةَ» «۳».

كيف يتمّ الشكر:

قلنا فى تعريف الشكر أنّه التقدير وعرفان الحرمة سواء كان باللسان أم بالقلب، والكفر هو التحقير للنعمة، وتضييعها، وعدم الاعتناء بالمنعم لها. وأهمّ قسم من مراحل الشكر، هو الشكر العملى، وكم يوجد أفراد يشكرون باللسان ولكنهم يخالفون عملًا، ويكفرون بأنعم اللَّه تعالى. فالمسرفين والمبذّرين والبخلاء والمتفاخرين والطاغين كل اولئك من مصاديق الجاحدين للنعم الإلهية، ويمشون فى طريق كفران النعم، بعكس اولئك الذين ينفقون أموالهم سرّاً وعلانية، ويتواضعون للَّهوللناس رغم سعة أموالهم وتراثهم، ولا يريدون تضييع ما آثرهم اللَّه تعالى به من فضله ويضعون الشىء موضعه، أو كما قال اللَّه تعالى: «فِى أموالِهِم حَقٌّ مَعُلومٌ لِلسَّائِلِ وَالَمحرُوم» اولئك المؤدّون شكر النعم حقّها فى مقابل المعطى الحقيقى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۵ لها، بل ويستحقون الزيادة، «وَلَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم» وورد فى الروايات الإسلامية اشارات لطيفة لمراحل الشكر الثلاثة. نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام

أنّه قال: «مَنْ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ بِنِعمَةٍ فَعَرَفَها بِقَلبِهِ فَقَد أدّى شُكرَها» «۱». ومن البديهى أنّ معرفة النعمة وأهميتها وقيمتها، يؤدّى إلى معرفة الواهب لها ويحثّ على تأدية شكرها بالعمل واللسان. وورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال لأحد أصحابه: «ما أَنعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبدٍ بِنِعمَةٍ صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ فَقَالَ الحَمدُ للَّهِ إلّاأدّى شُكْرَها» «۲». ومن المؤكد أنّ القصد من القول الحمد للَّه، ليس هو لقلقة اللسان بل الحمد الحقيقى النابع من القلب والروح. ولذلك فإننا نقرأ فى حديث ثالث عنه عليه السلام، أنّ أحد أصحابه سأله: «هَلْ لِلشُّكرِ حَدٌّ إذا فَعَلَهُ العَبدُ كَانَ شاكِراً؟ قَالَ: نَعم، قُلتُ: ما هُوَ؟ قَالَ: يَحمدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ نِعمَةٍ عَلَيهِ فِى أَهلٍ وَمالٍ وإن كانَ فِيما أَنعَمَ عَلَيهِ فِى مالِهِ حَقٌّ أداهُ، وَمِنهُ قَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: «سُبحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هَذا وَما كُنّا لَهُ مُقرِنِينَ» ...» «۳». وكذلك فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «شُكرُ العالِمِ عَلى عِلمِهِ، عَمَلُهُ بِهِ وَبَذْلُهُ لِمُستَحِقِّهِ» «۴». فهذه اشارات للشكر العملى فى مقابل النعم الإلهية، وبالطبع إنّ العالم الذى لا يعمل بعلمه، أو يحجب علمه عن الآخرين، فهو عبد لا يؤدّى شكر النعم، ولسان حاله يقول: أننى لا أستحق هذه النعم العظيمة. ويجب الإشارة إلى أنّ الشكر العملى يختلف باختلاف الأفراد ويتغيّر شكله من مكان الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۶ إلى مكان، وكما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى حديثه القصير القيم، حيث أشار إلى أربع نماذج، فقال: «شُكرُ إلهكَ بِطُولِ الثَّناءِ، شُكرُ مَنْ فَوقَكَ بِصِدقِ الوِلاءِ، شُكرُ نَظِيرَكَ بِحُسنِ الإخاءِ، شُكرُ مَنْ دُونَكَ بِسَيبِ العَطاءِ» «۱». واحدى فروع الشكر العملى، وهو عندما ينتصر الإنسان على عدوّه، أو بعبارة اخرى العفو عند المقدرة على العدو ما لم يكن خطراً فعلياً، وليجعل العفو عنه هو علامة لشكر اللَّه تعالى وانتصاره عليه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا قَدَرتَ عَلَى عَدوِّكَ فاجعَلِ العَفوَ عَنهُ شُكراً للقُدرَةِ عَلَيهِ» «۲». كما وتجدر الإشارة إلى أنّ أفضل طرق الشكر العملى للنعم، هو الانفاق منها فى سبيل اللَّه تعالى، وقال على عليه السلام فى هذا المجال: «أحسَنُ شُكرِ النِّعَمِ الإنعامُ بِها» «۳». والطريقة الاخرى لشكر النعم العملى هى العبادة والدعاء، بل هو وحسب ما جاء فى الروايات الإسلامية أفضل دافع للعبادة، والحال أنّ العبادة لأجل الحصول على الجنّة هى من عبادة التّجار والعبادة خوفاً من النار تعتبر من عبادة العبيد، فإذا كان الدافع للعبادة هو الشكر، فتلك هى عبادة الأحرار، وقال على عليه السلام: «إنّ قَوماً عَبَدُوهُ شُكراً فَتِلكَ عِبادَةُ الأَحرارِ» «۴».

دوافع الشكر:

يمكننا تقوية روح الشكر ودوافعه، بطرق مختلفة متعددة، وأولها معرفة النعم، نحن نعلم أنّ اللَّه تعالى قد أغرق الإنسان بنعمه ظاهرة وباطنة وفردية واجتماعية، ولحسن الحظ فإنّ تقدم العلوم من عجائب ونعم اللَّه المحيطة بنا، من عجائب صنع الكون الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۷ والعالم إلى عجائب خلقة الإنسان وكل واحدةٍ منها تعتبر نعمة عظيمة كبيرة تستحق الإجلال والوقوف عندها، فمثلًا الكل يعرف فى وقتنا الحاضر جسم الإنسان وتركيبه وأنّه مكوّن من مليارات الخلايا الصغيرة، وهى بدورها لها هيكل وشكل معقد محير للعقول، وكل خليّة منها تعتبر نعمة تستحق الشكر، هذا بالنسبة للخلايا، وأمّا الدم فهو أيضاً يتكون من مكوّنات عديدة أحدها كريّات الدم البيض والتى القى على عاتقها مهمّة الدفاع عن الجسم فى مقابل الميكروبات والأمراض المختلفة التى تهجم عليه نتيجة لتعامل الإنسان مع البيئة التى يعيش فيها، وإذا ما قيل قديماً أنّ كل نفَس يستنشقه الإنسان يتألف من نعمتين وكل نعمة تستحق الشكر، اليوم وفى وقتنا الحاضر استحدثت آلاف بل ملايين النعم وكل واحدة منها تستحق الشكر فعلًا وحقاً. وإذا قال القدماء بأنّ العوامل الأربعة من الشمس والأرض والمطر والرياح تلتقى مع بعضها لتولّد لك رغيف الخبز، فنحن اليوم وبسبب تقدّم العلوم نعلم جيداً أنّ العوامل التى تهب لنا رغيف الخبز لا تقتصر على هذه العوامل الأربعة بل هناك ألالاف من العوامل البيئية والبشرية تلتقى لتولّد لنا هذه النعمة والموهبة الإلهية. وعليه فانّ دوافع المعرفة التى تتصل من خلال المعرفة تتسع يوماً بعد آخر وتأخذ أبعاداً جديدة ومتنوعة، وعلى هذا الأساس فإنّ استمرار حالة الشكر للنعم الإلهية يحصل ويتعمّق فى وجود الإنسان من خلال التدبّر ودوام التفكّر فى هذه النعم الإلهية فى حركة الحياة والواقع. الدافع الآخر للشكر هو أنّ الإنسان لابدّ أن ينظر فى الموارد الدنيوية إلى ما دونه من الناس

ليدرك عظيم نعمة اللَّه عليه وما حباه من كثير المنّة وما أعطاه من القابليات والقوى والإمكانات التى يفتقدها الآخرون لأسباب مختلفة، وفى ذلك نقرأ فى الحديث الشريف الوارد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى كتابه لأحد أصحابه المعروفين (حارث الهمدانى) يقول: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۸ «وَأَكثِر أَنْ تَنظُرَ إِلى مَنْ فُضِّلتَ عَلَيهِ فَإنَّ ذَلِکَ مِنْ أَبوابِ الشُّكرِ» «۱» فى حين أنّ الإنسان لو نظر إلى من فوقه من الأشخاص المثرين فإنّ ذلك سوف يتسبب له بتفعيل روح الطمع وعدم الشكر وبالتالى تتحرّك الوساوس الشيطانية فى نفسه لتثير فيه حالة الابتعاد عن اللَّه تعالى ونسيان النعمة، ومن الدوافع المهمّة الاخرى مطالعة بركات وآثار شكر النعمة والمنعم وما يترتب عليه من زيادة النعمة ودوامها كما تقدم ذلك بالتفصيل فى الأبحاث المتقدمة. ومن أفضل الطرق لتفعيل حالة الشكر بين الناس تجاه أحدهم الآخر أن يتحرك الناس باتجاه مكافأة المحسن وتقدير الأشخاص الذين يساهمون فى حركة الخدمة والإحسان فى المجتمع سواءً كان التشجيع والثناء كلامياً أو فعلياً ولذلك قال الإمام على عليه السلام فى عهده المعروف لمالك الأشتر: «ولا يَكُونَنَّ المُحسِنُ والمُسِيءُ عِندَكَ بِمَنزِلَةٍ سواءٍ فإنَّ فِى ذَلِکَ تَزهِيداً لأَهلِ الإحسانِ فِى الإحسانِ وَتَدرِيباً لأَهلِ الإساءَةِ عَلَى الإساءةِ» «۲».

شكر الخالق وشكر المخلوق:

لا شكّ أنّ الشكر للنعمة كما هو خُلق جميل بالنسبة للَّهلشكر اللَّه تعالى فكذلك هو خُلق جميل ومطلوب من الإنسان تجاه المخلوق أيضاً، فالشخص الذى يؤدّى خدمة إلى الآخر ويتحرك فى سبيل ايصال نعمة أو يتنازل عن خير من نفسه إلى الآخر فإنّ وظيفة الآخر الذى حصل على هذا الخير أن يشكر هذا الإنسان الذى تسبب فى إيصال النعمة له رغم أنّه لا يريد ولا يتوقّع الشكر من الآخر، فقد ورد فى الرواية المعروفة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «مَن لَم يَشْكُرِ المُنعِمَ مِنَ المَخلُوقِينَ لَم يَشكُرِ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۶۹ إنّ العبارة المعروفة: «مَنْ لَم يَشكُرِ المَخلُوقَ لَم يَشكُرِ الخالِقَ» رغم أنّها لم ترد فى الروايات الإسلامية بهذا النص إلّاأنّ هذا المضمون والمفهوم قدورد فى الروايات الشريفة عن المعصومين، ويمكن أن يكون لها معنيان وتفسيران: الأول: أنّ ترك شكر المخلوق هو شاهد ودليل على روح العناد وكفران النعمة لدى هذا الشخص وبسبب ذلك فإنّه لا يعيش التقدير والاحترام للآخرين بل أحياناً تستولى عليه حالة انتظار الاحسان من الناس ويرى أنّهم مقصّرون فى حقّه، ومثل هذا الإنسان سوف لا يعيش الشكر للخالق جلّ وعلا، ولا سيّما أنّ النعم والخيرات التى تصل إلى الإنسان عن طريق الآخرين تكون محدودة ولذلك يشعر بها الإنسان ويلمسها من قريب لأنّها تقع بين الفينة والاخرى، أمّا المواهب الإلهية فكثيرة ولا متناهية وتحيط بوجود الإنسان تماماً ولذلك فإنّها لشدّة ظهورها تكاد تخفى على الإنسان الغارق فى النعمة فلا يكاد يشعر بها. والآخر: أنّ شكر المخلوق هو فى الواقع شكر اللَّه تعالى، لأنّ شكر المخلوق ما هو إلّا واسطة للفيض وانتقال النعمة من اللَّه تعالى إلى الآخرين، وعليه فإنّ من لم يشكر المخلوق فهو فى الواقع لم يشكر اللَّه تعالى. وعلى كل حال فقد ورد التأكيد على هذا المعنى فى الروايات الإسلامية وأنّ المسلم لابدّ أن يعيش الشكر للمخلوق الذى أوصل إليه النعمة، وللخالق الذى هو أصل النعمة بل وينبغى اعطاء الشاكر مزيداً من النعمة تشجيعاً لواقع الشكر كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله، أنّه ورد فى التوراة: «اشكُرْ مَنْ أَنعَمَ عَلَيکَ وَأَنعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَکَ» «۱». ونقرأ فى المفاهيم القرآنية أنّ اللَّه تعالى يأمر بتقديم الشكر للمخلوقين إلى جانب شكره تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَن اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْکَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» «۲». ولا شكّ أنّ الوالدين لا يختصّون بإيصال الخير للإنسان أو أنّهما أصحاب الحق فقط عليه (رغم أنّ حقهما عظيم) فإنّ كل من كان له حق معنوى أو مادّى على الإنسان فلابدّ من تقديم الشكر له. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۰ ونشاهد هذا المعنى فى حالات وسيرة القادة الإلهيين حيث يشكرون الآخرين على أيّة خدمة مهما كانت ضئيلة ويجزلون العطاء على أقل نعمة تصل إليهم من الغير ومن ذلك ما ورد فى قصة احدى جوارى الإمام الحسين عليه السلام التى أهدت له وردة جميلة فما كان من الإمام عليه السلام إلّاأن أعتقها جزاء صنيعها هذا، وعندما سئل عن سبب

ذلك وأنّ هذا الجزاء الكبير لا يتلاءم مع تلك الخدمة الصغيرة من الجارية قال: «كذا أدّبنا اللَّه» «۱». وكذلك القصّة المعروفة الاخرى عن الثلاثة الكرام وهم الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وعبداللَّه بن جعفر الذين كانوا فى قافلة فتأخروا يوماً عنها فلجأوا فى الصحراء إلى خيمة عجوز منفردة فسقتهم الماء وأطعمتهم من لحم الشاة الوحيدة لديها فلّما انتهوا من الطعام وأرادوا الرحيل عنهـا قـالوا لها: إذا وردت المدينـة فأتى إلى دورنا لنجازيك على هـذه الخدمـة الكبيرة، ثم مضت أعوام من القحط الشديـد فى تلك الصـحراء إلى درجـة أنّ الأعراب وأهل الخيام فى تلك الصـحراء جاءوا إلى المدينـة طلباً للطعام والغـذاء، وفى أحد الأيّام وقعت عين الإمـام الحسن عليه السـلام على تلـك العجوز فى أزقّة المدينـة تطلب لها طعاماً، فناداها الإمام وذكّرها بنفسه وأنّه قـدم عليها مع أخيه وابن عمّه إلى خيمتها فاطعمتهم من ذلك الطعام ولكن العجوز لم تتذكر شيئاً ورغم ذلك فإنّ الإمام قال لها: إذا لم تذكرى ذلك فأنا أذكره ثم إنّه وهب لها مالًا كثيراً وأغناماً كثيرة وبعثها إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام، فقام الإمام الحسين عليه السلام بمثل ما قام به أخيه الإمام الحسن عليه السـلام من العطاء والكرم إلى هذه المرأة الكريمة، ثم أرسـلها إلى عبداللَّه بن جعفر الذى صنع مثل ما صنع الحسن والحسين عليهما السلام حتى أنّ هذه المرأة (صارت من أغنى الناس) كما ورد فى ذيل الحديث «۲». ونقرأ أيضاً قصّة (شيماء) بنت حليمة السعدية واُخت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من الرضاعة حيث حباها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتقدّم لها بفائق الاـحترام والشـكر جزاء للخدمـة التى تقـدّمت بها امّها حليمـة السـعدية للنبى صـلى الله عليه و آله فى طفولته، فقـد ذكر المؤرخون بأنّ طائفـة كبيرة من قبيلـة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۱ بنى سـعد قبيلة حليمة السـعدية وقعوا أسـرى بيد المسـلمين فى حرب حنين، وعنـدما رأى النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله شـيماء بين الأسـرى تذكّر خدماتها هى وامّها فى أيّام طفولته، فنهض من مكانه إحتراماً لهـا وفرش عبـاءته على الأـرض وأجلس شـيماء عليهـا وأخـذ يسألهـا بكـل لطف ومحبّـة عن أحوالهـا وقال: أنت صاحبـة الفضل علىّ وكذلك امّك، فى حين أنّه قد مرّ على ذلك سـتون سـنة تقريباً، وهناك طلبت شـيماء من النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله أن يطلق سراح أسـرى قبيلتهـا فقال: أنا اوافق على هـذا الطلب من سـهمى، فعنـدما سـمع المسـلمون ذلك وهبوا حصّـتهم كـذلك من الأسـرى لشيماء، وبالتـالى تم تحرير جميع أسـرى هـذه القبيلـة بسـبب تلك المحبّـة والخدمـة التى عاشـها النبى صـلى الله عليه و آله فى مرحلة الطفولة «۱». ومثال آخر على ذلك هو ما ورد فى سـيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من أنّه كانت هناك امرأة تدعى (ثويبة) التى نالت شـرف ارضاع رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قبل «حليمة السـعدية» من لبن ولدها «مسـروح»، فعندما هاجر النبى صلى الله عليه و آله ورزقه اللَّه المال كان يرسل لها بعض الثياب والهـدايا إلى آخر حياتها حيث توفيت بعـد واقعـة «خيبر». والعجيب أنّه جاء فى بعض التواريـخ أنّ هـذه الامرأة «ثويبـة» كانت أَمة «أبى لهب» وعندما بشـرت أبا لهب بولادة رسول اللَّه أعتقها أبو لهب (ومعلوم أنّ أبا لهب فى ذلـك الزمـان قـام بهـذا العمـل بسـبب رابطـة القرابـة بينه وبين رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، حيث فرح أبو لهب لمّـا رزق أخوه عبداللَّه). وعندما مات أبو لهب بعد سـنوات من العداء والأذى لرسول اللَّه صـلى الله عليه و آله رآه أخوه العباس فى عالم الرؤيا، فسأله عن حـاله، فقـال: أنا معـذّب فى النار، ولكن يخفّف عنى العـذاب فى ليالىالأثنين بحيث أشـرب الماء من بين أصابعى، لأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولـد يوم الأـثنين، وعنـدما بشـرتنى أمتى ثويبـة بولادته وعلمت أنّها أرضـعته لعـدّة أيّام أعتقتها» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۲

الغيبة، التنابز بالألقاب وحفظ الغيب

تنويه:

تقـدّم فى الجزء الأول من هذا الكتاب والذى يبحث عن الاصول العامة للقيم الأخلاقية بحث حول علاج آفات اللسان على أساس أنّها أول خطوات إصـلاح الأخلاق وتهذيب النفس والسير والسلوك إلى اللَّه تعالى، وقد وعدنا هناك أن نفصّل الحديث عن هذه الحالة

ونـذكر جزئيات اخرى في البحوث اللاحقـة، وأحـد افرازات آفـة اللسان هـذه هي مسألة (الغيبة) التي هي من أخطر المفاسد الأخلاقية وأكثرها إتّساعاً وشيوعاً حيث تتسبب في هتك حُرمة الآخرين، وكشف أسرارهم، وإشاعة الفحشاء، وتمادي المذنبين والمجرمين في سلوكهم، وبالتـالي تفضـي إلى تزلزل إعتماد الناس وثقتهم بالبعض الآخر، ولا ريب أنّ لكثير من الناس عيوب ونقاط ضـعف مستورة غالباً، فإذا اتّضـحت هذه العيوب ونقاط الضـعف فسوف تتزلزل الثقة العامة بين الناس وتنتشـر المفاسد الأخلاقية العديدة التي ذكرناها آنفاً في الوسط الاجتماعي، ولـذا نهى الإسـلام عن ذلك بشـدّة، وجاء في كتب علماء الأخلاق أنّ الغيبـة من أسوأ آفات اللسان (رغم أنّ الغيبـة لاـ تنحصـر بـذكر الطرف الآـخر باللسـان، بـل قـد تتحقق بالقلم أو الإشارة أو التعرض بشـكل من الأشـكال للآخر). وبما أنّ السـلوك إلى اللّه تعـالى لاـ يمكن أن يتحقق للإنسان ولا يرى المجتمع الإنساني الاخلاق في القرآن، ج۳، ص: ۷۴ السعادة والصلاح بـدون إزالـة هـذه الرذيلـة الأخلاقيـة بين أفراد المجتمع فلذلك نجد أنّ النصوص الدينية قد اهتمت بهذا الأمر إهتماماً بالغاً. إنّ تسـمية الأشـخاص الآـخرين بأسـماء وقحة وألقـاب قبيحـة في غيابهم يعتبر فرع من فروع الغيبـة المحرّمـة، رغم أنّه قـد يـذكر بعنوان مسـتقل، ولـذلك ذكرناهما تحت عنوان واحـد. النقطة المقابلة للغيبة حفظ الغيب، أي أنّ الإنسان يذكر الآخرين من موقع المدح والثناء ويدافع عنهم في حال تعرضـهم للغيبـة لحفظ كرامتهم وسـمعتهم بما سـتأتي الإشارة إليه، وهـذه احـدى الفضائل الأخلاقيـة المهمّـة وتتضـمّن بركـات كثيرة على مسـتوى الفرد والمجتمع. على أيـة حال ونظراً لأهميـة الموضوع، فقـد تطرق القرآن الكريم في مواضع عديـدة إلى هـذه المسألـة وأصدر أحكاماً مشددة عليها: ۱- «وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ» «۱». ۲- «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» «۲». ۳- «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» «۳». ۴- «لَايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» «۴».

تفسير واستنتاج:

تنطلق «الآية الاولى» لتتحدث بصـراحة عن ثلاث أشـياء نهى القرآن الكريم عنها، الأول: سوء الظن، ثم التجسس، ثم الغيبة، ومعلوم أنّ سوء الظن يقود الإنسان إلى التجسـس على أحوال الآخرين وكشف أسـرارهم، وبما أنّ كل إنسان لا يخلو من نواقص ونقاط الاخلاق في القرآن، ج۳، ص: ۷۵ ضـعف، فسوف تنكشف من خلال التجسـس، وبالتالي تكون موضوعاً للغيبـة. هذا وأنّ القرآن الكريم اهتمّ بمسألـة الغيبـة في هـذه الآيـة أكثر من اهتمامه بمسألة سوء الظن والتجسـس حيث تحرك في اسـتجلاء مضـمونها من موقع الاسـتدلال وقال: «وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ». هذا التشبيه يشكل في الواقع دليلًا منطقياً يبيّن جميع أبعاد المسألة، فالشخص الغائب قد شبّه هنا بالميت، والرابطة معه هي رابطة الاخوة، وسمعته وشخصيته بمثابة جسده، وغيبته بمثابة أكل لحمه، وهو العمـل الـذي ينفر منه وجـدان كل فرد مهما كان ضـعيفاً، ولا يجـد كل إنسان الاسـتعداد لارتكابه حتى في أشـدّ الظروف وأقسى الحالات. وهذا التشبيه يمكن أن يكون إشارة إلى نكات اخرى كثيرة: فمن جهة أنّ الشخص الغائب مثل الميت في عدم قدرته على الـدفاع عن نفسه، والتهجم على من لا يقدر على الدفاع عن نفسه يعدّ من أسوأ الحالات الأخلاقية في الدناءة والحقارة. ولا شـك أيضاً أن تناول الميتة لا يتسبب في سـلامة البدن والروح، بل يفضـي إلى الابتلاء بأنواع الأمراض، وعليه فإنّ المسـتغيب إذا ما اسـتطاع اطفاء نار حسده وحقده بواسطة الغيبة وبصورة مؤقتة، فسوف لا يمضي وقت طويل حتى تورق بذور المفاسد الأخلاقية التي زرعها في قلبه وتعمـل على زيـادة قلقه وتوتره النفسـي. وكمـا أنّ الحيوان أو الإنسـان الآكل للميتـة يتسبب في انتشار الأمراض والميكروبات في الوسط الذي يعيش فيه، فكذلك الشـخص المستغيب يعمل على إشاعة الفحشاء والمنكر بين المسلمين بذكره عيوب وذنوب الآخرين المسـتورة. عندما يذكر القرآن الكريم هذا المثال بتفاصـيله الدقيقة فإنّه يروم إلى تثوير وجدان الإنسان وفطرته تجاه هذا الذنب الكبير، ولعل هذا هو السـبب في حكاية الآية المثال المذكور بصيغة سؤال لكي يجد الإنسان الجواب بنفسه في أعماق وجدانه وبالتالي يكون تأثيره أكبر في واقع الإنسان وأحاسيسه حيث تقول الآية: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً؟». الاخلاق في القرآن، ج۳، ص: ۷۶

وضـمناً فانّ الآية يمكن أن تكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أن موارد الاستثناء من حكم الغيبة وجوازها (من قبيل التظلم والمشورة وإصـلاح ذات البين) هى فى الواقع من قبيل المضـطر لتناول الميتة حيث ينبغى به أن يقنع بالحدّ الأقل منها. ولكن قد يثار هذا السؤال، وهو أننـا لا ـ نرى فى جميع انحـاء العـالـم من يتنـاول لحم إنسان ميت (فكيف إذا كان أخاه)، فانّ شـناعة هـذا الفعل وقبحه ممّا لا يكاد يخفى على أحـد، فى حين أنّ ممارسـة الغيبـة تعـدّ من الامور المتعارفة والمنتشـرة فى المجالس إلى درجة أنّها تعدّ أحد وسائل الترفيه والفكاهة، فكيف نفسّـر هذا الاختلاف بين هذين الحالين؟ الظاهر أنّ هذا الأمر لا دليل له سوى تفشـى الغيبة وكثرة تداولها بين الناس بحيث أدّى إلى التقليل من قبحها إلى هـذه الدرجـة. وتتحرك «الآيـة الثانيـة» من موقع التهديـد الشديـد لمن يمارس الغيبـة (السـخرية والاسـتهزاء) فى حق الآخرين وتقول بأنّ العـذاب العظيم ينتظر هؤلاء الأشـخاص الذين يسـخرون من المؤمنين ويلمزونهم بألسـنتهم أو حركـات أيـديهم أو يغمزونهم بـأعينهم من موقع التهمـة والخصومـة: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ». كلمـة «لمزة» من مادة لمز على وزن رمز وكلمـة «همزة» بنفس الوزن كليهمـا من صـيغ المبالغـة، واختلفوا هـل أنّهمـا بمعنى واحـد، أو يختلفـان فى المعنى؟ هنـاك كلام بين المفسّـرين، بعض يرى أنّهما بمعنى واحد، وبعض آخر يرى أنّ الهمزة بمعنى الغيبة واللمزة بمعنى التعيير، وذهب ثالث إلى عكس هذا المعنى، ورابع إلى أنّ الهمزة تقال لمن يعيب على الآخرين بالإشارة بينهما اللمزة تقال لمن يقوم بهذا العمل باللسان، وخامس يرى بأنّ الاـولى هى تعيير الشـخص بـالعلن والثانيـة وبالخفـاء وبعض يرى أنّ «الهُمزة» تقال لمن يعيب الشـخص فى حضوره بينما «اللمزة» تقال لمن يعيب شـخصاً فى غيـابه. ويـذكر بعض المفسّـرين أنّ مقولـة «الهمز واللمز» عبارة عن صـفتين رذيلتين مركبتين من حالات الجهل والغضب والتكبر، لأنّهما تتسببان فى إيذاء الآخرين وجرح عواطفهم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۷ وشخصيتهم وكذلك تتضمّنان نوع من حالـة التفوّق وطلب العلو، وبما أنّ مثل هذا الإنسان لا يرى فى نفسه فضـيلة وصـفة حسـنة فإنّه يتحرّك لجبران هذا النقص من موقع ذكر عيوب الآخرين ونقائصهم ليحرز بذلك تفوّقه «۱». وقد ذكرت بعض التفاسير وطبقاً لحديث شريف أنّ هاتين الصفتين هما من صفات المنافقين «۲»، والتعبير بكلمة (ويل) فى بداية هذه الآية والتى وردت فى سبع وعشرين مورداً فى القرآن الكريم هى إشارة إلى اللعن والهلاك وأنواع العـذاب لمن يرتكب مثل هذه الأفعال، وما يقال من أنّ هذه الكلمة إشارة إلى بئر أو وادى عميق فى جهنّم ملتهب بـالنيران هو فى الواقع من قبيـل تفسير الكلى بمصـداقه. وهـذه الكلمـة وكـذلك كلمـة (ويس) و (ويـح) كلّها تأتى لبيان حالة التأسف التى تصيب الإنسان، غايـة الأمر أنّ (الويل) تأتى فى الموارد الشديـدة القُبـح و (ويس) تأتى فى مقابل حالة التحقير، و (ويح) تأتى فى مقام الترحّم «۳». ومع الالتفات إلى موارد استعمال كلمات (ويل) فى القرآن الكريم يتّضح جيداً أنّ هذه المفردة تستخدم فى الموارد التى يكون فيهـا العمـل قبيحاً جـدّاً، ومنه يتّضـح كـذلك أنّ الغيبـة والتنابز بالألقاب يعتبر فى دائرة المفاهيم القرآنيـة من أقبح الأعمال. «الآية الثالثة» تتحدث عن الذين يشيعون الفحشاء بين الناس من موقع الذم لهم والتهديد الشديد بالعذاب الأليم لمرتكب هذه الرذيلـة وتتضـمّن كذلك ذم الغيبة لأنّ إشاعة الفحشاء تتمّ غالباً من خلال الغيبة أو التهمة فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وبالطبع فإنّ شأن نزول هـذه الآيـة إنّما هو فى مورد التهمـة التى نسـبهما المنافقون لبعض زوجات النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، ولكن مسألة إشاعة الفحشاء بين الناس لها مفهوم عام يسـتوعب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۸ موارد كثيرة لا سـيما الغيبة. وفى الحقيقة إنّ الآية الاولى من الآيات المذكورة آنفاً تتحدث عن البعد الفردى لحق الناس بالنسبة إلى الغيبـة ومن هـذه الآيـة نسـتوحى الآفاق السـلبية الاجتماعيـة لظاهرة الغيبـة، لأنّه فى كل مورد يقوم الناس بارتكاب الخطايا والـذنوب فى الخفـاء ثم يفتضـح أمرهم فـإنّ الكثير من الأشـخاص الـذين يعيشون ضـعف الإيمان واهتزاز القيم الأخلاقيـة فى واقعهم سوف يجدون فى أنفسـهم ميلًا ورغبة لإرتكاب مثل هذه الذنوب. «الفاحشة» من مادة فحش، وهى فى الأصل تعنى كل فعل خرج عن حـدّ الاعتـدال وأضـحى فاحشاً، وعليه فإنّ هذه الكلمة تشـمل جميع المنكرات والسـلوكيات القبيحة فى دائرة الأخلاق رغم ورود هذه الكلمـة فى القرآن الكريـم فى عـدّة مـوارد وكـذلك فى المصـطلح المتـداول بيـن النـاس بمعنى الاـنحراف الجنسـى والتلّوث بـأنواع المحرّمات للشـهوة الجنسية، ولكن هذا لا يمنع من عمومية الفاحشة لموارد اخرى، وفى الحقيقة إنّ استعمالها فى خصوص الانحرافات

الجنسية هو من قبيل استعمال الكلى فى مصداقه البارز، وعليه فإنّ اشاعة الفحشاء الوارد فى هذه الآية لا ينحصر بالانحراف الجنسى، بل يرد فى موارد اخرى تأتى غالباً عن طريق الغيبة. وفى الآية ۴۵ من سورة العنكبوت نقرأ عن الصلاة: «إنّ الصّلاةَ تَنهى عنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ». ولهذا السبب ورد فى ذيل هذه الآية حديثاً شريفاً يقول: «مَنْ قالَ فِى مُؤمِنٍ ما رَأَتْهُ عَيناهُ وَسَمِعَتْهُ اذُناهُ فَهُوَ مِنْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ» والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يذكر فى الآية أعلاه أنّ جزاء مثل هؤلاء الأشخاص هو العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة، وهذا يؤكد أنّ الغيبة وإشاعة الفحشاء لها آثار مخربّة فى حياة الإنسان على المستوى الفردى والاجتماعى. وآخر ما يقال فى تفسير الآية محلّ البحث أنّ القرآن الكريم ولغرض التأكيد على هذه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۷۹ المسألة المهمّة لم يقل إنّ الذين يشيعون الفحشاء لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة بل قال: « «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وفى «الآية الرابعة» والأخيرة من الآيات محلّ البحث نقرأ إستثناءاً لحرمة الغيبة، وهو ما إذا كانت الغيبة صادرة من مظلوم يريد أن يأخذ بحقّه من الظالم ومن ذلك يتّضح جيداً أنّ الغيبة لا تجوز بدون مبّرر ومسوّغ فتقول الآية: «لَايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً». والمراد بالجهر من القول هو أى نحوٍ من الإظهار اللفظى سواءاً كان بصورة شكوى أو حكاية أو غيبة أو لعن وذم وأمثال ذلك، وعليه فإنّ من وقع مظلوماً يحقّ له ولغرض الدفاع عن نفسه أن يفضح هؤلاء الظالمين ويذكر أعمالهم العدوانية للآخرين. ومن أجل، أن لا يسيء الناس الاستفادة من هذا الاستثناء ويتحرّكون من موقع الغيبة والوقيعة بالآخرين بحجّة أنّهم مظلومون فإنّ الآية الكريمة تعقّب فى آخرها بقوله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، فهو مطّلع على نيّات الأشخاص وأفكارهم ودوافعهم فى أعمالهم هذه. وممّا تقدّم من الآيات الكريمة نستوحى قبح وشناعة الغيبة وبالتالى فإنّ عواقبها الدنيوية والاخروية ستكون أليمة للغاية.

الغيبة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية وكتب الأخلاق روايات كثيرة فى ذم الغيبة، حيث تقرّر هذه الروايات فى مضامينها حقيقة مذهلة حول الآثار الوخيمة للغيبة وعقوبتها الأليمة إلى درجة أنّه قلّما نجد بين الذنوب والمحرّمات ما ورد فى حقّه مثل هذه الكلمات والتعبيرات، ونحن نختار منها عشر روايات: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۰ ۱- نقرأ فى حديث شريف أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله خطب يوماً فى المسلمين ونادى بصوتٍ رفيع بحيث سمعته النساء فى بيوتهنّ وقال: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَم يُؤمِنْ بِقَلبِهِ لا تَغتابُوا المُسلِمِينَ ولا تَتَبَّعُوا عَوراتَهُم فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَورةَ أَخِيهِ يَتَتَبَّعُ اللَّهُ عَورَتَهُ حتّى يَفْضَحَهُ فِى جَوفِ بَيتِهِ» «۱». ۲- وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه خطب يوماً بالمسلمين وتحدّث عن ذم الربا حتى أنّه ذكر أنّ الدرهم من الربا أشدّ من ستة وثلاثين زنية ثم قال: «إنّ أَربا الرِّبا عِرضُ الرَّجُلِ المُسلِمِ» «۲». هذا التعبير الذى يقرّر أهميّة ووخامة الغيبة بالنسبة إلى الزنا حيث ورد فى روايات متعددة وفى بعضها ذكر السبب فى ذلك وهو: «أمّا صاحب الزنا فيتوب فيتوب اللَّه عليه، وأمّا صاحب الغيبة فلا يتوب اللَّه عليه حتى يكون صاحبه الذى يحلّه» «۳». ۳- فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «الغَيبَةُ حَرامٌ عَلى كُلِّ مُسلِمٍ وَأَنَّها لَتأكُلُ الحَسناتِ كَما تأكلُ النّارَ الحَطَبَ» «۴». وهذه الخصوصية تترتب على الغيبة وكما سيأتى فى البحوث اللآحقة بسبب أنّ الغيبة تتعرّض لحقّ الناس وبالتالى فإنّ حسنات المغتاب سوف تنتقل إلى صحيفة أعمال الشخص الآخر الذى وقع مورد الغيبة لجبران الخسارة والضرر الذى تحمّله من هذه الغيبة. ۴- وجاء فى حديث قدسى أنّ اللَّه تعالى خاطب نبيّه موسى عليه السلام وقال: «مَن ماتَ تائِباً مِنَ الغَيبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدخُلِ الجَنَّةَ ومَن ماتَ مُصِراً عَلَيه، فَهُوَ أَوّلُ مَنْ يَدخُلُ النّارَ» «۵». وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله نجد تعبيراً مذهلًا عن مخاطرة الغيبة حيث قال: «مَن مَشى فِى غَيبَةِ أَخِيهِ وَكَشفِ عَورَتِهِ كانَ أَوَّلَ خُطوَةٍ خَطاها وَضَعَها فِى جَهَنّمَ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۱ ۶- وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «ما عُمّرَ مَجلِسٌ بِالغَيبَةِ إلّاخُرِّبَ بِالدِّينِ فَنَزِّهُوا أَسماعَكُم مِنْ اسْتِماعِ الغَيبَةِ فَإِنَّ القائِلَ وَالمُستَمِعَ لَها شَرِيكانِ فِى الإِثْمِ» «۱». ۷- وفى حديث آخر أيضاً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و

آله يتحدّث فيه عن الأضرار المعنوية الكبيرة للغيبة ويقول: «مَن إغتابَ مُسلِماً أو مُسلِمَةً لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ صَلاتَهُ وَلا صِيامَهُ أَربَعِينَ لَيلَةً إلّا أنْ يَغْفِرَ لَهُ صاحِبُهُ» «۲». ۸- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَن رَوى عَلى مُؤمِنٍ رِوايَةً يُرِيدُ بِها شَينَهُ وَهَدْمَ مُرُوَّتِهِ لِيَسْقُطَ مِنْ أَعيُنِ النّاسِ، وَأَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ وِلايَتِهِ إلى وِلايَةِ الشَّيطانِ فَلا يَقْبَلُهُ الشَّيطانُ» «۳». ومن الواضح أنّ المصداق البارز للرواية أعلاه هوالشخص المغتاب الذى يهدف من الغيبة إظهار عيوب المؤمنين المستورة ويعمل على هدم شخصيتهم الاجتماعية واسقاطهم بين الناس، فعذاب مثل هؤلاء الأشخاص عظيم إلى درجة أنّ الشيطان نفسه يستوحش من قبول ولاية هؤلاء ويتبرأ من رفقته وصحبته. ۹- وفى الحديث الوارد فى مناهى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «نَهى عَنِ الغَيبَةِ وَقالَ مَنْ إغتابَ امرءً مُسلِماً بَطَلَ صَومُهُ وَنَقَضَ وَضُوءُهُ، وَجاءَ يَومَ القيامَةِ يَفُوحُ مِنْ فِيهِ رائِحَةٌ أنتَنَ مِنَ الجِيفَةِ يَتَأَذّى بِهِ أَهلَ المَوقِفِ» «۴». ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام رغم وجود روايات كثيرة اخرى فى هذا المجال ولكننا نكتفى بهذا المقدار الممكن من بيان عواقب الغيبة وآثارها الوخيمة الدنيوية والاخروية حيث يقول: «إيّاكَ والغَيبَةِ فَإنّها تُمقِتُكَ إلى اللَّهِ والنّاسِ وَتَحبِطُ أَجرَكَ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۲ ومن المعلوم أنّ حديثاً واحداً من هذه الأحاديث يكفى للأحاطة بأهميّة هذه المعصية وخطرها على واقع الإنسان وحياته المعنوية فكيف لو ضممنا وجمعنا هذه الأحاديث بعضها إلى البعض الآخر؟ ولا شكّ أنّه مضافاً إلى القرآن الكريم وتواتر الروايات الإسلامية وإجماع المسلمين على حرمة الغيبة، فإنّ العقل أيضاً يقرّر قبح هذه الخطيئة ويذمّها باعتبارها أنّها من المصاديق البارزة للظلم والعدوان الذى هو من المستقلات العقلية، وعليه فإنّ حرمة الغيبة تقوم عليه جميع الأدلة الأربعة الفقهية. وبقيت هنا مسائل مهمّة لابدّ من استعراضها وبحثها:

تعريف الغيبة:

ورد تعريف الغيبة لأرباب اللغة والفقهاء وعلماء الأخلاق تعاريف وتفاسير مختلفة تعود فى حقيقتها إلى معنى واحد رغم اختلافها على مستوى التعميم والتخصيص وغير ذلك. يقول فى صحاح اللغة أنّ الغيبة هى أن يذكر الإنسان عيب الآخر وعمله فى حال عدم حضوره بحيث لو سمعه ذلك الشخص لتألم وتأثر. ويقول فى المصباح المنير: أنّ الغيبة هى كشف العيوب المستورة للآخرين بحيث يتألمون منها وذلك غيبتهم. وينقل الشيخ الأنصارى قدس سره عن بعض كبار العلماء أنّ الإجماع والأحاديث الشريفة تدلّ على أنّ الغيبة فى حقيقتها هى (ذكر أخاك بما يكره) فى غيبته «۱». وهذا المضمون ورد أيضاً فى حديث نبوى شريف، وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فى تعريف الغيبة يقول: «الغَيبَةُ أنْ تَقُولَ فِى أَخِيكَ ما قَد سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيهِ ...» «۲». ويستفاد ممّا ذكر آنفاً أنّ للغيبة عدّة أركان، أوّلها أن يكون الكلام فى حال غيبة الشخص الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۳ المذكور، فلو قيل هذا الكلام فى حضوره فإنّه يكتسب عنواناً آخر (كعنوان الايذاء أو التهتك وأمثال ذلك) والآخر أن يكون الكلام من قبيل ذكر عيوب الشخص المستورة والخفيّة فلو كانت من العيوب البارزة والظاهرة لم تكن من الغيبة رغم أنّها قد تكون محرّمة بعناوين اخرى، والثالث أن يكون الكلام بحيث إذا سمعه الشخص المذكور بالغيبة فسوف يتألم ويتأثر، ولكن الظاهر أنّ هذا القيد قيد توضيحى فحسب، لأنّ إظهار العيوب المستورة للآخرين وخاصة فى غيبتهم تورث التألم والأذى، وقد يكون هناك بعض الأراذل الذين لا يمتعضون بذكر معايبهم ونشر فضائحهم بين الناس ولكن مثل هؤلاء الأشخاص قلّة نادرة. وممّا تقدمّ آنفاً تتضح لنا هذه الحقيقة جيداً، وهى أنّه عندما يقال لبعض العوام من الناس: لماذا ترتكب غيبة الشخص الفلانى وتذمّه وراء ظهره؟ يقول: إننى أتحدث بهذا الكلام أمامه أيضاً وفى حضوره، فهذا من قبيل العذر أقبح من الذنب، لأنّ التحدّث بذلك أمامه وفى حضوره لا يجوّز غيبته أبداً، فذلك أيضاً ذنب كبير بدوره لأنّه يدخل تحت عنوان أذى المؤمن وكذلك هتك حرمته بين الناس وهدم شخصيته فى المجتمع. ونقرأ فى حديث شريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه ذكر بين يديه رجل فقال بعض الحاضرين: أنّه رجل عاجز وضعيف فقال: رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لقد اغتبتموه، فقالوا: يا رسول اللَّه لقد ذكرنا صفته فقال: «إنْ قُلتُم ما لَيسَ فِيهِ فَقَد بَهَتّموه» «۱». والعذر الآخر الذى يذكره

بعض الجهّال كمسوّغ للغيبة ويتذرّعون به أمام من ينهاهم عن الغيبة يقولون: إنّما نقوله هو حق وليس بكذب، فالشخص الفلانى لديه هذا العيب، وهذه الذريعة لا تقل قبحاً عن سابقتها لأنّه لو لم يكن هذا العيب فى الطرف الآخر لدخل تحت عنوان التهمة لا الغيبة، فالغيبة كما ذكرنا هى ذكر العيوب الخفيّة للآخرين فى غيبتهم. ولابدّ من الإشارة أيضاً إلى أنّه يستفاد من بعض كلمات الأعاظم وعلماء الأخلاق أنّ الغيبة لا تقع بالنسبة إلى جميع المؤمنين، بل تقع فى مورد الأشخاص الذين تابوا من ذنوبهم وندموا على خطيئتهم وعادوا إلى جادة الصواب، وأمّا الفاسق والمذنب والمتجاهر بالإثم، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۴ فإنّ غيبته مباحة حتى لو كان ذنبه مستوراً ويتمسّكون فى هذا بالرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث أنّه قال: «مَنْ عامَلَ النّاسَ فَلَم يَظلِمهُم، وَحَدَّثَهُم فَلَم يَكذِبْهُم، وَوَعَدَهُم فَلَم يُخْلِفْهُم كَانَ مِمَّنْ حُرِّمَ غَيبَتُهُ وَكَمُلَتْ مُرُوَّتُهُ وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ وَوَجَبَتْ إخُوتُهُ» «۱». وبهذا فإنّ الغيبة تكون محرّمة إذا كانت بالنسبة إلى الشخص العادل بينما الشخص الفاسق فيجوز غيبته حتى لو كان يمارس الذنب فى الخفاء. العلّامة المجلسى قدس سره يميل إلى هذا الرأى أيضاً فى الجزء ۷۲ من بحار الانوار باب كتاب العشرة رغم أنّه عدل عن هذا الرأى فى ذيل كلامه أيضاً «۲». ولكن من المسلّم أنّ هذه الرؤية تسبب فى أن يكون أكثر الناس تجوز غيبتهم وهذا على خلاف اطلاق الآية القرآنية والروايات العديدة فى مجال حرمة الغيبة. ومضافاً إلى الروايات الكثيرة التى تقرّر أنّ عدّة طوائف من الناس تجوز غيبتهم أو لا غيبة عليهم ومنهم الفاسق المتجاهر بالفسق ومن جملة ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَربَعَةٌ لَيسَتْ غَيبَتُهُم غَيبَةٌ، الفاسِقُ المُعلِنِ بِفِسقِه، ....» «۳». ونفس هذا المضمون ورد فى رواية اخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً. ويقول الإمام الصادق عليه السلام فى هذا الصدد: «إذا جاهَرَ الفاسِقُ بِفِسقِهِ فَلا حُرمَةَ لَهُ عَلى غَيبَةٍ» «۴». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «مَن أَلقى جِلبَابَ الحَياءِ فَلا غَيبَةَ لَهُ» «۵» ، وهناك أحاديث متعددة اخرى صريحة فى هذا المعنى، وبمقتضى مفهوم الوصف لهذه الأحاديث، بل مفهوم الشرط حيث يكون الكلام فى مقام الاحتراز ونفى الغير يتّضح جيداً أنّه إذا إرتكب الشخص الذنب فى الخفاء فلا يجوز غيبته، وكما سوف يرد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۵ فى بحث إستثناءات الغيبة أنّ الشخص المتجاهر بالفسق تجوز غيبته فى خصوص الذنب الذى تجاهر به لا بالنسبة إلى جميع أفعاله الاخرى. ومضافاً إلى أنّ حرمة الغيبة ثابتة بدليل العقل أيضاً لأنّها نوع من الظلم والعدوان على الآخرين وإفشاء أسرارهم وإسقاط شخصيتهم بين الناس، ولا شكّ أنّه لا فرق بين الفاسق والعادل فى هذا المجال إلّاأن تكون الغيبة فى موارد النهى عن المنكر أو دفع الخطر أو الضرر عن المجتمع الإسلامى وحينئذٍ لا فرق أيضاً بين الفاسق والعادل. وسيأتى فى بحث إستثناءات الغيبة تفصيل أكثر حول هذا الموضوع.

أقسام الغيبة:

أحياناً يتصوّر أنّ الغيبة تقع باللسان فحسب، فى حين أنّ حقيقة الغيبة كما إتّضح آنفاً هى اظهار العيوب المستورة للشخص الآخر بحيث إذا سمع بذلك تألّم وتأثر منها، وهذا العمل يمكن أن يحصل بواسطة اللسان أو بواسطة القلم أو حتى بالإشارة باليد والعين والحاجب، وأحياناً تتخذ الغيبة صبغة المزاح واخرى صبغة الجد، وكم من الذنوب والآثام التى يرتكبها البعض فى لباس المزاح والسخرية حيث تكون أخطر من الذنوب التى تلبس لباس الجد، لأنّ الإنسان يتحرّك بحرية أكثر فى حالة المزاح بخلاف حالة الجد، حيث لا يكون قادراً على بيان المطلب المراد بصورة وافية فيذكره بصبغة المزاح والإثاره للتفكّه والضحك. مضافاً إلى أنّ الغيبة تارةً تقع بتعبيرات صريحة (وبالاصطلاح المنطقى بالدلالة المطابقية والتضمنية) واخرى بالدلالة الالتزامية والتعبيرات الكنائية التى قد تكون أبلغ من التصريح، مثلًا عندما يتحدّث الشخص عن أحد المؤمنين يقول: سامحه اللَّه لنسكت عن هذا فإنّ الشرع المقدس قد أغلق أفواهنا، وبهذه الكلمات يريد أن يفهم الآخرين على أنّ ذلك الشخص قد إرتكب أفعالًا قبيحة وعظيمة، وقد يكون التصريح بها لا يثير المستمع كما هو الحال فى الكناية، ولكن بما أنّ مثل هذا الكلام يثير تصوّرات مجملة عن الموضوع فإنّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۶ ذهن المستمع قد يتصوّر ذنوباً متنوعة وكثيرة يكون الشخص المذكور بريئاً منها. أو يقول: إنّ الشخص الفلانى له صفات

جميلة وأفعال حسنة ولكن ... ويسكت عن إكمال الحديث. وأحياناً اخرى يتحرّك المتكلّم من موقع النصيحة والتحرق القلبى ويقول: سامح اللّٰه فلان وجعل عاقبته إلى خير، أو يقول: أنا خائف من عاقبة أمره، فهو فى الحقيقة يعرض الذنب بلباس الطاعة والشر بثياب الخير، وكما يقول بعض العلماء أنّه بذلك يكون قد ارتكب إثماً مضاعفاً، فيكون قد اغتاب من جهة وارتكب الرياء من جهة اخرى، فمن جهة قد إغتاب الشخص الآخر بتلميحه لمعايب كثيرة ونسبتها إلى الطرف الآخر، وتحرّك من موقع الرياء حيث تظاهر بأنّه ليس من أهل الغيبة، بل من أهل التقوى والطاعة لأوامر اللّٰه تعالى.

دوافع الغيبة:

إنّ للغيبة عوامل كثيرة ودوافع متعددة يكاد كل واحد منها يكون سبباً كافياً لإرتكاب الغيبة، ومن ذلك: ١- الحسد. ٢- الأنانية والعجب ورؤية الذات. ٣- الغرور والكبر. ۴- الحرص. ۵- الحقد. ۶- حبّ الجاه. ٧- حبّ الدنيا والثروة والمقام. ٨- الرياء. ٩- تزكية النفس واظهار الطهارة والتقوى. ١٠- طلب الترفيه عن النفس بأمور غير مشروعة. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٨٧ ١١- سوء الظن. ١٢- حبّ الانتقام. ١٣- التشفى وإطفاء سورة الغضب. ١۴- السخرية والاستهزاء، وغير ذلك من أمثال هذه الدوافع النفسية. والقدر المشترك بين هذه الامور هو أنّ الإنسان يسعى لتسقيط الشخص الآخر وكسر شخصيته وموقعيته الاجتماعية ليضحى فى أنظار الناس ذليلًا ولا قيمة له، ومن هذا الطريق يجبر نقصه ويهدأ غضبه ويشيع حالة الانتقام من الطرف الآخر، أو يتحرك لحرمانه من المقام والثروة أو لاظهار الزهد والقداسة الزائفة أو يتحرك من موقع إثارة الضحك والسخرية أو يرى لنفسه امتيازاً ومقاماً على الآخرين. ومن هنا يتّضح أولًا: أنّ الغيبة مفهوم واسع الأطراف ولها عوامل متنوعة وكثيرة، ففى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أَصلُ الغَيبَةِ تَتَنوَّعُ بِعَشَرَةِ أَنواع، شِفاءِ غَيظٍ وَمُساعَدَةِ قَوم وَتُهمَةٍ، وَتَصدِيقِ خَبَرٍ بِلا كَشفِهِ، وَسُوءِ ظَنٍّ وَحَسَدٍ وَسُخرِيَّةٍ وَتَعَجُّبٍ وَتَبَرُّمٍ وَتَزَيُّنٍ، فَان أَرَدتَ السَّلامَةَ فَاذكُرِ الخالِقَ لاالمَخلُوقَ فَيَصِيرُ ذلِكَ مَكانَ الغَيبَةِ عِبرَةً وَمَكانَ الإِثم ثَواباً» «١». ومن الواضح أنّ الإمام هنا فى صدد بيان قسماً من العوامل المهمّة للغيبة لأنّه كما تقدّم أنّ دوافع الغيبة متعددة وكثيرة غير ما ذكر فى الحديث الشريف.

العواقب السلبية للغيبة:

للغيبة آثار سلبية ونتائج مخرّبة كثيرة على الفرد والمجتمع البشرى فلو تساهل الناس معها لأزداد الحال خطورة، ومضافاً إلى ذلك العواقب الوخيمة المعنوية والعقوبات الإلهية المترتبة على هذه المعصية كما سبقت الإشارة إليها فى الروايات الشريفة. وبالنسبة إلى المورد الأول يمكن الإشارة إلى مايلى: الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٨٨ ١- إنّ الغيبة تقوم بأتلاف أهم رأسمال للمجتمع البشرى، والذى يتمثل بتبادل الثقة والاعتماد بين الأفراد، لأنّ أغلب الأشخاص لديهم نقاط ضعف يسعون لكتمانها وسترها ليحفظوا ثقة الناس واعتمادهم، وقبح هذه النواقص ونقاط الضعف من شأنه أن يقطع أواصر الاعتماد والثقة بين الناس. ومن المعلوم أنّ الأساس فى ظاهرة التعاون الاجتماعى والتفاعل الإيجابى والعاطفى بين الناس يتمثل فى الاعتماد المتقابل بين أفراد المجتمع وبدون ذلك يتبدل المجتمع إلى جحيم لا يطاق من كثرة المشاكل الاجتماعية. ٢- إنّ الغيبة تتسبب فى سوء الظن بين الأفراد، لأنّ العيوب المستورة للأشخاص عندما تنكشف للناس فتتسبب فى زوال حسن الظن لدى الإنسان بالنسبة لجميع الأسوياء والصالحين أيضاً حيث يقول: إنّ هؤلاء قد يمارسون مثل هذه الأعمال الشنيعة فى الخفاء ويتظاهرون بالصلاح والخير فلا نعلم من حقيقة حالهم. ٣- إنّ الغيبة هى أحد أسباب إشاعة الفحشاء والمنكر، لأنّ الذنوب المستورة إذا ظهرت بسبب الغيبة فإنّ ذلك سيؤدى إلى تشجيع الآخرين على إرتكابها، وأساساً فإنّ إظهار الذنوب والكشف عنها من شأنه أن يزيل حالة الخشية منها فيستصغرها الناس ويكون ذلك عذراً للفسّاق فى تبرير ذنوبهم وممارساتهم الخاطئة وأنّه إذا قمنا بارتكاب هذا الذنب فإنّ غيرنا ومن هو أفضل منّا وأعلم قد إرتكبه قبلنا. ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق أنّه قال: «مَنْ قالَ فِى مُؤمِنٍ ما رَأَتْهُ عَيناهُ وَسَمِعَتْهُ اذُناهُ فَهوَ مِنَ الَّذِينَ قالَ اللّٰهُ عَزَّوَجَلَّ: إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ

الفاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ» «۱». ۴- إنّ الغيبة من شأنها أن تبعث الجرأة فى نفوس المذنبين على ارتكاب الذنوب وكسر حاجز الحياء، لأنّ أعمال الإنسان مادامت مستورة فإنّ الحياء يمنعه من إرتكاب الأشنع منها والتجاهر بها خوفاً من الفضيحة والخزى أمام الآخرين، فلو أنّه إفتضح أمره، فحينئذٍ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۸۹ يزول مانع الحياء من نفسه ويتجرّأ أكثر على ارتكاب الذنب. ۵- إنّ الغيبة تورث الحقد والعداوة والبغضاء بين الناس لأنّ أهم رأسمال للإنسان فى المجتمع هو حيثيته وشخصيّته الاجتماعية، والغيبة بإمكانها أن تذيب وتحرق رأس المال هذا فلا يبقى للإنسان شيئاً يعتدّ به فى حركة الحياة الاجتماعية، ولذا تسبب الغيبة العداوة الشديدة والحقد العميق فى قلب الشخص المستغاب (فيما لو سمع بذلك). ۶- إنّ الغيبة من شأنها أن تسقط المستغيب فى أنظار الآخرين، لأنّهم سوف يتصوّرون أن هذا الشخص الذى يتحدّث لهم عن عيوب الآخرين سوف يتحدّث عن عيوبهم أيضاً للآخرين ويغتابهم، ولذلك ورد فى الرواية عن أمير المؤمنين أنّه قال: «مَنْ نَقَلَ إِلَيكَ نَقَلَ عَنكَ» «۱». وفى حديث آخر نقرأ: «لا مُرُوَّةَ لِمُغتابٍ» «۲». ۷- إنّ الغيبة من شأنها أن تكون عذراً لتبرير خطايا وذنوب الشخص المستغيب، فمن أجل أن يكون فى أمان من اعتراض الناس وهجومهم، فإنّه يتحرّك لممارسة هذا الذنب ويستغيب الآخرين لدفع التهمة عن نفسه. (وأمّا الآثار المعنوية السلبية) للغيبة فأكثر من أن تحصى فى هذا البيان، ولكن نشير إلى بعض ما ورد فى الروايات الإسلامية عن ذلك: ۱- تقدّم فى الروايات السالفة أنّ الغيبة تمحق الحسنات وتبطل الأعمال الخيّرة كما تحرق النار الحطب، ويقول العالم الكبير الشيخ البهائى قدس سره فى أحد كتبه: إنّ الغيبة كالصاعقة التى تحوّل الحسنات إلى رماد فى لمح البصر ثم يقول: إن الشخص الذى يرتكب الغيبة هو كمن نصب منجنيقاً واستهدف به حسناته لتحطيمها وتدميرها «۳». ۲- إنّ الغيبة تعمل على تدمير إيمان الإنسان ودينه وتشويه قلبه كما يصنع مرض الجدرى بجلد الإنسان. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۰ ۳- إنّ المرتكب للغيبة فى حالة العفو عنه سيكون آخر شخص يدخل الجنّة، وفى حالة عدم العفو عنه سيكون أول من يدخل النار. ۴- إنّ الغيبة تتسبب فى فضيحة الإنسان، فقد ورد فى الحديث النبوى الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَم يُؤمِنْ بِقَلبِهِ لاتَغتَابُوا المُسلِمِينَ وَلا تَتَبَّعُوا عَوراتِهِم فَإنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَورَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَورَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَورَتَهُ يَفضَحُهُ فِى جَوفِ بَيتِهِ» «۱». ۵- إنّ الغيبة تؤدّى إلى انتقال حسنات الشخص المغتاب إلى كتاب أعمال الطرف الآخر، وكذلك تؤدّى إلى انتقال سيئات الطرف الآخر المستغاب إلى كتاب أعمال المستغيب فنقرأ فى رواية عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يُؤتى بِأَحَدٍ يَومَ القِيامَةِ يُوقَفُ بَينَ يَدَى اللَّهُ يُدفَعُ إِلَيهِ كِتابُهُ فَلا يَرى حَسَناتَهُ فَيَقُولُ إلهِى لَيسَ هذا كِتابِى فَإنِّى لاأرى فِيها طاعَتِى فَقالَ إنَّ رَبَّكَ لايُضِلُّ ولا يَنسى ذَهَبَ عَمَلُكَ باغتِيابِ النّاسِ ثُمَّ يُؤتى بِآخَرَ وَيُدفَعُ إِلَيهِ كِتابُهُ فَيَرى فِيها طاعاتٍ كَثِيرَةٍ، فَيَقُولُ إِلَهى ما هذا كِتابِى فَإنِّى ما عَمِلتُ هذِهِ الطاعاتِ، فَيَقُولُ: إنَّ فُلاناً إغتَابَكَ فَدُفِعَتْ حَسَناتُهُ إِلَيك» «۲». ومن هذا المنطلق نقل عن بعض الشخصيات المعروفة السالفة أنّه أرسل إلى شخص إستغابه طبقاً من التمر كهدية له وقال: إنّك قد أرسلت إلىّ حسناتك وأهديتها لى فأردت جبران صنيعك هذا بهذه الهدية. ونقل عن شخص آخر أنه كان يقول: أنّنى إذا أردت أن أستغيب أحد الأشخاص فإنّ امّى هى الأولى بذلك لأنّها أولى بحسناتى من الآخرين. ۶- إنّ الغيبة تتسبب فى أن لا تقبل صلاة المغتاب وصومه لمدّة أربعين يوماً كما ورد هذا المعنى فى الحديث النبوى الشريف قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ إغتابَ مُسلِماً أو مُسلِمَةً لَم يَقبَل اللَّهُ تَعالى صَلاتَهُ ولا صِيامَهُ أَربَعِينَ يَوماً وَلَيلَةً إلّاأَنْ يَغْفِرَ لَهُ صاحِبُهُ» «۳».

علاج الغيبة:

اشارة

إنّ علاج هذا المرض الأخلاقى الخطير يشبه من جهات علاج سائر الأمراض الأخلاقية الاخرى، ويختلف عنها من بعض الجهات، وفى المجموع لابدّ من رعاية الامور التالية للوقاية من الوقوع فى هذا المرض أو علاجه: ۱- إنّ العلاج الحقيقى لكل مرض بدنى أو نفسى

أو أخلاقى يتمثّل بالعثور على الجذور والأسباب الكامنة وراء الابتلاء بهذا المرض والسعى لإزالتها والقضاء عليها، وبما أنّ عوامل حصول هذه الصفة القبيحة فى النفس كثيرة ومتعددة فلابدّ من التوجه إلى تلك العوامل والاسباب، وقد رأينا أنّ من العوامل المهمّة هو: الحسد، الحقد، الأنانية، حبّ الانتقام، التكبر والغرور وأمثال ذلك، وما دامت هذه الحالات النفسية السلبية موجودة فى أعماق النفس ومادام الإنسان لا يتحرّك على مستوى إزالتها من واقعه وذاته فإنّ هذه الحالة الرذيلة أى- الغيبة- لا تنقلع ولا تزول. وعندما لا يجد الإنسان فى نفسه حسداً على أحد ولا يعيش حالة الحقد والكراهية والمقت تجاه الآخرين ولا يرى فى نفسه إمتيازاً ولا تفوّقاً على الغير فلا مسوّغ له للتلّوث بخطيئة الغيبة ولا يجد فى ذاته رغبة وميلًا إلى ارتكاب هذا الفعل الذميم. ٢- ومن الطرق الاخرى لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية هو الالتفات والتفكّر فى عواقبها السلبية على المستوى المادى والمعنوى، والفردى والاجتماعى، فإنّ الإنسان متى ما إلتفت إلى أنّ الغيبة ستؤدّى به إلى المهانة والسقوط فى أنظار الناس فيعرفونه بأنّه شخص خائن، ضعيف النفس، ويشعر بالدونية والحقارة، فإنّهم سوف يتحرّكون فى الإرتباط معه من موقع عدم الثقة وسوف تهتز شخصيته ومكانته الاجتماعية لدى الآخرين، وأنّ الغيبة سوف تتلف حسناته وتهدر طاقاته وتنقل سيئات الآخرين إلى صحيفة أعماله، ولا تقبل عباداته لمدّة أربعين يوماً وهو أول من يدخل النار، وفيما لو تاب وقبلت توبته يكون آخر من يدخل الجنّة. وأيضاً عليه أن يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الغيبة هى حق الناس لأنّها تتسبب فى الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٩٢ هدم سمعتهم والذهاب بماء وجوههم، ونعلم أنّ قيمة ماء الوجه مثل قيمة النفس والمال لدى الإنسان أو أكثر وما لم يرض عنه صاحب الحق، فإنّ اللَّه تعالى لا يرضى عنه، وربّما لا يتسنى له التوصل إلى كسب رضى الطرف الآخر أبداً وحينئذٍ سيتحمل وزر هذا الفعل مدى الحياة. أجل، فلو أنّ الإنسان تدبّر فى هذه الامور جيداً فسوف يندم بالتأكيد على عمله ويتحرّك بعيداً عن هذا السلوك المنحرف، والأشخاص الذين يعيشون ممارسة الغيبة فى مجالسهم وبهدف الترفيه والتفريح واللهو إذا ما فكّروا فى عواقب الغيبة فسوف يتحوّلون عنها بالتأكيد ولا يقتربون من ممارسة هذا السلوك السلبى والعدوانى. ٣- يجب أن ينتبه المستغيب إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ طاقات الإنسان محدودة، فلو أنّه بدلًا من إتلاف هذه الطاقات وصرفها فى تسقيط شخصية الآخرين وهدم مكانتهم الاجتماعية كان يستخدم هذه الطاقات والقابليات والمواهب الإلهية فى خط الكمال المعنوى والمنافسة السلمية والصحيحة بينه وبين الآخرين فقد لا تمضى فترة قصيرة إلّا ويحرز التوفيق فى الكمالات الإنسانية والمعنوية على الخير ويصل إلى مراتب سامية فى حركة الحياة والتكامل المعنوى والمادى من دون أن يجد حاجة إلى تسقيط الآخرين والعدوان عليهم وبالتالى سوف ينقذ نفسه من نتائج الغيبة وعواقبها الوخيمة فى الدنيا والآخرة. وبعبارة اخرى أنّ الأفضل للإنسان أن يقوم باعمار بيته وبناء داره بدلًا من تخريب بيوت الآخرين ليعيش فى منطقة عامرة وفى دارٍ مشيّدة، ولكن الشخص الذى يتحرّك دائماً من موقع تخريب بيوت الآخرين فإنّ نتيجته سوف تكون تخريب بيوت المنطقة وتخريب بيته أيضاً فيعيش فى الأطلال والخرائب. يجب أن يلتفت المستغيب إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الغيبة هى احدى العلامات البارزة لضعف الشخصية وفقدان الهمّة والمروءة وأنّه يعيش عقدة الحقارة والدونيّة، ولذلك فهو يمارس الغيبة لجبران هذا الضعف النفسى وفى الحقيقة يقوم باظهار هذه العيوب الذاتية الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٩٣ والصفات الباطنية ويجهر بها أمام الناس، فهو يقوم بتدمير شخصيته وتحطيم كيانه قبل أن يحطّم شخصية الآخرين الذين يغتابهم. وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أنّه لابدّ لترك الغيبة وخاصة فيما لو أصبحت عادة لدى الشخص، أن يقوم قبل كل شىء بفرض الرقابة الشديدة على لسانه وكلماته ويتحرّك من موقع الضغط الأخلاقى فى دائرة الكلام، وكذلك ينبغى له أن يتجنّب معاشرة الأصدقاء الذين لا- يجدون حرجاً فى ممارسة الغيبة ويدفعونه بهذا الاتجاه ويترك المجالس المهيئة للغيبة، بل وجميع الامور التى توسوس له فى ممارسة الغيبة. وفى حديث شريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما عُمِّرَ مَجلِسٌ بالغَيبَةِ إلّاخَرِبَ مِنْ الدِّينِ» «١». الملاحظة الاخرى هى أنّ أحد دوافع الغيبة هو السعى لتبرئة الذات والدفاع عنها، مثلًا أن يقول: إذا كنت قد إرتكبت هذا الذنب، فإنّ من هو أفضل منّى وأعلم قد ارتكبه أيضاً، والحال أنّ تبرئة الذات لها طرق اخرى كثيرة لا تنتهى بهذا الذنب الكبير أى- الغيبة- وأساساً فإنّ الاعتراف بالخطأ فى هذه الموارد يكون أسلم عذر وأفضل سبيل لتدارك

الخطأ، مضافاً إلى أنّ أحد الأخطاء الكبيرة لدى الإنسان أن يقارن بينه وبين الفاسقين والأراذل من الناس ويترك المقارنة بينه وبين الأخيار والصلحاء من أفراد المجتمع. أحياناً يتحرّك الشخص لتبرئة نفسه وتبرير سلوكه إلى التشبث بهذا العذر وهو أننى عندما رأيت العالم الفلانى قد إنحرف على مستوى السلوك وارتكب الذنوب زالت عقيدتى وضعف إيمانى وأصبحت فى أمر العقيدة بالمبدأ والمعاد غير مكترث، هذه المعاذير والتبريرات هى المصداق الأتم لمقولة العذر أقبح من الذنب، ويترتب على ذلك عواقب خطرة جدّاً، فما أحرى بالإنسان أن يعترف بخطئه ويسعى فى تعامله مع الآخرين فى حمل سلوكياتهم وأفعالهم على الصحة، وعلى فرض أنّ أحد القادة أو العلماء أو الجهّال تصرّف من موقع الإنحراف وارتكب بعض الذنوب، فلا يكون ذلك مسوّغاً للآخرين على سلوك هذا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۴ المسلك وتبريره بتلك الذريعة الشيطانية، بل يجب على الإنسان أن يجعل الصلحاء والأولياء اسوة له فى دائرة السلوك والتكامل المعنوى والأخلاقى. بقى من موضوع الغيبة عدّة امور مهمّة لابدّ من التعرّض لها:

۱- استماع الغيبة

كما أنّ التحدّث بالغيبة من الذنوب الكبيرة فكذلك المشاركة فى مجلس الغيبة والاستماع للمغتاب فى تعرضّه للمؤمنين والوقيعة بالآخرين أيضاً من الذنوب الكبيرة، لأنّ جميع المفاسد المترتبة على الغيبة تتعلق بطرفين، المغتاب والمستمع للغيبة، فلو أنّ الشخص لم يجد فى نفسه استعداداً لسماع الغيبة فمضافاً إلى أنّه قد تقدّم خطوة فى طريق النهى عن المنكر، فكذلك لا يمكن للغيبة أن تتحقّق فى الواقع، فلا يجد المغتاب من يستمع له ليكشف عن عيوب الناس ولا يتمكن من تسقيط شخصية الآخرين ولا هتك حرماتهم ولا يترتب على ذلك المفاسد الاجتماعية الاخرى. ولهذا السبب نجدالروايات الإسلامية قد شاركت المستمع للغيبة وجعلته أحد المغتابين كما ورد فى أحد الروايات عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «المُستَمِعُ أحدُ المُغتَابِينَ» «۱». وورد عن الإمام على عليه السلام قوله: «السّامِعُ للغَيبَةِ أَحَدُ المُغتَابِينَ» «۲». وفى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه عندما رأى أحد الأشخاص يرتكب الغيبة فى حضور ولده الإمام الحسن عليه السلام فقال له: «يابُنَى نَزِّه سَمعَكَ عَنْ مَثلِ هذا فَإنَّهُ نَظَرَ إلى أَخبَثِ ما فِي وِعائِهِ فَأَفرَغَهُ فِي وِعائِكَ» «۳». وكذلك ورد فى الروايات الشريفة أنّ المستمع للغيبة يجب أن يتحرك من موقع الدفاع عن أخيه المسلم وذلك من خلال حمل سلوكه على الصحّة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۵ وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «مَنْ أُغتِيبَ عِندَهُ أَخُوهُ المُسلِمُ فاستَطاعَ نَصرَهُ وَلَم يَنصُرهُ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي الدُّنيا والآخِرةِ» «۱». وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «إذا وَقَعَ فِي رَجُلٍ وَأَنْتَ فِي مَلاءٍ فَكُنْ لِلرَّجُلِ ناصِراً وَلِلقَوم زاجِراً وَقُم عَنهُم» «۲». وأيضاً ورد فى الحديث النبوى الشريف قوله: «الساكِتُ شَرِيكُ المُغتَابِ» «۳». ونختم هذا البحث بالحديث الشريف الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً حيث قال: «ألا وَمَنْ تَطَوَّلَ عَلى أَخِيهِ فِي غَيبَةٍ سَمِعَها فِيهِ فِي مَجلِسٍ فَرَدَّها عَنهُ رَدَّ اللَّهُ عَنهُ أَلَفَ بابٍ مِنَ الشَّرِّ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ فإنْ هُوَ لَم يَرُدَّها وَهُو قادِرٌ عَلى رَدِّها كانَ عَلَيهِ كَوِزرِ مَنْ إغتابَهُ سبعِينَ مَرَّةً» «۴». ويمكن أن تكون هذه الرواية ناظرة إلى الموارد التى يكون فيها الشخص المستمع من أصحاب النفوذ والمكانة الاجتماعية فى حين أنّ المغتاب ليس كذلك، ومن الواضح أنّ سكوت مثل هذا الشخص يترتب عليه نتائج وخيمة على مستوى هتك حرمة ذلك الشخص المسلم حيث يكون استماعه لذلك أكثر ضرراً من كلام المغتاب نفسه.

۲- الغيبة حق الناس أو حق اللَّه؟

وطبقاً لما ورد فى تعريف الغيبة سابقاً يتّضح أنّ الغيبة من حقوق الناس لأنّها تتسبب فى هتك حرمتهم وتسقيط شخصيتهم وإزهاق سمعتهم: ونعلم أنّ ماء وجه المسلم له من القيمة كما هو الحال فى روح المسلم وماله وعرضه. ومن التشبيه الوارد فى الآية من سورة

الحجرات حول الغیبۀ وأنّها کمن یأکل لحم أخیه میتاً یتّضح جیداً أنّ الغیبۀ من حق الناس؛ ومن الأحادیث الکثیرۀ یمکننا أن نستوحی هذا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۶ المفهوم أیضاً وهو أنّ الغیبۀ نوع من الظلم والعدوان علی الآخرین والذی یجب التحرک علی مستوی جبران هذا العدوان وتعویض الطرف الآخر لجبران الظلم الذی وقع علیه، ومن ذلک: ۱- أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال فی حجۀ الوداع: «أَیُّها النّاسُ إِنَّ دِمائَکُم وَأَموالَکُم وَأَعراضَ‌کُم عَلَیکُم حَرامٌ کَحُرمَۀِ یَومِکُم هذا فِی شَهرِکُم هذا فِی بَلَدِکُم هذا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الغَیبَۀَ کَما حَرَّمَ المَالَ وَالدَّمَ» «۱». ولا شک أنّ کل دم بریء یسفک لابدّ من جبرانه، وکل مال مشروع یتُم اتلافه من قِبل شخص آخر یجب علیه أن یقوم بتعویضه، والغیبۀ أیضاً ومن خلال هذا المنطلق یجب العمل علی تلافیها وجبرانها بأی نحو ممکن. وأساساً فإنّ جعل عرض المؤمن إلی جانب ماله ودمه لهو دلیل واضح علی أنّ تسقیط شخصیۀ الإنسان وهتک حرمته إنّما هی من حق الناس. ۲- وفی حدیث آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله بعد أن قارن الغیبۀ بالزنا وأنّها أشدّ إثماً منه قال: «إنّ صاحِبَ الغَیبَۀِ لا یُغفَرُ لَهُ حَتّی یَغفِرَ لَه صاحِبُهُ» «۲». ۳- وجاء فی کتاب مجموعۀ ورام أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قال: «کُلُّ المُسلِمِ عَلَی المُسلِمِ حَرامٌ وَدَمُهُ وَمالُهُ وَعِرضُهُ، والغَیبَۀُ تَناوُلِ العِرضِ» «۳». العبارۀ الأخیرۀ من هذا الحدیث الشریف وهی أنّ (الغیبۀ تناول العرض) مصداق التعرّض لناموس الشخص سواء کانت من کلمات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أو کلمات الرواۀ، فإنّها علی أی حال یمکن أن تکون شاهداً علی المقصود. والشاهد الآخر علی هذا المعنی هوالروایات الشریفۀ التی تتحدث عن أنّ الغیبۀ تسبب فی نقل حسنات المغتاب من صحیفۀ أعماله إلی صحیفۀ أعمال المغتاب، ونقل سیئات المستغاب إلی الشخص المرتکب للغیبۀ (کما تقدّمت الإشارۀ إلی ذلک) وهذا یعنی أنّ الغیبۀ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۷ هی من حق الناس، لأنّ نقل الحسنات والسیئات لجبران الضرر الذی لحق بالمستغاب یعنی أنّ الغیبۀ من حقوق الناس. وبعد أن اتّضح هذا المفهوم وأنّ حق الناس یجب أن یجبر ویعوّض یثار فی الذهن هذا السؤال، وهو أنّ المغتاب کیف یتمکن من جبران خطئه وذنبه؟ ویستفاد من بعض الروایات أنّ المستغاب لو علم بذلک وسمع بأنّ المستغیب یذکره بسوء، فیجب علی المستغیب أن یذهب إلیه ویطلب منه أن یرضی عنه ویجعله فی حِلّ وإلّا لو لم یتصل به فیجب علیه أن یستغفر اللَّه تعالی، ویدعو للمستغاب بالرحمۀ والمغفرۀ (لیتم له التعویض عن ذلک الظلم فی حق أخیه المؤمن) وهذا المضمون ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام حیث قال: «فَإنَّ اغتِیبَ فَبَلَغَ المُغتابَ فَلَم یَبقَ إلّاأَن تَستَحِلَّ مِنهُ وإِنْ لَم یَبلُغْهُ وَلَمْ یَلحَقهُ عِلمَ ذَلِکَ فاستَغْفِرِ اللَّه لَهُ» «۱». ویتّضح من هذا الحدیث الشریف أنّه لو لم تصل الغیبۀ إلی مسامع المستغاب فإنّ نقل هذا الخبر إلیه قد یتسبب فی أذاه أکثر ویترتب علی ذلک مسؤولیۀ أکبر، ولهذا السبب نجد أنّ الوارد فی الحدیث الشریف هو الاستغفار فحسب، وعلیه ففی الموارد التی لا یتأثر فیها المستغاب من خبر الغیبۀ فلا یبعد وجوب طلب التحلل منه وکسب رضاه. ومن هنا یتّضح جیداً ما ورد فی الروایات الشریفۀ أنّه: «کَفَّارَۀُ الإغتِیابِ أنْ تَستَغفِرَ لِمَنْ إغتَبتَهُ» «۲». والشاهد الآخر ما ذکر آنفاً هو الحدیث الشریف عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله حیث قال: «مَنْ کانَتْ لأخِیهِ عِندَهُ مَظلَمَۀٌ فِی عِرضٍ أو مالٍ فَلیَتَحَلَّلها مِنهُ مِنْ قبلِ أنْ یَأتِی یَومٌ لَیسَ هُناکَ دِینارٌ وَلْا دِرهَمٌ إنَّما یُؤخَذُ مِنْ حَسَناتِهِ فَإن لَم تَکُن لَهُ حَسَناتٌ اخِذَ مِنْ سَیئَاتِ صاحِبِهِ فَزِیدَتْ عَلَی سَیئَاتِهِ» «۳». وجاء فی أدعیۀ أیّام الاسبوع للإمام زین العابدین علیه السلام الواردۀ فی ملحقات الصحیفۀ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۹۸ السجادیۀ عبارات واضحۀ لهذا المفهوم فی دعاء یوم الإثنین حیث یقول فیه الإمام (من خلال کونه اسوۀ للآخرین): «وَأَسأَلُکَ فِی مَظَالِمِ عِبادِکَ عِندِی، فَأَیُّما عَبدٍ مِنْ عَبِیدِکَ، أو أَمَۀٍ مِنْ إمائِکَ کانَتْ لَهُ قِبَلِی مَظلَمَۀٌ ظَلَمتُها إیَّاهُ فِی نَفْسِهِ أو عِرضِهِ أو فِی مالِهِ أو فِی أَهلِهِ وَوَلَدِهِ، أو غَیبَۀٍ اغتَبتُهُ بها، أو تَحامُلٌ عَلَیهِ بِمَیلٍ أو هَوىً، أو أَنَفَۀٍ أو حَمِیَّۀٍ أو رِیاءٍ أو عَصَبِیۀٍ غائِباً کانَ أو شاهداً، حَیّاً کانَ أو مَیتاً، فَقَصُرتْ یَدِی وَضاقَ وسِعِی عَنْ رَدِّها إِلَیهِ، وَالتَّحلُّلِ مِنهُ. فَأَسأَلُکَ یا مَنْ یَملِکُ الحاجاتِ وَهِیَ مُستَجِیبَۀٌ لِمَشِیَّتِهِ وَمُسرِعَۀٌ إِلی إرادَتِهِ أن تُصَلِّی عَلی مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وأَن تُرضِیَهُ عَنِّی بِما شِئتَ ...» «۱». وعلی أیّۀ حال فإنّ احتمال کون الغیبۀ من حق الناس قوی جدّاً، ولذلک فإنّه لو لم یکن أمامه مشکل فی طلب الرضا والتحلل منه وجب علیه ذلک. وهناک ملاحظۀ مهمّۀ وهی أنّ أحد طرق جبران الغیبۀ هو أن یقوم المستغیب بالحضور فی مجلس یحوی الأشخاص الذین کانوا قد حضروا مجلسه السابق، فیقوم بإعادۀ الشریط وتبریر

سلوك أخيه المؤمن بما يوافق الأخلاق الحسنة والشرع المقدّس ويحمله على الصحة بحيث تزول من الأذهان آثار الغيبة وتعود المياه إلى مجاريها.

۳- مستثنيات الغيبة

يتفق علماء الأخلاق وكذلك الفقهاء على أنّ هناك موارد تجوز فيها الغيبة وقد تصبح واجبة أحياناً، وذلك بسبب طروء عوارض معينة على الغيبة ممّا يغيّر حكمها الأصلي. وبعبارة اخرى أنّ الغيبة بعنوانهاالأولى حرام بلا شك ومن الذنوب الكبيرة وفى ذلك يتفق علماء الإسلام، ولكن هناك عناوين ثانوية تطرأ على هذا الفعل بإمكانها أن تكون حاكمة على العنوان الذاتى والأولى ممّا يفضى إلى أن تكون الغيبة جائزة بل واجبة، وذلك فى الموارد التى تكون فيها المصلحة أهم ويكون حفظ هذه المصلحة غالب على المفاسد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۹۹ الكبيرة المترتبة على الغيبة. ومن جملة هذه الموارد التى تدخل فى مستثنيات الغيبة ما يلى: ۱- أن يكون الإنسان فى حالة التظلّم وطلب حقّه من الآخر ويسعى لرفع هذه الظلامة بحيث لو أنّه لم يتعرّض لذكر الطرف الآخر بالسوء ولم يصرّح للآخرين بسلوك ذلك الظالم فإنّه لا يصل إلى حقّة. وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى: «لَايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» «۱». ۲- فى موارد النهى عن المنكر، أىّ فى حالة ما إذا لم يتحرّك الإنسان لفضح الطرف الآخر ويكشف عن أعماله السيئة، فإنّ ذلك المذنب سوف يستمر فى غيّه ويقوم على ذنبه، فهنا ترجح مصلحة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على مفسدة الغيبة، بل قد تكون واجبة فى بعض الحالات. ۳- فى مورد أهل البدع وكذلك الذين يحيكون المؤامرات ضدّ المسلمين بحيث لو أنّ أعمالهم الخفيّة تجلّت وكشفت للمسلمين، فإنّ الناس سوف يتصدّون لهم ويتحركون من موقع دفعهم وابطال مؤامراتهم، فهنا تكون غيبة مثل هؤلاء الأشخاص جائزة، بل واجبة. ۴- فى مورد ما إذا كان المسلم يعيش الخطر على نفسه أو ماله أو عرضه من شخص آخر وهذا المسلم لم يكن على علم بالخطر المحيط به، وهنا يكون إخباره بهذا الخطر جائز، بل واجباً أحياناً. ۵- فى مورد المشورة، بمعنى أنّ أحد الأشخاص أراد مثلًا الزواج من مسلمة وأراد طلب يدها من والديها أو أراد شخص تشكيل شركة أو السفر إلى أحد البلدان، وطلب من شخص آخر أن يشير عليه بما يراه صلاحاً له، فهنا لا يمكن القول بأنّ الكشف عن عيوب الطرف الآخر حرام، بل إنّ أمانة المشورة تقتضى أن يقول المستشار ما يعلمه وما هو مطلّع عليه من نقاط القوّة والضعف، ولا ينبغى أن يحجم عن النصح والمشورة لأخيه المؤمن خوفاً الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰۰ من الوقوع فى الغيبة، لأنّ ستر مثل هذه المعايب يعتبر خيانة للمستشير والخيانة فى المشورة حرام. ۶- فى مورد الشهادة، وذلك عندما يطلب من الإنسان أن يدلى بشهادته فى موقع التحكيم أو المحكمة، فهنا تجوز الغيبة، لأنّ مصلحة الشهادة أقوى، وكذلك فى موارد إجراء الحدود الإلهية، فلو أنّ عدّة أشخاص رأوا بأنّ الشخص الفلانى يشرب الخمر أو يزنى فلهم أن يأتوا إلى حاكم الشرع ويشهدوا عليه بذلك ليجرى عليه الحدّ، وكذلك فيما لو شهد أشخاص على أمر معيّن وكان هؤلاء الشهود فى الواقع فسّاق ولم يكن الحاكم يعلم بخبرهم وحالهم، وهنا يجوز فضح هؤلاء الشهود، وبعبارة اخرى يجوز جرح الشهود (وطبعاً فإنّ جميع هذه الموارد هى فيما لو كان عدد الشهود كافياً لإثبات الموضوع).

۴- حكم المتجاهر بالفسق

يتفق علماء الأخلاق والفقهاء العظام عادةً على جواز غيبة المتجاهر بالفسق ويرون أنّها من مستثنيات الغيبة ويصرّحون بأنّ غيبة مثل هؤلاء الأشخاص الذين مزّقوا ستار الحياء وأجهروا بالمعاصى أمام الناس، فإنّهم لا غيبة لهم وقد تمسكوا فى ذلك بروايات فى هذا الباب. ففى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «أَربَعَةٌ ليستْ غَيبَتُهُم غَيبَةَ الفاسِقُ المُعلِنُ بُفسقِهِ ...» «۱». وفى حديث

آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ثَلاثَةٌ لَيسَ لَهُم حُرمَةٌ صـحِبُ هَوىً مُبـدِع والإمامُ الجائِرُ والفاسِقُ المُعلنُ الفِسقَ» «۲». وفى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «مَن أَلقى جِلبَابَ الحَياءِ فَلا غَيبَةَ لَهُ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰۱ وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَتنزَعُونَ عَنْ ذِكرِ الفاجِرِ أنْ تَـذكُرُوه، فَاذكُرُوهُ يَعرِفُهُ النّاسُ» «۱». والأحاديث فى هذا الباب كثيرة. ولكن الظاهر أنّ مثل هؤلاء الأفراد خارجون بالتخصص من موضوع الغيبة لا أنّ حكم الغيبة يشملهم أولًا ثم يدخلون فى مستثنيات الغيبة، لأنّ للغيبة شرطين: الأول: أن يكون العيب مستوراً وهذا الشرط لا يتوفر فى هؤلاء الأشخاص. الثانى: كراهية الطرف الآخر لأن يذكر بسوء، وهذا الشرط أيضاً غير متوّفر فيما نحن فيه لأنّ المتجاهر بالفسق لو كان يتأثر ويتألم من ذكره بسوء لم يكن يرتكب ذلك العمل علانية وجهراً، وبتعبير علماء الاصول أنّ خروج مثل هؤلاء الأشخاص يكون بالتخصص لا بالتخصيص. وهنا تثار عدّة أسئلة فى هذا الصدد، الأول هو أنّه هل أنّ جواز غيبة المتجاهر بالفسق يختص بالذنوب التى تجاهر بها أو يستوعب جميع الذنوب فتكون غيبته جائزة مطلقاً؟ والآخر هو أنّه إذا كان يتجاهر بالفسق عند جماعة معينة أو فى مكان خاص ولكنه لا يرتكب ذلك المنكر أمام جماعة اخرى أو فى مكان آخر فهل يجوز غيبة هذا الشخص أيضاً؟ والثالث هو هل أنّ جواز غيبة المتجاهر بالفسق مشروط بوجود شرائط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أى أن تكون الغيبة مؤثرة فى عملية الردع وإلّا فلا تجوز؟ ونظراً لما تقدّم من بيان حالة هؤلاء الأفراد من الناحية الشرعية يتّضح الجواب عن هذه الأسئلة جميعاً، وهو أنّ غيبة هؤلاء الأشخاص إنّما تجوز فى موارد التجاهر بالفسق، ولكن بالنسبة إلى الأعمال الاخرى أو الوسط الآخر والأجواء الاخرى، فلا تجوز، لأنّ أدلة حرمة الغيبة لا تشمل المتجاهر بالفسق ومن المعلوم أنّ حالة التجاهر لا يستوجب توّفر شرائط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا ضرورة لها لأنّ عناصر تشكيل الغيبة غير متوّفرة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰۲ ويحتمل كذلك أنّ المقصود بالمتجاهر بالفسق هو الشخص الذى قام بتمزيق ستار الحياء وتحرّك فى ارتكابه للمعاصى والذنوب من موقع الجرأة على الدين والمجتمع الإسلامى، فمثل هؤلاء الأفراد لا احترام لهم، بل يجب التعريض بهم وفضحهم ليكون الناس على حذر منهم وفى أمان من أعمالهم كما ورد فى الحديث الشريف المتقدّم: «مَن أَلقى جِلبَابَ الحَياءِ» فحينئذٍ يقول الحديث «فاذكروه يعرفه الناس» فهو ناظر إلى هذا المعنى. و على هذا الأساس يمكن القول بأنّ المتجاهر بالفسق على نحوين: الأول: أن يكون متجاهراً بعمل معيّن فحينئذٍ تجوز غيبته فى ذلك العمل بالخصوص، والآخر: الأشخاص الذين قاموا بتمزيق لباس العفة والحياء وانطلقوا وراء ارتكاب الذنوب بكل صلافة وجرأة من دون رعاية القيم الاجتماعية والدينية، فمثل هؤلاء الأشخاص لا احترام لهم أبداً من فضحهم وكشف واقعهم أمام الناس كيما يحذر الآخرون من أخطارهم ومفاسدهم. ونتخم هذا الكلام بذكر ملاحظتين: الاولى: هى أنّنا نعلم أنّ أحد العلوم الإسلامية المعروفة هو علم الرجال حيث يبحث فيه صدق وكذب الرواة وحالتهم على مستوى كونهم ثقة أو غير ثقة، وهناك بعض من لا خبرة له بالامور يتجنّب الخوض فى علم الرجال ويرفض تعلّم هذا العلم لأنّه بحسب تصوّره أنّه يفضى إلى الخوض فى الغيبة فى حين أنّ من الواضح أنّ حفظ حريم الشرع والأحكام الإسلامية من المواضيع الكاذبة والأخبار المختلفة أهمّ كثيراً من التعرّض لبعض الرواة وجرحهم، وهذا الهدف السامى هو الذى يبيح لنا أن نتحرّك على مستوى التحقيق فى سوابق الرواة وحالاتهم والبحث عن نقاط ضعفهم وإثباتها فى كتب الرجال لكى نأمن على الشريعة المقدّسة من الأخبار المزيفة ولكى تكون الأحكام الإلهية فى مأمن من تدخل الأهواء والنوازع الذاتية لبعض الرواة. والاخرى: هى أنّ المسائل الاجتماعية والسياسية والمناصب الحساسة فى المجتمع الإسلامى تقتضى أحياناً إفشاء بعض نقاط الضعف للمسؤولين، فهذا المعنى وإن كان فى حدّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰۳ ذاته مشمولًا لعنوان الغيبة ومصداقاً من مصاديقها إلّاأنّ أهمية حفظ النظام الإسلامى وكشف وإبطال المؤامرات الموجهة إلى المجتمع الإسلامى أهم بكثير ولذلك لا إشكال فى ذلك، بل قد يكون واجباً أحياناً، والأشخاص الذين يتسترون على عيوب هؤلاء لكى لا يقع فى ورطة الغيبة هم فى الواقع يضحّون بمصالح المجتمع الإسلامى من أجل الأفراد، وقد تقدّم فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه ذمّ هؤلاء وقال: «أَتنزَعُونَ عَنْ ذِكرِ الفاجِرِ أنْ تَـذكُرُوه، فَاذكُرُوهُ يَعرِفُهُ النّاسُ»، وأمر بفضحهم ليعرفهم الناس. ولكن هذا لا يعنى أن يقوم بعض الناس

بهتک حرمـة الأفراد وفضـحهم بـدون مبرّر أو يتحرّكون فی هذا السبيل أكثر من اللازم ويتعرّضون لحيثية الأفراد ويتجاوزون حدودهم الشـرعية. ومـا تقـدّم آنفاً يوضّـح وظيفـة الأجهزة الخبريـة والمخابراتيـة فی الـدوله الإسـلامية، فإن كان نشاط هـذه الأجهزة والمجاميع التجسسية تصب فی غرض الكشف عن الخطر الذی يهدّد سلامة المجتمع الإسلامی وسلامة المناصب الحساسة فیغ الدولة الإسلامية، فلاـ ينبغی أن يتجـاوزوا الحـدود المشـروعة، وحينئـذٍ فـانّ عمـل هؤلاـء لاـ يحسب فی دائرة التجسـس ولا يكون مشـمولًا لعنوان الغيبة المحرمة، بل هو أداء للوظيفة الشرعية والواجب الإنسانی.

۵– شمول دائرة الغيبة

لا شك فی حرمـة غيبـة الشـخص المؤمن البالغ العاقل، ولا شك فی جواز غيبـة الكافر الحربی الذی ينوی هدم الإسـلام ويتحرّك من موقع التعرّض للمجتمع الإسـلامی، لأنّه لا حرمـة لمثل هـذا الشـخص. ولكن هل أنّ غيبة سائر فرق المسـلمين وأهل الذمة (وهم الذين لديهم كتاب سـماوی من غير المسـلمين ويعيشون فی داخل إطار المجتمع الإسـلامی) جائزة أو أنّ غيبتهم حرام كما هم محترمون فی أنفسـهم وأموالهم؟ بعض الفقهـاء مثل المحقق الأردبيلی والعلّامـة السبزواری يرون حرمـة الغيبـة بشـكل عام الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۴ ويتمسكون بالروايات الواردة بعنوان (المسلم) أو الناس وذهبوا إلی أنّ حرمة غيبة هؤلاء ليست عجيبة، لأنّ أموالهم وأنفسهم محترمـة فلماذا لا يكون عرضـهم كـذلك؟ ولكن المرحوم صاحب الجواهر قـدس سره خالف ذلك بشـدّة وقال: «بأنّ ظاهر الروايات يدلّ بضم بعضـها إلی بعض علی أنّ حرمة الغيبة مختصة بالمؤمنين وأتباع أهل البيت عليهم السـلام وحتی أنّه استدل بالسيره المستمرة بين العلمـاء والعوام أيضـاً. إذا كـان مقصود هـذا الفقيه الكبير من المخالفين لأهل البيت عليهم السـلام هم النواصب وأعـداء المؤمنين والمسـلمين فلاـ شـك فی عـدم حرمتهم وحرمـة غيبتهم، ولكن إذا كـان الكلاـم عن الفرق الإسـلامية الـتی من المقرر حفـظ واحترام أنفسـهم وأموالهم وكـذلك أهل الكتاب من أهل الذمـة فإنّ رأی المحقق الأردبيلی قدس سره هو الأقرب إلی الصواب، لأنّه فی كل مورد تكون نفس الإنسـان وماله محترماً، فكـذلك عرضه وماء وجهه فلا يجوز التعرّض له بالغيبـة، وتوجيه الخطاب للمؤمنين فی الآية ۱۲ من سورة الحجرات (آيـة الغيبـة) أو التعبير بالمؤمن فی بعض الروايات لا يـدلّ علی عدم شـمول حكم الغيبة بالنسبة إلی الآخرين، وبعبارة اخری إنّ إثبات الشیء لا ينفی ما عداه. وعلی هذا الأساس يجب اجتناب غيبة جميع الأشخاص الذين تكون نفوسهم وأموالهم وأعراضـهم محترمة وجميع هؤلاء يشـملهم حق الناس، وطبعاً هذا فی صورة ما إذا لم يكن متجاهراً بالفسق ولم يكن يتحرّك من موقع المؤامرة والدسـيسة علی الإسـلام والمسـلمين، بل كانت لهم عيوب وذنوب مسـتورة وخاصـة بهم، فيكون فضـحهم والكشف عن هذه العيوب وإراقـة ماء وجههم ليس مسوّغ شـرعی قطعاً. وأمّا بالنسـبة إلی الطفل المميّز الـذی يتألم من الغيبـة فأيضاً يجب القول بأنّ غيبته حرام كما أشار إلی ذلك الشـيخ الأنصاری قـدس سره فی المكاسب المحرّمة وقال: إنّ عنوان الأخ المؤمن صادق عليه أيضاً كما قال تعـالی عن الأيتام: «وإنْ تُخالِطُوهُم فَاخوانُكُم» «۱». ولكنّ الصواب هو أنّه لا ينبغی تقييـد المورد بالمميّز، لأنّ كشف العيوب المسـتورة للطفـل الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۰۵ غير المميز يعدّ هتكاً لشخصـيته المسـتقبلية أو هتكاً لحيثية اسـرته، وهو عمل مخالف للقيم الأخلاقيـة، ولهـذا السـبب فإنّ الشـهيد الثانی قدس سره فی كتابه (كشف الريبة) لم يفرّق بين الصـغير والكبير، بعبارة اخری أنّ أطفال المؤمنين كالمؤمنين أنفسهم من حيث حرمة النفس والمال والعرض. ومن هنا يتّضح حكم المجانين والسفهاء أيضاً.

۶– الغيبة العامة والخاصة

أحيانـاً تكون الغيبـة عن شـخص خـاص أو أشـخاص معيّنين حيث تبيّن حكمها فی الأبحاث السابقـة من جهات مختلفـة، ولكن هناك موارد اخری تكون الغيبـة ذات جهـة عامـة وكليـة، مثلًا يقول: إنّ أهل المدينة الفلانية بخلاء، أو جهلاء، أو سـفهاء، أو يقول إنّ أهالی

القريـة الفلانية لصوص أو مدمنين أو متحلّلين أخلاقياً وأمثال ذلك. فهل أنّ جميع أحكام الغيبة ترد فى مثل هذه الموارد أم لا؟ يمكن القول أنّ الغيبة لها عدّة صور ووجوه: ۱- فيما إذا كانت الغيبة متوجّه لشخص أو أشخاص معدودين لا يعرفهم المخاطب، كأن يقول: إنّ فى المدينة أو القرية الفلانية عدّة أشخاص يشربون الخمر أو يرتكبون الأعمال المنافية للعفة، فلا شك فى عدم جريان أحكام الغيبة هنا، لأنّ المتكلم لم يذكر فى كلامه عيباً مستوراً عن شخص معيّن. ۲- أن يكون المورد من قبيل الشبهة المحصورة (وكما يصطلح عليه شبهة القليل بالقليل أو الكثير بالكثير) مثلًا يقول: أننى رأيت أحد هؤلاء الأربعة أشخاص يشرب الخمر (أو يذكر أسماء هؤلاء الأربعة أو يقول أنّ أولاد زيد وأمثال ذلك) أو يقول: أنّ جماعة كثيرة من أهالى القرية الفلانية يرتكبون هذا العمل بحيث أنّ التهمة تتوجه إلى الجميع من موقع الشك فيهم. والظاهر أنّ أدلة حرمة الغيبة تشمل هذا المورد، وعلى فرض عدم اطلاق اسم الغيبة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰۶ عليها من حيث أنّها تعدّ كشفاً ناقصاً عن العيب المستور، فهى حرام من جهة هتك احترام المؤمن وجعله فى قفص الإتّهام. ۳- أن ينسب إلى جميع أهل البلدة أو القرية أمراً قبيحاً ومخالفاً للشرع والأخلاق، فلا شك فى جريان أحكام الغيبة على هذا المورد أو على الأقل صدق عنوان هتك احترام المؤمنين سواء كان مقصوده جميع أهالى البلدة بدون استثناء أو الأكثرية منهم. وعلى هذا الأساس لا يجوز نسبة بعض الصفات أو الممارسات القبيحة لأهالى بلدة معيّنة إلّاأن يكون هناك قرينة على أنّ مقصوده بعض الأشخاص القلّة منهم، وكما يصطلح عليه شبهة القليل فى الكثير أوالشبهة غير المحصورة، أو يكون كلامه عنهم معروفاً لدى الجميع وفى نفس الوقت لم يكن قاصداً لهتكهم وذمّهم.

۷- الدفاع فى مقابل الغيبة

هل يجب على الشخص المستمع للغيبة أن يدافع عن أخيه المؤمن الذى تعرّض للغيبه ويرد على المستغيب أم لا؟ مثلًا يقول فى دفاعه: أنّ الإنسان غير معصوم وكل شخص يتعرّض لارتكاب الخطأ أو يقول: أنّ من الممكن أن يكون قد صدر هذا الفعل منه سهواً أو نسياناً أو كان فى نظره حلالًا وهكذا يحمل فعل أخيه المسلم على الصحة، وعليه فلو كان الفعل قابلًا للتبرير فإنّه يتحرّك فى تبريره وتوجيهه، وإن لم يكن كذلك قال: من الأفضل أن نستغفر له بدل أن نقع فى غيبته لأننا جميعاً معرّضين لمثل هذه الأخطاء. بعض الفقهاء الكبار يرون وجوب الدفاع ومنهم شيخنا الأعظم العلّامة الأنصارى قدس سره فى بحث الغيبة فى المكاسب المحرّمة. وهناك روايات كثيرة أيضاً تتحدّث عن لزوم ردّ الغيبة وقد ذكرها المرحوم صاحب كتاب وسائل الشيعة فى الباب ۱۵۶ من أبواب أحكام العشرة فى الحج ومنها: فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يا عَلى مَنْ اغتِيبَ عِندَه أخوهُ المُسلِمُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۰۷ فاستَطاعَ نَصرَهُ وَلَم يَنصُرهُ خَذَلَهُ اللَّهُ فِى الدُّنيا والأَخِرَةِ» «۱». ونفس هذا المضمون أو ما يشبهه ورد فى روايات متعددة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام الصادق عليه السلام. وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال فى خطبة له أمام الناس: «مَنْ ردّ عَنْ أَخِيهِ فِى غَيبَةٍ سَمِعَها فِيهِ فِى مَجلِسٍ رَدَّ اللَّهُ عَنهُ أَلَفَ بابٍ مِنَ الشَّرِّ فِى الدُّنيا وَالآخِرَةِ فإنْ لَم يَرُدَّ عَنهُ وأَعجَبَهُ كانَ عَلَيهِ كَوزرِ مَنْ إغتابَهُ» «۲». وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرضِ أَخِيهِ كانَ لَهُ حِجاباً مِنَ النّارِ» «۳». ولكنّ الصحيح أنّه لا يستفاد وجوب الدفاع من هذه الروايات، بل غاية ما يستفاد منها هو الاستحباب المؤكّد، لأنّ التعبير لكلمة (خذله اللّه) الوارد فى عدّة روايات من هذا الباب لا يقرّر أكثر من أنّ اللّه تعالى لا يعين هذا الشخص ويتركه لحاله (لأنّ معنى الخذلان هو ترك النصرة والمساعدة) وكذلك ما ورد فى الثواب والجنّة أو النجاة من النار فى بعض الروايات فانّه فى قوله: «كانَ عَلَيهِ كَوزرِ مَنْ إغتابَهُ» قد تدل على وجوب الدفاع ولكنّ الوارد فى هذه الرواية هو أنّ الإثم لا يقتصر على الاستماع وعدم الدفاع فقط بل ينشرح ويفرح من سماعه لهذه الغيبة، وعلى أية حال فسواء كان الدفاع عن المسلم فى مقابل الغيبة واجباً أو مستحباً مؤكّداً فانّه يعدّ وظيفة مهمّة فى دائرة المفاهيم الإسلامية، وإذا كان الدفاع نهياً عن المنكر فهو واجب قطعاً.

۸- غیبهٔ الأموات

أحیاناً یتصوّر البعض أنّ مفهوم الغیبهٔ الوارد فی الروایات الشریفهٔ ناظر إلی الأحیاء من المسلمین ولا یشمل الأموات، وعلیه یجوز غیبهٔ الأموات، ولکنّه خطأ فاحش، لأنّ الوارد فی الروایات الإسلامیهٔ أنّ «حرمهٔ المیت کحرمته وهو حی» بل یمکن القول بأنّ غیبهٔ المیت أقبح وأشنع من بعض الجهات من غیبته وهو حی لأنّ الأحیاء یمکن أن یصل إلیهم خبر الغیبهٔ ویتحرّکون من موقع الدفاع عن أنفسهم ویردّون علی من إغتابهم، ولکنّ المیت غیر قادر علی الدفاع أبداً، مضافاً إلی أنّ الشخص المرتکب للغیبهٔ قد یری الطرف الآخر فیما بعد ویطلب منه الصفح وأن یکون فی حلّ ولکن هذا المعنی لا یصدق علی الأموات. ومضافاً إلی ذلک الأوامر والإرشادات الدینیهٔ الواردهٔ فی ضرورهٔ احترام جسد المیت المسلم من قبیل الأمر بغسله وتکفینه والصلاهٔ علیه والمفاهیم الواردهٔ فی الصلاهٔ علیه ودفنه وزیارهٔ أهل القبور وحرمهٔ هتک قبر المؤمن وأمثال ذلک کلّها یدلّ علی وجوب حفظ حرمهٔ المیت المسلم.

حسن الخلق وسوء الخلق

تنویه:

حسن الخلق بمعناه الخاص هو أن یعیش الإنسان فی تفاعله الاجتماعی وعلاقاته مع الآخرین بصورهٔ حسنهٔ وکلام طیب ووجه بشوش وسلوکیات قابلهٔ للمرونهٔ والتلاءم مع الآخرین ویتحدّث معهم من موقع المحبّهٔ واللطف وترتسم علی شفتیه الابتسامهٔ والانفتاح، وکل هذه تعتبر من الفضائل الأخلاقیهٔ المؤثرهٔ إیجابیاً فی تعمیق الروابط الاجتماعیهٔ. (وعلی العکس من ذلک سوء الخلق ومواجههٔ الآخرین بوجه خشن والتقطیب فی وجوههم والجفاف فی معاملتهم والخشونهٔ فی التحدّث معهم، فهو من الرذائل الأخلاقیهٔ التی تمتد فی جذورها إلی أعماق النفس الإنسانیهٔ وتبعث علی تنفّر الآخرین وإبتعادهم عن هذا الشخص وتؤدّی بالتالی إلی إرباک العلاقات الاجتماعیهٔ وضعف الروابط الأخویهٔ بین الأفراد. وهناک مطالب کثیرهٔ فی هذا المجال فی القرآن الکریم والروایات الشریفهٔ وسیرهٔ المعصومین علیهم السلام تحکی عن الأهمیهٔ البالغهٔ لهذه الفضیلهٔ وتلک الرذیلهٔ علی مستوی الفرد والمجتمع. ومن المعلوم أنّ جانباً مهمّاً من نجاح الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی مهمّته ورسالته، وکذلک الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۰ سائر المعصومین وکبار العلماء والقادهٔ المصلحین مدین لهذه الخلّهٔ الحسنهٔ فی تعاملهم مع أفراد المجتمع وهی (حسن الخلق)، ومن الأسباب المهمّهٔ فی عدم موفقیّهٔ بعض القادهٔ والعظماء فی التاریخ البشری رهین لسوء خلقهم أیضاً، إنّ تاریخ الأنبیاء والأولیاء والمعصومین وسائر القادهٔ المصلحین فی العالم ملیء بشواهد حیّهٔ علی هذا الموضوع. وبهذه الإشارهٔ نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الشریفهٔ ما یرشدنا فی هذا الطریق ویسلّط الضوء علی زوایاه المعتّمهٔ: ۱- «فَبِما رَحْمَهٍٔ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ کُنْتَ فَظّاً غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُتَوَکِّلِینَ» «۱». ۲- «وَإِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیم» «۲». ۳- «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ کُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِی مَشْیِکَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِکَ إِنَّ أَنکَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِیرِ» «۳». ۴- «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِیمُوا الصَّلَاهَٔ وَآتُوا الزَّکَاهَٔ» «۴». ۵- «اذْهَبَا إِلَی فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَی* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَیِّناً لَعَلَّهُ یَتَذَکَّرُ أَوْ یَخْشَی» «۵» ۶- «ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَدَاوَهٌٔ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ* وَمَا یُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَمَا یُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ» «۶».

تفسیر واستنتاج:

«الآیهٔ الاولی» وردت مسألهٔ (حسن الخلق) بعنوان أنّها أحد الخصوصیات للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأحد العوامل المهمّهٔ لتقدّم

وتكامل الدعوة الإسلامية فی المجتمع العربی آنذاک الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۱ فتقول الآية: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ ...». وعلى هذا الأساس فانّ حسن خلق النبی الأكرم صلى الله عليه و آله هو فی الحقيقة رحمة إلهية له ولُامّته، وبديهی أنّ هذا الخلق الحسن وقابلية الانعطاف ومداراة الآخرين تعد من البركات والمواهب الإلهية على كل إنسان يتحلّى بهذه الخصال والسلوكيات الحميدة. ومن التعبير أعلاه فی الآية الشريفة نجد النقطة المقابلة لهذا السلوک، وهو أن يكون الإنسان غليظ القلب وسيء الخلق وخشناً فی التعامل مع الآخرين حيث تشير الآية إلى نتائج مثل هذا السلوک السلبی، وهی تفرّق الناس وانفضاضهم عن هذا الإنسان الخشن وإبتعادهم عنه، وبعبارة اخرى أنّ (حسن الخلق) يمثّل اللبنة الاساسية فی شد أوصال المجتمع وتقوية وشائج المحبّة بينهم، وسوء الخلق عامل لتفرّق الأفراد وإيجاد الخلل فی العلاقات الاجتماعية ويؤدّی إلى نفور الناس. إنّ كلمة (فظ) و (غليظ القلب) يأتيان بمعنی واحد ويراد بذلک التأكيد، ويمكن أن يكون لهما معنی مختلف عن الآخر، ويقول (الطبرسی) فی مجمع البيان فی كلمة جامعة: «وقيل إنّما جمع بين الفظاظة والغلظة وإن كانا متقاربين لأنّ الفظاظة فی الكلام فنفی الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه» وعليه فكلا الكلمتين تردان بمعنی الخشونة والجفاء، وأحدهما فی الكلام، والاخرى فی السلوک والفعل. وعلى أی حال فانّ اللَّه تعالى قد وهب نبيّه الكريم حالة اللّيونة والانعطاف والبشاشة وحسن التعامل مع الآخرين بحيث أنّه كان يسلک هذا السلوک مع أعتى الناس وأخشنهم وأقساهم قلباً، وبهذه الطريقة جذب هؤلاء القساة إلى الإسلام فاعتنقوا الإسلام من موقع الرغبة والشوق والإنجذاب لهذا الخلق الرفيع. وبتبع ذلک توجّه الآية سلسلة إرشادات وأوامر عملية تخرج حالة (حسن الخلق) والبشاشة من صورتها الظاهرة وتلبسها ثياباً عملية على مستوى الممارسة والتطبيق وتقول: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۲ وعلى هذا الأساس استقطب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أبعد الناس عن اللَّه تعالى والدين والأخلاق وجذبهم إليه وأصبح قدوتهم وأسوتهم فی حسن الأخلاق. إنّ سياق هذه الآيات يشير إلى أنّ هذه الآية متعلقة بالآيات النازلة فی معركة أحد حيث كان النبی الأكرم صلى الله عليه و آله والمسلمين يعيشون أشدّ الظروف وأقسى الحالات النفسية طيلة هذه الحرب، وبديهی إنّ عملية العفو والاستغفار والانفتاح على الآخرين من موقع المحبّة واللطف جعلت النبی الأكرم صلى الله عليه و آله فی أسمى مراتب حسن الخلق وحسن التعامل الكريم مع الغير، وقلّما نجد إنساناً يتمكّن فی مثل تلک الظروف الصعبة والتحديّات الشرسة أن يحافظ على حسن أخلاقه ولا ينفعل أمام تحديّات الواقع الصعب. وتأتی «الآية الثانية» لتشير إلى حسن الخلق العجيب للنبی الأكرم صلى الله عليه و آله حيث تعبّر عنه بالخلق العظيم وتقول: «وَإِنَّکَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ». (خُلُق) على وزن افق، مفرد وهو مع كلمة خُلْق (على وزن كُفر) بمعنی واحد، ويستفاد من مفردات الراغب أنّ خَلْق (على وزن حلق) تشترک فی جذر واحد معها غاية الأمر أنّ (خَلْق) تطلق على الصفات الظاهرية، و (خُلْق) تطلق على الصفات الباطنية. ويرى بعض أرباب اللغة أنّ كلمة (خُلْق) و (خُلُق) تردان بمعنی الدين والطبع والسجية حيث يقصد بها الصورة الباطنية للإنسان «۱». وعلى أيّة حال فانّ وصف النبی الأكرم صلى الله عليه و آله بأنّه ذو خلق عظيم يدلّ على أنّ هذه الصفة الأخلاقية من أعظم صفات الأنبياء، ويرى بعض المفسّرين أن الخلق العظيم للنبی الأكرم صلى الله عليه و آله يتمثّل فی صبره وتحمّله فی طريق الحق وسعة بذله وكرمه، وتدبير امور الرسالة والدعوة، والرفق والمداراة للناس وتحمّل الصعوبات الكبيرة فی مواجهة تحدّيات الواقع الصعب فی طريق الدعوة إلى اللَّه والجهاد فی سبيله وترک الحرص والحسد والتعامل مع الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۳ الأعداء والأصدقاء من موقع العفو واللطف والمحبّة «۱» وكل هذه الامور تشير إلى أنّ الخلق العظيم لا ينحصر بالبشاشة والانعطاف فی مواجهة الآخر، بل هو مجموعة من الصفات الإنسانية السامية والقيم الأخلاقية الرفيعة، وبعبارة اخرى: يمكن القول بأنّ جميع الأخلاق الحسنة الرفيعة جُمعت فی عبارة (خلق عظيم). وممّا يؤيد هذا المعنى ما ورد فی الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أدّبَ نَبِيَّهُ فَأَحسَنَ أَدَبَهُ فَلَمّا أَكمَلَ لَهُ الأَدَبَ قالَ إِنَّکَ لَعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «۲». وعندما نقرأ فی بعض الروايات أنّ الخلق العظيم يراد به الإسلام أو الآداب القرآنية إنّما هو لأنّ الإسلام والقرآن يحويان جميع الفضائل الأخلاقية، فی حين أنّ بعض الروايات الواردة فی تفسير هذه الآية

فسّرت (حسن الخلق) بالبشاشة والمداراة ومن ذلك الحديث الذى أورده (نور الثقلين) فى ذيل هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن حسن الخلق فى هذه الآية فقال: «تَلِينُ جانِبَك وَتُطَيِّبُ كَلامَكَ وَتِلقى أَخاكَ بِبُشرٍ حسنٍ» «۳». ولكن الظاهر عدم التنافى بين هذين المعنيين. وآخر ما يقال فى هذا المورد والجدير بالتأمل فى هذه الآية هو أنّ بعض المفسّرين إستفادوا من كلمة (على) فى قوله «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم» والتى تفيد مفهوم التسلّط والقدرة أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله له تسلط كامل على الفضائل الأخلاقية وكأنّ الأخلاق والقيم الإنسانية جزء من كيانه الشريف حيث يتحرّك من هذا الموقع بدون تكلّف وتصنّع. وتستعرض «الآية الثالثة» وصايا ونصائح (لقمان الحكيم) لولده حيث يذكر له أربعة امور مؤكّداً عليها: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۴ الأول: قول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». ثم أضاف «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» وفى الثالث والرابع من هذه النصائح القيمة يوصى لقمان ابنه بالاعتدال فى المشى وعدم رفع الصوت ويقول: «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ». وهذه الامور الأخلاقية تمثّل جزءاً مهمّاً من (حسن الخلق) فى التعامل مع الآخرين وطريقة السلوك الاجتماعى بين الناس والمقترنة بالبشاشة والتواضع والإتّزان فى الكلام والسلوك، ونستوحى من ذلك أنّ اللَّه تعالى قد إهّتم بكلمات لقمان الحكيم هذه بحيث ضمّنها فى كتابه الكريم. (تصعر) من مادة (صَعَرَ) على وزن خطر، وهى فى الأصل نوع من الأمراض التى تصيب الابل فتلوى أعناقها، ثم اطلقت على أى نوع من ميل العنق، وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ سوء الخلق نوع من المرض الذى يشبه فى سلوكه سلوك الحيوان، والملفت للنظر أنّ هذا النهى عن هذا العمل لا يقتصر على المؤمنين بل يستوعب جميع أفراد البشر ويقول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». وعلى أيّة حال فإنّ جعل هذه الصفة الرذيلة إلى جانب التكبّر والافراط فى المشى والصوت يبيّن أنّ جميع الصفات الرذيلة تؤدّى بشكل من الأشكال إلى نفور الناس وامتعاضهم. وفى الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير عبارة «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» قال: «أى لاتَذُل للنَّاسِ طَمعاً فِيما عِندَهُم وَلا تَمشِ فِي الأَرضِ مِرَحاً أى فَرِحاً» «۱». «الآية الرابعة» من هذه الآيات محل البحث نقرأ خطاباً إلهياً لبنى اسرائيل على أساس من العهد الإلهى للمخاطبين بعد التأكيد على التوحيد الخالص والاحسان للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، يقول تعالى: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ». فهذا الخطاب يبيّن التوحيد من جهة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من جهة اخرى يبيّن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۵ أهميّة حسن المعاملة ومداراة الناس والتعامل بالأخلاق الحسنة، وبهذا يكون حسن الخلق فى عملية التفاعل الاجتماعى وعلى مستوى الروابط الأخلاقية الحسنة للآخرين فى عداد أهم التشريعات الإسلامية والمقرّرات الدينية. وفى الواقع بما أنّ مال الإنسان محدود ولا يمكن أن يصل باحسانه المادى إلى المحتاجين كافة من الأقرباء والأصدقاء وسائر الفقراء فقد ورد جبران ذلك بالبشاشة وحسن الخلق مع الناس حيث يمثّل كنزاً لا يفنى كما ورد فى الحديث المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِنَّكُم لاتَسَعُونَ النّاسَ بِأَموالِكُم وَلَكن يَسَعُهُم مِنكُم بَسطَ الوَجهِ وَحُسنِ الخُلقِ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الباقر فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «قُولُوا للنّاسِ أَحسَنِ ما تُحِبُّونَ أَن يُقالُ لَكُم» «۲». وصحيح أنّ المخاطبين بهذه الآية هم بنو اسرائيل، ولكنّ خصوصية المورد لا تخصّص الآية بهؤلاء المخاطبين حيث إنّ هدف القرآن الكريم هو بيان أصل كلّى لجميع أفراد البشر. «الآية الخامسة» تتحرّك من خلال بيان مسألة البشاشة والتعامل مع الآخرين حتّى لو كانوا أعداءاً ولا سيّما فى مقام دعوتهم إلى الحق والطريق القويم، ومن ذلك نجد أنّ الأمر الإلهى لموسى عليه السلام بايصال الرسالة الإلهية إلى فرعون الطاغية الذى إستعبد بنى اسرائيل وأنّ الآية تتحدّث عن خطاب اللَّه تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى». هذا التعبير يبيّن أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الحق لابدّ أن تكون مقرونة باللّيونة واللطف والتعامل من موقع المحبّة والرحمة لا سيما مع الاشخاص الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۶ المنحرفين بأمل أن يؤثر هذا السلوك الأخلاقى والإنسانى فىقلوبهم. وهنا يثار هذا السؤال، وهو ما الفرق بين قوله: «يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»؟ ويمكن القول بأنّ المقصود من ذلك أنّكما إذا حدثتماه بكلام ليّن وفى نفس الوقت ذكرتم له بصراحة ووضوح مضمون الدعوة الإلهيّة وبدلائل منطقيّة فلعله يقبل ويؤمن بها من أعماق قلبه، ولو لم يؤمن فلا

أقل فانه سيخاف من العقوبة الإلهية بسبب العناد والاصرار على الكفر والابتعاد عن طريق الحق: ويقول (الفخر الرازى): «نحن لا نعلم لماذا أرسل اللّه تعالى موسى إلى فرعون مع أنّه يعلم أنّه لا يؤمن أبداً؟ ثم يقول: فى مثل هذه الموارد ليس لنا سوى التسليم فى مقابل الآيات القرآنية ولا سبيل إلى الاعتراض» «۱». ولكن جواب هذا السؤال واضح ولا ينبغى أن يخفى على من مثل الفخر الرازى، لأنّ اللّه تعالى يهدف إلى إتمام الحجة، أى حتّى بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يؤمنون قطعاً فإنّ اللّه تعالى يتمّ الحجّة عليهم كى لا يقفوا فى الآخرة موقف الاعتراض على العقاب الاخروى وأنّهم لم يصل إليهم النداء الإلهى ولم يجدوا رسولًا أو نبيّاً يخبرهم بالخبر كما ورد هذا المضمون فى الآية ۱۶۵ من سورة النساء حيث يقول تعالى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ». وأمّا قوله لعله (يتذّكر أو يخشى) فهو بمعنى أنّ طبيعة التبليغ لابدّ وأن تكون مقرونة باللين والمداراة ليصل الإنسان إلى النتيجة المتوخّاة، رغم أنّه قد يواجه النبى الإلهى موانع صعبة تنبع من ذات الأفراد، وبعبارة اخرى أنّ التبليغ المقرون باللّين والمحبّة هو مقتضى للقبول لا علّة تامّة. وبديهى أنّه بالرغم من أنّ المخاطب فى هذه الآية هو موسى وهارون فحسب ولكن مفهوم الآية شامل لجميع المبلّغين لرسالات اللّه والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهكذا يتّضح أنّ الإنسان قد يتحرّك من موقع هداية الناس باللّين والعطف والمداراة ويحقّق الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۱۷ نجاحاً أكبر بكثير ممّا لو استخدم طرق اخرى مقرونة بالخشونة والجفاء الروحى لتحقيق هذا الهدف، وهذا المعنى مجرّب على مستوى الممارسة بكثرة. «الآية السادسة» والأخيرة من الآيات محل البحث تقرّر أنّ المداراة واللّين محبّذة حتى مع الأعداء الشرسين وتؤثر فى أعماق نفوسهم تأثيراً بالغاً وتقول الآية: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». وبالطبع فإنّ دفع السيئات بالحسنات له طرق ومصاديق مختلفة، أحدها أن يتعامل الشخص من موقع المداراة والأدب والبشاشة مع عدوّه المعاند والحقود إلى درجة بحيث يمكن أن ينقلب هذا الإنسان الحقود إلى صديق محبّ ويتحوّل بصورة تامّة من حالة العداوة والبغضاء إلى حالة الصداقة والمحبّة. والملفت للنظر أنّ الآية التى تليها تؤكد على أنّ هذه المرتبة هى من شأن الصابرين والذين يتمّتعون بحظ وافر من الإيمان والتقوى والتوفيق وتقول: «وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». وطبعاً فالوصول إلى هذه المرتبة من حسن الخلق بحيث يواجه الإنسان السيئات بعكسها من الحسنات ليست من شأن كلّ إنسان لأنها تحتاج إلى تسلط كامل على قوى النفس ولا يستطيع ذلك إلّا من اوتى حظاً عظيماً من سعة الصدر وتخلّص من عقدة الانتقام. ومن مجموع الآيات محل البحث نستوحى هذا المفهوم القرآنى فى دائرة الأخلاق الإسلامية وهو أنّ القرآن الكريم دعى الناس إلى حسن الخلق والتعامل فيما بينهم من موقع المحبّة والمداراة، وفى ذلك كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله اسوة ونموذجاً كاملًا فى هذا السلوك الإنسانى بحيث يمكن القول بأنّ أحد معجزات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هى سلوكه الأخلاقى العظيم.

أهميّة حسن الخلق فى الروايات الإسلامية:

هناك روايات كثيرة مذكورة فى المصادر الإسلامية حول حسن الخلق مع الناس وكيفية التعامل معهم فى حركة التفاعل الاجتماعى، والتعبيرات الواردة فى هذه الروايات عن هذه الفضيلة الأخلاقية إلى درجة من الكثرة والتأكيد أننا قلّما نجد نظيراً لها فى النصوص الإسلامية، وهذا يبيّن مدى إهتمام الإسلام فى هذه الخصلة الحميدة، ونختار من بين الروايات الكثيرة ما يلى: ۱- ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الإِسلامُ حُسنُ الخُلُقِ» «۱». ۲- ونقرأ عن الإمام على عليه السلام فى حديث لطيف يقول: «عِنوانُ صَحِيفَةُ المُؤمنُ حُسنُ خُلُقِهُ» «۲». ونعلم أنّ ما يذكر فى عنوان الصحيفة وكتاب عنوان أعمال الإنسان هو أفضل ما يمكن ذكره فى هذه الصحيفة، وبعبارة اخرى يكتب فى العنوان القدر الجامع والمشترك لجميع مفردات الأعمال والسلوك الأخلاقى فى واقع الإنسان ونفسه. ۳- وفى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَكثَرُ ما تَلِجُ امَّتِي الجَنَّةَ التّقوى وَحُسنُ الخُلُق» «۳». ۴- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «أَكْمَلُكُم إِيماناً أَحسَنَكُم خُلقاً» «۴». وما ذكر آنفاً من الأحاديث الشريفة هو بعض

الروایات فی أهمیّة حسن الخلق. والآن نستعرض قسماً آخر من الروایات التی تتحدّث عن النتائج والآثار المادیّة والمعنویة علی هذا السلوک الأخلاقی: ۱- نقرأ فی حدیث عن الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الْخُلْقُ الحَسَنُ یُذِیبُ السَّیِّئَةَ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۱۹ ۲- وفی حدیث آخر عنه صلی الله علیه و آله قال: «إِنَّ صاحِبَ الخُلقِ الحَسَنِ لَهُ مِثلُ أَجرِ الصَّائِم» «۱». ۳- ورد فی حدیث ثالث عن الإمام الصادق علیه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبارَکَ وَتَعالی لَیُعطی العَبدَ مِنَ الثَّوابِ عَلی حُسنِ الخُلقِ کَما یُعطی المُجاهِدُ فِی سَبیلِ اللَّهِ» «۲». وبهذا یتبیّن أنّ صاحب الخلق الحسن یتمیّز علی من یقوم اللیل فی العبادة والمجاهد فی سبیل اللَّه ویضاهیهما فی الثواب حیث یطهّر حسن الخلق النفس الإنسانیة من أدران الذنوب وتلوّثات الأهواء والنوازع الدنیویة، هذا بالنسبة إلی النتائج المعنویة لحسن الخلق، أمّا بالنسبة إلی الآثار والنتائج المادیة والدنیویة فقد وردت تعبیرات مهمّة فی النصوص الدینیة منها: ۴- نقرأ فی حدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «حسُنُ الخُلقِ یُثبِتُ المَوَدَّةَ» «۳». ۵- وفی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام قال: «لا عَیشَ أَهنَأَ مِنْ حُسنِ الخُلقِ» «۴». ۶- ورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «البِرُّ وَحُسنُ الخُلقِ یَعمُران الدِّیارَ وَیَزیدانِ فِی الأَعمارِ» «۵». ۷- وفی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام قال: «حُسنُ الخُلقِ یُدِرُّ الأرزاقَ» «۶». ۸- وفی حدیث آخر عنه علیه السلام قال: «فِی سَعَةِ الأخلاقِ کُنُوزُ الأرزَاقِ» «۷». ومن مجموع هذه الروایات الإسلامیة المذکورة أعلاه ندرک جیداً الأهمیّة البالغة لحسن الخلق فی حرکة الحیاة المادیة والمعنویة للإنسان، ویتّضح من خلال ذلک تأکید الإسلام علی هذا الأمر المهم، وفی الواقع أنّ جمیع النتائج الإیجابیة والبرکات المادیة والمعنویة مترتبة علی حسن الخلق مع الناس بحیث یمکن القول بأنّ حسن الخلق أحد الاسس فی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۰ دائرة المفاهیم الإسلامیة والتعلیمات الدینیة. وهنا ینبغی الإشارة إلی بعض النقاط:

تعریف حسن الخلق:

لعل من الامور الواضحة هو مفهوم حسن الخلق فلا حاجة إلی تعریفه لوضوح معناه ومداه لدی الناس، ولکن لغرض إستجلاء هذا المفهوم أکثر نقول: إنّ حسن الخلق عبارة عن مجموعة من الصفات والسلوکیات التی تتمثّل بمداراة الناس، البشاشة، الکلام الطیب وإظهار المحبّة، ورعایة الأدب، التبسّم، والتحمّل والحلم مقابل أذی الآخرین وأمثال ذلک، فلو إمتزجت هذه الصفات مع العمل وترجمها الإنسان فی حرکة الواقع الخارجی سمّی ذلک حسن الخلق. وفی حدیث جامع جمیل عن الإمام الصادق علیه السلام فی تعریف حسن الخلق ورد أنّ أحد أصحاب الإمام سأله: ما حَدُّ حُسنِ الخُلقِ؟ قال الإمام علیه السلام: «تَلِینُ جانِبَکَ وَتُطَیِّبُ کَلامَکَ وَتلقی أَخاکَ بِبُشرٍ حسنٍ» «۱». وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی تفسیر حسن الخلق قال: «إِنَّما تَفسِیرُ حَسنُ الخُلقِ ما أَصابَ الدُّنیا یَرضی وَإِن لَم یُصِبهُ لَم یَسخَطْ» «۲».

النتائج المترتبة علی حسن الخلق:

قرأنا فی الروایات المذکورة آنفاً نقاط مهمّة تتحدّث عن النتائج والآثار المادیة والمعنویة لحسن الخلق فی حرکة الإنسان والواقع الاجتماعی وتحتاج إلی شیء من التفصیل والتحلیل. ومن الآثار الاجتماعیة والدنیویة لهذه السمة الأخلاقیة هو أنّ حسن الخلق یتسبب فی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۱ کسب محبّة الآخرین وتعاطفهم مع صاحب هذا الخلق، وهذه المسألة ثابتة بالتجربة للجمیع تقریباً وأنّه یمکن اصطیاد قلوب الناس من خلال التعامل معهم من موقع المحبّة وحسن الخلق ورعایة الأدب ولیس فقط أنّ الأشخاص العادیین ینجذبون إلی حسن الخلق بل أهل النظر والمعرفة والعلم کذلک. ومن النتائج الاخری أنّ حسن الخلق والبشاشة تعمّر الدیار وتطیل العمر، لأنّ خراب الدیار معلول للتضارب والنزاع وحالات الصراع بین الأفراد، فإذا أخلی النزاع والصراع الاجتماعی مکانه لحسن الخلق والتعامل باللطف والمحبّة بین الأفراد، فإنّ ذلک کفیل بتعمیق أواصر الاخوة وتعمیق عنصر التعاون بین الأفراد والذی یعتبر محور الخیر وعامل مهم من عوامل البناء، مضافاً إلی ذلک فإنّ حسن الخلق یورث الإنسان الهدوء النفسی والاطمئنان الروحی

الـذى يعتبر من النتائج المباشـرة للتعامل الأخلاقى الحسن مع الناس وعاملًا مهمّاً من عوامل طول العمر، لأنّ من الثابت علميّاً هو أنّ من العوامـل المهمّـة لسـرعة الموت وكثرته هو عنصـر القلق والاضـطراب الروحى الـذى يعيشه الإنسـان فى مقابل تحـدّيات الواقع الصـعبة وبالتـالى تكون منشأ لكثير من الأـمراض المختلفـة، ومن المسـلّم أنّ حسن الخلق والتعامـل باللّطف والمحبّـة مع الناس يقللّ من شـدّة الضـغط العصبى والقلق النفسـى وبالتـالى يسبب طول العمر، والشـىء الآخر أنّ حسن الخلق يسـبّب زيادة الرزق وكثرة العوائـد المادية والموفقيّة فى الكسب والتجارة، لأنّ التاجر والكاسب أو الطبيب لا يكون موفّقاً فى عمله إلّابكسب المراجعين والمشترين، وأحد عوامل كسب الثقةوالاطمئنان بالشـخص هو حسن خلقه وأدبه مع الطرف الآخر، فالكثير من الأشـخاص يفضّ لون شـراء البضاعة وما يحتاجونه من السوق من امور المعـاش من الكـاسب الحسن الاخلاـق والمعاملـة مع المشـترى ويرجّحونه على الشـخص العبوس والحـاد المزاج، ولهذا السـبب فإنّ المؤسسات والشركات الاقتصادية الكبيرة تسعى إلى تعليم موظفيها على كيفية التعامل مع الزبائن بالصورة المطلوبة، ومن خلال ذلك يتحرّكون فى كسب ثقة الزبائن بمؤسساته التجارية وشركاته الصناعية. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٢٢ وقد رأينا كثيراً فى الرحلاـت الجويـة أنّ بعض الشـركات تقـدّم لزبائنهـا ومسافريهـا بعض لعب الأطفال وقطع الحلوى مجّاناً لأطفالهم المسافرين معهم، ولعـلّ قيمـة هـذه اللّعب ليست بكثيرة ولكنّهـا ذات أثر عميق فى نفسـيّة الأـفراد وهـذه الطريقـة من التعامل مع الزبائن تورث فى أنفسهم حسن الظن والثقة للطرف الآخر. وطبعاً فالإسلام يؤيّد حسن الخلق من موقع الصفاء الذاتى والتعامل الإنسانى لا كما هو السائد من الرياء والتظاهر فى العالم المادى المعاصـر، ولكن فى نفس الوقت فانّه يعتبر أنّ حسن الخلق له آثار ماديـة ودنيويـة كثيرة تمثّل فى زيادة النعمـة والبركـة فى حركـة الحياة والواقع المادى. وبالنسبة إلى البعد المعنوى فإنّ الثواب المترتّب على حسن الخلق يعادل ثواب المجاهـدين فى سبيـل اللّه، ودليل ذلك واضـح لأنّ المجاهـد يسـعى لنشـر رايـة الإسـلام ويتحرّك فى هـذا السبيل لأعلاء كلمـة اللّه، وصاحب الخلق الحسن أيضاً يتسبب فى تعميق الثقة والانفتاح على الإسلاك فى قلوب الناس، وقد ورد فى الروايات الشريفة أيضاً أنّ أجر صـاحب الخلق الحسن مثـل أجر الصـائم القـائم، لأـنّ الصـائم القـائم يتحرّك فى هـذا السـلوك العبادى من موقع تهـذيب النفس وتصـفيتها، فكـذلك الأشـخاص الـذين يتعـاملون فى مواجهـة تحـدّيات الواقع الصـعب من موقع غلبـة الأـهواء وحفظ النفس فى اطار الضوابـط الأخلاقيـة والشـرعية فى سبيـل اللّه تعـالى. والخلاصـة أنّ صـاحب الخلق الحسن يكون محبوباً عنـد اللّه تعـالى وعنـد الخلق كـذلك، ويكون موفقاً فى حيـاته الشخصـية والفرديّة وكـذلك موفّقـاً فى حياته الاجتماعيـة. ومن المعلوم أنّ حسن الخلق يعـدّ أحد أركان عناصـر الإدارة ولو أنّ عشـرات من الشـروط المتوفّرة فى المـدير المـدبّر من دون عنصـر حسن الخلق لما تسـنى لهذا المدير أن يكون موفّقـاً فى عمله وتـدبيره فى حين أنّه لو كان حسن الخلق فانّ هـذه الصـفة بإمكانها العمل على ستر الكثير من نقاط الضـعف أو جبرانها.

منابع حسن الخلق:

إنّ بعض النـاس يتمعتون بحسن الخلق بشـكل طـبيعى، وهـذا يعـدّ من المواهب الإلهيـة للإنسـان الـتى لاـ تكـاد تكون من نصـيب كل شخص، وعلى هذا الإنسان أن يشكر اللّه تعالى بجميع وجوده على هذه الموهبة العظيمة. ولكن الكثير من الناس ليسوا كذلك، فعليهم أن يقوموا بتعميق وتوكيـد حسن الخلق فى نفوسـهم من خلال التمرين والممارسة على أرض الواقع العملى بحيث يكتسـبوا طبيعة ثانية لهم ويكون حسن الخلق نافذاً وراسخاً فى وجودهم وواقعهم النفسى، وأفضل طريق إلى نيل هذه الصفة الأخلاقية والمرتبة الكمالية هو أن يتفكّر الإنسان فى الآثار المعنوية والمادية لهذه الصفة الأخلاقية ويطالع الروايات الشريفة المذكورة سابقاً فى هذا الباب ويتأمل فيها ويقوم بتكرارها بين الحين والآخر لتترسخ مضامينها فى أعماق نفسه. ومن جهة اخرى يجب أن يتحرّك الإنسان على المستوى العملى لتطبيق وترجمـة هذه الصـفة فى سـلوكه الخارجى، لأنّ الفضائل الأخلاقية كالقابليات البدنية تقوى وتشـتد بالتمرين والتكرار كما نرى فى الرياضـين أنّهم بعـد مـدّة من التمرين يتمتعون بأبـدان قويـة وجميلـة فكـذلك الرياضـة الأخلاقيـة بإمكانها أن تقوّى روح الإنسان.

ویقول علماء الأخلاق فی صدد تربیة الأفراد البخلاء علی صفة الکرم أنّ الإنسان البخیل یجب أن یضغط علی میوله النفسی وحرصه علی الأموال، ویتحرّک علی مستوی بذل المال للآخرین فی البدایة، ورغم أنّ هذا العمل یکون عسیراً فی البدایة إلّاأنّه تدریجیاً یصبح میسوراً وبالتالی یعتاد الإنسان علی حاله البذل والکرم بحیث أنّه لو لم یبذل من أمواله یوماً لوجد فی نفسه امتعاضاً. وکذلک یوصی علماء الأخلاق الشخص الجبان بأن یحضر إلی میادین القتال والمواجهة مع العدو حتی تزول عنه حالة الخوف والجبن بالتدریج ویحل محلّها صفة الشجاعة والجرأة والإقدام. وهکذا بالنسبة لأصحاب الخلق السیء، فإنّهم من خلال التمرین والممارسة المستمرة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۴ لموارد ومصادیق حسن الخلق فإنّهم سیتمکّنون فی المستقبل من توفیر رأس مال کبیر من هذه الصفة الإنسانیة وینتفعون من برکاتها ونتائجها الإیجابیة فی حیاتهم النفسیة والاجتماعیة. ومضافاً إلی کل ذلک ونظراً إلی أنّ أحد عوامل سوء الخلق هو التکبّر والغرور وکذلک الحدّة والغضب وروح الانتقام وأحیاناً یکون بسبب الحرص والبخل والحسد، فلو أنّ الإنسان أراد أن یکون حسن الخلق فی جمیع موارد الحیاة الفردیة والاجتماعیة لوجب علیه أن یدفع ویزیل هذه الصفات والحالات السلبیة عن واقعه النفسی. علیه أن یراعی حدّ الاعتدال فی القوّة الغضبیّة والشهویة وأن تکون له سعة الافق وشرح الصدر لیتمکّن بذلک من تطهیر قلبه وروحه من الأنانیة والحسد والبخل وبالتالی یورثه ذلک حسن الأخلاق ویکون فی أمان من سوء الخلق مع الناس. وعلیه فإنّ تحصیل هذه الفضیلة الأخلاقیة الکبیرة تتطلب وجود وتوّفر مجموعة من الصفات الحسنة فی واقع الإنسان النفسی حیث إنّه بدونها لا یکون حسن الخلق فی سلوکه الأخلاقی. ویقول (الغزالی) فی هذا الصدد: کما أنّ صاحب الوجه الحسن لا یکون کذلک بجمال العین فقط بل لابدّ أن یضم إلیه جمال الأنف والفم وجمیع أعضاء الوجه، لیکون جمیلًا وکاملًا فی مجال الجمال البدنی والمادی، فکذلک حال الجمال الباطنی والمعنوی فما لم یصل الإنسان إلی حد الاعتدال فی قواه الأربعة ... العلم والغضب والشهوة والعدالة، فإنّه لا یصل إلی مقام الجمال الباطنی. ولا شک أنّ عامل (الوراثة) یوثّر فی سلوک الإنسان الأخلاقی حیث یقول الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام: «حُسنُ الخُلقِ بُر هانُ کَرمِ الأعراقِ» «۱». ویقول علیه السلام فی مکان آخر: «أطهَرُ النّاسِ أَعراقاً أَحسَنُهُم أَخلاقاً» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۵ وهناک ملاحظة ینبغی الالتفات إلیها فی البحوث الأخلاقیة وهی، أنّ الفضائل الأخلاقیة لا یمکن إکتسابها وتحصیلها من دون التوفیق الإلهی والامداد الربّانی، فیجب الاستمداد من اللَّه تعالی فی سبیل تحصیل هذه الملکات الأخلاقیة الفاضلة وغرسها وتنمیتها فی واقع الإنسان وروحه. ونقرأ فی حدیث شریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الأخلاقُ مَنائِحُ مِن اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَإذا أَحبَّ عَبداً مَنَحَهُ خُلُقاً حَسَناً وَإذا أَبغَضَ عَبدَاً مَنَحَهُ خُلقاً سَیِّئاً» «۱».

سیرة الأولیاء:

ومن أفضل الطرق لکسب فضیلة حسن الخلق وملاحظة نتائجها الإیجابیة علی واقع الإنسان هو التحقیق فی سیرة الأولیاء العظام. ۱- نقرأ فی حدیث عن الإمام الحسین علیه السلام أنّه قال: «کَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله دَائِمُ البُشر، سَهلُ الخُلق، لَیِنُ الجَانبِ، لَیسَ بِفَظٍّ ولا غلیظٍ ولا سَخّابٍ، ولا فَحّاش، ولا عیّاب، ولا مَدّاح، ولا یَتَغافَلُ عَمّا لایَشتَهی، ولا یُؤیس مِنهُ، قَد تَرکَ نَفسَهُ مِنْ ثَلاث: کَانَ لایَذُمُّ أَحداً، ولا یُعیّره، ولا یَطلُبُ عَورَتَهُ، ولایَتَکَلَّمُ إلّا فیما یَرجُو ثَوابَهُ، إذا تَکَلَّمَ أرقَ جُلساؤُهُ کَأَنّما عَلی رُؤوسِهِم الطَّیرُ، وإذا تَکَلَّمَ سَکَتُوا وإذا سَکَتَ تَکَلَّمُوا لایُسارِعُون عِندَهُ بِالحَدیثِ، مَن تَکَلَّمَ نَصتُوا لَهُ حَتّی یَفرَغَ حَدِیثُهُم عِندَهُ حَدیث إلَیهم، یَضحَکُ ممّا یَضحَکُونَ مِنهُ، وَیَتَعَجَّبُ ممّا یَتَعَجَّبُونَ مِنهُ، یُصبِّرُ الغریبَ عَلی الجَفوةِ فِی المنطِق، وَیَقُولُ: (إذا رَأَیتُم صاحِبَ الحَاجَةِ یَطلُبُها فَأَرفِدُهُ)، ولا یَقبَلُ الثَّناءَ إلّامِنْ مُکافیء، ولا یَقطَعُ عَلَی أَحدٍ حَدِیثَهُ حَتّی یَجُوزَهُ فَیَقطَعُهُ بِانتهاء أو قِیام» «۲». ۲- ونقرأ فی حالات الإمام علی علیه السلام فی الروایة المعروفة أنّ الإمام کان قاصداً الکوفة فصاحب رجلًا ذمیّاً فقال له الذمّی: أین ترید یا عبداللَّه، قال: ارید الکوفة، فلما عدل الطریق الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۲۶ بالذمّی عدل معه علی علیه السلام، فقال له الذمی: ألیس زعمت ترید الکوفة؟ قال: بلی. فقال له الذمی: فقد ترکت الطریق، فقال علیه السلام: قد علمت، فقال له: فلم عدلت معی وقد علمت ذلک؟ فقال له علی علیه

السلام: «هـذا مِن تمام الصُّحبةِ أن يُشيِّعَ الرّجلُ صاحِبهُ هُنيئةً إذا فارَقَهُ وَكَذلِكَ أمرنا نَبِيُّنا». فقال له الذمى: هكذا أمركم نبيّكم؟ فقال: نعم، فقال له الـذمّى: لا جرم إنّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمـة، وأنا أشـهد على دينك، فرجع الـذمّى مع الإمام على عليه السـلام، فلما عرفه أسـلم» «۱». ۳- وفى حـديث آخر فى تفسير الإمام الحسن العسـكرى أنّه قال: حضـرت امرأة عنـد الصديقـة فاطمـة الزهراء عليها السـلام فقالت: إنّ لى والدة ضعيفة وقد لبس عليها فى أمر صلاتها شيء وقد بعثتنى إليكِ فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك فثنت فأجـابت ثم ثلثت إلى عشـرة فأجـابت ثم خجلت فى الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنـة رسول اللّه صـلى الله عليه و آله قالت فاطمـة: هاتى وسـلى عمّا بـدا لك، أرأيت من اكترى يوماً يصـعد إلى سـطح بحمل ثقيل وكراه مائـة ألف دينار يثقل عليه؟ فقالت: لا، فقالت: اكتريت أنـا لكـل مسألـة بـأكثر من ملأ ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى أن لا يثقل علىَّ، سـمعت أبى صـلى الله عليه و آله يقول: «علمـاء شـيعتنا يحشـرون فيخلع عليهم خلع الكرامات على قـدر كثرة علومهم وجـدهم فى إرشاد عباد اللّه ..» «۲». وهذا الصبر العجيب والتعامل الملىء بالمحبّـة واللطف وهـذا التشبيه الجميل الباعث على إزالة الحياء من السائل من كثرة سؤاله كل واحدة منها مثال جميل على حسن خلق الأولياء العظام حيث ينبغى أن يكون درساً بليغاً وعبرة نافعـة فى طريق إرشاد الناس إلى سـلوك مثل هـذه الممارسات الأخلاقية. ۴- وممّا ورد عن حلم الإمام الحسن عليه السلام أنّ شامياً رآه راكباً (فى بعض أزقة المدينة) الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۷ فجعـل يلعنه والحسن لا ـ يردّ، فلمّا فرغ أقبـل الحسن عليه السـلام فسـلّم عليه وضـحك فقـال: «أيُّهـا الشّيخ أظُنُّك غَريباً، وَلَعلَّك شُبِّهت، فَلَو اسـتَعتَبتَنا أَعتَبناكَ، وَلَو سَأَلتَنا أَعطَيناكَ، وَلَو استَرشَـدتَنا أَرشدناك، وَلَو اسـتَحمَلتَنا أَحملناكَ، وإن كُنتَ جائِعاً أَشـبَعنَاك، وَإن كُنتَ عُرياناً كَسوناك، وإن كُنتَ مُحتاجاً أَغنَيناكَ، وإن كُنتَ طِريـداً آويناك، وإن كانَ لَكَ حاجَـةٌ قَضـيناها لَكَ، فَلَو حَركتَ رَحلَكَ إلينا وَكُنتَ ضَـيفَنا إلى وَقتِ إرتحالِك كـانَ أعود عَلَيكَ، لأنَّ لَنا مَوضِـعاً رَحِباً وَجاهاً عَريضاً وَمالًا كَثيراً». فلمّا سـمع الرجل كلامه بكى، ثم قـال أَشـهدُ أَنّـك خَليفـة اللّه فى أرضه، اللّهُ أَعلَمُ حيثُ يَجعلُ رسالتهُ وكنتَ أَنت وأبوك أبغضُ خلق اللّه إلىَّ، والآن أَنت وأبُوكَ أحبُّ خلق اللّهِ إلىَّ، وَحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم «۱». ۵- وجاء فى كتاب «تحف العقول»: أنّ رجلًا من الأنصار جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يسأله حاجة، فقال عليه السلام: «يا أخا الأنصار صُن وجَهك عَن بَذلِ المسألةِ وارفع حاجتَك فِى رقعةٍ فـإنّى آت فِيهـا مـا سـاركَ إن شـاء اللّه»، فكتب الأنصـارى: يـا أبا عبـداللّه إنّ لفلان علىَّ خمسمائة دينار وقد الحّ بى فكلّمه ينظرنى إلى ميسرة، فلما قرأ الإمام الحسين عليه السلام الرقعة، دخل إلى منزله فأخرج صرّة فيها ألف دينار وقال عليه السلام له: «أَما خمسمائة فاقض بِها دينك وأمّا خمسمائة فاستعن بِها على دَهرِكَ ولا تَرفع حاجتَكَ إلّاإلى أحد ثلاث: إلى ذى دين، أو مروّة، أو حسب، فأمّا ذو الدين فَيصُون دِينُهُ، وأَمّا ذو المُروة فإنّه يسـتحى لمروّته، أمّا ذو الحسب فيعلم أنّك لم تكرم وجهـكَ أن تَبـذلُه فِى حاجتِكَ فَهو يَصون وَجهكَ أن يردَك بِغير قضاءِ حاجتِك» «۲». ۶- ونقرأ فى حالات الإمام زين العابـدين أنّه وقف على على بن الحسين عليه السـلام رجل من أهل بيته فأسمعه وشتمه فلم يكلّمه، فلما انصرف قال لجلسائه: قد سمعتم ما قال هذا الرجـل وأنا احب أن تبلغوا معى إليه حتّى تسـمعوا منّى ردى عليه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۸ فقالوا له: نفعل ولقد كنّا نحبّ أن تقوله له ونقول، قال: فأخـذ نعليه ومشـى وهو يقول: «... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ» «۱». فعلمنا أنّه لا يقول له شـيئاً قال: فخرج إلينا متوثباً للشـر وهو لا يشك أنّه إنّما جاءه مكافياً له على بعض ما كان منه فقال له على بن الحسـين عليه السلام: «يا أَخى إنَّكَ كُنتَ قَد وَقفتَ علىَّ آنفاً قُلتَ وَقُلتَ فإن كُنتَ قَد قُلتَ ما فىَّ فأنا استغفرُ اللّهَ مِنهُ وإن كُنتَ قُلتَ ما لَيس فىَّ فَغفرَ اللّهُ لَكَ». قال (الراوى) فقبل الرجل بين عينيه وقال: بلى قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحق به. قال الراوى الحديث: والرجل هو الحسن بن الحسن عليه السـلام «۲». ۷- ونقرأ فى حالات الإمـام البـاقر: عن محمـد بن سـليمان عن أبيه قال: كان رجل من أهل الشام يختلف على أبى جعفر عليه السـلام (الإمـام البـاقر) وكـان مركزه بالمدينـة يختلف إلى مجلس أبى جعفر يقول له: يـا محمـد ألا ترى أنّى إنّما أغشـى مجلسـك حيـاء منـك ولا ـ أقول أنّ أحـداً فى الأـرض أبغض إلىَّ منكم أهل البيت، وأعلم أنّ طاعـة اللّه وطاعـة رسوله وطاعة أميرالمؤمنين فى بغضـكم ولكن أراك رجلًا فصيحاً لك أدب وحسن لفظ، فإنّما اختلافى إليك لحسن أدبك. وكان أبو جعفر عليه

السـلام يقول له خيراً ويقول: لن تخفى على اللّه خافيـة فلم يلبث الشـامى إلّا قليلًا حتى مرض واشـتدّ وجعه، فلمّا ثقل دعا وليّه وقال له: إذا أنت مـددت علىّ الثوب فأت محمـد بن على عليه السـلام وسـله أن يصـلّى علىّ واعلمه إنّى أنا الـذى أمرتک بذلک. قال: فلمّا أن كان فى نصف الليل ظنّوا أنّه قد برد وسـجّوه، فلمّا أن أصبح الناس خرج وليّه إلى المسجد، فلمّا أن صـلّى محمد بن على عليه السلام وتورّک وكـان إذا صـلّى عقب فى مجلسه، قـال له: يا أبا جعفر إنّ فلان الشامى قـد هلک وهو يسألک أن تصـلى عليه. فقال أبوجعفر عليه السـلام: كلّا إنّ بلاـد الشـام بلاد صـرد والحجاز بلاد حر لهبها شديـد انطلق فلا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۲۹ تعجلنّ على صاحبـک حتى آتيكم ثم قـام عليه السـلام من مجلسه فأخـذ وضوءاً ثم عاد فصـلّى ركعتين ثم مـدّ يـده تلقاء وجهه ما شاء اللّه ثمّ خرّ ساجداً حتّى طلعت الشـمس ثم نهض فانتهى إلى منزل الشامى، فدخل عليه فدعاه فأجابه ثم أجلسه وأسنده ودعا له بسويق فسقاه وقال لأـهله: املؤوا جوفه وبرّدوا صـدره بالطعـام البـارد. ثمّ انصـرف عليه السـلام، فلم يلبث إلّـا قليلًـا حتّى عوفى الشامى فأتى أبا جعفر عليه السـلام فقال: اخلنى فأخلاه، فقال: أشهد أنّک حجّة اللّه على خلقه وبابه الذى يؤتى منه فمن أتى من غيرک خاب وخسر وضلّ ضلالًا بعيـداً. قال له أبو جعفر عليه السـلام: وما بـدا لک؟ قال: أشـهد أنّى عهـدت بروحى وعاينت بعينى فلم يتفاجأنى إلّاومناد ينادى اسـمعه بـأذنى ينـادى ومـا أنـا بالنائم ردّوا عليه روحه فقـد سألنا ذلک محمـد بن على. فقال له أبوجعفر عليه السـلام: «أَما عَلِمتَ أنّ اللَّهَ يُحبُّ العَبـدَ ويُبغِضُ عَمَلَهُ ويُبغض العبـد ويحبّ علمه؟»، (أى كما أنّک كنت مبغوضاً لـدى اللّه لكنّ عملک وهو حبّنا مطلوباً عنـده تعالى). قـال الراوى: فصـار بعـد ذلـک من أصـحاب أبى جعفر عليه السـلام «۱». ۸- ورد فى الحـديث المعروف فى حالاـت الإمـام الصـادق المـذكور فى مقدمـة (توحيـد المفضـل) أنّ المفضل بن عمر قال كنت ذات يوم بعـد العصـر جالساً فى الروضـة وبين القبر والمنبر وأنا مفكّر فيما خصّ اللّه به سيّدنا محمداً من الشـرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشـرّفه به وحباه لا يعرفه الجمهور من الامّة، وما جهلوه من فضـله وعظيم منزلته وخطر مرتبته، فـإنّى لكـذلک إذ أقبل ابن أبى العوجاء فجلس بحيث أسـمع كلامه، فلمّا اسـتقرّ به المجلس إذا رجـل من أصـحابه قـد جـاء فجلس إليه فتكلّم ابن أبى العوجـاء؟ فقـال: لقـد بلغ صـاحب هـذا القبر العزّ بكماله، وحاز الشـرف بجميع خصـاله، ونـال الحظوة فى كـل أحواله، فقـال له صـاحبه: إنّه كـان فيلسوفـاً إدّعى المرتبـة العظمى والمنزلـة الكبرى، وأتى على ذلک بهجرات بهرت العقول، وضّـلت فيهـا الأحلاـم، وغـاصت الألبـاب على طلب علمها فى بحار الفكر فرجعت خاسـئات وهى حسير، فلمّا استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۰ دخل الناس فى دينه أفواجاً فقرن اسمه باسم ناموسه، فصـار يهتف به على رؤوس الصوامع فى جميع البلـدان ... فقال ابن أبى العوجاء: دع ذكر محمـد، فقـد تحيّر فيه عقلى، وضلّ فى أمره فكرى، وحدثنا فى ذكر الأصل الذى يمشـى به، ثمّ ذكر ابتداء الأشـياء وزعم أنّ ذلک باهمال لا صـنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع له ولا مـدبّر، بـل الأشـياء تتكوّن من ذاتهـا بلاـ مـدبّر، وعلى هـذا كانت الـدنيا لم تزل ولا تزال. قال المفضّـل: فلم أملک نفسـى غضـباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عـدوّ اللّه ألحـدت فى دين اللّه، وأنكرت البارى جلّ قـدسه الذى خلقک فى أحسن تقويم، وصوّرک فى أتمّ صورة، ونقلـک فى أحوالک حتى بلغ بک إلى حيث انتهيت. فقال ابن أبى العوجاء: يا هـذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناک، فإن ثبت لک حجّـة تبعنـاک، وإن لم تكن منهم فلاـ كلاـم لـک، وإن كنت من أصـحاب جعفر بن محمـد (الصادق)، فما هكـذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلک يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش فى خطابنا ولا تعدّى فى جوابنا، وإنّه للحلوم الرزين العاقل الرصين لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، ويسـمع كلامنا ويصغى إلينا ويستعرف حجّتنا حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننا أن قد قطعناه أدحض حجّتنا بكلام يسير وخطاب قصير يلزمنا به الحجّـة، ويقطع العـذر، ولا نسـتطيع لجوابه ردّاً، فان كنت من أصـحابه فخاطبنا بمثل خطابه «۱». ۹- ونقرأ فى حالات الإمام موسـى بن جعفر أنّ رجلًا من ولـد عمر بن الخطاب كان بالمدينـة يؤذيه ويشـتم علياً عليه السـلام قال: وكان قـد قال له بعض حاشـيته دعنا نقتله فنهاهم عن ذلک أشدّ النهى وزجرهم أشدّ الزجر وسأل عن العمرى فذكر له أنّه يزرع بناحية من نواحى المدينة، فركب إليه فى مزرعته فوجده فيها فدخل المزرعة بحماره فصاح به العمرى لا تطأ زرعنا فوطئه بالحمار حتى وصل إليه فنزل فجلس عنـده وضاحكه وقال له: كم غرمت فى زرعک هـذا قال له: مائة دينار قال: فكم ترجو أن يصـيب، قال له: أنا لا أعلم

الغيب، قال: إنّما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۱ قلت لك كم ترجو أن يجيئك فيه قال: أرجو أن يجيئنى مائتا دينار، قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله، قال: فقام العمرى فقبل رأسه وانصرف. قال الراوى: فراح المسجد فوجد العمرى جالساً فلمّا نظر إليه قال: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته، قال: فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصتّك؟ قد كنت تقول خلاف هذا، قال: فخاصمهم وشاتمهم، قال: وجعل يدعو لأبى الحسن موسى كلّما دخل وخرج، قال فقال أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام لحاشيته الذين أرادوا قتل العمرى: «أيما كان خير ما أردتم أو ما أردت أصلح أمره بهذا المقدار» «۱». ۱۰- وهكذا ورد فى سيرة الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وكيفية تعامله مع الناس من موقع المحبّة واللطف، نقل عن اليسع بن حمزة، قال: كنت فى مجلس أبى الحسن الرضا عليه السلام احدثه وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم فقال: السلام عليك يابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله رجل من محبيك ومحبّى آبائك وأجدادك مصدرى من الحج وقد افتقدت نفقتى وما معى ما أبلغ به مرحلة، فإن رأيت أن تنهضنى إلى بلدى وللّه علىَّ نعمة، فإذا بلغت بلدى تصدقت بالذى تولينى عنك فلست بموضع صدقة. فقال له الإمام عليه السلام: اجلس يرحمك اللّه، واقبل على الناس يحدثهم حتّى تفرقوا وبقى هو وسليمان الجعفرى وخيثمة وأنا، فقال: أتأذنون لى فى الدخول؟ فقال له سليمان: قدم اللّه أمرك، فقام ودخل الحجرة وبقى ساعة ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب، وقال اين الخراسانى؟ فقال: ها أناذا. فقال عليه السلام: خذ هذه المأتى دينار فاستعن بها فى مؤنتك ونفقتك وتبرك بها ولا تصدق بها عنّى واخرج فلا- أراك ولا- ترانى، ثم خرج، فقال سليمان الجعفرى: جعلت فداك لقد اجزلت ورحمت فلماذا استرت وجهك عنه؟ فقال عليه السلام: مخافة أن أرى ذلّ السؤال فى وجهه لقضائى حاجته، أما سمعت حديث رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «المُستَترُ بِالحسنَةِ تَعدِلُ سَبعِينَ حِجَّةً، وَالمُذِيعُ بِالسيئَةِ مَخذُولٍ، وَالمُستَترُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۲ بِها مَغفُورٌ لَهُ»، أَما سمعت قول الأول: متى آته يوماً اطالب حاجة رجعت إلى أهلى ووجهى بمائه «۱». ۱۱- ونقرأ فى حالات الإمام الجواد عليه السلام، عن على بن جرير قال: كنت عند أبى جعفر ابن الرضا عليهما السلام جالساً وقد ذهبت شاة لمولاة له فأخذوا بعض الجيران يجرّونهم إليه ويقولون: أنتم سرقتم الشاة، فقال أبو جعفر الإمام الجواد عليه السلام: ويلكم خلّوا عن جيراننا فلم يسرقوا شاتكم الشاة فى دار فلان، فاذهبوا فأخرجوها من داره، فخرجوا فوجدوها فى داره، وأخذوا الرجل وضربوه وخرقوا ثيابه، وهو يحلف أنّه لم يسرق هذه الشاة إلى أن صاروا إلى أبى جعفر عليه السلام فقال: ويحكم ظلمتم الرجل فإنّ الشاة دخلت داره وهو لا يعلم بها، فدعاه فوهب شيئاً بدل ما خرق من ثيابه وضربه «۲». ۱۲- وكذلك ورد فى سيرة الإمام الهادى عليه السلام عن أبى هاشم الجعفرى قال: أصابنى ضيقة شديدة فصرت إلى أبى الحسن على بن محمد (الإمام الهادى عليه السلام) فأذن لى فلمّا جلست قال: يا أبا هاشم أى نعم اللّه عزّوجلَّ عَلَيكَ تُريدُ أن تُؤدّى شُكرَها؟ قال أبو هاشم: فوجمت فلم أدرى ما أقول له. فأبتدأ عليه السلام فقال: «رَزَقَك الإيمانَ فَحرَّمَ بَدَنَك عَلى النّارِ، وَرَزَقَكَ العافِيةَ فَأعانَتكَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَرَزَقَكَ القنُوعَ فَصانَكَ عَن التَّبذُّلِ، يا أبا هاشم إنَّما ابتدأتُكَ بِهذا لأَنّى ظننتُ تُرِيدُ أن تَشكُو لِى مَن فَعَلَ بِكَ هذا، وَقَد أَمرتُ لَكَ بِمائةِ دينار فَخُذها» «۳». ۱۳- وأورد (الكلينى) فى الجزء الأول من اصول الكافى- حول الإمام العسكرى عليه السلام- أنّه قال: «حُبِس أبو مَحمّد (الإمام العسكرى) عِندَ عَلى بن نارمش وهَو أنصب الناس وأشدّهم عَلى آل أبى طالب وَقِيلَ لَهُ: افعل به وافعل- يعنى مِن السوء وَالاذى- فما أقام- الإمام- عِندَهُ إلّايَوماً حَتّى وَضَعَ خديَّه لَه، وَكانَ لايَرفَع بَصره إليهِ إجلالًا وإعظاماً فَخرجَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۳ مِن عِندِهِ وهو أحسنَ النّاسَ بَصيرة وَأَحَسنهم فِيهِ قَولًا» «۱». ۱۴- وجاء فى الروايات عن الإمام المهدى أرواحنا فداه وحسن خلقه وعنايته بالأشخاص الذين يتشرفون بلقائه روايات وقصص كثيرة، منها ما ذكره المرحوم (المحدّث النورى) فى كتابه (جنّة المأوى) عن أحد علماء النجف الأشرف أنّه قال: كان فى النجف الأشرف رجل مؤمن يسمّى الشيخ محمد حسن السريرة، وكان فى سلك أهل العلم ذا نية صادقة، وكان معه مرض السعال إذا سعل يخرج من صدره مع الأخلاط دم، وكان مع ذلك فى غاية الفقر والاحتياج لا يملك قوت يومه، وكان يخرج فى أغلب أوقاته إلى البادية إلى الأعراب الذين فى اطراف النجف الأشرف ليحصل له قوت ولو شعير وما يتيسر ذلك، وكان يكفيه مع شدّة رجائه وكان مع ذلك قد تعلق قلبه

بتزويج امرأة من أهل النجف، وكان يطلبها من أهلها وما أجابوه إلى ذلك لقلّة ذات يده، وكان فى هم وغم شديد من جهة ابتلائه بذلك، فلما اشتدّ به الفقر والمرض وأيس من تزوج البنت عزم على ما هو معروف عند أهل النجف من أنّه من أصابه أمر فواظب الرواح إلى مسجد الكوفة أربعين ليلة أربعاء، فلابدّ أن يرى صاحب الأمر عجّل اللّه فرجه من حيث لا يعلمويقضى له مراده، فواظب على ذلك أربعين ليلة أربعاء، فلما كان الليلة الأخيرة وكانت ليلة شتاء مظلمة وقد هبّت ريح عاصفة فيها قليل من المطر وأنا جالس فى الدكة التى هى داخل باب المسجد وكانت الدكة الشرقية المقابلة للباب الأول تكون على الطرف الأيسر عند دخول المسجد ولا أتمكن الدخول فى المسجد من جهة سعال الدم ولا يمكن قذفه فى المسجد وليس معى شىء اتقى فيه عن البرد وقد ضاق صدرى واشتد علىّ همّى وغمّى وضاقت الدنيا فى عينى وافكر أن الليالى قد انقضت وهذه آخرها وما رأيت أحداً ولا ظهر لى شىء وقد تعبت هذا التعب العظيم وتحملت المشاق والخوف فى أربعين ليلة أجيىء فيها من النجف إلى مسجد الكوفة ويكون لى الاياس من ذلك، فبينما أنا افكر فى ذلك وليس فى المسجد أحد أبداً وقد أوقدت النار الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۴ لأسخن عليها قهوة جئت بها من النجف لا أتمكن فى تركها لتعودى عليها وكانت قليلة جدّاً إذا بشخص من جهة الباب الأول متوجهاً إلىَّ، فلما نظرته من بعيد تكدرت وقلت فى نفسى هذا اعرابى من أطراف المسجد قد جاء إلىّ ليشرب من القهوة أبقى بلا قهوة فى هذا الليل المظلم ويزيد علىَّ همّى وغمّى، فبينما أنا افكر إذا به قد وصل إلىَّ وسلّم علىَّ باسمى وجلس فى مقابلى فتعجبت من معرفته باسمى وظننته من الذين أخرج إليهم فى بعض الأوقات من أطراف النجف أسأله من أى العرب يكون؟ قال: من بعض العرب، فصرت أذكر له الطوائف التى فى أطراف النجف فيقول: لا ـ لا وكلما ذكرت له طائفة قال: لا لست منها فاغضبنى، وقلت له: أجل أنت من طريطرة مستهزءاً هو لفظ بلا ـ معنى، فتبسّم عليه السلام من قولى ذلك وقال: لا عليك من اين كنت ما الذى جاء بك إلى هنا، فقلت: وأنت ما عليك السؤال عن هذه الامور؟ فقال: ما ضرّك لو أخبرتنى فاعجبت من حسن أخلاقه وعذوبة منطقه فمال قلبى إليه وصار كلّما تكلم ازداد حبّى له فعملت له السبيل من التتن وأعطيته فقال: أنت اشرب فأنا لا أشرب وصببت فى الفنجان قهوة وأعطيته فأخذه وشرب شيئاً قليلًا منه ثم ناولنى الباقى وقال: أنت اشربه فأخذته وشربته ولم التفت إلى عدم شربه تمام الفنجان، ولكن ازداد حبّى به آناً فآناً. فقلت له: يا أخى قد ارسلك اللّه إلىَّ فى هذه الليلة تأتينى أفلا تروح معى إلى أن نجلس فى حضرة مسلم عليه السلام ونتحدّث؟ فقال: أروح معك فحدّث حديثك. فقلت له: أحكى لك الواقع أنا فى غاية الفقر والحاجة مذ شعرت على نفسى ومع ذلك معى سعال أتنخع الدم وأقذفه من صدرى منذ سنين ولا أعرف علاجه وما عندى زوجة وقد علق قلبى بامرأة من أهل محلتنا فى النجف ومن جهة قلّة ما فى اليد ما تيسّر أخذها. وقد غرّنى هؤلاء الملائية وقالوا لى: اقصد فى حوائجك صاحب الزمان وبت أربعين ليلة أربعاء فى مسجد الكوفة فانك تراه ويقضى لك حاجتك وهذه آخر ليلة من الأربعين وما رأيت فيها شيئاً وقد تحملت هذه المشاق فى هذه الليالى فهذا الذى جاءنى هنا وهذه حوائجى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۵ فقال لى وأنا غافل غير ملتفت: أمّا صدرك فقد برأ وأمّا الامرأة فتأخذها عن قريب، وأمّا فقرك فيبقى على حاله حتى تموت وأنا غير ملتفت إلى هذا البيان أبداً. فقلت: ألا تروح إلى حضرة مسلم؟ قال: نعم فقمت وتوجّه أمامى فلّما وردنا أرض المسجد فقال: ألا تصلّى تحية المسجد، فقلت: افعل فوقف هو قريباً من الشاخص الموضوع فى المسجد وأنا خلفه بفاصلة فاحرمت الصلاة وصرت أقرأ الفاتحة. فبينما أنا أقرأ وإذا يقرأ الفاتحة قراءة ما سمعت أحداً مثلها أبداً، فمن حسن قراءته قلت فى نفسى لعله هذا هو صاحب الزمان وذكرت بعض كلمات له تدل على ذلك ثم نظرت إليه بعدما خطر فى قلبى ذلك وهو فى الصلاة وإذا به قد أحاطه نور عظيم منعنى من تشخيص شخصه الشريف وهو مع ذلك يصلّى وأنا أسمع قراءته وقد ارتعدت فرائصى ولا استطيع قطع الصلاة خوفاً منه فأكملتها على أى وجه كان وقد علا النور من وجه الأرض فصرت اندبه وأبكى واتضجر واعتذر من سوء أدبى معه بباب المسجد وقلت له: أنت صادق الوعد وقد وعدتنى الرواح معى إلى مسلم. فبينما أنا اكلم النور وإذا بالنور قد توجّه إلى جهة مسلم فتبعته فدخل النور الحضرة وصار فى جو القبة ولم يزل على ذلك ولم ازل أندبه وأبكى حتى إذا طلع الفجر عرج النور. فلّما كان الصباح التفت إلى قوله، أمّا صدرك فقد برأ وإذا أنا صحيح الصدر وليس معى سعال

أبداً، وما مضـى اسـبوع إلّاوسهّل اللَّه على أخذ البنت من حيث لا أحتسب وبقى فقرى على ما كان كما أخبر صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آبـائه الطاهرين «۱». ومـا ذكر أعلاـه نمـاذج ونقـاط مضـيئة من سـيرة الأئمّـة والأولياء العظام وبما يكون بمثابـة تجلّيات نورانية لسـلوكهم الأخلاقى السامى وحسن تعاملهم مع الصـديق والعدو، وهذه النماذج القليلة تدل على مدى تأكيد هؤلاء العظام والقادة على هـذه السـجية وأهميّتها فى حياة الإنسان المعنويـة، وما ورد فى القرآن الكريم حكايـة عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله من حسـن الخلق العظيم نجـده مترجماً فى سـلوكيات الأئمّة الكرام عليهم السـلام فى دائرة العمل والسـلوك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۶ الأخلاـقى، نعم فـإنّ الـدعوة إلى حسن الخلق لاـ تكون باللسـان فقـط ومن خلاـل التوصـيات والإرشادات الكلاميـة، بل إنّ الممارسـة الأخلاقية والتحرّك الأخلاقى العملى يمثّل أسمى نداء أخلاقى وإرشاد تربوى فى عملية التكامل المعنوى والحضارى للبشرية.

نتائج سوء الخلق:

النقطة المقابلة لحسن الخلق فى واقع الإنسان وسلوكه الأخلاقى هى (سوء الخلق) حيث يمكن أن يفسّـر على مستوى الخشونة والحدّة وسوء الكلام. الأشخاص الذين يعيشون سوء الخلق مع الناس هم بمثابة بلاء عظيم على أنفسهم واسرتهم ومجتمعهم الذى يعيشون فيه. إنّ سـوء الخلق من أهم عوامـل إيجـاد الكراهيـة والتنفّر والتفرّق بين أفراد المجتمع، والأشـخاص الـذين يعيشون الابتلاـء بهـذه الحـالة السيئة، فإنّهم غالباً ما يعيشون الانزواء فى المجتمع حيث يبتعد الناس عنهم ويتجنّبون معاشرتهم، وحتى لو اجبروا على معاشرتهم بسبب بعض الواجبات الاجتماعية أو بسـبب مقامهم ومكانتهم الاجتماعية فإنّهم يشـعرون بالنفور منهم فى قلوبهم ويجدون فى أنفسهم الرغبة فى الابتعاد عنهم مهما أمكنهم ذلك. وعندما يتوفّر هذا الخلق السـيء والمرض النفسـى لدى علماء الدين ورجال المذهب، فإنّ ذلك يمثّل خطراً كبيراً على الـدين والمجتمع ويتسـبب فى سوء ظن الناس بأساس الـدين وفرارهم من التعاليم والإرشادات الدينية وهذا بحدّ ذاته ذنب عظيم جدّاً لا يمكن جبرانه. ولهذا السبب ورد فى الروايات تعبيرات شديدة تتحدّث عن سوء الخلق وأحياناً نقرأ فيها كلمات مذهلـة ومخيفة عن النتائج الوخيمة والآثار السـلبية لهذا المرض الأخلاقى، ومن ذلك نقرأ ما ورد فى بعض هذه الروايات: ۱- جاء فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «إيّاكُم وَسُوءَ الخُلقِ فَإنَّ سُوءَ الخُلقِ فِى النَّارِ لامَحالَةَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۷ ۲- وفى حـديث آخر- عبرّ عنه بـأنّه لا توبـة لصاحب الخلق السـيء- وعنه صـلى الله عليه و آله قال: «أَبى اللَّهُ لِصاحِبِ الخُلقِ السَّيء بِالتَّوبَـةِ» قيل: وكيف يا رسول اللَّه؟ قال: «لأنَّهُ إذا تابَ مِنْ ذَنبٍ وَقَعَ فِى أَعْظَمَ مِنَ الـذَّنبِ الَّذِى تابَ مِنهُ» «۱». ويمكن أن يكون المقصود من هـذا الحـديث الشـريف أنّ الشـخص السـيء الخلق عندما يتوب فى مورد من الموارد ويقلع عن بعض الممارسات الأخلاقية، فإنّ ذلك من شأنه أن يوقعه فيما هو أسوأ من ذلك، لأنّ جذور هذا المرض لا زالت موجودةً فى أعماق نفسه ممّا يزيد فى عقدته النفسيّة، ولهذا السبب فإنّه لا يوفّق للتوبة الكاملة إلّابالاقلاع عن هذه الرذيلة الأخلاقية واجتثاث جذور من واقعه النفسـى وباطنه المعنوى. ۳- وجـاء عن الإمام على عليه السـلام فى تقريره لحالـة سوء الخلق أنّ: «أَشَـدُّ المَصائِبِ سُوءُ الخُلقِ» «۲». وهل هناك مصيبة أعظم من أن يكون الإنسـان منزويـاً ومعزولًا فى مجتمعه وبين أرحـامه ومعارفه ويقطع الصـلة بينه وبين الخلق والخالق على السواء. ۴- ونقرأ فى الروايـة الواردة عن هـذا الإمـام العظيم أنّه قـال: «لا وَحشَـةَ أَوحَشُ مِنْ سُوء الخُلقِ» «۳». ودليل ذلك واضـح وهو أنّ الإنسان السـيء الخلق يغرق فى الوحـدة الموحشـة ويعيش وحيـداً منقطعاً عن الآخرين، ولهـذا السـبب ورد فى حـديث آخر أنّه قال: «لا عَيشَ لِسَّيِّيء الخُلـقِ» «۴». لأـنّه يعيش دائمـاً حالـة الضـجر والتعب فى نفسه ويودّى أيضـاً إلى تعب المعاشـرين له. ۶- وشبيه هـذه الرواية مع اختلاف يسير ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام أمير الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۸ المؤمنين أيضاً أنّه قال: «لا سُؤدَدَ لِسَّيِّيءِ الخُلقِ» «۱». فالإنسـان السـيء الخلـق لاـ يكون كـبيراً فى مجتمعه ودليـل ذلـك واضـح أيضـاً، لأـنّ من أول شـروط تحصـيل المكـانة الاجتماعيـة والسـيادة والعزّة لدى الأهل والعشـيرة هو التعامل الأخلاقى الحسن مع الآخرين ومراعاة الأدب واللّيونة واللطافة، فمن إفتقد رأس المال هـذا فإنّه لا يصل إلى ذلك المقام. ۷- وورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام أيضاً قوله: «المُؤمِنُ لَيِّنُ الأرِيكَةِ، سَـهلُ

الخَلِيقَةَ، والكَافِرُ شَرِسُ الخَلِيقَةَ سَيِّىءُ الطَّرِيقَةَ» «۲».

علاج سوء الخلق:

إنّ ما أوردنا فى الروايات أعلاه وروايات اخرى كثيرة لم نـذكرها حرصاً على الايجاز وعدم الأطالة هو شاهد على أنّ سوء الخلق يعتبر أحـد أسوأ الصـفات النفسـية والأخلاقيـة فى واقع الإنسـان وسـلوكه الاجتمـاعى حيث يـترتب عليهـا نتائـج وخيمـة فى حركـة الإنسـان والمجتمع ويفضـى إلى تـدمير افق الحيـاة السـعيدة ويبـدّل عناصـر الخير والسـعادة فى حياة الإنسان إلى الشـر والشـقاء. وعلى هـذا فإنّ الأشـخاص الـذين يعيشون هـذه الرذيلـة الأخلاقية يجب عليهم علاج أنفسـهم بأسـرع ما يمكن، والاسـتفادة من كلمات ونصائح علماء الأخلاق فى هـذا المجال ومنها قولهم: إنّ من يبتلى بهـذه الصـفة الرذيلـة يجب عليه أن يفكّر ويتـدبّر فى عواقبها الوخيمـة فى كل يوم ويقرأ باسـتمرار الروايـات التى تتحـدّث عن آثارهـا السـلبية فى الـدنيا والآـخرة كما تقـدمت الإشارة إليها، ويشاهـد ما يجرى فى حياة المبتلين بهـذا المرض وكيف أنّ الناس تنفر منهم وتبتعـد عنهم وبـذلك يعيشون حالة الوحشة والصـعوبة فى مقابل تحدّيات الواقع فلا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۳۹ يشاركهم أو يواسيهم أحد من الناس فيما يصيبهم من بأساء وضـرّاء فى حركة الحياة، والخلاصة أنّه يتّعـظ من حيـاة هؤلاء الـذين يعيشون العزلـة على اللّه والخلق. وما يجـدر ذكره هو أنّه ينبغى لغرض قلع جـذور الصـفات الأخلاقية القبيحة من واقع الإنسان وروحه أن يتحرّك الإنسان على مسـتوى التمرّن وممارسة الرياضة المعنوية والاصـرار فى سـلوك هذا الطريق وإن كان بواسـطة التصـنّع ليكون حسن الخلق له بصورة عادة وملكـة، وفيما إذا وجـد فى نفسه عناصـر وعوامل نفسـية تبعث على سوء الخلق فانّه يتحرّك فوراً لازالتها وتطهير نفسه منها وذلك من خلال ممارسـة الصـلاة والعبادة وزيارة المراقـد المقدّسـة أو يتحرّك من موقع الترفيه السليم والألعاب المسلّية المشروعة ليدرأ هذا المرض وهذه العوامل السلبية من كيانه وشخصيته. وكذلك يتحرّك الإنسان فى طريق تهديد نفسه من خلال التلقين، وذلك بالايحاء إلى نفسه بأنّه صاحب خلق حسن ويتّصف بحسن التعامل والطيبة واللطف مع الآخرين، فمن شأن هذا التلقين أن يؤثّر أثره بالتدريج فيغرس فى قلبه نبتة حسن الخلق ويعمل على تقويتها وتعميقها وإزالة عناصر الشر وعوامـل سوء الخلق من ذاته. وأحيانـاً يتحقّق سوء الخلق فى النفس بسـبب الجوع والعطش أو بعض الأمراض البدنيـة حيث ينبغى على هـذا الإنسان أن يعالـج هـذه المسألـة من الأساس والجـذور ويحاول الابتعاد عن الناس والتعامل معهم فى هـذه الحالة الاسـتثنائية مهما أمكن. وأحياناً تنقل هذه الرذيلة الأخلاقية الإنسان من رفاقه وأصدقائه من الأراذل والأخلاء السيّىء الخلق، فينبغى عليه أن يقطع أواصر الصداقـة مع هؤلاـء ويحـاول الإرتبـاط من موقع الصداقـة والمودّة مع من هم أهـل لـذلك ويعيشون الفضـيلة وحسن الخلق مع النـاس، وهكذا فإنّ أسوأ الناس أخلاقاً إذا تحرّك فى اصلاح نفسه فى علاج مرضه الأخلاقى من خلال ممارسة هذه التعليمات المذكورة آنفاً وعزم على تحقيق هـذه الملكات الأخلاقيـة فى نفسه بإرادة قويّـة وسـعى لإصـلاح نفسه بتصـميم راسخ فإنّه سوف يحصل على النتائج المرجوّة حتماً.

المزاح:

لقد ورد فى الروايات الإسـلامية وكذلك كلمات علماء الأخلاق بحوث واسـعة عن (المزاح) حيث يتوصّل الإنسان من خلال مطالعتها ودراسـتها إلى هـذه النتيجـة، وهى أن المزاح إذا كان فى حـدّ الاعتـدال ولم يكن ملوّثاً بالإثم والمعصـية فإنّه ليس فقط غير قبيـح، بل يمكن اعتبـاره من مصـاديق حسن الخلق والأخلاـق الفاضـلة وحسن المعاشـرة مع النـاس، ولاـ شـك أن الافراط فى ذلك إمّا أن يوقع الإنسان فى المعصـية والإثم يتحول إلى أحد الرذائل الأخلاقية، وأحياناً يكون خطره أكثر من خطره فى الكلام إذا كان من موقع الجد، لأنّ فى المزاح نوع من الحرية لا توجد فى الكلام الجدّى والذى ينطلق من موقع المسؤولية. ويسـتفاد من سـيرة النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السـلام وعلماء الدين أنّهم كانوا يمارسون المزاح بشـكل معتدل فى معاشـرتهم مع الناس. وبهذه

الإشارة نستعرض بعض الروايات التى تقرر حسن المزاح بصورة عامّة، ثم نستعرض الروايات التى تذم المزاح، ثم نذكر طريق الجمع بين هاتين الطائفتين من الروايات الشريفة: ۱- ما ورد فى الحديث عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله لَيَسُرُّ الرَّجُلَ مِنْ أَصحابِهِ إذا رَآهُ مَغمُوماً بِالمُدَاعَبَةِ» «۱». أجل فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يستخدم المزاح لتحقيق الأغراض الإنسانية وادخال السرور على القلوب المهمومة والنفوس الكئيبة. ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه: «كَيفَ مُداعَبَةِ بَعضُكُم بَعضاً». قلت: قليل. فقال الإمام عليه السلام: «أَفَلا تَفعَلُوا فإنّ المُداعَبَةَ مِنْ حُسنُ الخُلقِ وَإنَّكَ لَتُدخلُ بِها السُّرورَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۱ عَلى أَخِيكَ وَلَقَد كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله يُداعِبُ الرَّجُلَ يُريدُ أن يَسُرَّهُ» «۱». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: «ما مِنْ مُؤمِنٍ إلّاوَفِيهِ دُعابَةٌ، قلت: وَما الدُّعابَةُ؟ قال: المِزاح» «۲». ويستفاد من هذا التعبير أن المؤمن لا ينبغى أن يكون جافّاً، بل إنّ أغصان حسن الخلق هو المزاح وطبعاً مقرون بالتقوى. ۴- ويستفاد من الروايات الشريفة أنّ المعصومين عليهم السلام أحياناً كانوا يتحرّكون لحث الآخرين للتمازح فى مجلسهم ليتمّ بذلك إدخال السرور على قلوب المؤمنين، ففى كتاب الكافى للمرحوم (الكلينى قدس سره) نقرأ حديثاً شريفاً يرويه عن معمر بن خلّاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام قلت: جعلت فداك الرجل يكون مع القوم فيجرى بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال عليه السلام: «لا بأسَ ما لَم يَكُن، فَظَننتُ أَنّه عنى الفحش، ثُمَّ قال: إنّ رَسُولُاللَّهِ صلى الله عليه و آله كانَ يَأتِيهِ الأعرابِى فَيَهدِى لَهُ الهدِيَّةَ ثُمَّ يَقُولُ مكانَهُ: أَعطِنا ثَمَنَ هَدِيتِنا فَيضحَكُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وَكَانَ إذا اغتَمَّ يَقُولُ: ما فَعَلَ الأَعرابى لَيَتَهُ أتانا» «۳» ۵- وقد ورد فى الأحاديث الشريفة نماذج من موارد مزاح النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مع أصحابه منها ما ورد عن امرأة تدعى (ام أيمن) جاءت إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت: إنّ زوجى يدعوك، فقال: ومن هو أهو الذى بعينه بياض، فقالت: واللَّه ما بعينه بياض، فقال: بلى أنّ بعينه بياضاً، فقالت: لا واللَّه. فقال صلى الله عليه و آله: ما أحد إلّاوبعينه بياض» .وفى مقابل هذه الأحاديث هناك أحاديث كثيرة تنهى عن المزاح منها: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۲ ۱- فى الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إيّاكُم وَالمَزاحَ فَإنَّهُ يَذهَبُ بِماءِ الوَجهِ وَمَهابَةِ الرِّجالِ» «۱». ۲- وأيضاً فى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «إذا أَحبَبتَ رَجُلًا فَلا تُمازِحهُ وَلا تُمارِهِ» «۲». ۳- وفى حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إيّاكُم وَالمَزاحَ فَإنَّهُ يَجُرُّ السَّخِيمَةَ وَيُورِثُ الضَّغِينَةَ وَهُو السَّبُّ الأصغَرُ» «۳». ۴- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تُمازِح فَيُجتَرَءُ عَلَيكَ» «۴». *** وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ المزاح يبعث على الذهاب بوقار الإنسان والحط من شخصيّته أمام الناس ويسبب العداوة والبغضاء بينهم ويوجب تجرّؤ الجهّال ويعرّض شخصية الإنسان إلى المهانة والضعف والاهتزاز. ومن خلال مطالعة التعبيرات الواردة فى روايات الطائفة الاولى المادحة للمزاح وروايات الطائفة الثانية الناهية عنه يمكن معرفة السبل إلى الجمع بين هاتين الطائفتين، وتوضيح ذلك أنّ المزاح أمر معقّد وأحياناً يتّسم بأنّه أشدّ من حالة الجدية فى الكلام وبعبارة اخرى أنّ المزاح أمر رقيق جدّاً بحيث أنّه إذا خرج قليلًا عن حدّ المقرّر، فإنّ له آثار مخرّبة مدمّرة. إذا كان المزاح فى الأطار المقبول ولم يخرج عن حدّ الاعتدال وكان لغرض رفع السأم والتعب والحزن عنهم مع رعاية الجهات الشرعية فإنّه يقع مطلوباً ومورد رضا اللَّه تعالى. ولكن إذا كان المزاح لغرض الانتقام والسخرية بالطرف الآخر وبدافع الحقد والكراهية وخاصة إذا كان بلباس الجدّية فإنّه لا يحقق الامور المذكورة فحسب، بل إنّ البعض قد يهدف إلى أغراض شيطانية من خلال المزاح فلا شك فى أنّه يقع مبغوضاً ومنفوراً وأحياناً الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۴۳ يكون أشدّ من السب والشتم. وكذلك إذا استخدمت فى المزاح كلمات واهنة ومبتذلة فلا شك أنّها تتسبب فى هتك حرمة الإنسان وإزهاق شخصيته. وهكذا إذا كان المزاح أمام أشخاص ليست لهم قابلية على تقبّله أو لا يحفظون حريم شخصيّة الإنسان ممّا يؤدّى إلى جرأتهم وتطاولهم على الكبير فيقولون من موقع المزاح ما يوهن شخصيته ويطعن فى احترامه. ومثل هذه الانحاء من المزاح ليست فقط غير مطلوبة بل أحياناً تقع فى دائرة الذنوب الكبيرة أيضاً. فعلى السالكين طريق الحق والذين يتحرّكون فى تهذيب النفس وتزكيتها يجب عليهم الانتباه فلا يشطبون على المزاح تماماً ويحذفونه من حياتهم ويتحوّلوا إلى أشخاص جامدين ويعيشون الجفاف

الروحی والعواطف البشریة واللطافة والمحبّة مع الآخرین، ولا یتورّطون مقابل ذلک فی الذنوب أو الأعمال المنافیة للمروءة عند ممارسة المزاح، فکثیراً ما رأینا بعض الأشخاص المتدینین حسب الظاهر عندما یتحدّثون فی مجالسهم ویتمازحون مع الآخرین یطلقون ألسنتهم بالحکایات المبتذلة التی یشمّ منها رائحة الغیبة أحیاناً أو التهمة أو إشاعة الفحشاء أو یتسبب کلامهم فی إهانة بعض المسلمین وجرح کرامتهم. وحتی لو کان المزاح یخلو من أی مطلب منافی للشرع، فإنّ الإکثار منه یسّبب آثار سلبیة وکما یقول بعض العلماء (المَزاحُ فِی الکلامِ کَالمِلحِ فِی الطَّعامِ)، فلو کان أکثر من اللازم أو أقل منه لما کان الطعام سائغاً وطیّباً. ومضافاً إلی ذلک فإنّ من یکثر من المزاح فانّ کلامه الجدّی سوف یکون بدون قیمة، ولا یقبل الناس کلامه الجدّی کما یرام، وهذا المضمون ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین قال: «مَن کَثُرَ هَزَلُهُ بَطَلَ جِدُّهُ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴۴ والملاحظة الجدیرة بالذکر أنّ المزاح أحیاناً یهدف إلی أغراض معقولة ومهمّة، فلو کانت هذه الأهداف الجدیّة تدخل فی المسائل التربویة والبنّاءة لکان مفیداً جدّاً، مثلًا أن یسعی الشخص لافهام الطرف الآخر من خلال المزاح أن یواظب علی المسائل الدینیة والقیم الأخلاقیة، فمثل هذا العمل مفید جدّاً، ولکن لو کان الهدف الجدّی المتضمّن للمزاح یؤدّی إلی مفسدة أو کان لغرض الانتقام وتخریب شخصیة الآخرین، فإنّ ذلک المزاح یکون مبغوضاً ومذموماً جدّاً وذلک بأن یقوم الإنسان بهتک حرمة الأشخاص فی لباس المزاح ویهدم شخصیّتهم ویعمل علی تسقیطهم بهذه الوسیلة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴۵

الأمانة والخیانة

تنویه:

(الأمانة) من أهمّ الفضائل الأخلاقیة والقیم الإسلامیة والإنسانیة والتی وردت کثیراً فی القرآن الکریم والأحادیث الشریفة، وقد أولاها علماء الأخلاق والسالکون إلی اللَّه تعالی أهمیّة کبیرة علی مستوی بناء الذات والشخصیة، وعلی العکس من ذلک (الخیانة) التی تعدّ من الذنوب الکبیرة والرذائل الأخلاقیة فی واقع الإنسان وسلوکه الإجتماعی. الأمانة هی فی الحقیقة رأس مال المجتمع الإنسانی والسبب فی شدّ أواصر المجتمع وتقویة الروابط بین الناس فی نظامهم الاجتماعی وحیاتهم الدنیویة والاخرویة فی حین أنّ الخیانة بمثابة النار المحرقة التی تحرق جمیع العلاقات الاجتماعیة وتؤدّی إلی الفوضی والفقر والشقاء وبالتالی تخریب الاطر الإنسانیة والحضاریة فی المجتمعات البشریة. الأمانة من الصفات التی تربط الإنسان من جهة مع اللَّه تعالی وکذلک تربطه مع غیره من أفراد البشر، ومن جهة ثالثة ترسم علاقته مع نفسه أیضاً ومع الطبیعة والبیئة کذلک وقد اعتبرت الکتب السماویة والشرائع الإلهیة أنّها أمانة بید البشر. إنّ جمیع النعم المادیة والمواهب المعنویة الإلهیة علی الإنسان فی بدنه ونفسه هی فی الحقیقة أمانات بید الإنسان. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۴۶ وهکذا الأموال والثروات المادیة والمقامات والمناصب الاجتماعیة والسیاسیة هی أمانات بید الناس ویجب علیهم مراعاتها من موقع الحفظ وأداء المسؤولیة. الأولاد أمانة أیضاً بید الوالدین، والطلاب أمانة بید المعلمین، الماء والتراب والهواء وجمیع ما خلقه اللَّه تعالی من الکائنات الطبیعیة لتیسیر حیاة الإنسان فی حیاته الدنیا کل ذلک یعتبر أمانة غالیة بید الإنسان والتی یعدّ التفریط فیها وعدم أداء حقّها خیانة بالنسبة إلی هذه المواهب ومن الذنوب الکبیرة. ونظراً إلی سعة مفهوم الأمانة والخیانة وإستیعابها لأبعاد مختلفة وواسعة من حیاة الإنسان ندرک جیداً أهمیّة هذه الفضیلة الأخلاقیة. بعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الحکیمة ما یلقی الضوء علی صفة الأمانة والخیانة فی حرکة الإنسان والمجتمع. إنّ «الأمانة» وردت فی القرآن الکریم مرّات متعددة بصورة مفردة أحیاناً وبصورة جمع أحیاناً اخری. وقد وردت بالنسبة إلی ستة من الأنبیاء الکبار بعبارة: «إِنّی لَکُم رَسُولٌ أَمِینٌ» عن النبی نوح علیه السلام فی سورة (الشعراء، ۱۰۷) والنبی هود علیه السلام (الشعراء، ۱۲۵) والنبی صالح علیه السلام (الشعراء، ۱۴۳) والنبی لوط علیه السلام (الشعراء، ۱۶۲) والنبی شعیب (الشعراء، ۱۷۸) والنبی موسی (الدخان، ۱۸) وهذا یدلّ دلالة واضحة علی أهمیّة

هـذه الفضـيلة الأخلاقيـة إلى جانب مهمّـة إبلاغ الرسالـة الإلهية، وبدون ذلك لا يمكن لهؤلاء الأنبياء من كسب ثقة الناس واعتمادهم على أقوالهم. ومضافاً إلى ذلك فهناك آيات متعددة فى سور مختلفـة تتحـدّث عن أهميّـة الأمانـة ولزوم رعايتها فى سـلوك الإنسان الفردى والاجتماعى حيث نسـتعرض الآن هذه الآيات ونفسّـرها: ١- «وَالَّذِينَ هُمْ لِاَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» «١». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١۴٧ ١- «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً» «١». ٣- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» «٢». ۴- «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» «٣». ۵- «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا» «۴»

تفسير وإستنتاج:

«الآية الاولى» تتحرّك من خلال بيان أوصاف المؤمنين الحقيقيين وضمن تبشيرهم بالفلاح والنجاة فى الآخرة، وبعد بيان أهميّة الصلاة والأبتعـاد عن اللغو والكلاـم لفارغ وأداء الزكاة واجتناب أى لون من ألوان الانحراف الجنسـى يشـير القرآن الكريم فى الآيـة الخامسـة والسادسـة إلى مسألـة حفظ الأمانـة والالتزام بالعهـد ويقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِاَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». ونفس هـذا التعبير ورد فى سورة المعارج الآية ٣٢ ضـمن بيان أوصاف الإنسان الجميلـة والفضائل الأخلاقيـة ومنها الأمانـة والوفاء بالعهد. والملفت للنظر أنّ (الأمانات) الواردة فى هـذه الآيـة ذكرت بصورة الجمع وهى إشـارة إلى أنّ الأمانـة لهـا أنواع وأشـكال مختلفـة والكـثير من المفسّـرين ذكروا أنّ مفهوم الأمانـة فى هـذه الآيـة لاـ يقتصـر على الأمانـة الماليـة بـل يشـمل الأمانـات المعنويـة كالقرآن الكريم والـدين الإلهى والعبادات والوظائف الشـرعية وكـذلك النعم الإلهيـة المختلفـة على الإنسان فى حركـة الحياة الماديـة والمعنوية. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١۴٨ ومن هنـا يتّضـح أنّ المؤمن الواقعى والإنسـان الـذى يتمتع باللّياقـة الكاملـة هو الـذى يتحرّك فى سلوكه من موقع مراعـاة الأمانة بصورها المختلفة ويهتم بالحفاظ عليها من موقع المسؤولية وأداء الوظيفة. أمّا عطف الوفاء بالعهد على حفظ الأمانة فيبيّن هذه الحقيقة، وهى أنّ هـذين المفهومين يعودان إلى جـذر واحـد ويشتركان فى الأصل، لأنّ نقض العهـد يعتبر نوع من الخيانـة فى العهـد والميثاق، ورعايـة الأمانـة نوع من الوفاء بالعهـد والميثاق أيضاً. وتعبير (راعون) مأخوذ من مادة (رعايـة) وهى من مادة (رعى) التى يراد بها رعى الأغنـام ومراقبتهـا فى عمليـة سوقهـا إلى حيث الماء والكلاء فى الصـحراء، وهـذا إنّما يـدلّ على أنّ المقصود من هـذه العبارة فى الآية الكريمـة هو أكثر من أداء الأمانـة فى مفهومها الظاهرى، أى النظر والمحافظـة والمراقبـة للشـىء من جميع الجوانب. وبديهى أنّ الأمانة تارة تكون ذات بعد فردى وتسلّم بيد شخص معين (كالأمانات المالية التى يودعها الإنسان لدى الآخرين) وتارة اخرى لها بعد جماعى مثـل حفـظ القرآن الكريم من التحريف والـدفاع عن الإسـلام والمحافظـة على كيان الـدول الإسـلامية، فهى كلّها أمانات وضـعت بيد المسلمين وعليهم أن يتحرّكوا بصورة جماعية ويتكاتفوا فيما بينهم من أجل حفظ وصيانة هذه الأمانات الإلهية. وتتحرك «الآية الثانية» لتثبيت أمرين إلهيين: الأول: يتحدّث عن أداء الأمانة. الثانى: يتحدّث عن الحكم بالعدل فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَـمِيعاً بَصِيراً». ومع أنّ مسألة الحكومة العادلة أو التحكيم الصـحيح والسليم بين الناس له مكانة سامية فى نظر القرآن الكريم، ولكن فى نفس الوقت ورد الأمر بأداء الأمانة قبله وهذا يبيّن الأهميّة الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١۴٩ العظيمة للأمانة وأنّ لها مفهوم عام يستوعب فى مضمونه التحكيم بين الناس من موقع العدل وأنّه أحد مصاديق أداء الأمانة، لأنّ الأمانة بمفهومها العام تشـمل جميع المقامات والمناصب الاجتماعية التى تعتبر أمانات إلهية، وكـذلك أمانات بشـرية من قبل الناس بيـد أصـحاب المناصب هذه. والتأكيدات الواردة فى ذيل الآية الشـريفة تقرّر من جهة أنّ الأمر بالأمانة والعدالة ما هى إلّا موعظة إلهية حسنة للناس، ومن جهة اخرى تحذّر الجميع بأنّ اللّه تعالى يراقب أعمالكم وسلوكياتكم، وهذا يعطى أهميّـة مضاعفـة على هـذين المفهومين وهما رعايـة الأمانـة والعدالة. ونقرأ فى التفسـير الكبير للفخر الرازى أنّ الأمانة لها ثلاث

موارد وفروع: الأمانـة الإلهيـة، وأمانـة الناس، وأمانـة النفس، ثم يتطرّق الفخر الرازى إلى شـرح كل واحـدة من هذه الفروع والأغصان للأمانـة بالتفصيل ومن جملتهـا أداء الواجبـات وترك المحرمـات حيث يعتبرهـا من موارد الأمانـات الإلهيـة، ويقسّـمها إلى تقسيمات عديـدة، منهـا أمانـة اللسان، أمانـة العين والاذن (أى أنّ الإنسان يجب أن لا يتحرّك بالمعصيـة، والعين لا تنظر بنظر الخيانـة، والاذن لا تسـمع الكلام المحرّم). أمّا الأمانات البشـرية فهى من قبيل الودائع التى يضعها بعض الناس لدى البعض الآخر وكذلك ترك التطفيف فى الميزان وترك الغيبـة ورعايـة العدالـة من جهـة الحكّام والامراء وعـدم تحريك العوام من موقع التعصّب للباطل وأمثال ذلك، أمّا أمانة الإنسان بالنسبة إلى نفسه فيرى الفخر الرازى أنّ على الإنسان أن يختار لها خير الدين والدنيا ولا يستسلم لدوافع الشهوة والغضب وما يترتب عليهما من ذنوب وآثام. «۱» إنّ سعة مفهوم الأمانة وشمولها لكثير من الوظائف المهمّة والنعم الكثيرة قد ورد فى الكثير من التفاسير المهمّـة، منها تفسير (أبو الفتوح الرازى) و (القرطبى) وتفسير (فى ظلال القرآن) وتفسير (مجمع البيان) وغيرها من التفاسير الاخرى. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۰ وقد ورد التصريح بهذا المعنى أيضاً فى الروايات الإسلامية التى سوف نشير إليها لاحقاً. أمّا ما ورد فى شأن نزول هذه الآية فأنّه يشير بوضوح إلى سعة مفهوم الأمانة أيضاً، لأنّ سبب نزول هذه الآية كما ورد فى الروايات هو أنّ النبى صـلى الله عليه و آله عنـدما دخل مكّـة منتصـراً جاءه (عثمان بن طلحـة) خازن الكعبة بأمر من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وسـلّم إليه مفاتيـح الكعبة ليطهرها من الأصـنام الموجودة فى داخلها، وبعد أن تمّ تطهير الكعبة من الأوثان جاء العباس عمّ النبى صـلى الله عليه و آله وطلب من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أن يكون خازن بيت اللَّه وأن يسـلّمه مفاتيـح الكعبـة والذى يعتبر منصـباً مهمّاً لـدى المجتمع العربى والإسـلامى آنـذاك، ولكن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله لم يوافق على هذا الطلب وأعاد المفتاح إلى (عثمان بن طلحـة) ثم تلى هـذه الآيـة الشـريفة («إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَا ...» هـذا فى حين أنّ عثمان بن طلحـة لم يعتنق الإسـلام بعـد. «الآيـة الثالثـة» تتحرّك من موقع النهى عن ثلاثـة أشـياء مخاطبـة المؤمنين فى هذا النهى وهى: خيانة اللَّه، خيانة الرسول، خيانة أمانات الناس، وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ «۱» وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». والمشهور بين المفسرين أنّ المقصود بحفظ أمانـة اللَّه ورسوله والنهى عن خيانتهما هو عـدم إفشاء أسـرار المسـلمين حيث قام بعض الأفراد من ضـعفاء الإيمان إلى إفشـاء أسـرار المسـلمين إلى المشـركين بهـدف حفـظ منـافعهم الشخصـية ولكنّ اللَّه تعالى أعلم بيّنـة ذلك، وكنموذج على هـذا المضـمون هو قصة (أبو لبابة) الذى أخبر عن بعض الأسرار العسكرية للمسلمين وكشفها لأعدائهم من اليهود من (بنى قريظة)، أو قصة حركة النبى لفتح مكّة وإفشاء هذا السر لأبى سـفيان، والمراد من الخيانة فى أماناتكم الوارد فى الآية الشـريفة هو الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۱ الأمانـات المتداولـة بيـن النـاس. ويرى بعض آخر مـن المفسّـرين أنّ المراد مـن خيانـة اللَّه هى مـا يتعلـق بالوظـائف والواجبـات الدينيـة والشـرعية، أمّا الخيانـة للنبى فهى ما يتعلق بالسـنن والسـلوكيات الأخلاقيـة، وأمّا خيانـة أمانات الناس فهى ما يتعلّق بأموالهم المودعـة لـدى الآخرين. وهناك احتمال آخر أيضاً أفضل وأشـمل من الاحتمالات السابقـة، وهو أنّ مفهوم الآيـة عام وشامل لجميع مصاديق ومفردات الأمانات المعنويـة والماديـة والماليـة وغير الماليـة، وعلى هذا الأساس فالخيانة محرّمة لجميع أشـكال الأمانة: الإلهيـة منها وأمانـة النبى وهو الدين الذى أودعه النبى لدى امته، وكذلك أمانات الناس بيد بعضـهم للبعض الآخر سواءً كانت متعلّقة بالامور المالية أو بأسرار المعيشة والحياة الشخصية لدى الأشخاص، ولذلك ورد فى الحديث النبوى أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لأبى ذر رضـى الله عنه: «يا أبا ذر المَجالِس بِالأمانَةِ وإفشاءِ سرّ أَخِيكَ خِيانَة» «۱». وتوضح الآية ۲۸ من سورة الأنفال هذه اللاحقة لهـذه الآيـة أنّ الخيانـة محرّمـة حتى لو عرّضت أموال الإنسان ومنافع أولاده إلى الخطر (كما قرأنا فى قصـة أبى لبابة وأنّ وجود أمواله وأولاده لدى اليهود هو السـبب فى إفشاءه أسـرار المسلمين العسكرية للعدو) فتقول الآية «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» وعلى هذا فالأمانات الإلهية والبشـرية ليست شيئاً يمكن التضحية والتساهل معه وخيانة هذه الأمانات بأعذار وتبريرات مختلفـة. «الآيـة الرابعة» تتعرض للأمانات والودائع المالية لدى الناس وتتحدّث فى سـياقها عن لزوم تنظيم الوثائق والمسـتندات بالنسـبة إلى هـذه الودائع وتقول: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». أى يمكنه ذلك بـدون كتابة السـند أو أخذ

الرهن، وفی هذه السورة علی الأمین حفظ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۵۲ الأمانة وردّها إلی صاحبها بالموقع المناسب وعلیه أن یخاف اللّه فیما لو تحدّثت له نفسه بالخیانة. أنّ تعبیر الأمانة فی الآیة أعلاه یمکن أن یکون إشارة إلی القروض المالیة التی یقرضها المسلم لأخیه المسلم من دون کتابة وثیقة أو تأمین ودیعة ورهن وذلک بسبب الثقة المتبادلة بین الأفراد، أو أنّها إشارة الی الأموال التی توضع لدی الشخص بعنوان الرهن، أو کلیهما، وعلی کل حال فانّ الآیة فیها دلالة واضحة علی لزوم احترام الأمانة وأدائها فی أیّة حالة. أمّا «الآیة الخامسة» والأخیرة من الآیات مورد البحث فتتحدّث أیضاً عن الأمانة الإلهیة العظیمة التی عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وحفظها ولکن الإنسان حملها لوحده وتقول: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا». فما هی هذه الأمانة العظیمة التی خشیت السماوات مع عظمتها والأرض مع سعتها والجبال مع صلابتها أن یحملنها فی حین أنّ الإنسان الضعیف والصغیر جدّاً قد حملها؟ ولقد أورد المفسّرون من القدماء والمعاصرین احتمالات کثیرة فی تفسیر هذه الآیة، ولکنّ ما یقرب للنظر هو أنّ المقصود من الأمانة الإلهیة الکبیرة هذه هو المسؤولیة والتکلیف الملقی علی عاتق الإنسان حیث لا یتیسّر ذلک إلّابوجود العقل والحریة والإرادة. أجل فإنّ التکلیف والمسؤولیة أمام اللّه تعالی والناس والنفس هی وظیفة ثقیلة لا یکاد یتحملها ولا یلیق بحملها أی موجود آخرسوی الإنسان، وبتبع ذلک فقد جعل اللّه تعالی العقل والحریة والإرادة فی عملیة الانتخاب هی الثواب والعقاب، ومجموع هذه الصفات الثلاث تبیّن عظمة الإنسان بین المخلوقات بحیث إختاره الله لمقام الخلافة الإلهیة ومیزه علی سائر المخلوقات الاخری فی عالم الوجود. ولکن هذا الإنسان الظلوم والجهول لم یقدّر هذا المقام الرفیع وتورّط فی منزلقات الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۵۳ الشهوة والأهواء الرخیصة وبذلک ظلم نفسه وحرمها من نیل السعادة العظیمة التی تنتظره فی حرکته التکاملیة نحو الحق والانفتاح علی اللّه. وعلی هذا الأساس فکون الإنسان ظلوماً وجهولًا إنّما هو لم یکن بسبب قبول هذه الأمانة الإلهیة، لأنّ قبولها علامة العقل وسبب الافتخار، ومن دون ذلک لا یصل إلی مقام الخلافة الإلهیة، بل کونه ظلوماً وجهولًا بسبب عدم حفظ هذه الأمانة وسلوکه طریق الخیانة فی أداء هذه المسؤلیة الکبیرة. أجل فإنّ الأمانة التی من شأنها أن توصله إلی ذروة السعادة الحقیقیة فی حال حفظها، فإنّ خیانتها یتسبب کذلک فی سقوط هذا الإنسان فی مستنقع الذلّة والمسکنة والشقاء حتی أنّه یکون مصداق (بَل هُم أَضَلُّ مِنَ الأنعامِ والدّوابِ). وبعبارة اخری: أنّ السموات والأرض والجبال مع عظمتها وسعتها لیست لها القابلیة علی قبول هذه الأمانة الإلهیة، وأعلنت عدم صلاحیتها لذلک بحالتها التکوینیة وبلسان حالها، ولکن الإنسان وبسبب وجود هذه القابلیة والقوی الکریمة التی منحه اللّه تعالی إیّاها أصبح لائقاً تکوینیاً لقبول هذه المنحة والأمانة الإلهیة، وهذا بحدّ ذاته إفتخار عظیم للإنسان من بین المخلوقات. ولکن بما أنّ أکثر الناس لم یراعوا حق هذه الأمانة الإلهیة ولم یتحرّکوا فی سبیل حفظها وأدائها فلذلک إستحقوا عنوان الظلوم والجهول، لأنّهم ظلموا أنفسهم أشدّ الظلم بحرمانها من نیل هذا الإفتخار العظیم الذی منحه اللّه تعالی للإنسان وعاشوا الغفلة عن هذه الموهبة الإلهیة العظیمة وترکوها وراء ظهورهم. وفی ذیل هذه الآیة نجد إشارة إلی هذه النقطة المهمّة، وهی أنّ الخیانة فی الأمانة إنّما تنشأ من الظلم والجهل، وهذا هو ما نسعی لتحقیقه وتقریره فی هذا البحث الأخلاقی، أجل فانّ حفظ الأمانة یدل علی العقل والعدالة، بینما الخیانة هی دلیل علی الظلم والجهالة. وممّا تقدّم آنفاً یتّضح جیداً أنّ المراد من کون الإنسان ظلوماً وجهولًا هم الأشخاص الذین یعیشون حالة الکفر أو الذین یعیشون ضعف الإیمان والتقوی، وإلّا فإنّ أولیاء اللّه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۵۴ تعالی والصالحین من العباد الذین یتحرّکون فی سلوکهم الأخلاقی والاجتماعی تبعاً للأنبیاء والأولیاء فإنّهم یراعون حق هذه الأمانة ویسعون لأدائها والقیام بهذه المسؤولیة الکبیرة الملقاة علی عاتقهم، وفی الحقیقة إنّ هؤلاء یمثّلون الهدف الأسمی من وجود عالم الخلیقة ووجود الإنسان. ومن مجموع ما ورد من الآیات أعلاه یتّضح جیداً أهمیّة حفظ الأمانة (سواءً الأمانات الإلهیّة أو الإنسانیة) وجعله من علامات العقل والإیمان والعدالة.

الأمانة والخیانة فی الروایات الإسلامیة:

أمّا ما ورد من الأحاديث الشريفة عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فإنّه يحكى عن الأهميّة البالغة لهذه المسألة حيث وردت الأمانة تارة بعنوان أنّها من الاصول والمبادىء الأساسية المشتركة بين جميع الأديان السماوية، وتارة اخرى بعنوان أنّها علامة للإيمان، وثالثة بعنوان أنّها سبب نيل الرزق والثروة والثقة والاعتماد لدى الناس وسلامة الدين والدنيا والغنى وعدم الفقر وأمثال ذلك، وفيما يلى نختار من هذه الروايات الشريفة ما يتضمّن هذه المعانى والمفاهيم العميقة: ۱- ورد فى حديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال للإمام على عليه السلام: «يا أبا الحَسَنِ أَدِّ الأَمانَةَ لِلبِرِّ والفاجِرِ فِى ما قَلَّ وَجَلَّ حتّى فِى الخَيطِ وَالمَخِيطِ» «۱». ويقول الإمام على عليه السلام أنّ النبى قال لى ذلك فى الساعة الأخيرة من حياته وكررها علىّ ثلاث مرّات. ۲- وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا إيمانَ لِمَنْ لاأَمانَةَ لَهُ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق أنّه قال: «إنّ اللَّهَ عَزَّوَجلَّ لَم يَبعَثْ نَبِيّاً إلّابِصِدقِ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۵ الحِدِيثِ وَأداءِ الأَمانَةِ إلَىَ البِرِّ وَالفاجِرِ» «۱». وهذا التعبير يوضّح أنّ جميع الأديان السماوية قد جعلت الصدق والأمانة جزءً مهمّاً من تعليماتها الدينية والإنسانية ومن الاصول الثابتة فى الأديان الإلهية. ۴- ورد عن الإمام أيضاً على مستوى إمتحان إيمان الناس أنّه قال: «لا تَنظُروا إلى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ فَإنَّ ذَلِكَ شَىءٌ إعتادَهُ فَلَو تَرَكَهُ إستَوحَشَ لِذلِكَ وَلَكِنْ انظُرُوا الى صِدقِ حَدِيثِهِ وَأداءِ أَمانَتِهِ» «۲». ۵- ومثل هذا المعنى ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تعبير شديد حيث قال: «لا تَنظُروا إلى كَثْرَةِ صَلاتِهِم وَصَومِهِم وَكَثْرَةِ الحَجِّ وَالمَعرُوفِ وَطَنطَنَتِهِم بِالَّليلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إلى صِدقِ الحَدِيثِ وَأداءِ الأَمانَةِ» «۳». والهدف من هذا التعبير ليس هو أنّ هؤلاء لا يهتمّون بصلاتهم وصومهم أو يستخفّون بحجّتهم وإنفاقهم بل الهدف هو أنّ هذه الامور ليست هى العلامة الوحيدة لإيمان الفرد بل هناك ركنان أساسيان لدين الشخص أى الصدق والأمانة. ۶- وورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام فى هذا المجال تعبير عجيب حيث يقول لشيعته: «عَلَيكُم بِأَداءِ الأَمانَةِ فَوالَّذى بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله بِالحَقِّ نَبِيَّاً لَو أَنَّ قاتِلَ أَبِى الحُسَينِ ابنِ عَلَىٌّ عليه السلام ائتَمَننِى عَلَى السَّيفِ الَّذى قَتَلَه بِهِ لَأَدَّيتُهُ إِلَيهِ» «۴». ۷- ومثل هذا المعنى ولكن بتعبير آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إِنَّ ضارِبَ عَلِيٌّ بِالسَّيفِ وَقاتِلَهُ إذا إئتَمَننِى وَاستَنصَحَنِى وَاستِشارَنِى ثُمَّ قَبِلتُ ذَلِكَ مِنهُ لَأَدَّيتُ إِلَيهِ الأَمانَةَ» «۵». ۸- وفى حديث آخر عن الإمام أيضاً يستفاد أنّ الوصول إلى المقامات السامية حتّى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۶ للأئمّة المعصومين عليهم السلام مثل الإمام على عليه السلام يتم عِبر صدق الحديث وأداء الأمانة، حيث يقول الإمام الصادق لأحد أصحابه ويدعى (عبد اللّه بن أبى يعفور): «انظُر ما بَلَغَ بِهِ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله فَأَلزَمَهُ» ثم قال: «فَإِنَّ عَلِيّاً عليه السلام إنّما بَلَغَ ما بَلَغَ عِندَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله بِصدقِ الحَدِيثِ وَأداءِ الأَمانَةِ» «۱». ۹- ونقرأ فى حديث آخر بالنسبة إلى الآثار والنتائج الدنيوية المهمّة للأمانة والخيانة فقد ورد عن على عليه السلام أنّه قال: «الأَمانَةُ تَجُرُّ الرِّزقَ وَالخِيانَةُ تَجُرُّ الفَقرَ» «۲». ۱۰- وفى حديث مختصر وعظيم المعنى عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «رَأسُ الإسلامُ الأَمانَةُ» «۳» ۱۱- وورد شبيه لهذا الحديث مع اختلاف يسير عن لقمان الحكيم حيث أنّه قال: «يا بُنَىَّ أَدِّ الأَمانَةَ تَسلُمُ لَكَ الدُّنيا وَآخِرَتُكَ وَكُنْ أَميناً تَكُن غَنِيّاً» «۴». ۱۲- ونختم هذا البحث بحديث شريف آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا تَزَالُ امَتِى بِخَيرٍ ما تَحابُوا وَتَهادُّوا وَأَدُّوا الأَمانَةَ وَاجتَنَبُوا الحَرامَ وَوَقَّرُوا الضَّيفَ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ فَاذا لَم يَفعَلُوا ذَلِكَ إبتَلَوا بِالقَحطِ وَالسِّنِينَ» «۵». *** هذه الروايات ما هى إلّاموارد مختارة من المصادر الإسلامية الواردة فى باب الأمانة وتوضّح جيداً أن هذا المفهوم الأخلاقى على درجة عالية من الأهمية من بين التعليمات الإسلامية، وكذلك الصفة التى تقع فى مقابل الأمانة أى الخيانة ومدى اضرارها بدين الإنسان وشخصيته من موقع تخريب الإيمان وأنّها تورث الشقاء والبعد عن اللّه تعالى، وكل واحدة من هذه الروايات المذكورة آنفاً تشير إلى أحد الأبعاد والآثار البنّاءة للأمانة أو الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۷ الأبعاد والنتائج السلبية والمخربّة للخيانة، بحيث إنّ الإنسان عند مطالعتها والتأمل والتدبّر فيها يستوحى الكثير من المفاهيم الإسلامية والقيم الأخلاقية والاجتماعية المهمّة والبنّاءة فى حركة الحياة والمجتمع.

فروع الأمانة:

عندما نتحدّث عن الأمانة فإنّ أغلب الناس يتبادر إلى أذهانهم الأمانة فى الامور الماليةٔ، ولكن كما تقدّم فى تفسير الآيات الواردة عن الأئمّـة المعصومين عليهم السـلام أنّ الأمانـة لها مفهوم واسع جـدّاً بحيث تسـتوعب جميع المواهب الإلهيّة والنعم الربانيّة على الإنسان. هـذه النعم والمواهب الإلهيّـة المندرجـة فى مفهوم الأمانة تشـتمل على مصاديق لا تعد، فهى ترد بالنسبة إلى القرآن الكريم والإسـلام والإيمان والولايـة وحتّى إلى أقل النعم والمواهب الماديـة والمعنويـة. الأحاديث الشـريفة التى تؤكد على أنّ الأمانة تورث الغنى، وأنّ الخيانة تورثالفقر ناظرة إلى الأمانة المالية والمادية، ولكنّ الآية الشـريفة وبعض الروايات التى تشـير إلى عرض الأمانة على السـموات والأرض لا تقصـد الأمانـة الماديـة والماليـة قطعاً بل تمتد أبعد من ذلك وتنظر إلى الأمانات المعنوية. ونقرأ فى حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام عندما يحين وقت الصـلاة فإنّ حاله يتغيّر وعندما سئل عن ذلك قال: «جاءَ وَقتُ الصَّلاةِ، وَقتُ أَمانَةٍ عَرَضَـها اللّهُ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرضِ فأَبَينَ أنْ يَحمِلنَها وأَشفَقنَ مِنها» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعـالى خَلَقَ الأَرواحَ قَبلَ الأَجسادِ بِأَلفَى عام فَجَعَلَ أَعلاها وَأَشـرَفَها أَرواحَ مُحَمَّدٍ وَعَلىٍّ وَفاطِمَـةَ وَالحَسنِ والحُسَـينِ وَالأَئِمَـةُ بَعـدَهُم صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيهِم فَعَرَضَـها عَلى السَّمواتِ والأَرضِ وَالجِبالِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۸ إلى أن يقول: فولايَتُهُم أَمانَـةٌ عِندَ خَلقِى» «۱». ويسـتفاد من أحاديث اخرى أنّ مفهوم خلافـة رسول اللّه صـلى الله عليه و آله «۲» أيضاً مصـداق مهم من مصاديق الأمانة. وكذلك الصـلاة والزكاة والحج هى أمانات وودائع إلهيّة. «۳» وكـذلك الزوجة أيضاً أمانة إلهيّة «۴». ونقرأ فى نهج البلاغة فى كتاب أمير المؤمنين عليه السـلام إلى الأشـعث بن قيس، يقول له: «وإنَّ عَمَلَكَ لَيسَ لَكَ بِطُعمَـةٍ وَلَكِنَّهُ فِى عُنُقِكَ أَمانَةً» «۵». وكذلك نقرأ فى الحـديث النبوى الشـريف الـذى ذكرنـا فيمـا سبق أنّ «المَجـالِس بِالأَمانَـةِ»» ، لأنّ فى المجـالس الخصوصـية تـذكر أسـرار تخص المجلس. وحتى ورد فى بعض الروايات أنّ غسل الجنابة (بعنوان أنّه تكليف إلهى) هو أمانة إلهية لدى المسلم «۷». وعلى أى حال فإنّ الأمانـة والخيانـة لا تختصان بعمل معيّن ومصـداق خاص ومحدود، لأنّ النتائج المترتبة على هاتين الصـفتين لا تتحدد بالامانة والخيانة المالية.

معطيات الخيانة والأمانة:

إنّ أهمّ معطيات الأمانة على المسـتوى الاجتماعى هى مسألة الاعتماد وكسب ثقة الناس، ونعلم أنّ الحياة الاجتماعية مبتنيّة على أساس التعـاون والتكـاتف بين أفراد المجتمـع الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۵۹ لحـل المشاكـل والتخفيف من تحـدّيات الواقع والظروف القـاهرة والاسـتفادة الأفضـل من مواهب الحيـاة والطبيعـة، ولهـذا فـإنّ مسألـة الثقـة والاعتمـاد لها دور أساس فى تأصـيل هـذا المفهوم الاجتمـاعى لأنّه لولاـ وجـود الاعتمـاد المقابـل فـإنّ المجتمع سـيتحوّل إلى جهنّم لاـ يطـاق، ويتعامـل الأفـراد بينهم من موقع التوحّش والأنانيـة، ويسود قـانون الغـاب فى مثـل هـذا المجتمع، وبـدلًا من أن تتكـاتف القوى والطاقـات على مستوى بنـاء المجتمع والتصـدى لتحـدّيات الظروف القـاهرة فـإنّ هـذه القـوى سوف تتحرّك بالجهـة المقابلـة لتعميق التوحّش والتنفّر فى المجتمع. وبعبـارة اخرى: إنّ المجتمع البشـرى سـيفقد كـل شـىء بـدون وجود حالـة الاعتمـاد المتقابل بالرغم من توفّر كافـة الأمانات والمواهب الطبيعيـة الاخرى، وبعكس ذلـكإنّ المجتمع الـذى تتوفّر فيه حالـة الاعتمـاد المتقابـل سيحصل على كـل شـىء بالرغم من فقـدانه للإمكانات والموارد الطبيعيـة. وهذا الاعتماد الاجتماعى يرتكز على ركنين: ۱- الأمانة. ۲- الصـدق. وما ورد فى الروايات المـذكورة آنفاً أنّ الأمانة تورث الغنى وعـدم الحاجـة والخيانـة تورث الفقر فـإنّ ذلـك إنّما يشـير إلى هـذا الـدليل. وأمّا ما ورد فى الروايات الشـريفة أنّ جميع الأنبياء الإلهيين جعلوا من الأمانـة وصـدق الحديث محوراً لتعليماتهم فهو أيضاً ناظر إلى هذا المعنى. ويذكر الكلينى فى (الكافى) قصّة جميلة فى هـذا الصـدد ويقول: عن الحسـين بن محمـد، عن محمد بن أحمد النهدى، عن كثير بن يونس، عن عبدالرحمن بن سـيّابة قال: لما هلك أبى سيّابة، جاء رجل من إخوانه إلىَّ فضرب الباب علىَّ، فخرجت إليه فعزّانى، وقال لى: هل ترك أبوك شيئاً فقلت له: لا، فدفع

إليَّ كيساً فيه ألف درهم وقال لى: أحسن حفظها وكُلْ فضلها، فدخلت إلى امّى وأنا فرح، فأخبرتها، فلمّا كان بالعشيّ، أتيت صديقاً كان لأبى فاشترى لى بضائع سابرى، وجلت فى حانوت فرزق اللَّه جلّ وعزّ فيها خيراً كثيراً، وحضر الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٦٠ الحج، فوقع فى قلبى، فجئت إلى امّى وقلت لها: إنّه قد وقع فى قلبى أن أخرج إلى مكّة؟ فقالت لى: فردّ دارهم فلان عليه فهاتها، وجئت بها إليه فدفعتها إليه فكأنى وهبتها له، فقال: لعلّك استقللتها فأزيدك؟ قلت: لا، ولكن قد وقع فى قلبى الحج فأحببت أن يكون شيئك عندك، ثم خرجت فقضيت نسكى، ثمّ رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبى عبداللَّه عليه السلام- وكان يأذن إذناً عاماً- فجلست فى مواخير الناس وكنت حدثاً، فأخذ الناس يسألونه ويجيبهم، فلما خفّ الناس عنه، أشار إليَّ فدنوت إليه، فقال لى: ألك حاجة؟ فقلت: جُعلتُ فداك أنا عبدالرحمن بن سيّابة، فقال لى: ما فعل أبوك؟ قلت: هلك، قال: فتوجّع وترحّم، ثم قال: قال لى: أفترك شيئاً قلت: لا، قال: فمن أين حججت؟ قال: فابتدأت وحدثته بقصّة الرجل، قال فما تركنى أفرغ منها حتّى قال لى: فما فعلت فى الألف؟ قال: قلت: رددتها على صاحبها، قال: فقال لى: قد أحسنت، قال لى: ألا اوصيك؟ قلت: بلى جُعلت فداك. قال عليه السلام: «عَلَيكَ بِصدقِ الحَديثِ، وَأداءِ الأمانَةِ تُشرك النّاسَ فِى أموالِهِم هكذا- وجمع بين أصابعه-»، فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمائة ألف درهم «١». ونحن أيضاً رأينا فى حياتنا أشخاصاً مثل هؤلاء الأشخاص فقد كان هناك تاجر متدّين فى النجف الأشرف يعرفه الكثير من المعاصرين أيضاً وبسبب إشتهاره بالأمانة فإنّ الناس كانوا يودعون عنده أموالهم وودائعهم مطمئنون إلى حد أنّ الكثير من العلماء والفضلاء وطلّاب العلوم الدينية كانوا يسجّلون سندات بيوتهم بإسمه لأنّه كان يمتلك الجنسيةالعراقية ولعلّه كان عند وفاته قد بلغ عدد البيوت المسجّلة باسمه ما يربو على الخمسماة بيت لهؤلاء العلماء والطلّاب ولم يواجه أى واحد منهم مشكلة فى هذا المورد. ومن جهة اخرى عندما تسود الأمانة فى المجتمع وفى العائلة فإنّها ستكون سبباً لمزيد من الهدوء والسكينة الفكرية والروحية، لأنّ مجرّد احتمال الخيانة فإنّ ذلك يسبب القلق والخوف للأفراد بحيث يعيشون حالة من الإرتباك فى علاقاتهم مع الآخرين ومن الخطر الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٦١ المحتمل الذى ينتظر أموالهم أو أنفسهم أو أغراضهم أو مكانتهم الاجتماعية، ومن المعلوم أنّ الاستمرار فى مثل هذه الحياة المربكة والموحشة عسير جدّاً وقد يورثهم الكثير من الأمراض الجمسية والروحية أيضاً. ومن جهة ثالثة فإنّ الأمانة تقلل كثيراً من نفقات المعيشة ومصاريف الحياة وتسبب فى الاقتصاد فى الوقت والعمر والمال، لأنّ الخيانة إذا فتحت طريقها إلى المجتمع فانّ المسؤولين وأصحاب المواقع الاجتماعية يضطرون إلى تخصيص نفقات باهظة لإيجاد سجّلات خاصة ومحاسبين ومفتشين لدرء احتمال الخيانة فى حساباتهم، وأحياناً يضطرون إلى إيجاد مفتشين على المفتشين الأوائل لضبط أعمالهم ويشرفوا على حساباتهم، ومع ذلك فانّ مثل هذه الامور لا تستطيع أن تحلّ المشاكل الناشئة من الخيانة تماماً، ولكن على أى حال يقتضى الواقع المفروض تخصيص هذه النفقات للتصدّى إلى هذه المشكلة، ونشاهد فى مجتمعنا الحالى أيضاً مثل هذه الامور الأليمة بالنسبة إلى الامور المالية وعدم الأمن الاقتصادى وكثرة من يلقى فى السجن بسبب زوال الثقة وعدم الاعتماد المتقابل بين الناس، ولو أنّ أفراد المجتمع تحلّوا بقليل من الصدق والأمانة بدلًا من هذه النفقات والمصروفات والجهود المهدورة، فاننا سوف لا نبتلى بمثل هذا الاسراف الفضيع وإتلاف الثروات الاجتماعية الكبيرة. ومن جهة رابعة فإنّ الأمانة قد تسبب فى كسب المحبّة وتعميق أواصر الصداقة بين الأفراد، فى حين أنّ الخيانة تعتبر عاملًا للكثير من الجرائم والحوادث السلبية وأشكال الخلل الاجتماعى، وإذا طالعنا وثائق المحاكم والسجون لرأينا أنّ الكثير من هذه الجرائم معلولة لحالة الخيانة، وعندما ندرس ظاهرة كثرة الطلاق وحالة إنحلال الأُسر وتلاشى العوائل نرى أنّ الكثير من هذه الحالات يعود إلى خيانة أحد الزوجين بالنسبة للآخر. وفى بعض الروايات إشارة لطيفة إلى هذا المعنى حيث يقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا تَزالُ امَتِى بِخَيرٍ ما تَحابُوا وَتَهادُّوا وَأَدُّوا الأَمانَةَ وَاجتَنبُوا الحَرامَ وَوَقَّرُوا الضَّيفَ وَأَقامُوا الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٦٢ الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ فَاذا لَم يَفعَلُوا ذَلِكَ إبتَلَوا بِالقَحطِ وَالسِّنِينَ» «١». ومن جهة خامسة فإنّ مفهوم الأمانة يمتد ويتسع ليشمل الموارد والمسائل العلمية، فإنّ تطور العلوم والمعارف البشرية كان بسبب وجود العلماء الذين كانوا يتحرّكون من موقع الأمانة والصدق فى تحقيقاتهم ومطالعاتهم وتجاربهم العلمية فكانوا يقدّمون للآخرين ما اكتسبوه من

تجارب ثمينة وعلوم جديدة بأمانة وصدق، وهذا هو الذى أدّى إلى التطور الحضارى والعلمى فى عالمنا المعاصر فى حين أنّه لو لم يكن أصل الأمانة فى المطالعات العلمية فإنّ ذلك قد يفضى إلى التيه العلمى ويتسبب فى اضلال الناس ووقوعهم فى التخبط الثقافى والعلمى. ونقرأ فى هذا الصدد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «كُلُّ ذى صِناعَهٍ مُضطَرٌّ إلى ثَلاثِ خِلالٍ يَجتَلِبُ بِها المَكسَبَ وَهُوَ أنْ يَكُونَ حاذِقاً بِعَمَلِهِ مُؤَدِّياً لِلأَمانَةِ فيهِ، مُستَمِيلًا لَمَنْ إستَعمَلَهُ» «۲». والجدير بالذكر أنّ الأمانة تدعو الإنسان إلى صدق الحديث أيضاً كما أنّ صدق الحديث يدعو الإنسان إلى الأمانة فى الجهة المقابلة، لأنّ صدق الحديث نوع من الأمانة فى القول، والأمانة نوع من الصدق فى العمل، وعلى هذا الأساس فإنّ هاتين الصفتين يرتبطان بجذر مشترك ويعبّران عن وجهين لعملةٍ واحدة، ولذلك ورد فى الأحاديث الإسلامية عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الأمانَةُ تُؤدِّى إلى الصِّدقِ» «۳». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «إذا قَوِيَتْ الأَمانَةُ كَثُرَ الصّدقُ» «۴».

دوافع الأمانة والخيانة:

إنّ أغلب الأشخاص الذين يتحرّكون فى سلوكياتهم من موقع الخيانة ويفضّلونها على الأمانة فأنّهم يعيشون ضيق الافق فى منافعهم ومصالحهم ويفكّرون فى المنافع العاجلة فحسب، لأنّ الخيانة تؤفّر لهم فى الكثير من الموارد هذه المنافع العاجلة وتحقق لهم بعض المصالح الفردية على حساب اهتزاز كرامتهم المعنوية ومن دون أن يتفكّروا فى العواقب الوخيمة لهذا السلوك فى المستقبل على المستوى الدنيوى والاخروى ومكانتهم الاجتماعية. هؤلاء الأفراد يعيشون فى سجن الحرص والطمع فلذلك قليلًا ما يفكّرون فى عواقب الخيانة، لأنّ المنافع العاجلة حجبت أعينهم وعقولهم عن مشاهدة ما يترتب على ذلك من سلبيات كثيرة فى المستقبل. هؤلاء وبسبب ضعف الإيمان وعدم الالتفات إلى القدرة الإلهيّة المطلقة التى تكفّلت برزق الناس جميعاً ووعدت من يعيش الأمانة والصدق منهم بالثواب العاجل والآجل فإنّهم قد حجبوا بصيرتهم عن ذلك جميعاً وتحرّكوا من موقع التغافل عن الوجدان وعن تحذيرات الشرع وتورّطوا فى شراك الخيانة وفخاخ الشيطان. وعلى هذا الأساس يمكننا فى هذا الصدد ذكر دوافع الخيانة فيما يلى: ۱- ضعف الإيمان وإهتزاز العقيدة وعدم التوجّه إلى حالة التوحيد الأفعالى للّه‌تعالى وحاكميته المطلقة على جميع الأشياء. ۲- غلبة الأهواء والشهوات وحبّ الدنيا. ۳- تسلّط حالة الحرص والطمع على الإنسان. ۴- عدم التفكّر فى نتائج الخيانة فى حركة الحياة المادية والمعنوية. ۵- ترك السعى المستمر والعمل الدؤوب لتحصيل المقاصد الدنيوية بطرق مشروعة وذلك بسبب التكاسل وحبّ الراحة وضعف الإرادة. وعند الإلتفات إلى هذه الامور تتّضح النقطة المقابلة لها، وهى دوافع الأمانة وذلك: إنّ الأمانة تنبع من الإيمان واليقين بقدرة اللَّه تعالى وعلمه المطلق والاعتماد عليه فى جميع الامور. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۴ الأمانة تعدّ من معطيات العقل والتدبّر السليم والإلتفات إلى عواقب الامور ونتائج الأفعال. الأمانة هى دليل على أنّ الإنسان يعيش الواقع الحاضر ويرى حقائق الامور ويترك الخوض فى الأوهام والخرافات والتصورات الزائفة. الأمانة تنبع من شخصية الإنسان السامية وتمثّل نتيجة لحالة التفانى والتعالى فى الروح الإنسانية، لأنّ مثل هذا الإنسان لا يكون مستعداً لئن يبيع شخصيته ووجدانه لتحصيل المال والمقام وزخارف الدنيا عن طريق الخيانة. وبكلمة واحدة فإنّ الأمانة وليدة الفهم والشعور والعقل والإيمان والاخلاص وأصالة الشخصية، وأحياناً يكون الفقر والظلم عاملان من عوامل الخيانة، فمن لا يحصل على حقوقه المشروعة فى المجتمع من الطرق الصحيحة ويقع تحت طائلة الفقر والعوز فإنّه قد يؤدّى به إلى التلّوث بالخيانة، ولهذا نرى أن التعاليم الدينية أكّدت على أن يموّل القاضى من بيت المال بشكل تام كيما يحفظ أمانته فى القضاء بين الناس، ونقرأ فى عهد الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر أنّه يقول: «وَافسَحْ لَهُ فِى البَذلِ ما يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حاجَتُهُ إلَى النَّاسِ، وَأَعطِهِ مِنَ المَنزِلَةِ لَديكَ ما لايَطمَعُ فِيهِ غَيرُهُ مِنْ خاصَّتِكَ لِيَأمَنَ بِذَلِكَ إغتِيالَ الرِّجالَ لَهُ عِندَكَ فَانظُر فِى ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً» «۱». ونختم هذا البحث بحديث مهم عن الإمام الصادق عليه السلام فى هذا الصدد يشير فيه إلى مصادر الخيانة المتنوعة ويوصى بالتوجّه إليها لحفظ الأمانة فى واقع الإنسان والمجتمع فيقول: «مَنْ اؤتُمِنَ عَلى أَمانَةٍ فَأَدّاها فَقَد حَلَّ أَلفَ عُقدَةٍ

مِنْ عُقَدِ النّارِ، فَبادِرُوا بِأَداءِ الأَمانَـةِ، فَإنَّ مَنْ اؤتِمِنَ عَلى أَمانَةٍ وَكَّلَ بِهِ إبليسَ مِائَةَ شَـيطانٍ مِنْ مَرَدَةِ أَعوانِهِ لِيُضِـلَّوهُ وَيُوسوِسُوا إِلَيهِ حتّى يُهلِكُوه إلّامَنْ عَصَمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ» «۲».

طرق الوقاية والعلاج:

إنّ تعميق روح الأمانة فى أفراد المجتمع والوقاية من الخيانة لا يتسـنى إلّافى ظل التقوى والإيمان والالتزام الدينى والأخلاقى، لأنّه كما تقدّم فى الأبحاث السابقة أنّ أحد جذور الخيانة هو الشرك وعدم الاعتقاد الكامل بقدرة اللَّه تعالى ورازقيته، ولهذا فالأشخاص الذين يعيشـون ضـعف الإيمـان ويتصـوّرون أنّهم سوف يعيشون الفقر فى حالـة تحلّيهم بالأمانـة والصـدق وأنّهم سوف لاـ يحصـلون على ما يحتاجونه إلّابواسـطة الخيانـة يكبلون أنفسـهم بطوق الخيانـة، ولكن عنـدما يتحرّكون من موقع تقوية دعائم الإيمان فى قلوبهم وتعميق حالة التوكّل والاعتماد على اللَّه تعالى والثقة بوعده، فانّ ذلك يتسبب فى تصحيح مسارهم فى عملية الوصول وتحصيل مواهب الحياة. ومن جهـة اخرى فبما أنّ أحـد العوامل المهمـة للخيانـة هى الحاجة فاذن لابدّ للإنسان من تدبير حاجاته وحاجات من يلوذ به المعقولة والمشـروعة بصورة حسنة لئلّا يضطرّ إلى كسر قيود الأمانة والتلّوث بالخيانة بدافع من حاجاته المادية والنفسانية. ومن جهة ثالثة فانّ من الأسـباب والعوامل المهمّة فى الوقاية من التورط بالخيانة هو التفكّر فى عواقبها الوخيمة فى الدنيا والآخرة وما يترتب عليها من فضـيحة وحرمان وزوال الثقـة وماء الوجه أمام الخلق والخالق وبالتالى الابتلاء بالفقر المزمن الـذى سـعى إلى الفرار منه بارتكاب الخيانـة، ومن المعلوم أنّ التأمل فى هـذه النتائـج والافرازات السـلبية لسـلوك طريق الخيانة سوف يضـعف الدافع فى الإنسان لارتكابها. عندما يتأمل الشخص نصيحة لقمان لابنه على مستوى بيان معطيات الأمانة حيث يقول: «يا بُنَيَّ أَدِّ الأَمانَةَ تَسلُمُ لَكَ الدُّنيا وَآخِرَتُكَ وَكُنْ أَمِيناً تَكُن غَنِيّاً» «۱». فعندها يعيش الشوق فى وجوده نحو تحصـيل هذه الفضيلة الأخلاقية أى الأمانة ويجتنب التحرّك فى خط الخيانة، ولو تأملنا كـذلك كلام أمير المؤمنين عليه السـلام حيث يقول: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۶ «رَأسُ الكُفرِ الخِيانَةُ» «۱». ويقول فى مكان آخر: «رَأسُ النِّفاقِ الخِيانَةُ» «۲». ويقول أيضاً فى حديث آخر: «جانِبِ الخِيانَةَ فَإنَّها مُجانِبَةٌ الإسـلام» «۳» فعندها يسيطر عليه الخوف من الخيانة ويدرك عظمة هذا الذنب الكبير الذى يساوق فى إثمه وابتعاده عن اللَّه تعالى والإسـلام الكفر والنفاق، وحينئذٍ سيتحرّك بعيداً عن ممارسـة الخيانـة أوالتفكير بها. وإذا أردنا أن نتعمّق فى خطر الخيانـة وشؤمها فلنسـتمع إلى الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله فى حـديثه المثير عن بعض عناصـر الشـر وعوامل الانحراف حيث يقول: «أَربَعٌ لاتَـدخُلِ بَيتاً واحُدَةٍ مِنهُنَّ إلّاخَرَبَ وَلَم يَعمُرْ بِالبَرَكَةِ الخِيانَةِ والسَّرِقَةُ وَشُـربُ الخَمرِ والزِّنا» «۴». ومن المعلوم أنّ المجتمع الـذى يعيش أحـد هـذه العناصـر الأربعـة أو كلّها فانّه يكون مصداقاً لهذا الحكم النبوى وسوف يخلو من البركـة وبالتـالى يصـيبه الـدمار والانـدثار. ومن الملفت للنظر أنّه كمـا أنّ الشـخص الأمين يجب أن لا يخون الأمانـة، فكـذلك المودع للأمانـة وصـاحب المال يجب أن يكون ذكيّاً ولا يودع أمانته عنـد أى شـخص كان، فإذا وضع أمانته تحت تصـرّف شـخص سيء السمعة ثمّ خانه هذا الشخص فعليه أن يلوم نفسه كما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم أنّه قال: «من أئتمن غير أمين فليس له على اللَّه ضمان لأنّه قد نهاه أن يأتمنه». ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «من إتمن غير مؤتمن فلا حجه له على اللَّه». وعلى هـذا الأسـاس يجب على جميع الإـداريين وأصـحاب المسؤوليّات فى المجتمع الإسـلامى أن يكونوا على درجـة من الذكاء والحنكة ولا يضعوا امور الناس والمناصب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۷ الحسّاسة فى الحكومة والتى هى أهم أمانة إلهيّة بيدهم عند الأشخاص الذين يشم منهم رائحة الخيانة، فإنّه عند ذلك سوف يفسد دينهم ودنياهم ويكونون مسؤولين أمام اللَّه تعالى.

الأمانة والخيانة فى بيت المال:

إنّ الأمانـة خلـق محمـود ومطلـوب فى أى مكـان ومـورد، ولكن بالنسـبة إلى بيت المـال ورؤوس الأـموال الماديـة والمعنويـة المتعلّقة بالمجتمع لا بشـخص معيّن فقد ورد التأكيد على الأمانة فيها بشـكل خاص فى النصوص الدينية، والحكمة فى ذلك واضـحة لأنّه أولًا:

أنّ البعض يتصوّر أنّ مثل هذه الأموال بما أنّها لا تقع فى دائرة الممتلكات لشخص معيّن بل هى ملك عموم الناس فإنّهم أحرار فى تصرفاتهم وتعاملهم بها. وثانياً: إذا تفشّت الخيانة بالنسبة إلى الأموال العامة وبيت المال فإنّ نظم المجتمع سوف يتلاشى وينهار، فلا يرى مثل هذا المجتمع البشرى وجه السعادة أبداً. ومن أجل درك أهميّة هذا الموضوع يكفى مطالعة قصّة (الحديدة المحماة) حيث ورد أنّ عقيل رضى الله عنه جاء إلى أخيه على بن أبى طالب عليه السلام وطلب منه أن يزيده قليلًا من حصّيته وسهمه من بيت المال دون مراعاة ضوابط العدالة والمساواة بين المسلمين على أساس العلاقة الاخويّة بينه وبين الإمام على عليه السلام، فما كان من الإمام على عليه السلام إلّاأن أحمى له حديدة وقرّبها منه، صرخ عقيل من حرارتها فقال له الإمام عليه السلام: «يا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحماها إِنسانَها لِلَعبِهِ وَتَجرُّنِى إِلى نارٍ سَجَرَها جَبارُها لِغَضَبِهِ، أَتَئِنُّ مِنْ الأَذى وَلا أَئِنُّ مِنْ لَظى «۱». وقال أمير المؤمنين عليه السلام فى مكان آخر كلاماً مثيراً بالنسبة إلى عطايا عثمان من بيت المال إلى أقربائه وذويه حيث عزم الإمام على عليه السلام على ردّها جميعاً إلى بيت المال وقال: «وَاللَّهِ لَو وَجَدتهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ ومُلِكَ بِهِ الإماءُ لَرَدَدتُهُ، فَإنَّ فِى العَدلِ سَعَةً، وَمَنْ ضاقَ عَلَيهِ العَدلُ فَالجَورُ عليه أَضيَقُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۸ وعندما اقترح عليه استخدام الأشخاص المعروفين فى تدبير أمر الحكومة وزيادة رواتبهم وعطاياهم من بيت المال لغرض الإستعانة بهم فى امور الدولة والحكومة (ولا أقل فى بداية خلافته) فقال: «أَتَأْمُرُنِى أنْ أَطلُبَ النَّصرَ بِالجَورِ فِيمَن وُلِّيتُ عَلَيهِم وَاللَّهِ لاأَطُورُ بِهِ ما سَمَرَ سَمِيرٌ وَما أَمَ نَجمٌ فِى السَّماءِ نَجمَاً، وَلَو كانَ المَالُ لِى لَسَوَيَّتُ بَينَهُم فَكَيفَ وَإِنَّما المَالُ مالُ اللَّهِ» «۱». بل إنّ الإمام على عليه السلام تحرّك لحفظ الأمانة فى بيت المال من موقع التهديد الشديد لأقرب المقرّبينَ إليه حتّى يتّعظ بذلك الأبعد من الناس ويعلم أنّ المسألة هنا جدّية فلا مهادنة فى بيت المال، ولذلك نقرأ فى الكتاب الذى أرسله أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض امرائه فى البلد الإسلامى الذى أساء الاستفادة من بيت المال وأنفقه فى موارد اخرى، فكتب له الإمام يقول: «فَاتَّقِ اللَّهَ وارْدُد إلى هَؤلاءِ القَومِ أَموالَهُم فَإنَّكَ إنْ لَم تَفعَل ثُمَّ أَمكَنَنِى اللَّهُ مِنكَ لَأعذِرنَّ إِلى اللَّهِ فِيكَ وَلَأضرِبَنَّكَ بِسَيفِى الَّذِى ما ضَربَتُ بِهِ أَحَداً إِلّا دَخَلَ النَّارَ، وَوَاللَّهِ لَو أَنَّ الحَسَنَ والحُسَينَ فَعَلا مِثلَ الَّذِى فَعَلتَ ما كَانَتْ لَهُما عِندِى هَوادَةٌ، ولا ظَفِرَا مِنِّى بِأرَادَةٍ حَتّى آخُذَ الحَقُّ مِنهُما» «۲». ونعلم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما فتح مكّة قد عفى عن قريش وجميع المجرمين والجناة من قريش وغير قريش الذين حاربوه قرابة عشرين سنة وسفكوا دماء الكثير من المسلمين ورغم ذلك فقد أصدر النبى أمره بالعفو عنهم وإسدال الستار على ما مضى من جرائمهم وعداوتهم، ولكن مع ذلك فقد استثنى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عدّة أشخاص من هذا العفو وأهدر دمهم وأمر بقتلهم فى أى مكان كانوا، وأحد هؤلاء هو (ابن خطل) وكان ذنبه أنّه اعتنق الإسلام فى الظاهر وهاجر إلى المدينة، فجعله النبى صلى الله عليه و آله على الزكاة وجمعها وأرسل معه شخصاً من قبيلة خزاعة، فعندما ذهب لجمع الزكاة واجتمع لديه مقدار مهم من الزكاة قتل صاحبه وهرب بالأموال إلى مكّة، وعندما سأله المشركون فى مكة عن سبب رجوعه قال: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۶۹ «لم أجد ديناً أفضل من دينكم»، وأخذ يهجو النبى بقصائد من الشعر وكانت لديه بعض الجوارى المغنيّات والراقصات، فكان يجلس مجالس الطرب واللّهو ويشترك معه مجموعة من المشركين فيشربون الخمر ويهجون النبى بهذه الأشعار، وبما أنّه بلغ من الوقاحة والخيانة فى بيت المال إلى هذه الدرجة العظمية حتّى أنّ هذه الخيانة تسببت فى إرتداده عن الإسلام وهتكه لحرمة النبى الأكرم، فلذلك أصدر النبى أمره هذا، فلّما سمع بذلك التجأ إلى الكعبة، وبما أنّ من يلوذ بالكعبة سوف يصان دمه، فلذلك سحبوه إلى خارج الحرم وقتلوه «۱». فهذه التصريحات الشديدة والأحاديث المثيرة تشير إلى أنّ الخيانة فى بيت مال المسلمين ورغم أنّ البعض يتصوّر أنّها سهلة ويسيرة فإنّها من أعظم الذنوب والخطايا، وعقوبتها من أشدّ أنواع العقوبات الدنيوية والاخروية. ونختم هذا البحث بالإشارة إلى حادثة وقعت فى زمان رسول اللَّه حيث تبيّن الأهميّة الكبيرة لبيت المال، والحادثة هى أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عندما عاد من خيبر ووصل إلى وادى القرى كان معه غلام أهداه له رفاعة بن زيد الجذامى قال: فواللَّه إنّه ليضع رحل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا أتاه سهم غرب فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئاً له الجنّة، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كَلّا والذى نفس محمد بيده إنّ شَملتّهُ الآن لتحترق عليه فى النار كان غلها من فىء المسلمين يوم

خیبر». قال: فسمعها رجل من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فأتاه فقال: یا رسول اللَّه أصبت شراکین لنعلین لی، قال: فقال علیه السلام: «یُقد لک مثلهما من النار» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۷۰

الصدق

تنویه:

إنّ هذه الصفة هی أحد العلائم المهمّة فی عناصر الشخصیة لکل إنسان، وعندما یجتمع الصدق مع الأمانة تشکل من ذلک أساس الشخصیة الإنسانیة السویّة والکاملة بحیث لا یمکن اطلاق اسم الإنسان الحقیقی عند من یخلو من هاتین الصفتین الأخلاقیتین. وهاتان الصفتان لهما جذر وأصل مشترک، لأنّ الصدق لیس شیئاً سوی الأمانة فی القول، والأمانة لیست شیئاً سوی الصدق فی العمل، ولهذا السبب فقد وردت فی الروایات الإسلامیة وکلمات المعصومین علیهم السلام هاتان الصفتان أی (صدق الحدیث وأداء الأمانة) سویة. وإلی جانب هذه الصفة نری وجود صفات ممتازة اخری فی منظومة القیم الأخلاقیة لدی الإنسان والتی هی فی الواقع من قبیل اللازم والملزوم، لأنّ الصادقین هم عادة یتحلّون بالشجاعة، صراحة اللهجة، قلّة الطمع، الأخلاص، الابتعاد عن الافراط فی الحب والبغض والتعصب، فی حین أنّ من یعیش الکذب فی سلوکه وأقواله فهو یتحلّی عادة بصفة الخوف، الریاء، التعصّب واللجاجة، الطمع، والافراط فی الحب والبغض. الإنسان یعیش الانضباط فی حیاته باصول أخلاقیة ویتحرّک من موقع المسؤولیة مع الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۷۲ الآخرین فی حین أنّ الشخص الکاذب منافق عادة ویعیش الحالة الانتهازیة فی تعامله مع الناس. وبکلمة واحدة یمکن القول: إنّ الصدق والأمانة مفتاحان للکشف عن باطن الأشخاص فی أبعاد مختلفة، ولذلک کما سوف یأتی فی البحث الروائی فی کلمات المعصومین أنّ هاتین الصفتین یمثلان الأداة البلیغة لأختبار الأشخاص، فلو أردت معرفة حسن الشخص أو سوئه فعلیک بأمتحانه واختباره بالصدق وأداء الأمانة. وبهذه الإشارة نعود إلی الآیات القرآنیة والروایات الإسلامیة الشریفة التی تتحدّث فی أجواء الصدق والدوافع والنتائج المترتبة علی هذه الصفة الأخلاقیة وبعض النقاط المتعلّقة بهما ثمّ نستعرض بعض ما یتعلق بصفة الکذب وآثاره السلبیة فی حرکة الإنسان والمجتمع. وقد وردت آیات کثیرة فی القرآن الکریم تتحدّث عن أهمیّة الصدق منها: ۱- «قَالَ اللَّهُ هَذَا یَوْمُ یَنفَعُ الصَّادِقِینَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا أَبَداً رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ» «۱». ۲- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَکُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ» «۲». ۳- «لِیَجْزِیَ اللَّهُ الصَّادِقِینَ بِصِدْقِهِمْ وَیُعَذِّبَ الْمُنَافِقِینَ إِنْ شَاءَ أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ کَانَ غَفُوراً رَحِیماً» «۳». ۴- «إِنَّ الْمُسْلِمِینَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِینَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِینَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِینَ وَالصَّادِقَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِیماً» «۴». ۵- «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَکَانَ خَیْراً لَهُمْ» «۵». ۶- «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ صَدَقُوا وَلَیَعْلَمَنَّ الْکَاذِبِینَ» «۶».

تفسیر واستنتاج:

إنّ العبارات الواردة فی الآیات الکریمة التی تتحدّث عن أهمیّة الصدق لا نجد مثیلًا لها فی دائرة المفاهیم القرآنیة الکریمة، ومن جملة التعابیر الشدیدة الواردة فی هذه الصفة الأخلاقیة هو ما ورد فی «الآیة الاولی» من الآیات محل البحث والتی جاءت بعد بیان مفصّل عن ظاهرة انحراف النصاری عن دائرة التوحید وسؤال اللَّه تعالی المسیح یوم القیامة عن سبب هذا الانحراف وتبرئة المسیح لنفسه عن هذه التهمة وحینئذٍ تقول الآیة: «قَالَ اللَّهُ هَذَا یَوْمُ یَنفَعُ الصَّادِقِینَ صِدْقُهُمْ» وهذه إشارة إلی أنّ اتصافهم بالصدق فی الحیاة الدنیا سوف ینفعهم فی حیاتهم الاخرویة یوم القیامة ویکون سبباً لنجاتهم من النار (لا أنّ صدقهم یوم القیامة سیکون سبباً لنجاتهم فی ذلک الیوم لأنّه لا تکلیف یوم القیامة). ثمّ تستمر الآیة الشریفة فی استعراض ما یترتب من النتائج الایجابیة والثواب العظیم علی هؤلاء الصادقین

وتقول: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». فمن جهة سوف ينالون الجنّة ويتمتعون بعظيم نعيمها ومواهبها الخالدة، ومن جانب آخر ينالون رضا اللَّه تعالى عنهم، والتعبير بالفوز العظيم فى الآية يدلّ بوضوح على عظمة مقام الصادقين، ولعلّه لهذا السبب فإنّه بالإمكان جمع كافة أعمال الخير والصلاح وإدخالها فى دائرة الصدق، أو بتعبير آخر أنّ الصدق هو مفتاح لكافّة أعمال الخير والصلاح. ومن البديهى أنّ اللَّه تعالى إذا رضى عن عبد فإنّه سوف يعطيه ما يريد، وطبيعى أنّ الإنسان إذا أعطى كل ما يريد فإنّه سيعيش حالة السعادة المطلقة وعليه فإنّ رضى اللَّه تعالى سيتسبب فى رضا العبد، وهذا الرضا المتقابل يعدّ نعمة عظيمة لا تصل إليها أى نعمة اخرى، وهى موهبة إلهية للصادقين من الناس. وعبارة (رضى اللَّه عنهم ورضوا عنه) وردت فى القرآن الكريم فى أربع موارد والتوفيق فيها يبيّن عظمة هذا المفهوم السامى، ففى أحد الموارد يتحدّث القرآن الكريم عن الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٧۴ المهاجرين والأنصار والتابعين، وفى مكان آخر يتحدّث عن حزب اللَّه تعالى، وفى مورد ثالث يتحدّث عن (خير البرية)، وفى هذه الآية محل البحث يتحدّث عن الصادقين، وهذا يدلّ على أنّ الصادقين هم حزب اللَّه تعالى وخير البرية، ومن المهاجرين والانصار والتابعين. «الآية الثانية» تخاطب جميع المؤمنين من موقع الأمر بتقوى اللَّه تعالى الذى يقترن مع الصدق وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». ونظراً إلى أنّ مثل هذه الخطابات القرآنية وكما ورد فى الاصطلاح أنّها خطابات المشافهة فإنّها تستوعب فى دائرتها ومصاديقها جميع المؤمنين فى كل زمان ومكان، ومن الواضح أنّ الكون مع الصادقين وظيفة وواجب على الجميع فى أى مكان وزمان، وهذا يدلّ على أنّ الإنسان إذا أراد التحرّك فى خط التقوى والإيمان والاستقامة فعليه أن يعيش مع الصادقين ويلتزم بهم. أمّا المقصود من الصادقين فى هذه الآية ما هو؟ فهناك تفاسير متعددة لذلك، فالبعض ذكر أنّ المقصود هو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأصحابه، وذهب البعض الآخر إلى أنّ مراد الآية من الصادقين هم الأشخاص الذين يتمتعون بصدق النيّة والصلاح فى العقائد والأعمال، وأورد آخرون تفاسير اخرى لهذه العبارة. ولكن عند الرجوع لسائر الآيات القرآنية نجد أنّ القرآن نفسه يفسّر المراد من هذه الآية حيث يقول فى سورة الحجرات: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ» «١» وهكذا نرى أنّ هذه الآية قد ذكرت للصادقين صفات سامية كالإيمان الذى لا يشوبه أى شك وريب والجهاد فى سبيل اللَّه بالمال والنفس وأمثال ذلك. وقد ذكرت الآية ٨ من سورة الحشر أحد المصاديق البارزة للصادقين وهم المهاجرون الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٧۵ الذين تركوا أموالهم وبيوتهم وهاجروا فى سبيل اللَّه وكانوا ينصرون دين اللَّه ونبيّه الكريم دائماً. ونقرأ فى الآية ١١٧ من سورة البقرة صفات مهمّة اخرى لهؤلاء الصادقين من قبيل الإيمان باللَّه تعالى ويوم القيامة والكتب السماوية والأنبياء وإنفاق الأموال فى سبيل اللَّه وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر على المشكلات والصعوبات التى يواجهها المؤمن فى حالات الجهاد. ومن مجموع هذه الصفات الكريمة يتبيّن جيداً أنّ الصادقين ليس هم الصادقين فى الكلام فقط، بل الصدق فى الإيمان والعمل من خلال التقوى والتضحية وطاعة اللَّه تعالى والتحرّك فى خط الإيمان، رغم أنّ هذا المفهوم يمتد ليستوعب دائرة واسعة من المفاهيم الأخلاقية لكن النموذج الأكمل والأتم لذلك هم المعصومون عليهم السلام ولذلك ورد فى الروايات الشريفة من طرق الشيعة وأهل السنة فى تفسير هذه الآية أن المقصود بها على بن أبى طالب عليه السلام وأصحابه، وكذلك ورد أنّ المقصود على بن أبى طالب وأهل بيته عليهم السلام. وقد أورد العلّامة (الثعلبى) فى تفسيره عن ابن عباس أنّه قال: «مَعَ الصّادِقِينَ يَعنِى مَعَ عَلى بن أَبِى طالب وَأَصحابِهِ» «١». وقد ذكرت جماعة اخرى من علماء أهل السنة مثل العلّامة الگنجى فى كفاية الطالب وسبط ابن الجوزى فى التذكرة نفس هذا المعنى والمضمون مع تفاوت أنّه بدل كلمة الأصحاب وأورد ذكر أهل البيت عليهم السلام حيث يقول فى ذيل هذه الرواية: «قَالَ ابنُ عَباس: عَلِىٌّ سَيِّدُ الصَّادِقِينَ» «٢». وجاء فى الرواية الشريفة عن جابر بن عبداللَّه الأنصارى رضى الله عنه عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير الآية أنّه قال: «أى آلُ مُحَّمد» «٣». وقد استوحى الكثير من المفسّرين من اطلاق هذه الآية أنّ هذا الأمر يشمل جميع الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ١٧۶ المسلمين فى كل زمان ومكان، وبما أنّ الصادق المطلق هو الإمام المعصوم فالآية تدلّ على أنّه يجب وجود إمام معصوم فى كل زمان (والتعبير

بصيغة الجمع «الصادقين» لغرض أنّ المخاطب هو كافة الناس فى كل زمان). والنتيجة المستوحاة من هذه الآية هى أننا جميعاً مطالبون فى أن نكون دائماً مع الصادقين، وهم الذين وردت أوصافهم فى الآيات أعلاه والمصداق الأكمل لهم هم المعصومون عليهم السلام. «الآية الثالثة» تتحدّث عن الثواب الذى ينتظر الصادقين يوم القيامة وقد جعلتهم الآية فى مقابل المنافقين، وبعد أن بيّنت حال المؤمنين الصادقين والذين استشهدوا فى سبيل اللَّه وكذلك من ينتظر الشهادة منهم فتقول: «لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً». وبهذا يتبيّن الثواب العظيم على المستوى المادى والمعنوى الذى ينتظر الصادقين فى الجنّة، وهم الصادقون فى القول والعمل والعقيدة، وأمّا من خرج من دائرة الصدق وسلك فى خط الباطل والكذب فإنّه يسقط فى وادى النفاق والضلال. «الآية الرابعة» من الآيات محل البحث تشير إلى عشرة طوائف مبشّرة إيّاهم بالمغفرة والثواب الجزيل، والطائفة الرابعة منهم هم الصادقون والصادقات، وهذا يعنى أنّ الإنسان بعد إعتناق الإسلام والإيمان والطاعة للَّه‏تعالى فلا فضيلة بعدها أعلى من الصدق فى السلوك العملى حيث تبيّن هذه الآية إلى أية درجة يرتقى الصدق بالإنسان سواء الرجل أو المرأة، وقد ورد فى الحديث النبوى المعروف: «لا يَستَقِيمُ إيمانُ عَبدٍ حَتّى يَستَقِيمَ قَلبُهُ وَلا يَستَقِيمُ قَلبُهُ حَتّى يَستَقِيمَ لِسانُهُ» «۱». ويستفاد من هذا الحديث أنّه حتى الإيمان الكامل لا يحصل للإنسان إلّابعد الصدق الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۷ وإصلاح اللسان والقول، وأمّا الأشخاص الذين يعيشون الكذب فى كلامهم فهم الفارغون من الإيمان الكامل. «الآية الخامسة» وبعد الإشارة إلى الحالة السلبية للمنافقين وتذبذبهم وتناقضهم فى القول والعمل وخوفهم العظيم من الجهاد فى سبيل اللَّه تعالى الذى هو فى الحقيقة أصل العزّة والفخر للإنسان المؤمن تقول الآية: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ». فهؤلاء كانوا يقولون أننا عندما ينزل علينا الأمر بالجهاد فسوف نتحرّك من موقع الطاعة ولا نقول سوى المعروف والصدق، ولكن عندما يحين الوقت وينزل الأمر بالجهاد يتجلّى حينئذٍ عدم صدقهم وتهافتهم وتخاذلهم فى حين أنّهم لو صدقوا اللَّه لكان خيراً لهم. هذا التعبير يدلّ على أنّ الكذب هو أحد علامات المنافقين، فقبل أن يواجهوا الأمر الواقع وتحين لحظة الحسم فأنّهم ينطلقون من موقع الوعد بالجهاد والثبات والانطلاق من موقع المسؤولية، ولكن عندما تحين اللحظة الحاسمة يتّضح كذبهم ونفاقهم، أى أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية وهى الكذب تعدّ باباً ومفتاحاً للنفاق. «الآية السادسة»: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ». ولا شك أنّ أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد تجاوزوا اختبارات صعبة فى ميدان العمل والواقع، وأحد أهم هذه الاختبارات هى مسألة الهجرة، التى تعنى ترك البيوت والأموال وغض الطرف عن الأوطان وجميع التعلّقات التى ألفها الإنسان فى وطنه والانتقال إلى مكان آخر يبدأ فيه الحركة والحياة من نقطة الصفر ويعيش هناك مع أنواع الحرمان والنقص فى موارد المعيشة، وفى حالة ما إذا لم تهاجر معه الزوجة والأطفال فالصعوبات التى يواجهها هذا الإنسان المهاجر ستتضاعف وتشتد. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۸ القرآن الكريم يتحرّك فى هذه الآية من موقع التحذير لأصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ هذه الهجرة هى إمتحان إلهى كبير (فاذا بقوا فى مكّة فسوف ينالهم أنواع التعذيب من قبل المشركين ولو هاجروا إلى المدينة فسيواجهون أنواع الحرمان والفاقة) فيقول لهم القرآن الكريم أنّه لا تتصوّروا أنّ هذا الامتحان العسير فى مواجهة تحدّيات الواقع من تعذيب المشركين أو الهجرة إلى المدينة أو الجهاد فى سبيل اللَّه ومواجهة الأعداء فى ميدان القتال وأمثال ذلك منحصر بكم، فقد سبق أن اختبرنا الأقوام السالفة بأنواع الاختبارات والابتلاءات، وأساساً فإنّ الحياة الدنيا تدور حول الإمتحان والاختبار الإلهى ليتبيّن الصادق فى إيمانه من الكاذب والمدّعى. وفى الواقع أنّ هذه الآية تتحدّث عن الصدق بعنوان أنّه علامة الإيمان والكذب علامة النفاق والكفر. وطبعاً إنّ الصدق والكذب فى هذه الآية هو الصدق والكذب فى العمل لا فى القول، العمل الذى ينسجم ويتوافق مع ا دّعاءات الإنسان السابقة ويرسم له سلوكه الاجتماعى فى حركة الحياة، والكاذب هنا هو الذى لا يتحرّك فى سلوكه بما ينسجم مع إدعاءاته، وأيضاً الصدق والكذب فى العمل وفى القول لهما جذر مشترك، لأنّ الصدق هو بيان الحقيقة والكذب على العكس من ذلك، وهذا التبيّن تارة يكون بوسيلة القول واخرى بوسيلة العمل. ومن مجموع الآيات أعلاه يتبيّن الأهميّة الكبيرة للصدق والصادقين وأنّ هذه الصفة تعد فضيلة أخلاقية من الفضائل التحتية للبناء الأخلاقى الفوقانى

للإنسـان، نعم فـإنّه متى مـا وجـد الصـدق فإنّ الصـفاء والأمانـة والثقـة والاعتماد والشـجاعة سوف تحصل للإنسان بالتبع، ولو لم يكن الصـدق فى واقع الإنسـان فإنّ جميع هـذه الصـفات سـتتبخّر وتتلاشـى ويعيش الإنسان بـدونها حالـة الفراغ الروحى والجفاف المعنوى وحتّى أنّ الإيمان والعقيـدة سوف لا تبقى سـليمة كما هو المطلوب، والملفت للنظر أنّ الآيات الكريمـة تذكر الصدق بعنوان أنّه صـفة من الصـفات الأصـلية للقـادة الإلهيين كما أشارت إلى ذلك الآيات أعلاه وهـذا إنّما يـدلّ على أنّ سائر فضائل الإنبياء والأولياء تـدور حول محور الصـدق وعلينـا إذا أردنـا معرفتهم والاطّلاع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۷۹ على أحـوالهم أن نتحرّك لتتبع أثر هـذه الصفة الأخلاقية فيهم.

الصدق فى الروايات الإسلامية:

اشارة

إنّ أهميّة هذه الفضـيلة الأخلاقية فى الروايات الإسـلامية أكثر من أن يقال أو يذكر فى هذا المختصـر، فالأحاديث الشريفة الواردة عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فى هذا المجال تجاوزت حد الحصر، ولكننا نكتفى فى هذا الفصل بـذكر نمـاذج منهـا لبيـان أهميّـة هـذه الصـفة من بين الصـفات الأخلاقيـة للإنسان حيث يسـتفاد جيـداً من الروايات أنّ جميع الفضائل الإنسانية تنبع من حالة الصدق. ۱- ورد فى الحديث الشـريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى بيان أهميّة الصدق والذى تقدّم ذكره فى الفصـل السـابق ولكننا نـذكره مرة اخرى لأهميته: «لا تَنظُروا إلى كَثْرَةِ صَـلاتِهِم وَصَومِهِم وَكَثْرَةِ الحَـجِّ وَالمَعرُوفِ وَطَنطَنَتِهِم بِالَّليلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إلى صِـدقِ الحَدِيثِوَأَداءِ الأَمانةِ» «۱». ۲- ونقرأ فى الحديث الشـريف عن الإمام الصادق عليه السـلام: «إن اللَّهَ لَم يَبعَثْ نَبِيّاً إلّابِصـدقِ الحَـدِيثِ وَأداءِ الأمانةِ إلَى البرِّ والفاجِر»». ۳- وفى حـديث آخر عن هـذا الإمام يقول حول تأثير الصدق فى جميع أعمال الإنسان وسلوكياته «وَمَن صَـدَقَ لِسانُهُ زَكَى عَمَلُهُ» «۳» ، لأنّ الصـدق يمثل الجـذر والأساس لجميع الأعمال الصالحـة، وسوف يأتى لاحقاً بيان هذا المطلب بالتفصيل. ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق أيضاً فى كتابه إلى أحد أصـحابه ويُدعى عبداللَّه بن أبى يعفور حيث قـال له: «انظُر مـا بَلَغَ عَلَيٌّ بِهِ عِنـدَ رَسُولِ اللَّهِ صـلى الله عليه و آله فَـأَلزَمَهُ، فَـإنَّ عَلِيّاً عليه السـلام إنّما بَلَغَ ما بَلَغَ عِندَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله بِصدقِ الحَدِيثِ وَأَداءِ الأمانَةِ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۰ هذا التعبير يدلّ على أنّ الإنسان حتّى لو كان شخصـية كبيرة وعظيمـة مثل على بن أبى طالب عليه السـلام إنّما وصل إلى هـذا المقام السامى عند رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله ببركة هاتين الصـفتين: صدق الحديث، وأداء الأمانة. ۵- وقد ورد فى الحديث الشـريف أنّه سُئل أميرالمؤمنين عليه السلام: «أى النّاسِ أَكرمُ؟ فَقَالَ: مَنْ صَـدَقَ فِي المَواطِن» «۱». ونظراً إلى أنّ القرآن الكريم يقول: «إنّ أَكرَمَكُم عِنـدَ اللَّهِ أَتقاكُم» «۲» يتضّح أنّ روح التقـوى هى الصـدق فى الحـديث. ۶- وفى حـديث آخر عن أميرالمـؤمنين عليه السـلام يتحـدّث فيه عن تـأثير الصـدق فى نجـاة الإنسان من الأخطار والمشـكلات حيث يقول: «ألزموا الصدق فإنّه منجاة». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام ورد تشبيهاً جميلًا عن الصدق حيث يقول: «الصِّدقُ نُورٌ غَيرَ مُتَشَعشِعٍ إلّا فِى عالَمِهِ كَالشَّمْسِ يَستَضـىءُ بِها كُلُّ شَيٍّ يَغْشَاهُ مِنْ غَيرِ نُقصانٍ يَقَعُ عَلى مَعناها». ويقول الإمام عليه السـلام فى ذيل هذا الحديث: «الصِّدقُ سَـيفُ اللَّهِ فِى أَرضِهِ وَسَمائِهِ أَينما هَوى بِهِ يُقَدُّ» «۳». ۷- وعن أهميّة الصـدق يكفى أن نذكر الحديث الشـريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السـلام حيث يقول: «الصِّدقُ رأسُ الدِّين». ويقول فى حديث آخر: «الصِّدقُ صَـلاحُ كُلِّ شَىءٍ». ويقول فى حديث آخر أيضاً: «الصِّدقُ أَقوى دَعائِمُ الإِيمانِ». وفى رواية اخرى يقول: «الصِّدقُ جَمالُ الإنسانِ وِدَعامَةُ الإيمانِ». وأخيراً يضـيف إلى ذلك تعبيراً مهمّاً آخر عن الصدق ويقول: «الصِّدقُ أَشرَفُ خَلائِقِ المُؤمِنِ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۱ ۸- ونختم هـذا البحث الطويل بحـديث شـريف عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يتحدّث فيه عن مفتاح الجنّة والنار ويقول: «إنّ رَجُلًا جاءَ إلى النَّبِيِّ فَقالَ يا رَسُولَ اللَّهِ ما عَمَلُ الجَنَّةِ؟ قالَ: الصِّدقُ، إذا صَـدَقَ العَبدُ بَرَّ وإذا بَرَّ آمَنَ، وإذا آمَنَ

دَخَلَ الجَنَّةَ قالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ وَما عَمَلُ النّارِ؟ قَالَ: الكِذبُ، إذا كَذِبَ العَبدُ فَجَرَ، وَإذا فَجَرَ كَفَرَ، وإذا كَفَرَ دَخَلَ النّارَ» «۱». والملفت للنظر أنّ هذا الحديث الشريف يعدّ الصدق منبع الخير والصلاح وبالتالى فهو منبع الإيمان أيضاً، وما ذلك إلّالأنّ الفاسق يتحرّك فى تبرير أعماله الدنيئة من موقع الكذب والدجل والخداع، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ روح الإنسان ستضعف بسبب الكذب وتدريجياً يضعف الإيمان أيضاً وبالتالى يفضى ذلك إلى الكفر والسقوط من درجة الإنسانية كما قال القرآن الكريم: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون» «۲». ۹- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «إذا أَحِبَّ اللَّهُ عَبداً أَلهَمَهُ الصِّدقَ» «۳». ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَربَعٌ مَنْ اعطِيَهُنَّ اعطِي خَيرَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ صِدقُ حَدِيثٍ وَأَداءُ أَمانَةٍ وَعِفَةُ بَطنٍ وَحُسنُ الخُلقِ» «۴». ومن مجموع هذه الأحاديث الشريفة يمكننا أن نستوحى نكات مهمّة فى دائرة هذه الصفة الأخلاقية: إنّ الصدق هو أحد الطرق التى تتجلّى فيها شخصية الإنسان وإيمانه وبذلك يمكن اختباره من هذا السبيل. إنّ الدعوة إلى الصدق هى أحدى البنود الأساسية لدعوة الإنبياء والمرسلين فى خط الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۲ التكامل المعنوى والإلهى. إنّ الصدق يتسبب فى طهارة الأعمال وقبول الأفعال. إنّ المقام المعنوى للإنسان عند اللَّه تعالى يدور مدار الصدق. إنّ أكرم الناس هم الصادقون. إنّ الصدق يتسبب فى النجاة فى الآخرة. إنّ الصدق أقوى دعائم الدين. إنّ الصدق مفتاح الجنّة. الصدق علامة محبوبية الإنسان لدى اللَّه تعالى. إنّ الإنسان الصادق سينال خير الدنيا والآخرة. ونظراً إلى هذه النتائج والمعطيات العشرة للصدق يتّضح جيداً أنّ هذه الصفة الأخلاقية المهمّة لا تلحقها صفة اخرى بهذه المعطيات الكثيرة. بقى هنا فى هذا الموضوع المهم أن نذكر عدّة امور (رغم أنّه قد أشرنا إليها فى ضمن الأبحاث السابقة).

۱- تأثير الصدق فى حياة الإنسان

بالرغم من أنّ تأثير الصدق فى حياة الإنسان يعدّ بديهيّاً وتوضيح هذا الأمر يعدّ من توضيح الواضحات، ولكن عندما ندخل تفاصيل المسألة نواجه المعطيات الإعجازية الكبيرة للصدق فى جميع مفاصل الحياة البشرية، والالتفات إلى هذه المعطيات المهمّة بإمكانه أن يكون دافعاً قوياً للتحلّى بهذه الصفة الأخلاقية الكبيرة. وأول تأثير للصدق فى حياة الإنسان هو مسألة الثقة وجلب الاطمئنان والاعتماد المتقابل بين أفراد المجتمع فى حركة التفاعل الاجتماعى. ونعلم أنّ أساس الحياة الاجتماعية للإنسان هو العمل على المستوى الجماعى ولا- يتسنى ذلك إلّابأن يتعامل أفراد المجتمع فيما بينهم من موقع الثقة المتبادلة واعتماد البعض الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۳ على البعض الآخر، وهذا المعنى لا- يتحصّل إلّابتوفر عنصر الصدق والأمانة بينهم، أجل فإنّ أهم وسيلة مؤثّرة فى جذب إعتماد الناس هو الصدق، وأخطر وسيلة وأداة لهدم العلاقات الاجتماعية وتخريب أواصر المودّة بين الأفراد هو الكذب، ولا فرق فى هذا الأمر بين المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية. فالرجل السياسى المحنّك والذى يعتمد عليه الناس إذا تورط فى مورد أو عدّة موارد من الكذب وسمع منه الناس ذلك، فإنّهم سيتباعدون عنه وبهذا يخسر نفوذه وشخصيته بين الناس. والعالم أو المكتشف إذا تلّوث بالكذب فى تحقيقاته العلمية فقد إعتماد المحافل العلمية باختراعاته وتحقيقاته وبالتالى تذهب أتعابه أدراج الرياح وتكون تحقيقاته المدوّنة حبراً على ورق. المؤسسات الاقتصادية أيضاً إذا تعاملت فى الأعلان عن منتوجاتها وبضائعها من موضع الكذب والدجل فإنّ الناس سوف لا يثقون بمنتوجاتها بعد ذلك وسوف تخسر هذه المؤسسات زبائنها سريعاً. وفى دائرة الإدارة إذا لم يصدق المدير مع مرؤوسيه وموظفيه فإنّ نظم هذه الدوائر أو المؤسسة سوف يتلاشى بالتأكيد، وعلى هذا نصل إلى هذه النتيجة وهى أنّ أساس جميع أشكال التقدّم المعنوى والمادى فى المجتمع يتمثّل بالاعتماد المتقابل بين الأفراد والذى يعتمد بدوره على الصدق. ولذلك ورد فى الرواية الشريفة عن أمير المؤمنين أنّه قال: «الصِّدقُ صلاح كُلِّ شيءٍ والكِذبُ فَسادُ كُلِّ شَيءٍ» «۱». وقال أيضاً فى حديث آخر: «الكَذّابُ والمَيِّتُ سَواءٌ فإنَّ فَضِيلَةَ الحَيِّ عَلَى المَيِّتِ الثِّقَةُ بِهِ، فَإذا لَمْ يُوثَقُ بَكلامِهِ فَقَد بَطَلَتْ حَياتُهُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۴ والأمر الآخر هو أنّ الصدق يهب لصاحبه شخصية اجتماعية مرموقة فى حين أنّ الكذب يتسبب

فى فضيحته وذهاب ماء وجهه وسمعته، والإنسان الصادق يعيش حياة العزّة والكرامة دائماً أمّا الكاذب فيعيش حالة الدناءة والحقارة والانتهازية. ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين أنّه قال: «عَلَيكَ بِالصِّدقِ فَمَنْ صَدَقَ فِى أَقوالِهِ جَلَّ قَدرُهُ» «۱». ومن جهة ثالثة نجد أنّ الصدق والأمانة يهبان للإنسان الشجاعة والشهامة فى حين أنّ الكذب والخيانة يجرّان الإنسان إلى السقوط فى هوة الخوف والفزع من إنكشاف أمره وافتضاح حاله وبالتالى خسران جميع ما أعدّه سلفاً لحياة كريمة وسعيدة من خلال الكذب والخداع والخيانة. ومن جهة رابعة فإنّ الصدق بإمكانه أن ينقذ الإنسان من كثير من الذنوب والآثام، لأنّه فى حال ما لو ارتكب ذنباً معيناً ثمّ سأل عنه فإنّه لا يستطيع الإقرار بهذا الذنب والاعتراف به، فمن الأفضل له أن لا يرتكبه سلفاً. وقد ورد فى الحديث الشريف المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه جاء رجل إليه صلى الله عليه و آله وقال: أنا يا رسول اللَّه استسر بخلال أربع، الزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والكذب، فأيّتهنّ شئت تركتها لك، قال صلى الله عليه و آله: «دع الكذب». فلما ولى هم بالزنا فقال: يسألنى فان جحدت نقضت ما جعلت له وإن أقررت حددت، ثم هم بالسرقة ثم بشرب الخمر ففكر فى مثل ذلك فرجع إليه فقال: قد أخذت علىَّ السبيل كلّه فقد تركتهنّ أجمع «۲». ومن جهة خامسة نجد أنّ الصدق يعمل على حلّ الكثير من المشاكل والأزمات فى المجتمع ويسهّل للإنسان الوصول إلى مقصده ويقلّل من نفقات المسير ويهب الناس هدوءاً وطمأنينة ويزيل الاضطراب والقلق والتوتر الذى ينشأ من حالات احتمالات الكذب فى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۵ أقوال الطرف الآخر ويوطد أركان المحبّة ويعمّق وشائج المودّة بين أفراد المجتمع وبذلك يفضى على شخصية هؤلاء الأفراد نوراً وبهاءاً أكثر، وقد أشارت الروايات الكريمة إلى هذا المعنى أيضاً وأنّ شخصية الإنسان الذاتية هى التى تدعو لئن يكون الإنسان صادقاً كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أَحسَنُ مِنَ الصِّدقِ قائِلُهُ وَخَيرٌ مِنَ الخَيرِ فاعِلُهُ» «۱». ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام كشاهد صدق على هذا المطلب حيث يقول: «يَكتَسِبُ الصَّادِقُ بِصِدقِهِ ثَلاثاً، حُسنُ الثِّقَةِ والمَحَبَّةِ لَهُ وَالمَهابَةُ مِنهُ» «۲».

۲- دوافع الصدق

إنّ هذه الفضيلة الأخلاقية كسائر الفضائل الأخلاقية الاخرى لها جذور ودوافع فى أعماق روح الإنسان منها: الف: الاعتماد على النفس وعدم الشعور بالحقارة والدونية، حيث تدعوه هذه الحالة النفسية الإيجابية إلى الصدق والتعامل مع الآخرين من موقع الثقة بالنفس والواقع. ب: الشجاعة والشهامة الذاتية والإكتسابية فلا يخاف من ذكر الامور الواقعية. ج: الطهارة القلبية من أدران الذنوب وعدم وجود نقطة ضعف فى شخصية الإنسان تدعوه إلى قلب الواقع، فى حين أنّ الملّوث بالعيوب والخطايا قد يدعوه ذلك إلى الكذب لتغطية نقاط الضعف هذه. د: والأهم من ذلك جميعاً هو أن يتجلّى الإنسان بالإيمان باللَّه والآخرة ويتحرّك فى خط التقوى والاستقامة، فذلك من شأنه أن يكون عاملًا أساسياً للصدق، ولهذا السبب ورد فى الحديث المعروف فى نهج البلاغة قوله عليه السلام: «أن تُؤثِرَ الصِّدقَ حَيثُ يَضُرُّكَ عَلَى الكِذبِ حَيثُ يَنفَعُكَ» «۳».

۳- مفهوم الصدق

ورغم أننا نفهم من هذه المفردة وضوح المعنى والمفهوم، ولكن فى نفس الوقت هناك الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۶ خلاف كثير بين العلماء فى تعريفها، فالبعض ذهب إلى أنّ الصدق هو مطابقة محتوى الكلام للواقع، فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ الصدق هو مطابقة الكلام لاعتقاد الشخص واستدل بالآية الشريفة من سورة المنافقين حيث يقول تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» «۱». ومن البديهى أنّ المنافقين الذين يشهدون على نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله تكون شهادتهم هذه مطابقة للواقع، ولكن بما أنّها غير مطابقة لاعتقادهم، فلذلك ذكرهم اللَّه

تعالى بأنّهم كاذبون ونسبهم إلى الكذب، لأنّ هؤلاء يستخدمون هذه الشهادة بنبوّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كأداة للتغطية على شخصيتهم حيث يكون مفهوم كلامهم أنّ هذه الشهادة مطابقة لاعتقادهم الباطنى، وبما أنّ هذا الكلام غير مطابق لواقعهم، فلذلك كانوا كاذبين، أى أنّ هؤلاء يكذبون فى ادعاءاتهم أنّ هذه الشهادة مطابقة لمعتقدهم الباطنى، وعلى هذا الأساس يتبيّن أنّ الصدق على كل حال هو تطابق الكلام مع الواقع سواءاً كان الواقع الخارجى أو الباطنى. ولكننا نقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام تعريفاً آخر للصدق والكذب وهو ناظر إلى بعد العبودية للّه‌تعالى حيث يقول: «الصِّدقُ مُطابَقَةُ المَنطِقِ لِلوَضعِ الإلَهى والكِذبُ زَوالُ المَنطِقِ عَنِ الوَضعِ الإلَهى» «۲». والمقصود من الوضع الإلهى ظاهراً هو وضع عالم الخلقة والوجود، الذى يتحرّك بإرادة اللّه تعالى، وعليه فإنّ هذا التعريف لا يخرج عن إطار التعريف السابق إلّابدخوله فى دائرة المضمون التوحيدى. وبالطبع فإنّ الصدق والكذب كما يجريان فى كلام الشخص فكذلك يجريان فى عمله وسلوكه أيضاً، فالأشخاص الذين يخالف عملهم ظاهرهم فإنّهم كاذبون من هذه الجهة، والأشخاص الذين يتطابق ظاهرهم مع باطنهم وأعمالهم، فإنّهم صادقون أيضاً.

الكذب وآثاره وعواقبه

تنويه:

كان من المفروض أن نبحث الصدق والكذب فى فصل واحد للملازمة الشديدة بينهما، ولأنّ أحدهما لا يعرف بدون الآخر، ولكن بما أنّ هذه المسألة وردت فى الآيات والروايات الشريفة وكلمات علماء الأخلاق بصورة منفصلة رأينا أنّ من الأفضل التفكيك بينهما لنؤدى المطلب حقّه من البحث والتفصيل. أجل فإنّ المفاهيم الإسلامية تؤكّد كثيراً على مسألة محاربة الكذب والدجل إلى درجة أنّ الكاذبين فى النصوص الدينية فى عداد الكفّار والملحدين وأنّ الكذب هو مفتاح جميع الذنوب كما ورد التصريح بذلك فى الروايات الشريفة، بل إنّ الإنسان ما لم يترك الكذب بشتى أنواعه وأقسامه لن يذوق طعم الإيمان أبداً. ونكتفى بهذه الإشارة إلى آثار الكذب وأخطاره لنعود إلى القرآن الكريم ونستوحى من آياته ما يتعلّق بهذا المفهوم والصفة الأخلاقية الذميمة: ۱- «إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۸ ۲- «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» «۱». ۳- «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» «۲». ۴- «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» «۳». ۵- «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» «۴». وفى مسألة التكذيب الإلهى الذى هو أيضاً نوع من الكذب، وردت تعابير مهمّة فى القرآن الكريم، منها: ۶- «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ» «۵». ۷- «ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» «۶».

تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» تتحدّث عن أنّ الكاذب هو الشخص الذى إنعدم فيه الإيمان باللّه تعالى وأنّ الكاذب الحقيقى هو غير المؤمنين فتقول: «إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ». وهذا فى الوقت الذى كان فيه أعداء الإسلام من المشركين الجاهليين عندما يرون بعض آيات القرآن الكريم قد نسخت بسبب تغيير الظروف الزمانية وإستبدلت الأحكام السابقة بأحكام جديدة، فكان ذلك ذريعة لديهم فى إتهامهم النبى صلى الله عليه و آله بالكذب، وقولهم أنّ هذا النبى له معلّم يعلّمه هذه الآيات (ومرادهم من المعلّم غلامين نصرانيين أحدهما يدعى يسار، والآخر جبر، أو رجل نصرانى يدعى بلعام الرومى) فى حين أنّ القرآن الكريم نزل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۸۹ بلسان عربى فصيح وهؤلاء كانوا من الأعاجم. القرآن الكريم فى مقام الجواب على إدّعاءات المشركين الواهية يقرّر أنّ النبى الأكرم يتلقى الوحى الإلهى الذى ينزل به روح القدس من اللّه تعالى وأنّ آثار الإيمان والصدق جليّة فى كلامه، والأشخاص الذين يكذبون فى كلامهم لا يؤمنون باللّه تعالى، أى أنّ الإيمان لا يجتمع مع الكذب، والمؤمن الحقيقى لا

يتحرّك لسانه من موقع الكـذب اطلاقاً. وجملـة (يفترى الكـذب) فى الواقع تأكيد على كذبهم، أى أنّهم يرتكبون الكذب والتهمة فى نفس الوقت، أو كمـا يقول الطبرسـى فى مجمع البيـان بمعنى (يخترع الكـذب) وهـذا يعنى أنّهم يختلقون كلاماً لا ـ أصـل له (الافتراء بمعنى فرية، هو فى الأصل بمعنى قطع، ثم اسـتعمل فى كل عمل سلبى ومذموم ومنه الشرك والكذب والتهمة). وفى الواقع فإنّ النسبة بين الكـذب والافـتراء هى نسـبة العموم والخصوص المطلق، فالكـذب يعنى كل كلام مخالف للواقع، ولكنّ الافتراء أو التهمـة هى أن يكون الكلام يحتوى فى مضـمونه على نسـبة عمـل مـذموم إلى شـخص معيّن. ويحتمـل أنّ قوله (يفترى الكـذب) إشـارة إلى رؤساء المشـركين وقـادة الكفر حيث يختلقون الكـذب والعنـاوين من قبيـل شـاعر وسـاحر وينسـبونها إلى النبى صـلى الله عليه و آله ويتبعهم الآخرون بذلك. وعلى أية حال فإنّ الآية أعلاه تبيّن بوضوح أنّ الكذب لا يجتمع مع الإيمان اطلاقاً، ولذلك ورد فى تفسير هذه الآية روايـة عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عنـدما سُـئِل: «يا رَسُولَ اللَّهِ الْمُؤمِنُ يَزنى؟ قال: بلى، قالوا: الْمُؤمِنُ يَسـرُقُ؟ قال: بلى، قالوا: الْمُؤمِنُ يَكـذِبُ؟ قال: لا، ثُمَّ قرأ هـذه الآية ..» «۱». وبالطبع فلابـدّ من ملاحظـة أنّ الإيمان له مراحل ومراتب مختلفـة. «الآية الثانية» من الآيـات محـل البحـث تصّـرح «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْـدِى مَنْ هُـوَ كَـاذِبٌ كَفَّارٌ». الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۰ ومن المعلـوم أنّ الهـداية والضـلالة هما بيـد اللَّه تعالى حتى النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله لا يتمكن أن يهـدى شـخصاً ما لم تتعلّق بـذلك مشـيئة اللَّه تعالى وإرادته كما ورد فى الآية الشـريفة: «إِنَّکَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» «۱». ولكن هذا لا يعنى أنّ اللَّه تعالى يجبر بعض الناس على الهدايـة والبعض الآخر على الضـلالة والانحراف، ثمّ يهب الجنّة ونعيمها الدائم الى الطائفة الاولى ويرسل الطائفة الثانية إلى النار، فهذا هو مذهب الجبر الذى لا ينسجم مع العقل والمنطق ولا مع العدل الإلهى. والمقصود من ذلك أنّه متى ما تهيأت الأرضـية للهداية والضـلالة فى الإنسان بواسـطة أعماله وأفعاله فإنّ اللَّه تعالى سـيمدّه بما يتوافق مع لياقته وقابلياته، فيعين الطائفـة الاـولى للوصول إلى كمـالهم المعنوى فى خط الإيمان والعبوديـة والطاعـة ويزيـدهم من فضـله ولطفه، ويرفع يـده عن الطائفة الثانيـة ليبقوا فى حيرتهم وفى دوّامـة من السـلوكيات المنحرفـة والعقائـد الباطلـة التى لا يصـلون معها إلى مقصودهم النهائى. ومن أهم الامور التى توفّر الأرضـية للضـلالة والزيغ والانحراف هو الكـذب والاسـراف وكفران النعمـة التى وردت فى هاتين الآيتين حيث يفهم بوضوح من سـياق هاتين الآيتين أنّ من يقول بالجبر وأنّ اللَّه تعالى هو الـذى يهـدى ويضل عباده دون أن يكون لهم الخيرة فى ذلك فـإنّ كلامـهم هـذا واعتقـادهم مجـانب للحق والصواب كثيراً وأنّ اسـتدلالهم بهاتين الآيتين هو فى الواقع خلاف الظاهر من جو هاتين الآيتين وسـياقهما. أجل، فإنّ الكذب يعتبر من أهم العوامل فى اضـلال الإنسان وشـقائه. ويمكن أن يكون مورد هاتين الآيتين هو نسبة الكذب إلى اللَّه تعالى والانحراف عن أصل التوحيد، ولكنّ المورد لا يخصـص الوارد كما فى الاصطلاح، أى أنّ خصوصية المورد لا تمنع من عموميـة الحكم الوارد فى هـاتين الآيتين. أمّا العلاقـة بين الكـذب وكفران النعمـة الوارد فى الآيـة الاولى فهو يشـير إلى هـذه الحقيقـة وهى أنّ بنى اسـرائيل كفروا بنعمـة وجود موسـى عليه السـلام فيما بينهم لهدايتهم وكذّبوه، والعلاقة بين الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۱ الاسـراف والكذب فى الآية الثانية هو من جهة أنّ الفراعنة تحرّكوا من موقع عصـيان الأمر الإلهى وظلمهم لبنى اسرائيل وقتل أولادهم، فهؤلاء سـلكوا طريق الاسـراف وكذّبوا بنبوّة موسـى عليه السـلام. «الآية الرابعة» تسـتعرض اسلوب المنافقين فى التظاهر بالإيمان والعمل الصالح وتتحدّث عن (ثعلبة بن حاطب الأنصارى) الذى كان قد عاهد اللَّه تعالى أنّه إذا رزقه مالًا كثيراً فإنّه سـيتصدّق على الفقراء والمسـاكين ولكنّ سـلوكه العملى كـان مخالفـاً لقوله ووعـده حيث نقض عهـده مع اللَّه تعالى بعـد أن رزقه المال والثروة وأصبح من الموسرين، ويقول اللَّه تعالى فى هذه الآية: «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ». ثم تضيف الآية أنّ ذلك كان بسبب نقضـهم للعهـد وكـذبهم على اللَّه تعالى: «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَـدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». والجدير بالذكر أنّ نقض العهد مع اللَّه تعالى يعتبر نوع من الكـذب العملى. وعلى أيـة حال فالآيـة أعلاه تصـرح بأنّ نقض العهد كذب يورث الإنسان روح النفاق فى قلبه إلى آخر حياته، وما أشـدّ هـذه العقوبـة فى دائرة أركان الشخصـية ودعائمها. أمّا العلاقـة بين هـذين الذنبين (نقض العهد والكذب) وبين النفاق فواضـحة، لأـنّ النفاق ليس شـيئاً سوى اختلاف الظاهر والباطن وأن يكون الإنسان ذا لسانين كما فى اصـطلاح الروايات، ونقض العهد

والکـذب أیضـاً هو عبـارة عن التظـاهر بالتمسک والانضـباط بالوعـد وبالمیثاق من موقع المسؤولیـة والتعهـد القلبی فی حین أنّ الواقع الباطنی لا یتطابق مع هـذا الظاهر الخادع. أجل، فإنّ الکثیرین من أمثال ثعلبـة بن حاطب الأنصاری عندما یعیشون حالة الضـیق والعسـر فی حرکـة الحیاة یلجأون إلی اللّه تعالی بجمیع وجودهم وکیانهم لیحل لهم مشـکلاتهم ویبـذلون له العهود والمواثیق والنذور فی هذا السبیل، ولکن عنـدما یسـتجیب اللّه تعالی لهم وتنفرج الأزمة ویحصـلون علی ما یریدون یتعاملون مع عهودهم ومواثیقهم من الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹۲ موقع النسـیان والتغافـل، وهـذا هو المصـداق لنقض العهـد والکـذب والنفـاق فی عملیـة التعامل مع الحیاة والواقع (نسأل اللّه تعالی أن یحفظنا من شرّ هـذه الآثام والسلوکیات الدنیئـة). «الآیـة الخامسـة» تتحدّث عن صـفات وأعمال المنافقین القبیحـة وتسـلّط الضوء خاصـة علی مسألـة الکـذب وتقول: «فِی قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُم اللَّهُ مَرضاً وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِیمٌ بِمَا کَانُوا یَکْذِبُونَ». فهذه الآیة لم تتحدّث بشـکل دقیق عن نوع الکذب الذی کانوا یرتکبونه ولعله إشارة إلی الکذب الذی أشارت إلیه الآیة السابقة، ومن ذلـک إدّعـائهم الإیمـان بـاللّه فی حیـن أنّهـم غیر مـؤمنین فی قلـوبهم، والآـخر الخـداع والغش الـذی کـانوا یمـارسونه مـع المـؤمنین ویسـتغفلونهم فی عملیة التعامل معهم، والأهم من ذلک أنّهم کانوا یستفیدون من کل فرصة فی سبیل تکذیب الرسالة الإلهیة والرسول الکریم، ولکن علی أیّـة حال، فإنّ هـذه الآیـة تقول: إنّ العـذاب الألیم الـذی ینتظر هؤلاء هو بسـبب کـذبهم، وهذا یدل علی أنّ أشـدّ وأشـنع أعمـال المنـافقین هو أنّهـم کـانوا یرتکبون الکـذب ویخترعون الإفـک، بـالرغم من أنّهم کانوا یرتکبون ذنوباً کثیرة إلی جانب الکـذب. ومن الواضح أنّ المقصود بالمرض فی هذه الآیة هو مرض النفاق الذی یعدّ مرضاً أخلاقیاً ناشـئاً من انفصام شخصـیة المنافق واهتزاز وجـدانه بحیث یعیش بین الناس بلسانین ووجهین وظاهره یختلف عن باطنه. «الآیـة السادسـة» تتحرّک علی مستوی بیان قسـم خاص من أقسام الکـذب، وهو الکـذب علی اللّه تعالی، حیث تخاطب الآیة الرسول الأکرم صـلی الله علیه و آله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَـذِبَ لَایُفْلِحُونَ». أساساً فانّ الکـذب لا یجتمع مع الفلاح والموفقّیـة فی حرکة الحیاة وخاصّة إذا کان الکذب علی اللّه والأنبیاء الإلهیین، والمراد من الکـذب علی اللّه فی هـذه الآیة (وبقرینة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹۳ الآیات السابقة لها) هو أنّ المشـرکین کانوا یعتقـدون بأنّ الملائکة هم بنات اللّه، وقیل أنّ المراد هو دعوی المسـیحیین بأنّ المسـیح ابن اللّه، وکذلک دعوی الیهود بأنّ عزیر إبن اللّه، وعلی أیـة حال فانّ نسـبة هـذه الامور إلی اللّه تعالی من الکذب الفاضح والجلی، لأنّ اللّه تعالی لیس بجسـم ولاـ یتصف بـالعوارض الجسـمانیّة ولیست له زوجـة وأبنـاء. وأساساً فانّ فلسـفة وجود الابن تکون معقولـة فی دائرة نظام الخلقـة علی مستوی الإنسان وحاجاته الفطرّیة والطبیعیة، فانّ الإنسان یحتاج إلی الأبناء لبقاء النسل والقیام بمعونته وإسناده فی حرکة المعیشة الشاقّة أمـام تحـدّیات الواقع والحیـاة، أمّـا مفهوم الأبن بالنسـبة إلی اللّه تعالی وهو الغنی علی الاطلاق والقادر علی کل شـیء فلا معنی له فی دائرة العقل والمنطق. ومن الجدیر بالتأمّل أنّ الآیة المذکورة اعتبرت عمل المشـرکین مصداقاً للکذب والإفتراء، وهذا یعنی أنّ الکذب له مفهوم واسع یستوعب فی مضمونه الإفتراء أیضاً (وکما فی الأصطلاح أنّ النسبة بینهما نسبة العموم والخصوص المطلق) فالکذب هو أن یتحدّث الإنسان بکلام مخالف للواقع سواءً کان یتحدّث عن شـخص معیّن أو شیء آخر، ولکنّ التهمة والإفتراء هو نسبة عمل قبیح وغیر واقعی إلی شـخص معیّن، فهنا یتحقق مصـداق الکـذب ومصـداق التهمـة أیضاً. ونفس مضـمون هذه الآیة ورد فی الآیة ۱۱۶ من سورة النحل حیث تقول الآیة: «إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ لَایُفْلِحُون» «الآیة السابعة» والأخیرة من الآیات مورد البحث تستعرض واقعة المباهلة المعروفة والتی تسـتبطن فی طیّاتها الکلام عن قسم خاص من أقسام الکذب، أی نسبة الکذب إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، ویترتّب علی ذلک لعنـة اللّه علی الکاذبین حیث تقول الآیـة: «فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَکُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَکُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَی الْکَاذِبِینَ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹۴ (المباهلة) فی الأصل من مادّة بهل (علی وزن سهل) بمعنی الترک للشیء، وقد ورد فی التفاسیر أنّ المباهلة تعنی فی المصطلح الدینی أن تجتمع فئتـان کـل واحـد منهما علی مـذهب معیّن فیتحاجون وأخیراً یتلاعنون ویـدعون اللّه تعالی بأن ینزل لعنته علی الطرف الآخر الکاذب، وأی فئة تحقّق فی موردها اللّعن ونزل علیها العذاب فهذا دلیل علی حقّانیّة الطرف الآخر، وقد حدث ذلک فی صدر الإسلام

بین نبی الإسلام صلی الله علیه و آله ونصاری نجران، فعند ما تقرّرت المباهلهٔ بینهما جاء النبی صلی الله علیه و آله ومعه الإمام علی وفاطمهٔ والحسن والحسین علیهم السلام إلی ساحهٔ المباهلهٔ وکانت تبدوا علی سیماهم المبارکهٔ آثار إستجابهٔ الدعاء، فتراجع النصاری عن إدّعائهم وصالحوا النبی الأکرم صلی الله علیه و آله علی أمور مذکورهٔ بالتفصیل فی التفاسیر الشریفهٔ ذیل هذه الآیهٔ ولذلک لا حاجهٔ إلی الإطالهٔ والتفصیل. والمراد من قوله: «فَنَجْعَلْ لَعْنَهَْ اللَّهِ عَلَی الْکَاذِبِینَ»، لبیان عظمهٔ الکذب وأنّه یستحق نزول اللّعنهٔ علی صاحبه. والآیهٔ أعلاه والتی إستعرضت تأکیدات قرآنیهٔ مهمّهٔ بالنسبهٔ إلی قبح الکذب وآثاره المشؤمهٔ وعواقبه الوخیمهٔ توضّح جیداً أنّ هذا الذنب إلی أی درجهٔ من القبح والشر فی دائرهٔ المفاهیم القرآنیهٔ، فینبغی علی المؤمنین فی المجتمع الإسلامی أن یعیشوا حالهٔ التنفّر والکراهیهٔ لهذا النوع من السلوک الخاطیء والخلق الذمیم ویتحرّکوا علی مستوی تطهیر مجتمعهم من شر هذه الخطیئهٔ.

الکذب فی الروایات الإسلامیهٔ:

ونقرأ فی الروایات الإسلامیهٔ تعابیر مثیرهٔ ومدهشهٔ تتحدث عن قبح الکذب وشناعته وفیما یلی نماذج منها: ۱- یستفاد من بعض الروایات أنّ الکذب مفتاح الذنوب، کما ورد عن الإمام الباقر علیه السلام قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلشَّرِّ اقْفالًا وَجَعَلَ مَفاتِیحَ تِلْکَ الْأَقْفالِ الشَّرابَ، وَالْکِذْبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرابِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹۵ ۲- وورد فی حدیث آخر عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام قوله: «جُعِلَتِ الْخَبائِثُ کُلُّها فِی بَیْتٍ وَجُعِلَ مِفْتاحُهُ الْکِذْبَ» «۱». والعلّهٔ فی ذلک جلیّهٔ، وهی أنّ الإنسان الکاذب عندما یجد نفسه فی معرض الفضیحهٔ فأنّه یتحرک فی عملیّهٔ التغطیهٔ علی نقائصه ومعایبه من موقع الکذب والخداع، وبعبارهٔ اخری: إنّ الکذب یبیح له إرتکاب أنواع الذنوب من دون أن یخاف الفضیحهٔ، فی حین أنّ الإنسان الصادق سیجد نفسه مضطراً إلی ترک سائر الذنوب لأنّ الصدق لا یسوغ له إرتکاب الذنب، والخوف من الفضیحهٔ بسبب الصدق یدعوه إلی ترک الذنوب. وکما سبق وأن ذکرنا الحدیث المعروف عن الرجل الذی جاء إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وهو ملّوث بأنواع الذنوب وطلب منه النبی صلی الله علیه و آله أن یترک الکذب فقط فقبل منه ذلک، وکان هذا سبباً فی أن یترک جمیع الذنوب «۲». ۳- ویستفاد من الأحادیث الاخری أنّ الکذب لا ینسجم اطلاقاً مع الإیمان کما نقرأ فی الحدیث الشریف: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله یَکُونُ الْمُؤمِنُ جُبانًا؟ قالَ: نَعَمْ؛ قِیلَ وَیَکُونُ بَخِیلًا؟ قالَ نَعم، قِیلَ یَکُونُ کَذاباً قالَ: لَا»». ونفس هذا المضمون ورد بصورهٔ اخری عن أمیرالمؤمنین علیه السلام حیث یقول: «لا یَجِدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِیمانِ حَتّی یَتْرُکَ الْکِذْبَ هَزْلَهُ وَجِدَّهُ» «۴». ولکن لماذا لا ینسجم الکذب مع الإیمان؟ لأنّ الکذب إمّا أن یکون لغرض تحصیل الإنسان لمنفعهٔ معیّنهٔ أو للخلاص من مشکلهٔ وأزمهٔ، فلو کان إیمان الإنسان قویاً ومستحکماً فی القلب فأنّه یری أنّ الخیر والشر کلاهما بید اللَّه تعالی وهو الذی بأمکانه حلّ مشکلاته وإنقاذه من الازمات التی یمر بها فی مواجهة تحدّیات الواقع والحیاهٔ وهو الذی یدفع عن الإنسان أنواع البلایا والمخاطر، فلو أنّ الإنسان تمسک بغصن من أغصان التوحید الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۱۹۶ الأفعالی واعتقد بذلک بصدق فلا یجد نفسه بحاجهٔ إلی التمسّک بذیل الکذب حینئذٍ. ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام قوله: «وَشَرُّ الْقُولِ الْکِذْبُ» «۱» ، لأنّ آثاره السلبیهٔ والمدّمرهٔ أشد من کل ذنب آخر. ۵- ونقرأ أیضاً فی حدیث آخر عن الإمام علی علیه السلام حیث یقرّر أنّ الکذب من أعظم الخطایا ویقول: «أَعْظَمُ الْخِطایا عِنْدَ اللَّهِ الْلِسانُ الْکَذُوبِ وشَرُّ النَّدامَهِْ نَدامَهُْ یَوْمِ الْقِیامَهِْ» «۲». ۶- وورد فی حدیث آخر أنّ الکذب مصدر الفجور ومنبع الفحشاء وسبب الدخول فی النار کما فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله حیث یقول: «إیّاکُم وَالکِذبَ فإنَّ الکِذبَ یَهدِی إلَی الفُجُورِ وَإنَّ الفُجُورَ یَهدِی إلَی النّارِ» «۳». ۷- إنّ الکذب لا یتناغم ولا ینسجم مع العقل کما ورد هذا المضمون فی الحدیث الشریف عن الإمام الکاظم علیه السلام أنّه قال: «إنَّ العاقِلَ لایَکذِبُ وَإن کانَ فَیهِ هَواهُ» «۴». ۸- إنّ الکذب یبعد ملائکهٔ الرحمهٔ عن هذا الإنسان الکاذب ففی حدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إذا کَذِبَ العَبدُ تَباعَدَ المَلَکُ مِنهُ مَسیرَهَْ مِیلٍ مِنْ نَتِنِ ما جاءَ بِهِ» «۵». لأنّ الإنسان إذا تحرّک فی تعامله مع الآخرین من موقع الکذب، فإنّه یتظاهر فی نفس الحال بمظهر الصدق فی حین أنّ باطنه یختلف عن ذلک،

وهـذا الاختلاف بين الظاهر والباطن نوع من أنواع النفاق، ولـذلك كان الكـذب من جملـة الأعمال الشائعـة لـدى المنافقين. ۱۰- إن الكاذب يخسر اعتماد الناس وثقتهم به كما نقرأ ذلك فى الحـديث الشـريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام: «مَنْ عُرِفَ بِالكِذبِ قَلَّتْ الثِّقَةُ بِهِ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۷ والنقطة المقابلة لذلك وردت أيضاً فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث قال: «مَنْ تَجَنَّبَ الكِذبَ صَدَّقَتْ أَقوالُهُ» «۱». ۱۱- ونختم هـذا البحث الطويـل بحـديث آخر من الأحـاديث الحكيمـة لأمير المؤمنين عليه السـلام حيث يحـذّر النـاس من الصداقـة والتعامـل مع الكاذبين ويقول: «وَإِيَّاكَ وَمُصادَقَةَ الكَذّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرابِ يُقَرِّبُ عَلَيكَ البَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيكَ القَرِيبَ» «۲». ويستفاد من الروايات أعلاه أنّ الكذب منبع الذنوب والمعاصى المختلفة وعنصر اهتزاز الإيمان باللّه والثقة بين النـاس ويعتبر أشنع أقسـام الكلام وفرع من فروع النفاق ويفسـد العلاقـة بين أفراد المجتمع ويعمل على هـدم إتّحادهم ومروءتهم وقلّما نجد مثل هذه الآثار الذميمة لذنب آخر من الذنوب الفردية والاجتماعية. بقيت هنا نقاط مهمّة نذكرها بشكل مختصر:

الآثار السلبية للكذب:

بالرغم من أنّ الآيات والروايات المـذكوره آنفاً قـد درست هـذه المسألـة بشـكل مفصّل وكشـفت السـتار عن نقاط مهمّـة فيها، ولكن أهميّـة هـذا الموضوع يحتاج إلى دراسـة أكثر وأعمق. وأول: أثر من الآثار المضـرّة والسـلبية للكـذب هى الفضـيحة وذهاب ماء الوجه وانهيار المكانـة الاجتماعيـة للشـخص الكاذب وسـلب الثقـة منه لدى الناس. وكما يقول المثل المعروف: (الكاذب قرين النسـيان) فإنّ التجارب تثبت أنّ الكلام الكاذب لا يمكن أن يستمر لمـدّة طويلـة فى حجبه الحقيقة عن الناس، وقد تطوى المسألة فى زاوية النسـيان إذا لم تكن ذات أهميّـة، ولكن إذا كـانت المسألـة مهمّـة فـإنّ الحقيقـة سـوف الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۸ تتجلّى فى دائرة ويفتضح الكاذب حينئذٍ لا من أجل أنّ الكاذب ينسـى ما قاله سابقاً، بل من أجل أنّ الكذب بنفسه لا يتأطر بأطار الحافظة، لأنّ الحادثة الواقعـة فى الخـارج ترتبـط بسلسـلة من الحوادث الاـخرى ومن موقع العلّـة والمعلول وترتبـط بمـا حولهـا من الحوادث بروابط عديـدة وحتميّـة، فالشـخص الـذى يصـوغ حادثـة مختلقـة يجـد نفسـه مضـطراً إلى أن يربطهـا بمـا قبلهـا وبعـدها من ظروف الزمـان والمكـان والأشـخاص والحوادث المحيطة بها وكل ذلك يجب أن يختلقة بما ينسجم مع هذه الحالة الكاذبة، وبما أنّ هذه الروابط ليس لها حد وحصـر، وعلى فرض أنّه استطاع أن يختلق عدّة حوادث وروابط منسجمة مع بعضها إلّا أنّه قد يترك ثغرات فى كلامه حيث يتّضح من ذلـك كـذبه مثـل مـا رأينـا من قصّـة يوسف عليه السـلام حيث جاء الأُخوة بقميصه الـدامى إلى أبيهم واختلقوا قصّـة أكل الـذئب له، ولكنّهم نسوا أن يمزقوا القميص من عدّة أماكن، وهكذا إتّضح كذبهم من بقاء القميص سالماً، أو مثل زوجة عزيز مصـر عندما إدّعت كذباً بأنّ يوسف كان يقصد بها سوء ولكنّها نسيت أنّ قميص يوسف عليه السلام قد قُدَّ من خلفه، وهذا دليل واضح على كذبها وأنّها هى التى كـانت تلحق يوسف عليه السـلام لا العكس. وفى هـذا العصـر فإنّ المحققين فى عالم الجريمـة يسـتطيعون بكل سـهولة ومن خلال الأسئلة المتعددة عن الحادثة ولوازمها وخصوصياتها أن يكشفوا صدق أو كذب المدّعى بحيث نادراً ما يفلت منهم كاذب دون أن يفتضح، أجل فإنّ الكاذب ليست له حافظة قويّة، وسوف يفتضح سريعاً على أيّة حال. الثانى: من النتائج السلبية للكذب هو أنّه يجر الإنسـان إلى أن يكـذب مرّات عديـدة أو يرتكب ذنوبـاً اخرى للتغطيـة على كـذبته الاـولى أو يرتكب حماقـات خطيرة لهـذا الغرض. الثـالث: من مضـرّات الكـذب هـو أنّه يبيـح للشـخص الكـاذب أن يغطى على خطيئته وإثمه ولو بشـكل مؤقت ويتسـتر على سـلوكياته المنحرفـة فى حين أنّه لو كان يتحرّك من موقع الصـدق فإنّه يجـد نفسه مضـطراً إلى ترك هـذه الأعمال القبيحـة. الرابع: من مضـرّات الكـذب هو أنّه يـدفع بصـاحبه إلى أن يسـلك فى خـط النفـاق ويصـبح من الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۱۹۹ زمرة المنـافقين، لأنّ الكـذب فرع من فروع النفاق، والكاذب هو الـذى يظهر غيرما يبطن ويتكلم بخلاف الواقع وبخلاف ما يعلمه فى نفسه، فهذا الاختلاف بين الظاهر والباطن سوف يسرى بالتدريـج إلى سائر أعماله وسـلوكياته حتى يمسـى منافقاً كاملًا. وقـد ورد فى الحديث الشـريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قـال: «الكـذب يؤدى إلى النفاق». الخامس: من مضـرات الكـذب هو أنّه لو كان الشـخص يتمتع بلياقات

كثيرة وطاقات ايجابية يمكنه إستخدامها فى حركة التفاعل الإجتماعى فأنّه لو كان كاذباً فى هذا المجال فسوف لا يستطيع الناس الإستفادة من لياقاته وطاقاته الإيجابيّة لأنهم سوف يتعاملون معه من موقع الشك والترديد فى سلوكياته وكلماته. ولهذا السبب نجد أنّ الروايات الإسلامية إعتبرت الكاذب مثل الميّت حيث ورد: «الكَذّابُ والمَيِّتُ سَواءٌ فإنَّ فَضِيلَةَ الحَيِّ عَلَى المَيِّتِ الثِّقَةُ بِهِ، فَإذا لَمْ يُوثَقُ بَكلامِهِ فَقَد بَطَلَتْ حَياتُهُ» «۱». السادس: من النتائج السلبية المترتبة على الكذب هو أنّ الإنسان وبالإستفادة من أداة الكذب يمكنه أن يرتكب أعمالًا قبيحة اخرى، فالحسود والحاقد والبخيل كل منهم يجد فى الكذب وسيلة للتغطية على أعمالهم وسلوكياتهم وهكذا الحال فى سائر الذنوب الاخرى، مثلًا عند ما يأتى إليه شخص ويطلب منه قرضاً فأنّه يكذب عليه ويقول: لقد إقترضت الآن مبلغاً من المال وليس لدى ما أعطيك منه، أو عندما يطلب منه أن يصف شخصاً من الأشخاص فأنّه وبسبب الحسد لا يذكر منه سوى صفاته السلبيّة والحال أنّ ذلك الشخص هو إنسان شريف وثقة. السابع: هو ما نراه من الآثار المخربة فى دائرة العلوم والمعارف البشرية، فلو أنّ المحققين والمخترعين والعلماء تحرّكوا من موقع الكذب فى تحقيقاتهم واكتشافاتهم فانّ جميع الكتب والدراسات العلميّة سوف يلحقها فيروس الشك والترديد وبالتالى لا ـ يضحى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۰ هناك إعتماد على تحقيقات ودراسات الآخرين فتتوقف حركة التطور الحضارى والعلمى فى المجتمع البشرى. وهناك نتائج سلبية ومضرات كثيرة اخرى تترتب على الكذب فى حركة الحياة الفردية. ومضافاً إلى هذه النتائج والآثار فى حركة الحياة للإنسان فانّ هناك مضرات معنوية تترتب على الكذب وردت الإشارة إليها فى الروايات الشريفة ومن ذلك: أنّ الملائكة تبتعد عن الإنسان كما قرأنا ذلك سابقاً فى الحديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال: «إذا كَذِبَ العَبدُ تَباعَدَ المَلَكُ مِنهُ مَسيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتِنِ ما جاءَ بِهِ» «۱». والآخر إنّ الكاذب يحرم من صلاة الليل كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «انَّ الَّرجُلَ لَيَكْذِبُ الْكِذْبَةَ فَيُحرَمُ بِها صَلاةَ اللّيْلِ، فَاذا حُرِمَ صَلاةُ اللّيْلِ حُرِمَ بِها الرِّزْقُ» «۲». والثالث أنّ الكذب يؤدّى إلى عدم قبول بعض العبادات، كما ورد فى الصوم فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «فَإذا صُمتُم فَاحفَظُوا أَلسِنَتَكُم عَنِ الكِذبِ وَغُضُّوا أَبصارَكُم» «۳». وهذا الحديث يدلّ على أنّ مثل هذه الأعمال المنافية للأخلاق تقلّل من قيمة الصوم. والآخر أنّ الكذب يتسبب فى قطع البركات الإلهية على الإنسان كما نقرأ ذلك فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «إذا كَذِبَ الولاةُ حُبِسَ المَطرُ» «۴». وقد وردت بعض الآثار السلبية للكذب فى الروايات والتى لها بعد معنوى مضافاً إلى البعد الاجتماعى والظاهرى، ومن ذلك ما يستفاد من الروايات المتعددة من أنّ الكذب يتسبب فى حرمان الإنسان من الرزق ويؤدّى به إلى الوقوع فى هوّة الفقر والمسكنة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۱ ففى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين قال: «إعتِيادُ الكِذبِ يُورثُ الفَقرَ» «۱». وفى حديث آخر عن رسول اللّه أنّه قال: «الكِذْبُ يُنقِّصُ الرِّزقَ» «۲». وهذا النقصان فى الرزق يمكن أن يكون له نتائج وخيمة فى دائرة الرزق المعنوى أو فى العلاقات الاجتماعية، لأنّ الكذب يسلب اعتماد الناس وثقتهم من هذا الشخص الكاذب، وبذلك سوف تتحدّد فعّاليته الاقتصادية ويتراجع نشاطه الاقتصادى وبالتالى يؤدّى إلى نقصان رزقه المادى أيضاً.

دوافع الكذب:

إنّ الكذب كما هو فى سائر الصفات الرذيلة له أسباب ودوافع مختلفة وأهمّها: ۱- ضعف الإيمان والعقيدة، لأنّه لو كان الكاذب عالماً بأنّ اللّه تعالى قادر رحيم وعالم بأمره فإنّه لا يجد فى نفسه حاجة إلى الكذب فى سبيل تحصيل المال أو نيل الجاه والمقام، ولا يرى أنّ توفيقه فى حركة الحياة مرتبط بالكذب ولا يخاف من الفقر ولا من تفرق الناس من حوله وزوال موقعيته الاجتماعية وقدرته على الكسب والرزق بل يرى ذلك مرتبط باللّه تعالى فلا يحتاج إلى الكذب فى نيل تحصيلها ولذلك ورد فى الرواية الشريفة عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «جانِبُوا الكِذْبَ فإنَّ الكِذْبَ مُجانِبُ الإيمانَ» «۳». ۲- والآخر من دوافع الكذب هو ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، فالأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة من ضعف الشخصية والحقارة يضطرون إلى التستر على ضعفهم ودناءتهم من خلال

استخدام الكذب، وقد ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا يَكذِبُ الكَاذِبُ إلّا مِنْ مَهانَةِ نَفسِهِ عَلَيهِ» «۴». ۳- ومن دوافع الكـذب أيضاً حالات الحسـد والبخل والتكبّر والغرور والعداوة بالنسـبة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۲ إلى الآخرين حيث يـدفعه ذلك إلى إتهامهم بما ليس فيهم أو التحـدّث عنهم من موقع الكـذب، وما دامت هـذه الحالات السـلبية تعتلج في ذات الإنسان وباطنه فإنّه سوف لا يجد خلاصاً من الكذب. ولهذا نرى أنّ المنافقين يتوسلون بحبل الكذب للتغطية على واقعهم السيء كما تقدّمت الإشارة إليه سابقاً. ۴- وممّا يورث الكـذب لـدى البعض هو الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والتلّوث بأنواع الذنوب والانحراف عن خط الحق والفطرة بحيث يصل به الحال إلى أن يقول: إنني إذا لم أكـذب فسوف لا أسـتطيع التعامل مع الآخرين ونيل الموفقيـة في حركة الحياة الاجتماعيـة مـن الكسب والتجـارة وأمثـال ذلـك. ۵- الـدوافع الاـخرى لشـيوع الكـذب هو العلاقـة الشديـدة بالـدنيا وحفـظ المقامات الاجتماعيـة وحتّى أنّه قـد يتوسل إلى ذلك بالكـذب على اللَّه ورسوله. ونقرأ في الخطبـة ۱۴۷ من نهـج البلاغة قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «وإنّه سَيأتِي عَلَيكُم بَعدِي زَمانٌ لَيسَ فِيهِ شَيءٌ أَخفَى وَلا أَظهَرَ مِنَ الباطِلِ وَلا أَكثَرَ مِنَ الكِذبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

طرق علاج الكذب:

لابدّ لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية وقطع جذورها من واقع النفس من سلوك الطريق المسـتخدم لعلاج سائر الرذائل الأخلاقية الاخرى، أي التعرّف في البدايـة على جذورها ودوافعها، فما لم يسـتطع الإنسان من إقتلاع جذور هذه الرذيلة من نفسه فإنّ هذه الشـجرة الخبيثة سوف تبقى وتشـتد في المستقبل، فلو كان الدافع للكذب هو ضعف الإيمان والاعتقاد بالنسبة إلى التوحيد الأفعالي، فيجب عليه تقوية دعـائم الإيمـان في نفسه وبـاطنه وليعلم أنّ اللَّه تعـالى قـادر على كـلّ شـيء وأنّ مفاتيـح الرزق والموفقيـة والعزّة والكرامـة بيـده فقط، ولذلك يتسنى له جبران عناصر الضعف في دائرة الإيمان وبالتالي يصدّه ذلك عن الكذب، وإذا كان الدافع لذلك هو الحسد والبخل والتكبر والغرور وأمثـال ذلك من الحالات الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۳ السلبية في دائرة الأخلاق، فيجب عليه السعي لعلاجها، وليعلم أنّه مـا لم يقطع عن نفسه جـذور هـذه الحالاـت السـلبية ويـداوي هـذه الأـمراض الأخلاقيـة فإنّه لا يتسـنى له أن يعيش الصـدق والكرامة والشـرف في حياته الفردية والاجتماعية. ومن جانب آخر يجب عليه التفكّر في الآثار السيئة والأضرار الوخيمة للكذب والتي تسبب له الفضـيحة في الـدنيا والآخرة، ومن المعلوم أنّ كل شـخص يتفكّر ويتـدبّر جيـداً فيما ذكرناه سابقاً من هـذه الأضـرار للكذب وخاصـة مـا ورد في الروايـات الشـريفة في هـذا البـاب فـإنّ ذلـك سـيكون رادعاً قوياً له عن سـلوك هـذا الطريق المنحرف. إنّ لقادة المجتمع وكبار الأشـخاص في الاسـرة دوراً مهمّاً في دفع الناس والأفراد نحو سـلوك طريق الصدق، لأنّه لو رأى الناس أو أفراد الاسرة أنّ كبيرهم وقائـدهم لاـ يتحرّك في تعـامله مع الآـخرين إلّـامن موقع الصـدق، فإنّهم سوف يتحرّكون كـذلك في تعاملهم وسـلوكهم الاجتماعي، بخلاف ما لو رأوا أنّ الكبار يتعاملون مع الآخرين بالكذب والدجل والخداع، فإنّ أفراد المجتمع والاسرة سرعان ما يتلوثوا بهـذه الصـفة الرذيلـة. كما نقرأ في الحـديث الشـريف عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله ضـمن بيانه عدم تلقين الناس الكذب حيث يقول: «لا تُلَقِّنُوا النّاسَ فَيَكـذِبُونَ فَإِنَّ بَنِي يَعقُوبَ لَمْ يَعلَمُوا إِنَّ الـذِّئبَ يَأكُلُ الإنسانَ فَلَمّا لَقَّنَهُم إِنِّي أَخافُ أَنْ يَأكُلُهُ الـذِّئبُ، قَالُوا أَكَلَهُ الذِّئبُ» «۱». أجـل، فإنّ ترك الأولى هـذا قـد صار ذريعـة بيـد أبناء يعقوب ليتحرّكوا من موقع الكـذب في مواجتهم للمشـكلة. وأحد الطرق المؤثرة في علاج الكـذب هوإيجاد قوّة الشخصـية لدى الأفراد لأنّه كما سـبقت الإشارة إليه أنّ أحد العوامل المهمّة للكذب هو الشـعور بالحقارة وضعف الشخصية، فالكاذب يريد جبران هذا النقص من خلال الكذب، فلو أنّه كان يجد الثقة في نفسه ويعيش حالة قوة الشخصـية ويرى أنّه قادر على كسب المقامات العاليـة في المجتمع بما لـديه من قابليات وملكات إيجابيـة فلا يجد في نفسه حاجة إلى اختلاق شخصـية كاذبة عن نفسه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۴ والظهور إلى الآخرين بغير واقعه. وخاصة إذا التفت المربّون والمصـلحون إلى هـذه الحقيقة في دائرة تربية الأفراد على الصدق، وهي أنّ الصادق في كلامه سـيكون في مرتبة المقرّبين والصديقين عند اللَّه تعالى، يحشـر مع الإنبياء والشـهداء يوم القيامة، فبديهي أنّ ذلك سيكون مشجعاً وحافزاً على إقبال الناس نحو الصدق، ويقول

القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً» «۱». والجدير بالذكر أن توغّل حالة الكذب الذميمة فى باطن الإنسان كما هو الحال فى الصفات الذميمة الاخرى يبتدأ من صغائر الامور وبالتدريج تجرّه إلى ما هو أخطر وأعظم كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إِتَّقُوا الكِذبَ فِى صَغِيرٍ وَكَبيرٍ فِى كُلِّ جِدٍّ وَهَزَلٍ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذا كَذِبَ فِى صَغِيرٍ إِجتَرأَ عَلَى الكَبِيرِ» «۲».

إستثناءات الكذب:

وبالرغم من أنّ الكذب من أهمّ الذنوب وأخطرها بحال الإنسان على المستوى المادى والمعنوى، والفردى والاجتماعى، ولكن مع ذلك هناك موارد عديدة وردت فى الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء وعلماء الأخلاق على شكل إستثناء من قبح الكذب. وهذه الموارد عبارة عن: ۱- الكذب لإصلاح ذات البين. ۲- الكذب لخداع العدو وفى ميادين القتال. ۳- الكذب فى مقام التقية. ۴- لدفع الظالمين. ۵- الكذب فى جميع الموارد التى يجد الإنسان نفسه وناموسه فى خطر محدق ولا نجاة له إلّابالتوسل بالكذب. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۵ ففى جميع هذه الموارد يمكننا استخلاص قاعدة كلية، وهى أنّه إذا كانت الأهداف الأهم فى خطر ولا يجد الإنسان لدفع هذا الخطر إلّابواسطة الكذب فيجوز له ذلك، وبعبارة اخرى: إنّ جميع هذه الموارد مشمولة لقاعدة الأهم والمهم، وعلى سبيل المثال فلو ابتلى الإنسان بجماعة متعصبة وجاهلة ومتوحشة وسألوه عن مذهبه، فلو أنّه قال الحقيقة لهم فأنّهم سوف يسفكون دمه فوراً، فالعقل والشرع هنا لا يبيحان له أن يصدقهم فى جوابه بل يجوز له الكذب حينئذٍ لإنقاذ نفسه من شرّهم، أو فى الموارد التى يكون هناك اختلاف شديد بين شخصين ويجد الإنسان لحلّ هذا الاختلاف والمشكلة العالقة بينهما طريقاً إلى ذلك بالاستعانة بالكذب (كأن يقول لأحدهما أنّ الشخص الفلانى يحبّك ويذكرك بالخير دائماً فى المجالس) ممّا يثير فى نفس الطرف الآخر أجواء المحبّة والصفاء والصلح بينهما، وهكذا فى أمثال هذه الأهداف المهمّة والغايات الخيّرة، لا أنّ الإنسان وبدافع من منافعه الشخصية والمصالح الجزئية يستخدم الكذب، فهذا الاستثناء لقبح الكذب تدخل فى دائرة الضرورة ولا يصح أن تكون مسوّغاً وذريعة بيد الأفراد لاستخدام أداة الكذب فى كل مورد من الموارد الجزئية. وفى الحقيقة فإنّ اباحة الكذب فى هذه الموارد الضرورية هى من قبيل حلّية (أكل الميتة) فى المواقع الضرورية حيث يجب التناول منها بمقدار الضرورة ولا يسلك الإنسان هذا الطريق إلّافى مواقع الضرورة. والدليل على هذه الاستثناءات مضافاً إلى القاعدة العقلية المذكورة أعلاه (قاعدة الأهم والمهم) هو الروايات المتعددة المذكورة فى المصادر الإسلامية عن المعصومين عليهم السلام: ۱- ففى حديث معروف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لَيسَ شَىءٌ مِما حَرَّمَ اللَّهُ إلّاوَقَد أَحَلَّهُ لِمَنِ اضطُرَّ إلَيه» «۱». ۲- وقد ورد عن الإمام على عليه السلام عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «إحلِفْ بِاللَّهِ كاذِباً ونَجِّ أَخاكَ مِنَ القَتلِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۰۶ ۳- وفى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «كُلُّ الكِذبِ يَكتُبُ عَلَى إبنِ آدَمِ إلّا رَجُلٌ كَذَبَ بَينَ رَجُلَينِ يُصلِحُ بَينَهُما» «۱». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الكِذبُ مَذمُومٌ إلّافِى أَمرَينِ دَفعُ شَرِّ الظَّلَمةِ وَإصلاحُ ذاتِ البَينِ» «۲». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «كُلُّ الكِذْبِ مَكتُوبٌ كِذباً لامَحالَةَ إلّا أنْ يَكذِبَ الرَّجُلُ فِى الحَربِ فَإنَّ الحَربَ خُدعَةٌ أو يَكُونَ بَينَ رَجُلَينِ شَحناءَ فَيُصلِحُ بَينَهُما أو يُحَدِّثُ إمرأَتَهُ يرضِيها» «۳». والمراد من الجملة الأخيرة ليس هو أنّ الإنسان متى ما أراد الكذب على زوجته جاز له ذلك، بل ناظرة إلى موارد تكون الزوجة لها توقّعات كثيرة وغير معقولة من زوجها أو أنّ إمكانات الزوج لا تستوعب كلّ هذه التوقّعات ولذلك يتحرّك الزوج فى تعامله معها من موقع الكذب والوعد بتحقيق مطالبها ليسكت اعتراضها وليهدّىء من ثورتها ويحتمل أن تنسى ذلك فيما بعد وتنتهى المنازعة فيما بينهما. ويصدق هذا المعنى أيضاً على توقّعات الزوج غير المنطقية كما وردت الإشارة إلى ذلك فى بعض الروايات أيضاً.

طريق الفرار من الكذب (التورية):

التوریة (علی وزن توصیة) تقال للکلام الذی یثیر فی نفس المستمع معنیً آخر غیر ما یقصده القائل، أو بتعبیر آخر: الکلام الذی یحتمل وجهین، ویتعلق به الأشخاص الذین یجدون فی أنفسهم حرجاً من الکذب، فمن جهة لا یرتکبون ذنب الکذب، ومن جهة اخری لا ـ یخبرون السامع بسرهم. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۷ والأمثلة التالیة توضّح هذا المعنی بصورة کاملة: ۱- إذا سأل الإنسان: هل إرتکبت المعصیة الفلانیة، فیقول فی مقام الجواب: استغفر اللّه، (فالمستمع یفهم من هذه العبارة النفی فی حین أنّ مراد المتکلّم هو الاستغفار من إرتکابه لذلک العمل). ۲- وقد یسأل شخص من آخر: هل أنّ فلاناً قد استغابنی وتکلّم عنّی بسوء أمامک؟ فیجیب: وهل أنّ هذا ممکن ومعقول (فالمستمع یفهم من هذا الکلام النفی فی حین أنّ مقصود المتکلّم هو الاستفهام لا غیر). ۳- إذا جاء شخص إلی باب دار شخص آخر وقال: هل أنّ فلاناً موجود فی البیت؟ فیقول الآخر فی مقام الجواب مشیراً إلی مکان معیّن: کلا لیس هنا (فالمستمع یتصوّر أنّه غیر موجود فی البیت فی حین أنّ مراد القائل أنّه غیر موجود فی ذلک المکان بالخصوص). ۴- وقد سئل من أحد العلماء عن الخلیفة الحق بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله من هو؟ ولم یکن ذلک العالم فی حالة تسمح له بالجواب بصورة صحیحة وشفافة فقال فی جوابه: (من بنته فی بیته). فتصوّر المستمع أنّ المراد هو أبا بکر الذی کانت إبنته عائشة فی بیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی حین أنّ مراد القائل هو أنّه إبنته أی إبنة رسول اللّه صلی الله علیه و آله فاطمة فی بیته، أی بیت علی بن أبی طالب علیه السلام. ۵- ونقرأ فی قصة محادثة سعید بن جبیر مع الحجّاج عندما سأله الحجاج عدّة أسئلة کذریعة لقتله فکان ممّا سأله: کیف تجدنی فی نظرک؟ فقال: أنت عادل (والعادل فی نظر العرب ترد فی معنیین) أحدهما بمعنی العدالة والآخر بمعنی العادل عن الحق، أی الکافر أو الذی یری عدیلًا أو شریکاً للّه‌تعالی کما ورد ذلک فی القرآن الکریم: «ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ» «۱». أی یجعلون له عدیلًا وشریکاً. وممّا تقدّم آنفاً یتّضح أنّ التوریة لیست من الکذب، لأنّ القائل لیس فی نیّته سوی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۸ الصدق وإرادة الجانب الصادق من کلماته، رغم أنّ المستمع یتصوّر المعنی الآخر من ذلک الکلام، ومن الواضح أنّ اشتباه المستمع فی فهم معنی کلام القائل لا ربط له بالقائل نفسه. وهنا یتّضح أیضاً أنّه فی الموارد التی یجد الإنسان ضرورة للاستفادة من الکذب إذا یمکن من التوریة وجب علیه استخدامها للتخلّص من الوقوع فی الکذب، وعلی هذا الأساس فإنّ الکذب لا یکون مباحاً فی موقع الضرورة إلّافیما لو کانت أبواب التوریة موصدة أیضاً، والاصطلاح العلمی أنّه لا تکون لدیه مندوحة. ومن هنا یتّضح أیضاً خطأ ما ذهب إلیه الغزالی من عدّه التوریة من مصادیق الکذب، ولکنّه قال بأنّ قبحها وفسادها أدقّ من مصادیق الکذب الاخری، إلّاأن یکون مراده من التوریة أمر آخر بحیث تعدّ من مصادیق الکذب واقعاً. وعلی أیّة حال فإنّ قبح الکذب وفساده إلی درجة کبیرة بحیث أنّ الإنسان لابدّ له من إجتنابه بالمقدار الممکن حتّی لو تمکّن إجتنابه عن طریق التوریة. ونلاحظ فی کلمات الأنبیاء الواردة فی القرآن الکریم والروایات الشریفة أنّهم قد یتخلّصون من الکذب بالتوریة فی بعض الحالات من قبیل ما نراه من محاجة إبراهیم علیه السلام لقومه من عَبَدْة الأوثان عندما سألوه عن الشخص الذی إرتکب عملیة تحطیم الأوثان والأصنام فقال فی مقام الجواب: «بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ کَانُوا یَنطِقُونَ» «۱». فرغم أنّ السامع لهذا الکلام یمکن أن یفهم منه أنّ إبراهیم علیه السلام نسب تحطیم الأصنام إلی کبیرهم أی الصنم الکبیر ولکنّ جملة (إن کانوا ینطقون) جاءت بعنوان شرط للمراد من الکلام، أی أنّهم لو کانوا ینطقون فإنّ هذا الفعل من فعل کبیرهم. وکذلک جملة «إِنَّکُمْ لَسَارِقُونَ» التی قالها عمال یوسف لأخوته، فمع ملاحظة الآیات السابقة قد ینعکس إلی الذهن أنّ هؤلاء الأخوة هم الذین سرقوا مکیال الملک فی حین أنّ مرادهم هو سرقة الأخوة لیوسف من أبیهم فی کنعان. وخلاصة الکلام أنّ التوریة والتکلّم بکلام یحتمل وجهین لیس من مصادیق الکذب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۰۹ اطلاقاً رغم أنّ السامع قد یفهم منه شیء آخر غیر ما یقصده المتکلّم وغیر ما یتطابق مع الواقع، ویکون مراد المتکلم صحیحاً ومتطابقاً للواقع، وأمّا من یری فی معیار الصدق والکذب هو ظاهر الکلام لا ـ المراد والمقصود القلبی للمتکلم فیمکن أن یعتبر التوریة نوع من الکذب الخفیف فی حین أنّها لیست کذلک، فمعیار الصدق والکذب هو المراد الجدّی للمتکلم الذی یتطابق مع محتوی ومضمون العبارة.

مثلًا قـد يسأل شـخص من آخر: هل أنّ هـذا اللباس قد أهداه لك الشـخص الفلانى؟ فى حين أنّ المخاطب قد لا يكون راغباً فى نفى هـذا المطلب بصـراحهٔ فيقـول فى جوابه من موقـع التوريـهٔ: أطـال اللّه عمره، فيحسب السـامع من هـذا الكلاـم أنّ المتكلم قـد أجاب بالإيجاب فى حين أنّ المتكلم لم يكن يقصد ذلك بل دعا إلى ذلك الشخص فقط. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۰

الوفاء بالعهد ونقض العهد

تنويه:

رأينا سابقاً أنّ أهم رأسـمال وأقوى دعامهٔ فى حياهٔ المجتمع الانسانى هو الأعتماد المتبادل بين الأفراد، فكل شىء يؤدّى إلى تقويهٔ هذا الإعتماد والثقـهٔ المتبادلـهٔ فانّ ذلك من شأنه أن يحقق للجميع السـعادهٔ والتطور الحضارى والإنسانى، وعلى العكس من ذلك فانّ كلّ شىء يفضـى إلى ارباك هـذا العنصـر المهم فأنّه يؤدّى إلى إنحطاط المجتمع وسـقوطه. ومن أهم الامور التى تعمل على تقويـهٔ دعائم الثقـهٔ العامـهٔ والخاصـهٔ بين الأفراد هو (الوفاء بالعهـد والميثاق) الـذى يعـد من الفضائل الأخلاقيـهٔ المهمـهٔ فى حركهٔ الإنسان التكاملية، وبعكس ذلـك (نقض العهـد) الـذى يعـد من أسوأ الخصـال والرذائـل الأخلاقيـهٔ. إنّ لزوم الوفـاء بالعهـد يعـدّ ركناً من أركان الفطرهٔ الإنسانيـهٔ السـليمهٔ، وبتعبير آخر إنّ هـذا المفهوم هو من الأـمور الفطريـهٔ غير القابلـهٔ للإنكـار. والفطرهٔ هى من الامور التى يـدركها كل إنسان ويقبلها كل شـخص بـدون الحاجهٔ إلى دليل وبرهان، من قبيل حسن العدل وقبح الظلم وكذلك أهميهٔ الوفاء بالعهد وقبح نقض العهد حيث تعتبر من أوضح الامور الفطريهٔ لدى الناس، وكل إنسان عندما يراجع وجدانه يرى صحهٔ هذه المفاهيم ويسلم بها من موقع القبول والإذعان الوجـدانى، ولهذا السـبب فانّ هذه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۲ المفاهيم يقبل بها كل قوم من الأقوام البشـريهٔ سواءاً كانوا على دين معين ومذهب سـماوى أولم يكونوا كذلك، فانّ الوفاء بالعهد مطلوب عند جميع الأمم والشـعوب حتى أنّ الذى يتحرك على مسـتوى نقض العهد يسـعى إلى ذريعهٔ وحجهٔ لتبرير هذا التصـرف حتى لا يتهم بنقض العهد ولا يزول إعتباره وشخصيته بين الآخرين، لأنّه يعلم أنّ الناس لا ترضـى بنقض العهـد ولا تحب المرتكب لهـذا الفعل حيث لا تبقى قيمـهٔ وإعتبار لـديهم لمن يتهم بنقض عهـده ووعـده وسـيفقد بـذلك تأييد الناس وحبّهم وتعاونهم معه. وحتى فى الأقوام الجاهلية نرى أنّ الوفاء بالعهد والميثاق يعدّ من الوظـائف والواجبـات الحتميـهٔ للأفراد حيث نجـد سـعيهم الكبير فى حفـظ عهودهم والتعامـل مع الآـخرين من موقع الوفـاء بالعهد والميثاق، ونقرأ فى الآيات القرآنيـهٔ والروايات الإسـلاميهٔ فى هـذا الباب تعابير قويـهٔ وشديـدهٔ تبين الوفاء بالعهـد وتـذم الذين ينقضون العهـد والميثـاق. وبهـذه الإشارهٔ نعود إلى القرآن الكريم لنسـتوحى من آياته وضوحاً أكثر فى هـذا الباب: ۱- «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» «۱». ۲- «وَالَّذِينَ هُمْ لِامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» «۲». ۳- «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» «۳». ۴- «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»» .۵- «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» «۵». ۶- «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» «۶». الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۳ ۷- «وَمَا وَجَدْنَا لِاكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ» «۱». ۸- «أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايُؤْمِنُونَ» «۲».

تفسير وإستنتاج:

«الآيهٔ الأولى» من الآيات محل البحث تتحدث عن الأساس والأصل لجميع أعمال الخير والصـلاح وتذكر ستهٔ صفات وعناوين لذلك، الأول منها هو الإيمان باللّه تعالى ويوم القيامهٔ والملائكهٔ والأنبياء والكتب السـماويهٔ، ثم تأتى بعدها مسألهٔ الأنفاق فى سبيل اللّه وتشـير أيضاً إلى إقامهٔ الصلاهٔ وأداء الزكاهٔ، وتذكر فى الصفهٔ الخامسهٔ من هذه الصفات (الوفاء بالعهد) وفى الصفهٔ السادسهٔ تأتى أهميهٔ الصبر

والأستقامة فى مقابل تحدّيات الواقع الصعبة والمشاكل التى تواجه الإنسان فى حركة الحياة والصبر فى ميدان القتال، وبالنسبة إلى الوفاء بالعهد تقول «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا». وهذا التعبير يوضّح، أنّ الوفاء بالعهد فى دائرة المفاهيم الإسلامية والقرآنية مهم إلى درجة أنّه وقع رديفاً للإيمان باللَّه والصلاة والزكاة. ومع ملاحظة أنّ المادة الأصلية لهذه الكلمة (وفى هى أن يصل الشىء إلى حدُّ الكمال والتمام، فعندما يترجم الشخص عهده ووعده عملياً على أرض الواقع يقال له (وفى بعهده) أو (أوفى بعهده)، وعليه فإنّ الثلاثى المجرّد أو المزيد لهذه المفردة يأتيان بمعنى واحد. وكلمة (عهد) تأتى فى الأصل بمعنى (الحفظ) ولهذا فإنّها تقال لكل شىء لابدّ من حفظه والاهتمام به فيقال (عهد) لذلك. والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم حث على وجوب الوفاء بالعهد فى هذه الآية بدون أى قيد وشرط، وعليه فإنّه يشمل جميع أشكال العهد مع اللَّه تعالى ومع الناس، سواءً كانوا مسلمين أو غير مسلمين، أى مادام الشخص قد ارتبط بعهد وميثاق مع المسلمين، فيجب الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۴ عليهم مراعاة عهده والوفاء به. «الآية الثانية» تستعرض صفات المؤمنين الحقيقيين وتفتتح السورة آياتها بالقول «قَد أَفلَحَ المُؤمِنُونَ» ثم تذكر سبع صفات من الصفات المهمّة والأساسية للمؤمنين، وفى الصفة الخامسة والسادسة تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». وفى هذه الآية والتى وردت فى القرآن الكريم فى سورتين نجد أنّها أشارت إلى الأمانة والعهد بصورة مقترنة، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ الأمانات هى نوع من العهد والميثاق كما أنّ العهد هو نوع من الأمانة. والتعبير بكلمة (راعون) المأخوذة فى الأصل من (رعى) يتضمّن مفهوماً أعمق من مفهوم الوفاء بالعهد، لأنّ الرعاية والمراعاة تأتى بمعنى المراقبة الكاملة من موقع المحافظة بحيث لا يصل أى مكروه أو ضرر للشىء، فالإنسان الذى قبل الأمانة أو ارتبط مع غيره بعهد وميثاق يجب عليه مراعاته بحيث لا يصل أى ضرر لهذه الأمانة والعهد. وطبعاً فإنّ الأمانة لها مفهوم واسع جدّاً وكذلك العهد أيضاً حيث ستأتى الإشارة إلى ذلك لاحقاً. «الآية الثالثة» تتحدّث عن مسألة لزوم الوفاء بالعهد بتعبير جديد وتقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». وقد ذكر المفسّرون تفسيرات عديدة فى جملة «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». أحدها: ما ذكرنا آنفاً من أنّ الإنسان هو المسؤول، والعهد مسؤول عنه، يعنى أنّه يسأل الإنسان عن وفائه بعهده. والآخر: أنّ نفس العهد يكون مسؤولًا، كما ورد فى عبارة الموؤدة التى يسأل عنها «إذا المَوؤُدةُ سُئِلتْ» وكأنّه إشارة إلى الموجودات العاقلة والحية التى يسأل منها، هل نالت حقّها ووفى الإنسان لها أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۵ وهذا هو نوع من المجاز الذى يستعمل للتأكيد. ولكن التفسير الأول أقرب لسياق الآية وأكثر إنسجاماً معها. وضمناً يجب الالتفات إلى أنّ سورة الاسراء وردت فى بيان أهم الأحكام الإسلامية من الآية ۲۲ إلى ۳۹، من مسألة التوحيد إلى حق الوالدين إلى قتل النفس والزنا وأكل أموال اليتامى والوفاء بالعهد وحتى مسؤولية العين والاذن والقلب، وهذا يبيّن أنّ مسألة الوفاء بالعهد جاءت ضمن إطار أهم الأحكام الإسلامية. واللطيف أنّ هذه الأحكام ختمت بقوله تعالى: «ذَلِكَ مِما أَوحَى إِلَيكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكمَةِ». وفى «الآية الرابعة» بعد أن يذم القرآن الكريم طائفة من أهل الكتاب الذين لم يراعوا الأمانة فى تعاملهم تقول: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ». وهنا نجد أنّ الوفاء بالعهد وقع رديفاً للتقوى التى هى أفضل زاد السالك إلى اللَّه تعالى وسبب ورود الإنسان إلى الجنّة والمعيار الأتم لشخصية الإنسان ومقامه عند اللَّه تعالى. وهذا التعبير يدلّ على أنّ الوفاء بالعهد هو أحد الفروع المهمّة للتقوى، وتعبير الآية هنا هو من قبيل ذكر العام بعد ذكر الخاص. «الآية الخامسة» من الآيات مورد البحث تتحدّث عن ضرورة احترام العهود من قبل المسلمين تجاه المشركين وتأمرهم بالوفاء بعهودهم ما دام المشركون لم يتحرّكوا فى تعاملهم مع المسلمين من موقع النقض لهذه العهود (رغم أنّ الصارف المقابل هم من الكفّار المشركين)، فتقول الآية: (بعد إعلان البراءة من المشركين كافّة) «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ». ونعلم أنّ مراسم البراءة من المشركين وقعت فى السنة التاسعة للهجرة وبعد فتح مكّة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۶ واستقرار الإسلام فى ربوع الحجاز والجزيرة العربية حيث أمر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الإمام على عليه السلام بقراءة الآيات الاولى من سورة براءة لمراسم الحج أمام جميع الناس والإعلان للمشركين بأنّه بقيت لهم فرصة أربعة أشهر فأمّا أن يتركوا الشرك ويدخلوا فى الإسلام أو يمتنعوا من الدخول إلى المسجد الحرام، وبعد انقضاء الأشهر الأربعة عليهم

فيما لو لم يتركوا الشرك وعبادة الأوثان أن يستعدوا لمواجهة المسلمين عسكرياً. ولكن مع هذا الحال فإنّ بعض المشركين كانت تربطهم بالمسلمين رابطة العهد والميثاق فأمر اللَّه تعالى أن يحفظوا لهم عهودهم إلى انتهاء مدّتهم. وهنا يتبيّن من خلال إستثناء هذه الطائفة إلى جانب ما ورد من التعبير الشديد فى بداية سورة التوبة، يتبيّن من ذلك الأهميّة الكبيرة التى يوليها الإسلام للوفاء بالعهد، ويتبيّن أيضاً ضمن هذا الاستثناء أنّه عندما يلغى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عهده وميثاقه مع بعض الطوائف الاخرى فالسبب فى ذلك أنّهم كانوا قد بدأوا نقض العهد أولًا، وإلّا فلا دليل على اختلاف تعامل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله معهم عن غيرهم. وفى ذلك اليوم كانت وظيفة الإمام على عليه السلام هى أن يعلن للناس فى مراسم الحج أربع مواضيع: ١- إلغاء العهود مع المشركين الذين سبق وأن نقضوا عهدهم مع المسلمين. ٢- منع المشركين من الاشتراك فى مراسم الحج للسنة القادمة. ٣- منع ورود المشركين إلى بيت اللَّه الحرام. ۴- منع الطواف فى حالة التعرّى والتى كانت سائدة فى ذلك الزمان. وعلى أية حال ونظراً إلى أنّ هذه الواقعة كانت بعد فتح مكّة وأنّ المسلمين كانوا قد سيطروا على تلك المنطقة سيطرة تامّة ولا تستطيع أى قدرة أن تقف فى مقابلهم إلّاأنّهم فى نفس الوقت احترموا عهودهم مع طائفة من المشركين، وبذلك يتّضح أنّ مسألة الوفاء بالعهد لا تقبل المساومة تحت أية ظروف «١». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٢١٧ والملفت للنظر أنّ مدّة العهد الباقية لهذه الطائفة (قبيلة بنى خزيمة) عشر سنوات منذ صلح الحديبية، وكان قد بقى لديهم من هذا الزمان وهو عام الفتح سبع سنين، حيث يجب على المسلمين تحمّل وجودهم إلى نهاية هذه المدّة الطويلة، فمع أنّ موقف الإسلام الشديد تجاه مسألة الشرك والوثنية إلّاأنّه مع ذلك أوجب على المسلمين رعاية هذا الحق فى هذه المدّة الطويلة. «الآية السادسة» تخاطب جميع المسلمين وتأمرهم بالوفاء بعهد اللَّه وتقول: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا». أمّا المراد من عهد اللَّه تعالى فى هذه الآية ما هو؟ فهناك اختلاف بين المفسّرين، فمنهم من ذهب إلى أنّ معناه هو العهود التى يبرمها الناس مع اللَّه تعالى، أو البيعة مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد هو جميع العهود التى يبرمها الإنسان مع اللَّه تعالى أو مع الناس أو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وعليه يكون لها مفهوم عام وأنّ اللَّه تعالى أمر بذلك، فهو نوع من عهد اللَّه تعالى، أو يكون المراد العهود التى تبرم بين الأشخاص فى ظل اسم اللَّه تعالى كما يشبه الإيمان القسم الذى يورده الإنسان باسم اللَّه مع الآخرين. وعلى كلّ حال فإنّ مفهوم الآية سواء كان عامّاً أو خاصّاً فإنّه يدل على أهمية الوفاء بالعهد فى دائرة المفهوم القرآنى والإسلامى. واللطيف أنّ القرآن الكريم بعد أن ذكر مسألة الوفاء بالعهد والقسم فى هذه الآية فإنّه يتابع ذلك بالقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» «١». ويستفاد من هذا التعبير أنّ عدم الالتزام باليمين والعهد من موقع الوفاء والانضباط هو نوع من الحماقة والسفه، وكذلك الحال فى الاستفادة من العهود لغرض الخيانة والخداع والفساد. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٢١٨ ودليل ذلك واضح، لأنّه لو تزلزلت أركان الوفاء بالعهد واليمين فى المجتمع البشرى فإنّ ذلك من شأنه أن يثير الفوضى وعدم الثقة بالآخرين، وفى الواقع فإنّ الناقضين للعهود يضربون جذورهم بأيديهم، ولهذا فلا يوجد عاقل يرتكب مثل هذه الحماقة. ونظراً إلى أنّ بعض الأقوياء أو الفئات المتنفّذة فى المجتمع تبيح لنفسها أحياناً نقض العهد بذرائع واهية وتتحرّر من قيود القيم والتعهدات الفردية والاجتماعية لذلك يقول القرآن الكريم: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» وهو فى الحقيقة إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّه إذا كانت فئة من الناس أقوى وأكثر عدداً من فئة اخرى فلا ينبغى ذلك أن يكون مسوّغاً لنقض العهد من قبلهم، لأنّ ذلك سوف يتسبب فيما بعد بالحاق الضرر لهم، فالآخرون عندما تسنح لهم الفرصة ويكونون أقوياء فى المستقبل سوف يعاملوهم بنفس المعاملة. وهذه الآية لا تقرّر ضرورة الوفاء بالعهد فى الإطار الفردى فحسب، بل تتسع لتشمل البنود والمواثيق الجماعية والعالمية أيضاً كما تشير إلى ذلك هذه العبارة من الآية الشريفة: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ». وفى «الآية السابعة» يشير القرآن الكريم إلى سيرة الأقوام السالفة وعاقبتهم المؤلمة ويذكر بعض نقاط ضعفهم وانحرافهم، ومن ذلك يشير إلى أمرين مهمين فى دائرة السلوكيات السلبية الذميمة، يقول: «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ». وهذا العهد هو العهد العام الذى أخذه اللَّه على الامم السابقة ولكنّهم نقضوه ولم يفوا به، ولكن ما هو ذلك

العهد العام؟ هناك اختلاف وكلام بين المفسّرين فى هذا المجال، فذهب البعض إلى أنّ المراد منه العهد والميثاق الفطرى الذى قرّره اللَّه تعالى فى واقع الفطرة لجميع الناس أن يتحرّكوا فى خط التوحيد والتقوى والاستقامة، مضافاً إلى أنّ النعم والمواهب الإلهية المعطاة للإنسان الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۱۹ من العقل والعين والاذن وغير ذلك، فإنّ مفهومها أنّ الإنسان يستخدمها فى طريق الخير والصلاح ويفتح أبواب عقله وفكره على الحقائق والامور الواقعية ويذعن لها من موقع الطاعة والإيمان ولا يستسلم أمام الأوهام والخرافات ولا يتحرّك بوحى الأهواء والشهوات. وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلى العهد والميثاق الذى أخذه الأنبياء عليهم السلام على الناس فى بداية الدعوة ولكن الكثير من الناس الذين يقبلون بهذه الدعوة السماوية فى البداية، فإنّهم ينقضونها فيما بعد ويتحرّكون فى خط الانحراف والباطل. ويمكن أن تكون إشارة إلى جميع العهود والمواثيق المذكورة آنفاً سواءً الفطرية والتشريعية. وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة محل البحث شاهدة على هذه الحقيقة، وهى أنّ مسألة نقض العهد وعدم الالتزام بالمواثيق هى أحد العوامل المؤثّرة فى شقاء الامم وانحطاطهم وسلوكها فى خط الانحراف والضياع كما نجد هذا الحال فى الامم الدنيوية المعاصرة التى تلتزم بالعهود والمواثيق مادامت ضعيفة ولكن إذا وجدت فى نفسها قوّة وقدرة على الطرف الآخر فإنّها لا تعترف بأى عهد وميثاق، بل تكون الرابطة بينهما هى رابطة القوة، والقانون هو قانون الغاب. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث بعد أن تتحدّث عن بعض جرائم اليهود وأزلامهم تقول: «أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»، ونقض العهد هذا من جانبهم يدلّ على كفرهم وعدم إيمانهم. فمن جهة نرى أنّهم قد أخذ عليهم العهد بأن يؤمنوا بالنبى الموعود الذى وردت البشارة به فى التوراة، ولكنهم ليس لم يؤمنوا به فحسب بل أنهم نقضوا العهود مع هذا النبى بعد هجرته إلى المدينة وانضمّوا إلى صفوف أعدائه وخاصة فى حرب الأحزاب حيث إتحد اليهود مع المشركين ضد رسول اللَّه والمسلمين فى المدينة وأجهروا بعداوتهم واستعدوا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۰ للمشاركة فى قتال المسلمين. وهذا هو خلق اليهود القديم حيث ينقضون العهود والمواثيق دائماً؛ وينسون جميع المقررات والعهود فيما لو تعرضت مصالحهم إلى الخطر فى أى زمان ومكان. وفى هذا العصر أيضاً نجد صدق قول القرآن الكريم فى هذا الوصف لليهود والصهاينة وأنهم كلما تعرضت منافعهم إلى الخطر فأنهم يسحقون جميع العهود والمواثيق التى أمضوها مع مخالفيهم وحتى إنّهم لا يلتزمون بالمعاهدات الدولية فى دائرة الروابط بين الشعوب والدول والتى اشتركت فى تدوينها وإمضائها جميع الدول، فنجدهم يتمسكون بذرائع واهية وتبريرات سخيفة ليتحرّكوا فى تعاملهم من موقع نقض العهود والمواثيق، وهذه المسألة واضحة فى عصرنا الحاضر إلى درجة أنّ بعض المفسرين ذكر فى تفسير الآية أعلاه أنّ هذه الآية معجزة قرآنية حيث أخبرت عن المستقبل البعيد وكأنّنا نرى بأمّ أعيننا نقض العهود والمواثيق لبنى إسرائيل حاضراً، كما كانوا فى عصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. لقد كان لهؤلاء عهود ومواثيق كثيرة مع نبيّهم موسى والإنبياء الذين جاءوا من بعده وكذلك مع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنهم لم يفوا بواحدة من تلك العهود والمواثيق. والتعبير بكلمة (فريق) فى بداية الآية، وكذلك التعبير (أكثرهم) فى ذيل الآية يشير إلى أنّ المراد بالفريق هنا هو أكثر هذه الطائفة من الناس، وكذلك يشير إلى أنّ العلاقة بين نقض العهد وعدم الإيمان هى علاقة وثيقة. إنّ سياق الآيات الشريفة المذكورة آنفاً يدل بصراحة على أنّ الوفاء بالعهد والميثاق له منزلة رفيعة ومكانة سامية من بين المفاهيم الإسلامية والتعاليم القرآنية، فهو أحد علائم الإيمان ويقع فى مرتبة التقوى والأمانة، وعلى درجة من الأهمية بحيث أنّ المسلمين وغير المسلمين سيان فى ذلك، أى أنّ المسلم أو جماعة المسلمين إذا إرتبطوا بعهدٍ وميثاق مع آخرين فيجب عليهم الألتزام بذلك العهد والميثاق سواءاً كان الطرف الآخر مسلماً أو كافراً مادام ذلك الطرف ملتزماً بذلك العهد، وأيضاً تدل هذه الآيات على أنّ أحد أهم العوامل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۱ والأسباب فى شقاء الإنسان وإنحطاطه هو نقض العهد وعدم الوفاء به.

الوفاء بالعهد فى الروايات الإسلامية:

اشارة

وقد وردت في النصوص الدينية تعبيرات مهمّة ورائعة جدّاً في هذا الباب يمكنها أن تكون درساً لنا في تبيين معالم هذه الصفة الأخلاقية الكريمة. وهنا نختار بعض النماذج من هذه الأحاديث لنضعها بين يدى القارىء الكريم: ١- ما ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قوله في جملة مختصرة: «لا دِينَ لِمَنْ لاعَهدَ لَهُ» «١». وهذا التعبير يشير إلى أنّ جميع معالم الدين وأركانه يتلخص بالوفاء بالعهد بالنسبة إلى الخالق والخلق وعلى الأقل أنّه أحد الأركان المهمّة للدين، ولذلك ورد في حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَصلُ الدِّينِ أداءُ الأَمانَةِ وَالوَفَاءِ بِالعُهُودِ» «٢». ٢- وفي حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً: «ما أَيقَنَ بِاللَّهِ مَنْ لَم يَرعِ عُهُودِهِ وَذِمَّتِهِ» «٣». لأنّ الناقض للعهد يرى منافعه ومصالحه في دائرة عصيان اللَّه تعالى ومخالفته، وهذا إنّما يدلّ على عدم توحيده واهتزاز عقيدته في دائرة التوحيد الأفعالي. ٣- ونقرأ في عهد الإمام علي عليه السلام المعروف لمالك الأشتر رضي الله عنه حيث أكّد الإمام علي عليه السلام على مسألة الوفاء بالعهد في مقابل أي إنسان وأي طائفة من البشر باعتباره من أهم المسائل على مستوى الحكومة والتعامل مع الناس حيث قال: «وإنَّ عَقَدتَ بَينَكَ وَبَينَ عَدُوِّكَ أو أَلبَستَهُ مِنكَ ذِمَّةً فَحُطَّ عَهدَكَ بِالوَفاءِ وَارعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمانِةِ، وَاجعَلْ نَفسَكَ جُنَّةً دُونَ ما أَعطَيتَ فَإِنَّهُ لَيسَ مِنْ فَرائِضِ اللَّهِ شَيءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيهِ إجتِماعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهوائِهِم وَتَشَتُّتِ آرائِهِم مِنْ تَعظِيمِ الوَفاءِ بِالعُهُودِ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ المُشرِكُونَ فِيما بَينَهُم دُونَ المُسلِمِينَ لِمَا الاخلاق في القرآن، ج٣، ص: ٢٢٢ استَوبَلُوا مِنْ عَواقِبِ الغَدرِ» «١». ۴- ونقرأ في حديث آخر قول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أَقرَبُكُم غَداً مِنِّي فِي المَوقِفِ أَصدَقُكُم لِلحَدِيثِ وَأَدّاكُم لِلأَمانَةِ وَأَوفاكُم وَأَحسَنُكُم خُلقاً وَأَقرَبُكُم مِنَ النّاسِ» «٢». ۵- ونقرأ في حديث آخر حول أهميّة الوفاء بالعهد والعواقب الوخيمة لنقض العهد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَيُّها النَّاسُ إنَّ الوَفاءِ تَوأَمُ الصِّدقُ، وَلا أَعلَمُ جُنَّةً أَوفى مِنهُ وَما يَغدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيفَ المَرجَعُ، وَلَقَد أَصبحنا فِي زَمانٍ أَتَّخَذَ أَكثَرَ أَهلِهِ الغَدرَ كَيساً، وَنَسَبَتهُم أَهلُ الجَهلِ فِيهِ إلى حُسنِ الحِيلَةِ، ما لَهُم قاتَلَهُم اللَّهُ قَد يَرَى الحُوَّلُ القُلَّبُ وَجهَ الحَيلَةِ وَدُونَها مانِعٌ مِنْ أَمرِ اللَّهِ وَنَهيِهِ» «٣». فهنا نجد أنّ الإمام عليه السلام يشكو من تغيّر الحال في عصره وزمانه وكيف أنّ الناس يرون في المنكر والحيلة ونقض العهود من كمال العقل والتدبير ويعتبرون التقوى والصدق والوفاء بالعهد نوع من الضعف وكما يقول الشاعر: غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغدرُ واتّسعتْ مسافَةُ الخُلفِ بَينَ القَولِ وَالعَملِ ونجد في عصرنا الحاضر أنّ الوفاء بالعهد قليل جدّاً، بل نادر حيث يسود نقض العهود في ما يتعلق بالروابط بين الأفراد والمجتمعات البشرية وأنّ الفاصلة بين القول والعمل كبيرة جدّاً. ۶- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «ثَلاثٌ لَم يَجعَلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِأَحِدٍ فِيهِنَّ رَخصَةً أداءِ الأَمانِةِ إلَى البَرِّ وَالفاجِرِ، وَالوَفاءِ بِالعَهدِ لِلبَرِّ وَالفاجِرِ، وَبِرُّ الوالِدِينِ بَرِّينَ كانا أو فاجِرِينِ» «۴». وجاء نفس هذا المضمون في رواية اخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً «۵». الاخلاق في القرآن، ج٣، ص: ٢٢٣ وهذا الحديث يدلّ بوضوح على أنّ قانون الوفاء بالعهد وأداء الأمانة والإحسان إلى الوالدين لا يقبل الاستثناء أبداً. ٧- وجاء في حديث آخر عن الإمام عليه السلام يُشبّه العهد بالطوق المحيط برقبة الإنسان ويقول: «إنَّ العُهُودَ قَلائِدٌ فِي الأعناقِ إلى يَوم القِيامَةِ فَمَنْ وَصَلَها وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ نَقَضَها خَذَلَهُ اللَّهُ» «١». ٨- وجاء في حديث آخر أنّ شخصاً سأل الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: «أَخبِرنِي بِجَمِيعِ شَرايعِ الدِّينِ» قال الإمام في جوابه: «قَولُ الحِقِّ وَالحُكم بِالعَدلِ وَالوَفاءِ بِالعَهدِ» «٢». ٩- وورد في حديث مختصر وعميق المحتوى عن أمير المؤمنين أنّه قال: «أَشرَفُ الخَلائِقِ الوَفاءِ» «٣». ١٠- ونختم هذا البحث بحديث مهم آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله (رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب) حيث قال: «إذا نَقَضَوا العَهدَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِم عَدُوِّهِم» «۴». وهنا نرى حقائق مهمّة فيما ورد من الروايات الشريفة أعلاه عن أهميّة الوفاء بالعهد ومعطياته الكثيرة وآثاره العميقة في حياة الإنسان الفرديّة والاجتماعية بحيث أنّ الوفاء بالعهد يعدّ (أساس الدين) و (علامة اليقين) و (سبب القرب من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم القيامة) و (الدرع الحصينة مقابل الحوادث الاجتماعية)، مضافاً إلى الروايات الإسلامية التي تصّرح بأنّ الوفاء بالعهد هو قانون إلهي شامل للمسلم والكافر، وأنّ الوفاء بالعهد (علّة الفلاح والنصر والعزّة) وأنّ نقض العهد سبب في (الحرمان من الألطاف الإلهية).

۱- المعطيات الفردية والاجتماعية للوفاء بالعهد

رأينا فيما تقـدّم أنّ جميع أشكال التطور العلمى والثقافى والاقتصادى الـذى ناله الإنسان إنّما هو وليـد الحياة الاجتماعيـة للبشـر، حيث تلتقى تجارب الأفراد وتنظم أفكارهم بعضـها إلى بعض وتتلاقح عقولهم وبذلك تتولّد المنتوجات الصـناعية المتنوعة وأشكال التمدن والحضـارة البشـرية فى حركـة الامم الحضاريـة. فلو أنّ أفراد البشـر عاشوا متفرّقين كل على إنفراد فعلى فرض أن يكسبوا تجارب فى حركـة حياتهم الفرديـة، إلّاأنّهم سوف يـذهبون بها معهم إلى القبر، فلا حركـة ولا علامـة على وجود تحوّل حضارى وتطور علمى فى البشـرية، ولهـذا السبب بالـذات فإنّ الإسـلام أعطى أهميّـة فائقـة لتحكيم وتقويـة دعائم الحياة الاجتماعيـة بين الأفراد وتعميق أواصر العلاقات بينهم، ومن المعلوم أنّ كل شـىء يؤدّى إلى تقويـة هـذه العلاقات الاجتماعيـة، فإنّه مطلوب وممدوح فى نظر الإسـلام، وكلّ شىء يتسبب فى أضعاف هذه العلاقات فإنّه منفور ومذموم. وبديهى أنّ أول عنصر يتسبب فى تقوية هذه الروابط والعلاقات بين أفراد البشـر وبالتالى يترتّب عليه زيادة التعاون والتكاتف فى المجتمع هو مسألـة الوفاء بالعهود والمواثيق، فلو أنّ هذه المسألة قد تركت ليوم واحـد بين الأـفراد وبين الشـعوب العالميّـة فـإنّ مفاصـل الحضـارة البشـرية سوف تتعرّض للأـهتزاز والارتباك وتتوقف بـذلك مسيرة الحضارة الإنسانية والتكامل البشـرى، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تَعتَمِد عَلى مَودَّة مَنْ لا يَفِى بِعَهدِهِ» «۱». وأساساً يمكن القول بأنّ ميزان موفقيّة الأشـخاص فى حياتهم الدنيوية يرتبط بمدى التزامهم بعهودهم، فما كان منهم أكثر وفـاءً بعهـده فهو أعزّ وأشـرف فى نظر النـاس، وفى ذلـك يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام فى حـديث آخر: «الوَفـاءُ حِصْـنُ السُّؤدَدِ» «۲». وفى النقطـة المقابلة نجد أنّ نقض العهد إذا ساد فى أجواء المجتمع البشـرى، فإنّه يفضـى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۵ إلى سـلب الثقة بين أفراد المجتمع ويتلاشى عنصر الإتّحاد والتكاتف فيما بينهم وبالتالى فإنّهم لا يستطيعون التصدى للعدو، ولهذا نقرأ فى الحديث الشـريف عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا نَقَضُوا العَهدَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِم عَدُوَّهُم» «۱». إنّ الوفاء بالعهد يتسـبب فى أن يعتمـد الناس على هذا الشـخص وبذلك يضـعوا عنده رؤوس أموالهم من موقع الثقة به للإتّجار بها فينتفع هو وكذلك الآخرون من نشاطه الاقتصادى، فينال بـذلك الرفاه والسعة فى معيشـته، ولهـذا نجـد أنّ جميع الدول فى العالم تسـعى إلى تحقيق هذا المعنى أى الالتزام بالعهود والمواثيق من أجل ترشـيد وضـعهم الاقتصادى والاجتماعى وإلّا يكون نصـيبهم الانزواء والعزلة والتلف عن الحركـة الصـناعية والتجاريـة فى العـالم، وحتى بالنسبـة إلى الـدول التى عـاشت حالـة الثورة على النظام السابق، فإنّ قادة الثورة عنـدما يستلمون زمـام الامـور يعلنون التزامهم بجميع العهود والمواثيق التى كـانت من النظـام السابق حتّى لو كانت تلك العهود على خلاف ذوقهم ومسـيرتهم، لأنّه ليس لهم طريق سوى كسب الثقـة العالميـة من خلال هـذا الالتزام الإنسانى والأخلاقى، وهـذه المسألـة تصدق أيضـاً على الأفراد والأشـخاص، ومضافاً إلى ذلك فانّ أصل العدالـة الـذى هو من بـديهيات الأصول الأخلاقيـة والاجتماعيـة لا يتحقق بـدون الوفاء بالعهـد فى دائرة المجتمعات البشـرية، وبـذلك فانّ ناقضـى العهد يعدون من زمرة الظالمين وكل إنسان يتعامل معهم من موقع الذم والتحقير واللوم وذلك بدافع من الفطرة الإلهية فى وجوده، وهذا يدل على أنّ لزوم الوفاء بالعهد هو أمر فطرى.

۲- دوافع الوفاء بالعهد ونقضه

بما أنّ معرفة دوافع الصفات الأخلاقية الإيجابية والسلبية له دورمهم فى تحصيل الفضائل الأخلاقية، وعلاج الرذائل، فمن الجدير بنا فى هـذا البحث أنّ نتتبع الـدوافع للوفـاء بالعهـد والـدوافع على نقضه. الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۶ لاـ شـك أنّ الإيمان الحقيقى والإعتقـاد بالتوحيـد الأفعالى فى واقع الإنسـان وقلبه يعـد أحـد الأسـباب المهمـة للوفـاء بالعهـد والألتزام به، لأنّ من ينقض العهـد فأنه يرتكب هـذه الخطيئـة من موقع الجهل بقـدرة اللَّه ورازقيته وبـدافع من منفعته العاجلـة فينسـى ما وعـد به اللَّه تعالى على الوفاء بالعهـد. ولهذا نقرأ فى الحديث الشـريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام قوله: «مِنْ دَلائِلِ الإيمانِ الْوَفاءُ بِالْعَهْدِ» «۱». وفى حديث آخر عنه أيضاً

يقول: «ما ايْقَنَ بِاللَّهِ مَنْ لَمْ يَرْعَ عُهُودَهُ وَذِمَّتَهُ» «۲». مضافاً إلى ذلك فانّ شخصية الإنسان الذاتية تستدعى الوفاء والالتزام بالعهد أيضاً، ولـذلك فـانّ الأشـخاص الـذين يتمتعون بقوة الشخصـية لا يبيحون لأنفسـهم نقض العهـد مع أى شـخص كان اطلاقاً ويرون أنّ نقض العهد علامة الضـعف والحقارة وفقدان الشخصـية، ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام ما يشير إلى أنّ الوفاء بالعهد هو أحد علائم الصالحين والطاهرين من الناس حيث يقول: «بِحُسْنِ الْوَفاءِ يُعْرَفُ الْابْرارُ» «۳». ومن الدوافع النفسية على إرتكاب نقض العهـد هى الجهل والغفلـة وعـدم الاطلاع على العواقب المشؤومة لنقض العهد فى حياة الناس الفردية والاجتماعية، كما هو حال الشـخص الـذى يتنـاول طعاماً لذيـذاً فى الظـاهر ولكنـه مسموم فى الحقيقـة، فيتنـاوله بشـوق ورغبـة بـدون أن يعلـم عـاقبته المؤلمـة. والأشـخاص الـذين يتمتعون بعقل أكبر وعلم أوفر ويرون المعطيات الحسـنة للوفاء بالعهد والأضـرار المترتبة على نقض العهد فأنّهم لا يـتركون هـذه الفضـيلة الأخلاقيـة اطلاقـاً ولاـ يـذلون أنفسـهم بأرتكـاب تلـك الصـفة الرذيلـة وهى نقض العهـد أبـداً كمـا ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «الْوَفاءُ حِلْيَةُ الْعَقْلِ وَعُنْوانُ النُّبْلِ» «۴».

علاج نقض العهد:

رأينا فيما تقـدم (من بحث الـدوافع) أنّه بالإمكان معرفـة الطرق لتحصـيل فضـيلة الوفاء بالعهـد وكـذلك يمكن معرفة طرق الوقاية من ضـدها وعلاج مرض نقض العهـد. إنّ الإنسان الناقض للعهد إذا أراد واقعاً إصـلاح هذا الخلل فى نفسه وشخصـيته فيجب عليه قبل أى شىء العمل على تقويـة دعائم الإيمان فى قلبه، لأننا نعلم أنّ نقض العهـد هو من إفرازات ضـعف الإيمان أو فقـدانه كما تقـدم، فلو أنّ معرفـة الإنسـان باللَّه تعالى وإيمانه وصل إلى درجـة بحيث يرى أنّ جميع الامور بيـد اللَّه تعالى فانّه لا يتحرك اطلاقاً بصـدد تحصـيل المال والمقام والجاه من خلال التوسل بهـذه الرذيلـة الأخلاقيـة. وكذلك إذا فكرَّ فى النتائج المشؤومة على هذا الفعل القبيح فرغم أنّه يترتب عليه بعض الربح والمنفعة على المدى القصـير، ولكنه وعلى المدى الطويل يتسبب فى سـقوط شخصـيته ومكانته بين الأصدقاء والأقرباء وأخيراً يتسبب فى فضيحته فى المجتمع ويخسر بذلك أهم رأس ماله أى إعتماد الناس وثقتهم به، وكذلك يفتضح أمام اللَّه تعالى وأمام خلق اللَّه، وقد رأينا نماذج عينية فى حياتنا المعاصرة وفى طول تاريخ الحياة البشرية لأمثال هذه الموارد، أجل كلما تفكر الإنسان وتـدبر فى هـذه الامور فأنّه سـيزداد قوة وعزماً على ترك هـذه الرذيلـة حتماً، وهذا هو ما ورد فى الحديث الشـريف عن الإمام على أنّه قـال: «وَالْخُلْفُ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النـاسِ» «۱». ولهـذا السـبب نجـد أنّ الكثير من المجتمعات البشـرية التى تعيش الجهل بالدين والإبتعاد عن اللَّه تعالى فإنّها تسعى للتعامل فيما بينها من موقع الإلتزام بالعهود والمقررات والمواثيق، وكذلك ما نراه فى الشـركات الأقتصاديـة العالميـة والمنظمـات الدوليـة فإنّهـا ومـن أجـل جـذب الزبـائن وكسـب حسـن السـمعة وبالتـالى زيـادة الأربـاح والمكاسب يهتمون بمسألة الوفاء بالعهد، ويترتب على ذلك أيضاً النتائج الإيجابية المثمرة.

أقسام العهد:

هناك أنواع وأقسام للعهد حيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: ۱- العهد مع اللَّه. ۲- العهد مع الناس. ۳- العهد مع النفس. أما العهد مع اللَّه تعالى فالكثير من الفقهاء ذكروا فى كتبهم الفقهيـة بحث العهـد إلى جانب بحث النـذر، وذكروا أنّه لو أراد الشـخص أن يعاهد اللَّه على أمر من الامور فعليه إجراء صـيغة العهد وهى أن يقول مثلًا: «عاهَدْتُ اللَّهَ أَنَّهُ مَتى شَفانِى اللَّهُ أَصومُ ثَلاثَةَ أَيام أَوْ أَتَصَدَّقُ بِكَذا وَكَذا». وحينئذ يجب عليه الوفاء بعهده هذا ولو إرتكب ما ينقض هذا العهد عليه دفع كفارة، وكفارته على المشـهور هى كفارة إفطار يوم من شـهر رمضان المبارك. وعلى هـذا فانّ العهـد مع اللَّه تعالى ليس لازماً من الناحيـة الأخلاقيـة فقط بل من الناحية الفقهية أيضـاً ونقضه يسـتوجب الكفارة، وحتى إذا لم يقرأ المكلف صـيغة العهـد هذه بل نوى فى قلبه ذلك فمن الأفضل له أن يوفى بعهده مع اللَّه تعالى. القرآن الكريم يقول فى ذم طائفـة من المؤمنين الضـعيفى الإيمان أو من المنافقين الذين لم يشتركوا فى حرب الأحزاب: «وَلَقَدْ

كـانُوا عاهَـدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأدْبارَ وَكانَ عَهْـدُ اللّهِ مَسْؤولًا» «۱». يقول فى مكان آخر: «وَأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللّهِ إذا عاهَـدْتُمْ». وبعض المفسـرين ذكروا فى تفسـير هـذه الآيـهٔ أنّ العهد هنا يعنى البيعهٔ مع النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، وذهب بعض آخر إلى أنّه يعنى الجهـاد فى سبيـل اللَّه، وذهب آخرون إلى أنّ معنـاه هـو القسم بـاللَّه تعـالى، وبعض آخر ذهب إلى أنّه يعنى كـل عمـل واجب بحكم العقـل أو النقل «۲». الاخلاـق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۲۹ وأمّا العهـد مع الناس فيشـمل كل أشـكال العقود والمواثيق بين أفراد البشـر، وفيما لو تأطرت بقوالب شـرعيهٔ وعقلائيهٔ فالوفاء بها واجب، ولكن بعض أشـكال العهد الذى يقع من جانب واحد كأن يتعاهد الإنسان أن يبـذل المعونـهٔ لشـخص آخر فمثل هذه العهود تسـمى (عهود إبتدائيهٔ) وكذلك أشـكال الوعد الذى يقوم من جانب واحد، فالوفاء بهـذا العهـد أو الوعـد غير واجب من الناحيـهٔ الفقهيـهٔ بـل مسـتحب مؤكـد، ولكن فى المنظور الأخلاقى فالالتزام بها واجب ولازم وإلّا فيحرم الإنسـان من نيل الفضائل الإخلاقيـهٔ والمقامات العاليـهٔ الإنسانيـهٔ. وقـد ورد فى بعض الروايات أنّ الإنسان المؤمن إذا وعـد غيره بشـيء فإنّه بمنزلـهٔ النـذر رغم عـدم وجوب الكفارهٔ عنـد عدم الوفاء به، كما يقول الإمام الصادق عليه السـلام: «عِدَةُ الْمُؤْمِنِ أَخاهُ نَذْرٌ لاكَفارَةَ لَهُ فَمَنْ أَخْلَفَ فَبِخُلْفِ اللّهِ بَـدَءَ وَلَمِقْتِهِ تَعَرَّضَ وَقَوْلُهُ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لاتَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْـدَ اللّهِ أنْ تَقولُوا ما لاتَفْعَلُونَ» «۱». وفى حـديث آخر عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَفِ إذا وَعَدَ» «۲». أما عهـد الإنسان مع نفسه فهو أن يتعاهد الإنسان بأن يلتزم خط تهذيب النفس وإصـلاحها فى طريق التكامل الأخلاقى والمعنوى والتحلى بالصفات الحسنهٔ والأعمال الصالحهٔ، وهذا العهد له دور مؤثر وبناء فى سلوك خط التهذيب النفسى، وقد ذكره العرفاء الإسلاميون بأنّه أول مراتب السير والسلوك وذكروه تحت عنوان المشارطهٔ، وهو أنّ الإنسـان يتعاهـد مع نفسه كـل صـباح بأن يسـير فى خط الطاعهٔ والإيمان وإجتناب الذنوب والإبتعاد عن الموبقات والآثام، ثم يتحرك فى سـلوكه اليومى من موقع المراقبهٔ الدقيقهٔ لأعماله وسـلوكياته ليطمئن على وفائه بـذلك الشـرط والعهـد الـذى أخذه على نفسه صباح اليوم، ثم تصل النوبهٔ إلى المحاسبهٔ فى آخر اليوم وقبل النوم وهل أنّه قـد إرتكب ما يخالف الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۰ ذلك الشـرط الذى إشترطه على نفسه أم لا؟ ولا شك أنّ الإنسان القوى الشخصـيهٔ ومن يتمتع بوجـدان يقظ يهتم كثيراً بمثل هذه العهود والشـروط مع نفسه وغير مسـتعد لنقضـها بسـهولهٔ. وعليه يمكن القول أنّ الالـتزام بـالعهود التى يقطعهـا الإنسـان مع نفسه يعـدّ أحـد طرق تهـذيب النفس ونيل الفضائل الأخلاقيـهٔ فى حركـهٔ التكامل المعنوى للإنسان.

إلتزام المسلمين بالعهود والمواثيق:

إنّ التقدم المذهل للمسـلمين فى العصور الأوليهٔ من تاريخ الإسلام كانت ولا زالت مثار تعجب المؤرخين فى الشرق والغرب، ولكنهم إذا تفكروا فى أسـباب وعوامل هـذا التقـدم السـريع لأدركوا بسـرعهٔ سرّه. ومن البـديهى أنّ أحـد علل التقدم السريع هو التزام جيش الإسـلام بالمواثيق والعهود وهذا هو ما أكد عليه القرآن الكريم ونبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله مراراً، وهذه المسألهٔ على درجهٔ من الأهميهٔ بحيث كان الجيش الإسـلامى يضـحى من أجلها بالكثير من الإنتصارات السـريعهٔ على الكفار. أنّ القانون المهم (الأمان) الذى يعد أحد التعاليم الإسـلاميهٔ يؤكد هذا المعنى أيضاً وأنّ كل جندى من جنود الإسلام وفى أى رتبهٔ كان يمكنه أن يعطى الأمان لبعض رجـال العـدو بشـكل مؤقت ويجب على جميع المسـلمين فى الجيش الإسـلامى إحترام هـذا الأمـان وكـأنّه عهـد مقطوع ولاـزم الوفاء. وهناك نماذج كثيرهٔ ذكرها المؤرخون فى تاريـخ الإسـلام تحكى هذا المعنى ومنها: ۱- ما ذكره ياقوت الحموى فى (معجم البلـدان) عن فتح مدينهٔ (سهرياج) «۱» من القصـهٔ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۱ العجيبـهٔ حيث بعث الخليفهٔ فى ذلك الزمان الجيش إلى هذه المدينهٔ لفتحها. يقول فضل بن زيد الرقاشى: حاصرنا سهرياج فى أيام عبداللَّه بن عامر وقد سار إلى فارس افتتحها، وكنّا ضمنا أن نفتحها فى يومنا وقاتلنا أهلها ذات يوم فرجعنا إلى معسكرنا وتخلف عبد مملوك منّا فراطنوه، فكتب لهم أماناً ورمى به فى سهم فرحنا إلى القتـال وقـد خرجوا من حصـنهم وقـالوا: هـذا أمـانكم فكتبنـا بـذلك إلى عمر، فكتب إلينـا: إنّ العبـد المسـلم من المسـلمين ذمته

کـذمتکم، فلینفـذ أمانه، فأنفـذناه» .ومصـدر هـذه القصهٔ هو ما ورد من الحدیث النبوی المعروف فی حجهٔ الوداع حیث قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله للمسـلمین کافهٔ: «الْمُؤمِنُونَ إِخْوَةٌ تَتَکافَأُ دِمائُهُمْ وَهُمْ یَدٌ عَلَى مَنْ یَسْعى بِذِمَّتِهِمْ أَدْناهُمْ» «۲». ۲- وورد فی التواریخ الإسـلامیهٔ أنّ المسـلمین فی عصـر الخلیفهٔ الثانی هزموا الساسانیین وقبضوا علی (هرمزان) قائد الجیوش الفارسیهٔ وجاءوا به إلی عمر بن الخطاب، فقال له الخلیفـهٔ: لقد نقضت العهود معنا دائماً فلماذا إرتکبت هذا العمل؟ فقال الهرمزان: أخاف أن تقتلنی قبل أنّ أقول لک سبب ذلک، فقال له الخلیفـهٔ: لا تخف. وفی هذه الأثناء طلب الهرمزان الماء فجییء له بإناء فیه ماء فقال الهرمزان: لو أعلم بأننی أموت من العطش فأننی لا أشـرب من هـذا الأناء أبـداً. فقال لهم عمر: إذهبوا وأتوه بماء فی إناءٍ یقبل أن یشـرب منه، فجاؤوا له بقدح فیه ماء وناولوه بیده، فنظر إلی ما حوله ولم یشـرب وقال: أننی أخاف أن أقتل وأنا أشـرب الماء. فقال له عمر: لا تخف فأنا أعطیک الإمان من القتـل إلی أن تنتهی من شـرب المـاء. فمـا کـان من الهرمزان إلّاأن ألقی بالقـدح من یـده فانسـکب الماء علی الأرض، فقال عمر وهو یتصور أنّ القدح سـقط من یده بدون اختیار: ناولوه قدحاً آخر لیشـرب. فقال الهرمزان: أنا لا أرید الماء بل کان مقصودی أن أحصـل منـک علی الإمان، فقال له الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۳۲ الخلیفـهٔ: ولکنی سأقتلک لا محالـهٔ. فقال الهرمزان فی جوابه: إنک قد أعطینی الإمـان من القتـل. فقـال الخلیفـهٔ: أنت تکـذب فأنا لم أعطک الإمان. وکان (أنس) حاضـراً فقال: صـدق الهرمزان لقـد أعطیته الإمـان إلی أن ینتهی من شـرب الماء. فتفکر الخلیفـهٔ فی ذلک وقال للهرمزان: لقـد خـدعتنی ولکنی سوف أقبل خـدعتک هـذه لکی تعتنق الإسلام، فلما رأی الهرمزان هذه الحالهٔ (وهی إلتزام المسلمین بعهودهم ومواثیقهم) شع نور الإیمان فی قلبه وأسلم «۱». والملفت للنظر أنّه یسـتفاد من الروایات الإسـلامیهٔ أنّه حتی شـبههٔ العهود والأمان یجب الوفاء بها، ففی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السـلام: «لَوْ أَنَّ قَوْماً حاصَرُوا مَدینـةً فَسَأَلُوهُمُ الأَمانَ فَقالُوا: لافَظَنُّوا أَنَّهُمْ قالُوا: نَعَمْ فَنَزَلُوا إِلَیْهِمْ کانُوا آمِنِینَ» «۲». وبهـذا تری أنّه لیس فقط العهد والأمان یجب الوفاء به بل إحتمال وجود العهد الوفاء به أحیاناً. ۱۰

البحث المنطقی والجدال والمراء

تنویه:

إنّ أفضل طریق لتبیین الحقائق والوصول إلی الأفکار الصـحیحهٔ والنتائج السـلیمهٔ هو البحث المنطقی الخالی من کل أشـکال التعصـب والعناد، لأنّ الأفکار عندما تتلاقح وتضم بعضـها إلی البعض الآخر وتتصل القابلیات والعقول فسیسـطع نور المعرفهٔ لیضـیء کل شـیء. ولکن إذا کانت أجواء البحث یسودها التعصّب واللجاجـهٔ والأنانیّهٔ والخشونهٔ، وبکلمهٔ واحدهٔ المراء، فإنّ ذلک من شأنه أن یغطی علی الحقائق الواضـحهٔ ویسدل سـتار الظلمهٔ علی الواقعیات، فمهما اسـتمر البحث والجدال فإنّ الحجب تزداد علی وجه الواقع. ولهذا السبب فـإنّ الإسـلام وقف من الجـدال والمراء، أو بتعبیر آخر: التعصّب بـالبحث وإثبـات تفوّق الأنـا علی الطرف المقابل ولیس ذلک لغرض تبین الحق وکشف الحقیقـهٔ، موقفاً سـلبیاً وعدّ ذلک من الذنوب الکبیرهٔ، لأنّ المراء بإمکانه أن یجعل سدّاً کبیراً فی طریق فهم الحقیقهٔ والوصول إلی الواقعیات. وبالطبع سوف نشـیر لاحقاً إلی الفرق بین الجـدال والمراء باذن اللَّه تعالی، ولکنّ الهدف هنا الإشارهٔ السـریعهٔ إلی موقف الإسـلام السلبی من هـذا الخلق الـذمیم أی الجـدل والمراء، وموقفه الإیجـابی وثنـائه علی الأشـخاص الـذین یتحرّکون فی بحثهم العلمی ومناقشـاتهم الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۳۴ الفکریـهٔ من موقع البحث المنطقی لغرض الکشف عن الحقیقهٔ وتوخّی العدالهٔ. وبهذه الإشارهٔ السـریعهٔ نعود إلی القرآن الکریم لنری موقفه من هاتین الخصـلتین: ۱- «یُجَادِلُونَکَ فِی الْحَقِّ بَعْـدَ مَا تَبَیَّنَ کَأَنَّمَا یُسَـاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ یَنظُرُونَ» «۱». ۲- «وَلَقَـدْ صَـرَّفْنَا فِی هَـذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ وَکَانَ الْإِنسَانُ أَکْثَرَ شَـیْءٍ جَدَلًا» «۲». ۳- «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ یُجَادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَیَتَّبِعُ کُلَّ شَـیْطَانٍ مَرِیـدٍ» «۳». ۴- «وَمِنْ النَّاسِ مَنْ یُجَادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَلَا هُـدیً وَلَا کِتَابٍ مُنِیرٍ» «۴». ۵- «إِنَّ الَّذِینَ یُجَـادِلُونَ فِی آیَاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُـلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِی صُـدُورِهِمْ إِلَّا کِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِیهِ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ

الْبَصِيرُ» «۵». ۶- «وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» «۶». ۷- «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» «۷». ۸- «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» «۸». ۹- «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» «۹». ۱۰- «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ» «۱۰».

تفسير واستنتاج:

«الآية الإولى»: من الآيات محل البحث تتعرض لطائفة من المؤمنين الضعيفى الإيمان من موقع الذم والتوبيخ بسبب ترددهم وجبنهم فى ميدان القتال وتثاقلهم عن الجهاد فى سبيل اللَّه فتقول: «يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمُوتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ». القرائن تشير إلى أنّ جماعة من المسلمين الجدد الذين لم تكن لهم تجربة كافية فى الحرب قد تملكهم الخوف وسيطر عليهم الجبن عندما سمعوا الأمر بالجهاد فى سبيل اللَّه، ومع أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال لهم بصراحة: أنا مأمور بأمر من اللَّه تعالى فى هذا الطريق، ورغم ذلك فإنّهم يجادلون النبى صلى الله عليه و آله ليثنوه عن عزمه ويعيدوه إلى المدينة وكأنّما يرون الموت على بعد خطوات منهم، وفى الواقع فإنّ ضعف الإيمان والخوف من الموت والشهادة فى سبيل اللَّه دفعهم إلى التذرع بالحجج الواهية والتبريرات المختلفة لإضعاف عزم النبى صلى الله عليه و آله، القرآن الكريم يذم هذه الحالة ويصرح فى الآيات اللاحقة أنّ مشيئة اللَّه قد قررت تقوية الحق وقطع جذور الكافرين (رغم سيطرة الأوهام والتخيلات على هذه الفئة من ضعفاء الإيمان). ويستفاد جيداً من هذه الآية أنّ أحد أسباب الجدل والمراء والمناقشات غير المنطقية هو ضعف النفس والخوف من تحديات الواقع والحالة الإنهزامية لدى الشخص فى مواجهة الظروف الصعبة. وقد ورد فى التواريخ الإسلامية المعروفة أنّه عندما سمع المسلمون بخبر تحرك جيش قريش من مكة لأنقاذ القافلة التجارية المتحركة فى الطريق إلى مكة حيث تعرضت لتهديد المسلمين فانّ جماعة من ضعفاء المسلمين أصروا على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن يعود إلى مكة لأنّ المسلمين فى نظرهم ليست لديهم القدرة الكافية على مواجهة جيش المشركين، وأساساً أنّهم لم يخرجوا طلباً للحرب والقتال. ويذكر أنّ أبا بكر قام فقال: يا رسول اللَّه، إنّها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، وما الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۶ ذلّت منذ عزّت، ولم تخرج على هيئة حرب .. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اجلس، فجلس، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اشيروا علىَّ. فقام عمر فقال: مثل مقالة أبى بكر. فأمره النبى صلى الله عليه و آله بالجلوس فجلس. ثم قام المقداد فقال: يا رسول اللَّه، إنّها قريش وخيلاؤها، وقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند اللَّه، واللَّه لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا (نوع من الشجر الصلب) وشوك الهراس لخضناه معك، ولا نقول لك ما قالت بنو اسرائيل لموسى: إذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقول: إذهب أنت وربّك فقاتلا، وإنّا معكم مقاتلون ... الخ. فأشرق وجه النبى صلى الله عليه و آله ودعا له وسرّ لذلك «۱» والعجيب أنّ إبن هشام فى سيرته والطبرى أوردا قصة الشورى التى شكلها النبى صلى الله عليه و آله قبيل غزوة بدر ولكن عندما وصلا إلى كلام الخليفة الأول والثانى قالا بكثير من التلخيص: «قالَ أَبُوبَكْر وَاحْسَنَ، ثُمَّ قامَ عُمَرُ بْنَ الْخَطابِ وَقالَ وَأَحْسَنَ». واكتفيا بذلك دون أن يذكرا كلام الأول والثانى فى حين أنّه لو كان الأول والثانى قد أحسنا فى كلامهما لكان المفروض من هذين المؤرخين أن يذكرا مقولتهما، والحال أنّهما ذكرا كلام المقداد بتمامه، ومن هنا يتبين أنّ نقل هذين المؤرخين لا يخلو من تعصب مذهبى بإمكانه تزييف الحقائق التاريخية. «الآية الثانية»: تتحدث عن جميع الأشخاص الذين يتحركون فى حياتهم من موقع العناد والتعصب وعدم النضج الفكرى والنفسى وتقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذا الْقُرآنِ لِلناسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْانْسانُ اكْثَرَ شَىءٍ جَدَلًا». فلأجل هداية الناس فقد صرفنا وذكرنا فى القرآن الكريم قصص الأوائل وحوادث الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۷ التاريخ البشرى وحياة الأقوام التى عاشت الظلم والجور، ولكن الإنسان يعيش حالة الجدل أمام الحق وبذلك يقطع على نفسه طريق الوصول إلى الحقيقة ويوصد أبواب نور المعرفة أمامه ويستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ الأشخاص الذين يعيشون الطفولة الفكرية وعدم النضج فى شخصيتهم هم أكثر الموجودات جدلًا ومراءاً، وعلى أية حال فانّ هذا التعبير يشير إلى

أنّ الإنسان إذا إنحرف عن فطرته السليمة فأنّه يتّجه صوب الجدل ويتحرك فى خط المراء والباطل ويقف أمام الحق بدافع من التعصبات والأهواء الذاتية ويوصد طريق الهداية أمامه، وهذا يمثل أكبر بلاء على الإنسان فى طول التاريخ البشرى. وتستعرض «الآية الثالثة»: تعريفاً واضحاً للمجادلة بالباطل وتبيّن مصير أهل الجدل والمراء وتقول: «وَمِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ». ورغم أنّ شأن نزول هذه الآية كما ذكره جماعة من المفسرين أنها نزلت فى (النظر بن الحارث) الذى كان من المشركين المعاندين والمتعصبين جداً وكان يتحدث عن القرآن بكلمات واهية ويتصور أنّ الملائكة هم بنات اللَّه، ولكن من الواضح أنّ مفهوم هذه الآية عام وشامل لجميع الأشخاص الذين يناقشون ويجادلون بدافع من التعصب والعنادومن دون علم ومعرفة. واللطيف أنّ الآية تذكر فى آخرها أنّ هؤلاء المجادلين يتحركون فى خط الشيطان المتمرد ويتبعونه، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الجدال بالباطل هو طريق الشيطان، بل إنّ الشيطان الرجيم ينفذ فى كل شخص يسعى لإثبات وجهة نظره من موقع التعصب والعناد فيسيره إلى حيث يريد. أما وصف الشيطان بأنّه (مريد) أى المتمرد، فهو يبين هذه الحقيقة، وهى أنّ الذين يتحركون من موقع الجدل والمراء هم فى صف واحد مع المتمردين على اللَّه والحق ويمثلون جبهة واحدة مقابل جبهة الحق. والمراد من جملة (يجادل فى اللَّه) هو الجدال فى صفة من صفات اللَّه أو فى أصل وجود الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۸ اللَّه أو فى قدرته وعلمه أو فى أفعاله، وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة تنطلق من موقع الذم الشديد للجدال بالباطل. قد ورد وهذا المعنى نفسه مع بعض الإضافات كذلك فى (الآية الثامنة) من سورة الحج حيث تقول الآية: «وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ» وهذه إشارة إلى أنّ البحث والنقاش إذا كان مقترناً مع العلم والمعرفة، أو مع هداية أولياء الدين والإنبياء الإلهيين، أو يكون مستنداً إلى كتاب من الكتب السماوية فليس لا ضرر فيه فحسب بل يمكنه أن يكون مفتاحاً لحل الكثير من المشاكل والأزمات الفكرية والعقائدية. ولكن عندما لا تكون هذه العناصر الثلاثة الإيجابية على طاولة البحث والنقاش (أى العلم الشخصى، وهداية الأولياء، والإستناد إلى الكتب السماوية) فانّ الجدال سوف ينزلق فى طريق الأهواء والتعصبات ويتحرك الإنسان معه فى خط الباطل والإنحراف وبالتالى لا تكون نتيجته سوى الضلال والشقاء. ويستفاد من الآية التاسعة من هذه السورة التى وردت بعد هذه الآية محل البحث أنّ أحد دوافع الجدال بالباطل هو التكبر والغرور والعجب والذى يتسبب فى إضلال الآخرين أيضاً، فمثل هؤلاء الأشخاص يكون مصيرهم إلى الفضيحة فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة كما تقول الآية: «ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ». «الآية الخامسة»: من الآيات محل البحث وضمن وصفها وتعريفها لمفهوم المجادلة بالباطل تشير إلى أحد الدوافع والجذور الأصلية لهذه الرذيلة الأخلاقية فى واقع الإنسان وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» هؤلاء لا يوجد فى قلوبهم سوى التكبر والغرور حيث يريدون تحقيق نظراتهم من وحى الأهواء والتعصّب ولكنّهم لا يصلون إلى مرادهم ومقصودهم: «إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ». كلمة (سلطان) تستعمل فى مثل هذه الموارد بمعنى الدليل والحجّة والبرهان والتى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۳۹ وردت فى الآية السابقة وتشمل العلم الشخصى، وهداية الأولياء، وإرشاد الكتب السماويّة، ومن الملفت للنظر أنّ الآية تقول: أنّ المصدر الأصلى للمجادلة والعناد هو حالة التكبر التى يعيشها هؤلاء الأشخاص حيث يريدون التوصّل إلى غاياتهم وطموحاتهم الدنيوّية من خلال المجادلة بالباطل ولكنّهم بدلًا أن يحققوّا ذلك لأنفسهم فى حياتهم فأنّهم سوف يعيشون الذّلة والمهانة. وبما أنّ هذه الرذيلة الأخلاقيّة هى أحد المصائد الخطرة للشيطان الرجيم فانّ الآية الكريمة تقول فى ختامها: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وتنطلق «الآية السادسة»: لتتحدّث عن المشركين الذّين يتحرّكون فى شركهم وكفرهم من موقع الأصرار والعناد ويجادلون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى عمليّة تبرير أعمالهم وسلوكياتهم الخاطئة وعندما يقول لهم القرآن الكريم: إنّكم وما تعبدون من دون اللَّه حصب جهنّم فأنّهم يجادلون فى ذلك ويقولون: «وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ». ثمّ إنّ القرآن الكريم يضيف إلى ذلك أنّ هؤلاء يدركون الحقيقة جيّداً ولكنّهم يتكلّمون معك من موقع الجدل والخصام والعناد: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ». ثمّ يبيّن القرآن الكريم الفرق بين المسيح والأصنام فيقول بالنسبة إلى المسيح: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» «۱». وهو إشارة إلى أنّ المسيح هو

عبدٌ من عبيد اللَّه لا ـ يقبل أن يعبده النصارى أبداً، ولو أنّ بعض الناس إنحرف عن جادّة الصواب وتصوّر أنّ المسيح أحد الأقانيم الثلاثة فى مقام الالوهيّة فلا ـ ذنب على المسيح نفسه ولا ـ ينبغى أن يكون من أهل النار، وعليه فانّ هذا المثل لا يقبل المقارنة مع الأصنام أو الأشخاص من أمثال فرعون وجملة: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» تشير إلى أنّ أحد مصادر ودوافع الجدال بالباطل هو حالة الخصومة والعداوة التى يعيشها الإنسان الجاهل وغير المنطقى، والغالب أنّه يعلم أنّه يسير فى خط الباطل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۰ ولكنّ الحقد والعداوة لا يسمحان له بالتسليم فى مقابل الحق والإذعان للحقيقة. «الآية السابعة»: وبعد الإشارة إلى حرمة الميتة والأنعام التى ذبحت للاصنام أو ما ذبح بدون أن يذكر إسم اللَّه عليه فتقول «وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» «۱». ثمّ تشير إلى أنّ الشياطين يوحون إلى أتباعهم بمفاهيم خاطئة لتبرير أفعالهم وتقول: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ». المجادلة بالباطل هنا كما يذكر جماعة من المفسّرين الكبار أمثال الطبرسى وأبو الفتوح الرازى وسيد قطب هو أنّهم كانوا يقولون أننا إذا أكلنا من لحوم الميتة، فإنّ ذلك بسبب أنّ اللَّه تعالى قد قتلها وبالتالى فهى أفضل من لحوم الحيوانات التى نقتلها بأيدينا، وفى الحقيقة فانّهم أهملوا تحريم الميتة الوارد فى الشريعة الإلهية من هذا الموقع الزائف. وهذا التبرير السخيف والباطل لأكل الميتة هو ما أوحى به شياطين الإنس والجن لأوليائهم وأتباعهم ليعينوهم على مجادلة كلام الحق بمثل هذه التبريرات الزائفة ويقارنوا بين اللّحوم الملّوثة والميتة مع اللّحوم الطاهرة التى ذبحت على اسم اللَّه تعالى ويفضّلون الاولى على الثانية. ويستفاد من هذه العبارة أنّ مثل هذه المجادلة بالباطل تنطلق من دوافع شيطانية. ويستفاد من بعض الروايات أنّ هذه التبريرات الواهية قد كتبها بعض المجوس فى كتاب وأرسلها إلى المشركين من قريش. «الآية الثامنة»: تتحدّث عن الجدال فى حالة الاحرام للحج وتقول: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ». ونعلم أنّ حالة الاحرام هى حالة معنويّة وروحانية سامية تصعد بالإنسان إلى حيث القرب الإلهى وأن يعيش أجواء الملكوت، ولهذا السبب فإنّ الكثير من الأعمال المباحة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۱ تصبح ممنوعة فى حالة الاحرام هذه، بل إنّ بعض الامور المحرّمة تتضاعف حرمتها فى هذه الحالة المقدّسة. والمعروف حرمة ۲۵ عمل أثناء الإحرام وأحدها هو الجدال، ورغم أنّ المشهور بين الفقهاء هو أنّ المراد من الجدال هنا هو قول (بلى واللَّه) أو قول (لا واللَّه) فالأول لإثبات المطلب والثانى لنفى المطلب، والمراد من الفسوق الكذب والتهمة والسب والشتم وإظهار التفوق على الآخرين فى حال الإحرام، ولكن لا يبعد أن تكون كلمة (جدال) شاملة لكل أنواع المجادلة والمخاصمة الكلامية، وعلى أية حال فإنّ المنع من الجدال فى حال الإحرام يشير إلى أنّ هذا العمل يتقاطع بشدّة مع هذه العبادة الروحانية المهمّة وتبعد الإنسان عن اللَّه تعالى. وتتابع الآية بالقول فى جملة خبريّة بأنّه (لا جدال فى الحج) ممّا يبيّن تأكيداً أكثر على هذا الموضوع وكأنّها تقول: (إنّ هذا العمل يتنافى مع روح الحج). «الآية التاسعة»: تتحدّث عن (المراء) وهو كلام يشبه الجدال وتقول: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ». وبديهى إنّ الهداية تتفرع فى واقعها على أن يكون الإنسان طالباً للحق بحيث يقبله من أى مكان ويتقبّله برحابة صدر دون أن يجد فى نفسه تعصّباً وتكبراً عليه، وكلّما عاش الإنسان حالة الكبر والغرور والتعصّب فإنّ ذلك من شأنه أن يكون مانعاً جدياً من التسليم أمام الحق وأن ينزلق الإنسان فى وادى الضلالة والانحراف الشديد. أمّا الفرق بين الجدال والمراء وكذلك النقاط المشتركة بينهما فسيأتى لاحقاً. «الآية العاشرة»: والأخيرة من الآيات مورد البحث تتحدّث عن عناد قوم لوط وأنّ نبيّهم الكريم حذّرهم من عذاب اللَّه وأنّ هذا العذاب ينتظرهم بالتأكيد إذا استمروا على غيّهم وعصيانهم، فلم يقبلوا كلامه وقاموا بوجهه من موقع المجادلة والمراء، تقول الآية: «وَلَقَدْ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۲ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ». وكان هذا هو السبب فى أن يبقى قوم النبى لوط عليه السلام فى حجاب الغفلة والجهل إلى أن صدر أمر اللَّه تعالى بعذابهم فأصاب الزلزال الشديد مدنهم وأمطرت عليهم السماء حجارة فلم يبق من بيوتهم وأجسامهم إلّاالدمار والخراب، أجل فإنّ هذه هى نتيجة الجدال والمراء فى مقابل الحق. هذه الآيات الشريفة توضح جيداً أخطار هاتين الرذيلتين الأخلاقيتين وتبيّن كيف أنّ الإنسان وبسبب الجدال والمراء يتأخر عن قافلة الهداية والرشاد ويكون من أتباع الشيطان ويلبس ثياب ولايته ويتحرّك فى الضلال البعيد ويقع بالتالى فى دوامة العذاب الإلهى الخالد.

الفرق ين الجدال والمراء والخصومة:

إنّ كلمة (جدل) و (جدال) كما يقول الراغب فى مفرداته (جدلت الحبل) أى شددته والجدل شدّة الفتل، وكأنّ المجادل يريد من خلال كلامه الجاد مع الخصم أن يبعده بالقوة من أفكاره وعقائده. وذكر البعض أنّ (الجدال) فى الأصل بمعنى المصارعة والسعى للتغلب على الآخر وطرحه على الأرض، وبما أنّ الشجار اللفظى والكلامى يشبه هذا المعنى إلى حدٍ كبير استخدمت هذه الكلمة فى هذا المعنى. وبالطبع فإنّ الجدال على قسمين: الجدال بالحق والجدال بالباطل، والأول ممدوح والثانى مذموم، ومن ذلك نجد أنّ القرآن الكريم يقول فى مورد: «وَجادِلهُم بِالَّتِى هِى أَحسَن» «١». وهنا نجد أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مأمور بجدالهم بالحق وورد ذلك إلى جانب الحكمة والموعظة الحسنة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۳ أمّا الجدال بالباطل فهو ما ورد فى الآيات المذكورة آنفاً من أنّ بعض الأشخاص يتحرّكون فى كلامهم ونقاشهم من موقع التعصب والعناد، وبذلك ينكرون أوضح دلائل الحق من خلال هذا الجدال، وأمّا (المراء) على وزن حجاب، فهو بمعنى المحادثة والمكالمة فى شىء يكون فيه مرية أى شك وترديد، ويقول الراغب فى مفرداته: إنّها فى الأصل من (مريت الناقة) أى حلبتها، ثم قيلت لكل كلام يكون فى موضوعه الشك والترديد (ولعل ذلك يتناسب مع كون الإنسان متردداً فى وجود اللّبن فى ضرع الناقة أو لا) وذهب بعض إلى تعبير أدق من ذلك حيث يرى أنّ الجذر الأصلى لهذه الكلمة فى قولهم (مريت الناقة) هو فيما لو حلبت الناقة قبل ذلك ثم جاء أحدهم بأمل أن يكون من اللبن بقية فى الضرع فيحلبها مع هذا الشك والترديد، وهكذا أطلقت على المناقشة الكلامية فى البحوث المقترنة مع الشك. ولكن هذه المفردة استخدمت بعد ذلك فى كل نوع من البحث الكلامى وعن أى موضوع كان محل شك وترديد سواءاً كان بحثاً إيجابيّاً وطلباً للحق، أو كان بدافع من العناد والخصومة واللجاجة. ومن الموارد التى استخدم فيها المراء بالمعنى الإيجابى ما ورد فى الآية الشريفة ۲۲ من سورة الكهف حيث تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حول مجادلته عن أصحاب الكهف مع مخالفية وتقول: «فَلا تُمارِ فيهِمْ الَّا مِراءًظاهِراً» «١». أمّا الموارد المستعملة فى المعنى السلبى فكثيرة ومنها ما تقدم من الآيات أعلاه. والجدير بالذكر أنّ مفردة (مرية) على وزن جزية وقرية، بمعنى الترديد فى العزم والتصميم، وبعض ذهب إلى أنّها بمعنى الشك المقترن بقرائن التهمة مثل (الريبة).

الجدال والمراء فى الروايات الإسلامية:

نظراً إلى أنّ الجدال بالباطل يتسبب فى إخفاء الحق وزيادة عناصر التعصب والخشونة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۴ وما يترتب على ذلك من المفاسد والاضرار الكثيرة، نرى أنّ الروايات الإسلامية قد نهت عن الجدال والمراء بشدّة خاصّة إذا كان بالنسبة إلى الامور الدينيّة ومن ذلك: ۱- ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ما ضَلَّ قَومٌ بَعدَ أَنْ هَداهُمُ اللَّهُ إلّااوتُوا الجَدَلَ» «١». ۲- وهذا المضمون ورد أيضاً فى حديث آخر مع تفاوتٍ يسير عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً حيث قال: «ما ضَلَّ قَومٌ إلّاأَوثَقُوا بالجَدَلَ» «٢» . ۳- وقد ورد فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِى دِينِهِ اولئِكَ مَلعُونُونَ عَلى لِسانِ نَبِيِّهِ» «٣». ۴- وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «الجَدَلُ فِى الدِّينِ يُفسِدُ اليَقِينَ» «۴». ۵- فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إيّاكُم وَالخُصُومَةَ فِى الدِّينِ فَإنَّها تُشغِلُ القَلبَ عَنْ ذِكرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَتُورثُ النِّفاقِ، وَتَكسِبُ الضَّغائِنَ، وَتَستَجِيرُ بالكِذبَ» «۵». والتعبير بالخصومة فى الدين رغم أنّها لا تنطوى تحت عنوان الجدال ولكنّها من الموارد الشبيهة بهذا المعنى. ۶- ونظير هذا المعنى ما ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «إيّاكَ وَالخُصُومَةَ فَإنَّها تُورثُ الشَّكَّ وَتَحبِطُ العَمَلَ وَتُردِى بِصاحِبِها» «۶». ۷- ومن نصائح لقمان الحكيم لابنه فى ترك الجدال: «يا بُنَىَّ لاتُجادلِ العُلَماءَ فَيَمقُتُوكَ» «۷». ۸- ونقرأ فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالجَدَلِ تَزَندَقَ» «۸». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۵ ۹- قال الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام لأحد أصحابه: «أَبلِغْ عَنِّى أَولِيائِى السَّلامَ وَقَلْ لَهُم أَنْ لايَجعَلُوا لِلشِّيطانِ عَلى

أنفُسِهِم سَبيلًا وَمُرهُم بِالصِّدقِ فِى الحَدِيثِ وَأداءِ الأمانَةِ وَمُرهُم بِالسُّكوتِ وَتَركِ الجِدالِ فِيما لايَعنِيهِم» «۱». ۱۰- نختم هذا البحث بحديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن نسبة الإيمان والمراء والجدال، حيث يقول: «لا يَستَكمِلُ عَبدٌ حَقِيقَةَ الإيمانِ حتَّى يَدَعَ المِراءَ وَالجَدَلَ وإن كانَ مُحِقّاً» «۲». أمّا المراء الذى سبق وأن قلنا بالفرق بينه وبين الجدال فحاصل الكلام هو أنّ الجدال يعنى كل شكل من أشكال الشجار اللفظى والنزاع الكلامى، فى حين أنّ المراء يأتى بمعنى المباحثة فى شىء يكون فيه شك وترديد، فتارة تكون هذه المباحثة بدافع من طلب الحق وتوضيح المطلب، واخرى تكون بدافع من التعصّب واللّجاجة وإظهار التفوّق والفضل على الطرف الآخر، وهذه الحالة مذمومة جداً، وفى الروايات الإسلامية ينصب الذم على هذا النوع من المباحثة اللفظية، رغم عدم وجود تفاوت كبير بينه وبين الجدال. ۱- ورد فى الحديث الشريف معنى المراء بما تقدم أعلاه، فعن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «لا يَستَكمِلُ عَبدٌ حَقِيقَةَ الإيمانِ حتَّى يَدَعَ المِراءَ وَالجَدَلَ وإن كانَ مُحِقّاً» «۳». وهذا إشارة إلى أنّ المناقشة والمنازعة اللفظية من موقع اللجاجة وبدافع من إظهار التفوّق والفخر على الآخر حتّى فى المسائل الحقّة تكون سبباً فى سقوط الإنسان على المستوى الأخلاقى والعقائدى. ۲- وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً بواسطة عدّة أشخاص من الصحابة الذين قالوا: دخل رسول اللَّه يوماً علينا ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم قال: «إنّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبلَكُم بِهذا، ذَرُوا المِراءَ فَإنَّ المُؤمِنَ لا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۶ يُمارِى، ذَرُوا المِراءَ فَإنَّ المِمارى قَدْ تَمَّتْ خَسارَتُهُ، ذَرُوا المِراءَ فَانا المِمارى لاأَشفَعُ لَهُ يَومَ القِيامَةِ، ذَرُوا المِراءَ فَانا زَعِيمٌ بِثَلاثَةِ أَبياتٍ فِى الجَنَّةِ فِى رِياضِها وَأَوسَطِها وَأَعلاها لِمَنْ تَرَكَ المِراءِ وَهُوَ صادِقٌ، ذَرُوا المِراءَ فَإنَّ أَوَّلَ ما نَهانِى عَنهُ رَبِّى بَعدَ عِبادَةِ الأَوثانِ المِراءُ» «۱». ۳- وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ذَرُوا المِراءَ فَإنّه لاتَفهَمُ حِكمَتُهُ وَلا تُؤمَنُ فِتنَتَهُ» «۲». وهو إشارة إلى أنّ الشخص الممارى يرى أنّه لم يعرف نفسه ولا الآخرين، ومثل هذا الشخص يعيش أجواء الحرمان من إدراك الحقائق الدينية قطعاً. ۵- وجاء فى حديث آخر أنّ رجلًا قال للإمام الحسين عليه السلام اجلس اناظرك فى الدين، فأجابه الإمام: «يا هذا أَنَا بَصِيرٌ بِدِينِى مَكشُوفٌ عَلَىَّ هُدای فَإن كُنتَ جاهِلًابِدِينِكَ فَاذهَبْ وَاطلُبهُ، مالِى وَللمُماراتِ وإنَّ الشَّيطانَ لِيُوسوِسُ لِلرَّجُلِ وَيُناجِيهِ وَيَقُولُ ناظِرِ النَّاسَ فِى الدِّينِ كَى لايَظُنُّوا بِكَ العَجزَ وَالجَهلَ»». ۶- وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَربَعٌ يُمِتْنَ القُلُوبَ الذَّنبُ عَلى الذَّنبِ وَكَثرَةُ مُناقَشَةِ النِّساءِ يَعنِى مُحادَثَهُنَّ وَمُماراتُ الأَحمَقِ تَقُولُ وَيَقُولُ وَلا يَرجَعُ إلى خَيرٍ وَمُجالَسَةُ المَوتى فَقِيلَ: يا رَسُولُ اللَّهِ وَما المَوتى قَالَ: كُلُّ غَنِيٍ مُترَفٌ» «۴». ۷- جاء عن أميرالمؤمنين قوله: «إيّاكُم وَالمِراءِ وَالخُصُومَةَ فَإنَّهُما يَمرُضانِ القُلُوبَ عَلَى الإِخوانِ وَينبِتُ عَلَيهِما النِّفاقِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۷ ۸- ولهذا فقد ورد فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال فى خطاب له أمام حشدٍ من المسلمين: «أورَعُ النّاسِ مَنْ تَرَكَ المِراءَ وَإنْ كانَ مُحِقاً» «۱». ۹- وفى رواية عن الإمام أميرالمؤمنين صلى الله عليه و آله أنّه قال: «جِماعُ الشَّرِّ اللِّجاجُ وَكَثرَةُ المِمارَاةِ» «۲». ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن سلمان الفارسى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا يُؤمِنُ رَجُلٌ حَتّى يُحِبُّ أَهلِ بَيتِى وَحَتّى يَدَعَ المِراءَ وَهُوَ مُحِقٌّ فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطابِ: ما عَلامَةُ حُبِّ أَهلِ بَيتِكَ؟ قالَ: هذا، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى عَلِيِّ بنِ أَبِى طالِبٍ عليه السلام» «۳». ولا شك أنّ هذين الموضوعين يرتبطان ببعضهما برابطة وثيقة حيث ذكرهما النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى كلامه مقترنين، ولعل هذه الرابطة من جهة أنّ دلائل فضل الإمام على وأهل بيته عليهم السلام إلى درجة من الوضوح والبداهة بحيث يقبلها كل إنسان يتحرّك من موقع الإنصاف ويبتعد عن الجدال والمراء والخصومة ويهدف إلى طلب الحقيقة. *** إنّ الروايات الشريفة فى ذمّ المراء كثيرة جدّاً، وما ذكر من الروايات العشر أعلاه إنّما هى نماذج وعيّنات من هذا الباب والنظر الدقيق فى هذه الأحاديث والروايات يكفى لكى يحيط الإنسان بأخطار هذا الخلق الذميم وعواقبه الوخيمة وآثاره المخرّبة على المستوى الفردى والاجتماعى.

الآثار السلبية للجدال والمراء:

إنّ التأكيدات الكثيرة الواردة فى الآيات القرآنية والروايات المتواترة الإسلامية فى ذم الجدال والمراء والخصومة فى المباحثات الكلامية إنّما هى من أجل أنّ أول نتائج هذا العمل المضرّة وهذا الخلق السيء هو التستّر والتغطية على الحقائق بحيث يجعل بين الإنسان وبين الحقيقة حجاباً سميكاً وسحابة سوداء على بصيرة الإنسان بحيث لا يدرك معها أوضح البديهيّات ويتحرّك فى مناقشاته من موقع إنكار الامور الضرورية أو يدافع عن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۸ بعض المواضيع التى تدعو للسخريّة، وليس هذا إلّابسبب أنّ الإنسان عندما تتصاعد عنده روح الجدال وتشتد حرارة الكلام فيه فأنّه يقوم بإنكار كل ما لا يراه مصيباً فى نفسه ولا يتوافق مع كلامه. وبما مرّ علينا من الروايات الشريفة تقرّر أنّ الخصومة والجدال والمراء تمرض القلب فإنّه من الممكن أن تكون إشارة إلى هذا المعنى، لأنّ القلب يأتى بمعنى العقل، ومرض القلب بمعنى عدم درك الحقائق والواقعيات، ولذا رأينا فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الأشخاص الذين يعيشون الجدال والمراء تكون عاقبتهم ومصيرهم إلى الكفر، أو أنّ الجدال يسبب الشك فى دين اللَّه وفساد اليقين، كل هذا إشارات لطيفة إلى ما تقدّم آنفاً من أضرار الجدال والمراء. والآخر من الآثار السلبية لهذه الصفة الأخلاقية الذميمة هوإيجاد العداوة والبغضاء بين الأصدقاء ونسيان ذكر اللَّه تعالى وجرّ الإنسان إلى الكثير من أنواع الكذب فى الكلام حيث مرّت الإشارة إلى ذلك فى الأحاديث الشريفة السابقة، والسبب فى ذلك واضح، لأنّ الشخص الذى يريد إثبات تفوّقه على أقرانه من خلال الجدال والمراء فإنّه يعمل على تحريك الطرف الآخر ضدّه ليحمى وطيس النقاش وغالباً ما نجد فى كلامه عناصر التحقير والسخرية بالطرف الآخر، وهذه من أسوأ أسباب النفاق وإيجاد العداوة بين الأشخاص وحتّى أنّه أحياناً ومن أجل تبرير كلامه يتوسّل بأنواع الكذب، وهذا بحد ذاته بلاء كبير آخر، ومجموع هذه الامور تؤدّى بالإنسان إلى الابتعاد عن اللَّه تعالى ويسقط فى فخاخ الشيطان وشراكه وبالتالى يكون مصيره إلى الهلاك المعنوى والسقوط الإنسانى. ولهذا قرأنا فى الأحاديث السابقة أنّ الإنسان لا يصل إلى حقيقة الإيمان إلّاإذا ترك المراء والجدال حتى لو كان محقّاً، لأنّ النزاع اللفظى حتى فى مسائل الحق والدين يتسبب فى إيجاد أنواع الخصومات والعدوان وأحياناً يجر الإنسان إلى ارتكابه الكثير من الذنوب من قبيل: تحقير المؤمن وإهانته بالكلام أو بالإشارة باليد والعين والكذب والتكبر وحبّ التفوّق وأمثال ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۴۹ مضافاً إلى هذا أنّ الجدال والمراء يذهب وقار الإنسان ويكسر من شخصيته ومروءته بحيث ينفتح عليه لسان الجهلاء إذا اشترك فى مجادلة معهم ويتسبب فى هتك حرمته والإهانة له، وإذا جادل العلماء فإنّه يذوق مرارة الهزيمة ويفتضح أمره ويكشف عن جهله وحقارته. ومن مجموع ما مرّ وكما قرأنا فى الروايات السابقة أنّ الجدال والمراء يعدّ أحد الامور الأربعة التى تؤدّى إلى مرض قلب الإنسان وروحه. فما أحسن بالإنسان أن يتباحث مع الآخرين من موقع المحبّة والصداقة والتواضع وبدافع من طلب الحق والحقيقة حيث يؤدّى ذلك إلى زيادة علمه ومعرفته والاستفادة من علوم الآخرين لإيضاح الحقيقة أكثر وحل المشاكل العلميّة العويصة والقيود المعرفيّة التى بأمكانها أن توصل الإنسان إلى أجواء المعرفة والإطّلاع على المجهول، وهذا هو الجدال بالحق.

دوافع الجدال والمراء:

ونظراً إلى وجود علاقة وثيقة بين الصفات الرذيلة فى واقع الإنسان حيث ترتبط غالباً فيما بينها بعلاقة العلّة والمعلول، يتّضح من ذلك أنّ هذه الصفة الذميمة، أى الجدال والمراء والخصومة من موقع الجهالة، تنشأ من صفات قبيحة اخرى: ۱- إنّ من العوامل المهمّة للجدال والمراء هو حالة الكبر والغرور فى النفس والتى لا تسمح للإنسان أن يذعن أمام الحق، بل تدفعه لغرض حفظ التفوّق على الطرف الآخر إلى سلوك طريق الجدال والمراء وإنكار ما يتّضح له أنّه الحق، ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام عليهم السلام: «إنّ مِنَ التَّواضُعِ أنْ يَرضى الرَّجُلُ بِالمَجلِسِ دُونَ المَجلِسِ وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلى مَنْ يَلقى وَأَنْ يَترُكَ المِراءَ وَإِنْ كانَ مُحِقّاً وَلا يُحِبَّ أنْ يُحمَدَ عَلَى التَّقوى «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۰ ۲- وأحد الدوافع الاخرى للجدال والمراء والنزاعات اللّفظية هو الظهور بمظهر العالم المتفوّق وإظهار الفضل على الآخرين، وهذه الحالة متداولة كثيراً فى

أجواءنا الاجتماعية وخاصّة فى المجلس الذى يحضره جماعة من العوام ويريد هذا الشخص أن يظهر نفسه وفضيلته أمامهم أو يريد أن يفتح له مكاناً بين أرباب العلم والمعرفة، وجاء فى الحديث الشريف الذى ذكرناه سابقاً عن الإمام الحسين عليه السلام قوله: «وإِنَّ الشَّيطانَ لَيُوسوِسُ لِلرَّجُلِ وَيُناجِيهِ وَيَقُولُ ناظِرِ النَّاسَ فِي الدِّينِ كَى لا يَظُنُّوا بِكَ العَجزَ وَالجَهلَ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقسّم طلّاب العلم إلى ثلاثة أقسام، وطائفة منهم طلبوا العلم للجدال والمراء، وطائفة اخرى للفخر على الناس، وثالثة لغرض فهم الحقيقة والتعلّم والعمل بذلك، ثمّ يصف الإمام حال الطائفة الاولى ويقول: «فَصاحِبُ الجَهلِ والمِراءِ مُوذٍ مُمارٍ مُتَعَرِّضٍ لِلمَقالِ فِى أَنْدِيةِ الرِّجالِ». وفى ذيل هذا الحديث الشريف يلعن الإمام مثل هذا الشخص ويقول: «فَدَقَّ اللَّهُ مِنْ هذا خَيشُومَهُ» «۲». ۳- ومن الدوافع الاخرى للجدال والمراء والتعصّب الكلامى هو الجهل بمقام الذات ومقام الآخرين، لأنّه يرى نفسه أكبر وأعلم من واقعه ويرى الآخرين يعيشون الجهل وعدم العلم، ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام والذى ذكرناه فيما سبق بعد أن يعدّ الإمام المراء بأنّه أحد الأمراض الخطرة لقلب الإنسان وأنّه من الأخلاق الشيطانية يقول: «فَلا يُمارِى فِى أَيِّ حالٍ إلّامَنْ كانَ جاهِلًا بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ» «۳». ۴ و ۵- حبّ الانتقام والحسد يعتبران من العوامل المهمّة الاخرى التى تدفع بالإنسان إلى الجدال والمراء، فلغرض تسقيط شخصية الطرف المقابل والانتقام منه وإشباع حالة الحسد فى نفسه أو تضعيف مكانة الطرف الآخر أمام الانظار فإنّه يستخدم أداة الجدل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۱ والبحث العلمى المقترن مع الأهانة والتحقير ليستطيع بهذه الوسيلة أن يروى ظمأه إلى الانتقام من الطرف الآخر ويصب الماء على نار الحقد والحسد المستعرة فى قلبه. ۶- ومن العوامل المهمّة الاخرى التعصّب واللّجاجة، لأنّ الشخص المتعصّب واللّجوج غير مستعد أن يقبل التنازل عن عقائده الفاسدة بسهولة، ولذلك يجد فى نفسه تعصّباً للتوقف عليها وحفظها والدفاع عنها بالمجادلة والبحث الكلامى ويتشبّث بكل وسيلة لإثبات صحّة كلامه وبطلان كلام الطرف الآخر، وهذا هو ما نجده فى سلوك الكثير من الكفّار والمشركين أمام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء الكرام عليهم السلام حيث تقدّم مثال واضح لذلك من مباحثة عبدة الأوثان ونمرود مع النبى ابراهيم عليه السلام، وذلك عندما وجدوا أنفسهم أمام الكلام المنطقى والرصين لأبراهيم عليه السلام فوقعوا فى حيرة من الأمر وانتبهوا مؤقتاً من نوم الغفلة ولكن حالة التعصّب واللّجاجة أسدلت على عقولهم وقلوبهم سحابة ظلمانية منعتهم من قبول الحقيقة والإذعان وانطلقوا مرّة اخرى فى تأكيد معتقداتهم السخيفة من موقع الدفاع عنها بالأدلة الواهية والجدال الأجوف. ۷- ومن العوامل المهمّة للجدال والمراء أيضاً (حبّ الدنيا) الذى يعدّ عاملًا أساسياً لجميع الذنوب أو أكثرها، فالأشخاص الذين يعيشون هذه الصفة الرذيلة يريدون كسب المقام والوجاهة الاجتماعية من خلال سلوك هذا الطريق لإثبات أعلميّتهم وذكائهم وبذلك يتمكّنوا من نيل أهدافهم الدنيوية وتحصيل بعض المقامات الوهميّة والعناوين الزائفة. وخلاصة الكلام هى أنّ العوامل السلبية الكثيرة تتفق مع بعضها لدفع الإنسان إلى الخوض فى الجدال والمراء بعيداً عن الأدب والخلق الإنسانى والإنصاف وتجرّه إلى الدخول فى دائرة اللّجاجة والعناد أمام الحق والدفاع عن الباطل.

أقسام المراء والجدال:

يمكن تقسيم الجدال والمراء إلى قسمين: الجدال والمراء على المستوى الإيجابى، أى أن يتباحث مع الآخرين على مستوى البحوث المنطقية لغرض تبيّن الحقائق وتوضيح ما أشكل من المسائل الغامضة والاطّلاع الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۲ على نظرات الآخرين والوصول إلى الواقعيات من هذا الطريق. أمّا المراء والجدال على المستوى السلبى فيعنى المباحثات والنزاعات الكلامية التى تنطلق بوحى من عقدة الخصومة والتى لا تهدف إلى غرض معيّن وصحيح ولا تسير فى خط تبيين الحقائق، بل الهدف منها هو تكريس الخصومة والتعصّب واللّجاجة وإثبات التفوّق وإظهار الفضل على الآخرين. وهذا التقسيم نجده منعكساً فى آيات القرآن الكريم حيث يقول فى الآية ۴۸ من سورة العنكبوت: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ويقول فى مكان آخر فى الآية ۱۲۵ من سورة النحل: «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ويقول فى مكان آخر فى مقام الذم لجماعة من الكافرين: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ

بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ». وأمّا فی مورد المراء الإیجابی فنقرأ فی (قصة أصحاب الکهف) وعددهم قوله تعالی: «فَلَا تُمَارِ فِیهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً» «۱». أی بالنسبة إلی عدد أصحاب الکهف فلا ینبغی أن تتباحث حولهم إلّابالکلام المنطقی المقترن بالدلیل. وأمّا فی مورد المراء السلبی فیقول تعالی: «أَلَا إِنَّ الَّذِینَ یُمَارُونَ فِی السَّاعَةِ لَفِی ضَلَالٍ بَعِیدٍ» «۲». وهناک تقسیمات اخری أیضاً علی حسب الأشخاص فی طرفی المباحثة وکذلک بالنسبة إلی المواضیع والمسائل التی تدور فی أجواء البحث والجدال. ومن ذلک أن یکون طرف المناظرة إنساناً عاقلًا وفاهماً لکی تکون المباحثة معه مثمرة من خلال الاستدلال المنطقی والعلمی کما ورد فی وصیّة أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «دَعْ المُمارَاةَ وَمُجارَاتَ مَنْ لاعَقلَ لَهُ وَلا عِلمَ» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۵۳ ویجب أن یکون المناظر إنساناً مطّلعاً علی الامور، لأنّ الأشخاص الذین یعیشون الجهل بالامور إذا أرادوا الدفاع عن الحق والورود فی میدان المجادلة، فإنّهم وبسبب ضعف معلوماتهم وقلّة إطّلاعهم سوف یذوقون الهزیمة ویغلبوا فی هذه المبارزة، وبالتالی ینعکس ذلک سلبیاً علی الحق والحقیقة. ولذلک نقرأ فی الحدیث الشریف أنّ محمد بن عبداللَّه المعروف بالطیّار جاء إلی الإمام الصادق علیه السلام وقال له: «بَلَغَنِی أَنَّکَ کَرِهتَ مُناظَرَةَ النّاسِ»، قال الإمام علیه السلام: «أَمّا کَلامُ مِثلِکَ فَلا یَکرَهُ، مَنْ إذا طارَ یَحسُنُ أَنْ یَقَعَ وإنْ وَقَعَ یَحسُنُ أَنْ یَطِیرَ، فَمَنْ کانَ هکَذا لانَکرَهُهُ» «۱». أمّا لقب الطیّار الذی یطلق علی هذا الصحابی المعروف للإمام الصادق علیه السلام، فهو إشارة إلی هذا المعنی أیضاً، لأنّه کان قویاً جدّاً فی مجال المباحثة والجدل وکان یتحرّک فی دفاعه عن الحق بکل قدرة ومهارة. وهنا ینبغی علی جمیع الأشخاص الذین لیس لدیهم إطّلاع کافٍ حول مسائل الدین ومعارفه العمیقة ولا یجدون فی أنفسهم القدرة علی الدفاع عنه أن لا یدخلوا فی مناظرة ومباحثة مع المخالفین، لأنّهم سوف ینهزمون فی هذه المباحثة، وهزیمتهم توجب وهن مبانی المذهب الحق فی نظر الآخرین. ومن هنا فإنّ الافراط والتفریط غالباً موجود فی سلوکیات هؤلاء الأفراد الجهلاء، فهناک الأشخاص الذین یسلکون طریق الافراط عن جهل ویقولون: بما أنّ الجدال والمراء مذموم فی الإسلام ومحرّم بشدّة، فنحن لا ندخل فی أی بحث علمی وکلامی مع أی شخص من الأشخاص حتّی لو کان البحث مستدلًا ویقوم علی قواعد منطقیة من الأدلة والبراهین فی طریق إثبات الحق والدفاع عنه، ویختارون السکوت بدل البحث أو الاستدلال، ویسمّون ذلک من باب القیل والقال. وهذا أیضاً انحراف کبیر عن جادّة الصواب، لأنّ تبیّن الحقائق لا یتسنی إلّافی ظلّ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۵۴ البراهین المنطقیة والدلائل المتینة، وإیصاد هذا الطریق علی الناس یعنی حرمانهم أو حرمان طائفة کبیرة منهم من الوصول إلی الحقائق وتحصیل الواقعیّات. ونختم هذا الکلام بحدیث جمیل عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام عن جدّه الإمام الصادق علیه السلام حیث وقعت فی محضره مجادلة کلامیة فی أمر الدین وأنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السلام کانوا قد نهوا عن ذلک، فقال الإمام الصادق علیه السلام: «لَمْ یَنهَهُ عَنْهُ مُطلَقاً لَکِنَّهُ نَهی عَنْ الجِدالِ بِغَیرِ الَّتِی هِی أَحسن، أما تَسمَعُونَ اللَّهَ تَعالی یَقُولُ: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْکِتَابِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ» «۱»، وَقَولَه: «ادْعُ إِلَی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِوَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ» «۲»، فَالجِدالُ بِالَّتِی هِی أَحسَنُ قَد قَرَنَهُ العُلَماء بِالدِّینِ وَالجِدالِ بِغَیرِ الَّتِی هِی أَحسنُ مَحرمٌ وَحَرَّمَهُ اللَّهُ تَعالی عَلی شِیعَتِنا، وَکَیفَ یُحَرِّمُ اللَّهُ الجِدالَ جملَةً وَهُوَ یَقُولُ: «وَقَالُوا لَن یَدخُلِ الجَنَّةَ إِلّامَنْ کانَ هُوداً أو نصاری ، قالَ اللَّهُ تعالی «تِلکَ أَمانِیهِم قُل هَاتُوا بُرْهَانَکُمْ إنْ کُنتُمْ صَادِقِینَ» «۳». فَجَعلَ عَلمَ الصِّدقِ والإیمانِ بِالبُرهانِ وَهَل یُؤتی بِالبُرهانِ إلّافِی الجِدالِ بِالَّتِی هِی أَحسَنُ؟ قِیل: یا ابنَ رَسُولِ اللَّهِ فَما الجِدالِ بِالَّتِی هِی أَحسَن وَالَّتِی لَیسَتْ بِأَحسَنَ؟ قالَ: أَمّا الجِدالَ بِغَیرِ الَّتِی هِی أَحسنُ أن یُجادِلَ مُبطلًا فَیُوردُ دَلِیلًا باطِلًا فَلا تَردَّهُ بِحُجَةٍ قَد نَصَبَها اللَّهُ تعالی وَلکن تَجحَد قولَهُ ... وَأَمَّا الجِدالُ بالَّتِی هِی أَحسَنُ فَهُوَ ما أَمَرَ اللَّهُ تعالی بِهِ نَبِیَّهُ أن یُجادِلَ بِهِ مَنْ جَحَدَ البَعثَ بَعدَ المَوتِ وَإِحیاءُهُ لَهُ فَقالَ اللَّهُ حاکِیاً عَنهُ: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِیَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظَامَ وَهِیَ رَمِیم* قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ» «۴» «۵».

طرق علاج هذه الرذیلة الأخلاقیة:

کلّما وجد الإنسان نفسه یعیش حالة الخصومة فی مباحثة مع الآخرین ویکثر من الجدل والبحث العقیم وبتعبیر الروایات: الجدال غیر

الحسن بحيث أصبح هذا السلوک بمثابة العادة والخلق له، فإنّ إيمانه وتقواه ودينه يتعرّض لخطر الذوبان والمحق، وينبغى عليه الاسراع فى انقاذ نفسه من هـذه الرذيلـة والتخلّص من هـذا الخلق الـذميم والتحرّک بصـدد العلاج قبل أن تتجذّر هذه الصـفة فى أعماق نفسه. والطريق الأول للعلاج ولعلّه يعـدّ من مقـدمات العلاج لتسـكين هـذه الحالـة المؤذيـة كيما يتسـنى للإنسان علاجها فيما بعـد هو اختيار السـكوت فى كل مورد يحتمل فيه أن يكون الجدال بالباطل، وكلّما استمر هذا السكوت مدّة أطول وتحّمل الضغط النفسى وتحدّيات الحالـة المزاجية، فإنّ ذلک سـيوفّر الأرضـية المساعدة للتخلّص من شـرّ هذه الحالة السـلبية ومعالجة هذه الصـفة فى النفس. وطبعاً فإنّ السكوت يعدّ علاجاً للكثير من الرذائل (من قبيل الحسد والحقد والنميمة والرياء وكفران النعمة والتهمة والكذب وحبّ التفوّق وغيرها من الرذائل الأخلاقية التى تتجلّى فى سلوک الإنسان من خلال الكلام والنطق) فالسكوت يمكنه أن يكون عنصر الوقاية من جميع هذه الموارد، ولهـذا السبب فإنّ الروايات الإسـلامية قـد مـدحت السـكوت كثيراً وقد تقدّم تفصـيل هذا الموضوع فى الجزء الأول من هذا الكتاب. الطريق الآخر لعلاج هذه الفضيلة الأخلاقية هو التفكّر الدقيق فى النتائج السلبية والعواقب الوخيمة المترتبة على هذه الصفة من قبيل أن يكون الإنسان محجوباً عن درک الحقائق ويعيش فى زحمـة الأوهام والتعصّـبات والعـداوات بين الأصدقاء ويبتعد بذلک عن حقيقـة الإيمان وبالتالى سـيكون مورداً للغضب الإلهى وزهوق شخصـيته وسـقوط حيثيته بين الخاص والعام. ومن اليقين أنّ التفكّر فى مثل هـذه العواقب السـيئة سـيكون له تأثير عميق فى وقاية الإنسان عن الوقوع فى متاهة الجدال بالباطل، فكيف يمكن أن يعلم الإنسان بأنّ هذا الغذاء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۶ مسـموم ويتناوله فى نفس الوقت؟ فالشخص الذى يتناول غذاء مسموماً هو الذى لا يـدرک آثاره وعواقبه ولا يعلم بحاله. إنّ إصـلاح جـذور الخلل فى واقع النفس وتطهير الـذات من الـدوافع والنوازع التى تجرّ الإنسان للخوض فى الجـدل يعـدّ أحـد طرق العلاج لهـذا الخلق الـذميم، وعنـدما نقول الـدافع للجـدال والمراء فهذا يعنى التكبّر وحب التفوّق والتظاهر والحسد وحبّ الانتقام وحبّ الدنيا والتعصّب واللجاجة، ومن المعلوم أننا إذا اسـتطعنا أن نبعد هذه الحالات السـلبية والصفات الذميمـة عن أنفسـنا ونطهّر قلوبنا من أدرانها فإنّ ذلک من شأنه أن يقلع جـذور حالـة الجدال والمراء من النفس، ولكن مع وجود هذه الصـفات فى أعماق النفس، فإنّ إزالـة هذه الصـفة الأخلاقية سـيكون عسـيراً جداً. ومن الطرق الاخرى للعلاج هو إبتعاد الشـخص عن الأفراد المتعصّبين والذين يحبّون الخوض بالباطل وكذلک الامتناع عن مناقشة مثل هؤلاء الأشـخاص حيث سـيجرّ الإنسان إلى الجدال والمراء وإن كان غير قاصـد لـذلک. وقد ورد فى الحديث الشـريف عن أمير المؤمنين عليه السـلام قوله: «مَنْ جالَسَ الجاهِلَ فَلَيَستَعِدَّ لِقِيلٍ وَقالٍ» «۱». ومن البـديهى أنّ الإنسان قبل كل ذلک يجب عليه أن يوقظ فى نفسه الإرادة والعزم القاطع على ترک المراء والجدال واجتناب هذه الرذيلة الأخلاقية، فاذا وجد الإنسان فى نفسه ذلک وعزم بجدية على ترک المراء فانّه سيفلح فى النهاية.

الإنصاف فى الكلام:

النقطـة المقابلـة للمراء والجدال هى الانصاف فى البحث والكلام، أى أنّ الإنسان ينظر إلى كلام الآخرين كما ينظر إلى كلامه ويدافع عنه كمـا يـدافع عن كلامـه، وبتعبير آخر أن يكون طالبـاً للحق فيبحث عنه ويطلبه من أى شـخص كـان ومن كـل مكـان حتّى لو كان الناطق الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۵۷ به شخصاً من العوام وكان هو عالماً كبيراً ومعروفاً، بل حتى لو سمع كلام الحق من طفل أو كافر أو ظالم فعليه قبوله من موقع الإذعان للحق والحقيقة. وأمّا الانصاف فى الروايات الإسـلامية الذى ورد الثناء البالغ عليه فالمراد منه أن يرى الشـخص مصالـح الآـخرين كمصالحه، ولكن أحـد أغصان شـجرة الانصاف هو الانصاف فى الكلام، حيث ورد فى الحـديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السـلام قوله: «سَيِّدُ الأَعمالِ ثَلاثَةٌ: إِنصافُ النّاسِ مِنْ نَفْسِکَ حَتّى لاترضى بِشَىءٍ إِلّارَضِيتَ لَهُم مِثلَهُ وَمُواساتِکَ الأَـخَ فِى المَـالِ وَذِكْرُ اللَّهِ عَلى كُلِّ حالٍ» «۱». والملفت للنظر أنّ بعض الروايـات الواردة عن الإمـام الصـادق عليه السـلام تتحدّث عن أنّ الإمام عندما ضـمن أربعة قصور فى الجنّة لمن يعمل أربعة أعمال، فإنّه عدّ ترک المراء ثالث عمل وانصاف الناس من النفس العمل الرابع، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الانصاف فى الكلام.

النميمة وإصلاح ذات البين

تنويه:

إنّ الحياة الاجتماعية تتزامن دائماً مع أشكال التضاد والنزاع بين أفراد المجتمع، وأحد فروع التضاد والتزاحم بين الأفراد هو النزاع الكلامى الذى قديمتد ويتعمّق إلى أن يصل إلى شجار وصراع بين الأطراف وقد يصل أحياناً إلى سفك الدماء أيضاً. فالواجب على أفراد المجتمع أن يتحرّكوا من موقع إصلاح ذات البين ورفع سوء التفاهم وتهيئة الأرضية لايجاد جو حسن الظن بين الأطراف المتنازعة وكما فى الاصطلاح: يصبوا الماء على نار الصراع ويعملوا على تهدئة التوتر الناشىء من حالات الشجار والتضاد. ولكن مع الأسف فإنّ بعض الناس وبدوافع مختلفة يتحرّكون على العكس من هذا الاتّجاه وكأنّهم يريدون صبّ الزيت على النار ويرغبون فى إتساع دائرة الحريق، ومن المعلوم أنّهم سيشتركون فى جميع المفاسد المترتبة على هذا النزاع والصراع بين أفراد المجتمع، هؤلاء يتحرّكون فى هذا الاطار على مستوى إيصال كلام هذا الطرف إلى الطرف الآخر وبالعكس وقد يضيفون بعض الكلام من أنفسهم ويوصلونه إلى الطرف المتخاصم، وهذا هو معنى (النميمة) التى هى من أسوأ الأخلاق الذميمة فى النفس البشرية فى حين أنّ الفئة الاولى هم المصلحون الاجتماعيون الذين يعدّ عملهم فى مرتبة الجهاد فى سبيل اللّه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۰ وقد ورد فى الروايات الشريفة أنّه: «أنَّ أَجرَ المُصلِحِ بَينَ النّاسِ كَأجرِ المُجاهِدِ بَينَ أَهلِ الحِربِ» «۱». إنّ النميمة كلّما تكرّرت فى سلوك الفرد فإنّ من شأنها أن تكون خلقاً وملكة وسجيّة فى هذا الإنسان، ومن رذائله الأخلاقية القبيحة، وقد وردت فى الآيات الكريمة والروايات الإسلامية إشارات كثيرة إلى هذه الرذيلة الأخلاقية على مستوى ذمّها وتقبيح المرتكب لها، وعلى العكس من ذلك فقد ورد المدح الكثير لعملية إصلاح ذات البين. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من اياته ما يتعلق بهاتين الصفتين الأخلاقيتين ثمّ نستعرض كل واحدة منهما من موقع الدوافع والنتائج والآثار الإيجابية والسلبية وطرق علاج صفة النميمة وكذلك تقوية ضدّها وهى إصلاح ذات البين: ۱- «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» «۲». ۲- «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ» «۳». ۳- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» «۴». ۴- «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً» «۵». ۵- «يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» «۶». ۶- «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِايْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۷». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۱ ۷- «لَاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً». «۱» ۸- «... إنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» «۲».

تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى»: تحذّر الأشخاص الذين يتحرّكون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع السخرية والإستهزاء: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ». أمّا تفسير (همزة) و (لمزة) والفرق بينهما هناك كلام كثير بين المفسّرين وقد تحدثنا عنه فى التفسير الأمثل ذيل الآية الشريفة، والمهم هو أنّه على أحد التفاسير فإنّ المراد من الآية أعلاه هو الإشارة إلى الأشخاص الذين يتحرّكون على مستوى النميمة بين الأفراد، وقد سئل ابن عباس عن المقصود من هذه الآية، ومن هم هؤلاء الذين يهدّدهم اللّه تعالى بالويل، فقال: ابن عباس: «هُم المَشاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ المَفَرِّقُونَ بَينَ الأَحِبَّةِ النَّاعِتُونَ لِلنّاسِ بِالعَيبِ». ويذكر المرحوم الطبرسى فى (مجمع البيان) هذا المعنى بعنوان أول تفسير له لهذه الآية، والفخر الرازى يذكره بعنوان التفسير التاسع والأخير لهذه الآية، ونظراً للمفهوم الواسع الذى يدخل فى مضمون (همزة ولمزة) فإنّ كل أشكال الغيبة والنميمة والسخرية تندرج تحت مفهوم هذه الآية، وهنا نرى أنّ اللّه تعالى قد وعد هؤلاء الأشخاص بالعقاب الشديد وهو

(الحطمة) وهی النار التی سعّرها اللَّه تعالی فی قلوب هؤلاء بحیث تندلع من قلوبهم لتستوعب کل وجودهم. ویستفاد من هذه الآیة أنّ نار الآخرة بخلاف نار الدنیا، فإنّها تنبع من داخل النفس وأعماق القلب ثم تسری إلی الظاهر، ولعلّ ذلک بسبب أنّ الرذائل الأخلاقیة والأعمال الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۶۲ القبیحة تنبع من ذات الإنسان وأعماقه ثم تظهر علی السطح علی شکل ممارسة عملیة فی الواقع الخارجی. «الآیـة الثانیـة»: تخاطب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وتنهاه عن إطاعة هؤلاء النمّامین بعد عدّة أقسام وتقول: «وَلَا تُطِعْ کُلَّ حَلَّافٍ مَهِینٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِیم» وتبعاً لهذه الصفات الأخلاقیة القبیحة تضیف الآیات التالیة صفات اخری من قبیل المنع من عمل الخیر، العدوان، الحقد، الخشونة، الکفر بآیات اللَّه تعالی، ثم تقول: «سَنَسِمُهُ عَلَی الْخُرْطُومِ» وهکذا سیفتضح أمره فی الدنیا والآخرة. أمّا ذکر النمیمة فی تسلسل الرذائل المهمّة الاخری وکذلک الکفر بآیات اللَّه تعالی یدل علی قبح هذه الخصلة الشنیعة فی سلوک الإنسان. وعبارة «مشّاءِ بنمیم» جاءت بصیغة المبالغة، وهی إشارة إلی الأشخاص الذین یتحرّکون دائماً بین الناس بالنمیمة ویثیرون العداوة والبغضاء فیما بینهم، وهذا بحدّ ذاته یعدّ من أهم الذنوب الکبیرة. (حلّاف) یطلق علی الشخص الذی یحلف ویقسم باللَّه کثیراً، وعادة فمثل هؤلاء الأشخاص لا یعتمد الناس علیهم ولا هم یعتمدون علی أنفسهم، ووصفهم بکلمة (مهین) أیضاً شاهد آخر علی هذا المعنی، ولهذا فإنّهم وبدافع من شعورهم بالحقارة والذلة یعیبون علی الآخرین ویمشون بینهم بالنمیمة والفساد وکأنّهم یتألمون ممّا یرون من المحبّة والالفة والتکاتف بین الناس ویریدون ایقاع العداوة والحقد بین الأشخاص کما هو حالهم فی أنظار الناس حیث ینظر الناس إلیهم نظرة الحقارة والازدراء. «الآیـة الثالثة»: وطبقاً لسبب نزولها المعروف تتحدّث عن (الولید بن عقبة) الذی أرسله رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لجمع الزکاة من قبیلة (بنی المصطلق): إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بعث إلیهم بعد إسلامهم الولید بن عقبة بن أبی معیط، فلما سمعوا به رکبوا إلیه، فلما سمع بهم هابهم فرجع الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۶۳ إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فأخبره أنّ القوم قد همّوا بقتله ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم فأکثر المسلمون فی ذکر غزوهم حتّی همّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بأن یغزوهم، فبینما هم علی ذلک قدِم وفدهم علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقالوا: «یا رسول اللَّه سمعنا برسولک حین بعثته إلینا فخرجنا إلیه لنکرمه ونؤدی إلیه ما قبلنا من الصدقة فانشمر راجعاً فبلغنا أنّه زعم لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنا خرجنا إلیه لنقتله واللَّه ما جئنا لذلک، فأنزل اللَّه تعالی فیه وفیهم: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جَاءَکُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَی مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِینَ»» «۱». فبعث رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خالد بن الولید وأمره أن یتثبّت ولا یعجل، فانطلق خالد حتّی أتاهم لیلًا، فبعث عیونه، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنّهم متمسکون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأی صحة ما ذکروه، فعاد إلی نبی اللَّه صلی الله علیه و آله فأخبره، فنزلت هذه الآیة، فکان یقول نبی اللَّه صلی الله علیه و آله: «التَّأَنِی مِنَ اللَّهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشّیطانِ» «۲». وطبقاً لحدیث شریف عن الإمام الصادق علیه السلام فإنّ الآیة محل البحث تشیر إلی النمّام» .ومن هنا یتّضح أنّ النمیمة تشمل الکذب أیضاً. «الآیة الرابعة»: من الآیات محل البحث أوردها بعض العلماء کالعلّامة المجلسی فی بحث النمیمة وقال: إنّ من یشفع شفاعة سیئة الوارد فی هذه الآیة «وَمَنْ یَشْفَعْ شَفَاعَةً سَیِّئَةً یَکُنْ لَهُ کِفْلٌ مِنْهَا» له مفهوم واسع ویشمل النمیمة أیضاً لأنّها شفاعة سوء بالحقیقة، بل هی أسوأ حیث یشعل النّمام نار العداوة بین الرجلین من المسلمین فیتحرّکوا فیما بینهما من موقع سوء الظن والحقد والکراهیة، ولذلک ورد فی الحدیث النبوی الشریف قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «مَنْ أَمَرَ بِسُوءٍ أو دَلَّ عَلَیهِ أو أَشارَ فَهوَ شَرِیکٌ». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۶۴ «الآیة الخامسة»: تتحدّث عن إصلاح ذات البین والذی یقع فی النقطة المقابلة للنمیمة وإفساد ذات البین، وتقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَیْنِکُمْ وَأَطِیعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ». وقد ورد فی سبب نزول هذه الآیة أنّها نزلت بعد غزوة بدر حیث حدثت بین رجلین من الأنصار مشاجرة لفظیة علی الغنائم الحربیة، وصرّحت الآیة بأنّ الغنائم الحربیة أمرها بید النبی صلی الله علیه و آله وعلیکم أن تسعوا لإصلاح ذات البین وإزالة الفرقة والاختلاف بین المسلمین. «الآیـة السادسـة»: تشیر إلی الذین یجعلون اللَّه عرضة لأیمانهم فی تقواهم واصلاح ذات البین: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَیْمَانِکُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَیْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ». وقد ورد فی تفسیر هذه الآیـة رأیان: الأول: أنّ هذه الآیة ناظرة إلی

الأشخاص الـذين تتملكهم الحدّة أحياناً فيقولون: سوف لا نفعل الخير أبـداً لفلان وفلان، أو لا نتحرّك لغرض الإصلاح فيما بينهم، فنزلت الآية الشريفة وقالت إنّ هذه الإيمان باطلة فلا شيء يمكنه أن يمنع عمل الخير والإصلاح بين الناس (وقد ذكر لهذه الآية سبب لنزولها يؤيّد هذه الرؤية حيث ذكر أنّه حصل اختلاف بين زوجين أحدهما بنت أحد الصحابة ويدعى (عبداللّه بن رواحة) وقد حلف هذا الصحابى أن لا يقدم على إصلاح ما بينهما من الخلاف والنزاع، ونزلت الآية وأكّدت على بطلان مثل هذا القسم). الثانى: هو أنّ هـذه الآيـة تنهى عن القسم لغرض أعمال الخير والتقوى والإصلاح بين الناس، لأنّ رجحان مثل هـذه الأعمال وفضلها إلى درجـة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى القسم. وعلى أيّة حال فانّ أهميّة إصلاح ذات البين يتّضح من هذه الآية جيداً وخاصة أنّها ذكرت هذه الفضيلة إلى جانب أعمال الخير والتقوى والبر. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۵ تتحرك «الآيـة السابعـة»: من موقع الحديث عن النجوى بين الأشخاص والـذى قد يتسبب أحياناً فى أذى الآخرين وسوء ظنّهم، وأحياناً يوفّر الأرضية المساعدة لتنفيذ خدع الشيطان ولذلك تقول الآية: «لَاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ». ولكنّها تضيف مباشرة هذا الاستثناء: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً». إنّ استثناء مسألة إصلاح ذات البين من الذم للنجوى من جهة، وجعل الإصلاح إلى جانب الصدقة والمعروف من جهة اخرى، وكـذلك بالوعـد بالثواب العظيم عليه من جهـة ثالثـة كلّها شاهـد على أهميـة هـذا الفعل والسلوك الإنسانى. أمّا ما الفرق بين الصدقة والمعروف؟ فقـد ذهب البعض إلى أنّ الصدقـة تعنى المعونـة الماليـة بلا عوض، والمعروف هو القرض الحسن، وذهب بعض آخر إلى أنّ المعروف له مفهوم عـام يشـمل جميع أفعـال الخير (وعليه تكون النسـبة بين الصدقة والمعروف نسـبة العموم والخصوص المطلق). وجاء فى الحـديث الشـريف عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله أنّ أحد أفضل الصدقات التى يحبّها اللّه ورسوله صـلى الله عليه و آله هو (إصلاح ذات البين) ويقول: «ألا أَدُلُّكَ عِلى صَدقَةٍ يُحِبُّها اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصلِحْ بَينَ النّاسِ إذا تَفاسَدُوا وَتَقَرِّبْ بَيَنَهُم إذا تَباعَدُوا» «۱». وعليه فإنّ إصلاح ذات البين ذكر بشـكل مستقل تارةً، واخرى بعنوانه أحد المصاديق البارزة للصدقة والمعروف، وبتعبير آخر أنّ إصلاح ذات البين هو المصداق الكامل للمعروف والصدقة فى هذا المورد. وجاءت «الآية الثامنة»: والأخيرة من الآيات محلّ البحث لتتحدّث عن منهج أحد الأنبياء العظام باسم (شعيب عليه السلام) حيث يبيّن للناس هدفه «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ»، وهـذا الهـدف يشترك فيه جميع الأنبياء الإلهيين على مستوى إصلاح العقيدة، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۶ إصلاح الأخلاق، إصلاح العمل، وإصلاح الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع. وذهب بعض المفسّرين فى تفسير كلمة الإصلاح أنّ مفهومها هو أَننى اريد إصلاح دنياكم بالعدالة وآخرتكم بالعبادة، ولكن من الواضح أنّ الإصلاح له مفهوم واسع يستوعب العدالة وغيرها أيضاً. ثمّ إنّ الآيـة الشـريفة تذكر أنّ النبى شعيب عليه السـلام ولغرض التوفيق فى هذا الأمر المهم، أى إصلاح دين ودنيا الناس فى جميع الموارد يطلب من اللّه تعالى التوفيق لذلك يقول: «وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ». واللطيف أنّ النبى شعيب عليه السلام قال هذا الكلام فى حين أنّ قومه كانوا قـد غرقوا فى دوامة الفساد المالى والأخلاقى، بحيث كانوا يعدّون نهى شعيب إيّاهم عن عبادة الأصنام والتطفيف فى الميزان والفساد المالى مخالف لحريتهم ويقولون: نحن نتعجّب منك ومن عقلك أنّك تريـد أن تقف أمام حرّيتنا على مستوى الفكر والعمل، وكأنّهم مثلما نجده من بعض الناس فى هذا الزمان الذين لا يدركون جيداً المفهوم الصحيح للحرّية ولا يعلمون أولا يريـدون أن يعلموا أنّ الحريـة التى يفتخر بها الإنسان لابدّ وأن تكون مؤطّرة باطار القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية وإلّا فإنّ مصير الناس إلى الضلال والانحراف والسقوط، وبذلك أجابهم النبى شعيب عليه السلام أنّ هدفى هو الإصلاح بالمعنى الواقعى للكلمة لا الاستسلام لأهوائكم وطموحـاتكم الدنيويـة. والملفت للنظر أنّ قوم شعيب وصفوا نبيّهم بأنّه إنسان عاقل ورشيد «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ»، ولكنّهم بمجرد أن رأوا هذا النبى يقف أمام مطامحهم ويتصدّى لإصلاح فسادهم المالى والعقائدى، فإنّهم برزوا له بالمخالفة والعناد. ومن مجموع الآيات أعلاه تتّضح نقطتين مهمّتين: الاولى: هى أنّ النميمة والسعى لإيجاد الاختلاف بين الناس يعدّ من أكبر الذنوب وأقبح الصفات الأخلاقية الرذيلة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۶۷ الثانية: أنّ الإصلاح بين الناس يعدّ أحد الوظائف المهمّة الإلهية والإنسانية والتى لا يمكن إهمالها والتغاضى عنها بأى دليل.

النميمة فى الروايات الإسلامية:

نظراً لأنّ النميمة تعدّ أشنع الظواهر الاجتماعية التى تنخر فى مفاصل المجتمع البشرى وتكون مصدراً ومنبعاً لكثير من المفاسد الاخرى وحتى القتل وسفك الدماء، فلذلك نجد أنّ الأحاديث الإسلامية قد نهت عن هذا السلوك الذميم بشدّة وجاء فى مضامين هذه الروايات ما يثير العجب من وخامة هذه الظاهرة وبشاعة هذا السلوك ومنها: ١- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال يوماً لأصحابه: «أَلا انَبِّئُكُم بِشَرارِكُم، قَالُوا: بَلى يا رَسُولَ اللَّهِ، قالَ: المَشّاؤُونَ بِالنَّمِيمِةِ وَالمُفَرِّقُونَ بَينَ الأَحِبَّةِ الباغُونَ لِلبُرآءِ المَعايِبِ» «۱». النميمة بمعنى الصوت الواطىء الهادىء والذى يصدر من حركة شىء أو اصطدام قدم الإنسان فى الأرض حال المشى، وبما أنّ النّمام عادة يتحدّث من موقع النميمة بهدوء وإخفات لكى يلقى فى نفس السامع أنّه يحمل إليه خبراً مهمّاً، ولذلك أطلقت هذه الكلمة على النّمام ومن يسعى بين الأشخاص من موقع التفرقة وإثارة الاختلاف «۲». وذهب البعض إلى أنّ النميمة فى الأصل بمعنى تزيين الكلام الباطل والكاذب (لأنّ الشخص النّمام يسعى إلى أن يلبس لكلامه الكاذب لباساً جميلًا) «۳». وشبيه هذا المعنى ورد أيضاً عن أميرالمؤمنين عليه السلام «۴». ٢- وجاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الجَنَّةُ مُحَرَّمَةٌ عِلى القَتاتِينَ المَشّائِينَ بِالنَّمِيمَةِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٢۶٨ «قتّيات» من مادة قت (على وزن شط) وهى فى الأصل بمعنى الكذب وإستراق السمع، سواءاً كان يحمل فى طيّاته النميمة أم لا، وعليه فإنّ القتّات هو الشخص الذى يريد أن يطّلع على أسرار الناس ويسعى بينهم لإفساد ذات البين والذى يقترن أحياناً بالنميمة أيضاً. وقد ورد فى بعض الروايات وكتب اللغة أنّ القتّات والنّمام بمعنى واحد. ٣- وجاء فى حديث آخر عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يا أَبا ذَر صاحِبُ النَّمِيمةِ لايَستَرِيحُ مِنْ عَذابِ اللَّهِ فِى الآخِرَةِ» «۱». ۴- وورد فى حديث آخر تعبير أشدّ عن الأشخاص النّمامين حيث قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى أحد خطبه: «وَمَنْ مَشى فِى نَمِيمَةٍ بَينَ إثنَينِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِ فِى قَبرِهِ ناراً تُحرِقُهُ إلى يَومِ القِيامَةِ» «۲». ۵- وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَصابَ بَنِى إسرائِيلَ قَحطٌ فاستَسقى مُوسى مَرات فَما اجِيبَ فَأَوحى اللَّهُ تَعالى إِلَيهِ إِنى لاأَستَجِيبُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ وَفِيكُم نَمَّام قَدْ أَصَرَّ عَلى النَّمِيمَةِ، فَقالَ مُوسى يارَبِّ مَنْ هُوَ حَتّى نُخرِجُهُ مِنْ بَينِنا؟ فَقالَ: يا مُوسى أَنهاكُم عَنْ النَّمِيمَةِ وَأَكُونَ نَمّاماً فَتابُوا بِأَجمَعِهِم فَسُقُوا» «۳». ۶- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق أنّه قال: «أَربَعَةٌ لايَدخُلُونَ الجَنَّةَ: الكَاهِنُ وَالمُنافِقُ وَمُدِمنُ الخَمرِ وَالقَتّاتُ وَهُوَ النَمامُ» «۴». ٧- ورد عن أمير المؤمنين صلى الله عليه و آله قوله: «النَّمامُ جِسرُ الشَّرِّ» «۵». ٨- وفى حديث آخر عن الإمام صلى الله عليه و آله نفسه أنّه قال: «لا تَجتَمِعُ أَمانَةٌ وَنَمِيمَةٌ» «۶» ، أى الشخص النمّام هو خائن أيضاً. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٢۶٩ ٩- ونختم البحث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله رغم وجود أحاديث كثيرة فى هذا الباب، قال: «إنَّ أَحَبَّكُم إلى اللَّهِ الَّذِينَ يُؤلَفُونَ وَيَأْلِفُونَ وإنَّ أَبغَضَكُم إلى اللَّهِ المَشاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَينَ الإخوانِ» «۱». ومن مجموع هذه الأحاديث يستفاد جيداً أنّ النميمة تعتبر من الذنوب الكبيرة والخطرة جدّاً وتسبب خسران الدنيا والآخرة، والأشخاص الذين يرتكبون هذا الفعل الشنيع ويفرّقون بين الأحبّة والأقرباء لا يرون سيماء الجنّه أبداً إلّاأن يتوبوا من ذنوبهم ويتحرّكون على مستوى جبران أعمالهم وإصلاح ما أفسدوه، ومن خلال هذه الروايات نرى إشارات عميقة إلى حكمة تحريم هذا العمل السىء وآثاره السلبية على الفرد والمجتمع حيث سيأتى تفصيل ذلك فى الأبحاث اللاحقة أيضا.

النتائج السلبية للنميمة:

سبق وأن قلنا أنّ الأساس والقاعدة الأصلية التى يقوم عليها المجتمع البشرى هو الاعتماد المتقابل بين الأفراد، وهذا الاعتماد المتقابل هو سبب إتّحاد الصفوف والتعاون والتكاتف بين أفراد المجتمع وبالتالى يتسبب فى تقدّم المجتمع وتكامله على جميع الصُعد. وقد أولى الإسلام أهميّة كبيرة لحفظ هذا العنصر الأساس وهو اعتماد الناس ووحدة صفوفهم وحرّم أى فعل من شأنه أن يلحق الضرر

بوحدة المجتمع وقوّته، وأوجب كذلك كل فعل يسبب فى تقوية شرائح المجتمع وشد أركانه (تارة من خلال الحكم الوجوبى واخرى من خلال الحكم الاستحبابى. ولا- شك أنّ النميمة هى من العوامل المهمّة للتفرقة وإيجاد سوء الظن بين أفراد المجتمع وتفضى إلى العداوة وتعميق حالة الحقد والكراهية بين الأفراد، وتارة تؤدّى إلى تلاشى الأسر وتمزّق العوائل، ولهذا السبب فإنّ الروايات المذكورة آنفاً تعدّ الشخص النّمام أشر أفراد المجتمع وأسوأهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۰ ونقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «إيّاكُم وَالنِّمائِمَ فَإنَّها الضَّغائِنِ» «۱». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أيضاً قوله: «إيّاكَ وَالنَّميمةَ فَإنَّها تزرَعُ الضَّغِينَةَ وَتُبَعِّدُ عَنِ اللَّهِ وَالنّاسِ» «۲». وجاء فى أحاديث اخرى التعبير بكلمة (شحناء) والتى تأتى بمعنى العداوة والضغينة أيضاً، ويتّضح من الأحاديث الشريفة السابقة أنّ النمّام هو أسوأ خلق اللَّه تعالى بسبب سعيه للتفرقة بين الأحبّة والأصدقاء وتحرّكه من موقع إتّهام الأشخاص الطاهرين. ومضافاً إلى ذلك فإنّ الشخص النّمام يعيش فى المجتمع منفوراً ومطروداً، لأنّ طرفى النزاع اللذين استمعا لكلامه وصدقا به فإنّهما غالباً يندمان بعد ذلك ويجدان فى أنفسهما الكراهية الشديدة للشخص الذى سبب الفرقة بينهما ويلعنانه ويحذّران الناس من الاتّصال مع هذا الشخص والتصديق بأقواله، وقد مرّ علينا فى أحد الأحاديث الشريفة أنّ النمام بعيد عن اللَّه وبعيد عن خلق اللَّه. والإمام الصادق عليه السلام يشبّه النّمام بالساحر الذى يفرّق بين الأحبّة بسحره ويقول فى حديث مختصر وعميق المغزى: «إنّ مِنْ أَكبَرِ السِّحرِ النَّمِيمَةِ يُفَرِّقُ بِها بَيْنَ المُتَحابينَ وَيَجلِبُ العَداوَةَ عَلى المُتَصافِّينَ وَيَسفِكُ بِها الدِّماءَ وَيَهدِمُ الدُّورَ وَيَكشِفُ بِها السُّتُورَ، وَالنَّمام أَشرُّ مَنْ وَطأَ عَلَى الأرضِ بِقَدَم» «۳». وطبعاً النميمة ليست بسحر، ولكنّها تحمل فى نتائجها آثار السحر، ولذلك فإنّ الإمام قال عنها أنّها من أكبر أنواع السحر. والجدير بالذكر أنّ النميمة لها أثر تخريبى كبير وعادة تكون العناصر المخرّبة أقوى أثراً وأسرع نتيجة من العناصر الخيّرة والمصلحة، لأنّ الأرضية لسوء الظن موجودة فى القلوب، وعندما يتحرّك النّمام فى إثارتها وتفعيلها فإنّها تتحرّك بسرعة وتستيقظ بذلك عناصر الشر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۱ فى واقع الإنسان ونفسه، ومن الممكن أن تقوم كلمات قليلة بعملية التفرقة بين صديقين حميمين مضى على صداقتهما أربعون سنة، كما أنّ بناء سد مفيد لخزن المياه يمكن أن يستغرق عشرات السنين ولكنّ تخريبه وإنهدامه بواسطة الديناميت والمواد المتفجرة قد لا يستغرق سوى بضع ساعات، ونختم هذا الكلام بالحديث الشريف عن الإمام الصادق حيث قال: «السَّاعِى قاتِلُ ثَلاثَةٍ، قاتِلُ نَفسَهِ وَقاتِلُ مَنْ يُسعى بِهِ وَقاتِلُ مَن يُسعى لَهُ» «۱». الكثير من الموارد المشهودة فى حالات الامراء والملوك تبيّن أنّ من سعى إليهم بالنميمة ضدّ شخص آخر فإنّه يلاقى حتفه على يدهم، وبهذه الصورة يكون الساعى أى النّمام قاتل نفسه أمام اللَّه تعالى، وكذلك الشخص الذى سعى إليه بالوشاية لأجل عدم التحقيق الكافى فَكأنّه قتل بيد ذلك الساعى لأنه قتل بريئاً. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ بعض العلماء وأرباب اللغة ذهبوا إلى إشراك السعاية والنميمة فى المعنى فى حين أنّه من الممكن وجود فرق بينهما (رغم أنّهما متشابهان جدّاً) فالنميمة هى التفرقة بين صديقين أو بين قريبين أو شريكين، ولكنّ السعاية هى أن يتحدّث الشخص بعيوب شخص آخر عند كبير من الكبراء، وبهذا يعرض ذلك الشخص إلى الخطر، ولذلك وردت السعاية فى كثير من الروايات بعنوان السعاية عند السلطان وأمثال ذلك، ولكن تشابههما فى المعنى تسبب فى أن يذكران تحت عنوان واحد.

دوافع النميمة:

وهذا الصفة الرذيلة كسائر الصفات الاخرى ترتبط مع الكثير من الرذائل الأخلاقية برابطة وثيقة، ومنها الحسد، لأنّ الشخص الحسود لا يتمكن أن يتحمل سعادة الآخرين وراحتهم والمودّة التى تحكم بين الأفراد المتحابين والتعاون والتكاتف الذى يرى فى تعاملهما وحياتهما المشتركة، ويتألم ممّا يرى من روابط المودّة ووشائج المحبّة بين الزوجين والعوائل فيما بينهم، ولذلك يسعى من خلال النميمة أن يزرع بذور الفرقة وسوء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۲ الظن بين هؤلاء الناس ويغرس العداوة والنزاع بين الأفراد. ومن الدوافع الاخرى للنميمة هو حبّ الدنيا، لأنّ المحبّ للدنيا والعاشق لها يرغب فى زرع نبتة الاختلاف والفرقة بين الناس ويرى أنّ كسبه

وعمله الاقتصادی والاجتماعی فی تقویهٔ عناصر الشر والکراهیهٔ بین الأفراد. النفاق یعدّ عاملًا مهمّاً آخر من عوامل النمیمهٔ ودوافعها، یقول القرآن الکریم عن المنافقین: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَايَشْعُرُونَ» «۱». أجل فعملهم هو إیجاد الفساد والفتنهٔ بأی وسیلهٔ کانت، ونقرأ فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق قوله: «عَلامَةُ النِّفاقِ الحَثُّ عَلَى النَّمِيمَةِ» «۲». فمثل هذا الشخص یذهب إلی تلک الجهۀ، ویبدأ ببیان معایب الجهۀ الاخری ویذمّها ویتظاهر بأنّه إنّما یرید الخیر لهذا الطرف دون ذاک، فیلقی بکلامه المسموم لدی هؤلاء، ثمّ یتوجّه إلی الطرف المقابل ویکرّر نفس هذا العمل أیضاً، فهذا الشخص هو مصداق للإنسان ذی الوجهین وذی اللّسانین والذی یهدف إلی إیجاد التفرقهٔ والاختلاف وزیادهٔ حدّهٔ الصراع الاجتماعی والتضاد الفئوی کیما یجد له فرصهٔ من العیش وفسحهٔ من الوقت. العامل الآخر من العوامل الموروثهٔ للنمیمهٔ هو ما یسمّی فی هذا العصر بالمرض الأخلاقی (السادیهٔ)، فبعض الأفراد وبسبب عقدهٔ الحقارهٔ أو حبّ الانتقام أو الانحرافات والأمراض النفسیهٔ الاخری یجدون لذّهٔ وراحهٔ من أذی الآخرین والإضرار بهم، ویتألمون ویحزنون عندما یرون الناس یعیشون براحهٔ ونعمهٔ، فهؤلاء الأشخاص یتحرّکون لهدم وحدهٔ المجتمع وتدمیر سعادهٔ الناس من خلال السعایهٔ بالآخرین والنمیمهٔ ثم یجلسون جانباً ویشاهدون بلّذهٔ الصراع والنزاع الدائر بین الأطراف والفئات الاجتماعیهٔ. ویستفاد من بعض الروایات أنّ أحد الأسباب فی تفعیل حالهٔ النمیمهٔ وإیجاد هذه الصفهٔ فی النفس هو عدم طهارهٔ المولد وعدم نقاء النطفهٔ (وطبعاً هذا العامل لا یعدّ عامل اجبار، بل الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷۳ یهیء الأرضیهٔ لذلک أی من العوامل المساعدهٔ لظهور المرض) کما ورد فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «السَّاعِي إِلَى النَّاسِ لِغَيرِ رُشدِهِ» «۱». أی یسیر فی مسیر الباطل، ذکر البعض أنّ (لغیر رشده) یعنی أنّه لیس بولد حلال. ومن الأسباب الاخری الاعتیاد علی الکذب، فالإنسان الذی یعتاد علی الکذب ویتعامل فی حیاته مع الآخرین من موقع الإصرار علی الکذب یجد فی نفسه دافعاً، لأنّ ینقل لهذا الشخص خبراً کاذباً عن ذلک الشخص ویوقع بینهما بحیث یؤدّی إلی ارباک العلاقهٔ بینهما وافسادها. وفی الحدیث المطوّل عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله حول علائم الصفات الإیجابیهٔ والسلبیهٔ نقرأ: «أَمّا عَلامَةُ الكَذّابِ فَأَربَعَةٌ ... إنْ قالَ لَم يَصدُق وإنْ قِيلَ لَهُ لَم يُصَدِّق وَالنَّمِيمَةُ وَالبُهتُ» «۲». یعنی عندما تتجذّر صفهٔ الکذب فی أعماق الإنسان یظهر علی سلوکه هذه الأفعال الأربعهٔ.

طرق العلاج:

ولابدّ لغرض علاج هذه الظاهرهٔ المشؤمهٔ فی سلوک الفرد الأخلاقی وقطع جذورها من واقع الإنسان ونفسه من الذهاب والتوجّه إلی العلل والدوافع، ومن المعلوم أنّه مادام عنصر الحسد، وحبّ الدنیا، والنفاق، وحبّ العدوان، والانتقام، التی تمثّل الدوافع الأصلیهٔ لهذه الظاهرهٔ الذمیمهٔ، باقیهٔ فی وجود الإنسان فإنّ هذه الرذیلهٔ الأخلاقیهٔ باقیهٔ کذلک ولا یمکن إزالتها بسهولهٔ من باطن الإنسان، ومن الممکن للإنسان أن یحدّد أو یزیل هذه الخصلهٔ بعزم شدید وتصمیم قوی لمدّهٔ محدودهٔ ولکنها تظهر فی مواطن معینهٔ لاحقاً. ولا ننسی أنّ الکثیر من الفضائل أو الرذائل الأخلاقیهٔ بینها تأثیر متقابل وکل واحد منها الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷۴ یعدّ سبباً وعلّهٔ للآخر وأحیاناً مسبباً ومعلولًا، وذلک فی حالات ومواطن مختلفهٔ. ومن جهۀ اخری فإنّ التأمل فی الآثار السلبیهٔ الکثیرهٔ المترتبهٔ علی النمیمهٔ والسعایهٔ والتی تورث المجتمع الدمار والخراب وتفضی إلی عواقب وخیمهٔ علی مستوی العوائل والاسر کما تقدّم تفصیل ذلک فی الأبحاث السابقهٔ، وکذلک ما یترتّب علی النمیمهٔ من العذاب الإلهی فی الدنیا والآخرهٔ فإنّ ذلک یشکل عاملًا مهمّاً من عوامل التصدی لاستفحال هذه الظاهرهٔ والحالهٔ الذمیمهٔ وبالتالی إزالتها من موقع النفس. إنّ الشخص النّمام وخاصهٔ إذا کان قد إعتاد علی النمیمهٔ یجب علیه أن یأخذ بنظر الاعتبار الآثار الوخیمهٔ الاجتماعیهٔ والعقوبات الإلهیهٔ المترتبهٔ علی هذا العمل ویعید إلی ذهنه هذا المعنی کل یوم ویلقّن نفسه أنّ عاقبهٔ النمیمهٔ والسعایهٔ هی هذه وهذه، وإلّا فإنّ الوساوس الشیطانیهٔ والأهواء النفسیهٔ لا تدعه لحاله. معاشرهٔ الأفراد المؤمنین یمکنها أن تکون عاملًا آخر من عوامل التصدّی للنمیمهٔ، لأنّ الشخص المبتلی بهذا المرض عندما یتحدّث فی مجالس المؤمنین ویری أنّهم لا یعتنون بکلامه ولا یهتمّون لأقواله وقد یطرودنه من مجالسهم بسبب ذلک، فإنّه سینته بسرعهٔ إلی عدم

وجود المشتری لکلامه، بل إنّ کلامه تسبب فی نفرة الناس من حوله وسوء ظنّهم به، ونفس هذا الأمر یقوی فیه الإرادة علی ترک هذا العمل القبیح وقد ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «أَکذِبِ السِّعایَةَ وَالنَّمِیمَةَ باطِلةً کانَتْ أو صَحِیحَةً» «۱». ونقرأ فی حدیث آخر أنّ رجلًا جاء بکتاب له إلی أمیرالمؤمنین علیه السلام کتب فیه النمیمة عن شخص آخر فقال له الإمام علیه السلام: «إنْ کُنتَ صادِقاً مَقَتناکَ وإنْ کُنتَ کاذِباً عاقَبناکَ وإن أَحببتَ القَیلَ أَقَلناکَ، قالَ: بَل تُقِیلُنی یا أَمِیرَ المُؤمِنِینَ» «۲». ومن الجدیر بالذکر أنّ الأشخاص الذین یتحرّکون نحوک بالنمیمة والتحدّث بالسوء عن شخص آخر فإنّهم سوف یتحدّثون عنک بسوء لدی ذلک الشخص أیضاً کما ورد فی روضة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷۵ بحار الانوار عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «وَمَنْ نَمَّ إِلَیکَ سَیَنُمُّ عَلَیکَ» «۱». وآخر کلام فی‌هذا الباب هو أنّ أغلب المفاسد الأخلاقیة الکامنة فی الصفات الرذیلة ناشئة من ضعف الإیمان، فکلما سعی الشخص لتقویة دعائم إیمانه باللَّه تعالی والیوم الآخر، فإنّ هذه الرذائل سوف تتلاشی وتزول من باطنه تدریجیاً.

موارد الاستثناء:

إنّ حرمة النمیمة بعنوان أنّها من الذنوب الکبیرة والقبیحة فی نظر علماء الأخلاق یعدّ أصلًا أساسیاً یجب الإهتمام به دائماً، ولکن فی بعض الأحیان یمکن أن یکون لهذا الحکم استثناءات کما هو الحال فی سائر الأحکام الشرعیة حیث یکون نقل الکلام من هذا إلی ذاک لیس جائزاً فحسب، بل یکون واجباً، ومن تلک الموارد ما إذا شعر الإنسان أنّ الشخص الفلانی أو الفئة الفلانیة ترید قتل زید من الناس وکانت المسألة جدّیة، فهنا یکون نقل کلامهم إلی زید لیتّخذ جانب الحذر والاحتیاط ویبتعد عن الخطر من الواجبات لإنقاذ نفس بریئة، کما حدث ذلک لموسی علیه السلام بعدما قتل القبطی المعتدی فجاء أحد الأشخاص وقال له: «إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنْ النَّاصِحِینَ» «۲». وأحیاناً تؤدّی النمیمة نتائج إیجابیة للمؤمنین تعمل علی إیجاد الفرقة والاختلاف فی صفوف الأعداء، فهذا المورد من موارد الجواز أو الوجوب کما ورد فی قصّة (نعیم بن مسعود) فی حرب الأحزاب حیث أوقع الفرقة والاختلاف بین طائفتین من أعداء المسلمین وهم المشرکون والیهود بما نقل من کلمات هؤلاء لهؤلاء وبالعکس فکانت النتیجة إساءة الظنّ بینهم وتخاذلهم عن قتال المسلمین. ولکنّ مثل هذه الاستثناءات نادرة جدّاً فلا ینبغی أن تکون ذریعة للتلّوث بهذه الخطیئة وقبول کلام من یسعی بالنمیمة بین الناس، ففی الحدیث الشریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷۶ قال: «لا تَعجَلَنَّ إِلی تَصدِیقِ وَاشٍ وإنْ تَشبَّهَ بِالنَّاصِحِینَ» «۱». النقطة المقابلة للنمیمة والسعایة هی إصلاح ذات البین بأن یسعی الإنسان بکلامه الجمیل إلی إقرار الصلح والصفاء بین شخصین متخاصمین ومتعادیین، وهذه الصفة تعدّ أحد الفضائل المهمّة الأخلاقیة والتی وردت الإشارة إلیها فی آیات القرآن الکریم والروایات الإسلامیة. وقد تمّ استعراض الآیات القرآنیة التی تتحدّث عن هذا المعنی فی ذیل الآیات المتعلقة بذم النمیمة والسعایة علی المستوی السلبی، وهنا نشیر إلی طائفة من الروایات الشریفة فی هذا المجال: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ مَشی فِی صُلحٍ بَینَ اثنَینِ صَلَّی عَلَیهِ مَلائِکَةُ اللَّهِ حَتّی یَرجَعَ وَاعطِی ثَوابَ لَیلَةِ القَدرِ» «۲». ۲- وفی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی آخر وصایاه لولدیه الإمام الحسن والإمام الحسین علیهما السلام أنّه قال ضمن وصیّته لهما بعدم ترک إصلاح ذات البین: «فَإِنِّی سَمِعتُ جَدَّکُما صلی الله علیه و آله یَقُولُ صَلاحُ ذاتِ البَینِ أَفضَلُ مِنْ عامَةِ الصَّلاةِ والصِّیام» «۳». ۳- وجاء فی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «أَلا أَخبرُکُم بِأفضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّیامِ والصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ إِصلاحُ ذاتِ البَینِ، فَإِنَّ فَسادِ ذاتِ البینِ هِی الحالِقَةُ» «۴». ۴- وقال الإمام الصادق علیه السلام: «صَدَقَةٌ یُحِبُّها اللَّهُ إِصلاحُ بَینَ الناسِ إذا تَفاسَدُوا وَتَقارِبُ بَینَهُم إذا تَباعَدُوا» «۵». ۵- وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام أیضاً أنّه قال للمفضّل بن عمر: «إذا رَأَیتَ بَینَ اثنَینِ مِن شِیعَتِنا مُنازَعَةً فَأفتَدِهِ مِنْ مالِی» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۷۷ وعلی هذا الأساس فإنّ أحد أصحاب الإمام الصادق علیه السلام ویدعی أبُو حَنِیفَة سابُقُ الحَجِّ قالَ: «مَرَّ بِنا المُفضَّل وَأَنا وَخِتنِی

نَتَشاجَرُ فِي مِيراثٍ، فَوَقَفَ عَلَينا ساعَةً ثُمَّ قالَ لَنا: تَعالُوا إِلَى المَنزَلِ فَأَتَيناهُ فَأَصلَحَ بَينَنا بِأَربَعَمائَةَ دِرهِمٍ فَدَفَعها إِلَينا مِنْ عِندِهِ حَتى إذا استَوثَقَ كُلُّ وَاحدٍ مِنّا مِنْ صاحِبِهِ، قالَ: أَمّا إِنَّها لَيستْ مِنْ مالى ولَكن أَبُوعَبدِاللَّهِ عليه السلام أَمَرَنِى ا ذا تَنازَعَ رَجُلانِ مِنْ أَصحابِنا أن أَصلِحَ بَينَهُما وَأَفتَدِيهما مِنْ مالِهِ، فَهذا مِنْ مالِ أَبِى عَبدِاللَّهِ عليه السلام»». ۶- وورد فى تفسير الآية الشريفة: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِايْمَانِكُمْ» أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا دُعِيتَ لِصُلحٍ بَينَ اثنَينِ فَلا تَقُل عَلَيَّ يَمِينِى أنْ لاأَفعَلَ» «۲». وهذا الحديث يشير إلى أنّه لو واجه الإنسان حين إقدامه لإصلاح ذات البين بعض المشاكل ثمّ حلف أن يترك هذا السلوك الإصلاحى فإنّ الإمام يقول بأنّ مثل هذا القسم والحلف لا إعتبار له وإنّ المشاكل المحيطة بمثل هذا العمل لا يمكنها أن تمنع الإنسان من سلوك هذا الطريق والعمل على إصلاح ذات البين. ۷- وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ استَصلَحَ الأضدَادَ بَلَغَ المُرادَ» «۳». والمراد من الأضداد فى الحديث الشريف ليست الأضداد الفلسفية التى لا تقبل الجمع، بل الأضداد العرفية، وطبعاً هناك تفسير آخر لهذا الحديث أيضاً وهو أن يكون المراد أنّ الإنسان إذا استطاع التنسيق بين الأشخاص والفئات التى تعيش أفكار مختلفة ومتنوعة، فإنّه يبلغ مراده ويكون ذلك نعم العون له على إدارة امور المجتمع لكل هذه الأفكار المُتضادة. ۸- إنّ أهميّة إصلاح ذات البين هى إلى درجة أنّ الكذب قد يكون مباحاً فى هذا السبيل كما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الكَلامُ ثَلاثَةٌ صِدقٌ وَكِذبٌ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۸ وَإِصلاحٌ بَينَ النّاسِ قِيلَ جُعِلتُ فِداكَ ما الإِصلاحُ بَينَ النّاسِ؟ قالَ: تَسمَعُ مِنَ الرَّجُلِ كَلاماً يَبلُغُهُ فَتَخبُثُ نَفسُهُ فَتَلقاهُ فَتَقُولُ سَمِعتُ مِنْ فُلانٍ قَالَ فِيكَ مِنَ الخَيرِ كَذا وَكَذا خِلافَ ما سَمِعتَ مِنهُ» «۱». ويقول المرحوم العلّامة المجلسى فى شرح هذا الحديث: «وهذا القول وإن كان كذباً لغة وعرفاً جائز لقصد الإصلاح بين الناس، وكأنّه لا خلاف فيه عند أهل الإسلام، والظاهر أنّه لا تورية ولا تعريض فيه وإن أمكن أن يقصد تورية بعيدة كأن ينوى أنّه كان حقّه أن يقول كذا، ولو صافيته لقال فيك كذا، ولكنه بعيد» «۲». ولا شك أنّ الكلام يحتمل وجهين، فامّا مطابق للواقع ومخالف له، فالأول يدعى صدقاً والثانى كذباً، ولكن بما أنّ الكلام المخالف للواقع بدوره على قسمين: فإمّا أن يكون موجباً للفساد أو موجباً للصلاح، فإنّ الإمام قد فصّل بين هذين القسمين وقرّر بأنّ القسم الموجب للصلاح هو قسم ثالث من أقسام الكلام. ومن مجموع ما تقدّم من الأحاديث الشريفة يتّضح جيداً أنّ من بين أعمال الخير يندر وجود عمل مهم وفضيلة أخلاقية تكون فى مرتبة إصلاح ذات البين، فهى إلى درجة أنّ الملائكة تصلّى على هذا الشخص المصلح ويكون عمله أسمى وأفضل من الصلاة والصوم بل يكون فى مرتبة الجهاد فى سبيل اللَّه. ومن البديهى أنّ إصلاح ذات البين لا يتسبب فى الخير والصلاح على المستوى الفردى فحسب، بل يتسبب فى إنسجام طوائف المجتمع وتقوية دعائمه وتوطيد أركان المحبّة والمودّة بين أفراده، وهذا الاتّحاد والانسجام يتسبب فى انتصار وعزّة المجتمع الإسلامى فى حركة التقدّم الحضارى والإنسانى.

طرق إصلاح ذات البين:

إنّ عملية الإصلاح بين الناس على شكل أفراد أو جماعات وطوائف هو عمل معّقد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۷۹ ودقيق ولا سيما إذا كانت العداوة والكراهية قد توغّلت فى الأعماق، ولهذا فقد يستغرق تحقيق هذا المعنى وقتاً طويلًا، ولابدّ من مراعاة بعض الدقائق والنكات الظريفة فى هذا السبيل، وكذلك يحتاج إلى التعرّف على بعض مبادىء علم النفس وتوصيات علماء النفس فى هذا المجال، ومن المعلوم أنّ الوصول إلى هذا الهدف المؤثر لابدّ له من رعاية بعض الاصول والنقاط المهمّة، ومنها: ۱- العثور على جذور الاختلاف والنفاق، لأنّ الإنسان ما لم يعرف الأسباب ويبحث فى جذور المشكلة، فإنّ علاجها يكون عسيراً للغاية، فلو أنّ الإنسان تحرّك على مستوى البحث على جذور الخلاف والنزاع وسعى إلى إزالة هذه الأسباب والجذور من واقع النفس لدى المتخاصمين فإنّه يحصل على النتيجة أسرع. ۲- إنّ التسّرع فى عملية إصلاح ذات البين فى كثير من الموارد تعطى نتائج معكوسة، وخاصة إذا كانت الاختلافات عميقة ومتجذرة، ففى هذه الموارد يجب دراسة أوجه الاختلاف بدقّة وأحياناً يتطلب ذلك كتابتها فى

دفتر وبالأرقام ثمّ تحليلها ودراستها وحلّها واحدة بعد الاخرى، ويعطى لكلّ طرف من المتخاصمين إمتيازات معقولة وبهذا يوجد التعادل والانسجام بينهما ويترتب على ذلك النجاح فى عملية الإصلاح. ۳- يجب الاستفادة من المسائل العاطفية والدينية أفضل استفادة من خلال تلاوة بعض الآيات القرآنية والروايات الشريفة التى من شأنها تحريك عناصر الخير وعواطف المحبّة فى نفوس المتخاصمين، والسعى لدعم شخصية كل طرف لكى يتحرّك باتّجاه الطرف الآخر على مستوى العفو والصفح من موقع الاحساس لشخصيته وكرامته لا من موقع الاجبار والإذعان للأمر الواقع. ۴- وأحياناً يجب على المصلح أن يضحى بشىء من الأشياء وعلى سبيل المثال يدفع للطرفين المتخاصمين مبلغاً من المال أو يهدى لهما هدية كما قرأنا فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام الذى خاطب فيه المفضّل، ومن المعلوم أنّ المال الذى ينفق فى هذا السبيل يعدّ من أفضل أنواع الانفاق فى سبيل اللّه. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۰ ۵- إنّ المصلح يجب أن يتوقّى التحيز إلى أحد الطرفين ويتجنّب ذلك مهما أمكن وبعبارة اخرى أن يكون محايداً وفى نفس الوقت محبّاً ونصوحاً إلى كل واحد من الطرفين، لأنّ أى تحيز إلى أحدهما سوف يمنعه من الوصول إلى النتيجة المطلوبة، وطبعاً يستثنى من ذلك الأشخاص الذين لم يتعلّموا المنطق الإنسانى ولا- يتعاملون إلّامن موقع الجهل والتعصّب والعناد أمام الحق وعملية الإصلاح فإنّه ينبغى سلوك طريق آخر معهم كما تقدّم فى تفسير الآيات أعلاه. ۶- وفى كثير من المواقع يحتاج الإصلاح إلى سلوك طريق طويل محفوف بالمكاره ويحتاج إلى الصبر والتأنّى والتعامل مع القضية ببرود الأعصاب، فالشخص المصلح لا ينبغى أن ييأس بسرعة ويوصد الأبواب أمامه، بل يجب أن يعلم أنّ أشدّ التعقيدات الاجتماعية وأعمق المشكلات يمكن حلّها بالصبر والتأنّى والتفكير والتدبير، وعليه فإذا لم يفلح فى مرحلة من المراحل فلا ينبغى أن يعلن فشله ويتراجع عن مسيرته الإصلاحية. وبتعبير آخر: إنّ الافساد بين الناس عمل تخريبى يسير ولكن الإصلاح له بعد بناء ومعقّد، فالبناء العظيم يمكن تدميره بعدّة قنابل فيغدوا تراباً فى لحظات، ولكنّ تشييد مثل هذا البناء يحتاج إلى سنوات مديدة، وهكذا الحال فى بناء الثقة والمحبّة والاعتماد المتقابل بين أفراد المجتمع البشرى، فتخريب مثل هذا البناء الاجتماعى سهل يسير، ولكنّ بناءه وتشييده هو عملية معّقدة تحتاج إلى مدّة طويلة وصبر كبير، وعليه فإنّ عملية الإصلاح لا تنسجم مع التسّرع والعجلة. ونختم هذا الكلام بحكاية ذات مغزى أوردها المجلسى فى كتاب بحار الانوار، نقلًا عن بعض العلماء وهو أنّه: باع بعضهم عبداً وقال للمشترى ما فيه عيب إلّاالنميمة، قال رضيت به، فاشتراه فمكث الغلام أيّاماً ثم قال لزوجة مولاه: إنّ زوجك لا يحبّك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من قفاه شعرات حتى أسحر عليها فيحبّيك، ثم قال للزوج: إنّ امرأتك اتخذت خليلًا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف، فتناوم فجاءته الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۱ المرأة بالموسى فظنّ أنّها تقتله فقام الزوج وقتلها، فجاء أهل المرأة وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر» «۱». أجل فإنّه بهذه السهولة ممكن ايقاع الحرب والنزاع الدموى بين قبيلتين ولكنّ الإصلاح بينهما ليس بهذه السهولة قطعاً. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۲

سوء الظنّ وحسن الظن

تنويه:

إنّ سوء الظن عندما يتحوّل إلى حالة باطنية وخصلة أخلاقية فإنّه يعدّ من أشنع الرذائل الأخلاقية التى تؤدّى إلى الفرقة بين العوائل وتمزّق المجاميع البشرية والإنسانية. وأوّل ثمرة سلبية لسوء الظن هى عدم الاعتماد وزوال الثقة بين الناس، وعندما تزول الثقة فإنّ عملية التعاون والتكاتف فى حركة التفاعل الاجتماعى ستكون عسيرة للغاية، ومع زوال التعاون والتكاتف فى المجتمع البشرى فسوف يتبدّل هذا المجتمع إلى جحيم ومحرقة يعيش فيه الأفراد حالة الغربة والوحدة من الأفراد الآخرين ويتحرّكون فى تعاملهم من موقع الريبة والتشكيك والتآمر ضدّ الآخر. ولهذا السبب فإنّ الإسلام ولأجل توكيد ظاهرة الاعتماد المتقابل بين الأفراد والامم إهتمّ بهذه

المسألـة اهتماماً بالغاً، فنهى بشـدة عن سوء الظن ومنع الأسـباب التى تورث سوء الظن لـدى الأفراد، وعلى العكس من ذلك فإنّه مدح وأيّد بشـدّة حسن الظن الـذى يفضـى إلى زيادة المحبّة والاعتماد المتقابل والثقة بالطرف الآخر، وبالتالى تحرّك المجتمع نحو التقدّم والتعالى والتكامل فى مسيرته الحضارية، واعتبر أنّ حسن الظن من الصـفات والأعمال الإيجابية جدّاً ودعى الناس إلى ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۴ ولاـ شـك أنّ حسن الظن قـد يؤدّى إلى بعض الخسـارة أحيانـاً، ولكن هـذه الخسـارة لاـ تقبل القياس مع الاضـرار الوخيمة والآثار السلبية الكثيرة المترتبة على سوء الظن. وطبعاً، فإنّ لسوء الظن فروعاً وأقساماً، وأحد أسوأ هذه الفروع هو سوء الظن بـاللَّه والـذى يـأتى بحثه لاحقاً. وبهـذه الإشـارة نعود إلى القرآن الكريم لنسـتوحى من آياته الشـريفة دروساً فى دائرة سوء الظن وحسن الظن: ۱- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» «۱». ۲- «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» «۲». ۳- «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» «۳». ۴- «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ» «۴». ۵- «وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» «۵». ۶- «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ» «۶».

تفسير واستنتاج:

«الآيـة الإولى»: تسـتعرض الحـديث عن سوء الظن وتنهى المؤمنين بصـراحة وبشدة عن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۵ سوء الظن فى تعـاملهم الإجتماعى فيما بينهم وتشـير إلى أنّه قـد يكون بمثابـة المقدمـة إلى التجسـس والغيبـة وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً». ولكن لماذا ورد التعبير (كثيراً من الظن)؟ لأن أكثر أشـكال الظن بين الناس بالنسـبة إلى الطرف الآخر تقع فى دائرة السوء والشر، لـذلك ورد التعبير بقوله (كثيراً). ويحتمل أيضاً أن يكون المراد من كلمـة (كثير) أنّ أغلب الظنون هى من جنس الظنون السـيئة بـل إنّ الظنون السـيئة كثيرة بالنسـبة لها رغم أنّها بالمقايسـة إلى ظنون الخير لا تكون كثيرة، ولكن ظاهر الآيـة ينسـجم مع المعنى الأوّل أكثر. والملفت للنظر هو أنّ هـذه الآيـة بعـد النهى عن كثير من الظن ذكرت العلّة فى ذلـك وقـالت بـأنّ بعض الظنون هى فى الحقيقـة إثم وذنب، وهو إشارة إلى أنّ الظنون السـيئة على قسـمين: فمنها ما يطـابق الواقع ومنها ما يخالف الواقع، فما كان على خلاف الواقع يكون إثماً وذنباً، وبما أنّ الإنسان لا يعلم أيّهما المطابق للواقع وأيّهما المخـالف، وعليه فيجب تجنّب الظن السـىء اطلاقـاً حـتى لاـ يتـورط الإنسـان فى سـوء الظن المخـالف للواقع وبالتـالى يقع فى الإـثم وممارسة الخطيئة. وبما أنّ سوء الظن بالنسـبة إلى الإعمال الخاصّة للناس يعد أحد أسـباب التجسـس، وأحد الدوافع التى تقود الإنسان إلى أن يتجسـس على أخيه، والتجسـس بدوره يتسـبب أحياناً فى الكشف عن العيوب المسـتورة للآخرين وبالتالى سـيكون سبباً ودافعاً للغيبـة أيضاً، ولذلك فانّ الآية الشـريفة تتحدّث عن سوء الظن أوّلًا، وفى المرحلة الثانية ذكرت عنصـر التجسـس، وفى الثالثة نهت عن الغيبـة. وهنـاك بحـث سـنأتى عليـه فى ختـام البحث عن الآيـات والروايـات الشـريفة وهـو أنّه هـل أنّ سـوء الظن أمر اختيـارى أو غير اختيـارى؟ وإذا كان غير اختيارى فكيف يمكن النهى عنه؟ وإذا كان اختيارياً فهل يحرم مطلقاً حتى إذا لم يرتكب الإنسان عملًا بـدافع من سوء الظن هذا، أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۶ وتأتى «الآية الثانية»: لتتحدّث عن المنافقين من موقع الذم والتوبيخ، وهم الذين إمتنعوا من السير فى ركب النبى صلى الله عليه و آله والخروج معه فى واقعة الحديبية وتوهّموا أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمؤمنين الذين إنطلقوا إلى مكة سوف لا يعودون إلى أهليهم أبداً بل سـيقتلون عن آخرهم بأيدى المشـركين من قريش فى حين أنّ القضـية إنعكست تماماً وعاد المسـلمون بذلك النصر الباهر فى صلح الحديبية وهو سالمون لم يصب أحد منهم بأذى فتقول الآية: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً». ومفردة (بور) فى

الأصل بمعنى شـدّة الكساد، وبما أنّ شـدّة الكساد باعثـة على فساد الشـيء كما فى المثل المعروف لـدى العرب (كسد حتى فسد) فانّ هذه الكلمة تأتى بمعنى الفساد، ثم أطلقت على معنى يتضـمّن الهلكة والإندثار، وأطلقت على الأرض الخالية من الشجر والنبات فيقال (بائر) لأنّها فى الحقيقة فاسدة وميتة. وهكذا نجد أنّ فئة المنافقين الذين عاشوا هذا الظن السيء فى واقعة صلح الحديبية لم يكونوا قلّة، ومن المعلوم أنّه لم يصيبهم الهلاـك بمعنى الموت، وعليه فـإنّ (بور) بمعنى الهلاـك المعنوى والمحروميـة من الثواب الإلـهى وخلوّ أرض قلـوبهم من أشـجار الفضائـل الأخلاقيـة والشـجرة الطيّبـة للإيمـان، أو يكـون المراد الهلاـك الاـخروى بسـبب العـذاب الإلـهى، والهلاك الـدنيوى بسـبب الفضـيحة، وعلى أيّـة حال فالآيـة الشـريفة تدل بوضوح على النهى عن سوء الظن وخاصة بالنسبـة إلى النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله. وفى «الآيـة الثالثـة»: من الآيـات محـل البحث نجـد بحثـاً آخر عن سـوء الظن بالنسبـة إلى ساحـة الربوبية والحقيقـة المقدّسة الإلهية فى حين أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن سوء الظن بالنسبـة لأفراد البشـر، فتقول الآية بعد أن قرّرت أنّ الهـدف الآـخر من الفتـح المبين وهو فتـح الحديبيـة أنّ اللّه تعـالى يريـد أن يعـذّب المنـافقين والمشـركين فتقول: «وَيُعَـذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْـرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۷ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِـيراً». إنّ سوء الظن باللّه تعالى من جانب هؤلاء هو لانهم كانوا يتصوّرون أنّ الوعود الإلهيـة للنبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله سوف لاـ تتحقّق أبـداً وأنّ المسـلمين مضافـاً إلى عـدم انتصارهم على العـدو فإنّهم سوف لا يعودون إلى المدينـة اطلاقـاً، كمـا كـان فى ظن المشـركين أيضاً حيث توهّموا أنّهم سوف يهزمون رسول اللّه وأصـحابه لقلّـة عـددهم وعـدم توفّر الأسـلحة الكافيـة فى أيديهم وأنّ نجم الإسـلام منذر بالزوال والافول، فى حين أنّ اللّه تعالى وعد المسـلمين النصـر الأكيد وتحقّق لهم ذلك، بحيث أنّ المشـركين لم يتجرّأوا أبـداً على الهجوم على المسـلمين (رغم أنّ المسـلمين فى الحديبيـة وعلى مقربة من مكّة كانوا تحت يـدهم ولم يكونوا يحملون أى سـلاح لأنّهم كانوا قاصـدين لزيارة بيت اللّه الحرام) وهكـذا ألقى اللّه تعالى الرعب والخوف فى قلوب المشـركين إلى درجة أنّهم خضـعوا ووجدوا أنفسـهم ملزمين بكتابة الصـلح المعروف بصـلح الحديبية، ذلك الصـلح الذى مهّد الطريق للإنتصارات الباهرة التى نالها المسـلمون فيما بعـد. وعلى أيّـة حال فإنّ القرآن الكريم يذم سوء الظن هذا ذمّاً شديداً ويعد عليه العـذاب الأليم والعقاب الشديـد فى الـدنيا والآخرة. والملفت للنظر فى هـذه الآيـة أنّ مسألـة سوء الظن باللّه تعالى كانت بمثابـة القـدر المشترك بين المنافقين والمنافقات والمشـركين والمشـركات، وبيّنت هذه الآية أنّ جميع هذه الفئات والطوائف شـركاء فى هذا الأمر، بخلاف المؤمنين الـذين يحسـنون الظن باللّه تعالى وبوعده وبرسوله الكريم ويعلمون أنّ هذه الوعود سوف تتحقّق قطعاً، ولعلّ تحقّقها قـد يتأخر فترة من الوقت لمصالـح معيّنـة ولكنها أمر حتمى فى حركـة عالم الوجود، لأنّ اللّه تعالى العالم بكل شـىء والقادر على كل شىء لا يمكن مع هـذا العلم المطلق والقـدرة اللّامتناهية أن يتخلّف فى وعده، ولهذا السبب فإنّ الآية التالية لهذه الآية من سورة الفتح تقول: «وللَّهِ جُنُودُ السـماواتِ والأَـرضِ وَكـانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً». أمّا السبب الـذى دفع المنافقين والمشـركين أن يقعوا فى حبالـة سوء الظـن فى حين أنّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۸۸ قلوب المؤمنين مملوءة بحسن الظن بـاللّه تعـالى فإنّما هو لأجل أنّ المشـركين والمنافقين لا يرون من الامور إلّاظاهرها ولا يتحرّكون إلّامن موقع الأخـذ بظاهر الحوادث والوقائع دون الحقائق الكامنـة فى باطنها، فى حين أنّ المؤمنين الحقيقيين يتوجّهون إلى باطن الامور ويأخـذون بالمحتوى والمضـمون للواقعـة. وتسـتعرض «الآيـة الرابعة» أيضاً سوء الظن بالنسبـة إلى الوعـد الإلهى الذى تزامن مع حرب الأحزاب، وهى الحرب التى اعتبرت أخطر الحروب التى واجهها النبى صـلى الله عليه و آله والمسـلمون، لأنّ المشـركين كانوا قـد اتحـدوا مع جميع المخالفين للإسـلام وشـكّلوا أعظم جيش فى ذلك الزمان بهـدف القضاء على الإسـلام والمسـلمين، وكان هذا الجيش من القوة والعظمة أنّ ضـعيفى الإيمان تزلزلوا لذلك وشككوا بالوعود الإلهية فى نصـرة النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والمسـلمين، فتقول الآية حاكية عن هذه الحالة الشديدة التى كان يعيشـها المسلمون فى ذلك الوقت العصـيب: «إِذْ جَـاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيـداً». ولاـ شـك أنّ سوء الظن باللّه تعالى يختلف كثيراً عن سوء الظن بالناس، لأنّ سوء الظن بالناس

غالباً ما ینتهی بارتکاب الإثم أو سلوک طریق خاطیء فی التعامل مع الطرف الآخر، فی حین أنّ سوء الظن باللَّه تعالی یتسبب فی تزلزل دعائم الإیمان وأرکان التوحید فی قلب المؤمن، أو أنّه یکون دافعاً وعاملًا من العوامل لذلک، لأنّ الاعتقاد بأنّ اللَّه تعالی قد یخلف وعده یقع فی دائرة الکفر، لأنّ خلف الوعد إمّا ناشیء من الجهل أو العجز أو الکذب، ومعلوم أنّ کل واحد من هذه الامور محال علی اللَّه تعالی وأنّ الذات المقدّسة منزّهٔ عن هذه الامور السلبیهٔ، ولهذا السبب فإنّ الآیات محل البحث التی تستعرض سوء الظن باللَّه تذم هذه الحالهٔ بشدّهٔ وعنف. «الآیهٔ الخامسهٔ» تتحدّث أیضاً عن سوء الظن باللَّه تعالی، وهذه الآیهٔ ناظرهٔ إلی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۸۹ غزوهٔ أحد والتی ابتلی بعض المسلمین فیها بعد هزیمتهم فی میدان الحرب أمام المشرکین بسوء الظن بالنسبهٔ إلی الوعد الإلهی بالنصر، فنزلت الآیهٔ المذکورهٔ موبّخهٔ لهم بشدّهٔ علی سوء الظن هذا، فی حین أنّ الآیات التی وردت قبلها هی فی الحقیقهٔ إشارهٔ إلی أنّ وعد اللَّه بالنصر علی الأعداء قد تحقق فی بدایهٔ الأمر فی معرکهٔ أحد، ولکنّ طلّاب الدنیا والطامعین فی زخارفها غفلوا عن هجوم العدو وانشغلوا بجمع الغنائم الحربیهٔ، وبالتالی تسببوا فی الهزیمهٔ المرّهٔ لجیش الإسلام، فهنا نجد أنّ اللَّه تعالی قد وفی بعهده ووعده ولکنهم کما تقول الآیهٔ لم یتحرّکوا فی خط الإیمان والاستقامهٔ، ثم تأتی الآیهٔ محل البحث لتقول للمسلمین: «إِذْ جَاءُوکُمْ مِنْ فَوْقِکُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْکُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ* هُنَالِکَ ابْتُلِیَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِیداً». وفی ذیل هذه الآیهٔ إشارهٔ أیضاً إلی أنّ هذا إمتحان إلهی لکم لیتّضح میزان وفاءکم واستقامتکم ومقدار إیمانکم باللَّه تعالی وبالإسلام. ویتّضح من سیاق هذه الآیهٔ والآیات التی قبلها هذه الحقیقهٔ، وهی أنّ مسألهٔ سوء الظن باللَّه غالباً تصیب الأشخاص الضعیفی الإیمان فی مواقع الشدّهٔ والأزمهٔ، سواءاً کانوا فی معرکهٔ الأحزاب، أو فی أحد أو فی الحدیبیهٔ، وفی الحقیقهٔ أنّ مثل هذه المواقع تعدّ بمثابهٔ المختبر للکشف عن جوهر إیمان الشخص وإخلاصه. وتأتی «الآیهٔ السادسهٔ» والأخیرهٔ لتستعرض أیضاً سوء الظن بشکل عام من موقع الذم وتدعو کذلک إلی حسن الظن، وهذ الآیهٔ ناظرهٔ إلی قصّهٔ الإفک المعروفهٔ فی عصر النزول، ونعلم أنّ جماعهٔ من المنافقین إتّهموا أحدی زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بخروجها عن جادّهٔ العفاف وشاعوا ذلک بین الناس إلی درجهٔ أنّ هذه الشائعهٔ وبلحظات قلیلهٔ استوعبت جمیع من فی المدینهٔ، وبالرغم من أنّ هدف المنافقین حسب الظاهر هو اتهام احدی زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله ولکنّهم فی الواقع کانوا یستهدفون النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والإسلام والقرآن بالذات، وفی هذه الفترهٔ الحرجهٔ نزلت الآیات أعلاه لتفضح نفاق المنافقین وتزیل الحجاب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۲۹۰ عن سلوکیاتهم الدنیئهٔ وتبطل مؤامراتهم الخبیثهٔ، ونری أنّ عبارات هذه الآیات من القوهٔ والدقّهٔ فی المضامین والبلاغهٔ بحیث أنّها تثیر الاعجاب لدی کل إنسان، والآیهٔ مورد البحث هی أحد الآیات الخمسهٔ عشر النازلهٔ فی واقعهٔ الإفک حیث تقول الآیهٔ: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَیْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْکٌ مُبِینٌ». والتعبیر بالمؤمنین والمؤمنات یدل علی أنّ من علامات الإیمان هو حسن الظن بالنسبهٔ إلی المسلمین، وتدلّ علی أنّ سوء الظن یتقاطع مع جوهر الإیمان. وفی الواقع فانّ هذه الآیهٔ تقسّم الناس إلی ثلاث طوائف طائفهٔ المنافقین الذین یشیعون الإفک بین المسلمین، وطائفهٔ منهم هم القادهٔ والکبار من المنافقین الذین تعبّر عنهم الآیهٔ: «وَالَّذِی تَوَلَّی کِبْرَهُ». وطائفهٔ ثالثهٔ هم المؤمنون الذین تورّطوا فی تصدیق هذا الإفک المبین من موقع طیبهٔ أنفسهم وطهارهٔ قلوبهم وسذاجهٔ عقولهم. فهنا نجد أنّ القرآن الکریم یتحدّث فی هذه الآیهٔ مخاطباً الطائفهٔ الثالثهٔ من موقع الذم الشدید والتوبیخ وأنّهم لماذا أصبحوا آلهٔ وأداهٔ بید المنافقین الذین یشیعون الإفک والفاحشهٔ بین الناس؟ وفی هذه الآیات الستهٔ التی بحثت فی بعضها سوء الظن بالنسبهٔ إلی الناس وفی بعضها الآخر سوء الظن بالنسبهٔ إلی اللَّه تعالی نری أنّ هذه الرذیلهٔ الأخلاقیهٔ قد وقعت موقع الذم الشدید، وبعض الآیات أشارت إلی بعض ما یترتب علیها من الآثار السلبیهٔ علی حیاهٔ الإنسان، ولو لم یکن فی بیان قبح هذه الرذیلهٔ الأخلاقیهٔ سوی ما ورد فی بعض الآیات القرآنیهٔ الشریفهٔ لکفی ذلک، فکیف بما ورد فی الکثیر من الآیات والروایات الدینیهٔ الاخری والتی سنتحدث عنها لاحقاً؟

سوء الظن فی الروایات الإسلامیهٔ:

أمّا بالنسبة إلى الروايات الإسلامية فالمتتبع يرى أنّ تقبيح هذه الرذيلة الأخلاقية وذمّها الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۱ على أساس أنّها من أشنع الخصال الأخلاقية السلبية ولهذه الرذيلة صدى واسع فى النصوص الدينية الروائية، ونستعرض هنا بعض النماذج فى هذا الباب: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إيّاكُم وَالظّنُّ فانَّ الظَّنَّ أكذَبُ الكِذبِ» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر أيضاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «أنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ المُسلِمِ دَمَهُ ومالَهُ وَعِرضَهُ وَأنَّ يَظُنَّ بِهِ السُّوءَ» «۲». ۳- وفى حديث مثير عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا إيمانَ مَعَ سُوءِ ظَنٍّ» «۳». وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى سوء الظن بكلا قسميه، سوء الظن بالنسبة إلى الناس، أو سوء الظن بالنسبة ا لى اللّه تعالى. ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً قوله: «إيّاكَ أنْ تُسِىءَ الظّنَّ فَانَّ سُوءَ الظّنِّ يُفسِدُ العِبادَةَ وَيُعَظِّمُ الوزرَ» «۴». ۵- ونقرأ فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ بِالمُحسِنِ شَرُّ الإثم وَأَقبَحُ الظُّلم» «۵». ۶- وورد أيضاً عن هذا الإمام عليه السلام نفسه قوله: «سُوءُ الظَّنِّ يُفسِدُ الامُورَ وَيَبعَثُ عَلَى الشُّرُورِ» «۶». ۷- وورد أيضاً عنه عليه السلام أنّه قال: «شَرُّ النّاسِ مَنْ لا يَثِقُ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ وَلا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعلِهِ» «۷». ۸- ونقرأ فى نهج البلاغة قول الإمام على عليه السلام: «لا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءً الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۲ وَأَنتَ تَجِدُ لَها فِى الخَيرِ مُحتَمَلًا (مَحمَلًا) «۱». ۹- ونقرأ فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «وَاللَّهِ ما يُعَذِّبُ اللَّهُ سُبحانَهُ مُؤمِناً بَعدَ الإيمانِ إلّا بِسُوءِ ظَنِّهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام الهمام عليه السلام نفسه: «مَنْ غَلَبَ عَلَيهِ سُوءُ الظَّنِّ لَم يَترُكْ بَينَهُ وَبَينَ خَلِيلٍ صُلحَاً» «۳». وكذلك وردت روايات كثيرة فى باب سوء الظن باللّه وعدم الإيمان والتصديق بوعده حيث تحكى عن آثار سلبية خطيرة فى حياة الإنسان المادية والمعنوية، ومن ذلك: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «واللَّهِ الَّذِى لا إِلَهَ إلّا هُوَ لايُعَذِّبُ اللَّهُ مُؤمِناً بَعْدَ التَّوبَةِ وَالإستِغفَارِ إلّابِسُوءِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ وَتَقصِيرٍ مِنْ رَجائِهِ بِاللَّهِ وَسُوءُ خَلُقِهِ وَإغتَيابِهِ لِلمُؤمِنينَ» «۴». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ النبى داود عليه السلام قال: «يا رَبِّ ما آمَنَ بِكَ مَنْ عَرَفَكَ فَلَم يُحسِنِ الظَّنَّ بِكَ» «۵». ۳- وقال الإمام على عليه السلام أيضاً: «الجُبنُ وَالحِرْصُ وَالبُخلُ غَرائِزُ سُوءِ يَجمَعُها سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبحانَهُ» «۶» ومن المعلوم أنّ الشخص الذى يعيش الإيمان بالعناية الإلهية ونصرته لعباده المؤمنين فلا يجد الخوف سبيلًا إلى قلبه من الأعداء، والشخص الذى يثق بوعد اللّه فى مسألة الرزق، فلا يجد الحرص سبيلًا إلى نفسه ولا يعيش البخل فى حياته، وعليه فإنّ هذه الصفات الثلاثة المذكورة فى هذا الحديث الشريف هى فى الواقع تنبع من سوء الظن باللّه تعالى. إن ما ورد فى الروايات أعلاه يعدّ غيض من فيض الروايات الكثيرة فى باب سوء الظن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۳ الواردة فى المصادر المعتبرة والتى تتضمن دقائق لطيفة عن علل ودوافع هذه الرذيلة الأخلاقية وآثارها السلبية الكثيرة، وقد أوردنا فى هذا المقتطف عشر روايات فى سوء الظن بالنسبة إلى الناس وثلاث روايات فى مورد سوء الظن باللّه وتحتوى على مفاهيم دقيقة ونكات جميلة فى تحليل هذا المفهوم الأخلاقى ودراسة أبعاده المتنوعة.

حسن الظن فى الروايات الإسلامية:

كما رأينا أنّ سوء الظن يفضى إلى إيجاد الخلل والإرتباك فى المجتمع البشرى ويؤدّى إلى سقوط الإنسان الأخلاقى والثقافى ويورثه التعب والألم والشقاء والمرض الجسمى والروحى، ففى الجهة المقابلة نجد أنّ حسن الظن يتسبب فى أن يعيش الإنسان الراحة والوحدة والإطمئنان النفسى، ولهذا السبب نجد أنّ الروايات الإسلامية الكثيرة تؤكّد على حسن الظن بالنسبة إلى الناس، وكذلك بالنسبة إلى اللّه تعالى، أمّا فى مورد حسن الظن بالنسبة إلى الناس، فنختار من الأحاديث الشريفة ما يلى: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «حُسنُ الظَّنِّ مِنْ أفضَلِ السَّجايا وَأَجزَلِ العَطايا» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أنّه قال: «حُسنُ الظَّنِّ مِنْ أَحسنِ الشِّيَمِ وَأَفضَلِ القِسَمِ» «۲». ۳- وأيضاً ورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «حُسنُ الظَّنِّ يُخَفِّفُ ألهَمَّ وَيُنجِى مِنْ تَقَلُّدِ الإِثمَ» «۳». ۴- وفى حديث آخر عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أيضاً أنّه قال: «حُسنُ

الظَّنِّ مِنْ رَاحَةُ اللَب وَسَلامَةُ الدِّين» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۴ ۵- وأيضاً ورد فى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِالنّاسِ حازَ مِنهُمُ المَحَبَّةَ» «۱». أمّا بالنسبة إلى حسن الظنّ باللَّه تعالى، فنقرأ أحاديث كثيرة فى هذا الباب مذكورة فى المصادر المعتبرة منها: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن بعض المعصومين عليهم السلام أنّه قال: «وَالَّذِى لا إِله إلّا هُوَ ما أُعطِيَ مُؤمِنٌ قَطُّ خَيرَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ إلّا بِحُسنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَجائِهِ لَهُ وَحُسنِ خُلقِهِ وَالكَفِّ عَنْ إغتِيابِ المُؤمِنِينَ» «۲». ۲- وكذلك ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «وَأحسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنا عِندَ ظَنِّ عَبدِى المُؤمِنِ بِى إنْ خَيراً فَخَيراً وَإنْ شَرّاً فَشَرّاً» «۳». ۳- ويشبه هذا المعنى أيضاً وبشكل جامع ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «وَالَّذِى لا إله إلّا هُوَ لايَحسُنُ ظَنَّ عَبدٍ مُؤمِنٍ بِاللَّهِ إلّا كانَ اللَّهُ عِندَ ظَنِّ عَبدِهِ المُؤمِنِ لأنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ بِيَدِهِ الخَيراتُ يَستَحِيى أنْ يَكُونَ عَبدُهُ المُؤمِنُ قَدْ أَحسَنَ بِهِ الظَّنَّ ثُمَّ يُخلِفُ ظَنَّهُ وَرَجاءَهُ فَأَحسِنُوا بِاللَّهِ الظَّنَّ وَارغَبُوا إليهِ»». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم قوله: «رَأَيتُ رَجُلًا مِنْ امَتِى عَلَى الصِّراطِ يَرتَعِدُ كَما تَرتَعِدُ السَّعفَةُ فِى يَومِ رِيحٍ عاصِفٍ وَجاءَهُ حُسنُ ظَنِّهِ بِاللَّهِ فَسَكَّنَ رَعدَتَهُ» «۵». ۵- وفى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير حسن الظن باللَّه تعالى قال: «حُسنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أنْ لا تَرجُو إلّا اللَّهَ وَلا تَخافَ إلّا ذَنبَكَ» «۶».

تعريف سوء الظن وحسن الظن:

عندما ترد هاتان المفردتان ويراد بهما سوء الظن أو حسنه بالنسبة إلى الناس فَإنّ لهما مفهوماً واضحاً، فالمفهوم من سوء الظن هو أنّه كلّما صدر من شخص فعلٍ معيّن يحتمل الوجهين الصحيح والسقيم، فنحمله على المحمل السقيم ونفسّره بالتفسير السيء، مثلًا عندما يرى الشخص رجلًا مع امرأة غريبة فيتصوّر أنّ هذه المرأة أجنبية وأنّ هذا الرجل ينوى فى قلبه نيّة سوء تجاهها ويريد ارتكاب المنكر معها، فى حين أنّ حسن الظن يقود الإنسان إلى القول بأنّ هذه المرأة هى زوجته أو أحد محارمه حتماً، أو عندما يقدم إنسان على بناء مسجد أو أى عمل من أعمال الخير الاخرى، فإنّ مقتضى سوء الظن أن يوحى للإنسان بأنّ هدف هذا الشخص هو الرياء أو خداع الناس وأمثال ذلك، فى حين أنّ حسن الظن يدفعه إلى القول بأنّ عمله هذا كان بدافع إلهى ونيّته خير وصلاح. ومن هنا يتّضح أنّ دائرة حسن الظن وسوء الظن واسعة جدّاً ولا تنحصر فى ممارسة العبادات فقط، بل تستوعب فى مصاديقها ومواردها المسائل الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية أيضاً. وعندما تستعمل هاتان المفردتان بالنسبة إلى اللَّه تعالى فالمراد من حسن الظن باللَّه هو أن يثق الإنسان بالوعد الإلهى فى مورد الرزق أو العناية بالعبد أو نصرة المؤمنين والمجاهدين، أو الوعد بالمغفرة والتوبة على المذنبين وأمثال ذلك، ومعنى سوء الظن باللَّه تعالى هو أنّ الإنسان عندما يجد نفسه فى زحمة المشكلات والمصاعب فإنّه يعيش الاهتزاز وعدم الثقة بالوعد الإلهى، وعندما يقع فى بعض الابتلاءات العسيرة وفى المسائل المالية وغيرها فإنّه ينسى وعد اللَّه تعالى للصابرين والذين يتحرّكون فى خط الاستقامة والانضباط والمسؤولية، ويتحرّك عندها فى خط المعصية والإثم. وقد رأينا فى الروايات السابقة تعبيرات مثيرة وحيّة توضّح ما ذكرناه آنفاً عن المفهوم من هاتين المفردتين. وهنا لابدّ من استعراض بعض النكات المهمّة وتحليل بعض النقاط فى هذا الباب:

الآثار السلبيّة لسوء الظّن

إنّ إتّساع دائرة سوء الظن فى المجتمعات البشرية يترتب عليها آثار سلبية وخيمة ومضرّات كثيرة قد لا تكون مستورة على أحد من الناس، ولكن لغرض توضيح هذا المطلب ينبغى الالتفات إلى ما يلى: أ) إنّ من أسوأ الآثار السلبيّة لهذه الرذيلة الأخلاقية على المستوى الاجتماعى هو (زوال الثقة والاعتماد المتقابل) بين أفراد المجتمع والذى يعدّ محور المجتمعات البشرية والعنصر المهم فى عملية شد مفاصل المجتمع وتقوية الوشائج والعلاقات التى تربط بين أفراده، وقد تقدّمت الإشارة إليها إجمالًا فى الروايات الشريفة

المتقدّمة، ومن ذلك قوله عليه السلام: «شَرُّ النّاسِ مَنْ لا يَثِقُ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ وَلا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعلِهِ» «۱». فنجد أنّ المجتمع البشرى الذى يسوده عدم الثقة وعدم الاعتماد بين أفراده فمثل هذا المجتمع تتبخّر فيه أجواء التعاون والتكاتف وتزول منه البركات الكثيرة للحياة المشتركة فى حياة الإنسان، ونقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام على عليه السلام قوله: «مَنْ سا ئَتْ ظُنُونُهُ إعتَقَدَ الخِيانَةَ بِمَنْ لايَخُونُهُ» «۲». ب) إنّ سوء الظن يؤدّى إلى تدمير وتخريب الهدوء النفسى والروحى، لذلك المجتمع كما يميت الهدوء النفسى لأصحاب هذه الرذيلة الأخلاقية، فمن يعيش سوء الظن فإنّه لا يجد الراحة والاطمئنان فى علاقته مع الآخرين ويخاف من الجميع وأحياناً يتصوّر أنّ جميع الأفراد يتحرّكون للوقيعة به ويسعون ضدّه، فيعيش فى حالة دفاعية دائماً وبذلك يستنزف طاقاته وقابلياته بهذه الصورة الموهومة. ج) ومضافاً إلى ذلك فإنّ فى الكثير من الموارد نجد الإنسان يتحرّك وراء سوء ظنه ويترجم سوء الظن هذا إلى عمل وممارسة وبالتالى يوقعه فى مشاكل كثيرة، وأحياناً يؤدّى به إلى إرتكاب جريمة وسفك الدماء البريئة، وخاصة إذا كان سوء الظن يتعلق بالعرض الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۷ والناموس أو يتصوّر أنّ الآخرين يتآمرون عليه ويهدفون إلى الوقيعة به فى ماله أو عرضه، بحيث يمكن القول أنّ العامل الأصلى للكثير من الحالات الجنائية هو سوء الظن الذى لا يقف على أساس متين والذى يدفع الإنسان إلى إرتكاب حالات العدوان والجريمة بحق الأبرياء. ولهذا السبب ورد فى الروايات السابقة عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ يُفْسِدُ الامُورَ وَيَبْعَثُ عَلَى الشُّرُورِ». والأهم من ذلك أنّ فى الكثير من موارد سوء الظن الّتى يترتّب عليها إرتكاب جريمة بحق الطرف الآخر فانّ هذا الإنسان الذى قاده سوء ظّنة لإرتكاب هذه الجريمة سوف يثوب إلى رشده ووعيه بعد ذلك ويشعر فى قرارة نفسه بتأنيب الضمير ويتسلّط عليه الاحساس بالإثم الذى قد يؤدى به إلى الجنون أحياناً. وعلى سبيل المثال نشير إلى حادثة واحدة منها، فعند ما دخل الطبيب النفسانى يوماً ليعود مرضاه فى مستشفى المجانين والمتخلفين عقلياً رأى رجلًا قد جيء به حديثاً إلى هذا المكان وهو يردّد كلمة (منديل) مرّات عديدة، وعند ما بحث هذا الطبيب النفسانى عن حاله واستقصى مرضه العقلى رأى أنّ السبب فى جنون هذا الشخص هو أنّه رأى يوماً فى حقيبة زوجته منديلًا يحتوى على قنينة عطر وبعض الهدايا المناسبة للرجال، فأساء الظن بزوجته فوراً وتصور أنّها على إرتباط برجل أجنبى، فكان أن قتلها بدافع من الغضب الشديد وبدون تحقيق وفحص، وبعد أن فتح المنديل رأى فى طيّاته ورقة كتب عليها، هذه هدية منّى إلى زوجى العزيز بذكرى يوم ولادته. وفجأة أصابته وخزة شديدة وشعر بضربة عنيفة فى أعماق روحه أدّت إلى جنونه فكان يتذكّر هذا المنديل ويكرّره على لسانه. د) إنّ سوء الظن هو فى الحقيقة ظلم فاضح للغير، لأنّه يجعل الطرف الآخر فى قفص الأتّهام فى فكر هذا الشخص وذهنه فيكيل له أنواع السهام ويطعنه فى شخصيّته وحيثيته، فلو أضفنا إلى ذلك بعض الممارسات العملية المستوحاة من سوء الظن لكان الظلم أكثر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۲۹۸ وأوضح، ومن هذه الجهة قرأنا فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ مَنْ أَقبَحَ الظُّلُم». ه) إنّ سوء الظن يتسبّب فى أن يفقد الإنسان أصدقاءه ورفاقه بسرعة، وبالتالى يعيش الوحدة والإنفراد والعزلة وهذه الحالة هى أصعب الحالات النفسية الّتى يواجهها الفرد فى حركة الحياة الاجتماعية، لأن كل إنسان متشخص ويحترم مكانته وشخصيته نجده غير مستعد لئن يعيش ويعاشر الشخص الذى يسيء الظن بأعماله الخيرة وسلوكياته الصالحة ويتّهمه بأنواع التهم الباطلة، وقد قرأنا فى الأحاديث السابقة عن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً أنّه قال: «مَنْ غَلَبَ عَلَيهِ سُوءُ الظَّنِّ لَم يَترُكْ بَينَهُ وَبَينَ خَلِيلٍ صُلحَاً». و) وقد رأينا فى الروايات السابقة أنّ سوء الظن يفسد عبادة الإنسان ويحبط أعماله ويثقل من كاهله يوم القيامة، فإذا كان المراد بسوء الظن فى هذه الرواية هو سوء الظن باللَّه تعالى قد يتّضح حينئذٍ السبب فى فساد العبادة وحبط الأعمال، وإذا كان المراد هو سوء الظن بالناس (كما نستوحى ذلك من ذيل هذه الرواية) فإنّ ذلك بسبب أنّ الإنسان الذى يعيش سوء الظن بالناس يرتكب فى الكثير من الموارد التجسّس على الناس، وبالتالى يترتب على ذلك أن ينطلق فى ممارساته الاجتماعية من موقع الغيبة للطرف الآخر والتهمة أحياناً، ومن المعلوم أنّ الغيبة والتهمة هى أحد الأسباب فى عدم قبول الطاعات والعبادات. ز) إنّ سوء الظن باعتباره انحرافاً فكريّاً، فإنّه سيؤثر بالتدريج على أفكار الإنسان الاخرى وسيقود تصوراته وأفكاره فى طريق الانحراف أيضاً، فتكون تحليلاته بعيدة عن الواقع ومجانبة للصواب، فيمنعه ذلك

من التقدّم ونیل الموفقیة فی حرکة الحیاة، وقد ورد فی الحدیث الشریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام قوله: «مَنْ ساءَ ظَنُّهُ ساءَ وَهمُهُ».

الآثار السلبیة لسوء الظن باللَّه:

إنّ سوء الظن باللَّه تعالی وعدم الثقة بالوعود الإلهیة الواردة فی القرآن الکریم والأحادیث المعتبرة له آثار سلبیة مخرّبة فی دائرة الإیمان والعقائد الدینیة حیث یمثّل سوء الظن هذا عنصراً هدّاماً لإیمان الشخص یبعده عن اللَّه تعالی کما قرأنا فی الروایات السابقة عن نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی مناجاة النبی داود علیه السلام قوله: «یا رَبِّ ما آمَنَ بِکَ مَنْ عَرَفَکَ فَلَم یُحسِنِ الظَّنَّ بِکَ» «۱». ومضافاً إلی ذلک فإنّ سوء الظن بالوعود الإلهیة یتسبب فی فساد العبادة وحبط العمل، لأنّه یقتل فی الإنسان روح الاخلاص وصفاء القلب، وقد قرأنا فی الأحادیث السابقة أنّه: «إیّاکَ أنْ تُسیءَ الظّنَّ فَانَّ سُوءَ الظّنِّ یُفسِدُ العِبادَةَ وَیُعَظِّمُ الوِزرَ» «۲». والملاحظة الاخری هی أنّ سوء الظن باللَّه تعالی وعدم الثقة بوعده یورث الإنسان الضعف والاهتزاز أمام الحوادث الصعبة والظروف العسیرة، کما ورد فی تفسیر الآیات الشریفة فی باب سوء الظن أنّ بعض المسلمین الجدد ابتلوا بسوء الظن بالوعد الإلهی بنصر المجاهدین فی میادین القتال، وبالتالی عاشوا الهزیمة الروحیة أمام الأعداء فی حین أنّ المؤمنین الحقیقیین الذین کانوا یعیشون حسن الظن باللَّه کانوا یتصدّون للأعداء وقوی الانحراف والزیغ بمنتهی الشجاعة والشهامة والجرأة. ومضافاً إلی ذلک فإنّ سوء الظن باللَّه تعالی بأمکانه أن یحرم الإنسان من العنایات الإلهیة واللطف الربانی، لأنّ اللَّه تعالی یتعامل مع عبده بما یتطابق مع حسن ظنه أو سوء ظنّه بربّه کما قرأنا فی الأحادیث السابقة فی وصیّة لقمان الحکیم لابنه حیث یقول: «یا بُنَیَّ أَحسِنَ الظّنَّ بِاللَّهِ ثُمَّ سَل فِی النّاسِ مِنْ ذا الَّذِی أَحسَنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ، فَلَم یَکُن عِندَ ظَنِّهِ بِهِ» «۳». وخلاصة الکلام أنّ الإنسان إذا أراد أن یعیش الهدوء النفسی والاستقامة فی خط الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۰ الصلاح والإیمان والتصدّی للنوازع الدنیویة وعناصر الشر وبالتالی ینال الإیمان الخالص وعنایة اللَّه تعالی ورعایته ینبغی له أن یعیش حسن الظن باللَّه تعالی ویثق بوعده.

أسباب ودوافع سوء الظن:

اشارة

إنّ هذه الرذیلة الأخلاقیة حالها حال سائر الرذائل الاخری تنشأ من عدّة عوامل وأسباب:

۱- التلّوث الظاهری والباطنی:

فالأشخاص الذین یعیشون حالة التلوث النفسی فی واقعهم یتصوّرون الآخرین مثلهم من خلال (المقارنة مع الذات) والتی هی حالة تکاد تکون سائدة عند أغلب الناس حیث یتصوّرون أنّ الآخرین مثلهم، فما لم یتطهر الإنسان فی ذاته ونفسه فمن العسیر أن یتخلّی من سوء الظن بالنسبة إلی الآخرین، وفی ذلک ورد عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «لا یَظُنُّ بِأَحَدٍ خَیراً لأنّهُ لایَراهُ إلّابِطَبعِ نَفسِهِ» «۱».

۲- المعاشرة مع رفاق السوء:

فالشخص الذی یجالس رفاق السوء والفاسدین والأشرار من الناس فمن الطبیعی أن یسیء الظن بجمیع الناس لأنّه یتصوّر أنّ الناس مثل هؤلاء الرفاق کما ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «مُجالَسَةُ الأَشرارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالأخیارِ» «۲».

۳– المحيط الفاسد:

عنـدما يعيش الإنسان فى اسرة ملّوثة أو فى مدينة أو مجتمع متخلّف وسـيء على المسـتوى الثقافى والأخلاقى، فإنّ ذلك من شأنه أن يورثه سوء الظن بجميع الأفراد حتى الأخيار منهم، وحتى لو كان يعاشـر ويجالس الصـلحاء ولكنّ غلبـة الفساد والانحطاط فى المجتمع بإمكانه أن يخلق فيه سوء الظن.

۴– الحسد والحقد والتكبّر والغرور:

وتعتبر عاملًا آخر من عوامل سوء الظن، لأنّ الإنسان الحسود والحقود يريد من خلال سوء الظن تسـقيط شخصيهٔ الطرف الآخر والتقليل الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰۱ من اعتباره، وكذلك الشخص المتكبّر يتحرّك من موقع تحقير الآخرين والسخريهٔ بشخصيتهم من خلال إساءهٔ الظن بهم وبـذلك يخلق فى ذهنه عن شخصـيهٔ الطرف الآخر صورهٔ مهزوزهٔ وحقيرهٔ. ۵– عقد الحقارهٔ: وهى أحد العوامل لسوء الظن بالناس، فالشـخص الذى يعيش الحقارهٔ فى شخصـيته ويشعر بالتفاههٔ لذاته أو يجد من الآخرين تحقيراً لشخصيته فانّه يسعى كذلك فى التنقيص من شخصـيهٔ الآخرين واحتقارهم ويتصوّرهم شخصـيات ملّوثهٔ وحقيرهٔ ليشـبع هذه العقدهٔ فى نفسه ويرضـى حالته النفسـيهٔ المهزوزهٔ، وحينئـذٍ يشـعر بالراحـهٔ الكاذبـهٔ من جرّاء ذلـك. أمّـا سوء الظن بـاللَّه تعالى فيعتمـد فى الأصل على ضـعف الإيمان واليقين فى الإنسان واهتزاز صورهٔ الالوهيهٔ فى دائرهٔ صـفات الذات وصـفات الأفعال، فضـعف اليقين واهتزاز الإيمان من شأنه أن يخلق فى فكر الإنسان سوء الظن وعـدم الثقـهٔ بالوعود الإلهيـهٔ لعباده، وكـذلك بالنسـبهٔ إلى علم اللَّه تعالى وقدرته ورحمانيّته ورازقيّته وسائر صفاته الحسنى وبالتالى يوصد أمامه أبواب السعادهٔ والنجاهٔ.

مراتب سوء الظن:

وأحـد الأسـئلهٔ المهمّـهٔ التى تثـار على بسـاط البحث فى هـذا المورد هو أنّه أساساً هل أنّ سوء الظن أمراً اختيارياً أو غير اختيارى؟ فلو رأى الإنسان ظاهرهٔ معيّنـهٔ وأساء الظن بشـخص أو أشـخاص بـدون اختيار، فهل هـذا المعنى يوجب له الـذم والتوبيـخ؟ وهل تقع هـذه الحالـهٔ مورداً للتكليف مع أنّ مقـدّماتها غير اختياريـهٔ؟ وكيف يمكن تعلّق الـذم والعقاب بأمر غير اختيارى؟ ويمكن الإجابـهٔ عن هـذه التساؤلات وعلامات الاسـتفهام من طريقين: الطريق الأول: أنّ سوء الظن هـذا الـذى يقفز إلى ذهن الإنسان بـدون اختيار منه لا يكون مورد الـذم والعقاب لوحـده، فلو أنّه لم يتجسّـد فى مرحلهٔ العمل ولم يرتب الإنسان عليه أثراً الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۰۲ على مستوى الممارسهٔ والكلام، ولا يصدر منه سلوك يشير إلى سوء الظن هذا فإنّه لا يقع مورد الذم ولا العقاب، ولذلك ذكر بعض علماء الأخلاق فى هـذا المجـال: «وَأَمّـا الخَـواطِرُ وَحَـدِيثُ النَّفسِ فَهُو مَعفُوٌ عَنهُ ... وَلَكنَّ المَنهِيَّ عَنهُ أَنْ تَظُنَّ، والظَّنُّ عِبـارَةٌ عَمّـا تِركَنُ إِليِهِ النَّفسُ وَيَميـلُ إِلَيهِ القَلبُ» «۱». وخلاصـهٔ الكلام أنّ سوء الظن له ثلاثـهٔ مراحل: أحـدها: سوء الظن القلبى. الثانيـهٔ: سوء الظن اللّسانى. الثالثـهٔ: سوء الظن العملى. فأمّـا مـا كان فى القلب فلا يقع مشـمولًا للتكليف لأنّه خارج عن دائرهٔ الاختيار، ولكنّ ما يصـدر من الإنسان بلسـانه أو بعمله فهو الممنوع والحرام. ولهـذا ورد فى بعض الروايـات قوله عليه السـلام: «وإذا ظَنَنتَ فلا تَحَقَّقْ» «۲». الطريق الثانى: إنّ الكثير من أشكال سوء الظن غير الاختياريهٔ تتضمّن مقدّمات اختياريهٔ فى البدايهٔ أو فى إدامتها واستمرارها، فالأشخاص الذين يجالسون رفاق السوء فيحصل لهم سوء الظن بالأخيار ينبغى عليهم اجتناب مثل هـذه المعاشـرهٔ ولمثل هؤلاء الرفاق من الفسّاق والأشـرار حتى لا تحصل لـديهم حالـهٔ سوء الظن تجاه الآخرين، وهـذا أمر اختيارى، ولكن لو حصل له سوء الظن بـدون مقـدّمات اختياريهٔ، فيجب على الإنسان أن يتفكّر فى حالته هذه ويضع فى تصوّره احتمالات صـحيحهٔ إلى جانب الاحتمالات السـيئهٔ التى أورثته سوء الظن، مثلًا يقول: إنّ هـذه المرأهٔ الأجنبيـهٔ التى رآها مع الشـخص الفلانى، إمّا أن تكون أخته أو ابنـهٔ أخيه أو ابنهٔ اخته أو زوجته وأمثال ذلك من أقرباء

الشخص الذین لا یعرفهم هو، فلا شک أنّ مثل هذا التفکیر السلیم واحتمال هذه الاحتمالات الصحیحة یتسبب فی إضعاف سوء الظن عنده أو یزیله تماماً من ذهنه، ولهذا ورد فی الحدیث الشریف الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۳ عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «اطلُبْ لأخِیکَ عُـذراً فَانْ لَم تَجِدْ لَهُ عُذراً فَالتَمِسْ لَهُ عُذراً» «۱». وقد مرّ علینا الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام هو أنّه قال: «لا تَظُنَنَّ بِکَلِمَـةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءً وَأَنتَ تَجِدُ لَها فِی الخَیرِ مُحتَمَلًا (مَحمَلًا) «۲». وعلی هذا الأساس یمکننا تقسیم سوء الظن إلی ثلاثـة أقسام: ۱- سوء الظن الـذی یتجسّـد فی أفعـال الشـخص وکلماته وأقواله، وهـذا القسم من سوء الظن الحرام. ۲- سوء الظن الذی لا یظهر أثره خارجاً، ولکنّه یمکن للشخص إزالته من خلال التفکیر السلیم وبواسطة إزالة مقدّماته الخارجیة، فهذا النوع من سوء الظن یحتمل أن یکون مشـمولًا لأدلّة الحرمة. ۳- سوء الظن الـذی لاـ یترتب علیه أثر خـارجی، وهو خارج تماماً عن دائرة اختیار الإنسان وإرادته ولا یمکن إزالته بشتی الوسائل، فمثل هذا الظن السیء لا یکون مشمولًا للتکالیف الشرعیة مادام الإنسان لم یرتّب علیه أثراً معیّناً. والقرآن الکریم یشیر إلی هذا المعنی فی الآیة ۳۶ من سورة الأسراء: «وَلَا تَقْفُ مَا لَیسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ کُلُّ أُوْلَئِکَ کَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا». وفی هـذه المرحلـة یجب التوجّه إلی الاصول والمبادیء الحاکمـة فی دائرة علاج الأمراض الأخلاقیة والرذائل النفسیة، وأهمّها التفکّر فی الآثار السلبیة والعواقب الوخیمة لسوء الظن، لأنّه عندما یتفکّر الإنسان فی عواقب سوء الظن وکیف أنّه یتلف رأس المال الاجتماعی بین أفراد البشر ویسلب منهم الثقة والاعتماد المتقابل ویربک الهدوء والاستقرار فی مفاصل المجتمع، ویتسبب فی خسارة الإنسان لأصدقائه وفقده لأحبائه ویورثه الغفلة عن واقعیّات الامور والحقائق الاجتماعیة، ویقوده إلی إرتکاب الظلم والعدوان فی حق الآخرین (کما تقدّم تفصیله سابقاً) فحینئذٍ سوف یبتعد عن هذه الرذیلة الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۴ الأخلاقیة بـدون صـعوبة، کما أنّ إطّلاع الإنسان علی کون الغـذاء مسـموماً سیخلق فی نفسه مناعـة شدیـدة عن تناوله، هـذا من جهة. ومن جهة اخری فـإنّه کلّما تحرّک الإنسان لقطع جـذور هـذه الرذیلـة وقلع أسبابها من مواقع النفس، أی مجالسـة رفاق السوء والتی تسبب سوء الظن بالأخیار أو یبتعد مهما أمکنه عن الأجواء الملّوثة والمحیط السیء والفاسد، ویطهّر قلبه من أدران الحسد والحقد والتکبّر والغرور التی هی من العوامل المهمّـة لسوء الظن وأمثال ذلک من الأسـباب والعوامل الاخری فسوف تنتهی وتزول منه هـذه الرذیلـة الأخلاقیة. ومضافاً إلی ذلـک فـإنّ بعض الامور یمکنهـا أن تساعـد الإنسـان علی إنقـاذه مـن شـر هـذه الحالـة السـلبیة، وهی: الـف: البحث عن الاحتمالات السلیمة فی تبریر سلوکیات الآخرین المبهمـة التی قـد تورثه سوء الظن، کما قرأنا فی الروایات السابقـة عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «لاـ تَظُنَنَّ بِکَلِمَـةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَـدٍ سُوءً وَأَنتَ تَجِدُ لَهـا فِی الخَیرِ مُحتَمَلًا (مَحمَلًا) «۱». ومن الواضـح أنّ الکثیر من الأعمال والسلوکیات الصادرة من الأشخاص تقبل التبریر السلیم والحمل علی الصحّة. ب: أن یبتعد الإنسان عن التجسّس فی أعمال الآخرین والـذی قـد یکون معلولًا لسوء الظن أولًا، ویتسبب کـذلک فی سوء الظن أیضـاً، فلو أنّ الإنسـان تجنّب التجسّـس فی حیاة الآخرین الخصوصیة فانّه یکون قد تخلّص من أحد الأسباب المهمّة لسوء الظن. ج: أن لا یرتب أثراً عملیاً علی سوء ظنّه وبذلک یحقّق له أحـد طرق العلاج لهـذه الرذیلة، لأنّ الإنسان إذا أساء الظن بشـخص من الأشـخاص وأفعاله ثم جسّد سوء الظن هذا علی سـلوکیاته وأفعاله کأن یبتعـد عنه ویظهر عـدم الثقـة به أو یستشمّ من أفعاله وعلاقته بذلک الشـخص أنّه یسـیء الظن به، فهذه الحالة تسبب فی تقویـة سوء الظن وزیادته واشـتداده، ولکن إذا لم یهتمّ لـذلک ولم یرتّب علیه أثراً، فإنّه سیضـعف تـدریجیاً وبالتالی سـینتهی ولذلک الاخلاـق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۵ ورد فی الروایـات الإسـلامیة: «إذا ظَنَنْتُم فَلاـ تَحَقَّقُوا» «۱». ولاـ شـک أنّ الالتفات إلی العقوبات الإلهیـة الاخرویـة والآثار المعنویة السـلبیة لهذه الرذیلة الأخلاقیة والتی سـبقت الإشارة إلیها فی الروایات الشـریفة لها أثر قوی أیضاً فی الوقایـة من الابتلاـء بهـذا المرض المعنوی، وتمنـح الإنسـان القـدرة علی التحرّک بعیـداً عن ممارسـة تـداعیات هـذه الصـفة الأخلاقیة الذمیمة.

موارد الاستثناء:

لاشک أنّ قبح سوء الظن رغم أنّه یعتبر قاعدهٔ کلیّهٔ وأصل من الاصول الاخلاقیهٔ فی دائرهٔ علم الإخلاق، إلّاأنّه هناک إستثناءات لهذا الأصل العام وردت الإشارهٔ إلیها فی الروایات الإسلامیهٔ، ومن ذلک: ألف) إذا ساد الفساد والإنحطاط الأخلاقی فی مجتمع ما وکان التلّوث بالرذائل الإخلاقیّهٔ هو السائد لهذا المجتمع البشری فانّ حسن الظن فی مثل هذه الحالات لیس فقط لاـ یعدّ من الفضائل الإخلاقیهٔ، بل یمکن أن یورّط الإنسان بعواقب سلبیّهٔ ومشاکل حقیقیهٔ أیضاً، وورد التحذیر من هذا النوع من حسن الظن فی الروایات الإسلامیّهٔ. فنقرأ فی الحدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «اذا اسْتَوْلَی الصَّلاحُ عَلَی الزّمانِ وَاهْلِهِ ثُمَّ أساءَ رَجُلٌ الظَنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَهٌ فَقَدْ ظَلَم، وَإذا اسْتَوْلَی الْفَسادُ عَلَی الزَّمانِ وَاهْلِهِ فَاحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ» «۲». وهذا المضمون ورد أیضاً بتعبیرات مختلفهٔ عن الإمام الصادق علیه السلام والکاظم علیه السلام والهادی علیه السلام «۳» .وقد ورد عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «احْتَرِسُوا مِنَ الناسِ بِسُوءِ الظَّنِّ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۶ وهذا أیضاً یمکن أن یکون إشارهٔ لمثل هذه الأزمان والحالات التی یسود فیها الإنحطاط الأخلاقی فی مفاصل المجتمع البشری، وإلّا فانّ سوء الظن بعنوانه أصل عام لا یمکن أن یکون مورد المدح والثناء والقبول. ویستفاد من مجموع ما تقدم من الروایات أنّ الأصل فی الأجواء الاجتماعیهٔ السالمهٔ نسبیاً هو حسن الظن، وعلی العکس من ذلک فإذا عاش الإنسان فی أجواء فاسدهٔ ومتخلّفهٔ فانّ الأصل یجب أن یبتنی علی سوء الظن، وطبعاً هذا لا یعنی أن ینسب الإنسان بعض التهم ویلفّق بعض العیوب والنقائص لشخص من الأشخاص، بل ینبغی الاحتیاط فی مثل هذه الظروف لئلّا یتورّط الإنسان فی مشاکل ومصاعب یفرضها علیه هذا المحیط الفاسد. وطبعاً لا ینبغی أن یکون هذا الاستثناء وهذه الروایات ذریعهٔ بید الأشخاص لکی یتحرّکوا من موقع سوء الظن بأیّ إنسان ویقول بأنّ هذا الزمان کثر فیه الفساد وشاع فیه الانحطاط فمن الخطأ حسن الظن بالناس، فحتی فی الأزمنهٔ الفاسدهٔ والأجواء المنحطهٔ یجب علی الإنسان أن یصنّف الناس إلی عدّهٔ أصناف، فیجعل من الأشخاص الذین یتجّلی فی محیاهم الصلاح والخیر فی دائرهٔ الصالحین، فلاـ ینبغی أن یکونوا مورد سوء الظن مادام لم یشاهد منهم أمراً منکراً من موقع الوضوح. ولکنه علیه أن یضع الفئات التی شاهد منها سلوکیات مخالفهٔ وأفعال منکرهٔ بصورهٔ متکررهٔ فی صف الأشرار والمفسدین، ولا ینبغی علیه أن یحسن الظن بنیّاتهم وأفعالهم اطلاقاً. ب) بالنسبهٔ إلی الامور الأمنیّهٔ فی المجتمع الإسلامی والتی یتعلّق بها سلامهٔ المجتمع وأمنه واستقراره لا یجوز حسن الظن بأیّهٔ حرکهٔ مشکوکهٔ فی هذا المجتمع، بل یجب علیه أن یبتعد عن حسن الظن ما أمکنه ذلک، أو بتعبیر آخر یجب علیه أن یتّخذ جلباب الاحتیاط فی تعامله مع هذه السلوکیات والحرکات الصادرهٔ من بعض الأفراد المشکوکین. ومفهوم هذا الکلام لا یعنی أنّه یجوز هتک حرمهٔ الأفراد أو التعامل معهم بسلبیهٔ نتیجهٔ سوء الظن، بل المراد أنّ جمیع الحرکات والسلوکیات المشکوکهٔ یجب أن توضع تحت النظر الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۷ ویتمّ دراستها بدقّهٔ، فلو اتّضح بعد التحقیق ومن خلال القرائن والبیّنات الواضحهٔ أنّ مثل هذه الحرکات کانت بدافع من سوء النیّهٔ ومقترنهٔ بتصرفات خاطئهٔ ومحرّمهٔ هناک ینبغی إتّخاذ التدابیر العملیهٔ اللازمهٔ. ج) ومن الموارد الاخری التی یجوز فیها سوء الظن، بل قد یکون واجباً أیضاً هو فی الحالات التی یکون الإنسان فی مقابل العدو، ویمکن أن یطلب العدو الصلح وینادی بالمحبّهٔ والصداقهٔ ویعلن عن رغبته فی التعاون وأمثال ذلک، فمثل هذه الموارد لا ینبغی التعامل معه بسذاجهٔ وتصدیق کلّما یقوله من موقع حسن الظن واسدال الستار عن الماضی نهائیّاً والتقدّم إلی العدو بابتسامهٔ عریضهٔ والشد علی یده ومعانقته، بل ینبغی أن یضع فی زاویهٔ الاحتمال أن یکون هذا السلوک من العدو من موقع المکر والحیلهٔ والخدعهٔ لإستغفال الطرف المقابل. ولهذا ورد فی عهد مالک الأشتر المعروف قول أمیر المؤمنین علیه السلام: «الحَذَرُ کُلُّ الحَذَرِ مِنْ عَدُوِّکَ بَعدَ صُلحِهِ فَإنَّ العَدُوَّ رُبَّما قاربَ لِیَتَغَفَّلَ فَخُذْ بِالحَزمِ وَاتَّهِم فِی ذَلِکَ حُسنَ الظَّنِّ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۰۸

التجسّس فی الحالات الخاصهٔ للناس

تنویه:

(التجسّس) بمعنى البحث والفحص فى أعمال الآخرين والامور المتعلّقة بهم، وغالباً ما يكون هذا البحث فى الامور السلبية ونقاط الضعف والسلوكيات الذميمة، ولكنّ التجسّس فى لغة العرب يأتى بمعنى البحث والفحص فى المسائل الإيجابية أيضاً. وفى الحقيقة أنّ سوء الظن هو السبب فى أن يتحرّك الإنسان للكشف عن أسرار الناس وامورهم الخفيّة، وأحياناً تدخل عوامل اخرى من قبيل: البخل والحسد وضيق الافق وأمثال ذلک فى خلق هذه الحالة الذميمة لدى الإنسان. التجسّس بالشكل المذكور آنفاً يعتبر حالة ذميمة جدّاً فى دائرة المفاهيم الإسلامية ومن الأعمال المحرّمة حيث يتسبب فى سلب الأمن الاجتماعى وخلق أنواع الخصومات والنزاعات بين الأفراد، فلو ابيح لكلّ شخص أن يتدخّل فى الكشف عن أسرار الآخرين والتدخل فى امورهم الخاصّة فى حياتهم الفردية والاسرية، فلا يبعد أن يترتب على ذلک هتک حرمة الكثير من الأفراد وتدمير شخصيتهم الاجتماعية وبالتالى إندلاع نيران الحقد والعداوة والبغضاء فى المجتمع بحيث يتحوّل مثل هذا المجتمع إلى جحيم لا يطاق. وبالطبع فإنّ هذا الحكم الأخلاقى والإسلامى لا يتقاطع أبداً مع ضرورة وجود أجهزة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۰ أمنيّة وتجسّسية فى جهاز الحكومة الإسلامية، لأنّ ما تقدّم من التجسّس المذموم يتعلّق بالحياة الخاصة للأفراد، وأمّا هذا المعنى الثانى فيتعلّق بمصير المجتمع وأمنه ويهدف إلى التصدّى لمؤامرات الأعداء وكشف مخططاتهم والوقاية من تسرّب عناصر الشر والانحراف فى مفاصل المجتمع الإسلامى. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى منه الدروس الأخلاقية فى هذا الباب. نقرأ فى القرآن الكريم آية واحدة تنهى عن التجسّس، وهى الآية ۱۲ من سورة الحجرات حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً». وكما تقدّمت الإشارة إليه فى بحث الغيبة وسوء الظن فإنّ الآية الشريفة المذكورة أعلاه تنهى عن ثلاثة أشياء، وهى فى الواقع بمثابة العلّة والمعلول، فالأول تنهى عن سوء الظن الذى يعدّ العلّة والمصدر للتجسّس، ثم تنهى عن التجسّس الذى يتسبب فى الكشف عن عيوب الآخرين المستورة وبالتالى التحرّک من موقع غيبتهم وفضح معايبهم. وكما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً فإنّ (التجسّس) له مفهوم سلبى ويراد به عادة سلوک غير أخلاقى تجاه الآخرين، ولكنّ (التجسّس) قد يرد فى مورد يكون البحث والفحص عن الشىء مطلوباً ومحموداً كما نقرأ فى قصّة يوسف عليه السلام أنّ يعقوب عليه السلام أمر أولاده وقال: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» «۱» .وذهب البعض إلى أنّ التحسّس بمعنى إستراق السمع بالنسبة لكلمات وأحاديث الآخرين، فى حين أنّ التجسّس هو البحث والفحص العملى عن أسرار وعيوب الآخرين. وممّا يلفت النظر أنّ النهى عن التجسّس فى آية سورة الحجرات لم يتقيّد بقيد أو شرط، وهذا يدلّ على أنّ الأصل هو حرمة التجسّس بعنوان قاعدة عامّة، ولو رأينا أحياناً فى الأحكام الإسلامية جواز التجسّس لأغراض خاصّة فإنّ ذلک من قبيل الاستثناء. وقد كان الحكم بحرمة التجسّس وبالنظر لهذه الآية الشريفة إلى درجة من الوضوح فى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۱ الذهنية المسلمة حتى أنّ المسلمين كانوا يستدلون بهذه الآية كدليل على حرمة التجسّس، فقد ورد فى مصادر أهل السنة من قبيل كنز العمال نقلًا عن (ثور الكندى) حيث يقول: كان عمر بن الخطاب يعسّ فى الليل فى أزقة المدينة فسمع يوماً صوت رجل يغنى فى داخل بيته فما كان من عمر إلّاأن تسلق الجدار فصاح به: يا عدو اللَّه أحسبت أنّک ترتكب الذنب فى خفاء وأنّ اللَّه تعالى لا يراک؟ فقال له ذلک الرجل: لا تعجل يا أميرالمؤمنين، فلو ارتكبت ذنباً واحداً فقد ارتكبت أنت ثلاثة، فانّ اللَّه تعالى يقول «وَلا تَجَسَّسُوا» وأنت قد تجسّست علينا، ويقول أيضاً: «وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» «۱»، وأنت تسلقت الجدار، واللَّه تعالى يقول: «لَاتَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» «۲»، وأنت دخلت البيت بلا اذن ولا سلام. فما كان من عمرإلّا أن أطرق أمام هذا الاستدلال المتين ثم قال له: إذا عفوت عنک فهل تترک ما أنت عليه؟ فقال: نعم، فتركه عمر وذهب «۳».

التجسّس فى الروايات الإسلامية:

إنّ مسألة التجسّس ذكرت فى الروايات الإسلامية من موقع الذم والتقبيح بحيث أنّ القارىء لهذه الروايات يستنتج أهمية وشناعة هذا

العمل والسلوک الأخلاقی الذمیم، ومن ذلک: ۱- ما ورد عن رسول اللّه أنّه قال: «إیّاکُم وَالظَّنَّ فَإنَّ الظَّنَّ أَکذَبُ الحَدِیثِ وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا» «۴». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن النبی الأکرم أیضاً قوله: «لا تَحاسَدُوا وَلا تَباغَضُوا وَلا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۲ تَجَسَّسُوا وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَنا جَشُوا وَکُونُوا عِبادَ اللّهِ إخواناً» «۱». ویتّضح من هذا الحدیث جیداً أنّ حال التجسّس کحال الحسد والحقد والکراهیة فإنّه یتسبب فی تباعد الناس وتمزّق أوصال المجتمع الإسلامی والتدهور والإرتباک فی العلاقات الاجتماعیة بین الناس. وقد أورد الکلینی فی کتابه الکافی حدیثاً عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یا مَعْشَرَ مَنْ أَسلَمَ بِلِسانِهِ وَلَم یُسلِمْ بِقَلبِهِ لا تَتَبَّعُوا عَثَراتِ المُسلِمِینَ فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَثَراتِ المُسلِمِینَ تَتَبَّعُ اللّهُ عَثرَتَهُ وَمَن تَتَبَّعُ اللّهُ عَثرَتَهُ یَفْضَحْهُ» «۲». ۳- وفی حدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «تَتَبَّعُ العَیُوبِ مِنْ أَقبَحِ العُیُوبِ وَشَرِّ السَّیِّئاتِ» «۳». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام أنّه قال: «مَنْ بَحَثَ عَنْ أَسرارِ غَیرِهِ أَظهَرَ اللّهُ أَسرارَهُ» «۴». ۵- وجاء فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً قوله: «مَن تَتَبَّعَ خَفِیّاتِ العُیُوبِ حَرَّمَهُ اللّهُ مَوَدّاتِ القُلُوبِ» «۵». ۶- وورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «لا تُفَتِّشِ النّاسَ عَنْ أَدیانِهِم فَتَبقی بِلا صَدِیقٍ» «۶». وهذا یدلّ علی أنّ أغلب الناس لهم عیوب ونقائص فی دائرة العقیدة أو العمل، فعندما تبقی مستورة وخفیّة، فإنّ ذلک من شأنه أن یوطّد العلاقات بین الأفراد ویتعامل الأفراد فیما بینهم من موقع المحبّة والود ویلتزمون بأصالة الصحّة والعدالة فی الطرف الآخر، ولکن فی غیر هذه الصورة فانّ الإنسان یبقی بلا صدیق.

الآثار والعواقب السلبیة للتجسّس:

إنّ البحث والتفحّص عن حال الآخرین لغرض الکشف عمّا خفی من معایبهم ونواقصهم له آثار سلبیة کثیرة فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة. لأنّه من جهة یؤدّی إلی نفور الناس وکراهیتهم لمن یتدخل فی شؤونهم الخاصة ویتعدّی علی أسرارهم ویهدف إلی الکشف عن امورهم الخاصة، فیرون مثل هذا الشخص معتدیاً علی حریمهم الخاص ولا یقیمون له احتراماً ولا یرون له شخصیة وحیثیة فی نظرهم ویکرهون من یعیش هذه الحالة الذمیمة بشدّة. وقد قرأنا فی الحدیث السابق قول الإمام الصادق علیه السلام أنّ الشخص الذی یفتّش عن عیوب الناس یبقی بلا صدیق، فیمکن أن یکون إشارة إلی هذا المعنی. ومن جهة اخری فإنّ أغلب الناس لدیهم نقاط ضعف وعیوب فی شخصیتهم وسلوکیاتهم وأخلاقهم فهی لو أنّها بقیت مستورة وفی حیّز الکتمان، فإنّ ذلک من شأنه أن یدفع بعجلة التفاعل الاجتماعی بین الأفراد کما یرام، ولکن عند انتشار هذه العیوب ونقاط الضعف فإنّ ذلک من شأنه أن یتسبب فی سوء الظن لدی الأفراد وانفصام علقة الاخوة والصداقة والمحبّة بینهم. ومن جهة ثالثة فانّ التجسّس والتفتیش عن عقائد الآخرین وأسرارهم وعیوبهم یتسبب فی تعمیق حالة الکراهیة والحقد والعداوة بین أفراد المجتمع وأحیاناً یؤدّی إلی النزاع الدموی الشدید بینهم. فإذا أردنا أن یعیش المجتمع السلامة والاطمئنان والاستقرار فینبغی الحذر والابتعاد عن هذا السلوک السلبی. ومن جهة رابعة فإنّ أکثر الناس یتحرّکون فی مقابل هذا العمل من موقع المقابلة بالمثل، أی یسعون إلی التجسّس والفحص عن عیوب الشخص الفضولی والمتجسّس علی أحوالهم ویکشفونها إلی الملأ، ولعل هذا الحدیث الشریف ناظر إلی هذا المعنی وهو قوله: «مَنْ بَحَثَ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۴ عَنْ أَسرارِ غَیرِهِ أَظهَرَ اللّهُ أَسرارَهُ» «۱». ونقرأ فی حدیث آخر قوله علیه السلام: «مَنْ کَشَفَ حَجابَ أَخِیهِ إنکَشَفَتْ عَورَاتُ بَیتِه»» ، وهو قد یکون إشارة إلی هذا المعنی بالذات، أو إشارة للأثر الوضعی ونتائج هذا العمل فی الدنیا. ونقرأ کذلک فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام قوله: «مَنْ تَطَّلَعَ عَلی أَسرارِ جارِهِ إنتُهِکَتْ أَستارُهُ» «۳». أمّا الدوافع علی هذه الرذیلة الأخلاقیة وهی التجسّس والتفتیش فی أسرار الناس وأحوالهم الخاصة فکثیرة، ومن ذلک: ۱- سوء الظن بالآخرین الذی یقود الإنسان غالباً إلی التجسّس عن أحوالهم، فلو أنّه استبدله بحسن الظن فإنّه لا یفکّر عند ذاک بالتفتیش عن عیوب الآخرین، ولهذا السبب کما أشرنا سابقاً أنّ الآیة ۱۲ من سورة الحجرات تنهی عن التجسّس بعد النهی عن سوء الظن. ۲- التلوّث بالذنوب والعیوب المختلفة والذی یعدّ عاملًا آخر یدفع صاحبه نحو التجسّس علی الا خرین، لأنّ الشخص الملّوث بالذنوب والغارق فی العیوب یرید أن یری جمیع الناس مثله،

وبـذلک سوف ینطلق من موقع جبران عیوبه وخلق أجواء کاذبـة له من الهـدوء النفسـی وتسـکین حالهٔ التوتر التی تفرضـها علیه عیوبه الکثیرهٔ فیقول فی نفسه بأننی إذا کنت ملّوثاً فسائر الناس کـذلک. ونقرأ فی الحـدیث الشـریف عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «شَـرُّ النّاسِ الظّانّون وشَرُّ الظّانّین الْمُتَجَسِّسُونَ» «۴». وأحـد العوامل الاخری للتجسّـس هی حالات الحسد والحقد والعداوهٔ والتکبّر والعجب فی واقع الإنسـان النـاقص حیث تـدفعه هـذه العناصـر الشـریرهٔ إلی التفـتیش عن عیوب الاخلاـق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۵ الآـخرین واسـتخدامها کـأداهٔ لتسـقیطهم وهتـک حیثیتهم لغرض إرضـاء المیل إلی التفوّق ورؤیـهٔ الأنا متعالیـهٔ علی الآخرین. ۴- ومن العوامـل الاـخری لهـذه الرذیلـهٔ هو ضـعف الإیمـان أیضـاً، لأنّ الإنسان الـذی یعیش ضـعف الإیمان باللَّه تعالی لا یلتزم باحترام إیمان الآـخرین وشخصـیتهم الاجتماعیـهٔ، ولـذلک یتـدخّل بـأدنی حجّهٔ فی امورهم الخاصـهٔ وحریم حیـاتهم الخصوصـیهٔ ولاـ یری بأساً فی الکشف عن مثـالبهم وهتـک حرمتهم وإراقـهٔ ماء وجوههم، کما قرأنا فی الأحادیث السابقـهٔ عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله بأنّ مثل هؤلاء الأشخاص هو من قبیل: «یا مَعْشَرَ مَنْ آمَن بِلِسانِهِ وَلَم یَدخُلِ الإیمانَ فِی قَلبِهِ».

استثناءات:

اشارهٔ

هنا یطرح سؤال وهو: هل أنّ التجسّـس یعـدّ عاملًا منافیاً للأخلاق والشـرع فی جمیع الموارد، أو هناک بعض الاسـتثناءات التی تخرجه عن دائرهٔ الحرمهٔ الشـرعیهٔ؟ فإنّ جمیع الدول والحکومات فی العالم سواءً الإسـلامیهٔ وغیر الإسلامیهٔ لدیها أجهزهٔ أمنیّهٔ خاصهٔ تعمل فی دائرهٔ التجسّـس والفحص عن أسـرار الناس وحـالاتهم وتتدخل فی امورهم وتسـعی إلی الکشف عن أسرارهم، وهناک موارد اخری لا یکون التجسـس فی امور النـاس ممنوعاً فی نظر عقلاء العالم، بل قـد یکون لازماً وضـروریاً. وفی مقام الجواب عن هـذا السؤال یجب القول إنّ هـذا الأصـل العـام فی مسألـهٔ حرمـهٔ التجسّـس وقبحه فی دائرهٔ القیم الأخلاقیـهٔ له بعض الموارد الاسـتثنائیهٔ کما هو الحال فی الاصول العامهٔ الاخری، ومن ذلک:

۱- الأجهزهٔ الأمنیّهٔ

إنّ کل حکومهٔ ودولهٔ تجد نفسـها موظفهٔ بحمایهٔ شـعبها من شـر مؤامرات الأعداء فی الداخل والخارج وتستخدم الحذر من جواسیس الأعـداء، ولاـ شـک أنّ المسؤولین فی هـذه الحکومـات إذا أرادوا أن یواجهوا الأحـداث والوقـائع من موقع حسن الظن والحمـل علی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۱۶ الصـحهٔ، فإنّ ذلک من شأنه أن یورطّهم فی العواقب الوخیمـهٔ لمؤامرات الاعداء من المنافقین فی الـداخل ومن تربّص بهم الـدوائر فی الخارج، لأنّ مؤامراتهم سـریّهٔ جـدّاً ویتحرّکون بمنتهی الحذر والتستر بظواهر طبیعیهٔ وأقنعهٔ جمیلهٔ ولاـ یتسـنی للمسؤولین التعرّف علی حـالهم إلّامن خلال التفتیش الـدقیق والتجسّـس المسـتمر لکشف مؤامرات هؤلاء الأعـداء وابطال مفعولهـا. ففی مثـل هـذه الموارد یجب اجتنـاب حسن الظن والابتعـاد عن الحمـل علی الظـاهر الحسن، بـل ینبغی النظر إلی کل ظاهرهٔ اجتماعیـهٔ وسیاسـیهٔ من موقع سوء الظن لحفظ الأهـداف الکبیرهٔ والأغراض المتعالیـهٔ للمصالـح العامـهٔ للُامّهٔ الإسـلامیهٔ وبذلک تتّضـح الحکمهٔ من تشـکیل الأجهزهٔ الأمنیّهٔ والتجسسیهٔ فی الداخل والخارج، وبعبارهٔ اخری: إنّ هذا الاستثناء ینبع من قانون الأهم والمهم، فما أکثر الأفراد الـذین یقعون مورد سوء الظن وبالتالی تتحرّک الأجهزهٔ الأمنیّهٔ للتفتیش عن أحوالهم الخاصهٔ فیثبت برائتهم وسـلامتهم من أی عمـل شـائن، ولکن من البـدیهی أنّه ولغرض العثـور علی المجرم الواقعی وعملاـء الأعـداء فی الـداخل فلاـ مفرّ من مزاولـهٔ البحث والفحص الواسع فی جمیع الموارد المحتملهٔ للوصول إلی نتیجهٔ حاسمهٔ. وقد یلزم أحیاناً أن تبعث الحکومهٔ ببعض الجواسیس وبظواهر مختلفـهٔ وسـط الأعـداء أو إدخـال بعض عناصـر الأـمن کموظفین فی المؤسـسات المهمّـهٔ التی تعمل فی الـداخل علی شـکل عامل أو

موظف وأمثال ذلك كيما يتسنى لها الكشف عن بذور الفتنة واحباط أيّة مؤامرة قبل تشكلها واشتدادها، وبالتالى تعرّض الامّة مصالحها للخطر. وبالطبع فإنّ هذا لا يعنى أنّه يمكن إتّخاذ هذا الاسلوب ذريعة للتدخل فى الحياة الخصوصية لجميع أفراد المجتمع وإذاعة أسرارهم وكشف مساوئهم التى لا ترتبط اطلاقاً بمصالح الامّة وأهدافها البعيدة رغم أننا نرى مع الأسف الكثير من التخلفات التى تجرى فى إطار هذا الأصل العقلائى فيساء استخدامه فى كثير من الأحيان، ونظراً إلى أنّ الجواز فى عملية التجسّس يعتبر حكماً استثنائياً من الأصل العام فلابدّ من مراعاة هذه الموارد بدقّة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۷ والنظر إلى فلسفة هذا الحكم بالذات كيما نتجنّب الافراط فى بعض الممارسات التى تدخل تحت هذا العنوان. ونقرأ فى آيات القرآن الكريم وسيرة النبى الأكرم والروايات الإسلامية إشارات واضحة إلى هذه المسألة المهمّة. فيقول القرآن الكريم فى الآية ۴۷ من سورة التوبة بصراحة أنّ من بين المسلمين أشخاصاً يمثّلون عملاء العدو وجواسيسه، وعلى المسلمين أن يحذروا منهم حيث تقول الآية: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ». ومن هذا القبيل ما ورد فى قصّة المرأة التى أرسلها بعض المنافقين لتوصل أخبار المدينة إلى المشركين فى مكّة قبيل الفتح وأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد جهّز جيوشاً كبيرة للهجوم على مكّة حيث أرسل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الإمام على عليه السلام ورائها فوجدها فى الطريق وهددها لتسلّم الرسالة، فاضطرت أخيراً إلى الاعتراف وتسليم هذه الرسالة إلى أمير المؤمنين عليه السلام «۱»، وكذلك قصّة تجسّس حذيفة فى معركة الأحزاب لصالح المسلمين ونفوذه إلى قلب جيش الأعداء لتفحّص الأخبار ونقلها إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «۲». ويستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ هذه المسألة كانت موجودة أيضاً فى عصر الانبياء السابقين، وأحياناً تتخذ صبغة إعجازية كما فى قصّة النبى سليمان عليه السلام عندما استخدم الهدهد ليوصل إليه أخبار المناطق البعيدة. ونقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ إذا بَعَثَ جَيشَاً فَاتَّهم أَمِيراً بَعَثَ مَعَهُم مِنْ ثِقاتِهِ مَنْ يَتَجَسَّسُ لَهُ خَبَرَهُ» «۳». ونقرأ فى نهج البلاغة فى الكتاب ۳۳ قول الإمام على أميرالمؤمنين عليه السلام لقُثم بن عباس أمير مكّة: «أَمّا بَعدُ فَإِنَّ عَينِى بِالمَغرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعلِمُنِى إِنَّهُ وُجِّهَ إِلَى المَوسِمِ مِنْ أَهلِ الشَّامِ العَمى القُلُوبِ ... الَّذِينَ يَلبِسُونَ الحَقَّ بِالباطِلِ وَيُطِيعُونَ المَخلُوقَ فِى مَعصِيةِ الخالِقِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۸ فَأَقِمْ عَلى ما فِى يَدَيكَ قِيامَ الحَازِمِ الصَّلبِ». وفى حديث آخر عن أنس بن مالك عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه أرسل شخصاً يدعى (بسبسه) «۱» من أصحابه للتجسّس على أحوال قافلة أبى سفيان وإخبار النبى بأخبارها «۲». ونقرأ إشارة واضحة إلى هذا المطلب فى عهد مالك الأشتر حيث يأمره أميرالمؤمنين عليه السلام أن يجعل العيون والجواسيس على موظفيه وعمّاله كيما يراقب أعمالهم عن كثب من حيث لا يشعرون فيقول: «ثُمَّ تَفَقَّد أَعمالَهُم وابعَثْ العُيُوَنَ مِنْ أَهلِ الصِّدقِ وَالوَفاءِ عَليهِم، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِى السِّرِّ لُامُورِهِم حَدوَةٌ لَهُمُ عَلى إستِعمالِ الأَمانَةِ والرِّفقِ بِالرَّعِيَّةِ» «۳». وجاء فى الحديث المعروف عن الإمام الحسين عليه السلام فى مسألة بقاء محمد بن الحنفية فى المدينة أنّه عندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على التحرّك من المدينة باتجاه مكّة ومنها إلى كربلاء أراد أخوه محمد بن الحنفية أن يصطحبه فى هذا السفر فقال له الإمام عليه السلام: «أَمَّا أَنتَ فَلا، عَلَيكَ أنْ تُقِيمُ بِالمَدِينَةِ وَتَكُونَ لِى عَيناً لاتَخفِ عَنِّى شيئاً مِنْ امورِهِم» «۴».

۲- منظمات التفتيش والتحقيق

هناك الكثير من المنظمات فى جميع الأدارات والمؤسسات المهمّة فى هذا العصر باسم منظمات الفحص والتحقيق والتى تعمل لغرض إعمال النظر على عمل الموظّفين والعمّال والتصدّى لعمليات الاسراف والخلاف وضبط الامور واستطلاع الأحوال فى مفاصل هذه الدوائر والمؤسّسات. وبديهى أنّ عملهم ليس هو التجسّس على الامور الخاصة والأحوال الشخصية للعمّال والموظّفين فى هذه المؤسّسات والدوائر، بل عملهم يهدف إلى النظارة على الامور المتعلّقة بأداء العمل والوظيفة الاجتماعية ورعاية مصالح الامّة، فلو أنّه تمّ الاستغناء عن هذه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۱۹ المنظمات الاستخباراتية وتعطيل أعمالها فيمكن أن يستشرى الفساد والخلل فى مؤسّسات المجتمع الكبيرة وإداراته المهمّة. ومن الواضح أنّ هذه المسألة لا تختص بزمان ومكان معيّن بل كانت موجودة منذ

قديم الأيّام وفى مناطق مختلفة من العالم. وأمّا الفرق بين الأجهزة الأمنيّة وهذه المنظّمات التحقيقية فهو أنّ الأجهزة الأمنيّة تعمل فى الخفاء لرصد أعمال المتآمرين على أمن الوطن والشعب ولكنّ المنظمات التحقيقية تعمل بوضح النهار وتدرس الحالات المشكوكة وتتفحّص عن ما يثير الريبة والخلاف كيما تكشف عن السلوكيات الخاطئة لدى الموظّفين والمدراء والعمّال وتسلّمهم إلى العدالة.

۳- التجسّس فى المسائل المصيرية

يحق لمن يريد أن يختار له زوجة فى حياته أو يسعى للعثور على شريك فى أعماله التجارية أو موظّف يشتغل فى منصب حسّاس فى مؤسّسة معيّنة ولا يتمكن من تحقيق ذلك بدون سلوك التجسّس والتحقيق فى هذه المسألة والكشف عن زواياها الخفيّة، فالعقل والشرع يبيحان له أن يتفحّص فى أحوال هؤلاء الأشخاص من أصدقائهم وأقربائهم وأرحامهم أو يتحرّك بنفسه لمراقبة حالاتهم وأوضاعهم من بعيد لكى يحصل له الاطمئنان بصلاح هذا الشخص وأنّه مناسب لهذا الغرض الذى يسعى إليه. ومن المعلوم أنّ مثل هذا التحقيق والتفحّص خارج عن دائرة التجسّس الحرام، ولكن لا ـ ينبغى اطلاقاً أن يجعل ذلك ذريعة للتدخل إلى حريم الحياة الخاصة للأفراد، فلو أنّه لم يصمم فعلًا على الزواج من تلك المرأة أو يستخدم الشريك الفلانى فلا يجوز له بهذه الذريعة أن يتجسّس على أحوالهم ولكنّه يبرّر عمله هذا بالقول بأنّه يمكن أن تحصل لديه حاجة يوماً من الأيّام لمثل هذه المعلومات التى اكتسبها عن طريق التجسّس، فمثل هذه التبريرات الشيطانية لا يمكن أن تعتبر مجوّزاً للتعدّى على حدود الشرع وارتكاب الحرام. والخلاصة أنّ كلّ شكل من أشكال الافراط والتفريط فى هذه المسألة يتسبب فى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۰ الانحراف عن تعاليم الإسلام الأصلية، وبعبارة اخرى: أنّه لا ـ يمكن الابتعاد عن التجسّس والفحص والتحقيق فى امهات المسائل الاجتماعية والضرورات الحياتية للمجتمع بسبب حرمة التجسّس وبالتالى تتعرّض مصالح الامّة للخطر ومؤامرات الأعداء، ولا يمكن كذلك تعريض مصالح الامّة للخطر من جهة التدخل فى خصوصيات الحياة الفرديّة للأشخاص التى لا ترتبط من قريب أو بعيد بالمصالح العامة وبذريعة جواز التجسّس فى دائرة الاستثناء، فكلا هذين الأمرين خارج عن حدود الحق والعدالة وبعيد عن مفاهيم الإسلام.

طرق العلاج:

وما لم يتحرّك الإنسان فى طريق إزالة جذور هذه الحالة الذميمة من واقع النفس والقضاء على أسبابها ودوافعها فإنّ تركها والابتعاد عنها سيكون عسيراً للغاية، وعليه فمن أراد التحرّك على مستوى تهذيب النفس وتطهيرها من هذه الصفة الذميمة يجب عليه أولًا الابتعاد عن سوء الظن (وفق ما ذكرنا فى الأبحاث السابقة) لأنّ سوء الظن يدفع الإنسان دائماً إلى الفحص والبحث عن أحوال الطرف الآخر الذاتية، وكذلك الحسد والحقد والعداوة والتكبر كل واحدة منها يمكنها أن تكون عاملًا من عوامل التجسّس على الامور الخاصة بالآخرين بحيث أنّ الإنسان لو سعى لقلع عناصر الشر هذه من وجوده وقلبه فإنّ التجسّس سيزول بالتبع. والعامل الآخر (عقدة الحقارة) والتلّوث بالذنب الذى يدعو الإنسان إلى أن يتصوّر الآخرين مثله ليكون مصداقاً للمثل الشائع «البلية إذا عَمَّتْ طابَتْ» وليحصل من ذلك على راحة نفسية كاذبة تدغدغ عواطفه وتسكّن من وخز ضميره، فلو سعى الإنسان لتطهير نفسه من هذا التلّوث وهذه العقدة، فإنّه لا يجد فى نفسه حاجة للتفتيش والفحص عن حالات الآخرين الخصوصية. ومضافاً إلى ذلك فإنّ كل شخص يجب أن يفكّر فى هذه الحقيقة، وهى هل أنّه يرضى للآخرين أن يتدخّلوا فى حياته واموره الخاصة ويكشف عن أسراره؟ فلو أنّه لم يرض عن الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۱ ذلك فلماذا يجد فى نفسه الرغبة للتدخل فى حياة الآخرين الخصوصية والتجسّس عليهم والكشف عن أسرارهم؟ هذه المقارنة وعملية استنطاق الذات للحكم فى هذه المسألة يمكنها أن تمثّل رادعاً قوياً للإنسان، وكذلك الإلتفات إلى الآثار السلبية والنتائج السيئة للتجسّس على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية وشدّة العقاب الإلهى فى الدنيا والآخرة، وأنّ كلّ شخص يسعى لإذاعة أسرار الآخرين والكشف عن خباياهم فإنّ اللَّه تعالى سيكشف عيوبه وأسراره على الملأ ويزيل ستره

عن هـذا الإنسان فى الدنيا والآخرة، فمثل هذه الامور يمكنها أن تخلق أثراً نفسياً قوياً يمنع الإنسان من التورّط فى هذه الخطيئة. ولكن المهم والضـروري ليس في علاج هذه الخصـلة الأخلاقية فحسب بل في الصـفات والخصال السلبية الاخرى، وهو ضرورة تكرار العمل المـانع عن ارتكـاب هـذه الرذيلـة، فيطالع ما ذكرناه آنفاً من الآثار السـلبية والعقوبات الإلهيـة والـدوافع الشـريرة لهـذه الحالـة الـذميمة ويكرّرها مرّات عديدة لتحصل له بذلك حالة زاجرة ورادعة بإمكانها أن تقلع جذور هذا المرض من قلبه وتحلّى الروح والنفس بأنوار الفضيلة والهدوء والاستقرار.

حفظ السِّر وإفشائه:

هذه المسألة فى الحقيقة تعدّ تكملة للأبحاث السابقة، أو بعبارة اخرى، يمكن أن نضع حفظ السـر وإفشاءه بعنوان فضيلة أخلاقية للأول ورذيلـة بالنسبة إلى الثـانى ودراسـتهما بشـكل مسـتقل، ويمكن أن نضـعهما ضـمن بحث التجسّـس ولكونه مسألـة من مسائل موضـع التجسّـس وداخل فى إطار هـذا الموضوع. وعلى أيّـة حال فإنّ تعريف حفظ السـر أنّ الكثير من الناس لـديهم أسـرار خفيّة على الناس سواء كـانت حسـنة أو سـيئة، فلو اذيعت على الملأ فإنّهم يتعرّضون للخسارة والضـرر، مثلًا إذا كان الشـخص ذا مكانـة اجتماعيـة كبيرة ومنزلة قويّة فى المجتمع ولكن بسبب غلبة الوساوس الشيطانية ارتكب بعض الذنوب الكبيرة، وقد علم بذلك شخص أو عدّة أشخاص الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۲ من النـاس، فلو أنّ هـذا السـر اذيع على النـاس وعلم به الآـخرون فـانّ ذلـك من شـأنه أن يهـدد شخصيته الاجتماعية ومكانته المرموقة بالسقوط، ولذلك فإنّه يطلب من ذلك الشخص أو الأشخاص الذين علموا بهذا السر أن يتحرّوا إخفـاءه ويجتنبوا إذاعته للنـاس. أو أنّه يقوم بعمل صالـح ونافع للناس ولكن إذا علم الناس بـذلك وفهموا ما لهـذا الإنسان من مقامات عاليـة وأخلاق ساميـة فمن الممكن أن تزداد فيهم حالـة التمجيـد والثناء تجاه هـذا الشـخص وبالتالى تتعرّض نيّته الخالصة إلى التزلزل والتلّوث أو يبتلى بالعجب والغرور، ولـذلك فانّه يطلب من هـذا الفرد أو الأفراد الـذين علموا بصدور هذا الفعل الحسن منه أن يكتموا عليه هـذا السـر ولا يذيعوه للناس. أو أنّه يقوم بعمل مهم على المسـتوى الاقتصادى ولكن لو علم بذلك منافسوه فى السوق فإنّ منافعه ومصالحه الماديـة تتعرض للخطر، ولذلك يطلب من الشـخص الذى علم بذلك أن يكتم عليه هذا العمل ولا يفشـى سـرّه على الناس، وعليه فإنّ مسألـة حفظ السـر لا تختص فى الذنوب والرذائل الأخلاقية بل قد تتعدّى إلى الفضائل المعنوية أو المنافع والمصالح المادية المهمّة، وبكلمة واحدة فإنّ حفظ السر يتعلّق بالأسرار التى إذا اذيعت فسوف تسبب الضرر والخسارة على صاحبها، سواء كان هذا السر يتعلّق بشـخص خاص أو بالمجتمع الإسـلامى. وقد لا نجد فى الآيات القرآنية الكريمة ما يدلّ بصـراحة على ضرورة حفظ السر أو قبح إفشـاء السـر، وبـالطبع فإنّ كلمـة (السـر) وردت فى القرآن الكريم مرّات عديـدة ولكن ليس واحـد منها يرتبط ببحثنا الحاضـر، بل فى الغالب تتضـمّن علم اللَّه تعالى بجميع الأسرار وخفايا الامور، وبعبارة اخرى: إنّها تحكى عن سعة علم اللَّه تعالى، ومع الأسف فاننا نرى بعض الكتّاب الإسـلاميين بـدون الإلتفات إلى مضـمون هذه الآيات تصوّروا أنّها تتحدّث عن مسألة حفظ السـر. هذا ولكن وردت فى القرآن الكريم تعبيرات اخرى تدل على موضوعنا بالأدلة الالتزامية وتتضمّن مدح فضيلة حفظ السر أو اقبح إفشاء السر، ومن ذلك: ۱- ما ورد فى الآية ۱۶ من سورة التوبة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۳ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فهـذه الآيـة تخاطب المسـلمين بأنّ يحفظوا أسـرارهم عن الأشـخاص الذين لا يثقون بهم ولا يطمئنون إليهم، بل يكشـفوا أسـرارهم إلى من يطمئنوا إليهم ويثقوا بهم، ومفهوم هذه الآية الشريفة هو أنّ حفظ السـر يعتبر فضيلة من الفضائل الأخلاقية بخلاف إفشاء السر الذى يعدّ رذيلة فى المقابل. ۲- ونقرأ فى الآية ۱۱۸ من سورة آل عمران قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَايَأْلُونَكُمْ خَبَالًا». (بطانة) لها مفهوم يماثل مفهوم كلمة (وليجة) فكليهما معنيان محرم الأسـرار وأنّ اللَّه تعالى يخاطب جميع المؤمنين ويقول مؤكّداً عليهم أن لا يجعلوا غير المسلمين محرم أسرارهم، فهو فى الواقع إشارة إلى لزوم حفظ الأسـرار والـذم لمن يعمل على إفشاء السـر، غايـة الأمر أنّ هـذه الآية والآية التى قبلها ليست ناظرة

للأسرار الخاصة والشخصية، بل ناظرة إلى أسرار المجتمع الإسلامى التى يمثل إفشاؤها للأعداء ضربة كبيرة للمسلمين. وقد يتصوّر أنّ الآية ۸۳ من سورة النساء التى تقول: «وإذا جاءَهُم أَمرُ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ». أنّ اللّه تعالى فى هذه الآية الشريفة يتحدّث عن المنافقين أو بعض الأشخاص الذين يعيشون ضعف الإيمان واهتزاز العقيدة ويذمّهم على أنّه إذا وصل إليهم خبر انتصار المسلمين أو هزيمتهم فى ميدان القتال أذاعوا هذا الخبر ونشروه بين الناس. ولكن ذيل الآية يدلّ على أنّها ناظرة إلى إشاعة الشائعات الواهية أو المشكوكة لأنّها تقول بعد ذلك: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» «۱». والتعبير بالأمن أو الخوف الوارد فى هذه الآية هو إشارة إلى أنّ الأعداء أحياناً يشيعون الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۴ أخباراً تتعلق بانتصار المسلمين لكى تضعف فيهم الرغبة فى القتال والجهاد، وأحياناً يبثّون الشائعات التى تتحدّث عن هزيمة المسلمين ليدّب اليأس فى قلوبهم، القرآن الكريم يحذّر المسلمين هنا عن تصديق هذه الشائعات لكى لا تؤثر خطط الأعداء ومؤامراتهم فى نفوسهم فلا يصلوا إلى مقاصدهم من تضعيف معنويات المسلمين. وبالطبع فإنّ القرآن الكريم فى مورد زوجات النبى ولزوم حفظ السر تحدّث بالتفصيل فى سورة التحريم التى تعرّضت إلى بعض أزواج النبى من موقع الذم والتوبيخ الشديد لأنّهن قصّرن فى حفظ أسرار بيت النبى صلى الله عليه و آله قالت: «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ* إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» «۱». أمّا ما هو السر الذى أذاعته بعض زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فهناك بحوث مفصّلة بين المفسّرين يطول إيرادها وذكرها فى هذا المقام ويمكن للقارىء الكريم أن يرجع إلى التفسير الأمثل ذيل هذه الآية ۳ و ۴ من سورة التحريم. المورد الآخر الذى تحدّث القرآن الكريم فيه عن حفظ السر (وطبعاً بالإشارة لا بالتصريح) هو فى مورد قصّة أبولبابة الذى إستشاره بنو قريضة (وهم قبيلة من اليهود الذين كانوا يكيدون للمسلمين ويتآمرون عليهم بشدّة) وهل أنّهم سيتسلمون لحكم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله؟ فأشار إليهم أبو لبابة على رقبته بالذبح، أى أنّكم لو استسلمتم للنبى فإنّه يأمر بقتلكم جميعاً، ثمّ أنه ندم على ذلك أشدّ الندم وأدرك أنّه ارتكب خيانة كبيرة للمسلين، فما كان منه إلّاأن ربط نفسه بأحد اسطوانات المسجد وتاب من فعلته هذه فتاب اللّه عليه، ونزلت الآية ۷۲ من سورة التوبة تعلن قبول توبته حيث تقول الآية: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». وكلمة (آخرون) إشارة إلى أنّ محتوى هذه الآية لا يتعلّق بشخص خاص أو فرد معيّن، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۵ بل يستوعب جميع الذين ارتكبوا بعض الذنوب وانطلقوا من موقع الندم وجبران هذا النقص وتابوا توبة صالحة وصادقة. هذا ما يتعلّق بمجموع الإشارات الواردة فى آيات القرآن الكريم بالنسبة إلى مسألة حفظ السّر وإفشائه.

حفظ السِّر فى الروايات الإسلاميّة:

ونجد فى الروايات الإسلامية تعبيرات مختلفة وكثيرة فيما يتعلّق بحفظ السر وضرورة الالتزام بعدم إفشائه وإذاعته ممّا يدلّ على إهتمام الإسلام بهذا الموضوع حتى أنّه قرّر أنّ أسرار الآخرين بمنزلة الأمانة لدى الشخص وإفشائها يعنى الخيانة للأمانة: ۱- ما ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا حدَّثَ الرَّجُلُ الحَدِيثَ ثُمَّ إلتَفَتَ فِهِى أَمانَةٌ» «۱». هذه الالتفاتة تعنى أنّه لا يريد أن يسمعه آخر، فحينئذٍ يكون إفشاء هذا السرّ بمثابة الخيانة بالأمانة. ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَفشى سِرّاً إستودَعَهُ فَقَدْ خانَ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «مَنْ كَشَفَ حَجابَ أَخِيهِ إنكَشَفَ حَجابَ بَيتِه» «۳». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «جُمِعَ خَيرَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ فِى كُتمانِ السِّرِّ وَمُصادَقَةُ الأَخيارِ وَجُمِعَ الشَّرِّ فِى الاذاعَةِ وَمُواخاةُ الأَشرارِ» «۴». وطبعاً فإنّ كتمان السر يمكن أن يكون إشارة إلى كتمان سر الإنسان نفسه، ولكنّ اطلاق الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۶ العبارة يدلّ على شمول الحديث لكتمان الأسرار الذاتية التى تتعلّق بالآخرين.

أقسام حفظ السِّر:

لحفظ السّر أقسام متعددهٔ منها: ۱- حفظ أسرار الآخرين. ۲- حفظ أسرار النفس. ۳- حفظ أسرار أولياء الدين. ۴- حفظ أسرار النظام والحكومهٔ الإسلامیهٔ. أمّا ما ورد فی الروایات المذکورهٔ آنفاً فإنّه یتعلّق بحفظ أسرار الآخرین، ولکن هناک روایات واردهٔ فی حفظ أسرار النفس أیضاً حیث توصی المسلمین بحفظ أسرارهم الخاصهٔ فی حیاتهم الفردیهٔ، لأنّه قد تکون إذاعتها وإفشائها سبباً لإثارهٔ عناصر الحسد والحقد والمنافسهٔ غیر المنصفهٔ، وبالتالی یقع الإنسان مورد عدوان الأشخاص الذین یعیشون الحقد وضیق الافق وتتعرّض مصالحه إلی خطر کما نقرأ فیما یلی نماذج لهذه الروایات: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «سِرُّکَ سُرُورُکَ إنْ کَتَمتَهُ وإنْ أَذَعتَهُ کانَ ثُبُورَکَ» «۱». ۲- ویقول علیه السلام فی حدیث آخر: «سِرُّکَ أَسِیرُکَ فَإنْ أَفشَیتَهُ صِرتَ أَسِیرَهُ» «۲». ۳- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام قوله: «صَدرُ العاقِلِ صُندُوقِ سِرِّهِ» «۳». ۴- ونقرأ فی حدیث شریف عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «سِرُّکَ مِنْ دَمِکَ فَلا یَجرِینَ فِی غَیرِ أَودَاجِکَ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۲۷ ۵- وجاء فی حدیث عمیق المعنی عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام أنّ المؤمن لا یکون مؤمناً إلّاإذا توفّرت فیه ثلاث خصال: «فَسُنَّةٌ مِنْ رَبِّهِ کِتمانُ سِرِّهِ قالَ اللّهُ تَعالی عالِمُ الغَیبِ فَلا یُظهِرُ عَلی غَیبِهِ أَحَداً إلّامَنِ ارتَضی مِنْ رَسُولٍ» «۱». ونقرأ فی بعض الروایات أیضاً أنّها توصی بحفظ الأسرار وعدم إذاعتها حتی لأقرب المقرّبین من الأصدقاء، لأنّه یمکن أن تتغیّر الظروف والأیّام وینقلب الصدیق إلی عدو وبالتالی سوف یتحرّک علی مستوی إذاعهٔ هذه الأسرار وإفشائها. ویقول الإمام الصادق علیه السلام: «لا تَطَّلِع صَدِیقَکَ مِنْ سِرِّکَ إلّا عَلی ما لَو اطَّلَعتَ عَلَیهِ عَدُوَّکَ لَمْ یَضُرُّکَ فَإنَّ الصَّدِیقَ قَد یَکُونَ عَدُوّاً یَوماً ما» «۲». أمّا فی مورد إفشاء أسرار أولیاء اللّه تعالی والأئمّهٔ المعصومین علیهم السلام فقد وردت روایات مهمّهٔ جدّاً تؤکّد بشدّهٔ علی کتمان هذه الأسرار. وهذه الأسرار یمکن أن تکون إشارهٔ إلی المقامات المعنویهٔ المهمّهٔ للمعصومین بحیث أنّ الأعداء إذا اطّلعوا علیها حملوا ذلک علی محمل الغلو وکان ذلک ذریعهٔ بیدهم لتکفیر الشیعهٔ أو تضعیفهم أو القضاء علیهم فی حین أنّها لیست من الغلو بل هی مقامات موافقهٔ للقرآن الکریم وللسنهٔ النبویهٔ. أو هی إشارهٔ إلی أسرارهم بالنسبهٔ إلی العمل فی نشر مذهب أهل البیت فی المناطق المختلفهٔ من البلاد الإسلامیهٔ حیث یثیر هذا الموضوع حساسیهٔ المخالفین فیزدادوا تعصّباً ویعملوا علی منع هذه الأعمال والنشاطات الدینیهٔ. أو أنّها إشارهٔ إلی زمن الظهور للإمام القائم علیه السلام من أهل البیت علیهم السلام کما وردت الإشارهٔ إلی ذلک فی بعض الروایات الشریفهٔ وأنّ بعض الأئمّهٔ المعصومین علیهم السلام عزم علی القیام بوجه الحکومات الظالمهٔ فی ذلک الزمان، ولکن بما أنّ بعض الشیعهٔ أذاعوا أسرار هذه النهضهٔ فإنّ ذلک أدّی إلی فشلها وإجهاضها، وقد وردت الإشارهٔ إلی ذلک فی بعض الروایات التی تحثّ الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۲۸ الشیعهٔ علی کتمان أسرار المعصومین علیهم السلام ومن ذلک: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «إذا تَقارَبَ هذا الأَمرُ کانَ أَشَدُّ لِلتَّقِیَّهِ» «۱». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام قوله: «مَنْ أَفشی سِرَّنا أَهلَ البَیتِ أَذاقَهُ اللّهُ حَرَّ الحَدِیدِ» «۲». ۳- ونقرأ أیضاً فی حدیث آخر عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «آمُرُکَ أَنْ تَصُونَ دِینَکَ وَعِلمَنا الَّذِی أَودَعناکَ وَأَسرارنا الَّذِی حَمَلناکَ فَلا تُبدِ عُلُومَنا لِمَنْ یُقابِلُها بِالعَنادِ ... ولا تُفشِ سِرَّنا إلی مَنْ یَشِیعُ عَلَینا عِندَ الجاهِلِینَ بِأَحوالِنا» «۳». ویستفاد من هذا الحدیث الشریف أنّ إذاعهٔ أسرار الأئمّهٔ المعصومین علیهم السلام أمام أهل الحق ومن یتحرّک فی سبیل طلب الهدایهٔ والحق فإنّه لا بأس به ولا مندوحهٔ منه، ولکنّ المنع الوارد فی الروایات یختصّ باذاعتها للأشخاص الذین یعیشون العناد والحقد وأنّهم لو سمعوا بمقامات أهل البیت وفضائلهم وعلومهم فإنّهم سیجدون فی أنفسهم الحسد وتتحرّک فیهم البغضاء فیتکلّمون بکلمات غیر مسؤولهٔ ویثیرون المصاعب والمشکلات أمام أتباع أهل البیت علیهم السلام. ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «إمتَحِنوا شِیعَتَنا عِندَ ثَلاثٍ: عِندَ مَواقِیتِ الصَّلاهِٔ کَیفَ مُحافَظَتَهُم عَلَیها، وعِندَ أَسرارِهِم کَیفَ حِفظُهُم لَها عَنْ عَدُوِّنا وَإلی أَموالِهِم کَیفَ مُواساتِهِم لإِخوانِهِم عَلَیها» «۴». ۵- وورد فی حدیث شریف

عن الإمـام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «ما قَتَلَنا مَنْ أذاعَ حَـدِيثَنا قَتلَ خَطاءٍ وَلَكِن قَتَلَنا قَتلَ عَمـدٍ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۲۹ ۶- وفى الحقيقة أنّ الكثير من المشـكلات والمصاعب التى واجهها الأئمّة المعصومين عليهم السـلام وتعرّضوا بالتالى إلى الوقوع فى أسـر الظـالمين والأعـداء بسـبب أنّ بعض أفراد الشـيعة لم يكونوا ملتزمين بالانضـباط فى كلماتهم وأحاديثهم فكانوا يتحـدّثون عن فضائـل أهـل البيت عليهم السـلام ومناقبهم أو عن رذائل أعـدائهم ونقاط ضـعفهم ويـذيعونها إلى القريب والبعيـد، فتصل إلى أسـماع الحكّـام والاـمراء فتؤدّى إلى مضاعفـة عمليـات التضـييق والارهـاب فى حق أهـل البيت عليهم السـلام وقـد تفضـى إلى قتلهم على يد حكومـات الجور، وكـذلك فى إذاعـة الأخبـار التى تتحـدّث عن قائم أهل البيت عليه السـلام وانتقامه من الأعـداء والتى تورث هؤلاء الاعـداء الخوف والوحشـة، فيتحرّكون فى المقابـل بالانتقـام من أهـل البيت عليهم السـلام. ۷- وجاء فى حـديث آخر بهذا المضـمون ولكن بصـياغة جديدة عن هذا الإمام أيضاً فى تفسير الآية الشـريفة: «وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» «۱»، قال: «أَما وَاللَّهِ ما قَتَلُوهُم بِأَسـيافِهِم وَلَكِن أَذاعُوا سِرَّهُم وَأَفشَوا عَلَيهِم فَقُتِلُوا» «۲». ۸- ونقرأ فى حديث آخر عن المفضّل بن عمر قال: دخلت على أبى عبداللَّه عليه السلام يوم صـلب فيه المعلى فقلت له: يا ابن رسول اللَّه ألا ترى هذا الخطب الجليل الذى نزل بالشـيعة فى هذا اليوم؟ قال: وما هُو؟ قال: قلت: قَتـلُ المُعلى بن خُنيس، قال: «رَحِمَ اللَّهُ المُعلَّى قَـد كُنتُ أَتَوَقَّعُ ذِلِكَ أَنَّهُ قَـد أذاعَ سِـرَّنا، وَلَيسَ النَّاصِبُ لَنا حَرباً بِأَعظَمَ مَؤونَـةً عَلَينا مِنَ المُذِيعُ عَلَينا سِرَّنا» «۳». وعلى أى حال فإنّ حفظ أسـرار أئمّة أهل البيت عليهم السـلام، وبشكل عام حفظ أسرار المذهب من المسائل المسـلّمة التى لا ينبغى الترديد فيها، لأنّ هذه الأسـرار إذا اذيعت ووصلت إلى أيدى الأعداء فسوف يتحرّك فيهم عنصر الحسد بالنسبة إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم، فيسعون إلى التصدّى لنشاطات الأئمّة فى الدائرة الاجتماعية والتربوية والثقافية ويجهضوا أى عمـل نـافع لُلامّـة، ولهـذا السبب ورد التأكيـد فى الروايات الشـريفة على حفظ هـذه الأسـرار. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۳۰ والقسم الأخير من حفظ السر هو المحافظة على الأسـرار العسـكرية والسياسية للدولة الإسلامية، ووجوبه من البديهيات، ولهذا نجد أنّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله إهتمّ بهذا الأمر غاية الاهتمام، وأوصـى كذلك أصحابه بالمحافظة على هذه الأسرار أيضاً، والكثير من الأنتصـارات التى حققّها المسـلمون على أعـدائهم من المشـركين واليهود وقوى الانحراف الاخرى كان بسـبب الالتزام والانضـباط فى هـذه المسألـة الدقيقـة، فمثلًا نقرأ فى قصّـة فتـح مكّة أنّه لو أنّ تلك المرأة (سارة) كانت قد وصـلت إلى مكة وأخبرت المشـركين بما يعـدّه النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله والمسـلمون من الجيوش والقوى العسـكرية لفتـح مكّـة، فمن الطبيعى أنّ فتـح مكـة لاـ يتيسّـر للمسـلمين بتلك السـهولة، وقد تراق فى سبيل ذلك الكثير من الدماء من الطرفين، ولكن تأكيد النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله على حفظ الطرق وارساله من يعيـد هـذه المرأة النمامة تسـبب فى أن يصل جيش الإسـلام إلى أسوار مكة بدون أيّة صـعوبة وبسـرعة فائقة حتى أنّ المشـركين انبهروا وتخـاذلوا لمـا تفاجئوا من قوة الإسـلام وسـرعة المبادرة وعمليـة المباغتـة لهم واستسـلموا جميعاً. ونقرأ فى الروايات الإسـلامية إشارات إلى هـذه المسألـة أيضاً بتعبيرات عميقة المغزى، ومن ذلك: ۱- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «الظَّفَرُ بِالحَزمِ بِإجالَةِ الرَّأى، وَالرَّأى بِتَحصِـينِ الأَسرارِ» «۱». ۲- وورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَـلَّ عَيَّرَ قَوماً بِالإِذاعَـةِ فَقَـالَ: إذا جاءَهُم أَمرٌ مِنَ الأَمنُ أو الخَوفِ أَذاعُوا بِهِ، فَإِيَّاكُم وَالإِذاعَـةِ» «۲». ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السـلام قوله: «إِظهارُ الشَّىءِ قَبلَ أَنْ يَسـتَحكُمَ مَفسَـدَةٌ لَهُ»» ، لأنّ المخالفين عنـدما يطلعون عليه فربّما تحركوا فى سبيل المنع من تحقيقه ونجاحه.

معطيات حفظ السّر وإفشائه:

إنّ جميع النـاس فى حيـاتهم الخصوصيـة لـديهم بعض الأسـرار المتعلّقـة بنقاط ضـعفهم وعيوبهم، وأحياناً يتعلق بموفقيّاتهم وأعمالهم الإيجابية، ومن المعلوم أنّ إفشاء ما يتعلّق بنقاط الضـعف والعيب يؤدّى إلى سقوط إعتبار وحيثيّة هؤلاء فى نظر الناس، وقد يفضى إلى سلب الثقـة منهم وسـقوطهم الاجتماعى وإراقة ماء وجههم، ولهذا السبب نراهم يحرصون على التكتم على تلك الأسـرار لتتسنّى لهم

الفرصة لإصلاح تلك المعايب وجبران نقاط الضعف فى واقعهم. أمّا إفشاء ما يتعلّق بنقاط القوّة والصفات الإيجابية فإنّه من شأنه أن يسعر نار الحسد فى قلب الحسّاد ويعمل على تحريك عناصر الشر فى قلوب البخلاء وأصحاب الشخصيّات الهزيلة والمعقدة، وعلى أيّة حال فإنّه سيكون مصدر الشر والفساد والشقاء على المستوى البعيد، ولهذا قد يحرص بعض الناس على التحفّظ من الكشف عن هذه الموفقيّات والإيجابيات فى واقعهم. ولذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «إن كانَ فِى يَدِكَ هذِهِ شَيء فإنْ استَطَعتَ أنْ لاتَعلَم هذِه فافعَل؛ قالَ: وَكَانَ عِندَهُ إنسان فَتَذاكَرُوا الإذاعَةَ، فَقَالَ: اِحفَظ لِسانَكَ تُعِزَّ، ولا تُمَكِّن النَّاسَ مِنْ قِيادِ رَقَبَتِكَ فَتَذِّلَ» «۱». والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام قال فى بداية هذا الحديث: «إنْ كانَ فِي يَدِكَ هذِهِ شَيءٌ فإنْ إستَطعتَ ألّا تُعلَمَ هذِهِ فَافعَل» «۲». ومن هنا يتّضح أنّه إذا علم الإنسان بخبر مكتوم للآخر وانكشف له سر من أسراره فإنّ ذلك يعدّ أمانة لديه، فلو أذاعه فإنّه قد خان الأمانة وتسبب فى أن يقع الطرف الآخر فى دوامة من المشكلات والأضرار الكبيرة أو يؤدّى إلى أن يتعرّض إلى الخطر فى شخصيته الاجتماعية ومكانته فى الناس أو يؤدّى إلى تفعيل عناصر الشر لدى الحسّاد والبخلاء الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۳۲ وأصحاب النفوس الضيقة، أو يطمع الاراذل والأوباش فى ماله وعرضه. ولذا ورد فى الأحاديث السابقة أنّ الإمام قال: «سِرُّكَ سُرُورُكَ إنْ كَتَمتَهُ وإنْ أَذَعَتَهُ كانَ ثُبُورَكَ» «۱». وعليه فلابدّ للإنسان أن يحفظ أسراره مهما أمكن ولايذيعها إلى الآخرين، وبعبارة اخرى: أن يجعل صدره صندوق أسراره، فلو اضطر فى مورد معيّن أو إتفق له أن اطلع على سرّ من أسرار أخيه المؤمن فإنّه يجب عليه أن يسعى لحفظه ولا يرتكب الخيانة فى حق أخيه المؤمن. أمّا بالنسبة إلى إفشاء أسرار المذهب أمام المتعصّبين والحاقدين الذين لا يتحمّلون سماع الرأى الآخر ولا يرون أى فكر حقّاً غير فكرهم القاصر فكذلك، وخاصة بالنسبة إلى فضائل الأئمّة المعصومين عليهم السلام التى لا يطيق سماعها الأعداء المعاندين والحاسدين، وهكذا الحال بالنسبة إلى حفظ الأسرار السياسية والعسكرية للبلد الإسلامى حيث يؤدّى إذاعتها إلى تعرّض مصالح الامّة ومصير النظام الإسلامى إلى الخطر أو يتسبب فى إراقة الكثير من الدماء البريئة وتلف الثروات الطائلة أو هتك الشخصيّات المرموقة فى المجتمع الإسلامى، ولذلك فإنّ حفظ هذه الأسرار يعدّ من أهمّ الوظائف الدينية، وفى المقابل فإنّ إفشاء هذه الأسرار يعدّ من أقبح الرذائل الأخلاقية ويترتّب عليه عقوبة شديدة، ولهذا السبب قرأنا فى الأحاديث السابقة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ما قَتَلَنا مَنْ أذاعَ حَدِيثَنا قَتلَ خَطاءٍ وَلَكِن قَتَلَنا قَتلَ عَمدٍ» «۲». وقد أورد العلّامة المجلسى فى بحار الانوار حديثاً جذّاباً حيث يقول ما خلاصته: «دخل على أميرالمؤمنين عليه السلام رجلان من أصحابه فوطىء أحدهما على حيّة فلدغته ووقع على الآخر فى طريقه من حائط عقرب فلسعته وسقطا جميعاً فكأنّهما لما بهما يتضرّعان ويبكيان، فقال لهما أميرالمؤمنين عليه السلام: الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۳۳ «ما اصيبَ وَاحدٌ مِنكُما إلّا بِذَنبِهِ. أمّا أنتَ يا فُلان- وَأقبل على أحدهما- أتَذكُر يَومَ غَمَزَ عَلى سَلمانِ الفارسى فُلان وَطَعَنَ عَلَيهِ لِموالاتِهِ لَنا فَلم يَمنَعُكَ مِنَ الرَّدِّ وَالإستِخفَافِ بِهِ خَوفاً عَلى نَفسِكَ وَلا عَلى أَهلِكَ وَلا عَلَى وُلدِكَ وَمالِكَ أكثَرَ مِن أنْ استَحييتَهُ، فَلِذلِكَ أصابَكَ. فإنْ أَرَدتَ أنْ يُزيلَ اللَّهُ ما بِكَ فاعتَقِد أنْ لاتَرى مرزئاً عَلى وَلِّيٍ لَنا تَقدَرُ عَلى نُصرتِهِ بِظَهرِ الغَيبِ إلّانَصَرتَهُ، إلّاأنْ تَخافَ عَلَى نَفسِكَ وَأَهلِكَ وَوُلدِكَ وَمالِكَ. وَقالَ للآخَر: فَأَنتَ أَتَدرِى لِما أَصابَكَ ما أَصابَكَ؟ قال: لا. قَالَ عليه السلام: أَما تَذكُر حِيثُ أَقبَلَ قَنبَرَ خادِمِى وَأَنتَ بِحضرَةِ فُلانَ العاتِى فَقُمتَ إجلالًا لَهُ لإجلالِكَ لِى؟ فَقالَ لَكَ: أوَ تَقُومُ لِهذا بِحضرَتِى؟ فَقُلتَ لَهُ: وَما بالِى لاأَقُومُ وَمَلائِكةُ اللَّهِ تَضَعُ لَهُ أَجنِحَتِها فِى طَرِيقِهِ، فَعلَيها يَمشِى، فَلَمّا قُلتَ هذا لَهُ، قامَ إلى قَنبَرَ وَضَرَبَهُ وَشَتَمَهُ وَآذاهُ وَتَهَدَّدنِى وَأَلزَمَنِى الإغضاءَ عَلىَ قَذى فَلِهذا سَقَطتْ عَلَيكَ هذِهِ الحَيَّةُ. فَإنْ أردتَ أنْ يُعافِيكَ اللَّهُ تَعالى مِنْ هذا فاعتَقِد أنْ لاتَفعَلَ بِنا وَلا بِأحدٍ مِنْ مَوالِينا بِحضَرةِ أَعدائِنا ما يُخافُ عَلينا وَعَليهِم مِنهِ» «۱». وكذلك نقرأ ما ورد فى التواريخ الإسلامية أنّ بعض قادة الإسلام اعدموا الجواسيس بسبب أنّ عملهم يؤدّى إلى سفك الدماء البريئة ولذلك حكموا بقتلهم وإعدامهم.

الضرورات:

أحیاناً تـدفع الحاجة أو الضـرورة الإنسان إلی إخبار الآخر بسـرّه، ففی هذه الموارد یجب الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۴ علی هذا الإنسان أن یختار لذلک الشـخص الأمین العاقل لیضع عنده سرّه کما قال الإمام علی علیه السلام: «مَنْ أَسَرَّ إلی غَیرِ ثِقَةٍ فَقَد ضَیَّعَ أَمرَهُ» «۱». وحتی أنّ الإمام أوصی فی حالة الضرورة وعندما یرید الإنسان أن یودّع سرّه عند أخیه المؤمن أن یتلقی فی المقابل سرّاً من ذلک الشـخص لکی یکون بمثابـة الضـمانة لحفظ سـرّه حیث یقول: «لا تَضع سرِّکَ عِنـدَ مَنْ لاسِرَّ لَهُ عِنـدَکَ» «۲». ویجب الانتبـاه إلی أنّ الأشـخاص الذین لا یعیشون الانضـباط فی حفظ أسرارهم فإنّهم لا یلیقون بالثقة والاعتماد لحفظ أسرار الآخرین، فینبغی الاجتناب عن وضع السرّ عندهم. یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا المجال: «مَنْ ضَعُفَ عَنْ حِفظِ سِرِّهِ لَم یُطِق سِرَّ غَیرِهِ» «۳».

دوافع إفشاء السّر وعلاجها:

إنّ هذه الرذیلة الأخلاقیة تنشأ من دوافع ونقاط ضـعف مختلفة منها: ۱- إنّ الشخص الحسود یسعی لإفشاء أسرار الطرف الآخر لتوجیه ضربـة إلی نقاط قوّته وشخصـیته بین الناس، ویسـعی لـذلک لإراقـة ماء وجهه أو تهدیـد مصالحه الدنیویة والمادیة. ۲- إنّ الأشخاص الذین یعیشون الحقد والعقدة تجاه الآخرین فإنّهم یسـعون أیضاً ولغرض الانتقام من الطرف الآخر وارضاء دافع الحقد فی نفوسهم إلی إفشاء أسـرار الآخرین. ۳- ومن الـدوافع الاخری لهذه الرذیلة هو عنصـر الجهل وضـیق الافق، فالأشـخاص الذین یعیشون هذه الحالات الوضـیعة لیست لـدیهم اللیاقـة لحفـظ أسـرار الآـخرین. ونقرأ فی الحـدیث الشـریف عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قـال: «ثَلاثـةٌ لا یُسْتَوْدَعْنَ سِرّاً: المَرأَةُ وَالَّنمامُ وَالْأَحْمَقُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۵ وفی حدیث آخر عن الإمام علیه السلام نفسه أنّه قال: «لا تُسِرَّ إِلَی الجاهِلِ شَیْئاً لا یُطِیقُ کِتْمانَهُ» «۱». ۴- وأساساً فإنّ إفشاء السِّر وبشـکل عام نشـر الأخبار الخفیّـة والجدیدة وأحیاناً العجیبة والغریبة تجد فی قلوب الناس جاذبیة خاصة تقودهم إلی الرغبة الشدیدة فی الإسـتماع والإصـغاء لهذه الأخبار. هذا المعنی قد یتسـبب إلی أن یرغب بعض النـاس لإفشـاء أسـرار الآخرین لیلفتوا إلیهم نظر المسـتمعین. ۵- ومن العوامل المهمّـة الاخری لإفشاء الأسـرار هو الأخطاء والاشـتباهات وعدم الالتفات إلی کون هذا الأمر من الأسـرار، ولهذا السـبب فقد یصدر من بعض الناس المنضـبطین فی مسألة حفـظ السـر بعض الاشـتباهات والزلـل فی هـذا الأـمر حتی قیـل: «کُـلُّ سِرٍّ جاوزَ الإثنِینَ شاعَ». ونقرأ فی الحـدیث الشـریف عن الإمام الصادق علیه السـلام أنّه قال لأحـد أصـحابه ویـدعی عمّار حیث سأله الإمام الصادق علیه السـلام: «هَل أَخبَرتَ بِما أَخبِرتُکَ بِهِ أَحَداً؟ قُلتُ: لاإلّاسُـلَیمانِ بنِ خالِدَ، قالَ: أَحسَـنتَ أَما سَمِعتَ قَولَ الشَّاعِر: فَلا یَعدُوَنْ سِرِّی وَسِرِّکَ ثالثاً أَلا کُلُّ سِرٍّ جاوَزَ الإثنِینِ شایعُ والسبب فی ذلک واضـح لأنّه إذا کان البناء علی أن یقوم کل شـخص بأخبار أحد أصدقائه الموثوقین بأسـرارهم، ویقوم الشـخص الثانی بمثل العمل، وهکذا الثالث والرابع فلا تطول المدّة حتّی ینتشر السِّر فی المجتمع کلّه.

أمّا العلاج:

فقـد رأینـا فی الأبحـاث السابقـة أنّه إذا کـان موضوع إفشاء الأسـرار یتعلّق بخصوصـیات الأشـخاص الآخرین فیترتب علی ذلک الآثار السـلبیة الکثیرة من قبیل سـقوط شخصـیته ومنزلته الاجتماعیـة، وزوال ثقـة الناس وإعتمادهم علیه قد یصل الأمر إلی سـقوط شخصـیته الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۶ نهائیاً فی أنظار الناس وتلف جمیع إیجابیّاته ونقاط قوّته فی المجتمع. وإذا کان إفشاء السّـر متعلّقاً بالمجتمع أو المـذهب والـدین فقـد یؤدّی أحیاناً إلی تعرّض ذلک المجتمع للخطر أو یتعرّض أتباع ذلک المـذهب إلی مشاکل کثیرة وقـد تسـفک فی ذلـک دمـاء بریئـة وتهتـک حرمـات المؤمنین وتصـادر أموالهم من قبـل الأشـخاص الـذین یعیشون التعصّب الأعمی والجهالـة والانحراف. إنّ الالتفات إلی هـذه العواقب والآثار السـلبیة الألیمـة فی إفشاء الأسـرار یعدّ أحد العوامل المؤثّرة فی الوقایة من هذه الرذیلة الأخلاقیة، کما أنّ التدبّر فی الآثار السـلبیة فی کل صـفة رذیلة من الصـفات الأخلاقیة الذمیمة یعدّ عاملًا للتوقّی من الوقوع والابتلاء فی هذه الرذیلة. ومن الطرق الاخری للعلاج هو القضاء علی أسباب ودوافع هذه الرذیلة وإقتلاع جذورها من واقع النفس، أی

عنصر الجهل والحسد والحقد أمثال ذلک. ومن الطرق الاخری هو سعة ظرفیة الإنسان وأفقه وشرح صدره وروحه وقوّة شخصیته، فهذا من شأنه أن یساعده علی المحافظة والانضباط فی دائرة الأسرار. وکذلک التفکّر فی العقوبات الإلهیة الشدیدة المترتبة علی إفشاء أسرار الناس والمجتمع والتی تقدّم الحدیث عنها سابقاً یمکن أن یعدّ من الامور النافعة للوقایة من هذه الرذیلة أو علاجها. ومن العوامل المهمّة الاخری هو الالتفات إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ إفشاء أسرار الآخرین إذا تسبب فی لحوق الضرر والخسارة بهم فإنّ المذیع لسّرهم یعدّ مسبباً لهذه الأضرار وفی الکثیر من الموارد یعتبر ضامناً شرعاً وقانوناً لها. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۷

الحلم والغضب

تنویه:

(الغضب) من أخطر الحالات والانفعالات فی الإنسان التی إذا لم یتصدّ الإنسان لضبطها والسیطرة علیها فإنّها قد تظهر بشکل جنونی علی سلوکیات الفرد وتفقده أیّة سیطرة علی أعصابه، وحتی أنّ الکثیر من السلوکیات الخطرة والجرائم الکثیرة فی حرکة الإنسان فی حیاته الاجتماعیة تکون بدافع الغضب ویترتب علیه دفع کفّارة وضریبة، وبعکسه، نری صفة الحلم وهی من الصفات الاخلاقیة الحمیدة، ونری القرآن الکریم قد إهتم بهذه الصفة أیما اهتمام، وقد وردت فی الآیة ۱۳۴ من سورة آل عمران یصف فیها المتقین حیث ذکرت بعد صفة الانفاق، لما لهذه الصفة من آثار ایجابیة علی وضع الفرد والمجتمع. إنّ حالة الغضب کالنار المحرقة التی قد تأتی علی الأخضر والیابس من حیاة الإنسان وتکفی شرارة صغیرة منها إلی إحراق بیوت ومدن کاملة وتحویلها إلی رماد. وإذا تصفّحنا التاریخ البشری فإننا نجد أنّ المشکلات الکثیرة التی ابتلت بها المجتمعات البشریة کانت بدافع من قوّة الغضب هذه حیث تسببت فی الکثیر من الحوادث المؤلمة والأزمات الخطیرة والخسارة الهائلة علی المستوی الفردی والاجتماعی. وبهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها دورساً وعبراً فی خطر هذه الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۸ الرذیلة الأخلاقیة وکذلک برکات الحلم وآثاره الإیجابیة فی النقطه المقابلة لها: ۱- «وَالَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُون» «۱». ۲- «الَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْکَاظِمِینَ الْغَیْظَ وَالْعَافِینَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ» «۲». ۳- «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَیْهِ فَنَادَی فِی الظُّلُمَاتِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَکَ إِنِّی کُنتُ مِنْ الظَّالِمِینَ» «۳». ۴- «إِنَّ إِبْرَاهِیمَ لَأَوَّاهٌ حَلِیمٌ» «۴». ۵- «إِنَّ إِبْرَاهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوَّاهٌ مُنِیبٌ» «۵». ۶- «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِیمٍ» «۶». ۷- «وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۷». ۸- «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِینَ» «۸».

تفسیر واستنتاج:

«الآیة الاولی» من الآیات محل البحث التی تتحدّث عن أوصاف طائفة من المؤمنین الصادقین الذین شملهم اللَّه تعالی برحمته وعنایته الخاصة، فتقول بعد أن تذکر إیمانهم وتوکّلهم علی اللَّه تعالی: «وَالَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُون». وبعبارة اخری: أنّ هؤلاء عندما تشتعل فی نفوسهم نار الغضب یتحرّکون علی مستوی الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۳۹ ضبطها والسیطرة علیها ولا یسمحون لأنفسهم بالتلّوث بأنواع الخطایا والذنوب لأجل ذلک. إنّ ذکر هذه الصفة بعد مسألة التوقّی من الذنوب والآثام الکبیرة لعله بسبب أنّ حالة الغضب تقود النفس إلی التحرر من قیود العقل وتفکّ عن قوی الشر جمیع الضوابط الأخلاقیة والشرعیة لتتحرّر وتنطلق فی کل إتجاه. ومن الملفت للنظر أنّ هذه الآیة لا تقول: إنّ هؤلاء لا یغضبون، لأنّ الغضب فی مواجهة المصاعب اللاملائمات والتحدّیات هو حالة طبیعیة لدی الإنسان، بل تقرر أنّ هؤلاء فی حال الغضب یتحرکون من موقع السیطرة علی حالة الغضب هذه وأن لا یخضع الإنسان لایحاءات هذه القوة فی نفسه وخاصة أنّ قوّة الغضب لا تقع دائماً فی جانب الشرّ فی الإنسان

ولا تمثّل عنصراً سلبياً فى دائرة السلوك المخرّب، فأحياناً تكون قوّة مثمرة وبنّاءة كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد باذن اللَّه تعالى. وتأتى «الآية الثانية» وبعد أن تستعرض وعد اللَّه تعالى للمتّقين بالجنّة التى وسع عرضها السموات والأرض لتتحدّث عن أوصاف هؤلاء، وأوّل صفة تذكرها لهؤلاء هى صفة الانفاق وتقول: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» ثمّ تضيف الآية «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ» وفى النتيجة: «وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ» فمن يعيش هذه الحالات الايجابية والقيم الأخلاقية فهو من المحسنين الذين تقول عنهم الآية فى ذيلها: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». والملفت للنظر أنّ الآية التى تليها وعدت هؤلاء بعفو اللَّه ومغفرته فى حال صدور الخطأ منهم، وأنّهم عندما يتحرّكون صوب الانحراف وارتكاب الخطأ يتذكّرون اللَّه تعالى ويستغفرونه فيشملهم اللَّه بعفوه ومغفرته. وهذا إشارة إلى أنّ هؤلاء كما أنّهم يتحرّكون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع العفو والصفح عن أخطاء الغير فإنّ اللَّه تعالى كذلك يعفو عنهم ويصفح عن أخطائهم. وعلى أيّة حال فإنّ (كظم الغيظ) فى هذه الآية ورد بعنوان أحد الصفات الإيجابية المرموقة لهؤلاء المتّقين. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۰ «الآية الثالثة» تتحدّث عن حالة الغضب التى عاشها أحد الأنبياء الإلهيين، وهو النبى يونس عليه السلام تجاه امّته وقومه، وهو الغضب المقدس فى ظاهره، ولكنّه فى الواقع صادر من التسرع والاستعجال وعدم إدراكك بواطن الامور، ولهذا فإنّ اللَّه تعالى قد جعله يواجه ظروفاً صعبة بسبب تركه للاولى وأخيراً فإنّ هذا النبى الكريم قد تاب من ترك الاولى، وتقول الآية: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ». وهكذا وبعد تحمّل صعوبات هائلة وقاسية قبل اللَّه توبته ولم تستطع الحوت أن تهضمه فى بطنها، بل قذفته إلى الساحل بجسم نحيف وضعيف وهزيل، أمّا ما هى المدّة التى مكث فيها يونس عليه السلام فى بطن الحوت؟ فهناك اختلاف بين المفسّرين بين من يقول أربعين يوماً، ومن يقول اسبوعاً واحداً وثلاثة أيّام، وطبقاً لرواية عن الامام على عليه السلام أنّ المدّة تسع ساعات، وعلى أيّة حال فإنّ هذه المدّة مهما طالت أو قصرت فإنّها ممّا لا تطاق حتى للحظة واحدة. ولكن ماذا هو ترك الأولى الذى ارتكبه النبى يونس عليه السلام حتى استحق هذه العقوبة الشديدة، رغم أننا نعلم أنّ الأنبياء معصومون عن الزلل والذنب؟ إنّ ما يتبادر إلى الذهن فى البداية أنّ يونس عليه السلام غضب على قومه الضالّين الذين لم يقبلوا دعوته الإلهية وتحرّكوا فى مقابله من موقع العناد واللجاجة، فمن الطبيعى أن يغضب يونس عليه السلام لذلك، ولكن هذا الغضب بالنسبة لنبى كبير مثل يونس عليه السلام كان يعدّ من الترك للأولى، أى كان الأولى له بعد إطّلاعه على وقت نزول العذاب الإلهى على قومه أن يبقى معهم إلى آخر لحظة ولا ييأس من هدايتهم، فلو أنّ يونس عليه السلام لم يغضب هناك فلعل قومه يسمعون لكلامه ويلبّون دعوته فى آخر اللحظات، والتجربة تؤيد هذا المعنى حيث إنتبه قومه فى اللحظات الأخيرة وتابوا إلى اللَّه تعالى فقبل اللَّه توبتهم وأزال عنهم العذاب. فمثل هذا الغضب ليونس عليه السلام (والذى لم يكون بدون دليل أيضاً) فإنّ اللَّه تعالى لم يغفر لنبيّه ذلك وعاقبه بتلك العقوبة، فكيف الحال فيما لو كان الغضب الذاتى للإنسان بدافع الحقد الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۱ والانتقام والحسد والدوافع الرذيلة الاخرى؟ ومن البديهى أنّ المراد من غضب يونس عليه السلام هنا هو غضبه على قومه الظالمين والفاسقين، والمراد من العبارة «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» هو أنّ يونس عليه السلام تصوّر أنّ تركه لقومه لم يكن عملًا سيئاً بحيث يستلزم كل تلك العقوبة والتوبيخ، والمقصود من إعتراف يونس عليه السلام بظلمه هو ظلمه لنفسه الذى قاده إلى هذه النتيجة الصعبة. وأمّا الآيات التى تستعرض الحلم من موقع الثناء والتمجيد والمدح فهى كالتالى: «الآية الرابعة والخامسة» من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم حالات النبى إبراهيم عليه السلام من موقع وصفه بعنوان: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» و «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ»، فالعبارة الاولى وردت فى واقعة رفض آزر (عم إبراهيم) لدعوة إبراهيم للتوحيد ورفض الأصنام واستغفار إبراهيم عليه السلام له، والثانية وردت فى قصّة إخبار الملائكة لإبراهيم عن العذاب الإلهى النازل على قوم لوط وطلب إبراهيم الخليل عليه السلام من اللَّه تعالى أن يخفّف عذابهم أو يمهلهم أكثر من ذلك. «أوّاه» تأتى بمعنى الرحيم والحنون، والذى يتحرّك قلبه لهداية قومه وامّته. وعلى أيّة حال فإنّ ما ورد فى القرآن الكريم من وصف النبى إبراهيم عليه السلام ب «أوّاه حليم» و (أوّاه منيب) يبيّن الرابطة الوثيقة بين هاتين الصفتين، ويدلّ على أنّ كظم الغيظ والسيطرة على الغضب والتحرّك من موقع الحلم والمحبّة تجاه

الآخرين حتّى لو كانوا مجرمين والسعى لإنقاذهم من الخطيئة والعقوبة كل ذلك يعدّ من الصفات الإيجابية البارزة للأنبياء الإلهيين. إنّ النبى إبراهيم عليه السلام لم يكن حليماً تجاه عمّه آزر فحسب، بل حتى بالنسبة إلى قوم لوط عليه السلام الذين كانوا قد غرقوا فى ذلك الوحل العفن من الخطيئة حيث نرى إبراهيم عليه السلام ينطلق من قلب متحرّك ليرفع عنهم العذاب أو يؤجله إلى إشعار آخر كيما يتسنى لهم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۲ الخلاص من ادران هذه الخطيئة وترك ذلك السلوك الشائن ويسيروا فى خط الإيمان والتقوى والانفتاح على اللَّه. ولكنّ الأمر الإلهى كان قد صدر بحقهم رغم أنّ إبراهيم عليه السلام قد أظهر هذه الرحمة والشفقة تجاه عمّه أو قوم لوط لأنّهم لم يكونوا قابلين للهداية وخاصة ما كان عليه قوم لوط من الخطيئة المزمنة حيث أصابهم العذاب الإلهى أخيراً. «الآية السادسة» تستعرض إحدى المواهب الإلهية الكبيرة على إبراهيم وتقول: إنّ اللَّه تعالى قد استجاب لإبراهيم عليه السلام دعائه: «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ». واللطيف أنّ من بين جميع الصفات الإيجابية الكبيرة للإنسان، فإنّ هذه تشير فقط إلى صفة الحلم لدى هذا الغلام العزيز لإبراهيم عليه السلام. ويقول الراغب فى مفرداته بأنّ: الحلم بمعنى ضبط النفس عند هيجان الغضب، وبما أنّ هذه الحالة ناشئة من العقل فإنّه كلمّا وردت كلمة الحلم فإنّها قد يراد بها العقل أيضاً. وهذه البشارة تحقّقت بالنسبة إلى إسماعيل عليه السلام عندما بلغ سن الرشد ووهبه اللَّه العقل والحلم والنضج الكبير، وذلك عندما صدر الأمر الإلهى لإبراهيم بذبح إبنه اسماعيل كما تتحدّث الآيات التى بعد هذه الآية وتقول على لسان إسماعيل عليه السلام: «يا أَبَتِ إفعَل ما تُؤمَر» فنرى حالة التسليم المطلق أمام الأمر الإلهى، وفى مقابل الذبح الذى صدر لإبراهيم. وتأتى «الآية السابعة» لتبيّن صفات (عباد الرحمن) البارزة، وتستعرض ضمن الحديث عن إثنى عشر صفة من الصفات الكبيرة الأخلاقية وهذه الصفة خاصة وتقول: «وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً». أى إذا واجههم الأشخاص الذين يعيشون الحمق والجهل والحقد بكلام غير مسؤول وألفاظ ركيكة فإنّ جوابهم لا ينطلق من موقع الانفعال والرد بالمثل، بل يمرّون على كلامهم ذلك من موقع الحلم وسعة الصدر ورغم أنّ كلمة (حلم) لم ترد فى هذه الآية، ولكن المفهوم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۳ من مجموع الآية هو أنّ عباد الرحمن لا- ينطلقون من موقع الانفعال والغضب للجاهلين الحوادث غير الملائمة وخاصة الكلمات غير المسؤولة للجاهلين والحاقدين ويجنبوا أنفسهم شرّ النزاع والصراع مع هؤلاء الأشخاص بأداة الحلم وسعة الصدر. وقد ورد فى الحديث الشريف فى تفسير هذه الآية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال يوماً لأصحابه (مضمون الحديث): «هؤلاء جماعة من امّتى احبُّهُم وَيُحبُّوننى سيأتون بعدكُم (ثم أخذ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بذكر أوصافهم) ومن ذلك صفة الصبر والحلم وأنّهم يسلكون طريق الرفق والمداراة. فقيل له: يا رسول اللَّه هل يرفقون بغلمانهم؟ فقال صلى الله عليه و آله: ليس لهم غلمان، وإنّما يرفقون مع الجهّال والسفهاء: «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً»» «۱». والمراد من كلمة (سلام) هنا هو أنّهم يتعاملون مع الآخرين من موقع المسالمة لا من موقع الخشونة والتحدّى والرد بالمثل ولا- يواجهون كلمات غير مسؤولة لُاولئك الجاهلين إلّا من موقع عدم الاعتناء واللّامبالاة وكأنّما لم يسمعوها أصلًا. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث من سورة الأعراف تتحدّث عن ثلاثة أوامر مهمّة فى خطابها للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله (باعتباره اسوة لجميع المؤمنين) وتقول: «خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ». ومن الطبيعى أنّ الأعراض عن الجاهلين يأتى بمعنى الحلم والصفح وترك أى شكل من أشكال الخصومة والشجار، بل يمكن القول أنّ الجملتين السابقتين فى هذه الآية من الأمر بالعفو وقبول العذر والدعوة إلى الأخلاق الحسنة هى نوع من أنواع الحلم كذلك، وبالتالى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۴۴ تدلّ وتشير إلى هذا المعنى أيضاً وأنّ سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت كذلك فى مقابل الجاهلين والمعاندين حيث كان يظهر أمامهم منتهى الصبر وسعة الصدر والتحمّل والحلم، ولا يتملكه الغضب اطلاقاً مقابل ما يسمعه منهم من كلمات غير مؤدّبة وعبارات غير مسؤولة. والآية التى تلى هذه الآية تقول: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۱». يمكن أن تكون إشارة اخرى إلى هذا المعنى أيضاً وهو أنّ نار الغضب ما هى إلّانزغ من نزغات الشيطان وعلى كل مؤمن أن يستعيذ باللَّه من هذه الحالة الشائنة. والشاهد على ذلك ما ورد فى الرواية الشريفة فى تفسير روح البيان فى ذيل هذه الآية وأنّه عندما نزلت الآية السابقة وأمرت

بـالعفو والحلم أمام الجاهلین قال النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله: «کَیفَ یا رَبِّ والغَضبُ» «۲». فنزلت الآیـة التی بعدها وأمرت النبی أن یستعیذ باللّه من شرّ الشیطان الرجیم. وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام یقول: إنّ أجمع آیة من آیات القرآن لمکارم الأخلاق هی هـذه الآیـة. وهو کـذلک واقعـاً، لأنّ هـذه الآیـة تتضـمّن العفو والصـفح أمـام جهل الآخرین وتـدعو الناس جمیعاً لفعل المعروف، وکـذلک مواجهـة الجاهلین بالإعراض عنهم وعـدم مجادلتهم والتحـدّث معهم من موقع الانفعال، فهـذه التعالیم الثلاثة تعد ثلاث برامـج مهمّـة فیما یتعلّق بالحیاة الاجتماعیـة للإنسان فی حرکـة الحیاة بحیث لو تسـنی لأفراد المجتمع أن یترجموا هـذه الدساتیر الثلاثـة علی أرض الواقع ویجسّـدوها فی سـلوکیاتهم وأعمـالهم فإنّ أکثر المشـکلات الاجتماعیـة وما یترتب علیها من سـلبیات اخری ستجد طریقها إلی الحل. ومن مجموع الآیات المذکورة آنفاً یتجلّی لنا أهمیّة الحلم کفضیلة أخلاقیة سامیة، وکذلک العواقب الوخیمة المترتبة علی حالة الغضب الانفعالی والشیطانی.

الغضب فی الروایات الإسلامیة:

ونقرأ فی الروایات الإسـلامیة تعبیرات عجیبة ومثیرة بالنسـبة إلی الآثار السـلبیة للغضب وأضرار هذه الرذیلة الأخلاقیة علی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة، وقد اخترنا من بین الأحادیث الکثیرة إثنی عشـر حدیثاً: ۱- ما ورد فی الحدیث الشـریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الغَضَبُ جَمرَةٌ مِنَ الشّیطانِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر عن رسول اللّه صـلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «الغَضَـبُ یُفسِـدُ الإِیمـانَ کَمـا یُفسِـدُ الصَّبرُ العَسَلَ» «۲». ۳- ونقرأ فی حـدیث عن أمیرالمـؤمنین علیه السـلام یقـول: «أَعـدَی عَـدُوٍّ لِلمَرءِ غَضَـبُهُ وَشَـهوَتُهُ، فَمَنْ مَلَکَهُمـا عَلَتْ دَرَجَتُهُ وَبَلَغَ غـایَتَهُ» «۳». ۴- وفی حـدیث آخر عن الإمـام علیه السـلام نفسه قـال: «الغَضَبُ نارٌ مُوقَـدَةٌ مَنْ کَظَـمَهُ أَطفَأَها وَمَنْ أَطلَقَهُ کانَ أَوَّلُ مُحتَرِقٍ بِها» «۴». ۵- وفی عبارة ناطقـة وردت فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السـلام أنّه قال: «لَیسَ لإِبلِیسَ جُنـدٌ أَشَـدُّ مِنْ النِّساءِ والغَضَـبِ» «۵». ۶- وجـاء فی حـدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السـلام فی عبارة عمیقـة المعنی قوله: «الغَضَبُ مِفتـاحُ کُلِّ شَرٍّ» «۶». ۷- ونقرأ فی أحـد الأدعیة المعروفة للصـحیفة السـجادیة فی بیان الإمام زین العابدین علیه السـلام لأخطـار وأضـرار الغضب وأنّهـا إلی درجـة من الشـدّة بحیث أنّ الإمام نفسه یسـتجیر باللّه منها ویقول: «اللَّهُمَّ إِنِّی أَعُوذُبِکَ مِنْ هَیجانِ الحِرصِ وَسُورَةِ الغَضَبِ وَغَلَبَـةِ الحَسَدِ وَضَعُفِ الصَّبرِ وَقِلَّةِ القَناعَةِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۴۶ ۸- ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قـال: «إِیّاکَ وَالغَضَبَ فَأَوَّلُهُ جُنُونٌ وَآخِرُهُ نَـدَمٌ» «۲». ۹- وورد عن هـذا الإمام علیه السـلام فی عبارة عمیقة اخری تتعلّق بالتقاطع بین الغضب والعقل ویقول: «عِندَ غَلَبَةِ الغَیظِ وَالغَضَبِ تُختَبَرُ حِلمُ الحُلَماءِ» «۳». ۱۰- وأیضاً ورد فی کلمات أمیر المـؤمنین علیه السـلام عن عـواقب الغضب الألیمـة قوله: «عُقُوبَـةُ الغَضُوبِ وَالحَقُودِ وَالحَسُودِ تَبـدَءُ بِأَنفُسِـهِم» «۴». ۱۱- وورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «مَنْ کَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللّهُ عَورَتَهُ»». ۱۲- ونختم هذا البحث بحدیث شریف آخر عن الإمام الصادق علیه السـلام، رغم وجود أحادیث کثیرة عن المعصومین فی هـذا الباب: «أی شـیءٍ أَشَـدُّ مِنَ الغَضَبِ إِنَّ الرَّجُلَ إِذا غَضَبَ یَقتُلُ النَّفسَ وَیَقذِفُ المُحصَنَ» «۶».

الآثار السلبیة والمخرّبة للغضب:

إننا قلّما نجـد صـفة من الصـفات الرذیلة تتضـمّن عناصـر الشـر والتخریب مثلما لرذیلة الغضب، ولو أننا کتبنا تفصـیلًا عن الآثار السـلبیة للغضب لاتّضـح لدینا أنّها أکثر من الرذائل الأخلاقیة الاخری ومن ذلک: ۱- ینبغی الإلتفات قبل کل شیء إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ حالة الغضب تقع ضمن أعداء الإنسان حیث أنّه یفقد عقله تماماً فی ثورة الغضب ویتحوّل إلی کائن غیر منسجم التصرفات والحرکات بحیث یتعجّب منه من حوله من النـاس، بـل إنّ الإنسان نفسه وبعـد الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۴۷ هدوء هیجان الغضب یتعجّب من تصـرفاته وسـلوکیاته الشائنة أثناء هذه الحالة، وفی تلک الحال قد یهجم الشـخص علی أقرب المقرّبین إلیه من دون أن یتعقّل ماذا

یفعل، وقد یتسبب فی تلوث یده بدماء الأبریاء أیضاً، فیقتل ویحطّم ویسرق ویخرّب وکأنّه مجنون تماماً. ولذلک ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «الغَضَبُ یُفسِدُ الألبابَ وَیُبعِدُ مِنَ الصَّوابِ» «۱». ولهذا السبب ورد فی الروایات الإسلامیة أنّه إذا أردتم أن تختبروا عقل الأشخاص وحنکتهم ورأیهم فعلیکم بالنظر إلیهم فی حالة الغضب ومدی سیطرتهم علی أنفسهم من شرّ هذه القوّة الهائجة، وقد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «لا یَعرِفُ الرَّأیُ عِندَ الغَضَبَ» «۲». ۲- إنّ الغضب یؤدّی إلی إضمحلال إیمان الشخص وتلاشیه، لا نّ الشخص عندما تمتلکه الحدّة فلا یرتکب الذنوب الکبیرة فقط بل یخرج من الإیمان أیضاً لأن هذه الحالة تتقاطع تماماً مع الإیمان الصحیح والعمیق، بل أحیاناً یتجرّأ هذا الشخص علی اللَّه تعالی أو یعترض علی حکمه وتقدیره للُامور، وهذه المرحلة من أخطر المراحل التی تمر بالإنسان فی حالة سورة الغضب. وقد قرأنا الأحادیث السابقة أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «الغَضَبُ یُفسِدُ الإیمانَ کَما یُفسِدُ الصَّبرُ العَسَلَ». ۳- إنّ الغضب یعمل علی تخریب منطق الإنسان وکلامه الموزون، ویقوده إلی التلفظ بالباطل والکلمات اللّامسؤولة، وعندما یستند الغاضب مسند القضاء فإنّ حکمه سیکون غیر سلیم قطعاً، ولذلک نقرأ فی الحدیث الشریف عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال: «شِدَّةُ الغَضَبِ تَغَیِّرُ المَنطِقَ وَتَقطَعُ مادَةَ الحُجَّةِ، وَتَفَرِّقُ الفَهمَ» «۳». وقد ورد التصریح فی آداب القضاء فی الکتب الفقهیة هذا المعنی أیضاً وأنّ القاضی لا ینبغی أن یجلس علی کرسی القضاء فی حالة الغضب. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۴۸ وقد ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قوله: «مَنْ ابتَلی بِالقَضاءِ فلا یَقضِی وَهُوَ غَضبان». ۴- والآخر من الآثار السلبیة لحالة الغضب هو إشهارها لعیوب الإنسان الخفیّة، لأنّ هذا الشخص فی حالاته العادیة یتحرّک من موقع السیطرة علی قواة النفسیة، فلا تتجلّی عیوبه ونقاط ضعفه للآخرین، بل تبقی مستورة ویحفظ بذلک سمعته وماء وجهه فی أنظار الناس، ولکن عندما تستعر فی نفسه نار الغضب، فإنّها تزیل السواتر والأقنعة عن واقع الإنسان وتکسر قیود العقل وتظهر عیوب صاحبها الخفیّة وتؤدّی إلی سقوط شخصیته ومکانته بین الناس. ولذلک ورد فی درر الحکم عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «بئسَ القَرینُ الغَضَبُ یُبدِی المَعایبَ وَیُدنِی الشَّرَّ وَیُباعِدُ الخَیرَ» «۱». ۵- إنّ الغضب بإمکانه أن یفتح طریق الشیطان للإنسان ویوقعه فی شراکه ومصائده، لأنّ الإیمان والعقل یعتبران مانعین مهمّین یصدّان هجمات الشیطان، ولکنّهما فی حالات الغضب سینکمشان ویدرکهما الضعف وعدم الحیلة وبذلک ترتفع الموانع أمام الشیطان لینفذ بسهولة ویصل إلی قلب الإنسان ویحکم سیطرته علی قواه، ویفعّل عناصر الشر فی نفسه وباطنه. ونقرأ فی الحدیث المعروف: «أنّ نوح علیه السلام لمّا دعی ربّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلی قَومِهِ أَتاهُ إبلِیسُ لَعَنَهُ اللَّهُ فَقالَ: یا نُوحُ إنَّ لَکَ عِندِی یَداً ارِیدُ أن اکافِیکَ عَلَیه، فَقالَ لَهُ نُوحٌ علیه السلام: إنَّهُ لَیبغَض إلیّ أن یَکُونَ لَکَ عِندِی یدٌ فَما هِی؟ قالَ: بلی دَعوتَ اللَّهَ عَلی قَومِکَ فَأَغرَقتَهُم فَلم یَبقَ أَحدٌ أَغویهِ فَأَنا مُستَریحٌ حتّی یَنسَقَ قرنٌ آخر وَاغویهِم، فَقال نُوحٌ علیه السلام: ما الّذِی تُرِیدُ أن تُکافِینِی بِهِ؟ قالَ: اذکُرنِی فِی ثَلاثِ مَواطِن فَإنّی أَقرَبُ ما أَکُونُ إلی العَبدِ إذا کان فی أحدهن: اذکُرنِی إذا غَضِبتَ، اذکُرنِی إذا حَکَمتَ بَینَ اثنَین، اذکُرنِی إذا کُنتَ مَعَ امرأَةٍ خالیاً لَیسَ مَعَکُما أَحدٌ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۴۹ ونقرأ فی حدیث آخر: «عَن ذی القَرنَین أنّه لَقی مَلَکاً مِنَ المَلائِکَةِ فَقالَ عَلِمنِی عِلماً أزدادُ بِهِ إیماناً وَیَقِیناً، قالَ: لاتَغضَبْ فإنَّ الشَّیطانَ أَقدَرُ ما یَکُونُ عَلی ابنِ آدمَ حِینَ الغَضَبِ» «۱». ولا شک أنّ الغضب مضافاً إلی هذه الآثار السیئة علی المستوی المادی والاجتماعی والأخلاقی فإنّه تترتب علیه آثار معنویة سیئة کثیرة أیضاً بحیث یستفاد من الروایات المختلفة أنّ الشخص الذی یسیطر علی غضبه ویکظم غیظه له ثواب الشهداء «۲» ویحشر یوم القیامة مع الأنبیاء «۳» ویملاء قلبه من نور الإیمان «۴».

أسباب ودوافع الغضب:

اشارة

إنّ الغضب باعتباره ظاهرة روحیة معقّدة له عوامل وأسباب مختلفة، ومعرفة هذه العوامل والدوافع ضروریة فی عملیة الوقایة من أخطار

هذه الحالة السلبية، ومن جملة العوامل والأسباب لتفعيل هذه الحالة فى نفس الإنسان وظهور آثارها السلبية الخطيرة هى:

۱- التسرع فى الحكم:

إنّ كل إنسان فى حياته الفرديّة والاجتماعية يسمع يومياً بعض الأخبار غير المسّرة وقد يحكم عليها مباشرة من موقع حالة الغضب المستعرة فى قلبه، وقد يتصرف تصّرفاً أحمقاً ويرتكب بعض الأعمال الخطيرة وما أكثر ما يتبيّن عدم صحة الخبر أو على الأقل عدم مطابقته للواقعيات تماماً لدى التحقيق والتأنّى، وبالتالى فلا مبرر له على الغضب والحدّة. أجل فإنّ التسرّع فى الحكم فى مثل هذه المسائل يعدّ عاملًا مهمّاً لبروز حالة الحدّة والغضب على طول التاريخ وترتّب العواقب الوخيمة عليه. وقد ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ طبائِعِ الجُّهالِ التَّسَرُّعُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۰ إِلى الغَضَبِ فِى كُلِّ حالٍ» «۱».

۲- ضيق الافق:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون سعة الصدر وكبر الروح وقوّةالشخصية وسعة الفكر فإنّهم يتحمّلون الحوادث الصعبة ويواجهون تحدّيات الواقع المرّة بكامل الوقار وحفظ النفس، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون ضيق الافق فإنّهم ينفعلون بأقل حادثة غير ملائمة وأحياناً يخرج زمام امورهم من أيديهم ويتصرّفون تصّرفاً طائشاً. والحديث الذى قرأناه آنفاً من أنّ سرعة الغضب والحدّة من أخلاق الجهّال هو إشارة إلى هذه الحقيقة أيضاً.

۳- التكبّر والغرور:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون روح التكبّر والغرور، ويرغبون دائماً فى أن يحفظ لهم الآخرون احترامهم ولا يتجاوزوا حدودهم ويقومون لهم حين دخولهم المجلس إكراماً لهم واحتراماً يرون لأنفسهم إمتيازات خاصة على سائر الناس، ولكن إذا لم يحصلوا على هذه التوقّعات ولم يجدوا فى الناس ذلك الأحترام والإكرام فسوف تتحرّك فيهم حالة الغضب والحدّة، فى حين أنّ عنصر الشر موجود فى باطنهم والعامل الأساس لشقائهم موجود فى ذواتهم ولا ذنب للآخرين. ونقل فى الرواية عن السيد المسيح عليه السلام ضمن بيانه لأسباب الغضب أنّه عدّ التكبّر والعجب والغرور من العوامل لذلك «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن السيد المسيح عليه السلام أيضاً أنّ الحواريين قالوا له: «يا مُعَلمَ الخَيرِ، عَلِّمنا أَىّ الأَشياءِ أَشَدُّ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَشَدُّ الأشياء غَضَبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالُوا: فَبِمَ يُتَّقى غَضَبُ اللَّه؟ قَالَ: بِأَنْ لا تَغضَبُوا. قَالُوا: وَما بِدؤ الغَضَبِ؟ قال عليه السلام: «الكِبرُ والتَّجَبُّرُ وَمَحقَرَةُ النّاسِ» «۳».

۴- الحسد والحقد:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون الحسد والحقد تجاه الآخرين فإنّ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۱ المواد الأولية لهذه الحالات الذميمة موجودة فى باطنهم كما يخزن البارود والديناميت فى مخازن ولا يحتاج إلّاإلى شرارة خفيفة من الخارج حتى ينفجر بركان الغضب ويستولى على جميع كيانهم، وفى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «الحِقدُ مَثارُ الغَضَبِ» «۱».

۵- الحرص وحبّ الدنيا:

إنّ الأشخاص الذين يهيمون بحبّ الدنيا ويملأ وجودهم الحرص على تحصيل زخارفها وزبارجها، فإنّهم لا يتحمّلون أن يجدوا أيّة

مزاحمـة وخسارة محتملـة لمنافعهم الدنيويـة، ولـذلك نجدهم يثورون لأتفه الأسـباب فيما لو تعرّضوا لبعض الخسائر الطفيفة، وبما أنّ الحياة الاجتماعيـة لا تخلو من أمثال هذه المزاحمات والمضايقات، بل يمكن القول أنّ هذه المزاحمات والمضايقات جزء من كل يوم من أيّام الـدنيا، ولـذلك نجـد مثـل هؤلاء الأشـخاص يعيشون الغضب والحـدّة باسـتمرار وفيما لو لم يسـتطيعوا إبراز غضـبهم في بعض الحالات فإنّ نار الغضب تستقر في ذواتهم وتحرق طاقاتهم الخيّرة وإمكاناتهم الإيجابيـة في عالم النفس. وكما ورد في ذيل الحـديث المذكور آنفاً عن السيد المسيح عليه السلام أنّه أشار إلى هذا العامل: «وَشِدَّةُ الحِرصِ عَلى فُضُولِ المَالِ وَالجاهِ».

علاج الغضب:

ونظراً إلى أنّ الآثار السـلبية والعواقب الوخيمـة لحالات الغضب والحـدّة كثيرة وخطرة جـدّاً وأحياناً تؤدّي إلى تدمير حياة الإنسان على كل المسـتويات والصـعد، لذلك كان من الضـروري بذل الجهد لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية، وإلّا فإنّ الندم ينتظر هؤلاء الأشـخاص، وقد ذكر كبار علماء الأخلاق في هذا الباب أبحاثاً مهمّة وكثيرة، والأهم من ذلك ما ورد من التعليمات الدينية في النصوص الإسلامية التي ذكرت إرشـادات مؤثّرة لإطفاء نار الغضب في واقع الإنسان، ونختار منها ما يلي: الاخلاق في القرآن، ج٣، ص: ٣٥٢ ١- أن يقوم الشـخص الحـاد المزاج بـالتفكّر بآثار الغضب السـلبّية وعواقبه السـيئة قبل أن تسـتعر نيران الغضب في قلبه وتلتهم كيانه، فيتحرك على مسـتوى التلقين والإيحـاء لها بأنّ الغضب هو في الحقيقـة نار يمكنها أن تأتي على الأخضـر واليابس وتحرق إيمانه وسـعادته ووجوده، وتسعّر غضب اللّه عليه في الدنيا والآخرة، وأنّ هذه الحالة الذميمة تبعد الناس من حوله وتفرّق عنه أصدقاءه وتكون ذريعة بيد أعدائه، وللغضب آثار وخيمة على أعصاب الإنسان ويؤدي إلى قصـر العمر ويهدد سلامة الشخص البدنية أيضاً، ويمنعه من الصعود في مدارج الكمال الـدنيوي والاخروي. بخلاف حالـة الحلم وسـعة الصـدر التي هي رمز موفقّيـة الإنسان وتقدّمه وتفوّقه وصـحّته الروحية والبدنية والتي تمنحه الإحترام والمودّة في قلوب النـاس وتوجب له رضـا اللّه تعـالى والإبتعاد عن الشـيطان، وكـذلك يتفكر في الثواب الإلهي لمن يعيش الحلم وسعة الصدر، والعقاب الإلهي المترتب على من يعيش الحدة وسرعة الغضب. وهذه الامور لا يتفّكر فيها الإنسان في حال الغضب فحسب بل عليه أن يتفّكر فيها قبل ذلك ويلقّن نفسه باسـتمرار لكي لا يتورّط في هـذه الحالـة الذميمـة. ٢- أن يفكّر في عواقب الغضب والحـدّة، وهـذه المسألة مجربة تماماً، وإذا لم يجرّبها الإنسان نفسه فقد جرّبها الآخرون وهي أنّ كل تصـميم على عمل معيّن يتّخذه الإنسان في حال الغضب فأنّه يكون زائفاً وسـخيفاً وغالباً ما يوجب له الندم، فما أحسن أن يتذّكر هذه العبارة المعروفة عن أحد العلماء، وهي أنّه في حالة الغضب لا ينبغي عليه التصميم ولا التوبيخ ولا العقوبة. ٣- ومن الطرق المهمّة لعلاج حالة الغضب والتي ورد التأكيـد عليها في الروايات الشـريفة هو (ذكر اللّه) وقـد ورد في بعض الروايات أنّ من ثارت فيه الحـدّة عليه بقول: «أعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيم» «١». الاخلاـق في القرآن، ج٣، ص: ٣٥٣ وورد في روايـة اخرى أن يقول في هـذه الحالـة: «لا ـ حَولَ وَلا ـ قُوَّةَ إلّاباللَّهِ العَلِّي العَظِيم» «١» ، لتهـدأ سورة الغضب في أعمـاقه. وجـاء في بعض الروايـات أيضـاً أنّه ينبغي أن يضع خـدّه على الأرض أو يسـجد للّه تعـالى. ويقول أبو سـعيد الخـدري نقلًا عن النبي الأكرم صـلى الله عليه و آله: «أَلا إنَّ الغضَبَ جَمرَةٌ فِي قَلبِ ابنِ آدمَ، أَلا تَرَونَ إلى حَمرَةِ وَانتفاخِ أَودَاجِهِ فَمَن وَجِـدَ مِنْ ذَلِکَ شَـيئاً فَليلصَقِ خَدَهُ بِالأرضِ» «٢». ومن المعلوم أنّ كل شـخص يسلك في حالة الغضب في خط العمل لهذه التوصـيات والتعليمات الدينية ويلتجأ إلى اللّه تعالى من شـرّ الشيطان فإنّ غضبه سيهـدأ قطعاً. ومعلوم أيضاً أنّ ذكر اللّه مؤثّر جدّاً في مثل هذه الأحوال، ولكنّ ذكر اللّه بالكيفية المذكورة آنفاً أكثر تأثيراً من علاج هذه الحالة. وقد أورد الشـيخ الحرالعاملي في كتـاب وسائـل الشـيعة باباً تحت عنوان (بـاب وجوب ذكراللّه عنـد الغضب) في أبواب جهـاد النفس، حيث يـدلّ على أهميّـة هـذا الموضوع بالـذات «٣» . ۴- تغيير الحالـة الفعليـة للشـخص إلى حالـة اخرى حيـث تكـون مـؤثرة في علاـج الغضب أيضـاً كمـا ورد في الروايـات الإسـلامية أنّ الشـخص إذا تملّكه الغضب وكـان جالساً فعليه أن يقوم، وإذا كان قائماً عليه أن يجلس، أو يعرض بوجهه عن مواجهـة الحـدث، أو يسـتلقي على الأرض، أو إذا أمكنه أن يبتعـد عن محل الحادثـة، أو يشـغل نفسه بأمر آخر. وهذا التغيّر في الحالة

الفعلية يوثر كثيراً فى تهدئة الغضب والحدّة فنقرأ فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قوله: «كانَ النَّبِيّ إذا غَضِبَ وَهُوَ قائِمٌ جَلَسَ وَإذا غَضِبَ وَهُوَ جالِسٌ اضطَجَعَ فَيَذهَبُ غَيضُهُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۴ وقد ورد فى بحار الانوار عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «وَأَيُّما رَجُلٍ غَضِبَ وَهُوَ قائِمٌ فَليَجلِس فَإِنَّهُ سَيَذهَبُ عَنهُ رِجزُ الشَّيطانِ وَإنْ كانَ جالِساً فَليَقُم» «۱». وجاء فى ذيل هذا الحديث الشريف أنّه إذا غضب الإنسان على أحد أرحامه فعليه أن يلمس بدنه ليثير فى نفسه عواطف الرحم ممّا يقوده إلى الهدوء وعودة حالته الطبيعية. ۵- الوضوء، أو شرب الماءالبارد وغسل الرأس والوجه، وكلّها تؤثر حتماً فى تهدئة الإنسان وزوال حالة الغضب عنه، بل ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا غَضِبَ أَحَدُكُم فَلَيَتوضأ» «۲». ويستفاد من هذا التعبير أنّ الوضوء مستحب فى حالات الغضب ومؤثر فى تسكينه وزواله. وقد ذكر العلّامة المجلسى قدس سره فى تحليله المختصر لهذا الحديث الشريف أنّ: «سَببُ الغَضَبِ الحَرارَةُ وَسَببُ الحَرارَةِ الحَرَكَةُ إذ قالَ صلى الله عليه و آله: إنَّ الغَضَبَ جَمرَةٌ تَتوقَدُ أَلَم تَرَ إلى انتِفاخ أَوداجِهِ وَحُمرَةُ عَينَيهِ؟ فإن وَجَدَ أَحِدُكُم مِنْ ذَلِكَ شَيئاً فَلَيَتوضأ بِالماءِ البارِدِ وَليَغسِل فَإنَّ النّارَ لايُطفِئُها إلّا الماءُ، وَقَد قالَ صلى الله عليه و آله: إذا غَضِبَ أَحَدُكُم فَليَتوضأ وَليَغتسلِ فَانَّ الغَضَبَ مِنَ النّارِ» «۳». فإذا عمل الإنسان على ضمّ هذه الامور العملية إلى ما تقدّم من ضرورة التفكّر فى الآثار الخطرة للغضب فى الدنيا والآخرة وما يترتب عليه من العقوبات الإلهية فإنّ ذلك من شأنه أن يطفأ نار الغضب بالتأكيد، ولكنّ المشكلة تبدأ من أنّ الإنسان، لا يرغب فى تغيير حالته والعمل بالتوصيات المذكورة لإزالة حالة الغضب عن نفسه، وحينئذٍ فالنجاة والخلاص من الآثار السلبية المترتبة على هذه الحالة الذميمة يكون عسيراً للغاية، بل غير ممكن أحياناً.

أقسام الغضب:

اشارة

إنّ حالة الغضب ليست سلبية دائماً، بل قد تترتب عليها آثار إيجابية على المستوى المادى والمعنوى فى حياة الإنسان وأحياناً تكون ضرورية ولازمة، وعليه يمكننا تقسيم الغضب إلى إيجابى وسلبى، أو ممدوح ومذموم، فإذا ضممنا إليها الغضب فى دائرة الالوهية تحصّلت لدينا ثلاثة أقسام للغضب:

۱- غضب اللَّه تعالى:

حيث ورد الحديث عنه فى الكثير من الآيات القرآنية الشريفة وخاصة بالنسبة إلى بنى اسرائيل حيث تشير الآيات إلى أنّ اللَّه تعالى غضب عليهم، بل ورد (المغضوب عليهم) حيث ذكر جماعة من المفسّرين أنّ المقصود بهذه العبارة هم بنو اسرائيل الفاسقون فى كل زمان ومكان حيث سوّدوا صفحة التاريخ البشرى بذنوبهم وأعمالهم الأثيمة. ولا شك أنّ الغضب بمعنى الانفعال النفسى المقترن مع حبّ الانتقام والذى يتجلّى فى ظاهر الوجه على شكل إحمرار الوجه وإحتقان الدم وأمثال ذلك لا يرد قطعاً فى مفهوم الغضب فى دائرة الالوهية، لأنّ اللَّه تعالى منزّه عن الجسم والجسمانية والتغير والتبدّل فى الحالات، فلا مفهوم لها بالنسبة إلى الذات المقدّسة، كما أنّ الانتقام بمعنى إرضاء حالة الغضب وتهدئة حرقة القلب الذى يصطلح عليه بالتشفّى المقترن مع تعذيب العدو وإلحاق الضرر به كذلك لا معنى ولا مفهوم بالنسبة إلى الذات الإلهية المقدّسة. ومن ذلك فإنّ المفسّرين ذهبوا إلى أنّ غضب اللَّه تعالى بمعنى إنزال العقوبة العادلة بالمذنبين والمجرمين فى الدنيا والآخرة. يقول الراغب فى مفرداته بصراحة: أنّه عندما يراد بالغضب صفة من الصفات الإلهية فإنّ المقصود هو الانتقام والعقاب من المجرمين. فقد أشارت الأحاديث الإسلامية أيضاً إلى هذا المعنى، كما نقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام عليه السلام الباقر عليه السلام عن سؤال حول غضب اللَّه تعالى ماذا يعنى؟ فقال: «غَضَبَ اللَّهُ تعالى عِقابَهُ يا عُمَرَو

«۱» مَنْ ظَنَّ يُغَيِّرُهُ شَىءٌ فَقَدْ كَفَرَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۶ وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ غضب اللَّه تعالى هوعقابه كما أنّ رضا اللَّه هو ثوابه (لا أنّ الغَضَبَ حالَةٌ نفسيّة فِى الذَّاتِ المُقَدَّسةُ تِقتَضِى التَّغَيُّرَ وَالتَّبدُّلَ الَّذى نَراهُ فِى صِفاتِ المُمكِناتِ). وخلاصة الكلام أنّ الآيات والروايات الشريفة التى تتحدّث عن غضب اللَّه وسخطه لا تتعلّق بحالة الغضب لدى المخلوقين ولا تشبهها بشكل من الأشكال، بل هى فى الواقع إنزال العقاب العادل فى حق المجرمين ولغرض تربية الإنسان وايصاله إلى كماله اللّائق.

۲- الغضب السلبى والمخرب،

الذى تقدّم البحث فيه بالتفصيل فى الاحاديث السابقة ورأينا الأضرار الكبيرة المترتبة على هذه الحالة النفسية وبحثنا أسبابها وطرق علاجها بما لا حاجة إلى توضيح أكثر.

۳- الغضب الإيجابى للإنسان:

ومعلوم أنّ هذه القوّة لدى الإنسان لم تخلق من دون غرض وحكمة، فلو تصوّر شخص أنّ هذه القوّة فد خلقها اللَّه تعالى وجعلها فى الإنسان لغرض التخريب والشر فإنّه لم يدرك جيداً حكمة اللَّه تعالى فى خلقه، وفى الحقيقة أنّ توحيده الأفعالى ناقص. فمن المحال أن يخلق اللَّه تعالى عضواً من أعضاء بدن الإنسان أو قوّة فى نفسه وروحه ليس لها فائدة ومنفعة فى حياة الإنسان ومن ذلك قوّة الغضب. عندما يعيش الإنسان حالة الغضب وتسيطر عليه هذه القوّة فإنّها تعمل على تعبئة جميع طاقاته وقواه الفكريّة والجسدية تجاه الخطر وأحياناً تتضاعف قدرته أضعاف ما كانت عليه فى الحالات العاديّة، والحكمة الوجودية لهذه الحالة فى الواقع هى الدفاع عن الإنسان ومنافعه فى نفسه وماله وعرضه تجاه الخطر وتحدّيات الظروف الخارجية، وهذه نعمة وموهبة إلهية كبيرة جدّاً. إننا نرى الحيوانات أو الطيور أيضاً عندما يشعرن بالخطر يتحرّكن ويلذن بالفرار بعيداً عن منطقة الخطر، ولكنّ هذه الحيوانات عندما يتعرّض أطفالهن إلى الخطر فإنّها تتصدّى إلى هذا الخطر وتدافع بنفسها عن أولادها ممّا يثير تعجّب الكثيرين، وأحياناً قد يرى طائر الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۷ جبان الخطر على فراخه فيهجم باتّجاه الخطر ويتصدّى إلى المهاجمين ويبعدهم عن أطفاله ويلحق بهم الهزيمة وحتى بعض الحيوانات كالقط إذا رأى نفسه محبوساً فى غرفة وتعرّض للهجوم فإنّه يتصدّى أيضاً للدفاع عن نفسه ويتبدّل إلى حيوان متوحّش وخطر حيث يهجم أحياناً على الإنسان ويلحق به أضراراً كثيرة. وعليه فإنّ قوّة الغضب هى فى الحقيقة قوّة مفيدة ومهمّة فى عملية الدفاع عن النفس وما يتعلّق بالإنسان من الامور المادية والمعنوية، ولذلك فهى ضرورية فى بقاء واستمرار الحياة وتكامل الإنسان بشرط أن تستخدم فى مكانها وفى الغرض التى خلقت لأجله بدون افراط وتفريط. ونقرأ فى الآيات والروايات الإسلامية موارد كثيرة تتحدّث عن الغضب المقدّس الإيجابى والغضب الإلهى كذلك، ومنها: ۱- نقرأ فى قصّة موسى عليه السلام أنّه عندما توجّه إلى جبل الطور لإستلام الوحى الإلهى والتوراة، فإنّ السامرى قد استغل هذه الفرصة فى غياب موسى عليه السلام وصنع العجل الذهبى لبنى اسرائيل ودعاهم إلى عبادته وقد أخبر اللَّه تعالى موسى عليه السلام بهذا الحدث العظيم وهو فى جبل الطور ممّا جعل موسى عليه السلام يغضب لذلك ويحزن ويعود إلى قومه وهو غارق فى الهم ويعتصره الألم، فألقى الألواح التى كتبت فيها التوراة والأحكام الإلهية وأخذ برأس أخيه وبلحيته موبّخاً إيّاه على تساهله مقابل ما صنعه السامرى من اضلال بنى اسرائيل وحتى أنّه وبّخه كما تقول الآية: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِى الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» «۱». هذه الحالة المثيرة والغضب الشديد الذى استعر فى قلب موسى عليه السلام تجاه ما صنعه بنو اسرائيل من عبادة العجل قد أثر أثره الكبير

فى قلوب اليهود وهزّهم من أعماقهم فانتبهوا من غفلتهم وأدركوا سوء تصرّفهم فى انحرافهم عن التوحيد وسلوكهم فى خط الشرك وعبادة الوثن. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۸ ومعلوم أنّ مثل هذا الغضب الشديد فى مقابل ظاهرة انحراف الناس وضلالهم هو من الغضب الإيجابى والبنّاء وله بعد إلهى فى حركة حياة الإنسان المعنوية. وهكذا الحال فى جميع أشكال الغضب لدى الأنبياء الإلهيين فى مقابل أقوامهم المنحرفين والضالّين. ومن اليقين أنّ موسى عليه السلام إذا كان قدواجه هذه الظاهرة من موقع برودة الأعصاب وعدم تثوير حالة الغضب فى نفسه فإنّ بنى اسرائيل يستوحون من هذا السلوك إمضاءاً وأعترافاً من موسى عليه السلام بأفعالهم وسلوكياتهم الخاصة، وبالتالى فإنّ مواجهة هذا الانحراف قد يكون مشكلًا فيما بعد، ولكنّ غضب موسى عليه السلام وهيجانه قد أثر أثره الإيجابى الكبير فى رجوع بنى اسرائيل عن خط الانحراف. ۲- ونقرأ فى سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه أحياناً يتملكه الغضب الشديد تجاه بعض الحوادث والوقائع بحيث تظهر آثار الغضب على محياه ووجه المبارك. من قبيل ما ورد فى قصّة صلح الحديبية أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد غضب بشدّة لبعض مقترحات (سهيل بن عمر) (وكيل قريش لعقد معاهدة الصلح مع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله) وكان غضبه حول بعض الموارد المقرّرة لمكتوب الصلح بين الطرفين بحيث ذكر المؤرّخون أنّ آثار الغضب ظهرت على وجهه وسيمائه (وهذا الأمر تسبب فى سحب سهيل اقتراحه وعدم ذكره فى بنود الصلح) «۱».
۲- وورد فى سيرة أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه غضب بشدة على أحد المسلمين الذى أضرّ بزوجته وهدّدها بالحرق، فما كان من الإمام على عليه السلام إلّاأن تأثر بشدّة لذلك وسحب سيفه على هذا الرجل وقال: «آمرُكَ بِالمَعرُوفِ وَأَنهاكَ عَنْ المُنكَرِ وَتَردُ المَعروفَ؟ تُب وَإلّا قَتَلتُكَ. (ولما علِم الشابُ أَنّه أميرالمؤمنين عليه السلام) قالَ: يا أَمِيرَالمُؤمِنِينَ اعفُ عَنِّى عفا اللَّهُ عَنكَ وَاللَّهِ لأَكُونَنَ أَرضاً تَطأنى، فَأَمرها بِالدُخُولِ إلى مَنزِلِها وانكفأ وَهُو يَقُولُ: لاخَيرَ فِى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۵۹ كَثِيرٍ مِنْ نَجواهُم إلّامَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعرُوفٍ أو إِصلاحٍ بَينَ النَّاسِ» «۱». ومن اليقين أنّ مثل هذ الغضب مقدّس وإلهى حيث يوثّر كثيراً على مستوى سوق الشخص المذنب بإتّجاه الحق والعدالة والسير فى خط الإيمان. ۴- ونقرأ فى حالات أبى ذر رضى الله عنه عندما لم يتحمل عثمان أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر أمر بتبعيده ونفيه إلى صحراء الربذة فى أسوأ الظروف والحالات، فما كان من الإمام على عليه السلام إلّاأن حضر لتوديعه وقال له: «يا أَبا ذَر إِنَّكَ غَضِبتَ لِلَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فَارْجُ مَنْ غَضِبتَ لَهُ إنَّ القَومَ خافُوكَ عَلى دُنياهُم وَخِفتَهُم عَلى دِينِكَ، فَاترُكْ فِى أَيدِيهِم ما خافُوكَ عَلَيهِ وَاهرُب مِنهُم بِما خِفتَهُم عَلَيهِ» «۲». وبديهى أنّ غضب أبى ذر رضى الله عنه كان بالنسبة إلى مايراه من التلاعب بأموال المسلمين وبيت المال وما يشاهده من الظلم والجور بحق سائر المسلمين فإنّ مثل هذا الغضب يقع فى دائرة الغضب الإلهى المقدّس. وفى كلام آخر لأبى ذر رضى الله عنه أيضاً عندما أمر معاوية بنفيه عن الشام وابعاده عنه لشدّة انتقاداته اللاذعة وجرأته وشجاعته فى اللَّه حيث خاف معاوية على مقامه وسمعته بين أهل الشام، فما كان من أبى ذر رضى الله عنه إلّاأنّ خاطب المسلمين من أهل الشام الذين جاءوا لتوديعه وقال: «أَيُّها النّاسُ إجمَعُوا مَعَ صَلاتِكُم وَصَومِكُم غَضَباً للَّهعَزَّ وَجَلَّ إذا عُصِىَ فِى الأَرضِ» «۳». ۵- ونقرأ فى حديث شريف عن سيرة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام عندما جاء إلى والى المدينة الوليد بن عتبة: «فَقَد كانَتْ بَينَ الحُسينِ عليه السلام وَبَينَ الوليد بن عَقبةِ مَنازَعَةٌ فِى ضَيعَةٍ فَتَناوَلَ الحُسَينِ عليه السلام عَمامَةَ الوليدِ عَنْ رَأسِهِ وَشَدَّها فِى عُنقِهِ وَهُوَ يَومَئِذٍ والِ عَلَى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۰ المَدينَةِ، فَقالَ مَروانُ: بِاللَّهِ ما رَأَيتُ كَاليَوم جُرأَةَ رَجُلٍ عَلى أَمِيره، فَقالَ الوَلِيدُ: وَاللَّهِ ما قُلتَ هذا غَضَباً لِى وَلَكِنَّكَ حَسَدتَنِى عَلى حَلمِى عَنهُ وَإنّما كَانَتِ الضَّيعَةُ لَهُ، فَقالَ الحُسَينُ عليه السلام: الضَّيعَةُ لَكَ يا وَلِيدُ وَقامَ» «۱». وهذه إشارة إلى أنّ غضبه عليه السلام لم يكن للدنيا وحطامها بل لإثبات عجز الوليد عن فرض رأيه بالقوة. ۶- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عندما بعث بمالك الأشتر والياً على مصر فارسل معه كتاباً إلى أهل مصر يقول فيه: «مِنْ عَبدِاللَّهِ عَلىِّ أَمِيرِالمُؤمِنِينَ عليه السلام إلَى القَومِ الَّذِينَ غَضِبُوا للَّهِ حِينَ عُصِىَ فِى أَرضِهِ وَذُهِبَ بِحَقِّهِ» «۲». ۷- وورد فى بعض الأحاديث الشريفة أنّ اللَّه تعالى أوحى لأشعياء النبى عليه السلام: «إِنِّى مُهلِكٌ مِنْ قَومِكَ مائَةَ أَلفٍ، أَربَعِينَ أَلفاً مِنْ شِرارِهِم وَسَتِّينَ أَلفاً مِنْ خيارِهِم، فقالَ عليه السلام: هَؤلاءِ الأَشرارِ فما بالُ الأَخيارِ؟ فَقالَ: داهَنُوا أَهلَ المَعاصِى فَلَم يَغضَبُوا لِغَضَبِى»».

هذه وأمثالها من الروايات الواردة فى المصادر الإسلامية غير قليلة وتتحدّث جميعها عن الغضب المقدّس الذى يكون للّهتعالى وللدفاع عن الحق مقابل الظالمين وقوى الانحراف وأصحاب البدع والضلالة. أمّا الفرق بين الغضب المقدّس والمذموم هو أولًا: إنّ الغضب المقدّس يقع تحت سيطرة العقل والشرع ولا يتجاوز هذه الدائرة ويكون بهدف تعبئة جميع قوى الإنسان لمواجهةالعمل المنكر الذى يراد ارتكابه لمنع وقوعه وارتكابه، وأمّا الغضب الشيطانى فإنّه ليس فقط لا يقع تحت دائرة العقل والشرع، بل يكون بوحى من الأهواء والشهوات والنوازع الذاتية التى تقود الإنسان فى خط الانحراف والباطل. ثانياً: إنّ الغضب المقدّس يتّجه لتحقيق أهداف مقدّسة ويتقارن مع المنهجية والنظم فى دائرة السلوك والعمل، فى حين أنّ الغضب المذموم والشيطانى لا يهدف إلى تحقيق شىء مفيد ومقدّس ويفتقد كذلك إلى البرمجة والنظم. ثالثاً: إنّ الغضب المقدّس له حدود معيّنة لا يتجاوز عنها، فى حين أنّ الغضب الشيطانى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۱ لا يعرف حدّاً معيّناً، وعلى سبيل المثال يمكننا بيان ما تقدّم من الفرق بين هذين النحوين من الغضب بالقول بأنّ الغضب المقدّس حاله حال السيل النازل من الجبال والمجتمع خلف السد حيث يتمّ الإستفادة منه بشكل منظّم ومحسوب، مياهه تجرى فى قنوات خاصة وتتسبب فى عمران المنطقة وزيادة البركة والخير العميم، فى حين أنّ الغضب الشيطانى حاله حال السيول المخرّبة التى تسيل من الجبال ولا تجد أمامها مانعاً من الموانع وبالتالى فإنّها تدّمر كل شىء تجده أمامها. ونختم هذا الحديث بكلام عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إِنَّما المُؤمِنُ الَّذِى إِذا غَضَبَ لَم يَخرُجهُ غَضَبُهُ مِنْ الحِقِّ وَإِذا رَضِىَ لَم يَدخُلهُ رِضاهُ فِى باطِلٍ» «۱».

الحلم وسعة الصدر:

النقطة المقابلة لحالة الغضب والحدّة المذمومة هى الحلم وضبط النفس وسعة الصدر كما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام عندما سئل عن معنى الحلم فقال: «كَظمُ الغَيظِ وَمِلكُ النَّفسِ» «۲» ، ومن علاماته حسن التعامل مع الناس والمعاشره بالمعروف مع الآخرين كما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «لَيسَ بِحَليمٍ مَنْ لَمْ يُعاشِرِ بِالمَعرُوفِ مَنْ لابُدَّ لَهُ مِنْ مُعاشَرَتَهُ» «۳». أمّا الأشخاص الذين يتحلّمون بسبب عجزهم وعدم قدرتهم على إشهار الغضب وممارسته فهم يفتقدون فى الواقع لفضيلة الحلم وسعة الصدر، لأنّهم كلّما وجدوا القدرة على ممارسة غضبهم وإخراجه إلى دائرة العمل يتحرّكون فوراً للإنتقام من الطرف الآخر كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «لَيسَ الحَلِيمُ مَنْ عَجَزَ فَهُجِمَ وإِذا قَدَرَ إِنتَقَمَ إِنَّما الحَلِيمُ مَنْ إِذا قَدَرَ عَفى «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۲ وعلى أية حال فإنّ الحلم وضبط النفس يعدّ من أفضل وأكرم القيم الأخلاقية وخاصة للرؤساء والمدراء والأولياء على العوائل حيث يتسبب فى تكاملهم المعنوى وقوّة مديريّتهم وجذب القلوب إليهم وبالتالى بإمكانه أن يحل لهم الكثير من المشكلات ويهوّن عليهم المصاعب، أمّا بالنسبة إلى أهميّة هذه الفضيلة الأخلاقية فنختار فى هذا المضمون عدّة روايات واردة فى هذا الباب: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَلا اخبِرُكُم بِأشبَهَكُم بِى أَخلاقاً؟ قالُوا: بَلى يا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: أَحسَنَكُم أَخلاقاً وَأَعظَمَكُم حِلماً وَأَبَرَّكَمُ بِقَرابَتِهِ وَأَشَدَّكُم إِنصافاً مِنْ نَفسِهِ فِى الغَضَبِ وَالرِّضا» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً قوله: «ما جُمِعَ شَىٌّ إِلى شَىٍّ أَفضَلَ مِنْ حِلمٍ إِلى عَلمٍ» «۲». ۳- وورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَشجَعُ النَّاسِ مَنْ غَلَبَ الجَهلَ بِالحِلمِ» «۳». ويشبه هذا المعنى ما ورد أيضاً عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «أَقوَى النّاسِ مَنْ قَوى عَلى غَضِبِهِ بِحِلمِهِ» «۴». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ أَفضَلَ أَخلاقِ الرِّجالِ الحِلمُ» «۵». ۵- وفى حديث شيّق عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِنَّ المُؤمِنَ لَيُدرِكَ بِالحِلمِ واللِّينِ دَرَجَةَ العابِدِ المُتَهَجِّدِ» «۶». وهذا تعبير فى الحديث الشريف يبيّن بوضوح أنّ الحلم وضبط النفس يعدّ من العبادات الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۳ المهمّة فى دائرة القرب الإلهى. ۶- وجاء فى حديث آخر عميق المعنى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مِنْ أَحَبَّ السَّبِيلِ إِلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جُرعَتانِ جُرعَةَ غَيظٍ تَرُدُها بِحِلمٍ وَجُرعَةُ مُصِيبَةٍ تَرُدُّها بِصَبرٍ» «۱». ۷- وسمع

الإمام على عليه السلام يوماً رجلًا يشتم خادمه قنبر وكأنّ قنبر أراد أن يجيبه فقال له الإمام: «مَهلًا يا قَنبَر، دَع شاتِمَكَ، مُهاناً، تَرضى الرَّحمنَ، وَتُسخِطُ الشَّيطانَ، وَتُعاقِب عَدوَّكَ،، فَوَ الَّذِی خَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرءَ النَّسَمَةَ ما أَرضى المُؤمِنُ رَبَّهُ بِمِثلِ الحِلم، وَلا أَسخَطَ الشَّيطانَ بِمثلِ الصَّمتِ، وَلا عُوقِبَ الأَحمَقُ بِمثلِ السُّكُوتِ عَنهُ» «۲». ۸- وورد عن النبی الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ كَظَمَ غَيظاً وَهُوَ قادِرٌ عَلى إِنفاذِهِ وَحَلُمَ عَنهُ أَعطاهُ اللَّهُ أَجرَ شَهِيدٍ» «۳». ۹- وورد فی حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ أباه على بن الحسين عليه السلام قال: «إِنَّهُ لَيُعجِبُنِی الرَّجُلُ أَنْ يُدرِكَهُ حِلمُهُ عِنَدَ غَضَبِهِ». ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام (رغم وجود روايات كثيرة فی هذا الباب) ورد فی هذا الحديث عن حفص ابن أبی عائشة قال: بعث أبو عبداللَّه عليه السلام (الصادق) غلاماً له فی حاجة فأبطأ، فخرج أبوعبداللَّه عليه السلام على أثره لمّا أبطأ، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروّحه حتّى انتبه، فلمّا تنبّه قال له أبو عبداللَّه: «يا فلان واللَّهِ ما ذَلِكَ لَكَ، تَنامُ اللَّيلَ وَالنَّهار، لَكَ اللّيلُ وَلَنا مِنكَ النّهارُ» «۴». هذا السلوكالممعن فی المحبّة والتواضع والحلم للإمام عليه السلام يمكنه أن يكون اسوة للأشخاص الذين يعيشون حالة الغضب والحدّة وأنّهم فی مثل هذه الموارد عليهم أن يسدلوا الستار على غضبهم ويسلكوا طريق الحلم وضبط النفس. وهنا ينبغی استعراض بعض الامور المهمّة فی هذا الباب: ۱- إنّ الحلم وضبط النفس له آثار إيجابية كثيرة فی حياة الناس على المستوى الفردی والاجتماعی، ومن ذلك: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۴ إنّه يحفظ الإنسان من أخطار الغضب التی قد تدمّر حياته وتجعله يعيش الندم إلى آخر عمره. والآخر أنّ الحلم يورث الإنسان العزّة وقوّة الشخصية والشرف، لأنّ جميع الناس يرون أنّ الحلم وضبط النفس فی مقابل الأشخاص الجهلاء والحاقدين دليل على عظمة النفس وقوّة الشخصية ورجحان العقل، ولذلك ورد فی بعض الروايات عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «مَن حَلُمَ سادَ» «۱». مضافاً إلى ذلك أنّ الحلم فی مقابل الجهلاء يتسبب فی أنّ الناس يهرعون لنصرة الحليم ضدّ الجاهل، ولهذا ورد فی الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ أَوّلُ عِوَضِ الحَليمِ مِنْ خِصلَتِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلُّهُم أَعوانُهُ عَلى خَصمِهِ» «۲». ومضافاً إلى أنّ الحلم يورث الإنسان العزّة وماء الوجه فی حين أنّ الغضب العجين بالجهل يتسبب فی إراقة ماء الوجه وهتك حرمة الإنسان، كما ورد فی الحديث الشريف عن النبی الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ما عَزَّ اللَّهُ بِجهلٍ قَطُّ وَلا أَذَلَّ بِحلمٍ قَطُّ» «۳» والخلاصة أنّ فضيلة الحلم وضبط النفس وسعة الصدر لها بركات وإيجابيات كثيرة فی حياة الإنسان، وأفضل ما قيل فی هذا الباب ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَأَمّا الحِلمُ فَمِنهُ رُكُوبُ الجَمِيلِ، وَصُحبَةُ الأَبرار، وَرَفعٌ مِنَ الضِّعَةِ، وَرَفعٌ مِنَ الخَساسةِ وَتَشَهِّی الخَيرِ، وَيُقَرِّبُ صاحِبَهُ مِنْ مَعالِی الدَّرَجاتِ، وَالعَفوَ وَالمَهلِ وَالمَعرُوفِ والصَّمتِ، فَهذا ما يَتَشَعَّبُ لِلعاقِلِ بِحِلمِهِ» «۴». ۲- إنّ الحلم وضبط النفس حاله حال سائر الصفات الأخلاقية للإنسان من حيث الدوافع والأسباب المتعددة التی تقود الإنسان باتّجاه هذه الفضيلة، ويمكننا استعراض بعض هذه الأسباب والدوافع: الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۵ الف) إنّ التسلط على النفس وضبط القوى والنوازع النفسية يتسبب فی أن يصمد الإنسان أمام المصاعب والأزمات فلا ينهار أمامها، وبالتالی لا يخضع أمام قوّة الغضب والانفعال، كما ورد عن الإمام على عليه السلام فی تعريف الحلم الإشارة إلى هذا المعنى حيث قال: «كَظمُ الغيظِ ومِلكُ النَّفسِ» «۱». ونفس هذا المعنى ورد أيضاً عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام «۲». ب) ومن الامور التی تمنع الإنسان من الانهيار والخضوع أمام الغضب وتقوّی فی واقعه فضيلة الحلم هوعلو الطبع وعلو الهمّة وقوّة الشخصية فی الإنسان والتی لا تدعه يواجه الغضب والحدّة من موقع الانفعال ويسلك سلوك الجهلاء كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «الحِلمُ وَالأَناةُ تَوأَمانِ يَنتُجُهُما عُلوُ الهِمَّةِ» «۳». ج) ومن الأسباب الاخرى فی تقوية هذه الفضيلة الأخلاقية فی واقع الإنسان وقلبه هوالإيمان باللَّه تعالى والتوجّه إلى الذات المقدّسة من موقع الذوبان فی صفاته وأسمائه الحسنى ومنها صفة الحلم الإلهی مقابل العصاة والمجرمين من عباده كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الحِلمُ سِراجُ اللَّهِ يَستَضِیء بِهِ صاحِبُهُ إِلى جَوارِهِ وَلا يَكُونُ حَليماً إِلّا المَؤيَّدُ بِأَنوارِ اللَّهِ وَبِأَنوارِ المَعرِفَةِ وَالتَّوحِيدِ» «۴». د) ومن العوامل الاخرى لتفعيل هذه الفضيلة هو مطالعة آثارها الإيجابية ونتائجها الحميدة على حياة الإنسان وكذلك مطالعة الآثار السلبية للغضب والحدّة بإمكانه الحدّ من قوّة هذه الحالة النفسية والتقليل من أضرارها، كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «الحِلمُ نُورُ جُوهَرَهُ

العَقلَ» «۵». وقال علیه السلام أیضاً فی حدیث آخر: «بِوُفُورِ العَقلِ یَتَوَفَّرُ الحِلمُ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۶ ونقرأ أیضاً فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام قوله: «عَلَیکَ بِالحِلمِ فَإِنَّهُ ثَمَرَةُ العِلمِ» «۱». ۳- موارد الاستثناء، رغم أنّ الحلم یعدّ من الفضائل الأخلاقیة البارزة فی حیاة الإنسان وسلوکه، ولکن هناک بعض الموارد فی حرکة التفاعل الاجتماعی لا یکون فیها الحلم فضیلة أخلاقیة، ومثل هذه الاستثناءات موجودة فی سائر الفضائل الأخلاقیة أیضاً، مثلًا فی الموارد التی یتسبب فیها الحلم وضبط النفس زیادة الجرأة لدی الجهلاء والمتعصبین الذین یستغلون الخُلق السامی لدی الطرف الآخر فیتعاملون معه من موقع العقدة والخصومة وزیادة العدوان، فهنا یکون الحلم غیر مؤثّر فی التأثیر علی الجاهل الجاهل بل ینبغی استعمال طرق اخری لإسکاته وکبح جماحه وردعه عن غیّه. وکذلک فی الموارد التی یؤدّی فیها الحلم إلی الإضرار بالمجتمع أو بالمذهب والدین فهنا من الخطأ استخدام صفة الحلم وسعة الصدر والسکوت. وکذلک من الموارد الاخری هو ما إذا کان سلوک طریق الحلم یحسب من علامات الضعف والذلّة فی صاحبه. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۷

العفو والانتقام

تنویه:

إنّ من أکبر الفضائل الأخلاقیة التی لا یصل الإنسان إلی مراتب الکمال بدونها هی صفة العفو والصفح عند القدرة علی الردّ العملی علی الطرف المقابل وترک الانتقام منه. إنّ الکثیر من الناس یعیشون حالة الحقد الکامن فی قلوبهم وأعماقهم وینتظرون الفرصة السانحة للانتقام من عدوّهم والظفر به، فلا یتحرّکون فی خط الرد بالمثل وجواب السیئة بالسیئة فقط، بل یردون السیئة الواحدة بأضعافها من السیئات والأعمال الانتقامیة، والأسوأ من الجمیع أنّ هذه الصفة الرذیلة تتجلّی بمظهر الصفة الحسنة التی تبعث علی الفخر والاعتزاز فیقول الإنسان إننی قد ظفرت بعدوّی وأذقته العذاب الشدید وفعلت معه کذا وکذا. إنّ التاریخ البشری ملیء بحالات الانتقام والقسوة من قبل السلاطین والامراء ورؤساء القبائل لأقوامهم أو لأقوام اخری من أعدائهم. والعجیب هو أنّ حالات الانتقام هذه تتشابک مع بعضها بصورة سلسلة وحلقات متوالیة، فعلی سبیل المثال أنّ إحدی القبائل تقوم بقتل شخص من القبیلة الاخری، فتقوم قبیلة المقتول عند توفّر الفرصة بالثأر لنفسها وتقتل خمسین شخصاً من القبیلة الاخری وهکذا الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۶۸ یستمر النزاع والصراع وسفک الدماء. إنّ أشکال النهب والسلب وهتک النوامیس والأعراض والقتل الفجیع فی التاریخ البشری معلول لهذه الصفة الخبیثة والذمیمة فی أعماق البشر وتمتد إلی ذواتهم الحیوانیة وعناصر الشر فیهم. وبعکس ذلک ما نجده فی سیرة الأنبیاء والأولیاء هو أنّهم عندما تسنح لهم الفرصة ویتغلّبون علی عدوهم فإنّهم یتحرّکون من موقع العفو والصفح عن جرائمه السابقة وبذلک یعملون علی تبدیل أشدّ الأعداء إلی أقرب الأصدقاء. إنّ مثل هذه الشخصیات الفذّة فی التاریخ البشری لا یعیشون حالة الرغبة فی الثأر لأنفسهم والانتقام من عدوّهم وغسل الدم بالدم (إلّا فی الموارد الاستثنائیة) والردّ بالسیئة بمثلها، بل علی العکس من ذلک کانوا یتحرّکون ما أمکنهم علی مستوی جواب السیئة بالحسنة، لأنّ هدفهم تربیة النفوس وتهذیبها والسیر بها فی خط الصلاح والإیمان والهدایة لا فی خط الانتقام، ولذلک کانوا یهدفون إلی إطفاء الفتنة لا إشعال نار جدیدة. ولکن من الیقین أنّ مثل هذا السلوک الإنسانی لا یتسنی من أیّ شخص کان، بل یختص به الأشخاص الذین یعیشون الإیمان والتقوی والتسلّط علی النفس فی أعلی مستویاته، إنّه عمل الأشخاص الذین یعیشون الفضیلة والأخلاق السامیة، وإلّا فانّ من یعیش التوحش والقساوة فی قلبه لا یعرف سوی الانتقام ولا یفتخر إلّابالثأر لنفسه. وأمّابالنسبة إلی الآیات القرآنیة والروایات الإسلامیة فنجدها ملیئة فی بیان فضیلة العفو والصفح وذم روح الانتقام والثأر، والشاهد علی ذلک ما نقرأه فی سیرة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السلام فی هذا الباب، ونموذج لذلک ما ورد فی قصّة فتح مکّة والعفو العام الذی أصدره النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عن أعدائه الشرسین

والحاقدين. ومع هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دروساً فى العفو والصفح أو ما ورد فيه من ذم غريزة الانتقام والثأر (والجدير بالذكر أنّ مفردة (الانتقام) لم ترد فى القرآن الكريم بالمعنى المذكور آنفاً، بل بمعنى العقاب الإلهى، ولذلك فكل مورد وردت فيه هذه الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۶۹ الكلمة فإنّه يراد بها ما ينسب إلى اللَّه تعالى من العقاب على المجرمين ولا يرتبط ببحثنا الحاضر): ۱- «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ» «۱». ۲- «وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۲». ۳- «خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» «۳». ۴- «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» «۴». ۵- «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» «۵». ۶- «وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۶». ۷- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ»» .۸- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۸». ۹- «إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً» «۹». ۱۰- «وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» «۱۰».

تفسير واستنتاج:

تتعرض «الآية الاولى» من الآيات محل البحث إلى الحديث عن مسألة المقابلة بالمثل وجزاء السيئة بالسيئة وأنّ ذلك من حق المؤمنين (لكى لا يرى المعتدى والمجرم نفسه فى أمن من العقاب) ثمّ أشارت الآية إلى مسألة العفو والصفح وترك الانتقام وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ». ونظراً إلى أنّ سورة الشورى من السور التى نزلت بأجمعها فى مكّة المكرّمة، ونعلم أنّ المسلمين فى ذلك الزمان كانوا فى دائرة العدوان الواسع الموجّه إليهم من قبل الأعداء المشركين، ومع ذلك فالقرآن الكريم فى الآية ۳۹ من هذه السورة يأمر المسلمين أن لا يستسلموا فى مقابل الظلم والعدوان، وعندما يواجهون حالة الظلم هذه فعليهم أن يستمدّوا العون من إخوانهم ويتكاتفوا فيما بينهم لردع هذا العدوان، ثم يشير فى الآية ۴۰ إلى هذه الحقيقة، وهى أنّه لا ينبغى أن يتحرّكوا من موقع الانتقام والثأر بسبب ما يرونه من العدوان على بعض أصدقائهم ورفاقهم وبالتالى يتجاوزون الحدّ بالردّ بالمثل فيكونون فى صف الظالمين أيضاً، وعليهم كذلك أن يتخذوا العفو والصفح سلوكاً إنسانياً لهم فيما لو لم يترتب عليه آثار سيئة. أمّا المراد من كلمة (وأصلح) فى هذه الآية والتى وردت بعد كلمة العفو، فالمفسّرون ذهبوا إلى تفسيرات متعددة، فبعض ذهب إلى أنّ المراد من الإصلاح هوالإصلاح بين الإنسان وربّه، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد به الإصلاح بين المظلوم والظالم حتّى لا تتكرّر هذه القضيّة بينهما مرّة اخرى، وذهب ثالث إلى أنّ المراد به هو إصلاح النفس وتطهيرها من أدران الانتقام وشوائب الغضب والتوتر الذى تفرضه حالات الصراع مع الطرف الآخر، وذهب بعض إلى أنّ معناه ترك القصاص. ولا يبعد أن يراد بهذه الكلمة جميع هذه المعانى التى ذكرت فى تفسيرها، وعلى أيّة حال فإنّ الآية تبيّن بوضوح هذه الحقيقة، وهى أنّ العفو والإصلاح الذى يأتى بعده بإمكانه أن يقلع جذور الحقد من قلوب الناس، وعبارة (فأجرُهُ عَلى اللَّهِ) بشكل مطلق وبدون تعيين الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۱ حدود لهذا الأجر حتّى الجنّة أيضاً يدلّ على أنّ هذا الأجر والثواب إلى درجة من العظمة والسعة أنّه لا يعلم مقداره إلّااللَّه تعالى. أمّا «الآية الثانية» فناظرة إلى حادثة الإفك التى وقعت فى صدر الإسلام، يعنى ما قام به بعض المنافقين من إتّهام إحدى زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بما ينافى العفة ولغرض الخدشة فى شخصية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وموقعيّة الإسلام، فتشير الآية الشريفة إلى أنّ مسألة العفو والصفح مطلوبة فى كل الأحوال حتّى تجاه المذنبين والملوّثين، لأنّ هذه الآية نزلت عندما أقسم بعض الصحابة بعد قضية الإفك أنّهم لن يساعدوا أى شخص من الأشخاص الذين اشتركوا فى هذه الواقعة، فمنعتهم عن استخدام أدوات العقاب

وأمرتهم بالعفو والصفح تجاه هؤلاء الخاطئين وقالت: «وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ». ثمّ تضيف الآية: إنّ على المؤمنين أن يسلكوا طريق العفو والصفح وتقول: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، فى حين أنّكم تأملون من اللَّه الرحمة والمغفرة، فكذلك عليكم أن تسلكوا هذا الطريق تجاه الآخرين: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فيغفر لكم أيضاً ويرحمكم. والملاحظة الملفتة للنظر هنا أنّ قضية الإفك كانت بمثابة مؤامرة خطيرة استهدفت الإسلام وشخصية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث تبنّى هذه المؤامرة جماعة من المنافقين، ولكنّ بعض المسلمين الغافلين إنخدعوا بهذه الحيلة وتورّطوا فى هذا الإثم، ورغم ذلك فالقرآن الكريم يوصى المؤمنين بالعفو والصفح عن هؤلاء الغافلين الذين تورّطوا بهذه المؤامرة من موقع الجهل لا ـ من موقع الخبث والحقد والنفاق، وعليه فبالنسبة إلى المسائل الشخصية والامور الخاصة بالأفراد فالعفو يكون بطريق أولى. أمّا الفرق بين (العفو) و (الصفح) فيقول الراغب فى مفرداته، إنّ العفو بمعنى المغفرة والصفح ترك اللّوم والتوبيخ والذى هو مرحلة أعلى من العفو، لأنّه يمكن أن يعفو الإنسان الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۲ عن الطرف المقابل إلّاأنّه لا يترك لومه وتوبيخه أو معاتبته، ولكن بما أنّ الصفح فى اللغة يعنى الإعراض بالوجه عن الإنسان المذنب فيمكن أن يكون إشارة إلى لزوم تناسى ذنب المذنب ووضعه فى زاوية الإهمال والغفلة ولا يكتفى بترك اللّوم فقط، أى أنّ لا يترتّب أى أثر سلبى على العلاقة بين الطرفين. وهنا ملاحظة مهمّة اخرى وهى أنّ هذه الطائفة من المؤمنين أقسموا على أن لا يمدّوا يد العون لجميع المتورّطين فى قضيّة الافك، أى أن قسمكم بالنسبة إلى مثل هذه الامور لا أثر له على مستوى العمل والممارسة لأنّه لا يقع فى دائرة التكليف بالنسبة إلى الامور الخيّرة. «الآية الثالثة» تأمر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأوامر أخلاقية ثلاثة ويتّضح منها تكليف الآخرين أيضاً وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ». هذه التعليمات الثلاثة التى وردت فى الآية الشريفة بمثابة أوامر صادرة من اللَّه تعالى إلى نبيّه الكريم باعتباره قائداً للُامّة واسوة حسنة لسائر المسلمين وبذلك توضّح فى مضمونها أهميّة العفو والصفح فى دائرة المسؤولية الملقاة على عاتق القادة الإلهيين، فالأمر الأوّل من هذه الأوامر الإلهية هو الأمر بالعفو والصفح، والأمر الثانى إشارة إلى أنّ على القائد أن لا ـ يحمّل الناس ما فوق طاقتهم وقدرتهم وأن لا ـ يطلب منهم سوى المعروف الممكن، وفى الأمر الثالث نجد التوصية بأهمال الكلمات اللامسؤولة الصادرة عن الجاهلين والمخالفين وعدم ترتيب الأثر على مزاحماتهم وما يرتكبونه تجاه أتباع الحق من ممارسات سلبية وكلمات شائنة. إنّ القادة الحقيقيين والسالكين طريق الحق يواجهون فى مسيرتهم الإلهية الكثير من الأفراد المتعصّبين والجاهلين والمعاندين الذين لا يجدون فرصة فى الوقيعة بأصحاب الحق وإيجاد الأذى والضرر بهم إلّاواستغلّوها، فالآية أعلاه وكذلك الكثير من الآيات القرآنية الاخرى تؤكّد على المؤمنين السالكين فى خط اللَّه والتقوى أن يجنّبوا أنفسهم الصراع مع هؤلاء وأنّ الأفضل لهم التعامل مع مثل هذه المسائل من موقع اللاّمبالاة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۳ والإهمال والإعراض، والتجربة العملية تشير إلى أنّ أفضل طريق لإيقاظ هؤلاء من غفلتهم وإطفاء نار غضبهم وصدهم وتعصّبهم هو هذه الطريقة فى التعامل معهم من موقع قوّة الشخصية وكبر النفس. وقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه عندما نزلت هذه الآية الشريفة سأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جبرائيل عن ذلك فقال: لا ـ أدرى حتّى أسأل العالم، ثمّ أتاه فقال: «يا مُحمَّد إنّ اللَّهَ يَأمُرُكَ أنْ تعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتُعطِى مَنْ حَرَمَكَ وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ» «۱». وينطلق الحديث فى «الآية الرابعة» ليخاطب جميع المسلمين ويأمرهم بأنّهم إذا أرادوا التعامل بالمثل مع الأعتداء الموجّه من الآخرين ويعاقبوا عليه فعليهم أن لا يتجاوزوا المقدار المشروع وهو مقدار المثل فقط لا ـ أكثر، ولكنّهم إذا التزموا جانب البر والعفو والصفح فإنّ ذلك أفضل من الحل السابق وتقول الآية: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». وقد ورد فى الروايات الشريفة أنّ هذه الآية نزلت فى معركة احد عندما نظر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى جسد عمّه حمزة، وقد استشهد فى ميدان المعركة ومثّل به الأعداء القساة وشقّوا بطنه وأخرجوا كبده وقطعوا اذنه وأنفه، فلّما رأى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذلك تأثّر كثيراً وبعد أن حمد اللَّه وأثنى عليه شكى له حاله وقال: «أَصبِرُ أَصبِرُ» «۲». والملفت للنظر أنّ الآية التى تليها تقول: «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» وهى إشارة إلى أنّ على الإنسان الذى يعيش هذه اللّحظات

الأليمة وتستولى على وجوده سحابة من الحزن والهم بسبب ما يواجهه من عدوان القساة وجرائمهم فإنّ عليه أن يلتحف بالصبر والصفح رغم أنّها حالة صعبة وعسيرة لا يستطيعها الإنسان إلّابمدد من اللَّه تعالى ومعونته. وبالطبع فإنّ السماح بالردّ بالمثل الوارد فى أوّل الآية الشريفة يعود إلى أصل قتل العمد، الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۴ ولكن بالنسبة إلى المثلة والتى هى عمل غير إنسانى وصادر من روحيّة ملّوثة فإنّ المقابلة بالمثل لا تجوز فى هذه الحالة، وهذا المعنى وردبصراحة فى الروايات الإسلامية التى تؤكّد عدم جواز المثلة حتّى بالكلب العقور، فحتّى لو استفيد من الآية الشريفة جواز المثلة «۱» فإنّه يكون المراد منها بمعونة الروايات الصريحة هو أصل القتل فقط لا المثلة، وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مسألة الانتقام بالأكثر من الحد الشرعى والتهديد بالمثلة لم يكن صادراً من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، بل من المسلمين، وعمومية الخطاب فى الآية الشريفة تؤيّد هذا المعنى وأنّ هذا التصميم صدر من المسلمين لا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. وتأتى «الآية الخامسة» لتتحدّث إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتأمره بما فوق العفو والصفح وتقول: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ». أمّا «الآية السادسة» فتؤكّد هذا المعنى أيضاً بعبارة اخرى تقول: «وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ». ونقرأ فى الآية ۲۲ من سورة الرعد عندما تستعرض صفات اولوا الألباب والعقول أنّ إحدى صفاتهم هى: «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ هؤلاء يتحرّكون على مستوى جبران أخطائهم وذنوبهم بالحسنات وأعمال الخير، وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء يجيبون الإساءة الموجّه من الغير بالإحسان من جهتهم ولا- يردّون بالمثل على الطرف الآخر لكى يوقضوا عناصر الخير فى وجدان الطرف الآخر ويجعلونه يعيش الندم على ما صدر منه تجاههم. ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه الآية أن يكون كلا المعنيين مراداً لها «۲». ويستفاد من هذه الآيات الثلاثة جيداً أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكذلك المؤمنين مأمورون الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۵ بتجاوز حالة العفو والصفح والصعود إلى مرتبة أرقى منها ورد السيئة بالحسنة وهو العمل الذى لا يتيسّر من أى شخص كان، ولهذا فإنّ الآية التى بعدها تقول: «وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». وفى الحقيقة فإنّ مقابلة السيئة بالحسنة عمل ثقيل جدّاً لا- يستطيع النهوض به إلّامن اوتى القدرة على النهوض بالأعمال الخيّرة المهمّة، والذين يعيشون الإيمان والتقوى والقيم الإنسانية بالمستوى الأعلى. والملفت للنظر أنّ سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام طافحة بمثل هذه النماذج من السلوكيات الأخلاقية والإنسانية حتّى أنّه أحياناً يؤدّى سلوكهم الإنسانى هذا إلى انقلاب الطرف الآخر من موقع الشر والعداوة إلى موقع الخير والمحبّة، والتجارب العملية الكثيرة تشير إلى التأثير الكبير لهذه الأعمال الأخلاقية فى دائرة السلوك الإنسانى والعلاقات الاجتماعية. وتتعرض «الآية السابعة» إلى الحديث عن مسألة القصاص والتى تعدّ أحد الأحكام الاجتماعية المهمّة للإسلام والتى تضمن حقوق الناس وتحفظ لهم أنفسهم ودمائهم من أشكال العدوان بحيث أنّ القرآن الكريم يعبّر عن القصاص بكلمة «الحياة» ولكنّه فى نفس الوقت يفضّل عليه العفو والصفح وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى». وبعد أن تذكر الآية موارد القصاص بالمثل تقول: «فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ». فلو أنّ القصاص تبدّل إلى الدية فعلى الطرف الآخر أن يتّخذ سبيل المعروف فى عملية أداء الدية إلى ولى المقتول، وهذا المعنى بمثابة التخفيف والرحمة من اللَّه تعالى للناس. وفى ختام الآية صرح القرآن الكريم أنّ بعد العفو والصفح أو تبديل القصاص إلى الدية لا- حقّ فى الرجوع فى ذلك وممارسة سلوك العدوان والقساوة وقتل القاتل عند القدرة الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۶ والاستطاعة، وتحذّر المسلمين من هذا الموقف الخطير وتقول: «فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لأنّ بعد العفو عن القاتل أو تبديل القصاص بالدية فإنّ ذلك يعنى إغلاق الطريق تماماً عن العودة وبذلك يسقط حق القصاص تماماً، وعليه يكون الانتقام من القاتل بمثابة القتل العمد الذى يترتب عليه العقوبة فى الشريعة الإسلامية. وهذه الآية تضع القاتل بين الخوف والرجاء، فمن جهة تفتح عليه باب القصاص حتى لا يتجرأ أحد على تلويث يده بدماء الأبرياء خوفاً من القصاص، ومن جهة اخرى فإنّها قد فتحت باب العفو ثم حذّرت من الانتقام بعده ولتقف حائلًا فى طريق الخشونة والعدوان اللّامسؤول من بعض الجماعات

المتطرفة والمنفعلة، وهذا هو منتهى التدبير والحكمة فى هذه المسألة الاجتماعية المهمّة. والتعبير بكلمة (أخيه) فى الآية المذكورة يشير إلى أنّه حتى لو وقعت حادثة قتل بين المسلمين فإنّ ذلك لا يعنى قطع رابطة الاخوّة بينهم، وفى صورة عدم وجود ضرورة للقصاص فلا ينبغى إتّخاذه سبيلًا لحلّ الأزمة، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الإسلام يرجّح العفو على القصاص ويتحرّك من موقع تفعيل الشعور بالمحبّة والاخوّة لدى الأولياء بدلًا من ورح الثأر والانتقام. وقد ورد هذا المضمون فى رواية عن ابن عباس أيضاً «۱». وكذلك عبارة: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» تدلّ مرّة اخرى على المفهوم القرآنى فى ترجيح العفو والصفح على القصاص أو تبديله بالدية. وفى «الآية الثامنة» نقرأ خطاباً لجميع المؤمنين فى دائرة الاختلافات والنزاعات العائلية حيث تقول الآية محذّرة للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۷ وهذه العداوة يمكن أن تتجسد فى السلوك العملى للشخص بطرق مختلفة، فمثلًا تتجلّى العداوة فى البعد المعنوى كأن تمنع الزوجة أولادها المسلمين من الهجرة إلى المدينة فى عصر البعثة، أو استعمال أساليب الضغط النفسى لعدم الوصية ببعض التركة والميراث إلى أعمال الخير وما ينفع الإنسان فى آخرته أو تعرض الإنسان لبعض الأذى وتحميل الظروف الصعبة من قبل الزوجة المشاكسة أو الأبناء المنحرفين ولكن الآية الشريفة تصرّح فى ذيلها بأنّ العفو والصفح أفضل وتقول: «وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ولا شك أنّه لولا وجود العفو والصفح فى أجواء العائلة من قبل الأب والولى على امور الأهل والأطفال أو كان كل فرد من أفراد الاسرة يتحرّك فى تعامله مع الآخرين من موقع الانتقام وأخذ الحق والمقابلة بالمثل، فإنّ هذه الأجواء الاسريّة ستتحوّل إلى جهنّم ومحرقة يعيش فيها الأفراد القلق والاضطراب الدائم وعدم الأمن والراحة وبالتالى يتسبب ذلك فى إنهدام العائلة وتلاشيها. والملفت للنظر أنّ اللَّه تعالى يذكر فى هذه الآية الشريفة بصراحة أنّ العفو فى المرتبة الاولى ثم الصفح بعده، ويذكر فى ذيل الآية بشكل ضمنى الأمر مرّة اخرى بالمغفرة لأنّه يقول: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» أو إذا تحركتم أنتم من موقع العفو والصفح والمغفرة فستكونون مشمولين لعفو اللَّه تعالى ومغفرته أيضاً. أمّا الفرق بين العفو والصفح والغفران «۱»، فالظاهر أنّ العفو هو المرتبة الاولى فى عملية التعامل بالحسن فى مقابل العمل السيء ويعنى ترك الانتقام وردّ الفعل المماثل، وأمّا الصفح فيعنى الإعراض عن السيئة وعدم الاعتناء بها وكأنها لم تكن، وأمّا الغفران فيعنى التغطية على آثار الخطيئة والذنب بحيث ينساها الناس، وهذه آخر مرحلة من مراحل مقابلة السيئة والتعامل معها بالطريقة الإيجابية، وهى أفضل مقامات الإنسان المؤمن فى مقابل خطأ الآخرين وسيرتهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۸ وفى «الآية التاسعة» نجد أنّ العفو والصفح ذكرا إلى جانب أعمال الخير الاخرى وأنّ اللَّه تعالى وعد بالعفو أيضاً فى مقابل ذلك العمل فتقول: «إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً». وعليه فلا ينبغى أن يتصوّر الإنسان أنّ الانتقام عند القدرة سيجلب له الفخر والعزّة، فالفخر هو أن يتحرّك الإنسان فى هذه الموارد من موقع ضبط النفس وتحريك عناصر الخير فى أعماقه والمقابلة بالعفو والصفح فيما إذا كان العفو فى موقعه ولم يثر فى نفس الطرف الآخر عناصر الشر أو سو الظن. وتتعرض «الآية العاشرة» والأخيرة من الآيات محل البحث إلى موقف النبى من المشركين وتوصيته بأن يتخذ الصبر جلباباً فى مقابل أذى المشركين وعدوان المعاندين والمخالفين وتقول: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا». ومعلوم أنّ أحد الوسائل فى عملية التصدّى للرسالة والدعوة الإلهية وما كان يمارسه المشركون والأعداء تجاه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو أنواع الهتك والإهانة والشتم والأذى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بحيث كان يشتد على قلب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذلك أحياناً، ولكن مع ذلك فإنّ اللَّه تعالى يوصيه بالتزام الصبر والمداراة وغض الطرف عن ذلك الواقع المؤلم وأن يهجرهم هجراً جميلًا. والمراد ب (الهجر الجميل) هو الهجران المقترن بالمحبّة وحسن الخلق والتأسف على حال هؤلاء الناس المشاكسين ودعوتهم إلى الحق والخير، وهذه هى إحدى الطرق التربوية فى مقابل الأفراد الذين يعيشون حالة الجهل والعناد فى مقابل الحق بحيث إذا تعامل معهم الإنسان بالمثل فإنّ ذلك من شأنه أن يزيدهم طغياناً وعناداً، ولذا أمرت الآية الشريفة أن يتّخذ الإنسان موقف اللامبالاة أمام أذاهم وكلماتهم اللامسؤولة، ولكن البعض تصوّر أنّ الأمر فى هذه الآية كان قبل نزول آية الجهاد التى نسخت هذه الآية واستبدلت العفو بالجهاد، وفى حين أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الجهاد له

محل معيّن، والهجر الجميل له محل آخر. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۷۹ وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآية توصى بإتّخاذ سلوك العفو والصفح وخاصة فى مقابل الأشخاص الذين ينطلق لسانهم دائماً بالكلمات الوقحة واللّامسؤولة ولا يمتنعون عن أى كلام وقح وذميم، لأنّ الهجر الجميل لا يتحقّق بدون عملية العفو والصفح. وكما يقول المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان أنّ هذه الآية بمثابة الخطاب لجميع الدعاة والمبلّغين فى كل زمان ومكان أن يلتزموا جانب ضبط النفس فى مقابل أذى المخالفين والأعداء ولا يستسلموا أمام حالات الانفعال لموقف الجهلاء وكلماتهم اللّامسؤولة ويقابلوهم بحسن الأخلاق والمداراة والإغماض «۱». وهكذا توضّح الآيات أعلاه والتى تخاطب أحياناً جميع المسلمين وأحياناً اخرى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعنوان قائد الامّة الإسلامية، المقام السامى للعفو والصفح من بين الفضائل الأخلاقية والمثل الإنسانية العليا فى مقابل الحوادث الصعبة وتحدّيات الواقع الاجتماعى غير الملائم، وتجعل من هذه الفضيلة الأخلاقية أساساً للتعامل الإسلامى بين أفراد المجتمع وحتى فى مقابل الأعداء والمخالفين فيما لو لم يترتب على العفو والصفح أثراً سلبياً.

العفو والانتقام فى الروايات الإسلامية:

أمّا فى دائرة الروايات الإسلامية فنجد لمسألة العفو وكونه من الفضائل الأخلاقية السامية وكذلك ذم الانتقام إنعكاساً كبيراً، فقد وردت عبارات مثيرة فى هذا الباب ومن ذلك: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا كانَ يَومَ القَيامَةِ نادى مُنادٍ مَنْ كانَ أَجرُهُ عَلَى اللَّهِ فَليَدخُلِ الجَنَّةَ فَيُقالُ مَنْ ذا الَّذِى أَجرُهِ عَلَى اللَّهِ فَيُقالُ الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۰ العافُونَ عَنِ النّاسِ فَيَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسابٍ» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال فى أحد خطبه: «ألا اخبِرُكُم بِخَيرِ خَلائِقِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ العَفوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَالإحسانُ إلى مَنْ أَساءَ إِلَيكَ، وَإعطاءُ مَنْ حَرَمَكَ» «۲». فنرى فى هذا الحديث الشريف المرتبة السامية للعفو والصفح، وهو جواب السيئة بالحسنة وأنّ هذا المقام هومقام الأنبياء والأولياء والصلحاء من الناس. ۳- وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «العَفوُ تاجُ المَكارِمِ» «۳». ونعلم أنّ التاج هو علامة العظمة والقدرة والعزّة وكذلك يستخدم كزينة ويوضع على أشرف موضع من بدن الإنسان وهوالرأس، وهذا التعبير الوارد فى الحديث الشريف يشير إلى أنّ العفو والصفح له مقام ممتاز من بين الفضائل الأخلاقية الاخرى. ۴- وورد فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «شَيئانِ لايُوزَنُ ثَوابُهُما العَفوُ وَالعَدلُ» «۴». إنّ جعل العفو إلى جانب العدل فى الحديث الشريف يوضّح من جهة أهميّة العفو فى عملية التفاعل الاجتماعى والمرتبة المعنويّة العالية له، ومن جهة اخرى يدلّ على أنّه قرين العدل، لأنّ العدل مضافاً إلى أنّه سلوك الفرد فى خط الحق فإنّه يتسبب فى تقوية مفاصل النظام فى المجتمع، ولكن العفو بما هو فضيلة أخلاقية يتسبب فى رفع الحقد والكراهية واستبدالهما بالعواطف الإنسانية والمحبّة فى العلاقات الاجتماعية، وإقتران هذين العنصرين فى الدائرة الاجتماعية يرفع كل أشكال الظلم والتعدّى على حقوق الآخرين. ۵- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام فى وصفه لأشقى الناس: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ لا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۱ يَعفُ عَنِ الزَّلَّةِ وَلا يَستُرُ العَورَةَ» «۱». ۶- ونقرأ فى حديث آخر أنّه جاء شخص من الأشقياء إلى المأمون وكان المأمون قد عزم على قتله، وكان الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حاضراً فى ذلك المجلس فقال المأمون: «ما تَقُولُ يا أَبا الحَسَنِ، فَقالَ: أَقُولُ: إنَّ اللَّهَ لايَزِيدُكَ بِحُسنُ العَفوِ إلّاعِزّاً فَعفى عَنهُ» «۲». وهكذا نجد أنّ المأمون قد عفى عن هذا الشخص الذى تجرّأ على ارتكاب ما هو ممنوع (وباحتمال قوى أنّه ارتكب جرماً سياسياً). ۷- وجاء فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «قِلَّةُ العَفوِ أَقبَحُ العُيُوبِ وَالتَّسَرُعُ إلى الإنتِقامِ أَعظَمُ الذُّنُوبِ» «۳» ۸- وجاء فى نهج البلاغة فى الكلمات القصار عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إذا قَدَرتَ عَلَى عَدُوكَ فَاجعَلِ العَفوَ عَنهُ شُكراً لِلقُدرَةِ عَلَيهِ» «۴». ونفس هذا المعنى ورد بصورة اخرى ومن ذلك قوله: «العَفوُ زَكاةُ الظَّفَرِ» «۵». ۹- وورد فى حديث الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام (أو الإمام الهادى عليه السلام) أنّه قال: «ما التَقَتَ فِئَتانِ قَطُّ إلّانَصَرَ اللَّهُ أَعظَمُهُما عَفواً» «۶» ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام

أنّه قال: «دَعِ الإنتِقامَ فَإِنَّهُ مِنْ أَسوءِ أَفعالِ المُقتَدِرِ» «۷». ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث الشريفة الأهميّة الكبرى التى يوليها الإسلام للعفو الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۲ والصفح وكذلك يتّضح قبح الحقد والانتقام والثأر، والأحاديث الشريفة فى هذا الباب كثيرة لا يمكننا استعراضها فى هذا المختصر.

أقسام العفو:

إنّ فضيلة العفو والصفح وترك الانتقام والثأر تعتبر أصلًا من الاصول الشرعية والعقلية الواردة فى الكتاب والسنة، ولكنّه لا يعنى عدم وجود الاستثناء فى بعض الموارد، بل هناك موارد يكون العفو والصفح فيها سبباً لجرّأة المجرمين والمنحرفين، ولا شك أنّه لا أحد يرى فى العفو فى مثل هذه الموارد فضيلة أخلاقية، بل إنّ حفظ نظام المجتمع والنهى عن المنكر والتصدّى لمنع وقوع الجريمة تقتضى عدم التساهل مع المجرم، وترك العفو فى مثل هذه الموارد، والعمل بمقتضى العدل وما يفرضه من العقاب على المجرم. ولذلك ورد فى القرآن الكريم بالنسبة إلى المقابلة بالمثل فى الآية ۱۹۴ من سورة البقرة إشارة إلى هذا المعنى حيث تقول: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ». وطبعاً هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، وهو أنّ هذه الآية فى مقام جواز القصاص العادل فقط ولا تدلّ على الوجوب أو الاستحباب (وفى الاصطلاح أنّ الأمر هنا هو فى مقام توهّم الخطر والمنع). وعلى أية حال فإنّ العفو والعقوبة لكل واحدة منهما محلّاً خاصاً لا ينبغى استخدام أحدهما مكان الآخر، فالعفو إنّما يكون فضيلة فيما لو كان الإنسان قادراً على الإنتقام والمقابلة بالمثل وأنّه لو سلك طريق العفو لم يكن ذلك من موقع الضعف والتخاذل ولا يرى الطرف الآخر أنّ هذا الموقف الإنسانى نقطة ضعف فى هذا الشخص، فمثل هذه الحالة للعفو تكون مفيدة وبنّاءة للطرفين، فإنّها بالنسبة إلى الطرف المظلوم والذى مكنته الظروف من الظالم يسبب فى صفاء قلبه وضبط جماح نفسه وسيطرته على نوازعه وأهوائه النفسانية، وكذلك يعتبر مفيداً للظالم المغلوب حيث يدفعه إلى إصلاح نفسه وتهذيبها وعدم تكرار ذلك العمل العدوانى. وقد نجد فى الأحاديث الإسلامية أيضاً إشارة إلى هذا الاستثناء، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنه قال: «العَفوُ يُفسِدُ مِنَ اللَّئِيم بِقَدَرِ إصلاحِهِ مِنَ الكَرِيم» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۳ ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «العَفوُ عَنِ المُقِرِّ لاعَنِ المُصِرِّ عَفو» «۱». وأيضاً ورد فى الحديث الشريف عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً قوله: «جاز بِالحَسَنَةِ وَتَجاوَزَ عَنِ السَّيِئَةِ ما لَم يَكُن ثَلماً فِى الدِّينِ أو وَهناً فِى سُلطانِ الإسلام» «۲». ففى مثل هذه الموارد يجب التحرّك على مستوى إلحاق الجزاء العادل بالمسيء. وجاء فى حديث آخر عن الإمام زين العابدين عليه السلام فى تأييد هذا المعنى حيث قال: «حَقُّ مَنْ أَساءَكَ أَنْ تَعفُوَ عَنهُ، وَإِنْ عَلِمتَ أَنَّ العَفوَ عَنهُ يضِرُّ إنتَصِرتَ قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعدَ ظُلِمِهِ فَاولَئِكَ ما عَلَيهِم مِنْ سَبِيلٍ» «۳». ولكن لا ينبغى أن يكون وجود هذا الاستثناء سبباً لسوء التصرّف فى بعض الموارد وأن يجعلها بعض الناس ذريعة للإنتقام فى مورد العفو بحجّة أنّ العفو هنا يتسبب فى زيادة الجرأة لدى المذنب والمجرم، بل ينبغى النظر بأخلاص وبعيداً عن حالات التعصّب إلى أصل العفو والصفح وموارد الاستثناء بدّقة كبيرة والعمل طبق هذه الموارد والاستثناءات. والجدير بالذكر أنّ العفو فى دائرة إجراء الحدود والتعزيرات الشرعية غير جائز إلّافى بعض الموارد المنصوصة فى الروايات الإسلامية، لأنّ إجراء الحد والتعزير يعدّ من الواجبات الشرعية فى مواردها.

الآثار الإيجابية والثمار الطيبة للعفو والصفح:

رأينا أنّ العفو والصفح باعتبارهما من الفضائل الأخلاقية التى وردت كثيراً فى الآيات والروايات الشريفة تجتمع فيها آثار إيجابية ومعطيات حميدة كثيرة فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية حيث يمكن بيان خلاصتها: ۱- إنّ سلوك طريق العفو والصفح يمكنه أن يبدّل العدو الشرس أحياناً الى صديق حميم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۴ وخاصة فيما لو كان متزامناً بالإحسان إلى الطرف المقابل، أى بالإجابة بالحسنة مقابل السيئة كما وردت الإشارة إلى ذلك فى الآية ۳۴ من سورة فصلت. ۲- إنّ العفو والصفح يتسببان

فى دوام الحكومات واستمرار القدرة السياسية بين ذلك الحاكم الذى يمارس العفو مقابل أعدائه حيث يقلل من حالة العداء والخصومة لدى مخالفيه ويزيد من جماعة الأصدقاء والمحبّين، ونقرأ ذلك فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «عَفوُ المُلُوكِ بَقاءُ المُلكِ» «۱». ۳- إنّ العمل بمقتضى العفو والصفح يتسبب فى زيادة عزّة الشخص وتقوية مكانته وشخصيته فى المجتمع، لأنّ ذلك علامة على قوة الشخصية والشرف وسعة الصدر، فى حين أنّ ممارسة الانتقام والثأر يدلّ على ضيق الافق وعدم التسلّط على النفس وانفلات قوى الشر وتسلطها على الإنسان، وقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «عَلَيكُم بِالعَفوِ فَإِنَّ العَفوَ لايَزيدُ إلّا عَزّاً» «۲». ۴- إنّ العفو يقطع تسلسل الحوادث اللّاأخلاقية فى واقع الناس من الحقد والبغضاء وكذلك السلوكيات الذميمة والقساوة والجريمة، وفى الواقع فإنّ العفو بمثابة المحطّة الأخيرة التى تقف عندها كل عناصر الشرّ هذه فلا يتجاوزها، لأنّ الانتقام والثأر يتسبب من جهة إلى تسعير نار الحقد فى القلوب ويدعوها إلى التعامل بقساوة أشد ويفعّل فيها الكراهية وعناصر الخشونة، وهكذا يستمر الحال فى عملية تصاعدية، وأحياناً يؤدّى الحال إلى نشوب معارك طاحنة بين طائفتين أو قبيلتين كبيرتين أو تسفك فى ذلك الكثير من الدماء وتدمر الكثير من الطاقات والأموال والثروات. وقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «تَعافُوا تَسقُطُ الضِّغائِنُ بَينَكُم» «۳». ۵- إنّ العفو يتسبب فى سلامة الروح وهدوء النفس وسكينة القلب وبالتالى يتسبب فى طول العمر كما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ كَثُرَ عَفوُهُ مُدَّ فِى عُمرُهُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۵ وبالطبع فما ذكرنا أعلاه هو من قبيل الآثار الإيجابية الدنيوية والبركات الاجتماعية للعفو والصفح، وأمّا النتائج المعنوية والأجر والثواب الاخروى فأكثر من ذلك بكثير، ونكتفى فى هذا المعنى بحديث عن أميرالمؤمنين صلى الله عليه و آله يقول فيه: «العَفوُ مَعَ القُدرَةِ جُنَّةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ سُبحانَهُ» «۱». وأمّا أسباب ودوافع الانتقام والثأر فكثيرة أيضاً ومنها ضيق الافق والصدر وعدم النظر إلى المستقبل، والحسد والحقد، وضعف النفس، واتباع الهوى والكثير من الصفات الذميمة الاخرى التى تدفع كل واحدة منها أو بضمّها إلى الاخرى الإنسان إلى السقوط فى نار الانتقام وحالة الردّ بالمثل للتشفى والأخذ بالثأر، وبالتالى زيادة النزاعات والصراعات بين الأفراد ممّا يفضى أخيراً إلى هدم نظام المجتمع وتلف الأموال والأنفس وهدر الطاقات والإمكانات للمجتمعات البشرية.

طرق علاج الانتقام وكسب فضيلة العفو:

إنّ أفضل الطرق لعلاج صفة الانتقام الرذيلة والصعود إلى أوج العزّة والكرامة باكتساب فضيلة العفو والصفح يكمن فى الدرجة الاولى بالتفكر السليم حول معطيات وآثار كل واحد من هاتين الصفتين الأخلاقيتين، فعندما يرى الإنسان ما فى العفو والصفح من البركات والمواهب والمعطيات الدنيوية والاخروية وكيف أنّه يتسبب فى زيادة مكانته وعلو قدره وعزّته فى نظر الخلق والخالق ويريح الإنسان من الكثير من المشكلات والمصاعب فيفتح له أبواب الحياة الكريمة ويثير المحبّة له فى قلوب الناس، فى حين أنّ الانتقام والردّ بالمثل أحياناً يؤدّى إلى انهدام عناصر الخير فى حياة الإنسان ويعرّض نفسه وماله وسمعته إلى الخطر الأكيد، فحينئذٍ إذا قارن الإنسان بين هذه المعطيات الإيجابية والسلبية للطرفين فإنّه سيأخذ جانب العفو قطعاً ويرجحّه على جانب الانتقام ويستمر فى سلوك هذا الطريق حتّى تحصل لديه ملكة أخلاقية لفضيلة العفو والصفح. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۶ ومن جهة اخرى فعندما يتأمل الإنسان فى جذور الحالة السلبية للإنتقام والدوافع النفسية التى تثير هذه الحالة فى نفسه فإنّه سيتحرّك حتماً نحو علاجها والحد من شرّها وبذلك يتسنى له القضاء على المعلول فى القضاء على علّته، فيتبدّل الحقد والكراهية وحبّ الانتقام إلى الاخوة والمحبّة والعفو والصفح. وبهذا نأتى على ختام بحثنا فى فضيلة العفو والصفح وكذلك رذيلة حبّ الانتقام والثأر والردّ بالمثل رغم وجود مسائل كثيرة لم يسع المقام لذكرها.

الغيرة وعدم الغيرة

تنويه:

إنّ (الغيرة) وردت فى الروايات الإسلامية والنصوص الدينية بعنوان أنّها فضيلة أخلاقية مهمّة، وهى فى الأصل بمعنى الدفاع الشديد عن العرض والناموس أو المال والدين والمذهب والوطن وأمثال ذلك، وخاصة أنّ هذه المفردة وردت فى موارد يكون فيها الحق مختصّاً بشخص معيّن أو جماعة، ويريد الآخرون التعرّض لهذا الحق وسلبه من صاحبه أو أصحابه، فيقوم الطرف الآخر بالدفاع الشديد عن حقّه. وعلى أيّة حال فإنّ هذه الصفة إذا تحلّى بها الإنسان وسلك بها طريق الاعتدال فإنّها تعدّ فضيلة كبيرة فى دائرة الأخلاق والقيم الإنسانية، فما أعظم حالًا من أن يقوم الإنسان بالتصدّى ومنع الأجنبى عن التخطى إلى حريم عرضه أو وطنه ويقف فى مقابل هذا العدوان ويدافع عن حقّه إلى حدّ الموت. ومع الأسف فإننا نعيش فى العالم المعاصر الذى إفتقد كثيراً من القيم الأخلاقية واستولت عليه الكثير من الانحرافات الأخلاقية فى دائرة الاسر والعوائل الخاصة، ولاسيما ما نجده فى العالم الغربى من الإرتباط اللّامشروع بين النساء والرجال بحيث نسيت هذه الصفة الأخلاقية، بل إنّها وصلت لدى البعض إلى حالة معاكسة فأصبحت مخالفة للقيم الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۸ والاصول الأخلاقية واعتبرت من قبيل التعصّبات العمياء والأنانية، وهذا يعدّ بذاته فاجعة كبيرة على المستوى الأخلاقى والثقافى، فى حين أنّ الإنسان والمجتمع البشرى لا يستطيع أن يتحرّك باتّجاه حماية الأخلاق والقيم والمبادىء الدينية والاجتماعية بدون عنصر الغيرة. وفى هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دروساً وعبراً فى هذه المسألة المهمّة والأساسية فى حياة الإنسان الاجتماعية: ١- «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا* مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا* سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» «۱». ۲- «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ»» .۳- «... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» «۳».

تفسير واستنتاج:

تتحدّث «الآية الاولى» من الآيات محل البحث عن ثلاثة طوائف من الفئات الشريرة فى المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة، فتذكر الآية هذه الطوائف الثلاث بأسم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون، أى الذين يتحرّكون فى بث الشائعات والأكاذيب بين الناس لتضعيف معنويّات المسلمين وإتهام النساء العفيفات والمحصنات وتحذّرهم الآية بأشد العذاب الإلهى وتقول: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا* مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۸۹ هذه الغيرة الإلهية التى تقود المسلمين إلى الدفاع الشديد عن أعراضهم ونواميسهم وكيانهم هى اسوة لجميع المسلمين فى مسألة الغيرة على الدين والناموس، وتدلّ على أنّ الإنسان الذى يتحرّك فى خط الإيمان والحق لا ينبغى أن يواجه ممارسات الأراذل والمنافقين والأشرار من موقع اللّامبالاة وعدم الاهتمام والبرودة. وهذا التعبير الوارد فى الآية الكريمة يدلّ على أنّ هذه المسألة عبارة عن فضيلة أخلاقية كبيرة ووظيفة اجتماعية للمؤمنين رغم ما أورده التاريخ من سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الذى كان يتشدّد فى مثل هذه الموارد مع المخالفين وقوى الإنحراف. إنّ الصفات الثلاثة التى ذكرتها الآية لهؤلاء المخالفين: «الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ» يمكنها أن تشير جميعها إلى طائفة معيّنة تتحرّك باتّجاهات مختلفة لتكريس حالة التخاذل والوهن والضعف بين المسلمين، ولكنّ ظاهر الآية وما ورد فى شأن نزولها من الروايات يشير إلى أنّ هذه الصفات الثلاث هى لثلاث طوائف من هؤلاء المنحرفين وهم: المنافقون الذين يتحرّكون فى بث الشائعات حول غزوات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لتضعيف روحية المسلمين وتقوية عنصر الانهزام والتخاذل فى قلوبهم، وطائفة الأراذل والأشرار الذين

يتعرّضـون لنسـاء المسـلمين ويتسـببون فى إزعـاجهّن والتحرّش بهـنّ، والطائفـة الثالثـة يتحرّكـون فى عمليـة بـث الشائعـات عن النسـاء المؤمنات وإتهامهنّ فى عفتهن حيث يؤلمهنّ ذلك بشـدّة، فنزلت الآيـة أعلاه من موقع التهديـد لهذه الفئات الثلاث بالنفى والقتل. أمّا قوله: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» فقـد يرد فى الآيات القرآنية بمعانى مختلفة، فأحياناً يشـير إلى النفاق مثل ما ورد فى الآية ١٠ من سورة البقرة: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضاً»، وأحياناً اخرى يرد فى مورد الأشـخاص الذين يتّبعون غريزتهم الجنسـية فى دائرة الحيوانية كما ورد فى الآية ٣٢ من هذه السورة التى تخاطب نساء النبى وتوصـيهنّ بأن لا يخضـعن بالقول للأشـخاص الأجانب حتى لا تتحرّك فيهم الغريزة ويطمعوا بـالحرام فيقول: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٣٩٠ والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم بعـد هذه الآيات (الآية ٦٠ و ٦١) يضـيف أنّ هذه هى سنّة اللَّه فى الأقوام السالفة (ولا تنحصر بالامّة الإسلامية ولا تبديل لسنة اللَّه). وهذا السياق الشريف يشير إلى حكم عام وارد فى جميع الأديان الإلهية، وسنة إلهية قطعية لا تتبدّل، وهى ضرورة المواجهة الجادّة مقابل المنافقين والانتهازيين والذين يبثون الشائعات المغرضة (طبعاً مع حفظ جميع المقرّرات الشرعية والعقلية) وهذا هو مفهوم الغيرة بكـل وضوح. وتتحرّك «الآيـة الثانيـة» لتحكى لنا عن نموذج للغيرة الدينيـة التى تتجلّى فى سلوك أحـد أكبر الانبياء الإلـهيين، أى النبى يوسف عليه السـلام وذلـك عنـدما تعرّض للتحرش من قبل نساء مصـر وخاصـة زليخا إمرأة العزيز حيث طلبت منه الإستسـلام والرضوخ لمطاليبهن اللّامشـروعة وارتكاب الفاحشـة، وبينما كان يوسف عليه السـلام فى سن الشـباب والمراهقة وتهب فى صدره أعاصير الحيوية والغريزة والانجذاب إلى الدنيا، إلّاأنّه قاوم كل هذه التحدّيات الداخلية والخارجية الصعبة حتى أنّه فضّل دخول السـجن مع جميع مشـقاته وآلامه على الاستسـلام لمطاليبهن والرضوخ لعناصـر الشهوة والمقام والجمال وطلب من اللَّه تعالى أن يوفقّه لـدخول السـجن للخلاص من هؤلاء النسوة وقال: «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنِ الْجَاهِلِينَ». وهـذا السـياق الشـريف يكشف عن مقام العصـمة والعفّة ليوسف عليه السـلام وكذلك يحكى عن غيرته وتقواه أمام الهزات، فعنـدما نقارن بين هـذه الروحيـة العاليـة فى دائرة التعفف والصـمود والإرادة مع ما نجـده لدى عزيز مصـر من عدم الغيرة والتساهل فى أمر العفّـة لـدى زوجته بعـدما ثبت له سـلوك زوجته الخائن اكتفى بالقول: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ» «١». ويتّضح جليّاً الفرق بين هذين الرجلين من موقع الأمانة والتقوى والعفّة النفسية، ولم الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٣٩١ يكن يوسف عليه السلام يقصد طلب السجن من اللَّه تعالى بالذات ولغرض شخصى بل كان هدفه التخلص من ممارسة اللّامشـروع وأنّه إذا خيّر بين السـجن وبين الممارسـة اللّامشـروعة فإنّه يفضّل السـجن على ذلك العمل. وتأتى «الآيـة الثالثة» لتسـتعرض الأمر الإلهى للنساء المؤمنات بأنّه مضافاً إلى لزوم حفظ الحجاب فيجب عليهنّ أن لا يضربن بأرجلهن أثناء المشى فى الطرقات لكى لا يسـمع الأجنبى صوت الخلاخل من الزينـة وتقول: «... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ». فنرى فى هـذه الآيـة الشـريفة إقتران الغيرة مع العفّة إلى درجة أنّه لم يسـمح للنسوة أن يضـربن بأرجلهن فيسـمع الرجال أصوات الخلاخل فى أرجلهن، وكما أشـرنا آنفاً أنّ الإسـلام يأمر نساء النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله (بعنوان كونهنّ اسوة وقدوة لسائر النساء المسلمات) أنّه عندما يتحدّثن مع الغرباء فلا يخضـعن بالقول ولا يرى الغريب عنصـر المرونـة واللطافة فى كلامهنّ ولئلّا تتحرّك فيه عناصـر الشـر، كل ذلك يعدّ تأكيداً لرعاية العفّة من جهة، وكذلك الالتزام بفضيلة الغيرة من جهة اخرى.

الغيرة فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ فى الروايات الإسـلامية الأهمية الكبيرة التى يوليها الإسـلام لمسألة الغيرة بعنوانها فضـيلة أخلاقية فى دائرة القيم والمثل والمعنوية والكماليـة للإنسان وحتى أنّ اللَّه تعالى وصف بالغيور (أى الذى يغار كثيراً) ومن ذلك: ١- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قـال: «إِنَّ اللَّهَ غَيُورٌ يُحِبُّ كُلَّ غَيُورٍ وَلِغِيرَتِهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ظاهِرَها وَباطِنَها». ٢- ونقرأ فى حـديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «إذا لَمْ يَغُرِ الرَّجُلُ فَهُوَ مَنْكُوسُ القَلبِ» «١». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ٣٩٢ وقال العلّامة المجلسى قدس سره إنّ المراد بالقلب المنكوس

هنا هو التشبيه بالإناء المقلوب الذى لا يبقى فيه شىء من الطعام أو الماء، فالحديث الشريف يقرّر أنّ قلب مثل هؤلاء الأشخاص الفاقدين للغيرة خالٍ من الصفات الأخلاقية السامية وفارغ من المثل الرفيعة «۱». وهذا التعبير يدلّ بوضوح إلى أنّ صفة الغيرة ترتبط برابطة وثيقة مع سائر الصفات الأخلاقية العليا للإنسان. ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «كانَ إبراهَيمُ أَبِى غَيُوراً وَأَنا أَغيَرُ مِنهُ وَأَرغَمَ اللَّهُ أَنفَ مَنْ لايُغارُ مِنَ المُؤمِنِينَ» «۲». ۴- وجاء فى حديث آخر عن هذا النبى الأعظيم صلى الله عليه و آله قوله: «إنِّى لَغَيُورٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَغيَرُ مِنِّى وَأَنَّ اللَّهَ تعالى يُحِبِّ الغَيُورَ». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «إنَّ الغِيرَةَ مِنَ الإيمانِ» لأنّ الإيمان يدعو الإنسان إلى حفظ الدين والبلد الإسلامى والسلوك فى طريق التصدّى للأخطار التى تواجه هذه المتعلقات المهمّة للإنسان، فمن لم يتحرّك على مستوى الدفاع عنها ولم يتحرك عنصر الغيرة فى أعماق ذاته فإنّه بعيد عن الإيمان «۳». ۶- وورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «قَدْرُ الرَّجُلِ قَدْرِ هِمَّتِهِ ... وَشَجاعَتُهُ عَلى قَدْرِ أَنَفَتِهِ وَعِفَّتِهِ عَلى قَدْرِ غَيرَتِهِ» «۴». ۷- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أَتى النَّبِىّ باسارى فَأَمَرَ بِقَتلِهِم وَخلَّا رَجُلًا مِنْ بَينِهِم فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: كَيفَ اطلَقتَ عَنِّى؟ فَقَالَ صلى الله عليه و آله: أَخبَرَنِى جبرئيل عَنِ اللَّهِ أَنَّ فِيكَ خَمسُ خِصالِ يُحِبُّها اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الغِيرَةُ الشَّدِيدَةُ عَلى حَرَمِكَ وَالسَّخاءُ وَحُسْنُ الخُلقِ وَصِدقُ اللِّسانِ وَالشَّجاعَةُ». الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹۳ فلما سمع الرجل أسلم وحسن اسلامه وقاتل مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى استشهد «۱». ۸- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام ضمن توبيخه لأهل العراق الذين تخرج نساؤهم من منازلهم بدون اهتمام بالحجاب ويختلطن مع الرجال فقال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لا يغارُ» «۲».

تعريف أقسام الغيرة:

كما أشرنا آنفاً أنّ الغيرة هى صفة أخلاقية تدفع الإنسان فى طريق الدفاع المستميت عن الدين والمذهب والعرض والبلد، وأساساً فإنّ كل حالة من الدفاع الشديد عن القيم الإنسانية فهى تتضمّن نوع من الغيرة، ورغم أنّ هذه المفردة تستعمل غالباً فى دائرة الغيرة على العرض والناموس ولكنّ مفهومها واسع يستوعب مصاديق أكثر. وبالطبع فإنّ هذه الصفة الأخلاقية حالها حال الصفات الاخرى من حيث أنّها قد يسلك بها الإنسان سبيل الافراط والتفريط وبذلك تتبدّل إلى خلق ذميم، وذلك فى صورة ما إذا كان الدفاع المذكور يتّخذ صبغة التعصّب الذميم والوسواس والدفاع غير المنطقى وغير العقلائى. فقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مِنَ الغِيرةِ ما يُحِبُّ اللَّهُ وَمِنها ما يَكرَهُ اللَّهُ فَأَمّا ما يُحِبُّ فَالغِيرَةُ فِى الرِّيبَةِ وَأَمّا ما يَكرَهُ فَالغَيرَةِ فِى غَيرِ الرِّيبَةِ» «۳». يعنى أنّ الإنسان يتّهم زوجته مثلًا بعدم العفّة على أساس من الظن والاحتمال وتعتمل فى صدره عناصر الوسواس والشك تجاه زوجته البريئة، فمثل هذه الحالة السلبية تكون خطرة على سلامة الإنسان والاسرة وتؤدّى إلى تشجيع الأشخاص الأبرياء إلى الوقوع فى وحل الخطيئة وتقودهم إلى مستنقع الرذيلة. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۳۹۴ و نقرأ فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى أحد كتبه إلى إبنه الإمام الحسن عليه السلام يقول: «وَإِيّاكِ وَالتَّغايُرَ فِى غَيرِ مَوضِعِ غَيرَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدعُو الصَّحِيحَةَ إِلى السَّقمِ وَالبَرِيئَةَ إِلى الرَّيبِ» «۱». وفى الحقيقة أنّ الافراط فى كل شىء مذموم وخاصة فى أمثال هذه الموارد من السلوك الأخلاقى تجاه العرض والحساسية المفرطة تجاه سلوك الزوجات والأرحام من النساء والنظر إلى سلوكهنّ من موقع الريبة والشك والتهمة، فقد يكون هذا الأمر هو السبب فى وقوعهنّ فى وادى الرذيلة والفساد، وعلى أيّة حال إنّ هذه الموارد من الغيرة وسوء الظن تعتبر حراماً شرعاً ويجب اجتنابها والابتعاد عنها تماماً، وقد ورد فى الأخبار المتعلقة بزمن الجاهلية أنّ أحد الأسباب المهمّة لوأد البنات هو عنصر الغيرة المنحرف واللّامنطقى لدى هؤلاء الجاهلين حيث كانوا يقولون: إنّ من الممكن أن تكبر هذه البنات وتتعرّض للأسر من قبل أفراد القبيلة المعادية فتكون أعراضنا فى معرض النهب والتلاعب بيد الأعداء، فالأفضل أن ندفنهنّ وهنّ صغار لحفظ العرض.

آثار الغيرة فى حركة الحياة:

إنّ الغیرة إذا استعملت بصورة صحیحة ومعتدلة إیجابیة فإنّها بمثابة قوّة دفاعیة عظیمة تدفع الإنسان إلی التصدّی للأعداء والانتصار علیهم، لأنّ مثل هذه القوّة الباطنیة عندما تتعرّض نفس الإنسان وأمواله وناموسه ودینه وإیمانه أو استقلال وطنه إلی الخطر المحدق فإنّ هذه القوّة تعبیء جمیع الطاقات والقوی الذاتیة والباطنیة فی الإنسان وتوحّدها تحت قیادة عنصر الغیرة لتعین الشخص فی عملیة الدفاع الشریف، وأحیاناً یعیش الإنسان الغیور تحت عنصر الغیرة بحیث تتضاعف قوّته إلی قوّة عشرة أشخاص وتدفع به إلی حد التضحیة بنفسه والصمود البطولی بشجاعة وشهامة کبیرة، ولهذا السبب کانت الغیرة أحد العوامل المهمّة فی طریق العزّة والافتخار والحیاة الشریفة. أمّا الأشخاص الذین یعیشون الانحراف والتلّوث فعندما یواجهون إنساناً غیوراً فی تحرّشهم بأعراض الناس فإنّهم یفقدون مقاومتهم بسرعة ویتراجعون أمامه فی صورة من التخاذل والذلّة، وهذا هو أیضاً من برکات الغیرة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۵ الغیرة تسبب أیضاً فی تقویة عناصر الشد للقیم الأخلاقیة والمثل الرفیعة للمجتمع الإنسانی وتجعله محفوظاً من التلّوث والانحراف فی منزلقات الخطیئة. إنّ الغیرة تتسبب أیضاً فی حفظ أمن المجتمع وإزالة مظاهر الفساد والفحشاء، فی حین أنّ عدم الغیرة یهدم أمن المجتمع ویعمل علی تحطیم المثل الإنسانیة والقیم الأخلاقیة فی أفراد المجتمع وبالتالی ینزلق مثل هذا المجتمع نحو الفساد والانحطاط الأخلاقی. ونقرأ فی سیرة الأنبیاء أنّه عندما رأی النبی لوط علیه السلام مظاهر الفساد والتلّوث من قومه الأشقیاء حتی أنّهم راودوه عن ضیفه (وهم ضیوفه من الملائکة الذین دخلوا علیه علی شکل فتیان حسان الوجوه ولم یکن لوط علیه السلام علیم بواقعهم) تملّکه الخوف والاستیاء الشدید ممّا رأی من تعرّض قومه الأشرار إلی هؤلاء الضیوف عندما سمعوا بهم قد دخلوا فی بیت لوط، وکلما نصحهم لوط علیه السلام فإنّ کلامه ذهب أدراج الریاح ولم یؤثر فی هؤلاء الأشرار شیئاً حتی أنّه عرض علیهم الزواج من بناته (فیما إذا تابوا وآمنوا) ولکنّهم رغم هذا الإیثار العظیم من لوط لم یرتدعوا عن غیّهم واستمروا فی طلبهم الدنیء وممارسة الضغط علی لوط علیه السلام لیسلمهم الضیوف الکرماء، فقال لهم لوط: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَلَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ» «۱». ولکن عندما رأی أنّ کلامه لا یؤثر شیئاً فی نفوس هؤلاء الأشرار ولا یرتدعون عن غیّهم ازداد حزناً وألماً ونصباً وعندما کشف هؤلاء الضیوف عن واقعهم وأنّهم من الملائکة وطمأنوه بأن لا یخاف من هؤلاء الأشرار فإنّ العذاب الإلهی نازل بحقهم وسیتعرّضون للهلاک عمّا قریب. ونختم هذا البحث بحدیث شریف عن الإمام الصادق علیه السلام حیث یقول: «إنّ المَرَأ یَحتاجُ فِیمَنزِلِهِ وَعیالِهِ إلی ثَلاثِ خَلالِ یَتَکَلَّفُها وَإنْ لَم یَکُن فِی طَبعِهِ ذَلِک: مَعاشِرَةٌ جمِیلَةٌ، وَسِعَةٌ بِتَقدِیرٍ وَغَیرَةٌ بِتَحصِینٍ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۷

الأُلفة والانفرادیّة

تنویه:

لقد بحث علماء الأخلاق هذا الموضوع تحت عنوان المعاشرة والعزلة فی کتبهم الأخلاقیة، ونقرأ أحیاناً فی هذه الکتب اختلاف العلماء فی أیّهما الأفضل، المعاشرة مع الناس أو العزلة والانزواء؟ فقد یری البعض أنّ العزلة أو الانزواء عن الناس أفضل من معاشرتهم والاختلاط بهم، وبعض آخر رجحّ المعاشرة والاختلاط علی العزلة، وذهب ثالث إلی أنّ ذلک یختلف باختلاف الظروف والشرائط، فتارة یکون الأول أفضل من الثانی واخری بالعکس. ولکن المحققین (وخاصة فی عصرنا الحاضر) وبالاقتباس من الکتاب والسنة ودلیل العقل یرون أنّ الأصل فی حیاة الإنسان هو أن یعیش حالة الأُلفة، وذهبوا إلی أنّ الإنسان موجود اجتماعی ولا یتمکن من الصعود بمستواه الأخلاقی وتکامله المعنوی والنضج العقلی إلّافی ظل المجتمع والاختلاط مع الآخرین، وبذلک یتسنی له التسریع فی حلّ مشاکله والتخفیف من آلامه ووصوله إلی السعادة المنشودة. هؤلاء یرون أنّ الانزواء أو العزلة لا تنسجم مع فطرة الإنسان السلیمة ولا تتوافق مع روح التعلیمات الإسلامیة والقرآنیة، بل إنّ المفاهیم الإسلامیة تؤکد علی الروح الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۳۹۸

الاجتماعیة لدى الإنسان وتجعل من المعاشرة البنّاءة بشكل عبادة جماعية من قبيل صلاة الجمعة والجماعة والمسائل المتعلّقة بحقوق الإنسان والأمر بالمعروف والنهی عن المنكر وإجراء الحدود وإحقاق الحقوق والتعاون على البر والتقوى وأمثال ذلك. إنّ الإسلام يرى أنّ «يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَماعَةِ» كما ورد فی الحديث الشريف، وأنّ أی إبتعاد عن صفوف المسلمين يؤدّى إلى نفوذ الشيطان واستيلائه على الإنسان كما ورد فی نهج البلاغة: «والشاذُّ مِنَ الغَنَم لِلذِّئب» «۱». وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستعرض الآيات الشريفة فی هذا الموضوع: ۱- «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» «۲». ۲- «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» «۳». ۳- «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۴». ۴- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ» «۵». ۵- «وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» «۶».

تفسير واستنتاج:

إنّ كل واحدة من الآيات الشريفة المذكورة آنفاً تشير إلى جهة خاصة من مسألة أهميّة المعاشرة والاجتماع وأهميّة الوحدة والإتّحاد بين أفراد المجتمع، ففی «الآية الاولى» نقرأ دعوة إلى الاعتصام بحبل اللَّه والتمسك به وعدم سلوك طريق الفرقة والاختلاف وتقول: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً» أمّا ما هو المراد من حبل اللَّه الوارد فی الآية الشريفة؟ فإنّ المفسّرين اختلفوا فی ذلك، وقد ورد فی بعض الروايات الشريفة أنّ المراد منه هو القرآن الكريم الذی ينبغی أن يتّخذه المسلمون محوراً لوحدتهم وتماسكهم، وفی بعض الروايات الاخرى ذكرت أنّ المراد من حبل اللَّه هو أهل البيت عليهم السلام، ومعلوم أنّ كل هذه المعانی تشترك فی حقيقة واحدة، وهی أنّ حبل اللَّه تعالى هو ما يربط الإنسان باللَّه تعالى سواءاً عن طريق القرآن الكريم أو النبی الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام. وكما نرى أنّ هذه الآية الشريفة تؤكّد على مسألة المودّة ووشائج المحبّة بين المسلمين وترك العداوة والفرقة، ومن المعلوم أنّ ذلك لا يتوافق مع عزلة الإنسان وإنزوائه عن المجتمع ولا مفهوم حينئذٍ للإعتصام بحبل اللَّه تعالى، واللطيف أنّ القرآن الكريم فی الآية أعلاه يقرّر أنّ العداوة هی من سنن الجاهلية وأنّ المحبّة والصداقة هی من خصائص الإسلام ويقول فی ذيل الآية الشريفة مؤكّداً على هذا المعنى: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». والجدير بالذكر أنّ الإسلام لا يرى العلاقة بين المسلمين هی علاقة الصداقة فحسب، بل علاقة الاخوة التی تعمّق فی الناس الرابطة العاطفية بين الأخوان القائمة على أساس المساواة والمحبّة المتبادلة. وبديهی أنّ هذه المحبّة الأخوية لا يمكن أن تتجلّى وتتفاعل فی حال ابتعاد الاخوة عن بعضهم البعض، فلابدّ لتفعيل هذه العاطفة الإنسانية من الحياة المشتركة والمعاشرة فيما بين الاخوة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۰ والملاحظة المهمّة الاخرى هی أنّ الامور المادية والدنيوية لا يمكن أن تكون محور وحدة المجتمع وأداة قويّة لتعميق الروابط الاجتماعية بين الأفراد، لأنّ الامور المادية عادة تكون سبباً للتنازع والاختلاف والفرقة، فحاجات الناس الدنيوية والمادية غير محدودة، وأمّا الامور المادية فی الطبيعة فمحدودة، ومن هنا ينشأ التضاد والاختلاف، ولكن حبل اللَّه تعالى والارتباط مع اللَّه تعالى هو أمر معنوی وروحانی ويمكنه أن يحقّق أفضل رابطة عاطفية بين أفراد البشر من كل قوم ولون وقبيلة ولغة. وتأتی «الآية الثانية» لتتحدّث لنا عن المصير المؤلم للأشخاص الذين يعيشون بعيداً عن جماعة المسلمين ويسلكون سبيلًا مستقلًا ومنفصلًا عن المجتمع الإسلامی وتقول: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً». هذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ اللَّه تعالى يأمر المسلمين فی المجتمع الإسلامی بضرورة الالتزام الاجتماعی وعدم الانفصال والفرقة وأن يسير المؤمنون سويّة فی خط الإيمان والانفتاح على اللَّه تعالى، ومع الأخذ

بنظر الاعتبار جملة «وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ» وكذلك عبارة «سَبِيلِ المُؤمِنينَ» يتّضح جيداً أنّ المراد هو التنسيق بين أفراد المجتمع الإنسانی من خلال إتّباع النبی الأكرم صلى الله عليه و آله والسير إثر خطواته الحكيمة فی خط الإيمان والطاعة للّه‌تعالی حيث تكون التقوى والإيمان محوراً للسلوك الاجتماعی، وإلّا فلا معنى لأنّ تعنی الآية مفهوم المعاشرة الاجتماعية بدون هذا المحور المعنوی. ولا شكّ أنّ النبی الأكرم صلى الله عليه و آله مع الجماعة دائماً، فكان يصلّی معهم خمسة مرّات فی اليوم ويصلّی صلاة الجمعة فی اجتماع أعظم، وكذلك فی اجتماع المسلمين العام لمراسم الحج، فكل هذه البرامج العبادية تنضوی تحت مدلول الآية الشريفة، ومعلوم أنّ الأشخاص الذين يعيشون الإنزواء والعزلة وينفصلون عن جماعة المؤمنين سيكونون مشمولين للتهديد والوعيد وبالعذاب الأليم المذكور فی الآية الشريفة. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۱ بعض علماء أهل السنة إستدلّوا بهذه الآية الشريفة على حجّية الاجماع، ونحن لا نرى مانعاً من الاستدلال بهذه الآية على حجّية إجماع المسلمين، ولكنّ هذا الإجماع يجب أن يتضمّن حضور الإمام المعصوم أيضاً، وفی الاصطلاح الاصولی يعبّر عنه بالإجماع الدخولی أو الإجماع الكشفی الذی يكون هوالحجّة فی عملية الاستدلال. «الآية الثالثة» تستعرض أحد المواهب الإلهية الكبيرة على النبی الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ اللَّه تعالى هو الذی جمع المؤمنين حول النبی وألف بين قلوبهم بحيث لا- يتسنى ذلك أبداً من خلال الوسائل الطبيعية والأدوات العادية فتقول الآية: «هُوَ الَّذِی أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». لو أنّ الإسلام يرى فی العزلة والإنزواء عن المجتمع قيمة أخلاقية، فإنّه لم يكن يعدّ التأليف بين قلوب المسلمين بعنوان معجزة كبيرة للنبی الأكرم صلى الله عليه و آله. وهذا التعبير فی الآية الشريفة لا يدلّ على مطلوبية المعاشرة والاجتماع بين الأفراد فحسب، بل أن تكون الرابطة شديدة وإلى درجة كبيرة من الوثاقة فی العلاقات الاجتماعية. وبديهی أنّه لا يصحّ أن تقرر الآية هذا المفهوم فی زمان النبی الأكرم صلى الله عليه و آله فقط، بل إنّ هذا المفهوم الإسلامی يستوعب جميع الأزمنة والأمكنة وعلى كلّ طائفة مؤمنة أن تجتمع حول محور واحد وترتبط فيما بينها برابطة وثيقة من الألفة والمحبّة كما كان حال المؤمنين فی عصر النبوّة والبعثة. والملفت للنظر أنّ اللَّه تعالى نسب تأليف القلوب إليه مباشرة كما ورد هذا المضمون فی الآية ۱۰۳ من سورة آل عمران، رغم أننا نعلم أنّ النبی الأكرم صلى الله عليه و آله هو الذی قام بهذا العمل الإنسانی والاجتماعی، وذلك لتشير الآية إلى أنّ هذا العمل إنّما هو معجزة إلهية جعلها اللَّه تعالى فی يد النبی الأكرم صلى الله عليه و آله وأظهرها على يده، وإلّا فمن المحال أن تزول وتتلاشى كل تلك الأحقاد والعداوات القديمة والجديدة بين العرب المتعصّبين والجاهلين مهما بلغت الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۲ قدرة المخلوق ومهما اوتی من أموال وثروات طائلة كما تقول الآية بأنّك لو أنفقت ما فی‌الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن تسنى للنبی الأكرم صلى الله عليه و آله ذلك من خلال تعليمات الإسلام وأخلاقه الإلهية والإمدادات الربانية واستطاع بذلك من تحقيق أعظم معجزة فی عالم العلاقات الاجتماعية، وحقّق الألفة وهی فی اللغة بمعنى الاجتماع المقارن للإنسجام والأنس والإلتيام وربط تلك القلوب المتنافرة والمتباغضة مع بعضها وجعلها كالبنيان المرصوص. وتأتی «الآية الرابعة» لتتحدّث عن وحدة صفوف المسلمين والتی لا تتسنى ولا تتحقّق اطلاقاً مع العزلة والإنزواء: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِی سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ». (بنيان) بمعنى كل بناء يبنيه الإنسان لسكنه أو لمآرب اخرى، كأقامة السدود مثلًا، أمّا (مرصوص) فهو من مادة (رصاص) ونظراً إلى أنّ البشر فی ذلك الزمان كان يستخدم الرصاص فی عملية البناء ليزيد فی قوّته وإستحكامه وليملأ الفراغات والثقوب والثغرات الموجودة بين أحجار البناء، فلذلك أطلق على كل بناء محكم أنّه (مرصوص) إشارة إلى قوّته وإستحكامه. وصحيح أنّ الآية الشريفة ناظرة إلى الجهاد فی سبيل اللَّه تعالى والتحرّك العسكری فی ميادين القتال مع الأعداء، ولكن من الواضح أنّ هذا المعنى يجری فی سائر التفاعلات الاجتماعية على مستوى السياسة والثقافة والاقتصاد وأمثال ذلك، ففی هذه الموارد يلزم أن يكون الناس فی المجتمع الواحد منسجمين ومتّحدين إلى درجة أنّهم كالبنيان المرصوص، وهذا المعنى يتقاطع حتماً مع العزلة والإنزواء فلا يتسنى للمجتمع الدفاع القوی أمام الأعداء ولا النهضة الحضارية ولا حلّ المشكلات الاقتصادية والسياسية والثقافية من دون الالفة والمعاشرة والاجتماع بين الأفراد. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۰۳

وتأتى «الآيـة الخامسـة» والأخيرة من الآيات محل البحث لتشير إلى مسألـة الرهبانيـة وترك الدنيا والعزلة عن الناس للعبادة والتبتّل إلى اللَّه تعالى كما كان شأن جماعـة من النصارى، فتأتى هـذه الآيةُ لتقول إنّ هذا السلوك العبادى فى الظاهر إنّما هو بدعة من قبل هؤلاء الرهبان ولم يؤمر به فى الشـريعة الإلهيـة وتقول: «وَرُهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ». ونعلم أنّ جماعـة من المسيحيين فى هـذا العصـر والزمـان سـلكوا طريق الانقطـاع عن الناس والرهبنـة والعيش فى الأديرة وعـدم الزواج، كل ذلك لغرض العبادة فى هذه الأماكن التى بنيت لهذا الغرض. وهذا الموضوع لا يختص بهـذا الزمان بل هو من البـدع التى ظهرت فى القرن الثالث الميلادى فى حكومـة (ديس يونس) الأمبراطور الرومى الـذى شدد النكير على النصارى واتباع السـيد المسـيح وأخـذ بتعذيبهم والتنكيل بهم، فلم يجد هؤلاء بدّاً للخلاص من شـرّ هذا الطاغية من اللجوء إلى الأديرة والهرب باتّجاه الجبال والمغارات والكهوف وبـذلك زرعوا بـذرة الرهبانيـة فى الديانـة المسـيحية. وعلى هـذا الأساس فإنّ مثـل هـذه الرهبانيـة تتعـارض تماماً مع روح تعليمات الأنبياء الإلهيين ولم تكن موجودة فى العصور الاولى للمسـيحية، بل كانت بـدعة ظهرت على يـد الأشـخاص الجهلاء والمنحرفيـن واسـتمرت إلى يومنـا هـذا، حيث نجـد أنّ جماعـة من المسـيحيين يـتركون حيـاتهم الاجتماعية وتأسـيس الاسـرة والزواج وسائر النشاطات الاجتماعية ويلجئون إلى الأديرة لممارسة الطقوس العبادية ويقوم الأشخاص من أهـل الخير بالانفـاق عليهم لتـأمين نفقـاتهم. أمّا ما يجرى فى هـذه الأديرة من الانحرافات والممارسات اللّاخلاقيـة والبعيـدة عن اصول الفطرة الإنسانيـة فلهـا حـديث مفصّـل ومؤلم حـتى أنّ بعض الكتّاب المسـيحيين أشـار إلى بعض هـذه الأديرة وأطلق عليهـا اسم دار الفحشاء، وأساساً فإنّ مثل هذه الحياة غير الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۴ الطبيعية للإنسان تؤثر سلبياً على روحه وفكره وتسبب له الكثير من الاهتزاز والارتباك فى قواه النفسية والعقليـة. وجاء الإسـلام وأبطل كل هذه الممارسات العباديّة فى الظاهر ودعا الناس إلى ممارسـة الحيـاة الاجتماعيـة المتزامنـة مع التقوى والإيمان. والجـدير بالـذكر أنّ الرهبانيـة فى الأصل اللغوى من مادة (رهبـة) على وزن ضربـة، بمعنى الخوف والخشـية، والمراد منها هنا الخوف من اللَّه تعالى، وكما يقول الراغب فى مفرداته أنّها الخوف المقترن بالخشـية والاضـطراب والقلق، ثمّ استعملت هذه المفردة فى خصوص سلوك جماعة من المسيحيين أو من غيرهم الذين رجّحوا الانزواء والعزلة عن النـاس طلبـاً للعبـادة والتبتّـل إلى اللَّه تعـالى، ومن جملـة البـدع السيئة للمسـيحيين فى دائرة الرهبانيـة هو تحريم الزواج بين النسـاء والرجال الـذين يسـلكون فى خط الرهبنـة وكذلك ترك جميع المسؤوليات الاجتماعية وأشـكال العلاقات بين أفراد المجتمع واختيار الصوامع والأديرة البعيـدة لهـذا الغرض. ويسـتفاد من الآيـة أعلاه أنّ الرهبانيـة على قسـمين: إيجابيـة وسـلبية، ومن المعلوم أنّ الرهبانية السـلبية هو ما ذكرنا آنفاً، وأمّا الرهبانيـة الإيجابيـة فتتضـمّن معنى الزهـد وعدم التكالب على الدنيا وترك التجمّلات المادية فى حركة الحيـاة الفرديـة والاجتماعيـة لكى لا- يقع الإنسـان فى أسـر هـذه الزخـارف الدنيويـة من المـال والمقـام ولكن ذلـك يجتمع مع الحياة الاجتماعيـة للفرد وإقامـة علاقات بنّاءة فى مسير المجالات المعنويـة والمادية، وبعبارة اخرى: إنّ الآية الشـريفة تقرّر وجود رهبانية فى الديانة المسيحية مشروعة من اللَّه تعالى وتتضمّن ما كان عليه السيد المسيح عليه السلام من الزهد والترك للدنيا، ولكن المسيحيين فى القرون التاليـة ابتـدعوا نوعاً آخر من الرهبانية لم تكن فى الديانة المسـيحية أصـلًا، وهى عبارة عن الإنزواء والعزلة عن المجتمع والحياة الاجتماعيـة وترك الزواج والانقطاع إلى العبادة فى الكهوف والأديرة. ويمكن أن يقال أنّ السـيد المسـيح لم يتزوج طيلـة حياته أيضاً، ولكن لا- ينبغى أن ننسـى الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۰۵ أنّ عمر السـيد المسـيح كان قصـيراً فلم يبلغ من العمر سوى ثلاثين سنة تقريباً، وكان فى هـذه المدّة مشـغولًا بتبليغ الرسالة الإلهية والترحال من منطقة إلى منطقة اخرى لهذا الغرض فلم يسـعه المجال للزواج. وعلى أيّـة حال فإنّ الإسـلام يرى الرهبانية بدعة ويذم النصارى على هذا السـلوك السلبى، وقد ورد فى الحديث النبوى الشـريف: «لا رهبانيـة فى الإسـلام» فى مصادر موثوقة كثيرة. أمّا الحديث عن أبعاد الرهبانية وتاريخها ونتائجها فيطول بنا ويمكن لمن أراد التفصـيل فى هذا البحث مراجعة التفسير الأمثل ذيل الآية الشريفة، وسوف نشير أيضاً فى البحوث القادمة إلى هذا الموضوع أيضاً.

المعاشرة والعزلة فى الروايات الإسلامية:

إذا نظرنا نظرة إجمالية إلى التعليمات الإسلامية والمفاهيم الدينية فى هذا الباب ومن زوايا مختلفة نجد أنّ الإسلام يؤيّد تماماً المعاشرة والإجتماع مع الناس وحتى أنّ العبادات الإسلامية التى يهدف منها توثيق الرابطة بين الإنسان وربّه قد جعلها الإسلام بشكل جماعى، فالاذان والإقامة تدعو الناس إلى الصلاة والفلاح فى عبارة «حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ حَيَّ عَلَى الفَلاحِ» والضمائر فى سورة الحمد تقرأ بشكل ضمير الجمع والحديث مع الغير، وعند الانتهاء من الصلاة نقرأ سلاماً عاماً لجميع المؤمنين والمصلّين. صلاة الجماعة وكذلك صلاة الجمعة وأعظم منهما مناسك الحج هى حقيقة عبادات ذات أبعاد اجتماعية تماماً. ونقرأ فى الروايات الإسلامية تأكيدات كثيرة على لزوم الجماعة والاجتماع وعدم الفرقة عن المؤمنين، ومن ذلك: ١- ما ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «أَيُّها النّاسُ عَلَيكُم بِالجَماعَةِ وَإِيّاكُم وَالفُرقَةَ» «١». الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۰۶ ٢- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً قال: «الجَماعَةُ رَحمَةٌ، والفُرقَةُ عَذابٌ» «١». ٣- وقال رسول اللّه فى حديث آخر: «يَدُ اللّهِ عَلَى الجَماعَةِ فَإذا إشتَدَّ (شَذَّ) الشّاذُّ مِنهُم إختَطَفَهُ الشَّيطانُ كَما يَختَطِفُ الذِّئبُ الشّاةَ الشّاذَّةَ مِنَ النَّعَم» «٢» ۴- ونفس هذا المضمون ورد بتعبير آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة حيث قال: «والزَمُوا السَّوادَ الأَعظَمَ فَإنَّ يَدَ اللّهِ مَعَ الجَماعَةِ، وَإِيّاكُم وَالفُرقَةَ فَإنَّ الشّاذَّ مَنَ النّاسِ للشَّيطَانِ، كَما أَنَّ الشّاذَّ مِنَ الغَنَمُ للذِّئبِ، ألا مَن دعا إلى هذا الشّعارِ فاقتُلُوه وَلَو كانَ تَحتَ عِمامَتِى هذِهِ» «٣». ۵- وقد ورد هذا المضمون أيضاً فى رواية اخرى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يعبّر عند مدى أهمية هذا المعنى حيث قال: «إنَّ الشَّيطَانَ ذِئبُ الإِنسانِ كَذِئبِ الغَنَمِ يَأخُذُ القاصِيَةَ وَالنّاحِيَةَ وَالشّارِدَةَ، وَإِيّاكُم وَالشِّعابِ، وَعَلَيكُم بِالعامَّةِ وَالجَماعَةِ وَالمَساجِدِ» «۴». ۶- وجاء فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً: «لا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أَنْ يَهجُرَ أَخاهُ فَوقَ ثَلاثَةَ (أَيّام)، وَالسّابِقُ بِالصُّلحِ يَدخُلُ الجَنَّةَ» «۵». ٧- وهذا المضمون ورد أيضاً بتعبير آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «لا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أَنْ يَهجُرَ أَخاهُ فَوقَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ إلّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لا يُؤمِنُ بَوائِقَهُ» «۶». وقد ورد فى بعض الأحاديث الشريفة أنّه: «أَيُّما مُسلِمَينِ تَهاجَرا ثَلاثاً لا يَصطَلِحانِ إلّا ماتا خارِجَينِ عَنِ الإِسلامِ ...» «٧». صحيح أنّ هذه الأحاديث الشريفة وردت فى مجال المخاصمة والعداوة بين المسلمين، ولكنّها على أيّة حال تدلّ على أنّ الإسلام يؤيّد دائماً الحياة الاجتماعية وتعميق الالفة الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۰۷ والمحبّة بين قلوب المسلمين، ومن الواضح أنّ حالة العزلة والانزواء لا تنسجم مع روح هذه التعاليم الدينية. ٨- وورد فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال عندما أراد أحد الأشخاص التوجّه إلى الجبل والاعتزال لغرض العبادة: «لَصَبرُ أَحَدِكُم ساعَةً عَلى ما يَكرَهُ فِى بَعضِ مَواطِنَ الإِسلامِ خَيرٌ مِنْ عِبادَتِهِ خالِياً أَربَعِينَ سَنَةً» «١». ٩- ويستفاد من الروايات المتعددة أنّ الإسلام نهى عن الرهبانية التى تتضمّن الانزواء والعزلة ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه أنّه قال: «لَيسَ فِى امَّتِى رَهبانِيَّةٌ وَلا سِيا حَةٌ» «٢». والمراد من الرهبانية فى هذا الحديث الشريف هو اختيار مكان منعزل للعبادة، وأمّا السياحة فهى الانزواء السيّار، لأنّ بعض الأشخاص كانوا فى قديم الأزمان يتركون بيوتهم ومحل معيشتهم ويسيحون فى أرض اللّه الواسعة ويتركون الدنيا ويعتبرون ذلك نوعاً من العبادة، وعلى هذا الأساس فإنّ الإسلام لا يؤيد العزلة الثابتة ولا العزلة السيّارة. ١٠- وقد ورد فى الحديث العميق المعنى عن أنس قال: توفى ابن لعثمان بن مظعون رضى الله عنه فاشتدّ حزنه عليه حتّى اتّخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال له: «يا عُثمانُ إنَّ اللّهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَم يَكتُبْ عَلَينا الرَّهبانِيَّةَ، إنَّما رَهبانِيَّةُ امَّتِى الجِهادُ فِى سَبيلِ اللّهِ». ثم إنّه صلى الله عليه و آله أخذ يواسيه على فقد ابنه وقال: «يا عُثمانَ بن مظعون للجَنَّةِ ثَمانيةِ أبواب، وللنّارِ سبعة أبواب أَفما يَسُّركَ أن تَأتِى باباً مِنها إلّاوَجدتَ ابنَكَ إلى جَنبِكَ آخذاً بِحجزَتِكَ يَشفَعُ لَكَ إلى رَبِّكَ؟ قَالَ: بلى» «٣». ١١- ومثل هذا المعنى ورد أيضاً فى نهج البلاغة بالنسبة إلى أحد أصحاب الإمام على عليه السلام عندما دخل الإمام البصرة وذهب لزيارة (علاء بن زياد الحارثى) فعندما الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۰۸ رأى بيته الواسع والمجلل تعجب كثيراً وقال: «ما كُنتَ تَصنَعُ بِسعَةِ هذِهِ الدّار فِى الدُّنيا، أما أَنتَ إليها فِى الآخِرَةِ أَحوجُ وَبلى إن شِئتَ بَلَغتَ بِها الآخِرةَ تُقرِى فِيها الضَّيفَ وَتَصِلُ فِيها الرَّحمَ وَتَطَلِعُ مِنها الحقوق مطالعها فإذاً أَنتَ بَلَغتَ بِها الآخرةَ،

فَقالَ لَهُ العلاءُ یا أَمیرَ المُؤمِنینَ أشکَوا إِلَیکَ أَخِی عاصِمَ بنَ زیاد، قالَ: وَما لَهُ؟ قال: لَبِسَ العباءةَ وَتَخَلّی الدُّنیا، فَلما جاءَ قالَ: «یا عَدِیَّ نَفسِهِ لَقَد إِستَهامَ بِکَ الخَبِثُ، أَما رَحِمتَ أَهلَکَ وَوَلَدَکَ، أَتَری أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لَکَ الطَّیباتِ وَهُوَ یَکرَهُ أَنْ تَأخُذَها؟ أَنْتَ أَهونُ عَلی اللَّهِ مِنْ ذَلِکَ، قالَ: یا أَمیرَالمُؤمِنینَ هـذا أَنتَ فِی خُشُونَـةِ مَلبَسِکَ وَجَشُوبَةِ مأکَلِکَ. قالَ: وَیحَکَ إِنِی لَستُ کأَنتَ، إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلی أَئِمَّةِ العَدلِ أن یَقدِروا أَنفُسَـهُم بِضَعَفَةِ النّاسِ کَیلا یَتَبَیَّغَ بَالفَقیرِ فَقرُهُ» «۱». ۱۲- ونقرأ فی روایـة اخری عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله فی حدیثه لعبداللَّه بن مسعود فی مسألة ذم الرهبانیة والعزلة عن المجتمع وأنّه کان فی بنی اسرائیل نوع من الرهبانیة فی ظروف خاصة واسـتثنائیة لم تکن من صـمیم الدیانة المسیحیة، قال ابن مسعود: کنت ردیف رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی حمار. فقال: یابن ام عبـد هل تـدری من أین احدثت بنو اسـرائیل الرهبانیة. فقلت: اللَّه ورسوله أعلم. فقال صـلی الله علیه و آله: «ظَهَرَتْ عَلَیهِم الجَبابِرَةٌ بَعدَ عِیسـی یَعمَلُونَ بِمَعاصِی اللَّهِ فَغَضِبَ أَهلَ الإِیمانِ فَقاتَلُوهُم فَهُزِمَ أَهلِ الإِیمانِ ثَلاثَ مَرّاتِ فَلَم یَبقَ مِنهُم إِلّاالقَلِیلَ فَقَالُوا إِنْ ظَهرنا لِهَؤلاءِ أَفنونا وَلَم یَبقَ لِلدِّینِ أَحَدٌ یَدعُو إِلَیهِ، فَتعالُوا نَتَفَرَّقُ فِی الأَرضِ إِلی أَنْ یَبعَثَ اللَّهُ النَّبِیَّ الَّذِی وَعَدنا بِهِ عِیسـی علیه السـلام یَعنُونَ مُحَمَّداً صلی الله علیه و آله فَتَفَرَّقُوا فِی غِیرانِ الجِبالِ وَأَحدَثُوا رَهبانِیَّةً»». وعلی أیة حال لم تکن الرهبانیة من صمیم الدیانة المسیحیة، بل کانت سلوکاً خاصاً ظهر فی ظروف خاصة علی بعض أنصار السید المسیح علیه السلام حفاظاً علی أنفسهم.

الأحادیث المتعارضة:

وفی مقابل ما ذکرنا من الأحادیث الشـریفة هنا روایات وردت فی المصادر الحدیثیـة تشـیر إلی أنّ الإسـلام یؤیّد حالة الانزواء والعزلة وتقع علی الضـد ممّا ذکرناه من الأحادیث السابقة، ومن ذلک: ۱- ما ورد عن الرسول الأعظم صـلی الله علیه و آله قوله: «العُزلَةُ عِبادَةٌ» «۱». ۲- مـا ورد عن أمیرالمـؤمنین علیه السـلام: «مَنْ إِنفَرَدَ عَنِ النَّاسِ أَنَسَ بِـاللَّهِ سُـبحانِهِ» «۲». ۳- مـا ورد أیضـاً عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام: «فِی اعتِزالِ أَبناءِ الدُّنیا جَماعُ الصَّلاحِ» «۳». ۴- وعن الإمـام علیه السـلام نفسه أیضاً قال: «فِی الإنفِرادِ لِعبادَةِ اللَّهِ کُنُوزُ الأَرباحِ» «۴». ۵- ونقرأ فی حدیث عن الإمام موسـی الکاظم علیه السلام أنّه قال لهشام: «الصَّبرُ عَلَی الوَحدَةِ عَلامَةُ عَلی قُوَّةِ العَقلِ فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ إِعتَزَلَ عَنِ الـدُّنیا وَالرَّاغِبِینَ فَیها وَرَغِبَ فِی ما عِندَ اللَّهِ» «۵». وهـذه الأحادیث تدلّ علی أنّ الانزواء والابتعاد عن الناس من علامات العقل والمعرفة وسـبب لحضور القلب للعبادة والتوصل إلی کثیر من المراتب المعنویة والکمالات الأخلاقیة. ۶- وورد فی حدیث آخر عن الإمـام الصـادق علیه السـلام أنّه قال: «إِنْ قَـدرْتَ أَنْ لاتَخرُجَ مِنْ بَیتِکَ فَافعَل، فَإِنَّ عَلَیکَ فِی خُرُوجِکَ أَلّا تَغتابَ وَلا تَکـذِبَ وَلا تَحسُـدَ وَلا تُرائِیَ وَلا تَتَصَنَّعَ وَلا تُدهِنَ» «۶». ۷- قـال أمیر المؤمنین علیه السـلام: «سَـلامَةُ الإِنسـانِ فِی إِعتِزالِ النَّاسِ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۱۰ ۸- نختم هـذا البحث بحدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام- وإن کانت الأحادیث فی هذا الباب کثیرة- قـال: «مَنْ إِعتَزَلَ النَّاسَ سَـلِمَ مِنْ شَـرِّهِم» «۱». وقـد یسـتدل أتباع العزلـة والانزواء من المتصوّفـة والمرتاضـین ومؤیدوهم ببعض الآیات القرآنیة لتبریر مسـلکهم الانعزالی، ومن ذلک ما ورد فی الآیة ۱۶ من سوره الکهف حیث تقول: «وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا یَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَی الْکَهْفِ یَنشُـرْ لَکُمْ رَبُّکُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَیُهَیِّیءْ لَکُمْ مِنْ أَمْرِکُمْ مِرفَقاً». وکـذلک فی ما ورد فی سورة مریم علیها السـلام الآیة ۴۸ و ۴۹ من حـدیث ابراهیم علیه السـلام: «وَأَعْـتَزِلُکُمْ وَمَـا تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُـو رَبِّی عَسَـی أَلَّا أَکُونَ بِـدُعَاءِ رَبِّی شَـقِیّاً* فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَـا یَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْـحَاقَ وَیَعْقُوبَ وَکُلّاً جَعَلْنَا نَبِیّاً». فکلا هاتین الآیتین تقرّران أنّ العزلـة عن الناس والابتعاد عن المجتمع یتسـبب فی القرب من اللَّه تعـالی ونیل المواهب الإلهیـة ونزول البرکات والرحمـة من اللَّه تعالی علی هـذا الإنسان، وهـذا یشیر إلی أنّ العزلة لیست أمراً مذموماً وحسب، بل مطلوبة أیضاً فی دائرة المفاهیم القرآنیة.

طریق الجمع بین الآیات والروایات:

ولکن بالنظر الـدقیق إلی متون الآیات والروایات الشـریفة یتبیّن جیـداً أنّ مسألـة العزلة والانزواء عن الناس تکون بصورة إسـتثنائیة وفی

شرائط اجتماعیـة خاصـة، ومن المعلوم بالنسبة إلى أصـحاب الكهف أنّهم كـانوا يعيشون فى أجواء اجتماعيـة كـافرة وفاسـدة وكـانوا يعيشون الخوف من الحكومـة الغاشـمة فى ذلـك الزمان، فلم يكن لـديهم طريق سوى الهروب والابتعاد عن ديارهم ومـدنهم واللّجوء إلى الكهف فى الجبال البعيدة. الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۱۱ وبالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام أيضاً نجد هذه الحالة الاستثنائية، فقـد رأينـا أنّ إبراهيم عليه السـلام سـعى بجديّـة فى خط التصـدّى لقوى الانحراف والباطل وتبليغ الرسالـة الإلهيـة بين الوثنيين، ولكن عنـدما رأى عـدم التأثير وعاش حالـة الخطر على نفسه فعنـد ذلك أمر بالهجرة وإعتزال هؤلاء الناس. ومن البديهى أنّ الإنسان فى مثل هذه الظروف الحساسة ليس أمامه سوى الهجرة والاعتزال، ولكن هذا المعنى لا يكون أصـلًا أساسـياً فى التعاليم الدينية بل هو الاستثناء يتعلّق بظروف خاصة. ويمكننا الاستشـهاد على هذا الجمع بين الروايات بالقرائن الكثيرة، فعندما يختار الإمام الصادق عليه السلام العزلة عن الناس يـذكر الدليل على ذلك وأنّ فساد الزمان وتغيّر الاخوان وعدم إمكان التعاون مع الناس هو السـبب فى اختيار هذا السـلوك الاسـتثنائى. وقرأنا فى الحـديث الشـريف عن أميرالمؤمنين أنّ سـلامة الدين تكمن فى العزلة، فذلك يتعلّق بما إذا كانت المعاشـرة مع النـاس تهـدّد إيمـان الفرد وتعرّض دينه وعلاـقته بـاللَّه تعـالى إلى الاـهتزاز والإرتبـاك والخطر. وأحياناً يعيش بعض الأشـخاص ظروفاً خاصـة بهم حيث نجـدهم يعيشون ضـعف الإيمان أمام مظاهر الفساد، فلـذلك قـد يوحى هؤلاء الأشـخاص بأن يعتزلوا المجتمع خوفاً عليهم من الابتلاـء بمظـاهر الفسـاد أيضـاً كمـا هو المريض الـذى يوصـيه الطبيب بعـدم الاختلاـط مع الناس أو يوصـى الطبيب الأفراد المسنّين بعـدم الخروج الى الشارع خوفاً من التلّوث والتسـمم، ومعلوم أنّ مثل هـذه التوصـيات لا تشـكل قاعـدة عامّـة وشاملـة لجميع الحالات والأفراد بل تختصّ بحالات اسـتثنائية للمرضـى والمسنّين والذين يعيشون الابتلاء بضعف القلب وخلل الجهاز التنفسى. وعليه فلاـ يمكن تعميم هـذه الحالاـت الاسـتثنائية إلى كـل زمان ومكان بحيث يسـتكشف منها تعليمات كليّـة فى دائرة المفاهيم الإسـلامية، وعندما نرى أنّ الإمام الصادق يوصى أحد أصحابه باعتزال الناس وأن لا يخرج من البيت حذراً من الوقوع فى الغيبة والكذب الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۱۲ والحسـد والرياء والمداهنـة وأمثال ذلك، فهـذا يـدلّ على أنّ الظروف الاجتماعيـة فى ذلك الوقت كانت على غيرما يرام، أو أنّ هذا الشـخص يعيش ضـعف الإيمان والتأثر بالنوازع النفسـية والذاتية. ومن مجموع ما تقدّم آنفاً يمكننا الخروج بالنتيجـة التاليـة: إنّ الإنسـان بطبيعته كائن اجتماعى يأنس بالآخرين ولكن بالرغم من ذلك فإنّه يحتاج فى كل يوم إلى ساعـة أو عـدّة ساعات للخلوة بربّه والانس بمناجاته وخاصـة فى الساعات من الليل ليكرّس هذا الوقت للعبادة والمناجاة والانفتاح على اللَّه تعالى كما هو حال السالكين إلى اللَّه والعرفاء الإسلاميين الذين يحرصون على الخلوة باللَّه تعالى والإرتباط معه من موقع الانس والعشق والتوكّل بحيث لا يرون غيره ولا يأنسون بغيره. وأحياناً يتّخـذ بعض الأشـخاص سـلوك الابتعاد عن الناس من موقع الاعتراض على فساد الحال، ويكون ذلك أحد الطرق المشـروعة للنهى عن المنكر والتصدّى للمفاسد الاجتماعية حيث يتسبب هذا السلوك السلبى تجاه الناس أن يخلق فيهم صدمـة توقظهم من غفلتهم كمـا قـد يشاهـد مثل هـذه السـلوكيات من بعض العلماء الـذين تركوا مجتمعهم وهجروا الناس اعتراضاً على بعض ما رأوه من انحرافات فى سـلوك الناس، ولم تمض فترة حتى أحسّ الناس بحالهم والنقص الـذى خلّفه رحيل هذا العالم فانتبهوا من سـباتهم وتوجّهوا إلى ذلك العالم وطلبوا منه الرجوع إليهم شريطة أن يصلحوا أعمالهم ويسلكوا جادّة الصواب، كل هذه الاستثناءات من القاعدة الأساسية تكاد تكون مقبولة ومعقولة فى مقابل الأصل العام وهو ضرورة الاجتماع والمعاشرة مع الناس.

أسباب ونتائج الاجتماع والانزواء:

إنّ الدافع الأصلى فى سلوك الإنسان فى حركـة الحياة من موقع الاجتماع والمعاشرة مع الآخرين ينبع من طبع الإنسان، ولذلك قيل أنّ (الإنسـان مـدنى بـالطبع) كمـا يقول علماء الاجتماع، وعليه فإنّ العزلـة لا تنسـجم مع روح الإنسان المنفتحـة على الآخرين، وكما يقول الاخلاق فى القرآن، ج٣، ص: ۴۱۳ علماء الاجتماع فى مطالعاتهم وتجاربهم عن الأشـخاص التاركين للـدنيا والمجتمع أنّ حالة العزلة تخلف آثاراً سـلبية على النفس البشرية وتؤدّى بالإنسان إلى أن يعيش اليأس والكآبة المزمنة والتوهّمات الضبابية وقد يورثه هذا الحال

الكثير من الاختلالات العقلية أيضاً. ولهذا السبب فإنّ أحد أشدّ أنواع التعذيب للإنسان هو السجن الانفرادى الذى لا ينبغى استمراره مدّة طويلة بأيّة صورة، لأنّ ذلك يؤدّى به حتماً إلى حالة نفسية من الإرتباك والمرض النفسى إلّاأن يكون له روح عرفانية قويّة فيأنس باللّه تعالى وينقطع عن كل شىء إلّا بالعلاقة مع ربّه وخالقه. وطبعاً فإنّ حياة الإنسان الاجتماعية لا تنبع من طبيعة الإنسان فقط، بل إنّ عقل الإنسان أيضاً يقوده إلى الحياة المشتركة من حيث إنّ الإنسان لا يمكنه أن يسير فى طريق التكامل والرقى والحضارة إلّابالحياة الاجتماعية والتفاعل المشترك مع الآخرين والاستفادة من علومهم البشرية فى طريق الرقى والتقدّم والحضارة الكبيرة والوصول إلى قمة الترقى والتكامل. وبشكل عام يمكن القول أنّ الانفراد والعزلة والإنزواء عن المجتمع بإمكانه أن يكون مصدراً للكثير من المفاسد والانحرافات فى دائرة السلوك البشرى ومن ذلك: ۱- إنّ الكثير من الانحرافات الفكريّة والذوقية وسوء الأخلاق تنبع من الانزواء والعزلة، ولهذا فإنّ الأفراد الذين يعيشون العزلة غالباً نجدهم يعيشون سوء الأخلاق واللّجاجة والغرور (وطبعاً فإنّ هذا الأصل له استثناءات أيضاً كما هو حال الاصول الاخرى). ۲- ومن الآثار السلبية الاخرى للعزلة والانزواء هو حالة العجب التى تسيطر على الإنسان، لأنّ الإنسان يعيش حب الذات غالباً فيحبّ متعلّقاته بشدّة، وكلما انخفضت علاقته مع الآخرين ولم يشاهد كمالاتهم وفضائلهم وبالتالى عُدم الميزان الذى يوزن به كمالاته الذاتية فإنّ ذلك يتسبب فى أن يرى نفسه أعلى من الآخرين وأفضل منهم. الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱۴ ولهذا السبب نلاحظ كثيراً من الأشخاص الذين يعيشون العزلة والانفراد، أنّهم يدّعون إدعاءات كبيرة عن أنفسهم أكبر من حجمهم الحقيقى وأحياناً تكون إدعاءاتهم عجيبة تحكى بوضوح أن هذا الإنسان غارق فى الوهم والخيال ولا يعيش الواقع ومتطلباته. ولكن عندما يعيش الإنسان الاختلاط مع الناس ويعاشر أفراد المجتمع فسوف يرى غالباً أشخاصاً أفضل منه وأعلم وأطهر، وعلى الأقل يرى من هو مثله فى الفضل والعلم، ولهذا فسوف يبتعد عن عالم الخيال ويتجنب الإدعاءات الجوفاء والشخصية الطوباوية التى لا تلامس الواقع. ۳- وأحد الآثار السلبية الاخرى للعزلة والانزواءسوء الظن بالناس حتى بأقرب المقربين منه، والعجيب أنّ سوء الظن يورث بدوره العزلة عن الناس كذلك، فكل منهما علّة ومعلول للآخر ويتسبب فى تعميق سوء الظن فى جميع الناس ويتصور أنّهم حقودين وحسودين وأنانيين، ولكن عندما يدخل إلى المجتمع ويعاشر الناس ويجد فيهم الأصدقاء الجيدين، فسوف يدرك سريعاً أنّ جميع تلك التصوّرات السلبية عن الناس لا حقيقة لها على مستوى الواقع والعمل. ۴- الغفلة عن عيوب الذات، فالإنسان وبسبب حبّه لذاته لا يرى عيوبه عادة، بل يرى عيوبه أحياناً امتيازات وحسنات وعناصر قوة فى شخصيته، الحقيقة أنّ الإنسان يجب أن يرى عيوبه فى مرآة الآخرين ويجلس لينظر إلى حكمهم عليه ويستمع إلى انتقاداتهم وخاصة فيما لو كانوا من المجاهدين، بل قد يرى الإنسان عيوبه ونقاط ضعفه فى مرآة الحاقدين والمعاندين بصورة أفضل، لأنّهم يتحرّكون جاهدين للعثور على نقاط الضعف فى شخصية الطرف الآخر وتفاصيل عيوبه الجزئية، وبهذا يحرم الشخص المنزوى من هذه المزايا التى تكشف عن وجهه الحقيقى. ۵- الابتعاد عن تجارب الآخرين والحرمان من الاستفادة من أفكارهم وعقولهم من شأنه تحديد فكر الإنسان وعقله واقتصار حركة الفكر على امور جزئية وضيقة، ولكن إذا الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴۱۵ تعامل مع الآخرين وانفتح على الناس ولا سيما أصحاب النظر وأرباب الفكر فسوف ينفتح أمامه بحر من العلم والتجربة وسيجد ضالته فى ذلك ويكون بإمكانه حل مشكلاته بمعونة هذه العلوم والتجارب. إنّ أحد أسرار النهضة الحضارية العلمية الحديثة التى يشهدها العالم المعاصر هو تشكيل المؤتمرات والمجلس والهيئات العلمية بحيث يجتمع فيها أصحاب الفكر والنظر من مختلف مناطق المعمورة فى كل عام، وأحياناً فى كل شهر، ويتباحثون فى مشاكلهم العلمية ومنتوجاتهم الفكرية فى هذه المؤتمرات ويتم بذلك انتقال العلوم وتبادل المعارف بين البشر، وأحياناً تقوم بهذه المهمّة بعض الإذاعات وقنوات التلفزيون أيضاً. وبكلمة واحدة: إنّ بركات وآثار الاجتماع الإيجابية ومعطياته الكثيرة أكثر من أن تحصى فى هذا المختصر، وما ذكر آنفاً لا يمثل سوى جانباً منها، وهكذا بالنسبة لاضرار العزلة والانزواء والآثار السلبية المترتبة على الإبتعاد عن الناس والمجتمع. إلهنا: لك الشكر والثناء أن وفقتنا لبيان اصول المسائل الأخلاقية فى دائرة المفاهيم القرآنية- لأول مرّة- وبيان العوامل والأسباب والنتائج والآثار للسلوكيات الأخلاقية فى بعدها الإيجابى والسلبى، وطريق تقوية الفضائل الأخلاقية

وکیفیهٔ التصدّی للرذائل الأخلاقیهٔ بمقدار وسعنا وافق تفکیرنا. ربّنا: إننا نعلم أنّ بیان الفضائل والرذائل الأخلاقیهٔ یحملنا مسؤولیهٔ ثقیلهٔ فی دائرهٔ العمل بها وتجسیدها فی سلوکیاتنا وأنفسنا أولًا، فارزقنا القدرهٔ والإرادهٔ للعمل بهذه المسؤولیهٔ الخطیرهٔ وأعنا فی هذا الطریق الصعب. معبودنا: أنت تعلم أن النفس الامارهٔ متمردهٔ وعاصیهٔ ولولا ـ نصرک ومعونتک فیمجال تهذیب النفس فإننا عاجزون عن التصدّی لها والوقوف أمام نوازعها وشهواتها، فنسألک بالخاصهٔ من أولیائک وبالصالحین من عبادک أن لا تترکنا فی مقابل عناصر الشر لوحدنا. الاخلاق فی القرآن، ج۳، ص: ۴۱۶ ربّنا: نحن نعیش فی زمان رحلت عنه القیم الإنسانیهٔ والفضائل الأخلاقیهٔ وسادت فی مجتمعاتنا البشریهٔ سیل الرذائل واندثرت فیه سنن الأنبیاء ومعالم سیرهٔ الأولیاء فامتلأت الأرض بالظلم والجور، فانجز لنا ما وعدتنا من ظهور منقذ البشریهٔ ومصلح العالم بقیهٔ اللّه الأعظم الإمام المهدی علیه السلام واجعلنا من أنصاره وأعوانه والمجاهدین بین یدیه فی الصف الأول. (آمین یا ربّ العالمین) نهایهٔ الجزء الثالث لکتاب: الأخلاق فی القرآن آخر ذی القعدهٔ ۱۴۲۱ ه ق

تعریف المرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبهٔ/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامهٔ فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائمیّهٔ "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیهٔ الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ الله – کان أحداً من جَهابذهٔ هذه المدینهٔ، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرهٔ الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحهٔ صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَهِٔ ۱۳۴۰ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۳۸۰ الهجریّهٔ القمریّهٔ)، مؤسَّسهً و طریقهً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز "القائمیّهٔ "للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَهِٔ ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریّهٔ القمریّهٔ) تحتَ عنایهٔ سماحهٔ آیهٔ الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَهِٔ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّهٔ و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّهٔ، ثقافیّهٔ و علمیّهٔ... الأهداف: الدّفاع عن ساحهٔ الشیعهٔ و تبسیط ثَقافهٔ الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّهٔ، تخلیف المطالب النّافعهٔ – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلهٔ أو الرّدیئهٔ – فی المحامیل (=الهواتف المنقولهٔ) و الحواسیب (=الأجهزهٔ الکمبیوتریّهٔ)، تمهید أرضیّهٍ واسعهٍ جامعهٍ ثَقافیّهٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت – علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعهٔ ثقافهٔ القراءهٔ و إغناء أوقات فراغهٔ هُواهِٔ برامِج العلوم الإسلامیّهٔ، إنالهٔ المنابع اللازمهٔ لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرهٔ فی الجامعهٔ، و... - مِنها العَدالهٔ الاجتماعیّهٔ: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزهٔ الحدیثهٔ متصاعدهً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافهِٔ الاسلامیّهٔ و الإیرانیّهٔ – فی أنحاء العالَم - مِن جهَهٍٔ اُخرَی. - من الأنشطهٔ الواسعهٔ للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبهٔ، نشرهٔ شهریّهٔ، مع إقامهٔ مسابقات القِراءهٔ ب) إنتاجُ مئات أجهزهٍٔ تحقیقیّهٔ و مکتبیهٔ، قابلهٔ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّهِٔ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکهٔ و... الأماکن الدینیّهٔ، السیاحیّهٔ و... د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّهٔ "www.Ghaemiyeh.com و عدّهٔ مَواقِعَ اُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّهٔ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّهٔ و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابهٔ الأسئلهٔ الشرعیّهٔ، الاخلاقیّهٔ و الاعتقادیّهٔ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرهٔ SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّهٔ و اعتباریّهٔ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّهٔ، الجوامع، الأماکن الدینیّهٔ کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامهٔ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسهٔ "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسهٔ ی) إقامهٔ دورات تعلیمیّهٔ عمومیّهٔ و دورات تربیهٔ

المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةَ المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹